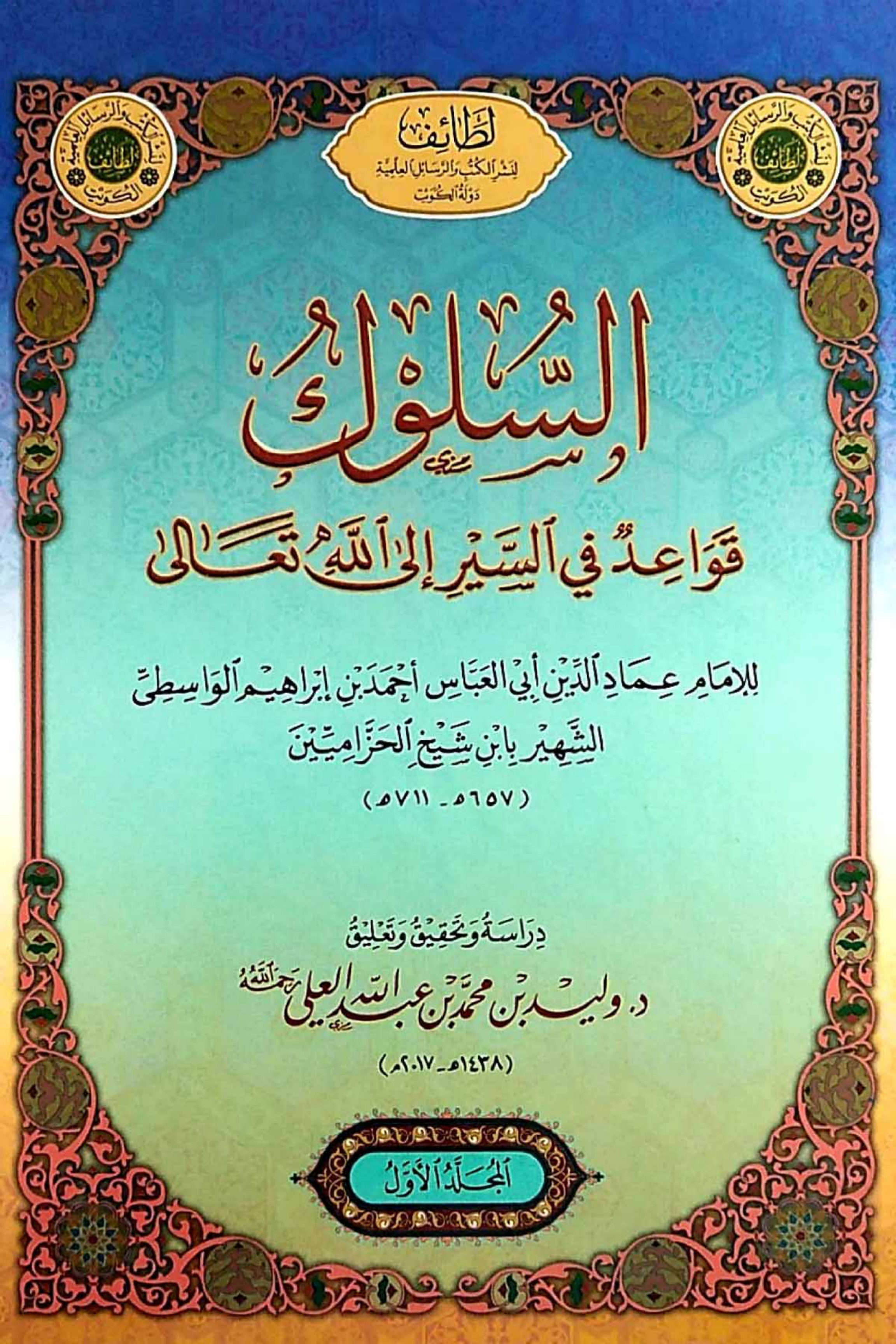

لطائف
لنشر الكتب والرسائل العلمية
دولة الكويت
السلوك
قواعد في السير إلى الله تعالى
للإمام عماد الدين أبي العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي
الشهير بابن شيخ الحزاميين
(٦٥٧هـ - ٧١١هـ)
دراسة وتحقيق وتعليق
د. وليد بن محمد بن عبد الله العلي رحمه الله
(١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م)
المجلد الأول

السُّلُوكُ

قَوَاعِدُ فِي السَّيْرِ إِلَى اللهِ تَعَالَى



الطبعة الأولى

(١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م)

لطائف

لنشر الكتب والرسائل العلمية

لصاحبها د. وليد بن عبد الله بن عبد العزيز المنيس

دولة الكويت - الشامية - صندوق بريد ١٢٢٥٧ الرمز البريدي ٧١٥٦٣

www.waqf-lataef.com

lataefq8@gmail.com





* الفرع الرئيسي : حولي - شارع المثنى - مجمع البدري
ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦ فاكس: ٢٢٦١٢٠٠٤
* فرع المصاحف : حولي - مجمع البدري ت ٢٢٦١٥٠٤٦
* فرع الفحيحيل : البرج الأخضر - شارع الدبوس ت ٢٥٤٥٦٠٦٩ - ٩٥٥٥٨٦٠٧
* فرع الجهراء : الناصر مول - ت ٩٥٥٥٨٦٠٨
* فرع الرياض : المملكة العربية السعودية - التراث الذهبي: ٠٠٩٦٦ ٥٥٧٧٦٥١٣٨
ص. ب: ١٠٧٥ - الرمز البريدي ٣٢٠١١ الكويت
الساخن: ت: ٠٠٩٦٥ ٩٤٤٠٥٥٥٩

E-mail: z.zahby74@yahoo.com   imamzahby







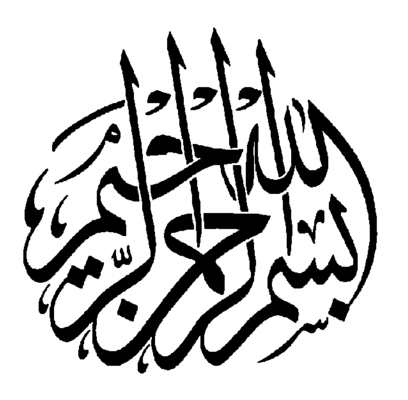
السُّلُوكُ

قَوَاعِدُ فِي السَّيْرِ إِلَى اللهِ تَعَالَى

لِلإِمَامِ عِمَادِ الدِّينِ أَبِي العَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الوَاسِطِيِّ
الشَّهِيرِ بِابْنِ شَيْخِ الحَزَّامِيِّينَ
(٦٥٧هـ - ٧١١هـ)

دِرَاسَةٌ وَتَحْقِيقٌ وَتَعْلِيقٌ
د. وَلِيدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ العَلِيِّ رَحِمَهُ اللهُ
(١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م)

المُجَلَّدُ الأَوَّلُ


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا؛ ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أمّا بعد:

فإن النفس البشرية في أصل خلقتها (جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية)[١]

وقد اجتهد علماء الأمة الربَّانيون - الذين هُدُوا للحق؛ وعملوا بما فيه؛ وعلَّموه[٢] - على تصفية نفوس العباد وتنقيتها بالنصوص الشرعية؛ وتهذيبها بالآداب المرعية، حتى إذا هُذِّبت وذهب درنَها: استعدت للسفر إلى ربها

(١) "زاد المعاد في هدي خير العباد" لابن قيم الجوزية (٣/ ١٨).

(٢) قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في "زاد المعاد في هدي خير العباد" (٣/ ١٨): (إن السلف مجمعون على أن العالِم لا يستحق أن يسمى ربانيًا حتى يعرف الحق؛ ويعمل به؛ ويعلمه، فمن عَلِم وعمل وعَلَّم: فذاك يُدعى عظيمًا في ملكوت السماوات).

ومولاها الحق؛ تحث السير وتسرع الخطى، تطوي المراحل في الإقبال عليه؛ وتقطع المفاوز في الوصول إليه، حتى إذا ما وصلت إلى جنابه: وضعت خدَّها على عتبة بابه؛ وتوسَّدت ثرى أعتابه.

فهذا سَفر النفوس المهذبة النقية إلى الله تعالى، (فيا له من سفر ما أبركه وأروحه؛ وأعظم ثمرته وربحه؛ وأجل منفعته وأحسن عاقبته، سفر هو حياة الأرواح؛ ومفتاح السعادة؛ وغنيمة العقول والألباب)(١).

وإن من بين هؤلاء العلماء الربانيين - الذين حرصوا على بيان الطريقة المؤدية إلى طهارة النفس البشرية وتزكيتها؛ وإصلاح الفطرة الإنسانية وتنقيتها -: الإمام ابن شيخ الحزَّاميين رحمه الله؛ الذي فتح للسالكين مدخلًا يلجون منه إلى محبة الله عز وجل ومعرفته، وعبَّد لهم الطريق الموصلة إليه من خلال القواعد التي تبتنى عليها هذه المحبة والمعرفة.

ولما علم رحمه الله أن (المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)(٢): اجتهد في جمع هذا الكتاب وترتيبه؛ وتقسيمه وتبويبه، فصار للمحزون سلوة؛ وللمشتاق جلوة، حرَّك به القلوب؛ إلى أجل مطلوب، وحَدَى النفوس؛ إلى عبادة الملك القدوس، لا يسأم حديثَه الجليسُ؛ ولا يمل مسامرتَه الأنيسُ.

فجزى الله الإمام ابن شيخ الحزَّاميين خير الجزاء على ما أودعه في مدخله من بدائع الفوائد؛ التي سبكها بحسن تقرير ورصانة تحرير، وعلى فرائد القلائد؛ التي حبكها ببراعة التعبير، حتى إذا ما تجلَّت فوائده وقلائده (للقلوب - رافلة في حللها -: فإنها تسبي القلوب وتأخذ بمَجامعها)(٣)

(١) "مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة" لابن قيم الجوزية (٢/ ٣٠).
(٢) "النصيحة" لابن شيخ الحزاميين (ص ١٥).
(٣) "بدائع الفوائد" لابن قيم الجوزية (١/ ١٢٧).

وجزى الله خيرًا قلوبًا كانت لنصحه واعية؛ فاستضاءت (بأنوار العِرفان، فصارت كالكوكب الذي يتلألأ بتوفيق المنان، عَزَفت عن الدنيا وشهواتها؛ واشتاقت إلى قُرْبِ الرحيم الرحمن، لَهَجَت بأذكاره وحنَّت إليه وإلى جواره؛ وتمسَّكت بتقواه، واكتحلت بأنواره، فصار لها بعد الإيقان إيقان، ومع الإيمان إيمان، يتزايد أبدًا إلى سُكنى الجِنان)[1].

وقد قمت - بفضل الله ومِنَّته - بتحقيق هذا الكتاب والتعليق عليه؛ مُقدِّمًا بين يَدَيْ ذلك: دراسةً عن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ؛ وعن كتابه؛ رجاء أن ينفع الله بهذا الكتاب مؤلفه ومحققه ومن وقف من القراء عليه، ورام فتح باب مدخله وقصد الولوج إليه.

والله يعلم ما قصدت؛ وما بتحقيق الكتاب والتعليق عليه أردت، فهو سبحانه عند لسان كل عبد وقلبه؛ وهو المطلع على نيته وكسبه، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

والمرجو من الإخوة القراء ممن وقف على هذا الكتاب (أن يصلح ببنانه ما عثر عليه فيه من زلل القلم الفاتر؛ وخلل الخاطر الضعيف الخائر)[2]، وأن لا يألو جهدًا في بذل النصيحة بالمعروف؛ وأن يحفَّها بالرفق ويتوِّجها بالنقد القويم المألوف، مستحضرًا أن الكمال ليس إلَّا لكتاب الله العظيم؛ والعصمة ليست إلَّا لرسوله الكريم ﷺ، وأن الله تبارك وتعالى أبى (إلَّا أن يتفرد بالكمال.

---

(١) "مفتاح طريق الأولياء" لابن شيخ الحزاميين (ص ٢٩).
(٢) "الكليات" للكفوي (ص ١٨).

كما قيل:

والنَّقْصُ فِي أَصْلِ الطَّبِيعَةِ كَامِنٌ ... فَبَنُو الطَّبِيعَةِ نَقْصُهُمْ لَا يُجْحَدُ(١)

والله سبحانه المسؤول أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، مُدْنِيًا لمؤلفه ومحققه وقارئه من جنات النعيم، وأن يجعله حجة لهم لا عليهم، وأن ينفع به من انتهى إليهم.

ومن الله الاستمداد، وعليه التوكل وإليه الاستناد، فإنه لا يخيب من توكل عليه، ولا يضيع من لاذ به؛ وفوَّض أمره إليه، إنه سبحانه خير مسؤول؛ وأكرم مأمول، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قاله بفمه وزبَره بقلمه:

أفقر الورى إلى غنى ربه العلي

وليد بن محمد بن عبد الله العلي

غفر الله له ولوالديه ولزوجه ولذريَّته

ولسائر المسلمين

جامعة الكويت

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

قسم العقيدة والدعوة

يوم السبت ١١/ ٤/ ١٤٢٣ هـ

الموافق ٢٢/ ٦/ ٢٠٠٢ م

---

(١) "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" لابن قيم الجوزية (٣/ ٥٤٥).

التّعريف بالمؤلّف(١)

اسمه ونسبه:

هو الشيخ الإمام، الزاهد العابد، العارف السالك، القدوة الناسك، العالم الرباني، بقية السلف: عماد الدين، أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن مسعود بن عمر الحزَّامي، الواسطي، البغدادي، ثم الدمشقي، الشهير بـ: ابن شيخ الحزَّاميين.

---

(١) انظر التعريف في المصادر الآتية - مرتبة وفق التسلسل الزمني لمؤلفيها -: "العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية" لابن عبد الهادي (ص ٢٩٠)، "تذكرة الحفاظ" للذهبي (٤/ ١٤٩٥)، "ذيل العبر" له (٤/ ٢٩)، "معجم الشيوخ" له (١/ ٢٩ - ٣٠) ترجمة ٥، "المشتبه في أسماء الرجال وأنسابهم" له (ص ٢٢٤)، "أعيان العصر وأعوان النصر" للصفدي (١/ ١٥٣ - ١٥٤) ترجمة ٦٦، "الوافي بالوفَيات" له (٦/ ٢٢١) ترجمة ٢٦٨٩، "مرآة الجَنان وعبرة اليقظان" لليافعي (٤/ ٢٥٠)، "الذيل على طبقات الحنابلة" لابن رجب (٢/ ٣٥٩ - ٣٦٠)، "توضيح المشتبه" لابن ناصر الدين الدمشقي (٣/ ١٦٥ - ١٦٧)، "الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر" له (ص ١٢٩ - ١٣١) ترجمة ٣٢، "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" لابن حجر (١/ ٩١) ترجمة ٢٤٠، "المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي" لابن تغري بردي (١/ ٢١٠ - ٢١١) ترجمة ١٠٧، "الدليل الشافي على المنهل الصافي" له (١/ ٣٥) ترجمة ١٠٦، "المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد" لابن مفلح (١/ ٧٣) ترجمة ٥، "المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد" للعليمي (٤/ ٣٨٤ - ٣٨٥) ترجمة ١١٩٣، "الدر المنضد في ذكر أصحاب الإمام أحمد" له (٢/ ٤٦١)، "القلائد الجوهرية" لابن طولون (٢/ ٤٧٩ - ٤٨٠)، "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" لابن العماد (٦/ ٢٤ - ٢٥)، "هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين" للبغدادي (١/ ١٠٣ - ١٠٤)، "رفع النقاب عن تراجم الأصحاب" لابن ضويان (ص ٢٩٣ - ٢٩٤)، =

والحزَّاميون: نسبة إلى الحزَّامين - بفتح الحاء والزاي؛ وتشديدها[١] -: محلَّة في شرقيِّ واسط[٢]؛ واسعة كبيرة.

كما يطلق الحزَّامون على: الذين يحزمون الكاغد[٣] [٤]؛ أو يحزمون الأمتعة[٥]؛ أي: يشدُّونها، والله أعلم.

ولادته ونشأته:

وقد وُلد رحمه الله في حادي عشر - أو ثاني عشر - شهر ذي الحجة الحرام سنة سبع وخمسين وستمائة بشرقيِّ واسط.

وكان والده الشيخُ أبو إسحاق شيخَ الطائفة الأحمدية[٦]، ونشأ الشيخ

= "الأعلام" للزركلي (١/ ٨٦ - ٨٧)، "معجم المؤلفين" لكحالة (١/ ٨٩)، "تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة" للبردي (٢/ ٩٤٧ - ٩٤٩)، "معجم مصنفات الحنابلة" للأستاذ الدكتور عبد الله الطريقي (٣/ ٣١١ - ٣١٥)، "علماء الحنابلة" لبكر أبو زيد (ص ٢٢٦) ترجمة ١٧٨٨

(١) انظر في ضبطها: "الأنساب" للسمعاني (٢/ ٢١٣)، "المشتبه في أسماء الرجال وأنسابهم" لابن ناصر الدين (ص ٢٢٤)، "القاموس المحيط" للفيروزآبادي (ص ١٤١٣) (مادة حزم).

(٢) واسط: اسم يقع على عدة مواضع، وأعظمها وأشهرها: مدينة واسط التي عمَّرها الحجاج في سنة ثلاث وثمانين؛ وهي المشار إليها، وسميت بذلك: لتوسطها بين البصرة والكوفة. انظر: "معجم ما استعجم" للبكري (٤/ ١٣٦٣)، "معجم البلدان" للحموي (٤/ ٣٤٧)، "الروض المعطار في خبر الأقطار" للحميري (ص ٥٩٩).

(٣) الكاغد: هو القرطاس - فارسي مُعرَّب -. كذا في "تاج العروس من جواهر القاموس" للزبيدي (٩/ ١١٠) (مادة كغد).

(٤) انظر: "الأنساب" للسمعاني (٢/ ٢١٣)، "اللباب في تهذيب الأنساب" لابن الأثير (١/ ٣٦٢)، "تاج العروس من جواهر القاموس" للزبيدي (٣١/ ٤٨٥).

(٥) انظر: "معجم البلدان" للحموي (٢/ ٢٥٢).

(٦) الطائفة الأحمدية: هي إحدى طوائف الصوفية وطرقها، وتسمى بـ: الرفاعية، والبطائحية، وتنتسب إلى: أبي العباس أحمد بن علي بن رفاعة الحسيني، المولود في قرية حسن - من أعمال واسط - بالعراق في أول محرم سنة خمسمائة؛ والمتوفى في =

عماد الدين بينهم.

وكان رَحِمَهُ اللهُ: (يرتزق من النسخ، وخطه حسنٌ جدًّا)[١]، (ولا يكاد يقبل من أحد شيئًا إلَّا في النادر)[٢]، وكان مع ذلك (لا يكتب إلَّا مقدار ما يدفع به الضرورة)[٣].

قال الأديب المؤرخ الصفدي رَحِمَهُ اللهُ: (وكتب المنسوب[٤] حتى أخمل[٥]

= قرية أم عبيدة - بين واسط والبصرة - في يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وقد غلب اسم الرفاعية على هذه الطائفة؛ نسبة إلى أحد أجداد المنتسبين إليه؛ حتى لا تكاد ترى أحدًا من المصنفين في المقالات والفرق يذكرهم بغير هذا الاسم، وأما تسميتهم بالأحمدية: فنسبة إلى اسم شيخهم المنتسبين إليه، وأما تسميتهم بالبطائحية: فنسبة إلى مسقط رأس شيخهم ببطائح واسط بالعراق، وهذه الطريقة لا تخرج في كثير من طقوسها الفكرية وجذورها العقدية عن عامة الطرق الصوفية.

وقد ناظر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ هذه الطائفة الأحمدية، وسطَّر رسالة في ذكر مناظرته لهم، قال في خاتمتها: (إن فيهم من الغلو والشرك المروق عن الشريعة ما شاركوا به الرافضة في بعض صفاتهم، وفيهم من الكذب ما قد يقاربون به الرافضة في ذلك؛ أو يساوونهم؛ أو يزيدون عليهم، فإنهم من أكذب الطوائف؛ حتى قيل فيهم: لا تقولوا: أكذب من اليهود على الله، ولكن قولوا: أكذب من الأحمدية على شيخهم. وقلت لهم: أنا كافر بكم وبأحوالكم ﴿...فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾) [رسالة مودعة في مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ٤٤٥ - ٤٧٥)].

وانظر: "وفيات الأعيان" لابن خلكان (١/ ١٧١ - ١٧٢)، "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام" للذهبي (حوادث ووفيات ٥٧١ - ٥٨٠ هـ) (ص ٢٤٨ - ٢٥٥)، "الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة" (١/ ٢٦٢).

(١) "الدرر الكامنة" لابن حجر (١/ ٩١).

(٢) حكاه الحافظ ابن رجب - عن الحافظ الذهبي - في "الذيل" (٢/ ٣٦٠).

(٣) حكاه الحافظ ابن رجب - عن الحافظ البرزالي - في "الذيل" (٢/ ٣٦٠).

(٤) خط منسوب؛ ذو قاعدة. كذا في "تاج العروس من جواهر القاموس" للزبيدي (٤/ ٢٦٤) (مادة نسب).

(٥) قال ابن السكيت: قال أبو صاعد: الخميلة: الشجر المجتمع الذي لا ترى فيه الشيء إذا وقع في وسطه. كذا في "تهذيب اللغة" للأزهري (٧/ ٤٢٩) (مادة خمل).

الحدائق، وأتى في طرسه[١] بكل سطر على العقد فائق)[٢].

معتقده ومسلكه:

وقد ألهمه الله ﷻ (من صغره طلب الحق ومحبته؛ والنفور عن البدع وأهلها)[٣]،فاجتمع بطوائف عدة؛ (ولم يسكن قلبه إلى شيء)[٤] منها، فاجتمع بفقهاء واسط؛ وبغداد؛ ومكة؛ والقاهرة؛ ثم رحل إلى الإسكندرية؛ فاجتمع هناك بالطائفة الشاذلية[٥]، فوجد عندهم ما يطلبه من لوائح المعرفة والمحبة والسلوك، فأخذه عنهم؛ واقتفى طريقتهم وهديهم.

وكان ؒ خلال هذه الحقبة الزمنية من عمره مضطربًا في بعض مسائل الاعتقاد المتعلقة بصفات الله ﷻ، حتى شرح الله صدره للحق وقَبوله.

ثم قدم دمشق، فرأى شيخ الإسلام ابن تيمية ؒ؛ وصَحِبَهُ، وتَخَلَّى عن جلٍّ[٦] هذه الطرائق والأحوال والأذواق والسلوكيات؛ واقتفى آثار الرسول ﷺ

(١) قال الليث: الطِّرْسُ: الكتاب الممحو الذي يستطاع أن تعاد عليه الكتابة، وفعلك به: التطريس. كذا في "تهذيب اللغة" للأزهري (١٢/ ٣٢٩) (مادة طرس).

(٢) "أعيان العصر" للصفدي (١/ ١٥٣).

(٣) "الذيل" لابن رجب (٢/ ٣٦٠).

(٤) "الذيل" لابن رجب (٢/ ٣٦٠).

(٥) الطائفة الشاذلية: هي إحدى طوائف الصوفية وطرقها، وتنتسب إلى: أبي الحسن علي بن عبد الله الهذلي الشاذلي؛ نسبة إلى شاذلة في المغرب؛ المتوفى في أوائل شهر ذي القعدة سنة ست وخمسين وستمائة، وطريقته لا تخرج في كثير من طقوسها الفكرية وجذورها العقدية عن عامة الطرق الصوفية.
انظر: "العبر في خبر من غبر" للذهبي (٣/ ٢٨٢)، "التصوف في ميزان البحث والتحقيق" للسندي (ص ٣٢٧ - ٤٨٤)، "الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة" (١/ ٢٧٩ - ٢٨٤).

(٦) وقد حدى بي القول إلى التعبير بكلمة (جلّ)؛ دون (كلّ): نظرًا لطغيان قلم المؤلف ؒ ببعض مصطلحات الصوفية؛ والتحدث بلسانهم في مواضع من كتابه - كما سيمر بك التنبيه عليها إن شاء الله تعالى -.

وهديه وطريقته المأثورة عنه في كتب السنن والآثار، واعتنى بأمر السنَّة أصولًا وفروعًا.

وقد أشار رحمه الله إلى مرحلة الانتقال التي مرَّ بها في حياته؛ والتي تلاها لقاؤه بشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فقال: (واعلموا رحمكم الله أن هنا من سافر إلى الأقاليم، وعرف الناس وأذواقهم، وأشرف على غالب أحوالهم، فوالله؛ ثم والله؛ لم يُر تحت أديم السماء مثل شيخكم علمًا وعملًا؛ وحالًا وخلقًا؛ واتباعًا وكرمًا، وحلمًا في حق نفسه؛ وقيامًا في حق الله عند انتهاك حرماته، أصدق الناس عقدًا؛ وأصحهم علمًا وعزمًا، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همةً؛ وأسخاهم كفًّا، وأكملهم اتباعًا لنبيه ﷺ)[١].

كما أشار رحمه الله إلى مرحلة الاضطراب التي مرَّ بها في حياته؛ فقال: (كنتُ برهة من الدهر متحيِّرًا في ثلاث مسائل: مسألة الصفات؛ ومسألة الفوقية؛ ومسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد، وكنتُ متحيِّرًا في الأقوال المختلفة الموجودة في كتب أهل العصر في جميع ذلك؛ من تأويل الصفات وتحريفها، أو إمرارها، أو الوقوف فيها، أو إثباتها بلا تأويل ولا تعطيل، ولا تشبيه ولا تمثيل)[٢].

إلى أن قال رحمه الله: (فلم أزل في هذه الحيرة والاضطراب من اختلاف المذاهب والأقوال؛ حتى لطف الله بي، وكشف لهذا الضعيف عن وجه الحق كشفًا اطمأنَّ إليه خاطره، وسكن به سِرُّه، وتبرهن الحق في نوره)[٣].

وبعد لقائه بشيخ الإسلام رحمه الله وصحبته له: دلَّه على مطالعة السيرة النبوية،

(١) "التذكرة والاعتبار" لابن شيخ الحزاميين (ص ٣٧).
(٢) "النصيحة" لابن شيخ الحزاميين (ص ١٦ - ١٧).
(٣) "النصيحة" لابن شيخ الحزاميين (ص ٣٢).
(٤) "معجم الشيوخ" للذهبي (١/ ٢٩).

فأقبل رَحِمَهُ اللَّهُ عليها؛ وعلى مطالعة كتب الحديث والسنَّة والآثار، وصار (داعية إلى السنَّة ومتابعة الآثار)[١]، (محبًا لأهل الحديث؛ معظمًا لهم)[٢]، (ومذهبه مذهب السلف الصالح في الصفات؛ يُمرُّها كما جاءت)[٣].

كما كان رَحِمَهُ اللَّهُ يُعظِّم شيخ الإسلام ويُجلّه؛ ويبالغ في الثناء عليه، فيقول: (شيخنا السيد الإمام؛ الأمة الهمام؛ محيي السنَّة وقاطع البدعة؛ ناصر الحديث؛ ومفتي الفرق، الفائق عن الحقائق؛ وموصلها بالأصول الشرعية للطالب الذائق، الجامع بين الظاهر والباطن[٤]؛ فهو يقضي بالحق ظاهرًا وقلبه في العلى قاطن، أنموذج الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين؛ الذين غابت عن القلوب سيرهم، ونسيت الأمة حذوهم وسبلهم، فذكَّرهم بها الشيخ، فكان في دارس نهجهم سالكًا؛ ولموات حذوهم محييًا؛ ولأعنة قواعدهم مالكًا، الشيخ الإمام: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، أعاد الله علينا بركته؛ ورفع إلى مدارج العلى درجته)[٥].

ثم شرع رَحِمَهُ اللَّهُ في الرد على طوائف المبتدعة الذين خالطهم وعرفهم من الاتحادية[٦] وغيرهم، وبيَّن عوارهم؛ وكشف أستارهم.

---

(١) حكاه الحافظ ابن رجب - عن الحافظ البرزالي - في "الذيل" (٢/ ٣٦٠).
(٢) حكاه الحافظ ابن رجب - عن الحافظ الذهبي - في "الذيل" (٢/ ٣٦٠).
(٣) سيأتي بيان المراد بالحال الباطن والعلم الظاهر في خاتمة دراسة الكتاب؛ عند بيان بعض المآخذ على المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في إيراده بعض المصطلحات المجملة المشتبهة في كتابه.
(٤) "التذكرة والاعتبار" لابن شيخ الحزاميين (ص ١٩ - ٢٠).
(٥) الاتحادية: هم القائلون باتحاد الخالق بمخلوقاته، وأن وجود هذه المخلوقات هو عين وجود الرب؛ لا أنها متميزة عنه منفصلة عن ذاته - تعالى الله عن إفكهم وبهتانهم علوًا كبيرًا -.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالته: "حقيقة مذهب الاتحاديين": (اعلم هداك الله وأرشدك: أن تصور مذهب هؤلاء كاف في بيان فساده؛ لا يحتاج مع حسن =

وقد أقبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ على التفقه في الدين؛ وبرز فيه، وصارت (له مشاركة في العلوم)[١]، وزاحم في شتى (الفضائل، وصحب الكبار)[٢]، وانتفع بهديه و(تسلَّك به جماعة، وألِفَ الضَّراعة من الرَّضاعة)[٣].

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (جالسته مرارًا وانتفعت به، وكان منقبضًا عن الناس؛ حافظًا لوقته[٤]، تسلك به جماعة، وكان ذا ورع وإخلاص، ومنابذة للاتحادية وذوي العقول)[٥].

مذهبه الفقهي:

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد (تفقَّه على مذهب الشافعي)[٦] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (ونظر في الروضة والرافعي[٧])[٨].

= التصور إلى دليل آخر، وإنما تقع الشبهة لأن أكثر الناس لا يفهمون حقيقة قولهم وقصدهم لما فيه من الألفاظ المجملة والمشتركة، بل وهم أيضًا لا يفهمون حقيقة ما يقصدونه ويقولونه، ولهذا يتناقضون كثيرًا في قولهم، وإنما ينتحلون شيئًا ويقولونه أو يتبعونه، ولهذا قد افترقوا بينهم على فرق، ولا يهتدون إلى التمييز بين فرقهم؛ مع استشعارهم أنهم مفترقون. وحقيقة قول هؤلاء: أن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى؛ ليس وجودها غيره ولا شيء سواه ألبتة). انتهى كلامه مختصرًا من [رسالة مودعة في مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ١٣٨ - ١٤٠)].

(١) "ذيل العبر" للذهبي (٤/ ٢٩).

(٢) "معجم الشيوخ" للذهبي (١/ ٢٩).

(٣) "أعيان العصر" للصفدي (١/ ١٥٤).

(٤) (لوقته): سقطت من "الوافي بالوفَيات"؛ واستدركتها من "الدرر الكامنة"

(٥) حكاه الصفدي في "الوافي بالوفَيات" (٦/ ٢٢١).

(٦) "الدرر الكامنة" لابن حجر (١/ ٩١).

(٧) أي: تفقه في مذهب الشافعي على كتاب: "الفتح العزيز في شرح الوجيز" للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني (٥٥٧ - ٦٢٣ هـ)؛ وعلى مختصره: "روضة الطالبين وعمدة المفتين" للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي (٦٣١ - ٦٧٦ هـ).

(٨) "أعيان العصر" للصفدي (١/ ١٥٤).

وقد أشار رَحِمَهُ اللهُ إلى ذلك بقوله: (ومما ذهب إلى هذه الأقوال أو بعضها قوم لهم في صدري منزلة، مثل بعض فقهاء الأشعرية[١] الشافعيين، لأني على مذهب الشافعي رَحِمَهُ اللهُ، عرفت منهم فرائض ديني وأحكامه)[٢].

ثم تحوَّل رَحِمَهُ اللهُ و(انتقل إلى مذهب الإمام أحمد)[٣] رَحِمَهُ اللهُ[٤]، فقرأ على شيخ

---

(١) الأشعرية: هم أصحاب الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري؛ المنحدر نسبه من أبي موسى الأشعري رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ، المولود سنة ستين ومائتين، والمتوفى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، نشأ في أحضان المعتزلة، وارتضع معتقدهم من شيخه - زوج أمه - أبي علي الجبائي، فلما تبين له وجه الحق، وأسفر صبحه: رجع عن معتقدهم، واعتنق في آخر حياته معتقد أهل السنَّة والجماعة، وصرح بأنه على معتقد إمام أهل السنَّة والجماعة: أحمد بن حنبل، وصنَّف في ذلك كتابه: "الإبانة عن أصول الديانة"، وضمنه معتقده الذي يعتقده، وصرح بانتسابه إلى أهل السنَّة والجماعة في كتابه: "مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين". وعلى هذا المعتقد الذي توفي عليه أبو الحسن الأشعري درج أئمة أصحابه، حتى جاء بعض متأخري أصحابه فأدخلوا في مذهبه أشياء لم يعتقدها، ولم يذهب إلى القول بها.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في رسالته: "المسألة المصرية في القرآن": (أما الأشعري نفسه وأئمة أصحابه: فلم يختلف قولهم في إثبات الصفات الخبرية، وفي الرد على من يتأولها، وهذا مذكور في كتبه كلها، وهكذا نقل سائر الناس عنه، حتى المتأخرون، فمن قال: إن الأشعري كان ينفيها، وإن له في تأويلها قولين: فقد افترى عليه، ولكن هذا فعل طائفة من متأخري أصحابه، فإن هؤلاء أدخلوا في مذهبه أشياء من أصول المعتزلة. والأشعري ابتلي بطائفتين: طائفة تبغضه، وطائفة تحبه، كل منهما يكذب عليه، ويقول: إنما صنَّف هذه الكتب تقية، وإظهارًا لموافقة أهل الحديث والسنَّة، وهذا كذب على الرجل، فإنه لم يوجد له قول باطن يخالف الأقوال التي أظهرها، ولا نقل أحد من خواص أصحابه ولا غيرهم ما يناقض هذه الأقوال الموجودة في مصنفاته، فدعوى المدعي: مردودة شرعًا وعقلًا). انتهى كلامه مختصرًا من [رسالة مودعة في مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٢/ ٢٠٣ - ٢٠٤)].
وانظر: "أبو الحسن الأشعري" للأنصاري، "معتقد الإمام أبي الحسن الأشعري ومنهجه" للدكتور عمر الأشقر.

(٢) "النصيحة" لابن شيخ الحزاميين (ص ١٧ - ١٨).

(٣) "الذيل" لابن رجب (٢/ ٣٥٩).

(٤) انظر: "العلماء الذين تحولوا من مذهب إلى آخر وأسباب التحول" لبكر أبو زيد =

المذهب مجد الدين إسماعيل بن محمد الحراني[١] رحمه الله كتاب "الكافي" للموفق ابن قدامة، (واختصره في مجلد)[٢]

ثناء العلماء عليه:

وقد أثنى عليه رحمه الله عدد من الأئمة الأعلام، وأفاضوا عليه بالثناء الجزيل والذكر الجميل، فمن ذلك:

١- كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) يُعظِّمه ويُجلّه، ويقول: «هو جُنَيْد[٣] وقته»؛ وكتب إليه كتابًا من مصر؛ أوله: «إلى شيخنا الإمام العارف القدوة السالك»[٤]

٢- قال الحافظ البرزالي رحمه الله (٦٦٥ - ٧٣٩ هـ): (رجل صالح عارف، صاحب نسك وعبادة، وانقطاع وعزوف عن الدنيا، وله كلام متين في التصوف[٥]

= (ص ٤٥)، "المدخل المفصل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل" له (١/ ٥٦٩).

(١) هو أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن الفراء الحراني؛ ثم الدمشقي، شيخ مذهب الحنابلة، وُلد سنة خمس وأربعين وستمائة، كان يقرئ "المقنع" و"الكافي"؛ ويعرفهما، وكتب بخطه "المغني" و"الكافي" وغيرهما؛ حتى قيل: إنه أقرأ "المقنع" مائة مرة، وكان عديم التكلف، سريع الدمعة، توفي رحمه الله ليلة الأحد تاسع جمادى الأولى سنة تسع وعشرين وسبعمائة بالمدرسة الجوزية، ودفن بمقابر الصوفية؛ وكانت جنازته مشهودة.
انظر: "معجم الشيوخ" للذهبي (١/ ١٧٩)، "الذيل" لابن رجب (٢/ ٤٠٨ - ٤١٠)، "المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد" لابن مفلح (١/ ٢٧٢ - ٢٧٣).

(٢) "الذيل" لابن رجب (٢/ ٣٥٩).

(٣) ستأتي ترجمته في نص الكتاب المحقق إن شاء الله تعالى.

(٤) انظر: "الذيل" لابن رجب (٢/ ٣٦٠).

(٥) تشعب كلام أهل العلم في تعريف التصوف، وتأريخ نشأته، وأقسامه، وطرقه.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالته: "الصوفية والفقراء": (إن منشأ التصوف كان من البصرة، وأنه كان فيها من يسلك طريق العبادة والزهد مما له فيه اجتهاد؛ كما =

= كان في الكوفة من يسلك من طريق الفقه والعلم ما له فيه اجتهاد، وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة وهي لباس الصوف، فقيل في أحدهم: صوفي، وليس طريقهم مقيدًا بلباس الصوف؛ ولا هم أوجبوا ذلك؛ ولا علقوا الأمر به، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال.

ثم التصوف عندهم له حقائق وأحوال معروفة؛ قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه. ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه تنازع الناس في طريقهم؛ فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنَّة، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام. وطائفة غلت فيهم؛ وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم. والصواب: أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه. وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم؛ كالحلاج مثلًا، فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه؛ وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد بن محمد - سيد الطائفة - وغيره؛ كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في "طبقات الصوفية"، وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في "تاريخ بغداد". فهذا أصل التصوف، ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع).

انتهى كلامه مختصرًا من [رسالة مودعة في مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ١٦ - ١٨)].

وانظر في كلام أهل العلم في تعريف التصوف؛ ونشأته؛ وأقسامه؛ ومصادره؛ وطرقه: "التصوف - المنشأ والمصادر - لإحسان إلهي ظهير (ص ١١ - ١٣٥)، "تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي" لمحمد أحمد لوح (١/ ٣٤ - ٤٤)، "التيجانية" للدكتور علي آل دخيل الله (ص ٢٧ - ٤٦)، "الصوفية - معتقدًا ومسلكًا -" للدكتور صابر طعيمة (ص ١٩ - ٤٤)، "الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنَّة" لعبد الرحمن عبد الخالق (ص ٤٩ - ٥٣)، "الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ" لمحمود القاسم (ص ٧٣٥ - ٧٥٥)، "المصادر العامة للتلقي عند الصوفية - عرضًا ونقدًا -" لصادق سليم صادق (ص ٢٧ - ٩٤)، "مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية وأثرها السيّء على الأمة الإسلامية" لإدريس محمود إدريس (١/ ٢٥ - ٧٩).

الصحيح، وهو داعية إلى طريق الله تعالى)[١].

٣- قال الحافظ ابن عبد الهادي رحمه الله (٧٠٥ - ٧٤٤ هـ): (كان رجلًا صالحًا ورعًا، كبير الشأن، منقطعًا إلى الله، متوفرًا على العبادة والسلوك)[٢].

٤- قال الحافظ الذهبي رحمه الله (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ): (شيخنا القدوة العارف)[٣]، ويقول: (كان من سادة السالكين)[٤].

٥- قال الأديب المؤرخ الصفدي رحمه الله (٦٩٦ - ٧٦٤ هـ): (لقي المشائخ وتعبَّد، وترك الرئاسة وتزهَّد، وقط العوالق وتجرَّد)[٥].

٦- قال الحافظ ابن رجب رحمه الله (٧٣٦ - ٧٩٥ هـ): (كان له مشاركة جيدة في العلوم، وعبارة حسنة قوية، وفهم جيد، وخط حسن في غاية الحسن، وكان معمور الأوقات في الأوراد والعبادات؛ والتصنيف؛ والمطالعة؛ والذكر والفكر، مصروف العناية إلى المراقبة والمحبة؛ والأُنس بالله، وقطع الشواغل والعوائق عنه، حثيث السير إلى وادي الفناء بالله؛ والبقاء به[٦]، كثير اللهج بالأذواق والتجليات، والأنوار القلبية، منزويًا عن الناس؛ لا يجتمع إلَّا بمن يحبه؛ ويحصل له باجتماعه به منفعة دينية)[٧].

٧- قال الحافظ ابن ناصر الدين رحمه الله (٧٧٧ - ٨٤٢ هـ): (كان زاهدًا عابدًا، داعية إلى الله)[٨].

---

(١) انظر: "الذيل" لابن رجب (٢/ ٣٦٠).
(٢) "العقود الدرية" لابن عبد الهادي (ص ٢٩٠).
(٣) "معجم الشيوخ" للذهبي (١/ ٢٩).
(٤) "ذيل العبر" للذهبي (٤/ ٢٩).
(٥) "أعيان العصر" للصفدي (١/ ١٥٣).
(٦) سيأتي بيان المراد بالفناء والبقاء في خاتمة دراسة الكتاب؛ عند بيان بعض المآخذ على المؤلف رحمه الله في إيراده بعض المصطلحات المجملة المشتبهة في كتابه.
(٧) "الذيل" لابن رجب (٢/ ٣٦٠).
(٨) "الرد الوافر" لابن ناصر الدين (ص ١٣٠).

مؤلفاته:

وكان رحمه الله صاحب (عبارة عذبة)[١] سَبَكَ بحُسْنِ أدبها ما (يُتحلى بقلائده، وتتجلى محاسنُه في فرائده)[٢]

ولما كان (قلمه أبسط من عبارته)[٣]: اعتنى رحمه الله بالتصنيف، فـ (صنَّف في السلوك والمحبة)[٤] مصنفات و(تواليف نافعة)[٥]، وغالب هذه المصنفات في الحثِّ على (اقتفاء السنَّة، وطريق التصوف على السنَّة، والرد على طوائف من المبتدعة كالاتحادية وغيرهم)[٦]

وكلامه (في التصوف عجيب)[٧].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: (ألَّف تآليف كثيرة في الطريقة النبوية والسلوك الأثري والفقر المحمدي، وهي من أنفع كتب الصوفية للمريدين، انتفع بها خلق من متصوفة أهل الحديث ومتعبِّديها)[٨].

ومن هذه المؤلفات:

١- البلغة: (وهو: مختصر "الكافي")[٩] لابن قدامة المقدسي رحمه الله.

وقد ذكره الحافظ ابن رجب؛ والحافظ ابن ناصر الدين؛ والعليمي؛ وابن طولون؛ وحاجي خليفة؛ والبغدادي؛ وابن العماد؛ وابن ضويان؛ وكحالة؛

---

(١) "ذيل العبر" للذهبي (٤/ ٢٩).
(٢) "أعيان العصر" للصفدي (١/ ١٥٣).
(٣) حكاه الحافظ ابن رجب - عن الحافظ البرزالي - في "الذيل" (٢/ ٣٦٠).
(٤) "الوافي بالوفَيات" للصفدي (٦/ ٢٢١).
(٥) "معجم الشيوخ" للذهبي (١/ ٢٩).
(٦) "الرد الوافر" لابن ناصر الدين (ص ١٢٩).
(٧) "توضيح المشتبه" لابن ناصر الدين (٣/ ١٦٦).
(٨) "الذيل" لابن رجب (٢/ ٣٥٩).
(٩) "الرد الوافر" لابن ناصر الدين (ص ١٢٩).

والبردي؛ والطريقي؛ وأبو زيد[١].

٢- البلغة والإقناع في حل شبهة مسألة السماع: قال حاجي خليفة: (وهو: مختصرٌ، أوله: «الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب»... إلخ، ألَّفه بدمشق سنة ثلاث وسبعمائة)[٢].

وذكره البغدادي؛ وكحالة؛ والبردي؛ والطريقي؛ وأبو زيد[٣].

٣- التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار: قال الحافظ ابن عبد الهادي رحمه الله: (كتب رسالة؛ وبعثها إلى جماعة من أصحاب الشيخ) أي: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (وأوصاهم فيها بملازمة الشيخ، والحث على اتباع طريقته، وأثنى فيها على الشيخ ثناءً عظيمًا)[٤].

وذكره ابن ناصر الدِّين؛ والطريقي[٥]، وهو مطبوع[٦].

---

(١) انظر: "الذيل" لابن رجب (٢/ ٣٥٩)، "الرد الوافر" لابن ناصر الدين (ص ١٢٩)، "المنهج الأحمد" للعليمي (٤/ ٣٨٤)، "الدر المنضد" له (١/ ٤٦١)، "القلائد الجوهرية" لابن طولون (٢/ ٤٧٩)، "شذرات الذهب" لابن العماد (٦/ ٢٤)، "كشف الظنون" لحاجي خليفة (١/ ٢٥٢)؛ (٢/ ١٠٠١)، "هدية العارفين" للبغدادي (١/ ١٠٤)، "رفع النقاب" لابن ضويان (ص ٢٩٤)، "معجم المؤلفين" لكحالة (١/ ٨٩)، "تسهيل السابلة" للبردي (٢/ ٩٤٩)، "معجم مصنفات الحنابلة" للطريقي (٣/ ٣١٢)، "المدخل المفصل" لبكر أبو زيد (٢/ ٧٣٩، ٩٨٦).

(٢) "كشف الظنون" لحاجي خليفة (١/ ٢٥٢)؛ (٢/ ١٠٠١).

(٣) انظر: "هدية العارفين" للبغدادي (١/ ١٠٤)، "معجم المؤلفين" لكحالة (١/ ٨٩)، "تسهيل السابلة" للبردي (٢/ ٩٤٩)، "معجم مصنفات الحنابلة" للطريقي (٣/ ٣١٣)، "المدخل المفصل" لبكر أبو زيد (٢/ ٨٨٥، ٩٨٦، ١٠٥٢).

(٤) "العقود الدرية" لابن عبد الهادي (ص ٢٩٠).

(٥) "الرد الوافر" لابن ناصر الدين (ص ١٣٠ - ١٣١)، "معجم مصنفات الحنابلة" للطريقي (٣/ ٣١٥).

(٦) وقد أردفها الحافظ ابن عبد الهادي بترجمة مؤلفه عقيب ذكره في كتابه "العقود الدرية" (ص ٢٩١ - ٣٢١).

=

٤- السلوك والسير إلى الله تعالى: ذكره الطريقي[١]، وهو مخطوط[٢]، وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا.

٥- شرح منازل السائرين: وهو شرح كتاب «منازل السائرين» لشيخ الإسلام أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي[٣]، وقد شرح كَلَلهُ أكثر «منازل السائرين»[٤]؛ ولم يُتمَّه[٥].

ذكره ابن قيم الجوزية[٦]؛ والصفدي؛ وابن رجب؛ وابن ناصر الدين؛ وابن حجر؛ وابن تغري بردي؛ والعليمي؛ وحاجي خليفة؛ والبغدادي؛ وابن ضويان؛ والزِّركلي؛ وكحالة؛ والبردي؛ والطريقي[٧].

= وقد اعتنت بإفرادها بالطباعة دار العاصمة؛ بتحقيق: الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي.

(١) "معجم مصنفات الحنابلة" للطريقي (٣/ ٣١٤).

(٢) توجد منه نسخة خطية مودعة في دار الكتب الظاهرية بدمشق، تحت رقم التصنيف: (٤٧٠٩)، وتقع في (١٤٧) ورقة، وهي مخرومة الأول والآخر.
انظر: "فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية" (قسم التصوف) (٢/ ٦٠ - ٦١).

(٣) ستأتي ترجمته في نص الكتاب المحقق إن شاء الله تعالى.

(٤) "الوافي بالوفَيات" للصفدي (٦/ ٢٢١).

(٥) "الذيل" لابن رجب (٢/ ٣٦٠).

(٦) وقد انفرد الإمام ابن قيم الجوزية كَلَلهُ عمن سواه من المترجمين بخصيصة؛ حيث ضمَّن مواطن من هذا الشرح في بعض كتبه، حيث قال في "شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل" (١/ ٨٩ - ٩١): «والذي يليق به» _ أي: يليق بكلام شيخ الإسلام أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري في منازل السائرين _ (ما ذكره شيخنا أبو العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي كَلَلهُ في شرحه، فذكر قاعدة في الفناء والاصطلام، فقال) ثم ساق قوله في ثلاث صفحات.

(٧) انظر: "شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل" لابن قيم الجوزية (١/ ٨٩ - ٩١)، "الوافي بالوفَيات" للصفدي (٦/ ٢٢١)، "الذيل" لابن رجب (٢/ ٣٦٠)، "توضيح المشتبه" لابن ناصر الدين (٣/ ١٦٥ - ١٦٦)، "الدرر الكامنة" لابن حجر (١/ ٩١)، "المنهل الصافي" لابن تغري بردي (١/ ٢١١)، "المنهج الأحمد" للعليمي (٤/ ٣٨٤)، "الدر المنضد" له (١/ ٤٦١)، "كشف الظنون" لحاجي خليفة (٢/ ١٨٢٨)، "هدية العارفين" للبغدادي (١/ ١٠٤)، "رفع النقاب" =

٦- مختصر دلائل النبوة، ذكره الصفدي؛ وابن حجر؛ وابن تغري بردي؛ والزِّركلي؛ والطريقي[١].

٧- مختصر سيرة ابن إسحاق؛ قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «أقبل على سيرة ابن إسحاق - تهذيب ابن هشام - فلخصها واختصرها»[٢]

وذكره الصفدي؛ وابن ناصر الدين؛ وابن تغري بردي؛ وابن مفلح؛ والعليمي؛ وابن طولون؛ وابن العماد ؛ وابن ضويان؛ وسزكين؛ والبردي؛ والطريقي[٣].

٨- مدخل أهل الفقه واللسان إلى ميدان المحبة والعرفان: وهو جزء من: الكتاب الذي بين أيدينا، وسيأتي له - بمشيئة الله تعالى - مزيد تعريف وبيان.

٩- مفتاح طريق الأولياء وأهل الزهد من العلماء؛ ذكره الزركلي[٤]،

= لابن ضويان (ص ٢٩٤)، "الأعلام" للزركلي (١/ ٨٧)، "معجم المؤلفين" لكحالة (١/ ٨٩)، "تسهيل السابلة" للبردي (٢/ ٩٤٩)، "معجم مصنفات الحنابلة" للطريقي (٣/ ٣١٥).

(١) انظر "أعيان العصر" للصفدي (١/ ١٥٣)، "الوافي بالوفَيات" له (٦/ ٢٢١)، "الدرر الكامنة" لابن حجر (١/ ٩١)، "المنهل الصافي" لابن تغري بردي (١/ ٢١١)، "الأعلام" للزركلي (١/ ٨٧)، "معجم مصنفات الحنابلة " للطريقي (٣/ ٣١٥).

(٢) "الذيل" لابن رجب (٢/ ٣٥٩).

(٣) انظر: "أعيان العصر" للصفدي (١/ ١٥٣ - ١٥٤)، "الوافي بالوفَيات" له (٦/ ٢٢١)، "توضيح المشتبه" لابن ناصر الدين (٣/ ١٦٥)، "الرد الوافر" له (ص ١٢٩)، "المنهل الصافي" لابن تغري بردي (١/ ٢١١)، "المقصد الأرشد" لابن مفلح (١/ ٧٣)، "المنهج الأحمد" للعليمي (٤/ ٣٨٤)، "الدر المنضد" له (١/ ٤٦١)، "القلائد الجوهرية" لابن طولون (٢/ ٤٧٩)، "شذرات الذهب" لابن العماد (٦/ ٢٤)، "رفع النقاب" لابن ضويان (ص ٢٩٣)، "تاريخ التراث العربي" لسزكين (١/ ١/ ١١٠)، "تسهيل السابلة" للبردي (٢/ ٩٤٩)، "معجم مصنفات الحنابلة" للطريقي (٣/ ٣١٥).

(٤) "الأعلام" للزركلي (١/ ٨٧).

وهو مطبوع[١].

١٠- مفتاح طريق المحبين وباب الأنس برب العالمين المؤدي إلى أحوال المقربين؛ ذكره البغدادي؛ وكحالة؛ والبردي؛ والطريقي[٢].

١١- نصيحة في صفات الرب جلَّ وعلا: وهو مطبوع[٣].

١٢- نصيحة لبعض إخوانه؛ ذكره الطريقي[٤]، وهو مخطوط[٥].

نظمه:

وكان رَحِمَهُ اللهُ إلى جانب ما جمع الله تعالى له من العلم والفضل، صاحب (نَظْمٍ حسن)[٦]، وقَرْضٍ بديع.

---

(١) وقد اعتنى بطباعته دار البشائر الإسلامية؛ بتحقيق: محمد بن ناصر العجمي.
وصنيع الأستاذ الدكتور عبد الله الطريقي في كتابه "معجم مصنفات الحنابلة" يشعر بأن كتاب: "مفتاح طريق الأولياء وأهل الزهد من العلماء" والكتاب الذي يليه "مفتاح طريق المحبين وباب الأنس برب العالمين المؤدي إلى أحوال المقربين" كتاب واحد، وأن دار البشائر الإسلامية قامت بطباعة الكتاب باسم "مفتاح طريق المحبين وباب الأنس برب العالمين المؤدي إلى أحوال المقربين" بتحقيق: محمد بن ناصر العجمي!

(٢) انظر: "هدية العارفين" للبغدادي (١/ ١٠٤)، "إيضاح المكنون" له (٢/ ٥٢٥)، "معجم المؤلفين" لكحالة (١/ ٨٩)، "تسهيل السابلة" للبردي (٢/ ٩٤٩)، "معجم مصنفات الحنابلة" للطريقي (٣/ ٣١٥).

(٣) وقد اعتنى بطباعتها المكتب الإسلامي؛ بتحقيق: زهير الشاويش.

(٤) انظر: "معجم مصنفات الحنابلة" للطريقي (٣/ ٣١٥).

(٥) توجد منه نسخة خطية مودعة في دار الكتب الظاهرية بدمشق، تحت رقم التصنيف (١٥٣٢)، وتقع في (١٢٧) ورقة.
انظر: "فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية" (قسم التصوف) (٣/ ٥٦ - ٥٧).
وهو قيد التحقيق من قبل: عمار بن سعيد تمالت الجزائري؛ الباحث في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض.

(٦) "الذيل" لابن رجب (٢/ ٣٦٠).

قال الحافظ الذهبي رحمه الله: (أنشدنا لنفسه رحمه الله:

مَا زَالَ يَعْشَقُهَا طَوْرًا ويُلْهِيهَا ... حتَّى أَنَاخَ بِرَبْعِ الحُبِّ حَادِيهَا
يَشْكُو إِليهِ كَلالَ السَّيْرِ مِن نَصَبٍ ... وَغدَ الوِصَالِ يُمَنِّيهَا فيُحْيِيهَا
هَبَّ النَّسِيمُ فأَهْدَى طِيبَ نَشْرِهِمُ ... فَهَيَّجَ الوَجْدَ مِن أَقْصَى دَواعِيهَا
إنْ رُمْتَ سَيْرًا فَصَفِّ الْقَلْبَ مِن دَنَسٍ ... مَعَ الجَوَارِحِ كَيْ تَنْفِي مَسَاوِيهَا
وجَانِبِ النَّهْيَ حَسْبَ الجَهْدِ مُمْتَثِلًا ... نُجْحَ الأَوامِرِ كَيْ يَنْفَكَّ عَانِيهَا
واقْصِدْ إلى السُّنَّةِ الغَرَّاءِ تَفْهَمُهَا ... فَهْمَ الخُصُوصِ فَتَعْلُو في مَبَانِيهَا
وَدَاوِمِ الذِّكْرَ بَعْدَ العَقْدِ مِن سُنَنٍ ... عَقْدَ ابْنِ حَنْبَلَ لِلأَمْرَاضِ يَشْفِيهَا
لا يَعْرِفُ الشَّوْقَ إِلَّا مَن يُكَابِدُه ... ولا الصَّبَابَةَ إِلَّا مَن يُعَانِيهَا)[1].

وقال الحافظ ابن ناصر الدين رحمه الله: (ومن إنشادات الحزَّامي هذا في مراتب المحبة:

مَنْ كَانَ في ظُلَمِ الدَّيَاجِي سَارِيَا ... رَصَدَ النُّجُومَ وَأَوْقَدَ المِصْبَاحَا
حَتَّى إِذَا مَا البَدْرُ أَرْشَدَ ضَوْؤُهُ ... تَرَكَ النُّجُومَ وَرَاقَبَ الإِصْبَاحَا
حَتَّى إِذَا انْجَابَ الظَّلامُ بِأَسْرِهِ ... وَرَأَى الصَّبَاحَ بِأُفْقِهِ قَدْ لاحَا
تَرَكَ المَسَارِحَ وَالكَوَاكِبَ كُلَّهَا ... وَالْبَدْرَ وَارْتَقَبَ السَّنَا الوَضَّاحَا[2])[3]

---

(١) "معجم الشيوخ" للذهبي (١/ ٢٩).
(٢) ذكرها ابن قيم الجوزية في "كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء" (ص ٧٨) دون نسبتها لقائلها.
(٣) "توضيح المشتبه" لابن ناصر الدين (٣/ ١٦٦ - ١٦٧).

وفاته:

وقد توفي رَحِمَهُ اللهُ عن أربع وخمسين سنة[(١)(٢)]، «وعينه من الانقطاع عن الدنيا وسِنَةَ[(٣)]، ولم يزل على حاله إلى أن التقمته الأرض، وأودعته في بطنها إلى يوم العرض»[(٤)].

وكانت وفاته آخر نهار السبت سادس عشر شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشر وسبعمائة بالمارستان[(٥)] الصغير بدمشق، عن ثلاثة وخمسين عامًا؛ وأربعة أشهر؛ وأربعة - أو خمسة - أيام. وصُلِّي عليه من الغد بالجامع الأموي، ودفن بسفح قاسيون؛ قبالة زاوية السيوفي.

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: «ولا أعلم خلف بدمشق في طريقته مثله»[(٦)]

رحمه الله رحمة واسعة، وغفر ذنبه، وستر عيبه، وأعلى درجته في المهديين، وأخلفه في عقبه في الغابرين.

---

(١) وقد وهم الصفدي رَحِمَهُ اللهُ بقوله: (عاش بضعًا وسبعين سنة)، كما في "أعيان العصر" (١/ ١٥٤)، و"الوافي بالوفَيات" (٦/ ٢٢١).

(٢) "مرآة الجنان" لليافعي (٤/ ٢٥٠).

(٣) السِّنَة والوسنة والوسن: ثقل النوم، وقيل: النعاس؛ وهو أول النوم. كذا في "المحكم والمحيط الأعظم في اللغة" لابن سيده (٨/ ٤٠٨) (مادة وسن).

(٤) "أعيان العصر" للصفدي (١/ ١٥٤).

(٥) دار المرضى - وهو معرب -، وأصله: بيمارستان، وبيمار عندهم: هو المريض؛ وأستان: المأوى - كذا في "تاج العروس من جواهر القاموس - للزبيدي (١٦/ ٥٠٠) (مادة مرس).

(٦) انظر: "الذيل" لابن رجب (٢/ ٣٦٠).

التعريف بالكتاب

١- اسم الكتاب:

الكتاب هو مجموعة من الرسائل للعلامة عماد الدين أبي العباس أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن مسعود بن عمر الخزَّامي الواسطي البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن شيخ الحزاميين ومثبتٌ عن طرَّة النسخة الخطيَّة: (كتابٌ في السلوك).

٢- إثبات نسبة الكتاب إلى مؤلفه:

وهذا الكتاب قد ثبتت نسبته لمؤلفه رحمه الله، وصحَّت من أوجهٍ متعددةٍ، منها:

١- عبارة الكتاب العذبة وأسلوبه الحسن، إذ قد كُسيت كلمات الكتاب بعبارة وأسلوب يظهر فيها التشابه الكبير والتقارب الواضح بين هذا الكتاب وبين غيره من كتب المؤلف رحمه الله المطبوعة، وهذا الوجه من الأوجه المعتبرة في إثبات نسبةِ كتابٍ مَّا لمؤلفه، إذ أن عبارات المؤلفين وأساليبهم في كتبهم تتشابه إلى حدٍ كبير، كما أنها تُلقي في رُوْع القارئ غلبة الظنِّ، وعليه فإنه يمكن من خلال المطابقة بينَ أسلوب هذا الكتاب وبين غيره من كتب المؤلف رحمه الله المطبوعة أن يُطمأَنَّ إلى صحة نسبة هذا الكتاب إلى مؤلفه.

٢- فاتحة الكتاب، حيث افتتح ناسخُ الكتابِ الكتابَ بقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، ربِّ يَسِّر، الحمد لله الذي فتح منهاج الهدى والرشاد لمَن أحب وأنقذه من الإبعاد، وخلع جَلابيب العناية المحفوفةِ بالسداد . . .).

٣- تصريح بعض المترجمين بنسبة هذا الكتاب إلى مؤلفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وممن صرَّح بهذا: حاجي خليفة؛ والبغدادي؛ وكحالة؛ والبردي؛ والطريقي[(١)].

٣- موضوع الكتاب، وبيان منزلته العلمية:

والكتاب قد تناول فيه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مواضيع بالغة الأهمية، وهذه المواضيع تُعنى بتزكية النفس البشرية وطهارتها، وتكميل الفطرة الإنسانية وإصلاحها.

وقد قسم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه إلى ستة أقسام:

القسم الأول في الكتب.

القسم الثاني في القواعد.

القسم الثالث في الرسائل والمراسلات والمكاتبات.

القسم الرابع في المسائل والجوابات.

القسم الخامس في النصائح والوصايا.

القسم السادس في شرح كلام من المشايخ الذين سلفوا قبله رحمه الله.

ولما كان السهو (عرضة للإنسان - ورب العالمين هو الذي لا يضل ولا ينسى -)[(٢)]: رأيت من النصح الواجب - وأنا أتناول هذا الكتاب بالدراسة والتحقيق - أن أُشير إلى مواطن الزلل؛ وأُبَيِّنَ مواضع الخطَل، وهذا الأمر لا يُجهِّل منزلة مؤلفه السَّنيَّة؛ ولا ينقص جلالته البهيَّة، فكفى مؤلفها فخرًا وشرفًا

---

(١) انظر: "كشف الظنون" لحاجي خليفة (٢/١٦٤٣)، "هدية العارفين" للبغدادي (١/ ١٠٤)، "إيضاح المكنون" له (٢/ ٤٥٤ - ٤٥٥)، "معجم المؤلفين" لكحالة (١/ ٨٩)، "تسهيل السابلة" للبردي (٢/ ٩٤٩)، "معجم مصنفات الحنابلة" للطريقي (٣/ ٣١٤).

(٢) "أحكام أهل الذمة" لابن قيم الجوزية (٢/ ٦١٩).

أن المآخذ عليه معدودة؛ وجوانب النقد محدودة، فإن (من عُدَّت غلطاته: أقربَ إلى الصواب ممن عُدَّت إصاباته)[(١)]؛ كما قيل:

وَمَنْ ذَا الذي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّها كَفَى المرء نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُه[(٢)].

ولما كانت (الكلمة الواحدة يقولها اثنان، يريد بها أحدهما: أعظم الباطل، ويريد بها الآخر: محض الحق - والاعتبار بطريقة القائل وسيرته ومذهبه؛ وما يدعو إليه ويناظر عليه -)[(٣)]: كان الواجب: إحسان الظن بالمؤلف رحمه الله؛ والاعتذار له عن المصطلحات الحادثة والألفاظ المجملة والمعاني المتشابهة التي طغى بها قلمه، وأن نحملها على أحسن المحامل وأجمل الوجوه التي يسوغ حملها عليه ما وجدنا إلى ذلك سبيلًا.

وهذه الألفاظ هي: الفناء والبقاء[(٤)]؛ والسكر والصحو[(٥)]؛

---

(١) "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" لابن قيم الجوزية (٣/ ٥٤٥).

(٢) استفتح ابن هشام كتابه: "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" (١/ ١٤) بهذا البيت؛ ولم يعزه لقائل، وقد نسبه البغدادي في كتابه "شرح أبيات مغني اللبيب" (١/ ١) إلى: يزيد بن محمد المهلبي.

(٣) "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" لابن قيم الجوزية (٣/ ٥٤٣).

(٤) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله أن هذين اللفظين: (الفناء والبقاء) من الألفاظ المتضادة، وأن الفناء يجري في لسان القوم مرادًا به: غاية التعلق ونهايته؛ والانقطاع عما سوى الرب تعالى من كل وجه، وأما البقاء فيجري في لسانهم مرادًا به: صفة العبد ومقامه.

وبيَّن رحمه الله أن هذين اللفظين لم يرد في الكتاب ولا في السنَّة ولا في كلام الصحابة والتابعين مدحهما؛ ولا ذمهما؛ ولا استعمالهما.

انظر: "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" (٣/ ٣٨٥ - ٤٠٥).

(٥) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله أن (السكر) يجري في لسان القوم مرادًا به: سقوط التمالك لقوة الطرب الذي لا يدفعه الصبر، وأما (الصحو) فيجري في لسانهم مرادًا به: مقام صاعد عن الانتظار؛ مغن عن الطلب؛ طاهر من الحرج، مبيِّنًا أن هذين اللفظين: (السكر والصحو) من الألفاظ المتضادة، فالسكر يكون في الانفصال؛ والصحو يكون في الاتصال، والسكر فناء؛ والصحو بقاء، والسكر غيبة؛ والصحو =

والتمكين والتلوين[١]؛ والقرب والاتصال[٢]؛ والغيبة والحضور[٣]؛ والقبض والبسط[٤]؛ والتفرقة والجمع[٥]؛

= حضور، والسكر غلبة؛ والصحو تمكن، والسكر كالنوم؛ والصحو كاليقظة.
وبيَّن رحمه الله أن لفظ (السكر) لم يعبر عنه في القرآن ولا في السنَّة ولا في كلام العارفين من السلف، وأن ذلك من اصطلاح المتأخرين؛ وهو بئس الاصطلاح، لأن لفظ (السكر) من الألفاظ المذمومة شرعًا وعقلًا.
انظر: "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" (٣/ ٣١٨ - ٣٣٣).

(١) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله أن (التمكين) بمعنى: القدرة على التصرف في الفعل والترك، وأن أكثر ما يطلق في اصطلاح القوم: على من انتقل إلى مقام البقاء بعد الفناء، وأما (التلوين) فيجري في لسانهم مرادًا به: التردد والتذبذب.
انظر: "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" (٣/ ١٤٨؛ ٢٢٥ - ٢٢٦).

(٢) قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" (٣/ ١٠١): (أحسن من التعبير بالاتصال: التعبير بالقرب، فإنها العبارة السديدة التي ارتضاها الله ورسوله في هذا المقام، وأما التعبير بالوصل والاتصال: فعبارة غير سديدة، يتشبث بها الزنديق الملحد؛ والصديق الموحد، فالموحد يريد بالاتصال: القرب؛ وبالانفصال والانقطاع: البعد، والملحد يريد به: الحلول تارة، والاتحاد تارة).

(٣) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله أن (الغيبة) تجري في لسان القوم مرادًا بها: غيبة العبد عن مألوفاته لتخليص القصد وتصحيحه؛ ليقطع بذلك العلائق، وأما (الحضور) فيجري في لسانهم مرادًا به: إحضار القلب؛ ومشاهدة المعبود سبحانه كأنه يراه.
انظر: "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" (٢/ ٥٣٢؛ ٣/ ٢٢٠ - ٢٢١).

(٤) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله أن (القبض) يجري في لسان القوم مرادًا به: أمر يطرق القلب يمنعه عن الانبساط والفرح، لا يعرف سببه؛ بل يهجم على القلب هجومًا لا يقدر على التخلص منه، وضده: (البسط) فيجري في لسانهم مرادًا به: إرسال ظواهر العبد وأعماله على مقتضى العلم. فالقبض والبسط عند القوم حالتان للقلب؛ لا يكاد ينفك عنهما.
انظر: "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" (٣/ ٣٠٥ - ٣١٧).

(٥) قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك =

والحال الباطن والعلم الظاهر(١).

= نستعين" (٣/ ٤٤٥ - ٤٤٦): (إن الجمع ينقسم إلى صحيح وباطل، والتفرقة تنقسم إلى محمود ومذموم، وكل منهما لا يحمد مطلقًا؛ ولا يذم مطلقًا، فيراد بالجمع: جمع الوجود؛ وهو جمع الملاحدة القائلين بوحدة الوجود، ويريدون بالتفرقة: الفرق بين القديم والمحدث؛ وبين الخالق والمخلوق، وأصحابه يقولون: الجمع ما أسقط هذه التفرقة، ويقولون عن أنفسهم: إنهم أصحاب جمع الوجود، ولهذا صرح بما ذكرنا محققو الملاحدة؛ فقالوا: التفرقة اعتبار الفرق بين وجود ووجود، فإذا زال الفرق في نظر المحقق: حصل له حقيقة الجمع، ويراد بالجمع: الجمع بين الإرادة والطلب على المراد المطلوب وحده، وبالتفرقة: تفرقة الهمة والإرادة، وهذا هو الجمع الصحيح والتفرقة المذمومة، فحد الجمع الصحيح: ما أزال هذه التفرقة، وأما جمع يزيل التفرقة بين الرب والعبد والخالق والمخلوق والقديم والمحدث: فأبطل الباطل، وتلك التفرقة هي الحق، وأهل هذه التفرقة: هم أهل الإسلام والإيمان والإحسان، كما أن أهل ذلك الجمع: هم أهل الإلحاد والكفر والوثنية، ويراد بالجمع: جمع الشهود، وبالتفرقة: ما ينافي ذلك، فإذا زال الفرق في نظر المشاهد؛ وهو مثبت للفرق: كان ذلك جمعًا في شهوده خاصة؛ مع تحققه بالفرق. فإذا عُرِفَ هذا: فالجمع الصحيح: ما أسقط التفرقة الطبيعية النفسية؛ وهي التفرقة المذمومة، وأما التفرقة الأمرية الشرعية بين المأمور والمحظور والمحبوب والمكروه: فلا يحمد جمع أسقطها؛ بل يذم كل الذم، وبمثل هذه المجملات دخل على أصحاب السلوك والإرادة ما دخل).

(١) المراد بالحال الباطن: هو القيام بأعمال القلوب؛ من الإخلاص والحب والخوف والرجاء والمراقبة والتوكل والرضى وغيرها، والمراد بالعلم الظاهر: هو القيام بأعمال الجوارح؛ من: الصلاة والزكاة والصيام والحج. وهذه الألفاظ قد تشتبه بالألفاظ الجارية على لسان الطائفة الباطنية الضالة؛ وقولهم: إن للشريعة ظاهرًا يعلمه العوام؛ وهو بمنزلة القشور، وباطنًا يعلمه الخواص؛ وهو بمنزلة اللب، ويفسرون العبادات الشرعية الواردة في كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ بالإشارات الباطنية والرموز الخفية.

قال البغدادي في كتابه "الفرق بين الفرق" (ص ٣٠٥): (اعلموا أسعدكم الله: أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم؛ بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم).

وانظر في بيان خطر الباطنية؛ وظهورهم؛ وأسمائهم؛ وعقائدهم: "فرق معاصرة =

ولعمر الله؛ لقد كان المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في غنية عن إيراد هذه الألفاظ؛ التي ليس لها في حقيقة الأمر (معنى صحيح؛ ولا لفظ مليح، بل المعنى أبطل من اللفظ؛ واللفظ أقبح من المعنى)[١].

ولولا أن العصمة و(الحق لله ورسوله، وأن كل ما عدا الله ورسوله: فمأخوذ من قوله ومتروك؛ وهو عرضة الوهم والخطأ: لما اعترضنا على من لا نلحق غبارهم؛ ولا نجري في مضمارهم، ونراهم فوقنا في مقالات الإيمان ومنازل السائرين كالنجوم الدراري)[٢].

ورحم الله الإمام ابن قيم الجوزية - الخبير بألفاظ القوم ومصطلحاتهم - إذ يقول - في معرض بيانه لحال اللفظ الواحد من هذه الألفاظ؛ وما يتضمنه من الإجمال والاشتباه -: (كيف يكون ذلك أعلى من مقامات السالكين؛ وغاية مطلب المقربين: ولم يأت له ذكر في القرآن ولا في السنَّة؛ ولا يعرفه إلَّا النادر من الناس؛ ولا يتصوره أكثرهم إلَّا بصعوبة ومشقة، ولو سمعه أكثر الخلق لما فهموه؛ ولا عرفوا المراد منه إلَّا بترجمة؟

فأين في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ أو كلام الصحابة - الذين نسبة معارف من بَعْدَهم إلى معارفهم كنسبة فضلهم ودينهم وجهادهم إليهم - ما يدل على ذلك، أو يشير إليه؟

فصار المتأخرون - أرباب هذه الاصطلاحات الحادثة بالألفاظ المجملة والمعاني المتشابهة - أعرف بمقامات السالكين ومنازل السائرين وغاياتها من أعلم الخلق بالله بعد رسله! هذا من أعظم الباطل.

= تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها" للدكتور غالب العواجي (١/ ٢٧١ - ٣٢٠).

(١) "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" لابن قيم الجوزية (٣/ ٥٤١).

(٢) "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" لابن قيم الجوزية (٢/ ١٤٣).

فلا تجد هذا التكلف الشديد؛ والتعقيد في الألفاظ والمعاني عند الصحابة أصلًا، وإنما يوجد عند من عدل عن طريقهم، وإذا تأمله العارف وجده: "كلحم جمل غث؛ على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى؛ ولا سمين فينتقل"(١).

فيُطوِّل عليك الطريق؛ ويُوسِّع لك العبارة، ويأتي بكل لفظ غريب؛ ومعنى أغرب من اللفظ، فإذا وصلت لم تجد معك حاصلًا طائلًا، ولكن تسمع جعجعة؛ ولا ترى طحنًا.

فكل هؤلاء محجوبون بما لديهم؛ موقوفون على ما عندهم، خاضوا - بزعمهم - بحار العلم؛ وما ابتلَّت أقدامهم، وكدُّوا أفكارهم وأذهانهم وخواطرهم؛ وما استنارت بالعلم الموروث عن الرسل قلوبهم وأفهامهم، فرحين بما عندهم من العلوم؛ راضين بما قيدوا به من الرسوم، فهم في واد؛ ورسول الله ﷺ وأصحابه ﵃ في واد، والله يعلم أنا لم نتجاوز فيهم القول؛ بل قصرنا فيما ينبغي لنا أن نقوله، فذكرنا غيضًا من فيض؛ وقليلًا من كثير.

وهؤلاء كلهم داخلون تحت الرأي الذي اتفق السلف على ذمه؛ وذم أهله، فهم أهل الرأي حقًّا.

وقال ﷺ في الحديث: «**ألا هلك المتنطعون، ألا هلك المتنطعون، ألا هلك المتنطعون**»(٢).

---

(١) قطعة من حديث أم زرع الطويل؛ الذي أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل - الحديث رقم (٥١٨٩) - (٤/ ١٦٦٨ - ١٦٦٩)]، ومسلم في صحيحه [كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر حديث أم زرع، الحديث رقم (٢٤٤٨) - (٤/ ١٨٩٦ - ١٩٠١)] من حديث عائشة ﵂.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب العلم، باب هلك المتنطعون - الحديث رقم (٢٦٧٠) - (٤/ ٢٠٥٥)]؛ بلفظ: "هلك المتنطعون".

وأخرجه بلفظه: أحمد في مسنده [الحديث رقم (٣٦٥٥) - (٦/ ١٦٧)]، وأبو داود في سننه [كتاب السنَّة، باب في لزوم السنَّة - الحديث رقم (٤٦٠٨) - (٥/ ١٥)] من حديث عبد الله بن مسعود ﵁.

فإن لم تكن هذه الألفاظ والمعاني التي نجدها في كثير من كلام هؤلاء تنطعًا: فليس للتنطع حقيقة، والله ﷻ أعلم)[١].

وقال رحمه الله في نونيته في بيان ما يترتب على هذه الألفاظ المجملة المشتبهة:

فعليك بالتفصيل والتمييز فالـ ... إطلاق والإجمال دون بيان

قد أفسدا هذا الوجود وخبَّطا ... الأذهان والآراء كل زمان)[٢].

والسلامة في هذا الباب: أن يتحلى بالألفاظ الشرعية المثمرة للاتفاق والائتلاف، وأن يتخلى عن الألفاظ البدعية المورثة للافتراق والاختلاف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (إن الأئمة الكبار كانوا يمنعون من إطلاق الألفاظ المبتدعة المجملة المشتبهة؛ لما فيها من لبس الحق بالباطل؛ مع ما توقعه من الاشتباه والاختلاف والفتنة، بخلاف الألفاظ المأثورة؛ والألفاظ التي بُيِّنَت معانيها، فإن ما كان مأثورًا حصلت به الألفة، وما كان معروفًا حصلت به المعرفة)[٣]

وهل كبَّ القوم في الشطحات؛ وأوقعهم في الزلَّات: إلَّا ما حصدته ألسنتهم من بِدع المصطلحات؟

قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله: (إياك ثم إياك والألفاظ المجملة المشتبهة التي وقع اصطلاح القوم عليها، فإنها أصل البلاء)[٤]

---

(١) مختصرًا من "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" لابن قيم الجوزية (٣/ ٤٥٤ - ٤٥٧).

(٢) "الكافية الشافية في الانتصار للفرق الناجية" لابن قيم الجوزية [البيت رقم (٧٧٤ - ٧٧٥) - (ص ٨٢)].

(٣) "درء تعارض العقل والنقل" لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٢٧١).

(٤) "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" لابن قيم الجوزية (٣/ ١٥٨).

٤- التعريف بالنسخة الخطية ومصدرها:

أولًا: تُعتبر هذه النسخة التي بين أيدينا نسخة كاملة واضحة وعلى طرَّتها تفصيل لاسم الكتاب وأقسامه - كما مرَّ آنفاً - ومصدرها مكتبة حاجي سليم آغا التابعة للمكتبة السليمانية، مجموع رقم: (٤٠٤).

ثانيًا: (كتاب مدخل أهل الفقه واللسان) فأصلها نسخة دار الكتب الظاهرية بمكتبة الأسد بدمشق، وتبتدئ صفحات النسخة الخطية في المجموع من (ق٦٥-ق٨٣) وتقع هذه النسخة تحت رقم التصنيف (٣٧٦٥) كما توجد نسخة مصورة منه في قسم المخطوطات بالمكتبة المركزية بعمادة شؤون المكتبات بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وتقع في مجموع يحمل الرقم (٩٧١)، وهي النسخة الأصل التي طُبعَ الكتابُ عليها، ثم تمَّ مقابلتها مع نسخة المكتبة السليمانية.

ثالثًا: كتاب (لمعة من أشعة النصوص في عتك أستار الفصوص) فقد تم مقابلة هذا الكتاب على نسخة أخرى ورقمها: (٢/ ٤٧٣٣).

وهي مودعة في مكتبة (تشيستربتي) دبلن/إيرلندا، وقد نُسبت في فهرستها إلى شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.

نماذج من صور المخطوطات



كتاب في السلوك تصنيف

الشيخ الامام العالم العامل الزاهد العابد الورع الناسك الخشوع عماد الدين
احمد بن الشيخ ابراهيم الواسطي رحمه الله ورضي عنه
وهو مقسوم على ستة اقسام

القسم الاول في الكتب

كتاب ـــــ مدخل اهل الفقه واللسان الى ميدان المحبة والعرفان

كتاب ـــــ مفتاح المعرفة والعبادة لأهل الطلب والارادة الراغبين في الدخول الى دار السعادة التي ليست

كتاب ـــــ مفتاح الطريق الى سلوك التحقيق

كتاب ـــــ مفتاح طريق المحبين وباب الانس برب العالمين

كتاب ـــــ السر المصون والعلم المخزون فيه لوايح من المحبة

كتاب ـــــ ميزان ...

كتاب ـــــ ميزان ...

صفحة غلاف كتاب السلوك (نسخة مكتبة حاجي سليم آغا)



من الاصول الشرعية التي هي اصول العقائد والاعمال في المشاهد والاحوال
رحمكم الله تعالى ان يوفقني لسلوك طريقة مولاي الغالي الى اصول ديني وعقائدي
والعلوم والاحوال وان يحققني بحقائق احوال الصوفية من الحقوق وحقائق القرب ومراتب
الوصول والحظوة بالمحبوبية والاختصاص والاصطناع والتولية والى الله تعالى ارغب
ان يحشرني على هذا العلم وهذا الاعتقاد والعمل متصلا بهذا الحال الصوفي فيكون صاحبه
من تم حاله وكمل وان يلحقني من صحبة اولئك الاولين في الدنيا والاخرة واياه اسال
ان يهدينا اجمعين عن سبيل الغي الى سبيل الذين انعم عليهم غير
المغضوب عليهم ولا الضالين وان يعفو عنا اجمعين
والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
تسليما كثيرا الى يوم الدين وهذا اخر ما وجد من كلام الشيخ عماد الدين
رحمه الله تعالى ورضي عنه ووافق الفراغ من ذلك اخر يوم الثلثا الخامس من شهر
ربيع الاول سنة خمس وثمان مائة بظاهر بلبيس المحروسة على يد افقر خلق الله تعالى الى عفوه
ورحمته محمد عبد الرحمن الدمشقي حامدا لله تعالى ومصليا على نبيه محمد وآله وصحبه
وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

لفاطمة الزهراء رضي الله عنها

ماذا على من شم تربة احمد ان لا يشم مدى الزمان غواليا
صبت علي مصائب لو انها صبت على الايام صرن لياليا

ما من كاتب الا سيبلى ويبقى الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بكفك غير شيء يسرك في القيامة ان تراه

الصفحة الأخيرة من كتاب السلوك

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين والصلوة والسلام على سيدنا محمد
وآله وصحبه اجمعين قال الشيخ الامام العلامة
الفريد المحقق عماد الدين احمد بن ابراهيم الواسطي
ادام الله علو قدره وسمو ذكره الحمد لله الذي منح
مناهج الهدى والرشاد لمن احبه فانقذه من
العناية الجفوة بالتمادي
الابعاد وخلع جلابيب وهداهم في مدارج
على المنيبين الى رضاه واناب
الاعمال والاخلاق لنيل المراد وصفاهم من
درن الطباع البشرية ذات الظلمات والسواد
لتستعدوا بذلك لفيض الانوار بجلال التأهب
والاستعداد فطمهم عن المخالفات وغذاهم
بالمراقبات فاقبلوا بوجوه قلوبهم عليه وكانوا
قبل ذلك من الشراب كشف لقلوبهم الحجاب
واراهم لوايح الاقتراب فانجذبت قلوبهم الى المحبة والوداد
انجذاب الحديد الى المغناطيس بالمحبة والوداد

الصفحة الأولى من كتاب مدخل أهل الفقه واللسان
نسخة (دار الكتب الظاهرية).



فان الحوادث كلها من خير وشر هي من نتائج فعله او اقضيته
فيجب علينا دوام الافتقار الى الله تعالى ليحفظنا في طاعته
ويحرسنا عن معصيته وهذا اصل كبير تخلف عنه قوم
فاتهم فضل كثير قال بعض المشايخ من ادام الالتجا الى
الله تعالى في اكله وشربه وتقلباته وحركاته فتح الله
عز وجل عليه باب المشاهد وهو تنوير الباطن بانوار
العظمة والجلال فهذا طريق موصل الى الله عز وجل بنفسه
اذا واظب العبد عليه وفي الحديث كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول يا حي يا قيوم برحمتك استغيث لا تكلني الى
نفسي طرفة عين واصلح لي شاني كله لا اله الا انت
وهذا اخر ما تيسر والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا
محمد واله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

الصفحة الأخيرة من كتاب مدخل أهل الفقه واللسان

نسخة (دار الكتب الظاهرية).

منا التي يلي رؤسنا دون الجهة الاخرى فعلى الى تقرير غرض [illegible]
كل من مقدمتي [illegible] السؤال بالملة وكان اسماء اذا دعونه اتينا
ندعوه بقصد العلو دون غيره كما فطرنا على ذلك وبهذا يظهر الجواب
عن السؤال من وجوه متعددة والله سبحانه اعلم تم الجواب
المذكور بحمد الله تعالى ومنه وفيه من الفوايد الجمة والفرايد
العجيبه والمباحث المحققه ما الله به عليم وهو المسؤل بان ينفع
به مولفه ومن ساله وكاتبه والناظر فيه والراغب اليه والمحب
له وان يجمع قلوب اخواننا المومنين على التقوى ويوفقنا جميعا
لما يحب ويرضى ويعز الحق والمحققين اين كانوا ومن كانوا ويخذل
الباطل والمبطلين اين كانوا ومن كانوا ويلهمنا رشدنا ويقينا شر
انفسنا ويهدينا لما اختلف فيه من الحق باذنه انه يهدي من يشا
الى صراط مستقيم ويجعل اعمالنا كلها صالحة ويجعلها لوجهه
خالصة ولا يجعل لاحد فيها شيا انه ارحم الراحمين
والحمد لله وحده وصلواته على خير خلقه محمد واله وصحبه
وسلامه انه على ما يشا قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل

لمعة من اشعة النصوص في هتك
استار كتاب الفصوص

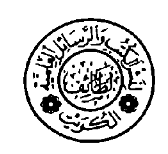
رحم الله من عرف مذهب هذا الرجل وتفقه فيه [illegible]

الصفحة الأولى من كتاب لمعة من أشعة النصوص
في هتك أستار الفصوص (نسخة تشستربتي).

ان الله هو المسيح ابن مريم هذا في شخص واحد حكم بكفرهم وختم بموتهم
قالوا انه الله فما ظنك بمن يجعل جميع الموجودات الله ولو وجود ما تعين
وجوده فيها ولا كفر وابا الله عدد كل شيء ونحن نقول سبحان الله عدد كل شيء
وفيما ذكرته من كلامه تنبيه على مراده وسوء عقيدته وفي بعض ذلك كفاية
لمن رام التفقه في الحادة وبالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا
قوة الا بالله العلي العظيم ... والحمد لله وحده اللهم اغفر لنا وارحمنا
وجنبنا الكفر والنفاق ما ظهر منه وما بطن ولجميع المسلمين امين
رب العالمين ... الصلاة والسلام عليك يا رسول الله
[illegible]

الصفحة الأخيرة من كتاب لمعة من أشعة النصوص

في هتك أستار الفصوص (نسخة تشستربتي).






السُّلُوك

قَوَاعِدُ فِي السَّيْرِ إِلَى اللهِ تَعَالَى

لِلإمامِ عِمادِ الدِّينِ أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ إبراهيمَ الواسِطيِّ
الشَّهيرِ بابنِ شَيخِ الحزاميِّين
(٦٥٧هـ - ٧١١هـ)

دِراسةُ وتحقيقُ وتعليقُ
د. وليد بن محمد بن عبد الله العلي رحمه الله
(١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م)

المجلدُ الأوَّلُ

وهو مقسوم على ستة أقسام:

القسم الأول في الكتب

- كتاب مدخل أهل الفقه واللِّسان إلى ميدان المحبَّة والعرفان.
- كتاب مفتاح المعرفة والعبادة لأهل الطَّلب والإرادة الرَّاغبين في الدُّخول إلى دار السَّعادة الَّتي ليست بمنحرفة عن طريق الجادة.
- كتاب مفتاح الطَّريق إلى سلوك التَّحقيق.
- كتاب مفتاح طريق المحبِّين وباب الأنس بربِّ العالمين.
- كتاب السِّرِّ المصون والعلم المخزون فيه لوائح من المحبة وشؤون.
- كتاب ميزان الحق والضلال في تفصيل أحوال النجباء والأبدال.
- كتاب ميزان الشيوخ
- كتاب تلقيح الأسرار بلوامع الأنوار للعلماء الأبرار.
- كتاب حياة القلوب وعمارة الأنفاس في سلوك الأذكياء الأكياس.
- كتاب السُّكر والصَّحو.
- كتاب عمدة الطُّلاب من مؤمني أهل الكتاب.
- كتاب البُلغة والإقناع في حلِّ شبهة مسألة السَّماع.
- كتاب لوامع الاسترشاد في الفرق بين التَّوحيد والاتِّحاد.
- كتاب فيه لمعة من أشعَّة النُّصوص في هتك أستار الفصوص.
- كتاب مجمل تلقيح الأفهام في مجمل طبقات الإسلام.

القسم الثاني في القواعد

- قاعدة في طريق الفقر المحمدي - قاعدة في صفة العبودية
- قاعدة في الحب في الله حقيقة - قاعدة في أسباب المحبَّة لله تعالى

- قاعدة في أسباب محبَّة الله تعالى - قاعدة في مقاصد السالكين
- قاعدة في بيان عمل يوم وليلة للأبرار، ويوم وليلة للسائرين إلى طريق المقربين.
- قاعدة في أنَّ العبد يتعيَّن عليه معرفة الطَّريق إلى الله تعالى والتعرُّف له
- قاعدة في تقوية السَّالك على مطلوبه - قاعدة في شرح حال العُبَّاد والصوفية الأفراد
- قاعدة في المستعد للتَّصوُّف - قاعدة في خصوص طائفة الصُّوفية
- قاعدة يذكر فيها أمر السالك في الابتداء - قاعدة في اعتبار أهل الخير
- قاعدة في الإنابة إلى الله تعالى - قاعدة في مظاهر الشُّهود والمعرفة
- قاعدة في أصناف التألُّه وخصوصيته تأله كل طائفة من الطوائف
- قاعدة في بيان السلوك - قاعدة في سلوك الأولياء
- قاعدة في علامات التحقق بالقيومية - قاعدة في بدايات الأولياء
- قاعدة في بيان الطريقة إلى الله تعالى من البداية إلى النهاية
- قاعدة في حبس النفس والعكوف على الهمّ
- قاعد في تمهيد ما قبلها وتناسبه - قاعدة في الأمور التي ينبغي أن تكون همَّ للسَّالك
- قاعدة في تصفية الأخلاق استعداداً ليوم الحشر والتلاق
- قاعدة في الفرق بين كبر النفس وعزة القلب وبين البغي والشجاعة وغيرهما
- قاعدة في سلوك التَّحقيق إلى غاية المطالب السَّائر إلى ربّه الذاهب
- قاعدة في أنواع التفاريق وصفة الجمع - قاعدة تعرف العبد نصيبه من ربه
- قاعدة في الأمور الموصلة والأمور القاطعة للمبتدي والمنتهي

- قاعدة في معرفة النقص الداخل على الكمَّل من العارفين ومعرفة الكمال
- قاعدة في نفي الخواطر - قاعدة في الجد والاجتهاد
- قاعدة في التجريد - قاعدة في الفرق بين العابد والمشاهد
- قاعدة في الفرق بين مشاهدة القيمومية - قاعدة في الوصال واللقاء
- قاعدة في ميزان الاستقامة لأهل القرب والكرامة
- قاعدة في استجلاب الوداد في معاملة رب العباد

قاعدة في ذكر الكرامات المعجلة للمنقطعين إلى الله عز وجل في الدنيا

- قاعدة في المثل الأعلى - قاعدة في قوله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [سورة التوبة: الآية ١١١].
- قاعدة الروحانيات - قاعدة نبويه من قواعد النبوات
- قاعدة من دلائل النبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم
- قاعدة في تعرف النبوة - قاعدة في الصفات

القسم الثالث في الرسائل والمراسلات والمكاتبات

- رسالة في إثبات الاستواء والفوقية وتنزيه الباري سبحانه عن الحصر والتمثيل والكيفية
- رسالة في مراتب المعرفة وهي رسالة البحر المحيط وبعدها دقائق الحقائق
- رسالة العقبات والطوارق والعوارض والطوارئ وسياستها بحكم العلم
- رسالة فيها لوائح من قواعد أهل الزيغ والضلال المبطلين ولوائح من قواعد طريق الصادقين
- رسالة إلى الشيخ أحمد المغربي المقيم بثغر طرابلس

- رسالة السراجية في الطريقة المنهاجية أرسلها إلى بغداد

القسم الرابع في المسائل والجوابات

- مسائل عن الفرق بين كرامة الولي وزوكرة المزوكر، وعن الفرق بين الحال الصحيح والحال الفاسد، والفرق بين الصالح والطالح، والفرق بين الصديق والزنديق وغيره:

- مسائل في الوصول إلى الله تعالى بالقلب
- مسألة: ما علامة حصول الإيمان في مرتبة علم اليقين
- مسألة: ما السكينة وما حدُّها
- مسألة: ما علامة العارف
- مسائل واضحة لأهل البداية - مسائل في آداب التربية
- مسألة في معنى الصلاة - مسألة في قرب المصلي من الله تعالى

القسم الخامس في النصائح والوصايا

- نصيحة أرسلها إلى الشيخ شمس الدين محمد بن شيخ القنطرة رحمه الله تعالى.
- عهدٌ عهده الشَّيخ إلى سائر محبيه وأصحابه في حياته وبعد مماته.
- نصيحة أخرى كتبها لإخوانه قريب من وفاته رحمة الله عليه.
- وصية: أوصى بها الشيخ عماد الدين لبعض المشتغلين بالعلم.
- وصية: أوصى بها الشيخ لبعض قضاة الشام من أصحابه.

القسم السادس في شرح كلام

من المشايخ الذين سلفوا قبله رحمهم الله وبعده رحلة الشيخ وشرح تقلباته في عمره من بدايته إلى نهايته وذكر البلاد التي سكنها والمشايخ الذي اجتمع بهم رضي الله عنهم.

- شرح الاثني عشر كلمة التي قالها الجنيد رضي الله عنه.
- شرح وصية الشَّيخ شهاب الدين السَّهروردي رحمه الله
- شرح كلمات قالها الشيخ الشاذلي رحمه الله.
- شرح باب التوبة من منازل السائرين للهروي رحمه الله.
- شرح باب بالمحاسبة منه أيضاً.

آخر الأقسام الستة

والحمد لله وحده

القسم الأول في الكُتب

مَدْخَلُ أَهْلِ الفِقْهِ وَاللِّسَانِ
إِلى مَيْدَانِ المَحَبَّةِ وَالعِرْفَانِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَبه نَستَعين[(١)]

[(٢)]والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه أجمعينَ.

قال الشيخُ الإمامُ العلامةُ الفريدُ المحققُ: عمادُ الدين أحمد بن إبراهيم الواسطي - أدام الله علو قدره، وسمو ذكره[(٢)] -:

الحمد لله الذي فتح مناهجَ[(٣)] الهدى والرَّشاد؛ لمن أحبَّه[(٤)] فأنقذه من الإبعاد، وخلعَ جلابيبَ العناية المحفوفة بالسَّداد؛ على المنيبينَ إلى رضاهُ وأفاد، وهذَّبهم في مدارج الأعمال والأخلاق لنيل المراد، وصفَّاهم من كدر الطباع البشريَّة ذات الظُّلمات والسَّواد؛ ليستعدُّوا بذلك لفيض الأنوار بكمال التَّأَهُّب والاستعداد، فَطَمَهُم عن المخالفات وغذَّاهم بالموافقات؛ فأقبلوا بوجوهِ قلوبهم عليه، وكانوا قبل ذلك من الشُرَّاد.

كشف لقلوبهم الحجاب وأراهم لوائحَ الاقتراب؛ فانجذبت قلوبهم إلى المحبة انجذابَ الحديد إلى المغناطيس بالمحبة والوداد، [٦٦/أ] حَيِيَتْ به قلوبهم الحياةَ الأبديةَ واتَّصلتْ به اتصالًا لا انفصامَ لهُ أبدَ الآباد، أيقظهم

---

(١) في النسخة الخطية: «رب يسر» بدلاً من: «وبه نستعين».
(٢-٢) لا يوجد في النسخة.
(٣) في النسخة الخطية: «منهاج».
(٤) في النسخة الخطية: «لمن أحب» بدون هاء الضمير.

وعلَّمهم وهذَّبهم ففتحوا عيون بصائرهم إليه بعدَ العمى وحفُّوا به بلا استبداد، جالت قلوبهم في فضاء القُرْب بعد سجنها في مضائق الأكوان وتردِّيها في دركات الأضداد.

خرجوا من الدنيا إلى الآخرة بقلوبهم فتوطَّنوا هناك بين يدي محبوبهم أوطان العبودية على أحسن المهاد، فلها في حضرة العزيز أزيز(١) كأزيز المراجل(٢) من غليانها بالمحبة والتعظيم والخشية والافتقار والاسترفاد(٣)، ولهم منه على مدد الأوقات تزايدُ الصِّلات من منح التَّجلِّيات وأنواع الكرامات ما يعجز عن حصره العباد، يرون بقلوبهم ما غاب عن العيان؛ فَبِهِ يَلْتَذُّون ومنه يخافون وعليه يعكفون؛ فمنهم المريدُ والمراد.

وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدهُ لا شريك له، القائمُ بقيوميته على العباد، الشامل لهم بكرمه وفضله(٤) المستزاد.

وأشهدُ أن محمدًا ﷺ عبدهُ ورسولهُ فاتحُ الخير؛ والواسطةُ [٦٦/ب] إلى كل فضلٍ تُنتظرُ عائدتهُ في المعاد، صلوات الله عليه(٥) وعلى آله وأصحابه ما قام على باب فضله الوُرَّاد، وصدر عنه بجوائز الصِّلات أهلُ الوداد.

وبعدُ:

فإن العبدَ إذا فتح الله بصيرته في فنون العلوم، وأمدَّه بصفاء العقل ونوافذ

---

(١) قال أبو عبيدة: الأزيز: الالتهاب والحركة؛ كالتهاب النار في الحطب، يقال: أزَّ قِدرك: أي ألهب النار تحتها، وائتزت القِدر: إذا اشتد غليانها. كذا في "تهذيب اللغة" للأزهري (١٢/ ٢٨١) (مادة أزَّ).

(٢) المراجل: جمع مِرْجَل - مذكرٌ - وهو: القِدر من الحجارة والنحاس. وقيل: هو قِدر النحاس خاصة. وقيل: هو كل ما طبخ فيه من قِدر وغيره. كذا في "لسان العرب" لابن منظور (١١/ ٢٧٤) (مادة رجل).

(٣) الاسترفاد: الاستعانة. كذا في "لسان العرب" لابن منظور (٣/ ١٨١) (مادة رفد).

(٤) في النسخة الخطية: «بفضله وكرمه».

(٥) في النسخة الخطية: «وسلامه».

الفهوم، وارتضعَ من العلوم الشرعية أكملَ الرَّضاع، وصار له من كسوتها أحسنُ القناع، ونفذ فكره في تفاصيل الأمر والنهي، وعرف طريقَ ردِّ الحوادث إلى الأصول؛ فحقيقٌ به أن يَكْتَسِيَ ملابسَ أعمالها، ويذوق رائقَ[١] أشربتها[٢] وحقائقَ أحوالها، فكمالُ العبد متوقفٌ على ذلك، لأن كمالَ العبد إنما يتمُّ بكمال عبوديَّته لله ﷻ، وهو مُركبٌ من جسمٍ ظاهرٍ، ونفسٍ مائلةٍ، وعقلٍ مميزٍ، وقلبٍ حاكمٍ، وروحٍ كليةٍ.

فكمالُ عبوديَّة الجسم: القيامُ بأعمال الشرع واجتنابهُ مناهيه؛ وإتقان ذلك العمل، والاجتنابُ بالتصفية والاستيعاب.

وكمال عبوديَّة النفس: موافقةُ مولاها في محبة ما أحبَّهُ وكراهية ما كَرِهَهُ، وهذا إنما يَصِحُّ[٣] لأهل النفوس المطمئنَّة، ويتعذرُ على أهل النفوس الأمَّارة [٦٧/أ] واللوَّامة[٤].

وكمالُ عبوديَّة العقل: امتلاؤه بتفاصيل علوم الأمر والنَّهي؛ وحَذَاقَةِ[٥] البصيرة فيه، مع المهارة وحسن التبصُّر.

وكمال عبوديَّة القلب: افتتاح بصره في الصفات، والقيام بأحكام

---

(١) راق الشراب والماء؛ يروقان روقًا وتروقًا: صَفَوَا. كذا في "لسان العرب" لابن منظور (٣/ ١٨١) (مادة روق).

(٢) في النسخة الخطية: «شرابها».

(٣) في النسخة الخطية: «إنما يصلح».

(٤) انظر في الفرق بين هذه النفوس الثلاثة - المطمئنة والأمَّارة واللوامة -؛ وبيان أنها نفسٌ واحدةٌ باعتبار ذاتها؛ وثلاث باعتبار صفاتها، وأن الله سبحانه يمتحن الإنسان بالنفس الأمَّارة تارة؛ وبالنفس اللوامة تارة أخرى، ويكرمه بالمطمئنة - التي هي غاية كمال النفس وصلاحها -: "إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان" لابن قيم الجوزية (١/ ١٢٥ - ١٢٩)؛ "الروح" له (ص ٥٠٥ - ٥١٤).

(٥) الحذاقة: المهارة في كل عمل. كذا في "لسان العرب" لابن منظور (١٠/ ٤٠) (مادة حذق).

عبوديَّاتها؛ من الخوف والرجا؛ والخشية والرضا؛ والتوكل والمحبة العامة والمراقبة؛ وغير ذلك من العبوديَّات المقتضية لأحكام الصفات.

وكمال عبوديَّة الرُّوح: انطلاقها في فضاء القُرْب، ووجدانها للحب الخاص المُلْهِبِ لها بواسطة ما يبدو عليها من آثار الجلال والإكرام، فتصير بحرًا مَوَّاجًا من نسيم[١] القُرْبِ وروح الأُنْسِ، ملتهبةً بنيران الحب، مجذوبةً بجواذب الشَّوق.

فيا من يطلبُ تكميلَ فطرته؛ ويرومُ إصلاحَ جِبِلَّتِهِ: عليكَ بطلب الكمال لكل جزءٍ منك؛ من جسمك ونفسك وعقلك وقلبك وروحك، واحذر أن تخرج من الدنيا وبَعْضٌ من أبعاضك ناقصٌ لم يقم لله ﷻ بما تَعَبَّده به، فإن عجزت عن تكميل كل جزءٍ منك بما قد شُرِحَ فكن بذلكَ مؤمنًا؛ وبه عالمًا، فمن علم شيئًا وآمن به: ارتقى بذلك عن حضيض الجهل به؛ مع التخلف عن نَيْلِه، فارتقاؤك من دَرَكِ الجهل إلى العلم به أهون من الانحطاط في الجهل مع القصور، فشرٌّ [٦٧/ب] واحدٌ أَهْوَنُ من شَرَّيْن، وفَوْتٌ واحدٌ أَقْرَبُ من فَوْتَيْن، والله[٢] المستعان.

فصلٌ

إذا علمت ذلك وآمنت به وعرفت فضل صاحب الكمال تبيَّن لك شدة الافتقار إلى ذلك، وعرفت فضل المرشدين إلى ذلك، والفضل الحاصل بتحكيمهم والانقياد لهم والأدب معهم، وعرفت النقص الواقع بفوات صحبتهم وعدم الانتفاع بهم، وبمخالفتهم وبسوء التأتي[٣] معهم.

(١) في النسخة الخطية: «من نصيب».
(٢) في النسخة الخطية: «وبالله».
(٣) التأتي: من المواتاة؛ وهي: المطاوعة والموافقة، وأصلها الهمز فخفف وكثر؛ حتى =

فتأدب معهم بآداب الطلبة الأكياس، واحفظهم وعامل الله تعالى بذلك، وانظر إليه في الأول والآخر والظاهر والباطن، ولا تعلق قلبك بهم دون الله؛ يحفظ الله ﷻ عليك كمالك إن شاء الله تعالى بهم.

فأدبُ صحبة الأستاذِين مُقَدَّمٌ على كل أدب، مَن حفظه: حفظ الله عليه حاله بحسن أدبه معهم، ومعاملة الله ﷻ بذلك من حسن الإصغاء إليهم، وترك الخلاف عليهم، وترك اتهامهم والمماراة لهم، وحسن الاستكشاف لما يشكل من عباراتهم وأحوالهم بلطيف الكلام، وخفض الجناح لهم، والسكوت عند قبضهم، واغتنام أوقات بسطهم، والافتقار إلى الله ﷻ في ذلك كله ليتولى حفظ العبد فيه، فهؤلاءِ هم الوسائط؛ تُستفاد أحكام الطريق من أدبهم، وتُسْتَشَف من ردائهم أنوار المطلوب.

فالأدب [٦٨/أ] معهم هو من[١] الأدب مع الله ﷻ ومع رسوله ﷺ، لأنهم ورثته[٢]، ورثوا قسطًا من حاله الباطن كما ورث الفقهاء قسطًا من علمه الظاهر[٣]، والكل مشتركون في العمل؛ وبالله التوفيق.

= صار يقال بالواو الخالصة. كذا في "لسان العرب" لابن منظور (١٤/١٣) (مادة أتي).

(١) «من»: ساقطة من النسخة الخطية.

(٢) فيه بيانٌ لأحد معالم الوسطية في منهج أهل السنَّة والجماعة ومعتقدها، وتتمثل وسطيتهم في هذا المعلم مع ورثة الرسول ﷺ؛ فلم يغلوا فيهم غلو الرافضة والمتصوفة في طريقتهم الكاسدة، ولم يجفوا عنهم جفاء الخوارج والجهمية والمعتزلة في طريقتهم الفاسدة.
وانظر في بيان منهج أهل السنَّة والجماعة في باب تعظيم العلماء والصالحين؛ وأنه وسط بين طرفين، وهدى بين ضلالتين: "وسطية أهل السنَّة بين الفرق" للدكتور محمد باكريم (ص ٤٤٤ - ٤٥٣).

(٣) تقدم بيان المراد بالحال الباطن والعلم الظاهر في خاتمة دراسة الكتاب؛ عند بيان بعض المآخذ على المؤلف ؒ في إيراده بعض المصطلحات المجملة المشتبهة في كتابه.

فصلٌ

في بيان منشأِ المعرفة والمحبة لله عز وجل، من أين تنشأ؟ ومن ماذا تنشأ؟

أصل المعرفة: الإيمان بالله ﷻ وبرسوله ﷺ، وإنما ينشأ الإيمان من معرفة الرسول ﷺ بمعرفة سيرته وسننه وغزواته ومعجزاته وآياته وكراماته، فبذلك يعلم شأن النبوة، وتلوح أدلتها وبراهينها في القلوب.

ومتى عُلِمَ[1] شأن النبوة ورسخت معالمها ودلائلها في القلوب: كانت كرسيًا لعلم التوحيد، وطريقًا إلى معرفة الرب العظيم المُرسِل الباعث[2]، لأن النبوة آيات الله ﷻ وبيِّناته ودلالاته لمن اتَّسع فهمه وصَفَا من الكدر، وطلب استخراج ذلك منه.

وإنما حُجِبَ أكثر من حُجِبَ عن حقائق علم التوحيد - وإن كانوا عالمين بالسُّنَّة وتفاصيلها - لأنهم يطلبون من السُّنَّة معرفة الأحكام؛ وهِمَمُهُم قاصرةٌ عن طلب السُّنَّة لمعرفة حقائق الإيمان، ولو طلبوه - مع المشيئة [٦٨/ب] - لأدركوه، فهِمَمُهُم منصرفةٌ إلى محبة الدنيا ومناصبها والرفعة فيها، قد سَرَحَت قلوبهم في أكناف الدنيا؛ وانصرفت عن أكناف الآخرة، وحُجِبَت عن شهود المعرفة وذَوْقِ المحبة، ولم يتجاوزوا[3] صورة الشريعة وظواهر الأحكام إلى حقائق أسرارها ومدلولاتها من المعارف الإلهية، فلم يشرق في قلوبهم شيءٌ من أنوار الصفات ولا معارف الأفعال.

---

(١) في النسخة الخطية: «علمت»، وفي النسخة التركية: «علمت تفاصيل».
(٢) في النسخة الخطية: المرسل الـ الباعث، ووضعت ضبة (صـ) على (الـ).
(٣) في النسخة الخطية: «يتجاوزا».

ومن أحبَّ معرفة الله ﷻ، وعَزَفَت نفسه عن الدنيا وشهواتها، وجعل طريقه إلى ذلك كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ: ترقى من ظاهر السنَّة إلى باطنها - بتوقيف الأستاذِين النافذين إلى ذلك مع المشيئة -؛ فانبثق في قلوب الصادقين الطالبين لذلك أنوارُ المعارف من الكتاب والسنَّة.

وهو النور المُسْتَجِنُّ(١) في ضمن الشرائع والأحكام، فالشرائع والأحكام هي كالسِّتْر على ذلك النور، لا يُكْشَفُ(٢) ذلك السِّتْر إلَّا عن قلب من صَدَقَ الله في طلبه(٣) وطلب معرفته ومحبته، فيخرقه حينئذٍ بمشيئة الله ﷻ، فمن خرقه باشر الإيمان صفو قلبه وعرف الرب ﷻ الباعث للأنبياء بشرائعه وأحكامه؛ بأسمائه وصفاته وأفعاله، فتلوح آثار الأسماء والصفات في القلوب(٤) بعد معرفة الأحكام والشرائع والتلبُّس بها، فتلوح أنوارها في ذلك [٦٩/أ] القلب المرتاض المُطَهَّر من حُبِّ الدنيا والمناصب، الزاهدِ فيها، الراغبِ في الآخرة وفيما عند الله، المُحبِّ للمعارف الإلهية والأذواق القدسية.

فقد عرفت أن الحجاب عن ذلك إنما هو: انصرافُ الهِمَمِ إلى الدنيا والرغبة فيها، وإعراضُها عن محبة الله ﷻ وطلبه والقُرْب منه، وأن الطريق إلى حصول ذلك - مع الزهد -: كتابُ الله ﷻ وسنَّةُ رسوله ﷺ؛ - بتوقيف الأستاذِين كما تقدم -.

---

(١) المستجن: المستتر، ويقال: استجن فلان إذا استتر بشيء. كذا في "لسان العرب" لابن منظور (١٣/ ٩٣) (مادة جنن).
(٢) في النسخة الخطية: «لا ينكشف».
(٣) في النسخة الخطية: «في قلبه».
(٤) في النسخة الخطية: «في القلب».

فصل
في بيان الأصول التي عليها تُبْتَنَى قواعد هذا الشأن

الأصل الأول: صحة الاعتقاد في جميع ما جاء عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ:

فيُشترط له الإيمان بجميع ذلك على مراد الله ﷻ ومراد رسول الله ﷺ، وليفهم من ذلك ما فهمه سلف الأمة من أهل الحديث [كأحمد وأصحابه وأقرانهم ونظرائهم، وكالإمام الأعظم الشافعي ومالكٍ وأبي حنيفة رضي الله عنهم وأتباعهم](١)، مع البُعْد عن أهل الكلام والنظر، فإن الصحابة رضي الله عنهم لم يأخذوا دين الله ﷻ الذي أنزله على رسوله ﷺ إلَّا بمجرد الإيمان والتصديق والقَبول، فلم يفتقروا [في معرفته وتلقِّيه إلى معرفة](٢) اللازم والملزوم(٣) وغير ذلك.

وقد رأينا من يكون حاذقًا بالنظر؛ وخصمه في الحق دونه في ذلك؛ يَقْلِبُ [٦٩/ب] بحذاقته(٤) بالنظر الحقائق، فيجعل الباطل حقًّا والحق باطلًا، لكونه ألحن بحجته من خصمه صاحب الحق.

فيكفينا في ذلك طريقة سلفنا الأولين، لِيَسَعَنا ما وَسِعَهُم في كل شيء، وهم الصحابة والتابعون وتابعوهم بإحسان رضي الله عنهم، وطريقةُ شيوخنا في هذا

---

(١) ما بين القوسين ساقط من النسخة الخطية.

(٢) ما بين القوسين ساقط من النسخة الخطية.

(٣) اللازم والملزوم: يطلق لغة ويراد به: امتناع انفكاك الشيء عن الشيء.
وهو أحد المصطلحات المنطقية، وقد عرفه الجرجاني في كتابه "التعريفات" (ص ٢٩٣ - ٢٩٤) بقوله: (كون الحكم مقتضيًا للآخر؛ على معنى: أن الحكم بحيث لو وقع يقتضي وقوع حكم آخر اقتضاء ضروريًا، كالدخان للنار في النهار، والنار للدخان في الليل).

(٤) في النسخة الخطية: «لقلة حذاقته».

المذهب كالجنيد[١] وأقرانه؛ ومن جاء بعدهم كشيخ الإسلام عبد الله الأنصاري الهروي[٢]، والشيخ الإمام عبد القادر الجيلي[٣] ﷺ أجمعين.

---

(١) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخراز القواريري؛ النهاوندي ثم البغدادي، شيخ الصوفية، وكان خرازًا، وكان أبوه يبيع الزجاج؛ فلذلك كان يقال له: القواريري، وُلد سنة نيف وعشرين ومائتين بالعراق؛ وبها نشأ، وتوفي ﷺ في آخر ساعة من يوم الجمعة سنة ثمان وتسعين ومائتين؛ ودفن يوم السبت.
انظر: "طبقات الصوفية" للسلمي (ص ١٥٥ - ١٦٣)، "طبقات الحنابلة" لأبي يعلى (١/ ١٢٧ - ١٢٩)، "سير أعلام النبلاء" للذهبي (١٤/ ٦٦ - ٧٠).
وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ﷺ في "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" (٢/ ٤٨٣) بعض ما أُثِرَ عنه في منزلة العلم؛ فقال: (قال سيد الطائفة وشيخهم: الجنيد بن محمد ﷺ: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلَّا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ. وقال: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنَّة. وقال: مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنَّة).
(٢) هو أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الهروي؛ الحنبلي، من ذرية صاحب النبي ﷺ أبي أيوب الأنصاري ﷺ، ولد في سنة ست وتسعين وثلاثمائة، وتوفي ﷺ بهراة في ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وأربعمائة؛ وقد جاوز أربعًا وثمانين سنة.
انظر: "تاريخ الإسلام" للذهبي (حوادث ووَفيات ٤٨١ - ٤٩٠ هـ) (ص ٥٣ - ٦٣)، "البداية والنهاية" لابن كثير (١٦/ ١١٢)، "طبقات المفسرين" للداوودي (١/ ٢٥٥ - ٢٥٦).
وقال الإمام ابن قيم الجوزية ﷺ في "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" (٣/ ٥٤٣ - ٥٤٤) في وصفه: (كان شيخ الإسلام قدَّس الله روحه: راسخًا في إثبات الصفات ونفي التعطيل؛ ومعاداة أهله، وله في ذلك كتب؛ مثل كتاب: "ذم الكلام"؛ وغير ذلك مما يخالف طريقة المعطلة والحلولية والاتحادية).
(٣) هو أبو محمد عبد القادر بن عبد الله بن جكني دوست الجيلي؛ الحنبلي، وُلد بجيلان سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، وتوفي ﷺ بعد عتمة ليلة السبت العاشر من ربيع الآخر سنة إحدى وستين وخمسمائة؛ وقد عاش تسعين سنة.
انظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٢٠/ ٤٣٩ - ٤٥١)، "الذيل على طبقات الحنابلة" لابن رجب (١/ ٢٩٠ - ٣٠١)، "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" لابن العماد (٤/ ١٩٨ - ٢٠٢).
وقال الإمام ابن قيم الجوزية ﷺ في "الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة" =

فالعقائدُ أصول المشاهد عليها تُبتنى، والمشاهدُ أصول المقاعد، فمن صحَّ معتقده صحَّ مشهده؛ وارتقى إلى الدرجات العالية مقعدُه، ومن فسد معتقده فسد مشهده؛ وانحطَّ إلى الدركات السفلى مقعدُه.

واعلم أن الإيمان بمسألة العلو والفوقية(١) - [من غير إحاطة ولا كيفية ولا حصر ولا تمثيل ولا تكييف ولا تشبيه كما ورد ذلك(٢) في الكتاب العزيز وفي السنَّة الصحيحة](٣) -: هو أصلُ هذا الشأن وأساسُه.

فمن رسخ في هذه المسألة: صار لقلبه قِبْلَة إلى مولاه وفاطره في توجهه وصلاته وعبادته وسائر مساعيه - الظاهرة(٤) والباطنة -، وصار ذلك لقلبه مَعْلَقًا(٥)، يجول قلبه في الأشياء ثم يعود إلى مَعْلَقِه، كالفرس يجول ثم يعود إلى أَخِيَّتِه(٦).

الأصل [٧٠/أ] الثاني: اليقظة:

= (١٢٧٩/٤) في وصفه: (الشيخ عبد القادر الكيلاني: المتفق على كراماته وآياته وولايته، المقبول عند جميع الفرق).

(١) قد صُنِّفَ في مسألة العلو والفوقية: مصنفاتٌ مفردةٌ، فمن تلك المصنفات المفردة المتقدمة المطبوعة - على سبيل المثال لا الحصر -: "رسالة في إثبات الاستواء والفوقية" للجويني، "إثبات صفة العلو" لابن قدامة، "الرسالة العرشية"؛ و"القاعدة المراكشية" لشيخ الإسلام ابن تيمية، "العرش"؛ و"العلو للعلي العظيم" للذهبي، "اجتماع الجيوش الإسلامية" لابن قيم الجوزية.

(٢) في النسخة الخطية: «وردلك».

(٣) ما بين القوسين ساقط من النسخة الخطية.

(٤) في النسخة الخطية: «الظاهر».

(٥) العَلَق: كل ما عُلِّق. كذا في "تاج العروس من جواهر القاموس" للزبيدي (٢٦/ ١٨١) (مادة علق).

(٦) الأخيَّة والآخيَّة - بالمد والتشديد -: واحدة الأواخي، عود يُعَرَّض في الحائط؛ ويدفن طرفاه فيه؛ ويصير وسطه كالعروة؛ تُشَدُّ إليه الدابة. كذا في "لسان العرب" لابن منظور (٢٣/١٤) (مادة أخا).

اليقظة: هي أصل المقامات الشريفة والأحوال العالية، وهي عبارةٌ عن انتباه القلب عن رقدة الغفلات؛ والاستعداد للقاء الله ﷻ. قال الله ﷻ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [سورة ق: الآية ٢٢].

وإنما يَحجبُ العبدَ عن إصلاح الحال والاستعداد للمآل: طولُ الأمل؛ وحبُّ العاجلة؛ وإيثارُها على الآجلة، فيعمى بذلك العبد(١) عن ما بين يديه من أمور الموت والبرزخ والآخرة.

فإذا أراد الله بعبد خيرًا أيقظ قلبه من سِنَة الغفلة، وأحضر الموت بين يديه، وسار بقلبه في مقامات الآخرة ومواقفها مقامًا مقامًا؛ ومنزلًا منزلًا، فَفَكَّرَ في هجوم الأجل على بغتةٍ؛ فاسْتَعَدَّ حينئذٍ لما بين يديه، ليلقى ربه ﷻ في الآخرة بوجهٍ أبيضَ، فإن العبد ربما مرض أيامًا يسيرةً؛ وانتقل إلى الله ﷻ قبل إصلاح الحال، فيطول لذلك ندمه؛ ويعجز عن استدراك(٢) ما فاته.

فالعاقل هو الذي لا يصبح ولا يمسي إلَّا على عمل يحب لقاء الله ﷻ عليه، والمُفَرِّط هو المُسَوِّف بالتوبة من اليوم إلى غَدٍ، ومن غَدٍ إلى بعد غَدٍ.

فالعبد إذا استحضر الموت وهجومه، والقبر والانفرادة(٣) فيه بأعماله(٤)، فيلحقه في القبر نعيم الأعمال الصالحة؛ وعقوبات الأعمال الطالحة(٥) [٧٠/ب] كما في الحديث: «**إن العبد الصالح إذا وُضِعَ في قبره وسُئِلَ؛ نادى منادٍ من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوْحِها وطيبها. وأما الكافر فينادي منادٍ من**

(١) في النسخة الخطية: «العبد بذلك»، وقد وضع على رأس كل كلمة: حرف (م)؛ إشارة إلى أن أولى الكلمتين: متقدمة؛ وثانيهما متأخرة.

(٢) في النسخة الخطية: «استداك».

(٣) الجادة اللغوية: الانفراد؛ لأنها مصدر، ولعل المراد: اسم المرة.

(٤) «بأعماله»: ساقط من النسخة الخطية.

(٥) في النسخة الخطية: «الفاسدة».

السماء: أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرِّها وسمومها»(١)، رواه البراء بن عازب وأبو هريرة في المسانيد(٢).

وكذلك يستحضر العبد يومَ القيامة ووقوفه بين يدي الله ﷻ، وسياقته إلى المحشر مع السائق والشهيد؛ حافيًا عاريًا؛ جائعًا ظمآنَ، فيقف في ذلك الموقف الطويل خمسين ألف سنة.

وتدنو الشمس من رؤوس الخلائق على قدر أعمالهم، وتَطايُرَ(٣) الكتب(٤)؛ فآخذٌ كتابه بيمينه، وآخذٌ كتابه من وراء ظهره.

(١) حديث البراء بن عازب ﷺ: أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (١٨٥٣٤) - (٣٠/ ٤٩٩ - ٥٠٣)]، وأبو داود في سننه [كتاب السنَّة، باب في المسألة في القبر؛ وعذاب القبر - الحديث رقم (٤٧٥٣ - ٤٧٥٤) - (٥/ ١١٤ - ١١٦)] مطولًا، وأخرجه النسائي في سننه [كتاب الجنائز، باب الوقوف للجنائز - الحديث رقم (٢٠٠٠) - (٤/ ٣٨١)]، وابن ماجه في سننه [كتاب الجنائز، باب ما جاء في الجلوس في المقابر - الحديث رقم (١٥٤٨ - ١٥٤٩) - (٢/ ٢٤١)] مختصرًا.
قال الهيثمي في "مجمع الزوائد ومنبع الفوائد" (٣/ ٥٠): (رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح).
وحديث أبي هريرة ﷺ: أخرجه أحمد في مسنده [الحديث رقم (٨٧٦٩) - (١٤/ ٣٧٧ - ٣٧٨)]، والنسائي في سننه [كتاب الجنائز، باب ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه - الحديث رقم (١٨٣٢) - (٤/ ٣٠٦ - ٣٠٧)]، وابن ماجه في سننه [كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له - الحديث رقم (٤٢٦٢) - (٤/ ٤٩٧ - ٤٩٨)] مطولًا، وأخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه - الحديث رقم (٢٨٧٢) - (٤/ ٢٢٠٢)] مختصرًا.

(٢) مراد المصنف ﷺ بالمسانيد - مع وجود الحديث الشريف في بعض الصحاح والسنن والمسانيد -: الأحاديث المسندة، وليس مراده: المسانيد التي صنفها أصحابها مرتبة على الصحابة ﷺ، والله أعلم.

(٣) هكذا ضبط شكلها في النسخة الخطية!

(٤) في النسخة الخطية: «الصحف» بدل «الكتب».

ثم الحساب؛ فيُحاسَبُ العبد عن عمره فيما أفناه؟ وعن شبابه فيما أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟

ثم نَصْبُ الموازين؛ ونشر الدواوين، والعبور على الصراط الدَّحْضِ المزلَّة[١]، وغير ذلك من المواقف التي بين أيدينا.

فإذا فكَّر العبد فيها موقنًا بها؛ عالمًا أنه لا يُنجيه في ذلك اليوم[٢] إلَّا رحمة الله؛ وإصلاحُه لأعماله في الدنيا[٣]: كان ذلك كلُّه مما يوجب اليقظة والانتباه من غمار الغفلة، والاستعداد للآخرة بإصلاح الحال، وترك التفريط [٧١/أ] والإهمال؛ خشية هجوم الآجال على غرةٍ وغفلةٍ قبل الاستعداد، فيُمسي[٤] ذلك اليوم من أهل القبور في عسكر الموتى، لا يستطيع أن يزيد في

---

(١) الدحض المزلة: هما الزَّلَق. كذا في "الفائق في غريب الحديث" للزمخشري (١/ ٤١٧) (مادة دحض).

(٢) في النسخة الخطية: «في ذلك اليوم وهو له».

(٣) لا ينجي العبدَ يوم القيامة إلَّا عفوُ الله وفضلُه ورحمتُه، وأما صلاح أعماله فإنما هو سبب في النجاة؛ وليس عوضًا ولا ثمنًا.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ في جواب سؤال وَرَدَ عليه: (ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة؛ بل هي سبب، ولهذا قال النبي ﷺ: **«إنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلَّا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»**.
وقد قال: ﴿...ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. فهذه باء السبب، أي: بسبب أعمالكم، والذي نفاه النبي ﷺ باء المقابلة، كما يقال: اشتريت هذا بهذا، أي: ليس العمل عوضًا وثمنًا كافيًا في دخول الجنة، بل لا بد من عفو الله وفضله ورحمته، فبعفوه يمحو السيئات، وبرحمته يأتي بالخيرات، وبفضله يضاعف البركات) [رسالة مودعة في مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٨/ ٧٠ - ٧١)].
وانظر: "زاد المعاد في هدي خير العباد" لابن قيم الجوزية (١/ ٦٦)، "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" له (١/ ١٠٦ - ١٠٨)، "مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة" له (١/ ١١٩ - ١٢٠).

(٤) في الأصل والنسخة الخطية: «فيتمنى».

حسنةٍ؛ ولا أن يمحو سيئةً.

ومن ذلك قوله ﷺ: «**أكثروا من ذكر هادم**[١] **اللذات، فإنه ما ذُكِرَ في كثيرٍ إلَّا قلَّله**» الحديث[٢]

فإذا انتبه العبد في أوان صحته وفراغه وشبابه أمكنه استدراك[٣] الفائتات؛ والتخلص من التبعات.

وفي الحديث: «**نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ**»[٤].

وفي الحديث أيضًا: «**اغتنم خمسًا قبل خمسٍ: شبابك قبل هرمك،**

---

(١) قال برهان الدين الناجي في "عجالة الإملاء" (ص ٥١٠): (قال: وفي الحديث: «**أكثروا من ذكر هاذم اللذات**» يروى بالذال المنقوطة، أي: قاطعها، انتهى. قال غيره: وأما الهادم - بالدال المهملة - فمعناه: المزيل للشيء من أصله، قيل: وليس ذلك مراد الحديث، إنما المراد المعنى الأول وهو القطع. كذا قاله الأسنائي في مهماته).

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط [الحديث رقم (٥٧٧٦) - (٦/ ٣٦٥)]، والبيهقي في "الجامع لشعب الإيمان" [باب في الزهد وقصر الأمل - الحديث رقم (١٠٠٧٤) - (١٩/ ١٥٤ - ١٥٥) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ بلفظ: «**أكثروا ذكر هادم اللذات - يعني الموت -، فإنه ما كان في كثير إلَّا قلَّله، ولا قليل إلَّا جزَّأه**».
وإسناد الحديث ضعيف؛ لسوء حفظ راويه عبد الله بن عمر العمري؛ وجهالة حال الراوي عنه؛ وهو: أبو عامر الأسدي.
وقد حكم المنذري والهيثمي على الحديث بالحسن، وتعقبهما الألباني؛ فضعف الحديث.
انظر: "الترغيب والترهيب" للمنذري [الترغيب في ذكر الموت وقصر الأمل - الحديث رقم (٢) - (٤/ ٢٣٦)]، "مجمع الزوائد ومنبع الفوائد" للهيثمي [كتاب الزهد، باب ذكر الموت - (١٠/ ٣٠٩)]، "ضعيف الترغيب والترهيب" للألباني [الحديث رقم (١٩٤٣) - (٢/ ٣٤٤)].

(٣) في النسخة الخطية: «استداك».

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الرقاق، باب ما جاء في الصحة والفراغ؛ وأن لا عيش إلَّا عيش الآخرة - الحديث رقم (٦٤١٢) - (٤/ ٢٠١٥)] من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وصحتك قبل سقمك، وحياتك قبل مماتك، وفراغك قبل شغلك، ودنياك قبل آخرنك»[١].

فإنَّك لا تعلم ما اسمك غدًا.

الأصل الثالث: التوبةُ[٢]:

فإذا استيقظ العبد من غفلته استعدَّ لما بين يديه بالتوبة النصوح؛ وإن كان تائبًا، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [سورة التحريم: الآية ٨].

فأمر المؤمنين بالتوبة وهم تائبون، والداخل في طريقة الخصوص لا بُدَّ له من إحداث توبة صحيحة بعد حصول أحكام هذه اليقظة؛ وهو أن يتوضأ وضوءًا كاملًا، ويخرج إلى بَرَازٍ[٣] من الأرض [٧١/ب] أو مكان خلوةٍ ليخلو سِرُّهُ عن شاغلٍ[٤]، ثم يصلي ركعتين يطيل قيامهما وركوعهما وسجودهما، فإذا سلَّم منهما تضرَّع إلى ربه ﷻ تائبًا إليه؛ خاشعًا له؛ خاضعًا لقهره، مثل

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه [كتاب الرقاق - الحديث رقم (٧٨٤٦) - (٤/ ٣٤١)]، والبيهقي في "الجامع لشعب الإيمان" [باب في الزهد وقصر الأمل - الحديث رقم (٩٧٦٧) - (١٨/ ٢٣١ - ٢٣٢)] من حديث عبد الله بن عباس ﵄؛ بلفظ: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**». وصححه الألباني في "صحيح الجامع الصغير" [الحديث رقم (١٠٧٧) - (١/ ٢٤٣ - ٢٤٤)].

(٢) «التوبة»: ساقط من النسخة الخطية.

(٣) البَرَاز: المكان الفضاء من الأرض البعيد الواسع، وإذا خرج الإنسان إلى ذلك الموضع قيل: قد بَرَزَ، وإنما قيل في التغوط: تبرَّز فلانٌ: كناية، أي: خرج إلى بَرَاز من الأرض. كذا في "تهذيب اللغة" للأزهري (١٣/ ٢٠١) (مادة برز).

(٤) لم يُسْعِف المؤلفَ ﵀ الدليلُ على مشروعية ما ذكره من بعض أحكام التوبة النصوح، ومن كان لديه فضل علم زائد: فليهده إليَّ ليتضح الحق بدليله، وإني شاكرٌ لسعيه؛ ومتلق هديته بالقبول والإذعان والانقياد والتسليم.

أن يقول: يا ربِّ جئتك هاربًا من الديون[١]؛ تائبًا إليك؛ نادمًا على ما فرطت في جنبك من تضييع حقوقك وارتكاب مناهيك، عازمًا على إصلاح الحال والتَّأهب للقدوم عليك، وليس لي ربٌّ أرجوه سِوَاك، فَتُبْ عليَّ يا أرحم الراحمين.

وليَقُلْ الدعاء المشروع مع ذلك[٢]، فإنه أولى من غيره وأفضل، وهو: "سيِّد الاستغفار: اللَّهم أنت ربي لا إله إلَّا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرِّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلَّا أنت"[٣].

فيُرَدِّدُ هذا وغيره مما يفتحهُ الله تعالى حتى يخشعَ قلبُه؛ ويخضع سِرُّه؛ ويبكي، فذلك علامة قبول التوبة إن شاء الله تعالى.

وليُقدِّم على هذه التوبة: العزم الصحيح على الدخول على الله ﷻ بدوام طاعته ومجانبة مخالفته، كأنه قد قدَّم نفسه لله ﷻ؛ وتنصَّل[٤] من جميع ما يكرهه[٥]، قد ألقى بنفسه بين [٧٢/أ] يديه مستصرخًا[٦] نادمًا، عازمًا على أن يقوم له بكل حقٍ أوجبه أو ندب إليه، عازمًا على ترك جميع المناهي والمخالفات والمكروهات - دَقَّ أو جَلَّ -.

---

(١) هكذا في النسخة الخطية: «الديون»، وقد جاءت منقطة؛ دفعًا لإيهام تصحفها بكلمة: الذنوب؛ الموافقة لها في الرسم.
(٢) في النسخة الخطية: «ذلك ذلك».
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار - الحديث رقم (٦٣٠٦) - (٤/ ١٩٨٤)] من حديث شداد بن أوس ﷺ، ولفظ أبي داود: "وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلَّا أنت".
(٤) التَّنَصُّل: شبه التبرؤ من جناية أو ذنب. كذا في "تهذيب اللغة" للأزهري (١٢/ ١٨٩) (مادة نصل).
(٥) في النسخة الخطية: «يكرهيه».
(٦) في النسخة الخطية: «قد ألقى بنفسه مستطرحاً».

وليكن عزمه على أن يستوعب القيام بأمر الله ﷻ؛ لا يترك خصلةً واحدةً أمرهُ الله ﷻ بها، ولا يرتكب خصلة من المناهي والمكروهات، بل يقوم بكل شيء أمره الله به، ويجتنب[١] كل شيء نهاه الله ﷻ، فهذه هي التوبة النصوح، فلا يبرح في موضعه ذلك حتى يجد آثار القبول في قلبه.

ثم يقوم من موضعه مستصحبًا لحكم ذلك العزم الذي عزم عليه؛ من الاستقامة لله ﷻ ظاهرًا وباطنًا؛ في سائر المساعي الظاهرة والباطنة، ومتى زَلَّ أو أخطأ: عاد إلى التوبة كما تقدم.

الأصل الرابع: المحاسبةُ:

والعبد إذا تاب لا تستقيم توبته بالمستقبل[٢] إلَّا بالمحاسبة.

وأول المحاسبة: أن يقضي ما عليه من الفوائت من صوم أو صلاة، ويؤدي ما قِبَلَهُ من الحقوق والمظالم والديون، فيتفكر ويتذكر كل صلاة فاتته أو صوم فاته من أيام البلوغ إلى يومه هذا فيقضيه، ويتفكر في كل حق كان قِبَلَهُ فيؤدِّيه، فلا يبرح حتى تبرأ ساحته ويُخَلِّصَ ذمته من كل حق وجب عليه لله ﷻ؛ ومن كل حق تعلق [٧٢/ب] بذمته للآدميين، فعند ذلك ينطلق قلبه من القيود والأغلال، ويكون له في ميدان الصالحين مجالٌ.

ثم يحاسب نفسه في حركات جوارحه السبع من حين تطلع الشمس إلى أن تغيب؛ ومن غروبها إلى أن تطلع، وهي: حركات العين؛ والأذن؛ واللسان؛ والبطن؛ والفرج؛ واليد؛ والرِّجْل.

فيحفظ اللسان عن كل كلام لا يُثاب عليه؛ أو لا يترتب عليه مصلحة دينية ولا دنيوية مما يُحتاج إليه.

---

(١) في النسخة الخطية: «ويجتنب ويجتنب».

(٢) في النسخة الخطية: «في المستقبل».

ويحفظ العين عن كل نظر محرم[١]؛ خصوصًا إلى المُرد الملاح أو النساء الأجانب، فذلك هو زنا النظر، ويجتنب النظر ولو بغير شهوة؛ فإن ذلك ذريعة إلى الشهوة، ويحسم مادة النظر عن كل شيء لا يُثاب عليه؛ ولا يترتب عليه مصلحة دينية ولا دنيوية[٢] مما يُحتاج إليه.

وكذلك يحفظ سمعه - فإن المستمع شريك القائل -؛ فلا يسمع إلَّا ما يُثاب عليه؛ أو يترتب عليه مصلحة دينية أو دنيوية مما يُحتاج إليه.

وكذلك يصون بطنه عن الحرام والشبهات فـ: **«كل جسم نبت من حرام فالنار أولى به»**[٣]، وآكل الشبهات كيف يتنور قلبه؟ أم كيف يزكو عمله؟

وكذلك يحفظ الفرج[٤] واليدين والرجلين عن جميع محرمات الشرع ومكروهاته، ومتى أخطأ أو[٥] زلَّ تاب، فيمحو بالتوبة ما جناه، فينصقل بالتوبة قلبه ويتنوَّر.

ومن أقسام المحاسبة: النصح للمؤمنين، فيحب لهم ما يحبه لنفسه في

---

(١) في النسخة الخطية: «نظر حرام».
(٢) في النسخة الخطية: «أو لا دنيوية».
(٣) أخرجه الطبراني في معجميه الكبير [الحديث رقم (٢٩٨) - (١٩/ ١٣٥ - ١٣٦)]، والصغير [الحديث رقم (٦١٦) - (١/ ٢٣٩)] من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه؛ بلفظ: **«كل لحم نبت من سُحت فالنار أولى به»**.
وأخرجه البيهقي في "الجامع لشعب الإيمان" [باب في المطاعم والمشارب وما يجب التورع عنه منها - الحديث رقم (٥٣٧٥ - ٥٣٧٦) - (١٠/ ٣٣١ - ٣٣٣)] من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، بلفظين؛ الأول: "كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به"، والثاني: "أيما لحم نبت من حرام فالنار أولى به".
وصححه الألباني في "صحيح الجامع الصغير" [الحديث رقم (٤٥١٩) - (٢/ ٨٣١)].
(٤) في النسخة الخطية: «البطن» بدلاً من «الفرج».
(٥) في النسخة الخطية: «أول».

المعاملة والبيع والشراء، فلا يغش مسلمًا، وينصحه إذا استُنصِحَ.

ومن أقسام المحاسبة [٧٣/أ]: الأمر بالمعروف إذا أمكن، والنهي عن المنكر مثله؛ بالرفق وحسن الإرشاد والتلطف، يكون غرضه نصح المسلم ونفعه ونجاته؛ لا مجرد تخليصه من عهدة الإنكار، ويجتنب فيه من التغليظة(١) الموحشة للقلوب، اللَّهم إلَّا إذا أحوج الأمر إلى ذلك؛ وعلم أنه يفيد، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة التحريم: الآية ٩].

وقال تعالى: ﴿...وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٨٨].

خصوصًا إذا رأى في الحمام(٢) مكشوف العورة: فلينهه ما استطاع، وكذلك إذا رأى مظلومًا: يجتهد على نصره إذا أمكن.

وفي الجملة:(٣) فالمحاسبة تستوعب القيام بكل أمر وجب لله ﷻ، ومجانبة كل نَهْيٍ(٤) نَهَى الله ﷻ عنه، فإذا استصحب هذا الحكم فقد قام بحكم التوبة في المستقبل، ويرجى لمثله(٥) أن يُبدِّل الله سيئاته حسنات، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ...﴾ [الآية: ٧٠ من سورة الفرقان].

---

(١) في النسخة الخطية: «من الغلظة».

(٢) الحمَّام: واحد الحمامات المبنية التي يغتسل بها، وهو مشتق من الحميم، وسمي بذلك إما لأنه يُعْرِق، أو لما فيه من المار الحار. كذا في "تاج العروس من جواهر القاموس" للزبيدي (٣٢/ ١٣) (مادة حمم).

(٣) في النسخة الخطية: «وفي الجملة يجتهد في إزالة جميع ما يراه من المنكر والبدع بحسب طاقته، وكذلك يجتهد على أن يأمر الناس كلهم بالخير مما استطاع»، وهو ساقط في الأصل.

(٤) في النسخة الخطية: «كل ما نهى الله».

(٥) في النسخة الخطية: «ويرجى لهذا ولمثله».

الأصل الخامس: الإِخلاص[(١)]:

وهو: أن يتفقَّد مساعيه الظاهرة[(٢)] من الأعمال؛ فيجعلها لله ﷻ خالصًا، وكذلك يتفقَّد مساعيه الباطنة من الهمم والعزائم والقصود؛ فيجعلها[(٣)] لله ﷻ خالصًا.

وليتعلم علم النية [وتصحيحها][(٤)]، فإذا علمها: لا يتحرك إلَّا بنيَّة؛ ولا يتكلم إلَّا بنيَّة؛ ولا يأكل إلَّا بنيَّة؛ ولا يمشي إلَّا بنيَّة.

والنيَّة على اصطلاح القوم: هو قصد الشيء على ملاحظة خوف العقاب؛ أو رجاء الثواب؛ أو للتعظيم لأمر الله ﷻ، [٧٣/ب] فكأنه يلحظ الشيئين جميعًا في آنٍ واحدٍ، فيلحظ العمل وما يؤدي إليه عند الله ﷻ في الآخرة، فمتى خلصت هاتان[(٥)] الملاحظتان في القلب فهذه هي النية الصحيحة، والشعور بها في القلب عزيزٌ؛ لا يخلصه إلَّا أهل الصفاء بالبصائر الباطنة، فقد يلحظ العبد العمل وما يترتب عليه في الآخرة فيقصده لذلك ولشيء آخر من عرض[(٦)] الدنيا[(٧)]، ويخفى تميُّزُ ذلك على أهل الهوى، ويعجزون عن معرفة تخليص ما لله ﷻ عما لأنفسهم ولدنياهم لظلمة قلوبهم؛ وغلبة أهوائهم.

---

(١) «الإخلاص»: ساقط من النسخة الخطية.

(٢) في الأصل: «الظاهر».

(٣) في الأصل: «فيجعله».

(٤) في النسخة الخطية: «فيُصَحِّحَه».

(٥) في النسخة الخطية: «هذه الملاحظتان»، وفي الأصل: «هذه الملاحظات».

(٦) في النسخة الخطية: «عرض»، وفي الأصل: «من أعرض».

(٧) حاشية: قال الشيخ أبو طالب المكي ﷺ: (امتن الله علينا بما جعله غذاءنا، فقال ﷻ: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾. فكذلك طلب منا العمل الخالص، وهو المُخلَّص من شائبتي الرياء والشهوة الخفية، وهي التي أشار إليها المصنف ﷺ في قوله: ولشيء آخر من عرض الدنيا).

فليتفقد العبد محل النِّيَّة والإخلاص من قلبه في أعماله وسعاياته الظاهرة والباطنة، ويحفظ نيَّته من الرياء، فلا يلحظ بأعماله أحدًا من الخلق، ويحفظ قلبه من العُجْب مع الإخلاص، فقد يُعجَبُ العبد بإخلاصه ولا يشعر، وفي الحديث: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لامرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها [أو امرأةٍ يتزوجها]**(١) **فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(٢).

فيجعل اشتغاله بالعلم من التكرار والمذاكرة والبحث لله ﷻ، فيكون باشتغاله بالعلم على الإخلاص من أكبر الأعمال الفاضلة عند الله، وهو عمل العلماء الذين تُسَبِّح(٣) لهم الحيتان في البحار؛ كما جاء في الحديث: «**والعلماء ورثة الأنبياء، لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا؛ إنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ [٧٤/أ] وافرٍ**»(٤).

---

(١) ما بين القوسين ساقط من النسخة الخطية.

(٢) افتتح البخاري صحيحه بهذا الحديث [كتاب بدء الوحي، باب كيف بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ - الحديث رقم (١) - (١/ ٢١)] من حديث عمر بن الخطاب ﷺ؛ مختصرًا.
وأخرجه البخاري في صحيحه [كتاب الأيمان، باب النية في الأيمان - الحديث رقم (٦٦٨٩) - (٥/ ٢٠٨٨)]، ومسلم في صحيحه [كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية**» - الحديث رقم (١٩٠٧) - (٣/ ١٥١٥ - ١٥١٦)] بلفظه؛ ومطلعه: "إنما الأعمال بالنية".

(٣) في النسخة الخطية: «تستغفر».

(٤) أخرجه أبو داود في سننه [كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم - الحديث رقم (٣٦٤١) - (٤/ ٥٧ - ٥٨)]، والترمذي في جامعه [أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة - الحديث رقم (٢٦٨١) - (٤/ ٤١٤)]، وابن ماجه في سننه [المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم - الحديث رقم (٢٢٣) - (١/ ١٤٥)] من حديث أبي الدرداء ﷺ؛ ولفظ أبي داود: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا: سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض؛ والحيتان في جوف** =

والفرق بين الصدق والإخلاص:

أن الصدق: هو اجتماعك على قصد الشيء وعمله بجميعك؛ بحيث لا يتخلف عنه منك شيء، فلا تعمله ببعضك بل بكلِّك ناصحًا لله فيه.

والإخلاص: هو تخليص نظرك في ذلك العمل عن رؤية سوى الله ﷻ؛ وملاحظة غيره من دنيا أو جاهٍ أو رئاسةٍ أو طلب منزلة.

فمن اجتمع في أعماله ومساعيه الظاهرة والباطنة الصدق والإخلاص استقام عمله، ورفع مع المشيئة إلى الله، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [الآية ١٠ سورة فاطر].

فعلامة الصادق إذا توجَّه لله ﷻ عليه أمرٌ مثل: صلاةٍ أو صام[1] أو حجٍّ، أو أمرٍ بمعروفٍ أو نهيٍ عن منكرٍ، أو غير ذلك من الأوامر[2]، أو توجه عليه نهيٌ مثل: غض نظر[3]، أو اجتناب طعام شبهة، أو تعرية سمع عن الفواحش والخنا[4]، أو توجه هو إلى الله ﷻ ابتداءً بعمل من الأعمال المندوبة أو المستحبَّة: أن يبذل في ذلك العمل جهده وطاقته، كما ينصح العبد البارُّ الناصح لسيده إذا بعثه في مُهِمٍّ، فإنه يجتهد على أن يأخذ لسيده أحسن الحوائج وأظرفها، وكذلك يكون عند المناهي يبذل جهده وطاقته في التَّوَقِّي عن دقائقها ورقائقها.

= **الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا؛ ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر».**

وصححه الألباني في "صحيح الجامع الصغير" [الحديث رقم (٦٢٩٧) - (١/ ١٠٧٩)].

(١) في الأصل والنسخة الخطية: «صوم».

(٢) في النسخة الخطية: «من الأوامر الواجبة».

(٣) في النسخة الخطية: «بصر».

(٤) قال الليث: الخنا من الكلام: أفحشه. كذا في "تهذيب اللغة" للأزهري (٧/ ٥٨٥) (مادة خنى).

فهذا الناصح لله ﷻ في أعماله، لم يتخلف منه في ذلك العمل جهدٌ؛ بل عمل ذلك العمل [٧٤/أ] لله بجسمه ونفسه وعقله وقلبه وروحه.

وهذا الناصح هو الصادق، فإن انضاف إليه الإخلاص بحيث لم يُشْرِك في قصده به أحدًا غير الله ﷻ؛ كَمَّل صدقَه أيضًا فيه كمالُ إخلاصِه، فكان ذلك دليلًا منه على صدقه في القصد أيضًا[١].

ومن صدق في عمله ولم يصدق في قصده لم يكن صادقًا.

فإذًا كلُ صادقٍ كامل الصدق مخلصٌ[٢]؛ ولا ينعكس، فقد يكونُ المخلصُ الذي لم يلحظ غير الله في عمله لم يبذل له كله في ذلك العمل.

فصلٌ

وهذا النصح لله ﷻ في الأعمال هو الإكسيرُ[٣] الأعظمُ؛ به يفتح الله ﷻ - إذا شاء - على العبد[٤] مغالقَ الأحوال السنيَّة والمقامات العلية، فمن عامل الله بالنصح نصحه الله، وكفى بذلك ثوابًا في الدنيا والآخرة، والدليل

(١) «أيضاً»: ساقطة من النسخة الخطية.

(٢) في النسخة الخطية زيادة: «حتى يخلص، فإذا أخلص سمي صادقاً، كامل الصدق، ولا يتم ذلك العمل مع الصدق والإخلاص حتى يكون متابعاً فيه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مخلص».

(٣) الإكسير: هو علم الكيمياء؛ ويراد به سلبه الجواهر المعدنية خواصها؛ وإفادتها خواصًا لم تكن لها.
قال طاش كبري زاده في «مفتاح السعادة» (١/ ٣١٧) في بيان حقيقة الإكسير: (هو الدواء الذي يدبِّره الحكماء ويلقونه على الجسر حال انفعاله بالذوبان، فيحيله كإحالة السُّمِّ الجسد الوارد عليه؛ لكن إلى الصلاح دون الفساد).

(٤) في النسخة الخطية: «على العبد إذا شاء».

عليه[١] الحديث: «**من تقرَّب مني شبرًا تقرَّبت منه ذراعًا**»[٢].

كذلك الناصح يجازى بالنصح: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [سورة النبأ: الآية ٢٦].

وبعض الناس يقول: تحت هذه الثلاثة كنزٌ لا يعرف قدره إلَّا أهله، وهو: (ن.ص.ح)، فانقشها في قلبك، والتزم حكمها ما عشت؛ تجد ثمرتها إن شاء الله عاجلًا وآجلًا.

الأصل السادس: آدابُ الصلاة الباطنة:

والصلاة محك الأحوال والقلوب، فيها يظهر حال العبد ومقامه من إيمانه، إن كان محبًّا، أو خائفًا، راجيًا[٣]، أو ذا خشيةٍ، أو ذا قربٍ[٤]، أو ذا حضورٍ، أو ذا تعلقٍ بالله: ظهرت آثار ذلك في الصلاة.

ومن احتوشته الوساوسُ في الصلاة بحيث لا يفقه ما يقرأ فيها، [٧٥/أ] ولا يجد لذة الحضور والمعاملة مع الله ﷻ فيها، ولا حال له ولا مقام، وصلاته[٥] صلاة العوام، يصلي بجسمه وقلبه يجول في أفكار الدنيا وتدبير أمورها، فلم يُقبل على الله بقلبه، ولا حصل له الخشوع الموجب للفلاح، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [سورة المؤمنون: الآيات (١-٣)]. فلم يعرض عن

---

(١) في النسخة الخطية: «على»، وفي الأصل: «على ذلك».

(٢) في النسخة الخطية: (ومتى تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً)، زيادة لا توجد في الأصل، وقد أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى - الحديث رقم (٢٦٨٧) - (٤/ ٢٠٦٨)] من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ. وأخرجه البخاري في صحيحه [كتاب التوحيد، باب ذكر النبي ﷺ؛ وروايته عن ربه - الحديث رقم (٧٥٣٦ - ٧٥٣٧) - (٥/ ٢٣٥٦)] من حديث أنس بن مالك وأبي هريرة ﵄؛ بلفظ: «**إذا تقرب العبد إلي (مني) شبرًا تقربت إليه (منه) ذراعًا**».

(٣) «راجياً»: ساقط من النسخة الخطية.

(٤) في النسخة الخطية: «أوذا شوق».

(٥) في النسخة الخطية: «صلوه».

اللغو بفكره؛ وإن كان لسانه تاليًا، وجسمه راكعًا وساجدًا.

أما الخواصُ - أهل الله ﷻ - إذا توجَّه أحدهم إلى المسجد فينوي زيارةَ الله ﷻ في بيته، وإجابةَ داعيه - وهو المؤذن -؛ يرى أنه داعي الله، وينوي إقامةَ فريضة الله، والحضور بين يدي الله، فإذا قال: الله أكبر؛ فلا يجد في قلبه أكبر من الله فَيَتَوَسْوَسَ به، ثم يقف بين يدي الله ﷻ حاضرَ القلب، عالمًا بأن الله ﷻ يراه؛ ويرى مكانه ويسمع نجواه ويعلم قصده ونيته في ضميره، فيقول: ﴿...ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ مناجيًا بذلك لربه الكريم، فإذا بلغ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾(1)؛ حضر حضورًا آخر أخص من الحضور الأول، فإن ذلك خطاب الحاضر للحاضرين، ثم يقرأ القرآن بتدبر وتفهم، يفهم عن الله ﷻ مراده كأنه يقرأ على الله ﷻ؛ أو يسمعه من الله ﷻ، فيتنبه لوعد الله ووعيده، وتخويفه وتحذيره، فإن لله ﷻ في كل كلمة معنًى يقتضي بها من عباده عبودية خاصة؛ من خوف أو رجاء أو ذكر أو(2) [٧٥/ ب] تصديقٍ أو اتعاظٍ أو محبةٍ أو شوقٍ أو رغبةٍ أو رهبةٍ أو قربٍ أو اتصالٍ، فيفهم عن الله ﷻ مراده، ويقوم بما يقتضيه المعنى من العبودية، فيكون في ذلك كما قال الله ﷻ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢١].

وفيهم من يستجلي من الآيات معاني صفات المتكلم، فيرزق بذلك المشاهدة بقلبه، فإنه سبحانه يتكلم بكلام عظيم ورحيم وجبار وملك قهار(3)، فيظهر لقلب العارف في كل آيةٍ الوصف الذي ظهر المتكلم به في ذلك المعنى، فيجمع لهذا العبد العارف بين الصلاة والتلاوة والفهم عن الله ﷻ؛ والوقوف بسرِّه على عظمة صفات الله ﷻ.

واعلم أن الناس في الصلاة أربع فرق:

---

(١) في النسخة الخطية: «... وإياك نستعين».

(٢) في النسخة الخطية: أو أو.

(٣) في النسخة الخطية: «وقهار وملك».

منهم: من يصلي صلاة الغافلين، وهم أهل الوساوس وجواذب الأفكار الدنياوية؛ تجذبهم الأفكار إلى الدنيا، فهؤلاء ليس لهم من صلاتهم إلَّا ما عقلوا منها.

الفرقة الثانية: قلوبهم غائبة فيطالبونها بالحضور وهي تشرد، كلما شردت إلى أودية الدنيا من بين يدي الله ﷻ ردوها[١]، وهذه صلاة المريدين المجاهدين المحاربين لعدوهم ونفوسهم، وأحدهم غالبٌ تارةً؛ ومغلوب أخرى، يجذبون نفوسهم إلى الحق تارةً؛ وتجذبهم النفوس إلى غير الله أخرى.

الفرقة الثالثة: قد لطفت قلوبهم وتخلَّصت من أسر نفوسهم، فهي المُصلِّيةُ والتاليةُ والفاهمةُ والمناجيةُ، هي الناطقةُ بالتكبير والفاتحة، واللسانُ مترجمٌ [٧٦/أ] عمَّا استكنَّ في القلب من العبادة لله ﷻ، بخلاف الذين قبلهم؛ فإنهم يقرأون[٢] بألسنتهم ويطالبون قلوبهم بالمواطأة والحضور مع ألسنتهم، وهؤلاء قلوبهم هي الناطقة واللسان معبر عنها.

الفرقة الرابعة: إذا دخلوا في الصلاة غابوا بما تجلَّى على قلوبهم من آثار الصفات من الهيبة والإجلال والتعظيم، فتُخطف قلوبهم وأرواحهم، تَخْطِفُها أنوارُ العظمة، وتبقى المناجاة والفهم في محل النفس الطاهرة المُزكَّاة، لأن نفوسهم صارت في محل القلب؛ والقلب صار في محل الروح؛ والروح في محل القرب، وهذه صلاة المقربين جعلنا الله منهم، آمين[٣].

فانظر نفسك أيها المريد، من أيِّ الفرق الأربع أنتَ؟ وعالج قلبكَ، وتَرَقَّ من المراتب النازلة إلى المراتب العالية بالتدرج، وافتقر إلى الله تعالى في ذلك[٤] تبلغ إن شاء الله تعالى.

---

(١) في النسخة الخطية: «بردها».
(٢) في النسخة الخطية: «يقرأون القرآن».
(٣) «آمين»: لا توجد في النسخة الخطية.
(٤) في النسخة الخطية: «وأسأله».

وكذلك العبد في الركوع، ينحني ويتدلى بين يدي الحق ﷻ خاضعًا متواضعًا بقلبه وقالبه، وليتصف القلب بالانحناء المعنوي(١) - الذي هو صورة الذلة والخضوع - كما اتصف الظاهر بالانحناء(٢) الصوري، فيطابق حينئذٍ ظاهرُه باطنَه، ويستوي سرُّه وعلانيته، بخلاف من انحنى بجسمه(٣) صورةً ولم يخضع بقلبه معنًى، فكأنه ركع بنصفه وتَخلَّف عن الركوع النصف الآخر، ركع بجسمه الذي هو من عالم [٧٦/ ب] الشهادة، ولم يركع بقلبه الذي هو من عالم الغيب.

وليكن في السجود كذلك؛ وفي التشهد حاضرًا بين يدي الله ﷻ، مناجيًا له؛ سائلًا منه(٤)، وإذا ركع لا يُحدِّث نفسه بالاعتدال لطيبة قلبه فيه ولذته به، وكذلك السجود، فذلك من إكمال هيئات الصلاة وأسرارها وحقائقها.

وعلامة من صلى بقلبه وقالبه أن يبقى بعد السَّلام زمنًا ليعود روعه إليه، لكمال استغراقه وحضوره في الصلاة.

فمن وفَّقه الله تعالى للصلوات(٥) الخمس على هذه الصفة: يُرجى له أن يبقى في نور كل صلاة إلى الصلاة الأخرى، فلا يزال نهاره وليله مغمورًا مغموسًا في لوامع الأنوار، مغمور الظاهر والباطن في حضرة الملك الجبار.

الأصل السابع: تهذيب الأخلاق ورياضة النفس ومخالفتها؛ للتمرن على مكارم الأخلاق،

---

(١) في النسخة الخطية: «بلانحناء المعنوري».
(٢) في النسخة الخطية: «بلانحناء».
(٣) «بجسمه»: ساقط من النسخة الخطية.
(٤) في النسخة الخطية زيادة: «مناجياً سائلا منه الخير والفضل في سجوده لقول رسول الله ﷺ «فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء، فعسى أن يستجاب لكم».
(٥) في النسخة الخطية: «للصلاه».

وهو ركن من أركان الدين، وحسن الأخلاق يدل على تزكية النفس، وهو من صفات المفلحين[١]، قال الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية رقم ٩].

وذلك عبارةٌ عن تبديل الصفات المذمومة من الجبلة بأضدادها من الصفات المحمودة بعد التفطن لها.

فأول ذلك: تنقية القلب عن الكبر، ففي الحديث: «**لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[٢].

فيتواضع لله ﷻ، ويذل للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٢].

فلا يرى نفسه على أحدٍ من خلق الله ﷻ بعلمٍ ولا حالٍ[٣]، ويرى نفسه دونهم، لأن أحوالهم مغيبة عنه عند الله ﷻ، قال الله تعالى: ﴿...فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [سورة النجم: الآية ٣٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: الآية ١١].

ثم تنقية القلب [٧٧/أ] عن الحسد، فلا يحسد أحدًا على ما آتاه الله من فضله؛ بحيث يحب زوال النعمة عنه، فذلك من أخلاق اليهود، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٤].

بل يُحبُّ لكل أحدٍ ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، ومتى أحسَّ من قلبه بحسد نفاه، ونقَّى قلبه منه وكرهه، ودعا للمحسود بتمام النعمة، فذلك

---

(١) في النسخة الخطية: «المخلوقين».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه - الحديث رقم (٩١) - (١/ ٩٣)] من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ؛ ولفظه: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**».

(٣) في النسخة الخطية: «فضلاً ولا حالاً».

الذي يمكنه، أما تبديل ذلك من نفسه فهو إلى الله ﷻ، وإنما يكون ذلك عند طهارة القلب بتحقيق التقوى والزهد، فمن حقَّق التقوى والزهد صفا قلبه من خبائث[١] الأخلاق بمشيئة الله ﷻ.

وبعض العلماء يَعُدُّ هذه كبائر من كبائر الذنوب، ويجعلها بإزاء الكبائر الظاهرة، بمعنى أن عقوبتها في الآخرة كعقوبتها.

ومن ذلك الخبث، وسوء الظن؛ فليجتنب[٢] كثيرًا منه كما أمر الله ﷻ[٣]

وخبائث الأخلاق قسمان:

قسم منها قام بإزاء المحارم الظاهرة، والقسم الثاني بإزاء المكروهات.

فالقسم الأول: كالكبر والعُجْب وخوف الفقر وسخط المقدور والغل والحقد والغش، وطلب العلو وطلب المنزلة، والأَنَفَة من الفقر، وحب الرئاسة، والعداوة، والبغضة لغير الله، والحميَّة للنفس، والأَنَفَة من الفقر[٤]، والأشر والبطر، والتعظيم للأغنياء بالقلب من أجل غناهم، والاستهانة بالفقراء بالقلب من أجل فقرهم، والفخر والخُيلاء في الهيئة والصفات والعلم وغير ذلك، والتحبب إلى الناس بما لا يحب الله، والتنافس في الدنيا والمناصب، والرياء والسمعة، والإعراض عن الحق استكبارًا، والانتصار للباطل [٧٧/ب] مع العلم به لنصرة النفس، والسكوت عن الحق خشية سقوط المنزلة، والتملل والاقتدار في أمر الله، والتزين للمخلوقين بالدين ليعظموه، والمداهنة، وأن يمدح بما لم يفعل، ونسيان نعمة الله تعالى؛ والعمى عن إحسانه، واتخاذ

(١) في الأصل: «حبائر»، وفي النسخة الخطية: «كبائر».
(٢) في النسخة الخطية: «فيتجنب».
(٣) في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٢].
(٤) في النسخة الخطية: «قد تكررت هذه العبارة».

إخوان العلانية على عداوة السر، والأمن لسلب ما أُعطي، والاتكال على الطاعة، والمكر والخيانة والمخادعة، وسوء الخلق، واستحقار المؤمن؛ والاستخفاف بحرمته، وقلة الحياء والرحمة.

القسم الثاني: ما قام بإزاء المكروهات الظاهرة، وذلك كحب الدنيا، وحب الحياة للتنعم في الدنيا، وشهوة الخوض فيما لا يعني، وكثرة الكلام(١)، وفضول الطعام، والصَّلَف(٢)، وافتقاد الحزن من القلب، والحرص وطول الأمل، وذهاب مال النفس إذا رد عليه قوله، والفظاظة وغلظ القلب، والغفلة والأمن، والفرح بالدنيا؛ والحزن على فَوْتها، والأنس بالمخلوقين؛ والوحشة إذا عجز عن رؤيتهم، والمراء في الكلام، والجفاء، والطيش والعجلة(٣)، والحدَّة.

فإذا انتبه الإنسان من نفسه لشيءٍ من ذلك فليكرهه ويتَّقيه، ويتخلَّق بضده تكلفًا يعامل الله بذلك ليصير عادةً وطبعًا.

فيبدِّل من نفسه الكبر بالتواضع، والعُجْبَ برؤية المنة، وخوف الفقر بالوثوق بالله ﷻ، وسخط المقدور بالرضا(٤) عن الله ﷻ، (٥) والغل بسلامة القلب، والحقد والغش مثله، وطلب العلو بطلب الآخرة وما عند الله (٥)، والأَنَفَة من الفقر بإكراه النفس على ما يظهر منه من زي الفقراء، [٧٨/أ] والعداوة بالألفة، والبغضة بالمودة، وأمثال ذلك، يبدل من نفسه كل وصف

---

(١) في النسخة الخطية: «وكثرة الكلام فضوله».

(٢) يقال: أصلف الرجل: إذا قلَّ خيره، وأصلف: إذا ثقل روحه، وفلان صلف: ثقيل الروح. كذا في "تهذيب اللغة" للأزهري (١٢/ ١٩٠ - ١٩١) (مادة صلف).

(٣) في النسخة الخطية: والعجلة والطيش، وقد وضع على رأس كل كلمة: حرف (م)؛ إشارة إلى أن أولى الكلمتين: متقدمة؛ وثانيهما متأخرة.

(٤) في النسخة الخطية: «بارضا».

(٥-٥) ساقط من النسخة الخطية.

بضده، حتى يأتي الله بالمدد منه؛ فينصلح القلب بجميع أرجائه في مقام المراقبة بعد هذا الفضل، فحينئذٍ يرجى أن تفيض من قلبه مكارم الأخلاق طبعًا لا تطبعًا، وسبب ذلك اتصال الأنوار الإلهية بقلبه بعد طهارته وصفائه[١]، وبالله التوفيق.

الأصل الثامن: المراقبة وصفة أحوالها وثمراتها:

فإن[٢] العبد إذا تاب إلى الله وتخلص من الحقوق، وأدى حق المحاسبة ورعاية الجوارح، وقام بما[٣] في هذه الكراسة واعتاده - بحيث يصير جميع ذلك طبيعةً راسخةً فيه؛ يتأذى إذا فاته شيء من ذلك؛ أو لم ينتظم له أمره فيه[٤] -: فيستقيم حينئذٍ ظاهره على أمر الله والقيام بحقه فلا يحتاج في إقامته إلى مكابدة، ففي أول الأمر لا بد من المجاهدة[٥] والمكابدة[٦]

فإذا استقام على ذلك وصار له مع ربه ﷻ رابطة يعرفها؛ ويعرف بها زيادته من نقصانه ومن وقوفه؛ فإنه لا يخلو من أحد هذه الأحوال الثلاثة: إما أن يكون في زيادة أو نقصان أو وقوف[٧].

فعند ذلك تنتقل تقواه ومحاسبته ورعايته إلى قلبه، [فيبقى يتقي الله في قلبه

(١) «وصفائه»: ساقط من النسخة الخطية.
(٢) «فإنّ»: ساقط من الأصل.
(٣) في النسخة الخطية: «وقام بما ذكر».
(٤) «فيه»: ساقط من النسخة الخطية.
(٥) في الأصل: «المجاهد».
(٦) في النسخة الخطية: «المكابدة والمجاهدة».
(٧) ذهب الإمام ابن قيم الجوزية ﵀ إلى أن العبد في سيره إلى الله تعالى والدار الآخرة ليس له وقوف ألبتة، فهو إما متقدم بالأعمال الصالحة؛ أو متأخر بالأعمال الطالحة؛ مستدلًا على ذلك بقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: الآية ٣٧].
انظر: "إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان" (١/ ١٩٦)، "الفوائد" (ص ٢١٤)، "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" (١/ ٢٩٢ - ٢٩٣).

كما يتقيه في جوارحه، يراعي قلبه][1] كما يراعي المحاسبُ لسانه ونظره خوفًا من الله ﷻ؛ وحياء من اطلاعه على قلبه ونظره إليه وعلمه به؛ فيجد فيه ما يكرهه، وقد قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهَ[2] يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [الآية ٢٣٥ سورة البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة الملك: الآية ١٣] ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [نفس السورة: الآية ١٤].

فهذا أول طريق الخصوص [٧٨/ب] وما قبله من طريق العموم، لأنه في الظواهر والأبدان، وهو لعموم المؤمنين، فإذا اشتغل بإصلاح القلب ومعالجته دخل في طريق الموقنين[3]، لأن الموجب لذلك قوة يقينه باطِّلاع الله ﷻ على قلبه وعلمه به، فأكسبه اليقين والحياء منه في اللحظات بعد تحقيق الحياء منه في الحركات، فيحفظ قلبه عن خواطر الحرام؛ كما حفظ جوارحه عن حركات الآثام، ثم يحفظ قلبه عن خطرات المكروهات؛ كما حفظ جوارحه عن حركاتها، ثم يحفظ قلبه عن الفضول [4]وحديث النفس؛ كما حمى ظاهره عن حركات الفضول[4]، وهذا آخر مراتب المراقبة بعد المحاسبة.

فإذا أحكم ذلك وتوطَّن فيه، وصار ذلك له عادة ثابتة، وهيئة راسخة - بحيث لا يحتاج إلى تكلف وتعمُّل -: فحينئذٍ تستقر مراقبته في القلب كما استقرت محاسبته في الظاهر، فعند ذلك يرجى أن يصير القلب سماءً يتوقد بنجوم الذكر وصفاء الفكر؛ بعد إكمال حق التقوى، فإنه اتَّقى المحارم

---

(١) ما بين القوسين ساقط من النسخة الخطية. ثم كررت العبارة من قوله: «فيبقى يتقي الله ... إلى قوله: ... فيجد فيه ما يكرهه» مرة ثانية.

(٢) في النسخة الخطية: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [سورة البقرة: الآية رقم ٢٣٥] وهو الأصوب.

(٣) في النسخة الخطية: «المؤمنين».

(٤-٤) ما بين القوسين ساقط من النسخة الخطية.

والمكاره والفضول من ظاهره وباطنه، فصارت حركاته وخطراته حقوقًا وعبودياتٍ وعلومًا وفهومًا وأذكارًا، فتبدَّلت منه طباع البشرية، وانقلبت سجاياها وأخلاقها فتبدلت بصفات الروحانيين، فعند ذلك يشارف العبد ولوج قلبه لملكوت(١) السماء، والمكافحة بصريح الحق وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين(٢)، بمشيئة الله تعالى وتوفيقه.

الأصل التاسع: المشاهدة وأنواعها [٧٩/أ] وتقاسيمها:

اعلم أن من قام بوظيفة تَعَلُّم العلم الشرعي فقد كمَّل فطرته العقلية(٣)، ومن قام بالعمل بالعلم ظاهرًا فقد كمَّل فطرته الجِبِلِّيَّة والنفسية، ومن قام بحق المراقبة لله ﷻ في قلبه فقد كَمَّل فطرته القلبية؛ ويبقى عليه تكميل فطرته الروحية، وذلك فتح يفتحه الله تعالى على عباده المحبين له، المشتاقين إليه، الطالبين قربه، المهتمين بذلك - ليلَهم ونهارَهم - كاهتمام الفقيه بالتفقه أو أشد.

فإذا سار العبد في هذه الطريقة المذكورة من تأدية حق المحاسبة والمراقبة، ووصل تقواه من ظاهره إلى باطنه، واستقام الظاهر بالمحاسبة؛

(١) في النسخة الخطية: «المكوت».
(٢) ذكر الإمام ابن قيم الجوزية ﵀ مراتب اليقين الثلاث: علم اليقين؛ وعين اليقين؛ وحق اليقين، وبيَّن أن أولها: علم اليقين، وهو: التصديق التام به؛ بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدح في تصديقه، كعلم اليقين بالجنة مثلًا. وثانيها: عين اليقين، وهي: مرتبة الرؤية والمشاهدة، وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة، فعلم اليقين للسمع؛ وعين اليقين للبصر. وثالثها: حق اليقين، وهي: مباشرة الشيء بالإحساس به، كما إذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها، فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين؛ وفي الموقف في مرتبة عين اليقين؛ وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين.
انظر: "التبيان في أقسام القرآن" (ص ٢٣٩ - ٢٤١)، "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" (٢/ ٤١٨ - ٤٢١).
(٣) في النسخة الخطية: «الشرعية» بدلا من «العقلية».

والباطن بالمراقبة، وصفا القلب وسكن واطمأنَّ بالتقوى الكاملة(١) والزهد الكامل: فهنالك يرجى للعبد أن يتداركه(٢) الحق ﷻ بجذبته، ويُطلعُ على قلبه نجومَ العلم به وأقمارَ توحيده وشموسَ معرفتِه.

ولا ينضبط ما ينادي به الحق عباده وأهل ولايته، لكن ترتيب المشاهد على مقتضى الترتيب العلمي ثلاثة أقسام: معرفةُ الله ﷻ في أفعاله، ومعرفته في صفاته، ومعرفته به ﷻ.

الأول: أن يفتح للقلب التفكر في نعم الله ﷻ وآلائه وصنائعه وصنعه وخلقه وأمره، فيتفكر ﴿فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ [٧٩/ب] مِن شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٥]، من الشمس والقمر والنجوم السائرة والأفلاك الدائرة والرياح الذارية والبحار المتلاطمة، ويُفتح له علم التكوين والتوليد للأشياء(٣) بعضها من بعض، فإذا استغرقت فكرته في هذا بدا على سِرِّه نور المعرفة بواسطة الفكر في الأفعال، فيسمى هذا(٤) معرفة الله ﷻ بأفعاله، وهو فوق الإيمان به، هو شيء يباشر القلب؛ فيمتلئ منه ويتأثر به تأثُّرًا لا يمكنه رفعه.

الثاني: معرفة الصفات، وذلك ينكشف أيضًا في صفاء القلب عند تأمل الشريعة، والتلاوة للوحي الإلهي المتضمن للأمر والنهي؛ والوعد والوعيد؛ وغير ذلك، فإذ استغرق القلب في ذلك وغاب في تلك المعاني: بدا على القلب مشهدُ الفوقية؛ فيوقن حينئذٍ بأن هذا الوحي(٥) نزل من عند الله العلي

---

(١) في النسخة الخطية: «الكامل».
(٢) في النسخة الخطية: «فيتداكه».
(٣) في النسخة الخطية: «للشياء».
(٤) في النسخة الخطية: «هذ».
(٥) في النسخة الخطية: «الوحي».

فوق كل شيء على رسول الله ﷺ.

وسمي هذا: مشهد الإلهية. وذلك الأول يسمى: مشهد الربوبية. ثم يرجى أن يكشف للقلب مشهدُ المعية، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤]، فيشهد إحاطة الرب العظيم بخلقه - بعلمه وسمعه وبصره - وقربه منهم، وهذا[١] يسمى: مشهد المعية.

الثالث: المعرفة الكلية الجامعة لجميع معاني الأسماء [٨٠/أ] والصفات، وهو مشهد الجمع، يُجمع للعبد فيه المتفرقات، والمشاهد الأُوَل من مشاهد القلوب، وهذا هو مشهد الأرواح، فتكمل به الفطر الروحية، ويلتهب الباطن بأنوار محبة الله ﷻ الخاصة، ويرزق فيه الفناء ثم البقاء؛ ثم السكر[٢] ثم الصحو؛ [٣]لمن رزقه الله تعالى ذلك من عباده، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء.

فمن ذاق من هذا[٤] النور ذوقًا - نَفَسًا أو نَفَسَيْن -: فهو الذائق المشتاق، ومن دام له ساعة أو ساعتين: فهو الشارب حقًّا، ومن توالى عليه الأمر حتى امتلأت منه عروقه ومفاصله من أنوار الله ﷻ المخزونة: فذلك هو الرِيُّ، وربما غاب عن المحسوس فذلك هو السكر، وربما تصرف أحيانًا في الأحوال فصرَّفها في صور الأعمال فذلك هو التمكين بعد التكوين؛ والصحو بعد السكر، وفي أثناء ذلك أحوال كثيرة تتنوع لا ينضبط ابتداؤها وانتهاؤها من حال الشوق والحب والأُنس؛ والقرب والاتصال؛ والغيبة والحضور؛ والقبض والبسط؛ والتفرقة والجمع.

فصاحب هذا[٥] المشهد الآخر يكون له من كل حالٍ من الأحوال نصيب

---

(١) في النسخة الخطية: «هذ».
(٢) «ثم السكر» ساقط من النسخة الخطية.
(٣) في النسخة الخطية: «ثم الشكر».
(٤) في النسخة الخطية: «هذ».
(٥) في النسخة الخطية: «هذ».

على قدر نصيبه من الشهود، وهنا يصير العبد عبدًا لله ﷻ؛ يتولاه الله ﷻ، بمعنى أنه انتهى سيره وسلوكه؛ واتصل قلبه بالله [٨٠/ب] ﷻ اتصالًا لا انفصام له، واتصل ظاهره بالسنَّة والمتابعة اتصالًا لا انفصام له، وذلك هو حقيقة التمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها من الله ولا من رسول[١] الله ﷺ، فيرث العبد الفقيه قسطًا من حال رسول الله ﷺ الباطن؛ كما ورث قسطًا من علمه الظاهر[٢]، فتكملُ بذلك فطرته بجميع أجزائها، ويتنور بجميع أرجائها، و﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٦١]، وعلى ذلك: ﴿...فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ٢٦]، وهو: ﴿...فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الجمعة: الآية ٤].

فصلٌ[٣]

فقد كملت الأصول وهي تسعة[٤]؛ عليها مدار السلوك من البداية إلى النهاية.

قال سفيان[٥]: (إنما حُرموا الوصول بتضييع الأصول)[٦]. ففهمنا من ذلك

---

(١) في النسخة الخطية: «سول».

(٢) تقدم بيان المراد بالفناء والبقاء؛ والسكر والصحو؛ والتمكين والتلوين؛ والقرب والاتصال؛ والغيبة والحضور؛ والقبض والبسط؛ والتفرقة والجمع؛ والحال الباطن والعلم الظاهر في خاتمة دراسة الكتاب؛ عند بيان بعض المآخذ على المؤلف رحمه الله في إيراده بعض المصطلحات المجملة المشتبهة في كتابه.

(٣) في النسخة الخطية: «تنبيه» بدلا من «فصل».

(٤) في الأصل والنسخة السليمانية «تسع».

(٥) هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، الكوفي، سيد العلماء العاملين في زمانه، وُلد سنة سبع وسبعين، وتوفي رحمه الله سنة ست وعشرين ومائة.
انظر: "مشاهير علماء الأمصار" لابن حبان (ص ٢٦٨)، "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي (٩/ ٢٢٩ - ٢٧٩).

(٦) لم أقف عليه.

أن حفظ الأصول موجبٌ للوصول.

وبقي فصل اللواحق به يتم السلوك، وهي بمثابة الهيئات والسنن من الصلاة، والأصول بمثابة الأركان والواجبات، والأركان لا تجبر بالسجود، وبالله التوفيق.

فصل[(١)]

في اللواحق، وهي فصول

الفصل الأول: حفظ المزاج في جِدَّة[(٢)] السير والسلوك:

فيراعي فيه مزاجه وحاله، فيكون بين الإفراط والتفريط، فلا يشبع الشبع المفرط؛ ولا يجوع الجوع المفرط، فيكون وسطًا بين التنعم والتقشف، والتجرد والتسبب، فبعض الناس لجِدَّة سيره وسلوكه: يقطع نفسه بالرياضات الشاقة من الجوع والسهر، وربما ترك [٨١/أ] الأسباب بالأصالة؛ فينحرف مزاجه، وينقطع سيره، وأنفع الأغذية له الدسم المتوسط بين القليل والكثير، وليجتنب أكل الأشياء المولدة للسوداء[(٣)]، ومداومة: الخبز اليابس؛ فكل ذلك يضرّ بالمزاج، وينقطع به السير والسلوك.

---

(١) في النسخة الخطية: «تذييل» بدلا من «فصل».

(٢) الجِدَّة: نقيض البلى، وهو مصدر الجديد. كذا في "لسان العرب" لابن منظور (٣٣/ ١١١) (مادة جدد).

(٣) السوداء: خلطٌ مقره في الطحال، أو مرض عقلي نفساني؛ يلازم مرحلة العمر الانحدارية، ويسمى: سوداء انطوائية؛ أو ماليخولية انطوائية.
انظر: "المنجد في اللغة والأعلام" (١/ ٣٦٢)، "الموسوعة العربية الميسرة" (١/ ١٠٢٩).

الفصل الثاني: مجانبة صحبة الأحداث:

ومن له صورة جميلة تميل إليه النفس - حدثًا كان أو مختطًا[١] -، فإنه يشغف الباطن ويُعلق الهم ويلوثه، فيتنجس القلب به كما يتنجس الثوب بنجاسةٍ، وذلك من حيث لا يشعر العبد، فإن للنفس ميلًا وارتباطًا بالصور الجميلة - شاء العبد أو أبى -؛ خصوصًا للعزبان، فإن اجتنابهم في حقهم آكد لفاقتهم إلى النكاح، وكمون شهوته في القلب.

ولئن يصحب الإنسان سبعًا ضاريًا[٢] خيرٌ له من أن يصحبَ أو يعاشرَ أمردًا جميلًا؛ وإن كان صالحًا، فضرر الصالح على الناسك أشد، لأن بينه وبينه نسبة.

فليتباعد السالك عنهم وعن مواطنهم وعن مجاورتهم مهما أمكن، فإن ابتلي بتعليم أو غيره فليكن منه على أشد الحذر[٣].

وليعلم أن المقصود لا يحصل إلَّا مع طهارة المحل، ومن افتقر إلى تطهير محله وجب عليه التباعد عن مظان[٤] التلوث.

الفصل الثالث: مطالعة سنن رسول الله ﷺ: [٨١/ ب]

في أكله وشربه ونومه وأخلاقه ومعاشرته لأزواجه ولأصحابه[٥]، وأذكاره عند الحوادث، وتهجده وسواكه وطهوره، ثم ليتشبه به مهما أمكنه من ذلك؛ بعد المرور على سيرته ومعجزاته وأيامه، فبذلك تقوم شواهد نبوته في قلبه، ومعرفةُ الرسالة بشواهدها كرسيٌّ ينبني عليه التوحيد، وبجميع ذلك يصح

(١) خطَّ وجهه واختطَّ: إذا امتد شعر لحيته على جانبيه. كذا في "أساس البلاغة" للزمخشري (ص ١٦٨) (مادة خطط).
(٢) في النسخة الخطية زيادة: «أو يقرب منه».
(٣) في النسخة الخطية: «الحذ».
(٤) في النسخة الخطية: «من مواطن التلوث».
(٥) في النسخة الخطية: «للأزواج والأصحاب».

الاتباع، ويترتب على الاتباع محبة الله تعالى، قال عزَّ من قائل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١].

وإذا قرأ القرآن المجيد يستحضر الرسول ﷺ، فيشهده في القرآن مع أصحابه، ويشهد مخاطبة الله ﷻ له، ثم يفهم عن الله أمره ونهيه ومراده كما تقدم في آداب الصلاة، فبذلك إن شاء الله تتفتح مسام القلب، وتسري بواسطته الأنوار القدسية إلى القلوب بمعونة(١) الله تعالى وتوفيقه(٢).

الفصل الرابع: أن لا يفوته وِرْده عند الثلث الآخر؛ عند نزول الرب عزَّ اسمه إلى سماء الدنيا:

فمن واظب على تهجده في ذلك الوقت؛ ولو بركعتين، يطيلهما ويدعو ويستغفر عَقِيبَهما، فإن أمكنه أكثر من ذلك كان: فإنه يرجى النفوذ ووصول أنوارٍ جاريةٍ إلى القلوب إن شاء الله تعالى.

وأولى الأوقات للتلاوة الليل، لأنه: ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٦].

وفي الليل يجتمع الهم، ويصفو الذهن، ويمكن [٨٢/أ] التالي أن يستحضر المتكلمَ سبحانه في الكلام، ثم يسمع منه ويفهم عنه.

ومن فاته الليل وأوراده دلَّ ذلك على برود همته وقلة نصيبه، ويقال: إن أكثر أهل النصيب إنما حصل لهم النصيب في قيام الليل، فينبغي أن لا يفوت(٣) المريد ذلك، وإن كان العبد متفقهًا فليجعل نهاره للعلم وليله للتوجه إلى الله ﷻ.

وكذلك يجعل يوم الجمعة لله خالصًا، فإنه محك يحك العبد به ما مضى من الأسبوع، فإذا كان الأسبوع الماضي صافيًا - لم يدنسه العبد بشيء من

---

(١) في النسخة الخطية: «إلى القلب بمعرفة الله».
(٢) في النسخة الخطية: «توفيقية».
(٣) في النسخة الخطية: «فلا ينبغي أن يفوت المريد ذلك».

المعاصي -: كان يوم الجمعة يوم الأنوار والمزيد، وإن كان قد خلط في الأسبوع: كان يوم الجمعة مظلمًا؛ يجد فيه السآمة والملالة والفتور.

الفصل الخامس: دوام الافتقار إلى الله ﷻ:

واستعمال العبودية[١] له والتوكل عليه والتفويض إليه ودوام اللجأ إليه، وليكن ذلك في الأنفاس إن أمكن.

قال سهل[٢]: (على قدر معرفة الابتلاء يكون الالتجاء)[٣].

وهذا هو الذي تقتضيه عبودية القَيُّوم الذي أرواحنا بيده وقلوبنا؛ فهو يصرفها كيف شاء، وفي الحديث: «**يا مقلب القلوب - أو: يا مصرف القلوب - صرف قلبي على طاعتك - أو: قَلِّب قلبي على طاعتك -**»[٤].

ومن شهد القيومية[٥] تعلق بالله ﷻ في سائر الأحوال[٦] [٨٢/ ب]، فإن الحوادث كلها من خير وشر هي من نتائج فضله أو أقضيته، فيجب علينا دوام الافتقار[٧] إلى الله تعالى ليحفظنا في طاعته؛ ويحرسنا عن معصيته، وهذا

---

(١) في الأصل: «العبودة».

(٢) هو: أبو محمد سهل بن عبد الله التستري، الزاهد العابد، توفي رحمه الله في شهر الله المحرم سنة ثلاث وثمانين ومائتين.
انظر: "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" للأصفهاني (١٠/ ١٨٩ - ٢١٢)، "طبقات الصوفية" للسلمي (ص ٢٠٦ - ٢١١)، "سير أعلام النبلاء" للذهبي (١٣/ ٣٣٠ - ٣٣٣).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) في النسخة الخطية: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك . . .»، وقد أخرجه مسلم في صحيحه [كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء - الحديث رقم (٢٦٥٤) - (٤/ ٢٠٤٥)] من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما؛ ولفظه: «**اللَّهم مصرف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك**».

(٥) في النسخة الخطية: «القيومة».

(٦) في النسخة الخطية: «في سائر الأفعال».

(٧) في الأصل: «الافتقرار».

أصل كبير تخلف عنه قوم ففاتهم به فضل كثير.

قال بعض المشائخ: (من أدام الالتجاء إلى الله تعالى في أكله وشربه وتقلباته وحركاته: فتح الله ﷻ عليه باب المشاهد[١]؛ وهو تنوير الباطن بأنوار العظمة والجلال).

فهذا طريق موصل إلى الله ﷻ بنفسه إذا واظب العبد عليه، وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ يقول: «**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلَّا أنت**»[٢].

وهذا آخر ما تيسَّر، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا[٣] [٨٣/أ]

---

(١) في النسخة الخطية: «فتح الله تعالى له باب المشاهدة».

(٢) أخرجه النسائي في سننه الكبرى [كتاب عمل اليوم والليلة، ما يقول إذا أمسى - الحديث رقم (١٠٣٣٠) - (٩/ ٢١١ - ٢١٢)] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ ولفظه: قال النبي ﷺ لفاطمة: «**ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؛ أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله؛ ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين**».
وحسَّنه الألباني في "صحيح الجامع الصغير" [الحديث رقم (٥٨٢٠) - (٢/ ١٠١٣)].

(٣) قال محقّقه عفا الله عنه: تم الفراغ من تحقيقه والتعليق عليه في مجالس متعددة؛ آخرها ليلة الثلاثاء ٢٤/ ٢/ ١٤٢٣هـ؛ الموافق ٧/ ٥/ ٢٠٠٢م، وذلك على ثرى طابة المستطابة؛ على مطيِّبها أفضل الصلاة وأزكى السلام، فللَّه الحمد أولًا وآخرًا؛ وظاهرًا وباطنًا.

كتاب مِفْتَاحِ المَعْرِفَةِ والعِبادَة لِأَهْلِ الطَّلَبِ والإِرادَةِ الرَّاغِبِينَ فِي الدُّخُولِ إِلَى دَارِ السَّعَادَةِ؛ مِنَ الطَّرِيقَةِ المُحَمَّدِيَّة التِي لَيْسَتْ بِمُنْحَرِفَةٍ عَنْ الجَادَّة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي فتح من قُلوب مُريديه مغالق أقفالها، وجذبَها إلى حضرات قُدسه من علائقها وأغلالها، وجمع في الملأ الأعلى بين أرواحها وأرواح أشكالها، وقدَّس عزائمها عن الشَّوائب القادحة وزكَّى بالقبول جميع أعمالها، وخَلَع عليها هُنالك من خِلَع الأسماء العليَّة والصِّفات المُقدَّسة الجلاليَّة حُللًا بهيَّة فهُم يرفلون في أذيالها، أُولئك قومٌ اختصَّهم الله برحمته وسقاهم بكأس محبَّته من أنهار الاجتباء وعُيون الاصطناع رائق الأشربة وعذب زُلالها.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كما شهد بالوحدانيَّة لنفسه وأولوا العلم من خلقه.

ونشهد أنَّ مُحمَّدًا ﷺ عبده ورسوله، أرسله لهذه الأُمَّة بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا مُنيرًا، صلَّى الله عليه وعلى آله صلاة تكون لصاحبها يوم العرض والنُّشُور بُرهانًا ونُورًا.

وبعد:

فإنَّ المُوجب لتعليق هذه الكلمات: هُو ما أودع الله تعالى في قلبي من المودَّة والرَّحمة والشَّفقة لإخوان التَّجريد - أهل التَّخلِّي والانفراد لطلب التَّوحيد -، الذين قطعوا العلائق؛ [١٣/أ] وانفردُوا عن الخلائق؛ وطلبوا الحقائق: بالجُهد الجهيد.

هجروا الأوطان؛ وفارقوا الإخوان، تجرَّعوا مرارات الفاقات؛ وكابدوا مضض[١] التَّقطُّع في طلب الله سُبحانه بالمُجاهدات والرِّياضات، واستبدلوا من العزِّ ذُلًّا؛ ومن الغنى فقرًا، دَرَسُوا أنسابهم[٢] في الله وطَمَسُوا فيه أحسابهم، وفارقوا في حُبِّه أترابهم[٣]، بقُلُوبٍ لها بنار الوجد زفيرٌ، وأكبادٍ بها لفحات الشَّوق كحرِّ الهجير، تُحرِّكُهم هُبوب الرِّياح في الأصائل[٤]، ينبعثون إذا أظلم عليهم الدَّياجي[٥] بالأحزان والبلابل[٦]، يقول قائلهم[٧]:

أَمُوتُ وَمَا مَاتَتْ إِلَيْكَ صَبَابَتِي ... وَلا قَضَيْتُ مِنْ فَرْطِ حُبِّكَ أَوْطَارِي

وقال[٨]:

قومٌ هُمومهم بالله قد عَلِقَت ... فما لهم همَّةٌ تسمو إلى أحدِ

فمطلب القوم مولاهم وسيِّدهم ... يا حُسن مطلبهم للواحد الصَّمدِ

ما إن تنازعهم دُنيا ولا شرفٌ ... من المطاعم واللَّذَّات والولدِ

بلبلت قُلوبَهم بلابلُ الأحزان، وطرقها طارق الفقد والأشجان: أَنْ هبَّت من الغَوْر[٩] نسمةٌ تمرُّ على أسرارهم من شَدْي[١٠] الحُبِّ، لسان حالهم فيما

---

(١) أي: حُرقة.
(٢) أي: مَحَوْها وأذهبوا أثرها.
(٣) أي: أمثالهم المُتساوين في السِّنِّ.
(٤) أي: وقت العَشِيَّات.
(٥) أي: اللَّيالي الشَّديدة السَّواد.
(٦) أي: شدَّة الهُموم وكثرة الوساوس.
(٧) هُو أبوالفيض ذُوالنُّون بن إبراهيم المصريُّ الأخميميُّ، كما في: طبقات الصُّوفيَّة للسُّلميِّ ١/ ٢١، طبقات الأولياء لابن المُلقِّن ١/ ٢٢٣.
(٨) ذكرها تلميذه ابن قيِّم الجوزيَّة في [كشف الغطاء عن حُكم سماع الغناء: ص٧٧].
(٩) أي: العُمق.
(١٠) أي: ترنُّم وتغنِّي.

يجدون؛ وعبادتهم عمَّا يستجنُّ في سرِّهم المكنون(١):

إذا غبت عن عيني تملا بك الفكر   وإن لم يزرني الطَّيف طاف بك السِّرُّ
وكُلِّي لسانٌ عن هواك مُخبرٌ   وكُلِّي قلبٌ أنت في طيِّه نشرُ

برقت على قُلوبهم بوارق المطلوب، وتدلَّت عليها لوامع من سرِّ الغُيُوب، فأصبحوا بها هائمين، وفي ابتداء الطَّلب تائهين.

والله لو حلف العُشَّاق أنَّهم   سَكْرَى(٢) من الوَجْد يوم البتِّ ما حنثوا

ومن العجب العجيب أنَّ أحدًا منهم لا يدري ما به وما السَّبب لهيمانه؟ وما الوجه الذي إذا أمَّه وتوجَّه إليه ظفر بمرامه؟

فمنهم من تقطعه السِّياحات؛ وتنزل به في أسفاره نوازل الفاقات، ومنهم من يُعانق الجُوع والضُّرَّ والزُّهد والتَّقشُّف والفقر، غُرباء بين الخلق، يظنُّ النَّاس أنَّ بهم جُنونًا وليسوا بمجانين، غير أنَّ الطَّلب استولى على عُقولهم

---

(١) ذكرهما تلميذه ابن قيِّم الجوزيَّة في [كشف الغطاء عن حُكم سماع الغناء: ص٧٨].

(٢) قال ابن قيِّم الجوزيَّة في [مدارج السَّالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين: ٤/ ٢٠٦-٢٠٧]: (وهذا المعنى لم يُعبَّر عنه في القُرآن ولا في السُّنة ولا العارفون من السَّلف بالسُّكر أصلًا، وإنَّما ذلك من اصطلاح المُتأخِّرين، وهو بئس الاصطلاح، فإنَّ لفظ السُّكر والمُسكر من الألفاظ المذمومة شرعًا وعقلًا، وعامَّة ما يُستعمل في السُّكر المذموم الذي يمقته الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [سُورة النِّساء: الآية ٤٣]. وعبَّر به سُبحانه عن الهول الشَّديد الذي يحصل للنَّاس عند قيام السَّاعة، فقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [سُورة الحجِّ: الآية ٢]. ويُقال: فلانٌ أسكره حبُّ الدُّنيا، وكذلك يُستعمل في سُكر الهوى المذموم. فأين أطلق الله سُبحانه أو رسوله أو الصَّحابة أو أئمَّة الطَّريق المُتقدِّمون على هذا المعنى الشَّريف - الذي هو من أشرف أحوال مُحبِّيه وعابديه -: اسم السُّكر المُستعمل في سُكر الخمر وسُكر الفواحش؟! كما قال عن قوم لُوطٍ: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [سُورة الحجر: الآية ٧٢]. فوصف بالسُّكر أرباب الفواحش وأرباب الشَّراب المُسكر، فلا يليق استعماله في أشرف الأحوال والمقامات؛ ولا سيَّما في قسم الحقائق).

فهيَّمها وبلبل أسرارها وأزعجها، وهُم مع ذلك يشتاقون إلى لقاء دليلٍ ناصحٍ يدلُّهم على نهج السَّبيل، عساهم يظفرون بما عليه يهيمون، وإيَّاه يُؤمِّلون.

فمن أراد الله به خيرًا ألقاه على دليلٍ ناصحٍ؛ مُتَّبعٍ لآثار الرَّسول [١٣/ب] ﷺ على المنهج الواضح، يعرف أمراضهم وعللهم وترحهم ومضضهم، فيحضنهم كما تحضن الطَّير ولدها، ويُرضعهم من لبان المعرفة ما يُبرِّد به من قُلُوبهم لهبها، ويسدُّ بأقوات المعارف فاقاتهم، ويروي بمياه الوُصول ظمأ أكبادهم، فهُم جياعٌ بغير المعرفة لا يشبعون، عطاشٌ بغير مياه الوُصول لا يروون، أذلاء بغير مقاعد الصِّدق لا يعتزُّون، مفاليس بغير كُنوز التَّقريب لا يستغنون، هذا شأنهم وهُم الغُرباء، وطُوبى للغُرباء.

ومن أراد الله امتحانه منهم حجبه عن الدَّليل وطوَّل عليه الطَّريق، حكمة بالغة منه في حقِّه، يمُحِّص بذلك أدناسهم، ويمحو به بقاياهم وأدرانهم.

وفي هذه الأزمنة في رأس السَّبعمائة من الهجرة النَّبويَّة: والزَّمان الذي عزَّ فيه الأدلاء النَّاصحون؛ وكثرت فيه الأكاذيب والمدَّعون، واستعلن مذهب الوَحدة والاتِّحاد(١)؛ بدعواهم أنَّهم سُبل الهُدى والرَّشاد، والصَّادقون يلتزمون الخلوة والأذكار؛ والتَّقلُّل والانتظار.

فمنهم من ينتهي في سُلوكه إلى مُجرَّد فنائه في الذِّكر؛ وهُمود خواطره في السِّرِّ، بلا فُرقانٍ يلوح ببينةٍ(٢) يتبعها شاهدٌ من شواهد الفُتوح.

فتراه جامد الظَّاهر، غايته فناء الخواطر، ورُبَّما فرحت نفسه بواقعةٍ وجَدَها؛ أو رُؤيا صالحةٍ قنع بها وضبطها.

---

(١) أي: مذهب الملاحدة القائلين بوحدة الوُجود واتِّحاد الخالق بالمخلوق؛ الذي يُضاهون به قول النَّصارى، تعالى الله عما يقول الظَّالمون عُلُوًّا كبيرًا.
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «بينه».

وفي النَّاقدين من أهل زماننا من يَرِدُ عليه حالٌ يصطلمه(١)، تعجز عبارته عن تميُّزه، وتَكِلُّ بصيرته عن تحديده(٢) وتقديره، لا يعرف العبادة ولا المعبود؛ إلا أنَّه مُستغرقٌ في مُجمل الشُّهود، ولا شعور له بالصِّفات التي على صاحبها بالمعرفة الصَّحيحة تعود.

فتراه أجنبيًّا عن السُّنَّة والقُرآن، فهُو عنهما مُعرضٌ حيران، يتغيَّر ذوقه عند القراءة، ويهرب من مجالس الحديث والإفادة، كأنَّه في طريقٍ مغايرةٍ لطريق الدِّين، كأنَّه ليس من جُملة المُسلمين.

وصاحب الذَّوق الصَّحيح إذا سمع القُرآن طرب إليه، واتَّصل القُرآن بذوقه اتِّصال الصِّفة بالموصوف، والكلام بالمُتكلِّم المعروف، ولذلك إذا سمع الحديثَ يُجيب قلبُه لدواعي: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾(٣).

ويظهر بهذا أنَّ الأذواق المُجملة غير المُفصَّلة - وهُو التَّألُّه البسيط -: يشترك فيه مُتعبِّدو(٤) أهل جميع الملل من اليهود والنَّصارى والصَّابئين، إذ القدر المُشترك بينهم مُطلق التَّألُّه، وهذا حالٌ لا يُغني شيئًا؛ حتَّى يتفصَّل على التَّفاصيل الإسلاميَّة، فيَعْرِف اللهَ تعالى من التَّفاصيل [١٤/أ] التي تعرَّف إلينا بها من نُعوته التَّامَّات؛ وصفاته الكاملات.

وفيهم من يجعل القُرآن والسُّنَّة علمًا ظاهرًا، والسُّلوك إلى الله تعالى من أحوال السَّرائر.

---

(١) من اصطلاح المُتأخِّرين، ويقصدون به: أن يرتفع إحساس المُصطلم، فيستغرق في مشهوده؛ ويفنى في موجوده.
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «تحديره».
(٣) سُورة الحشر: الآية ٧.
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «مُتعبِّدوا».

ومنهم من يُسكره لائحةٌ من التَّوحيد؛ فيغرق في بحر القدر والتَّفريد[١]، فيغيب بفعل الخالق عن فعل المخلوق، ويسكر بعلم كلمات التَّكوين عن علم كلمات التَّكليف، فيبقى غائبًا عن الأوامر والنَّواهي، يتطلَّع إلى صرف القدر المحض من جميع النَّواحي، وأنَّى تروي هذه الأشياء غليلًا؟! أو تشفي بالمحبَّة الصَّادقة عليلًا؟!

فالصَّادق في ابتدائه في أوان غلبات وجده كالعطشان، كُلَّما رأى سرابًا مال إليه، وحام نحوه وعليه.

فإن وقع في كِفَّة هؤلاء الأقسام المذكورين طالبٌ صحيح الطَّلب - بحيث يُلقونه في لفيفهم؛ ويحشرونه[٢] في مضيفهم -؛ وكان غِرًّا جاهلًا بمتاهات الطَّريق قد يسلك معهم بُرهة من الزَّمان حتَّى يصل إلى غاية أمدهم؛ أو مُنتهى حدِّهم ومددهم: فيظهر حينئذٍ أنَّه ليس على تحقيقٍ؛ وأنَّه تائهٌ عن الطَّريق، فيتعب بهم دهرًا طويلًا؛ ويشقى بسببهم شقاء بعيدًا، خُصوصًا إذا أذابوا مُهجته بالرِّياضات، وطرحوه في مشابك التَّجوُّع والفاقات، فتضعف بذلك قُواه البدنيَّة، وتتغيَّر لطيفته الذِّهنيَّة، فتروح حدَّته ونشاطه معهم، ويضيع عُنفوان شبيبته في طريق انحرافهم، حتَّى يصل إلى غاياتهم؛ فيرى ما هُم فيه سرابًا ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[٣].

وقليلٌ من السَّالكين يقف على عورهم، بل الغالب منهم ينقطعون معهم

---

(١) التَّفريد: هُو إفراد المربوبِ ربَّه بالإيثار، فيُخلِّص العابد العبادة من شوائب حُظوظه، ويُفرد القصد والمحبَّة لمعبوده، وصدق التَّفريد: هُو أن يبذل المخلوق كُلَّه لخالقه وحده، ثُمَّ يحتقر ما بذل في جنب ما يستحقُّه، ثُمَّ لا ينظر إلى بَذْلِه. مُلخَّصٌ من كلام ابن قيِّم الجوزيَّة في [مدارج السَّالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين: ٤/ ٣٩٤-٣٩٨].

(٢) في النسخة الخطية: «يلقوه ويحشروه».

(٣) سُورة النُّور: الآية ٣٩.

حيث انقطعوا، ويقفون في متاهاتهم مُتحيِّرين حيث وقفوا، ولا يقف على عورهم عند انتهاء سُلوكه معهم إلا الصَّادقون؛ لأنَّ الصَّادق لاحت له لوائح صادقةٌ؛ ولوامع صحيحةٌ رائقةٌ.

والبارقة وإن كانت شُعلة من وقودٍ؛ وقبسًا لطيفًا من الأمر الكُليِّ الموجود: فإنَّها دالةٌ على ما وراءها من الكمالات، وهي أنموذجٌ صغيرٌ من ذلك الأمر الكبير.

فإذا أدَّاه السُّلوك السَّقيم؛ والطَّريق الذي هُو ليس بمُستقيم إلى غايته ومُنتهى أمده؛ عرف بما عنده من البوارق الصَّحيحة أنَّه على غير طريقٍ، وأنَّ بُلوغه ليس ببُلوغ أهل التَّحقيق.

ثُمَّ غالب المُصنِّفين لكُتب الرَّقائق: تجدهم يصفون الطَّريق من الابتداء إلى الانتهاء؛ ومن التَّوبة إلى الفناء والبقاء، [١٤/ب] ولا يُبيِّنون الأمر الذي به يتمُّ السَّير والسُّلوك، ولا يُنبِّهون على الأمر - الذي تتدرَّج هذه المقامات فيه تدريجًا - تنبيهًا تمتحي معه الشُّكوك.

ففيهم من أشار إلى مُجرَّد الذِّكر البسيط أو المُركَّب مع الخلوة والتَّقلُّل، وذلك يُعطي حالًا مُجملًا لا تمييز شرعيَّ فيه، فيبقى بينه وبين ذائقي أهل الملل قدرًا مُشتركًا، غير أنَّه يُصدِّق بصاحب الشَّريعة وهُم به مُكذِّبون، والقدر الجامع بينهم مُطلق التَّألُّه كما ذُكر أولًا.

ومنهم من أشار إلى العبادة والتِّلاوة بالتَّدبُّر، وإنَّما ينفذ في التِّلاوة حقيقة النُّفوذ المُوصل إلى المطلوب من عرف المُقدِّمات - التي هي بمثابة الأساس للبُنيان[١] - من معرفة الأيَّام النَّبويَّة؛ والسِّير الصَّحابيَّة، وكيف كان ابتداء الإسلام وطُلوع شمسه وبُزوغ قمره؟ وكيف أينع غُصن الإيمان وأينق؛ وسطع نُوره وأشرق؟

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «للتِّبيان».

فمن عرف ذلك وتحقَّق بمعرفة الرَّسول ﷺ وعرف دلائل نُبوَّته وقام بُرهان ذلك في سرِّه حتَّى صار عِلْمه بذلك ضروريًّا؛ ثُمَّ عرف نُبوَّة الأنبياء من قبله بوُقوفه على قصصهم المُطابقة لما نطق به الكتاب العزيز والسُّنَّة المأثورة وذاق طعم الإيمان بصدقهم؛ ثُمَّ وجد في ذوقه ووجده أنَّ الذي جاء به هذا النَّبيُّ الخاتم للنُّبوَّة وما جاءت به الرُّسل والأنبياء من قبله هُو من عينٍ واحدةٍ ونُورهم جميعًا من مشكاة الرُّبوبيَّة - فدينهم واحدٌ وشرائعهم مُختلفةٌ؛ والرَّبُّ الذي يدعون إليه إلهٌ واحدٌ -؛ ثُمَّ وجد نَفَس الرَّحمن[١] وذوق الحقِّ ظاهرًا[٢] في جميع مللهم وشرائعهم بذوقه الصَّحيح وكشفه البيِّن المُنير: انتفع حينئذٍ بالتِّلاوة حقيقة الانتفاع، وصارت طريقًا للطَّالب يُوقعه على مطلوبه، وسبيلًا يُوصل المُحبَّ إلى معرفة محبوبه، ومع ذلك لا بُدَّ من شيخٍ يُريك شُخُوصها؛ أو صاحبٍ ذائقٍ يُنبِّهك على رُموزها.

وفي الجُملة؛ فالكتاب لا يستغني عن السُّنَّة في البيان، والسُّنَّة لا تستغني عن الكتاب، كلاهُما من الله تعالى، وكُلٌّ منهما يُبيِّن الآخر ويُوضِّحه ويدلُّ على حقائقه.

فلمَّا وجدت الطَّالبين في زماني على هذا المنهج سائرين؛ قد قطعتهم الإرادات؛ وجَحَفَت بهم[٣] الانحرافات: استخرتُ الله تعالى في تعليق كلماتٍ مُوجزاتٍ تكون للطَّالب الصَّادق أُنموذجًا يستدلُّ بها على ما وراءها من حقائق المطالب العالية، [١٥/ب] وتُرشده إلى سبيل الصَّادقين من أُمَّة هذا النَّبيِّ

(١) أي: تنفيسه وتفريجه، كما قال رسول الله ﷺ «**وهو مُوَلٍّ ظهره إلى اليمن: إنِّي أجد نَفَس الرَّحمن من ههنا**» أخرجه الطَّبرانيُّ في مُعجمه الكبير [الحديث رقم (٦٣٥٨)- ٧/ ٥٢].
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «ظاهر».
(٣) أي: جَرَفَتْهم بشدَّة.

الكريم أهل المشاهد الكاملة غير المغضوب عليهم ولا الضَّالِّين، فتحها الله تعالى عليَّ علمًا قطعت بصحَّته، وأرجو من كرم الله تعالى أن يُحقِّقها لي حالًا أتَّصف بها بين أهل ولايته، فالنَّاطقون عن علمٍ لهم مرتبة الإخبار من علم اليقين، والواجدون لهم مرتبة التَّحقيق من عين اليقين، ويجب البيان كيلا يلتبس المُتكلِّم بالعلم: بالمُتكلِّم بالحال، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

الفصل الأوَّل: في المبادئ

إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا: أيقظه من سِنَة الغفلة للتَّخلُّص من مُوبقات الآثام والورَطة.

فأوَّل ذلك: عند ظُهور الإنابة إلى الله تَرِد على العبد جذباتٌ تجذب قلبه وهُو في غمار الغفلة، تتلاطم عليه فيه أمواج الطَّبيعة والهوى، ويستبين له الرُّشد والهُدى، على قدر استمرار تلك الجذبات التي تجذب قلبه من عوالمه الأرضيَّة إلى مقرِّ رُوحه، فيُشرق له في ذلك الحال بنُور عقله ضياء الطَّريق، ثُمَّ يعود عليه عوالمه الأرضيَّة، فيبقى مُتحيِّرًا في ظُلماتها.

فمنهم من يتعاطى في تلك الظُّلمة ما يتقاضاه الطَّبع والهوى؛ إلا أن يعصمه الله تعالى، فلا يزال كذلك صاعدًا مرَّة إلى أوجه؛ وتارة أُخرى إلى حضيضه، فيكون في أوَّل الأمر أوقات صُعوده نادرًا، ثُمَّ تتوالى عليه الجذبات؛ إلى أن يبقى الصُّعود والنُّزول متساويَيْن[١]، ثُمَّ تغلب أوقات الصُّعود على أوقات النُّزول، ثُمَّ تندر[٢] أوقات النُّزول كما كانت أولًا أوقات الصُّعود نادرة.

فهُو بين ظُهور القلب والرُّوح: هُما أوجاه؛ الذي تُصعده[٣] الجذبة إلى مقرِّهما العُلويِّ، والطَّبع يحطُّه عن أوجه إلى حضيضه الذي هُو مركز النَّفس

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «مُتساويان».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «تندار».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «يصعده».

والشَّهوات والحُظوظ الدُّنيويَّة[١].

فصاحب القلب الذي أغلب أوقاته يظهر عليه حُكم القلب إذا سقط: وقع على أرض طبيعته، وصاحب الرُّوح الذي أغلب أوقاته يظهر عليه أحكام الرُّوح إذا سقط: وقع على القلب[٢]، فيكون محفوظًا بنُور قلبه.

وقد يسقط في بعض الأحيان على طبعه؛ لكن يكون ذلك نادرًا، ومن وقع على طبعه: فحكمه ضبط نفسه عن أن ينصرف بحُكم نفسه وطبعه، إذ لا يبقى معه نُورٌ يحرسه ويتغذَّى به.

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «الدُّنياويَّة».

(٢) وقع لَحَقٌ في النُّسخة الخطيَّة: بين قوله: «فصاحب القلب الذي أغلب أوقاته يظهر عليه حُكم القلب»؛ وقوله: «سقط: وقع على القلب فيكون محفوظًا بنُور قلبه».

الفصل الثَّاني: في الأُمور[١٥/ب] التي يعتني بها صاحب هذا الحال

لا شكَّ أنَّ من هذا شأنه يكون غالبًا تارة؛ ومغلوبًا أُخرى، تارة يقهر جُندُ القلب والرُّوح؛ فتكون كلمة الله العليا على باطن الشَّخص وظاهره، وتارة يغلب جُندُ النَّفس والهوى والشَّيطان؛ فتكون الشَّهوات والإرادات النَّفسانيَّة حاكمة على الشَّخص غالبة عليه، فهُو في كُلِّ وقتٍ في حربٍ وجهادٍ، يَرِد عليه في كُلِّ يومٍ من العوارض المحمودة والمذمومة من ظاهره وباطنه من الخلائق أُمورٌ مُتعارضةٌ مُتقابلةٌ، ومثل هذا لا بُدَّ أن يُبتلى بقواطع وموانع ليُمتحن صبره فيها.

وقد جَعَل في الكون جُنودًا تتقوَّى بها جُنودُ القلب والرُّوح؛ وجُنودًا تمدح الطَّبع والهوى والشَّيطان من الجنِّ والإنس[١]، فالعُلماء والصَّالحون والأولياء والمُقرَّبون والعبادات والقُرُبات والدُّعاء والالتجاء: جُنودٌ تمدح القلب والرُّوح، والبطَّالون والغافلون وتعاطي الشَّهوة والغفلة عن الله تعالى: يتركَّب منها جُنودٌ يتقوَّى بها جُنود الطَّبع والهوى.

ولا بُدَّ أن تعرض له فتنٌ كقطع اللَّيل المُظلم، وتدعوه الشَّياطين إلى طُرُق الضَّلالات وسبيل المتاهات، فليستعن بالله ويُكثر الدُّعاء والتَّضرُّع والابتهال في طلب النُّصرة منه، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[٢]. وقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾[٣].

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ في جُنود القلب والرُّوح وجُنود النَّفس».
(٢) سُورة الأنفال: الآية ٩.
(٣) سُورة الحجِّ: الآية ٧٨.

ثُمَّ أنفع ما له: الاشتغال بموادَّ تُقوِّي جُنود قلبه وتُسهِّل له سبيل رُشده لتغلب جُنودُ الرَّحمن جُندَ الشَّيطان، وتصير كلمة الله هي العُليا، وتُفتح عكّا النَّفس؛ وطرابلس الهوى، وتُكسر الصُّلبان؛ ويُوحَّد الرَّحمن، وتتدلَّى على القلب أسباب الهُدى؛ وتُفتح مغالق المطالب التي إليها المُنتهى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾(١).

وأهمُّ ما له بعد القيام بالأوامر واجتناب النَّواهي: رعاية الجوارح عن المُحرَّمات والمكروهات، والتَّخلُّص من قضاء الصَّلوات الفائتات، والحُقوق الواجبات فيما بينه وبين الله تعالى؛ وبين الخلق، حتَّى لا يبقى قلبه مُظلمًا(٢)

ولُزوم المُحاسبة: يُحاسب النَّفس على كُلِّ قولٍ يقوله أو عملٍ يعمله، فلا يعمل شيئًا إلا لله ﷻ، مثلًا: لا يتكلَّم إلا لله؛ ولا يتحرَّك إلا لله، يُقدِّم النِّيَّة الصَّالحة على كُلِّ عملٍ من أعماله، وأيُّ حركةٍ [١٦/أ] أو عملٍ خلت من نيَّةٍ صالحةٍ: استغفر الله منها.

ولُزوم المُراقبة على الهُموم والإرادات، فلا يهمُّ إلا بخيرٍ، ولا ينوي إلا خيرًا، فإنَّ الهُموم مُقدِّمات الأعمال، فمتى صلحت الهُموم: صلحت الأعمال، ومتى فسدت: فسدت الأعمال، ويُراقب نظر الله تعالى إلى قلبه، ويستشعر علمه به وقيامه عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾(٣). وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(٤).

فيُراقب علم الله تعالى في سُويداء قلبه فيتَّقيه ويخشاه في ضميره، فهذا كُلُّه

(١) سُورة النَّجم: الآية ٤٢.
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «مُظلمٌ».
(٣) سُورة يُونس: الآية ٦١.
(٤) سُورة المُلك: الآية ١٣

مُهمٌّ وقتُه وواجبٌ حالُه؛ لا غناء له عنه البتة، ولا يستقيم إلا به ولا ينفذ إلا به، فإنَّ باستعمال ذلك: تذوب طبيعة النَّفس؛ ويضعف الشَّيطان وتقوى جُنود القلب والرُّوح بالمحبَّة والعرفان.

فأهمُّ ما له مع ذلك: الاعتناء بعلم الحديث؛ والسِّير النَّبويَّة؛ والأيَّام الصَّحابيَّة، كالسِّيرة لابن إسحاق والواقديِّ وغيرهما، والصِّحاح السِّتَّة[(١)]، والاعتناء بالمُرور عليها، ويُطالع المسانيد الكبار كُمسند الإمام أحمد بن حنبلٍ وعَبْد[(٢)] بن حُميدٍ وغيرهما، ويُطالع كُتب دلائل النُّبوَّة كدلائل النُّبوة للبيهقيِّ ولأبي نُعيمٍ الأصفهانيِّ والقاضي عياضٍ المغربيِّ وشرف المُصطفى لابن الجوزيِّ وغير ذلك، ومُطالعة قصص الأنبياء كالمُبتدى الذي للكسائيِّ أو غيره.

فيعرف كيف بُعثت الأنبياء؟ وكيف عالجوا الكُفَّار؟ فيعرف من السِّيرة بعثة النَّبيِّ ﷺ، ويتحقَّق بقلبه أنَّه بُعث كما بُعثوا، وأنَّ الذي جاؤوا به جميعًا من مشكاةٍ واحدةٍ.

وكذلك يعتني بعلم أيَّام الصَّحابة، كالطَّبقات لابن سعدٍ والاستيعاب لابن عبد البرِّ، وعلم أسباب النُّزول، وعلم التَّفسير والتَّأويل للقُرآن بعد معرفة مُحمَّدٍ، وواجبات الوُضوء والصَّلاة وشرائطهما، وعلم واجبات ما يخصُّه من الأُمور التي يُبتلى بها دون أمر العامَّة؛ إلا أن يستعدَّ له ويتَّسع لتحصيله مع حفظ مُهمَّات حاله وواجبات وقته.

ولا بُدَّ من شيخٍ نافذٍ إلى الله؛ يعرف الله تعالى من طريقة الرَّسول ﷺ، يكون علمه خالصًا عن شوب العُلوم الفاسدة المُنحرفة، قد ارتضع من لبان

(١) وُصفت بالصِّحاح السِّتَّة تغليبًا، وهي صحيح البُخاريِّ؛ وصحيح مُسلمٍ؛ وسُنن أبي داود؛ وجامع التِّرمذيِّ؛ وسُنن النَّسائيِّ؛ وسُنن ابن ماجه.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «عبد الله».

الرَّسول ﷺ وتضلَّع من رضاعه، فيأخذ عنه مقاصد الكتاب والسُّنَّة؛ بلا تأويلٍ ولا تحريفٍ، فإن رُزق مثل هذا [١٦/ب] الشَّيخ: فهُو من ألطاف الله، وذلك من جُملة التَّوفيق.

الفصل الثَّالث: في بيان المطلوب حقيقة هُو في الكتاب والسُّنَّة دُون غيرهما من الأشياء والطُّرق

اعلم أنَّ الله ﷻ أكمل هذا الدِّين ولم يجعله مُعْوِزًا[(١)] فيُتمَّم من غيره كما يعمله أهل هذا الزَّمان، يجعلون الكتاب والسُّنَّة علمًا ظاهرًا يستعملونه في ظواهر العبادات والمُعاملات والعادات.

فإذا طلبوا معرفة الله والنُّفوذ إليه والوُصول إلى الحقائق والأسرار الإلهيَّة: صرفوا وُجُوههم عن الكتاب والسُّنَّة، وطلبوا ذلك من عُلوم الصُّوفيَّة والفُقراء؛ ومن الرِّياضة والتَّجوُّع والعُزلة والانفراد؛ أو من قطع الأسباب والتَّجرُّد عمَّا لا بُدَّ منه، فيُفتح لهم أمرٌ مُجملٌ لا تفصيل فيه - كما ذُكر أولًا -.

فمن جعل علم الصُّوفيَّة قِبلة قلبه: أعطته حالًا مُجملًا لا تفصيل فيه، ومن جعلها طريقًا إلى أن يستنبط بها من الكتاب والسُّنَّة الحقائق التي أشارت عُلوم الطَّائفة إليها: فقد وُفِّق وهُدي إلى طريقٍ مُستقيمٍ.

وإنَّما الطَّريقة الكاملة الجامعة المُستقيمة التي لا زيغ فيها ولا انحراف: أن تطلب معرفة الله من حيث تعرَّف إلينا من أسمائه العليَّة؛ وصفاته الجلاليَّة والجماليَّة؛ التي نطق الكتاب العزيز بها، ونصَّ الرَّسول ﷺ عليها: من أخبار الصِّفات وآياتها التي يدلُّ[(٢)] كُلُّ خبرٍ منها على سرٍّ عظيمٍ من أسرار المعرفة؛ وشأنٍ كبيرٍ من شُؤون العظمة، يُفتح به على الطَّالبين أبوابُ المعارف؛ وتُحفُ اللَّطائف، عرف ذلك من عرفه؛ وجهله من جهله.

---

(١) أي: مُحتاجًا إلى شيءٍ.
(٢) في النسخة الخطية: «تدل».

والسِّرُّ في إظهارها لنا وخطابنا بها: هُو أنْ نعرف الموصوف بها، فنعبده ونتوكَّل عليه؛ ونتألَّهه ونشتاق إليه، ونراقبه ونُعظِّم حُرماته، فيكون لقُلوبنا بالمرصاد.

فبعض النَّاس يتَّخذ آيات الصِّفات وأخبارها من قِبل الحُروف والمُتشابهة[١]؛ الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وحقيقةً: لا يعلم تأويل آيات الصِّفات وأخبارها إلا الله، لكن ما الحكمة في خطابنا بها وإظهارها لنا؟ فما هُو إلا لنذوق منها أذواق المعارف؛ [١٧/أ] ونُحبُّ الموصوف بها صاحب المكرمات واللَّطائف، وننفي عنها التَّمثيل والتَّكييف؛ والتَّأويل والتَّحريف.

فمن المُحال أن يُبيِّن الله تعالى في كتابه العزيز وفي سُنَّة رسوله ﷺ كُلَّ شيءٍ - كما ورد: (علَّمنا رسول الله صلَّى عليه وسلَّم كُلَّ شيءٍ حتَّى الخِراءة)[٢] - ويترك شُؤون المعرفة وطريق الوُصول إلى الله تعالى مُبهمة؛ فنفتقر إلى المعرفة بها إلى علمٍ آخر غير الكتاب والسُّنَّة! بل ذلك في الكتاب والسُّنَّة، عرف ذلك من عرفه؛ وجهله من جهله.

ثُمَّ اعلم[٣] أنَّ الله تعالى تعرَّف إلينا وأعلمنا بأنَّه فوق كُلِّ شيءٍ عرشُه، وفوق سبع سماواته، في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[٤]. وبقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[٥]. وبقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[٦]. وبقوله:

---

(١) أي: الحُروف المُقطَّعة والآيات المُتشابهة.
(٢) أخرج مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الطَّهارة/ باب الاستطابة- الحديث رقم (٢٦٢)- ١/ ٢٢٣] عن سلمان الفارسيِّ رضي الله عنه قال: (قيل له: قد علَّمكم نبيُّكم ﷺ كُلَّ شيءٍ حتَّى الخِراءة. فقال: أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائطٍ أو بولٍ، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقلَّ من ثلاثة أحجارٍ، أو أن نستنجي برجيعٍ أو بعظمٍ).
(٣) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ في معرفة الله تعالى كما ينبغي».
(٤) سُورة طه: الآية ٥.
(٥) سُورة النَّحل: الآية ٥٠.
(٦) سُورة فاطر: الآية ١٠.

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾(١). وبقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾(٢). وبقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾(٣). وبقوله: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾(٤). وقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾(٥).

وقوله حكاية عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾(٦). وهذا يدلُّ على أنَّ مُوسى عليه السلام أخبره بأنَّ إلهه فوق السَّماوات، ولأجل ذلك قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾.

فمجموع ذلك؛ ومعراج النَّبيِّ ﷺ من سماءٍ إلى سماءٍ إلى أن أوحى إليه ما أوحى: دلائل قطعيَّة؛ وعُلومٌ ضروريَّة بأنَّ ربَّنا سُبحانه فوق عرشه؛ وفوق سبع سماواته؛ وفوق الأشياء كُلِّها، مُتنزِّهٌ عن الدُّخول في خلقه، ووُجوده سُبحانه بائنٌ عن وُجود خلقه، مُنفردٌ بنفسه وبجميع صفاته عن خلقه، وفوقيَّته سُبحانه فوقيَّة مُختصَّة به؛ لا كفوقيَّة الجسم المخلوق على الجسم المخلوق المحصور المحدود - تعالى الله عن ذلك -، فإنَّ العرش المجيد لا يُقلّه ولا يُحيط به، وهُو الحاملُ للعرش المُحيطُ به، فعُلوُّه وفوقيَّته واستواؤه مُختصَّةٌ به؛ صفاتٌ تليق به، مُنزَّهٌ عن صفات الحدث، كما أنَّ سمعه العظيم مُنزَّهٌ عن سمع المخلوق، وبصره العظيم مُنزَّهٌ أن يكون كبصر المخلوق، وعلمه الكريم مُنزَّهٌ عن أن يكون كعلم المخلوق. فكذلك عُلوُّه واستواؤه مُنزَّهٌ أن يكون كعُلوِّ المخلوق واستوائه، فافْهَمْ ذلك وأَثْبِتِ الصِّفة ونَزِّهْ الموصوف عن صفات الحدث.

---

(١) سُورة الأعلى: الآية ١.
(٢) سُورة الأنعام: الآيتان ١٨؛ ٦١.
(٣) سُورة المُلك: الآية ١٦.
(٤) سُورة آل عمران: الآية ٥٥.
(٥) سُورة النِّساء: الآية ١٥٨.
(٦) سُورة غافر: الآيتان ٣٦-٣٧.

وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾[١]. أي: مَنْ على السَّماء، كما قال تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[٢]. أي: على الأرض. وقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[٣]. أي: على جُذوع [١٧/ ب] النَّخل.

فهذه مسألة العرش، فافهمها وحقِّقها: تفز بالكنز الأكبر؛ والسِّر العظيم.

---

(١) سُورة المُلك: الآية ١٦

(٢) سُورة التَّوبة: الآية ٢.

(٣) سُورة طه: الآية ٧١، وفي النسخة الخطية: «لأصلبنكم» بدون حرف الواو.

الفصل الرَّابع: في أنَّ مسألة العرش أصلٌ من أُصول السَّالكين لا يستقيم أمرهم إلا بها ولا ينفذون إلى دينهم إلا بمعرفتها وتحقيقها

اعلم وفَّقك الله أنَّ مسألة العرش أصلٌ من أُصول السَّالكين، هي مبدأ المعارف الإلهيَّة والأذواق الوجديَّة، هي نقطة أمرهم ومركز دائرتهم، عليها تنشأ قواعدهم، وأكثر من انحرف عن التَّحقيق: فلجهله بها، فمعظم من لقيتُه من السَّالكين والطَّالبين: وجدتُهم ليس لقُلوبهم قِبلة تتوجَّه إليها[١]، لكونهم لا يُحقِّقون أنَّ ربَّهم فوق كُلِّ شيءٍ؛ بائنٌ من خلقه، فهُم حائرون فيه، فمنهم من يعتقد أنَّه لا داخل العالم ولا خارج العالم؛ ولا فوقه ولا تحته، وفيهم من يقول: إنَّه في كُلِّ مكانٍ، فهؤلاء قطعًا لا تصل قُلوبهم إلى حقيقة الأمر؛ لأنَّ مبدأ الحقائق ووُجودها - علمًا واعتقادًا - في نفس المُريد والسَّالك، ثُمَّ تعود تلك العقائد فتصير مشاهد، فإذا كانت العقائد فاسدة: كانت المشاهد وهميَّة فاسدة.

فأوَّل أُمور الصَّادقين: معرفتهم بأنَّ ربَّهم فوق كُلِّ شيءٍ، فمن عرف منهم ذلك: صار لقلبه قِبلة في توجُّهه ودُعائه، كما أنَّ المُصلِّي قِبلته في صلاته الكعبة، إليها يتوجَّه؛ ونحوها ينحو، فالطَّالب المُريد إذا أيقن بذلك: يصير ما فوق العرش قِبلة قلبه في توجُّهه وإرادته.

ومن ذلك المحلِّ العُلويِّ: تنزل عليه البركات؛ وتُفَتَّح عليه حقائق

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «إليه».

الفُتوحات بمشيئة الله وإرادته، وهُو ﷻ قريبٌ في عُلوِّه؛ عليٌّ في قُربه، لا يُغيِّر قُربُه ومعيَّتُه عُلوَّه وفوقيَّتَه، فهُو بذاته وصفاته فوق عرشه بائنٌ من خلقه، وهُو في عُلوِّه مع خلقه بمعيَّةٍ هي صفته، وحيطةٍ هي نعته، لا يُكيَّف ولا يُمثَّل، وهُو بذاته فوق العرش المجيد، يفعل ما يشاء ويحكم ما يُريد؛ فيما وصف به لنا نفسه، وتعرَّف إلينا بأنَّه فوق عرشه، وتعرَّف إلينا بأسمائه العليَّة؛ وصفاته المُقدَّسة الجلاليَّة، من حياته وعلمه وكلامه وسمعه وبصره وإرادته وقُدرته ومشيئته ووجهه الكريم ذي الجلال والإكرام ويديه المبسوطتيْن[١] وقبضته ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٢]، ويمينه في قوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ [١٨/أ] بِيَمِينِهِۦ﴾[٣].

ووصف نفسه بعزَّته وقهره ولُطفه ورضاه ومحبَّته وغضبه ولعنته وسخطه وبطشه وانتقامه ورؤيته لعباده ومعيَّته معهم ومراقبته[٤]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾[٥]. وإتيانه يوم القيامة ومجيئه في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾[٦]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[٧].

وغير ذلك من الصِّفات المُقدَّسة الواردة في الكتاب العزيز لمن عرفها وتدبَّرها؛ وعرف الكتاب العزيز وتدبَّره وفهمه وتلاه حقَّ تلاوته.

فمن فُتحت بصيرته ورُزق صفاء الفهم وحُسن الاستماع يجد الباري تعالى في كتابه العزيز يتعرَّف إلينا بمعاني صفاته، فتراه يُخاطبنا بكلامٍ رحيمٍ لطيفٍ

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «المبسوطتان».
(٢) سُورة الزُّمر: الآية ٦٧.
(٣) سُورة الزُّمر: الآية ٦٧.
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «ومُراقبه».
(٥) سُورة الأحزاب: الآية ٥٢.
(٦) سُورة البقرة: الآية ٢١٠
(٧) سُورة الفجر: الآية ٢٢.

بعباده، وتارة يُخاطبنا بكلامِ جبَّارٍ قاهرٍ مُنتقمٍ من مُخالفيه وأعدائه، وتارة يُخاطبنا بكلامِ مُقتدرٍ يُدبِّر الأمر ويفعل ما يشاء، وتارة بكلامِ عظيمٍ ذي مهابةٍ وعزَّةٍ، كُلُّ ذلك معرفة بمعاني صفاته، ويُقابل كُلَّ صفةٍ من صفاته بمُقتضاها من العُبوديَّة والخُضوع والطَّاعة.

فمثال الأوَّل: قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

فانظر ما الذي تدلُّ عليه هذه الآية من معاني صفاته الرَّحيمة واللُّطف والكرم والجود المُوجب لسعة الرَّجاء.

ومثال الثَّاني: قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾[2].

فانظر ما الذي تدلُّ عليه هذه الآية من معاني صفات الجبروت والقهر والانتقام من مُخالفيه وأعدائه.

ومثال الثَّالث: قوله[3]: ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾[4].

فانظر ما الذي تدلُّ عليه هذه الآية من معاني المُلك والرُّبوبيَّة والاقتدار ومثال ذلك.

---

(١) سُورة الزُّمر: الآية ٥٣.

(٢) سُورة الحاقَّة: الآيات ٣٠-٣٢.

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «قوله: ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ﴾ الآية، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾».

(٤) سُورة الرَّعد: الآيتان ١-٢.

وإنَّما نبَّه على جنس هذه المعاني ليستدلَّ بها على ما وراءها، ولذلك نطقت السُّنَّة النَّبويَّة بأخبار الصِّفات التي تُفيد المعرفة بالموصوف، وهي كثيرةٌ أيضًا، وقد صُنِّف فيها كُتبٌ كثيرةٌ، فليطلبها من أراد الوُقوف عليها.

فمن ذلك: ما ورد من نُزوله ﷻ إلى سماء الدُّنيا حين يبقى ثُلث اللَّيل الأخير، فيقول: [١٨/ب] هل من تائبٍ؟ هل من مُستغفرٍ؟ إلى أن يطلع الفجر[١]، ومن تجلِّيه يوم القيامة ضاحكًا[٢]، ومن فرحه بتوبة عبده[٣]، ومن

(١) أخرج مُسلمٌ في صحيحه [كتاب صلاة المُسافرين وقصرها/ باب التَّرغيب في الدُّعاء والذِّكر في آخر اللَّيل والإجابة فيه- الحديث رقم (٧٥٨)- ١/ ٥٢٣] عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ وأبي هُريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله يُمهل؛ حتَّى إذا ذهب ثُلث اللَّيل الأوَّل: نزل إلى السَّماء الدُّنيا، فيقول: هل من مُستغفرٍ؟ هل من تائبٍ؟ هل من سائلٍ؟ هل من داعٍ؟ حتَّى ينفجر الفجر**».

(٢) أخرج مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب أدنى أهل الجنَّة منزلة فيها- الحديث رقم (١٩١)- ١/ ١٧٧-١٧٨] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعًا: «**ثُمَّ يأتينا ربُّنا بعد ذلك فيقول: من تنظرون؟ فيقولون: ننظر ربَّنا. فيقول: أنا ربُّكم. فيقولون: حتَّى ننظر إليك. فيتجلَّى لهم يضحك**».

(٣) أخرج البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الدَّعوات/ باب التَّوبة- الحديث رقم (٦٣٠٨)- ٤/ ١٩٨٤-١٩٨٥]؛ ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب التَّوبة/ باب في الحضِّ على التَّوبة والفرح بها- الحديث رقم (٢٧٤٤)- ٤/ ٢١٠٣] عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لله أشدُّ فرحًا بتوبة عبده المُؤمن من رجلٍ في أرضٍ دويَّةٍ مُهلكةٍ، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتَّى أدركه العطش، ثُمَّ قال: أرجع إلى مكاني الذي كُنت فيه فأنام حتَّى أموت. فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته؛ وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشدُّ فرحًا بتوبة العبد المُؤمن من هذا براحلته وزاده**».

(٤) أخرج البُخاريُّ في صحيحه [كتاب التَّفسير/ باب ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾- الحديث رقم (٤٨٨٩)- ٣/ ١٥٥٦]؛ ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب الأشربة/ باب إكرام الضَّيف وفضل إيثاره- الحديث رقم (٢٠٥٤)- ٣/ ١٦٢٤] عن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: (جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: إنِّي مجهودٌ. فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحقِّ؛ ما عندي إلا ماءٌ. ثُمَّ أرسل إلى أُخرى، فقالت مثل ذلك، حتَّى قُلن =

تعجُّبه(١)، ومن رُؤيته يوم القيامة في حديث الرُّؤية(٢).

وقد أفرد الدَّارقُطنيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ كتابًا في حديث الرُّؤية وطُرقه(٣)، فإنَّه حديثٌ عظيمٌ من الأحاديث الدَّالَّة على المعرفة وأبواب المحبَّة من تجلِّيه في صفةٍ غير الصِّفة التي عرفوها، ومن كون المُؤمنين يتَّبعُونه حين يتَّبع أهل الطَّواغيت طواغيتهم(٤)،

= كُلُّهنَّ مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحقِّ؛ ما عندي إلا ماءٌ. فقال: من يُضيِّف هذا اللَّيلة رَحِمَهُ اللَّهُ. فقام رجلٌ من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شيء. قالت: لا؛ إلا قُوت صبياني. قال: فعلِّليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السِّراج وأريه أنَّا نأكل، فإذا أهوى ليأكل فقُومي إلى السِّراج حتَّى تُطفئيه. قال: فقعدوا وأكل الضَّيف. فلمَّا أصبح غدا على النبيِّ ﷺ فقال: قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما اللَّيلة».

(١) أخرج البُخاريُّ في صحيحه [كتاب التَّوحيد/ باب ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾- الحديث رقم (٧٤٣٦)- ٥/ ٢٣٢٠]؛ ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة/ باب فضل صلاتي الصُّبح والعصر والمُحافظة عليهما- الحديث رقم (٦٣٣)- ١/ ٤٣٩-٤٤٠] عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (خرج علينا رسول الله ﷺ ليلة البدر فقال: إنَّكم سترون ربَّكم يوم القيامة كما ترون هذا، لا تُضامون في رُؤيته).

(٢) قال في مُقدِّمته ص٩١: (هذا كتابٌ حافلٌ جمعت فيه ما ورد من النُّصوص الواردة في كتاب الله تعالى وأحاديث النَّبيِّ ﷺ المُتعلِّقة برُؤية الباري جلَّ وعلا وبعض أُمور الآخرة)، وتبعه ابن النَّحَّاس؛ حيث أفرد كتابًا في رُؤية الله تبارك وتعالى.

(٣) أخرج البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الأذان/ باب فضل السُّجود- الحديث رقم (٨٠٦)- ١/ ٢٤٦-٢٤٧]؛ ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب معرفة طريق الرُّؤية- الحديث رقم (١٨٢)- ١/ ١٦٣-١٦٦] عن أبي هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أنَّ ناسًا قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله؛ هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تُضارون في رُؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: هل تُضارون في الشَّمس ليس دُونها سحابٌ؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فإنَّكم ترونه كذلك، يجمع الله النَّاس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتَّبعه. فيتَّبع من كان يعبد الشَّمس الشمس، ويتَّبع من كان يعبد القمر القمر، ويتَّبع من كان يعبد الطَّواغيت الطَّواغيت، وتبقى هذه الأمَّة فيها مُنافقوها، فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صُورةٍ غير صُورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربُّكم. فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتَّى =

ومن القَدَم حين يضعه في النَّار؛ فتقول النَّار: قط قط[١]؛ أو قد قد[٢]، ومن ذكر الأصابع الواردة في الصَّحيح حديث الحبر لمَّا قال: إنَّ الله يأخذ السَّموات على أُصبعٍ؛ والأرضين على أُصبعٍ؛ الحديثَ، فضحك رسول الله ﷺ تعجُّبًا لما قال الحبر؛ وتصديقًا له[٣].

ومن غير ذلك من الصِّفات الواردة في السُّنَّة الصَّحيحة المأثورة المُنَزَّهة[٤] عن التَّشبيه والتَّمثيل؛ المُحقَّقة التي لا تأويل لها إلا حقائقها مع نفي التَّأويل والتَّعطيل.

= يأتينا ربُّنا، فإذا جاء ربُّنا عرفناه. فيأتيهم الله تعالى في صُورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربُّكم. فيقولون: أنت ربُّنا. فيتَّبعونه).

(١) أخرج البُخاريُّ في صحيحه [كتاب التَّفسير/ باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾- الحديث رقم (٤٨٤٨)- ٣/ ١٥٣٩]؛ ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها/ باب النَّار يدخلها الجبَّارون والجنَّة يدخلها الضُّعفاء- الحديث رقم (٢٨٤٨)- ٤/ ٢١٨٧] عن أنس بن مالكٍ ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لا تزال جهنَّم يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتَّى يضع ربُّ العزَّة فيها قَدَمه، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قَطْ قَطْ؛ بعزَّتك وكرمك. ولا يزال في الجنَّة فضلٌ؛ حتَّى يُنشئ الله لها خلقًا فيُسكنهم فضل الجنَّة**».

(٢) قال ابن حجرٍ العسقلانيُّ في [فتح الباري بشرحِ صحيح البُخاريِّ: ٨/ ٤٦١]: (ووقع في حديث أبي سعيدٍ ورواية سُليمان التيميِّ بالدَّال بدل الطَّاء، وهي لغةٌ أيضًا، وكُلُّها بمعنى: يكفي).

(٣) أخرج البُخاريُّ في صحيحه [كتاب التَّفسير/ باب ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾- الحديث رقم (٤٨١١)- ٣/ ١٥١٩]؛ ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار/ الحديث رقم (٢٧٨٦)- ٤/ ٢١٤٧] عن عبد الله بن مسعودٍ ﷺ قال: (جاء حَبْرٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: يا مُحمَّد؛ أو يا أبا القاسم؛ إنَّ الله تعالى يُمسك السَّموات يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال والشَّجر على إصبع، والماء والثَّرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثُمَّ يهزُّهُنَّ فيقول: أنا الملك؛ أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ تعجُّبًا مِمَّا قال الحَبْر تصديقًا له، ثُمَّ قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾).

(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «المُنَزَّة».

وكُلُّ صفةٍ من هذه الصِّفات: بابٌ مفتوحٌ إلى طريق المعرفة، وكُوَّةٌ[١] يُشرق منها سرٌّ من أسرار الإلهيَّة؛ وشأنٌ عظيمٌ من شُؤون العظمة، يشهد المُحبُّ العارفُ الذَّائقُ الموصوفَ بها، فتكون الصِّفة الواحدة بابًا إلى معرفة الموصوف.

فما ظنُّك بجميع الصِّفات الواردة والأسماء إذا كُوشف العارف بحقائقها ووجد أذواقها؟! فيشهدها كما تليق بالرَّبِّ سُبحانه، عريَّة عن التَّمثيل بشيءٍ من المخلوقات والمُتوهَّمات والمُتخيَّلات.

والعارف الذَّائق - لا المحجوب الجامد البارد اليابس؛ لكنْ المحُبُّ الصَّادق والواجد الذَّائق -: يذوق بقلبه حقيقة وُجودها، قائمة بالموصوف الكبير المُتعال، لا كيفيَّة لها ولا مِثْل.

وكُلُّ عاقلٍ لبيبٍ يُفرِّق بين وُجود الشَّيء وحقيقته بالذَّوق؛ بلا كيفٍ ولا إحاطةٍ؛ وبين تكييف الشَّيء والإحاطة به وتخيُّله.

فإن قُلت: فالخيال لا بُدَّ منه؛ لأنَّه لا بُدَّ أن يقوم بقلب العارف شيءٌ.

فيُقال: نعم؛ لكن ليس كمِثْل الذي يقوم بقلبه شيءٌ، ولذلك يذوق العارف حقيقة وُجود الصِّفة عريَّة عن التَّكييف والتَّمثيل، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢]. وجاء في الحديث: «**وتعالى جدُّك**»[٣].

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «وكونه».
(٢) سُورة الرُّوم: الآية ٢٧.
(٣) أخرج أحمد في مُسنده [الحديث رقم (١١٦٥٧)- ١٨/ ١٩٩-٢٠٠]؛ وأبوداود في سُننه [كتاب الصَّلاة/ باب من رأى الاستفتاح بـ: سُبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك- الحديث رقم (٧٧٥)- ص١٢٥]؛ والتِّرمذيُّ في سُننه [كتاب مواقيت الصَّلاة/ باب ما يقول عند افتتاح الصَّلاة- الحديث رقم (٢٤٢)- ص٧٠]؛ والنَّسائيُّ في سُننه [كتاب الافتتاح/ باب نوع آخر من الذِّكر بين افتتاح الصَّلاة وبين القراءة- الحديث رقم (٨٩٩)- ص١٤٩]؛ وابن ماجه في سُننه [كتاب إقامة الصَّلوات والسُّنَّة فيها/ باب =

فهُو ﷻ له المَثَل الأعلى في السَّماوات والأرض وفي قُلوب المُؤمنين، وليس لذلك المَثَل مِثلٌ يُشبَّه به.

وهذا المَثَل يجده العارفون في قُلوبهم؛ هُو بمثابة الاسم والمُسمَّى، فليس [١٩/أ] الاسم غير المُسمَّى ولا عينه، ومن توهَّم أنَّ الذي يجده في قلبه عين الحقيقة فقد ادَّعى الحُلول والاتِّحاد؛ تعالى الله أن يحلَّ في شيءٍ أو يحلَّ فيه شيءٌ.

وهذا المَثَل مُطابقٌ للحقيقة بحسب استعداد المحلِّ، فإنَّ مُطابقة المَثَل بحسب محلِّه، فافهم ذلك فإنَّه مُهمٌّ جدًّا إن كُنت تطلب معونة الرَّبِّ والوُصول إليه، فصفات الباري تعالى يذوق العارف حقائقها بلا تكييفٍ ولا إحاطةٍ؛ كما يُؤمن المُؤمن بها بلا تكييفٍ ولا إحاطةٍ.

فإن قيل: كيف يُعرف من ليست له ماهيَّةٌ محدودةٌ؟ وكيف يُحبُّ من ليس له جمالٌ مُمثَّلٌ؟

فالجواب: أنَّ الحقائق إنَّما غابت ماهيَّتها عن القُلوب وتعذَّر تمثيلها وتكييفها: لقدمها وكمالها؛ وحُدوث صاحب القلب ونقصه، فإذا كان الشَّيء المحدود المحصور يُحبُّ ويُعرف بجسده وكيفيَّته: فمن غابت حقيقتُه عن القُلوب وكماله فهُو أولى بالمحبَّة من الأشياء المُمثَّلة، ولهذا الكمال جمالٌ يلوح في القُلوب أظهر من الجمال الظَّاهر المحدود الموصوف؛ يجده العارفون، فافهم هذا السِّرَّ؛ عساك أن تذوقه.

فإذا وفَّق الله تعالى العبد للتَّفقُّه في كتابه وسُنَّة نبيِّه ﷺ: يستفيد أولًا معرفة الرَّسول ﷺ، فيُعرف بسيرته وأيَّامه ومُعجزاته وآياته وسُنَّته وآدابه وغزواته

= افتتاح الصَّلاة- الحديث رقم (٨٠٤)- ص١٥٢] عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه: (أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا افتتح الصَّلاة قال: سُبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك، تبارك اسمك، وتعالى جدُّك، ولا إله غيرك).

وحركاته وسكناته وكراماته؛ كما يعرف فقراءُ زماننا وصُوفيَّتُه: شُيوخَهم بأنسابهم وصفاتهم ووقائعهم وكراماتهم.

واعلم أنَّ معرفة الرَّسول ﷺ هي أوَّل رُتبةٍ من رُتب المعارف، وهي أصل المعرفة وأساسه؛ لأنَّ الله تعالى تعرَّف إلينا بواسطته، وتجلَّى علينا من جهته، فصارت معرفة الرَّسول هي الأساس؛ عليها تُبنى مباني المعارف، وعلى قدر التَّحقُّق بمعرفة الرَّسول ﷺ: يكون التَّحقُّق بمعرفة المُرسِل.

فإذا أتقن العبد معرفة الرَّسول ترقَّى حينئذٍ إلى معرفة المُرسِل من الرِّسالة وهي القُرآن، فيرقى إلى فهم الكتاب العزيز، ويعرف الرَّبَّ تعالى حينئذٍ من الصِّفات الواردة فيه، فيبقى حينئذٍ يسمع القُرآن كأنَّه يسمعه من مُتكلِّمه من فوق عرشه وهو معه، وتستولي المُراقبة حينئذٍ على قلب العارف؛ والهيبة للرَّبِّ تعالى والشُّعُور بعظمته، فيتحقَّق حينئذٍ بمعرفة الإلهيَّة؛ وهُو معنى الإله الذي تألهه القُلوب [١٩/ب] وتعبده وتطلبه وتُحبُّه وتُحبُّ قُربه.

فإذا كمَّل هذا المشهد: يُرجى أن يُفتح عليه بمعرفة الرُّبوبيَّة التي مضمونها: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[1]؛ بعد أن يتحقَّق: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾.

(١) سُورة الفاتحة: الآية ٥.

الفصل الخامس: في كيفيَّة التَّرقِّي إلى علم صفة الرُّبوبيَّة بعد إحكام صفة الإلهيَّة

فإذا يسَّر الله تعالى للسَّالك التَّحقُّق بمشهد الإلهيَّة؛ وقام السَّالك بتحقُّقه[١] واستولى عليه حُكمُه: يُرجى أن يُفتح له علم معرفة الرُّبوبيَّة؛ وهُو الكشف عن سرِّ التَّوحيد والكلمات التَّكوينيَّات، ويظهر له قيام الرَّبِّ تعالى بتدبير خلقه، فلا نفع ولا ضُرَّ؛ ولا حركة ولا سُكون؛ ولا قبض ولا بسط؛ ولا خفض ولا رفع: إلا والله ﷻ فاعله وخالقه وقابضه وباسطه وخافضه ورافعه، له المُلك وله الحمد وهُو على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

فحينئذٍ يتحقَّق العبد العُبوديَّة؛ ويخضع لأحكام الرُّبوبيَّة؛ ويستسلم للقدر؛ ويطمئنُّ إلى كفالته سُبحانه؛ ويرضى بتقديره وتدبيره، ويتحقَّق حينئذٍ بإيَّاك نعبد فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٢].

وهذا الباب هُو كشف سرِّ الكلمات التَّكوينيَّات؛ وهُو علم صفة الرُّبوبيَّة، والأوَّل هُو علم صفة الإلهيَّة؛ والتَّحقُّق بالقيام بالأمر والنَّهي يكون عن كشف علم الإلهيَّة؛ والتَّحقُّق بالتَّوكُّل والتَّفويض، وحقائق العُبوديَّة يكون بكشف علم الرُّبوبيَّة؛ وهُو علم التَّدبير السَّاري في الأكوان من الكلمات التَّكوينيَّات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «تحقُّقه».
(٢) سُورة الفاتحة: الآية ٥.
(٣) سُورة النَّحل: الآية ٤٠.

﴿بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾. أي: بكلماته التَّكوينيَّات ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾(١). أي: بالكلمات التَّكليفيَّات.

فإذا وفَّق الله تعالى العبد وحقَّقه بهذا المشهد - بحيث لا يحجبه عن المشهد الأوَّل -: فهُو الكمال.

فكثيرٌ من المفتوح عليهم ينحجب بأحد المشهديْن عن الآخر، ومن وُفِّق للجمع بينهما بلا ضعفٍ منه؛ بل يكون كمن له عينان ينظر بأحدهما إلى هذا وبالأُخرى إلى هذا؛ فيقوم بحُكم هذا ويستعين بالله بحُكم الآخر: فقد وُفِّق وهُدي إلى صراطٍ مُستقيمٍ.

ففيهم من يكون قويًّا في باب العبادة قائمًا بالأوامر الشَّرعيَّة؛ فإذا جاءت الأحكام القدريَّة: ضعف وتزلزل واضطرب ولم يقف على حقيقة التَّوكُّل ولا على حقيقة التَّفويض، بل خاصم وسخط ونازع ولم يرض بقضاء الله ولا بفعله، وهذا عبدٌ شهد الإلهيَّة ولم يشهد الرُّبوبيَّة.

وفيهم من يكون قويًّا في باب الاستعانة والتَّوكُّل والجريان مع القدر؛ ضعيفًا في باب الحلال والحرام والمُحاسبة والمُراقبة [٢٠/أ] والقيام بأحكام الكلمات التَّكوينيَّات: فيقع في المحظُورات والمحذُورات بحُكم طبعه وشهوته، وهذا عبدٌ شهد الرُّبوبيَّة ولم يشهد الإلهيَّة.

والطَّبع والشَّهوة لا يُخمد نارَهما إلا القيامُ بالعبادة التَّامَّة مع الاستعانة التَّامَّة، ومن وُفِّق للجمع بينهما: استقام على الجادَّة؛ على صراط ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾(٢)؛ ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾(٣). فحينئذٍ يُرجى أن يُفتح له بالكشف عن صفة المعيَّة.

---

(١) سُورة التَّحريم: الآية ١٢.
(٢) سُورة النِّساء: الآية ٦٩.
(٣) سُورة الفاتحة: الآية ٧.

الفصل السَّادس: في بيان الكشف عن صفة المعيَّة الخاصَّة

وهي معيَّةٌ خاصَّةٌ، وهي الصِّفة الثَّابتة لله تعالى بأنَّه مع كُلِّ شيءٍ كما يليق به، فيجتمع للعبد الجمع في هذا المشهد بين مشهد الإلهيَّة والرُّبوبيَّة، فيشهد الإله الآمر النَّاهي المُتكلِّم بالقُرآن الباعث للرَّسول ﷺ: هُو الرَّبُّ القادر المُدبِّر لمُلكه؛ وكُلُّ شيءٍ في قبضته وتدبيره، وهُو في عُلوِّه وارتفاعه مع العبد ومع كُلِّ شيءٍ، فيأنس العبد حينئذٍ من بعد وحشته، ويصير له سميرٌ من فيض معرفته؛ حين تحقَّق بصفة معيَّته، فلا يرى بينه وبين ربِّه مسافة تحجبه، ويجده مُحيطًا به قابضًا على ناصيته، ناظرًا في سُويداء سرِّه ذوقًا ووجدًا؛ لا نظرًا وعلمًا، هُو معه حيث ما كان؛ فحيث ما تحرَّك أو تصرَّف، باطنه مُمتلئٌ من ذوق صفة معيَّته، فيستحييه العبد ويُراعي اطِّلاعه عليه وعلمه به، فإذا صار إلى هذا المقام: فقد شارف مقام الجمع؛ ويُرجى أن يُفتح له بمشهد الجمع.

الفصل السَّابع: في بيان الكشف عن حال الجمع

فإذا جمع الله تعالى للعبد المشاهد الثَّلاثة - مشهد الإلهيَّة والرُّبوبيَّة والمعيَّة -: يبقى القلب مُستهترًا[(١)] بذكر الذَّات الجامع لجميع الصِّفات الكماليَّة، وهذا أوَّل الجمع، ثُمَّ يَرِد عليه حال الجمع بمشيئة الله تعالى، فهُو هُجوم اليقين عليه من جميع جهاته في فناء وُجوده، فيفنى حينئذٍ من لم يكن؛ ويبقى من لم يزل، ويضمحلُّ الحدث لظُهور القِدم.

ومن ذاق من ذلك شيئًا: فهُو يعمل على صفاء شُهوده؛ من شَوب وُجوده، فهُو يتوب أبدًا من وُجوده؛ المُزاحم لصفاء شُهوده، كما قيل: وُجودك ذنبٌ لا يُقاس به ذنبٌ[(٢)].

والنَّفس في هذا المقام تتلطَّف في الدُّخول عليه بإراداتٍ لطيفةٍ مشوبةٍ بأعمالٍ صالحةٍ ليعود عليه وُجوده، فإنَّ عيشها في بقاء وُجودها؛ وموتها في فناء وُجودها، فلا يزال كذلك حتَّى يستقرَّ له حال الجمع.

---

(١) قال ابن قيِّم الجوزيَّة في [الوابل الصَّيِّب ورافع الكلم الطَّيِّب: ص١٨٩]: (وفي بعض ألفاظ الحديث: «**المُستهترون بذكر الله**»، ومعناه: الذين أُولعوا به، يُقال: استهتر فلانٌ بكذا؛ إذا ولع به).
إشارة إلى الحديث الذي أخرجه التِّرمذيُّ في سُننه [كتاب الدَّعوات/ باب في العفو والعافية- الحديث رقم (٣٥٩٦)- ص٨١٧] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سبق المُفرِّدون. قالوا: وما المُفرِّدون يا رسول الله؟ قال: المُستهترون في ذكر الله، يضع الذِّكر عنهم أثقالهم، فيأتون يوم القيامة خفافًا**».

(٢) ذكر ابن العماد في [شذرات الذَّهب في أخبار من ذهب: ٢/ ٢٢٩] عن الجُنيد قوله: (ما انتفعت بشيءٍ انتفاعي بأبياتٍ سمعتها). ثُمَّ ذكر من جُملتها:
(وإن قُلتَ ما أذنبتُ قالت مُجيبة وُجودك ذنبٌ لا يُقاس به ذنبُ).

وتارة يضعف قلب صاحب الجمع عن مُخالطة الصِّفات المُتقدِّمة [٢٠/ب] لشدَّة ظُهور حُكم الذَّات فلا يتَّسع للصِّفات حتَّى يتقوَّى ويرى الأمر مُطابقًا للاعتقاد، فإنَّ الكشف الصَّحيح - هُو ما كان مُطابقًا للاعتقاد -: يقتضي أنَّ الرَّبَّ تعالى لم يزل مُتَّصفًا بالصِّفات قديمًا وأزلًا؛ ولا يزال كذلك أبدًا، فيكمل له حينئذٍ شُهود الجمع مع الصِّفات؛ وهُو المشهد التَّام الكامل، وحال صاحب هذا المقام: التزام العُبوديَّة لله تعالى؛ ورفض الاستبداد بقولٍ أو فعلٍ، فمتى استبدَّ بقولٍ أو فعلٍ: عُوقب إمَّا بعُقوبةٍ ظاهرةٍ أو باطنةٍ.

فإنَّه قد وجد الله بقلبه، ومن وجد الله بقلبه: استسلم له ولأحكامه، وصار عبدًا له في جميع شُؤونه وأحواله، فهُو لا يُدبِّر ولا يتحرَّك ولا يتكلَّم إلا بما أمر به في ظاهر العلم؛ أو ندب إليه شرعًا، وأمَّا ما لم يجب عليه: لم يُندب إليه، فهُو في الشَّرع مُخيَّرٌ بين تركه والدُّخول فيه، فيطرق قلبه فيه بين يدي سيِّده؛ ينظر ما يُفيض عليه من شُهوده شارعٌ فيه، وإن وجد الفيض توقَّف حتَّى يتبيَّن له حُكمه، فهُو عبد الله تعالى، وآثار العُبوديَّة وخُضوع القلب لله عليه ظاهرٌ، وحُكم التَّوكُّل والتَّفويض عليه لائحٌ، وقد يُؤمر بالدُّخول في الأمر بهاتفٍ أو منامٍ ليمضي فيه، أمَّا ما وجب بظاهر العلم لم يحتج معه إلى بيِّنةٍ باطنةٍ، لكنَّه يمضي فيه؛ وإن وجد القبض، لأنَّ الحُكم حاكمٌ على الذَّوق الباطن في كُلِّ شيءٍ، فلا يزال قائمًا مع الله تعالى بوصف العُبوديَّة حتَّى يقبله الله تعالى ويتَّخذه عبدًا ويصطنعه ويُقرِّبه ويُرتِّب له مرتبة بين يديه.

فأوَّل علامة ذلك: جذبةٌ تأخذ برُوحه فتعرج به إلى الملكوت حتَّى يجاوزه بعُروج رُوحه، ويُرتَّب له مرتبة في القُرب بعيان الرُّوح، وهذا الذي يُسمَّى الوُصول، وتلك مُشاهدة القُلوب بأنوار الإيمان.

وفرقٌ بين عيان الرُّوح وشهادة القلب، فحُكم هذا حينئذٍ: حُكم من رأى المَلك - أعني صاحب هذه المُشاهدة الإيمانيَّة - وبَعْدُ لم يصل إلى قُربه، فهُو

يتأدَّب ويترك الاختيار، ويرجع إلى الله تعالى في كُلِّ شيءٍ حتَّى يرحمه ويُقرِّبه وينظر بقلبه إليه ويُرتِّب له بين يديه مرتبة، فذلك حينئذٍ أوَّل وُقوعه في تولِّي الحقِّ؛ وأوَّل علاماته في قبوله له.

فلا يزال قائمًا في حُكم تلك المرتبة حتَّى ينتقل إلى غيرها ثُمَّ إلى غيرها، حتَّى يتصفَّى من كدره؛ وتذوب بقاياه فيصلح للدُّخول على المَلك ومُناجاته كفاحًا، ويصير من الخواصِّ الذين لا يُحجبون عن منازل المُلوك، وذلك الغاية التي انتهى عندها الطَّلب؛ وحصل المقصود من السَّير والسُّلوك، وحينئذٍ يبقى مأذونًا [٢١/أ] له لطهارته، باقيًا بربِّه بقَيْد حاله؛ ولا تُقيِّده الحال لأنَّه بربِّه لا محالة، فبه يسمع؛ وبه يُبصر؛ وبه ينطق، وهذا مقام المُقرَّبين المحبوبين المُصطنعين، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

الفصل الثَّامن: في لواحق بها يكمل الكتاب

اعلم أنَّ هذه المعارف الشَّريفة؛ والمقامات العالية المُنيفة: لا تسكن إلا في القُلوب الطَّاهرة؛ والأبدان المُستعملة في مراضي الله تعالى من الأعمال الصَّالحة، ولا تسكن في قلبٍ مُلوَّثٍ بالشَّهوات، محشوٌّ بمحبَّة العُلوِّ والاستتباع والرِّئاسات، ولا في قلبٍ مُعلَّقٍ بشيءٍ من العوالم السُّفليَّات، إلا في قلبٍ صادقٍ في طلب ربِّ السَّماوات، لتقرَّ عينه بلقائه ويحظى لديه بخصائص التَّقريبات.

وعلامة صاحب هذه الهمَّة: كمال التَّقوى والمُحاسبة ورعاية الجوارح السَّبعة: العين والأُذن واللِّسان والبطن والفرج واليد والرِّجل - كما مرَّ أولًا - عن جميع مُحرَّمات الشَّرع ومكروهها، ومع ذلك فيكون قوَّامًا على قلبه بالرِّعاية التَّامَّة والمُراقبة للهمم الدِّينيَّة والخواطر النَّفسانيَّة، يُراعي اطِّلاع الرَّبِّ تعالى عليها، فهُو يتَّقيه ويخشاه في سرِّه كما يخشاه في علانيته، فهذا علامة الصِّدِّيقين الطَّالبين المُستعدِّين لهذه المعارف السَّنيَّة؛ والأحوال العليَّة.

وكُلُّ من لم يُحقِّق هذا الأصل؛ ولم يدخل فيه: لا يصلح لهذا الشَّأن إلا أن يشاء الله له ذلك، فإنَّ علامة المُرادين لهذا الأمر: قيامهم على الخواطر حتَّى يُنقُّوها من المكاره، ثُمَّ من الفُضول، ثُمَّ ينطلق من أسرار النَّفس فتبقى سماويَّة ذاكرة ذكر اللَّذات.

ومن لم يتحقَّق هذا؛ ولم[1] يُروِّض نفسه فيه غالبًا: لا يثبت مشهده ولا

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «هذا لم».

يستقرُّ، ولا يصلح لانطلاق قلبه إلى ملكوت ربِّه ووُصوله إلى ما تُعاينه الأرواح؛ التي تبقى فيها مُشاهدة القُلوب المذكورة كالظُّلمات لمُعاينة الحقائق، فاعلم ذلك وحقِّقه.

فليزن الإنسان نفسه بهذه الموازين، أوَّلها: خُلوُّ قلبه عن التَّعلُّق بالأدنى من جميع العوالم السُّفليَّات، فإنَّ صاحب العلائق محجوبٌ عن الوُلوج إلى عالم السَّماوات، فيحتاج مثل هذا القلب إلى تطهُّرٍ، فإذا طَهُر استعدَّ لطلب الحقائق، فكثيرٌ من النَّاس يكون مُشتغلًا بالتَّقوى والمُراقبة وسياسة النَّفس بالآداب الشَّرعيَّة؛ وقلبه مُقيَّدٌ مُعلَّقٌ بشيءٍ من الكون، وذلك هُو حجابه؛ لأنَّ لذلك الشَّيء على [٢١/ب] قلبه سلطنةٌ وهيمنةٌ وربَّانيَّةٌ تمنع وُصول سلطنة الحقِّ وربَّانيَّته إلى القُلوب.

وأكثر المحجوبين[١] عن الحقائق لهذه الموانع، وذلك مِثْل حُبِّ رئاسةٍ أو مالٍ أو جاهٍ أو مملوكٍ أو مُعاشرةٍ؛ أو غير ذلك من الأشياء التي يتعلَّق بها سرُّه ويسكن إليها قلبه، فلا يكمل إقباله على ربِّه ولا طلبه؛ فيُحجب لذلك.

فمن حُرم الوُصول من الطَّالبين: فليتَّهم نفسه، وليتطهَّر من الأدناس؛ ولينفكَّ عن العلائق.

وقد يكون الإنسان باشر الأُمور الكبيرة وليس بين قلبه وبينها ارتباطٌ، بل قلبه مُتعلِّقٌ بالله تعالى، وتُشبه حال هذا: حال الحزينة الثَّكلى، تُباشر مصالحها والحُزن كامنٌ في قلبها، فنفس المُباشرة لا تَحْجُب، بل تَعَلُّق القلب وتقييده بها: هُو الحاجب.

قال بعض المشايخ: المُحبُّ من لا سُلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة له مع مشيئته.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «المحجوبون».

خاتمة الكتاب

فإذا وفَّق الله تعالى العبد لما ذُكر من استعمال التَّقوى والتَّلبُّس بالآداب الشَّرعيَّة؛ وتَطَهُّر الباطن عن التَّعلُّقات: فلا بُدَّ أيضًا من الانفراد وقطع الشَّواغل المُفرِّقة؛ وإن لم يتعلَّق القلب بها، وجمع الهمَّة والعُكوف على صدق الطَّلب والتَّوجُّه إلى قِبلة القُلوب المذكورة أولًا، وإن أمكن الجمع بين التَّوجُّه إلى قِبلة الطَّائفين بالظَّاهر وإلى قِبلة الباطن بالباطن: كان أكمل، ولا بُدَّ من مُفارقة الإخوان البطَّالين؛ والأقران الغافلين، الذين لا يُساعدونه على حقيقة الإسلام والدِّين.

واعلم أنَّ هذا المعنى كالعروس المُفْتِنة بحُسنها وجمالها؛ المُمتنعة على خُطَّابها، تطلب عاشقًا صادقًا في حُبِّها، يبذل في طلبها مُهجته، ويحلو عنده المرارات في طلبها، وتهون عليه المشقَّات في طلب الوُصول إليها، كما قيل: (من عرف ما يطلب: هان عليه ما يبذل)(١).

خليلي قُطَّاع الفيافي إلى الحمى ... كثيرٌ وأمَّا الواصلون قليل
تروم وصالًا من سُليمى ولم تَجُد ... بنفسك هل نال الوصال بخيل(٢)

---

(١) أخرج البيهقيُّ في شُعب الإيمان [باب في شُحِّ المرء بدينه حتَّى يكون القذف في النَّار أحبَّ إليه من الكُفر- رقم (١٥٣٣)- ٤/ ٢٧٦] عن مُحمَّد بن غالب تمتام قال: كتب إبراهيم بن أدهم إلى سُفيان الثَّوريِّ: (من عرف ما يطلب: هان عليه ما يبذل، ومن أطلق بصره: طال أسفه، ومن أطلق أمله: ساء عمله، ومن أطلق لسانه: قتل نفسه).

(٢) لم أقف على قائلهما، وقد ذكر البيت الأوَّل: ابن رجب في: [لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف: ص٢٥٢].

وقال آخر(١):

عمَّن تُسائل من في الدَّار من رجلٍ ... بزينب بات مشغولًا عن الشُّغُل

قد جرَّحته الصَّبا ممَّا يُكابدها ... ليلًا وقد تمَّمته نسمة الأُصُل

ومن عرف هذا المعنى: تحقَّق أنَّ هذا السِّرَّ لا يُفتح غالبًا إلا على القُلوب الطَّاهرة والقُصود الصَّادقة والهمم المُحترقة؛ المُتخلِّية عمَّا سوى مطلوبها.

وهيهات أن [٢٢/أ] يحصل لها بعض مطلوبها، فكيف بأهل القُلوب المُلوَّثة والأسرار المُقيَّدة المُعانقة لأجزاء الكون بالإرادة والتَّعشُّق؟ إنَّ هذا منهم بعيدٌ!

ومن رزقه الله تعالى هذه الهمَّة العليَّة والتَّخلِّي عمَّا سوى مراده والتَّعرُّض التَّامَّ لبواديه ونفحاته أيضًا عليه شرطٌ آخر: وهُو القصد من السَّير، فبعض الصَّادقين من الطَّالبين لحدَّة عزمه وفرط غرامه: يتعدَّى الأُمور المشروعة؛ ويتحمَّل من المشقَّات ما لا يُطيق.

بل على المُريد أن(٢) يتعلَّم السُّنَّة ليستفيد منها معرفة الرَّسول ﷺ؛ ومعرفة آدابه وأخلاقه، ويُمِرُّ السُّنَّة على نفسه قولًا وفعلًا، ويقتصر على ذلك بلا غُلوٍّ ولا انحرافٍ.

فالصَّوم والسَّهر الدَّائم وترك الأسباب التي بها يقوم الوُجود البدنيُّ: كُلُّ ذلك غير مشروعٍ، بل يصوم قصدًا؛ ويقوم قصدًا، ويقطع قلبه عن الرُّكون إلى الأسباب، ولا يُعامل الله تعالى ولا يتقرَّب إليه إلا بما شرعه في كتابه أو سُنَّة رسوله ﷺ.

ومن خالف ذلك وارتكب أعمالًا شاقَّة غير مشروعةٍ: لم يجد لها ثمرة، وأوهنت(٣) بدنه؛ وأضعفته في آخر الأمر عن المشروع والمندوب، وأورثته

---

(١) لم أقف عليهما.

(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ بل على المُريد أن».

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «وأوهت».

أحوالًا مُنحرفة ممزوجة بحدَّةٍ وسُوء خُلقٍ، عرف ذلك من عرفه؛ وجهله من جهله.

وليقتصر الطَّالب على الصَّلوات الخمس المشروعة بإكمال وُضوئها والخُشوع والحُضور في رُكوعها وسُجودها.

وبعض النَّاس يعتقد أنَّه خاشعٌ في صلاته، وإنَّما الخُشوع هُو أن لا يخطر له في التِّلاوة غير معاني ما يتلوه فيها، فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١)؛ قال بقلبه: الحمد لله ربِّ العالمين، ويجتهد أن يكون اللِّسان تبعًا للقلب فيها، فإذا ركع فليخضع بقلبه كما يخضع، وإذا سجد فليسجد بقلبه تواضعًا لربِّه تعالى، ولا يغفل عن شيءٍ منها البتة، فذلك هو الخُشوع، وقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾(٢).

وفي الجُملة: فليقتصر على المشروع والمسنون الذي سنَّه رسول الله ﷺ ولا يتعدَّاه، بل يخصُّ قلبه فيه، ويعتني بمُعاملة ربِّه به، خُصوصًا في الصَّلاة وفي الأذكار المشروعة في عقبها؛ وما شُرع قبلها من إجابة المُؤذِّن والتَّهجير ومُراعاة(٣) الصَّفِّ الأوَّل، واجتناب تخطِّي الرِّقاب، وغيره من السُّنن.

ويستعمل الصَّوم المشروع، ويقتصر [٢٢/ب] عليه، مثل الاثنين والخميس؛ وأيَّام البيض؛ والعشران(٤)، فإنَّ ذلك كافيه، وكذلك يتناول

---

(١) سُورة الفاتحة: الآية ١.
(٢) سُورة المُؤمنون: الآيتان ١-٢.
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «ومُراعات».
(٤) وُصفت بالعَشْرَيْن تغليبًا، ومقصوده بالعَشْر الأُولى: اليوم العاشر من شهر الله المُحرَّم؛ وهُو يوم عاشُوراء. ومقصوده بالعَشْر الثَّانية: اليوم التَّاسع من شهر ذي الحجَّة الحرام؛ وهُو يوم عرفة. كما أخرج مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الصِّيام/ باب استحباب صيام ثلاثة أيَّامٍ من كُلِّ شهرٍ وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس- الحديث رقم (١١٦٢)- ٢/ ٨١٨-٨١٩] عن أبي قتادة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ =

القُوت المشروع وهُو القدر الذي تتمُّ به صحَّته؛ ويقوى ضعفه(١).

وفي الجُملة: فلا يُغيِّر عادته من المآكل والمشروب أصلًا؛ لكن يُنقص منه قليلًا، ويجتنب السَّرف فيه، وكذلك ينام حتَّى يستريح، ويقوم من اللَّيل بالتَّهجُّد المشروع بحزبٍ خفيفٍ لا يشقُّ عليه.

ومع ذلك فيشدُّ عزمه ويجمع همَّته وقصده على التَّورُّع عن المحارم ومُجانبة الفُضول والمآثم، ويكون أغلب همِّه أن لا يعصي ربَّه في جميع نهاره وجميع ليله؛ لا بقولٍ ولا بفعلٍ.

فإن وُفِّق للاقتصار على ذلك: اجتمعت همَّته وتوفَّرت قُوَّته على القيام بما أُمر؛ وشدَّة الانبعاث إلى ما يُحبُّ ويطلب.

وهذا الانبعاث والطَّلب هُو السِّرُّ المطلوب من الصَّادق، فمن النَّاس من تموت همَّته ومحبَّته لشدَّة ما يتعاطاه من الأعمال الشَّاقَّة.

وحَسْب العبد الطَّالب قيامه بأمر ربِّه وتوفُّر همَّته على طلب مُراده مع حفظ قُوَّته وصحَّة مزاجه وعدم انحرافه.

ثُمَّ عليه أن يترجَّى الأوقات الفاضلة، مثل يوم الجُمعة؛ ويوم عرفة؛ والثُّلث الأخير من اللَّيل، فإنَّ فيها تتنزَّل الأنصبة على الطَّالبين، وتلوح البوارق على المُحبِّين والمُشتاقين.

= **من كُلِّ شهرٍ؛ ورمضان إلى رمضان: فهذا صيام الدَّهر كُلِّه، صيام يوم عرفة: أحتسب على الله أن يُكفِّر السَّنة التي قبله؛ والسَّنة التي بعده، وصيام يوم عاشوراء: أحتسب على الله أن يُكفِّر السَّنة التي قبله».**

(١) أي: يصير مكان ضعفه قُوَّة، والجادَّة أن يُقال: ويبرأ أو يذهب ضعفه، كما أخرج الأصفهانيُّ في [حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ٩/ ١٢٠] عن الرَّبيع بن سُليمان قال: (مرض الشَّافعيُّ، فدخلت عليه فقلت: يا أبا عبد الله؛ قوَّى الله ضعفك. فقال: يا أبا مُحمَّدٍ؛ لو قوَّى الله ضعفي على قُوَّتي: أهلكني. قُلت: يا أبا عبد الله؛ ما أردت إلا الخير. فقال: لو دعوت الله عليَّ لعلمتُ أنَّك لم تُرد إلا الخير).

أمَّا يوم الجُمعة: فهُو شبيهٌ بيوم الزِّيادة وأُنموذجٌ منه، إذا اجتمع النَّاس للصَّلاة: تتنزَّل التَّجليَّات على القُلوب الصَّادقة الفارغة من الهُموم؛ المُطلقة من القُيود، وكذلك يوم عرفة، وكذلك أواخر اللَّيل.

وعليه أن يستعمل ما يحلو له من الأذكار، ويجعل عقدة أمره وذروة سنامه: تدبُّر كتاب ربِّه تعالى؛ وفهم خطاب ربِّه تعالى، ويعمل على أن يتعرَّف منه معاني صفاته بقلبٍ طالبٍ وقصدٍ صادقٍ وهمٍّ مجموعٍ، ويفتقر إلى ربِّه في ذلك، فالفهم والمعرفة فُتوحٌ؛ وهُو هبةٌ، وإنَّما العمل والتَّدبُّر واسطةٌ وسببٌ.

وإنَّما السِّرُّ في ذلك: أنَّ الله تعالى بعث إليه رسولًا برسالةٍ، فمن اعتنى بالوُقوف على فهمها؛ وغاص في حقائق المُراد منها؛ وطلب تعرُّف صفات المُرسِل المُتعالي منها: كان ذلك هُو طريقةً إلى معرفته حقيقةً، وغير ذلك من الطُّرق فروعٌ وشُعبٌ هذا أصلها.

فافهم هذا السِّرَّ راشدًا: تفز إن شاء الله تعالى، فلا تزال كذلك مُجتهدًا حتَّى تتحقَّق بمشهد صفة الإلهيَّة، فإنَّها إذا فُتحت جاء الخير؛ وانفتح الباب؛ وانجلى [٢٣/أ] الظَّلام؛ واجتدَّت الأفهام[(١)]؛ وانجذبت القُلوب.

فقد يظهر للقُلوب من مُشاهدة الإلهيَّة بوارق تلوح للقُلوب أحيانًا ولا تدوم، بمثابة البُروق اللَّوامع، فليُلازم حاله ولا يستبطئ عودها، فإنَّ المواهب على قدر الاستعداد، فقد لا يكون في هذا الآن مُستعدًّا لكمال الأمر.

فمنهم من تلوح له البارقة في سنةٍ مرَّة؛ وفي الشَّهر مرَّة؛ وفي الأُسبوع مرَّة، ثُمَّ تتقارب حتَّى تصير في اليوم مرَّة، ثُمَّ متى توجَّه وجد ذلك الحال، ثُمَّ يترقَّى إلى أن يكتسي القلب بصبغته[(٢)]، فيشتغل عنه وهُو غير مُنفصلٍ عنه.

---

(١) أي: بعد أن بَلِيَت بعد طُول احتجابها عن الفهم والمعرفة.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «بصيغته».

واعلم أنَّ المشاهد تلتبس بالمقاعد، فقد يشهد المُريد مشهدًا؛ ولا يكون لقلبه مقعدًا، فأوَّل الأمر تكون المشاهد عقائد، ثُمَّ تصير لهم مقاعد، فيروح الواحد يمينًا وشمالًا؛ لا في مرضات ربِّه، ثُمَّ يعود إلى مقعده ومركزه، كالفرس تجول ثُمَّ تعود إلى آخيَّتها[١].

فعلى العبد الاعتناء بهذا المشهد الأوَّل؛ فإنَّه الباب، فإذا شهده لا يقنع حتَّى يصير له مقعدًا، ثُمَّ يُرجى أن يفتح الله عليه ببقيَّة المشاهد المُكمِّلة للأمر الكُلِّيِّ والحال الصِّدِّيقيِّ.

ومن فتح الله عليه بحقائق هذه المشاهد وختم له بالحُسنى عليها: رُجِيَ له أن يتحقَّق حقائقها الذَّاتيَّة في الدَّار الأُخرى في مراتب الكشف والعيان؛ كما حقَّقها في الدُّنيا في مراتب الإيمان والإيقان والإحسان والعرفان، فالذي رُزقوه في هذه الدَّار من الأحوال: نموذجات مقاصد الصِّدق ورقائقها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾[٢].

والله تعالى بكرمه وإحسانه يُوفِّقنا لما يُقرِّبنا إليه؛ ويُزلفنا لديه، ويُدخلنا في زُمرة أوليائه المُفلحين؛ وحزبه المُقرَّبين، الذين اختصَّهم لنفسه؛ واصطنعهم لقُربه، إنَّه أرحم الرَّاحمين[٣].

---

(١) في النسخة الخطية: آخيته - بالتذكير -، والصحيح ما أثبته، والآخية: الحبل الذي يُدفن في الأرض؛ أو العُود الذي يُعرَّض في الحائط؛ فتُشدُّ بها وتُحبس لتلزم موضعًا واحدًا.
(٢) سُورة القمر: الآيتان ٥٤-٥٥.
(٣) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «بلغ مُقابلة».

كتاب مِفْتَاحُ الطَّرِيقِ إِلَى سُلُوكِ التَّحْقِيقِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ربِّ يسِّر وأعن

الحمد لله فاتح مغالق القُلوب، ومطهِّرها من أدران الذُّنوب، وجاذبها إلى حضرات المحبوب، ومُثير عزماتها بالشَّوق إلى أوطان القُرب وأكناف مقاعد الصِّدق فهبَّت إليه بذلك كُلُّ الهُبوب.

لاح لها لائحًا من هيبة الجلال؛ وشُعاعًا باهرًا من أشعَّة الجمال؛ الذي اتَّصفت به الرُّبوبيَّة في قِدم الأزل وأبد الآباد؛ فامتلأت منه الأرواح وصار لكُلِّ عُضوٍ من ذلك الشَّراب أهنأ مشروبٍ، فاستعمل ذلك النُّورُ القوالبَ والأجسادَ في أصناف القُربات؛ وخالص العُبوديَّات؛ بالمحبَّة الخالصة المشحونة بلواعج[1] الأشواق إلى لقاء المطلوب.

تجلَّى للأرواح من وراء سِتْر شُرَف الغُيوب؛ بأكمل الكمال وأتمِّ الجلال والجمال فعرفته بما تعرَّف إليها من لطائف صفاته؛ ومُقدَّسات نُعوته وأسمائه وحقائق أنوار فردانيَّة ذاته؛ فطارت القُلوب لذلك فرحًا؛ وحَشَاها بهيبة الإجلال فانقبضت مهابة وأدبًا؛ فهي شاخصةٌ باهتةٌ خاضعةٌ خاشعةٌ في هيبة الجلال وبهجة الجمال وكيفيَّات القبض والبسط؛ ليتهذَّب به من بقايا العبد المربوب، فأورثه ذلك مُسارعة إلى أوامره؛ وتباعدًا عن نواهيه

---

(١) أي: الهوى المُحرق للفُؤاد.

وزواجره؛ واغتنامًا لمسنوناته ونوادبه؛ وافتقارًا تامًّا وتبرُّئًا من الحول والقُوَّة إلى حول الله تعالى وقُوَّته؛ فهذه صفات العبد المجذوب.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مُفرِّج الآصار والكُروب.

وأشهد أنَّ مُحمَّدًا عبده ورسوله فاتح الخير والهادي إلى هذه الفضائل فهُو الواسطة بين العبد والمحبوب، صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة دائمة ما سلك إلى الله طالبٌ ومطلوبٌ.

وبعد:

فإنَّ الله تعالى إذا أراد بعبدٍ عناية يسلك به فيها إلى طريق المُقرَّبين؛ ومقاعد المحبوبين: ألهمه التَّوبة النَّصوح، فيعرف ربَّه سُبحانه من فوق عرشه وفوق سبع سماواته؛ بائنًا من خلقه مُستويًا على العرش - الاستواء اللائق به -، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[١].

والتَّدبير: هُو القيام بأمر المخلوقات [٢٤/أ] من توفيتهم مدد حياتهم؛ وإدرار أرزاقهم، والحكمة التَّامَّة في ابتلائهم: ليبلوهم أيُّهم أحسن عملًا، يُحيي هذا ويُميت هذا، ويُمرض هذا ويشفي هذا، ويُعزُّ هذا ويُذلُّ هذا، ويُغني هذا ويُفقر هذا، ويُولِّي هذا ويعزل هذا، فتبارك ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ

---

(١) سُورة يُونس: الآية ٣.
(٢) سُورة المُلك: الآيتان ١-٢.
(٣) سُورة النَّحل: الآية ٥٠.

ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[٢]. وقال: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[٤]. وهذا يدلُّ على أنَّ موسى صلوات الله عليه أخبر فرعون بأنَّ ربَّه فوق السَّماوات، فلذلك قال: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

فإذا عرف الطَّالب ربَّه ﷻ بأنَّه فوق العرش؛ وفوق السَّماوات؛ وفوق الأشياء كُلِّها - فوقيَّة تليق بجلاله -: صارت عظمته لقَلبه قِبلة، فتكون العظمة الإلهيَّة قِبلة قَلبه؛ كما تكون الكعبة الشَّريفة قِبلة بدنه، وكان قبل ذلك حائرًا في صلاته وتوجُّهه؛ لا يعرف جهة معبوده بأنَّه فوق الأشياء؛ وهُو مع العباد بعلمه وسمعه وبصره ومشيئته وإرادته[٥]، فهُو عالٍ في دُنوِّه؛ دانٍ في عُلوِّه.

وأيقن العبد بذلك[٦]: توجَّه إليه بالتَّوبة النَّصوح، رفع كفَّ الابتهال في حضرة ذي الجلال، وأبدى توبة نصوحًا خالصة غير التَّوبة التي[٧] كان يستعملها بحُكم الإيمان، فإنَّ هذه توبة خاصَّة بحُكم اليقين، وقال: يا ربِّ إنِّي تائبٌ إليك من جميع الذُّنوب والخطايا والتَّقصير في الحُقوق التي بيني وبينك؛ والتي بيني وبين عبادك، فاغفر لي يا كريم يا حليم، ثُمَّ لا يبرح من موضعه ذلك حتَّى يرقَّ قلبه ويخشع سرُّه، فذلك من علامات قبول التَّوبة، ثُمَّ يشرع في قضاء الصَّلوات الفائتة وقضاء الدُّيون والحُقوق والمظالم التي بينه وبين عباد

(١) سُورة فاطر: الآية ١٠.
(٢) سُورة الأنعام: الآيتان ١٨؛ ٦١.
(٣) سُورة النِّساء: الآية ١٥٨.
(٤) سُورة غافر: الآيتان ٣٦-٣٧.
(٥) في حاشية النُّسخة الخطِّيَّة: «مطلبٌ في معيَّته تعالى مع عباده».
(٦) أي: إذا عرف العبد ربَّه ﷻ بعُلوِّه وأيقن بذلك.
(٧) في النُّسخة الخطيَّة: «الذي».

الله؛ إمَّا بالوفاء وإمَّا بالاستحلال، فلا يبرح حتَّى تبرأ ذمَّته من كُلِّ حقٍّ هُو لله، ومن كُلِّ حقٍّ هُو لعباده.

فصلٌ

ثُمَّ يُلْزِم نفسه بالمُحاسبة في حركاته وسكناته، فلا يتكلَّم إلا لله، ولا ينظر إلا لله، ولا يسعى ولا يبطش إلا لله، ويُراعي جوارحه السَّبع عن جميع ما كرهه الله وحرَّمه: العين والأُذن واللِّسان [٢٤/أ] والبطن والفرج واليد والرِّجل.

فيحفظ العين من النَّظر إلى الصُّور المُحرَّمة، ويحفظ الأُذن من سماع ما كره الله، ويحفظ اللِّسان من النُّطق لغير الله بغير رضا الله، ويحفظ البطن عن الشُّبهات، ويحفظ اليد والرِّجل عن المساعي المكروهة.

فمتى رعى هذه الجوارح من طُلوع الشَّمس إلى غُروبها؛ ومن غُروبها إلى طُلوعها؛ واتَّقى الله ﷻ فيها: فقد أدَّى حُكم المُحاسبة، وقام بحقائق التَّقوى إن شاء الله تعالى.

ويرقى من حُكم المُحاسبة إلى حُكم المُراقبة، فإنَّه متى وفَّى حقَّ الله تعالى في رعاية جوارحه الظَّاهرة وسياستها بحُكم التَّقوى: رفعه ذلك إلى تقوى الله تعالى في هُمومه وخواطره.

قال الله تعالى في الجوارح الظَّاهرة: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾(١). وقال الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٢). وقال تعالى في حقِّ الكُفَّار: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ﴾(٣).

(١) سُورة الإسراء: الآية ٣٦.
(٢) سُورة ق: الآية ١٨.
(٣) سُورة الكهف: الآية ٤٩

وقال تعالى في حُكم المُراقبة الباطنة والظَّاهرة: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾(١). وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾(٣). وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾(٤).

فحكم المُحاسبة: رعاية جوارحه الظَّاهرة خوفًا من الله تعالى؛ وإقامةٌ لحقِّ تقواه؛ وامتثال أمره واجتناب نهيه.

وحُكم المُراقبة: حراسة باطنه عن أن يجري فيه شيءٌ يكرهه الله تعالى ويسخطه من الأفكار المذمومة والهُموم المُحرَّمة والمكروهة، فإنَّ الله ﷻ مُطَّلعٌ على ذلك عليمٌ به، لا يخفى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السَّماء.

فمتى وفَّق الله العبد لتوفية حقِّ الله في الخواطر الظَّاهرة والخواطر الباطنة: فقد أدَّى حقَّ الاستقامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٥).

فلا يزال العبد في المُكابدة حتَّى [٢٥/أ] تطمئنَّ نفسه وتتعوَّد جوارحه على الاستقامة، ويتعوَّد باطنه على حفظ الأدب ورعاية الحُرمات في حضرة الحقِّ.

فمتى اطمأنَّت النَّفس والقلب على ذلك؛ وتعوَّد العبد الاستقامة؛ وأدمن خشية الله تعالى بالغيب - كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم

---

(١) سُورة الأنعام: الآية ١٢٠.
(٢) سُورة المُلك: الآية ١٣.
(٣) سُورة آل عمران: الآية ١٠٢.
(٤) سُورة يُونس: الآية ٦١.
(٥) سُورة الأحقاف: الآية ١٣.

﴿مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ كَبِيرٌ﴾[١] -: فهناك يكون قد طهَّر الظَّاهر من جميع المكاره، وطهَّر الباطن - وهُو القلب الذي هُو بيت الرَّبِّ[٢] - عن جميع ما لا يُحبُّه الله ويكرهه.

ومتَّى طهَّر الظَّاهر والباطن: استعدَّ القلب للفيض؛ لأنَّ صاحبه قد كنسه وطهَّره عن المزابل والرَّذائل وعن الأخلاق السَّيِّئة - مثل حُبِّ المشيخة والرِّئاسة وحُبِّ قبول الخَلْق واستتباعه لهم -، ونفى عن القلب حُبَّ أن يصير له شُهرة بين الخلق في الكرامات والآيات الظَّاهرة؛ ومن الكبر فلا يتكبَّر على مخلوقٍ مثله، والحسد والرِّياء، فلا يُرائي بعمله مخلوقًا[٣] غير الله، بل يستعمل الإخلاص لله ولا يُشرك بعبادة ربِّه أحدًا، ولا يحسد أحدًا على ما آتاه الله من فضله، ولا يعجب بعمله، بل يرى نفسه مُقصِّرًا حقيرًا عاجزًا عن أداء ما أمره الله تعالى به، ويُحبُّ لجميع المُسلمين ما يُحبُّه لنفسه، ويتواضع لهم فلا يرى نفسه خيرًا من مخلوقٍ.

ومثل هذه الأغراض الباطنة إنما ينتبه لها صاحب المُراقبة للخواطر، فكثيرٌ

---

(١) سُورة المُلك: الآية ١٢.

(٢) يُصدِّق ذلك: ما أخرجه الطَّبرانيُّ في مُسند الشَّاميِّين [الحديث رقم (٨٤٠)- ٢/ ١٩] عن أبي عنبة الخولانيِّ رضي الله عنه يرفعه إلى النَّبيِّ ﷺ قال: «**إن لله آنية من أهل الأرض، وآنية ربِّكم قُلوب عباده الصَّالحين، وأحبُّها إليه ألينها وأرقُّها**».
وهذا الحديث الشَّريف يُغني عن الحديثَيْن اللَّذيْن لا أصل لهما، أوَّلُهما: «**ما وسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المُؤمن: النَّقيِّ التَّقيِّ الوادع اللَّيِّن**»، وثانيهما: «**القلب بيت الرَّبِّ**».
قال ابن تيميَّة في [الرَّدِّ الأقوم على ما في فُصوص الحكم (رسالةٌ مُودعةٌ في مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيميَّة): ٢/ ٣٨٤]: (يُقال: القلب بيت الرَّبِّ، وهذا هو نصيب العباد من ربِّهم؛ وحظُّهم من الإيمان به، كما جاء عن بعض السَّلف أنَّه قال: (إذا أحبَّ أحدكم أن يعلم كيف منزلته عند الله؟ فلينظر كيف منزلة الله من قلبه؟ فإنَّ الله يُنزل العبد من نفسه حيث أنزله العبد من قلبه)).

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «مخلوق».

من العُبَّاد والصَّالحين يُكثرون العبادات والنَّوافل والذِّكر والتِّلاوة؛ ويجري في قُلوبهم مثل هذه الخبائث ولا يفطنون لها، فيكون مَثَلُهم كمَثَل مَن اكتسى حُللًا بهيَّة وكُسوة فاخرة - وهي ما اكتساه من صالح الأعمال -، ومع ذلك فتفيح في بواطنهم روائح خبيثةٌ مُنتنةٌ! فما تفي تلك الرَّائحة المُنتنة بتلك الكُسوة الطَّاهرة.

ومتى اكتسى العبد كُسوة المُحاسبة والأعمال الصَّالحة؛ وراقب القلب واستعان بالله في حفظ خطراته وإقامة تقوى الله فيه؛ وأبدل خواطر الرِّياء بالإخلاص؛ وخواطر العُجب برُؤية منَّة الله تعالى وبُرؤية حقارة نفسه؛ وخواطر الكبر وحُبِّ المشيخة بالتَّواضع ومحبَّة الخُمول وأن لا يُفطن له وأن لا يراه ولا يعلم به أحدٌ غير الله تعالى؛ وخواطر الحسد بمحبَّته لإخوانه المُسلمين ما يُحبُّه لنفسه.

وفي الجُملة: فيتفطَّن لما يجري على [٢٥/ ب] القلب من تجارة الرَّبِّ(١)، فيُطهِّر بيت الرَّبِّ - وهُو القلب - عن هذه الرَّذائل، ويُبدلها عن مِثْل هذه الأخلاق، ويستعمل مكارم الأخلاق ظاهرًا مِثْل البشاشة وطيب المُلاقاة ومحبَّة إدخال السُّرور على الصَّالحين والتَّواضع لهم، هذا مع الذين يأنس قلبه بهم، وأمَّا من يخاف منهم أن يُفسدوا الوقت: فيستعمل معهم المُداراة، ويفرُّ منهم فراره من الأسد، فإنَّ مُباينة من يُفسد الوقت شرطٌ في الطَّريق، فمتى قام بهذه الآداب ظاهرًا وباطنًا؛ وتعوَّدها واطمأنَّت نفسه عليها: فحينئذٍ يستعدُّ لمواهب الحقِّ إن شاء الله تعالى، فإنَّه أوفى ما عليه؛ وبقي ما يقتضيه الفضل

---

(١) يُصدِّق ذلك: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سُورة التَّوبة: الآيتان ١١١-١١٢].

والكرم والجُود، والله[1] المُستعان، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

ويُرتجى أن يفتح الله تعالى له إذا اشتغل بحُكم المُحاسبة والمُراقبة: بحُكم النِّيَّة وآدابها، فيعرف النِّيَّة في الحركات والسَّكنات، ومتى عرف النِّية: عرف الإخلاص، فإنَّ النِّية إنَّما يعرفها من صار لقلبه موطنٌ في القيام بين يدي الله تعالى، فإذا أراد أن يتحرَّك أو يتكلَّم: ينظر قلبَه؛ ماذا يُريد بهذا العمل؟ فإن كان لله خالصًا أمضاه، وإن كان لغيره أو مُحْبِطًا أخلصه ونقَّاه.

فصلٌ

ويُراعي أحكام الصَّلوات الخمس، فلا يُصلِّي صلاة العُموم، وليتعوَّد أن يُصلِّي الفرائض صلاة الخُصوص.

مَثَلًا: إذا سمع النِّداء بالصَّلاة فليعلم أنَّه داعي الله، قال الله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[2].

فينوي برواحه إلى المسجد داعي الله[3]، فليجعل نفسه كأنَّه يزور الله تعالى في بيته، وحقٌّ على المزور أن يُكرم الزَّائر.

فإذا دخل المسجد فليستشعر أنَّه بيت الله، فإذا وقف في المحراب فليعلم أنَّه واقفٌ بين يدي الله تعالى، وأنَّ الله تعالى مُطَّلعٌ عليه؛ ناظرٌ إليه، يسمع نجواه ويعلم ما في ضميره، فإذا قال: الله أكبر؛ فلا يكون في قلبه أكبر من الله.

فإذا شرع في القراءة: فليجعل معاني القراءة عوضًا عن حديث النَّفس، فلا يُحدِّث نفسه بغير ما يتلو، ومتى فعل ذلك: كان مَثَله كَمَثَل رجلٍ يقول بلسانه

(١) في النسخة الخطية: «وبالله».
(٢) سُورة الأنفال: الآية ٢٤.
(٣) أي: إجابة داعي الله تعالى.

شيئًا؛ ويتحدَّث بقلبه شيئًا آخر، وذلك نقصٌ في الصَّلوات؛ وعيبٌ في حضرة الحقِّ، لكن يجعل النَّاطق هُو القلب.

فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾[1]؛ فليجعل النَّاطق هُو القلب، ويجعل اللِّسان ترجُمانًا يترجم عمَّا نطق القلب به.

والنَّاس في الصَّلاة أربعة أصنافٍ: منهُم من يُصلِّي بظاهره ويقول بلسانه وقلبه [٢٦/أ]، يتحدَّث بغير ما يُناجي به ربَّه بلسانه، وهذه صلاة الغافلين.

ومنهم: من يقرأ بلسانه ويُطالب قلبَه بالحُضور مع المعاني، وهذه صلاة المُجاهدين المُكابدين.

ومنهم: من يقرأ بقلبه[2]، فيُكون القلب هُو النَّاطق بالقراءة، ويكون اللِّسان مُترجمًا عمَّا استكنَّ في القلب، فهذه صلاة المُريدين الأوَّابين؛ الذين اطمأنَّت نُفوسهم وقُلوبهم بذكر الله.

ومنهم: مَن إذا قال: الله أكبر؛ غاب سرُّه في مُطالعة عظمة الكبرياء، والتبسه جلاليب الجلال، وأشرقت على سرِّه شُموس الجمال، واكتنفته أنوار المعارف من جميع جهاته، وقرب الجبَّار من قلبه، ففني بالله؛ وبقي به[3]، وصارت حركاته به، ويبقى وُجوده شبحًا كالخيال والظِّلال؛ في حضرة ذي الجلال،

---

(١) سُورة الفاتحة: الآيتان ٢-٣.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «قلبه».

(٣) قال ابن قيِّم الجوزيَّة في [مدارج السَّالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين: ١/ ٣١٥]: (والجامع لهذا كُلِّه: تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله؛ علمًا ومعرفة وعملًا وحالًا وقصدًا، وحقيقة هذا النفي والإثبات الذي تضمنته هذه الشَّهادة: هو الفناء والبقاء، فيفنى عن تأليه ما سواه علمًا وإقرارًا وتعبُّدًا، ويبقى بتأليهه وحده، فهذا الفناء وهذا البقاء: هو حقيقة التَّوحيد الذي عليه المُرسلون؛ وأُنزلت به الكُتب؛ وخُلقت لأجله الخليقة؛ وشُرعت له الشَّرائع؛ وقام عليه سُوق الجنَّة؛ وأُسِّس عليه الخلق والأمر، وحقيقته أيضًا: البراء والولاء، البراء من عبادة غير الله؛ والولاء لله).

واحتوشت قلبه نيران المحبَّة والوجدان، واكتست نفسه المخافة والمهابة من حضرة الدَّيَّان، وامتحت الأكوان من سرِّه لِمَا باشر قلبه من أنوار الفردانيَّة، فمِثْل هذا إذا قرأ يعلم ما يقول؛ ومع من يقول، وهذه صلاة المُقرَّبين.

ومَن فتح الله عليه بمِثْل هذه الصَّلاة؛ وحدَّثته نفسه بأنَّه قد وصل وصار كذا وكذا: فقد دخل عليه الشَّيطان من حيث لا يشعر، وتحرَّكت النَّفس عليه من حيث لا يفطن، وذلك لغفلته عن حُكم المُراقبة الباطنة.

فيجب على الطَّالب إتقان هذا الباب وإحكامه؛ كي لا يُفسد النَّفسُ والشَّيطانُ أعماله وأحواله من حيث لا يشعر، بل من فتح الله عليه بمِثْل هذا الحال في الصَّلاة وغير الصَّلاة: فليعرف عجز نفسه وقُصورها، وكونه لا يدري عواقبها ولا يدري ما يُختم له، ويذكر منَّة الله تعالى وفضله وكرمه، فيفنى عن نفسه برُؤية فضل الله وكرمه، فيكون باقيًا به؛ فانيًا عن نفسه، وذلك يُدْرَك بفضل الله؛ وبدوام الاستعانة والاستغاثة، والله[1] المُستعان، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

وكذلك في الرُّكوع والسُّجود، فليُطالب قلبه بالخُضوع الباطن كما قد ظهر على ظاهره من الخُضوع الظَّاهر؛ ليتَّفق الظَّاهر والباطن، فكثيرٌ من يخضع بدنه في الرُّكوع والسُّجود؛ وقلبه غير خاشعٍ ولا خاضعٍ لله تعالى.

فصلٌ

ومن الأدب في التِّلاوة: الحُضور والفهم والشُّعور بأنَّ القُرآن رسالة الله إلى كُلِّ عبدٍ، وأنَّ هذا دعوةٌ عامةٌ لجميع الخلق، وأنَّ هذا العبد التَّالي منهم.

فإذا شرع في القراءة: فليستحضر الرَّسول ﷺ بسرِّه، وليُصلِّ عليه، وليُعظِّم

(١) في النسخة الخطية: «وبالله».

شأنه وحُرماته كما كان يفعله لو رآه بعينه، وليجعله الواسطة بينه وبين [٢٦/ب] مولاه، فيجعله إمامه ومُؤدِّبه ومُرشده، وليعمل على كمال الاقتداء به والتَّأدُّب به في حركاته وسكناته وأكله وشُربه وعاداته، ويُواظب على مُطالعة سيرته وسُنَّته.

وليجعل المشايخ وسائط بينه وبين الرَّسول ﷺ(١)، فإنَّه ﷺ هُو الواسطة القريب منه، وإنَّ الله تعالى تعرَّف إلينا من جهته، وتجلَّى علينا بواسطته، فيجب علينا معرفته ومحبَّته واستحضاره وكثرة الصَّلاة عليه وتعظيم حُرماته.

فإذا شرع التَّالي في التِّلاوة: فليجعل نفسه كأنَّه يسمعه من الرَّسول ﷺ؛ يُبلِّغ القُرآن عن ربِّه ﷻ، فيتلقَّاه العبد بسرِّه من الرَّسول ﷺ، فإنَّه إذا فعل ذلك يُرجى أن يفتح الله له بأن يشهد بسرِّه المُتكلِّم ﷻ ويسمعه بعد ذلك كأنَّه يسمعه من مُتكلِّمه(٢).

فينتبه قلبه حينئذٍ للفهم عن الله ﷻ، ويشعر القلب بوعد الله ووعيده

---

(١) قال ابن تيميَّة في [الواسطة بين الخلق والحقِّ (رسالةٌ مُودعةٌ في مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيميَّة): ١/ ١٢٥-١٢٦]: (ومن سِوَى الأنبياء - من مشايخ العلم والدِّين - فمن أثبتهم وسائط بين الرَّسول وأُمَّته؛ يُبلِّغونهم ويُعلِّمونهم ويُؤدِّبونهم ويقتدون بهم: فقد أصاب في ذلك. وهؤلاء إذا أجمعوا: فإجماعهم حُجَّةٌ قاطعةٌ؛ لا يجتمعون على ضلالةٍ، وإن تنازعوا في شيءٍ: ردُّوه إلى الله والرَّسول، إذ الواحد منهم ليس بمعصومٍ على الإطلاق؛ بل كُلُّ أحدٍ من النَّاس يُؤخذ من كلامه ويُترك؛ إلا رسول الله ﷺ، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: **«العُلماء ورثة الأنبياء، فإنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما ورَّثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظٍّ وافرٍ»**).

(٢) قال ابن قيِّم الجوزيَّة في [رسالته إلى أحد إخوانه (رسالةٌ مُودعةٌ في مجموع الرَّسائل): ٤٤-٤٥]: (مشهد الإحسان: وهو مشهد المراقبة، وهو أن يعبد الله كأنَّه يراه، وهذا المشهد إنَّما ينشأ من كمال الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، حتَّى كأنَّه يرى الله سُبحانه فوق سمواته مُستويًا على عرشه، يتكلَّم بأمره ونهيه، ويُدبِّر أمر الخليقة، فينزل الأمر من عنده ويصعد إليه، وتُعرض أعمال العباد وأرواحهم عند المُوافاة عليه، فيشهد ذلك كُلَّه بقلبه، ويشهد أسماءه وصفاته، ويشهد قيُّومًا حيًّا سميعًا بصيرًا عزيزًا حكيمًا، آمرًا ناهيًا، يُحبُّ ويُبغض، ويرضى ويغضب، ويفعل ما يشاء ويحكم ما يُريد، وهو =

وتخويفه وتحذيره، ويتنبَّه لقصصه وأخباره ومواعظه وأنبائه، فيكون كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[١].

وذلك الأوَّل هُو قراءة المُريدين، وهذه القراءة هي قراءة العارفين.

ولا بُدَّ من توفية الرُّتبة الأُولى؛ ليرتقي العبد إذا وفَّاها إلى الرُّتبة الأُخرى، وإنَّما هي درجاتٌ بعضها فوق بعضٍ، والله[٢] المُستعان.

فصلٌ

وعلى السَّالك أن يتعلَّم رُبع العبادات[٣] وغيره ممَّا يفتقر دينه إليه، بحيث يعلم فرائض الوُضوء والصَّلاة وسُننهما وشُروطهما؛ وما يُفسد الصَّلاة والوُضوء، وغير ذلك من الأحكام، فمن لا يعلم حُدود فرائضه: كيف يرتقي له عملٌ؟

وبعد ذلك يسأل عمَّا يعرض له من الأحكام؛ ليكون عارفًا بحُدود فرائضه ونوافله وواجباتها وسُننها.

= فوق عرشه لا يخفى عليه شيءٌ من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم، بل يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصُّدور، ومشهد الإحسان: أصل أعمال القُلوب كُلِّها، فإنَّه يُوجب الحياء والإجلال والتَّعظيم والخشية والمحبَّة والإنابة والتَّوكُّل والخُضوع لله سُبحانه والذُّلَّ له، ويقطع الوسواس وحديث النَّفس، ويجمع القلب والهمَّ على الله، فحظُّ العبد من القُرب من الله: على قدر حظِّه من مقام الإحسان، وبحسبه تتفاوت الصَّلاة، حتَّى يكون بين صلاة الرَّجليْن من الفضل: كما بين السَّماء والأرض، وقيامهما ورُكوعهما وسُجودهما واحدٌ).

(١) سُورة البقرة: الآية ١٢١.

(٢) في النسخة الخطية: «وبالله».

(٣) أي العبادات الخمس: الطَّهارة؛ والصَّلاة؛ والزَّكاة؛ والصِّيام؛ والحجُّ.

فصلٌ

وعلى الطَّالب أن يعبد الله تعالى بالنُّصح له وإتقان الأعمال، فلا يُعامله بالكسل وقلَّة المُبالاة، فالقوم إنَّما وصلوا - بعد التَّوفيق - إلى معالي الدَّرجات: لكونهم عاملوا مولاهم بالنُّصح لا بالكسل، نصحوه كما ينصح العبد البارُّ لسيِّده إذا بعثه في مُهمٍّ من مُهمَّاته؛ أو حاجةٍ من حوائجه، فإنَّه يجتهد على إيقاع تلك الحاجة على أكمل الوُجوه التي تُرضي سيِّده، بخلاف الكسلان الذي لا يُبالي أيَّ حاجةٍ اشترى؛ أو أيَّ شيءٍ أتى به سيِّده.

والعدل يقتضي أن يُعامل المُتهاون الكسلان بجنس[1] عمله، ويُعامل النَّاصح بالنُّصح، فإنَّ السَّيِّد إذا رأى عبده قد نصحه في حوائجه: نصحه وتولاه في [٢٧/أ] ملبوسه وحوائجه وضروراته بأحسن الأشياء وأنفسها عنده، فلا يدع حاجة إلا قضاها، ولا ضرورة إلا سدَّها بأكمل ما يقدر عليه ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾[2].

فكذلك العبد إذا عامل ربَّه تعالى بالنُّصح - في فرائضه وأوامره واجتناب مناهيه ونافلته وصلاته باللَّيل والتَّدبُّر في تلاوته، واستعمل ما أمره به المولى من رعاية ظاهره وباطنه من المُحاسبة والمُراقبة، وتبديل الأخلاق السَّيِّئة بمحاسن الأخلاق المرضيَّة، واستعمال مكارم الأخلاق التي أمره بها، ولم يدع جُهدًا في ذلك كُلِّه، وأتى بالنُّصح التَّامِّ من جميع ما يقدر عليه -: فإنَّه يُرجى أن ينصحه الله تعالى في جزائه ومُعاملته، فيتولاه ويتَّخذه عبدًا ويصطنعه لنفسه، ولا يدع له ضرورة إلا سدَّها؛ ولا حاجة إلا قضاها، اختار له فيها ما

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «بحسن».
(٢) سُورة النَّبأ: الآية ٢٦.

يُحبُّه ويرضاه، فإنَّه عامله بالنُّصح، فاقتضى أن يُجازى بالنُّصح، ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾[١]، والله[٢] المُستعان.

فصلٌ

وعلى المُريد استعمال الطَّريق الوسط بين الإفراط والتَّفريط، فلا يحمل نفسه في المُكابدة فوق طاقتها، ولا يُقصِّر عنها فتطغى النَّفس وتتجاوز حدَّها، فيستعمل من الصَّوم والفطر؛ والتَّقليل والتَّكثير؛ والغنى والفقر؛ والتَّنعُّم والتَّقشُّف: الوسط من ذلك، فإنَّ الوسط طريقٌ آمنٌ، والانحراف إلى إحدى الجهتيْن خطرٌ، فيصوم تارة ويُفطر أُخرى، ويتنعَّم تارة ويتقشَّف أُخرى، إذا رأى النَّفس قد قويت: أضعف سُلطانها بالصَّوم والتَّقلُّل؛ قدرًا مُناسبًا لا مُفرِّطًا، وإذا[٣] وجدها قد ضعفت أو كادت أن تنحرف: أدخل عليها من الرِّفق والشَّهوات المُباحة ما يعتدل به حالها.

فيكون مداره على الاعتدال؛ لأنَّ الرِّياضة مقصودةٌ لغيرها لا لذاتها، وإنَّما يُقصد بها اعتدال طبيعة النَّفس كي لا تطغى وتجمح وتستعصي.

ومن كانت نفسه مُنقادة مُطيعة مُطمئنَّة لا تحتاج إلى عناءٍ وتقشُّفٍ وإفراطٍ: فإنَّ هذا الانقياد من النَّفس هُو المطلوب، والله[٤] المُستعان.

فصلٌ

فإذا استعان العبد بربِّه؛ واستعمل ما في هذه الكُرَّاسة؛ وعامل الله ﷻ بها

---

(١) سُورة النَّبأ: الآية ٢٦.

(٢) في النسخة الخطية: «وبالله».

(٣) في النسخة الخطية: إذا بدون واو.

(٤) في النسخة الخطية: «وبالله».

مُجتهدًا مُخلصًا: فقد صار له طريقٌ إلى ربِّه؛ يُرجى أن يُفتح له بذلك ما وراء ذلك من الأبواب التي لم نذكرها هُنا، فإنَّ الطَّريق يكشفها الله تعالى لعبده السَّالك بعضها ببعضٍ، ويرميه بعضها على البعض الآخر؛ حتَّى يستوفي أقسام الخيرات بوُصوله إلى قلبه واشتغاله [٢٧/ب] به بعد استقامة جوارحه على أمر الله تعالى، وطُمأنينة نفسه على مُراد الله تعالى، فهُناك يُرجى أن يبدو له من الله تعالى ما لم يكن يحتسبه من انفتاق موادِّ المعارف على القُلوب والأرواح، ووُجود خالص المعرفة، وشُرب رائق المحبَّة، واستعمال العُبوديَّة لله تعالى بترك التَّدبير والاختيار.

أوَّل ذلك: لائحٌ يلوح بسرِّه لا يدوم، يبتهج القلب بذلك اللائح محبَّة، وتكتسب الرُّوح إلى العليِّ الأعلى جذبة، ثُمَّ يعود إلى حاله الأوَّل، ثُمَّ يعود ذلك عليه قليلًا.

فيكون العبد بين التَّجلِّي والاستتار[١]؛ إلى أن يكشف الله ﷻ عن العبد حجاب الوُجود، ويطلع صُبح التَّوحيد وقمره، وتبزغ شُموس المعرفة، وينمحي ليل الوُجود بطُلوع فجر التَّوحيد، فيذهب في ذلك من لم يكن، ويبقى

(١) التَّجلِّي: هُو إشراق نُور المعرفة والإيمان على العبد، واستغراق قلبه في شُهود الذَّات المُقدَّسة وصفاتها: استغراقًا علميًّا، والاستتار: هُو ما يستره الرَّبُّ ﷻ عن العبد رحمة به؛ ولُطفًا بضعفه، إذ لو دام له حال التَّجلِّي: لألفه واعتاده؛ ولم يقع منه موقع الماء من ذي الغُلَّة الصَّادي؛ ولا موقع الأمن من الخائف؛ ولا موقع الوصال من المهجور، فإنَّه لمَّا ذاق مرارة الاستتار: عرف حلاوة التَّجلِّي، فإنَّ الأشياء تتبيَّن بأضدادها، فمن رحمة الله تعالى بعبده: أن ردَّه إلى أحكام البشريَّة ومُقتضى الطَّبيعة، وليُعرِّفه أنَّ عطاء التَّجلِّي ليس لسببٍ من العبد، وإنَّما هُو مُجرَّد موهبةٍ وصدقةٍ تصدَّق الله تعالى بها عليه لا يبلغها عمله؛ ولا يناله سعيه، ليعرف عزَّ الله تعالى في منعه؛ وبرَّه في عطائه، فينفتح على قلبه من معرفة الأسماء والصِّفات - بسبب هذا التَّجلِّي والاستتار -: أُمورٌ عجيبةٌ غريبةٌ يعرفها الذَّائق لها، ويُنكرها من ليس من أهلها. مُلخَّصٌ من كلام ابن قيِّم الجوزيَّة في [مدارج السَّالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين: ٤/ ٩-١٣].

من لم يزل، مُتَّصفًا بجلاله وجماله وكماله وبهائه وسنائه، قائمًا بالصُّنع والتَّدبير والإرادة والمُراقبة والجلال والجمال والأمر والنَّهي.

فيبقى بعد فنائه بربِّه، ويغيب بصفاته عن صفات نفسه ثُمَّ يبقى بها، فتذهب رُعونات العبد وتدبيره واختياره ومُراده وشهواته، ويبقى العبد حينئذٍ بأمر الله واجتناب نهيه وُحسن تدبيره واختياره، والعبد ذاهبٌ في ذلك كُلِّه، والله ﷻ هُو المُتولِّي له في سائر شُؤونه وحاجاته.

كما قيل:

بدا لك سرٌّ طال عنك اكتتامه ... ولاح صباحٌ كُنت أنت ظلامه

وأنت حجاب القلب عن سرِّ غيبه ... ولولاك لم يُطبع عليه ختامه[1]

وقيل أيضًا[2]:

من كان في ظُلم اللَّيالي ساريًا ... رصد النُّجوم وأوقد المِصباحا

حتَّى إذا ما البدر أرشد ضوؤه ... ترك النُّجوم وراقب الإصباحا

حتَّى إذا انجاب الظَّلام بأسره ... ورأى الصَّباح بأُفْقِه قد لاحا

ترك المسارج والكواكب كُلَّها ... والبدر وارتقب السَّنا الوضَّاحا

(١) ذكرهما تلميذه ابن قيِّم الجوزيَّة في مدارج السَّالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين ٢/ ٥٠٦، وذكر تتمَّتهما:

بدا لك سرٌّ طال عنك اكتتامه ... ولاح صباحٌ كُنت أنت ظلامه

فإن غبت عنه حلَّ فيه وطنَّبت ... على منكب الكشف المصون خيامه

فأنت حجاب القلب عن سرِّ غيبه ... ولولاك لم يُطبع عليه ختامه

وجاء حديثٌ لا يُملُّ سماعه ... شهيٌّ إلينا نثره ونظامه

إذا ذكرته النَّفس زال عناؤها ... وزال عن القلب المُعنَّى قتامه

(٢) ذكرها تلميذه ابن قيِّم الجوزيَّة في [كشف الغطاء عن حُكم سماع الغناء: ص٧٨] دون نسبتها لقائلها، وعزاها ابن ناصر الدِّين في [توضيح المُشتبه: ٣/ ١٦٦-١٦٧] إلى المُؤلِّف: ابن شيخ الحزَّاميِّين، وفي النُّسخة الخطيَّة: «ظُلَم اللَّيل».

فنسأل الله الكريم أن يأخذ بأيدينا في هذا السَّفر، ولا يكلنا إلى نُفوسنا ولا يُولِّينا بعضنا، ولا يجزينا وصفنا، ونسأله أن يُعاملنا بما هُو أهله، فإنَّه أهل التَّقوى والمغفرة، ويأخذ بأيدينا في ظُلمات الشُّكوك، ويُنوِّر علينا فيها بأنوار اليقين، إنَّه وليُّ الفتح المُبين.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم [٢٨/أ].

كتاب مِفْتَاحُ طَرِيقِ المُحِبِّينَ

وَبَابُ الأُنْسِ بِرَبِّ العَالَمِينَ

المُؤَدِّي إِلَى أَحْوَالِ المُقَرَّبِينَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله على تواتر نعمائه؛ وتوالي آلائه.

حمدًا كثيرًا يصعد إليه في شُموسه وعلائه، تلوح أمارات القبول على صفحاته وأرجائه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مُوحِّدٍ في مقاصده وإنجائه(١).

وأشهد أنَّ مُحمَّدًا ﷺ عبده ورسوله المُسدَّد في جميع أعماله وآرائه.

صلَّى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة ملء أرضه وسمائه.

وبعد:

فإنَّ الله تعالى إذا أراد بعبده خيرًا: أقام فيه شاهدًا من ذكر الآخرة، يُريه فناء الدُّنيا وبقاء الآخرة ودوامها، فيزهد في الفاني ويرغب في الباقي، فيبدأ بالسَّير والسُّلوك في طريق الآخرة.

وأوَّل السَّير فيها: تصحيح التَّوبة، والتَّوبة لا تصحُّ إلا بالمُحاسبة ورعاية الجوارح السَّبع: العين والأُذن واللِّسان والبطن والفرج واليد والرِّجل عن جميع المحارم والمكاره والفُضول.

هذا أحد شطري الدِّين، ويبقى(٢) الشَّطر الآخر وهُو القيام بالأوامر، فيُحقِّق الشَّطر الأوَّل وهُو: ترك المناهي من قالَبه وقلبه.

---

(١) أي: ما يُنجيِّه ويُخلِّصه.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «هذا أحد شطري، ويبقى».

أمَّا القالَب: فلا يعصي الله بجارحةٍ من جوارحه، ومتَّى زلَّ أو أخطأ تاب.

وأمَّا القلب: فيُنقِّي منه المُوبقات والمُهلكات، مثل: الرِّياء والعُجب والكبر والحسد والبُغض - لغير الله وبُغض الدُّنيا - وردِّ الحقِّ واستثقاله والازدراء بالخَلْق ومقتهم، وغير ذلك من الكبائر القلبيَّة التي هي في مُقابلة الكبائر القالَبيَّة ومثلها من شُرب الخمر والزِّنا والقذف وغير ذلك، فهذه كبائر ظاهرةٌ؛ وتلك كبائر باطنةٌ تُحبط الأعمال.

فمن انطوى على شيءٍ من الكبائر الباطنة ولم يتب: حبط عمله، والدَّليل على ذلك: الأخبار والآثار، فمنها ما في الحديث: «**لا يدخل الجنَّة من في قلبه أو رأسه مثقال ذرَّةٍ من كبرٍ**»(١)

وجاء: «**إنَّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النَّار الحطب**»(٢).

وجاء: «**يقول الله: أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرك، فمن عمل عملًا أشرك فيه معي غيري: تركته وشريكه**»(٣).

---

(١) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب تحريم الكبر وبيانه- الحديث رقم (٩١)- ١/ ٩٣] عن عبد الله بن مسعودٍ ﷺ، ولفظه: «**لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقال ذرَّةٍ من كبرٍ**».

(٢) أخرجه أبوداود في سُننه [كتاب الأدب/ باب في الحسد- الحديث رقم (٤٩٠٣)- ص٧٣٥] عن أبي هُريرة ﷺ، وابن ماجه في سُننه [كتاب الزُّهد/ باب الحسد- الحديث رقم (٤٢١٠)- ص٦٩٨] عن أنس بن مالكٍ ﷺ، ولفظ أبي داود: «**إيَّاكم والحسد، فإنَّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النَّار الحطب**».

(٣) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الزُّهد والرَّقائق/ باب من أشرك في عمله غير الله- الحديث رقم (٢٩٨٥)- ٤/ ٢٢٨٩] عن أبي هُريرة ﷺ، ولفظه: «**قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري: تركته وشركه**».

وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا [٢٨/ ب] وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[١].

وقد جاء: «من قال: هلكت النَّاس؛ فهُو أهلكهم[٢]».

فصلٌ

ومتى تنقَّى القلب من مِثل هذه الخبائث والرَّذائل: طهر، وسكن فيه الرَّحمة في مُقابلة البُغض؛ والتَّواضع في مُقابلة الكبر؛ والنَّصيحة في مُقابلة الغشِّ؛ والإخلاص في مُقابلة الرِّياء والسُّمعة؛ ورُؤية المنَّة في مُقابلة العُجب ورُؤية النَّفس، فعند ذلك تزكو الأعمال وتصعد إلى الله تعالى، ويطهر القلب ويبقى محلًّا لنظر الحقِّ بمشيئة الله تعالى ومعونته.

فهذا أحد شطري الدِّين؛ وهُو رعاية الجوارح السَّبعة عن المآثم والمحارم، ورعاية الباطن والقلب عن مُوبقات الجرائم.

---

(١) سُورة الكهف: الآية ١١٠، وقد سقطت من النُّسخة الخطيَّة: ﴿أَحَدًا﴾.

(٢) قال الحُميديُّ في [الجمع بين الصَّحيحيْن: ٣/ ٢٨٧]: (قال بعض الرُّواة: لا أدري (أهلكَهم) بالنَّصب؛ أو (أهلكُهم) بالرَّفع، كذا قال، والرَّفع أشهر، أي: أشدُّهم هلاكًا، وذلك إذا قال على سبيل الإزراء عليهم بالاحتقار لهم؛ وتفضيل نفسه عليهم؛ لأنَّه لا يدري سرائر الله في خلقه، وهكذا كان بعض عُلمائنا يقول، والله أعلم بما أراد رسول الله ﷺ).

قال النَّوويُّ في [شرح صحيح مُسلم: ١٦/ ١٧٥]: (وأما رواية الفتح فمعناها: هُو جعلهم هالكين؛ لا أنَّهم هلكوا في الحقيقة. واتَّفق العُلماء على أنَّ هذا الذَّمَّ إنَّما هُو فيمن قاله على سبيل الإزراء على النَّاس واحتقارهم وتفضيل نفسه عليهم؛ وتقبيح أحوالهم؛ لأنَّه لا يعلم سرَّ الله في خلقه. قالوا: فأمَّا من قال ذلك تحزُّنًا لما يرى في نفسه وفي النَّاس من النَّقص في أمر الدِّين: فلا بأس عليه).

والحديث أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب البرِّ والصِّلة والآداب/ باب النَّهي من قول هلك النَّاس- الحديث رقم (٢٦٢٣)- ٤/ ٢٠٢٤] عن أبي هُريرة ﷺ، ولفظه: «**إذا قال الرَّجل: هلك النَّاس. فهُو أهلكهم**».

فصلٌ

وأمَّا الشَّطر الآخر من الدِّين: فهُو القيام بالأوامر، ولا يتمُّ القيام بها حتَّى ينصح لله تعالى فيها كما ينصح العبد البارُّ النَّاصح لسيِّده إذا بعثه في مُهمٍّ من حوائجه، فإنَّه يبذل نُصحه وموجوده حتَّى يُوقع الحاجة على أكمل الوُجوه وأحسنها، يتقرَّب بذلك إلى سيِّده ليرضى عنه ويُحبَّه.

وكذلك العبد إذا توجَّه عليه أمرٌ من أوامر الله تعالى مثل صلاةٍ أو صومٍ أو زكاةٍ أو قضاء فائتٍ أو قضاء دينٍ أو أمرٍ بمعروفٍ أو نهيٍ عن مُنكرٍ أو حقٍّ من الحُقوق التي بينه وبين الله تعالى أو بينه وبين عباده، فإنَّه ينصح لله في ذلك العمل ويبذل فيه مجهوده، ويُوقعه على أتمِّ الوُجوه وأكملها، إن كانت صلاة خشع فيها لله تعالى بقلبه وخضع وحضر بين يدي الله تعالى بقلبه وفُؤاده وتضرَّع إليه، والتجأ فيها بسرِّه إليه، وإن كان الحقُّ صيامًا حفظه من الغيبة والنَّميمة والنَّظر إلى كُلِّ قادحٍ يقدح فيه، وهذه الأعمال لا يقوى على القيام بها إلا المُحبُّون.

والمحبَّة تُسهِّل[1] هذه الأشياء الشَّاقَّة على المُحبِّ الصَّادق، ولا يقوى على ذلك العبد السَّالك إلا بمعونة الله تعالى وفضله، فعليه بدوام الالتجاء إلى ربِّه ليُعينه في سائر أُموره وسائر شُؤونه، كما علَّمنا في الصَّلوات الخمس أن نُناجيه، ونقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[2].

فلا بُدَّ من العمل والصَّبر والمُكابدة والمُجاهدة، فبذلك تتمُّ العبادة، ولا بُدَّ من الاستعانة والالتجاء فإنَّه لا مُعين إلا الله.

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يُسهِّل».
(٢) سُورة الفاتحة: الآية ٥.

فتكميل شَطْرَيِ الدِّين أمرٌ لازمٌ؛ لا يتمُّ الإسلام والإيمان والسُّلوك إلا بهما، ومن لم يُصحِّح ذلك ولم ينفذ: فمَثَل ذلك كمَثَل زارعٍ قمحًا وشوكًا، فالقمح ينبت قَطْعًا، لكن مُجاورة الشَّوك ومُزاحمته إيَّاه تُفسده، كذلك مُوبقات الأعمال الظَّاهرة [٢٩/أ] والباطنة تُفسد الأعمال وتمحقها؛ كما يُفسد الشَّوك ما حوله من النَّبات، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

ولا يتمُّ تكميل شَطْرَيِ الدِّين إلا بصحَّة الاعتقاد ومحبَّة الرَّسول ﷺ، وصحَّة الاعتقادات بإثبات[1] صفات الرَّبِّ تعالى كما يليق به، أوَّلها: صفة العُلوِّ، فيعتقد أنَّ ربَّه ﷻ عليٌّ فوق الأشياء كُلِّها والكائنات، ينظر إلى عباده من فوق عرشه ويعلم ما هُم عاملوه، ويسمع ما هُم قائلوه، ويُدبِّر ما هُم فاعلوه، ويُريد ما هُم مكتسبوه، فإذا أيقن القلب بذلك بلا تكييفٍ ولا تشبيهٍ: يُرجى أن يتمَّ بذلك سير العبد في سُلوكه بمعونة الله تعالى.

وأمَّا محبَّة الرَّسول ﷺ: فهي أن يتَّخذه السَّالك نبيَّه وأُستاذه وشيخه ومُؤدِّبه، فيجمع همَّه عليه دُون كُلِّ شيخٍ ومُؤدِّبٍ وأُستاذٍ، ويعكف على مُطالعة سيرته واستماع سُنَّته، ويُطالب نفسه بالاتِّباع للرَّسول ﷺ في جُزئيَّات المُتابعة وكُلِّياتها، ولا يُسامح نفسه أن يترك سُنَّة من السُّنن، مثل السِّواك والتَّهجُّد والصَّفِّ الأوَّل وميامن الصُّفوف والقُرب من الإمام وحُضور التَّكبيرة الأُولى والتَّهجير إلى المسجد والتَّيمُّن في اللِّباس والأفعال وغير ذلك، فبذلك يكمل الاتِّباع للرَّسول ﷺ ويصحُّ الحُبُّ له.

ومتى صحَّت محبَّة الرَّسول ﷺ واتِّباعه: يُرجى للعبد أن يُحبَّه الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[2].

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «بثبت».
(٢) سُورة آل عمران: الآية ٣١.

وجميع ما ذكرنا[(١)] من التَّوبة والمُحاسبة والرِّعاية والخُشوع في الصَّلاة: فكُلُّ ذلك من جُزئيَّات المُتابعة للرَّسول ﷺ، والمُتابعةُ أصلٌ جامعٌ لجميع الخيرات، والله المُوفِّق للصَّواب.

ومن جُزئيَّات المُتابعة: التَّهجُّد والمُواظبة عليه، فإنَّ الرَّسول ﷺ أخبرنا بأنَّ الرَّبَّ ينزل إلى سماء الدُّنيا في ثُلث اللَّيل الآخر فيقول: «**هل من تائبٍ فأتوب عليه؟ هل من مُستغفرٍ فأغفر له؟ هل من داعٍ فأستجيب له؟ ولا يزال كذلك حتَّى يطلع الفجر**»[(٢)].

وقد جاء في الحديث: «**أقرب ما يكون [الرب]**[(٣)] **من عبده في جوف اللَّيل الآخر**»[(٤)].

فالمُريد ينبغي له أن لا يفوته ذلك الوقت، فإنَّه وقتٌ يفتح المَلك بابه، فيتعيَّن علينا أن [٢٩/ب] نرجو[(٥)] ذلك الوقت، ومن واظب على التَّهجُّد في جوف اللَّيل: يُرجى له نصيبٌ من أنصبة المُقرَّبين إن شاء الله تعالى، ويُرجى

---

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: أصلٌ جامعٌ».

(٢) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب صلاة المُسافرين وقصرها/ باب التَّرغيب في الدُّعاء والذِّكر في آخر اللَّيل والإجابة فيه- الحديث رقم (٧٥٨)- ١/ ٥٢٣] عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ وأبي هُريرة رضي الله عنهما، ولفظه: «**إنَّ الله يُمهل؛ حتَّى إذا ذهب ثُلث اللَّيل الأوَّل: نزل إلى السَّماء الدُّنيا، فيقول: هل من مُستغفرٍ؟ هل من تائبٍ؟ هل من سائلٍ؟ هل من داعٍ؟ حتَّى ينفجر الفجر**».

(٣) ما بين القوسين ساقط من النسخة الخطية.

(٤) أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (١٧٠٢٦)- ٢٨/ ٢٥٠]، والتِّرمذيُّ في سُننه [كتاب الدَّعوات/ باب (١١٩)- الحديث رقم (٣٥٧٩)- ص٨١٣]، والنَّسائيُّ في سُننه [كتاب المواقيت/ باب النَّهي عن الصَّلاة بعد العصر- الحديث رقم (٥٧٢)- ص٩٧]، وابن ماجه في سُننه [أبواب إقامة الصَّلوات والسُّنَّة فيها/ باب ما جاء في أيِّ ساعات اللَّيل أفضل- الحديث رقم (١٣٦٤)- ص٢٤٢] عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه، ولفظ التِّرمذيِّ: «**أقرب ما يكون الرَّبُّ من العبد في جوف اللَّيل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممَّن يذكر الله في تلك السَّاعة فكُن**».

(٥) في النُّسخة الخطيَّة: «نرجي».

أن يرقى(١) من محبَّة الرَّسول ﷺ إلى محبَّة مُرسله سُبحانه، ويترقَّى إلى فهم كلامه سُبحانه وهُو القُرآن المجيد، وتَتَبُّع رُؤية تجلِّيات الصِّفات المُقدَّسة، فيرقى بذلك إلى مواطن القُرب والمحبَّة الخاصَّة بمعونة الله تعالى وتوفيقه.

فصلٌ

والمرتبة الثَّانية من السُّلوك: فهي الطَّلب والإرادة والشَّوق إلى الوُصول والقُرب، وهذا شأن من ذاق بقلبه شيئًا من اللَّوائح(٢) الإيمانيَّة، ووجد آثار الصِّفات المُقدَّسة اليقينيَّة، ومتى ذاقت القُلوب شيئًا من ذلك: لم يهنها عيشٌ حتَّى تبلغ من ذلك الذَّوق إلى غايته وكماله ونهايته.

وكان مَثَل هذا الذَّائق لها: كمَثَل شخصٍ رأى من وراء حُجُبٍ كثيفةٍ شيئًا من لمحات محبوبٍ فاق كُلَّ شيءٍ في الملاحة والجمال والحُسن والكمال ولم يُحقِّقه ببصره، لكن لاحت له لمحاتٌ منه على بُعْدٍ من الدَّار، فهيَّجت أشواقه إليه، وتعلَّقت الرُّوح به، فلا تزال الرُّوح مجذوبة إليه مُشتاقة إلى لقائه؛ وقد شغلها عن ذلك شواغل من أُمور الطبيعة، ولكنَّه متى صفا قلبه وخلا: هاج وتأجَّجت نيرانه، كما قيل(٣):

وما في الأرض أشقى من مُحبٍّ ... وإن وجد الهوى حُلو المذاق

فيبكي إن نأوا شوقًا إليهم ... ويبكي إن دنوا خوف الفراق

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يرقون».

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «الوائح».

(٣) ذكرها أبوهلال العسكريُّ في [ديوان المعاني: ص٢٥٧]، وتمامهما:

وما في الأرض أشقى من مُحبٍّ ... وإن وجد الهوى حُلو المذاق

تراه باكيًا في كُلِّ حينٍ ... مخافة فُرقةٍ أو لاشتياق

فيبكي إن نأوا شوقًا إليهم ... ويبكي إن دنوا خوف الفراق

فتسخن عينه عند التَّنائي ... وتسخن عينه عند التَّلاقي

وكما قيل(١):

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى ... برقٌ تألَّق مُوهنًا لمعانُه
يبدو لحاشية الرِّداء ودُونه ... صعبُ الذَّرى مُمتنعٌ أركانُه
فبدا لينظر كيف لاح فلم يُطق ... نظرًا(٢) إليه وصدَّه سجَّانُه
فالنَّار ما اشتملت عليه ضُلوعه ... والماء ما سفحت به أجفانُه

فمِثْل هذا إذا لم يكن له أُستاذٌ عارفٌ أو قرينٌ ناصحٌ يُرشده في حيرته [٣٠/أ]: قد يُخشى عليه أن تقطعه الفاقات والمُجاهدات والرِّياضات؛ فينحرف لذلك مزاجه ويفسد حاله لانحراف مزاج قلبه فيفوته المطلوب، ومثل هذا يحتاج إلى سياسةٍ لطيفةٍ تتمُّ بها مصالحه في أُمور دينه ودُنياه وآخرته بمعونة الله وتوفيقه.

فأوَّل ذلك: دوام الالتجاء إلى الله ﷻ، فإنَّه لا يُنجِّي من المهالك والمتالف في أسفار الدُّنيا والآخرة إلا الله، ولا يُوصل إلى الله إلا الله، هذا أوَّل الأمر وأساسه.

وليعلم أنَّ الجُوع المُفرط مُضرٌّ؛ كما أنَّ الشِّبع المُفرط مُضرٌّ، والخُروج من الأسباب الدُّنيويَّة(٣) التي تتمُّ بها المعيشة مُضرٌّ؛ كما أنَّ الانهماك فيها والتَّكالب عليها مُضرٌّ.

فصلٌ

والأمر الذي يبلغ السَّالك به إلى المطلوب بمعونة الله: الأمر الوسط المُعتدل من الصَّوم والفطر؛ والجُوع والشِّبع؛ والتَّقشُّف والتَّنعُّم؛ والتَّسبُّب والتَّجرُّد.

---

(١) ذكرها تلميذه ابن قيِّم الجوزيَّة في [كشف الغطاء عن حُكم سماع الغناء: ص٧٨].
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «نظر».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «الدُّنياويَّة».

أمَّا الصَّوم: فيكفيه صوم الأيَّام الفاضلة المشروع صومها، كالاثنين والخميس وأيَّام البيض وعرفة وعاشُوراء، وبعض هذا يكفيه إن عجز عن جميعه.

والجُوع والشِّبع: فليعتمد على أكل الأشياء الرَّطبة المولِّدة للأخلاط الصَّحيحة والدَّم الصَّحيح، كالمسلوقة واللَّبن أو الحليب والعسل المُرقَّق بالماء؛ يُغلى حتَّى يبقى كالدِّبس السَّائل، ومِثْل الفواكه النَّاضجة كالمشمش والبِطِّيخ والعنب وأمثاله، ويجتنب الأغذية المُولِّدة للسَّوداء[١]؛ إلا القليل منها، فإنَّ البدن لا يستغني عن ذوات الطُّعوم كالحامض والحِرِّيف[٢] والمالح، فيتناول من الأغذية المُلائمة قدرًا مُعتدلًا بين القليل والكثير، مثل أن يأكل حتَّى يكتفي ولا يمتلئ منه، وإذا شبع في يومه مرَّة فلا يشبع مرَّة أُخرى فيه؛ إلا إذا أصبح صائمًا، لكن يأكل لُقيماتٍ خفيفة على القلب حتَّى يبقى فارغًا من ثقل الطَّعام، ولا يثقل الطَّعام على أحدٍ إلا ينحجب عن الصَّفاء والنُّور، فهذا حدُّ الأكل والمأكول وقانونه، والله المُوفِّق والمُعين.

وأمَّا التَّقشُّف والتَّنعُّم: فليستعمل من التَّنعُّم [٣٠/ب] مثل الحمَّام والنِّكاح واللِّباس والطِّيب وغيره بقدر الحاجة؛ وبقدر ما يصلح به البدن؛ متى وجد البدن قد قشف وقحل أو قارب أن يتقشَّف: رطَّبه وغذَّاه، ومتى وجده قد كاد أن يقسوا ويغلظ: عدَّله بالتَّقلُّل من الشَّهوات والصَّوم؛ ويحوم حول الاعتدال في كُلِّ شيءٍ، فبذلك يكمل الأمر بمعونة الله تعالى، فإذا أعطى الجوارح حقَّها: فيشرع فيستوفي الحقَّ الذي عليها.

---

(١) السَّوداء: مرضٌ مقرُّه في الطُّحال، كما في: المُنجد في اللُّغة والأعلام، ومن الأغذية المُولِّدة للسَّوداء: التَّمر والباذنجان والعدس والكرنب (الملفوف) واللَّحم والسَّمن واللَّبن والجُبن العتيق والإكثار من الحُلو.

(٢) أي: الذي يُحذي اللِّسان ويلذعه بحرافته، وهُو كُلُّ ما يُحرق فم آكله بحرارةٍ.

وأمَّا التَّسبُّب والتَّجرُّد: فلا يُشرع له ترك الأسباب؛ كما لم يُشرع له الحرص والتَّكالب عليها، لكن يسعى في أمرٍ يكفيه ويكفي عياله في عامه بالمعروف، ويُؤثر منه ويتصدَّق ويُعين الصَّالحين، ولا يحرص الحرص البالغ بحيث يستحوذ عليه الشَّيطان بحُبِّ الدُّنيا فيُنسيه ذكر الله تعالى، فيبقى كالذين نسوا الله فنسيهم، فينقطع بذلك عن الله تعالى، وكذلك التَّجرُّد عن الدُّنيا بالكُلِّيَّة: يُشغل النُّفوس بالحاجة والفاقة، وذلك حجابٌ أيضًا، وخير الأُمور أوساطها، والله المُوفِّق والمُعين.

فصلٌ

وإذا وفَّقه الله تعالى للقيام بشَطْرَيِ الدِّين - المذكور أولًا -؛ ثُمَّ بسياسة النَّفس على قانون العدل من الصَّوم والفطر؛ والشِّبع؛ والتَّقشُّف؛ والتَّجرُّد والتَّسبُّب: فليسلك إن شاء الله تعالى؛ ليتحقَّق قلبه بذلك الذَّوق الذي وجده.

واعلم أنَّ كُلَّ حالٍ جاء بالجُوع ذهب بالشِّبع، أو حصل بالخلوة ذهب في الخُلطة في أغلب الأُمور.

ومن سلك طريقًا مُعتدلًا في أُمور معاشه وصلاح جسمه: استقام حاله بمعونة الله تعالى وتوفيقه، فإذا استقامت النَّفس على الاعتدال المذكور وتعوَّدته؛ واعتادت المُحاسبة ورعاية الجوارح واستقبال الحركات بالنِّيَّات الصَّالحة؛ والنُّصح في البيع والشِّراء وسائر المُعاملات، بحيث يُحبُّ العبد لأخيه ما يُحبُّه لنفسه، ويُرضي ربَّه في زوجه وإخوانه بما يتعاطاه[1] معهم من مكارم الأخلاق؛ وبشاشة الوجه وحُسن السِّيرة؛ وظُهور الرَّحمة من قلبه لهم وإرادة المصلحة [٣١/أ] لهم في سائر أُمورهم: فليشرع حينئذٍ في هذه

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يتعاتاه».

الطَّريقة السَّهلة الخاصَّة إلى الله تعالى؛ بلا جُوعٍ مُفرطٍ ولا تقشُّفٍ مُضرٍّ تسيء به الأخلاق ويعطب بسببه الجوارح، لظُهور اليُبْس في بدنه والطَّيش في دماغه لانحرافه عن حدِّ الاعتدال.

فصلٌ

أوَّل هذه الطَّريقة السَّهلة: أن يعلم العبد أنَّ صلاح القُلوب وقُربها من الله إنَّما يكون بشُعورها بقُربه سُبحانه منها؛ إذا شعرت القُلوب بقرب الله منها؛ وبأنَّ الله يعلم سرَّها وخفيَّ هواجسها ودبيب خطراتها: استقامت القُلوب وصلحت وقربت من ربِّها.

ولا طريق أعدل من أن يجعل الإنسان لنفسه وقتًا يتخلَّى فيه عن الشَّواغل؛ إمَّا في اللَّيل أو النَّهار، ثُمَّ يجلس في موضعٍ خالٍ فيُصلِّي ركعتين ويتوب إلى الله تعالى من جميع الذُّنوب التي اجترحها في يومه ذاك أو ليلته ما علم من ذُنوبه وما لم يعلم، فإنَّ ما لا يعلمه من الذُّنوب أكثر ممَّا يعلمه.

فإذا تاب كذلك يشرع في التِّلاوة للقُرآن المجيد ويجعل نفسه كأنَّه بين يدي ربِّه تعالى، فكأنَّه يُناجي ربَّه تعالى بكلامه، وكأنَّ الرَّبَّ تعالى يسمع مُناجاته ويرى مكانه في هذه الحال، ويجتهد أن لا يخطر بقلبه غير معاني ما يتلو، فيجعل المعاني في محلِّ دبيب الخواطر، وهذا أنفع شيءٍ للسَّالكين من كثرة الصَّلاة والعبادة بلا قلبٍ، وليس بينهما نسبة؛ إلا شخصًا يتلو كلام الله تعالى ويجعل الحقَّ تعالى ناظرًا إليه، ويجعل المعاني عوضًا عن حديث النَّفس في محلِّ دبيب الخواطر، وهذا أمرٌ لا يقوى عليه إلا من يُريد اللهُ أن يُقرِّبه ويصطنعه، والله المُوفِّق والمُعين.

فصلٌ

فأوَّل ما يُفتح على من سلك هذه الطَّريقة بمشيئة الله تعالى وتوفيقه: أن يغيب قلبه في المعاني، وتلتذّ الرُّوح بالمعاني كما تلتذّ بالنَّسيم البارد في الهواجر الحارَّة، وهذا أوَّل الفُتوح.

ثُمَّ يُفتح له بعد ذلك شمُّ القلب لنسيم القُرب بعد شمِّه لنسيم معاني كلام الرَّبِّ تعالى، وحينئذٍ يشعر القلب بعظمة الله تعالى المُتكلِّم بالقُرآن، وهذه مرتبةٌ ثانيةٌ.

ثُمَّ يُرجى أن يُفتح له بعد ذلك سماع الكلام كأنَّه يسمعه من مُتكلِّمه، فإنَّه كان في الابتداء يقرأ القُرآن كأنَّما يقرؤه على الله [٣١/ب] تعالى؛ والله تعالى ناظرٌ إليه يسمع قرآنه، فيرقى من الرُّتبة إلى سماع الكلام كأنَّه يسمعه من مُتكلِّمه، ويشعر القلب بقُربه وعظمته، ويُكاشف في القُرآن بصفات المُتكلِّم من رحمته ولُطفه وعظمته وقهره وجلاله وكماله؛ ووعده ووعيده؛ وتخويفه وتحذيره وترغيبه؛ وغير ذلك من الصِّفات.

فصلٌ

من فُتح له هذا القُرآن العظيم في التِّلاوة: فقد صار القُرآن ربيع قلبه وشفاء صدره وجلاء حُزنه؛ وطريقه إلى الله تعالى؛ وصراطًا مُستقيمًا يُبلِّغه إلى قُرب الله بمعونته وتوفيقه.

فصلٌ

واعلم أنَّ هذه الأذواق العظيمة - التي هي أذواق المُقرَّبين؛ ومشارب العارفين والمُحبِّين - لا يذوقها في كلام ربِّ العالمين من يَبِس مزاجهُ بالصَّوم

والجُوع، فإنَّ الصَّوم والجُوع المُفرطيْن(١) يُؤثِّران في القلب اليُبْس والانحراف، ويبقى القلب جامدًا كالحجر؛ لا يتصرَّف فيه القُرآن ولا يُؤثِّر فيه قوارعه؛ لغلبة حُكم اليُبْس عليه، ولا يناوله من الأحوال إلا مُمتزجًا بطبيعة اليُبْس، فيثور من باطنه عند الحال حدَّةٌ وصُراخٌ وانحرافٌ يستدلُّ بذلك على انحراف مزاجه.

وأمَّا صاحب المزاج المُترطِّب المُعتدل إذا شرع في التِّلاوة والخلوة؛ وثار له شيءٌ من هذه الموارد: يتصرَّف الموارد في قلبه، وينفعل القلب لها للطافته ورقَّته واعتدال مزاجه، ويغيب في الموارد ويستغرق فيها كما يستغرق من لاحت له شواهد محبوبه وأنس به وغاب به وبصفاته عن كُلِّ شيءٍ سواه، فإذا أفاق من ذلك: رجع إلى أعماله الباطنة والظَّاهرة ومساعي دُنياه التي لا يتمُّ صلاح جسمه إلا بها، وهذا هُو الأمر الكامل المُعتدل المُناسب لمألوف الصَّحابة والتَّابعين لهُم بإحسانٍ ﷺ أجمعين.

فصلٌ

ومن سلك هذا القانون وهذه الطَّريقة: كان حاله كمن عمَّر الدُّنيا بقيامه في مصالحه، وعمَّر الآخرة بقيامه بمأمورات ربِّه، وعمَّر مكارم الأخلاق بحُسن تأتِّيه مع أهله وإخوانه بما يُرضي ربَّه، وعمَّر منازل القُرب ومواطن [٣٢/أ] الأُنس بدُخوله في طريقٍ قريبةٍ سهلةٍ إلى ربِّه، ومع هذا فجسده صحيحٌ رطبٌ؛ وقلبه خاشعٌ ليِّنٌ؛ وأخلاقه طيِّبةٌ زاكيةٌ؛ وزوجته راضيةٌ قد أعطاها ما تستحقُّه، وقام بما يُصلح نفسه ويُصلحها من حُقوق الله تعالى الواجبة، وإخوانه راضون بما بذل لهم من حُقوقهم المتأكِّدة عليه، وهذا هُو الكمال إن شاء الله تعالى،

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «المُفرطان».

والله المُوفِّق والمُعين.

وأُصول ذلك وعُمدته: التَّوبة النَّصوح، والانتهاء عن منهيَّات الظَّاهر والباطن وسياسات النَّفس في العادات بمُقتضى العدل باستعمال الأمر الأوسط بين الإفراط والتَّفريط.

وعُمدة الطَّريقة: أن تصل معاني القُرآن إلى دبيب الخواطر، فمتى وصلت سهل الأمر وقرب بمشيئة الله ومعونته.

ونسأل الله الكريم أن يُوفِّقنا لما يُحبُّ منَّا، وأن يدلَّنا عليه من أقرب الطُّرق وأدلِّها عليه، وأن يُعافينا من تعب الطَّريق وطُولها، ولا يجعلنا ممَّن طوَّل عليه وابتلاه من أُمور دُنياه ممَّا فيه التَّعويق، آمين يا ربَّ العالمين.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا(١).

---

(١) قال العبد الفقير إلى غنى ربِّه العليِّ؛ وليد بن مُحمَّد بن عبد الله العليُّ: ختمت الرَّسائل الثَّلاث في مسجد الله الحرام؛ بعد الفراغ من التَّراويح وأنا مُتسربلٌ بالإحرام، وذلك في سطح حرم الله تعالى أفضل المساجد؛ ومهوى فُؤاد كُلِّ طائفٍ وعاكفٍ وراكعٍ وساجدٍ، ليلة الجُمعة ١٩ رمضان ١٤٣٢هـ؛ المُوافق ١٩ آب (أغسطس) ٢٠١١م.
وذلك بحُضور الأخ الجليل؛ ومُشاركة الصَّاحب النَّبيل: الشَّيخ عمَّار بن عبد الرَّحمن رمضاني؛ حفظه الله تعالى من كُلِّ سُوء وشرٍّ ومكروه، وآتاه من حسنة الدَّاريْن فوق ما يتمنَّاه ويرجوه.
وكان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في يوم الاثنين ٢٦ ذوالقَعدة ١٤٣٢هـ؛ الموافق ٢٤ أُكتوبر (تشرين الأوَّل) ٢٠١١م.
فالحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلَّم على خاتم النَّبيِّين؛ وعلى آله الطَّيِّبين؛ وأزواجه المُطهَّرين؛ وأصحابه الغُرِّ الميامين؛ ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

كتاب السِّرِّ المَصُون وَالعِلْم[1] المَخْزُون

فِيهِ لَوَائِح مِنَ المَحَبَّةِ وَشُؤُون

(١) تكررت في النسخة الخطية كلمة: والعلم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ربِّ يسِّر

الحمد لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.

الحمد لله، وبحمده نستفتح في الأُمور والمطالب، وبفُرقانه ينحاز الحق عن الباطل مُميَّزًا في الحُدود والقوالب، وبشُكره يُتوصَّل إلى توصُّل المواهب، وبنُوره نستضيء في ظُلم الغَيَاهِب[١]

سُبحانه وبحمده له الأسماء الحُسنى؛ والصِّفات المُقدَّسة ذات الشَّرف الأسنى، تحبَّب إلى عباده بما تعرَّف به إليهم فأحبُّوه والمُحبُّ بمحبوبه استغنى، وبأسباب الوصال اعتنى وتعنَّى[٢]، إذ كان على الوصال يدأب وله يتمنَّى.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الإله القادر الذي أضحك وأبكى وأغنى وأقنى.

وأشهد أنَّ مُحمَّدًا [٣٢/ب] ﷺ عبده ورسوله بعثه فاتحًا للخير مُصرِّحًا بالحقِّ فما عنه أَكْنَى، جذب[٣] به الهمم إلى المحلِّ الأقدس في الصُّورة والمعنى، قرَّبه وأدناه ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[٤].

---

(١) أي: جمع الغَيْهَب، وهي: الظُّلمة.

(٢) أي: نَصِب وتجشَّم.

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «جدب».

(٤) سُورة النَّجم: الآية ٩.



صلَّى الله عليه وعلى آله صلاة تكون إلى كُلِّ خيرٍ يُذخر[١] ويُقتنى.

وبعد:

فإنَّ بعض من نُحِبُّ حقَّه من الإخوان في الله تعالى - أهل العلم والنَّقل والأثر -: أشار بتعليق كلماتٍ مُوجزاتٍ في تفاصيل شأن المحبَّة ومراتبها، فأقررت له بقلَّة البضاعة وقُصور العبارة، ثُمَّ رأيت أنَّ الله تعالى جبلني على محبَّة أهل الحديث والانفعال لهم، فاستخرت الله تعالى وافتقرت إليه في ذلك؛ فوجدت باعثًا، فها أنا[٢] أتتبَّع ما يُجريه الله تعالى على القلم، وأسأله أن يجعله مرقاة إلى أبواب الجُود والكرم، وإليه أرغب أن ينفع به من وقف عليه، وأن يفتح له بكرمه فيه طاقة[٣] إليه، إنَّه وليٌّ من تولاه وقام بالعُبوديَّة بين يديْه.

---

(١) أي: يُختار ويُتَّخذ.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «فهانا».

(٣) الطَّاق: ما عُقد من الأبنية وعُطف؛ وجُعل كالقوس.

الفصل الأوَّل: في المُقدِّمات التي يتعيَّن تقديمها على هذا الشَّأن لأنَّها علاماتٌ للاستعداد له بواضح البُرهان

معلومٌ أنَّ الله تعالى إذا أراد بعبده خيرًا: أيقظ قلبه من سِنَة الغفلة، وأثار عزائمه إلى طلب القُرْبة من الله تعالى وكريم الزُّلفة، وألهمه التَّجافي عن دار الغُرور؛ والإنابة إلى دار الخُلود؛ والاستعداد للموت قبل نُزوله؛ وينهض[١] للتَّوبة النَّصوح، ويحفظ الرَّأس وما وعى؛ والبطن وما حوى، وليذكر الموت والبِلَى[٢]، ويترك زينة الدُّنيا، ويستحيي من الله حقَّ الحياء.

أوَّل علامات ذلك: مُباينة الغافلين؛ ومُواصلة العابدين، والإخلاص لله في العُلوم والأعمال، والصِّدق في المساعي الظَّاهرة والباطنة لطلب التَّرقِّي والكمال.

يعبد الله ويُريد وجهه في الحركات والسَّكنات، ولا يُريد الخلق بشيءٍ من أعماله في الخلوات، ومتى خُلق فيه مثل هذه الأعمال القلبيَّة والقالبيَّة: تطهَّر من الأدناس والذُّنوب، وتصفَّى عن جميع ما يَشِينُه من العُيوب، وعبد الله وأناب إليه، وعوَّل في جميع أحواله عليه، وصار له قلبٌ خاشعٌ؛ ونُورٌ ساطعٌ؛ وبُرهانٌ لامعٌ، تظهر عليه آثاره؛ وتعلو فيه أطواره.

خُصوصًا عند الصَّلاة، حين يقوم لربِّ العالمين، فالصَّلاة محكُّ الأحوال، فيها يتميَّز الخواصُّ من العوامِّ، ويقع الفرق فيها بين المُشمِّر والبطَّال.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «وينهظ».
(٢) أي: تذكَّر الموت الذي يُصيِّرك في القبر عظامًا بالية، ومنه سُمِّي الغمُّ بلاء: لأنَّه يُبْلِي الجسم.

فالغافل إذا تلبَّس بالصَّلاة: تراه ساهيًا؛ وعن [٣٣/أ] الحُضور بقلبه بين يدي ربِّه لاهيًا، تعتريه الوساوس الكثيرة؛ ويغفل عن الأسرار الخطيرة؛ لتفرقة قلبه عن الله في جُزئيَّات الأكوان، ويصير مأوى لوساوس الشَّيطان.

فالصَّلاة ميزانٌ لمن رام وعلم نُقصانه ورُجحانه؛ وقُرْبه[١] وهوانه، إن وجد نفسه فيها غافلًا ساهيًا، يستولي عليه حديث النَّفس والوساوس؛ وتعتريه[٢] الأُمور الخارجة عن مُهمَّات الصَّلاة: فليعلم أنَّه بعيدٌ من ربِّه؛ مطرودٌ عن مقصوده وحُبِّه.

وإن وجد نفسه فيها لربِّه مُعظِّمًا؛ ولوجهه الكريم ذي الجلال والإكرام مُبجِّلًا مُكرِّمًا، إذا قال: الله أكبر؛ لا يجد في قلبه أكبر من الله فيتوسوس به، بل تغيب عنه الأكوان لشدَّة التَّعظيم، ويُنازله الحبُّ والحياء من المَلِك الرَّحيم، ويفهم فيها معاني كلامه، ويحرص على العُكوف عليه بقلبه وفُؤاده، يلتجئ إليه فيها بسرِّه، ويُنيب إليه فيها إنابة الخاضع لقهره: فليعلم أنَّ بابه مفتوحٌ؛ وميزانه راجحٌ ليس بمرجوحٍ.

هذه سُنَّة الله تعالى في عباده وخواصِّه - أهل قُرْبه واختصاصه -، فليبشر حينئذٍ بميراث المُعاملة ومبادئ أُمور المحبَّة العامَّة والخاصَّة، فلمثل هذا: يُشرع شرح المحبَّة وشُؤونها، لأنَّه قد صار في طريقها، وأخذ في ذوقها وتحقيقها، لأنَّ الحكمة لا تُظلم ببذلها لغير أهلها، كما أنَّها لا تُمنع من مُستحقِّها، وبالله التَّوفيق.

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «وقربة».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «ويعتريه».

الفصل الثَّاني: في مراتب المحبَّة وشُؤونها

لا ريب أنَّ المحبَّة لله تعالى ولرسوله ﷺ: واجبتان في أصل الإيمان(١)، لا يتمُّ الإيمان إلا بهما.

رُوي عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**لا يُؤمن أحدكم حتَّى أكون أحبَّ إليه من أهله ووالده وولده والنَّاس أجمعين**»(٢).

وهذا يدلُّ على المحبَّتيْن جميعًا، لأنَّ حُبَّ الرَّسول ﷺ لا يسكن إلا في قلب مُحبِّ الله تعالى، فمن لوازم حُبِّ الرَّسول: حُبُّ مُرسله؛ ولا ينعكس، فقد يكون في أهل الملل من يُحبُّ الله تعالى على دينه وكتابه المنسوخ، ولا تنفعه تلك المحبَّة عند الله تعالى، فمحبَّة الرَّسول واتِّباعه: من علامات حُبِّ الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾(٣).

ورُوي أيضًا عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد [٣٣/ ب] حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، ومن أحبَّ عبدًا**

---

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ في محبَّته تعالى ورسوله».

(٢) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب حُبِّ الرَّسول ﷺ من الإيمان- الحديث رقم (١٥)- ١/ ٣٠]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب وُجوب محبَّة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والنَّاس أجمعين وإطلاق عدم الإيمان على من لم يُحبَّه هذه المحبَّة- الحديث رقم (٤٤)- ١/ ٦٧] عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، ولفظ البُخاريِّ: «**لا يُؤمن أحدكم حتَّى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والنَّاس أجمعين**».

(٣) سُورة آل عمران: الآية ٣١.

لا يُحبُّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكُفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النَّار»(١)

فالإيمان لا يتمُّ حتَّى تُوجد حلاوته، ومن كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما: فقد وجد حلاوة الإيمان بحسبه، فإنَّ لكمال الإيمان فُروعًا(٢) عالية يترقَّى المُؤمن فيها؛ فيكون أكمل ممَّن هُو دُونه فيها، ولهذا المعنى - وهُو(٣) قولنا: بحسبه - يظهر الفرق بين إيمان الأنبياء الذي صدر عن كشفٍ وعيانٍ؛ وبين إيمان الصِّدِّيقين الذي صدر عن نُورٍ وبُرهانٍ؛ وبين إيمان الشُّهداء والصَّالحين الذي صدر عن يقينٍ وفُرقانٍ؛ وبين عوامِّ المُسلمين الذي صدر عن تصديقٍ وبيانٍ، وكُلٌّ في إيمانه كاملٌ بحسبه(٤)، وهُو أكمل في الإيمان ممَّن هُو دُون منزلته.

---

(١) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب من كره أن يعود في الكُفر كما كره أن يُلقى في النَّار من الإيمان- الحديث رقم (٢١)- ١/ ٣١]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب بيان خصالٍ من اتَّصف بهنَّ وجد حلاوة الإيمان- الحديث رقم (٤٣)- ١/ ٦٦] عن أنس بن مالكٍ ﷺ، ولفظ البُخاريِّ: «**ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، ومن أحبَّ عبدًا لا يُحبُّه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكُفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يُلقى في النَّار**».

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «فُروع».

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «هُو».

(٤) كمال الإيمان نوعان: كمال المُقرَّبين، وهو الكمال بالمُستحبِّ، وكمال المُقتصدين، وهو الكمال بالواجب فقط، فكمال الإيمان ينصرف إطلاقه إلى المُؤمنين الإيمان الواجب الذي به يستحقُّون الثَّواب بلا عقابٍ، ولهم المُوالاة المُطلقة والمحبَّة المُطلقة، وإن كان لبعضهم درجاتٌ في ذلك بما فعله من المُستحبِّ، فإذا ارتكب كبيرة لم يكن منهم حقيقة؛ لنقص إيمانه الواجب الذي به يستحقُّون الثَّواب المُطلق بلا عقابٍ، ولا يجب أن يكون من غيرهم مُطلقًا، بل معه من الإيمان ما يستحقُّ به مُشاركتهم في بعض الثَّواب، ومعه من الكبيرة ما يستحقُّ به العقاب. مُلخَّصٌ من كلام ابن تيميَّة في [جواب من يقول: إنَّ النُّصوص لا تفي بعُشر معشار الشَّريعة (رسالةٌ مُودعةٌ في مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيميَّة): ١٩/ ٢٩٣-٢٩٤].

فمحبَّة الرَّسول ﷺ واجبةٌ؛ لا يتمُّ الإيمان إلا بها، وهي نوعان: نوعٌ منها فريضةٌ، ونوعٌ آخر نافلةٌ وفضيلةٌ، ويتعيَّن التَّفريق[١] لئلا يلتبس الفرض منها بالسُّنَّة والفضل.

وكُلٌّ يعلو في محبَّة الرَّسول ﷺ أيضًا على حدِّ مرتبته من إيمانه ومحبَّته لله تعالى، فالصِّدِّيقون لهم من محبَّته[٢] المنزلة العالية، كما أنَّ نصيبهم من محبَّة الله تعالى جزيلة وافرة، وكما أنَّ حظَّهم من مُتابعته أعلى الحُظوظ، والصِّدِّيقون أعلم النَّاس بالرُّسل وعظم شأنهم وعُلُوِّ أقدارهم، ومع ذلك فلا يُحيطون به علمًا، لأنَّ شأن الرُّسل جلَّ أن يُلحظ، وحقائقهم غابت فلا يُدرك منها كُلُّ عارفٍ إلا بحسبه، ثُمَّ يتلوهم في العُلُوِّ في محبَّة الرَّسول ﷺ الشُّهداء؛ ثُمَّ الصَّالحون، كما يتلوهم في محبَّة الله تعالى على القاعدة المُقرَّرة.

فالنَّوع الأوَّل من محبَّته ﷺ - الذي هُو فرضٌ على الأُمَّة -: قبول ما جاء به من محبَّة الله تعالى؛ من المحبَّة بالتَّعظيم والتَّوقير والتَّعزير[٣]، ثُمَّ حُسن الاتِّباع له فيما بلَّغه عن ربِّه؛ من اتِّباع أمره واجتناب نهيه، ثُمَّ نُصرة دينه بالنَّفس والمال، والجهاد فيه لمن حاد عنه؛ باليد واللِّسان - على قدر الاستطاعة - والجَنان، فهذا القدر الذي لا يتمُّ الإسلام والإيمان إلا به، وهُو فرضٌ واجبٌ؛ وأمرٌ حتمٌ لازمٌ.

النَّوع الثَّاني من محبَّته [٣٤/أ] ﷺ - الذي هُو بمثابة السُّنَّة التي بها تكميل

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «التَّفرُّق».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «محبَّة».
(٣) أي: النُّصرة والتَّعظيم؛ والإعانة والتَّفخيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [سُورة الفتح: الآيتان ٨-٩].

الفريضة -: فهُو حُسن التَّأسِّي به، وتحقيق الاقتداء بسُنَّته، والاعتناء بمعرفة سيرته، واهتزاز القلب عند ذكره وتصوُّره، وكثرة الصَّلاة عليه[1]، لما سكن في القلب من محبَّته واقتفاء آثاره في عباداته وعاداته وأخلاقه وآدابه في تهجُّده وسواكه وطهوره وصلاته وطعامه وشرابه ولباسه ومُعاشرته الأصحاب والأزواج؛ من حُسن حركاته وسكناته وتبسُّمه ومزاحه وسائر أحواله في عُلومه وأعماله.

فبذلك يظهر على العبد فضل محبَّته ونافلتها بحسبه بعد القيام بالنَّوع الأوَّل من واجب المحبَّة وفرضيَّتها أيضًا بحسبه، والله المُوفِّق للصَّواب.

---

(١) يُصدِّق ذلك: ما أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٦)- ١/ ١٨٥]، والتِّرمذيُّ في سُننه [كتاب الدَّعوات/ باب (١٠٦)- الحديث رقم (٣٥٥٨)- ص٨٠٨] عن رفاعة بن رافعٍ الأنصاريِّ قال: سمعت أبا بكرٍ الصِّدِّيق ﷺ يقول على منبر رسول الله ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول، فبكى أبوبكرٍ حين ذكر رسول الله ﷺ، ثُمَّ سُرِّي عنه، ثُمَّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذا القيظ عام الأوَّل: **«سلوا الله العفو والعافية واليقين في الآخرة والأولى»**.

الفصل الثَّالث[١]: في البيان عن محبَّة الله تعالى

وهي أيضًا ثلاثة أنواعٍ: واجبٌ؛ لا يتمُّ الدِّين إلا به، ومُؤكَّدٌ؛ به تظهر[٢] سلطنة الإيمان في القُلوب، وترسخ قواعده على المنهج التَّام من الأمر المطلوب، وهُو نوعٌ خاصٌّ لأهل الخُصوص، ونوعٌ ثالثٌ؛ وهُو المقصود الأقصى منه لأهل خُصوص الخُصوص.

النَّوع الأوَّل: وهي المحبَّة الواجبة التي لا يتمُّ الدِّين إلا بها، وهي قسمان:

القسم الأوَّل: هُو الاستسلام لما أمر الله تعالى به، مع الميل إليه والانقياد لأحكامه التي شرعها، مع الصَّبر على تنفيذها والرِّضا بها، مع انشراح الصَّدر لها، وعدم المُنازعة والحرج فيها، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٣].

ولهذا النَّوع من المحبَّة أسبابٌ تُوجبها وتقتضيها[٤]، فالأسباب التي تبعث على الطَّاعة والاستسلام والميل والانقياد والصَّبر على تنفيذ الأحكام الشَّرعيَّة والرِّضا: فهي مُطالعة الوعد والوعيد أولًا وعظم شأنه، وما يناله الفائزون به من النَّعيم المُقيم والفلاح الدَّائم والغبطة التَّامَّة والفرح والحُبور المُتواصل،

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «الثَّاني».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يظهر».
(٣) سُورة النِّساء: الآية ٦٥.
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «يُوجبها ويقتضيها».

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ [٣٤/ب] مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ﴿٦﴾﴾. إلى قوله: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾﴾. إلى قوله: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ إلى آخرها(٣).

وبذلك تشتاق القُلوب إلى الطَّاعات، وتقوم لله بالواجبات والمُستحبَّات، رغبة فيما عند الله تعالى من الثَّواب، ثُمَّ مُطالعة الوعيد وعظم شأنه، وما يترتَّب عليه مَنْ حقَّت الكلمة عليه بالأمر المُتوعَّد من السَّلاسل والأغلال؛ والجحيم والأنكال، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٣﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾(٤).

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾﴾. إلى قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾(٥).

فبذلك تنزجر النُّفوس عن المُحرَّمات، ويعظم لديها رُكوب المُخالفات،

---

(١) سُورة المُطفِّفين: الآيات ٢٢-٢٦.
(٢) سُورة الإنسان: الآيات ٥-٢١.
(٣) سُورة الحاقَّة: الآيات ١٩-٢٤.
(٤) سُورة المُزَّمِّل: الآيات ١٢-١٤.
(٥) سُورة الحاقَّة: الآيات ٢٥-٣٢. وقد تكررت كلمة: [سبعون] في النسخة الخطية.

وتوطَّن على المُحاسبة والرِّعاية وحفظ الجوارح السَّبع(١) عمَّا حرَّم الله بالحراسة والكلاءة، وتستقيم التَّوبة في حقِّ التَّائب، وتصير نصوحًا لقيامه بترك مناهي ربِّه.

فبتأمُّل الوعد والوعيد المُوجبيْن(٢) للرَّجاء والخوف: يسهل على النُّفوس الانقياد إلى الله تعالى، وتميل بالرَّغبة والرَّهبة إليه، وبذلك تحمَّل النُّفوس أثقال الطَّاعة وتصبر عليها، وتصير مُطمئنَّة راضية بمشيئة الله تعالى ومعونته وتوفيقه، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

القسم الثَّاني من المحبَّة المفروضة: محبَّة الله تعالى لنعمه وآلائه الظَّاهرة والباطنة [٣٥/أ]، قال الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(٣).

فمعرفة المُنعم بنعمه والمحبَّة له وشُكره عليها واجبٌ، كما أنَّ معرفة صاحب الدَّيْن ومحبَّته واجبٌ، ومعرفة المُنعم بنعمه: تُثير محبَّة المُنعم وشُكره، كما أنَّ جُحود النِّعم وكُفران المُنعم: أصل الكُفر والنِّفاق وفرعه، فمحبَّة الله تعالى لما يغذونا من نعمه فرضٌ افترضه علينا، كما أنَّ شُكره واجبٌ علينا.

ومحبَّة المُنعم تقتضيها الفطرة التي فطر الله تعالى الخلق عليها من الإنسان والحيوان.

فالقسم الأوَّل من المحبَّة المُفترضة: يَطْلُع(٤) من مطلع الإلهيَّة.

---

(١) أي: العين والأُذن واللِّسان والبطن والفرج واليد والرِّجل، كما ذكره المصنف في: مفتاح المعرفة والعبادة لأهل الطَّلب والإرادة ص٧٥، مفتاح الطَّريق إلى سُلُوك التَّحقيق ص٩١، مفتاح طريق المُحبِّين وباب الأُنس بربِّ العالمين ص١١٢

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «الموجبان».

(٣) سُورة لُقمان: الآية ٢٠.

(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «تطلع».

والقسم الثَّاني منها: يَطْلُع من مطالع الرُّبوبيَّة.

فالإله: هُو المعبود الذي تعرَّف إلى عباده بشرائعه ورُسله وفرائضه ومسنوناته ومُستحبَّاته، فألِهَتْه القُلوب لذلك وعبدته.

والرَّبُّ: هُو الذي يربُّ العالم ويقوم بهم، ويغذوهم بنعمه وآلائه، ويتعرَّف إليهم بأصناف نعمه في ظواهرهم وبواطنهم.

فمن عرف ربَّه بالقسم الأوَّل؛ فأطاعه وأناب إليه وأحبَّه، ثُمَّ عرف ربَّه بالقسم الثَّاني؛ فشكره وأحبَّه واعترف له بنعمه: تمَّت المحبَّة الواجبة في حقِّه، وكمل له نوعها بحسبه - كما تقدَّم أولًا -.

ولهذا القسم من المحبَّة أسبابٌ تُسهِّل طُرقها؛ وتفتح أبوابها، كما أنَّ للقسم الأوَّل أسبابًا تقدَّم ذكرها.

فأمَّا الأسباب المُسهِّلة لطريق هذا القسم من محبَّة الآلاء والنَّعماء: فهي الاعتناء بالتَّفكُّر في مبادئ النِّعم وأُصولها، وسريان النَّظر والاعتبار في الصُّنع والصَّنيعة والصَّانع، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(٣).

ومن صفا سرُّه وسرت أفكاره في مبادئ الحكمة وتراتيبها؛ وأُصول النِّعم ومبادئها: وقع في بحرٍ زاخرٍ تيَّارُه؛ بعيدٍ قرارُه، يَستخرج [٣٥/ب] منه دُرَّ المعارف؛ وفُنونَ اللَّطائف: كُلُّ مُنيبٍ إلى ربِّه خائفٍ، ومَن الذي يُحصي

(١) سُورة الأعراف: الآية ١٨٥.
(٢) سُورة الشُّورى: الآية ٢٩.
(٣) سُورة فُصِّلت: الآية ٥٣.

نعماءه ويعدُّ آلاءه وقد فاقت حدَّ الإحصاء؛ وعجَّزت مُحصيها عن الاستقصاء؟

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ(١)

ولينظر المُتفكِّر في قول الله ﷻ في تعديد نعمه علينا في السُّورتيْن المُتتابعتيْن: الطَّامَّة والصَّاخَّة، قال الله تعالى في سُورةُ الطَّامَّة: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾(٢).

كيف ختم الله ذكر نعمه علينا بقوله: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾؟

قال الله تعالى في سُورة الصَّاخَّة: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾(٣).

---

(١) قال البيهقيُّ في [الجامع لشُعب الإيمان: ١/ ٣٤٧-٣٤٨]: (إنَّ أبا العتاهية إسماعيل بن قاسمٍ جاء إلى دُكَّان سقيفة الورَّاق، فجلس وتحدَّث، ثُمَّ ضرب بيده إلى دفترٍ فكتب في ظهره:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وَللهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ وَتَسْكِينَةٍ أَبَدًا شَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

ثُمَّ ألقاه ونهض، فلمَّا كان من الغد أو بعد ذلك: جاء أبونوَّاسٍ فجلس وتحدَّث، وضرب بيده إلى ذلك الدَّفتر، فقال: أحسن؛ قاتله الله، والله لوددُّته لي بجميع ما قلته، لمن هي؟ قُلت: لأبي العتاهية. فقال: هو أحقُّ به).

وانظر: طبقات الشُّعراء لابن المُعتزِّ ص٦٢، الذَّخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٣/ ٦٠.

ونسبه ابن كثيرٍ في [تفسير القُرآن العظيم: ١/ ١٩٨] إلى ابن المُعتزِّ.

(٢) سُورة النَّازعات: الآيات ٢٧-٣٣.

(٣) سُورة عبس: الآيات ٢٤-٣٢.

فسُبحان من ابتدأنا بنعمه قبل استحقاقها، وهذا ميدانٌ عريضٌ لفُرسان العارفين، الذين غسلت الطَّاعات عن قُلوبهم أدران الطَّبائع فصفت بصائرهم عن كُدورات الرَّذائل، وكُحلت بإثْمِد اليقين فرأت الأشياء على ما هي عليه من منارها ومبادئها وأُصولها ومبانيها وظواهرها ومعانيها، كما قيل:

قُـلُـوبُ الـعَـارِفِـيـنَ لَـهَـا عُـيُـونٌ ... تَـرَى مَـا لا تَـرَاهُ الـنَّـاظِـرِونَـا[١]

وليس هذا شأن من قيَّدته الشَّهوات؛ وأسرته الخطرات؛ واستولت عليه الرِّئاسات، فهُو مُرتطمٌ في قُيوده، مُغيَّبٌ عن نُجْح[٢] مقصوده، كما قيل[٣]:

وَمَـنْ يَـكُـنْ فِـي شِـرَكِ الأَسْـبَـابِ ... أَنَّـى لَـهُ بِـزَوْرَةِ الأَحْـبَـابِ

تلك والله منازل الأحرار، الذين تحرَّروا من رقِّ النُّفوس؛ إلى عُبوديَّة المَلِك القُدُّوس، فرأوا آثاره؛ وفهموا أخباره، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٤].

وهذا القسم من المحبَّة - الذي هُو محبَّة الآلاء والنَّعماء -: برزخٌ بين المحبَّة المُفترضة العامَّة؛ وبين المحبَّة الخاصَّة [٣٦/أ]، متى استعدَّ المُحبُّ العارف لها: شارف أهل الخُصوص من المحبَّة بمعونة الله وتوفيقه.

وصفاء الفكرة - الذي هُو نتيجة تصحيح التَّوبة -: سببٌ إلى حُصول القسم من المحبَّة، لأنَّ بصفاء الفكرة: يسري في علم أفعال الله تعالى؛ بعد سريانه في علم أوامر الله تعالى، فمن رُزق معرفة الله تعالى من طريق أوامره

(١) أخرج الأصفهانيُّ في [حلية الأولياء: ١٠/ ٢٠٠]: عن يُوسف بن الحُسين قال: (سُئل سهل بن عبد الله: أيُّ شيءٍ أشقُّ على إبليس؟ قال: إشارة قُلوب العارفين، وأنشد:
قُـلُـوبُ الـعَـارِفِـيـنَ لَـهَـا عُـيُـونٌ ... تَـرَى مَـا لا يَـرَاهُ الـنَّـاظِـرُونَـا.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «نحج».

(٣) لم أقف عليه.

(٤) سُورة المُجادلة: الآية ٢٢.

ونواهيه وشرائعه وطاعاته ومراضيه: كان عارفًا مُحبًّا من طريق الأوامر، فإذا حقَّق علم أفعال الله؛ وقام بشُكر أياديه ونعمه؛ وحقَّق محبَّته في هذه الرُّتبة: كان عارفًا مُحبًّا في رُتبة الأفعال، وكمل له حينئذٍ فرض المحبَّة لقيامه بالأمرَيْن جميعًا، وحينئذٍ يُرجى له التَّرقِّي إلى المحبَّة الخاصَّة، وهي محبَّة الصِّفات.

النَّوع الثَّاني: وهُو الحُبُّ المُؤكَّد الذي به يظهر سُلطان الإيمان؛ ويعلو في القلب شُعاعه؛ وترسخ قواعده وآثاره: وهي محبَّة الصِّفات المُستلزمة لمحبَّة الذَّات، فمُحبُّ الصِّفات: هُو مُحبُّ الذَّات؛ لكن بواسطة الصِّفة، وفي الذَّات مُستقرُّ المحبَّة؛ وإليها يرجع.

والسَّبب المُوجب لها: سُطوع أنوارها في القلب، وقُوَّة إشراقها على السِّر والروح: بمثابة شُعاع الشَّمس إذا أبهر البصر؛ ووصلت حرارته إليه، وذلك في القلب المُصفَّى من كدر الذُّنوب، الشَّارب من كأسها بيد المحبوب.

ولهذه المحبَّة الخاصَّة أيضًا أسبابٌ تُسهِّل طُرقها؛ وتُهيِّئ سبيلها؛ وتُقوِّي موادَّها، فلنبدأ أولًا بذكر الأسباب؛ قبل مشارب الأحباب.

فمن أسبابها: تحقيق العُلوم والأعمال المبدوء بذكرها في المقامات المُفترضة العامَّة، من الاعتناء بصحَّة التَّوبة، وحفظ الجوارح بالمُحاسبة، والقيام بالواجبات لله تعالى، والنُّصح فيها له بلُزوم المُواظبة، وتصفيتها عن الشَّوائب القادحة والمُفسدة لها بالرِّعاية والمُراقبة، فإنَّه[1] بتحقيق ذلك: تصفو الجوارح والقُلوب عن الأكدار المُلوثِّة لها، وترقُّ الحُجب الحائلة دُونها.

ومن الأسباب المُوجبة لها: صحَّة العقائد عُمومًا[2]، فإنَّ العقائد أُصول المشاهد، والمشاهد أُصول المقاعد، فمن صحَّ اعتقاده [٣٦/أ]: صحَّ مشهده، ومن صحَّ مشهده: كان في مقام الصِّدق مقعدُه، ومن فسد مُعتقده:

---

(١) في النسخة الخطية: «فإن» بدون هاء الضمير.

(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ في العقائد».

فسد مشهده، وانحطَّ إلى الدَّركات مقعدُه.

ولهذا المعنى: تخلَّف كثيرٌ من صُلحاء المُتفقِّهة والمُتعبِّدين عن نَيْل شيءٍ من هذه الأذواق الفاضلة، فمن رام زوال الحجاب: فليُؤمن بصفات ربِّ الأرباب، وليُثبتها له سُبحانه كما تليق به؛ عريَّة عن التَّمثيل، ولا ينحرف فيها إلى تمثيلٍ وتعطيلٍ.

أوَّلها: صفة العُلُوِّ والفوقيَّة، فليُؤمن بها، وليُثبتها لله تعالى على الحقيقة اللائقة لله، ولا يكن واقفًا فيها؛ ولا عادلًا إلى التَّأويل من عُلُوِّ المرتبة ونحوها؛ وغير ذلك من الانحراف، بل يُؤمن بأنَّ الله تعالى فوق كُلِّ شيءٍ، وليس كمثله شيءٌ، قال الله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾(١) وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾(٣).

فمن صحَّ بهذه الصِّفة إيمانه؛ وتوجَّه بقلبه إلى ربه في صلاته وعبادته: صار(٤) لقلبه قِبلة بعد أن كان ضائعًا لا يعرف وجهته.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾(٥): بعلمه وسمعه وبصره وقُدرته ومشيئته؛ بلا مُماسَّةٍ ولا امتزاجٍ، وهُو سُبحانه فوق الأشياء بفوقيَّةٍ تليق به وبجلاله وعظمته؛ لا تكييف ولا تمثيل، لكنَّا نعرف الفوقيَّة المحسوسة عندنا؛ ونُثبتها لربِّنا تعالى كما تليق به إثباتًا محضًا؛ بلا تعطيلٍ ولا تمثيلٍ.

هذا أصل المعرفة الخاصَّة لمن فتح الله لها؛ وحماه عن الإعراض عنها،

---

(١) سُورة النَّحل: الآية ٥٠.
(٢) سُورة فاطر: الآية ١٠.
(٣) سُورة النَّحل: الآية ١٠٢.
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «وصار».
(٥) سُورة الحديد: الآية ٤.

فمن طلب هذا الفنَّ: لم يسعه الإعراض ولا التَّأويل.

ومن اشتغل بالدُّنيا: فالسَّلامة في حقِّه تكون(١) بالإيمان والتَّصديق(٢)، وذلك أَوْلَى به من السِّباحة في أبحر العارفين، والجولان في ميادين الصِّدِّيقين.

وما جَهِلَ ذلك أو أعرض عنه: إلا لقُصورٍ في علمه؛ أو لقُصورٍ في صحَّة قصده وقلَّة نُفوذه، فقد يُرزق العبد قصدًا صحيحًا: ويكون ذهنه أو علمه فاسدًا أو ناقصًا، وقد يُرزق العبد ذهنًا صحيحًا وعلمًا صحيحًا: ولا يُرزق من صحَّة القصد شيئًا.

ومن تمَّ علمه؛ وتمَّ قصده: أثبت الأشياء كما تليق بمن أُضيفت إليه، وهذا أوَّل الخير، ثُمَّ يُرجى أن يُفتح لقلبه أذواقها؛ ويُسقى بكُؤوسها من رائق أشربتها وزُلالها المُختصَّة بعُشَّاقها، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ [٣٧/أ] وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٣)

فصلٌ: في تقسيم مراتب هذه المحبَّة وتفصيل شأنها

اعلم أنَّ آثار الصِّفات المُقدَّسة مُتنوِّعةٌ، كُلٌّ يلوح لقلبه على قدر ما كُشف له من حجابها، فأوَّل الصِّفات تبدو لقُلوب العارفين: صفة العُلُوِّ، يتعرَّف سُبحانه(٤) إلى قُلوبهم، فإذا لاحت تضاءل العبد خاضعًا نازلًا إلى التُّخوم(٥)،

---

(١) في النسخة الخطية: «يكون».
(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ في المُشتغل بالدُّنيا».
(٣) سُورة الحديد: الآية ٢١، سُورة الجُمعة: الآية ٤.
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «سُبحنه».
(٥) أي: تطامن إلى الأرض تواضعًا، والتُّخوم في الأصل: الحُدود بين الأرضيْن، وفي النُّسخة الخطيَّة: «النُّجوم».

تواضعًا للعليِّ بذاته وصفاته فوق الممالك الحيِّ القيُّوم، وهذه صفةٌ عظيمةٌ؛ فمن رُزق إثباتها أولًا عريَّة عن التَّمثيل؛ ثُمَّ يُسقى قلبه ذوق شرابها إذ خلا قلبه فيها عن التَّعطيل: فهُو الشَّارب حقًّا؛ والواجد صدقًا.

والأذواق لا يُمكن التَّعبير عن حقائقها، كما لا يُمكن التَّعبير عن الحلاوة والحُموضة، إذ لا يعرف المطعوم حقيقة إلا الذَّائقون، وهذا يُمكن العبارة عنه.

ومنهم من تُنازله(١) صفة الكلام؛ وهُم أهل العلم بالله والخشية له والفهم عنه، والكلام شرابٌ من المحبَّة عجيبٌ، يهيم به المُحبُّون، ويشرب بكأسه العارفون، فهُو مبدأ المعارف ومفتاحها بعد صفة العُلُوِّ، لأنَّ صفة العُلُوِّ اقتضت الإثبات؛ وتوجَّهت بالقُلوب إليه، وأصغت بأسماعها إليه، فسمعت بعد ذلك كلامه؛ وفهمت عنه فلا حرج.

لهم فيه تجلِّيات الجمال والجلال؛ والعظمة والكمال، ظهر الموصوف لقُلوبهم من الكلام تارة بوعده؛ وتارة بوعيده؛ وتارة بقهره؛ وتارة بلُطفه؛ وتارة برحمته؛ وتارة بتهديده وشدَّة بطشه، فدارت عليهم الكاسات؛ وتنوَّعت لديهم الأشربة المُوجبة للحُبِّ والتَّعظيم لاختلاف الصِّفات.

فكُلُّ صفةٍ اقتضت ذوقًا، وكُلُّ ذوقٍ اقتضى حُبًّا، فإذا كانت الصِّفة الواحدة يهيم بها المُحبُّ وتأخذ قلبه: فما ظنُّك بالصِّفات إذا ترادف على القلب ظُهورها؛ واستنار في الرُّوح إشراقها؟

فسُبحان من يُثبِّت على العارفين عُقولهم، وألبسهم السَّكينة والوقار، إذ من جُملة اللُّطف: تعريفهم ما يُطيقون حمله، قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾(٢).

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يُنازله».

(٢) سُورة الرَّعد: الآية ٣١.

التَّقدير في الكلام: لكان هذا القُرآن؛ وتجلِّيات الصِّفات في الكلام العظيم - وهُو القُرآن المجيد -: لا تنحصر[١] ولا يُحاط بها، وكُلٌّ يلوح له على قدر فهمه منه، والفُهوم [٣٧/ب] تتفاوت على اختلاف المعارف وتفاوتها، فمن كانت معرفته أنفذ وأعلى: كان فهمه أنهى[٢] وأبهى، فليس فهم الأنبياء من الكلام كفهم من دُونهم من الصِّدِّيقين والبُدلاء[٣].

ومن ختمت الشَّهوات على قلبه: لا يتجاوز صُورة الكلام إلى معناه، ولا يخرق[٤] من رسمه إلى غايته ومُنتهاه، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[٥].

وغاية ما يؤول إليه أمره: أن تسري أفكاره في علَّة المرفوع وعامل المنصوب؛ والإعجاز في الفصاحة والبيان، كما هُو غاية مُنتهى أقدام من حام حول حِمى الرُّسوم؛ ولم يظفر بحقيقة المفهوم.

أمَّا الفهم عن الله تعالى في القُرآن والعلم به؛ فهو أدنى[٦] مرتبة أحوال القوم فيه: أن تغيب قُلوبهم في المعاني، فتبقى تتغذَّى به كما تتغذَّى نُفوس أهل الوسوسة بالوساوس، فتصير المعاني عوضًا عن حديث النَّفس، تنوب في

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «ينحصر».

(٢) أي: أبلغ.

(٣) أخرج الحاكم في مُستدركه [كتاب التَّوبة والإنابة/ الحديث رقم (٧٦٤٣)- ٤/ ٢٨١] عن أبي هُريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليتمنَّينَّ أقوامٌ لو أكثروا من السَّيِّئات. قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: الذين بدَّل الله سيِّئاتهم حسناتٍ»**.
قال ابن قيِّم الجوزيَّة في [طريق الهجرتيْن وباب السَّعادتيْن: ٢/ ٥٤٠]: (قالوا: وهؤلاء هُم الأبدال في الحقيقة، فإنَّهم إنَّما سُمُّوا أبدالًا: لأنَّهم بدَّلوا أعمالهم السَّيِّئة بالأعمال الحسنة، فبدَّل الله سيِّئاتهم التي عملوها حسناتٍ. قالوا: وأيضًا؛ فالجزاء من جنس العمل، فكما بدَّلوا هُم أعمالهم السَّيِّئة بالحسنة: بدَّلها الله من صُحف الحفظة حسناتٍ؛ ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [سُورة النَّبأ: الآية ٢٦]).

(٤) أي: ينفذ.

(٥) سُورة النَّجم: الآية ٤٢.

(٦) في النسخة الخطية: «فهو» ساقطة، وأثبتها ليستقيم السياق.

القلب عن جميع الوساوس، فتبقى الرُّوح مُجرَّدة تُنازلها أحوال العظمة والكبرياء والجلال والجمال والبهاء، وهذا شُغل من ليس للشَّريعة عليه مُطالبة في ظاهره وباطنه، فلمثل ﴿هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾(١).

ومنهم من تُنازله(٢) صفة العلم المُلازمة لصفة الحياة؛ وإن كانت جميع الصِّفات يلزم منها صفة الحياة لكن قد لا يشعر القلب بها، وهذه صفةٌ عظيمةٌ إذا ذاقت القُلوب شرابها: استولى عليها الحياء؛ والشُّعور بعلمه سُبحانه، قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(٣).

وكما قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(٤).

فإذا استولى على القُلوب الحياء من الشُّعور بعلم الله الواسع المُحيط: خشع القلب لذلك؛ وتضاءل وخنس الوَسْوَاس، كما قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾(٥).

هذا بحُكم ما ظهر للعيان، خشعت له الأصوات؛ فكذلك القُلوب إذا عاينت أمرًا عظيمًا من الغيب: خشعت له بأفكارها ووَسْوَاسِها، فلا تسمع في القُلوب والأفئدة إلا همسًا، خشعت للصِّفة المُحيطة بالمخلوقات، وصُمَّت عن كُلِّ فكرةٍ غير مرضيَّةٍ، وتباعدت عنها كُلُّ همَّةٍ دنيَّةٍ، لاستيلاء صفة العلم على الأسرار، ثُمَّ تربطه هذه الصِّفة [٣٨/أ] المُقدَّسة برُوح المحبَّة، فيغيب عن أثر الصِّفة بمحبَّة الموصوف، وهذا البيان قليلٌ من كثيرٍ، وما خفي منه أكثر ممَّا أظهرته العبارة.

ومنهم من تُنازله صفتا السَّمع والبصر، وحالهما تقرب من صفة العلم، لكن

---

(١) سُورة الصَّافَّات: الآية ٦١.
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يُنازله».
(٣) سُورة البقرة: الآية ٧٧، سُورة هُود: الآية ٥، سُورة النَّحل: الآية ٢٣.
(٤) سُورة المُلك: الآية ١٣.
(٥) سُورة طه: الآية ١٠٨.

لكُلِّ صفةٍ خُصوصيَّة على الاستقلال إذا انفردت وظهر[(١)] الموصوف إلى العارف منها، ثُمَّ تجذبه الصِّفات إلى الموصوف، فيغيب به عن أثر الصِّفة كما تقدَّم أولًا.

ومنهم من تنازله صفة الإرادة، فتمتحي عنه كُلُّ إرادةٍ غير شرعيَّةٍ، وحينئذ[(٢)] تُلاحظه[(٣)] هذه الصِّفة: عبدًا لله؛ تاركًا[(٤)] للاختيار، كما قيل[(٥)]:

وَقَفَ الهَوَى بِي حَيْثُ أَنْتَ فَلَيْسَ لِي ... مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ ولا مُتَقَدَّمُ

وذلك أنَّه لمَّا بدت له إرادة بارئه لتكوين الأشياء وتصريفها على مُقتضى مشيئته بقُدرته النَّافذة على سَنَن حكمته المُتقنة: محا ذلك عن العبد رُعونات بشريَّته، وغاب عن تدبيره بتدبير مولاه؛ وعن إرادته بإرادته إلا ما أمره به شرعًا، لأنَّه مأمورٌ بإرادة ذلك، فلا إرادة له إلا بالله، ويفنى عنه غير ذلك، ويبقى فيه عند الفناء لطيفةٌ علميَّةٌ يترتَّب عليها الأمر والنَّهي.

وخُصوصيَّة هذه الصِّفة: رُوح الاستسلام؛ وطيب القلب بالرِّضا بالمقدور، ثُمَّ تجذبه إلى محبَّة الموصوف، فرُبَّما شغله عن ذلك آثار الصِّفة في حالة

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «وطهر».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «وحين».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «تُلاحضه».
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «تاكًا».
(٥) هُو مُحمَّد بن عبد الله بن رُزين الخُزاعيُّ الكُوفيُّ، وهُو من مُقدَّمي شُعراء عصره، المُلقَّب بأبي الشِّيص، وقد كُفَّ بصره في آخر عُمره.
قال الرَّاغب الأصفهانيُّ: (قد أجمع الأدباء على تفضيل قول أبي الشِّيص)، وقال أبوهفان: (قول أبي الشِّيص أغزلها)، وقال العسكريُّ: (فهذا غاية التَّهالك في الحُبِّ، ونهاية الطَّاعة للمحبوب)، وقال: (فجعل أبونوَّاس يعجب من هذا الشِّعر؛ حتَّى لا يكاد ينقضي عجبه).
انظر: مُحاضرات الأُدباء للأصفهانيِّ ١/ ٣٤٨، نكت الهميان في نكت العميان للصَّفديِّ ص٢٥٧، من غاب عنه المُطرب للثَّعالبيِّ ص١٧، سمط اللآلي للبكريِّ ١/ ١٤٧، كتاب الصِّناعتيْن للعسكريِّ ص١٢٩، الأوائل له ص٣٢.

الجذبة، فإذا أفاق رجع إلى تربيته.

ومنهم من تنازله[(١)] صفة القيُّوميَّة[(٢)]، فيشهد القيُّوم سُبحانه قائمًا بكُلِّ شيءٍ، ويرى الأشياء لا تتحرَّك[(٣)] بأنفسها: ذوقًا وحالًا؛ لا نظرًا وعلمًا، ففي الذَّائقين لهذا المشهد من يغلط؛ فيغيب بالأحكام القدريَّة عن الأحكام الشَّرعيَّة لظُهور القيُّوميَّة[(٤)] فيها، ولا يكون ذلك غالبًا إلا في فقيرٍ قليلِ الاعتناء بالأُمور الشَّرعيَّة، فمنهم من يَنْحَل[(٥)] إذا رأى الأشياء قيامها بالله؛ فيرى الأشياء المُحرَّمة والمُباحة كُلَّها مرضيَّة، لأنَّها صدرت من عينٍ واحدةٍ.

والمُحقِّقون المُتقنون للعُلوم[(٦)] الشَّرعيَّة وأعمالها لا يغيبون بأحد الذَّوقيْن عن الآخر، يشهدون أمر الله تعالى - وهُو ما شرع -: صفة قائمة بالله، قيُّوميَّة[(٧)] الله تعالى وقُدرته السَّارية[(٨)] في الأكوان: صفة قائمة بالله، فيجمعون بينهما ولا يغيبون بأحدهما عن الآخر، لأنَّ من غاب بالأمر عن القدر: رُبَّما وقع في الشِّرك، وقد [٣٨/ب] أدَّب الله تعالى نبيَّه ﷺ في قوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ﴾[(٩)].

وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ الآية[(١٠)].

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «ومنهم تنازله».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «القيموميَّة».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «يتحرَّك».
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «القيموميَّة».
(٥) أي: يضعف.
(٦) في النُّسخة الخطيَّة: «لعُلوم».
(٧) في النُّسخة الخطيَّة: «قيمومة».
(٨) في النُّسخة الخطيَّة: «السَّاري».
(٩) سُورة الأنعام: الآية ٣٥.
(١٠) سُورة الشُّعراء: الآيتان ٣-٤. في النُّسخة الخطيَّة: «فلعلك»، وخُتمت الآية فيها =

ومن غاب بالقدر عن الأمر: تزندق واستحسن القبيح، ومن جمع بين الأمر والقدر: استقام توحيده وركب، ولذلك تَحْدُو[١] بهم[٢] هذه الصِّفة إلى الموصوف - كما مرَّ أولًا - بمشيئة الله تعالى.

ولوازم المفضَّل أن يُعدِّد آثار تجلِّيات الصِّفات وأذواقها؛ وطبقات النَّاس فيها، وإلا أفضى[٣] ذلك إلى إفشاء الأسرار.

وفيما ذُكر تنبيهٌ بالقليل على الكثير؛ لتشتاق القُلوب إلى الحضرة بذلك إلى إفشاء الأسرار، فهذا ما حضر في النَّوع الثَّاني المُؤكَّد الذي به ظهرت[٤] سلطنة الإيمان في القُلوب، وبالله التَّوفيق.

النَّوع الثَّالث: وهُو المقْصَد الأقصى من المحبَّة لخُصوص الخُصوص:

وهذا نصيب الأفراد الصِّدِّيقين، أهل مشهد الفردانيَّة؛ وعظمة الوحدانيَّة، سُقوا بشراب الدَّيموميَّة، وأشرق عليهم الجلال الذَّاتيُّ والجمال الأحديُّ، وهذا المشهد هُو الجامع لجميع الأسماء والصِّفات، فهي محبَّةٌ خاصَّةٌ لخُصوصٍ من أهل القُرْب؛ وأفرادٍ من رُؤساء القوم، فهُم يرتقون من حُجب الأنوار والصِّفات المذكورة إلى حقائق الأشياء، فإنَّ كُلَّ اسمٍ أو صفةٍ من الصِّفات الفوقيَّة أو الذَّاتيَّة إذا ذاقها العارف: وجد لها جمالًا خاصًّا وجلالًا خاصًّا بحسب ما يذوقه ويبدو له، وأمَّا الجلال الذَّاتيُّ والجمال الأحديُّ ذَوْقُه رُتبةٌ خاصَّةٌ للخُصوص كما ذُكر.

فجميع ما ذُكر - وإن كان من أعلى المقامات وأسناها بالنِّسبة إلى هذا

= بقوله تعالى: ﴿نَظَلَّتۡ﴾.

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «تحد».

(٢) أي: تَسُوقُهم.

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «وطبقات النَّاس فيها أفضى».

(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «ظهر».

المشهد -: حُجبٌ نورانيَّةٌ، لأنَّها مشاهد قلبيَّةٌ، والقُلوب لا تتجاوز الصِّفات، وأمَّا هؤلاء فلا يُمكن العبارة عن حقيقة أحوالهم إلا بتقريبٍ، فإنَّ القوم لمَّا اتَّصفوا أولًا بالتَّوبة ثُمَّ بالطَّاعة والمُحاسبة: ترقَّوا من تلك[1] الفكرة فوصلوا إلى محبَّة الآلاء والنَّعماء، ولاح لهم من تدبير الله ما هيَّج إليه أشواقهم، وحقَّقوا في هذا المقام الشُّكر والرِّضا، ثُمَّ ترقَّوا عنه بمعونة الله ومشيئته إلى أذواق الصِّفات، فشربوا منها [٣٩/أ] كُؤوسًا هنيَّة زكت بها أعمالهم؛ وصفت أسرارهم، فاستعدُّوا بذلك الصَّفاء والتَّزكية للقُرْب الخاصِّ فاخْتُطِفُوا من نُفوسهم وقُلوبهم، لأنَّ نُفوسهم جمدت[2] على قُلوبهم؛ وقُلوبهم اضمحلَّت على أرواحهم، روحانيِّين تغلب عليهم صفة الرُّوح، ويُشبهون الملائكة من بعض الوُجوه لتَحَبُّس كشفهم السُّفليِّ بروحهم العُلويِّ، فصار الحُكم للرُّوح، والرُّوح ولاجةٌ طيَّارةٌ تلج عالم الملكوت وتُكافح بصريح الغُيوب، فلمَّا تصفوا إلى هذه الغاية، طِيرَ بأرواحهم إلى مقاعد الصِّدق ومواطن القُرْب، فهاموا بمحبَّة الذَّات، وحظوا[3] بمشهد الفردانيَّة.

وهذا النَّوع من المحبَّة: هُو محبَّة السَّابقين المُقرَّبين، الذين جذبتهم العناية، وهذه الجذبة لا مدخل للكسب فيها، لأنَّها اصطناعٌ محضٌ؛ ومحبَّةٌ خاصَّةٌ، وهي التي فيها السَّكرات وفيها يكون الصَّحو - على لسان القوم[4] -،

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «ذلك».

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «حمدت».

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «وخطوا».

(٤) قال ابن قيِّم الجوزيَّة في [مدارج السَّالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين: ٤/ ٢٠٦-٢٠٧]: (وهذا المعنى لم يُعبَّر عنه في القُرآن ولا في السُّنة ولا العارفون من السَّلف بالسُّكر أصلًا، وإنَّما ذلك من اصطلاح المُتأخِّرين، وهو بئس الاصطلاح، فإنَّ لفظ السُّكر والمُسكر من الألفاظ المذمومة شرعًا وعقلًا، وعامَّة ما يُستعمل في السُّكر المذموم الذي يمقته الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [سُورة النِّساء: الآية ٤٣]. وعبَّر به سُبحانه عن الهول الشَّديد =

وفيها يكون كمال الكشف الرُّوحيِّ، وجميع ما ذُكر: غيبٌ يُشهد بالقُلوب أولًا، ثُمَّ بالأرواح ثانيًا.

فأمَّا مشهد الحُسن بالعين الظَّاهرة: فهُو مُمتنعٌ في هذه الدَّار(١)، وموطنه الجنَّة في دار القرار، وهذا أنهى ما يجده المُحبُّون؛ وينتهي إليه العارفون.

ومن خواصِّ المُتحقِّقين بذلك: الخُروج من رقِّ الحالِّ للتَّمكين فيه، فيصير أحدهم بربِّه لا بحاله، بخلاف أهل الصِّفات: فإنَّهم مُقيَّدون بأحوالهم، تتصرَّف فيهم؛ ولا يتصرَّفون فيها، وهؤلاء تصرَّفوا في أحوالهم، تفرَّقوا في العُلوم والأعمال؛ وهُم مجموعون بربِّهم، وهُم أهل بسطٍ وتمكينٍ، والأوَّلون(٢) أهل جمعٍ وقبضيَّة.

وهذه دقيقةٌ من حال النُّبوَّة، فإنَّهم كانوا يُباشرون الأعمال الشَّاقَّة المُفرِّقة وهُم مجموعون بربِّهم، يُؤثرون في الأشياء والنُّفوس، يغلبونها ولا تغلبهم، فهؤلاء سادات أهل الخُصوص، حظوا بأعلى المقامات في المحبَّة.

ولأبي يزيد(٣) رضي الله عنه: إشاراتٌ لطيفةٌ إلى هذا المقام، يفهم عنه من عرف

= الذي يحصل للنَّاس عند قيام السَّاعة، فقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [سُورة الحجِّ: الآية ٢]. ويُقال: فلانٌ أسكره حبُّ الدُّنيا، وكذلك يُستعمل في سُكر الهوى المذموم. فأين أطلق الله سُبحانه أو رسوله أو الصَّحابة أو أئمَّة الطَّريق المُتقدِّمون على هذا المعنى الشَّريف - الذي هو من أشرف أحوال مُحبِّيه وعابديه -: اسم السُّكر المُستعمل في سُكر الخمر وسُكر الفواحش؟! كما قال عن قوم لُوطٍ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سُورة الحجر: الآية ٧٢]. فوصف بالسُّكر أرباب الفواحش وأرباب الشَّراب المُسكر، فلا يليق استعماله في أشرف الأحوال والمقامات؛ ولا سيَّما في قسم الحقائق).

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ ما هُو مُمتنعٌ في هذه الدَّار».

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «فالأولون».

(٣) هُو طيفور بن عيسى البسطاميُّ المُتوفَّى سنة إحدى وستِّين ومائتين.

أحوالهم رضي الله عنهم[١].

وقد قيل[٢]:

من كان في ظُلم اللَّيالي ساريًا … رصد النُّجوم وأوقد المِصباحا
حتَّى إذا ما البدر أرشد ضوؤه … ترك النُّجوم وراقب الإصباحا [٢٩/ب]
حتَّى إذا انجاب الظَّلام بأسره … ورأى الصَّباح بأُفْقِه قد لاحا
ترك المسارجَ والكواكبَ كُلَّها … والبدرَ وارتقب السَّنا الوضَّاحا

ونسأل الله الكريم أن يُوفِّقنا لمراضيه، ويرزقنا التَّقوى ظاهرًا وباطنًا، فالكون له وبه.

آخر ما تيسَّر من شرح مقامات المحبَّة على الإيجاز والاختصار، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم[٣].

(١) قال الذَّهبيُّ في [سير أعلام النُّبلاء: ١٣/ ٨٨-٨٩]: (وله هكذا نُكتٌ مليحةٌ، وجاء عنه أشياء مُشكلةٌ لا مساغ لها؛ الشَّأن في ثُبوتها عنه). ثُمَّ نقل عن أبي عبد الرَّحمن مُحمَّد بن الحُسيْن السُّلميّ قوله: (ويُحكى عنه في الشَّطح أشياء، منها ما لا يصحُّ، أو يكون مقولًا عليه، وكان يرجع إلى أحوالٍ سُنِّيَّةٍ).

(٢) ذكرها تلميذه ابن قيِّم الجوزيَّة في [كشف الغطاء عن حُكم سماع الغناء: ص٧٨] دون نسبتها لقائلها، وعزاها ابن ناصر الدِّين في [توضيح المُشتبه: ٣/ ١٦٦-١٦٧] إلى المؤلِّف: ابن شيخ الحزَّاميِّين، وفي النُّسخة الخطيَّة: (من كان في ظُلم اللَّيل ساريًا)، و(حتَّى إذا ما البدر أشرق ضوؤه).

(٣) كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في القاهرة، في يوم الأربعاء ٢٧ ذوالحجَّة ١٤٣٢هـ؛ الموافق ٢٣ نُوفمبر (تشرين الثَّاني) ٢٠١١م.

كتاب مِيزَان الحَقِّ وَالضَّلالِ

فِي تَفْصِيلِ أَحْوَالِ النُّجبَاءِ وَالأَبْدَالِ؛ وَشَرْحِ كِبْرِ الجَهلَةِ مِنَ العُمَّالِ؛ الذِينَ عَدِمُوا عِلْمَ التَّفْصِيلِ وَالإِجْمَالِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خضعت لعظمته قُلوب الأولياء، وخشعت من مهابته أسرار الأصفياء، وانقادت إلى عُبوديَّته أعناق الأتقياء.

ﷻ وهُو المُتعزِّز بالوحدانيَّة والكِبْرياء، والمُتعالي بعظمته والصِّفات المُقدَّسة الواردة على ألسنة الأنبياء.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ربُّ السَّماوات والأرض وما بينهما من الأشياء.

وأشهد أنَّ مُحمَّدًا ﷺ عبده ورسوله سيِّد ولد آدم من الأموات والأحياء.

ﷺ صلاة دائمة تسمو بصاحبها إلى العلياء.

وبعد:

فإنَّ العُبوديَّة من أعلى مقامات الصَّادقين، والتَّواضع لعظمة الله من أسنى ملابس المُقرَّبين.

من ظهرت آثارهما عليه دلَّ ذلك على وُجدانه وعرفانه، ومن لم يتقمَّص بهما فقد أقرَّ بما يظهر عليه من الطَّبيعة ببعُده وهوانه.

فلا حال للعبد أشرف من ظُهوره بصفات العُبوديَّة؛ والتَّضاؤل بأحكام الرُّبوبيَّة.

من تعدَّى صفته إلى ما لا يستحقُّه من الصِّفات: أبان عن جهله وحُمقه، ومن وقف على ما تقتضيه حاله من صفاته [٤٠/أ] وحُدوده: اتَّصف في عُبوديَّته وحمقه.

وكيف لا؟ والعجز والضَّعف صفتاه، والفقر والذُّلُّ حالتاه، وقد اتَّصف ربُّه

تعالى بأضدادها من الصِّفات من القُدرة والقُوَّة والغنى والعزَّة.

فمن أظهر إلى الله تعالى عجزه؛ وشكا إليه ضعفه؛ وتقمَّص ذُلَّه وكسره؛ وكأنَّه تسمَّى بأسمائه التي يستحقُّها؛ وتكنَّى بكُناه التي بها ظهر للخليقة رِقُّها، لأنَّهم مربوبون[١]؛ وبعزَّة الرُّبوبيَّة مقهورون.

فذلك سيماء من عرف نفسه فقَدَّرها قَدْرَها، وعرف ربَّه فقَدَّره قَدْره، قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[٢].

وقد جاء في بعض الأخبار: «**إنَّ الملائكة تقول يوم القيامة: سُبحانك؛ ما عبدناك حقَّ عبادتك**»[٣].

وقد جاء في بعض الآثار[٤]: «**إنَّ الله تعالى قال لداود عليه السلام: يا داود؛ اعرفني؛ واعرف نفسك. قال: قد عرفت نفسي بالعجز والضَّعف والفناء، وعرفتك بالقُدرة والقُوَّة والبقاء - أو كما قال -. قال: فقال الله تعالى: الآن عرفتني - أو نحو ذلك -**»[٥]

فعلى العبد أن يُلازم صفاته ويعرف نفسه بها ولا يتعدَّاها فيكون من الجاهلين، ورُبَّما أدَّاه ذلك إلى قلب الحقائق فيكُون من الفراعنة المُلحدين، عصمنا الله تعالى من ذلك وإيَّاكم أجمعين.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «مربون».

(٢) سُورة الأنعام: الآية ٩١، سُورة الزُّمر: الآية ٦٧.

(٣) أخرجه الحاكم في مُستدركه [كتاب الأهوال/ الحديث رقم (٨٧٣٩)- ٤/ ٦٢٩] عن سلمان الفارسيِّ رضي الله عنه، ولفظه: «**يُوضع الميزان يوم القيامة، فلو وُزن فيه السَّماوات والأرض: لوسعت، فتقول الملائكة: يا ربِّ؛ لمن يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئتُ من خلقي. فتقول الملائكة: سُبحانك؛ ما عبدناك حقَّ عبادتك. ويُوضع الصِّراط مثل حدِّ المُوسى، فتقول الملائكة: من تُجيز على هذا؟ فيقول: من شئتُ من خلقي. فتقول: سُبحانك؛ ما عبدناك حقَّ عبادتك**».

(٤) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في معنى من عرف نفسه».

(٥) لم أقف عليه.

قد جاء في الحديث: «**أسألك إيمانًا يُباشر قلبي**»(١).

فعلامة من باشر الإيمان قلبه - وهُو عبارةٌ عن معرفته لربِّه ﷻ بأفعاله؛ أو بشيءٍ من أسمائه؛ أو بلوامِع من آثار أنوار صفاته؛ أو ببارقةٍ تلوح لقلبه من عظمة ذاته، هذه جُملة المعارف؛ وإن تعدَّدت أقسامها؛ وتنوَّعت درجاتها، جعلنا الله من المُحقَّقين بذلك؛ القائمين بأحكامها، آمين؛ يا ربَّ العالمين -: أن ينكسر بهذه(٢) المعارف قلبُه لربِّه، ويذلَّ(٣) سرُّه لما قام به من حُبِّه، فإنَّ المعرفة تقتضي المحبَّة في هذا الشَّأن، وإن كان لا يلزم منها المحبَّة في غيره من الأكوان، فقد يعرف الإنسان الشَّيء ولا يُحبُّه.

وأمَّا هذا الجناب: فلا يُتصوَّر أن يُعرف منه شيءٌ إلا وتقترن(٤) به المحبَّة؛ وإن كان من الصِّفات القهريَّة، فإنَّ لها تعلُّقًا باطنًا بالصِّفات اللَّطيفة المُوجبة للمحبَّة، فمن تحقَّق القلب بوجوده لشيءٍ من هذه المعارف: أعطاه ذلك [٤٠/ب] ذُبولًا وانكسارًا وتعظيمًا ووقارًا، هذا إذا لاح للقلب تفصيله على ما

---

(١) أخرجه البزَّار في مُسنده [الحديث رقم (٥٣٨٥)- ١٢/ ١٨] عن عبد الله بن عُمر بن الخطَّاب ﷺ، والطَّبرانيُّ في مُعجمه الأوسط [الحديث رقم (٥٩٧١)- ٦/ ٤٥٤] عن عائشة بنت أبي بكرٍ الصِّدِّيق ﷺ، ولفظ الطَّبرانيِّ: «**لما أهبط الله آدم إلى الأرض: قام وِجَاهَ الكعبة؛ فصلَّى ركعتيْن، فألهمه الله هذا الدُّعاء: اللَّهُمَّ إنَّك تعلم سريرتي وعلانيتي: فاقبل معذرتي، وتعلم حاجتي: فأعطني سُؤلي، وتعلم ما في نفسي: فاغفر لي ذنبي، اللَّهُمَّ إنِّي أسألك إيمانًا يُباشر قلبي؛ ويقينًا صادقًا حتَّى أعلم أنَّه لا يُصيبني إلا ما كتبت لي؛ ورضًا بما قسمت لي. فأوحى الله إليه: يا آدم؛ إنِّي قد قبلت توبتك؛ وغفرت لك ذنبك، ولن يَدْعُنِي أحدٌ بهذا الدُّعاء: إلا غفرت له ذنبه؛ وكفيته المُهمَّ من أمره؛ وزجرت عنه الشَّيطان؛ واتَّجرت له من وراء كُلِّ تاجرٍ؛ وأقبلت إليه الدُّنيا راغمة وإن لم يُرِدْها**». وقد أشار الطَّبرانيُّ إلى ضعفه بقوله: (لم يرو هذا الحديث عن هشام بن عُروة إلا مُعاذ بن مُحمَّدٍ، تفرَّد به النَّضر بن طاهرٍ).

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «لهذه».

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «وبذل».

(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «ويقترن».

ذُكر من الأفعال والأسماء والصِّفات، فإنَّ ذلك يقتضي في القُلوب الصَّافية؛ والأذهان الصَّقيلة الوافية: تعظيم المعروف؛ لإشراق معارفه في أنوار القُلوب، ويلوح في تلك الأنوار ما يستحقُّه العبد بمُقتضى تلك المعرفة من العُبوديَّة التي تُطالبه تلك المعرفة بها، فيُفرِّق في ذلك النُّور من بين صفات ربِّه وصفات نفسه، فيُعطي الرُّبوبيَّة حقَّها بحسب إمكانه، ويُعطي الرُّبوبيَّة والعُبوديَّة حقَّها بحسب ما قام له من بُرهانه، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[1]

فصلٌ

إذا تأمَّل المُتأمِّل أسماء الله تعالى وصفاته - الواردة في التَّنزيل؛ وفيما أبان عنه الرَّسول ﷺ -: يجد كُلَّ اسمٍ وصفةٍ إلى معنى خاصٍّ قام بالرُّبوبيَّة.

واقتضت تلك[2] المعارفُ: ذوقًا خاصًّا يُعرف به المُسمَّى بذلك الاسم المُتَّصف بتلك الصِّفة، فكان ذلك الاسم أو الصِّفة طاقةَ المعارف؛ يدخل منها إلى جميع المعارف، فيأخذ من كُلِّ اسمٍ أو صفةٍ بقسطِ ما يلزم تلك الصِّفة أو الاسم من جميع الصِّفة والأسماء، وبقدر[3] ما يرتبط ممَّا عرفه من الأسماء والصِّفات؛ على حدٍّ يقسم الله له.

مثال ذلك: من عرف ربَّه تعالى بالاسم (العليم): لزم من العلم الحياة، أو عرفه بالتَّدبير؛ لزم من (التَّدبير): العلم والمشيئة والقُوَّة والحكمة والرِّزق والرَّحمة والقُدرة وأمثال ذلك، أو عرفه بصفة (الكلام): لزم منه الخبير العليم الحيُّ المُوعِد المَخُوف الجليل الجميل، أو عرفه بالاسم (المُنتقم): لزم منه

---

(١) سُورة النُّور: الآية ٤٠.
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «واقتضى ذلك».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «ويقدر».

القادر الحيُّ العليم الدَّيَّان، وأمثال ذلك.

وأيضًا فإنَّ المعروف بتلك الصِّفة أو الاسم؛ المعروف ببقيَّة الصِّفات والأسماء - إذ كُلُّ اسمٍ يُسمِّي به الله تعالى[(١)]؛ أو صفةٍ اتَّصف بها -: بابٌ إلى معرفة الموصوف، وطريقٌ إلى محبَّة المعروف، ومِرْقَاةٌ إلى معرفة غيره من الأسماء والصِّفات؛ إمَّا بطريق اللُّزوم، أو بطريق الجَمْع الجامع للجميع.

فصلٌ

إذا عُلم [٤١/أ] ذلك؛ وأنَّ كُلَّ اسمٍ أو صفةٍ تقتضي معنى خاصًّا: قام بالرُّبوبيَّة كُلُّ معنى من مدلولات الأسماء والصِّفات غير الآخر، فذلك يقتضي كُلَّ اسمٍ وصفةٍ بمعناه الخاصِّ: عُبوديَّة خاصَّة من العبيد الذين عرفوا ربَّهم بذلك، فمن عرف منهم ربَّه تعالى بشيءٍ من أسمائه أو صفاته أو أفعاله؛ فعلامةُ صحَّة معرفته وبُرهانُها: أن يعبد الله تعالى الذي عرفه من ذلك الاسم الخاصِّ أو الصِّفة الخاصَّة؛ عُبوديَّة تُناسب مُقتضى السَّبب المُوجب للمعرفة.

مثال ذلك: الرَّبُّ ﷻ اتَّصف بالغنيِّ القادر العزيز القويِّ، فعلامة من عرفه بصفة الغنى: أن يقوم له قلبه بحقيقة الافتقار، فإنَّ صفة الغنى منه سُبحانه اقتضت منَّا أن نعبده بالافتقار إليه، وكذلك من عرف ربَّه سُبحانه بصفة القُدرة: اقتضت منَّا عُبوديَّة خاصَّة تُناسبها وهي صفة العجز، وكذلك صفة العزَّة: اقتضت منَّا أن نعبده بصفة الذُّلِّ لعزَّته والخُضوع لأحكامه، وكذلك صفة القُوَّة منه: اقتضت منَّا أن نعبده بصفة الضَّعف والاستعانة بالقويِّ لهذا الضَّعيف، وأمثال ذلك.

(١) أي: نفسه المُقدَّسة.

فصلٌ

قد تبيَّن فيما تقدَّم: أنَّ المعرفة الصَّحيحة تُوجب عُبوديَّة وخُضوعًا من كُلِّ عارفٍ صحَّت معرفته.

فبُرهان المعرفة: العُبوديَّة، وبُرهان المحبَّة: المذلَّة، فإنَّ كُلَّ مُحبٍّ ذليلٌ لمن أحبَّه، وهذا لا يكون إلا فيما تفصَّلت معرفته على التَّفاصيل الشَّرعيَّة، وشعر قلبه بوجه التَّفصيل، ومتى شعر القلب بوجه التَّفصيل: صار للمعرفة هيمنةٌ على القلب، يُحكم عليه بالعُبوديَّة الخاصَّة بمُقتضى الأمر المعروف، فيعبد الله تعالى بتلك العُبوديَّة الخاصَّة في مُقابلة ما ظهر لقلبه من المعارف، ويشعر قلبه أيضًا بتلك العُبوديَّة، وأنَّه يُعامل الله تعالى بها.

ومن فتح الله تعالى عليه هذا الباب؛ وتحقَّق ودام له؛ واتَّصل بالعُبوديَّة سَيْره: كان بريئًا من رُعونات النَّفس في غالب الأمر وأكثره، محفوظًا من نزغات الشَّياطين؛ وحركات الجبابرة والمُتكبِّرين، بل يلوح عليه سِيمَاء العابدين، الذين يعبدون ربَّهم بجوارحهم وقُلوبُهم في العالمين.

فإنَّ من خُصوصيَّة المعارف الصَّحيحة المُفصَّلة على التَّفاصيل الإسلاميَّة: أن تتصرَّف[١] في نفس العارف، فتُذَوِّبها وتُصفِّيها؛ وتُلطِّفها وتحميها، فتبقى حارَّة لطيفة؛ بعد أن كانت بحُكم الطَّبع باردة يابسة، فيلوح على شمائل العارف: مكارم الأخلاق؛ وظرافة الشِّيم؛ والصَّفاء، حيث قد صار له ربٌّ في قلبه؛ يعرفه ويُحبُّه ويعبده ويألهه، فنفسه خاضعةٌ لسُلطانه؛ وقلبه مأسورٌ في قبضته؛ ورُوحه مغمورةٌ[٢] في حضرته؛ وسرُّه مُمتَّعٌ بمُشاهدته.

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «ينصرف».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «مغمور».

ومن سكنت هذه الأحوال الشَّريفة في باطنه: بقيت نفسه أسيرة حقيرة مضبوطة عن صفات المُتجبِّرين؛ محفوفة بأنوار المُحبِّين؛ محفوظة عن مخروم [٤١/ب] الحركات؛ موزونة بالعدل في أغلب التَّصرُّفات، تلطَّفت غلظته؛ وتهذَّبت قسوته؛ واعتدل جوره؛ والتزم العدل في أُموره، إن تحرَّك: تحرَّك عدلًا، وإن نطق: نطق حكمة وفضلًا، أو صمت: صمت فكرة وحلمًا، أو نظر: نظر عبرة وحقًّا، أو سمع: سمع إشارة وحُكمًا، وذلك لأنَّ عقله تصرَّف في نفسه تصرُّف المُؤدِّب لطفله، وعقله تأيَّد بربِّه؛ واتَّصل بنُور قُرْبه، فالقلب منه في اتِّصاله بربِّه: مُتَّصلٌ بتهذيبه لنفسه، فهُو قائمٌ بربِّه على همِّه وعقله، وقائمٌ بهمِّه وقلبه على نفسه، وهذه هي الغاية لأهل الغاية؛ المُتوطِّنين مقامات أهل الولاية، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ الآية[١]

فصلٌ

وهؤلاء قسمان[٢]: قسمٌ أهل فناء، وقسمٌ آخر أهل تمكينٍ وبقاء[٣].

فغالب ما يظهر على أهل الفناء من الانقباض والانفراد؛ ومُجانبة النَّاس وإهمال بعض حُقوقهم - من البداية بالسَّلام؛ وإظهار التَّودُّد إلى أهل الإيمان،

---

(١) سُورة المائدة: الآية ٥٤، سُورة الحديد: الآية ٢١، سُورة الجُمعة: الآية ٤.

(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: الأولياء على قسميْن».

(٣) الفناء الذي يُترجم عليه: هُو غاية التَّعلُّق ونهايته، فإنَّه انقطاع عمَّا سوى الرَّبِّ تعالى من كُلِّ وجهٍ، والبقاء الذي يُشير إليه القوم: هُو صفة العبد ومقامه، ولم يرد في الكتاب ولا في السُّنَّة ولا في كلام الصَّحابة والتَّابعين: مدح هذا اللَّفظ ولا ذمُّه، ولا استعملوا لفظه في هذا المعنى المُشار إليه البتة، ولا ذكره مشايخ الطَّريق المُتقدِّمون، ولا جعلوه غاية ولا مقامًا، وقد كان القوم أحقَّ بكُلِّ كمالٍ؛ وأسبق إلى كُلِّ غايةٍ محمودةٍ، ونحن لا نُنكر هذا اللَّفظ مُطلقًا ولا نقبله مُطلقًا، ولا بُدَّ فيه من التَّفصيل، وبيان صحيحه من معلوله؛ ووسيلته من غايته. مُلخَّصٌ من كلام ابن قيِّم الجوزيَّة في [مدارج السَّالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين: ٤/ ٣١٠-٣٤٠].

والإخلال ببعض جُزئيَّات المُتابعة؛ من إجابة الدَّعوة واتِّباع الجنائز ومُخالطة الخَلْق -: فما سببه إلا اجتماعهم على حالهم؛ وسياستهم أنفسهم بما يلزمهم من حُقوق معروفهم، فللحال على هؤلاء سلطنةٌ تقبضهم عن كثيرٍ من التَّفرُّقات.

وفيهم من يشهد بقلبه من سُوء الطَّويَّات وجرائم الآفات؛ فهرب بقلبه من تلك الظُّلمات، فإنَّ عنده ما يشغله عن غيره ولا يتَّسع للأغيار، ولا يقوى على مُقاومة الأشرار، وذلك لا يقدح في مقامه؛ وإن كان غيره أكمل منه لاتِّساعه.

ومثل هذا لا ينشرح إلا لمُحبٍّ صادقٍ؛ تميل المحبَّة بقلبه إليه، فيشهد ذلك من باطنه؛ فيُوفِّيه حقَّ محبَّته بالإقبال عليه؛ والإصغاء إليه، وإن وجد هُناك استعدادًا نصحه؛ وإلا وفَّاه حقَّه وأمسك.

وهؤلاء لم يُكلَّفوا غير ذلك، ومتى تكلَّفوا ما لم يُكلَّفوا: تحمَّلوا ما لم يُطيقوا، و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(١)

والقسم الآخر: وهُم الأطبَّاء؛ أهل التَّمكين والولاية؛ والبقاء والدِّراية، أفناهم الله تعالى به؛ ثُمَّ أبقاهم فكانوا به، فهُم الأدلاء لخلقه عليه، والمُعالجون لهُم في إصلاح أمراضهم، وهؤلاء كُلِّفوا مُخالطة الخَلْق لقوَّتهم وتمكينهم، وهُم القائمون بجُزئيَّات المُتابعة - جُملها وتفصيلها - لتصرُّفهم في أحوالهم، يقومون بأعباء الخليقة - جُلِّها ودقِّها -، يسوسونهم ويصدُّونهم عن الباطل بسَوْط الشَّريعة وحُكمها، فهُم خُلفاء الرُّسل وأُمناؤهم(٢)، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(٣).

---

(١) سُورة البقرة: الآية ٢٨٦.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «فهُم خُلفاء الرُّسل وأُمناؤهم، فقد ظلمهم وجهل استعدادهم، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾». ولعلَّ المعنى المُتبادر إلى الذِّهن؛ من سياق المبنى الوارد في المتن: (فمن ظنَّ أنَّهم متى كُلِّفوا؛ فقد تحمَّلوا ما لم يُطيقوا: فقد ظلمهم وجهل استعدادهم).

(٣) سُورة المائدة: الآية ٤٨.

فصلٌ

قد تبيَّن أحوال أهل الحقِّ ذوي المشارب؛ وما هي وظيفتهم(١)، فأمَّا الآفات الدَّاخلة على العباد [٤٢/أ] أهل الأذواق المُجملة - الذين لا بصيرة لهُم في دينهم؛ ولا معرفة لهم بأحوالهم؛ ولا ميزان لهم يزنون بها حركاتهم وسكناتهم -: فهُم في حيرةٍ يعمهون، وخبطٍ(٢) يتعثَّرون، فهي أكثر أن تُحصى، لكن نذكر منها ما يكون تبصرة واعتبارًا؛ يُستدلُّ بها على غيرها من الآفات، والله(٣) المُستعان.

فمنهم: من يكون طريقه العبادة، فيُنازله أحيانًا في عبادته شيءٌ(٤) من آثار العظمة الإلهيَّة - مُجملًا غير مُفصَّلٍ - على تفاصيل الأسماء والصِّفات، ويتَّفق أن يكون بليدًا لا فطنة له؛ غليظًا لا لطافة له، قويَّ النَّفس، والطَّبيعة لها التَّصرُّف فيه على عقله وقلبه، فيُصبغ(٥) قلبُه بذلك الأثر؛ فيغيب عن صفات نفسه وشُؤونها، وتسلب النَّفس ذلك الأثر فتجعله لها، فيظهر هُو في مظهر الجبروت والعظمة، وتلوح(٦) عليه أمارات الكِبْرياء والرِّئاسة، فيمشي بين العالَم بنفسٍ كبيرة(٧) وصولةٍ جسيمة، فيتردَّى برداء الكِبْرياء والتِّيه(٨)، ويتسلَّط

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «وما هُو وظيفة».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «وحبط».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «وبالله المستعان».
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «شيئًا».
(٥) في النُّسخة الخطيَّة: «قوي».
(٦) في النُّسخة الخطيَّة: «فيصبع».
(٧) في النُّسخة الخطيَّة: «ويلوح».
(٨) في النُّسخة الخطيَّة: «كبير».
(٩) أي: الصَّلَف والكِبْر.

على أشكاله بالغلظة مع ما هُو فيه، فيأمرهم وينهاهم[١] والنَّخوة في رأسه؛ والقسوة في قلبه؛ والشَّرُّ في أحداقه وتحديقه، يُريد الخير؛ فيقع في الشَّرِّ، ويقصد العدل؛ فيهبط[٢] في الجور والظُّلم، هواه قائده؛ لا عقل له، كأنَّه ثُعبان يُرديه في آبار المهالك والمعاطب، حسودٌ لا يفطن لحسده، يتكبَّر لا يشعر بكِبْره، أعمى بقلبه وبصيرته، لا ريب قد اتَّصف بصفات غيره من الكِبْر والعُلُوِّ، وقد جاء في الحديث عن الله تعالى: «**العظمة إزاري؛ والكِبْرياء ردائي، فمن نازعني أحدهما: أدخلته ناري**»[٣].

فمثل هذا أصحابه معه في جهدٍ جهيدٍ؛ وعناءٍ شديدٍ، ينزل على رُؤوسهم من أعلى المقامات؛ ويروم أن يتصرَّف فيهم فتكون[٤] إليه الإشارة في جميع الحالات، كُلَّما امتلأ حالًا: امتلأ كِبْرًا، وكُلَّما ازداد قُوَّة: ازداد شرًّا.

وأهلُ اللهِ الصَّفوةُ[٥]: على عكس ذلك، كُلَّما امتلؤوا حالًا: اكتسوا تواضعًا، وكُلَّما ازدادوا قُوَّة: ازدادوا شُكرًا.

فانظر رحمك الله إلى صاحب الحال المُفصَّل ونُوره، وكونه شَعَرَ قلبُه بحاله؛ وشَعَرَ أيضًا بعُبوديَّته المُناسبة لما ظهر في قلبه، فعرف [٤٢/ب] ربَّه فقام بحقِّه، وعرف نفسه فأنزلها من صفات المخلوقين، فعين قلبه ناظرةٌ إلى

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «وينهيهم».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «فيهبطه».
(٣) أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٩٣٥٩)- ١٥/ ٢١١]، وأبوداود في سُننه [كتاب اللِّباس/ باب ما جاء في الكِبْر- الحديث رقم (٤٠٩٠)- ص٦١١]، وابن ماجه في سُننه [كتاب الزُّهد/ باب البراءة من الكِبْر والتَّواضع- الحديث رقم (٤١٧٤) -ص٦٩٤] عن أبي هُريرة ﷺ، ولفظ أبي داود: «**قال الله ﷻ: الكبرياء ردائي؛ والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النَّار**».
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «فيكون».
(٥) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في أهل الله تعالى».

ربِّه خاضعةٌ، تظهر عليه كسرة الخُضوع وذلَّة العُبوديَّة؛ وإن كان عزيزًا في نفسه مهيبًا من بين أبناء جنسه.

وانظر رحمك الله إلى صاحب الحال المُجمل؛ وقلَّة نصيبه من شُعوره بربِّه وجهله بصفته، وجهله أيضًا بنفسه وصفاتها؛ وما يجب عليها في المعرفة من قيامها في عُبوديَّته، وبكونه اتَّصف بما ظهر لقلبه من العظمة والجبروت، فظهر بما لا يملكه، ففاض عليه من الأخلاق المُلائمة لجهله من الصَّولة والنَّخوة والكِبْر والطَّيش.

فلولا الحلم من الله الكريم؛ والإمهال لهذا العبد الجاهل العديم: لخسفت به الأرض؛ كما خُسف بقارون حين ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾، وخرج على قومه في أثواب زينته؛ ولم يخرج في أثواب ذلَّته وتواضعه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾[١]

عُوقب بنقيض قصده، طلب العُلُوَّ؛ فهوى به طلبه إلى تُخوم الأرضين، ولذلك جاء في الحديث: «**بينا رجلٌ يمشي؛ إذ أُعجب بنفسه في حُلَّته فتبختر فيها، فُخسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة**»[٢]؛ أو نحو هذا الكلام.

---

(١) سُورة القصص: الآيات ٧٨-٨٠.

(٢) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب أحاديث الأنبياء/ باب (٥٣)- الحديث رقم (٣٤٨٥)- ٢/ ١٠٨٣] عن عبد الله بن عُمر بن الخطَّاب رضي الله عنهما، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب اللِّباس والزِّينة/ باب تحريم التَّبختر في المشي مع إعجابه بثيابه- الحديث رقم (٢٠٨٨)- ٣/ ١٦٥٣-١٦٥٤] عن أبي هُريرة رضي الله عنه، ولفظ مُسلم: «**بينما رجلٌ يتبختر يمشي في بُرديه؛ قد أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض، فهوَ يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**».

فنسأل الله العظيم: أن يكسونا أثواب العُبوديَّة؛ والتَّعظيم لمالك البريَّة، ويُوفِّقنا على ذُلِّ نُفوسنا؛ وعزَّة ديننا ومعبودنا، إنَّه أرحم الرَّاحمين؛ وأكرم الأكرمين، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه؛ وسلَّم تسليمًا كثيرًا[١].

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «بلغ مُقابلة». قُلتُ: كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في بيروت، في يوم الأحد ١٥ من شهر الله المُحرَّم ١٤٣٣هـ؛ الموافق ١١ ديسمبر (كانون الأوَّل) ٢٠١١م.

كتاب مِيزَانُ الشُّيُوخِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ[٤٣/أ]

الحمد لله المَلِك الحقِّ المُبين، باسط الرِّزق ذي القُوَّة المتين، مُنزِّل الوحي على المُرسلين، باعثهم إلى الكافَّة ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[١] وقد أوضح طريق مراضيه ومساخطه بالتَّبيين، وفرَّق بكتابه وسُنَّة رسوله ﷺ بين الضَّلال المَشِين المُردي في طبقات سجِّينٍ، وبين الهُدى المُرقي إلى درجات الفردوس في علِّيِّين.

وبعث مُحمَّدًا ﷺ بالحُجَّة البالغة والدَّلالة الواضحة وجعله بشيرًا ونذيرًا، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[٢].

فتح الله ﷻ ببعثته عُيونًا عُميًا وآذانًا صُمًّا وقُلوبًا غُلفًا فتلقَّحت بنُوره العُقول، واستقامت به الأعمال في طريق الوُصول، واكتسبت الفطر من شمائله كرائم الأخلاق فكان لها نهاية السُّلوك وانجذبت الأرواح بالمحبَّة إلى فاطرها العليِّ فارتفعت إلى قُرْبه صاعدة[٣] من السُّفول، راقية من دركات الإبعاد ومهاوي الأضداد والنُّزول، فكمَّل الأُمَّةَ نبيُّها ﷺ غاية المأمول.

صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وخصَّه بالمقام المحمود وقَدَم الصِّدق الثَّابت الذي لا يتزلزل ولا يزول، ورزقنا اتِّباعه وسُلوك نهجه المُضيء الذي لا ضلالة فيه ولا لإضاءته أُفول.

---

(١) سُورة النِّساء: الآية ١٦٥.

(٢) سُورة الأحزاب: الآية ٤٦.

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «صاعدًا».

وبعد:

فهذه نصيحةٌ كتبتها إلى إخواني المُؤمنين في الآفاق، جعلنا الله وإيَّاهُم في حضرة قُدسه يوم التَّلاق، وذلك لما كان في النَّصيحة لله والتَّواصي بالحقِّ والتَّواصي بالصَّبر من المندوب الذي لا يسع المُؤمن تركه ولا الإعراض عنه، خُصوصًا في هذه الأزمنة المُتباعدة عن زمن الرَّسول ﷺ، فلها اليوم سبعمائة سنةٍ وكُسورٌ، فحدثت في هذه المُدَّة الطَّويلة الأحداث، وكثرت البدع وتشرَّبتها النُّفوس، فقذفت بمقدار ما تشرَّبته من البدع المنكورة سُننًا معروفة، فصار الإسلام غريبًا؛ وأهله غُرباء؛ كما أخبر به رسول الله ﷺ(١).

وقد رحم الله الأُمَّة بأن أقام لها في كُلِّ قرنٍ أعلامًا يكونون لدينه أنصارًا(٢) [٤٣/ب]، فيُنبِّهون النَّاس على الأحداث النَّاشئة والبدع الكائنة؛ يتلو بعضهم بعضًا، يُصلحون ما أفسد النَّاس من سُننٍ، وفي الحديث: **«من أحيا سُنَّة أُميتت: فقد أحياني، ومن أحياني: كان معي في الجنَّة»**(٣).

---

(١) أخرج مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب بيان أنَّ الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا وأنَّه يأرز بين المسجديْن- الحديث رقم (١٤٥)- ١/ ١٣٠] عن أبي هُريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا، فطُوبى للغُرباء»**.

(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في كُلِّ قرنٍ أعلامٌ».

(٣) أخرجه التِّرمذيُّ في سُننه [كتاب العلم/ باب ما جاء في الأخذ بالسُّنَّة واجتناب البدع- الحديث رقم (٢٦٧٨)- ص٦٠٣] عن أنس بن مالكٍ ﷺ، ولفظه: (قال لي رسول الله ﷺ: يا بُنيَّ؛ إن قدرت أن تُصبح وتُمسي ليس في قلبك غشٌّ لأحدٍ: فافعل. ثُمَّ قال لي: يا بُنيَّ؛ وذلك من سُنَّتي، ومن أحيا سُنَّتي: فقد أحبَّني، ومن أحبَّني: كان معي في الجنَّة). والحديث ضعيفٌ، وقد أشار التِّرمذيُّ إلى ذلك بقوله: (هذا حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه).

فصلٌ

إنَّما يقتدي العامَّة برُؤسائها وأشرافها ومشايخها، فعليهم وزر ما ابتدعوا؛ ولهم أجر ما تبعوا لذلك إلى يوم القيامة، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**من سنَّ سُنَّة حسنة: فله أجرها؛ وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن ابتدع بدعة لا يرضاها: كان عليه وزرها؛ ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**»[1].

وعنه ﷺ قال: «**ما من قتيلٍ يُقتل: إلا وعلى ابن آدم الأوَّل كفلٌ من دمها، فإنَّه أوَّل من سنَّ القتل**»[2]. يعني به: قابيل الذي قتل هابيل.

وكتب[3] رسول الله ﷺ إلى هرقل: «**فإن[4] تولَّيت فعليك إثم**

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ في سُننه [كتاب العلم/ باب ما جاء في الأخذ بالسُّنَّة واجتناب البدع- الحديث رقم (٢٦٧٧)- ص٦٠٣]، وابن ماجه في سُننه [أبواب السُّنَّة/ باب من أحيا سُنَّة قد أُميتت- الحديث رقم (٢٠٩)- ص٥٤] عن عمرو بن عوفٍ المُزنيِّ ﷺ، ولفظ ابن ماجه: «**من أحيا سُنَّة من سُنَّتي؛ فعمل بها النَّاس: كان له مثل أجر من عمل بها، لا ينقص من أُجورهم شيئًا، ومن ابتدع بدعة؛ فعُمِلَ بها: كان عليه أوزار من عمل بها، لا ينقص من أوزار من عمل بها شيئًا**». قال ابن الجوزيِّ في [العلل المُتناهية: كتاب السُّنَّة وذمِّ البدع/ باب إحياء السُّنَّة عند ظُهور البدع- الحديث رقم (٢٠٦)- ١/ ١٣٥]: (هذا حديثٌ لا يصحُّ).

(٢) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب أحاديث الأنبياء/ باب خلق آدم وذُرِّيَّته- الحديث رقم (٣٣٣٥)- ٥/ ١٠٢٥]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب القسامة/ باب بيان إثم من سنَّ القتل- الحديث رقم (٤٤٧٣)- ٣/ ١٣٠٣-١٣٠٤] عن عبد الله بن مسعودٍ ﷺ، ولفظ البُخاريِّ: «**لا تُقتل نفسٌ ظُلمًا: إلا كان على ابن آدم الأوَّل كفلٌ من دمها، لأنَّه أوَّل من سنَّ القتل**».

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «فكتب».

(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «وإن».

الأريسيِّين»[١].

والأريسيُّون: هُم الأتباع والأكَرَة[٢]، يعني: إن تولَّيت عن الحقِّ: فإنَّ عليك إثم من اتَّبعك في الضَّلالة؛ والتَّولي عن أمر الله تعالى.

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّيْنَ إلا المُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوْءٍ وَرُهْبَانُهَا

يُروى هذا القصيدُ بكماله: عن عبد الله بن المُبارك رضي الله عنه[٣]

---

(١) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب بدء الوحي/ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ- الحديث رقم (٧)- ١/ ٢٣-٢٦]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب الجهاد والسِّير/ باب كتاب النَّبيِّ ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام- الحديث رقم (١٧٧٣)- ٣/ ١٣٩٣-١٣٩٧] عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، ونصُّ كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل - واللَّفظ للبُخاريِّ -: **«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، من مُحمَّد عبد الله ورسوله: إلى هرقل عظيم الرُّوم، سلامٌ على من اتَّبع الهُدى، أما بعد: فإنِّي أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِم تَسْلَم؛ يُؤتك الله أجرك مرَّتين، فإنْ تولَّيْت: فإنَّ عليك إثم الأريسيِّين، و﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** [سُورة آل عمران: الآية ٦٤]».

(٢) جمع: أكَّار؛ أي: زرَّاع.

(٣) أخرجه أبونُعيم الأصفهانيُّ في حلية الأولياء [٨/ ٢٧٩]، والبيهقيُّ في الجامع لشُعب الإيمان [رقم (٦٩١٨)- ١٢/ ٥٥٢-٥٥٣]، وابن عبد البرِّ في جامع بيان العلم وفضله [رقم (٦٠٣)- ١/ ٣٢٧-٣٢٨]، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق [٣٢/ ٤٦٧-٤٦٨]، وتمام القصيد:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وَيُتْبِعُهَا الذُّلَّ إدْمَانُهَا

وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

وَهَلْ بَدَّل الدِّينَ إلا المُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

وَبَاعُوا النُّفُوسَ فَلَمْ يَرْبَحُوا ... وَفِي البَيْعِ لَمْ تَغْلُ أَثْمَانُهَا

لَقَدْ وَقَعَ القَوْمُ فِي جِيفَةٍ ... يَبِينُ لِذِي العَقْلِ إنْتَانُهَا

فصلٌ

القادة في زماننا أصنافٌ: مُلُوكٌ؛ وأُمراء؛ ورُؤساء؛ وعُلماء؛ ومشايخ صُوفيَّة؛ ومشايخ فُقراء.

فالمُلوك والرُّؤساء والأُمراء وإن كانوا أُولي أمرٍ[١]: فأبصارهم طامحة إلى مشايخ العلم ومشايخ الزِّيِّ، فإلى مشايخ العلم يستندون في القضايا والأحكام، ومن مشايخ الزِّيِّ يستنشقون أرائج[٢] المواجيد وحقائق الإيمان.

ثُمَّ إنَّ المُلوك والأُمراء والرُّؤساء: لمَّا انصرفت هممهم إلى جمع الحُطام؛ وقهر الأنام، وشُرب الخُمور؛ ومُعانقة المُنكر والمحظور، واستحلال المظالم والمُكوس؛ واقتناء المماليك للاستمتاع المُحرَّم: فقست لذلك القُلوب؛ وأظلمت أرجاؤها، وانعكست فطرهم، فصار عندهم الحسن: ما استحسنته [٤٤/أ] نُفوسهم واستطابته، والقبيح: ما قبح في نظرهم، فأعرضوا عن استحسان الشَّرع واستقباحه، اللَّهُمَّ إلا أشياء ظواهر؛ ينخرم الدِّين جُملة بتعاطيها وخرق سياجها، كاستباحة المحارم ظاهرًا، وخرق سياج الصَّوم والصَّلاة، فهذا لم يُمكنهم تركه؛ لأنَّه خُروجٌ إلى الكُفر بالأصالة.

فلَّما عميت قُلوبهم؛ وأظلمت أسرارهم: خفي عندهم تمييز الصَّادق من الكاذب، وكُلُّ من لبس عندهم هيئة العُلماء؛ ووجدوا عنده كلامًا ونهمة في المنطق: كان فقيهًا، وكُلُّ من تزيَّا عندهم بلُبس المُرقَّعة: كان صُوفيًّا أو فقيرًا.

---

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: (مطلبٌ: في من أفسد النَّاس وأضلَّهم).

(٢) قال ابن سِيْدَه في [المُحكم والمُحيط الأعظم: ٧/٣٣٨]: (الأريج والأريجة: الرِّيح الطَّيِّبة، أنشد ابن الأعرابيِّ:

كَأَنَّ رِيحًا مِنْ خُزَامَى عَالِجِ   أَوْ رِيحَ مِسْكٍ طَيِّبِ الأَرَائِجِ.

وفي النُّسخة الخطيَّة: «أرانيج».

فضلَّت العامَّة بهم ضلالًا مُبينًا لجهلهم بالصَّادقين، وعدم التَّمييز بينهم وبين الكاذبين.

فصلٌ

وأمَّا العُلماء: فلمَّا اهتمُّوا أيضًا بحُبِّ الدُّنيا وجمع الحُطام؛ والتَّكالب على الرِّفعة والمناصب بين الأنام، وشدَّة الاهتمام بالتَّقرُّب إلى الأُمراء والدُّخول معهم في أهوائهم؛ ويفتنونهم بآرائهم طلبًا للمنزلة عندهم: أظلمت أيضًا قُلوبهم؛ وعميت عن الرُّشد، فتصرَّف هواهم في عُلومهم فكدَّرها، وصارت عُلومهم الشَّرعيَّة مشوبة بأكدار الهوى، ممزوجة - وإن كانت حقًّا - بأباطيل آرائهم ومحبوباتهم.

فلا يُنكرون المُنكر؛ إلا[1] ما قام لهم فيه مصلحةٌ دُنيويَّة؛ مِنْ كسر من عاندهم أو ناوأهم، فيكسرونهم بحُجَّة إقامة[2] الدِّين ويُظهرون مثالبهم، ولا يأمرون من المعروف إلا ما استجلبوا به رفقًا أوجب لهم به رئاسة وظُهورًا، فمات الحقُّ؛ لظُهور رغبتهم، وظهر المُنكر؛ لإبقائهم على رئاستهم، فبَعدُوا عن الله تعالى؛ وأُبْعِدُوا، وكانت زلاتهم كالسَّفينة تَغْرَق وتُغْرِق، اللَّهُم إلا بقايا منهم: خاملون مُضطهدون مبغوضون؛ وقليلٌ ما هُم.

فضلَّ بهم العامَّة والمُلوك - وصاروا حُجَّة في العوائد الفاسدة؛ والأحكام الباطلة؛ والرَّغبة في الدُّنيا؛ والتَّهاون بأُمور الدِّين - بِقَوْل النَّاس بأجمعهم: إذا كان الفُقهاء يفعلوا أو يزلُّوا: فاتَّخذوهم قُدوة.

ضلُّوا في أنفسهم؛ وضلُّوا عن سواء السَّبيل.

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «ولا».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «بإقامة».

فصلٌ

وأمَّا مشايخ الزِّيِّ: فلمَّا أعرضوا عن مجموع أمر الله تعالى؛ وطلبوا الدُّنيا وطاب لهم أكلها بما يُظهرون من الزِّيِّ والحال وحُسن السَّمت ومدِّ العُنق وحُبِّ [٤٤/ب] الشُّهرة والقبول ومحبَّة الاستتباع والاتِّباع في الدُّنيا، ذاهبوا لهذه الأغراض المُلوكَ والأُمراءَ إبقاء على رئاستهم، وكرهوا أن يُصدِّعوهم، فصار سُكوتهم حُجَّة لظُلم الظَّالم.

وأمَّا أهل الانحراف من أهل الزِّيِّ الذين شأنهم استجلاب قُلوب الجُهَّال والبطلة والنِّساء والفلاحين بإظهار السَّماع والرَّقص؛ ودعوى أنَّهم أهل المحبَّة والمعرفة والاتِّصال بالله والتَّصوُّف: فاتَّخذوا هذه الدَّعوى سبيلًا إلى أكل أموال النَّاس بالباطل، والتَّمتُّع بنسائهم وصبيانهم بعقد المُؤاخاة والمُضاجعة معهم، فإنَّ أحدهم - على زعمهم - إنَّما يُضاجع أُخته أو أخاه، وذلك عندهم لا بأس به؛ إذا كان القلب نظيفًا، يتقرَّبون إلى الأُمراء لنيل الدَّراهم والجاه عندهم، ويُزَوْكِرُون(١) بالصِّياح والشَّهق(٢) عندهم.

والأُمراء مُنغمسون في الفواحش والمظالم، قد أظلمت قُلوبهم، وعميت عن الحقِّ أبصارهم، فصاروا لا يعرفون التَّمييز بين الحقِّ والباطل؛ ولا بين الصَّادق والكاذب، فيرون شيخًا معه جمعٌ كثيرٌ عليهم المُرقَّعات، قد أحسنوا زِيَّهم؛ وتزيَّنوا للخَلْق باجتماعهم وعُكوفهم على شيخهم يُعظِّمونه ويُقبِّلون يده، وكيف لا؛ وهُو دُكَّانهم؛ وسببٌ إلى نيل معاشهم.

---

(١) قال المَقَّري في [نفح الطِّيب: ٦/ ١٢]: (الزَّواكرة: لفظٌ يستعمله المغاربة، ومعناه عندهم: المُتلبِّس الذي يُظهر النُّسك والعبادة؛ ويُبطن الفسق والفساد، وعند الله تجتمع الخُصوم).

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «والشَّهد».

بهذه الصُّورة: تقوم صُورتهم، إذ لولاها لماتوا جُوعًا، فهُو لهُم صنمٌ يرتقون به؛ والحادي صنمٌ آخر، على حسِّه يجتمع النَّاس ويُؤلِّف بينهم، فالشَّيخ هُو محلُّ الوهم الذي يُوهمون به الخَلْق؛ وأنَّ هذا: هُوَ؛ وهُوَ؛ وهُوَ، والحادي كطَبْل المُشَعْبِذ[1]؛ يجمع النَّاس على ذلك الوهم الفاسد، فينتج من اجتماعهم: ميل القلب إليهم ومحبَّتهم لهم، وصُنعة الطَّعام لاجتماعهم، ولا بُدَّ من أولادٍ حسانٍ؛ وزوجاتٍ وضيئاتٍ، فإذا مال الآباء إليهم: فبالضَّرورة يحنُّ الأولاد والأزواج إليهم، فيرتفون[2] بطعام الآباء، ويتمتَّعون بالأُخوَّة - وهُم الأولاد والأزواج -، فتبلغ نُفوسهم هواها وغرضها بهذه الصُّورة التي أقاموها، فضلُّوا بذلك؛ وأضلُّوا كثيرًا، وأظلمت قُلوبهم؛ والتبستهم صُورٌ شيطانيَّةٌ، يرى العارفون [بشاعتها][3] من وُجوههم، فما أبعدهم عن الله تعالى؛ وأبعدهم عن طريق رسول الله ﷺ.

فهؤلاء هُم الذين يأكلون أموال النَّاس بالباطل؛ ويصُدون عن سبيل الله حقيقة، وهُم قُطَّاع الطَّريق، يقطعون طريق الحقِّ عن اتِّباع السُّنَّة والوُصول إلى الله تعالى.

فما جاء الإسلامَ قومٌ أضرَّ منهم على [٤٥/أ] أهله، إنَّما يعرف ضررهم على الإسلام: من يعرف الإسلام وطريقته، وما أصدق من قال[4]:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّيْنَ إلا المُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوْءٍ وَرُهْبَانُهَا

فنسأل الله العظيم؛ الجبَّار القدير العزيز الحكيم: أن يكشف هذه الظُّلمة

---

(١) أي: المُشَعوِذ.

(٢) قال الجوهريُّ في [الصِّحاح في اللُّغة: ٦/ ٢٣٦٠]: (المُرافاة: الاتِّفاق والالتحام. قال الشَّاعر:

وَلَمَّا أَنْ رأيتَ أبا رُوَيْمٍ ... يُرَافِيني ويكره أن يُلاما.

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «بشعتها».

(٤) هُو عبد الله بن المُبارك.

عن وجه الإسلام، وأن يعفي آثارها؛ ويمحق منارها، وأن يكشفهم للخاصِّ والعامِّ؛ حتَّى ترميهم العُيون بالنَّظر الشَّرر والازدراء، ويقلاهم[١] الخلق؛ فينالهم الذُّلُّ - عُقوبة الافتراء -، فيموتوا جُوعًا وعُريًا وجفاء وذِلَّة، أو يرجعوا إلى طريق الحقِّ والصَّواب، ويتَّبعوا رسول الله ﷺ في المجيء والذَّهاب.

فصلٌ

سبب انحراف الأُمَّة وتشعُّبها[٢]: هُو أنَّه حدث في هذه القُرون بعد الرَّسول ﷺ؛ مشايخ صالحون؛ أُولو[٣] أحوالٍ، أُمِّيُّون لا يعرفون تفاصيل الشَّريعة فلم يعملوها، ولم يحملوا أصحابهم على تفاصيلها.

فصارت أفعال شيخ كُلِّ طائفةٍ: بها يقتدي أصحابه، وصار الشَّيخ هُو المتبوع في شمائله وأحواله وعاداته، وأعرضوا بذلك عن اتِّباع الرَّسول ﷺ، والله تعالى يسألهم يوم القيامة: عن اتِّباع الرَّسول ﷺ؛ لا عن اتِّباع الشَّيخ، فلذلك افترقت الأُمَّة فرقًا؛ وصاروا بهذا الافتراق شِيَعًا.

فصلٌ في ميزانٍ تُوزن به المشايخ ليكون مُتَّبعهم على بصيرةٍ من أمره ونيَّته من حاله

اعلم أنَّ المشايخ في زماننا ثلاثةٌ: شيخ علمٍ؛ وهُو الفقيه، وشيخ سُلُوكٍ؛ وهُو الصُّوفيُّ، وشيخ عامَّة؛ وهُو شيخ الفُقراء.

---

(١) أي: يُبغضهم.
(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في سبب انحراف الأُمَّة وتشعُّبها».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «أُولي».

ولا بُدَّ لهم من ميزانٍ يُعرف به جادَّةُ طريقِ المُستقيمِ منهم والمُنحرف، ومن الذي يتعيَّن اتِّباعه منهم؛ والذي يجب اجتنابه والتَّباعد عنه منهم؟ وبالله التَّوفيق.

ونسأله أن يُرينا الحقَّ حقًّا؛ ويُعيننا على اتِّباعه، ويُرينا الباطل باطلًا؛ ويُعيننا على اجتنابه.

الفصل الأوَّل: في بيان استقامة طريق شيخ العلم من انحرافه

العُلماء ورثة الأنبياء؛ لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنَّما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ، كذا جاء في الحديث(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾(٢).

فالعلم الكامل: هُو اسمٌ يدخل تحته كُلُّ فضيلةٍ تتعلَّق بالدِّين الظَّاهر أو بالحال الباطن - علمًا وعملًا؛ وخُلُقًا وحالًا -، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(٣).

---

(١) أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٢١٧١٥)- ٣٦/ ٤٥-٤٦]، وأبوداود في سُننه [كتاب العلم/ باب الحثِّ على طلب العلم- الحديث رقم (٣٦٤١)- ص٥٥١-٥٥٢]، والتِّرمذيُّ في سُننه [كتاب العلم/ باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة- الحديث رقم (٢٦٨٢)- ص٦٠٤]، وابن ماجه في سُننه [أبواب السُّنَّة/ باب فضل العُلماء والحثِّ على طلب العلم- الحديث رقم (٢٢٣)- ص٥٦] عن أبي الدَّرداء ﷺ، ولفظ أبي داود: (عن كثير بن قيسٍ قال: كُنتُ جالسًا مع أبي الدَّرداء في مسجد دمشق، فجاءه رجلٌ فقال: يا أبا الدَّرداء؛ إني جئتك من مدينة الرَّسول ﷺ لحديثٍ بلغني أنَّك تُحدِّثه عن رسول الله ﷺ؛ ما جئت لحاجةٍ. قال: فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا: سلك الله ﷻ به طريقًا من طُرق الجنَّة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإنَّ العالم ليستغفر له من في السَّماوات ومن في الأرض؛ والحيتان في جوف الماء، وإنَّ فضل العالم على العابد: كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإنَّ العُلماء ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا؛ ورَّثوا العلم، فمن أخذه: أخذ بحظٍ وافرٍ).

(٢) سُورة الرُّوم: الآية ٥٦.

(٣) سُورة فاطر: الآية ٢٨.

فقد نبَّه على أنَّ الخشية من الله [٤٥/ب] تعالى ميزان العلم - أي: العلم به وبأمره ونهيه - **فانقسم العُلماء ثلاثة أقسامٍ:**

عالِمٌ بالله ﷻ؛ وعالِمٌ بدينه، وهُو العالم الكامل الجامع؛ الذي عِلْمُه وحَالُه: قُوتٌ ومادَّةٌ لكُلِّ مُؤمنٍ ومُسلمٍ وصدِّيقٍ، ومثالهم في الأُمَّة: كأبي بكرٍ وعُمر وبقيَّة العشرة وعُلماء الصَّحابة وفُقهائهم، أهل العلم الشَّرعيِّ والعمل المُوفَّى[1] به والعلم اللَّدنِّي، جمعوا كُلَّ فضيلةٍ من علمٍ وعملٍ وخُلقٍ وحالٍ، ﭫ.

فهُم كانوا أعمقَ النَّاس عُلومًا؛ وأصحَّهم أعمالًا؛ وأكملهم أحوالًا، كانوا مُتَّبعين لأمر الله تعالى في الظَّاهر؛ مُجتنبين لنهيه، عالمين بأمره ونهيه، يُجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، يبذل أحدهم نفسه لله، يرى دماءه تسيل؛ وهُو إلى قُدَّامٍ يُقاتل على دين الله من خالف الله وكفر به، هذا عملهم.

وأمَّا علمهم وحالهم؛ فكان شيخهم ومُمِدُّهم من العلم والحال: رسول الله ﷺ، فهُو سيِّد العُلماء؛ وسيِّد العارفين.

وكان علم الصَّحابة من بحر علم الرَّسول ﷺ[2]، ورثوا الحال من صُحبته ونظره، وورثوا العلم من أقواله وأفعاله، فهُم سادات الأُمَّة، بهم نقتدي؛ وبهم نهتدي: أيُّها المُنصف.

فهل كانوا كشُيوخ الفُقراء في زماننا؟ كلا والله، بل لو رأوهم: لجاهدوهم وقاتلوهم على ما ابتدعوا في دين الله؛ ما لم يأذن به الله.

ولذلك جاء بعد الصَّحابة: سادات التَّابعين وعارفوهم وعُلماؤهم، كسعيد بن المُسيِّب، وأصحاب ابن مسعودٍ كعلقمة والأسود من أهل البصرة، والحسن البصريِّ؛ وغيرهم.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «والموفى».

(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في أصحاب الرَّسول وتابعيهم».

كان الحسن إمامًا في كُلِّ فنٍ، كان قومٌ يأخذون عنه العربيَّة؛ وقومٌ يأخذون عنه التَّفسير؛ وقومٌ يأخذون عنه الأحكام[١] الفقهيَّة؛ وقومٌ يأخذون عنه أحوال القُلوب، فكان إذا اجتمع به أهل القُلوب: يخلو بهم؛ فلا يدع غيرهم يدخل معهم، فرأى يومًا في حلقته شيخًا من غيرهم، فقال: ما أجلسك عندنا يا لُكع؟ إنَّما جلسنا مع أصحابنا نتذاكر[٢].

وكذلك كان في كُلِّ قرنٍ: ساداتٌ من العُلماء الكُمَّل، جمعوا العُلوم والأعمال؛ والأخلاق والأحوال، حتَّى كان في المائة الرَّابعة: شيخ الإسلام؛ وقُدوة الأنام؛ أبوإسماعيل عبد الله الأنصاريُّ الهرويُّ بهَرَاة - صاحب كتاب منازل السَّائرين -، كان إمامًا في السُّنَّة والتَّفسير؛ إمامًا في المواجيد والأحوال، رضي الله عنه.

ثُمَّ كان في المائة الخامسة: الشَّيخ الإمام عبد القادر الجيليُّ رضي الله عنه [٤٦/أ] ببغداد، كان الفقيه يأخذ عنه مدد علمه، وكان العارف يأخذ عنه مدد عرفانه، فهؤلاء العُلماء الكُمَّل رضي الله عنهم.

الثَّاني: **عالمٌ بأمر الله[٣] تعالى؛ وليس عالمًا بالله**، وهُم الفُقهاء، يعرفون أمر الله ونهيه؛ ولم تتَّصل قُلوبهم بالله اتِّصال المحبَّة التَّامَّة بكمال الزُّهد في الدُّنيا والمناصب.

الثَّالث: **عالِمٌ[٤] بالله تعالى؛ وليس عالمًا بأمره**، وهُم العارفون الأُمِّيُّون، أحدهم له نصيبٌ من الله عز وجل في قلبه؛ ولا يعرف تفاصيل الأمر والنَّهي، فهُو صحيحٌ بشرط أن لا يخرج من معرفته إلى بدعةٍ لم يَسُنَّها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «وقوم الأحكام».
(٢) انظر: قُوت القُلوب لأبي طالبٍ المكيِّ ١/ ٢٥٧.
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «بأمر بالله».
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «عالمًا».

فعلامة استقامة طريق شيخ العلم في زماننا: أن يكون عارفًا بكتاب الله ﷻ؛ عالمًا بسُنَّة رسوله ﷺ؛ عالمًا بفُروع الأحكام وردِّ الحوادث إلى الأُصول، يُقيم بُرهان ذلك إذا سُئل عند النَّازلة، فيَدُلُّ عليه من كتاب الله ﷻ وسُنَّة رسوله ﷺ.

وأن يكون مع ذلك عاملًا بعلمه؛ لا يجري على ظاهره من الأقوال والأفعال ما يُخالف علمه، وأن يكون حريصًا على الأمر بالمعروف مُهتمًّا به: يُصبح مُهتمًّا بإقامة أمر الله ويُمسي به مُهتمًّا؛ حريصًا على النَّهي عن المُنكر لا يدع فيه مُمكنًا؛ يبذل فيه ما أمكنه من ماله وبجاهه، يتألَّف النَّاس بماله وخُلقه على طاعة الله ورسوله ﷺ.

وأن يكون زاهدًا في المناصب وفُضول الدُّنيا، تطلبه ولا يطلبها؛ وتأتيه ولا يأتيها.

وأن يكون مُجانبًا للدُّخول على المُلوك والأُمراء والظَّلمة، فلا يدخل عليهم لطلب مالٍ ولا جاهٍ، يدخل عليهم ليأمرهم بالحقِّ والعدل؛ ويُعلِّمهم أمر الله ونهيه، وينهاهم عن البغي والظُّلم والإثم والعُدوان، يدخل عليهم ليستضيئوا بعلمه ونُوره في ظُلمات حوادثهم، فهذا الدُّخول عليهم قد يكون واجبًا عليه تارة؛ وأُخرى مُستحبًّا، وأن لا يُداهنهم ولا يدخل معهم في أغراضهم الفاسدة، ولا يُفتيهم بما يأكلون أموال النَّاس بالباطل فيُقلِّدونه فيها؛ فيدخل معهم فيها بالتَّأويلات الفاسدة لينال من جاههم ومالهم؛ فيكون جسرًا لهم يعبرون على رقبته إلى النَّار.

وأن يكون من أهل الحديث والسُّنَّة، مُجانبًا للكلام والمنطق وأهله، عقيدته عقيدة أهل الحديث والأثر؛ لا عقيدة أهل الكلام والآراء الفاسدة.

وأن يكون ورعًا في منطقه؛ فلا يتكلَّم بما لا يعلمه، وإن سُئل عمَّا لا يعلم؟ يقول: الله أعلم.

ورعًا في مأكله وملبسه، يكون له معيشة يستغني بها عن النَّاس، لا يقبل الهديَّة من مُستفتٍ [٤٦/ب] يستفتيه؛ غرضه: أن يُفتيه في تحريم حلالٍ؛ أو تحليل حرامٍ على وفق غرضه.

وأن يكون أعفَّ النَّاس وأعقلهم، فمن قلَّ عقله لا يُؤمن في علمه من الخطأ وسُوء الرَّأي.

وأن يكون ظاهر المُروءة، له مع ربِّه في خلواته عباداتٌ وأورادٌ، يُعامله؛ تظهر[١] أنوار المُعاملة على وجهه، وتظهر[٢] السَّكينة على منطقه وعلمه.

قليل الانبساط، ضحكه تبسُّمٌ، مُستعملٌ الأخلاق من الحلم والصَّبر والتَّواضع مع المُؤمنين، مُستعملٌ للشِّدَّة والغلظة؛ مُستعملٌ للمُصابرة والمُداراة مع من يرجو منه الانتفاع بعلمه وكلامه.

راقد النَّفس؛ ساكن الهوى، فمن غلب عليه الهوى في علمه: لا يُؤمن أن ينتصر للباطل إذا حُوجج فيه؛ ويخذل الحقَّ إذا ظهر مع خصمه.

فمن اجتمعت فيه هذه الخصال من عُلماء زمانكم: فاغتنموه، وسَلُوه عن أمور دينكم، وقلِّدوه أحكام حوادثكم ونوازلكم.

واعلموا أنَّ مِثْلَ هذا العالِم يُسمَّى وارثًا، فإنَّه قد ورث الرَّسول ﷺ فيما قام به من العلم والعمل والخُلُق، فهُو نُور الأُمَّة؛ ومصباح العالَم، يُستضاء بنُوره؛ ويُهتدى بعلمه.

فصلٌ

ومتى رأيتم العالِم يعمل بخلاف ما يعلم[٣]؛ فيُخالف عملُه علمَه؛ ويقول

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يظهر».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «ويظهر».
(٣) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في التَّحذير من عُلماء السُّوء».

ما لا يفعل، أو يميل إلى الهوى في العلم، أو يُقلُّ الاكتراث بالسُّنَّة والنُّصوص؛ ويحتجُّ إلى الرَّأي والتَّقليد مع قُدرته على ذلك: فيُستدلُّ بأعماله بذلك على سُقوط منزلة النُّصوص من[١] قلبه، فيُستدلُّ بذلك على قلَّة دينه؛ أو سُوء عقيدته.

ومتى رأيتم العالم غير مُهتمٍّ بالأمر بالمعروف؛ غير مُكترثٍ بالنَّهي عن المُنكر، لا يُبالي إذا انتُهكت المحارم؛ ولا يتوجَّع قلبه لها؛ ولا يتأسَّف إذا عُصي الله في أرضه؛ ولا يغضب لله في مُخالفة أمره، ولا يحرص على الأمر بالمعروف؛ ويتألَّف النَّاس عليه بالمال والخُلق: فاتَّهِمُوه في علمه ودينه، واسْتَدِلُّوا بذلك على قسوة قلبه؛ والطَّبع عليه، فما أشبه هذا بعُلماء اليهود، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[٢]

الخطاب مع اليهود، وكذلك من عرف أمرًا وخالفه: أورثه ذلك القسوة، وبضدِّه؛ من عمل بما يعلم: أورثه ذلك الحكمة، والحُكْم[٣]: ميراث خُشوع القلب وصلاحه.

وإذا رأيتم العالم راغبًا في فُضول الدُّنيا؛ مُنازعًا لأهل المناصب في مناصبهم [٤٧/أ]، يأتي أبواب الظَّلمة لما يناله من ذلك أو يطمع فيه، إذا دخل مع الأُمراء يدخل معهم في أهوائهم، لا يُحسِّن الحَسَن عندهم؛ ولا يُقبِّح القبيح، ويأخذ معهم في الحكايات المُضحكات لبسطهم، ويأتي بالمُحاضرات والمُلح فيُمازحهم: فاتَّهِمُوه على علمه وعلى دينه؛ خُصوصًا إذا لم ينصر عندهم مظلومًا، ولا يعتني بقضاء حاجة مُضطرٍّ ملهوفٍ، فإنَّه من

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «عن».
(٢) سُورة البقرة: الآية ٧٤.
(٣) قال الرَّاغب الأصفهانيُّ في [مُفردات ألفاظ القُرآن الكريم: ص٢٤٩]: (والحُكْم أعمُّ من الحكمة، فكُلُّ حكمةٍ حُكْمٌ، وليس كُلُّ حُكْمٍ حكمةً).

القاسية قُلوبهم؛ المُعرضين عن ربِّهم، قلبه بعيدٌ من الآخرة؛ متعلِّقٌ بالدُّنيا، علمه دُكَّانه، ويتأكَّل ويرتزق؛ ولا يُعامل الله بعلمه إلا قليلًا، يسكت عن الحقِّ خشية سُقوط منزلته، ويُمالئ على الباطل طلبًا للرِّفعة، فما أبعد هذا عن الله وعن طريقه، علمه حُجةٌ عليه.

ومتى رأيتم العالم قليل الورع في كلامه، يتكلَّم مُجازفة؛ ويكذب أحيانًا، ويستعمل الهزل واللَّعب، ويذكر المُردان ويميل إليهم، أو رأيتموه قليل الورع في المأكل والمشرب؛ والمدخل والمخرج، لا يُبالي ما أكل - حلالًا كان أو حرامًا -: فاتَّهِمُوه على علمه وعلى دينه؛ ولا تُقلِّدوه أُموركم، واحذروه أن يسلبكم دينكم بتهوينه للأشياء الصَّعبة من الحرام والشُّبهات؛ يسرق بذلك عُقولكم فيستدرجكم من حيث لا تعلمون.

ومتى رأيتم العالم يقبل الهديَّة من المُستفتي؛ ويُفتيه على غرضه، ويدخل في التَّأويلات والشُّبهات؛ كمسألة الاستحلال[1] ومسألة الرِّبا والمُعاملة، ولا تجدونه مُتعفِّفًا في معيشته، ترونه طامعًا في أموال النَّاس، يُداخل القُضاة

---

(١) أخرج الطَّبرانيُّ في [مُسند الشَّاميِّين: الحديث رقم (١٣٦٩)- ٢/ ٢٩٣] عن أبي ثعلبة الخُشنيِّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**أوَّل دينكم نُبوَّةٌ ورحمةٌ، ثُمَّ خلافةٌ ورحمةٌ، ثُمَّ مُلْكٌ وجَبَرِيَّةٌ؛ يُستحلُّ فيها الحِرَ والحرير**».
قال ابن تيميَّة في [بيان الدَّليل على بُطلان التَّحليل: ص١٠٤] بعد أن أورد حديث أبي ثعلبة الخُشنيِّ رضي الله عنه: (يُريد استحلال الفروج من الحرام، والحِر - بكسر الحاء المهملة؛ وتخفيف الرَّاء المُهملة -: هُو الفرج. ويُشبه هذا والله أعلم: أن يكون أراد بذلك ظُهور استحلال المُحلِّل؛ واستحلال خلع اليمين؛ ونحو ذلك مِمَّا يُوجب استحلال الفُروج المُحرَّمة، فإنَّ الأُمَّة لم يستحلَّ أحدٌ منهم الزِّنا الصَّريح، ولم يُرد بالاستحلال مُجرَّد الفعل؛ فإنَّ هذا لم يزل موجودًا في النَّاس، ثُمَّ لفظ الاستحلال إنَّما يُستعمل في الأصل: فيمن اعتقد الشيء حلالًا، والواقع كذلك؛ فإنَّ هذا المُلك العضوض الذي كان بعد المُلك والجَبَرِيَّة: قد كان في أواخر عصر التَّابعين، وفي تلك الأزمان صار في أوَّل الأمر من يُفتي بنكاح المُحلِّل ونحوه، ولم يكن قبل ذلك الزَّمان من يُفتي بذلك أصلًا).

ليُولُّوه الولايات مع شرهه على الدُّنيا وقلَّة ورعه ومُبالاته بالحلال والحرام: فاتَّهِمُوه على علمه ودينه.

ومتى رأيتم عالمًا في عقله سخافةٌ؛ وفي نظره قُصورٌ، يضع الأشياء غالبًا في غير مواضعها: فاتَّهِمُوه على استنباطه وعلمه ورأيه؛ ولا تُقلِّدوه.

ومتى رأيتم العالم لا يُتمِّم صلاته المفروضة؛ ولا يطمئنُّ في رُكوعها وسُجودها، ولا يحضر مع قراءته فيها بالخُشوع والحُضور والتَّدبير والتَّرتيل: فاتَّهِمُوه بقساوة القلب؛ وبُعده عن الرَّبِّ ﷻ.

ومتى وجدتم العالم لا مُعاملة له مع ربِّه ﷻ - تظهر عليه بهجتها وأنوارها وسكينتها - من تلاوةٍ وصيامٍ وقيامٍ: فاعلموا أنَّه قليل النَّصيب من ثمرة العلم - إذ ثمرة العمل المُعاملة -، وقليل النَّصيب من المحبَّة والخشية، و﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ [٤٧/ب] عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١).

ومتى رأيتم العالم هواه غالبٌ على عقله، ينتصر لنفسه في الباطل؛ ويخذل غيره في الحقِّ: فاتَّهِمُوه على علمه، ولا تُقلِّدوه حتَّى تظهر لكم الحُجَّة الصَّحيحة على فُتياه، وبالله التَّوفيق والمُستعان، وهُو أعلم.

فصلٌ

وأمَّا ميزان استقامة طريق شيخ السُّلوك(٢): فهُو أن يكون عالمًا بأمر الله ونهيه؛ ممَّا يلزمه علمه والعمل به؛ دُون علم النِّكاح والطَّلاق واللِّعان وغيره من الأحكام العامَّة.

فإن اتَّسع لذلك: كان أكمل لمرتبته؛ وأعلى لحاله، وأن يكون عاملًا

(١) سُورة فاطر: الآية ٢٨.
(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في شُروط شيخ السُّلوك».

بعلمه؛ واقفًا عند حُدوده، ليس للشَّريعة عليه مُطالبةٌ لا في ظاهره ولا في باطنه.

قد أَحْكَم شيئَيْن[١]؛ هُما رُكنا الطَّريق، وعليهما تُبتنى قواعدُه:

الأوَّل: التَّقوى، والتَّقوى: هُو معنى عامٌّ في كُلِّ قولٍ وفعلٍ وخاطرٍ، قد أَحْكَم هذا الأُستاذ تقوى الله تعالى في لسانه؛ فلا يتكلَّم بما حرَّمه العلم أو كرهه، واتَّقى الله تعالى في عينيْه؛ فلا ينظر إلى ما حرَّمه العلم أو كرهه، واتَّقى الله تعالى في سمعه؛ فلا يسمع ما لا يُحبُّه الله ولا ما يكرهه، واتَّقى الله تعالى في بطنه؛ فلا يدخله من الطَّعام إلا ما أحلَّه العلم ويجتنب ما حرَّمه العلم أو كرهه، واتَّقى الله تعالى في يديه ورجليه؛ فلا ينقلهما ولا يُحرِّكهما إلا إلى ما يُحبُّ الله ويرضاه ولا ينقلهما إلى لهوٍ ولعبٍ وباطلٍ.

وفي الجملة: فلا يُحرِّك جوارحه إلا فيما يرجو ثواب الله عليه؛ وفيما يأمن فيه عقابه؛ بمُقتضى العلم وحده.

ثُمَّ يَصِلُ[٢] تقواه من ظاهره إلى باطنه، فيتَّقي الله تعالى في الخطرات والوساوس والهمم والعزائم والقُصُود[٣]؛ حتَّى يحرس قلبه من جميع ما حرَّمه الله وكرهه؛ كما حرس جوارحه، فإنَّ الخطرة من الشَّرِّ إذا أهملها صاحبها: صارت وَسْوَسَة، بمعنى: أنَّها تتردَّد وتتكرَّر، فإن حفظها قبل أن تصير وَسْواسًا: اندفعت وصلح القلب، وذهب أثرها عنه، وإن تُركت: صارت وَسْواسًا، فيصعب دفعها في حال الوَسْواس أكثر من صُعوبته في حال الخطرة، ثُمَّ إن دفعت الوَسْوَسَة: ذهب أثرها وصلح القلب وطهر من لَوْثِها، وإن تُركت صارت الوَسْوَسَة هَمَّة؛ فيكون دفعها أصعب، فإن دُفعت الهَمَّة اندفعت؛ وإلا

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «شيئان».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «تصل».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «المقصود».

صارت عزمًا، فيكون دفع العزم أصعب وأصعب وأصعب، فإن دُفع[(١)] وإلا صار قصدًا، فيكون دفعه أصعب، فإنْ دُفع[(٢)] وإلا صار عملًا ظاهرًا بالجوارح، فيعصي العبد بذلك ربَّه.

فهذه قاعدةٌ عظيمة النَّفع، من عرفها وكابد نفسه فيها: استقام باطنه [٤٨/أ]؛ واستقام ظاهره لاستقامة باطنه، فإنَّ القلب إذا صلح: صلح الجسد كُلُّه.

وبهذا يعرف الإنسان كيف تنشأ المعاصي؟ فجميع المعاصي والطَّاعات هكذا تنشأ؛ مبدؤها[(٣)] من الخواطر.

فلا يزال هذا الشَّيخ يتَّقي الله في ظاهره وباطنه حتَّى يملك ظاهره بالمُحاسبة؛ ويملك باطنه بالمُراقبة، فيصير القلب كالكوكب الدُّرِّيِّ في أُفق السَّماء؛ تتلألأ فيه الأنوار بمُشاهدة الأذكار.

ومتى لم يكن الشَّيخ بهذه المثابة: فلا[(٤)] يصلح للمشيخة، لأنه يُريد أن يأخذ المُريد في هذه الطَّريقة؛ وهُو لم يُحكمها ولم يُحقِّق عملها، فكيف يقدر على أن يَسُوس المُريد فيها؟

الرُّكن الثَّاني من أركان الطَّريق: بعد تحقيق التَّقوى؛ يكون الشَّيخ المذكور قد حقَّق الزُّهد في الدُّنيا، فتكون نفسه ساكنة غير مُتحرِّكةٍ إلى طلب الدُّنيا من مالها وجاهها، ففي النَّاس من يكون ساكنًا عن طلب المال؛ مُتحرِّكًا في طلب العُلوِّ والرِّفعة والاستتباع، يُحبُّ أن يطأ عقبَه النَّاسُ، وينكسر إذا لم ير وراءه أحدًا، فهذا طالب رئاسةٍ؛ وهي من أعلى مطالب الدُّنيا، فقد يبذل المال لطلب الرِّئاسة، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «أدفع».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «أدفع».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «مبدأ».
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «لا».

﴿ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١).

ومن لم يتحقَّق التَّقوى والزُّهد في فُضول الدُّنيا من مالها وجاهها: كيف يلج قلبه ملكوت السَّماء؟ وكيف يذوق الحُبَّ الخالص المُلهب للأرواح؟ هذا مُستحيلٌ.

ومن لم يلج قلبه ملكوت السَّماء؛ ومن لم يُكاشف بالمحبَّة الخالصة: كيف يصلح للمشيخة؛ وهُو يُريد أن يأخذ المُريدين في طريقها ولم يبلغها هُو؟

فصلٌ

ومن شرط شيخ السُّلوك: أن يكون مُتعفِّفًا؛ غير طامعٍ في فُتوح النَّاس، وإن كان ذا سببٍ: كان أكمل بحاله.

وأن لا يقبل الفُتوح من كُلِّ أحدٍ؛ ولا يأكل طعام كُلِّ أحدٍ، ولا يأكل إلا طعام من يقصد الله تعالى بإنفاقه، ولا يكون لما أنفقه في قلبه منزلة، بل يراه قليلًا، ويرى نفسه بإنفاقه قليلة حقيرة، ولا يرى بإنفاقه لنفسه منزلة وفضلًا على الفقير الذي أطعمه؛ ويرى الفضل لمن أكله، يشكره على أكله؛ ويعتذر إليه من تقليله وتهجُّمه(٢)

والفقير لا يقبل؛ إلا لقلب هذا العبد الصَّالح، ويرى منَّة الله تعالى عليه؛ لسياقه هذا الرِّزق إليه، فكُلٌّ منهما قد يُثاب على إنفاقه وبذله، وهذا يُثاب على قبوله وتناوله، إذ كُلٌّ منهما له فيما عمله قصدٌ صالحٌ؛ وعملٌ صالحٌ.

ولا يأكل الفقير طعام أهل النُّفوس الحارَّة؛ العاميَّة طباعهم؛ الثَّقيلة أنفاسهم، الذين يذكرون ما [٤٨/ب] أنفقوا، ويمنُّون بلسان حالهم وإن لم

(١) سُورة القصص: الآية ٨٣.
(٢) أي: تَقَوُّضُه وتَنَقُّصُه.

يقولوا بألسنتهم؛ وإن كانوا عبادًا صُلحاء؛ فإنَّهم أهل نُفوسٍ تثقل نُفوسهم في طعامهم، فمثل طعام هؤلاء سُمٌّ يُضرُّ القُلوب ويُوهنها، بل رُبَّما كان أكل الشُّبه ممَّن عنده أهليَّةٌ ورياضةٌ أقلَّ ضررًا من الحلال؛ إذا كان الباذل له صاحب نفسٍ ثقيلةٍ، ولهذا قال أحمد بن حنبلٍ ﷺ: (جوائز السُّلطان: أحبُّ إليَّ من صلة الإخوان)(١).

فقد تعارض في هذا: الشُّبه والمنَّة، فاختار الشُّبه لما له فيها من الحقِّ في بيت المال؛ على المنَّة التي تُضرُّ القُلوب وتُشغلها.

وهذا من دقائق عُلوم أهل الله وخاصَّته؛ والصَّفوة من عباده.

ومن شرط شيخ السُّلوك: أن يكون قلبه مُتَّصلًا بالله تعالى؛ وأنفاسه محفوظة مع الله ﷻ، قد أشهده الله تعالى مشاهد الإلهيَّة؛ ومشاهد الرُّبوبيَّة؛ ومشاهد الجمع، وحقَّقه بمشهد الفردانيَّة، وعمَّر وُجوده بأنواره، وصار له نصيبٌ من القُرْب الخاصِّ والمحبَّة الخاصَّة.

وأوقفه الله تعالى على الفرق بين دقائق التَّوحيد ودقائق الاتِّحاد، وعرف المداخل والمخارج؛ والقوادح والقواطع؛ والنِّهايات والحقائق، والتهب باطنه بالمحبَّة الخاصَّة من أنوار الله المخزونة.

فإذا عرفه المُريد: أوقفه على مقامٍ مقامٍ؛ وسار به إلى موطنٍ موطنٍ، بشرط المُوافقة من المُريد؛ وحُسن الاعتقاد؛ وترك الاختيار؛ وحُسن الانقياد والاستسلام.

---

(١) قال ابن تيميَّة في [جواب سُؤالٍ عن أُجرة الحجَّام: هل هي حرامٌ؟ (رسالةٌ مُودعةٌ في مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيميَّة): ٣٠/ ١٩٣]: (قال أحمد: أُجرة التَّعليم خيرٌ من جوائز السُّلطان، وجوائز السُّلطان خيرٌ من صلة الإخوان)، وحكاه عنه تلميذه ابن مُفلح في [الفُروع: ٤/ ٣١٦].
وذكر ابن عبد البرِّ في [التَّمهيد: ٤/ ١١٦]؛ و[الاستذكار: ٢٧/ ٤٢٠]: عن سُفيان الثَّوريِّ قوله: (جوائز السُّلطان: أحبُّ إليَّ من صلة الإخوان، لأنَّهم لا يمنُّون؛ والإخوان يمنُّون).

فيتخلَّص المُريد بصُحبته من حُجب النُّفوس الكثيفة؛ ثُمَّ من حُجبها اللَّطيفة؛ ثُمَّ من حُجب القُلوب وأنوارها، فيتخلَّص إلى فضاء الوُجدان؛ ومُباشرة الرُّوح صريح الفُتوح، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

فصلٌ

وإذا رأيتم شيخ السُّلوك جاهلًا بأمر الله ونهيه[2]؛ لا فقه عنده فيما يخصُّه من دين الله، ولا يسأل العُلماء إذا نابته نائبةٌ، أو يكون عالمًا مُخالفًا لعلمه؛ مُفَرِّطًا في عمله، لم يحكم أساسه على التَّقوى والزُّهد، يُحبُّ الدُّنيا والمال والمناصب، يُداهن العامَّة لحفظ منصبه، لا يأمرهم بمعروفٍ ولا ينهاهم عن مُنكرٍ، يتملَّقهم بالكلام والطَّعام ليُحبُّوه، يتقرَّب إلى أبناء الدُّنيا ويُكرمهم لينال فُتوحهم، يُجالس غير أبناء جنسه، أو تجري على لسانه الغيبة والنَّميمة والكذب والفُضول والهذيان والهزليَّات والمُضحكات، أو يتباهى بالنَّظر إلى الصُّور الملاح؛ ولا يُبالي بصُحبة الأحداث ومعاشرتهم، أو يحضر [٤٩/أ] السَّماعات فيسمع المكروهات من الدُّفوف والشَّبابات[3]؛ أو يرقص على التَّصفيق والتَّوقيع[4] في هذه الاجتماعات، أو لا يُبالي بما يأكله من الشُّبهات: فمثل هذا يكون بعيدًا عن حفظ الخطرات؛ بين يدي قيُّوم السَّماوات وعالم

(١) سُورة الحديد: الآية ٢١، سُورة الجُمعة: الآية ٤.
(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في الشَّيخ الباطل المُفسد».
(٣) أي: التَّشبيب، وهو ذكر أيَّام الشَّباب واللَّهو والغزل في ابتداء القصائد، سُمِّي بذلك: لما فيه من ذكر الشَّباب. ويُطلق التَّشبيب ويُراد به: ذكر التَّغزُّل بالنِّساء، وهو من تشبيب النَّار وتأريثها.
(٤) أي: الإيقاع، وهو ألحان الغناء، وهو أن يُوقع الألحان ويبينها تبيينًا.

الخفيَّات، ويكون محجوب القلب عن الأحوال والكرامات.

فإنَّ مَنْ خلَّط في الجوارح الظَّاهرة؛ وأهمل المُراعاة القلبيَّة الباطنة: كيف يتحقَّق بدعوى الحال؛ وعملُه قد أبان عمَّا به عن الصِّدق حال؟

ومن أين لمثل هذا الإحاطة بالمشاهد الرَّبَّانيَّة؟ وكيف يعرف هذا: الجمع والفرق؛ والسُّكر والصَّحو؛ والفناء والبقاء؛ والانفصال والاتِّصال[١]؟ وهُو في عُبوديَّة النَّفس الأمَّارة لم ينفصل عنها! ولم يُحْكِم سياسة الشَّرع عليها! ولم يُذْعِن قلبه للشَّرع ولا لأحكامه! فمثل هذا يُتَّهم في سُلوكه، وصُحبته تُقسِّي القلب وتُفسد الوقت.

ونعوذ بالله ممَّن يكون ممقوتًا بدعوى الحال، فينقلب سواد وجهه إلى الآخرة في المآل.

فصلٌ

وأمَّا ميزان شيخ الفُقراء؛ وعلامة استقامته في طريقته: أن يكون فقيهًا فيما يخصُّه من أمر دينه، يعلم فرائض الوُضوء وسُننها؛ وفرائض الصَّلاة وسُننها؛ وأحكام الماء الطَّاهر والنَّجس؛ وغير ذلك ممَّا يخصُّه.

عالمًا بالواجبات والمندوبات والمُستحبَّات؛ عاملًا بأحكام علمه، مُتَّبعًا لسُنَّة رسول الله ﷺ في هديه وطريقته.

يأمر بالمعروف؛ وينهى عن المُنكر، يُحلُّ ما أحلَّه الله؛ ويُحرِّم ما حرَّمه؛ ويكره ما كرهه.

قد طالع كُتب الحديث؛ ومرَّ على الصِّحاح السِّتَّة[٢] سماعًا، فاكتسب قلبه

(١) قال ابن قيِّم الجوزيَّة في [مدارج السَّالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين: ٤/ ٤٠٥]: (وبمثل هذه المُجملات: دخل على أصحاب السُّلوك والإرادة ما دخل).

(٢) وُصفت بالصِّحاح السِّتَّة تغليبًا، وهي صحيح البُخاريّ؛ وصحيح مُسلم؛ وسُنن أبي =

من المُرور عليها: التَّخلُّص من الكيفيَّة الجاهليَّة؛ والتَّكيُّف بالمُحمَّديَّة، وأن يكون مُحبًّا لرسول الله ﷺ، يهتزُّ قلبه عند ذكره: أكثر ممَّا يهتزُّ عند ذكر شيخه.

يأمر بالمعروف وينهى عن المُنكر، يضرب أصحابه إذا اجتمعوا بالنِّساء الأجانب أو وَاخَوْهُنَّ؛ أو اتَّخذوا الصَّبيَّ أخًا وهُو الذي يُسمُّونه الحَوَار[1]، ويُعرِّفهم أنَّ الأُنس بالنِّساء الأجانب والصِّبيان: ليس من طريقة الرَّحمن؛ إنَّما هُو من طريقة الشَّيطان، والسَّبب المُوجب لذلك: هيجان شهوة النِّكاح، ويُعرِّفهم أنَّ النَّظر إليهم: زنا العين، «**إنَّ العين لتزني، وإنَّ اليد لتزني، وإنَّ اللِّسان ليزني، والفرج يُصدِّق ذلك ويُكذِّبه**»[2]

والشَّيخ إذا كان مُتَّبعًا [٤٩/أ] لله ولرسوله: يعلم ذلك، فيتَّبع قول الله ﷻ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[3]

فإذا كان الشَّيخ مُخالفًا لله؛ ولا ينهى أصحابه عن مُخالفة الله ﷻ: كيف يكون اتِّباعه والاجتماع به؟

= داود؛ وجامع التِّرمذيِّ؛ وسُنن النَّسائيِّ؛ وسُنن ابن ماجه.

(١) أي: الحَوَارِيِّ، وهُو الحميم الخاصُّ؛ والنَّاصح الخالص.
قُلتُ: كلمة (الحَوَار) هي لكلمة (الحُوْر): أقرب في اشتقاقها اللُّغويِّ؛ وألصق في معناها الشَّرعيِّ: منها لكلمة (الحواريِّ)، ومنه قول العرب: (ذهب فُلانٌ في الحَوَار والبَوار)، أي: الفساد والكساد.

(٢) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الاستئذان/ باب زنا الجوارح دُون الفرج- الحديث رقم (٦٢٤٣)- ٤/ ١٩٦٤-١٩٦٥]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب القدر/ باب قُدِّر على ابن آدم حظُّه من الزِّنا وغيره- الحديث رقم (٢٦٥٧)- ٤/ ٢٠٤٦-٢٠٤٧]، ولفظ البُخاريِّ: (عن ابن عبَّاسٍ قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللَّمم ممَّا قال أبوهُريرة عن النَّبيِّ ﷺ: إنَّ الله كتب على ابن آدم حظَّه من الزِّنا؛ أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين: النَّظر، وزنا اللِّسان: المنطق، والنَّفس تمنَّى وتشتهي، والفرج يُصدِّق ذلك كُلَّه أو يُكذِّبه).

(٣) سُورة النُّور: الآية ٣٠.

ومن شرط مشايخ الفُقراء: أن يكون قد صحَّح التَّوبة في بدايته، وصحَّح مقام الورع ومقام الزُّهد ومقام المُحاسبة والرِّعاية، ودخل في ميدان الخوف والرَّجاء، فحينئذٍ يحقُّ له أن يدخل في مقام الفُقراء، فلا يصحُّ الفقر إلا لمن صحَّح هذه المقامات قبله، وهي عبارةٌ عن الفقر عمَّا سوى الله.

ثُمَّ يدخل بعدها إلى مقام الغنى بالله، وهُو مقام الشُّكر، ثُمَّ ينتقل إلى مقام التَّوكُّل فيُصحِّحه، ثُمَّ إلى مقام الرِّضا فيُصحِّحه، ثُمَّ إلى مقام المحبَّة والمكاشفة، فحينئذٍ تصحُّ له مشيخة الفقر، وأن يكون داعيًا إلى طريقة الفقر.

ومن شرط الشَّيخ: أن يتشبَّه بأصحاب رسول الله ﷺ، ويجتهد هُو وأصحابه على اتِّباع طريقهم والعمل بعملهم[١].

والذي يتَّبع رسول الله ﷺ: لا يعمل السَّماع ولا يرقص فيه، ولا يدع أصحابه ينزلون النَّار ولا يُمسكون الحيَّات، فإنَّ الصَّحابة كانوا أفضل النَّاس؛ وأعلم النَّاس؛ وأقرب النَّاس إلى الله، ورسوله سيِّد الأوَّلين والآخرين بين أظهرهم؛ وهُو معلِّمهم ومُؤدِّبهم، والوحي من عند الله مع جبريل ينزل عليهم، فهُم أفضل الخلق وسادات النَّاس.

بلغكم معاشر العُقلاء: أنَّهم عملوا سماعًا؟

أم قطُّ بلغكم أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيق؛ أو عُمر بن الخطَّاب؛ أو عُثمان بن عفَّانٍ؛ أو عليَّ بن أبي طالبٍ: رقصوا في الطَّابق[٢] أو داروا؟

أم هل بلغكم أنَّ بلالًا الحبشيَّ أو غيره: غنَّى لهم بالكفِّ أو الدُّفِّ؟

---

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في أحوال الصَّحابة رضوان الله عليهم أجمعين».

(٢) أي: الطَّبَق - بكسْر الطَّاء -: وهُو الجماعة من النَّاس.

أم هل بلغكم: أنَّه كان فيهم مُوَلَّهون(١) مُكشِّفوا(٢) الرُّؤوس، لهم شَغَفٌ؟

أم هل بلغكم: أنَّهم كانوا يدورون من قريةٍ إلى قريةٍ بأكياس الحيَّات؛ ويتَّخذون الحَوَار؟

أم هل بلغكم: أنَّه كان لهم الشَّخْرَة والنُّخْرَة(٣)؟

يا قوم: انتبهوا، يا قوم: اعقلوا، يا قوم: ارجعوا إلى الله، فإذا كان أصحاب رسول الله ﷺ ما اتَّبعتم!

وكذلك التَّابعين ما اتَّبعتم! لأنَّه قطُّ ما بلغنا أنَّهم كانوا يعملون من ذلك شيئًا، بل كان طريقهم: طريق الصَّحابة؛ وعملهم: عملهم.

وكذلك تابعي التَّابعين ما اتَّبعتم! لأنَّهم قطُّ ما بلغنا أنَّهم عملوا هذه الأشياء.

فليت شعري؛ لمن اتَّبعتم؟ أم بمن اقتديتم؟ لم يظهر بعد مُحمَّدٍ ﷺ نبيٌّ [٥٠/أ] آخر جاء بشريعةٍ أُخرى، كان مُحمَّدٌ ﷺ خاتمَ النَّبيِّين.

فليت شعري؛ من أين جاءت هذه الشَّريعة الرَّابعة(٤)؟ ومن الذي أظهرها ودعا النَّاس إليها فأضلَّهم بها؟

---

(١) أي: جَمْعُ مُوَلَّهٍ، وهُو من اشتدَّ وَجْدُه؛ فأصابه الحُزْن والجَزع.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «مُكشِّفين».

(٣) الشَّخير: رفع الصَّوت بالنَّخير، فالشَّخْرَة: صوت الفم، والنُّخْرَة: صوت الأنف.
أخرج أحمد في مُسنده [الحديث رقم (١٧٤٠)- ٣/ ٢٦٣-٢٦٨] من حديث أُمِّ سلمة رضي الله عنها في نُزولهم أرض الحبشة، وقولها حكاية عن النَّجاشيِّ: (ما تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبيُّنا، هُو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قالت: فضرب النَّجاشيُّ يده إلى الأرض فأخذ منها عودًا ثُمَّ قال: ما عدا عيسى بن مريم ما قُلتَ هذا العود. فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال. فقال: وإن نخرتم).

(٤) أي: هل جاءت شريعةٌ رابعةٌ؛ بعد الشَّرائع السَّماويَّة الثَّلاث: التَّوراة؛ والإنجيل؛ والقُرآن؟

يا شُؤم حالنا؛ يا فضيحتنا مع الله تعالى إن لم يتب علينا، يا سُوء حالنا إن لقينا الله تعالى ونحن مُصرُّون على هذه البدع، يا سواد وُجوهنا إن لقينا الله ونحن على هذا الحال.

ومن شرط شيخ الفُقراء: أن لا يدخل على الأمراء أو الظَّلمة لينال صدقاتهم ومبرَّاتهم، ولا يأكل من طعامهم، فإنَّ الجسم إذا نبت من حرامٍ: فالنَّار أولى به.

وأن يأمر الفُقراء بكتمان الحال والوَجْد، وقد رأيتم من يصرخ في السَّماع؛ ويرقص ويضطرب، كأنَّه يقول للنَّاس: يا معاشر النَّاس؛ اعرفوني اعرفوني، فإنِّي وليُّ الله؛ وأنا صاحب حالٍ، أعطوني أعطوني، يا صبايا؛ يا صبيان: أنا رجلٌ صالحٌ، وَاخُونِي؛ وَاخُونِي، تقرَّبوا منِّي حتَّى أُعطيكم حالي؛ حتَّى ينالكم منِّي نصيبٌ.

معاشر العُقلاء: مثل هذا ينطلي؟! إلا على أحمق قليل العقل! جاهلٍ بأمر الله تعالى ورسوله! بعيدٍ عن معرفة الإسلام وأهله! أعمى عن معرفة الصَّادقين؛ والتَّمييز بينهم وبين الكاذبين!

بَعُدْنَا عن الله؛ وقلَّت عُقولنا؛ حتَّى صار مثل هؤلاء البُغضاء البُعداء إخوان الشَّياطين: يدخلون منازلنا؛ ويأكلون طعامنا؛ ويتمتَّعون بصبياننا ونسائنا؛ بحُجَّة سيِّدي فلان؛ وسيِّدي فلان؛ وسيِّدي فلان.

أما آن لنا أن تصحو عقولنا؛ وتنفتح عُيوننا؛ ونقف على زَوْكَرَة هؤلاء؛ ونعلم أنَّهم مُتأكِّلةٌ؟ يأكلون النَّاس، ويتفرَّخون[1] على نسائهم وصبيانهم.

حيرةً؛ يا سُبحان الله، قطُّ ما سمعنا طريقة السَّلف الصَّالحين الذين كانوا بعد الصَّحابة وبعد التَّابعين؛ مثل: الفُضيل بن عياضٍ؛ وإبراهيم بن أدهم؛

(١) أي: يتكشَّفون، وأصل الإفراخ: الانكشاف.

ووُهَيْب[١] بن الورد؛ ووهب بن مُنبِّهٍ؛ وحُذيفة المرعشيِّ؛ وسُفيان الثَّوريِّ، ومن جاء بعدهم مثل: ذي النُّون المصريِّ؛ وشقيقٍ البلخيِّ؛ وحاتمٍ الأصمِّ؛ وسهلٍ التَّستريِّ؛ ومعروفٍ الكرخيِّ؛ وسريٍّ السَّقطيِّ؛ وأبي القاسم الجُنيد؛ وغيرهم؛ وغيرهم، قطُّ[٢] يا مُسلمون: عملوا هذه الأعمال؟ أم قطُّ اتَّصفوا بهذه الصِّفات؟

كانوا قومًا مستورين[٣]، صادقين مع ربِّهم، يُحقِّقون أعمالهم، ويخافون ربَّهم، ويغضُّون أبصارهم، ويستمعون إلى القُرآن: هُو سماعهم، شغلهم الصِّيام والقيام؛ والذِّكر على الدَّوام؛ والخوف المُحرق للأكباد، ينتظرون الآخرة والقُدوم على الله، قد تهيَّؤوا للموت والقبر والحساب والميزان والصِّراط، يخافون النَّار؛ ويرجون رحمة الله، مُتَّبعين رسول الله ﷺ، يقرؤون كتاب ربِّهم وسُنَّة نبيِّهم، مُشتغلين بالصِّدق [٥٠/ب] مع مولاهم.

معاشر العُقلاء: أفلا تنتبهون وتستيقظون[٤]؟! أفكان هؤلاء يُشبهون هؤلاء؛ أو قريبًا منهم؟! كلا.

والله؛ ثُمَّ والله؛ لقد ضلَّ هؤلاء الزَّواكرة ضلالًا بعيدًا؛ وتاهوا في تِيه الضَّلال والانحراف، بَعُدُوا عن الله؛ وعن أمره؛ وعن المُروءة، فيا ليتهم يأكلون الدُّنيا بالدِّين، بل يأكلونها بالمُحَال[٥] والزَّوكرة، يستخفُّون العامَّة والجُهَّال والنِّساء، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[٦].

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «وهب».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «فقط».
(٣) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: مشايخ عظام».
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «ويستيقظون».
(٥) أي: الباطل.
(٦) سُورة الزُّخرف: الآية ٥٤.

فعليكم معاشر العُقلاء: بمُجانبة هؤلاء والبُعد عنهم والمقت لهم، فإنَّهم ممقوتون، يمقتهم الله من فوق عرشه؛ لمُخالفتهم أمره وارتكابهم نهيه.

واعلموا أنَّ إيمانهم ليس بطائلٍ[(١)]؛ لغلبة النِّفاق على قُلوبهم.

أشهد بالله الذي لا إله إلا هو؛ لو رآهم رسول الله ﷺ؛ أو أبوبكرٍ وعُمر وعُثمان وعليٌّ؛ أو أُمراء الصَّحابة؛ أو أُمراء بني أُميَّة - وهُم على هذا الحال - قومٌ مُكشَّفة رُؤوسهم، يزبدون ويشخرون، وينقرون الصَّلاة إذا صلُّوا، ويهربون من القُرآن إذا سمعوه، فإذا دخلوا في السَّماع طَرِبُوا ورقصوا يومًا إلى اللَّيل، معهم أكياس الحيَّات، يُخرجون للنَّاس اللاذَن[(٢)] والزَّعفران، ويُوَاخُون النِّسوان والمُردان، ويأكلون الحرام، أيُّ شيءٍ جاءهم أكلوه، لا يقولون: هذا حلالٌ؛ ولا: هذا حرامٌ، همَّتهم بُطونهم؛ أو مليح أو مليحة، يَخْنُقُون[(٣)] عليهم، فهُم عبيد بُطونهم وفُروجهم، يرقصون ويأكلون ويُشاهدون وينامون؛ ويدَّعون أنَّهم أهل القطع والوصل والتَّصرُّف؛ وأنَّهم أولياء الله، كذبوا على الله؛ وابتدعوا في دين الله؛ ما لم يأذن به الله.

أشهد بالله؛ لو رأوهم على هذا الحال: لدعوهم إلى الله، فلو امتنعوا لجاهدوهم بالسِّيوف؛ لأنَّهم ظهروا[(٤)] بشعارٍ مُحْدَثٍ مُبْتَدَعٍ لم ينزل من السَّماء على رسول الله ﷺ.

وفي بعض هذا الوصف كفايةٌ، ومن لم يكفه هذا من الكلام: لا ينفعه التَّطويل.

---

(١) أي: ليس بنافعٍ.
(٢) قال ابن منظورٍ في [لسان العرب: ١٣/ ٣٨٥]: (اللَّاذَنُ واللَّاذَنَةُ: من العُلُوك. وقيل: هُو دواءٌ بالفارسيَّة. وقيل: هُو نَدىً يسقُط على الغنم في بعض جزائر البحر).
(٣) أي: يُضيِّقون.
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «طهروا».

ومُصنِّف هذه الأحرف: أعرف النَّاس بهم، قال: كان أبوه من بعض شُيوخهم؛ ورُبِّي بينهم، ثُمَّ أنقذه الله تعالى بكرمه منهم إلى طريق الحقِّ والسُّنَّة، فهُو المحمود المشكور على ذلك.

فصلٌ

معاشر الإخوان: اجتنبوا هذا الصِّنف من النَّاس، فإنَّهم دجَّالون كذَّابون، وعليكم بصُحبة المشايخ والفُقراء أهل الطَّريقة، الذين يعرفون دين الله وطريقة رسوله ﷺ ومنهاج أولياء الله.

الذين يعرفون [٥١/أ] تفاصيل الأمر والنَّهي(١)، ويفهمون عن الله كلامه، ويستمعون إليه في أمره ونهيه؛ ووعده ووعيده؛ وقصصه وأخباره، ويُكاشفون في القُرآن بمعنى الصِّفات المُقدَّسة من الهيبة والجلال والإكرام؛ والفضل والإنعام.

الذين يَدْعُون الخلق إلى محبَّة الله ﷻ والقُرْب منه؛ وإخلاص العمل له؛ والتَّوكُّل عليه؛ والتَّفويض إليه، واتِّباع السُّنَّة المُحمَّديَّة في الأقوال والأفعال والسُّنن والآداب.

تكتسبون بصُحبتهم: الخوف من الله ﷻ والرَّجاء، والمحبَّة له؛ والمحبَّة لدينه، فتمتلئ قُلوبكم من عظمة الله ومهابته والحياء منه والخشية له.

أُولئك المشايخ والفُقراء: هُم أولياء الله وحُجَّته على خلقه؛ وأُمناؤه بين عباده، يدعون إلى معرفته ومحبَّته والقُرْب منه، فتُفلحوا بصُحبتهم كُلَّ الفلاح إن شاء الله تعالى، وتتَّصل ظواهركم بسُنَّة رسوله ﷺ اتِّصالًا لا انفصال له، وهذا هُو حقيقة الفقر.

---

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: نِعْم الوصيَّة؛ بشرح الوصيَّة».

إذا سألكم سائلٌ ما الفقر؟ فقُولوا له: اتِّصال الظَّاهر بالسُّنَّة اتِّصالًا لا انفصال له، واتِّصال القلب بالله ﷻ اتِّصالًا لا انفصال له.

ونسأل الله الكريم أن لا يجعلنا ممَّن يُكذِّب عِلمُه عَملَه؛ ويُخالف قولُه فعلَه، قال الله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1]

وأن يُوفِّقنا وإيَّاكم إلى المحجَّة البيضاء، إنَّه قيُّوم الأرض والسَّماء.

فصلٌ

ومن علامات صحَّة طريقة شيخ الفُقراء: أن يكون خاشعًا في الصَّلاة الفريضة، يُكمل هُو وأصحابه الرُّكوع والسُّجود، ويَجِد هُو وأصحابه لذَّة الصَّلاة والتَّنعُّم بها، وأن يجد لذَّة سماع القُرآن هُو وأصحابه.

وأن يُحبُّوا الفُقهاء ويُجالسوهم ويسألوهم عن أمور دينهم.

وأن يعتقدوا أنَّ الحقيقة يجب أن تكون مُوافقة الشَّريعة، وكُلُّ حقيقةٍ لا تُوافق[2] الشَّريعة: فهي زندقةٌ.

وكُلُّ من ادَّعى أنَّ الحقيقة شيءٌ والشَّريعة شيءٌ؛ وأنَّ صاحب الحقيقة قد صار حُرًّا ولا يحتاج إلى الشَّريعة ولا إلى العُبوديَّة: فهُو زنديقٌ ضالٌّ مُضِلٌّ، يجب أن يُستتاب كما يُستتاب المُرتدُّ، فإن تاب وإلا ضُربت عُنقه.

وأن يكون الشَّيخ أورع النَّاس، وكُلُّ من ادَّعى أنَّ صاحب الحال لا يضرُّه الحرام: فهُو مُبتدعٌ ضالٌّ، فلا حال أكمل من حال الصِّدِّيق رضي الله عنه، شرب لبنًا ثُمَّ سأل عن أصله؟ فلم يرضه؛ فقام وتقيَّأه[3]

---

(١) سُورة الصَّفِّ: الآية ٣.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يوافق».

(٣) أخرجه أبونُعيمٍ الأصبهانيُّ في مُعرفة الصَّحابة [معرفة سنِّه ومولده وعلَّته ووفاته وغسله ودفنه وكفنه- رقم (١١٣)- ١/ ٣٤] عن زيد بن أسلم: (إنَّ أبا بكرٍ شرب لبنًا من =

وأكل أبوبكرٍ وعُمر ﷺ لحم جزورٍ؛ جزره الجزّار بعُشْرٍ منه ولم يعلما، فقاما فتقيّآه: رواه ابن إسحاق في السِّيرة(١).

= الصَّدقة - ولم يعلم -، ثُمَّ أُخبر به: فتقيَّأه).
وروى زيد بن أسلم نحوه عن عُمر بن الخطَّاب ﷺ، كما أخرجه مالكٌ في مُوطّئه [باب ما جاء في أخذ الصَّدقات والتَّشديد فيها- رقم (٧٠٤)- ١/ ٢٧٧]، ولفظه: (شرب عُمر بن الخطَّاب لبنًا فأعجبه، فسأل الذي سقاه: من أين لك هذا اللَّبن؟ فأخبره أنَّه ورد على ماء - قد سمَّاه؛ فإذا نَعَمٌ من نَعَم الصَّدقة - وهُم يسقون، فحلبوا لي من ألبانها في سقائي هذا. فأدخل عُمر أصبعه؛ فاستقاءه).
وأصحُّ شيءٍ في الباب: ما أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب مناقب الأنصار/ باب أيَّام الجاهليَّة- الحديث رقم (٣٨٤٢)- ٥/ ١١٧٣] عن عائشة ﷺ، ولفظه: (كان لأبي بكرٍ غُلامٌ يُخْرِج له الخَرَاج، وكان أبوبكرٍ يأكل من خَرَاجه، فجاء يومًا بشيءٍ فأكل منه أبوبكرٍ، فقال له الغُلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبوبكرٍ: وما هُو؟ قال: كُنتُ تكهَّنت لإنسانٍ في الجاهليَّة، وما أُحسن الكهانة؛ إلا أنِّي خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلتَ منه. فأدخل أبوبكرٍ يده؛ فقاء كُلَّ شيءٍ في بطنه).

(١) أخرج البيهقيُّ في دلائل النُّبوَّة [٤/ ٤٠٤-٤٠٥] من رواية ابن إسحاق عن عوف بن مالكٍ الأشجعيِّ ﷺ قال: (كُنتُ في الغزوة التي بعث فيها رسول الله ﷺ عمرو بن العاص - غزوة ذات السَّلاسل -، فصحبت أبا بكرٍ وعُمر، فمررت بقومٍ وهُم على جزورٍ قد نحروها؛ وهم لا يقدرون على أن يُعَضُّوها (أي: يُجزِّئوها)؛ وكُنتُ امرءًا جازرًا، فقُلتُ لهم: تُعطوني منها عَشيرًا (أي: نصيبًا، وذلك أنَّ الجزور كانت تُقسم على عشرة أجزاءٍ، فكُلُّ جزءٍ منها يُسمَّى: عشيرًا) على أن أقسمها بينكم؟ فقالوا: نعم. فأخذت الشَّفرتيْن فجزيتها مكاني، وأخذت منها جُزءًا فحملته إلى أصحابي، فأطعمنا وأكلنا، فقال أبوبكرٍ وعُمر: أنَّى لك هذا اللَّحم يا عوف؟ فأخبرتهما، فقالا: لا والله؛ ما أحسنت حين أطعمتنا هذا. ثُمَّ قاما يتقيَّآن ما في بُطونهما منه، فلمَّا قفل النَّاس من ذلك السَّفر: كُنتُ أوَّل قادم على رسول الله ﷺ، فجئته وهُو يُصلِّي في بيته، فقُلتُ: السَّلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. فقال: عوف بن مالكٍ؟ فقُلتُ: نعم؛ بأبي أنت وأُمِّي. فقال: صاحب الجزور؟ لم يزدني على ذلك شيئًا).
انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام ٤/ ٢٧٤، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثيرٍ ٤/ ٢٧٤، وفيها قوله: (هكذا رواه مُحمَّد بن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيبٍ عن عوفٍ بن مالكٍ، وهُو مُنقطعٌ؛ بل مُعضلٌ).

وفي الحديث: (أنَّ رسول [٥١/ب] الله ﷺ رأى في فم الحسن - أو الحُسين - تمرًا من تمر الصَّدقة - وُهُما دُون البُلوغ -، فأخرجها من فم أحدهما فقال: كِخْ؛ كِخْ، إنَّ الصَّدقة لا تحلُّ لمُحمَّدٍ؛ ولا لآل مُحمَّدٍ)(١).

فإذا كان مثل هؤلاء الكُمَّل يضرُّهم الحرام والشُّبهة: فما ظنُّك بأهل الدَّعوى والنَّقص؟

أعاذنا الله من سيِّئات الإجرام ومُوبقات الآثام، وحقَّقنا بالسُّنَّة واتِّباعها مدى الأيَّام.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم(٢).

---

(١) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الزَّكاة/ باب ما يُذكر في الصَّدقة للنَّبيِّ ﷺ- الحديث رقم (١٤٩١)- ٢/ ٤٤٥-٤٤٦]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب الزَّكاة/ باب تحريم الزَّكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله وهُم بنو هاشم وبنو المُطَّلب دُون غيرهم- الحديث رقم (١٠٦٩)- ٢/ ٧٥١] عن أبي هُريرة ﷺ، ولفظ البُخاريِّ: (أخذ الحسن بن عليٍّ ﷺ تمرة من تمر الصَّدقة؛ فجعلها في فيه، فقال النَّبيُّ ﷺ: كخ؛ كخ - ليطرحها -، ثُمَّ قال: أما شعرت أنَّا لا نأكل الصَّدقة؟).

(٢) كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في مدينة النَّبيِّ مُحمَّدٍ خير الأنام؛ عليه أفضل الصَّلاة وأزكى السَّلام، في يوم الخميس ١٨ صفر ١٤٣٣هـ؛ الموافق ١٢ يناير (كانون الثَّاني) ٢٠١٢م.

كتاب تَلْقِيح الأَسْرَارِ بِلَوَامِعِ الأَنْوَارِ لِلْعُلَمَاءِ الأَبْرَارِ

نفع الله به من تأمّله من عباده بفضله وامتنانه

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي نوَّر بصائر المُؤمنين بضياء الإيمان، وألهب أسرار المُوقنين بشهاب الإيقان، وأطلع على أرواح العارفين شمس العرفان، وجذب قُلوب المُحبِّين إلى أوطان القُرْب عن كُلِّ محبوبٍ من الأكوان، واصطنعهم لنفسه فعاشوا في قُرْبه في أرغد عيشٍ وأقدس مكانٍ، وأقامهم في عُبوديَّته بين خلقه وبريَّته يعمرون ما خَرِبَ من القُلوب والأديان، أولئك خُلفاؤه على عباده وورثة أنبيائه؛ فَبِهِم تقوم الأرض ويستنير الزَّمان.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الرَّبُّ العظيم المَلِك الدَّيَّان.

وأشهد أنَّ مُحمَّدًا عبده ورسوله سيِّد ولد آدم ونُخبة بني عدنان.

صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة إلى يوم العرض على الرَّحمن.

وبعد:

فإنَّه ورد في الحديث الصَّحيح عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**مثل ما بعثني الله به من الهُدى والعلم: كمَثَل الغيث الكثير أصاب أرضًا، وكانت طائفةٌ منها طيِّبةٌ قبلت الماء؛ فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير، وكانت منها طائفةٌ أجاذبُ أمسكت الماء؛ فنفع الله بها النَّاس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفةً أُخرى إنَّما هي قيعانٌ؛ لا تُمسك ماء ولا تُنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هُدى الله الذي أُرسلت به**»[١]

(١) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب العلم/ باب فضل من عَلِمَ وعَلَّم- الحديث رقم =

وقال ﷺ: «من دلَّ على خيرٍ: فله مِثْل أجر فاعله»(١).

وقال ﷺ: «من سنَّ [٥٢/أ] في الإسلام سُنَّة حسنة: فله أجرها وأجر من عمل بها؛ من غير أن ينقص من أُجورهم شيءٌ، ومن سنَّ في الإسلام سنَّة سيِّئة: كان عليه وزرها ووزر من عمل بها؛ من غير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ»(٢).

= (٧٩)- ١/ ٥٣]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب الفضائل/ باب بيان مَثَل ما بُعث به النَّبيُّ ﷺ من الهُدى والعلم- الحديث رقم (٢٢٨٢)- ٤/ ١٧٨٧-١٧٨٨] عن أبي مُوسى الأشعريِّ ﷺ، ولفظ مُسلم: «إنَّ مثل ما بعثني الله به ﷻ من الهُدى والعلم: كمَثَل غيثٍ أصاب أرضًا، فكانتْ منها طائفةٌ طيِّبةٌ قبلت الماء؛ فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير، وكان منها أجادبُ أمسكت الماء؛ فنفع الله بها النَّاس فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أُخرى إنَّما هي قيعانٌ؛ لا تُمسك ماء ولا تُنبت كلأً، فذلك مَثَل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به فعَلِم وعلَّم، ومَثَل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هُدى الله الذي أُرسلت به».

(١) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الإمارة/ باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوبٍ وغيره وخلافته في أهله بخيرٍ- الحديث رقم (١٨٩٣)- ٣/ ١٥٠٦] عن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ ﷺ، ولفظه: (جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: إنِّي أُبْدِعَ بي - أي: انْقُطِع بيِ لكَلال راحلَتي -؛ فاحملني. فقال: ما عندي. فقال رجلٌ: يا رسول الله؛ أنا أدلُّه على من يحمله. فقال رسول الله ﷺ: من دلَّ على خيرٍ: فله مثل أجر فاعله).

(٢) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الزَّكاة/ باب الحثِّ على الصَّدقة ولو بشقِّ تمرةٍ أو كلمةٍ طيِّبةٍ وأنَّها حجابٌ من النَّار- الحديث رقم (١٠١٧)- ٢/ ٧٠٤-٧٠٥] عن جرير بن عبد الله البجليِّ ﷺ، ولفظه: (كُنَّا عند رسول الله ﷺ في صدر النَّهار، قال: فجاءه قومٌ حُفاةٌ عُراةٌ؛ مُجتابي النِّمار - أي: الأكسية التي فيها خُطوطٌ بيضٌ وسُودٌ - أو العباء مُتقلِّدي السُّيوف، عامَّتهم من مُضرٍ؛ بل كُلُّهم من مُضرٍ، فتمعَّر وجه رسول الله ﷺ لِمَا رأى بهم من الفاقة، فدخل ثُمَّ خرج، فأمر بلالاً فأذَّن وأقام؛ فصلَّى ثُمَّ خطب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [سُورة النِّساء: الآية ١]، والآية التي في الحشر: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [سُورة الحشر: الآية ١٨]، تصدَّق رجلٌ من ديناره؛ من درهمه؛ من ثوبه؛ من صاع بُرِّه؛ من صاع تمره، حتَّى قال: ولو بشقِّ تمرةٍ. فجاء رجلٌ من الأنصار بِصُرَّةٍ - كادت كفُّه تعجز عنها؛ بل قد عجزت -، قال: ثُمَّ تتابع النَّاس؛ حتَّى رأيت كَوْمَيْن من طعامٍ وثيابٍ، حتَّى رأيت وجه =

وفي الحسان عن رسول الله ﷺ قال: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا: سلك الله به طريقًا من طُرق الجنَّة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإنَّ العالم ليستغفر له من في السَّماوات ومن في الأرض؛ والحيتان في جوف الماء، وإنَّ فضل العالم على العابد: كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإنَّ العُلماء ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا؛ وإنَّما ورَّثوا العلم، فمن أخذه: أخذ بحظٍّ وافرٍ**»(١).

وعنه ﷺ أنَّه قال: «**خصلتان لا تجتمعان**(٢) **في مُنافقٍ: حُسْنُ سَمْتٍ؛ ولا فِقْهٌ في الدِّين**»(٣).

= رسول الله ﷺ يتهلَّل؛ كأنَّه مُذْهَبَة، فقال رسول الله ﷺ: من سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة: فله أجرها وأجر من عمل بها بعده؛ من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ، ومن سنَّ في الإسلام سُنَّة سيِّئة: كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده؛ من غير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ).

(١) أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٢١٧٦٣)- ٥/ ١٩٦]، وأبوداود في سُننه [كتاب العلم/ باب الحثِّ على طلب العلم- الحديث رقم (٣٦٤١)- ص٥٥١]، والتِّرمذيُّ في سُننه [كتاب العلم/ باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة- الحديث رقم (٢٦٨٢)- ص٦٠٤]، وابن ماجه في سُننه [أبواب السُّنَّة/ باب فضل العُلماء والحثِّ على طلب العلم- الحديث رقم (٢٢٣)- ص٥٦] عن أبي الدَّرداء ﵁، ولفظ أبي داود: (عن كثير بن قيسٍ قال: كُنتُ جالسًا مع أبي الدَّرداء في مسجد دمشق، فجاءه رجلٌ فقال: يا أبا الدَّرداء؛ إنِّي جئتك من مدينة الرَّسول ﷺ لحديثٍ بلغني أنَّك تُحدِّثه عن رسول الله ﷺ؛ ما جئت لحاجةٍ. قال: فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا: سلك الله ﷿ به طريقًا من طُرق الجنَّة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإنَّ العالم ليستغفر له من في السَّماوات ومن في الأرض؛ والحيتان في جوف الماء، وإنَّ فضل العالم على العابد: كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإنَّ العُلماء ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا؛ ورَّثوا العلم، فمن أخذه: أخذ بحظٍ وافرٍ).

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يجتمعان».

(٣) أخرجه التِّرمذيُّ في سُننه [كتاب العلم/ باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة- الحديث رقم (٢٦٨٤)- ص٦٠٥] عن أبي هُريرة ﵁.

وعنه ﷺ قال: «من يخرج في طلب العلم: فهُو في سبيل الله حتَّى يرجع»(١)

وعنه ﷺ قال: «لن يشبع المُؤمن من خيرٍ يسمعه؛ حتَّى يكون مُنتهاه الجنَّة»(٢).

وعنه ﷺ قال: «من طلب العلم ليُجاري(٣) به العُلماء؛ أو ليُماري به السُّفهاء؛ أو ليصرف به وُجوه النَّاس: أدخله الله النَّار»(٤).

وعنه ﷺ قال: «من تعلَّم علمًا ممَّا يُبتغى به وجه الله؛ لا يتعلَّمه إلا ليُصيب به عَرَضًا من الدُّنيا: لم يجد عَرْف الجنَّة يوم القيامة»(٥)

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ في سُننه [كتاب العلم/ باب فضل طلب العلم- الحديث رقم (٢٦٤٧)- ص٥٩٧] عن أنس بن مالكٍ ﷺ، ولفظه: (من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتَّى يرجع). قال أبوعيسى: (هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، ورواه بعضهم فلم يرفعه). وفي إسناده: خالد بن يزيد، قال العُقَيْلِيُّ في [الضُّعفاء الكبير: ٢/ ١٧]: (لا يُتابع على كثيرٍ من حديثه)، ثُمَّ أورد له هذا الحديث.

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ في سُننه [كتاب العلم/ باب فضل الفقه على العبادة- الحديث رقم (٢٦٨٦)- ص٦٠٥] عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ ﷺ، وفي إسناده: درَّاج أبوالسَّمح، قال العُقَيْلِيُّ في [الضُّعفاء الكبير: ٢/ ٤٣]: (حدَّثنا عبد الله بن أحمد؛ قال: سمعت أبي يقول: درَّاج أبوالسَّمح أحاديثه مناكير).

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «ليحازي».

(٤) أخرجه التِّرمذيُّ في سُننه [كتاب العلم/ باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدُّنيا- الحديث رقم (٢٦٥٤)- ص٥٩٨] عن كعب بن مالكٍ ﷺ، وابن ماجه في سُننه [أبواب السُّنَّة/ باب الانتفاع بالعلم والعمل به- الحديث رقم (٢٥٣؛ ٢٥٤؛ ٢٥٩؛ ٢٦٠)- ص٦٢-٦٣] عن عبد الله بن عُمر بن الخطَّاب؛ وجابر بن عبد الله؛ وحُذيفة بن اليمان؛ وأبي هُريرة ﷺ، ولفظ التِّرمذيِّ: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: من طلب العلم ليُجاري به العُلماء؛ أو ليُماري به السُّفهاء؛ أو يصرف به وُجوه النَّاس إليه: أدخله الله النَّار).

(٥) أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٨٤٥٧)- ١٤/ ١٦٩]، وأبوداود في سُننه [كتاب العلم/ باب في طلب العلم لغير الله تعالى- الحديث رقم (٣٦٦٤)- =

يعني: ريحها(١).

وقال ﷺ: **«نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأدَّاها، فرُبَّ حاملِ فقهٍ غير فقيهٍ، ورُبَّ حاملِ فقهٍ إلى من هُو أفقه منه»**(٢).

فصلٌ

إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا: أقام في قلبه باعثًا يطلب القُرْب منه، وهمَّة تتعلَّق بمحبَّة مُشاهدته ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾(٣)، فيتجافى عن دار الغُرور؛ ويميل إلى دار الخُلود، ويستعدُّ للموت قبل نُزوله.

= ص٥٥٤]، وابن ماجه في سُننه [أبواب السُّنَّة/ باب الانتفاع بالعلم والعمل به- الحديث رقم (٢٥٢)- ص٦١]، عن أبي هُريرة ﷺ.

(١) قاله سُريج بن النُّعمان في حديثه.

(٢) أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٢١٥٩٠)- ٣٥/ ٤٦٧]، وأبوداود في سُننه [كتاب العلم/ باب فضل نشر العلم- الحديث رقم (٣٦٦٠)- ص٥٥٤]، والتِّرمذيُّ في سُننه [كتاب العلم/ باب ما جاء في الحثِّ على تبليغ السَّماع- الحديث رقم (٢٦٥٦)- ص٥٩٨]، وابن ماجه في سُننه [أبواب السُّنَّة/ باب من بلَّغ علمًا- الحديث رقم (٢٣٠)- ص٥٨]، عن زيد بن ثابتٍ ﷺ، ولفظ ابن ماجه: **«نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فبلَّغها، فرُبَّ حامل فقهٍ ليس بفقيهٍ، ورُبَّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه»**.
وأخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٤١٥٧)- ٧/ ٢٢١]، والتِّرمذيُّ في سُننه [كتاب العلم/ باب ما جاء في الحثِّ على تبليغ السَّماع- الحديث رقم (٢٦٥٧-٢٦٥٨)- ص٥٩٩]، وابن ماجه في سُننه [أبواب السُّنَّة/ باب من بلَّغ علمًا- الحديث رقم (٢٣٢)- ص٥٨]، عن عبد الله بن مسعودٍ ﷺ.
وأخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (١٣٣٥٠)- ٢١/ ٦٠]، وابن ماجه في سُننه [أبواب السُّنَّة/ باب من بلَّغ علمًا- الحديث رقم (٢٣٦)- ص٥٩]، عن أنس بن مالكٍ ﷺ.
وأخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (١٦٧٣٨)- ٢٧/ ٣٠٠-٣٠١]، وابن ماجه في سُننه [أبواب السُّنَّة/ باب من بلَّغ علمًا- الحديث رقم (٢٣١)- ص٥٨]، عن جُبير بن مُطعم ﷺ.

(٣) سُورة القمر: الآيتان ٥٤-٥٥.

فذلك علامة من ﴿شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾(١).

فمن رزقه الله تعالى هذه الهمَّة النَّفيسة والمطلب العليَّ - الذي هُو غاية الغايات؛ ومُنتهى الطَّلبات -: استقامت همَّته؛ وعلا شأنها، كما قيل(٢):

يا مطلبًا ليس لي في غيره أربٌ إليك آلَ التَّقصِّي وانتهى الطَّلبُ

وما طمحت إلى مَرْأى ومُسْتَمَعٍ إلا لمعنى إلى عليائك ينتسبُ [٥٢/ب]

وإنَّ الله تعالى قد جعل لكُلِّ مطلبٍ طريقًا، وخلق لكُلِّ مرغوبٍ إليه دليلًا يدلُّ عليه، ونصب له عَلَمًا يُقْصَد إليه؛ لُطفًا منه ورحمة بعباده، وعلى قدر عُلوِّ العبد في القُرْب: ينال عليَّ الدَّرجات، وعلى قدر بُعده عنه: ينحطُّ في الدَّركات.

فصلٌ

وأقصد الطَّريق في ذلك: تحصيل العلم ونشره ودعوة الخلق إليه لإعلاء كلمة الله وذكره وإقامة الحقِّ الذي هُو دين الله على خاصَّة نفسه وأهله أوَّلًا، ثُمَّ على من أقدره الله عليه من الخلق ثانيًا، فإنَّ العُلماء ورثة الأنبياء، بالعلم يُعرف الله تعالى؛ وبه يُطاع؛ وبه يُسترشد.

---

(١) سُورة الزُّمر: الآية ٢٢.

(٢) هُو أبوعبد الله مُحمَّد بن عبد المُنعم الأنصاريُّ؛ المعروف بابن الخَيْمِيِّ؛ في مطلع قصيدته البديعة الغرَّاء التي سارت، كما في: ذيل مرآة الزَّمان لليُونيني ٤/ ٣٠٢، نهاية الأرب للنُّوَيْري ٣١/ ١٣٦، تاريخ الإسلام للذَّهبيِّ [حوادث ووفيَّات ٦٨١-٦٩٠: ص٢٣٨]، فوات الوفيَّات للكُتْبِيِّ ٣/ ٤١٤، الوافي بالوفيَّات للصَّفديِّ ٤/ ٥١، طبقات الشَّافعيَّة الكُبرى للسُّبكيِّ ٩/ ٢٥٩، تاريخ ابن الفُرات ٨/ ٤٢، معاهد التَّنصيص للعبَّاسيِّ ص٢٨٤، الكشكول للعامليِّ ص٢٧٠.

ومن يُحقَّق بذلك نيَّة وعلمًا وعملًا وحالًا ودعوة وسياسة: كان صدِّيقًا، وليس فوق رُتبة الصِّدِّيقيَّة إلا النُّبوَّة.

وطريق كمال الاستعداد لذلك أصلان:

أحدهما: معرفة الله تعالى ذوقًا وحالًا؛ بعد العلم به اعتقادًا ونظرًا.

والثَّاني: معرفة عبادته؛ ووضعها موضعها في أحايِينها[١] على تراتيبها المشروعة؛ وقوانينها المسموعة.

وغالب النَّقص والانحراف إنَّما دخل على الأُمَّة من الجهل بهما أو بأحدهما، فمن وُفِّق لمعرفة الله تعالى العلميَّة؛ وترقَّى منها ونفذ إلى المعرفة الحاليَّة الذَّوقيَّة: وُفِّق لمعرفة كيفيَّة عبادته المشروعة في كتابه وسُنَّة رسوله، واستقام[٢] على سواء السَّبيل إذا ساعده التَّوفيق بالعمل الصَّحيح؛ كما وُفِّق للعلم الصَّحيح، فالعُلوم إنَّما تُحقِّقها الأعمال، والله[٣] المُستعان.

فصلٌ

والطَّريق إلى معرفة الله تعالى الحاليَّة الذَّوقيَّة؛ التي من اتَّصف بها سُمِّي عارفًا: تأمُّل النُّصوص الواردة عن الله تعالى وعن رسوله في صفاته المُقدَّسة، والتَّحديق إليها ببصر الإيمان في الخلوات، وخالص العبادات من الأذكار والصَّلوات والخُشوع في التَّوجُّهات، فبذلك يُرجى أن ينكشف لقلبه أنوارها، ويُنازله منها ما لا تراه العُيون من واضح آثارها، فإنَّ رسول الله ﷺ وصف ربَّه بأكمل المعارف وأتمّ الصِّفات، لأنَّه كان أعلم البريَّة بربِّه، فما من صفةٍ ذكرها ونبَّه عليها إلا وهي مرقاةٌ لقلب الصَّادق إلى معرفة ربِّه؛ إذا اتَّصف بالصِّدق في

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «أحانينها».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «رسوله استقام».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «وبالله المستعان».

تلقِّيها وقبولها أوَّلًا، ثُمَّ اتَّصف بالصِّدق في التَّوجُّه إلى الموصوف بها ثانيًا.

ومن انحرف في هذا الشَّأن عمَّا أشار إليه الرَّسول ﷺ؛ وعدل عنه: قد ينقص بعض النُّفوذ؛ مع انحراف ظاهرٍ أو كامنٍ(١)، لأنَّه عدل عن المحجَّة التي فتحها إليه؛ والوجه الذي ظهر منها إلى وسائط بينه وبينه يُحال دُونه من بعض الوُجوه؛ لا من [٥٣/أ] جميعها، فبذلك يكون انحرافه.

فصلٌ

والطَّريق إلى معرفة دين الله: ضبط ألفاظ الكتاب والسُّنَّة وحلُّ معانيهما، والوُقوف معهما بلا انحرافٍ عنهما، ولا بأس بالاتِّساع في العُلوم المُنحرفة عنهما: إذا كان القلب واقفًا معهما لا يستعمل غيرهما، ويتعرَّف بتلك العُلوم مذاهب الأضداد؛ ليقوى على الرَّدِّ عليهم لإحاطته بأغوارهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ﴾(٢).

فالعالم إذا لم يعرف ألسنة قومه وعُلومهم: لا يقوى على البيان لهم.

فصلٌ

وعلامة العالم العارف: أن ينشرح صدره بنُور الإيمان، وتُفتح بصيرته لتأمُّل العرفان، ويُقيمه الله تعالى بين يديه عبدًا له، يعبده بما أمره به، ويقصد وجهه الكريم في سائر توجُّهاته ومساعيه الظَّاهرة والباطنة، قال الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(٣).

---

(١) أي: خَفِيٌّ.
(٢) سُورة إبراهيم: الآية ٤.
(٣) سُورة النَّجم: الآية ٣٩.

فهُو عبدٌ أخرجه الله تعالى من الظُّلمات إلى النُّور، ومن ظُلمات الطَّبع وحُجُب الهوى وغان[١] الرَّيب وحال الرَّدى إلى أنوار المعرفة والقُرْب والهُدى، صار الخَبَر لديه خُبْرًا؛ والصِّفة ذوقًا ووُجدانًا، فاستنار باطنه بأنوار الله المخزونة التي يمنُّ بها على من يشاء من عباده.

فصلٌ

والمحجوب عن ذلك: حاله كحالِ محبوسٍ في بيتٍ مُظلمٍ، يتصرَّف في حوائجه وشُؤونه تارة بحدسه، وتارة بفكره، وتارة بلمسه، كما يتقلَّب الأعمى في أُموره.

ومن دفع الحجاب عن قلبه: كان حاله كحال من فُتحت له في ظُلمة ذلك البيت كُوَّة؛ سقط منها في البيت الشَّمس وشُعاعها، فأبصر من نفسه وهواه وشيطانه وعزائمه وسُباته؛ وبما كان عنه قبل ذلك خَفِيًّا، واستراح في تصرُّفاته بنُور عرفانه وشعاع إيمانه.

ومن كان محجوبًا عن نُور الإيمان؛ حظُّه منه مُجرَّد التَّصديق: فمِثْلُه يكون غالبًا محجوبًا عن آفات نفسه وشُؤونها وحركات الهوى والطَّبع ونزغات الشَّيطان ولمَّاته، فتخطفه الأعداء من كُلِّ جانبٍ، وتلدغه عقارب النَّفس والهوى وهُو لا يُبصرها، ويعصي ربَّه بهُمومه وعزائمه وإراداته ولا شُعور له ببُعده بذلك عن ربِّه، فإذا فتح الله قلبه لأنوار معرفته: أشرق باطنه بأنوار العزَّة وأشعة العظمة الإلهيَّة.

فيُضيء له في تلك الأنوار: أسرار الشَّريعة المُحمَّديَّة ومقاصدها، وما يخصُّ نفسه منها وما يعمُّ الكافَّة من حُكمها، فينهض لله تعالى بحُكم العُبوديَّة

(١) الغيْن: السَّحاب وهُو الغيم.

على نفسه وأهله أوَّلًا، ثُمَّ على من عمَّ ثانيًا، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾(١).

ويتطهَّر باطنه من ذلك الدَّنس الذي كان فيه، ويُفتح له باب النِّية وصحَّة العزم، ويصير قوَّامًا بعقله على هواه وخاطره، يتَّقي الله تعالى في هُمومه وإراداته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣﴾(٢). وقال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾(٣).

فصلٌ

وهذه هي الموهبة السَّنيَّة والمرتبة العليَّة عند الله، وقد قصرت الهمم في زماننا عن طلبها، وعميت البصائر عن تصوُّرها وعظيم خطرها، فَقَلَّ أن ترى من يعرفها علمًا؛ ويشتاق إليها حُبًّا؛ فضلًا عمَّن يشتاق إليها حالًا ووجْدًا، إلا أفرادًا اختصَّهم الله تعالى ليُحْيِي بهم دينه؛ ويُقيم بهم شعائره؛ ويُقوِّم بهم اعوجاج عباده، فهُم خُلفاء الرُّسل، وَصْفُهُم الصِّدِّيقيَّة، استودعهم الله [٥٣/ب] أسرار دينه وأحكام شريعته ليهتدي بهم العباد؛ وتستنير بهم البلاد، فهُم مصابيح أهل الأرض بهم يهتدون، كالنُّجوم في السَّماء بها يستدلُّ الحائرون، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٤).

---

(١) سُورة التَّحريم: الآية ٦.
(٢) سُورة الملك: الآيتان ١٢-١٣.
(٣) سُورة الأنعام: الآية ١٢٠.
(٤) سُورة الحديد: الآية ٢١، سُورة الجُمعة: الآية ٤.

فصلٌ

ومن رزقه الله تعالى شوقًا إلى هذه الرُّتبة العالية؛ وفتح لقلبه منها ذوقًا يستدلُّ ببعضها على كُلِّها: فعليه أن يعتمد خصالًا يكمل بها بعون الله أمرُه؛ ويتمُّ بها سعيُه، ويترقَّى بها إلى الذُّروة العُليا من هذا الشَّأن:

أوَّلها: النِّيَّة وإخلاصها وكمالها في تحصيل العلم:

أمَّا إخلاصها: فيُصفِّيها من مُلاحظة الخلق وشوائب النَّفس.

وأمَّا كمالها: فهُو أن يُقصد الأمران معًا: النَّفع الخاصَّ؛ مع النَّفع المُتعدِّي العام، فمن طلب العلم ليهتدي به: رزقه الله تعالى فهمًا يهتدي به، ومن طلبه ليهتدي به؛ ويهدي به معًا: أمدَّه بفهم يقوى به عليها، وهذه فائدةٌ يَعِزُّ الشُّهود بها في مبادئ الأُمور، ويُعرف ذوقُها باستعمالها، فإنَّ النِّيَّة الخاصَّة لها كيفيَّةٌ بذاتها، والنِّيَّة الخاصَّة والعامَّة لها بمجموعها كيفيَّةٌ أُخرى وخاصيَّةٌ في المُعاملة مع الله تعالى، والله تعالى يُحبُّ معالي الأُمور، وبالضَّرورة؛ النِّيَّة الكاملة: أعلى من النَّاقصة.

الثَّانية: الاعتناء بمعرفة سيرة النَّبيِّ ﷺ: فإنَّها مفتاح الإسلام؛ وأساس الإيمان، عليها ترتفع قواعده، ومن أصلها تتشعَّب فُروعه، فمن وُفِّق للتَّفقُّه فيها: عرف ابتداء ظُهور النُّبوَّة؛ كيف ظهرت؟ وعلم ابتداء طُلوع شمسها وبُزوغ قمرها وكيفيَّة استعلان الحقِّ من جبال فاران؛ كما جاء في الكُتب السَّالفة - وأظنُّه في التَّوراة -: (جاء الله من طُور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن بجبال فاران)[١]

فالأولُ: ظُهور مُوسى. **والثَّاني:** إشارةٌ إلى ظُهور عيسى. **والثَّالث:** إشارةٌ إلى ظُهور مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وعليهم أجمعين.

---

(١) انظر: العهد القديم: سفر التَّثنية/ الإصحاح الثَّالث والثَّلاثين/ الفقرة الثَّانية.

فمن أعظم أسباب رُسوخ الإيمان في القلب - مع مشيئة الله تعالى -: رُسوخ معرفة النُّبوَّة في القلب، فمتى أيقن القلب بالنُّبوَّة يقينًا تامًّا: كان التَّوحيد والإيمان بما غاب عن البصر من لوازمها، لأنَّها أنبأت عنه؛ ودعت إلى الإيمان به.

والنُّبوَّة مرقاةٌ ومعراجٌ إلى العلم بالله وإلى معرفته، بها عُرف الله وعُبد، ورُبَّما كان نفع معرفة السِّيرة وحال النُّبوَّة في سكرات الموت أشدَّ، وحاجة العبد إليه في ذلك الموطن آكد، فهُنالك قد تعترض الشُّكوك، ويأتي الشَّيطان بالوساوس في الدِّين، ورُبَّما عُرضت عليه الأديان [٥٤/أ]؛ وزُيِّنت له، فإذا كان العبد في ذلك الموطن مفتقرًا إلى الله تعالى؛ مُتضلِّعًا من علم ابتداء النُّبوَّة ومُعجزاتها وخوارق عاداتها الثَّابتة: لم يتطرَّق إلى قلبه الوساوس، ولم تتزيَّن[١] لقلبه الأديان المنسوخة، فما أحسن الاستعداد بالزَّاد التَّام لمثل هذه المواطن، قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[٢]

ومن كان له من الإيمان ذوقٌ: فإنَّ تَكَمُّلَه وتتمَّته برُسوخ علم ابتداء النُّبوَّة وانتهائها في قلبه من حين ظهر ﷺ؛ بل من حين ولادته، إلى حين بُلوغه ومنشئه[٣]، إلى حين مبعثه وظُهور مُعجزاته وآياته، إلى حين مُهاجرته ومُجاهدته للكُفَّار في إقامة دين ربِّه، إلى حين وفاته واستقرار دين الله قراره، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾[٤].

فإذا عرف القلب ذلك: عرف أُصول الإيمان، وعرف أسباب القضايا في

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يتزيَّن».
(٢) سُورة البقرة: الآية ١٩٧.
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «ومنشائه».
(٤) سُورة النَّصر: الآيتان ١-٢.

الكتاب العزيز: طورًا بعد طورٍ؛ على مُقتضى الحوادث المُتجدِّدة في أيَّام النُّبوَّة.

فمن عرف السِّيرة؛ ثُمَّ قرأ القُرآن وتدبَّره: فهم عن الله مُراده في كُلِّ قصَّةٍ كانت في زمنه ﷺ، ثُمَّ يأخذ منها بحُكم حاله ما يخصُّه، فيُمكنه حينئذٍ أن يتأدَّب بآداب القُرآن؛ ويكتسي آدابه وأخلاقه وأعماله، وقد سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت: (كان خُلقه القُرآن)[1].

الثَّالثة: أن يستعمل ما رزقه الله تعالى من ذوق الإيمان في تحصيله للعلم مُقارنًا له؛ ويستعمله أيضًا في مصالح دُنياه: ولا يَقُل: أَفْرُغُ من العلم؛ وأتفرَّغ للإيمان، بل يستعمله مُقارنًا، فإنَّ العلم والإيمان مُتلازمان، متى انفكَّ أحدهما عن صاحبه: ضَعُف.

وكان الدِّين أوَّلًا في زمن الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم مُجتمعًا، فلذلك كان قويًّا، فلمَّا تفرَّق في عصر المأمون؛ حيث انفرد [٥٤/ب] الفُقهاء بالفقه؛ والصُّوفيَّة بالتَّصوُّف: ضَعُف الدِّين وتفرَّق، فلا ترى[2] فقيهًا من كُلِّ وجهٍ؛ ولا صُوفيًّا قويًّا من كُلِّ وجهٍ.

فإنَّ الفقيه قُوَّته في العلم والتَّصوُّر، وتراه في الأعمال ضعيفًا؛ أعني الأعمال البدنيَّة، مثل: الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكر وإقامة الحُدود والانتصار للحقِّ، وكذلك تراه ضعيفًا في أعمال القُلوب، فغالبًا في زماننا: قلَّ أن ترى فقيهًا صادقًا مُخلصًا مُحبًّا عارفًا خاشعًا زاهدًا، فإنَّ قُواه أجمعَها انصرفت في العلم؛ فضعفت في الأعمال البدنيَّة والقلبيَّة، حيث قام بالشَّطر؛ وأهمل الشَّطر.

---

(١) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب صلاة المُسافرين وقصرها/ باب جامع صلاة اللَّيل ومن نام عنه أو مرض- الحديث رقم (٧٤٦)- ١/ ٥١٢-٥١٣] من حديث سعد بن هشام رحمه الله، ولفظه: (قال: يا أُمَّ المُؤمنين؛ أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ. قالت: ألستَ تقرأ القُرآن؟ قُلتُ: بلى. قالت: فإنَّ خُلُق نبيِّ الله ﷺ كان القرآن).

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يرى».

وكذلك الصُّوفيُّ الصَّادق: قد استعمل قُواه جميعَها في الأعمال البدنيَّة والقَلبيَّة؛ وقصَّر في التَّعلُّم وإصلاح العقل، فتراه قويًّا في الأعمال؛ ضعيفًا في الانتصار بالحُجَّة والدَّليل، عاجزًا عن استنباط أحكام دينه الخاصّ؛ فضلًا عمَّا يعمُّ غيره، فلذلك الدِّين ضعيفٌ[1] في زماننا.

ومن وفَّقه الله تعالى لاستعمال الإيمان والعلم معًا: لم يتفرَّق دينه، ويتربَّى قلبه في الدِّين التَّامِّ الكامل، فيكون دينه قويًّا كاملًا بعون الله تعالى وتوفيقه.

فمن رزقه الله تعالى ذوقًا من الإيمان؛ ورُزق همَّة في تحصيل عُلوم الشَّريعة - فيكون في اشتغاله مُلازمًا لما يُمكنه من الإيمان؛ مُتعلِّقًا بشُعبةٍ منه وهُو دوام الالتجاء والتَّعلُّق بالله في حال تكراره وفكره ومُطالعته وفي كُلِّ لحظةٍ -: يكون لقلبه التفاتٌ إلى جناب الحقِّ بالاستعانة والعُبوديَّة، فتقوى بذلك همَّته في تحصيله، وينكشف لقلبه نُور الافتقار والعُبوديَّة؛ ما أظلم عليه من المسائل، ثُمَّ إذا قام إلى الفرائض الخمس: اجتهد فيها على تفريغ قلبه لله، فيكون في الصَّلاة يُحكِّم جميع إيمانه، حيث كان في الصَّلاة مُستعملًا لشُعبةٍ منه؛ مُلازمًا لما يُمكنه منه.

ومن كان هذا شأنه: كان بعون الله تعالى [٥٥/أ] إيمانه مزيدًا لعلمه، وعمله مُكمِّلًا لإيمانه وتسبُّبه، إيمانه في الدُّنيا معونة له على إيمانه وعلمه، حيث يستعمل فيه الالتفات إلى ربِّه بالعُبوديَّة والافتقار، وهذا حال الكُمَّل من المُحمَّديِّين؛ أهل الأذواق الكاملة والمعارف التَّامَّة.

وكذلك أصحاب رسول الله ﷺ عارفون بالله، عالمون بأمر الله، مُجاهدون في سبيل الله، مُكتسبون ساعون على أنفسهم وعيالهم، ومن تشبَّه بقومٍ حُشر معهم، وبالله التَّوفيق.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «ضعيفًا».

الرَّابعة: إذا تعيَّن عليه حقٌّ الله تعالى - مثل: صلاةٍ أو زكاةٍ أو حجٍّ أو أمرٍ بمعروفٍ أو نهيٍ عن مُنكرٍ أو جهادٍ في سبيل الله أو بِرٍّ أو صلةِ رحمٍ أو نُصرةِ مظلومٍ أو غير ذلك - من الواجبات؛ أو ما تأكَّد من السُّنن: قام في ذلك العمل بكُلِّيَّته، فيبذل فيه عقله وقلبه ورُوحه، ويعمله كما يعمل المُحبُّ لحبيبه بالنُّصح التَّامِّ والتَّوفية الكاملة.

ومثال ذلك: لو فُرِضَ مُحبٌّ خاط لمحبوبه ثوبًا أو نسجه له؛ أو سعى له في مُهِمٍّ من مُهمَّاته التي يعلم حُصول رضاه بتحصيلها: كيف كانت المحبَّة تقتضي[1] منه الاعتناء بذلك الأمر وإتقانه؟ وكيف كان لمُحبٍّ أن يُوقعه على أكمل الصِّفات وأتمِّها تقرُّبًا إلى حبيبه؟ عسى أن يُلحظ بعين وَصْلِه ووِدَادِه؛ أو يحنَّ عليه تعطُّفًا.

والمحبَّة تقتضي: التذاذه في التَّعنِّي بالأعمال الشَّاقَّة من أجل حبيبه، محبَّة له ولحوائجه ومهامِّه[2] وأوامره، فهكذا أهل الله وخاصَّته إذا وجب عليهم لله حقٌّ: أقاموا فيه قيام المُحبِّ بحبيبه؛ وبذلك تُنال محبَّة الله لعبده.

ومحبَّة الله للعبد: هي الغاية القُصوى، فإنَّ السَّالك والعابد والمُحبَّ في عناءٍ وجَهْدٍ؛ ما لم يُلحظ بمحبَّةٍ من ذلك الطَّرْف، ومتى لُحِظَ العبد بمحبَّةٍ ووُدٍّ من ذلك الطَّرْف: سهلت الأُمور وارتفعت المُؤَن[3]، وحصل التَّولي للعبد في أُموره؛ وحُرس وحُفظ ورُوعي، وصار [٥٥/ب] العبد حينئذٍ مُرادًا؛ بعد أن كان مُريدًا.

وأقرب الأسباب إلى ذلك: الاعتناء بحُقوق الرَّبِّ تعالى؛ وتعظيمها وإيقاعها على أكمل الوُجوه، فإنَّ ذلك يُوجب محبَّة الله تعالى لا محالة،

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يقتضي».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «ومهمامه».
(٣) أي: التَّعب والشِّدَّة.

قـال الله تـعـالـى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾(١). ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٢). ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٣).

وفَرْقٌ بين تائبٍ وتائبٍ؛ ومُقاتلٍ ومُقاتلٍ؛ وصابرٍ وصابرٍ، فمن وَفَّى: وُفِّيَ له نصيبه من تلك المحبَّة الموعود بها، ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾(٤).

ومن قصَّر: وُفِّي له أجر عمله غير منقوصٍ؛ وفاته الكمال، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(٥).

فتائبٌ يتوب توبة نصوحًا - يتوب بجميعه -: فيُثاب في أوَّل تلبُّسه بها الثَّناء الجميل، كما جاء: «**لقد تاب توبة؛ لو قُسمت بين أهل الأرض: لوسعتهم**»(٦).

ومُقاتلٌ يخرج بنفسه وماله لتكون كلمة الله هي العُليا، وصابرٌ يحتسب رضا الله ومحبَّته في صبره، ومُتَّقي يُوفِّي حقَّ تقواه، فيُجازى كُلٌّ منهم ويُوفَّى له أجره؛ كما وفَّى مقام عُبوديَّته.

وتائبٌ يتوب من شيءٍ دُون شيءٍ، ومُقاتلٌ يطلب الجهاد مع الغنيمة، وصابرٌ يَظْهَر عليه آثار الجزع، وكُلٌّ يُوفَّى له قسطه على حسب عمله وتكملته؛ وليسوا سواء.

---

(١) سُورة الصَّفّ: الآية ٤.
(٢) سُورة آل عمران: الآية ١٤٦ في النُّسخة الخطيَّة: «إنَّ الله يُحبُّ الصَّابرين».
(٣) سُورة التَّوبة: الآيتان ٤؛ ٧.
(٤) سُورة الفُرقان: الآية ١٦. في النُّسخة الخطيَّة: «كان على ربِّك عهدًا مسؤولًا».
(٥) سُورة النَّجم: الآية ٣٩.
(٦) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الحُدود/ باب من اعترف على نفسه بالزِّنا- الحديث رقم (١٦٩٥)- ٣/ ١٣٢١-١٣٢٢] من حديث بُريدة بن الحُصيْب الأسلميِّ ﷺ، ولفظه: (فقال: استغفروا لماعز بن مالكٍ. قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالكٍ. قال: فقال رسول الله ﷺ: لقد تاب توبة؛ لو قُسمت بين أُمَّةٍ: لوسعتهم).

وهذه كُلُّها أعمالٌ أُمر العبد بها؛ ووُعد عليها بالمحبَّة بشرط التَّوفية، فمن وفَّاها: استحقَّ ما وُعد عليها.

وصِفَة توفيتها ما تقدَّم؛ مِنْ بذل النَّفس والعقل والرُّوح فيها رضى لله[(١)] ومحبَّته له؛ وإيثارًا له ولأمره على نفسه وهواه وحُظوظه؛ وما يجب من أجل حبيبه، يُجازى بأفضل الجزاء وهي المحبَّة.

هذا أصلٌ غفل عنه أكثر النَّاس؛ وغالب السَّالكين، فإنَّهم اشتغلوا بطلب نصيبهم منه فغفلوا، فعكفوا على ذلك وقصَّروا في حُقوقه، ولم يعتنوا بها حقَّ الاعتناء [٥٦/أ] والنَّصيحة له فيها، ولو عقلوا: لعلموا أنَّ ذلك حظُّهم منه، وهذا حقُّه عليهم.

والمُحبُّ البارُّ النَّاصح: يُؤثر حُقوق محبوبه على حظِّه منه، فإن فعل: صار هُو بعينه طريقه إلى نيل حظِّه، فيجتمع له الأمران: قيامه بحقِّ مولاه، ونيْل النَّصيب منه.

الخامسة: أن يعتني بالاقتداء برسول الله ﷺ في أمره كُلِّه - مِمَّا تمكَّن منه -؛ في أكله وشُربه؛ ونومه وتهجُّده؛ وسواكه وطهوره[(٢)]؛ وإيثاره ولباسه؛ ومُعاشرته للأصحاب والأزواج؛ ولُطف طبعه في موضعه؛ وشدَّته وقُوَّته وغلظته في موضعه، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[(٣)] وقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٤)].

فأهل الحديث ونقلته ﷺ: قد ضبطوا في كُتب الحديث جميع ما نُقل إليهم من ذلك.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «الله».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «وظهوره».
(٣) سُورة التَّوبة: الآية ٧٣، سُورة التَّحريم: الآية ٩.
(٤) سُورة الحجر: الآية ٨٨.

ويتحرَّى العبد نوادبه؛ مثل: غُسل الجُمعة، والصَّفّ الأوَّل؛ وميامنه؛ والقُرْب من الإمام، والأذكار المشروعة عقيب الصَّلوات؛ وعند الحوادث، فقد يقوم العبد بالأوامر ويجتنب النَّواهي؛ وتهون عليه هذه الأشياء، ويقول: إنَّ الأصل ذاك؛ وهذه جُزئيَّات لا يأثم تاركها، ويفوت بتركها كُنوزٌ عظيمةٌ من كُنوز البِرِّ؛ ويتخلَّف عن المُتابعة.

ومن كمَّل اتِّباعه في الدُّنيا: كان في الآخرة قريبًا منه، تحت منجفه[1] ولوائه، لأنَّه كان مع سُنَّته واتِّباعه في الدُّنيا؛ فيُجازى بأن يكون رفيقه حقيقة في الآخرة، ومن قام ببعضٍ وتخلَّف عن بعضٍ: نقص من كمال مُتابعته بقدر ما تخلَّف عنه.

وأيضًا؛ فإنَّ للشَّريعة أسرارًا لا يقف[2] عليها إلا المُكاشفون، هي أدويةٌ لأسقام القُلوب.

والأذكار المشروعة لها خواصُّ كخواصِّ التَّرابيق[3] للسُّموم؛ من سُرعة النُّفوذ والإجابة في جلب المنافع ودفع المضارِّ والمفاسد، وقد ورد: «**إنَّ الدُّعاء والقضاء يعتلجان بين السَّماء والأرض**»[4].

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «صنجفه»، والنَّجيف: السَّهم العريض النَّصل.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «أسرار لا يقفون».

(٣) التِّرْيَاق: هو ما يُستعمل لدفع السُّم من الأدوية، ويُقال بالدَّال «الدِّرْيَاق» أيضًا.

(٤) من حديث عائشة رضي الله عنها، ولفظه: «**لا يُغني حذرٌ من قدر، والدُّعاء ينفع ممَّا نزل؛ وممَّا لم ينزل، وإنَّ الدُّعاء والبلاء ليعتلجان إلى يوم القيامة**» أخرجه الطَّبرانيُّ في الدُّعاء [باب ما جاء في فضل لُزوم الدُّعاء والإلحاح فيه- الحديث رقم (٣٣)- ٢/ ٨٠٠]، والمُعجم الأوسط [الحديث رقم (٢٥١٩)- ٣/ ٢٤٢]، وقال: (لم يرو هذا الحديث عن هشام إلا عطَّافٌ، ولا عن عطَّافٍ إلا زكريا، تفرَّد به الحَجَبيُّ)، والحاكم في مُستدركه [كتاب الدُّعاء والتَّكبير والتَّهليل والتَّسبيح والذِّكر/ الحديث رقم (١٨١٣)- ١/ ٦٦٩]، وقال: (هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يُخرجاه). وتعقَّبه الذَّهبي بقوله: «زكريا مُجمعٌ على ضعفه).

السَّادسة: أن يكون له نصيبٌ من الدُّعاء والتَّضرُّع - خُصوصًا في الأسحار - في جميع نوائبه وشُؤونه ومطالبه؛ من أمر دينه ودُنياه وآخرته، فمن فُتح عليه باب الدُّعاء: لم يُحرم الإجابة.

وبالدُّعاء تتَّسع[1] له الطَّاقة[2] التي بينه وبين الله، وينكشف له [٥٦/ب] في الإجابة صريح التَّوحيد، ويرى تجرُّد فعل الله تعالى في النَّوائب والعوارض، فيقوى بذلك إيمانه، ويتمُّ يقينه، وتكمل عبادته، فإنَّ العبد خُلق مُحتاجًا، صفته: الحاجة والفاقة والعجز والضَّعف والنَّقص، كما أنَّ وصف خالقه: الغنى والقُدرة والقُوَّة والكمال.

فمن لازَمَ صفاته؛ وأدام إظهار الحوائج والاحتياج إلى مالكه: عرف المراد منه بهذه الصِّفات، وعبد ربَّه بما تقتضيه صفاته المُقدَّسة.

فإنَّ كُلَّ صفةٍ له سُبحانه تقتضي منَّا له بها عُبوديَّة خاصَّة، عرف ذلك من عرفه؛ وجهله من جهله، والله المُستعان[3]، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله.

السَّابعة: أن لا يُهمل حال الورع، وهُو أقسامٌ:

وَرَعٌ في المأكل: وهُو أن لا يتناول الحرام؛ ولا ما ظهرت فيه الشُّبهة لغير فاقةٍ.

ووَرَعٌ في الكلام: وهُو قسمان: حرامٌ، وفُضولٌ.

ووَرَعٌ في النَّظر: فليكن مقصورًا على ما يُثاب عليه؛ وعلى مصلحةٍ دُنيويَّةٍ لا بُدَّ منها، وهُو - أيضًا - قسمان: حرامٌ، وفُضولٌ. فالحرام: النَّظر إلى الصُّور والمُحرَّمات، والفُضول: معلومٌ.

ووَرَعٌ في الاستماع: وهُو - أيضًا - حرامٌ، وفُضولٌ؛ فليقتصر فيه على

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يتَّسع».
(٢) الطَّاقة: هي أقصى غاية، وهو اسمٌ لمقدار ما يمكن أن يُفعل بمشقَّةٍ.
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «وبالله المستعان».

قدر الحاجة.

وورَعٌ في المساعي: فلتكن في عبادةٍ أو معيشةٍ؛ وتَطْرَح الثَّالث[(١)]

هذا في الظَّاهر، وكذلك الوَرَع في الباطن: فإنَّه أيضًا قسمان: حرامٌ، وفُضولٌ. فالحرام: العقائد الفاسدة؛ وعزائم المعصية؛ والهمم الرَّديَّة، مثل: البُغض لغير الله، والحقد والحسد والغلِّ والكبر واحتقار المُسلم، ورُؤية النَّفس وعزَّتها، والرِّياء والعُجب، وذلك لا ينكشف غالبًا إلا لأهل البصائر والنُّور، وأمَّا العامَّة: فقد يُحجب عنهم خَطَر ذلك، ورُبَّما ساعدوا نُفوسهم على نيل هذه المعاصي، وكانوا أجمع نهارهم في تنفيذها.

فليعلم[(٢)] المُؤمن: أنَّ الله تعالى قال: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾[(٣)].

والعبد لا يتمُّ صفاؤه؛ ولا يكمل نُوره: حتَّى يتطَّهر ظاهرًا عن المآثم الظَّاهرة، ويتعلَّق بالله عند وُرود الخطرات الباطنة.

ومن فُتح له باب التَّعلُّق بالله: صار لقلبه معلقًا [٥٧/أ] يتعلَّق به عند النَّوائب، وذلك هُو حقيقة التَّوكُّل، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[(٤)]. أي: كافيه.

والقلب بيت الرَّبِّ، فينبغي أن يُطهَّر عن المآثم الباطنة والهمم الدَّنيَّة؛ ليحلَّ بساحته الأنوار الإلهيَّة، وتُحيط به الأملاك.

ومن وُفِّق لذلك: رُزق صحَّة الخاطر؛ وصدق الفراسة، وتَنَزُّل الإلهام عند

(١) أي: كُلَّ سعي في غير عبادةٍ أو معيشةٍ، كما قال عبد الله بن مسعودٍ ﷺ: (إنِّي أكره أن أرى الرَّجلَ فارغًا؛ لا في عمل دُنيا ولا آخرةٍ) أخرجه الطَّبرانيُّ في مُعجمه الكبير [الحديث رقم (٨٤٦٠)- ٧/ ٥٠٠].

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «فليتعلم».

(٣) سُورة الأنعام: الآية ١٢٠.

(٤) سُورة الطَّلاق: الآيتان ٢-٣.

الحوادث والنَّوائب، إذا افتقر إلى الله تعالى: وجد في قلبه إلهامًا يُشير إلى أمرٍ يفعله، وقد يلتبس الإلهام بالوسوسة؛ ولا يُفرِّق بينهما إلا الصِّدِّيقون.

ومتى وجد من خواطر السُّوء شيئًا: فَلْيَفِرَّ منها إلى ربِّه تعالى، قال الله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1].

وبذلك الفرار: استقامة ظاهر العبد وخواطره وأخلاقه النَّاشئة عنه، فإنَّ من فرَّ إلى الله تعالى: آواه الله تعالى، والله يتولَّى الصَّالحين.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين[2].

---

(١) سُورة الذَّاريات: الآية ٥٠.

(٢) كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في مكة مهوى أفئدة المُؤمنين؛ وبيت الله الحرام وبلده الأمين، في يوم السَّبت ٢٠ صفر ١٤٣٣هـ؛ الموافق ١٤ يناير (كانون الثَّاني) ٢٠١٢م.

كتاب حَيَاةُ القُلُوبِ وَعِمَارَةُ الأَنْفَاسِ

فِي سُلُوكِ الأَذْكِيَاءِ الأَكْيَاسِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه الإعانة

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾[١]

الحمد لله كما يستحقُّه حمده.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبده وابن عبده، وأشهد أنَّ مُحمَّدًا عبده ورسوله ﷺ الذي ذبَّ عن دين الله بجِدِّه وحَدِّه.

صلَّى الله عليه وعلى آله والتَّابعين لهم من بعده.

طريقٌ مُختصرٌ إلى الله تعالى لمن كَاسَ[٢] وعَقَلَ وفَهِمَ المُراد وعمل - إذا أعان الله وخلق في العبد استعدادًا -: أختصر له الطَّريق؛ وأُقرِّب له ما بَعُد بأسباب التَّوفيق.

وعلامة هذا العبد المُوفَّق: أن يحكم على نفسه؛ ويقودها بعِنَانِها، وما ذاك إلا لما خُلق [٥٧/ب] فيها من اللَّطافة ولين العريكة، فلا يستعصي عليه أمرٌ فيه صلاحها؛ خُصوصًا إذا استبان لها رُشدها، وهذا أيضًا من أدلِّ الدَّلالات على فضلها وكمال استعدادها، وهُو قُوَّة البصر بلا كُلفة.

متى أُشير إليها بنهج سبيل الصَّواب: رأته بلا تقليدٍ؛ فانطوت في مطاويه،

(١) سُورة إبراهيم: الآية ٢٧.
(٢) أي: فَطِنَ.

ولانت راغبة فيه، بخلاف النُّفوس الأمَّارة والمُستعصية الباردة اليابسة.

ولا ترى الأشياء على حقائقها إلا بجُهدٍ جهيدٍ؛ في عُمر طويلٍ مديدٍ، ورُبَّما رأته وبحقيقته؛ وتوارى عنها؛ وثُمَّ يُحدق فيه بصرها ولا يثبت على رُؤيته، ثُمَّ يعود فيتعامى عنه لغلبة الطَّبع اليابس والنَّفس الأمَّارة.

وإذا تهيَّأ لها رُؤية الحقِّ مثلًا؛ واستقرَّت على رُؤيته: لا ينجذب الطَّبع إلى الإذعان لسياسته؛ بل تتلكَّأ[١] وتستعصي وتجمح إلى التَّسويف وشُبَه التَّأويل.

والنُّفوس الفاضلة المُستعدَّة إذا رأت الحقائق: رأتها على حقائقها في أسرع زمانٍ، وانقادت لذلك طباعها في أقرب حينٍ وأوانٍ، وأنَّ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٢].

وهذا طريقٌ قريبٌ لمن استعدَّ وزكى إلى الوُصول إلى الله تعالى بلا كُلفةٍ ولا عناءٍ إن شاء الله تعالى، يعلم الذَّكيُّ الفاضل: أنَّ الله تعالى بعث الرُّسل ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[٣]

دلَّ على ذلك: شريعتنا؛ وكتابنا؛ والأثارة من العلم التي هي بأيدي أهل الكتاب - وإن كانوا قد بدَّلوا بعض أحكامها -؛ والعقل الصَّحيح، يشهد أنَّ دين الأنبياء هُو الحقُّ؛ لا حقَّ غيره، وإلى ذلك تطمئنُّ قُلوب النُّبلاء؛ وتنشرح[٤] له لا إلى غيره، فإنَّ القُلوب تعلم: بأنَّه حقٌّ مُتَّصلٌ بالله.

وغَيْرُ دين الأنبياء: هُو نتائج عُقولٍ ناقصةٍ وأفكارٍ متعوبةٍ؛ في أُمورٍ وهميَّةٍ غير مُلائمةٍ، تُصيب في شيءٍ واحدٍ؛ وتُخطئ أشياء كثيرة.

فمنهم من عبد الأصنام واتَّخذها آلهة من دُون الله، وفيهم من عبد النَّار -

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «تتلكَّى».
(٢) سُورة الحديد: الآية ٢١، سُورة الجُمعة: الآية ٤.
(٣) سُورة النِّساء: الآية ١٦٥.
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «وينشرح».

وُهم المجوس - لِمَا رَأَوْا من تأثيرها في الأجسام وإشراقها وقُوَّة نُورها، وفيهم من عبد الشَّمس لما رأى فيها من [٥٨/أ] صلاح العالم من الحيوانات والنَّبات والنُّور الفائض في الكون، ومنهم من عبد الكواكب، يعبد أحدهم الكوكب حتَّى يغيب، فإذا غاب اتَّخذ صنمًا على شكله، وقد توهَّم أنَّ له شكلًا؛ فنحت الصَّنم على شكله، فلا يزال يعبده حتَّى يطلع الإله الذي كان الصَّنم خليفة وعوضًا عنه.

ثُمَّ هؤلاء يدَّعون العُقول الكاملة؛ وقد تفنَّنوا في فُنون العلم من الفلسفة والعُلوم الرِّياضيَّة العقليَّة؛ وهذا غاية ما أنتجته عُقولهم في تألُّههم المخلوقات!

فقد علمت أنَّ التَّألُّه والشَّرائع: أمرٌ لا يُوجد إلا بالسَّمع من الأنبياء، إذ ليس في قُوَّة العُقول الاهتداء إلى الله؛ وإلى شرائع الله، وإنَّما يُعبد الله ويُدان: بما أنزل الله؛ وبما عرَّف عباده أن يعبدوه به، ثُمَّ أيَّد السُّفراء - وهُم الوسائط - بالمُعجزات الباهرة.

فالقُلوب الصَّحيحة تشهد أنَّ ما جاءت به الأنبياء ليس من نتائج العُقول الفكريَّة التي سبق ذكرها، لأنَّ[١] العجز والقُصور ظاهرٌ فيها، والأنبياء عن محض الحقِّ بيِّنٌ فيها، ولأجل ذلك تراهم مُختلفين، كُلُّ صاحب عقلٍ منهم قد حسَّن له عقله وجهة يعبدها.

والأنبياء مُتَّفقون على أُصولهم التي جاءت من عند الله؛ وإن اختلفت شرائعهم وتفاصيلهم، وكُلٌّ منهم يُصدِّق صاحبه ممَّن كان قبله؛ ويُبشِّر[٢] به إن كان بعده.

فالعُقول تشهد بأنَّ ذلك من عند الله تعالى؛ لا من نتائج العُقول، ولا يظهر

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «لئن».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «وينشر».

للأنبياء في ذلك اختيارٌ وتدبيرٌ أصلًا، بل يراهم العاقل مُكلَّفين؛ غير مُختارين ولا مُتأمِّلين لما تُنتجه أفكارهم في شرائعهم وأديانهم، يقولون الحقَّ على أنفسهم ولهم، وكفى بذلك بُرهانًا واضحًا على صدقهم؛ ولو لم يظهر لهم مع ذلك مُعجزة؛ فإنَّ الحقَّ إذا تبرهن للعُقول الفاضلة: خرَّت مُنقادة له، ولو لم يظهر لها في المحسوس من خوارق العادات ما يُصدِّق شاهد هؤلاء، يرى - ما ذُكِرَ بهذه[1] القاعدة -: الأَنْفُس فاضلة مُستعدَّة، ترى ذلك حقيقة ولا يُرى، يتوارى عنها حُكمه في حينٍ من الأحيان.

فصلٌ

إذا عُلم ذلك؛ فليُعلم: أنَّ نبيَّنا مُحمَّدًا ﷺ [٥٨/ب] بعثه الله تعالى على فترةٍ من الرُّسل، شهدت الفطرة الصَّحيحة بصدق نُبوَّته، وذلك لأُمورٍ غير المُعجزات الخارقة للعوائد؛ التي تواتر النَّقل بها عن غير واحدٍ[2]:

الأوَّل: أنَّ رسالته ﷺ جاءت مُصلحة لما أفسد أهل الحجاز من دين إبراهيم.

وكانوا يستعملون أشياء منها، مثل: الحجِّ والطَّواف؛ وتحريم الشَّهر الحرام والهَدْي والقلائد؛ وبدَّلوا منها أكثرها، اتَّخذوا مع الله أندادًا مثل: هُبل؛ وأَسَاف؛ ونَائِلَة[3].

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «هذه».

(٢) نصَّ المُؤلِّف رحمه الله على الأمر الأوَّل فقط من الأُمور التي شهدت بصدق نُبوَّة نبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ؛ وأغفل ذكر بقيَّة الأمور.

(٣) قال ابن حجرٍ العسقلانيُّ في [فتح الباري بشرح صحيح البُخاريِّ: ٦/ ٥٤٩]: (وذكر ابن إسحاق: أنَّ سبب عبادة عمرو بن لُحَيٍّ الأصنام: أنَّه خرج إلى الشَّام - وبها يومئذٍ العماليق -؛ وهُم يعبدون الأصنام، فاستوهبهم واحدًا منها، وجاء به إلى مكَّة فنصبه إلى الكعبة؛ وهُو هُبَل، وكان قبل ذلك في زمن جُرْهُمٍ: قد فَجَر رجلٌ يُقال له =

واتَّخذوا مع الكعبة طواغيت، مثل: اللات؛ والعُزَّى؛ ومناة الثَّالثة الأُخرى؛ والكعبة اليمانيَّة وهُو البيت الذي كان لخَثْعَم؛ الذي بعث رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجليَّ فهدمه مع خَيْلِ(١) أَحْمَس(٢).

وكان أهل الحجاز من المُشركين لا يعتقدون بعثًا ولا نُشورًا، يُهلُّون لمَنَاة الطَّاغية، ويُقرِّبون القرابين للأصنام، ويُسيِّبون السَّائبة، ويُحرِّمون الوصيلة والحام، ويقولون: الملائكة بنات الله؛ ويتأذَّون هُم من البنات ويقتلونهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾(٣).

وغير ذلك من العقائد والأعمال النَّاقصة، ويظلمون في الثَّأر، يقتلون واحدًا من القبيلة التي كان القاتل منها، هذا كان شأنهم.

وأمَّا اليهود: فبدَّلوا دين مُوسى ﷺ، وقالوا: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾(٤)

= أَسَافٌ بامرأةٍ يُقال لها نائلةٌ في الكعبة، فمسخهما الله جلَّ وعلا حجريْن، فأخذهما عمرو بن لُحَيٍّ فنصبهما حول الكعبة، فصار من يطوف يتمسَّح بهما، يبدأ بأَسَافٍ؛ ويختم بنائلةٍ).

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «جبل».

(٢) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الجهاد والسِّيَر/ باب حَرْقِ الدُّور والنَّخيل- الحديث رقم (٣٠٢٠)- ٢/ ٩٢٨]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب فضائل الصَّحابة/ باب من فضائل جرير بن عبد الله رضي الله تعالى عنه- الحديث رقم (٢٤٧٦)- ٤/ ١٩٢٦] من حديث جرير بن عبد الله البجليِّ ﷺ، ولفظ مُسلم: (قال لي رسول الله ﷺ: يا جرير؛ ألا تُريحني من ذي الخَلَصَة - بيتٍ لخَثْعَم كانَ يُدعى كعبة اليمانيَّة -؟ قال: فنفرت في خمسين ومائة فارسٍ، وكُنت لا أثبت على الخيل، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فضرب يده في صدري فقال: اللَّهُمَّ ثبِّته، واجعله هاديًا مهديًا. قال: فانطلق فحرَّقها بالنَّار، ثُمَّ بعث جريرٌ إلى رسول الله ﷺ رجلًا يُبشِّره - يُكنى أبا أَرْطَاة - منَّا، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال له: ما جئتك حتَّى تركناها كأنَّها جملٌ أجرب. فبرَّك رسول الله ﷺ على خيلِ أَحْمَس ورجالها: خمس مرَّات).

(٣) سُورة التَّكوير: الآيتان ٨-٩.

(٤) سُورة التَّوبة: الآية ٣٠.

وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾(١). وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾(٢). وتركوا حُكم التَّوراة(٣) من الرَّجم، وعدلوا عنه إلى التَّجبية(٤) والتَّحميم(٥)، وجعلوا الدِّية لأشرافهم دية مُغلَّظة؛ وتهاونوا بضُعفائهم، وكذَّبوا عيسى؛ ورموا أُمَّه بالقذف، وكفروا بالإنجيل؛ وأنكروا النَّسخ وغير ذلك من التَّغيير والتَّبديل.

وأمَّا النَّصارى: فغيَّروا دين عيسى، وأحلُّوا ما حرَّمت التَّوراة(٦) من الخمر(٧)، وصلُّوا إلى الشَّرق بعد بيت المقدس، ورموا الزَّبائل على الصَّخرة بُغضًا لليهود؛ ومُخالفة [٥٩/أ] لهم في جميع أُمورهم، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾(٨). وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾(٩). وعطَّلوا بيت المقدس، وزادوا فيما فُرض عليهم من الصِّيام؛ ونقلوه عن وقته المشروع؛ وجعلوه في أيَّام الرَّبيع، وأحلُّوا أشياء حُرِّمت عليهم فضلُّوا.

وكان النَّاس قبل مبعثه ﷺ: إمَّا يهودٌ مغضوبٌ عليهم لِمَا بدَّلوا من دين الله، وإمَّا نصارى ضالِّين عن نهج الصَّواب - وهُم أهل الشَّام والرُّوم والحبشة ومصر -، وإمَّا مجوسٌ عُبَّاد الأصنام والأوثان - وهُم أهل الحجاز والتُّرك وأهل الهند من الشَّمسيَّة -، وإمَّا فلاسفةٌ صابئون - وهُم أهل النُّجوم وعِلْم ما بعد الطَّبيعة؛ أهل العُلوم الرِّياضيَّة -.

---

(١) سُورة آل عمران: الآية ١٨١.
(٢) سُورة المائدة: الآية ٦٤.
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «التَّورية».
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «التَّحنية».
(٥) التَّجبية: أن يُحمل الزَّانيان على حمارٍ وتُقابل أقفيتهما ويُطاف بهما، والتَّحميم: أن تُسوَّد وجوههما.
(٦) في النُّسخة الخطيَّة: «التَّورية».
(٧) في النُّسخة الخطيَّة: «الحير».
(٨) سُورة المائدة: الآية ٧٣.
(٩) سُورة المائدة: الآيتان ١٧، ٧٢.

وكان أهل الأرض ضُلاَّلًا[١] جميعهم؛ وكان طُلاب الهُدى حائرين[٢]، يطوفون الآفاق على الهُدى فلا يجدونه[٣]، مثل: زيد بن عمرو بن نُفيلٍ؛ وورقة بن نوفلٍ؛ وسلمان الفارسيِّ.

أمَّا ورقة: فتنصَّر واتَّبع الكُتب؛ غير أنَّه كان مُوحِّدًا، وآمن برسول الله ﷺ؛ وصدَّق به.

وأمَّا زيدٌ: فوقف؛ فلم يدخل في يهوديَّةٍ ولا نصرانيَّةٍ؛ بل كان يُوحِّد الله ويعبد الله على دين إبراهيم، لا يأكل ما ذُبح على الصَّنم، وكان يسجد على راحته يعبد الله بذلك، وقال ﷺ: **«إنَّه يُبعث أُمَّة وحده»**[٤].

وكان يقول: (الشَّاة يخلقها الله؛ ويُنبت لها الكلأ: فتُذبح لغيره! أو على غير اسمه!). أو نحوًا ممَّا قال[٥].

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «ضُلال».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «حائرون».
(٣) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في بعض من كان مُوحِّدًا في الجاهليَّة».
(٤) أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (١٦٤٨)- ٣/ ١٨٧] من حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ﷺ، ولفظه: (كان رسول الله ﷺ بمكَّة هُو وزيد بن حارثة؛ فمرَّ بهما زيد بن عمرو بن نُفيلٍ، فدعواه إلى سُفرة لهما، فقال: يا ابن أخي؛ إنِّي لا آكل ممَّا ذُبح على النُّصب. قال: فما رُؤي النَّبيُّ ﷺ بعد ذلك أكل شيئًا ممَّا ذُبح على النُّصب. قال: قُلت: يا رسول الله؛ إنَّ أبي كان كما قد رأيت وبلغك، ولو أدركك لآمن بك واتَّبعك، فاسْتَغْفِرْ له. قال: نعم، فأَسْتَغْفِرُ له، فإنَّه يُبعث يوم القيامة أُمَّة وحده).
وأخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الذَّبائح والصَّيد/ باب ما ذُبح على النُّصب والأصنام- الحديث رقم (٥٤٩٩)- ٤/ ١٧٧٠] من حديث عبد الله بن عُمر بن الخطَّاب ﷺ، ولفظه: (عن رسول الله ﷺ أنَّه لقي زيد بن عمر بن نُفيل بأسفل بَلْدَح - أي: وادٍ بأسفل مكَّة في طريق التَّنعيم -؛ وذاك قبل أن ينزل على رسول الله ﷺ الوحي، فقُدِّم إلى رسول الله ﷺ سُفرة لحم، فأبى أن يأكل منها، ثُمَّ قال: إنِّي لا آكل ممَّا تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ممَّا ذُكر اسم الله عليه).
(٥) انظر: الرَّوض الأُنُف في شرح غريب السِّيَر للسُّهيليِّ ١/ ٣٨٢.

كان يُنكر ذلك بفطرته السَّليمة التي فطر الله الخلق عليها من توحيد الله تعالى.

وأمَّا سلمان الفارسيُّ: فوجد قومًا من الرَّهَّابين الذين كانوا على دين عيسى ولم يُغيِّروا، حتَّى كان عند آخرهم فقال لهم: إنَّه قد آن أوان نبيٍّ يُبعث بالحجاز، فقصد سلمان الحجاز؛ حتَّى اجتمع برسول الله ﷺ(١).

فانظر أيُّها العاقل: كيف بَعَث مُحمَّدًا ﷺ رحمة لأهل الأرض قاطبة؟ فبيَّن لأهل [٥٩/ب] الحجاز ما أخطؤوا فيه من اتِّخاذ الأصنام والأوثان آلهة من دُون الله، وأقرَّهم على ما كانوا عليه من الحقِّ، مثل: مكارم الأخلاق؛ وتعظيم المشاعر والهَدْي والقلائد وغيرها، ليقوم أمرهم على الحُجَّة الصَّحيحة؛ من الزَّيغ والانحراف الذي كانوا فيه.

فانظر كيف بيَّن لليهود ضلالتهم وعرَّفهم ما انحرفوا فيه؛ وردَّ عليهم اتِّخاذ العُزَيْر ولدًا لله؟ وكيف هداهم(٢) إلى تقويم الاعوجاج الذي انحرفوا فيه؟

وانظر كيف بيَّن للنَّصارى ما انحرفوا فيه من اتِّخاذ المسيح ابن(٣) الله؛ وإبطال أحكام التَّوراة(٤)، وبيَّن لهم ما انحرفوا فيه وهداهم إلى الاستقامة؟

ثُمَّ انظر كيف صدع هؤلاء بالحقِّ الذي لم يَشُبْه(٥) باطلٌ؛ بحيث يشهد الفَطِن العاقل أنَّ الذي جاء به مُحمَّدٌ ﷺ حقٌّ من عند الله؛ ليس في قُوَّة العُقول

---

(١) قصَّة سلمان الفارسيِّ رضي الله عنه الطَّويلة: أخرجها أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٢٣٧٣٧)- ٣٩/ ١٤٠-١٤٧] من حديث عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما قال: (حدَّثني سلمان الفارسيُّ حديثه من فِيهِ)، وفيها: (فقصصت عليه حديثي كما حدَّثتك يا ابن عبَّاسٍ، قال: فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابُه).

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «هديهم».

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «المسيح بن».

(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «التَّورية».

(٥) في النُّسخة الخطيَّة: «يشوبه».

البشريَّة أن يُختلق مثله؟

وانظر كيف علَّمه الله قصص مُوسى وبني إسرائيل؛ كأنَّها نقل المِسْطَرَة من دينهم على اصطلاحهم الذي كانوا عليه؛ يقصُّ عليهم نبأهم الأوَّل كما كان؟

وكذلك النَّصارى؛ من خبر المسيح عيسى بن مريم[١] وولادته، وخبر زكريَّا ويحيى؛ وغيرهم من الأنبياء، كأنَّه خرج من بينهم؛ يُحدِّث عنهم بما كان من أمرهم.

ثُمَّ قصَّة ذي القرنيْن؛ وأهل الكهف؛ وقصَّة يُونس؛ ويُوسف؛ وإبراهيم في وُرود الملائكة عليه حين ضيَّفهم؛ وقصَّة أيُّوب؛ وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل، كأنَّه رآهم؛ فهُو يُخبر بما رآه منهم.

أيُّها الأخ العاقل الذَّكيُّ: ومن أين لرجلٍ عاقلٍ أُمِّيٍّ لا يقرأ ولا يكتب؛ نشأ ببلاد الحجاز في مكَّة بين قومه وأعمامه: خبر إبراهيم ومُوسى وعيسى وزكريَّا ويحيى وأيُّوب؟ وخبر ما في التَّوراة[٢] من قصص الأنبياء وغيرهم؟

ثُمَّ إنَّه جاء بأمرٍ يقوم به أهل الأرض جميعُهم - مُشركهم ويهوديُّهم ونصرانيُّهم وفيلسوفهم - بأمرٍ فَضْلٍ حقٍّ.

يشهد العقل الصَّحيح: الباطل الذي كان عليه أهل الأرض - شرقها وغربها؛ من أحمرها وأسودها؛ وعربها وعجمها -، ثُمَّ يشهد العقل الصَّحيح: الذي جاء به مُحمَّدٌ ﷺ مُوافقًا [٦٠/أ] لما في الكُتب التي قبله؛ ومُهيمنًا عليها، قاصًّا لها بجُمل أخبارها قصصًا مُوَفِّيًا؛ تحيَّر له عُقول المُنصفين[٣] من أهل الكتاب: إذا ذكر مُوسى وقومه وفرعون وما جرى لهم،

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «خبر المسيح وعيسى ومريم».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «التَّورية».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «المُصنفين».

وكما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾[١].

وخبر التِّسع آياتٍ[٢]؛ والعشر الكلمات[٣]؛ والمُناجاة[٤] على الطُّور، وخبر هارون وأخذ مُوسى برأسه حين اتَّخذوا العجل، وخبرهم في التِّيه، وخبرهم في فلق البحر وإغراق الكُفَّار، وإرسال الطُّوفان والجراد والقُمَّل والضَّفادع والدَّم عليهم، وغير ذلك من الإسرائيليَّات[٥]، وخبر بُلعام بن باعُور وإخلاده إلى الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ الآية[٦]

وقصص من قبلهم من الأنبياء؛ مثل: إبراهيم ولُوطٍ ومن قبلهم من قصَّة نُوحٍ وهُودٍ وصالحٍ وغيرهم.

إذا رأى العاقل إنسانًا نشأ بالحجاز؛ لا يقرأ ولا يكتب؛ يقصُّ على الخلق نبأ من قبلهم - رأي عيْنٍ كما هُو حقيقة بالنَّفس - الذي كانوا عليه؛

---

(١) سُورة الأعراف: الآية ١٧١.

(٢) أخرج عبد الرَّزَّاق الصَّنعانيُّ في تفسيره (٢/ ٣٩٠)؛ وابن جريرٍ الطَّبريُّ في جامعه (١٥/ ١٧٢) عن عبد الله بن عبَّاسٍ ﷺ في قوله تعالى: ﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [سُورة الإسراء: الآية ١٠١]، قال: (وهي مُتتابعاتٌ، وهي في سُورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الآية: ١٣٠]. قال: السِّنين لأهل البوادي، ونقصٍ من الثَّمرات لأهل القُرى، فهاتان آيتان، ﴿ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ [الآية: ١٣٣]: فهذه خمسٌ، ويد مُوسى إذ أخرجها بيضاء من غير سُوءٍ - والسُّوء: البرص -، وعصاه إذ ألقاها فإذا هي ثُعبان مُبينٌ).

(٣) أخرج ابن أبي شيبة في مُصنَّفه [كتاب الأوائل/ الحديث رقم (٣٧٠٠٥)- ١٩/ ٥٤٧] عن كعبِ الأحبار ﷺ قال: (كان أوَّل ما نزل القُرآن من التَّوراة: عشر آياتٍ، وهي العشر التي أُنزلت في آخر الأنعام).

(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «والمُناجات».

(٥) المُراد: القصص الحقُّ التي قصَّها الله تعالى في كتابه عن بني إسرائيل، وليس المراد: الأخبار الواردة عن بني إسرائيل؛ ممَّا يُحدَّث عنهم فيها ولا حَرَجَ؛ بلا تصديقٍ ولا تكذيبٍ.

(٦) سُورة الأعراف: الآية ١٧٦.

ويُعرِّفهم[1] نهج الحقِّ والصَّواب الذي انحرفوا عنه إلى ضدِّه من الباطل، ويقصُّ عليهم نبأ ما بعدهم ليستدلُّوا بالآتي على ما ظهر من صدق قصصه في الماضي، ثُمَّ يأتي بالعدل في جميع الأُمور له وعليه، مثل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾[2]. و﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾[3]. وغير ذلك ممَّا لا يُحصر: شهد العقل قاضيًا بأنَّ ذلك أمرٌ إلهيٌّ[4]؛ لا يقوى البشر على ذلك، وأنَّ ذلك هُو الحقُّ؛ وليس من نتائج الفِكْر والعُقول المُخَبِّطَة تارة؛ والمُصيبة أُخرى، وقضت العُقول بأنَّ ذلك من عند الله، وأنَّه رسول الله، بعثه الله على فترةٍ من الرُّسل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[5].

وشهد العقل: أنَّ الرَّسول ﷺ مُكلَّفٌ؛ حَمَل أثقال النُّبوَّة، فهُو منقهرٌ لها؛ ليس له فيها اختيارٌ.

واكتفت العُقول بذلك عن ظُهور المُعجزات الخارقة للعوائد، فكيف وقد تأيَّد ذلك بالمُعجزات الخارقة؟ مثل[6]: انشقاق القمر، وإطعام النَّفر الكثير من الطَّعام القليل، ونبع الماء من بين أصابعه حتَّى توضَّأ من ذلك أُلوفٌ، وقصَّة بئر الحُديبية حين وضع فيها سهمًا من كنانته فجاشت بالماء الكثير، وتكثير الطَّعام [٦٠/ب] في غزوة تبوك وقصَّة عينها وتكثير مائها، وغير ذلك ممَّا لا يُحصى.

ثُمَّ إخباره بالمُغيَّبات التي جاءت كما أخبر - كفلق الصُّبح - عن مصارع

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «تعرفهم».
(٢) سُورة عبس: الآية ١
(٣) سُورة المسد: الآية ١
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «إلي».
(٥) سُورة المائدة: الآية ١٩، وفي النُّسخة الخطيَّة: «يا أيُّها النَّاس».
(٦) انظر في أمثلة هذه المُعجزات الخارقة للعوائد: دلائل النُّبوَّة للفريابيِّ، تثبيت دلائل النُّبوَّة للهمذانيِّ، أعلام النُّبوَّة للماورديِّ، دلائل النُّبوَّة للبيهقيِّ، دلائل النُّبوَّة للأصبهانيِّ.

أهل بدرٍ، فما ماط أحدهم عن موضع يده.

وأخبر بظُهور دينه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾(١)

وأخبر بقتل الأسود العنسيِّ الكذَّاب ليلة قتله، وبموت النَّجاشيِّ يوم وفاته وصلَّى عليه، وأخبر بقتل جعفر وأصحابه.

وقال: «**ليَتِمَّنَّ هذا الأمر حتَّى يسير الرَّاكب من كذا إلى كذا لا يخاف إلا الله؛ والذِّئب على غنمه**»(٢).

وأخبر بفتح كُنوز كسرى وقيصر، وكان عديُّ بن حاتمٍ الطَّائيُّ: ممَّن افتتح كُنوز كسرى.

وأخبر بأنَّ عمَّارًا تقتله(٣) الفئة الباغية، وأنَّ أشقى النَّاس من يضرب عليًّا على هذه؛ فيخضب منها هذه، وأنَّ الحسن يُصلح الله به بين فئتيْن عظيمتيْن، وأخبر عُثمان ببلوى بعدها الجنَّة.

وقال لجبل حراء: «**اسكن؛ فما عليك إلا نبيٌّ وصدِّيقٌ وشهيدٌ**»(٤).

---

(١) سُورة التَّوبة: الآية ٣٣، سُورة الصَّفِّ: الآية ٩.

(٢) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب المناقب/ باب علامات النُّبوَّة في الإسلام- الحديث رقم (٣٦١٢)- ٣/ ١١١٤] من حديث خبَّاب بن الأرتِّ ﷺ، ولفظه: (شكونا إلى رسول الله ﷺ - وهُو مُتوسِّدٌ بُردة له في ظلِّ الكعبة -، قُلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: كان الرَّجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض فيُجعل فيه، فيُجاء بالمنشار فيُوضع على رأسه فيُشقُّ باثنتيْن وما يصدُّه ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عَصَبٍ وما يصدُّه ذلك عن دينه، والله؛ ليُتِمَّنَّ هذا الأمر حتَّى يسير الرَّاكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله؛ أو الذِّئب على غنمه، ولكنَّكُم تستعجلون».

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «يقتله».

(٤) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب فضائل الصَّحابة/ باب من فضائل طلحة والزُّبير رضي الله تعالى عنهما- الحديث رقم (٢٤١٧)- ٤/ ١٨٨٠] من حديث أبي هُريرة ﷺ، =

فكانت هذه الإخبارات كُلُّها حقًّا[١]؛ لم يُخْطِ منها شيءٌ.

ثُمَّ أخبر وقال: «**ليلقينَّ اللهَ أحدُكم، فينظر عن يمينه: فلا يرى إلا ما قدَّم، وعن شماله: فلا يرى إلا ما قدَّم، وبين يديه: فلا يرى إلا النَّار تلقاء وجهه، فاتَّقوا النَّار؛ ولو بشقِّ تمرةٍ**»[٢].

ثُمَّ أخبر أنَّ الله تعالى يقول لعبده: «**ألم أُعطك مالًا؛ وأَدَعْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ ثُمَّ يقول له: فهل ظننتَ أنَّك مُلاقِيَّ؟ فيقول: لا. فيقول: إنِّي نسيتك اليوم كما نسيتني**»[٣].

فشهدت العُقول الصَّحيحة: بأنَّ ما أخبر به في المُستقبل حقٌّ، كما أنَّ ما

= ولفظه: (أنَّ رسول الله ﷺ كان على جبل حراءٍ فتحرَّك، فقال رسول الله ﷺ: اسكن حراء، فما عليك إلا نبيٌّ أو صدِّيقٌ أو شهيدٌ).

(١) في النسخة الخطية: «حق».

(٢) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب المناقب/ باب علامات النُّبوَّة في الإسلام- الحديث رقم (٣٥٩٣)- ٣/ ١١١٠]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب الزَّكاة/ باب الحثِّ على الصَّدقة ولو بشقِّ تمرةٍ أو كلمةٍ طيِّبةٍ وأنَّها حجابٌ من النَّار- الحديث رقم (١٠١٦)- ٢/ ٧٠٣-٧٠٤] من حديث عديِّ بن حاتمٍ ﷺ، ولفظ البُخاريِّ: «**وليلقينَّ اللهَ أحدُكُم يوم يلقاه وليس بينه وبينه تُرجمانٌ يُترجم له، فيقولنَّ: ألم أبعث إليك رسولًا فيُبلِّغك؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أُعطك مالًا وولدًا وأُفضل عليك؟ فيقول: بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنَّم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنَّم. قال عديٌّ: سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: اتَّقوا النَّار ولو بشقِّ تمرةٍ، فمن لم يجد شقَّ تمرةٍ فبكلمةٍ طيِّبةٍ**» الحديث.

(٣) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الزُّهد والرَّقائق/ الحديث رقم (٢٩٦٨)- ٤/ ٢٢٧٩-٢٢٨٠] من حديث أبي هُريرة ﷺ، ولفظه: (قالوا: يا رسول الله؛ هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ قال: هل تُضارون في رُؤية الشَّمس في الظَّهيرة ليست في سحابةٍ؟ قالوا: لا قال: فهل تُضارون في رُؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابةٍ؟ قالوا: لا. قال: فوالذي نفسي بيده؛ لا تُضارون في رُؤية ربِّكم إلا كما تُضارون في رُؤية أحدهما. قال: فيلقى العبدَ فيقول: أي فُلْ؛ ألم أُكرمك وأُسوِّدك وأُزوِّجك وأُسخِّر لك الخيل والإبل وأَذَرْك تَرْأَس وتَرْبَع؟ فيقول: بلى. قال: فيقول: أفظننت أنَّك مُلاقِيَّ؟ فيقول: لا. فيقول: فإنِّي أنساك كما نسيتني) الحديث.

أخبر به من الأُمور الماضية حقٌّ، وتبرهنت نُبوَّته أيَّ بُرهانٍ؛ لا يقوم لها مُعارضٌ من الشُّكوك أصلًا.

وإلى الله نلتجئ؛ وبه نعتصم في حفظ أَدْيَاننا حتَّى نلقاه؛ وهُو عنَّا راضٍ بكرمه وجُوده، وهُو أرحم الرَّاحمين.

وليس المقصود هنا تعديد خوارقه؛ فإنَّها أكثر من أن تُحصى إذا تُؤمِّلت السُّنَّة، ولكن الغرض التَّنبيه على جنسها، ويحصل الغرض بذلك إن شاء الله تعالى.

فصلٌ

إذا علمت أيُّها الذَّكيُّ ذلك؛ فانظر بعقلك [٦١/أ]؛ وتأمَّل كُتب السُّنَّة والحديث واختلاف رُواتها وشُيوعهم(١) في الأمصار والبُلدان والآفاق في شرق الأرض وغربها: كيف اتَّفقوا على هذه الأُصول؟ فيُعلم أنَّ ذلك كما كان، فيقوم من قليلِ شاهدِ تصديقِ النُّبوَّة - وإن لم ترها - كما يقوم عندك شاهد العلم الضَّروريِّ بوجود إقليم الهند والرُّوم؛ وإن لم تره.

ثُمَّ اعلم أنَّ نبيَّك هذا ﷺ(٢): وصف ربَّه الذي نزَّل عليه الكتاب بأنَّه فوق عرشه، حيٌّ عالمٌ قادرٌ مُتكلِّمٌ سميعٌ بصيرٌ مُريدٌ، يعلم كُلَّ شيءٍ، ويُبصر كُلَّ شيءٍ، ولا يخفى من علمه شيءٌ، وهُو ذُو الجلال والإكرام، لا جلال أتمَّ من جلاله، ولا جمال أنهى من جماله.

فافتح عينك، ولا يطول عليك الطَّريق بالجُوع والرِّياضة واليُبْس والتَّقشُّف وكثرة الأعمال.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «شبوعهم».
(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في بيان طريق الكمال».

وافتقر فِقْرة الأكياس من الجهل إلى العلم بالنَّبيِّ ﷺ، وصدِّقه بجميع ما أخبر، وأطعه في جميع ما أمر.

ثُمَّ افتقر فِقْرة الأكياس إلى العلم بالله، وعلِّق فُؤادك وكُلَّك به، وأحبَّه من كُلِّ قلبك، وعظِّمه وراقبه وأطعه وادعه وسامره كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك.

واجْهَد(١) على أن تُوصل قلبك بمعرفته ونُوره، فمتى اتَّصل قلبك به؛ وسكن الاتِّصال في محلِّ دبيب الخواطر مُناجاةً له ومُسامرةً؛ تلذُّذًا بجماله وكماله: فأنت إذًا من خواصِّه المُحبِّين له؛ والعارفين به.

فعِشْ بقُربه بقيَّة عُمرك، وتلذَّذ ببهجة جماله؛ ولذاذة مُسامرته، واستند إليه؛ وفوِّض أمرك إليه، وارفع حوائجك نحو كرمه، واستعن به، يكفيك ويتوكَّل لك في شُؤونك، ويُعينك ويُسكن حُبَّه قلبك، ويتَّصل سرُّك به، كالشَّيء تعلَّق بالشَّيء؛ وكالخُطَّاف(٢) إذا تعلَّق به شيءٌ.

واجعل قلبك له نصيبًا؛ خاصَّة لحُبِّه ووداده، فمتى كان القلب خاصًّا لله: يُرجى أن يقبله الله ويرفعه إليه؛ بكرمه ورحمته.

وهذا الحال: هُو أشرف النَّسب للعبد، إذ لا نسبة أشرف في حقِّه من محبَّته لربِّه ومعرفته له واستغنائه به [٦١/ب] واستناده إليه.

واعلم أنَّ هذا سُلوك الأذكياء الأكياس؛ أهل الفِطَن الرَّاجحة؛ والعُقول الصَّحيحة - الذين لا يحتاجون إلى تعبٍ شديدٍ؛ ولا إلى جُهدٍ جهيدٍ، من التَّقطُّع والرِّياضات؛ ومُكابدة المشقَّات -: عرفوه بنبيِّه ﷺ، علقت قُلوبهم به؛ واتَّصلت بنُوره اتِّصالًا لا انفصال له بمعونة الله وتأييده، و﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ

(١) أي: ابْلُغْ غايتك.
(٢) أي: كالحديدة المعطوفة المُعوجَّة.

مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[١].

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّد وآله وصحبه؛ وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين[٢].

(١) سُورة الحديد: الآية ٢١، سُورة الجُمعة: الآية ٤.

(٢) كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في مدينة مارنغا؛ في ولاية بارنا؛ في جُمهوريَّة البرازيل، في يوم الخميس ١ ربيعٍ الآخر ١٤٣٣هـ؛ الموافق ٢٣ فبراير (شُباط) ٢٠١٢م.

كتاب الصَّحْو وَالسُّكْر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الشَّيخ الإمام؛ الزَّاهد العابد؛ الورع النَّاسك؛ العارف السَّالك؛ عماد الدِّين أحمد بن الشَّيخ إبراهيم الواسطيُّ ﷺ: هذه قاعدةٌ فُتوحيَّةٌ تحقيقيَّةٌ(١)، فُتحت من فضل الله سُبحانه، تُشير(٢) إلى البدايات والنِّهايات؛ وتحريرها وحقائقها، يُخلِّص الله الشَّاكرين من الحيرة إن شاء الله تعالى عند هُجوم الواردات، فيعرفون مواردها ومصادرها، ويعلم السَّالك: أين هُو؟ وماذا يُعوزه من المقامات التي تخَطَّاها في سيْره ولم يُتقنها؟ ويعلم أيضًا ما بين يديْه من المقامات التي لم يجد بوادءها ولا طلائعها؛ لئلا ينقطع ذوقه عن طلب ما وراءه من الكمالات، وهي خاصَّةٌ بتحقيق معرفة الفناء والبقاء؛ والسُّكر والصَّحو؛ والتَّكوين والتَّمكين؛ وإيضاح معاني ذلك.

ونُوضِّح معنى: نُفوذ علم العبد إلى حاله؛ وحاله إلى علمه، فمن النَّاس من يكون علمه قاصرًا عن النُّفوذ إلى حاله؛ فيتحيَّر لذلك، ورُبَّما توهَّم أنَّ بينهما مُغايرة - كما سيأتي - ممَّن يكون علمه بتفاصيل الشَّريعة؛ وحَالَهُ لائحةٌ من السُّكر، فيشهد مادَّته من الفُقهاء في علمه؛ ويشهد مادَّته من الفُقر في حاله من الفُقراء، وليشهد بينهما مُنافاة أو تباعدًا؛ وذلك إنَّما يكون أنَّه لم ينفذ بالسَّيْر والسُّلوك والتَّرقِّي في أطوارهما من [٦٢/أ] العلم الظَّاهر إلى الحال الباطن، فمن وُفِّق لذلك: يجد الحال حقيقة العلم أو ثمرته؛ ولا يجد بينهما مُنافاة.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «بحقيقية».

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يشير».

فهذه الكرَّاسة تُوضِّح إن شاء الله تعالى: ترتيب سيْر العبد وسُلوكه في أطوار السُّلوك؛ وكيفيَّة ترقِّيه من العلم الصَّحيح النَّبويِّ؛ إلى الحال الصَّحيح الإلهيِّ النَّبويِّ أيضًا.

فيأخذ الجميع من فوق ولا يبقى مقطومًا[١]؛ يشهد هذا من قومٍ وذاك من قومٍ، بل يأخذ الجميع من مشكاة النُّبوَّة، وبالله التَّوفيق والمُستعان.

وأرجو من كرم الله تعالى النَّفع بها؛ وأن يقبلها بفضله كما تفضَّل بإلهامها، إنَّه أرحم الرَّاحمين.

وهي تذكرةٌ لكاتبها عند الطَّالبين السَّائرين إلى مقاعد المحبوبين، أرجو بها بَرْد أنفاسهم عند طيران أرواحهم إلى العليِّ الأعلى بهُبوب الأشواق؛ إلى نعيم التَّلاق، والله[٢] المُستعان؛ وعليه التُّكلان؛ وإليه أُنيب.

وهذا شرح ما ذكرنا:

الحمد لله الجاذب لأرواح مُحبِّيه إلى أوكارها من مواطن التَّقريب والزُّلفى، والمُحنِّن عليها بعواطفه الجميلة[٣] ممَّا لا يُعدُّ ولا يُحصى، منه مصادر الأُمور من الأعمال والأحوال وإليه الرُّجعى.

وأشهد أن لا إله إلا الله ربُّ الآخرة والأُولى.

وأشهد أنَّ مُحمَّدًا ﷺ عبده ورسوله الهادي إلى سبيل السَّلام والفاتح لهم أسرار الصِّفات العُليا والأسماء الحُسنى.

صلَّى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة في اللَّيل إذا يغشى والنَّهار إذا تجلَّى.

وبعد:

فهذه قواعد سُلوكيَّةٌ، تحرير أُمور البدايات والنِّهايات - على قواعد

---

(١) أي: مقطوعًا.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «وبالله».

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «الجملية».

الأسماء التي اصطلحت عليها هذه الطَّائفة -، فتح الله بها بعد التَّحيُّر في تحريرها، وتعذُّر مُرشدٍ يُنبِّه على جُملها وتفاصيلها، فلطف الله تعالى بها من خزائن المنَّة تُحفة للطَّالبين؛ وعلمًا للسَّالكين، ويجعلونها بين أيديهم إمامًا؛ فيؤمُّون مقاصدها العليَّة بالإرادة الصَّادقة: اشتياقًا يعرفون بها جُمَل ما يُعْوِزُهُم؛ ممَّا تخطَّوْه بالهمَّة، ولم يُتقنوه بحدَّة السَّيْر، وتلقِّي الجذبة بالاستعداد، فرُبَّما تخطَّوا مقامًا لم يُكملوا تفاصيله - وإن كان لا يندرج الأدنى في الأعلى ضمنًا وتبعًا، لكن التَّفصيل له رُتبة الكمال، وله مزيَّةٌ [٦٢/ ب] على مُجرَّد الأعمال -، ولذلك يعرفون ما بين توهُّمهم ممَّا لم يبلغوه أنَّهم أكملوا؛ كَيْلا ينقطعوا بذلك الوهم عن الكمال، وليعرفوا أسماء الأحوال والمقامات، فينفتح لهم بذلك جُمَل أوضاع القوم واصطلاحاتهم؛ فيكون ذلك مفتاحًا لعلم التَّصوُّف؛ وضبطًا لحواشيه وأطرافه، وإلى الله أرغب في تعميم النَّفع بها، إنَّه القادر على ذلك المُعين عليه.

الفصل الأَوَّل: في ترتيب الطَّريق على عبادات القوم واصطلاحاتهم

فنذكر منها جُمَلًا يندرج فيه بقيَّتها بالضِّمن والتَّبع، إذ يحصل بما نذكره منها مقصود السَّالك في سَيْره وسُلوكه، فإنَّها كالأُمَّهات وما عداها كالفُروع.

فمن اصطلاحاتهم في أوضاعهم: البادي والبَادِه والواقع والقادح، وهي أسماء مُتقاربة المعنى، عبارةٌ عن هُجوم أمرٍ لا يدوم يندرج وُجوده.

ثُمَّ الطَّوالع واللَّوامع والواردات والشُّرْب والذَّوْق، وهي مبادئ الأحوال إذا لم تستمرَّ، والمقام اسمٌ لما استمرَّ حُكمه على العبد، ثُمَّ تجلِّيا من مشهد الإلهيَّة والرُّبوبيَّة.

والفَرْق الأوَّل وهُو الاستتار بالخَلْق عن الحقِّ غالبًا، ثُمَّ الجَمْع وهُو الاستتار بالحقِّ عن الخَلْق.

وإن شئت قُلت: الفَرْق: غلبة رُؤية الصُّنعة على رُؤية الصَّانع، والجَمْع: غلبة رُؤية الصَّانع على رُؤية المصنوع.

ثُمَّ مشهد المعيَّة، ثُمَّ القبض والبسط في الموسم الذي لا يتعدَّياه، ثُمَّ الفناء والبقاء وأحكامهما، ثُمَّ مقام المُشاهدة الذي هُو فَصْلٌ بين رُؤية اليقين ورُؤية العيان، ثُمَّ التَّكوين والتَّمكين، ثُمَّ السُّكْر والصَّحْو في جَمْع الجَمْع.

ثُمَّ الفَرْق الثَّاني وهُو المقام الذي لا يحجبه الخَلْق عن الحقِّ؛ ولا الحقُّ عن الخَلْق، وما يُتوقَّع بعد ذلك، والله[1] المُستعان.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «وبالله».

الفصل الثَّاني: في تفصيل ذلك التَّرقِّي والسَّيْر

اعلم أنَّ أولَّ وَارِدٍ يَرِدُ: وَارِدُ حال اليقظة في أوان الغفلة، فيُوجب إبصار العبد مآله ومصيره؛ وما تؤول[١] إليه عاقبته من ثوابه وعقابه، فيُشمِّر للاستعداد لذلك، ويعزم على إصلاح الحال وتدارك الوقت.

ثُمَّ يبدو وَارِدُ حالِ [٦٣/أ] التَّوبة؛ وهُو وُجود زاجر الحقِّ في القُلوب المُوجب للنُّهوض إلى القيام بالأوامر؛ والانتهاء عن المناهي.

فإنْ غلب الأوَّل في أكثر الأوقات: كان حال اليقظة، وإن استمرَّ كان مقامه، وكذلك جميع ما سيأتي على هذا النَّمط.

وإن غلب وارد حال التَّوبة: كان حُكم المُحاسبة والرِّعاية للجوارح غالبًا في أكثر الأوقات، وفي بعضها يغفل العبد عن رعايتها؛ فيسقط إلى الغفلة والنِّسيان، فإذا شعر القلب بكدر التَّخليط: بعثه ذلك إلى الرُّجوع إلى إصلاح الحال، وإن دام وارد حال التَّوبة واستقرَّت المُحاسبة والرِّعاية: صارت[٢] مقامًا.

وإذا استقرَّت بدايات حال الإرادة[٣] - وهُو عبارةٌ عن همَّةٍ تنبعث إلى طلب الحقِّ ومحبَّته وإيثاره على غيره -؛ فإن غلب ذلك: حمل صاحبه على استعمال الكدِّ وبذل الطَّاقة والجدِّ في صُنوف التَّقرُّبات والمُعاملات، فإنَّها همَّة تحمل صاحبها على رُكوب المشقَّات؛ والصِّدق في السِّعايات.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يؤول».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «وصارت».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «الإراد».

ثُمَّ رُبَّما يلحقه فُتورٌ؛ لأنَّه حالٌ لم يبلغ أن يصير مقامًا فيه، فيهبط فيسقط صاحبه إلى المُحاسبة والرِّعاية؛ وتبرد الهمَّة قليلًا، ومتى دام صار مقامًا؛ وارتفع صاحبه عن الفُتور وغلب عليه، مُستوليًا على هُمومه وخواطره، ومتى غلب شارف صاحبه بوَقْع بارقةٍ من آثار الصِّفات المُقدَّسة التي بها يُشفى مريض الإرادة، ولا ينضبط تقدُّم وُجود آثار بعضها على بعضٍ، وإنَّما يكون ذلك بحسب النَّصيب.

الفصل الثَّالث: في ترتيبها بمُقتضى العلم

وأكمل وُجوه ترتيبها: أن يُبادَى صاحب الإرادة ببارقةٍ من صفة العُلُوِّ والفوقيَّة، فيبدو على قلبه أحيانًا من ذلك أثرٌ ثُمَّ يتوارى، فيسقط العبد إلى الإرادة.

وحقيقة ذلك الأثر: أن تبدو له أحيانًا عظمة ربِّه ﷻ من فوق عرشه، فيُكشف له في ضوء تلك البارقة: أسرار التَّنزيل؛ وُوجوه الفهم في القُرآن المجيد؛ وأسرار النُّبوَّات في بعثهم إلى العباد يُرشدونهم إلى معرفة الله تعالى ودينه وحُدوده وحُقوقه، فيعظم لذلك عنده عظمة الله تعالى ومنَّته على عباده، ويعظم عنده شأن الأنبياء وخطرهم(١)؛ خُصوصًا شأن سيِّدنا رسول الله ﷺ، [٦٣/ب] فينكشف له سرُّ رسالته؛ وكيف كان ابتداؤها؟ ويعتني حينئذٍ بمعرفة سيرته من كُتب السِّيرة.

فيعجب العبد من رحمة الرَّبِّ تعالى وحكمته في بعث رسوله إلى العباد من فوق عرشه بواسطة المَلَك وهُو جبريل ﵇، يأمر عباده وينهاهُم(٢)، ويهديهم إلى صراطه المُستقيم ليهتدوا إلى دينه ومعرفة صفاته وأسمائه.

ثُمَّ يرى من تمام الحكمة: تأييده بالمُعجزات الخارقة للعوائد، كنبع الماء من بين الأصابع، وانشقاق القمر، وتكثير الطَّعام القليل، وحنين الجذع، وإجابة الدُّعاء، والكُشوفات الصَّادقة، والإخبارات الصَّحيحة عن الماضي والمُستقبل: ممَّا تواتر النَّقل به؛ وتواترت عليها كُتب السِّيرة والمسانيد؛

(١) أي: قدرهم ومنزلتهم.
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «وينهيهم».

لارتفاع الرَّيْب والشُّكوك عن أهل القُصود، إذ أهل الفهم لا يحتاجون إلى المُعجزة في إيمانهم، فإنَّهم يعرفون صدق الرِّسالة بفطرتهم السَّليمة بمُجرَّد قيام الحُجَّة وصحَّة الدَّعوة، وعند ذلك يجد المُريد ذوق القُرآن المجيد وتدبُّره والوُقوف على تأويله وتفسيره.

ويجد أيضًا ذوق معرفة سيرة رسول الله ﷺ من ابتداء ميلاده الشَّريف؛ إلى شَقِّ فؤاده الشَّريف لتطهير قلبه، ثُمَّ صدقه وأمانته عند بُلوغه ومنشئه[1]، ثُمَّ ظُهور العجائب قبل مبعثه ﷺ، مثل تظليل الرَّاهب له في قصَّة الرَّاهب لمَّا نزل عنده عِير قُرَيْشٍ؛ وكان فيهم رسول الله ﷺ[2].

ثُمَّ إكرام الله ﷻ ببعث المَلَك إليه ومُفاجأته له بحراء، ثُمَّ تصديق ورقة بن نوفلٍ وشهادته له بأنَّه قد جاءه النَّاموس الذي كان يأتي مُوسى[3] عليه السلام، مع ما سبق من شهادة أهل الكتاب له وانتظار مبعثه، وإخبار الكهنة عن مبعثه، وشهادة الهواتف من الحقِّ له، ثُمَّ اقتحامه بالدَّعوة إلى الله تعالى بلا خوفٍ، ثُمَّ صبره على الأذى، ثُمَّ هجرته إلى المدينة، ثُمَّ ظُهور دينه كما وعد وتوفُّره ونُموُّه، ثُمَّ كثرة عدد أصحابه بعد أن كانوا أفرادًا، ثُمَّ قتاله للمُشركين: مرَّة يُنصر؛ ومرَّة يُدال عليه، ثُمَّ ظُهور أمره وفتحه مكَّة، ثُمَّ ظُهور [٦٤/أ] نتيجة وصيَّته ﷺ عند وفاته بإنفاذ بعث أُسامة إلى الشَّام، وصدق إخباره عن فُتوح العراق وكُنوز كسرى، ثُمَّ بُلوغ دينه إلى الحدِّ الذي ذكره في المشرق والمغرب، ولم يتَّسع في الجُنوب والشِّمال كما اتَّسع في المشرق والمغرب.

فإذا فتح الله القلب لذلك والبصيرة فيه؛ ورُسوخ علم النُّبوَّة فيه؛ وعَلَم غيره من الأنبياء: يُرجى أن يُفتح القلب ليعرف خطاب الله تعالى في القُرآن،

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «ومنشائه».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «صلى الله ﷺ».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «عيسى».

ويعرف القلب امتنانه سُبحانه بذلك، كما أخبر ﷻ مُمتنًّا بذلك فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(١).

فيعرف العبد حينئذٍ وُجوه الفهم في الخطاب، وتنكشف(٢) له أسرار القُرآن وعجائبه، وكيف يتعرَّف ﷻ إلى عباده بصفاته المُقدَّسة تارة بنعمه؛ وعقابه أُخرى؟ وكيف يُرغِّبهم تارة؛ ويُرهِّبهم أُخرى؟ وينكشف للعبد مشهد الرَّبَّانيَّة، ويرى في نُوره هول يوم القيامة والعرض ووقُوف النَّاس لربِّ العالمين حُفاة عُراة غُرلًا، يُسْمِعُهُم الدَّاعي ويَنْفُذُهُم البصر.

ثُمَّ يتجلَّى الدَّيَّان لفصل القضاء؛ ووزن الأعمال؛ وتمييز النَّاس فريقيْن: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾(٣).

كما رأى حارثة، حيث قال: (رأيت عرش الرَّحمن بارزًا، وأهل الجنَّة في الجنَّة يتنعَّمون، وأهل النَّار في النَّار يُعذَّبون)(٤).

وذلك من لوازم مشهد الإلهيَّة وتوابعها.

ثُمَّ يُرجى أن يُفتح القلب لمحبَّة الحديث وسُنَّة رسول الله ﷺ؛ وإمرارها على الظَّاهر والباطن، فإنَّه كان يفعل ذلك ابتداء: إيمانًا وتصديقًا، وفي هذه

---

(١) سُورة آل عمران: الآية ١٦٤.

(٢) في النسخة الخطية: «وينكشف».

(٣) سُورة الشُّورى: الآية ٧.

(٤) أخرجه البزَّار في مُسنده [الحديث رقم (٦٩٤٨)- ١٣/٣٣٣] من حديث أنس بن مالك ﷺ، ولفظه: (أنَّ النَّبيَّ ﷺ لقي رجلًا يُقال له حارثة في بعض سكك المدينة، فقال: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مُؤمنًا حقًّا. قال: إنَّ لكُلِّ إيمانٍ حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسي عن الدُّنيا، فأظمأت نهاري؛ وأسهرت ليلي، وكأنِّي بعرش ربِّي باديًا، وكأنِّي بأهل الجنَّة في الجنَّة يتنعَّمون؛ وأهل النَّار في النَّار يُعذَّبون. فقال النَّبيُّ ﷺ: أصبت فَالْزَمْ، مُؤمنٌ نوَّر الله قلبه). قال الهيثميُّ في [مجمع الزَّوائد: ١/٥٧]: (رواه البزَّار، وفيه يُوسف بن عطيَّة؛ لا يُحتجُّ به).

المرتبة: صار يجد ذلك ذوقًا ويقينًا، ويعظم لديه قدر المُتابعة، وتنكشف[1] لقلبه لطائف السُّنَّة وأسرار المشروعات والمندوبات.

واعلم أنَّ ذلك كُلَّه: مُلازمٌ للكشف عن صفة الفوقيَّة، فمتى تحقَّق العبد بها: انكشف في ضوئها ما يقسم الله تعالى من ذلك على حسبه؛ وحسب فهمه واستعداده.

ومن لم يذق طعم النُّبوَّة ولا طعم الكتاب؛ وادَّعى أنَّه عارفٌ[2]: فهو أحد رجلَيْن:

إمَّا أن يكون في ابتداء[3] الإرادة بعد؛ لم يظفر بشيءٍ من طوالع المحبوب [٦٤/ب]، مُستغرقٌ بوَجْده لا يتَّسع لغير ذلك.

وإمَّا أن يكون قد رقي إلى مقامٍ من البقاء، فيُخطئ ذلك ولم يذقه ولم يشعر به، كما إذا قطع المركب بالرَّاكب بلادًا لم يشعر بها لنومٍ أو غَيبةٍ أو نحو ذلك، فهُو مشغولٌ بحُكم مقامه؛ مُصطلمٌ فيه، قد أسكره ذلك عمَّا سواه.

وكلاهُما ناقصٌ، والكامل مَنْ سِيرَته على التَّرتيب المذكور، فلا يصل إلى الكمال إلا وقد مرَّ على ما ينبغي للمُسلم والمُؤمن والعارف والواصل: أن يمرَّ عليه.

فصلٌ

ثُمَّ يُرجى له بعد المُرور على ذلك: أن يُفتح بذوق صفة الرُّبوبيَّة؛ وشُهود القيُّوميَّة، فيشهد المولى العزيز من فوق عرشه قائمًا بتدبير العالم والمصنوعات

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «وينكشف».
(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في السَّالك الجاهل».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «بيداء».

يُدبِّر أُمورهم، فيشهدهم قيامًا[١] في التَّصرُّف والتَّدبير، المُحرِّك لهم سواهم؛ والمُدبِّر لهم غيرهم، وهُو ربُّهم كما يشاء ويختار، وذلك الذي يُسمَّى الجَمْع عند القوم: في اصطلاح القوم، وما قبله يُسمَّى الفَرْق الأوَّل، فإنَّ صاحب الفَرْق الأوَّل: تُفرِّقه[٢] الأشياء عن رُؤية جامعها وقيُّومها، فإذا اجتمعت في نظره المُتفرِّقات بجامعها: وجد الجميع يُحيطه واحدٌ؛ ويقوم به قيُّومٌ واحدٌ، فاجتمع نظره بعد تفرُّقه؛ بل رُبَّما غاب في جمعه عن رُؤيتها، فلا يشهد غير الجامع، ويراها بحُكم التَّبعيَّة لإرادته وقُدرته ومشيئته وتصرُّفه.

وعلامة صحَّة حال هذا الذي غاب عن جَمْعه: أن يشهد الأمر والنَّهي، ويستعمل حُكمه في جَمْعه، فمن النَّاس من يزلق في هذا المقام؛ فيرى الفِعْل فِعْل الله، فلا يستقبح شيئًا، ويستحسن كُلَّ شيءٍ، ولا يُفرِّق بين فِعْل الله وخَلْقه، ففِعْل الله تعالى: ما كان بغير واسطةٍ، وخَلْقه: مثل أفعال العباد وغيره، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾[٣].

فكُلُّ فِعْل لله: هُو خَلْق الله، وما خلقه الله: قد يكون فِعْله؛ وقد يكون فعلًا لمخلوقاته بواسطة خلقه له، فعلى هذا لا تُسمَّى أفعال العباد: فِعْل الله، بل أحسن الأسماء لها أن تُسمَّى: خَلْق الله.

والمُحقُّ لا يتوارى عنه حُكم مشهد الإلهيَّة في مشهد الرُّبوبيَّة، وقد يُسمَّى مقام البقاء بعد الفناء، وهُو المقام الذي يُسمُّونه جَمْع الجَمْع - جَمْعًا أيضًا -، والكُلُّ صحيحٌ.

والتَّحقيق: أنَّ هذا جَمْعٌ في الصِّفات، وجَمْع الجَمْع: جَمْعٌ في الذَّات [٦٥/أ]، فافهم اصطلاح القوم؛ كي لا يتناقض.

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «قيا».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يفرقه».
(٣) سُورة الصَّافَّات: الآية ٩٦.

وبعضهم يجعل رُؤية الأفعال: تَفرِقَة معرفة، ورُؤية[(١)] الصّفات: جَمْعًا، ورُؤية الذَّات: جَمْع الجَمْع.

ثُمَّ يُرجى أن يُفتح له صفة المعيَّة: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[(٢)]، فيشهده معه أينما كان، فيلحقه لذلك ذُبولٌ وانكسارٌ وحياءٌ وانقباضٌ في الظَّاهر والخواطر، وكُلُّ ذلك ووُجوده باقٍ لم يفن، وهُو محجوبٌ بوُجوده عن مقصوده.

وجميع ما ذُكر: هي من مشاهد العُلماء والصُّلحاء والعُبَّاد، فمن النَّاس[(٣)]: من لا يتجاوز هذه المشاهد؛ ولا يشمُّ رائحة الفناء والبقاء، ولا يشمُّ طعم الصَّحو والسُّكر، فيعيش عُمره في هذه المشاهد مُتنعِّمًا بها.

ولعمري؛ هي حياةٌ طيِّبةٌ في نُور الإيمان والإيقان[(٤)] والسُّنَّة؛ إن لو كملت ما بعدها من مشاهد أهل التَّحقيق.

ومن النَّاس من يرقبه بعد عُبوره - على جميع ما شُرح -؛ وذوق ما فيها من الأحوال - ممَّا تقدَّم -، كالطَّلب والإرادة والمعرفة وذوق السُّنَّة وعُلوم التَّنزيل والمحبَّة العامَّة والحياء والمُراقبة والقُرْب الأوَّل في مشهد المعيَّة، فيرتقي إلى مشاهد الأرواح؛ بعد العُبور على طريق الفناء؛ إلى مقرِّ البقاء وسُكره وتحقيق الحقائق وجَمْع الجَمْع.

فجميع ما شُرح أوَّلًا: هُو مشهد القُلوب، والقلوب لا تتجاوز[(٥)] الصِّفات، وكُلٌّ يتوارى ويضمحلُّ عند الفناء، ورُبَّما يعود بعد البقاء؛ لكن

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «معرفة رُؤية».
(٢) سُورة الحديد: الآية ٤.
(٣) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: فمن النَّاس إلخ».
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «والإتقان».
(٥) في النُّسخة الخطيَّة: «يتجاوز».

بوُجودٍ آخر غير هذا الوُجود الذي ذهب بالفناء، بل بوُجودٍ يُبقيه الله تعالى به في حال المحبَّة الخاصَّة في مقام البقاء.

والفَرْق بين المحبَّة العامَّة والخاصَّة(١): أنَّ المحبَّة العامَّة تظهر من مطالع الصِّفات، وتتلاشى عند تلاشي الوُجود، والوُجود يتلاشى عند لمعان نُور المُشاهدة - التي هي برزخٌ من اليقين وعيان الآخرة -.

والمحبَّة الخاصَّة: فيها السَّكرات ووُجودُ خالصِ الحُبِّ وافتتان الرُّوح بما باشرها من سُطوعِ آثار الجلال والكمال والجمال الأحديِّ، بحيث يغلب كون الرَّبِّ ﷻ على كون العبد، أعني: يغلب وُجودُه وُجودَ العبد؛ فينقهر له.

ففيهم من يصحو بعد ذلك؛ فتعود(٢) إليه عُلومه ومعارفه وأذواقه وفُروقه وشُعوره وجميع أحوال بداياته، فيبقى يتقرَّب إلى الله ﷻ بمثل ما يتقرَّب [٦٥/ب] أهل البداية من السِّعايات وتعاطي الأسباب التي يتقرَّب بها أهل البداية، ولا يضرُّه ذلك، وهذا مقام الكمال والصِّدِّيقين والأولياء، يتصرَّفون في أحوالهم بالله؛ ولا يتصرَّف الحال فيهم.

وفيهم من لا يفيق من سكرته إلا في أوقات الفرائض حفظًا عليه، ثُمَّ يعود إلى سكرته، فهُو في سكرةٍ لا يُفيق منها إلا بلقاء ربِّه، فيها يعيش؛ وفيها يموت؛ وفي غمارها يُبعث، يتباهي النَّاس بأعمالهم يوم القيامة: وهُو مسلوب الفُؤاد بما باداه به مولاه، ورُبَّما كان الأغلب من أهل الطَّائفة كذلك.

وأهل الصَّحو والتَّمكين أفرادٌ، وكان - والله أعلم - كَشْفُ حقِّ الحقيقة والمحو والمَحْق أنواعٌ؛ من وُجود الحقِّ رُتبة أعلى من مرتبةٍ، وحقيقته: غلبة وُجود الحقِّ تعالى على وُجود العبد.

---

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في فرق المحبَّة العامَّة إلخ».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «فيعود».

فصلٌ: في علامات صحَّة هذا الحال وميزانه

إذا أراد الله بعبدٍ من عباده ذلك: قبض قلبه، فيبدو عليه آثار القبض، فينقبض قلبه عن تلك المشاهد والأذكار والأفكار؛ حتَّى يبقى فارغًا من كُلِّ شيءٍ؛ خاليًا عن كُلِّ ذكرٍ، قد انحلَّت قوى نفسه، فرُبَّما أنكر لذلك نفسه.

والقبض - كما سبق -: إنَّما يكون على الوُجود الذي يتلاشى عند لمعان نُور المُشاهدة.

وموسم هذا القبض: في أوَّل المحبَّة الخاصَّة؛ لا يتقدَّمها ولا يتأخَّر عنها، ولا يتقدَّمها لقُصور صاحبها؛ ولا يتأخَّر عنها لتمكُّنه، فلا يتصرَّف فيه القبض.

وكان بعضهم يقول: إذا انقبض القلب عن الذِّكر: فبشِّره أنَّه من السَّبعة الأبدال أو كما قال.

فصلٌ

فإذا تمكَّن القبض؛ وفني به الوُجود: يُريد أن يذكر؛ فلا يقدر، ويُريد أن يسري في ميادين أفكاره في المصنوعات؛ فلا يستطيع، يُرجى أن يبدو على رُوحه في ذلك الخلق: أشعَّة الجمال الذَّاتيِّ؛ وهُو غير الجمال الصِّفاتيِّ، فإنَّ ذلك يذهب أثره عن القُلوب عند ظُهور سلطنة هذا على الأرواح، بل تذهب القُلوب؛ ويذهب ما حصل فيها بذهابها، بمعنى: أنَّه يندرج في مشهد الرُّوح ضمنًا وتبعًا؛ فلا يظهر حُكمه، ويكون الوُجود الذي فيه مشاهد القُلوب: كالظُّلمة في وجه هذا المشهد الرُّوحيِّ.

وعلامة وُجود هذا المشهد: أن يلتهب [٦٦/أ] باطن العبد بالمحبَّة الخاصَّة - وهي محبَّة الصِّفاتيَّة -؛ غير ما يجده العارفون في المحبَّة الصِّفاتيَّة - كما سبق معناه -، وهُو الذي يُسمَّى: المُشاهدة في اصطلاح القوم، وما قبله من المشاهد يُسمَّى: المُكاشفة؛ أو المُحاضرة، ويُسمَّى: مشهد الفردانيَّة، لأنَّه تُمحى معه المشقَّات، ويظهر انفراد العظمة بجوامع صفات الكمال؛ حيث كان ولا شيء معه، وربَّما كان باديًا أو بادهًا لا يدوم، ثُمَّ يسقط إلى وُجوده؛ فتعود[1] عليه تلك المشاهد الإيمانيَّة، ويعود عليه القبض بعد ذلك.

وغالبًا: إنَّما يُوجد القبض قُبَيْل النَّصيب من ذلك الحال الخاصِّ، فمتى وُجد القبض: فليستعدَّ لما وراءه.

وقد يجد أهل القُلوب شبه القبض والبسط: إمَّا من مزاجٍ يابسٍ أو من النَّفس؛ لتعاطي شهوةٍ من الشَّهوات، وليس ذلك بالقبض المشهور المذكور، ذلك قبضٌ إلهيٌّ: مورده من جهة العُلوِّ، يتصرَّف فيه؛ فيقبضه عن كُلِّ شيءٍ، ثُمَّ يُبسط بالمحبة الخاصَّة.

ومتى وجد وُجوده: وجد القبض، ومتى اضمحلَّ: استراح؛ فأخذته جواذب الجمال الأحديِّ؛ والجلال السَّرمديِّ، فتسكن رُوحه في تلك الجواذب حتَّى يتمكَّن في البقاء، ومتى كان حاله كذلك: فهُو صاحب تكوينٍ، لأنَّ صاحب التَّكوين يتناقض عليه حاله عند عَوْد وُجوده وظُهور صفات نفسه، ويكون مستقرُّه على الإيمان؛ وتكوينه في زوائد الأحوال.

وصاحب التَّمكين لا يتوارى عنه: ما لو كُوشف به من الحقيقة، ولا يتناقص بل يزيد، ويكون التَّكوين حينئذٍ في النُّفوس، لأنَّها صعدت إلى محلٍّ

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يعود».

القُرْب، وصاحب قلب[١] مقام التَّمكين: يجد فهم القُرآن والخُشوع في الصَّلاة في محلِّ نفسه لا بقلبه، لأنَّ قلبه مُختطفٌ لا يدخل فيه شيءٌ ولا يتلذَّذ بالإنعام؛ ولا يسري فيه أثرٌ، إنَّما يذوق ذلك كُلَّه في محلِّ نفسه، لأنَّها صارت بطبيعة القلب؛ كما صار القلب بطبيعة الرُّوح.

فصلٌ

ومن بدا عليه بادي الفيض فأفناه؛ ثُمَّ ظهرت عليه بعد الفيض لوائح المحبَّة الخاصَّة المُلهبة لقلبه في عوالم الرُّوح بعد فناء عوالم النَّفس والقلب؛ ولم يدم[٢] له ذلك الحُبُّ الخاصُّ، ثُمَّ عاد عليه وُجُوده؛ فظهر وُجُوده بمكانفة المُلازمة: فلا ينبغي أن ينتظر الخاصَّ ويقعد بطَّالا، بل أحسن ما يستعمل في ظُهور وُجُوده: التَّخلِّي عنه بحال التَّجريد.

فكأنَّ لسان حاله يقول: أنا استغلُّ بالتَّجريد عن وُجُودي؛ عاملًا على إفنائه كي يدوم لي قُرب ربِّي، ولا يُمكنني في حالة ظُهور وُجودي: أن أُبالغ في التَّعرِّي عنه بطريقٍ أرفع من هذا، فإنَّه أبلغ من نفي الخواطر، فإنَّه تجريدٌ بالباطن عن السِّوى: تحيُّزًا إلى الله ﷻ؛ ورُجوعًا بالكُليَّة إليه، وهُو حالة الفقر والتَّجريد عمَّا سوى الله، فإذا ورد الحال الخاصُّ: فإنَّه لا يَرِد إلا بعد فناء الوُجُود؛ وفناء ما قام به من حال التَّجريد، وبالله التَّوفيق.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «القلب».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يدوم».

فصلٌ

واعلم أنَّ السُّكر والصَّحو يكون في مقام البقاء بعد الفناء، يفنى أولًا عن وُجُودٍ كان بنفسه، ثُمَّ يبقى بوُجُودٍ هُو بالله، فيسكره ذلك، ثُمَّ فيهم من يصحو، وفيهم من لا يفيق إلا عند الفرائض، وهذا البقاء المذكور: هُو الذي يُسمُّونه جَمْع الجَمْع، لأنَّه كان أوَّلًا مُتفرِّقًا في الكائنات بشهادتها؛ مع الحجاب عن شهادة قيُّومها، فاستجمعت بجامعها القيُّوم في سرِّه، وذلك الجَمْع يكون من الصِّفات في [٦٦/ ب] الوُجود الذي يتلاشى عند مُطالعة الأرواح: جمال الذَّات(١) المُقدَّسة وكمالها، وإذا كان ما وجده في الوُجود الذي يتلاشى: فيُسمُّونه جَمْعًا، فيقتضي أن يكون هذا الحال الخاصُّ في البقاء بعد الفناء: جَمْع الجَمْع.

فصلٌ

وفيه يكون الفَرْق الثَّاني، فإنَّه كان أوَّلا مُتفرِّقًا ثُمَّ اجتمع، ثُمَّ فني مع جَمْعه، ثُمَّ وُجد بوُجودٍ آخر باقيًا بالله، فيُسكره ذلك الوُجود، ثُمَّ إذا صحا: فَرَّق فَرْقًا صحيحًا، فلا يحجبه المخلوق عن الخالق؛ ولا الخالق عن المخلوق، فإنَّه كان أوَّلا محجوبًا بالمخلوقات عن الخالق، ثُمَّ اجتمع فصارت الأشياء المُفرَّقة دالَّة على جامعها، لا ترى شيئًا إلا ويسبق رُؤية الفاعل على رُؤية المصنوع، فيصير ما كان يتفرَّق به طريقًا إلى جمعه، حتَّى رُبَّما غاب بالخالق عن الخلق، ثُمَّ يفنى بعد ذلك ويبقى ويسكر ويصحو؛ ولا يحجبه عن الخالق؛ ولا الخالق عن الخلق.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «الذاتي».

فصلٌ

إذا عُلم ذلك: فهذا أحد سَيْر العبد إلى حيث صار من المحبَّة الخاصَّة؛ بعد العُبور على المحبَّة العامَّة، ويصل إلى الهيبة الخاصَّة كما وصل إلى المحبَّة الخاصَّة بعد العُبور على الهيبة العامَّة؛ وكذلك إلى الحياء.

وجميع الأحوال التي وُجدت في المقام العام: قد تُوجد[1] في الحال الخاصِّ، وإنَّما سُمِّي عامًّا وخاصًّا: لأنَّ ذلك يذهب بذهاب الوُجود وقيامه - كما سبق -.

وهذا الحُبُّ الخاصُّ الذي فيه السَّكرات: هُو الاصطناع من المولى الكريم لعبده في وُجودٍ باقٍ بالله؛ بعد ذهاب الوُجود الذي يجد الواجد بواسطة الأذكار والأفكار أنوار المعارف.

وحقيقة البقاء والفناء - كما سبق -: هُو غلبة كون الحقِّ على كون العبد، لأنَّ العبد له كونٌ قائمٌ بالنَّفس، فمن كان كون نفسه أغلب عليه: فهُو في الوُجود الذي يذهب بالفناء، ومن غلبت سلطنة وُجود الحقِّ على كونه بعد الفناء - أعني: جاء هذا بلا واسطةٍ بعملٍ وتفكُّرٍ وتذكُّرٍ وعبارةٍ؛ بل قُبض عن ذلك كُلِّه؛ ثُمَّ رُدَّ هذا على روحه -: فقد وصل إلى البقاء.

كما أنَّ شُهود الأفعال تفنى عن أفعال العبد، وشُهود الصِّفات يُفني صفات العبد، لذلك إذا جاء شُهود الحقائق نُودي بإفناء حقيقته [٦٧/أ]، ومعناه: فناء الذَّات بالذَّات.

وحقيقة ذلك كُلِّه - كما سبق -: غلبة ذلك الكون على هذا الكون؛ وانقهاره بوُجوده.

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يوجد».

فإذا انتهى إلى ذلك: صار في ولاية الله وحفظه وكنفه، وقد أخذته جواذب حضرة الذَّات وجمالها وجلالها، فبقيت روحه مأسورة مأخوذة من القبضة، فكيف ما تنقَّلت: فالجذبة آخذةٌ بعنان قلبه، ومولاه يُقلِّبه ويُدبِّره ويختار له، وهُو ذاهبٌ في مولاه؛ سكران فيه.

ومن خُصوصيَّة هذا العبد: أنَّه لا يتكلَّف ترك التَّدبير والاختيار النَّفسانيِّ لا الشَّرعيِّ، قد فني وصار تدبيرًا لله تعالى له؛ عوضًا عن اختياره.

والأُمور الشَّرعيَّة من الفرائض والنَّوادب: هي من اختيار الله تعالى؛ لا من اختيار العبد، ومولاه يُقلِّبه ويُدبِّره ويُصرِّفه، يشهد تولِّيه غالبًا عيانًا؛ كما يجد جذب رُوحه إليه من عرشه المجيد المُقدَّس: ذوقًا وُجدانًا.

فصلٌ

وفوق ذلك مراتب؛ لا يحصرها قلمُ كاتبٍ: من المحو والمحق وكشف الحقيقة والمُكالمة والمُلاطفة؛ وغير ذلك ممَّا لا يُعلم، ممَّا يخصُّ الله تعالى به من يشاء من عباده المحبوبين المُقرَّبين المُصطنعين.

والحمد لله الذي هدانا؛ وما كُنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

ونسأله كما حقَّقنا به علمًا: أن يُحقِّقنا به حالًا، وينفع بذلك من وقف عليه بكرمه وجُوده، إنَّه أرحم الرَّاحمين بمنِّه وكرمه.

والحمد لله ربِّ العالمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم.

زيادة بيانٍ وإيضاحٍ

فصلٌ

للعبد ثلاث مراتبٍ[١]: مرتبة النَّفس والقلب والرُّوح.

فمرتبة العبد في طَوْر نفسه: لها الفكر والذِّكر والانزجار والاتِّعاظ.

ومرتبة القلب: لها مُشاهدة أنوار الصِّفات وتأثُّرها به وفهم القُرآن والحديث؛ والفقه فيهما.

وعلامة أهلها: شُهود الباري ﷻ بصفةٍ مخصوصةٍ، كالعُلوِّ والسَّمع والبصر؛ أو غير ذلك، يشهدونه بواسطة تلك الصِّفة.

ومادَّة هذا الشُّهود: أنوارٌ يقينيَّةٌ؛ تبتهج[٢] بها القُلوب وتخشع لها النُّفوس، وربَّما خشعت وخضعت وهابت وأحبَّت وراقبت واستحيت.

وهذا [٦٧/ ب] يُسمَّى: الشُّهود اليقينيُّ، ومحلُّه في الوُجود الذي يذهب ويتلاشى عند لمعان أنوار الفردانيَّة، وهُو الشُّهود العيانيُّ: الذي هُو برزخٌ بين اليقين وعيان الآخرة، وفيه يظهر سلطان جمال الوحدانيَّة على الأرواح، فيهيم بذلك، وذلك إنَّما يكون في البقاء بعد الفناء.

---

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: للسَّالك ثلاث مراتب».

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «تنتهج».

فصلٌ

واعلم أنَّ مرتبة القلب لا تظهر إلا بعد جُمود عالم النَّفس؛ واندراج ما وجدته من الإيمان والتَّأثُّر والمواعظ وغيرها في ضمن مرتبة أحكام القلب من أنوار الصِّفات، فإذا ظهر القلب: غابت النَّفس، وغاب مع غيبتها: ما وجدته، لأنَّ ذلك حصل باستعدادها.

فما أشبه ذلك بامحاء اللَّيل عند ظُهور النَّهار؛ وامحاء أحكام اللَّيل من النُّجوم ونُور القمر مع امحائه.

فصلٌ

إذا عُلم ذلك: فلا تظهر مرتبة الرُّوح وأحكامها إلا بعد خُمود مرتبة القلب وذهاب أحكامه ومُشاهدته، واندراج جميع ذلك في حُكم ما تجده الرُّوح، وذلك هُو الفناء على لسان القوم.

فإذا ذهب الوُجود؛ وذهب أيضًا ما حصل به بذهابه؛ وانحلَّت قوى النَّفس والقلب وتلاشى الشُّهود؛ الذي كان بالوُجود - فإنَّه شُهودٌ يقينيٌّ محلَّه الوُجود -، فيبقى صاحب الفناء مقبوضًا عليه مُجرَّد الباطن؛ خاليًا عن كُلِّ شيءٍ.

ثُمَّ تتجرَّد الرُّوح لما يُباشرها من فضل الله تعالى الخاصِّ، ويظهر حُكمها وعالَمها، وتنتشر في ميادين فُتوحها عن مُلاحظة الجلال والجمال الأحديِّ المُوجب للمحبَّة الخاصَّة التي فيها السَّكرات، ويتصبَّغ الظَّاهر والباطن بآثار تلك الأشعَّة، وذلك لا يكون إلا في البقاء بعد الفناء، وتندرج المحبَّة الإيمانيَّة واليقينيَّة التي كانت في الوُجود الذَّاهب الفاني: في هذه المحبَّة الخاصَّة العيانيَّة.

فعلى العبد: العمل على إصلاح هذا الوُجود؛ وما يفتقر إليه من علمٍ وعملٍ وحالٍ، وهُو كمال المُتابعة، وليُقدِّم العُبودية في أوَّل الأمر وآخره، فإذا أصلح بما يفتقر إليه من علمٍ وعملٍ وحالٍ: يُرجى أن يأتيه ما يُفنيه لظُهور حقائق علمه وعمله وحاله، فإنَّ [٦٨/أ] البقاء يُحقِّق[١] من العُلوم ما فني بفناء وُجوده؛ لا بمعنى أنَّه يذهب بالأصالة، بل تستقلُّ[٢] الأرواح بثمرة العُلوم والأعمال، فتلهو عن شجراتها وأُصولها، فعند ذلك: يُرجى أن تظهر[٣] الحقائق الإنسانيَّة التي هي محلُّ التَّأثير بالحقائق العُلويَّة، مُستعينًا بالله تعالى ومُتوكِّلًا عليه، والله[٤] المُستعان.

فصلٌ: درجات السُّلوك ثلاث درجاتٍ

الأُولى: الإيمان بالغيب.

وبساطها: التَّوبة مع الخوف والاستقامة.

ونُمُوُّها: بالعبادة والأذكار والأفكار.

وآفاتها: الرُّجوع إلى العادات؛ ومُخالطة من يجرُّه إليها بِقَالِه أو بِحِالِه.

الدَّرجة الثَّانية: المعرفة.

وبساطها: العلم والتَّعلُّم والفكر والتَّصرُّف، تارة بسماع القُرآن والحديث، وتارة بالفكر في المصنوعات.

وثمرتها: المحبَّة اليقينيَّة النَّاشئة من مُطالعة الصِّفات؛ والخوف اليقينيُّ منها.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «تحقق».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يستقل».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «يظهر».
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «وبالله» والصحيح ما أثبته.

ونُموُّها: بالمُراقبة والحياء والتَّعظيم.

وآفاتها: الغفلة والنِّسيان ومُخالطة الأغيار.

الدَّرجة الثَّالثة: بقطع ضباب الحُجب والغان بزوال الوُجود النَّفسانيِّ وفنائه، فينجاب ذلك الوُجود كما ينجاب اللَّيل عند طُلوع الصُّبح أو الشَّمس؛ بعد وُرود القبض وبُروز الأرواح لمولاها الحبيب الأعظم على الدَّوام؛ من وراء حُجب الغُيوب وسُطوع أشعَّة الجمال والجلال الذَّاتيِّ عليها واستيلاء سُلطان الوُجود - أعني: وُجود العبد لربِّه على الدَّوام، وغلبة كونه لكون العبد بالفناء -، ونعوذ بالله ممَّن يقول بالوُجود المُطلق[١]، لسنا نعني ذلك؛ مثل: ابن عربيٍّ وأتباعه؛ وابن سبعين وأتباعه، طهَّر الله الأرض منهم ومن أوضاعهم.

وبساطها[٢]: الهيمان بالمحبوب؛ مع هيبة الإجلال الذَّاتيِّ، واختطاف العبد عن اختياره وتدبيره، ويمرُّ بها الاتِّصال بالمحبوب والسَّكرات بوُجوده واصطناعه له وتولِّيه له.

ونُموُّها: بالانقطاع إليه عمَّا سواه.

وآفاتها: الآثار الحاصلة في القُلوب من الخَلْق؛ أيُّ أثرٍ كان من حُبٍّ أو بُغضٍ أو معرفة ما يجري في العالم ممَّا يَغُمُّ ويُحزن أو يُشغل، ومن آثار تعلُّق الخاطر بمُريدٍ، وكذلك [٦٨/ب] تعلُّق همَّة الغير به، كُلُّ ذلك يقدح في صفاء الكشف العيانيِّ.

اللَّهُمَّ إلا أن يقوى ويَفِيق من سُكره ويصحو؛ فيُؤثِّر في الأشياء ولا تُؤثِّر فيه، وهذا مقام أهل التَّمكين الرَّاجعين إلى الخَلْق، والحمد لله وحده.

---

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: ونعوذ بالله إلخ».
(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «أي: بساط الدَّرجة الثَّالثة».

زيادة بيانٍ وإيضاحٍ

فصلٌ

التَّائب يُعالج ظاهره وباطنه؛ ويردُّهما أبدًا من الباطل إلى الحقِّ، والعارف يُراقب معروفه بالإجلال والتَّعظيم، ويحفظ حقيقته الباطنة لمن أحبَّه عن إرادة سواه أو الميل، قد وهب حقيقته الباطنة لمن أحبَّ، فصارت مرآة لظُهور جلاله وجماله في الصَّفاء، فكُلَّما مالت إلى السِّوى: حجبت عمَّا ظهر لها من ذلك، وكُلَّما صفت: جذبتها أشعَّة لوائح المحبوب والمجذوب بعد الفناء، لا يحتاج إلى تكلُّفٍ في حفظ حقيقته الباطنة، فإنَّه قد قُبلت منه حقيقته؛ وطيَّرتها إلى العُلى، وصار كالمفتون بمحبوبٍ جذبته جواذب محبَّته عن تكسُّبه وسعاياته، وفي ذلك: قد يسكر ويصحو، وعلى هذا المقام جميع العارفين، قُلوبهم عن التَّسبُّب في جُزئيَّات التَّقرُّبات؛ كحجِّ النَّافلة وتشييع الجنائز وغير ذلك من العبادات المُفرِّقة التي يقوم بها غيرهم ويسقط الفرض بسواهُم[1]؛ طلبًا لتصحيح هذا المقام: عساهم يُقبلوا ويصلحوا لتلك الحضرة؛ ويُختطفوا[2] ويُراحوا عن تكسُّبهم وسعاياتهم، فهُناك الرَّاحة العُظمى لمن يشاء الله، وهُو في شُغلٍ شاغلٍ عن ترويحٍ أو حجٍّ نافلةٍ، وفيهم من يشتغل عن تسريح لحيته، وكُلُّ ذلك من فضل جُزئيَّات المُتابعة: لا يُجهل فضلها؛ ولا يُنكر الحثُّ من الشَّارع عليها، ومثل هذه الجُزئيَّات تصلح لأحد رجلَيْن: إمَّا رجلٌ فارغٌ؛ فذلك يتعيَّن عليه التَّقرُّب إلى الله تعالى بمثل هذه الأشياء، لأنَّه إذا

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «بسوا».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «ويحتطفوا».

تركها فليس له عوضٌ عنها؛ فيبقى خاليًا عن كُلِّ خيرٍ تقرَّب به إلى الله تعالى.

أو رجلٌ قد فني وبقي؛ وسكر وصَحِي؛ وقوي وشجع؛ فالرَّاجع منهم يعمر جميع ما كان قد اشتغل عنه من الجُزئيَّات الشَّرعيَّة، والله المُوَفِّق.

قاعدةٌ: في سُلوك أهل البداية في الإيمان وهُم أهل النُّفوس

تعلُّم علم الفرائض والسُّنن؛ والتَّرغيب والتَّرهيب [٦٩/أ]، والقيام بحُكم التَّوبة النَّصوح من المُحاسبة والمُراقبة والتَّقوى؛ ولُزوم الأوراد وعمارة الأوقات، ومُقابلة خواطر السُّوء بالرَّدِّ لها والكراهة، ومُعالجة الأخلاق وتصفيتها.

وجُملة أمرهم: الصَّبر على حُكم الله وأمره في الأفعال والأخلاق؛ وفي الخواطر على القُلوب.

سُلوك الخاصَّة: على المعرفة، وهُم أهل القُلوب: وهُو الانتباه لتعرُّف الصِّفات من الاستماع والاعتبار والقيام بالأدب، مع المعروف العظيم بالحُبِّ والتَّعظيم، ولهم واردات؛ مثل وارد حُبٍّ أو حياءٍ أو تعظيمٍ، أو تنبيهٌ لهم ظاهرٌ أو باطنٌ، أو يتوبون من الغفلة والنِّسيان؛ كما يتوب الأوَّلون من تضييع حقِّ المُحاسبة والرِّعاية.

سُلوك خاصَّة الخاصَّة على المحبَّة: وهُو حفظ الحقيقة الباطنة عن التَّأثُّر بآثار النَّفس: فإنَّها محلُّ نظر الحقِّ، ولُزوم العُبوديَّة بترك الاختيار والتَّدبير حتَّى تأتيهم الجذبة فيُقبضوا ثُمَّ يُبسط عليهم، فيفنون ثُمَّ يبقون، فيسكرون ثُمَّ يصحون، وهُم مع ذلك قائمون بأمر الله واجتناب نواهيه أشدَّ القيام، وهُم أشدُّ النَّاس تعظيمًا لأمر الله ونهيه، فيُراحون من وُجودهم بوُجودٍ آخر قائمٍ بالله، فيصيرون أهل أرواحٍ، حُكم الرُّوح غالبٌ عليهم، كما أنَّ الأوَّلين حُكم

القُلوب عليهم غالبٌ، قد باشرت أرواحهم سُطوع أنوار الجلال، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾(١)، والله المُوفِّق للصَّواب.

قاعدةٌ: في تتمَّة كُرَّاس الصَّحو والسُّكر والفناء والبقاء فإنَّها كالتَّمام لها، يكون ناقصًا إلا بها

فصلٌ

إذا فني العبد بعد وُرود القبض عليه؛ ثُمَّ بقي بالمشهد الرُّوحيِّ الذَّاتيِّ المُوجب للمحبَّة الخاصَّة المُلهبة للرُّوح، فمنهم من يضعف فلا يُمكنه أن يتَّسع لغير ما باشر سرَّه من آثار الحُبِّ الخاصِّ، وفيهم من يقوى ويتَّسع نظره فيجد آثار الجلال والجمال المُقدَّس في رُوحه، ويجد العُبوديَّة والدُّعاء والافتقار والتَّوكُّل والخوف وسائر الأعمال القلبيَّة قائمة بقلبه، لا يشغله عن مشهد الرُّوح المُستغرق ولا مشاهد القُلوب عن مُلاحظات العُقول من تفاصيل عُلوم الكتاب والسُّنَّة، ويجد ترك التَّدبير والاختيار وصحَّة التَّفويض موجودًا في محلِّ نفسه، يُعامل الله بذلك؛ بحيث لا تشغله(٢) المشاهد الأُوَل عنه، ويقوم بما لاحظه [٦٩/ب] عقله من أوامر الله وعزائمه؛ وما أُمر به من الأعمال ومكارم الأخلاق بحسِّه الظَّاهر، بحيث لا تحجبه(٣) المشاهد الأُوَل عنه؛ ولا تحجبه أعمال الجسم عن المشاهد، فيبقى معمور(٤) الرُّوح بمُلاحظة الفردانيَّة

(١) سُورة المُطفِّفين: الآية ٢٦.
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يشغله».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «يحجبه».
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «مغمور».

وجلالها وجمالها، معمور[١] القلب بعبادات القُلوب من مشاهد الصِّفات، معمور[٢] العقل بمُلاحظة العُلوم النَّازلة من السَّماء، طاهر[٣] النَّفس عن سفساف الأخلاق مع الله تعالى ومع الخَلْق، قد صار عبدًا لله بخُمود تدبيرها واختيارها، قائمًا بما لاحظه عقله من أوامر الله تعالى من الأعمال والأخلاق، فهُو عبدٌ لله تعالى برُوحه وبقلبه وبعقله وبنفسه وبجوارحه وأبعاضه، وهذه أبعاض الإنسان بما عليه من العُبوديَّة؛ بحيث لا يحجبه عمل البعض وعُبوديَّته عن عمل البعض الآخر وعُبوديَّته، وهذا صفة الكمال، والله[٤] المُستعان.

فإن قُلتَ: قد ذكرتَ في عُبوديَّة النَّفس ترك الاختيار والتَّفويض؛ وهُو عين ما ذكرتَه في عُبوديَّة القلب من التَّوكُّل.

قلتُ: القلب له التَّوكُّل والتَّفويض؛ وقد يكون مع مُنازعة النَّفس، فلا تقدح[٥] مُنازعة النَّفس فيه، فإذا طهرت النَّفس؛ وسلَّمت إلى ربِّها؛ وتبرَّأت من اختيارها وتدبيرها: فقد قامت بما عليها، وكان ذلك عُبوديَّتها، وخلص للقلب توكُّله وتفويضه بلا مُنازعةٍ، والله[٦] المُستعان.

ثُمَّ وجدت بخطِّه ما صُورته:

قاعدةٌ: من تتمَّة كُرَّاس الصَّحو والسُّكر

فإذا أعان الله تعالى بالتَّرقِّي من التَّوبة إلى الإرادة؛ ومن الإرادة إلى مُشاهدة أنوار الصِّفات، ثُمَّ التَّرقِّي من ذلك إلى مشهد الرُّوح؛ وهُو الأمر الكُليُّ الجامع

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «مغمور».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «مغمور».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «ظاهر».
(٤) في النسخة الخطية: «وبالله».
(٥) في النُّسخة الخطيَّة: «يقدح».
(٦) في النسخة الخطية: «وبالله».

لجميع الأسماء والصِّفات المُورثُ لالتهاب الباطن بعد العُبور على منازل القبض؛ والدُّخول في ميادين البسط، وقد علمت أنَّ القبض: إنَّما يرد على الوُجود، وعند فناء الوُجود فلا قبض، فيتناوب عليه مشهد الرُّوح أحيانًا بذهاب وُجوده، ثُمَّ يعود الوُجود فرُبَّما عاد القبض؛ ورُبَّما عاد وُجود القلب أيضًا ووُجود النَّفس أيضًا، لأنَّه في حال التَّكوين فلا بُدَّ من تناوب هذه الأحوال عليه، يعلو في أعلاها؛ ثُمَّ ينزل إلى منازل طبعه ووُجوده، ثُمَّ يترقَّى إلى مقام التَّمكُّن؛ وهُو التَّحقُّق بخُمود وُجود النَّفس على القلب؛ ووُجود القلب على الرُّوح.

وعلامة التَّمكين: أن يتصرَّف فيه مشهد الرُّوح دائمًا كما يتصرَّف المحبوب في محبَّةٍ تُباشره ظاهرًا وباطنًا [٧٠/ أ]، وعند ذلك يزول التَّكلُّف مع الخَلْق بالقول والفعل، ويبقى الوقت عزيزًا وفيًّا واحدًا؛ وهُو انزعاج محلِّ الوُجود بلواعج الحُبِّ وامتلاؤه به، ووُجود أثره في الظَّاهر والباطن، وعند ذلك يُسمَّى السَّالك: مُحبًّا، وقبل ذلك لا يُطلق عليه هذا الاسم؛ وإن كانت قد بدت له بوادؤها، لأنَّه في محلِّ التَّكوين فيها، فلا يُطلق عليه الاسم.

ومتى دام وتمكَّن صاحبه في مقامها؛ بحيث دام له تأثُّر الظَّاهر والباطن بأُمور الغيب وهُو مُشاهدٌ للرُّوح، وصار يُؤثر الخلوة والسُّكوت، ويضرُّه ما يُزاحم باطنه وظاهره من الوُجودات المُغايرة من الخارج ومن الأقوال والأفعال؛ شُغلًا بجذبته وانزعاج قلبه وقُرب السِّرِّ الجاذب له منه: فعند ذلك يُطلق عليه اسم المحبَّة؛ لتحقُّقه بها.

وهذا سرٌّ إلى القُرب، والقُرب أعلى من ذلك، وهُو من أعلى منازل الأولياء المُقرَّبين، نسأل الله الكريم: أن يُحقِّقنا بذلك مع العافية والرِّضا دائمًا، آمين.

ومثل هذا ينبغي أن يستوي حاله؛ وهُو استعمال الفراغ عن كُلِّ ما لم يتكلَّفه من همٍّ وغمٍّ وفعلٍ وقولٍ، ويدع الأشياء يتصرَّف فيها الحكيم بحكمته

كما قدَّرها وأرادها، وهُو شاخص البصيرة إلى حُسن تدبيره وإرادته؛ لا إرادته ولا اختياره إلا ما كلَّف إرادته واختياره، ويستعمل الصَّبر على ذلك؛ ويستعين بالله، والله[1] المُستعان.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم[2].

---

(١) في النسخة الخطية: «وبالله».

(٢) كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في مكتبة المسجد النَّبويِّ الشَّريف، في يوم الاثنين ٢٦ ربيعٍ الثَّاني ١٤٣٣هـ؛ الموافق ١٩ مارس (آذار) ٢٠١٢م.

كتاب عُمْدَةُ الطُّلَّابِ

مِنْ مُؤْمِنِي أَهْلِ الكِتَابِ

المُشْتَاقِينَ إِلَى ذَوِي الأَحْبَابِ؛ الرَّاغِبِينَ فِي رُسُوخِ دِيْنِ الإِسْلامِ فِي السَّرَائِرِ والأَلْبَابِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ربِّ يسِّر وأعن بكرمك

الحمد لله الذي فتح بالإيمان مغالق القُلوب، ومنَّ بالهُدى والمعرفة على من يرجع إليه من الذُّنوب، المُفرِّج برُوح الفَرَج من خزائن الألطاف عن أهل الآصار والكُروب، مُرسل سُحُب المواهب على القُلوب المُشتاقة بأمطار الرَّحمة الخاصَّة ونيل المطلوب، فالق ما أُرتق من الأرواح بفيض الأنوار وأسرار الغُيوب، الجاذب لأرواح مُحبِّيه من عوالمها الأرضيَّة إلى أَوْج سعادتها باتِّصالها بالمحبوب، الفاتح لعُيون البصائر في غُيوب السَّرائر لمُلاحظات بهجة الجمال الأحديِّ والجلال السَّرمديِّ فهي به قريرة في أجمل أُسلوبٍ.

وله الحمد أوَّلًا [٧٠/ب] وآخرًا وظاهرًا وباطنًا؛ كما هُو أهلٌ، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزَّ جلاله وعظمته.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ كما شهد هُو لنفسه وملائكته وأُولوا العلم من خلقه بأنَّه الواحد لا إله إلا هُو الحيُّ القيُّوم القائم بقسطه.

ونشهد أنَّ مُحمَّدًا ﷺ عبده ورسوله؛ بعثه على حين فترةٍ من الرُّسل مُصدِّقًا لما بين يديْه إلى كافَّة الخلق عُمومًا، وأوحى إليه كما أوحى إلى نُوحٍ والنَّبيِّين من بعده[١]، فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «قبله».

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾[1]

وكانت لله الحُجَّة البالغة علينا وعلى كافَّة الخلق ببعثه بالكتاب إلينا؛ وإرساله وإرشادنا إلى الحقِّ والهُدى وبأقواله وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾. إلى قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا﴾. إلى قوله: ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾. إلى قوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾. إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ الآية[6]

فهو البشير والنَّذير، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الآية[7]

---

(١) سُورة النِّساء: الآيات ١٦٣-١٦٦، في النُّسخة الخطيَّة: «يشهد بما أنزله».

(٢) سُورة الأنعام: الآيات ١٥٥-١٥٧

(٣) سُورة المائدة: الآيتان ١٥-١٦. في النُّسخة الخطيَّة: «قل يا أهل الكتاب».

(٤) سُورة الأعراف: الآيات ١٥٦-١٥٨.

(٥) سُورة الجُمعة: الآيات ٢-٤.

(٦) سُورة الحديد: الآية ٢٨.

(٧) سُورة الأحزاب: الآية ٤٥.

وهُو الخاتم للنُّبوَّة والشَّرائع؛ والهادي إلى طريق الحقِّ في أوضح السُّبل والمهايع[١]، صلَّى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة تكون لصاحبها ذُخرًا يوم ردِّ الودائع.

وبعد:

فقد رُوي في الحديث الصَّحيح عن أنسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما [٧١/أ]، ومن أحبَّ عبدًا لا يُحبُّه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكُفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النَّار»** مُتَّفقٌ عليه، رواه البُخاريُّ ومُسلمٌ والتِّرمذيُّ والنَّسائيُّ[٢].

ورُوي عن العبَّاس بن عبد المُطَّلب أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمُحمَّدٍ رسولًا»** أخرجه مُسلمٌ والتِّرمذيُّ[٣].

وعن أنسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يُؤمن أحدكم حتَّى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والنَّاس أجمعين»** مُتَّفقٌ على صحَّة هذا الحديث[٤].

---

(١) طريق مهيع: أي واسعٌ.

(٢) صحيح البُخاريِّ [كتاب الإيمان/ باب من كره أن يعود في الكُفر كما يكره أن يُلقى في النَّار من الإيمان- الحديث رقم (٢١)- ١/ ٣١]، صحيح مُسلم [كتاب الإيمان/ باب بيان خصالٍ من اتَّصف بهنَّ وجد حلاوة الإيمان- الحديث رقم (٤٣)- ١/ ٦٦]، سُنن الترمذيِّ [كتاب الإيمان/ باب (١٠)- الحديث رقم (٢٦٢٤)- ص٥٩١]، سُنن النَّسائيِّ [كتاب الإيمان وشرائعه/ باب طعم الإيمان- الحديث رقم (٤٩٨٧)- ص٧٥٧]، واللَّفظ للبُخاريِّ.

(٣) صحيح مُسلم [كتاب الإيمان/ باب الدَّليل على أنَّ من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمُحمَّدٍ ﷺ رسولًا فهُو مُؤمنٌ وإن ارتكب المعاصي الكبائر- الحديث رقم (٣٤)- ١/ ٦٢]، سُنن الترمذيِّ [كتاب الإيمان/ باب (١٠)- الحديث رقم (٢٦٢٣)- ص٥٩١]، واللَّفظ لمُسلم.

(٤) صحيح البُخاريِّ [كتاب الإيمان/ باب حُبُّ الرَّسول ﷺ من الإيمان- الحديث رقم (١٥)- ١/ ٣٠]، صحيح مُسلمٍ [كتاب الإيمان/ باب وُجوب محبَّة رسول الله ﷺ أكثر =

وعنه ﷺ قال: «والذي نفس مُحمَّدٍ بيده؛ لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأُمَّة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثُمَّ يموت ولم يُؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النَّار»[(١)]

ورُوي عنه ﷺ قال: «كُلُّ أُمَّتي يدخلون الجنَّة إلا من أَبَى. قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنَّة، ومن عصاني فقد أبى»[(٢)].

وعن أبي مُوسى أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ يُؤتون أجرهم مرَّتيْن: رجلٌ كانت له جاريةٌ فأدَّبها فأحسن أدبها ثُمَّ أعتقها وتزوَّج بها، ورجلٌ من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمُحمَّدٍ ﷺ، وعبدٌ أحسن عبادة الله ونصح سيِّده» مُتَّفقٌ على صحَّته[(٣)]

وعن جابرٍ قال[(٤)]: (جاءت ملائكةٌ إلى النَّبيِّ ﷺ وهُو نائمٌ فقالوا: إنَّ لصاحبكم هذا مثلًا، فاضربوا له مثلًا. قال بعضهم: إنَّه نائمٌ. وقال بعضهم:

= من الأهل والولد والوالد والنَّاس أجمعين وإطلاق عدم الإيمان على من لم يُحبَّه هذه المحبَّة- الحديث رقم (٤٤)- ١/ ٦٧].

(١) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب وُجوب الإيمان برسالة نبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ إلى جميع النَّاس ونسخ الملل بملَّته- الحديث رقم (١٥٣)- ١/ ١٣٤] من حديث أبي هُريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة/ باب الاقتداء بسُنن رسول الله ﷺ- الحديث رقم (٧٢٨٠)- ٥/ ٢٢٧٣] من حديث أبي هُريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح البُخاريِّ [كتاب العتق/ باب العبد إذا أحسن عبادة ربِّه ونصح سيِّده- الحديث رقم (٢٥٤٧)- ٢/ ٧٦٧]، صحيح مُسلم [كتاب الإيمان/ باب وُجوب الإيمان برسالة نبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ إلى جميع النَّاس ونسخ الملل بملَّته- الحديث رقم (١٥٤)- ١/ ١٣٤- ١٣٥]، ولفظ مُسلم: «ثلاثةٌ يُؤتون أجرهم مرَّتين: رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيِّه وأدرك النَّبيَّ ﷺ فآمن به واتَّبعه وصدَّقه؛ فله أجران، وعبدٌ مملوكٌ أدَّى حقَّ الله تعالى وحقَّ سيِّده؛ فله أجران، ورجلٌ كانت له أَمَةٌ فغَذَاهَا فأحسن غِذَاءَهَا ثُمَّ أدَّبها فأحسن أدبها ثُمَّ أعتقها وتزوَّجها؛ فله أجران».

(٤) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في مثل النَّبيِّ ﷺ».

إنَّ العين نائمةٌ والقلب يقظان. فقالوا: مثله كمثل رجلٍ بنى دارًا وجعل فيها مأدُبة وبعث داعيًا، فمن أجاب الدَّاعي دخل الدَّار، ومن لم يُجب الدَّاعي لم يدخل الدَّار ولم يأكل من المأدُبة. فقالوا: أوِّلوها يفقهها. قال بعضهم: إنَّه نائمٌ. وقال بعضهم: إنَّ العين نائمةٌ والقلب يقظان. فقالوا: فالدَّار الجنَّة، والدَّاعي مُحمَّدٌ ﷺ، فمن أطاع مُحمَّدًا فقد أطاع الله، ومن عصى مُحمَّدًا فقد عصى الله، ومُحمَّدٌ فرق[١] بين النَّاس)[٢]

قال البغويُّ: حديثٌ صحيحٌ[٣].

وعن أبي مُوسى عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ مثل ما بعثني الله به كمثل رجلٍ أتى قومًا فقال: يا قوم؛ إنِّي رأيت الجيش بعيني وأنا النَّذير العُريان، فالنَّجاة النَّجاة، فأطاعه طائفةٌ من قومه؛ فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذَّبت طائفةٌ منهم؛ فأصبحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش فأهلكم واجتاحهم [٧١/ ب]، فذلك مثل من أطاعني فاتَّبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذَّب ما جئت به من الحقِّ**» مُتَّفقٌ على صحَّته[٤].

وعن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّما مثلي كمثل رجلٍ استوقد نارًا فلمَّا أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه[٥] الدَّوابُّ التي تقع في النَّار**

---

(١) قال ابن حجرٍ في [فتح الباري: ١٣/ ٢٥٦]: (لأبي ذرٍّ بتشديد الرَّاء فعلًا ماضيًا، ولغيره بسُكُون الرَّاء والتَّنوين، وكلاهما مُتَّجِهٌ).

(٢) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة/ باب الاقتداء بسُنن رسول الله ﷺ- الحديث رقم (٧٢٨١)- ٥/ ٢٢٧٣].

(٣) شرح السُّنَّة للبغويِّ [كتاب الإيمان/ باب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة- الحديث رقم (٩٣)- ١/ ١٩٣].

(٤) صحيح البُخاريِّ [كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة/ باب الاقتداء بسُنن رسول الله ﷺ- الحديث رقم (٧٢٨٣)- ٥/ ٢٢٧٤]، صحيح مُسلم [كتاب الفضائل/ باب شفقته ﷺ على أُمَّته ومُبالغته في تحذيرهم ممَّا يضرُّهم- الحديث رقم (٢٢٨٣)- ٤/ ١٧٨٨].

(٥) في النُّسخة الخطيَّة: «جعل الله الفراش وهو».

يقعن فيها، وجعل يحجزهُنَّ ويغلبنه فيقتحمن فيها، فذلك مثلي ومثلكُم، أنا آخذٌ بِحُجَزِكُمْ عن النَّار؛ هلمَّ عن النَّار، فتغلبوني فتقتحمون فيها» رواه البُخاريُّ ومُسلمٌ والتِّرمذيُّ(١).

وعن أبي مُوسى عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«مثل ما بعثني الله به الهُدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، وكانت طائفةٌ منها طيِّبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير، وكانت منها طائفةٌ أجادب(٢) أمسكت الماء فنفع الله بها فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفةً أُخرى إنَّما(٣) هي قيعان لا تُمسك ماء ولا تُنبت كلأ، فذلك مثل من فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعَلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هُدى الله الذي أُرسلت به»** مُتَّفقٌ على صحَّته(٤).

والأجادب: صلاب الأرض التي تُمسك الماء. ويُروى: إخاذات(٥)، وهي الغُدران(٦).

وعن العرباض بن سارية قال: (وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت

---

(١) صحيح البُخاريِّ [كتاب الرِّقاق/ باب الانتهاء عن المعاصي- الحديث رقم (٦٤٨٣)- ٤/ ٢٠٣٤]، صحيح مُسلم [كتاب الفضائل/ باب شفقته ﷺ على أُمَّته ومُبالغته في تحذيرهم ممَّا يضرُّهم- الحديث رقم (٢٢٨٤)- ٤/ ١٧٨٩]، سُنن التِّرمذيِّ [كتاب الأمثال/ باب ما جاء في مَثَل ابن آدم وأجله وأمله- الحديث رقم (٢٨٧٤)- ص٦٤٢].
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «أجاذب».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «ما».
(٤) صحيح البُخاريِّ [كتاب العلم/ باب فضل من عَلِمَ وعَلَّم- الحديث رقم (٧٩)- ١/ ٥٣]، صحيح مُسلم [كتاب الفضائل/ باب بيان مَثَل ما بُعث به النَّبيُّ ﷺ من الهُدى والعلم- الحديث رقم (٢٢٨٢)- ٤/ ١٧٨٧-١٧٨٨].
(٥) قاله البغويُّ في شرح السُّنَّة [كتاب العلم/ باب التَّفقُّه في الدِّين- الحديث رقم (١٣٥)- ١/ ٢٨٩].
(٦) في النُّسخة الخطيَّة: «الغدوان».

منها العُيون؛ ووجلت منها القُلوب، فقال قائلٌ: يا رسول الله؛ كأنَّها موعظة مُودِّعٍ فأوصنا. قال: أُوصيكُم بتقوى الله والسَّمع والطَّاعة؛ وإن كان عبدًا حبشيًّا، فإنَّه من يعش منكُم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكُم بسُنَّتي وسُنَّة الخُلفاء الرَّاشدين المهديِّين، تمسَّكُوا بها؛ وعضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإيَّاكُم ومُحدثات الأُمور، فإنَّ كُلَّ مُحدثةٍ بدعةٌ، وكُلَّ بدعةٍ ضلالةٌ) رواه أبوداود والتِّرمذيُّ(١).

وعن عبد الله بن عمرو عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لا يُؤمن أحدكُم حتَّى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»(٢).

وعنه ﷺ قال: «**إنَّ الدِّين بدأ غريبًا؛ ويرجع غريبًا، فطُوبى للغُرباء، الذين يُصلحون ما أفسد النَّاس من بعدي من سُنَّتي**»(٣).

وعنه ﷺ قال: «**من تمسَّك بسُنَّتي عند فساد أُمَّتي: فله أجر مائه شهيدٍ**»(٤).

وعن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**النَّاس معادن كمعادن الفضَّة والذَّهب، خيارهُم في الجاهليَّة خيارهُم في الإسلام**» مُتَّفقٌ عليه(٥).

---

(١) سُنن أبي داود [كتاب السُّنَّة/ باب في لُزُوم السُّنَّة- الحديث رقم (٤٦٠٧)- ص٦٩١]، سُنن التِّرمذيِّ [كتاب العلم/ باب ما جاء في الأخذ بالسُّنَّة واجتناب البدع- الحديث رقم (٢٦٧٦)- ص٦٠٣].

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السُّنَّة [باب ما يجب أن يكون هوى المرء تبعًا لما جاء به النَّبيُّ ﷺ- الحديث رقم (١٥)- ١/ ٤٥-٤٦]، والبغويُّ في شرح السُّنَّة [كتاب الإيمان/ باب ردِّ البدع والأهواء- الحديث رقم (١٠٤)- ١/ ٢١٢].

(٣) أخرجه التِّرمذيُّ في سُننه [كتاب الإيمان/ باب ما جاء أنَّ الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا- الحديث رقم (٢٦٣٠)- ص٥٩٣].

(٤) أخرجه الطَّبرانيُّ في مُعجميه الكبير [الحديث رقم (١٣٢٠)- ٢٠/ ٥٠]، والأوسط [الحديث رقم (٥٤١٤)- ٥/ ٣١٥]، ولفظه: «**المُتمسِّك بسُنَّتي عند فساد أُمَّتي له أجر شهيدٍ**». قال الهيثميُّ في [مجمع الزَّوائد: ١/ ٢١٠]: (رواه الطَّبرانيُّ في الأوسط، وفيه مُحمَّد بن صالح العدويُّ، ولم أر من تَرْجَمَه، وبقيَّة رجاله ثقاتٌ).

(٥) صحيح البُخاريِّ [كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ =

فالمُؤمن من أهل الكتاب إذا شرح الله صدره للإيمان؛ ونوَّر قلبه بالبيِّنات الواضحة من الإيقان؛ بعد قراءة سالف الكُتب والنُّبوَّات؛ ومعرفة الرَّبِّ تعالى من شرائعه السَّابقات؛ ورزقه الله تعالى الفهم عنه فيها، وحسن [٧٢/أ] الإصغاء إلى تدبُّر قواعدها ومعانيها، ثُمَّ تدبَّر كلام الله تعالى القديم؛ المُنزَّل على مُحمَّدٍ ﷺ النَّبيِّ الكريم: وجد النُّبوَّات شاهدة يشهد بعضها لبعضٍ بالحقِّ والتَّصديق، ينعطف بعضها على بعضٍ بالتَّشريع الإلهيِّ على التَّحقيق، ثُمَّ وقف بعد ذلك على أحاديث الرَّسول ﷺ وهُو الذي ما ينطق عن الهوى؛ المُتكلِّم بها من عين النُّبوَّة ومعدن الحقِّ والهُدى: علم أنَّه قد أُوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب، وعرف أنَّ دينه هُو الدِّين الجامع الكامل كما تحقَّقه أُولوا الألباب، لكونه خاتم الأنبياء المُكمِّل للنُّبوَّة والمُتمِّم لها ولهذا كان دينه أكمل الأديان، ونبؤه أوضح الأنباء وأنوار البُرهان، خُصوصًا إذا تأمَّل مُعجزاته ﷺ وخوارق عاداته وآياته، من مبادئ حمل أُمِّه به إلى ميلاده وإلى حين مبعثه وتناهي حالاته، وذلك ممَّا انتشر به أخبار الثِّقات؛ في سائر البُلدان والجهات، خُصوصًا وقد وردت في أُمورٍ مُختلفةِ الأنواع؛ برواياتِ أقوامٍ مُتبايني الهمم والدَّواعي والطِّباع، فيكون حُكم مجموع ذلك مُوجبًا للعلم الضَّروريِّ، لأنَّ الأُمَّة قد تداولته عصرًا بعد عصرٍ؛ وقرنًا بعد قرنٍ، فيكون العلم به كالعلم بوُجود آدم ونوحٍ؛ وإرسال إبراهيم إلى النَّمرود؛ وإرسال مُوسى وهارون إلى فرعون بسُلطانٍ مُبينٍ، وكالعلم بسخاء حاتمٍ وشجاعة عليٍّ،

= ﴿وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية (٧)] - الحديث رقم (٣٣٨٣)- ٢/ ١٠٤٦]، صحيح مُسلم [كتاب البرِّ والصِّلة والآداب/ باب الأرواح جُنودٌ مُجنَّدةٌ- الحديث رقم (٢٦٣٨)- ٤/ ٢٠٣١-٢٠٣٢]، ولفظ مُسلم: **«النَّاس معادن كمعادن الفضَّة والذَّهب، خيارهم في الجاهليَّة خيارهم في الإسلام إذا فَقُهُوا، والأرواح جُنودٌ مُجنَّدةٌ، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»**.

بل كالعلم ببعثه ﷺ، فإنَّ العلم ببعثه ﷺ ضروريٌّ قطعيٌّ مُتواترٌ به، بأنَّه دعا إلى عبادة الله ونهى عن عبادة الأصنام دُون الله، فلمَّا كان العلم بظُهوره مُتواترًا راسخًا في القُلوب لما تداولته الأُمَّة قرنًا بعد قرنٍ وعصرًا بعد عصرٍ؛ فصار مقطوعًا بصحَّته، فكذلك مجموع أخبار مُعجزاته - وإن كان فيها أخبار آحاد لكن مجموعها من النَّقلة الكثيرين المُتفرِّقين في آفاق الدُّنيا المُتبايني الهمم والدَّواعي بوُجوب العلم الضَّروريِّ - بأنَّه ﷺ كانت تظهر عليه آياتٌ خارقةٌ للعادة[1]، ومُعجزاتٌ بيِّنةٌ لنُبوَّته شاهدةٌ ولها مُنقادةٌ.

فنذكر منها جُملًا مُلخَّصة تداولتها الأُمَّة عصرًا بعد عصرٍ[2]، فإنَّ مُعجزاته ﷺ أكثر من أن تُحصى، لأنَّ أمره كُلَّه عَجَبٌ[3].

فمنها: القُرآن المجيد الذي تحدَّى به فُصحاء الشَّرق والغرب؛ وكُلُّهم عجز عن الإتيان بسُورةٍ من مثله، وعرَّضوا أنفسهم للقتل وأولادهم للسَّبي وديارهم للهلاك وكانوا أُمراء الكلام [٧٢/ ب]؛ وفُرسان النِّظام، يتباهون بالفصاحة وتحبير الشِّعر والبلاغة، فتحدَّاهم ﷺ مرَّة بعد أُخرى على أن يأتوا بسُورةٍ من مثله، وهُم يسمعون كلامًا عربيًّا يُتلى عليهم، مُتشابه الوصف؛ مُتجانس الرَّصْف[4]، سهل الموضوع؛ عذب المسموع، خارجًا عن معهود القريض والأسجاع؛ مُستعذبًا في الأفهام والأسماع، فلمَّا عدلوا عن مُعارضته - التي لو تمَّت لدلَّت على خلاف مُدَّعاه - إلى قتاله: كان الإعجاز قاهرًا، وقد تلى عليهم: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[5]، فالقُرآن العظيم رأس

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «العادة».
(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: مُعجزات الرَّسول ﷺ».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «عجبًا».
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «الوصف».
(٥) سُورة الإسراء: الآية ٨٨.

المُعجزات، وهُو من أقوى براهين النُّبوَّة الدَّالات.

ومنها: أنَّه شقَّ الله له القمر بمكَّة لمَّا سألته قُريشٌ آية.

ومنها: أنَّه أطعم النَّفر الكثير في منزل جابر؛ ومنزل أبي طلحة؛ ويوم الخندق، مرَّة ثمانين من أربعة أمداد شعيرٍ وعَناقٍ - وهُو من أولاد المعز -، ومرَّة أكثر من ثمانين من أقراص شعيرٍ حملها أنسٌ في يده، ومرَّة أهل الجيش(١) من تمرٍ يسيرٍ حتَّى شبعوا من ذلك وفضل لهُم.

ومنها: أنَّه نبع الماء من بيْن أصابعه؛ فشرب أهل العسكر وهُم عِطَاشٌ، وتوضَّؤوا من قدحٍ صغيرٍ ضاق عن أن يبسط فيه يده.

ومنها: أنَّه أهراق وَضُوءه في عين تبوكٍ وهي مثل الشِّرَاك(٢)، ومرَّة أُخرى في بئر الحُديبية، فجاشتا بالماء، فَشُرِبَ من عين تبوكٍ - وهُم أُلوفٌ - حتَّى رووا، وشَرِبَ من بئر الحُديبية ألفٌ وخمسمائة؛ ولم يكن فيها طائلٌ(٣) من الماء.

ومنها: أنَّه أمر عُمر بن(٤) الخطَّاب أن يُزوِّد أربعمائة راكبٍ من تمرٍ كان في اجتماعه كرِبْضَة البعير - وهُو موضع بُروكه -، فزوَّدهُم كُلَّهُم منه وبقي كحاله.

ومنها: أنَّه رمى الجيش بقبضةٍ من تُرابٍ فعميت عُيونُهم، ونزل بذلك القُرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(٥).

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «الحبش».

(٢) هُو أحد سُيور النَّعل، وهُو الذي يكون على وجهها وعلى ظهر القدم، ومعناه: ماءٌ قليلٌ جدًّا.

(٣) أي: ما ينفع ويُفيد.

(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «ابن».

(٥) سُورة الأنفال: الآية ١٧.

ومنها: أنَّ الله أبطل الكهانة بمبعثه، وكان قبل ذلك يُوحي الشَّياطين إلى أوليائهم ما يسترقون به من السَّمع، فلمَّا بُعث ﷺ حُجبوا عن خبر السَّماء ورُموا بثواقب الشُّهب، فطافوا شرق الأرض وغربها حتَّى سمعوا القُرآن، ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢﴾[١]. وهُم الذين آمنوا من الجنِّ.

ومنها: أنَّه كان في المسجد جذعٌ يستند إليه، فلمَّا عُمِل له المنبر ورقى عليه: حنَّ ذلك الجذع إليه حتَّى سمع الحاضرون من أصحابه صوتًا كاد منه أن ينشقَّ، فنزل النَّبيُّ ﷺ حتَّى ضمَّه إليه، فجعل يئنُّ أنين الصَّبيِّ حتَّى استقرَّ.

وأنذر عُثمانَ [٧٣/أ] ﷺ بأنَّه يُصيبه بلوى بعدها الجنَّة، وبأنَّ عمَّارًا تقتله الفئة الباغية، وبأنَّ الحسن بن عليٍّ يُصلح الله به بين فئتيْن عظيمتيْن من المُسلمين.

وأخبر عن رجلٍ قاتل في سبيل الله أنَّه من أهل النَّار فبان بَعْدُ أنَّه قتل نفسه.

واتَّبعه سُراقة بن مالك بن جُعْشُم[٢] حتَّى ساخت يدا فرسه في الأرض حتَّى استغاثه فدعا له فانطلقت الفرس، وأنذره بأنَّه سيوضع في ذراعيْه سوار كسرى، فكان كذلك.

وأخبر بقتل الأسود العَنْسِيِّ الكذَّاب ليلة قتله وهُو بصنعاء اليمن، وأخبر بمن قتله.

وخرج على مائةٍ من قُريشٍ وهُم ينتظرونه ليلة مُهاجرته إلى المدينة، فوضع التُّراب على رُؤوسهم فلم يروه.

وشكى إليه البعير بحضرة أصحابه ودمعت عيناه وتذلَّل له، فدعا صاحبه

(١) سُورة الجنِّ: الآيتان ١-٢.
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «خشعم».

وقال له: إنَّ هذا يشكوك بأنَّك تُجيعه وتدأبه[١].

وقال لنفرٍ من أصحابه مُجتمعين: **«أحدكُم ضرسه في النَّار مثل أُحدٍ»**[٢]. فماتوا كُلُّهُم على استقامةٍ؛ وارتدَّ واحدٌ منهم، وهُو الرَّجل الحنفيُّ فقُتل مُرتدًّا.

وقال لآخرين منهم: **«آخركُم موتًا في النَّار»**[٣]. فسقط آخرهُم موتًا في نارٍ؛ فاحترق فيها ومات.

ودعا شجرتيْن حين أراد أن يتبرَّز في الخلاء تحتهُما ليُظلاه ويستراه، فأتياه طائعتيْن واجتمعتا، ثُمَّ أمرهُما فافترقتا.

وكان ﷺ نحو الرَّبْعَة من الرِّجال؛ وإذا مشى مع الطِّوَال.

وكان ينزل عليه الوحي في اليوم الشَّديد البرد فيفصم[٤] عنه؛ وإنَّ جبينه ليتفصَّد عرقًا.

---

(١) أي: تُتعبه.

(٢) أخرجه الحُميديُّ في مُسنده [الحديث رقم (١١٧٧)- ٢/ ٤٩٦] من حديث أبي هُريرة ﷺ، ولفظه: (عن رجلٍ من بني حنيفة أنَّه سمعه يقول: قال لي أبوهُريرة: أتعرف رجَّالا؟ قُلتُ: نعم. قال: فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: ضرسه في النَّار أعظم من أُحُدٍ. فكان أسلم ثُمَّ ارتدَّ ولحق بمُسيلمة، وقال: كبشان انتطحا، فأحبُّهما إليَّ أن يغلب كَبْشِي).

(٣) أخرجه الطَّبرانيُّ في مُعجمه الكبير [الحديث رقم (٦٦٠٨)- ٦/ ٣١٢]، ولفظه: (عن عليِّ بن زيدٍ عن أوس بن خالدٍ قال: كُنتُ إذا قدمت على أبي محذورة سألني عن رجلٍ، وإذا قدمت على الرَّجل سألني عن أبي محذورة، فقُلتُ لأبي محذورة: إذا قدمتُ عليك سألتني عن فُلانٍ، وإذا قدمتُ عليه سألني عنك؟ فقال: كُنتُ أنا وأبوهريرة وفُلانٌ في بيتٍ، فقال النَّبيُّ ﷺ: آخركم موتًا في النَّار. فمات أبوهُريرة، ثُمَّ مات أبومحذورة، ثُمَّ مات الرَّجل). قال الهيثميُّ في [مجمع الزَّوائد: ٨/ ٢٤٥]: (رواه الطَّبرانيُّ، وأوس بن خالدٍ لم يرو عنه غير عليِّ بن زيدٍ، وفيهما كلامٌ، وبقيَّة رجاله رجال الصَّحيح).

(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «فيقصم».

ورآه يومًا أبوجهلٍ فجاء ليطأ رقبته الكريمة، فما فجئهُم إلا وهُو ينكص على عقبيْه ويتَّقي بيده، فقيل له: مالك؟ قال: إنَّ بيني وبينه خندقًا من نارٍ وهولًا وأجنحة، فقال ﷺ: «**لو دنا منِّي لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا**»(١).

وقال لعَدِيِّ بن حاتمٍ: «**هل رأيت الحيرة؟ فإن طالت بك الحياة فلترينَّ الظَّعينة ترتحل من الحيرة حتَّى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، ولتُفتحنَّ كُنوز كسرى، ولترينَّ(٢) الرَّجل يُخرج ملء كفِّه من ذهبٍ أو فضَّةٍ فلا يجد أحدًا يقبلها منه، وليلقيَّن(٣) اللهَ أحدُكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فليقولنَّ: ألم أبعث إليك رسولًا؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أُعطك مالًا وأُفضل عليك؟ فيقول: بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنَّم، وينظر عن يساره فلا يرى [٧٣/ ب] إلا جهنَّم، فاتَّقوا النَّار ولو بشقِّ تمرةٍ، فمن لم يجد فبكلمةٍ طيِّبةٍ. قال عَدِيٌّ: فرأيْت الظَّعينة ترتحل من الحيرة حتَّى تكون بالكعبة؛ لا تخاف إلا الله، وكُنتُ فيمن افتتح كُنوز كسرى بن هُرمز**»(٤).

وقال لأصحابه: «**والله؛ ليُتِمَّنَّ هذا الأمر حتَّى يسير الرَّاكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله؛ والذِّئب على غنمه، ولكنَّكُم تستعجلون**»(٥).

وقال ﷺ يوم بدرٍ: «**هذا مصرع فُلانٍ؛ ووضع يده على الأرض: ههنا؛**

---

(١) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار/ باب قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [سُورة العلق: الآيتان ٦-٧]- الحديث رقم (٢٧٩٧)- ٤/ ٢١٥٤] من حديث أبي هُريرة رضي الله عنه.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «وليرينَّ».

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «ولتلقينَّ».

(٤) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب المناقب/ باب علامات النُّبوَّة في الإسلام- الحديث رقم (٣٥٩٥)- ٣/ ١١١٠].

(٥) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب المناقب/ باب علامات النُّبوَّة في الإسلام- الحديث رقم (٣٦١٢)- ٣/ ١١١٤] من حديث خبَّاب بن الأرتِّ رضي الله عنه.

وهنا، فما ماط أحدهُم عن موضع يد رسول الله ﷺ»(١)

وانكسرت ساق عبد الله بن عتيكٍ؛ فقال له: «**ابسط رجلك، فمسحها. قال: فكأنِّي لم أشكها قطُّ**»(٢).

وعرضت لهُم يوم الخندق كُدية - وهي الحجر الذي لا يتحفَّر -، فقام وبطنه معصوبٌ بحجر من الجُوع، فضربه بالمِعْوَل فعاد كثيبًا أَهْيَلَ.

وعطشوا مرَّة أُخرى في غزاةٍ فذهبوا يطلبون الماء، فوجدوا امرأة بين مزادتيْن، فاستنزلوها عن بعيرها، ودعا النَّبيُّ ﷺ بإناءٍ فأفرغ فيه من أفواه المزادتيْن، ونُودي في النَّاس: اسقوا؛ اسقوا. قال: فشربنا عِطاشًا أربعين رجلًا حتَّى رويْنا، وملأنا كُلَّ قِرْبَة معنا وإداوة، والله؛ لقد أُقلع عنها وإنَّه ليتخيَّل إلينا أنَّها أشدُّ ملاءة منها حين ابتدأنا، ثُمَّ جمعوا للمرأة من تمرٍ وسويقٍ ودقيقٍ، وقال لها ﷺ: «**اذهبي؛ فإنَّا لم نأخذ من مائك شيئًا، ولكنَّ الله الذي سقانا**»(٣).

وارتدَّ رجلٌ كان يكتب الوحي ولحق بالشِّرك، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ الأرض لا تقبله، فأتى أبوطلحة الأرضَ التي مات فيها فوجده منبوذًا، فقال: ما شأن هذا؟ فقالوا: دفنَّاه مرارًا؛ فلم تقبله الأرض**»(٤).

---

(١) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الجهاد والسِّير/ باب غزوة بدرٍ- الحديث رقم (١٧٧٩)- ٣/ ١٤٠٣-١٤٠٤] من حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب المغازي/ باب قتل أبي رافع عبدالله بن أبي الحُقَيْق - الحديث رقم (٤٠٤٠)- ٣/ ١٢٣٢].

(٣) صحيح البُخاريِّ [كتاب التَّيمُّم/ باب الصَّعيد الطَّيِّب وُضُوء المُسلم يكفيه من الماء- الحديث رقم (٣٤٤)- ١/ ١٢٨-١٢٩]، صحيح مُسلم [كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة/ باب قضاء الصَّلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها- الحديث رقم (٦٨٢)- ١/ ٤٧٤-٤٧٦] من حديث عمران بن حُصينٍ رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (١٢٢١٥)- ١٩/ ٢٤٧-٢٤٨] من حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، وأخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب المناقب/ باب علامات =

وقَدِمَ ﷺ من سفرٍ، فلمَّا قرب من منزله هاجت ريحٌ؛ فكاد أن تدفن[١] الرَّاكب، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**بُعثت هذه الرِّيح لموت مُنافقٍ**». فإذا عظيمٌ من المُنافقين قد مات[٢].

وكانت امرأةٌ تهدي لهُم سمنًا[٣] في عكَّةٍ، فيأتيها بنوها فيسألوها الأُدْم وليس عندهم شيءٌ، فتعمد إلى تلك الغلَّة فتجد فيها سمنًا، فما زال يُقيم لها أُدْم بيتها حتَّى عصرتها، فقال ﷺ: «**لو تركتها ما زال قائمًا**»[٤].

وأصاب النَّاسَ مجاعةٌ في غزاة تبوكٍ، فقال عُمر: (يا رسول الله؛ ادعُهُم بفضل أزوادهم، ثُمَّ ادع الله لهُم عليها بالبركة، فبُسِطَ نِطَعٌ حتَّى [٧٤/أ] اجتمع عليه من أزوادهم شيءٌ يسيرٌ، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثُمَّ قال: خُذُوا في أوعيتكُم، فما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه، وأكلوا حتَّى شبعوا، وفضلت فضلةٌ، فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنِّي رسول الله، لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيُحجب عن الجنَّة)[٥].

وسمَّت امرأةٌ من يهود خيبرَ شاة مصليَّة وأهدتها إليه، فأخذ الذِّراع فأكل منها ومعه رهطه، فقال: «**ارفعوا أيديكُم، وأرسل إلى اليهوديَّة فقال: سمَّيْت هذه الشَّاة؟ فقالت: من أخبرك؟ فقال: أخبرتني هذه - يعني الذِّراع -**.

= النُّبوَّة في الإسلام- الحديث رقم (٣٦١٧)- ٣/ ١١١٥-١١١٦] بلفظٍ نحوه.

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «تدق».

(٢) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب صفات المُنافقين وأحكامهم/ الحديث رقم (٢٧٨٢)- ٤/ ٢١٤٥-٢١٤٦] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «سمنٌ».

(٤) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الفضائل/ باب في مُعجزات النَّبيِّ ﷺ- الحديث رقم (٢٢٨٠)- ٤/ ١٧٨٤] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب الدَّليل على أنَّ من مات على التَّوحيد دخل الجنَّة قطعًا- الحديث رقم (١٤٨)- ١/ ٤٢] من حديث أبي هُريرة رضي الله عنه.

فقالت: نعم»[١].

وأتاه أبوهُريرة بتمراتٍ فقال: (يا رسول الله؛ ادع الله فيهنَّ بالبركة، فضمَّهُنَّ ودعا، فقال: خُذهُنَّ واجعلهُنَّ في مزودك، كُلَّما أردت أن تأخذ منه شيئًا فأدخل يدك فيه؛ ولا تنثره نثرًا[٢]. قال: فقد حملت من ذلك التَّمر كذا وكذا من وسقٍ في سبيل الله، فكُنَّا نَأْكُل ونُطْعِم، وكان لا يُفارق حقوي؛ حتَّى كان يوم قتل عُثمان فانقطع)[٣].

ودعا النَّصارى إلى المُباهلة فامتنعوا، وأخبرهُم أنَّهم إن فعلوا هلكُوا، فعلموا صحَّة قوله فامتنعوا.

وأتاه عامر بن الطُّفيْل وأربد بن قيسٍ - وهُما فارسا العرب وفاتكاها - عازميْن على قتله، فحيل بينهُما وبين ذلك، فلمَّا خرجا مات عامرٌ بغُدَّةٍ أصابته، وأصابت لإربد بن قيسٍ صاعقةٌ، وكان قد دعا عليهما فقال: «**اللَّهُمَّ اكفنيهما بما شئت**»[٤] أو نحوه.

وأخبر أنَّه يقتل أُبيَّ بن خلفٍ الجُمحيَّ، فخدشه يوم أُحدٍ خدشًا لطيفًا؛ وكانت فيه منيَّته.

وأنذر ﷺ بأنَّ طوائف من أُمَّته يغزون في البحر، فكان كذلك.

وزُويت له الأرض؛ فأُري مشارقها ومغاربها، وأخبر ببُلوغ مُلك أُمَّته ما

---

(١) أخرجه أبوداود في سُننه [كتاب الدِّيات/ باب فيمن سقى رجلًا سُمًّا أو أطعمه فمات أيُقَاد منه- الحديث رقم (٤٥١٠)- ص٦٧٥] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «تنشره نشرًا».

(٣) أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٨٦١٣)- ٢/ ٣٥٢]، والتِّرمذيُّ في سُننه [كتاب المناقب/ باب مناقب أبي هُريرة رضي الله عنه- الحديث رقم (٣٨٣٩)- ص٦٨٥].

(٤) أخرجه الطَّبرانيُّ في مُعجمه الكبير [الحديث رقم (٥٥٩٢)- ٥/ ٣٩٥] من حديث سهل بن سعدٍ رضي الله عنه، قال الهيثميُّ في [مجمع الزَّوائد: ٦/ ١١١]: (رواه الطَّبرانيُّ وفيه عبد المُهيْمن بن عبَّاسٍ وهُو ضعيفٌ).

زُوي له منها، فكان كذلك، وبلغ مُلكُهم من أوَّل الشَّرق من بلاد التُّرك إلى آخر المغرب من بحر الأندلس وبلاد البربر، ولم يتَّسعوا في الجُنوب ولا في الشِّمال كما أخبر ﷺ - سواء بسواءٍ -.

وأخبر ابنته فاطمة بأنَّها أوَّل أهله لحاقًا[1] به، فكان كذلك.

وأخبر نساءه بأنَّ أطولهُنَّ يدًا أسرعهُنَّ لُحُوقًا[2] به، فكانت زينب بن جحشٍ الأسديَّة أطولهُنَّ يدًا وأوَّلهُنَّ لُحوقًا به.

ومسح ﷺ ضرع شاةٍ حائلٍ لا لبن لها، فدرَّت فكان ذلك سبب إسلام ابن مسعودٍ، وفعل ذلك مرَّة أُخرى في خيمتيْ أُمِّ معبدٍ، وكان عندها أعنزٌ عِجافٌ[3]، فقدم زوجها فوجد عندها لبنًا فقال [٧٤/ب]: من أين هذا؟ فأخبرته، ووصفت له رسول الله ﷺ، فقال: هذا فتى قُريشٍ.

وندرت عين بعض أصحابه فسقطت فردَّها ﷺ بيده، فكانت أصحَّ عينيْه وأحسنهما[4].

وتفل في عين عليٍّ وهُو أرمد يوم خيبر؛ فصحَّ من وقته، وبعثه بالرَّاية، وبشَّر أنَّه يفتح الله على يديْه، فكان كذلك.

وحكى الحكم بن أبي العاص مِشْيَتَه ﷺ، فلم يزل يرتعش حتَّى مات.

ورأى بضعة عشر رجلًا فوران الماء من بين أصابعه ﷺ، وهذا أبلغ من انفجار الماء من الحجر.

وشكى إليه قومٌ مُلوحة بئرٍ لهُم وقلَّته، فجاء في جماعةٍ من أصحابه حتَّى أشرف على بئرهم فتفل فيها، فانفجرت بالماء العذب الزُّلال.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «أوَّل لحاقًا».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «لحقاقًا».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «أعنزًا عجافًا».
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «وأحسنها».

ولمَّا بلغ مُسيلمة الكذَّاب هذا؛ وسُئل مُعجزة مثل هذه؛ فتفل في بئرٍ فغار ماؤه بعد أن كان أُجاجًا، فأكَّد الله صِدْقَ النَّبيِّ وكَذِبَ مُسيلمةَ.

وعن حبيب بن مُدَارك أنَّ أباه خرج إلى رسول الله ﷺ وعيناه مُبيضَّتان لا يُبصر بهما شيئًا، فنفث[١] رسول الله ﷺ في عينيْه فأبصر، قال الرَّاوي: فرأيته يُدخل المخيط في الإبرة وإنَّه لابن ثمانين؛ وعيناه مُبيضَّتان.

وانقطع سيف عُكَّاشة بن محصنٍ يوم بدرٍ فأعطاه النَّبيُّ ﷺ جَذْلًا من حطبٍ، فقال: قاتِلْ به، فلمَّا أخذه من يده هزَّه؛ فإذا سيفٌ في يده طويل القامة، فشهد به المشاهد معه، وقُتل يوم الرِّدَّة وهُو في يده.

ولمَّا فتح الله مكَّة قصد الأصنام؛ فأخذ عُودًا وجعل يطعن وُجوهها، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[٢]، وكُلَّما أشار بيده إلى صنمٍ خرَّ لوجهه من غير أن يمسَّه شيءٌ.

وكان يومًا بالحُجون - وهُو كئيبٌ حزينٌ - فقال: «**اللَّهُمَّ أرني آية لا أُبالي من يُكذِّبني بعدها**»[٣]، ونادى شجرة من قِبَل عَقَبة أهل المدينة، فجاءت تشقُّ الأرض حتَّى انتهت إليه، فسلَّمت عليه، ثُمَّ أمرها فرجعت.

وقدم رجلٌ بإبلٍ إلى مكَّة فابتاعها منه أبوجهلٍ ومطله أثمانها، فشكا إلى قُريشٍ منه، فأشاروا إلى رسول الله ﷺ - استهزاء به -، فأقبل الرَّجل إلى رسول الله ﷺ وذكر له ذلك، فقام رسول الله ﷺ حتَّى جاء إلى باب أبي جهلٍ، فضرب عليه الباب فخرج وقد انتقع لونه، فقال: أعط هذا الرَّجل

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «فتفث».
(٢) سُورة الإسراء: الآية ٨١.
(٣) أخرجه البزَّار في مُسنده [الحديث رقم (٣١٠)- ١/ ٤٣٨]، وأبويعلى في مُسنده [الحديث رقم (٢١٥)- ١/ ١٩٠] من حديث عبد الله بن عُمر بن الخطَّاب رضي الله عنهما، قال الهيثميُّ في [مجمع الزَّوائد: ٨/ ٢٩٢]: (رواه البزَّار وأبويعلى، وإسناد أبي يعلى حسنٌ).

حقَّه، فدخل وخرج إليه بحقِّه، فقالوا لأبي جهلٍ في ذلك؛ فقال: أما والله؛ ما هُو إلا أن ضرب عليَّ بابي وسمعت صوته فمُلئت رُعبًا، ثُمَّ خرجت إليه وإنَّ فوقه لفحلًا من الإبل؛ ما رأيت مثل هامته وأنيابه، لفحلًا؛ لو أبيت لأكلني [٧٥/أ].

ودخل رسول الله ﷺ حائطًا للأنصار وفيه غنمٌ فسجدت له.

والَّذين كسروا رَبَاعيَّته لم يُولد لهُم مولودٌ ونبتت رَباعيَّته.

وكانت رُؤيته من خلفه كرُؤيته من أمامه، وتنام عينه ولا ينام قلبه.

ويسمع أصوات أهل القُبور وأطيط السَّماء.

ومن ذلك دُعاؤه المُستجاب في مواطن عدَّة:

أحدهُا: لمَّا قال: «**اللَّهُمَّ اشْدُدْ وطأتك على مُضر، واجعلها عليهم سنين كسِنِيِّ يُوسف**»(١). فابتلوا بالجُوع حتَّى أكلوا العِلهز - وهُو الدَّم بالوبر -.

والثَّاني: لما قال: «**اللَّهُم عليك الملأ من قُريشٍ**»(٢)؛ وعدَّ أسماءهم، فقُتلوا كُلُّهم يوم بدرٍ.

والثَّالث: لما تلى ﷺ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾(٣)، قال عُتبة بن أبي لهبٍ: كفرت بربِّ النَّجم، وردَّ على رسول الله ﷺ ابنته؛ وآذاه، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الأذان/ باب يهوي بالتَّكبير حين يسجد- الحديث رقم (٨٠٤)- ١/ ٢٤٥-٢٤٦]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب المساجد/ باب استحباب القُنوت في جميع الصَّلاة إذا نزلت بالمُسلمين نازلة- الحديث رقم (٦٧٥)- ١/ ٤٦٦-٤٦٧] من حديث أبي هُريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الجزية والمُوادعة/ باب طرح جيف المُشركين في البئر ولا يُؤخذ لهم ثمن- الحديث رقم (٣١٨٥)- ٢/ ٩٨٣]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب الجهاد والسِّير/ باب ما لقي النَّبيُّ ﷺ من أذى المُشركين والمُنافقين- الحديث رقم (١٧٩٤)- ٣/ ١٤١٩] من حديث عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه.

(٣) سُورة النَّجم: الآية ١.

«اللَّهُمَّ سلِّط عليه كلبًا من كلابك»(١). فخرج مع أصحابه في عيرٍ إلى بلاد الشَّام، فزأر الأسد؛ فجعلت فرائصه ترعد، فقيل له: ما تخشى؟ فقال: إنَّ مُحمَّدًا دعا عليَّ، ولا والله؛ ما أظلَّت السَّماء من ذي لهجةٍ أصدق من مُحمَّدٍ. ثُمَّ وضعوا العشاء؛ فلم يُدخل يده فيه، حتَّى جاءهم النَّوم؛ فحاطوا أنفسهم بمتاعهم ووسَّطوه بينهُم وناموا، فجاء الأسد فضغمه ضغمة كانت إيَّاها، وهُو يقول في آخر رمقٍ: ألم أقل إنَّ مُحمَّدًا أصدق النَّاس؟

الرَّابع: لما قحط النَّاس؛ قام إليه رجلٌ يوم الجمعة - وهُو يخطب -، فقال: (يا رسول الله؛ قحط المدر، واحمرَّ الشَّجر، فادع الله لنا، فرفع يديْه ودعا الله أن يسقيهُم الغيث، وما في السَّماء قزعة سحابٍ، فما استتمَّ دُعاءه حتَّى نشأت سحابةٌ فأَمْطَرَتْ من الجُمعة إلى الجُمعة، فقام إليه في الجُمعة الأُخرى ذلك الرَّجل أو غيره فقال: يا رسول الله؛ تهدَّمت البيوت؛ وانقطعت السُّبل، فادع الله لنا. فرفع يديْه وقال: اللَّهُمَّ حوالينا ولا علينا، فانجاب السَّحاب عن المدينة حتَّى أحدق بها كالإكليل، فضحك النَّبيُّ ﷺ حتَّى بدت نواجذه)(٢).

---

(١) أخرجه الحاكم في مُستدركه [كتاب التَّفسير/ باب تفسير سُورة أبي لهبٍ- الحديث رقم (٣٩٨٤)- ٢/ ٥٣٩] من حديث أبي عقرب مُعاوية بن خُويلد ﷺ، وجاءت تسميته في حديثه باسم: لهب بن أبي لهبٍ، وجاءت تسميته باسم عتبة بن أبي لهبٍ في حديثٍ أخرجه البيهقيُّ في سُننه الكبرى [كتاب الحجِّ/ باب ما للمُحرم قتله من دوابِّ البرِّ في الحلِّ والحرم- الحديث رقم (١٠٣٤٦)- ٥/ ٢١١]، وابن قانعٍ في مُعجمه [الحديث رقم (١١٨٨)- ٣/ ٢٠٧].

(٢) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الاستسقاء/ باب الدُّعاء إذا كثر المطر حوالينا ولا علينا- الحديث رقم (١٠٢١)- ١/ ٣٠٦]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب صلاة الاستسقاء/ باب الدُّعاء في الاستسقاء- الحديث رقم (٨٩٧)- ٢/ ٦١٢-٦١٤] من حديث أنس بن مالكٍ ﷺ، دُون قوله: (فضحك النَّبيُّ ﷺ حتَّى بدت نواجذه)، وجاءت هذه الزِّيادة في حديثٍ أخرجه الطَّبرانيُّ في مُعجمه الأوسط [الحديث رقم (٧٦١٩)- ٧/ ٣٢٠]، وكتاب الدُّعاء [باب الدُّعاء في الاستسقاء- الحديث رقم (٢١٧٩)- ١/ ٥٩٦].

ومُعجزاته ﷺ أكثر من أن تُحصر في هذا الكتاب، فإنَّ أحواله وشُؤونه إذا تأمَّلها المُتأمِّل يجدها كُلَّها آياتٍ دالَّة على نُبوَّته، وبراهين ساطعة قاطعة برسالته، وإنَّما هذه جُملٌ من رُؤوس مُعجزاته، ولم يتَّسع الكتاب لنقلها بكمال مُتونها، ومن أراد ذلك: فليستخرجها بكمالها من كُتب السِّير والمغازي بأسانيدها وطُرقها وكمال مُتونها[1].

والمُراد ههنا التَّنبيه عليها لمن وقف عليها من السِّير؛ فتكون تذكرة له وبيانًا لما يترتَّب عليها من [٧٥/ب] القواعد الإسلاميَّة والمعاني السُّلوكيَّة التي تَرْسَخ بها الأديان؛ وتقوى بها القُلوب ويتأيَّد بها الإيمان؛ ويتَّضح بسببها براهين المعرفة والإيقان، والله المُوفِّق لكُلِّ خيرٍ، وإيَّاه نعبد وإيَّاه نستعين.

ثُمَّ لا يزال المُؤمن بتوفيق الله تعالى في إيمانه مُترقِّيًا كُلَّ وقتٍ ينكشف له بُرهانٌ من براهينه؛ ودليلٌ من أدلَّته؛ وشهابٌ من شُهبه؛ يحرق بها هواجس الوساوس الشَّيطانيَّة، وكُل حينٍ يجد مصباحًا من مصابيح اليقين يُسْرَج في ظُلمات الشُّكُوك ودياجي الارتياب العماويَّة، حتَّى ترسخ في قلبه قواعدُه وأُصولُه، وتنتشر فُروعه في فضاء سرِّه وغُصونه، فيصير مُؤمنًا حقًّا، فالإيمان ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾[2].

وهُو دينٌ عظيمٌ لا نهاية لأسراره وحقائقه؛ ولا نفاد[3] لمعانيه ودقائقه، وكُلُّ شخصٍ يتَّضح له منه على قدر ما قُسم له منه واقتضاه استعداده، وانتهى

(١) انظر في مُعجزات النَّبيِّ ﷺ المُشار إليها وغيرها: دلائل النُّبوَّة للفريابيِّ، تثبيت دلائل النُّبوَّة للهمذانيِّ، أعلام النُّبوَّة للماورديِّ، دلائل النُّبوَّة للبيهقيِّ، دلائل النُّبوَّة للأصبهانيِّ.

(٢) سُورة إبراهيم: الآيتان ٢٤-٢٥.

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «نفاذ».

إليه حدَّة فطنته ونُور قلبه واستمداده، ففُهوم عُلومه عزيزةٌ(١)، وأنوار مُشاهدته جمَّةٌ كبيرةٌ، وليس فَهم عوامِّ العُلماء من أسرار هذا الدِّين كفَهْم الصُّلحاء منهم، وليس فَهْم الصُّلحاء من عُلمائهم كفَهْم المُوقنين منهم، وليس فَهْم المُوقنين كفَهْم الصِّدِّيقين؛ الذين هُم ورثة الأنبياء وخُلفاء الرُّسل: أهل المعارف الرَّاسخة؛ والمراتب الشَّامخة، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾(٢).

فصلٌ

وليعلم المُؤمن أنَّ هذا الدِّين له ظاهرٌ وباطنٌ؛ وصوانٌ ولُبابٌ؛ وأساسٌ وذِروةٌ، فالمُوفَّق من لم يقنع من هذا الدِّين بظاهره حتَّى يتحقَّق بحقائق أسراره وباطنه، ولا يطمئنُّ حين الوُقوف على أساسه حتَّى ينتهي إلى ذِروة عليائه، فأكثر العامَّة إنَّما حُجبوا عن ذلك لأنَّهُم قنعوا من الأشياء بصُورها؛ ولم تَسْمُ هممهُم إلى ذوق حقائقها وعزيزها(٣)

فصلٌ

ومن أراد تحقيق هذا الدِّين؛ والوُصول إلى ذوق المُحبِّين: فعليه في أوَّل الأمر إخلاص النِّيَّة وتصفيتها من الشَّوائب، فإنَّ الأعمال بالنِّيَّات، ولكُلِّ امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دُنيا يُصيبها أو امرأةٍ يتزوَّجها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «عريزة».
(٢) سُورة النُّور: الآية ٤٠.
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «وعزيرها».

وقُرَّة العُيون في الانتهاء: إنَّما تكون بتصحيح عزائم الابتداء، والتَّخلُّف عن دركِ الغايات: إنَّما يكون بسبب فساد البدايات، فمن صحَّح أُمور بداياته قُصودًا وعُلومًا وأعمالًا: سار إلى مطلوبه حميدًا، وانحلَّت العوائق من قِبَلِه، ولم يبق إلا انتظار ما قُسم له في الزَّمان الذي وُقِّت له، فهذا حال تصحيح أُمور البداية في القُصود.

وتحقيقه: أن يقصد رضا الله؛ باتِّباع ما [٧٦/أ] أمر الله، ليلقاه يوم القيامة في الدَّار الآخرة يوم يلقاه بوجهٍ أبيض، فتقرُّ عينه بلقائه، ويحظى منه بالكرامة والتَّقريب والزُّلفى عنده، ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[١].

ثُمَّ يُراقب هذه النِّيَّة فيُصفِّيها من الشَّوائب القادحة والعوارض الطَّارقة الثَّائرة من عوالم الطَّبيعة والنَّفس؛ المُمازجة لعوالم القلب، فإنَّ العبد مُركَّبٌ منهما، وكُلُّ شطرٍ منهما يميل بطبعه إلى حظِّه، فلا يزال العبد يُصفِّي قصد نصيب قلبه عن حظِّه المُشوَّش من نصيب نفسه؛ حتَّى يصير الحظُّ الأعلى خالصًا عن الحظِّ الأدنى، وبذلك تتمُّ[٢] صحَّة القُصود في المبادئ، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

فصلٌ

ثُمَّ عليه حينئذٍ بعد تصحيح القصد وتكميله: بتحصيل العلم - الذي هُو لهذا السَّفر كالزَّاد في تبليغه إلى مقصده وتوصيله -، وعلى العلم يترتَّب العمل، وعليهما ترتقي مباني العُبوديَّة؛ التي من وصل إليها استقرَّ دينه؛ وقوي تمكينه، وطلعت عليه شُموس العرفان، وبزغت في سرِّه أقمار الإيقان، فيذهب

(١) سُورة القمر: الآية ٥٥.
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «تم».

معه كُلُّ ريبٍ، ويصفو عن كُلِّ دنسٍ وعيبٍ، ويصير الخبر عند معرفته بالمعبود عيانًا، ويعود التَّصديق إيقانًا وبُرهانًا.

أوَّل ذلك[١]: الاعتناء بعلم سيرة النَّبيِّ ﷺ، مثل سيرة ابن هشامٍ، أو مغازي مُوسى بن عُقبة، أو سيرة الواقديِّ؛ ويحيى بن سعيدٍ الأمويِّ؛ ومُحمَّد بن عايذٍ، وكتاب دلائل النُّبوَّة لأبي نُعيمٍ الحافظ الأصبهانيِّ؛ ولأبي بكرٍ البيهقيِّ؛ ولأقضى القُضاة الماورديِّ؛ ولعبد الجبَّار بن أحمد الهمذانيِّ[٢]؛ ولأبي العبَّاس القُرطبيِّ؛ وغيرهم.

ومنها كُتب مناقبه وفضائله؛ ككتاب شرف المُصطفى لأبي سعيدٍ النَّيسابوريِّ؛ وكتاب الشِّفا في تعريف حُقوق المُصطفى للقاضي عياضٍ؛ والوفا لأبي الفرج ابن الجوزيِّ؛ وغيرهم، وغير ذلك من العُلوم المُوضِّحة لدلائل النُّبوَّة ومعالمها، فذلك من أهمِّ العُلوم للطَّالبين.

فإنَّ من عجز في زماننا عن لقاء الرَّسول ﷺ والمُهاجرة إليه: عدل على سيرته والنَّظر في ابتداء حاله ﷺ؛ من طُفوليَّته إلى كمال بُلوغه ومنشئه، وكيف ظهرت عليه بوادي الوحي وأعلام النُّبوَّة طورًا طورًا؛ من حين بدأه[٣] الوحي إلى حين مُهاجرته إلى المدينة، وإلى حين أمره الله تعالى بقتال الكُفَّار، وإلى أن ظهر دينه على الأديان؛ وانتشر بارزًا في السِّر والإعلان، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾[٤]. [٧٦/ب]

فبذلك ينكشف للقلب حقائق النُّبوَّة، ويعرف أسرار الرِّسالة، ويعرف النِّسبة بينه ﷺ وبين الأنبياء والرُّسل من قبله في دُعائهم الكُفَّار؛ إلى عبادة الرَّبِّ

---

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: بعض كُتب السِّير ومُؤلِّفيهم».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «الهمداني».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «بدأة».
(٤) سُورة التَّوبة: الآية ٣٣، سُورة الصَّفِّ: الآية ٩.

القهَّار، ومُعاندتهُم لهُم، وصبر الأنبياء عليهم؛ حتَّى يُفتح عليهم بالنَّصر والظَّفر، وتغلب كلمة الرَّحمن؛ على كلمة الطُّغيان، ومجيء نصر الله والفتح، ويدخل النَّاس في دين الله أفواجًا، خُصوصًا لمن قد عرف النُّبوَّات السَّالفة؛ والشَّرائع السَّابقة، فيتحقَّق القلب أنَّ الله أرسله حقيقة كما أرسل الأنبياء من قبله، ويُوقن القلب أنَّ دينهم واحدٌ وشرائعهم شرائع مُختلفة، ينطقون من عينٍ واحدةٍ، ويسطع نُورهُم من مشكاةٍ واحدةٍ، ويدعون إلى ربٍّ واحدٍ، كما قال النَّجاشيُّ لمَّا سمع القُرآن: (**هذا والذي جاء به مُوسى من مشكاةٍ واحدةٍ**)[1].

فحينئذٍ يترقَّى القلب إلى عين اليقين بأُمور الدِّين؛ بعد وُجدانه لعلم اليقين، ثُمَّ بعد ذلك يعتني بعلم السُّنن والآثار؛ ليعرف دين هذا النَّبيِّ الكريم وآدابه وسُننه وعاداته في قيامه وقُعوده وأسفاره ومغازيه وعباداته ومُعاملاته ومُعاشرته للأصحاب والأزواج؛ وغير ذلك ممَّا تدلُّ[2] عليه سُننه المُدوَّنة، في مثل الصِّحاح؛ كصحيحيِ البُخاريِّ ومُسلمٍ، ومُوطَّأ مالكٍ، وصحيح الإسماعيليِّ؛ والبُرقانيِّ؛ وأبي حاتمٍ البُستيِّ؛ والحاكم النَّيسابوريِّ، وصحيح الجوزقيِّ، وصحيح أبي نُعيمٍ الأصبهانيِّ، وجامع التِّرمذيِّ، وسُنن أبي داود؛ وابن ماجه، وشرح السُّنَّة للبغويِّ.

وككُتب المسانيد الكبار؛ كُمسند الإمام أحمد بن حنبلٍ، ومُسند إسحاق بن إبراهيم الحنظليِّ، ومُسند أبي بكر ابن أبي شيبة، ومُسند عبد بن حُميد الكَشِيِّ، ومُسند مُحمَّد بن هارون الرُّوْيانيِّ، ومُسند عبد الله بن عبد الرَّحمن الدَّارميِّ، ومُسند أبي يعلى الموصليِّ، ومُسند أبي داود الطَّيالسيِّ، ومُسند مُوسى بن قُرَّة الزَّبيديِّ.

---

(١) أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (١٧٤٠)- ٣/ ٢٦٣-٢٦٨] من حديث أُمِّ سلمة رضي الله عنها.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يدلُّ».

وككُتب المُختصرات من الكُتب؛ كالجمع بين الصَّحيحيْن للحُميديِّ، وجامع الأُصول[١] لابن الأثير الجزريِّ[٢]، والمصابيح للبغويِّ، وأحكام عبد الحقِّ المغربيِّ؛ وعبد الغنيِّ المقدسيِّ؛ وأبي البركات ابن تيميَّة الحرَّانيِّ؛ ومُحمَّد بن عبد الواحد المقدسيِّ، وغير ذلك من كُتب الحديث الموجودة في هذا العصر في آفاق الدُّنيا؛ المحفوظة عند الحُفَّاظ، ليعرف الإنسان مُجمل كمال ما جاء به الرَّسول، فإنَّ ذلك من أهمِّ المُهِّمات.

فكثيرٌ من السَّالكين اختصر لنفسه طريقًا إلى الله تعالى من السُّنَّة قبل الوُقوف على مُجمل ما جاءت به السُّنَّة[٣]، فانضمَّ قُصوره في الحال إلى تقصيره في العلم، فانحرف انحرافًا بيِّنًا، والمُوفَّق من عرف أوَّلًا كمال ما جاء به الرَّسول، فإن وجد نفسه مُستعدَّةً [٧٧/ أ] للأُمور الخاصَّة والعامَّة: قام بما يُمكنه منها، وإن وجد نفسه عاجزًا عن القيام بالأمر العامِّ كما قام به الرَّسول وخُلفاؤه الكُمَّل كأبي بكرٍ وعُمر: اختصر حينئذٍ لنفسه من ذلك طريقة يرتقي بها، حيث عجز عن القيام بكمال الدِّين؛ واشتغل بخاصَّة نفسه، حيث لم يتَّسع لعامَّة الخلق من القيام بأُمور العلم والعمل والجهاد، فإنَّ الرَّسول ﷺ بُعث بكمال العلم؛ مُكمِّلًا للعمل والحال القلبيِّ؛ مُجاهدًا لأعداء الله تعالى، هذا دينه الذي دلَّت عليه سُنَّته والكتاب العزيز الذي أُنزل عليه.

فاقتسمت الأُمَّة[٤] في هذا العصر أثلاثًا[٥]، فقومٌ اعتنوا بالعُلوم الظَّاهرة ولم يعتنوا بأعمال القُلوب وأحوالها - وهُم غالب فُقهاء عصرنا -، وقومٌ

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «للأصول».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «الحرزي».
(٣) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في تقصير السَّالك».
(٤) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: اقتسمت الأُمَّة».
(٥) في النُّسخة الخطيَّة: «ثلثًا».

اعتنوا بالأعمال والأحوال ولم يعتنوا بالعُلوم ولا التزام الشَّرائع على الكمال - وهُم غالب العُبَّاد والفُقراء -، وقومٌ اعتنوا بجهاد الأعداء ولم يعتنوا بالعلم ولا بالعمل مع الحال - وهُم الغُزاة -، والدِّين المُحمَّديُّ الكامل: هُو الدِّين الجامع لهذه الأقسام.

فعلى العبد أن يعرف أوَّلًا كمال ما جاء به الرَّسول؛ ليعرف ماهيَّة الدِّين وصُورته، فإنْ قدر على إقامته بكماله؛ وإلا أخذ منه ما يقدر عليه في طريقٍ خاصَّةٍ له، ومتى تعبَّد[١] قبل معرفته بكمال الدِّين: جذبه الجهل إلى الانحراف عن الدِّين؛ حتَّى يبقى في شِعْبٍ مُنحرفٍ عن شِعْب المُهتدين.

ثُمَّ يقف بعد ذلك على ما يلزمه من علم الفرائض والأحكام؛ والحلال والحرام، فيُقلِّد فيه المُجتهدين؛ إن عجز عن استنباطه من الحديث ومعالم الدِّين، فيعرف فرائض الوُضوء وسُننه؛ وفرائض الصَّلاة وسُننها؛ وفرائض الزَّكاة؛ وغير ذلك من عُلوم الفُروض الخاصَّة به، فإنَّ كُلَّ واحدٍ يخصُّه من الفُروض ما لا يخصُّ غيره، ويُبتلى بواجباتٍ لا يُبتلى غيره بها، فإنَّ التَّاجر عليه من الواجبات ما ليست على الفقير، ومثله القاضي والوالي ووليُّ الأمر، كُلٌّ يجب عليه أن يتعلَّم علمَ واجباتِ ما يلزمه القيام به، فبذلك يعرف حُدود الله فيه، فيلتزمها ويقوم بها، ومن كان جاهلًا بالحُدود تعدَّاها[٢]، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٣].

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يعبَّد».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يعداها».
(٣) سُورة البقرة: الآية ٢٢٩.

فصلٌ

فإذا صحَّح النِّيَّة في الابتداء؛ وأتقن العلم في التَّوسُّط: فعليه حينئذٍ التَّكميل بالعمل.

وأوَّل ذلك: الاعتناء بإمرار السُّنَّة على الظَّاهر والباطن، والتَّمسُّك التَّامُّ بالشَّريعة، والاقتفاء لآثار الرَّسول ﷺ؛ وطلب التَّشبُّه به في دلِّه وسمته وهديه وصيامه وقيامه وتهجُّده وصلاته وقراءته، فيجعله [٧٧/ ب] مرَّةً[1] بين عينيْه شيخًا له ومُؤدِّبًا يراه بعين قلبه؛ وإن غاب في الظَّاهر عن شخصه، فبذلك يتمُّ الاتِّباع له والاقتداء به.

ومن كان في الدُّنيا مُتَّبعًا له مُقتديًا به قد جعله إمامًا بين يديْه؛ ناظرًا إليه في كُلِّ حركةٍ؛ يُصغي إليه ما يقول فيها فيستعمله: فهُو في الدُّنيا معه؛ وفي الآخرة إن شاء الله تعالى يكون صاحبه، يُحشر تحت لوائه ومنجفه[2]؛ غير مُنحرفٍ عنه ولا حائدٍ عن مُرافقته.

ومتى جعل السَّالك شيخًا آخر قِبْلَته؛ وصارت له ربَّانية على قلبه تحجبه عن ربَّانيَّة الرَّسول وهيمنته: دخل الانحراف عليه قطعًا، علم ذلك من علمه؛ وجهله من جهله.

ومتى جعل النُّور المُحمَّديَّ إمامه اهتدى، ومن تمسَّك بشريعته وسُنَّته فقد استمسك بالعُروة الوُثقى.

وإنَّما قَصَّر مُتعبِّدوا زماننا عن الوُصول إلى الحقائق: لامتلاء أسرارهم من شُيوخهم؛ وربَّانيَّتهم عليها، فحُجبوا بذلك عن ربَّانيَّة الرَّسول؛ فانحرفوا كثيرًا

---

(١) أي: أَصَالَة.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «صنجفه»، والنَّجيف: السَّهم العريض النَّصل.

عن طريق الهُدى، وذلك لأنَّهم عجزوا عن استنباط أسرار المعرفة من سُنَّته؛ ووجدوا الشُّيوخ قد لحظوها، فجعلوا السُّنَّة حُكمًا للظَّاهر؛ وعدلوا إلى شُيوخهم في الأسرار والحقائق.

ولو وَقَفُوا لاستنبطوا من سُنَّته الحقائق الكاملة والأسرار الباطنة والمقامات العالية، والله المُوفِّق.

وتمام العمل: النُّصح لله فيه؛ وإتقان كُلِّ أمرٍ دلَّ عليه الاتِّباع، كما ينصح العبد البارُّ النَّاصح لسيِّده؛ الذي يُحبُّ له ما يُحبُّ لنفسه، فتراه إذا أشار إليه بأمرٍ؛ أو ندبه إلى حاجةٍ: نهض نُهوض النَّاصحين، وبذل جُهده في تحصيل الغرض لسيِّده فهُو موثوقٌ به أمينٌ، لذلك من طلب التَّحقيق بالمحبَّة والعُبوديَّة والوُصول إلى الأسرار العليَّة: ينصح ربَّه تعالى في كُلِّ حقٍّ أمره به أو نهاه عنه.

أوَّل ذلك: إذا دخل وقت الفريضة يعزم على النُّصح لله فيها، فيتوضَّأ كما دلَّت السُّنَّة عليه بلا زيادةٍ ولا نُقصان، ثُمَّ يتقدَّم إلى المحراب بقلبٍ مُعظِّمٍ لله مُحبٍّ له مُشتاقٍ إلى لقائه، فيُكبِّره بالإجلال والتَّعظيم، ويعلم أنَّه عالمٌ به وبمكانه؛ مُطَّلعٍ على سرِّه وضميره، فيقول: الله أكبر؛ من سُويداء قلبه، حتَّى ينتسخ في التَّكبير عن قلبه سوى عظمة من كبَّره، فذلك هُو النُّصح التَّامُّ في التَّكبير، فمن كبَّر كذلك فقد نصح ربَّه في تكبيره ولم يُقصِّر.

ثُمَّ إذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]؛ فليحمد الله بقلبه ويجعل لسانه ترجمانًا لِمَا في ضميره بلا مُزاحمةٍ ولا وسواس حائلٍ عن نُطق القلب [٧٨/أ] بمعنى الحمد، ثُمَّ يتكلَّم بكُلِّ معنى من معاني الفاتحة بلسانه مُعبِّرًا عمَّا في قلبه بخُضُوعٍ وخُشُوعٍ وحُضُورٍ وابتهالٍ كأنَّه واقفٌ بين يدي ربِّه

(١) سُورة الفاتحة: الآية ٢.

في عَرْصَة[١] القيامة وهُو يُناجيه ويُخاطبه.

وكذلك يجتهد العبد في الرُّكُوع أن ينصح فيه لله، وصِفَة النُّصح فيه: أن يخضع لله بقلبه كما خضع له ببدنه، فإنَّ صُورة الرُّكوع صُورة التَّواضع، فمتى خلت هذه الصُّورة من معنى وحقيقةٍ: كانت خداجًا ناقصة، كالبدن بلا رُوحٍ، ورُوحها وحقيقتها: خُضوع القلب مُصدِّقًا لما ظهر من خُضوع الجسم.

وكذلك في السُّجود؛ يسجد بقلبه كما يسجد ببدنه.

وفي[٢] التَّحيَّات يُناجي ربَّه به بكُلِّ معنى من معانيه، كأنَّه يُخاطب به ربَّه وهُو يسمعه ويراه، فبذلك يتمُّ النُّصح لله في الصَّلاة.

ولو فرضنا رجلًا منَّا وقف بين يدي أميرٍ لاستحيا منه أن يُكلِّمه وهُو غير حاضرٍ ولا مُجتمع الهمِّ؛ بل رُبَّما خاف منه إن رآه على تلك الحالة أن يَهُمَّ به أو يمقته، فكيف بالعبد الذَّليل؛ إذا وقف بين يدي الرَّبِّ الجليل؟

والتَّرقِّي إلى حقائق الإيمان وذِروته إنَّما يكون بالنُّصح لله في اتِّباع أوامره واجتناب مناهيه، فعوامُّ الخلق قصَّروا عن ذلك، لأنَّهُم يُعاملون ربَّهم بالظَّواهر ولا ينصحونه في مُعاملته بالسَّرائر، يقنعون من الأعمال بصُورها؛ وقُلوبهم خالية عن حقائقها.

ثُمَّ على العبد الطَّالب الرَّاغب في سَنَا التَّقريبات وتُحف المواهب: أن يجتهد من حين طُلوع الشَّمس إلى غُروبها؛ ومن غُروبها إلى طُلوعها على أن لا يعصي ربَّه بجارحةٍ من جوارحه، وهذا هُو حقيقة التَّقوى والتَّوبة، ولا يتمُّ ذلك إلا برعاية الجوارح السَّبع؛ التي هي العين والأُذن واللِّسان والبطن والفرج واليد والرِّجل، فيصون هذه الجوارح عن كُلِّ حركةٍ نُهي عنها أو كُرِه له فعلها.

فيحفظ العين عن النَّظر إلى النِّساء والصِّبيان، فالصَّبيُّ الجميل في الحُكم

---

(١) العَرْصَة: كُلُّ بُقعةٍ واسعةٍ بين الدُّور ليس فيها بناءٌ.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «وهي».

كالمرأة، فكما حرم النَّظر إلى المرأة فكذلك الصَّبيُّ، ويحفظ اللِّسان من الغيبة والنَّميمة وقول الزُّور وما لا يحلُّ، ويحفظ السَّمع عن الاستماع إلى الفواحش، فإنَّ المُستمع شريك القائل، ويحفظ البطن عن أكل الحرام وأموال الظَّلمة وما لا يملك من الغُصوب وغيرها، وكذلك يحفظ الفرج عن الحرام، واليديْن والقدميْن أن يُحرِّكهُما أو يسعى بهما إلى ما حرَّمه الله [٧٨/ب] تعالى وعن جميع المكروهات، فمن لم يُجانب المكروهات قد يقع في المحظورات(١)، فالمكروهات سياجٌ؛ من تعدَّاها(٢) جاوز إلى الحمى، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾(٣).

قدَّم غضَّ البصر على حفظ الفرج، فمن ضيَّع بصره - وهي معصيةٌ يُمكن تلافيها بالتَّوبة عن قريبٍ - خيف عليه أن يقع في المعصية الكُبرى - التي لا يُمكن تلافيها إلا بالجَهْد الجَهِيد -، ومن لم يحفظ هذه الجوارح لم يستقم له قلبٌ؛ ولم ينم(٤) له عملٌ، ولا بُدَّ من مُحاسبة النَّفس على كُلِّ حركةٍ من حركات الجوارح؛ حتَّى تبقى الجوارح في أقوالها وأعمالها محفوظة مضبوطة، وبذلك يخفُّ الحساب على العبد في الآخرة، فإنَّما خفَّ الحساب على قومٍ حاسبوا نُفُوسهم في الدُّنيا.

ومن حاسب نفسه في الدُّنيا واستغفر الله عند كُلِّ زللٍ يصدر منه(٥): مُحِيَ عنه بذلك ذنبه - إن شاء الله تعالى -.

فالعبد ولو تحفَّظ مهما تحفَّظ لا بُدَّ من الذَّنب، فمن محاه بالتَّوبة: فإنَّه

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «المحضورات».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يعداها».
(٣) سُورة النُّور: الآية ٣٠.
(٤) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «ينمو».
(٥) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في فائدة الاستغفار».

يتنوَّر قلبه؛ ويُشرق سرُّه، ويُفتح على قلبه باب علم النِّيَّة؛ ومُعاملة الله تعالى بالإخلاص، فيتفقَّد حركاته وسكناته؛ وكُلَّ حركةٍ أو عملٍ خلا من نيَّةٍ صالحةٍ لا يتحرَّك فيها.

والنِّيَّة الصَّالحة: إمَّا أن يطلب بذلك العمل ثواب الله؛ أو يحصل له منه مصلحةٌ دُنيويَّةٌ يتمُّ له فيها معاشه، وما عدا هذيْن الأمريْن فهُو فُضولٌ لا فائدة فيه.

ومن ترقَّى(١) **إلى علم النِّيَّة والإخلاص**: ارتقى من أُمور العالم إلى أعمال المُوقنين، ودخل في أعمال أهل اليقين، وبهذا يتمُّ النُّصح لله، لأنَّ من التزم هذا يُطالب نفسه بالنُّصح لله في مُعاملاته وعباداته، يجب أن لا يتخلَّف عن ندبٍ ندبه ربُّه إليه، أو حقٍّ أوجبه عليه، ثُمَّ لا يرضى من نفسه أن يقوم بصُورته دُون أن يُعامل ربَّه بمعناه وحقيقته، فبذلك تتمُّ العُبوديَّة.

ومن ذلك: تصحيح أُمور الصَّلاة - كما مرَّ أولًا -، ومُحاسبة النَّفس - كما مرَّ ثانيًا -، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكر - على حسب الاستطاعة -، والتَّخلُّص من كُلِّ حقٍّ وجب لله عليه، مثل صلاةٍ فاتت، أو زكاةٍ فاتت، أو صومٍ أو نذرٍ وجب، فلا يزال العبد يقضي ما فاته من ذلك حتَّى يتبرَّأ فيما بينه وبين الله، وتبقى مظالم العباد فيأخذ في التَّخلُّص منها، فيقضي ما في ذمَّته من دَيْنٍ أو وديعةٍ أو حقٍّ من مالٍ أو عِرْضٍ حتَّى تبرأ ذمَّته فيما بينه وبين الخلق؛ كما برئت فيما بينه وبين الله، فإنَّه في الآخرة واقفٌ بين يدي الله ومسؤولٌ عن ذلك كُلِّه، وهذا من أسباب الاستعداد للقاء الله، فمن أيقن بأمرٍ استعدَّ له واستعان بالله في ذلك كُلِّه [٧٩/أ]، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «ترقي».

قال الله تعالى في شأن الصَّلاة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝﴾[١].

وقال في شأن المُحاسبة: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾[٤].

والأخبار والآيات في ذلك كثيرةٌ لمن تدبَّرها[٥] وعرفها، والحمد لله ربِّ العالمين.

فصلٌ

فإذا وفَّق الله العبد لتصحيح النِّيَّة في القُصُود؛ وتحصيل العُلوم النَّافعة لمُعاملة المعبود؛ واستعمال الجوارح بالمأمورات؛ وذبِّها عن المُخالفات: استقام العبد على سواء السَّبيل، ولا يتمُّ ذلك إلا بالاستعانة بالله تعالى والصَّبر؛ لتعتاد الجوارح على التَّلبُّس بها، حتَّى يبقى الصِّدق والعلم والعمل طبيعة راسخة وهيئة ثابتة؛ بمثابة العادات التي لا يجد العبد لها تكلُّفًا، بل يتألَّم إذا فاته شيءٌ منها، إذا جاء وقت العبادة يجد باعثًا يجذبه إليها، فحينئذٍ يكتسي العبد كُسوة الإيمان حقيقة: ظاهرًا وباطنًا؛ علمًا وعملًا، ومتى صار بهذه المثابة: فقد آن أوان الزُّهور؛ التي هي مبادئ الثَّمرات، فيظهر على الأشجار ما أودع الله فيها، ففي النَّاس من يسبق زَهْرُه ورقَ شجرته وأُولئك

---

(١) سُورة المُؤمنون: الآيتان ١-٢.
(٢) سُورة الإسراء: الآية ٣٦.
(٣) سُورة ق: الآية ١٨
(٤) سُورة النُّور: الآية ٣٠.
(٥) في النُّسخة الخطيَّة: «يدبرها».

المجذوبون؛ الذين يظهر عليهم اللَّوائح ومبادئ الحقائق في أوَّل السُّلوك، وأمَّا الغالب منهم فلا تظهر[(١)] زهرتهم إلا بعد إتمام أحوال شجرتهم؛ من إكمال أحوال العلم والعمل.

وليعلم العبد أنَّ أساس سلامة الثَّمرات الخالية من الفساد: هُو صحَّة الاعتقاد؛ وإتقان مسائله وأُصوله، وهُو معرفة ما يجب له ﷻ من الصِّفات العليَّة، وما يستحيل في حقِّه من الصِّفات الخَلْقيَّة.

وليعتمد أخذ ذلك من مذهب أهل السُّنَّة والجماعة[(٢)]، كأحمد والشَّافعيِّ ومالكٍ وسُفيان الثَّوريِّ والأوزاعيِّ وابن المُبارك وإسحاق بن راهويه والفُضيل؛ وأمثالهم وأقرانهم ونُظرائهم: أهل الحديث والأثر، فإنَّ النَّاس في هذه الأزمنة لبُعد العهد بالنُّبوَّة - حيث إنَّ لها سبعمائة سنة - قد مزجوا بالشَّريعة الخالصة عُلُومًا أخذوها من كُتب الفلاسفة الأوائل، كالمنطق والكلام وغيره من عُلوم الحُكماء، فصارت عقائدهم ممزوجة بما ليس من الدِّين؛ مغشوشة، كالدِّرهم المغشوش؛ يعرف النُّقَّاد مقدار الفضَّة فيه من النُّحاس، وذلك لأنَّهم خلطوا بالدِّين ما ليس منه، ولم يقنعهم ما بعث الله به مُحمَّدًا ﷺ من الشَّريعة النَّاسخة لغيرها، فركنوا في عقائدهم إلى مُجرَّد عُقولهم ومقاييسها، فزاغوا بذلك عن محض الإيمان.

والسَّلف الأوَّلون[(٣)]: اعتمدوا على الإيمان المُوافق للعُقُول الصَّحيحة، واستندوا [٧٩/ ب] إلى النُّصوص الواردة عن الله تعالى في كتابه وعلى لسان نبيِّه ﷺ في معارف الرَّبِّ وصفاته، فإنَّ الله سُبحانه أعلم بصفاته؛ وكذلك الرَّسول ﷺ أعلم النَّاس بصفات ربِّه، وهُو الواصف لربِّه بما وصف به نفسه في كتابه.

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يظهر».
(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: كأحمد رَحِمَهُ اللَّهُ».
(٣) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في أصحاب الاعتقادات الصَّحيحة والفاسدة».

فهل يسع المُؤمن أن يعدل عن ذلك في صفات ربِّه إلى ما يقتضيه عقله وفهمه القاصر؟ فعلمنا بذلك أنَّ الدِّين قد خُلط فيه من الآراء والأهواء ما ليس منه.

وقد منَّ الله على المُسلمين في هذا الزَّمان بظُهُور شيخنا وإمامنا: شيخ الإسلام؛ ومصباح الظَّلام؛ تقيِّ الدِّين أبي العبَّاس أحمد بن تيميَّة أمتع الله الكافَّة ببقائه، بأن أوضح للأُمَّة منهاجها[1] الأوَّل في دينها وعقائدها، وبيَّن لهُم دينهُم الذي ارتضاه الله لهُم، وهُو الدِّين العتيق الخالص عن الشَّوب؛ الصَّافي عن الكدر، القريب العهد بالنُّزُول من السَّماء، وله أعاد الله من بركته: عقيدةٌ تُسمَّى الواسطيَّة، فيها جُمل العقائد الإسلاميَّة والإيمانيَّة، وهي كافيةٌ للمُسترشد في الابتداء، ويُرجى أن تتفصَّل مُجملاتها في الأثناء، ويظهر لقلبه إن شاء الله في منازل السُّلوك أنوارها بأكمل الوُضوح والانجلاء، ويُرجى إن شاء الله بعد ذلك أن تصير العقيدة التَّصديقيَّة لقلبه مشهدًا يراها بعين اليقين، ثُمَّ يصير له مقعدًا ومقامًا من الوُصُول والتَّمكين.

فصلٌ

وليعلم أنَّ أهمَّ مسألةٍ في الاعتقاد[2]: الإيمان بمسألة العرش وتحقيقها - علمًا وتصديقًا -، لأنَّها أصلٌ من أُصول السَّالكين؛ السَّائرين إلى طريق قُرب ربِّ العالمين، لا يستقيم أمرهُم إلا بها، ولا ينفذون إلى ربِّهم إلا بمعرفتها وتحقيقها، وهي مبدأ المعارف الإلهيَّة؛ والأذواق الوجديَّة، هي نُقطة أمرهم؛ ومركز دائرتهم، عليها تنشأ قواعدهم.

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «منهاجًا».
(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في أهمِّ مسألةٍ في الاعتقاد».

وأكثر من انحرف عن التَّحقيق: فلجهله بها، فمُعظم النَّاس ليست لقُلوبهم قِبْلَة يتوجَّهُون إليها؛ لكونهم لا يتحقَّقون أنَّ ربَّهُم فوق كُلِّ شيءٍ بفوقيَّةٍ تختصُّ به، وعُلُوٍّ يليق به؛ لا كالصِّفات اللائقة بالمخلوقين، فهُم لا يفهمون من الفوقيَّة والعُلُوِّ إلا الفوقيَّة اللائقة بهم، ولم تستنر[1] أذهانهم إلى أنَّ صفات الرَّبِّ تعالى من عُلُوِّه وفوقيَّته واستوائه ليست كصفات الحَدَث، كما أنَّ سمعه ليس كأسماعهم؛ وبصره ليس كأبصارهم؛ وعلمه ليس كعلمهم، فإنَّها أعراضٌ قامت بحَدَثٍ.

وصفات الرَّبِّ تعالى: هي صفاتٌ قائمةٌ به قديمةٌ تليق بجلاله وتختصُّ به لا تُشبَّه بصفات خلقه، كما أنَّ ذاته المُقدَّسة لا تُشبَّه بذوات خلقه، إذا عُلِمَ هذا وتحقَّق في السَّمع والبصر والعلم وغيره: فكذلك في العُلُوِّ والاستواء والفوقيَّة بلا فرقٍ [٨٠/أ]، إذ الكُلُّ صفاتٌ لموصوفٍ واحدٍ.

فهؤلاء الضَّالُّون: هُم في صفاته المُقدَّسة حائرون، ففيهم من يقول: إنَّه لا داخل العالم ولا خارجه؛ ولا فوقه ولا تحته، لأنَّ الدُّخول والخُروج من صفات التَّحديد والحَدَث؛ والرَّبُّ تعالى مُنزَّهٌ عن ذلك، ومنهم من يقول: إنَّه في كُلِّ مكانٍ بذاته، والقولان مُتقابلان مُنحرفان.

والتَّحقيق: أنَّ الرَّبَّ تعالى فوق كُلِّ شيٍ بفوقيَّةٍ تليق بكمال عظمة الرُّبُوبيَّة؛ مُختصَّةٍ بجلال الإلهيَّة، كما أخبر ﷻ عن نفسه، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[2]. وقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[3]. وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[4]. وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[5]. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «تستر».
(٢) سُورة طه: الآية ٥.
(٣) سُورة النَّحل: الآية ٥٠.
(٤) سُورة فاطر: الآية ١٠.
(٥) سُورة الأعلى: الآية ١.

عِبَادِهِۦ﴾(١). وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾(٢). وقوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾(٣) وقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾(٤). وقوله حكاية عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾(٥). وهذا يدلُّ على أنَّ مُوسى صلَّى الله على نبيِّنا وعليه أخبره أنَّ إلهه فوق السَّماوات، ولذلك قال فرعون عن مُوسى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾.

فمجموع هذه الآيات؛ وبمعراج النَّبيِّ ﷺ من سماءٍ إلى سماءٍ؛ إلى أن أوحى الله إليه ما أوحى، وبقوله ﷺ للجارية: «**أين الله؟ فقالت: في السَّماء. فقال: من أنا؟ فقالت: أنت رسول الله**»(٦) فأقرَّها على ذلك؛ ولم يُنكر عليها بقولها: في السَّماء.

فبمجموع(٧) هذه الأدلَّة: علم العارفون بأنَّ ربَّهُم تعالى فوقهم؛ وفوق كُلِّ مخلوقٍ، فوق عرشه؛ وفوق سبع سماواته، مُتنزِّهٌ عن الدُّخول في خلقه، ووُجوده بائنٌ عن وُجود خلقه، والعرش العظيم لا يُقلّه ولا يحمله ولا يُحيط به، بل هُو حامل العرش؛ وحامل حملة العرش.

وهُو سُبحانه في عُلُوِّه وفوقيَّته مع عباده؛ يعلم سرَّهُم ونجواهُم(٨)؛

---

(١) سُورة الأنعام: الآيتان ١٨؛ ٦١.
(٢) سُورة المُلك: الآية ١٦.
(٣) سُورة آل عمران: الآية ٥٥.
(٤) سُورة النِّساء: الآية ١٥٨.
(٥) سُورة غافر: الآيتان ٣٦-٣٧.
(٦) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة/ باب تحريم الكلام في الصَّلاة ونسخ ما كان من إباحته- الحديث رقم (٥٣٧)- ١/ ٣٨١-٣٨٢] من حديث مُعاوية بن الحكم السُّلميِّ رضي الله عنه.
(٧) في النُّسخة الخطيَّة: «فمجموع».
(٨) في النُّسخة الخطيَّة: «ونجويهم».

ومُتقلَّبهُم ومثواهُم، فهُو قريبٌ في عُلُوِّه؛ عالٍ في دُنُوِّه، ومع كُلِّ شيءٍ بمعيَّةٍ هي صفته؛ وبحيطةٍ هي نعته، تعالى الله عُلُوًّا كبيرًا.

ومن لم يعتقد حُكم المسألة؛ ولم يُؤمن بفوقيَّته سُبحانه ومعيَّته: لم يصل قلبه إلى حقيقة الأمر، لأنَّ مبدأ الحقائق وُجودها في النَّفس - المُعْتَقَد - علمًا قطعيًّا؛ واعتقادًا تصديقيًّا، ثُمَّ تعود تلك العقائد بعينها فيصير للقُلُوب مشاهدٌ، ثُمَّ تصير(١) المشاهد مقاماتٍ للقُلوب ومقاعد، فإذا كانت العقائد فاسدة: كانت المشاهد وهميَّة فاسدة. [٨٠/ب]

ومن عرف أنَّ ربَّه فوق كُلِّ شيءٍ: صار لقلبه قِبْلَة في توجُّهه ودُعائه ومطلبه، كما أنَّ المُصلِّي قِبْلَته في صلاته الكعبة، إليها يتوجَّه؛ ونحوها ينحو، فإذا أيقن بذلك: يصير العرش المجيد قِبْلَة قلبه في إرادته وتوجُّهه، فإذا تحقَّق بذلك يغيب قلبه عن العرش لاستيلاء الحقيقة عليه وامتلائه به، فيصير القلب عرشًا للمثل الأعلى، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾(٢)

فهُو سُبحانه له المثل الأعلى في السَّماوات والأرض؛ وفي قُلوب المُؤمنين، وذلك بتوفيق الله تعالى وفضله، يمنُّ به على من يشاء من عباده.

فصلٌ

وأكمل أسباب الاستعداد لهذا الشَّأن: امتلاء القلب بحُبِّ الرَّسول ﷺ؛ بحيث يجعله السَّالكُ إمامَه ومتبوعَه في كُلِّ شيءٍ، يراه بعين قلبه؛ ويُصغي إلى أوامره عند حركاته وسكناته - كما مرَّ أولًا -، ولا يمتلئ من مخلوقٍ آخر غير هذه الواسطة، فمن وفَّقه الله تعالى لذلك: اعتدلت هيئة قلبه؛ واستعدَّت لتجلِّي

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يصير».
(٢) سُورة الرُّوم: الآية ٢٧.

الحقائق عليها على أكمل الوُجوه وأتمِّ الأُمور.

والسِّرُّ في ذلك: لأنَّ الرَّبَّ تعالى إنَّما تعرَّف إلى هذه الأُمَّة من جهته، وتجلَّى عليهم بكلامه، فمن استقام قلبه على مُقارنة سُنَّته ومحبَّته: استعدَّ للتَّحقُّق بالحقائق على ما هي عليه، ومن امتلأ من شيخٍ غيره أو أُستاذٍ سواه[1] - بحيث حجبه عن ربَّانيَّته -: قد تتجلى له الحقائق مُنحرفة أو ناقصة لبُعده عن الواسطة؛ القريب المُقابل له بالعُبوديَّة من كُلِّ الوُجوه.

فليفهم العبد هذا السِّرَّ فإنَّه كنزٌ من الكُنوز؛ لمن أراد التَّحقُّق بالأسرار ولم تقنعه[2] الأُمور الظَّاهرة.

فإذا رُزق العبد ذلك ترقَّى[3] بتوفيق الله تعالى إلى فهم التَّنزيل؛ وهي الرِّسالة التي بُعث بها هذا الرَّسول ﷺ، وهذا أوَّل مفتاح من مفاتيح المعرفة والوُصول، عرف ذلك من عرفه؛ وجهله من جهله.

ومتى ذاق العبد شمَّة من ذوق القُرآن المجيد: يسكن فيه من شدَّة ما يستجلبه؛ ولا يصبر عن مُداومة تلاوته وتدبُّره وحُسن الاستماع إليه، خُصوصًا إذا ذاق القلب مع الفهم تَعَرُّف صفات المُتكلِّم من الكلام، وهذا أوَّل الأسرار لمن عقله وفهمه، فإنَّه سُبحانه يتكَّلم تارة بكلامٍ رحيمٍ لطيفٍ بعباده، وتارة يُخاطبنا بكلامِ جبَّارٍ قاهرٍ مُنتقمٍ من أعدائه، وتارة يُخاطبنا بكلامِ مَلِكٍ مُقتدرٍ يُدبِّر الأمر ويفعل ما يشاء، وتارة بكلامِ عظيمٍ جليلٍ ذي مهابةٍ وعزَّةٍ، كُلُّ ذلك لنعرفه بمعاني صفاته، ونُقابل كُلَّ صفةٍ بمُقتضاها من العُبوديَّة والخُضوع.

فمثال الرَّحمة واللُّطف: قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا

---

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في لُزوم زيادة محبَّته فوق محبَّة شيخه وأُستاذه».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يقنعه».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «يترقى».

نَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ [٨١/ أ] ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(١)

فانظر ما الذي تدلُّ عليه هذه الآية من معاني صفات الرَّحمة واللُّطف؟

ومثال الثَّاني: قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ۝٣٢﴾(٢).

فانظر ما الذي تدلُّ عليه هذه الآية من معاني صفات الجبروت والقهر والانتقام من مُخالفيه وأعدائه؟

ومثال الثَّالث: قوله تعالى: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ الآية(٣).

فانظر ما الذي تدلُّ عليه هذه الآية من معاني صفات المُلك والرُّبوبيَّة والاقتدار؟ وأمثال ذلك.

فمتى حقَّق القلب هذه المشاهد وذاق حلاوتها: ترقَّى من الإيمان؛ إلى اليقين والعرفان، خُصوصًا لمن قد عرف السِّيرة والسُّنَّة ومرَّ عليها، وعرف معاني التَّنزيل وأسباب النُّزُول من كُتُب التَّفسير، فمنها ما هُو مرويٌّ بالإسناد، كتفسير مُحمَّد بن جريرٍ الطَّبريِّ؛ وتفسير ابن شاهين؛ وبقيِّ بن مخلد الأندلسيِّ؛ وعبد الرَّحمن بن إبراهيم - دُحيم -؛ وغيرها.

ومنها ما هُو محذوف الإسناد - وهي كثيرةٌ جدًا -، كمعالم التَّنزيل للبغويِّ؛ وزاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزيِّ؛ وغيرها.

فإنَّ القُرآن المجيد نزل على وقائع السِّيرة وأحوال الصَّحابة ﷺ، فيبقى العبد حينئذٍ كأنَّه مُشاهِدٌ لهُم ولأُمورهم، حاضرٌ معهُم في مغازيهم ومَشَاهِدِهم، يراهُم بعيْن قلبه، ويودُّ لو كان معهُم، ويذوق حينئذٍ بمشيئة الله ما

(١) سُورة الزُّمر: الآية ٥٣.
(٢) سُورة الحاقَّة: الآيات ٣٠-٣٢.
(٣) سُورة الرَّعد: الآية ٢.

ذاقوه من الاهتمام بتعظيم الرَّبِّ تعالى في أوامره ونواهيه، لأنَّه يشهد الرَّبَّ تعالى يُخاطبهُم على لسان نبيِّه بكلامه على أحكام أحوالهم ووقائعهم، فيجتمع له في هذا المقام: المعارف كُلُّها، معرفة الرَّبِّ العظيم الجليل الذي هُو فوق عباده، والفهم عنه في كلماته وآياته، وحُسن الاستماع والإصغاء إلى أوامره ومواعظه وزجره؛ ووعده ووعيده؛ وتخويفه وتحذيره وترغيبه؛ وغير ذلك من معاني تنزيله.

ويجتمع له مع ذلك: معرفة الرَّسول ﷺ بأخلاقه وشمائله وآدابه، ويستمع إلى مُخاطبة الرَّبِّ تعالى له في كلامه بأحسن أسمائه، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾(١). و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾(٢). و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾(٣). و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾(٤).

وغير ذلك من لطائف مُخاطبة الإله لنبيِّه ومحبوبه ومُصْطَنَعه ﷺ، ويجمع له مع ذلك معرفة السَّابقين الأوَّلين من الصَّحابة المُستجيبين لله وللرَّسول حين دعاهُم؛ المُسارعين إلى امتثال أوامره؛ العارفين بمُراده منهُم في أمره لهُم؛ القائمين [٨١/ب] بحقِّه وأوامره.

وإذا رزق الله العبد هذه المشاهد العالية في الإيمان بالذَّوق القلبيِّ؛ والعرفان الوجديِّ: فذلك من تمام النِّعمة، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾(٥)

---

(١) سُورة الأنفال: الآيات ٦٤؛ ٦٥؛ ٧٠، سُورة التَّوبة: الآية ٧٣، سُورة الأحزاب: الآيات ١؛ ٢٨؛ ٤٥؛ ٥٠؛ ٥٩، سُورة المُمتحنة: الآية ١٢، سُورة الطَّلاق: الآية ١، سُورة التَّحريم: الآيتان ١؛ ٩.

(٢) سُورة المائدة: الآيتان ٤١؛ ٦٧.

(٣) سُورة المُزمِّل: الآية ١.

(٤) سُورة المُدَّثِّر: الآية ١.

(٥) سُورة الأنعام: الآية ١٢٢.

فصلٌ

وليعلم العبد أنَّه إذا دخل في هذا المنزل: فقد ولج في ملكوت السَّماوات وفارق أهل الأرض من أكثر الوُجوه، ودخل في عوالم الآخرة، فقلبه عند ربِّه في الدَّار الآخرة؛ وجسده بين أهل الأرض في الدُّنيا، وليس للعارف وقفةٌ، فإنَّ معرفته تتزايد على ممرِّ اللَّيالي والأيَّام؛ والشُّهور والأعوام: إذا استعمل الموادَّ المُقويَّة لإيمانه؛ وقلَّل الموادَّ المُقويَّة لطبعه وجُثمانه.

وقد جعل الله في الكون موادًّا تقوِّي الإيمان والمعرفة؛ وجُنودًا تُقوِّي موادَّ النَّفس والهوى والشَّيطان، والطَّاعات والقُرُبات والعُلوم والعُلماء والأولياء والصَّالحون: جُنُودٌ وموادٌّ تقوى[1] بها القُلُوب والمعارف، والدُّنيا والشَّهوات **والغفلات وقُرناء السُّوء**: جُنودٌ وموادٌّ تقوى بها النَّفس والشَّيطان.

فليعلم العبد أنَّ هذه المعارف لا تسكن إلا في القُلُوب الطَّاهرة والأبدان المُرتاضة الزَّكيَّة المُسْتَعْمَلة في مراضي الله من الأعمال الصَّالحة، ولا تسكن في قلبٍ مُلوَّثٍ بالشَّهوات؛ محشوٍّ بمحبَّة العُلُوِّ والاستتباع والرِّئاسات، ولا قلبٍ مُعلَّقٍ بشيءٍ من العوالم السُّفليَّات، إلا في قلبٍ صادقٍ يطلب قُرب إله السَّماوات.

فكثيرٌ من النَّاس يكون مُسْتَعْمِلًا للتَّقوى والمُحاسبة وسياسة النَّفس بالآداب الشَّرعيَّة؛ وقلبه مُعلَّقٌ بشيءٍ من الكون، فيتحجَّب بذلك الشَّيء عن هذه الأنوار والمعارف[2]، لأنَّ الشَّيء إذا كان له على القلب سلطنةٌ وربَّانيَّةٌ فإنَّه يمنع وُصول سلطنة الحقِّ وربَّانيَّته إلى القُلُوب.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يقوى».

(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في مُجدٌّ وقلبه مُعلَّقٌ بشيءٍ من الدُّنيا».

وأكثر المحجوبين[١] عن هذه الحقائق لهذه الموانع، وذلك مثل حُبِّ رئاسةٍ أو مالٍ أو جاهٍ أو زوجةٍ أو مملوكٍ أو مُعاشرة أصحابٍ أو غير ذلك من الأسباب التي يتعلَّق بها سرُّه ويسكن إليها قلبه، فلا يكمل إقباله على ربِّه ولا طلبه له، فيُحجب عنه بذلك، فمن حُرم الوُصُول من الطَّالبين: فليتَّهم نفسه، وليتطهَّر من الأدناس، ولينفكَّ من العلائق التي لا ضرورة له إليها، وأمَّا ما إليه ضرورةٌ في معيشةٍ وإقامةِ صورةٍ واستغناءٍ عن النَّاس: فذلك من جُملة الدِّين؛ لا يتمُّ الدِّين إلا به، ولا يُشتغل ولا يُحجب إذا اقتصد الإنسان فيه؛ ولم يُضيِّع جميع الوقتِ فيه.

فصلٌ

ولا بُدَّ لطالب الحقائق الذَّوقيَّات مع قطع العلائق [٨٢/أ] من وقتٍ يخلو فيه بربِّه؛ ويجمع همَّه على صفا ذكره، ليتوحَّد قصده ويصفو قلبه، فإنَّ الحقائق كالعروس الجميلة المُفْتِنَة بحُسنها؛ المُمتنعة على خُطَّابها، تطلب عاشقًا صادقًا في حُبِّها، يبذل في طلبها مُهجته، وتحلو[٢] عنده في حُصول وصالها المرارات، وتهون عليه فيه المشقَّات، كما قيل: من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل.

ومن عرف هذا المعنى: تحقَّق أنَّ هذا السِّرَّ لا يُفتح غالبًا إلا على القُلُوب الطَّاهرة؛ والهمم المُحترقة المُتخلِّية عمَّا سوى مطلوبها بالقانون الشَّرعيِّ المُحمَّديِّ لا بالتَّجريد النَّصرانيِّ، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٣]

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «المحجوبون».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «تخلو».
(٣) سُورة المائدة: الآية ٤٨.

فمن طلب الحقائق المُحمَّديَّة لم يزغ عن طريقها، فإنَّ الحقائق المُحمَّديَّة لا تكمل في حقِّ سالكي العيسويَّة.

وكُلُّ شيءٍ له قانونٌ وطريقةٌ؛ وطرفان ووسطٌ، وخير الأُمور أوساطها بلا غُلُوٍّ ولا انحراف، فالصَّوم الدَّائم والسَّهر الدَّائم وترك الأسباب التي بها يقوم الوُجود بالكُلِّيَّة: كُلُّ ذلك غير مشروعٍ، يصوم قصدًا ويقوم قصدًا؛ ويقطع قلبه عن الرُّكون إلى الأسباب لا إلى المُسبِّب.

ومن خالف هذا المنهج وارتكب أعمالًا شاقَّة غير مشروعةٍ لم يجد لها ثمرة، وأوهنت بدنه وأضعفته في آخر الأمر؛ وأورثته أحوالًا مُنحرفة ممزوجة بحدَّةٍ وسُوء خُلُق، عرف ذلك من عرفه؛ وجهله من جهله.

ومتى اقتصر على الأمر المشروع المُحمَّديِّ: اجتمعت همَّته وتوفَّرت قُوَّته على القيام بما أُمر؛ والانبعاث إلى ما يطلب، واستعمل العبد ما يحلو[1] لقلبه من العبادات المشروعة والأذكار المندوبة، وليُواظب على ما يحلو[2] لقلبه من ذكر الله، فمتى حلا لقلبه شيءٌ[3] من الأذكار يُرجى أن يُفتح له فيه.

فصلٌ

وليتوخَّى الأوقات الفاضلة؛ مثل الثُّلث الأخير من اللَّيل، ويوم الجُمعة عند اجتماع النَّاس إلى انقضاء الصَّلاة، ويوم عرفة، وأوقات الصَّلوات الخمس، فإنَّ فيها تنزل الأنصبة على الطَّالبين، وتلوح البوارق على قُلوب المُشتاقين والمُحبِّين، وهي القُلوب المُتفرِّغة عن كُلِّ همٍّ سوى همِّ مطلوبها، الخالية عن كُلِّ ربَّانيَّة سوى ربَّانيَّة الحقِّ وأوامره، فلا يزال العبد كذلك

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يجلو».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يجلو».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «شيئًا».

مُسْتَعْمِلًا للأعمال المشروحة في صدر هذه الرِّسالة بحسب إمكانه ومبلغ استطاعته، ومن بذل جُهده لم يَنْحَلَّ[١] حتَّى يفتح الله عليه بمشهد معرفة صفة الإلهيَّة التي ينكشف في نُورها فهم الكتاب، ويظهر فيه نُور الرَّسول ومعرفته ومعرفة أصحابه، ويرتبط القلب بمحبَّته ومحبَّة أصحابه في نُور معرفة المُتجلِّي علينا بواسطتهم.

فمتى فتح الله على [٨٢/ ب] القلب هذا المشهد: جاء الخير وانفتح الباب[٢] وانجلى الظَّلام واحتدَّت الأفهام وانجذبت القُلُوب، فقد يظهر للقُلُوب من مشاهد معرفة الإلهيَّة بوارق تلوح للقُلُوب أحيانًا ولا تدوم؛ بمثابة البُروق اللَّوامع، فليُلازم حاله ولا يستبطئ عودها، فإنَّ المواهب على قدر الاستعداد، فقد لا يكون في هذا الآن مُستعدًّا لكمال الأمر، فتلوح له البارقة في السَّنة يومًا؛ وفي الشَّهر يومًا؛ وفي الأُسبوع مرَّة، ثُمَّ تتقارب حتَّى تبقى كُلَّ يومٍ مرَّة، ثُمَّ متى قصدها وجدها، ثُمَّ يترقَّى إلى أن يكتسي القلب بملابس نُور القُرب من صبغة العظمة الإلهيَّة ونُور المثل الأعلى، ويذوق القلب حينئذٍ الهيمان بالجلال والجمال والعظمة والكبرياء، وهذه أنوار القُرْب لخُصوص هذه الأُمَّة المُحمَّديَّة؛ صلوات الله على المبعوث بهذا الدِّين الذي هذا نتائجُه وثمراته، وصلَّى على إخوانه من النَّبيِّين والمُرسلين.

وعلامة صاحب هذا المقام - وهُو مقام مشهد الإلهيَّة المفتوح على العبد من فهم القُرآن المجيد -: أن يأله قلبه محبَّة الإله الذي ظهر للقلب نُوره، وتعرَّف إليه بما شاء؛ كيف شاء، بلا تمثيلٍ ولا تكييفٍ، فيعكف حينئذٍ على صفاء ذكره وخالص وُدِّه، ويعيش بقيَّة عُمره في ظلِّ كنفه؛ مغموسًا مغمورًا في أبحر أنوار قُربه؛ ولذيذ ذوق محبَّته، ويهيج من قلبه بواعث

---

(١) أي: ينقطع.
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «والباب».

الاشتياق إلى مُعاينته، فيعكف عليه ويأنس ويطمئنُّ إليه، ويثق به ويتوكَّل عليه، ويستغني به وبوُجُوده لأنَّه قد عرفه، وكيف لا يستغني به من عرفه؟

وقد قيل(١):

حبيبٌ جفوت النَّاس لمَّا عرفته   كأنَّهُم ما جفَّ من زاد قادمِ
وعاد سُرُوري لا يفي بندامتي   على ما مضى من عُمري المُتقادمِ

فالإنسان يستغني بمعرفة مَلِكٍ من مُلُوك الدُّنيا؛ حيث صار له إليه طريقٌ(٢)؛ وله به معرفة، فكيف لا يكون ذلك لمَلِك المُلُوك؛ الذي تعرَّف إليه فعرفه، وتحبَّب إليه فألهه وأحبَّه.

فصلٌ

ثُمَّ يزيده الله في معرفته؛ فيفتح له معرفة صفة الرُّبُوبيَّة بعد أن عرَّفه مشهد الإلهيَّة، فإذا ظهر للقلب صفة الرُّبوبيَّة - وهُو انفراد الرَّبِّ تعالى بالتَّدبير والقيُّوميَّة - فلا نَفْع ولا ضَرَّ؛ ولا عطاء ولا مَنْع؛ ولا قِسْط إلا بيده، وهُو العليُّ على عرشه، يُدبِّر الأمر؛ فما من ذرَّةٍ إلا وهي في قبضته وتدبيره، فعند ذلك يستسلم العبد له حقيقة الاستسلام، ويُفوِّض إلى ربِّه في المقادير والأحكام، ويتحقَّق بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٣) في [٨٣/أ] مشهد الرُّبُوبيَّة، ولسان حاله يقول(٤):

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في النسخة الخطية: «طريقًا».

(٣) سُورة الفاتحة: الآية ٥.

(٤) ذكر ابن المُلقِّن في [طبقات الأولياء: ص٥١٨] عن داود بن عُمر الكهاري: صحب تاج الدِّين بن عطاء الله، وشرح حزب البحر، فكان يتمثَّل بقوله:

لقد ظهرت فلا تخفى على أحدٍ   إلا على أكمه لا يعرف القمرا
ثُمَّ استترت عن الأبصار يا صمدُ   كيف يظهر من بالعزَّة استترًا.

لقد ظهرت فما يخفى على أحدٍ إلا على[1] أكمه لا يعرف القمرا

وهذا الرَّمز كافٍ، فإنَّ هذه الحقائق تلطف عن العبارة؛ وتسمو عن الإشارة، وتُعرف بالذَّوق، فلفظ السُّكَّر لا يُعطي في الفم حلاوة طعم السُّكَّر لذائقه، والله المُوفِّق.

فصلٌ

وفوق ذلك مَزَايِد لأهلها لا تحتمل البيان ولا الشَّرح التَّامَّ، ومضمونها قُوَّة المعرفة وزيادة المحبَّة والتَّعظيم والابتهاج بالرَّبِّ الكريم وبقُربه ومُلاطفاته؛ وقبضه وبسطه؛ وتصرُّفه بما يشاء من الاصطناع والمحبَّة الخاصَّة؛ وغير ذلك من أحوال أرباب النِّهايات والوُصول.

فمنها: الجمع، وهُو اصطلام الواجد عن شُعوره بوُجوده؛ لقُوَّة استغراقه بموجوده، وعلامة صحَّة هذا الحال: أن يكون محفوظًا في الأوامر والنَّواهي.

وصاحب هذا المقام عند أهل التَّحقيق: ناقصٌ لم يكمل، والكاملون هُم أهل البقاء بعد العُبُور على أطوار الفناء، فيكتسبون في بقائهم وُجُودًا غير الوُجود الأوَّل، فإنَّ الوُجُود الأوَّل قام بالنَّفس والهوى، فهذا وُجودٌ قام بنُور الحقِّ تعالى، فهُو وُجُودٌ محفوظٌ، يتولاهُم الله فيه فلا يحجبهُم عن مشاهدهم شيءٌ؛ ولا يُفرِّقهُم عن مولاهم شيءٌ، فهُم مُتفرِّقون في الأعمال الشَّرعيَّة؛ وهُم مجموعون في عين الجمع بوُجُودٍ آخر غير الوُجُود الأوَّل الذي ذهب بالفناء، ولصاحب هذه الأحوال سُلُوكٌ خاصٌّ يختصُّ به، يُطالب هُو به دُون غيره من السَّالكين على حسب مقامه، فإنَّ له ذُنُوبًا ليست في حقِّ غيره ذُنُوبًا[2]، كما قيل في ذُنُوب صاحب الفناء:

---

(١) سقطت كلمة «على» من النسخة الخطية.

(٢) في النسخة الخطية: «ذنوبٌ».

وُجُـودك ذنـبٌ لا يُـقـاس بـه ذنـبٌ[١]

فهُو أبدًا يعمل على التَّخلُّص من وُجُوده والطَّهارة منه، والنَّفس بطبعها تُدخله في أسبابٍ تُعيد عليه وُجوده، وهُو مُطالبٌ بإفنائه حتَّى يُرقِّيه الله تعالى إلى مقام البقاء، فيُعيد عليه وُجُودًا محفوظًا مُطهَّرًا يتولاه فيه ولا يكله إلى نفسه، فيصير حينئذٍ في مقام البقاء، بالله يسمع؛ وبالله يُبصر؛ وبه ينطق، كما جاء في الحديث[٢]

وهذا غاية ما تُشير[٣] إليه العبارة؛ وتُظهره الإشارة، ولهُم مع ذلك مَزَايِد من فضل الله من التَّقرُّبات في اليقظة والمنام والإذن الخاصِّ لهم، إذا نابهُم شيءٌ يُنزلونه بالله؛ فيُعرِّفهُم الحقُّ مُراده منهم بتعريفٍ خاصٍّ يُطابق الكتاب والسُّنَّة ولا يُخالفه، ومتى خالفه لم يُعتدَّ به.

فالكتاب والسُّنَّة يحكمان على كُلِّ شيءٍ من أُمور الظَّاهر والباطن؛ من البدايات إلى النِّهايات، فلا خُروج عنه في وجهٍ من الوُجوه، وهذا مقام الصِّدِّيقين من المُحمَّدين الكاملين[٤] [٨٣/ب]، الذين كمَّلوا سُلُوك دينهم؛ ووصلُوا إلى حقائقه؛ وارتقوا إلى ذِروة سنامه.

---

(١) ذكر ابن العماد في [شذرات الذَّهب: ٢/ ٢٢٩] عن الجُنيد قوله: (ما انتفعت بشيءٍ انتفاعي بأبياتٍ سمعتها). ثُمَّ ذكر من جُملتها:
(وإن قُلتَ: ما أذنبتُ قالت مُجيبة: وُجودك ذنبٌ لا يُقاس به ذنبُ).
(٢) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الرِّقاق/ باب التَّواضع- الحديث رقم (٦٥٠٢)- ٤/ ٢٠٣٩] من حديث أبي هُريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتَّى أُحبَّه، فإذا أحببتُه كُنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأُعطينَّه، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه، وما تردَّدت عن شيءٍ أنا فاعله تردُّدي عن نفس المُؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته).
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «يشير».
(٤) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: وهذا مقام الصِّدِّيقين».

وقد نظم بعضهُم في ذلك أبياتًا[١]؛ يُشير إلى البدايات والنِّهايات:

مَنْ كَانَ فِي ظُلَمِ اللَّيالِي سَارِيًا ... رَصَدَ النُّجُومَ وَأَوْقَدَ المِصْبَاحَا
حَتَّى إِذَا مَا البَدْرُ أَرْشَدَ ضَوْؤُهُ ... تَرَكَ النُّجُومَ وَرَاقَبَ الإِصْبَاحَا
حَتَّى إِذَا انْجَابَ الظَّلامُ بِأَسْرِهِ ... وَرَأَى الصَّبَاحَ بِأُفْقِهِ قَدْ لاحَا
تَرَكَ المَسَارِجَ وَالكَوَاكِبَ كُلَّهَا ... وَالبَدْرَ وَارْتَقَبَ السَّنَا الوَضَّاحَا

والأمر كما قال، فإنَّ المُبتدي في ظُلمات الطَّبيعة يرصد نُجوم العلم ويُوقد مصباح الاتِّباع حتَّى يبدو لقلبه قمر التَّوحيد؛ وهُو مشهد الإلهيَّة المذكور أوَّلًا، فحينئذٍ يُراقب طُلُوع الصُّبح ليزداد علمًا بوُضُوح طريقه لذهاب ظُلُماته، فلا يلبث حتَّى يطلع عليه الفجر، فلا يزال حتَّى يكمل طُلُوع فجره وتفنى ظُلمات طبعه ووُجُوده، ولهذا قال القائل:

وُجُودك ذنبٌ لا يُقاس به ذنبٌ

فالوُجُود وطُلُوع فجر اليقين ضدَّان، ثُمَّ إذا تكامل صُبحه وتحقَّق بفنائه: ارتقب طُلُوع الشَّمس؛ وهُو حال البقاء، فإنَّ الشَّمس إذا طلعت: أَمِنَ المُسافر من اللُّصُوص وذهبت كُلُّ ظُلمةٍ، وصار في ضوء النَّهار حقيقة، كما قال القائل[٢]:

ليلي بوجهك مُشرقٌ ... وظلامه في النَّاس ساري
النَّاس في سدف الظَّلا ... م ونحن في ضوء النَّهار

---

(١) ذكرها تلميذه ابن قيِّم الجوزيَّة في [كشف الغطاء عن حُكم سماع الغناء: ص٧٨] دون نسبتها لقائلها، وعزاها ابن ناصر الدِّين في [توضيح المُشتبه: ٣/١٦٦-١٦٧] إلى المُؤلِّف: ابن شيخ الحزَّاميِّين.
(٢) انظر: الرِّسالة القُشيريَّة ص٧٦؛ ٣٧٨.

فصلٌ

وجميع ما شُرح من الأنوار والمعارف وأحوال الفناء والبقاء: هي مَثَلٌ يقوم بقُلوبهم من أمثلة العظمة، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(١).

فقد يجد من ذلك شيئًا بعض الجاهلين فيتوهَّم أنَّ الحقيقة قد خالطت قلبه أو مازجته أو امتلأ وُجُوده منها، تعالى الله أن يحلَّ في شيءٍ؛ أو أن يحلَّ فيه شيءٌ، لكن عظمتُه باشرت قُلُوبَهُم؛ وامتلأت منها مفاصلُهُم، كما قال ﷺ: **«أسألك إيمانًا يُباشر قلبي»**(٢).

ويجدون في أنوار ذلك: مُلاطفاتٍ وتقريباتٍ ومُؤانساتٍ ومُحادثاتٍ من ربِّهم، وليس حال هؤلاء الصِّدِّيقين كحال هؤلاء الضَّالِّين القائلين بوحدة الوُجُود(٣)، كابن سبعين؛ وكابن عربيٍّ؛ وكالصَّدر القُونَوِي؛ وكابن هُودٍ؛ وأتباعهم وأشياعهم، طهَّر الله الأرض من آثارهم، فإنَّهُم ضُلالٌ، يزعمون أنَّ الوُجُود وُجُودٌ واحدٌ، فلا يُثبتون للخلق وُجُودًا أصلًا، بل يقولون: إنَّ وُجودهُم هُو عين وُجُود الحقِّ، فعندهُم أنَّه ليس مع الحقِّ شيءٌ، فكُلُّ شيءٍ ظهر في الكون فهُو الحقُّ المُطلق، ظهر في تلك الصُّورة المُعيَّنة.

ولكُلِّ واحدٍ من هؤلاء مذهبٌ في وحدة الوُجُود يختصُّ به، فابن سبعين يقول: الحقُّ يظهر في الماء بلونه؛ وفي النَّار بلونها.

---

(١) سُورة الرُّوم: الآية ٢٧.

(٢) أخرجه البزَّار في مُسنده [الحديث رقم (٥٣٨٥)- ١٢/ ١٧-١٨] من حديث عبد الله بن عُمر بن الخطَّاب رضي الله عنهما في اختصام الملأ الأعلى، قال الهيثميُّ في [مجمع الزَّوائد: ٧/ ٩٥]: (رواه البزَّار، وفيه سعيد بن سنانٍ وهُو ضعيفٌ، وقد وثَّقه بعضهم؛ ولم يُلتفت إليه في ذلك).

(٣) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلب: القائلين بوُحدة الوُجُود».

والصَّدر القُونَوِي يُثبت [٨٤/أ] الكون والمراتب، ويقول: الحقُّ وُجُودٌ مُطلقٌ غير مُتعيِّنٍ، والكون مظهرٌ له، ويعني: أنَّه الوُجُود السَّاري في كُلِّ شيءٍ.

وإشارة ابن عربي؛ يقول: كانت الأشياء ثابتة في عدمها، ففاض وُجُود الحقِّ عليها.

وابن هُودٍ يسري مسرى ابن سبعين ونحوه؛ مع اختلافهم.

والعفيف التِّلمسانيُّ وأتباعه يقولون: إنَّ نسبة الكون من الحقِّ كنسبة الموج من البحر، فعين الموجة هي عين البحر.

وأصل هذا الضَّلال من قبيل أنَّهُم لا يعتقدون أنَّ الباري تعالى كوَّن الأشياء لا من شيءٍ؛ كما هُو مذهب أهل السُّنَّة، بل يقولون: لم يُخلق شيءٌ من غيره؛ لأنَّه ليس معه غيرٌ، بل هُو يظهر في مراتب الكثرة بالوحدة، وهُو عندهُم وُجودٌ مُطلقٌ غير مُتعيِّنٍ، وهذا هُو الفَرْق بين مذهبهم ومذهب المُسلمين.

فهؤلاء زنادقة هذه الأُمَّة ومُشركوها، أشركوا الله مع كُلِّ شيءٍ، فهُم أسوأ حالًا من عُبَّاد الأصنام، وأسوأ حالًا من النَّصارى، فإنَّهُم خصَّصُوا هذا المعنى في شخصٍ واحدٍ وهُو المُسيح، وهؤلاء عمَّموا الأمر في كُلِّ موجودٍ؛ حتَّى في الكلب والخنزير والدُّبِّ والقرد والخنافس والعقارب والنَّمل والدِّيدان، فهل ذهب إلى هذا المذهب عاقلٌ؟! يجعل عين وُجُود الكلب والخنزير والقرد عين وُجُود من لا يُسمَّى في هذا الموضع!! تعالى الله عمَّا يقولون عُلُوًّا كبيرًا.

فهؤلاء عُبَّاد الوُجُود المُطلق المُشترك بين جميع الخلق، وابن عربي يقول: النَّصارى إنَّما ضلُّوا حيث خصَّصُوا، ولو عمَّمُوا لما ضلُّوا.

فصلٌ

واعتقاد أهل السُّنَّة أنَّ الرَّبَّ تعالى فوق عرشه بائنٌ من خلقه، له وُجُودٌ قديمٌ يختصُّ به، والكون حادثٌ له وُجُود آخر غير وُجُوده سُبحانه، والكون مُفتقرٌ إليه في كُلِّ شيءٍ؛ في إقامته له وتدبيره له، وهُو سُبحانه كوَّن الوُجُود لا من شيءٍ ولم يظهر هُو فيه نفسُه، تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا.

والعبد عبدٌ؛ والرَّبُّ ربٌّ، لا تمتزج الرُّبُوبيَّة بالعباد؛ ولا العباد بالرُّبُوبيَّة، وهؤلاء يعبدون نُفُوسهم، ولا يستوحشون من قولهم: إنَّا الحقُّ.

والصِّدِّيقون يعبدون إلهَهُم من فوق عرشه؛ القريب منهم، كُلَّما ازدادوا معرفة به: ازدادوا عُبُوديَّة له وتعظيمًا وإجلالًا لعزِّ جلاله وسُبُحات وجهه الكريم.

ونسأل الله الكريم أن يُحيينا على الكتاب والسُّنَّة غير مبدِّلين ولا مُغيِّرين؛ ولا مغضوبٍ علينا ولا الضَّالِّين، آمين.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا، وحسبنا الله ونعم الوكيل[1] [٨٤/ب].

---

(١) كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في مدينة سيدني؛ في استراليا، في يوم الخميس ٢٢ شوَّال ١٤٣٤هـ؛ الموافق ٢٩ أغسطس (آب) ٢٠١٣م، بعد مُقابلة النُّسخة الخطيَّة مع الأخ الجليل؛ والشَّيخ النَّبيل: أنس بن عبد الرَّحمن بن عبد الله العقيل؛ حفظه الله تعالى ورعاه، وبارك في جهده ومسعاه.

كتاب البُلْغَةُ والإِقْنَاعُ

فِي حَلِّ شُبْهَةِ مَسْأَلِةِ السَّمَاعِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أثاب الله تعالى بالجنَّة مُؤلِّفها، ونفع بها من تأمَّلها،

ورزقنا قصد الحقِّ في التَّفصيل والجُمل، على رضى الله في القول والعمل،

آمين[١].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾[٢]، وجعل لمن يتَّبعه في أُموره بتقواه مخرجًا، ومن كُلِّ ضيقٍ ألـمَّ به فَرَجًا، فهُو ذُو الآلاء والنَّعماء[٣]، وقيُّوم الأرض والسَّماء، أكمل لنا ديننا وأتمَّ علينا نعمه ورضي لنا الإسلام دينًا، فكُلُّ حَدَثٍ أحدثه مُحْدِثٌ بغير هُدى من الله فهُو ردٌّ، وكُلُّ طريقةٍ ليست على جادَّته فهي ضلالةٌ مُؤدِّيةٌ إلى البُعد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملِك الحقُّ المُبين.

وأشهد أن مُحمَّدًا عبده ورسوله؛ الذي أبان الله بشريعته منار الدِّين، وهدى به كُلَّ حائرٍ عن الرُّشد فصار أمره واضحًا باليقين، صلَّى الله عليه وعلى آله في الأوَّلين والآخرين، صلاة دائمة إلى يوم الدِّين.

وبعد:

فإنِّي رأيت هذا السَّماع المُصطلح عليه في زماننا اشتبه على العُقُول أمره، وأظلم على القُلُوب إباحته وحظره.

---

(١) في حاشية النُّسخة الخطِّيَّة: «بلغ مقابلة».

(٢) سُورة الكهف: الآية ١.

(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة: «ذُو الآلاء النَّعماء».

يغلب تارة على القُلُوب الشُّبهة التي كانت السَّبب في إحداثه أوَّلًا[١]؛ من إثارته للأحوال القلبيَّة والمواجيد الرَّبَّانيَّة، ومن كونه يُتوصَّل به إلى ظُهُور الكوامن الباطنة من محبة الله والشَّوق إليه، وما يحصل فيه من الارتياح إلى المقامات العالية؛ أو من الحُزن على التَّقصير والتَّفريط في جنب الله في الأيَّام الخالية.

فإذا لاحت فيه هذه المعاني الشَّريفة: رُبَّما ترجح على بعض العُقُول إباحته للمصلحة في إثارة هذه المعاني من القلب.

وتارة يغلب جانب الباطل فيه؛ من كونه أمرًا مُحدثًا مُبتدعًا لم يكن على عهد رسول الله ﷺ؛ ولا على عهد الخُلفاء الرَّاشدين بعده، الذين بهم يُقتدى؛ وبهديهم يُهتدى[٢]، إذ لو كان فيه خيرٌ لم نسبقهم إليه.

لأنَّ قائدهم وإمامهم ﷺ تركهم على بيضاء نقيَّةٍ، لم يترك لهم أمرًا فيه مصلحةٌ وفلاحٌ في دينهم وآخرتهم ودُنياهم إلا أبانه لهم وحضَّهم عليه، ولم يترك لهم أمرًا فيه مفسدةٌ أو مضرَّةٌ عاجلةٌ أو آجلةٌ في دينهم ودُنياهم وآخرتهم إلا حذَّرهُم منه ونبَّههم عليه.

كما أمره ربُّه تعالى بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٤]

فالدِّين قد أكمله الله تعالى لنا فيما أمرنا به من فريضةٍ وفضيلةٍ [٨٥/أ] وندبٍ واستحبابٍ، وفيما نهانا عنه من مُحرَّمٍ ومكروهٍ وفُضُولٍ.

---

(١) في حاشية النُّسخة الخطِّيَّة: «مطلبٌ: في السَّماع».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة: «تُهدى».
(٣) سُورة النَّحل: الآية ٤٤.
(٤) سُورة المائدة: الآية ٤.

فلو قال القائل: هذا السَّماع هُو من الدِّين الذي شرعه الله لنا - حيث أكمل لنا ديننا - أم لا؟

فلا يتَّسع القائل أن يقول: نعم، لأنَّه لا يُوجد له أصلٌ من كتابٍ ولا سُنَّةٍ، اللَّهُمَّ إلا ما ورد من ضرب الدُّفِّ في الأعراس والأعياد، وذلك أمرٌ طبيعيٌّ أباحته الشَّريعة، ولا يُناسب ذلك أصلًا هذا السَّماع المُصطلح عليه من إيجاده قُربة وعبادة، والاحتفال له بالضِّيافات والاجتماعات، حتَّى رُبَّما يقوم النَّاس فيه نصف ليلةٍ على أقدامهم يزفنون[١] ويرقصون ويصيحون، يزعمون أنَّهم مع الله وبالله.

فليس بين هذا وبين ما كانوا عليه في عهد رسول الله ﷺ من فرحهم بأعيادهم وأعراسهم وضربهم بالدُّفُوف العربيَّة نسبة أصلًا، فتعيَّن حينئذٍ أن يُقال: ليس من الدِّين، ولا خير في أمرٍ خرج من الدِّين؛ ولم يَصُفَّ إلى أحد أقسامه من فرضٍ أو فضلٍ أو ندبٍ أو استحبابٍ، فإذا لاحت هذه المفاسد فيه: تَغَلَّبَ[٢] جانب كراهيَّته؛ وتَعَيَّنَ اجتنابه.

فلمَّا رأيت العُقُول قد تحيَّرت في ذلك؛ تارة تُبيحه لتلك المصالح الأوَّلة المذكورة فيه، وتارة تكرهه لهذه المفاسد المذكورة ثانيًا: استخرت الله تعالى بتعليق كلماتٍ مُوجزاتٍ تكون[٣] بعون الله للعاقل اللَّبيب تبصرة وفُرقانًا وفصلًا بين الحقِّ والباطل، وكشفًا لستر الشُّبهة التي تُغَلِّب جانب استحبابه أو إباحته، ليبقى المُتَّقون العُقلاء على بيِّنةٍ من أمرهم؛ وبصيرةٍ من حالهم.

وإلى الله تعالى أرغب؛ وإليه أتوسَّل: أن يكشف لنا جانب الحقِّ ويُعيننا على اتِّباعه، ويكشف لنا جانب الباطل ويُعيننا على اجتنابه، وأن ينفع من وصل إليْه، وطلب الحقَّ الذي يرضاه لديْه؛ وحام عليْه، آمين.

---

(١) أي: يلعبون لعبًا شبيهًا بالرَّقص.

(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة: «فغلب».

(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة: «يكون».

فصلٌ في تفصيل أحواله

اعلم أنَّ السَّماع الاصطلاحيَّ في غالب الأمر لا يُورِدُ على القُلوب حالًا ليس فيه، إنَّما يُثير ما كَمَنَ فيه من حقٍّ أو باطلٍ؛ أو خيرٍ أو شرٍّ، فإذا سمعه صاحب حقٍّ أو ذوقٍ: طرب إلى ذوقه الكامن فيه، حيث أثارته النَّغمات اللَّذيذة، أو ناسبت لطافة الألحان وطيب النَّغمات وحلاوتها لطافة ما استكنَّ في ضميره من شواهد الحقِّ فأَذْكَرَتْهُ إيَّاها، فهاج لذلك وَجْدُه وتحرَّك حُبُّه، حيث كان مستورًا [٨٥/ب] في غير السَّماع بالحُظوظ والأُمُور المُشتعلة، فأخلى السَّماع باطنه عن الأغيار فخمدت[١] فيه الوساوس وسكنت النَّفس، فتحرَّكت القُلُوب بمُقتضى ما سكن فيها من المحبَّة والشَّوق والأُنْس والقُرْب وغير ذلك من الأحوال التي يُثيرها السَّماع بالألحان المُطْرِبَة والنَّغمات اللَّذيذة في الأشعار الرَّائقة الرَّقيقة، لما فيها من الصَّدِّ والهجر؛ والبُعْد والقُرْب؛ والملاحة والحُسْن، وتناسب[٢] أوزان الشِّعر أيضًا ولطافة المعاني وحُسْن الصَّوت وظرافة الإيقاع والتَّصفيق - وخُصُوصيَّة ذلك النَّوع من المُوسيقى وأصنافه - ما في قلب هذا المُحبِّ المُشتاق.

فحيث وجد المُناسبة اضطرب وتحرَّك، إذ لكُلِّ نوعٍ من المُوسيقى خُصُوصيَّة، فإنَّ للزولكند خُصُوصيَّة في الطَّرب؛ وكذلك[٣] للرَّاست والحجازيِّ والرهوي والعراقيِّ والعشاق والنَّوا والنَّيروز وغيره[٤]

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «فحمدت».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة: «تاسب».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة: «لذلك».
(٤) قسَّم الأُستاذ الدُّكتور صالح المهدي المقامات المُوسيقيَّة العربيَّة إلى ثلاثة محاور؛ كما في كتابه: المُوسيقى العربيَّة -مقاماتٌ ودراساتٌ- ص١٦-١٨.

فبعض الطِّباع تُحرِّكها أحد هذه الأنغام؛ لمُناسبةٍ بينه وبين طبعه.

فيا معشر العُقلاء: فهل معنى غير ذلك في السَّماع؟!

هذا مجموع جُمله وتفصيله إن شاء الله تعالى.

ولذلك يُثير هذا السَّماع بهذه الصِّفات والأوزان ما كَمَنَ في قُلُوب الفُجَّار من محبَّة أغراضهم الفاسدة، خُصُوصًا إذا كانوا عُشَّاقًا مهجورين؛ وكان المعشوق حاضرًا ثُمَّ ذَكَرَ الحُسْن والجمال والصَّدَّ والقطع والمُواصلة والمُعانقة.

وفيهم من تثور[1] عليه شهوة النِّكاح إذا طرب في السَّماع، خُصُوصًا إذا سمع قول الشَّاعر[2]:

أُعانقها والنَّفسُ بعدُ مشوقةٌ ... إليها وهل بعد العناق تداني

وألثم فاهًا كي تزول صبابتي ... فيزدادُ ما عندي من الهيماني

ثُمَّ قد لا يكون عنده من المُروءة والحزم والعقل ما يكظم به ما هيَّجه عليه السَّماع من الشَّهوة، فأيُّ مفسدةٍ تُؤدِّي إلى خراب الدِّين مثل هذه[3]؟

فيكون سماعه حرامًا؛ ووَجْده حرامًا؛ وخطراته حرامًا، ويتقلَّب في المحظور من أوَّل السَّماع إلى آخره.

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «يثور».

(٢) هُو أبوالحسن عليُّ بن العبَّاس بن جُريْجٍ - المعروف بابن الرُّوميِّ -؛ كما في ديوانه ٣/٤٠٦، وفيه:

أُعانقها والنَّفسُ بعدُ مشوقةٌ ... إليها وهل بعد العناق تداني

فألثمُ فاهًا كي تموتَ حزازتي ... فيشتدُّ ما ألقى من الهيمان

وما كان مقدار الذي بي من الجَوَى ... ليَشْفِيهِ ما ترشفُ الشَّفَتانِ

كأنَّ فؤادي ليس يَشْفي غليلَه ... سوى أنْ يرى الروحَيْن يمتزجان

(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة: «هذا».

وإن كان فيه إثارةٌ لوَجْدٍ صادقٍ في آحاد الصَّادقين؛ بحيث يكون في الجمع منهم اثنان أو ثلاثةٌ وكان فيه إثارةٌ لفسق الفاسقين؛ أو للَحْظ المحظوظ في أهل الحُظُوظ - وإن كانوا مستورين بحيث يكون في الجمع مثلًا منهم عشرون أو ثلاثون -: هل تُقاوم مصلحتُه مفسدَته؟

كلا والله؛ ما أعرض الشَّارع ﷺ عن مثل هذا السَّماع ولم يأمرنا به إلا لرُجحان مفسدته [٨٦/أ] في الأُمَّة على مصلحته.

وكم من مفسدةٍ نتجت منه؟! مثل: محبَّةٍ مُحرَّمةٍ؛ واجتماعٍ مُحرَّمٍ؛ ونظرٍ مُحرَّمٍ، وربَّما كان السَّماع بعينه سببًا للحُبِّ الحرام والنَّظر الحرام في حالة السَّماع.

ولو كان في السَّماع خيرٌ ولنا فيه مزيد فضلٍ أو قُرْبٍ من الله تعالى أو طريقٍ إلى رضاه: لم يكتمه عنَّا ﷺ، وقد أعلم أُمَّته كُلَّ شيءٍ حتَّى الخِرَاءَة[1]، لكن حذَّرنا من الابتداع، وقال: «**كُلُّ مُحدثةٍ بدعةٌ، وكُلُّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكُلُّ ضلالةٍ في النَّار**»[2].

فثبت بهذا التَّقرير: أن مفسدة السَّماع في أغلب الأُمُور وعُمُوم النَّاس أرجحُ من مصلحته، والسَّماع الذي فيه مصلحةٌ ظهر رُجحانها - بحيث نتج منه وَجْدٌ صادقٌ وذِكْرُ الله تعالى -: هُو سببٌ ووسيلةٌ إلى الاجتماعات المحظورة التي ترجح مفسدتها على مصلحتها، فقد صار اجتماع الصَّالحين فيه حُجَّةٌ

---

(١) أي: التَّخلِّي والقُعود للحاجة.

(٢) أخرجه النَّسائيُّ في سُننه [كتاب صلاة العيدَيْن/ باب كيف الخطبة- الحديث رقم (١٥٧٨)- ص٢٦٠] من حديث جابر بن عبد الله الأنصاريِّ ﷺ، وأخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الجُمعة/ باب تخفيف الصَّلاة والخُطبة- الحديث رقم (٨٦٧)-٢/ ٥٩٢] بلفظ: «**وشرُّ الأمور مُحدثاتها، وكُلُّ بدعةٍ ضلالةٌ**»، دُون قوله: «**وكُلُّ ضلالةٍ في النَّار**».

لاجتماع الفاسقين، حتَّى نشأ من ذلك اجتماعاتٌ قبيحةٌ تجري فيها أُمورٌ مُنكرةٌ؛ يقتدون فيها بالفُقراء[١]؛ لا بالأنبياء، نعوذ بالله من البدع كُلِّها؛ ما ظهر منها وما بطن.

وما أحسن الوُقُوف حيث وقف الإمام ﷺ، وما أحزم من ترك التَّقدُّم بين يَدَيْ سُنَّته بقولٍ أو فعلٍ، والله[٢] المُستعان.

فصلٌ

وقد يقول القائل: فهذا السَّماع قد عمله جمعٌ من الأولياء؛ وممَّن لا يُشكُّ في عُلُوِّ منزلته عند الله، مثل: طبقات الصُّوفيَّة؛ الجُنيد وأصحابه، والشِّبليّ وأمثاله، مثل يُوسف بن الحُسيْن الرَّازي، ومن قبله مثل: ذي النُّون المصريِّ وغيرهم، فكيف يسوغ لنا تخطئتهم؟

فيقال: إن كان قد عمله ألف صالحٍ زاهدٍ عابدٍ - أو أكثر؛ أو أقلَّ - فقد تركه جُمهُور أصحاب رسول الله ﷺ؛ وهُم أُلوفٌ مؤلَّفةٌ، إن كان قد فعله ذُوالنُّون فقد تركه أبوبكرٍ الصِّدِّيق، أو كان قد حضره الجُنيْد - فقد ثبت عن الجُنيْد أنَّه تاب عن السَّماع وتركه قبل وفاته - وقد غاب عنه عُمر الفاروق، ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[٣].

وكفى بالمُؤمن المُتَّبع لدين الله؛ المُقتفي لآثار رسول الله ﷺ وآثار أصحابه: أن يقتدي بالقُرُون الثَّلاثة - القرن الأوَّل الذي فيه الرَّسول ﷺ وأصحابه؛ ثُمَّ قرن التَّابعين بعده؛ ثُمَّ قرن تابعي التَّابعين بعده -، لم يكن هذا

---

(١) أي: الصُّوفيَّة.

(٢) في النسخة الخطية: «وبالله».

(٣) سُورة الأنعام: الآيتان ٨١-٨٢.

السَّماع في هذه القُرُون الثَّلاثة، وإنَّما حدث بعدهم، ولا خير في بدعةٍ حدثت بعدهم [٨٦/ ب].

فصلٌ

والتَّحقيق في هذا السَّماع الاصطلاحيِّ: أنَّه مُركَّبٌ من شُبهةٍ وشهوةٍ، فالشُّبهة فيه: نصيب الأرواح، إذا سمعت ذكر المحبَّة والمحبوب - كما مرَّ أولًا - حرَّك ذلك الرُّوح لمن في قلبه شيءٌ من الحقِّ، فهذا قَدْر الشُّبهة.

وأمَّا الشَّهوة المُمتزجة فيه: فهي نصيب النُّفُوس منه، وذلك أنَّ النُّفُوس تلتذُّ وتطرب بالألحان المُطْرِبَة، وتأخذ بحظِّها الوافر منه، حتَّى رُبَّما أسكرها؛ وفعل فيها فعل الشَّراب.

فإنَّ ثلاثة أشياء تنفعل لها الطِّباع وتسكر بها: السَّماع؛ والصُّورة؛ والخمر، ففيه حال طبيعيٌّ منسوبٌ إلى الطَّبع، حتَّى إنَّ الأطفال والحيوانات رُبَّما أثَّر فيها الحُدَاء والسَّماع، وقد يمتزج[١] بهذا الحال الطَّبيعيِّ أحيانًا نصيبٌ من الحقِّ الذي هُو حظُّ الرُّوح من محبَّة الله تعالى.

فتبيَّن بهذا التَّقرير: أنَّه مُركَّبٌ من حقٍّ وباطلٍ، وهُو معنى قولنا: شُبهةٌ؛ وهُو شُبهة الحقِّ الذي فيه.

وقولنا: شهوةٌ؛ وهُو ما للنُّفُوس فيه من الحظِّ، ولأجل الباطل الذي فيه قد يدخل على أهل الحظِّ المحمود فيه دواخل قادحةٌ، ورُبَّما غلب سُكر النُّفُوس فيه على حظِّ الأرواح؛ فانغمر فيه فصار الحُكم له، ويصير النَّصيب خالصًا للشَّيطان، فصاحب الحقِّ في السَّماع قد يغلب عليه جانب الباطل وينغمر الحقُّ فيه ويستهلك؛ لكون أنَّ صُورة هذا السَّماع غير مشروعةٍ وليست من الدِّين ولا

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «تمتزج».

من الإسلام، فهي صُورةٌ مُبتدعةٌ، فلهذا السَّبب قد يقوى جانب النَّفس والشَّيطان فيه على جانب ما تتحرَّك به الأرواح في أهل الأذواق الصَّحيحة.

هذه قاعدةٌ يفطن لها إن شاء الله كُلُّ مُنصفٍ عاقلٍ قد غاص في أعماق حقائق السَّماع؛ وعرف مضارَّه ومنافعه؛ ومصالحه ومفاسده، والله المُوفِّق والمُعين.

فصلٌ

وأمَّا السَّماع المشروع الذي كان على عهد رسول الله ﷺ وعهد الخُلفاء الرَّاشدين من بعده وعهد صالحي التَّابعين بعدهم: فهُو استماع القُرآن المجيد، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[١].

فسماع الآيات هُو نصيبٌ خالصٌ للأرواح لا تُشاركه فيه النَّفس ولا الشَّيطان؛ ولا يغلبان فيه على جانب حظِّ الرُّوح، والنَّفس في هذا السَّماع مقهورةٌ؛ والشَّيطان مخذولٌ مقموعٌ فيه، والحقُّ مُستعلنٌ ظاهرٌ، فإنَّه صفة الرَّبِّ تعالى، يتجلَّى فيه الموصوف بتجلِّيات صفاته في قُلوب محبِّيه ومُريديه - أهل الأذواق الصَّحيحة -، فيلوح لهم في حالة استماعهم له آثار العظمة والجلال والرَّأفة والرَّحمة واللُّطف والمنَّة والقهر والانتقام؛ وغير ذلك من آثار الصِّفات، يذُوقها من انفتحت مَسَامُّ قلبه؛ وَصَفَتْ بصيرته؛ وحَسُنَتْ سريرته؛ وخالف النَّفس والهوى بحُسْن مُجاهدته ورياضته، فذلك هُو السَّماع المشروع.

ورُبَّما يقول القائل: فالنُّفُوس أيضًا فيه تلتذُّ بالألحان وحُسْن الصَّوت وطيب النَّغمات.

(١) سُورة المائدة: الآية ٤٠.

فيُقال: هذه اللَّذَّة هي وسيلةٌ إلى وُصُول الحقِّ المحض إلى الطَّبع، فإنَّ الطِّباع جُبلت على استثقال الحقِّ وكراهيَّته؛ واستلذاذ الحُظُوظ والشَّهوات والميل إليها، فإذا امتزج بالحقِّ المحض طيب النَّغمة وحُسْن الصَّوت: التذَّت النَّفس به ونفذ الدَّواء فيها، فيكون بمثابة السُّكَّر في الأدوية النَّافعة الكريهة، تُنْفِذُها إلى قعر البدن، فلذلك الصَّوت الحَسَن وطيب النَّغمة في التِّلاوة يُوصل أدوية القُرآن النَّافعة إلى أعماق القُلُوب.

هذا في حقِّ أهل النُّفُوس الميَّالة، فأمَّا من زكت نفسه وأشرق قلبه: فهُو يلتذُّ بالقُرآن قراءة واستماعًا ومُطالعة، يتلذَّذُ به بصوتٍ حسنٍ أو بغيره، لأنَّه يتغذَّى[١] بمعناه لصفاء باطنه عن بقايا نفسه.

وهذا السَّماع من كمال الدِّين والإسلام؛ لا يتمُّ الدِّين إلا بالسَّماع المشروع، فالله تعالى فيه غالبٌ على أمره في كُلِّ حالٍ، لكن لمَّا بعد العهد بالدِّين الخالص؛ وتباعد زمن الرَّسول ﷺ؛ وانحرفت الأُمور وانقلبت الأحوال: صارت النُّفُوس المُنحرفة لا تجد ذوقها إلا في سماع الأبيات، ولا تجده في سماع الآيات.

فصلٌ

وحقَّق المُحقِّقون أنَّ ذوق السَّماع مباينٌ لذوق الصَّلاة، فكُلُّ من طَرِبَ في السَّماع الاصطلاحيِّ ووَجَد كمال ذوقه: لم يجد ذوق التِّلاوة والصَّلاة، فصاحب ذوق السَّماع غالبًا لا يجد ذوق الصَّلاة، لأنَّ بين الذَّوقيْن مُباينة؛ يعرفها من عرف ذوق الإسلام الخالص.

وذوق السَّماع الاصطلاحيِّ: ذوقٌ مُنحرفٌ طبيعيٌّ نفسانيٌّ؛ تتحرَّك النُّفُوس

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «تتغذَّى».

فيه بُحكم الطَّبيعة، قد يُمازجه أحيانًا شيءٌ من الحقِّ في آحاد النَّاس إذا كان قد استكنَّ في قلبه شيءٌ من المواجيد الإلهيَّة، ويكون ذلك الحقُّ مغمورًا بأمثاله من حظِّ النَّفس والباطل.

وذوق التِّلاوة والصَّلاة: ذوقٌ مُستقيمٌ إلهيٌّ مُحمَّديٌّ من كمال الإسلام وتمام الإيمان، فمن وجد هذا غالبًا لا يجد ذاك؛ إلا [٨٧/ب] من تاب من تلك الطَّريقة السَّماعيَّة ورجع إلى الذَّوق المُحمَّديِّ، فقد يجد ذوق الصَّلاة وإن كان قد وجد ذوق السَّماع قبل ذلك.

فصلٌ

فعليكُم بالسَّماع المشروع - سماع الآيات - تكونوا فيه مُتَّبعين لنبيِّكُم مُحمَّدٍ ﷺ، مُستمعين إلى كلام ربِّكم، مُتنعِّمين به وبما تضمَّنه من وعده ووعيده؛ وتخويفه وتحذيره؛ وقصصه وأخباره ومواعظه؛ وأنبائه وحِكَمه؛ وأذواقه ومشاربه؛ وآدابه وأخلاقه؛ وفُهُومه وأنواره.

آهٍ! آهٍ! آهٍ! وأين من يذُوق هذا من القُرآن في زماننا؟! لقد عزَّ ذلك؛ إلا أفرادًا في زوايا الأرض مَخْفِيِّين، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

فصلٌ

والخُصُوص يفهمُون من القُرآن وتلوح لقُلُوبهم منه أُمورٌ[١] عاليةٌ وأنوارٌ[٢] خارقةٌ يكشف منه لقُلوبهم، وفيه تجلِّيات الصِّفات المُقدَّسة، فتمتلئ قُلُوبهم وأسرارهم بأنوار المحبَّة والعظمة والكبرياء، يرتدون[٣] فيه بأردية الهيبة،

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «أُمورًا».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة: «أنوارًا».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة: «يتردون».

ويكتسون ملابس الأُنْس والتَّقريب، وهُم المُقرَّبون؛ وقليلٌ ما هُم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٣].

فلا يطرب على كلام الحبيب إلا المُحبُّون، ولا يشرب بكأس المحبَّة إلا الذَّائقون، ولا يكتسي ملابس القُرْب إلا المُقرَّبون، فإنَّه تنزيلٌ من ربِّ العالمين، إله الأوَّلين والآخرين؛ حبيب المُحبِّين؛ وظهير المُلاجئين؛ وأرحم الرَّاحمين.

فصلٌ

معاشر العُقلاء: أين من يذوق بقلبه هذه الأذواق العالية في كلام ربِّه؛ ممَّن تطرب نفسه على أبياتٍ فيها ذكر ليلى وسُعْدَى ولُبْنَى؛ والخُدُود والقُدُود؛ والأعطاف والنُّهُود؟

مثل من يُغنِّي ويقول:

(ألا)[٤] ما للمليحة لم تزرني ... أَبُخْلٌ بالمليحة أم صُدودُ

---

(١) سُورة الأنعام: الآية ٣٦.

(٢) سُورة ق: الآية ٣٧.

(٣) سُورة يس: الآية ٧٠.

(٤) ما بين القوسين ساقط من النسخة الخطية، وقد حدَّث بها رجلٌ من بني تميمٍ؛ كما في اعتلال القُلوب للخرائطي ١/ ١٩٤، وفيه:

أَلَا مَا لِلْمَلِيحَةِ لَمْ تَعُدْنِي ... أَبُخْلٌ بِالْمَلِيحَةِ أَمْ صُدُودُ
مَرِضْتُ فَعَادَنِي أَهْلِي جَمِيعًا ... فَمَالَك لَمْ تُرَ فِيمَنْ يَعُودُ
فَقَدْتُك بَيْنَهُمْ فَبَلِيتُ شَوْقًا ... وَفَقْدُ الإِلْفِ يَا أَمَلِي شَدِيدُ
وَمَا اسْتَبْطَأْتُ غَيْرَك فَاعْلَمِيهِ ... وَحَوْلِي مِنْ ذَوِي رَحِمِي عَدِيدُ
وَلَوْ كُنْت الْمَرِيضَ لَكُنْتُ أَسْعَى ... إِلَيْك وَمَا يُهَدِّدُنِي الْوَعِيدُ

ومثل من يقول(١):

بكَّرت تذكرني لِجَاج العذليّ فيها ... وتلطخني بطرف محجلِي

وتميس كالغُصن الرَّطيب ودُونها ... كفلٌ كدَعْصِ الرَّمل ضخمٌ مُمتلِي

يا هذه حتَّام هجرك والقِلَى ... جُودِي على دَنِفٍ بحُبِّك قد بَلِي

فأين حال من يطرب بمثل هذا؛ إلى حال من يجد لذَّة السَّماع ورُوح الحال في قول الله العظيم، أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم، بسم الله الرَّحمن الرَّحيم: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ [٨٨/أ] ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾(٢).

خُصوصًا إذا قرأه قارئٌ صحيح القصد؛ نافذ الفهم؛ حَسَن الصَّوت؛ خاشع النَّفس؛ رقيق القلب، وكان المُستمع له صحيح القصد؛ كامل الذِّهن؛ ذكيَّ الفهم؛ هائم القلب، قد هيَّم قلبه إلى لقاء ربِّه، وطالت عليه الأيَّام واللَّيالي للبُعْد عن سيِّده، كيف ترون حاله إذا سمع كلام من يُحبُّه؛ ويشتاق إلى قُرْبه؟

أيستوي ذوقه وسماعه وذلك الذَّوق الأوَّل في سماع أهله؛ عبيدِ نُفُوسٍ شهوانيَّةٍ اجتمعوا ليلتذُّوا ويُنيلوا نُفُوسهم حظَّها من ذلك؟!

كلا والله؛ إنَّ بين السَّماعيْن لبونًا عظيمًا؛ وفرقًا ظاهرًا مُستبينًا، يعرفه من صفا عقله؛ وتنوَّر قلبه؛ واستقام بالعلم جهله، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله.

---

(١) لم أقف عليه.
(٢) سُورة طه: الآيات ١-٨.

فصلٌ

ومِمَّا استقرأه العُقلاء والأولياء أنَّهم لم يجدوا صادقًا تواجد في سماع الأبيات إلا بَعُد قلبه عند الفراغ منه وعند مُفارقة المجلس؛ ووَجَد قبضًا على قلبه، وذلك القبض لا يفطن له إلا العُلماء الأولياء.

فالعلَّة في القبض عَقِيبَ السَّماع: أنَّه حيث كان ذلك السَّماع ممُتزجًا من حقٍّ وباطلٍ؛ وإن أخذت الرُّوح حظَّها المحمود فيه فقد شاركت النَّفس فأخذت حظَّها وراحتها، فامتزج نصيب الرَّحمن بنصيب الشَّيطان، فاختلط الأمر كاختلاط الماء الصَّافي بالماء الكدر، لكن لغلبة الصَّفاء وظُهُور وصف الرُّوح فيه: خفي أثر الكدر فيه على المُستمع، فلمَّا أفاق من سُكْره وطيبته: وجد اللَّوْث والكُدُورة في قلبه، وهُو أثر جُثُوم الشَّيطان على النَّفس.

وقد بلغنا عن بعض الصَّادقين - وهُو الشَّيخ الإمام عزُّ الدِّين الفاروثيُّ خطيب الجامع بدمشق رَحِمَهُ اللهُ[1] -: أنَّه كان إذا حضر سماعًا وتواجد فيه: يستغفر الله تعالى عَقِيبَ السَّماع؛ ويُجدِّد التَّوبة، وذلك الاستغفار لما أخذت النَّفس والشَّيطان نصيبهما من ذلك السَّماع والتَّلوُّث الحاصل فيه من الصُّورة التي لم يشرعها الله تعالى في كتابه؛ ولا رسوله ﷺ في سُنَّته.

---

(١) هُو أبوالعبَّاس أحمد بن إبراهيم الواسطيُّ، وُلِدَ سنة أربعة عشرة وستِّمائةٍ في ذي القَعدة بِوَاسِطَ، وبها تُوفِّي في أوَّل ذي الحجَّة سنة أربعٍ وتسعين وستِّمائةٍ، كما في: المُعجم المُختصّ بالمُحدِّثين للذَّهبيِّ ١/ ١٠-١١، الوافي بالوفيَّات للصَّفديِّ ٦/ ٢١٩-٢٢٠، طبقات الشَّافعيَّة الكُبرى للسُّبكيِّ ٨/ ٦-٨.

فصلٌ

من وجد في سماع الأبيات ذوقًا صحيحًا إلهيًّا كان بمثابة من سُقِيَ عسلًا في إناءٍ قذرٍ نجسٍ تنبو عن الشُّرب في مثله النُّفُوس، فالصَّادق إذا وجد في سماع الأبيات ذوقًا: فلغلبة حلاوة العسل غاب الشَّارب عن قذارة الإناء، فحين الفراغ من شُربه [٨٨/ ب] ولذَّته عكس على نفسه أثر قذارة الإناء؛ فأحسَّ به فوجد القبض لذلك.

فصلٌ

لـمَّا تقادم العهد بالدِّين الأوَّل الصَّحيح - دين رسول الله ﷺ ودين أصحابه؛ فله اليوم في سنة ثلاثٍ وسبعمائة من الهجرة - هذا الأمد الطَّويل فانحرفت لبُعْد العهد عنه الأعمال وانقلبت الأذواق؛ فصار الغالب لا يُوجد إلا ذوقٌ مُنحرفٌ في عملٍ مُنحرفٍ، والسَّلف ﷺ كانوا يجدون الأذواق الصَّحيحة المُتَّصلة بالله في الأعمال الصَّحيحة المشروعة في دين الله.

فافهموا ذلك معشر العُقلاء وحقِّقُوه؛ تفوزوا بالنَّظر الصَّحيح؛ أو(١) تحيُّر الأعشى وخَبْط الأعمى.

ثُمَّ لا تعدلوا عن طريقة الرَّسول ﷺ في كُلِّ شيءٍ - تأدَّبُوا به في أكله وشُربه ونومه وأخلاقه وآدابه وعاداته وعباداته وسائر شُؤونه، اجعلوه إمامًا يُقتدى به، كالشَّيخ في زماننا هذا الذي يتَّبعه المُريدون في كُلِّ شيءٍ؛ ولا ينحرفوا عنه في أدنى شيءٍ -: فيدخل عليكم الشَّيطان فيُنسيكم ذكر الله؛

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «أوا».

فتقعوا في البدع والانحراف، وتحسبون أنَّكم على شيءٍ، قال الله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٨ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٩﴾(١).

وإن كان هذا في حقِّ الكُفَّار؛ فللمُنحرفين(٢) عن السُّنَّة العُصاة نصيبٌ من ذلك بحسبهم، فإنَّ المعاصي دقائق الكُفر، فلا تعدلوا عن مُتابعة الرَّسول في شيءٍ.

بلغنا عن بعض السَّلف ﷺ: أنَّه ترك أكل البِطِّيخ، وقال: لم يُنقل إليَّ كيف كان رسول الله ﷺ يأكله؟!

فانظروا رحمكم الله إلى هذا السَّيِّد؛ كيف توخَّى الاقتداء بالرَّسول وحرص عليه في كُلِّ شيءٍ حتَّى في هذا الأمر الجُزئيِّ من آداب الأكل؟

فما ظنُّك فيمن ينحرف عن دين رسول الله ﷺ في مثل هذه السَّماعات المُحرَّمة والاجتماعات الفاسدة؛ من إظهار المُكاء والتَّصدية بالدُّفوف والشَّبابات(٣).

وقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنَّه مرَّ بزمَّارة راعٍ فوضع أُصبعيْه في أُذنيْه(٤).

---

(١) سُورة المُجادلة: الآيتان ١٨-١٩.
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة: «المُنحرفين».
(٣) أي: التَّشبيب، وهُو ذكر أيَّام الشَّباب واللَّهو والغزل في ابتداء القصائد، سُمِّي بذلك: لما فيه من ذكر الشَّباب. ويُطلق التَّشبيب ويُراد به: ذكر التَّغزُّل بالنِّساء، وهو من تشبيب النَّار وتأريثها.
(٤) أخرج أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٤٥٣٥)- ٨/ ١٣٢]، وأبوداود في سُننه [كتاب الأدب/ باب كراهية الغناء والزَّمر- الحديث رقم (٤٩٢٤)- ص٧٣٨] عن نافع مولى عبدالله بن عُمر بن الخطَّاب، ولفظ أحمد: (أنَّ ابن عمر سمع صوت زَمَّارة راعٍ، فوضع أُصْبعيْه في أذنيْه، وعدل راحلتَه عن الطَّريق وهُو يقول: يا نافع، أتسمعُ؟ فأقول: نعم، فيمضي، حتَّى قُلتُ: لا، فوضع يديْه وأعاد راحلته إلى الطَّريق، وقال: رأيت رسول الله ﷺ - وسمع صوت زَمَّارة راعٍ - فصنع مثل هذا).

والزَّمَّارة: هي التي يُسمُّونها الشُّعَيْبِيَّة؛ يستعملها رُعاة الغنم.

فما ظنُّك بالبَيْت؛ والذين يقفون على أقدامهم نصف ليلةٍ؟ يرقصون ويزفنون على مثل[١]:

سقاني خمرة أحيا فُؤادي ... بكأس الحُبِّ من بحر الودادي

ولو كُلِّف أحدهم أن يقف لله في ركعةٍ دُون هذا القيام [٨٩/أ]: تسامت نفسه، فما أبعد النُّفوس عن الحقِّ؛ وما أميلها إلى الباطل والحطِّ[٢]؟!

فصلٌ

وممَّا يقع في السَّماع من المصائب التي تُحزن كُلَّ عاقلٍ: أنَّه رُبَّما يقع في الطَّابق[٣] حالة السَّماع والزَّفن والرَّقص أمردٌ جميلٌ يرقص ويتحرَّك على التَّوقيع[٤] والتَّصفيق، فتحمرُّ لذلك وجنتاه؛ ويعرق وجهه؛ وتبرز للخلق تقاطيعه في رقصه وحركته ودورانه، فتبقى نُفُوس أهل الطَّابق مجذوبة إليه، قد أثَّر فيهم جميعهم، وصار الوقت له فامتلأت قُلوبهم بحُسْن صُورته ولُطف تركيبه، وكُلَّما غنى المُغنِّي وحرَّك الدُّفُوف ووقَّع: هاج على القُلوب عشقه ومحبَّته في حقِّ ألطف الجماعة، وفيهم من تهيج عليه بسببه الشَّهوة كُلَّما نظر

---

(١) نسبه ابن المُلقِّن في طبقات الأولياء ص٤٠١-٤٠٢ إلى أبي يزيد البِسْطَاميِّ، وفيه:

غَرَسْتَ الحُبَّ غَرْسًا في فُؤادِي ... فلا أسلُو إلى يوم التَّنادِي
جَرَحْتَ القلب منِّي باتِّصالٍ ... فشَوْقِي زائدٌ والحُبُّ بادِي
سقاني شَرْبَة أحيا فُؤادِي ... بكَأسِ الحُبِّ في بحر الوِدَادِ
فلولا الله يحفظ عارفيه ... لهَامَ العَارِفُونَ بكُلِّ وادِي

(٢) أي: الانحدار والوَضْع.

(٣) أي: الطِّبَق - بكسْر الطَّاء -: وهُو الجماعة من النَّاس.

(٤) أي: الإيقاع، وهو ألحان الغناء، وهو أن يُوقع الألحان ويُبينُها تَبْيينًا.

إلى أردافه وأعطافه، وهُو أكثفهم وأقربهم إلى البهيميَّة، ومع ذلك فيموّهون ويزعمون أنَّهم مع الحقِّ؛ وأنَّهم في وَجْد القُلوب وشوقها إلى الله؛ وقد انطوت نُفوسهم على مثل هذه الفضائح.

فأيُّ مُسلمٍ في قلبه مثقال ذرَّةٍ من إيمانٍ لا يستقبح هذا؟!

وقد حضرنا مثل هذا السَّماع ورأينا في حلقاتهم مثل هؤلاء الصِّبيان، ورأينا النُّفوس الميَّالة إليهم، فَاسْأَلْ[1] به خبيرًا، إذ لا يُنبِّئك مثل خبيرٍ.

حتَّى بيَّن الله لنا بكرمه ورحمته من شُيوخ الهُدى: شُبهة السَّماع، وحلَّ لنا مُشكله، ورأينا الانحراف في حُضوره؛ والصَّواب في تركه، فضلًا منه ورحمة، فلله الحمد والشُّكر.

فمثل هذا السَّماع مُحرَّمٌ بإجماع المُسلمين على من يحضره؛ وعلى من يُؤلِّف النَّاس إليه، وهُم ملعونون قد تعرَّضوا لمقت الله وغضبه، واستباحوا ما حرَّم الله، وكيف لا؛ وقد قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾[2].

فصلٌ

ومن أقسام الفسق والفُجور في السَّماع: أن يجتمع النَّاس على سماع النِّسوان، وهُو مُحرَّمٌ بإجماع الأُمَّة؛ لم يختلف فيه أحدٌ من الأئمَّة والعُلماء، وذلك لوجوهٍ:

إحداها: أنَّ النَّظر إلى الأجنبيَّة مُحرَّمٌ بإجماع الأُمَّة؛ وكذلك الإصغاء إليها فيما تُغنِّي به، فإنَّ ذلك مُحرَّمٌ أيضًا على الأجنبيِّ سماع كلام الأجنبيَّة، فإنَّه

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «فسئل».
(٢) سُورة النُّور: الآية ٣٠.

ممَّا يُحرِّك الشَّهوة ويُثير الميْل إليها، لأنَّ الذَّكر يحنُّ بطبعه إلى الأُنثى، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[2].

والإجماع على: سماع النِّسوان مُحرَّمٌ؛ ملعونٌ فاعله، ومن يجمع النَّاس عليه؛ ومن يبذل فيه شيئًا؛ ويُعين على إحفال[3] النَّاس له، وقد تعرَّض لمقت الله وغضبه، لأنَّه انتهك حُرمته؛ وخالف أمره؛ ووقع فيما نهاه ربُّه عنه، آثر لذَّة [٨٩/ب] فانية قصيرًا زمانها على عُقوبةٍ شديدةٍ ونارٍ حاميةٍ، طويلٍ أمدها.

فعلى من حضر هذا السَّماع أن يُعجِّل بالتَّوبة إلى الله والرُّجوع إليه، ويغسل سواد الوجه بهذا الذَّنب بمياه الطَّاعات وترك المُحرَّمات، فإنَّ الله توَّابٌ يقبل التَّوبة عن عباده ويعفو عن السَّيِّئات.

فصلٌ

وليس البحث في هذا الكُرَّاس في مثل هذا السَّماع، فإنَّ هذا مُجْمَعٌ[4] على تحريمه، لأنَّه مُقدِّماتٌ للفسق والفُجُور، وإنَّما البحث مع جماعةٍ صالحين؛ اجتمعوا على قوَّالٍ[5] صالحٍ؛ ووَجَد المُستمعون في ذلك ذوقًا صحيحًا، فهُم في ذلك منقوصون، قد عدلوا عن السَّماع المشروع وهُو سماع الآيات؛ إلى السَّماع المُنحرف المُبْتَدَع وهُو سماع الأبيات.

فمثلهم - كما سبق ذكره - كمثل من سُقِيَ عسلًا في إناءٍ قذرٍ نجسٍ، ولو

---

(١) سُورة النُّور: الآية ٣٠.
(٢) سُورة النُّور: الآية ٣٠.
(٣) أي: اجتماع.
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة: «مجموع».
(٥) أي: كثير القول للأبيات الرَّقيقة والأشعار العذبة.

شربه في إناءٍ نظيف[١] طاهرٍ كان أشهى له وأشرح لصدره وأنفع لمرضه، وذلك هُو سماع القُرآن، فيه شفاءٌ للصُّدور، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾[٢].

فنسأل الله العظيم بمنِّه وكرمه: أن يجمعنا عليْه؛ من أقرب الطُّرق إليْه، وأن يحفظنا في دينه ومنهاجه وشريعة رسوله وسُنَّته وآدابه حتَّى نلقاه بذلك؛ غير مُغيِّرين ولا مُبدِّلين، ولا مغضوبٍ علينا ولا الضَّالِّين، آمين، إنَّه أرحم الرَّاحمين.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين، وحسبنا الله ونعم الوكيل[٣]

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «نضيف».
(٢) سُورة الأنعام: الآيتان ٥٧-٥٨.
(٣) كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا لتَّحقيق: في مدينة بيكان بارو؛ في منطقة رياو؛ في جزيرة سُومطرا؛ في جُمهوريَّة أندونيسيا، في يوم الجُمعة ٣ صفر ١٤٣٥هـ؛ الموافق ٦ ديسمبر (كانون الأوَّل) ٢٠١٣م.

كتاب لَوَامِعُ الاسْتِرْشَادِ فِي الفَرْقِ بَيْنَ التَّوْحِيدِ والاتِّحَادِ

أَلَّفه النَّاصح لإخوانه المُؤمنين عُمومًا؛ ولطائفةٍ من الصُّوفيَّة والفُقَراء خُصوصًا، فتح الله بها صمم الأسماع؛ ونوَّر بها البصائر والأبصار

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ذي الجلال والإكرام، والإفضال والإنعام، والمواهب الجسام، والمنح العظام، الذي اصطفى من عباده ضَنَايِنَ[1] لقُربه، واختصَّ لولايته أبرارًا يشربون من خالص محبَّته بكأسه، فتح لهم أبواب المعارف والوُجدان، فغابوا بوُجوده عن الأكوان، محى بظُهور حقيقته عليهم رُسومهم، واصطلم بصفاته المُقدَّسة بقاياهم [٩٠/أ] من نُفوسهم، فطهَّرهم عمَّا سواه ونقَّاهم، وتولاهم برعايته وأغناهم.

وصلواته على يَنْبُوعِ الهُدى؛ وواسطة عقد لآلئ الورى، نبيِّ الرَّحمة؛ وكاشف الغُمَّة، الذي فتح ببعثه طريق السَّير إليْه، وأنار به سبيل الرَّشاد دلالة للخلق عليْه وإليْه، صلَّى الله عليْه وعلى آله المُصطفين؛ وأصحابه المُنتجبين، صلاة دائمة بدوامه؛ باقية على مرِّ لياليه وأيَّامه.

وبعد:

فأيُّها النَّاظر في هذا الكتاب؛ جعلنا الله وإيَّاك ممَّن فتح فطنته لفهم الحقائق، وكُشِفَ له من خفيَّات الدَّقائق: تأمَّل بعقلك هذا الكتاب؛ وانظر فيه بنُور الله، وافتقر بسرِّك إلى الله.

واعلم أنَّ لله عبادًا فتح لهم في الغُيوب؛ فوصلوا من معرفته إلى كُلِّ مرغوبٍ، كشف لبصائرهم الجَلْوَة عن ضدِّ الشَّهوات؛ وعَبَار التَّبعات[2]؛ من لطائف أفعاله ومُقدِّمات أسمائه وصفاته؛ وحقائق أنوار ذاته: ما تعجز عن صفته العبارة؛ وتقصر دُون شرحه الإشارة.

---

(١) أي: نِفَاسٌ؛ مضنونٌ بهم لنفاستهم.

(٢) أي: الاعتبار بما يلحقه من عواقبها.

وكيف لا؛ وقد اضمحلَّ وُجودهم في وُجوده؛ وانمحت آثار نباتهم في إشراقات أنواره وظُهوره، صارت منهم القُلوب عرشيَّة؛ والأرواح عُلويَّة؛ والنُّفوس روحانيَّة، أسكرهم[(١)] به عن مُلاحظات وُجودهم، وجمعهم في حضرة قيوميَّته[(٢)] عن مُشتركات إراداتهم، فصاروا بالله؛ ولله؛ ومع الله؛ في تصاريفهم وأُمورهم، ظهرت عليهم أنوار الرُّبوبيَّة؛ فتحقَّقوا بالانطباع في قوالب العُبوديَّة، خرجوا عن ذوق نُفوسهم إلى رقِّ مولاهم بالكُليَّة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[(٣)]

فلا تستعظم ذلك ولا تُنكره، واعلم أنَّ مواهب الله ﷻ أعلى من أن يعقلها العُقلاء، وكراماته الفائضة على من أحبَّه واصطفاه فوق ما يتوهَّمه الألبَّاء، سقاهم شرابًا من حُبِّه؛ وكساهم لِبْسَة من نُوره، فتحقَّقوا بالحياة الأبديَّة؛ والسَّعادة السَّرمديَّة، جعلنا الله من المُتحقِّقين بمحبَّتهم؛ المُقتفين آثارهم في محجَّتهم، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه.

---

(١) قال ابن قيِّم الجوزيَّة في [مدارج السَّالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين: ٤/ ٢٠٦-٢٠٧]: (وهذا المعنى لم يُعبَّر عنه في القُرآن ولا في السُّنَّة ولا العارفون من السَّلف بالسُّكر أصلًا، وإنَّما ذلك من اصطلاح المُتأخِّرين، وهو بئس الاصطلاح، فإنَّ لفظ السُّكر والمُسكر من الألفاظ المذمومة شرعًا وعقلًا، وعامَّة ما يُستعمل في السُّكر المذموم الذي يمقته الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [سُورة النِّساء: الآية ٤٣]. وعبَّر به سُبحانه عن الهول الشَّديد الذي يحصل للنَّاس عند قيام السَّاعة، فقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [سُورة الحجِّ: الآية ٢]. ويُقال: فلانٌ أسكره حبُّ الدُّنيا، وكذلك يُستعمل في سُكر الهوى المذموم. فأين أطلق الله سُبحانه أو رسوله أو الصَّحابة أو أئمَّة الطَّريق المُتقدِّمون على هذا المعنى الشَّريف - الذي هو من أشرف أحوال مُحبِّيه وعابديه -: اسم السُّكر المُستعمل في سُكر الخمر وسُكر الفواحش؟! كما قال عن قوم لُوطٍ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سُورة الحجر: الآية ٧٢]. فوصف بالسُّكر أرباب الفواحش وأرباب الشَّراب المُسكر، فلا يليق استعماله في أشرف الأحوال والمقامات؛ ولا سيَّما في قسم الحقائق).

(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة: «قيموميَّته».

(٣) سُورة الأنفال: الآية ٤.

وهذا الخطاب للعُقلاء الألبَّاء؛ الذين ليسوا بأهل الأهواء، المُلاحظين بأهوائهم الزَّكيَّة؛ إلى الحقائق الصَّحيحة المعنويَّة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١) وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٢).

والغرض منك أيُّها الأخ الصَّادق الفطن العاقل الذَّكيُّ الرَّاجح: أن تخرج فيما تُخاطب به عن جُمود التَّقليد، وتُزيح [٩٠/ب] عن صدرك التَّعصُّب والتَّعنيد، فإنَّهما يستران وجه الحقِّ؛ ويعدلان بمُتَّبعهما عن محجَّة الصِّدق، وصاحب الهوى لا يُبصر غير ما هُو فيه؛ لما قد استولى على قلبه منه فهُو يُعانيه، فإذا أزاح المرء الهوى عن قلبه؛ وافتقر إلى الله بسرِّه؛ ولجأ إليه بخالص الافتقار والدُّعاء؛ وسأل بكرمه أن يُبيِّن له طريق الحقِّ والاهتداء: استعدَّ بهذا الالتجاء؛ لينزل الهُدى على قلبه من السَّماء، وكشف ما استبهم عليه من العمى والخفاء.

فإذا وُفِّقت لذلك وفعلته: فاعلم أنَّ الله تعالى بعث الأنبياء مُبشِّرين ومُنذرين، دُعاة إليه بإذنه وهادين، ليُخرجوا التَّائهين عن المحجَّة من ظُلمات الحيرة إلى النُّور، ويُرشدهم إلى طريق سعاداتهم ليفوزوا بالحُبور؛ يوم العرض والنُّشور، وكان أكملهم مُحمَّدًا(٣) ﷺ الذي بعثه الله إلى الخلق بشيرًا ونذيرًا؛ وهاديًا إلى الله بإذنه وسراجًا مُنيرًا، ليُبيِّن للنَّاس ما نُزِّل إليهم لعلَّم يحذرون، أرسله رحمة للعالمين؛ بشفاءٍ لما في الصُّدور وهُدى ورحمة للمُؤمنين، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(٤).

---

(١) سُورة البقرة: الآية ٢٦٩، سُورة آل عمران: الآية ٧.
(٢) سُورة ق: الآية ٣٧.
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة: «مُحمَّدٍ».
(٤) سُورة يُونس: الآية ٥٨.

وذلك حين اتَّخذ الكُفَّار من دُون الله أندادًا من الشُّركاء والأمثال؛ والأشباه والأشكال، عبدوا من دُونه الأصنام والأحجار؛ والكواكب والأشجار؛ وما ضاهاها من المعبودات الحقار، أشركوا بالله في عبادته غيره من جمادات مخلوقاته؛ وأموات مبتدعاته، التي لا تسمع ولا تُبصر ولن ﴿يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾[1].

فهداهم الله بمُحمَّدٍ ﷺ؛ وتعرَّف إليهم بنفسه؛ وكشف لهم في الغيب عن وجهه الكريم ليعرفوه فيعبدوه فيستعينوه، وأخبرهم بصفاته التَّامَّات؛ ونُعوته المُقدَّسة الكاملات، فأكمل لهم بذلك دينهم؛ وأتَّم عليهم نعمته في تعليمه إيَّاهم شرائع أديانهم؛ وعقائد قُلوبهم ومعارفهم، ليتوصَّلوا بما علَّمهم إلى سنيِّ الأحوال؛ في قوالب الصِّدق في الأعمال، فيكشف لهم بذلك صريح العرفان؛ وحقائق الإيمان، فيحمل لهم بذلك مُرادهم منهم في الأعمال والأحوال، وذلك هُو غاية الكمال في الحال والمآل، وقد قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي [٩١/أ] وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[2].

هذه المُقدِّمة مُتَّفقٌ عليها، حُكمها ظاهرٌ؛ وبُرهانها لائحٌ، فهدى الله بهذا النَّبيِّ أُمَّته الجاهلة العمياء، حين كانوا جُفاة لا يعلمون حقًّا ولا يهتدون طريقًا، وانتدب منهم من كَمُلَ استعداده؛ وعلا قصده ومُراده؛ إلى التَّحقُّق بحقائق الشَّريعة؛ والوُصول إلى معالي مقامات الحقيقة، فبرز في عصره ﷺ سادات النَّاس وأفاضلهم؛ وخير النَّاس بعد نبيِّهم، كأبي بكرٍ وعُمر وبقيَّة العشرة، ومن حذا حذوهم؛ وسار في نهجهم، كأُبيِّ بن كعبٍ ومُعاذ بن جبلٍ وعبد الله بن مسعودٍ وأبي الدَّرداء وسلمان وغيرهم، ممَّن انتشر فضلهم؛

(١) سُورة الحجِّ: الآيتان ٧٣-٧٤.

(٢) سُورة المائدة: الآية ٣.

واشتهر بالمعرفة وصفهم، بلغوا من حقائق الشَّريعة ودقائق المعرفة ما لم يبلغه غيرهم، وتحقَّقوا من حقائق المحبَّة والمواجيد ما لم يرتق إليها من بعدهم.

وكيف يجهل العاقل ذلك؛ وقد شربوا من كأس الرَّسول؛ وارتضعوا من لبانه؛ واقتبسوا من نُوره؛ وامتلأوا من مواجيده؟

يعلم العُقلاء بالضَّرورة أنَّهم كانوا أعمق النَّاس عُلومًا؛ وأعلى الخلق أحوالًا؛ وأحقَّ النَّاس بالمعرفة تحقُّقًا؛ وأكثر النَّاس بالأحوال تقمُّصًا، من الزُّهد والتَّوكُّل والرِّضا والحُبِّ والشَّوق والفناء والبقاء؛ لكنَّهم لقُوَّة إيمانهم وعُلوِّ مراتبهم[١]: لم يظهر عليهم آثار السُّكارى بالأحوال، بل قووا بنُور النُّبوَّة حتَّى صرفوا الأحوال في الأعمال، فجاهدوا في سبيل الله بالسُّموِّ العوال، وذلك هُو غاية الكمال.

ولا تعجب؛ العجب من صاحٍ سكران، فإنَّ الموهبة الإلهيَّة الفائضة على الشَّمائل المُحمَّديَّة السَّارية فيه إلى خواصِّ أصحابه أعطتهم القُوَّة والتَّمكين، والفرق في الجمع والصَّحو في السُّكر، يُعلم ذلك ضرورة من لوائح أحوالهم؛ ودقائق كلماتهم؛ وقُوَّتهم في ذات الله؛ وجهادهم لأعداء الله؛ وخالص محبَّتهم لله، فلا يُقاس بأحوالهم أحوال غيرهم؛ ممَّن باح بوجده؛ وباح بسرِّه؛ وضاق عن كتمان مواجيده؛ حتَّى غنَّى وطرب وعربد حين يشرب[٢]، وقد سُقي قطرة من كُؤوس الصَّحابة؛ فأظهر النَّشاة[٣] والكآبة.

فصلَّى الله على ينبوع الهُدى والحقائق وعيْن معينها، ورضي الله عن الصَّحابة البررة الكرام وأرضاهم، وألحقنا بهم؛ ولا عدل بنا عن طريقهم، وعصمنا من الزَّيغ عن سُنَّتهم ونهجهم، إنَّه الجواد الكريم.

(١) في حاشية النُّسخة الخطِّيَّة: «مطلبٌ: لكنَّهم لقُوَّة إيمانهم».
(٢) أي: يشرب من كأس المحبَّة والوجد، وفي النسخة الخطية: «حين شرب».
(٣) أي: النَّشا، وهي حِدَّةُ الرَّائحة؛ طيِّبة كانت أو خبيثة.

وكان من قضاء الله وقدره أن خلفت من بعدهم خُلوفٌ عُمومٌ وخُصوصٌ، فالعُموم أضاعوا الصَّلوات واتَّبعوا الشَّهوات.

والخُصوص منهم من أضاعوا الأُصول [٩١/ب]؛ وجنحوا إلى الفُضول، فانحرفت لذلك النَّتائج، وكُلَّما تطاول الزَّمان نقصت الأعمال؛ وضعفت الأحوال، حتَّى آل الأمر إلى فساد العقائد؛ والضَّلال في المصادر والموارد، حتَّى حدث في السِّتِّمائة قومٌ تمادى بهم الأمر في إضاعة الأُصول؛ والانحراف عن السُّلوك والوُصول، فظهروا إلى الحقائق بغريبٍ من الكلام، في إشاراتٍ دقيقةٍ؛ وعباراتٍ عميقةٍ، لا تهتدي العُقول إليها إلا بعد تكلُّفٍ؛ ولا تفقهها القُلوب إلا بعد تفرُّقٍ وتألُّفٍ، والقُلوب تُحبُّ علم ما لا تعرفه، وتستحلي حلَّ ما تستشكله، فطارت تلك التُّرَّهات في البُلدان، وانحلَّ بها كثيرٌ من أهل الملل والأديان.

حاصلها: المُبالغة في التَّوحيد، حتَّى وصفوا الكائنات بوحدة الوُجود، فصاروا بذلك في طرفٍ يُقابل الطَّرف الذي مال إليه المُشركون الذين بُعث إليهم رسول الله ﷺ؛ فإنَّهم بالغوا في الشِّرك بالله حتَّى اتخذوا الأنداد من دُون الله، وهؤلاء بالغوا في التَّوحيد حتَّى جعلوا ما اتَّخذه المُشركون من دُون الله - بل جميع الأكوان - مظهرًا[1] ظهر الحقُّ فيها بحقيقته؛ وتجلَّى بوُجوده وأنيَّته، فوقعوا في حقيقة الإشراك، أشركوا بالله مع كُلِّ شيءٍ؛ حيث جعلوه عين كُلِّ شيءٍ، فهُو سُبحانه - على زعمهم الكاذب وتحريفهم الباطل - عين هذا الوُجود؛ لا وُجود لشيءٍ سواه، وكُلُّ شيءٍ من الكائنات - على زعمهم - لا وُجود له، وإنَّما الوُجود للحقِّ، فعين وُجود خالق الأشياء - على زعمهم - هُو عين وُجود الأشياء المخلوقات، تعالى الله عمَّا يقوله الظَّالمون؛

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «مظهر».

وتنزَّه الله عمَّا ينتحله المُبطلون.

فانظر رحمك الله إلى ثلاثة أشياء:

كيف كان الدِّين مُنحرفًا أولًا في زمان الجاهليَّة الجهلاء؟!

وكيف قوَّم الإسلام ذلك حتَّى وحَّدوا الله بما وحَّد به نفسه وأخلصوا العبادة له حتَّى لم يتَّخذوا له ندًّا؟!

وكيف آل الأمر إلى هذا الانحراف في الآخر حتَّى خرج إلى هذه الغاية المذكورة بحيث صار ذلك طرفًا أقصى وهذا طرفًا أقصى والحقُّ واضحٌ لائحٌ بينهما؟!

فمن رزقه الله تعالى فهمًا وعقلًا وفطرة سليمة وذكاء صحيحًا وقلبًا أشرق فيه نُور الإيمان؛ ونظر إلى الأمر في ابتدائه ثُمَّ في توسُّطه ثُمَّ في انتهائه؛ وعلم الانحراف أولًا؛ والاستقامة وسطًا؛ والانحلال آخرًا، كُلُّ ذلك كما أخبر ﷺ: **«لتركبُنَّ سنن من كان قبلكم؛ حذو القُذَّة بالقُذَّة، حتَّى لو دخلوا جُحر ضبٍّ لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله؛ آليهودَ والنَّصارى؟ [٩٢/أ] قال: فمن؟»**(١).

كما أنَّ اليهود اتَّخذوا عُزيرًا ابن الله؛ والنَّصارى اتَّخذوا المسيح ابن الله، وهذه الأُمَّة وقع فيها ما لم يبلغنا عن أهل الكتاب من أنَّهم اتَّخذوا كُلَّ شيءٍ إلهًا هُو عين الله، حتَّى إنَّ نُفوسهم تُحدِّثهم أنَّ حقيقة أحدهم هُو الله.

---

(١) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب أحاديث الأنبياء/ باب ما ذُكر عن بني إسرائيل- الحديث رقم (٣٤٥٦)- ٢/ ١٠٧٤-١٠٧٥]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب العلم/ باب اتِّباع سنن اليهود والنَّصارى- الحديث رقم (٢٦٦٩)- ٤/ ٢٠٥٤] عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ ﷺ، ولفظ مُسلم: **«لتتبعنَّ سنن الذين من قبلكم، شبرًا بشبرٍ؛ وذراعًا بذراعٍ، حتَّى لو دخلوا في جُحر ضبٍّ لاتَّبعتموهم. قُلنا: يا رسول الله؛ آليهود والنَّصارى؟ قال: فمن»**، وأخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (١٧١٣٥)- ٢٨/ ٣٥٩] من حديث شدَّاد بن أوسٍ ﷺ بلفظ: **«ليَحْمِلَنَّ شرار هذه الأُمَّة على سنن الذين خلوا من قبلهم أهل الكتاب؛ حذو القُذَّة بالقُذَّة»**.

وكان هذا الحدث في رأس السِّتُّمائة؛ بقواعد يُقرِّرونها؛ وطامَّاتٍ يُزخرفونها، إذا تأمَّلها العاقل الفطن: وجدهم يُحرِّفون الكلم عن مواضعه، فيجعلون ما ذمَّ الله به الكُفَّار مدحًا باعتبارٍ، ويجعلون النَّار جنَّة باعتبارٍ، والعذاب عُذوبة باعتبارٍ، ويجعلون اللَّعنة والغضب قُرْبًا باعتبارٍ، وما حلَّ بالكُفَّار من الدَّمار والهلاك وُصولًا باعتبارٍ، وكُلُّ ذلك أنَّ عين وُجود جميع المخلوقات هُو عين وُجود الخالق، وُجودها ووُجوده واحدٌ، يقلبون حقائق المعاني؛ ويحرِّفون الكلم عن مواضعه؛ كما حرَّفته الباطنيَّة والقرامطة، تعالى الله عمَّا يقولون عُلوًّا كبيرًا.

ووجدنا الغالب على مُسلمي مذهبهم: إمَّا ناقص العقل مُحبط الخيال، أو عاقلٌ فطنٌ لبيبٌ يُحبُّ الانسلاخ عن ثقل الشَّرائع بالانحلال، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[١].

واعلم أيُّها الأخ الفطن اللَّبيب العاقل المُسترشد؛ الذي يطلب الحقَّ وينتحله؛ فتح الله سمع قلبك وبصره؛ وأراك الله وإيَّانا الحقَّ حقًّا وأعانك على اتِّباعه؛ وأراك وإيَّانا الباطل باطلًا ووفَّقنا لاجتنابه: أنَّ هذه الطَّامَّات التي يذكرونها إنَّما تُرَوَّجُ على غرٍّ جاهلٍ بعظم التَّوحيد بحُسن الظَّنِّ منه، ويشتاق إلى الحقائق ولم يذق منها شيئًا؛ ولم يُباشر قلبه من صفوها ذوقًا بعظم هذا الفنِّ، وينظر إليه من مكانٍ بعيدٍ، فيُحبُّه ويتعصَّب لأهله، ويُرَوَّجُ عنده ما يُزخرفونه لقُصوره عن درك الحقائق.

وأمَّا من فتح الله قلبه لمُشاهدة أنوار القيُّوميَّة[٢]؛ وألاح لسرِّه نصيبًا من

---

(١) سُورة الأعراف: الآية ٣٣.

(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة: «القيموميَّة».

توحيده؛ وخالص تفريده: بأوَّل بارقةٍ من ذلك يعرف خفايا انحراف ما يُشيرون إليْه؛ ويُنادون بزُخرف القول عليْه.

فإنَّ كُنت أيُّها الأخ تشتاق إلى شيءٍ من تلك الحقائق الإيمانيَّة؛ والأذواق العرفانيَّة: فاجعل نفسك كأنَّك في زمن الجاهليَّة؛ وارحل إلى رسول الله ﷺ لتلقاه؛ فتؤمن به وتُسلم على يديْه، ورحلتك إليه ولقاؤك له: مُطالعتك سيرته؛ وما ورد عنه من سُننه وسيرته وسيرة أصحابه وخاصَّته.

ثُمَّ تأمل كتاب الله؛ وافهمه عن الله: يُسْمِعْكَ [٩٢/ب] ما يُعرَّف إليك به من أسمائه وصفاته الواردة في التَّنزيل على خير الخلق؛ وعلى أصحابه الذين هُم صفوة هذه الأُمَّة.

وكُلُّ من جاء بعدهم: فمن بقايا رضاعهم يرضعون؛ وعليهم في الحقائق يتطفَّلون، كأنَّ لهم شرابٌ يشربونه؛ وبقيت منه قطراتٌ تلمَّظ بها من بعدهم، لا تشكَّ في هذا فتكون من المُكابرين للعلم الضَّروريِّ القائم في ذهن كُلِّ مُبصرٍ واصلٍ لبيبٍ عاقلٍ.

فإنَّك إذا وُفِّقت وفعلت ذلك؛ واهتديْت بهدي الله؛ وفتح الله بين قلبك وبين معرفته طاقة تذوق منها نصيبًا من خالص توحيده؛ وصادق تفريده، ويُقذف في قلبك منها نصيبٌ من توحيد سلفك أصحاب نبيِّك؛ تُغيِّبك عن بقاياك وكُدوراتك، فتبقى حينئذٍ بالله تسمع؛ وبه تُبصر؛ وبه تنطق، ويبقى الحقُّ مشهودك في كُلِّ حالٍ؛ وفي كُلِّ موطنٍ، يتولاك برعايته، فلا ترى غير فعله، ولا يسكن قلبك غيرُ نوره، ولا تبتهج إلا بأذواق صفاته، وأنت في حضرة النَّبيِّ ﷺ لا تُفارقه وبين أصحابه تمدُّك أنفاسهم؛ وإن كانوا أمواتًا فهُم في الحقيقة عند الله لمن فتح قلبه لهدايتهم أحياءٌ.

فحينئذٍ تعلم أنَّ هؤلاء المغرورين لم يعرفوا الله من تلك الطَّاقة المُحمَّديَّة التي عرفها؛ ولا ساروا إليه منها إلا بما حدَّثتهم نُفوسهم؛ وقام في

خيالاتهم[١] وأذهانهم؛ الذي هُو نتيجة العقل الفاسد؛ أو طلب الانحلال من ثقل الشَّرائع والعقائد، من وحدة الوُجود؛ وجعلهم الوُجود واحدًا.

وقول هذه المقالة: أن يكون وُجود الأشياء هُو عين وُجود خالقها، فاض وُجود خالقها عليها؛ فأكسبها وُجودًا منه، فوُجودها هُو عين وُجوده.

ومن فهَّمه الله هذه المَخْرَقَة؛ وحقَّق له فهم حقيقة هذه الخُزَعْبِلَة؛ وعرف ما يُشيرون إليه من مراتب الكثرة، وما يُشيرون إليه من مرتبة الوحدة؛ وكيف يسوقون الأشياء بزُخرف القول عن مراتب الكثرة إلى مرتبة الوحدة؛ حتَّى يردُّونها إلى عين الجمع، ويجعلون معنى عين الجمع هُو مشاهدة كون الحقِّ عين الأشياء: عرف أنَّ هذه الطَّامَّات إنْ تلتبس على غرٍّ، حيث يجدهم يُشيرون إلى عين الجمع.

وقد أشار مُحقِّقوا الصُّوفيَّة إلى عين الجمع، وتجدوهم يُشيرون إلى أنَّ الحقَّ هُو عين الأشياء.

وفي عقائد المُسلمين: أنَّ الأشياء لا تقوم بذواتها؛ إنَّما تقوم بالله، فيتوهَّم المُتوهِّم أنَّ مقصودهم بقولهم: إنَّ الحقَّ هُو عين الأشياء ما يقوله[٢] المُسلمون من كون الأشياء كُلِّها لا تقوم إلا بالله[٣]، وما ذاك إلا لاستعمالهم عباراتِ صُوفيَّةِ أهل الإسلام، ومن حقَّق علم المذهبيْن: عرف الطَّريقيْن، وعرف مأخذ[٤] الفريقيْن.

والمقصود [٩٣/أ]: أن يقف فهمك على تحقيق انحرافهم في طرفٍ مقابلٍ[٥] للطَّرف الذي انحرف به المُشركون - كما تقدَّم ذكره -.

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «خيلاتهم».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة: «تقوله».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة: «الأشياء لها إلا بالله».
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة: «ماخذ».
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة: «يقابل».

فإذا تبيَّن ذلك عندك: عرفت أنَّ طريقة الحقِّ هي الطَّريقة الوُسطى بين من جعل لله شريكًا وأندادًا من الأحجار والأشجار؛ وبين من وحَّد الله حتَّى جعل عين وُجود عين الأحجار والأشجار هُو عين وُجود الحقِّ.

وطريقة أهل الحقِّ: أن يطلب معرفة الله من حيث تعرَّف به إلى عباده من كتابه وسُنَّة رسوله؛ من ذكر أسمائه وصفاته وبدائع أفعاله وعظمة ذاته، ومن كونه ذاتًا مُنفردًا بنفسه؛ له وُجودٌ قديمٌ يتميَّز به عن غيره من الموجودات، وله حقيقةٌ يتميَّز بها عن غيره، وهُو سُبحانه فوق سبع سماواته على عرشه، وجميع خلقه لهم وُجودٌ مُحدثٌ مخلوقٌ في مُلكه وقبضته، قائمون بقدرته، يتحرَّكون بمشيئته؛ ويبطشون بإرادته، هكذا تعرَّف الله إلينا في كتابه المُنزَّل على لسان رسوله المُرسل إلينا.

يجب علينا معشر العُقلاء: أن لا نتجاوز التَّوحيد الذي شرعه لنا؛ ولا نطلب المعرفة إلا من الطَّريق التي فتحها لنا، ولا نَشْرَه[1] في طلب التَّوحيد؛ فنتَّخذ كُلَّ شيءٍ إلهًا مُبالغة في توحيده، فنجعله عين كُلِّ شيءٍ باعتبار أن لا وُجود إلا له، فنقع في الانحلال والتَّهاون بفرائض الحرام والحلال، ونخرق بذلك سياج الشَّريعة، ونتعدَّى هدي من سبقنا من أصحاب نبيِّنا وشُيوخ طائفتنا؛ كسهلٍ والجُنيد والسري وعمرو بن عُثمان وأبي سعيدٍ الخرَّاز وابن عطاءٍ وطبقاتهم، فنبتدع في دين الله ما لم يأذن به الله، فنزيغ بذلك ونضلَّ ضلالًا بعيدًا، ونبتعد عن المطلوب والمأمول؛ من حيث نُؤمِّل الوُصول.

وهذا المذهب فيما علمنا منه أنَّه ما من مُسلمٍ أو يهوديٍّ أو نصرانيٍّ أو رافضيٍّ دخل فيه إلا انحلَّ من دينه انحلالًا كبيرًا، واستراح من ثقل التَّكاليف ظاهرًا، وإن أقامها بظاهره فهُو مُستريحٌ منها باطنًا، فإنَّه يجد الإله هُو الكُلَّ،

---

(١) أي: يغلبنا الحرص.

فمن العابد ومن المعبود؟! ومن الشَّاهد ومن المشهود؟! كما قال قائلهم[(١)]:

جمالك في كُلِّ الحقائق سافرٌ   وليس له إلا جلالك ساترٌ

تجلَّيت للأكوان خلف سُتورها   فنمَّت بما ضمنت عليه السَّتائر

ونرجو إن شاء الله أن يكون في هذا القدر كفايةٌ وهدايةٌ لمن أراد الله تبصُّره وإرشاده، والعاقل الفطن يستدلُّ بالقليل على الكثير؛ وبالأواخر على الأوائل؛ وبالغايات على المبادئ.

ونسأل الله الكريم أن يهدينا [٩٣/ب] سبيل السَّلام، ويُخرجنا من الظُّلمات إلى النُّور، ويهدينا إلى الفَرْق بين التَّوحيد والاتِّحاد؛ إنَّه قريبٌ مُجيبٌ.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه؛ وسلَّم تسليمًا كثيرًا[(٢)].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في مدينة كيغالي؛ عاصمة جُمهوريَّة رواندا؛ في شرق القارَّة الأفريقيَّة، في يوم الجُمعة ١٦ ربيع الأوَّل ١٤٣٥هـ؛ الموافق ١٧ يناير (كانون الثَّاني) ٢٠١٤م.

كِتَابٌ فِيهِ لَمْعَةٌ مِنْ أَشِعَّةِ النُّصُوصِ

فِي هَتْكِ أَسْتَارِ الفُصُوصِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ(١)

الحمد لله الذي نوَّر بصائر المُهتدين بأنوار معرفته، وعصمهم من الزَّيغ والضَّلال(٢) عن طريقه ومحجَّته، ووفَّقهم لاتِّباع طُرق(٣) أنبيائه وأهل رسالته، وجعلهم مُتَّبعين لما أنزل عليهم من فُرقانه وإبانته، وحماهم عن قلب الحقائق المعنويَّة والصُّوريَّة بالأغاليط المُتوهَّمة الظَّنِّيَّة من كُلِّ ماشٍ مُكبٍّ(٤) على وجهه(٥)، وعاقب من اتَّخذ إلهه هواه(٦) في سَيْره وسيرته، وأضلَّه على علمٍ وختم على سمعه وقلبه(٧) وبصيرته، يتعثَّر(٨) في آبار المهالك والمعاطب من عماوته وحيرته.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المُنفرد بذاته وفردانيَّته عن جميع مخلوقاته وبريَّته، الذي اتَّصف بالصِّفات وتسمَّى بالأسماء في قدمه وأزليَّته.

وأشهد أنَّ مُحمَّدًا صلَّى الله عليه عبده(٩) ورسوله الذي بعثه إلى الخلق برحمته وهدايته، صلَّى الله عليه وعلى آله أهل وُدِّه وولايته.

---

(١) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «الانحراف».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «طريق».
(٤) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن: «مُكبًّا».
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «وجهته».
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وهواه».
(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وختم على قلبه».
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «يتغيَّر».
(٩) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم عبده».

وبعد:

فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٢].

فقد حرَّم علينا أن نقول عليه سُبحانه ما[٣] لا نعلم، كما رضي لنا أن نمشي سويًّا[٤] على صراطٍ مُستقيمٍ.

ولا ريب أنَّ الله تعالى قد جعل للأشياء حُدودًا يتميَّز بها[٥] بعضها عن بعضٍ، فالخلق محدودٌ ومربوبٌ[٦]؛ يتصرَّف فيه البارئ تعالى بقُدرته وإرادته ومشيئته، ليس الخَلْق بعضًا من أبعاضه؛ ولا صفة من صفاته؛ ولا هُو عيْنٌ، هُو[٧] سُبحانه ذاتٌ مُنفردٌ بنفسه؛ قديمٌ[٨] بائنٌ عن جميع خلقه بذاته وصفاته وأسمائه[٩] ووجوده، فجميع الحركات والسَّكنات في الخَلْق صادرة عن مشيئته، وليس هُو المُتحرِّك فيها، بل هُو المُحرِّك لها، وليس وُجودها وُجوده؛ بل لها وُجودٌ مُحْدَثٌ مُفتقرٌ إلى مُوجِده، كما أنَّ للمُوجِد سُبحانه وُجودًا آخر

(١) سُورة الأعراف: الآية ٣٣، في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الآية».
(٢) سُورة الملك: الآية ٢٢.
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «بما».
(٤) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).
(٥) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «محدودٌ مربوبٌ».
(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «من صفاته ولا هي عن أسمائه بل هُو».
(٨) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).
(٩) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).

غير وُجودها قائمًا[١] به كما يليق بِرُبوبيَّته، وللمخلوق وُجودٌ قائمٌ به مُفتقرٌ كما يليق بعُبوديَّته.

فمن جعل الوُجود وُجودًا واحدًا ساريًا في كُلِّ ماهيةٍ من الحقِّ والخَلْق: فقد ضلَّ واعتدى، ومن زعم أنَّ الخلق إنَّما يمتاز عن الحقِّ بحيثيَّة[٢] ما اقتضاه استعداده من قبول الفيض فقط - حيث كان في العدم ثابتًا مُتعدِّدًا مُتنوِّعًا - فقد زاغ عن المحجَّة الصَّحيحة والنَّهج [٩٤/أ] السَّويِّ، قاتل الله القائلين بهذه المقالة فأنَّى يُؤفكون.

والسَّبب المُوجب لتسطير[٣] هذه الأحرف: هُو ما وقر في القُلوب من تُرَّهات ابن عربيٍّ[٤]؛ حيث صار لها شأنٌ[٥] في قُلوب السَّالكين؛ وخطرٌ[٦] عند المُبتدئين من الطَّالبين، وما ذاك إلا لقُصور فهمهم عن مقاصده؛ وعجز بصائرهم عن مُلاحظة إلحاده في شقاشقه[٧]، فاستخرت الله تعالى بتعليق كلماتٍ تكون إن شاء الله كشفًا لسِتْر مقالته؛ وتنبيهًا على إلحاده وضلالته، ممَّا نقلته من كلامه في[٨] (فُصوص الحكم) نقل المسطرة؛ لتزول[٩] عن الكاشف لستره كُلُّ تُهمةٍ، وليزن العاقل مقالته على ما دلَّ عليه دين الرَّسول ﷺ،

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «قائمٌ».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «الحيثيَّة».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «السطر».
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «العربيِّ».
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «شأنًا».
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «خطرًا».
(٧) أي: حُسْن مخارجه.
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «عن».
(٩) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «ليزول بذلك».

فبِوَزْنِه[١] بالدِّين النَّاقد البصير يظهر له زيغه[٢] وانحرافه وتهوُّكه وعثاره[٣].

ولعمري لا يقدر على هذا الوزن إلا من حقَّق الدِّين ونفذ فيه ذوقًا ورُسوخًا، فالمُشار إليه راسخٌ في زَنْدَقَتِه، ضائعٌ في سياقة ما يُلقيه من كُفريَّات لَقْلَقَتِه[٤]، لاحتوائه على فُنُونٍ كثيرةٍ من العُلوم الشَّرعيَّة والرِّياضيَّة والفلسفيَّة[٥]، فعبارته في ذلك عذبةٌ غريبةٌ، ومقاصده فيها غامضةٌ لا يفطن لها إلا كُلُّ نقَّادٍ يعرف غوره في مقالته وتراتيبه.

فصلٌ

جميع ما يُبديه في مُصنَّفاته من الكلام الحقِّ النَّافع هُو ربطٌ واستجلابٌ لقُلوب الطَّلبة؛ كما يُشير إليه في (الفُتوحات) و(المُحكم المربوط) وغيرهما[٦]، فإنَّ الدَّاعي إلى البدعة لا يُستجاب له إن لم يكن ذا بصيرةٍ بالدَّعوة، يَرْفُق في دعوته ويستدرج الخلق فيها بلطيف الاستدراج؛ بحيث ينقلهم من مرتبةٍ في عُقولهم إلى مرتبةٍ أُخرى أعلى منها، بحيث تكون تلك المرتبة الأُولى ثابتة في العُقول، فتسكن العُقُول[٧] في ذلك أوَّلًا، ثُمَّ يُدقِّق العبارة فتشتاق القُلوب إلى حلِّ ذلك أوَّلًا؛ ثُمَّ تشتاق إلى ذوقه ثانيًا، فلا تذوقه إلا وقد انحلَّت عنها الشَّرائع والأديان، وصار الكُلُّ واحدًا، فمَنْ العابد ومَنْ

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «فيزنه».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «زيفه».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «عناده».
(٤) أي: لسانه.
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «الرِّياضيَّة الفلسفيَّة».
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «غيرها».
(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «فيسكن إليه».

المعبود؟! ومَنْ الشَّاهد ومَنْ المشهود؟! كما أنشد[١]:

إنْ قُلتَ عبدٌ فذاك ميتٌ ... أو قُلتَ ربٌّ أنَّى[٢] يُكلَّف

فصلٌ

نبدأ أولًا بعون الله تعالى في حلِّ قاعدة[٣] مذهبه قبل نقل كلامه؛ لتتَّضح القاعدة أوَّلًا في ذهن العاقل، ثُمَّ يتفصَّل عليها جميع ما نقله[٤] من كلامه.

ويُستفاد من ذلك: أنَّ جميع ما يقوله في كُتبه[٥] - وإن اختلفت عباراتها وتنوَّعت أنحاؤها وإشاراتها نظمًا ونثرًا - فهُو مسألةٌ واحدةٌ؛ وهي [٩٤/ب] حقيقة القاعدة الآتي ذكرها، فهُو يقول ويقول[٦]؛ ثُمَّ يحطُّ عليها فلا يتجاوزها.

فمتى فهمها العارف: عرف جميع ما يقوله في مجموع كلامه ومُتفرِّقه؛ إن شاء الله تعالى.

فصلٌ

قاعدة هذا الرَّجل في اعتقاده وكشفه الباطل - الذي هُو[٧] عند العُلماء

---

(١) قال ابن عربي في مُقدِّمة الفُتوحات المكيَّة (١/ ٢): (ولمَّا حيَّرتني هذه الحقيقة: أنشدت على حِكَم الطَّريقة للخليقة:

الرَّبُّ حقٌّ والعبد حقٌّ ... يا ليْت شِعْرِي من المُكلَّفْ).

(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «فأنَّى».

(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «نبدأ بعون الله ﷻ في قاعدة».

(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «ما ننقل عنه».

(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «جميع كُتبه».

(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «ونقول».

(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «الباطل هُو».

والعُقلاء خيالٌ لا حقيقة له؛ ووهمٌ فاسدٌ توهَّمه وبنى على ذلك الوهم أُصوله ودلائله -: هُو أن يجعل المعدوم شيئًا، ويجعل الماهيَّات بأسرها من جميع ما عُلِم من الأكوان عُلويِّها وسُفليِّها في عدمها أشياء[1] ثابتة في أنفسها لكن ليس لها وُجودٌ، فأفاض الحقُّ تعالى عليها وُجوده الذَّاتيَّ فقبلت[2] الوُجود بحسب استعدادها، فظهرت بعين وُجود الحقِّ الذَّاتيِّ، فكان هُو الظَّاهر فيها بحُكم الوُجود، وكانت هي الظَّاهرة فيه بحُكم الأسماء لتنوُّعها وتعدُّدها، ويجعل النِّسب التي[3] بين الذَّوات والوُجود هي أسماء الله تعالى، لولاها[4] لم يكن لله تعالى اسمٌ[5]، فإنَّ الوُجود لمَّا فاض على الماهيَّات الثَّابتة عنده قبلت كُلَّ ماهيَّةٍ من الوُجُود بحسب[6] استعدادها، مثلًا كان المرزوق والمُنتقَم منه[7] والمرحوم ثابتًا في العدم، فلمَّا فاض عليهم الوُجود الذَّاتيُّ ظهر المرزوق مرزوقًا؛ والمُنتقَم منه مُنتقَمًا[8] منه[9]؛ والمرحوم مرحومًا؛ والجميل جميلًا، فقبلت[10] كُلَّ ماهيَّةٍ بحسب ما اقتضاه استعدادها من ذلك الوُجود المُطلق، فظهر بذلك الاسم الرَّازق والرَّحيم والمُنتقِم، ولولا فيض هذا الوُجود لم يكن لله[11] تعالى اسمٌ أصلًا، فإنَّه كان شيئًا مُطلقًا لا وُجود له؛

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «وسُفليِّها أشياء».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «فقلبت».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «السبب الذي».
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «لولا».
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «لم يكن الله اسمٌ».
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «ماهيَّةٍ بحسب».
(٧) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «مُنتقمٌ».
(٩) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).
(١٠) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «فقلبت».
(١١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «الله».

يتعيَّن هذا على قواعده واصطلاحه في توهُّماته.

ومذهب المسلمين: أنَّ الله تعالى لم تزل[(١)] أسماؤه قديمة موجودة؛ كما لم تزل ذاته المُقدَّسة قديمة موجودة، لم يتجدَّد له بما أحدث من مخلوقاته شيءٌ لم يكن له في قدمه.

وهذا الكلام الذي انتحله هذا الرَّجل يقتضي[(٢)] أنَّ الله تعالى كان لا وُجود له في الظَّاهر؛ كان وُجوده وُجودًا مُطلقًا، لا يُوصف بصفةٍ ولا يُسمَّى باسمٍ، فأراد أن يُعرِّف نفسه بنفسه؛ فتجلَّى بُوجوده على الماهيَّات فرأى نفسه فيها، فحينئذٍ عرف نفسه فكانت هي مرآته رأى[(٣)] نفسه فيها، كما قال التِّلمسانيُّ[(٤)]:

رأيت نفسك فينا وهي واحدةٌ كثيرةٌ ذات أسماءٍ وأوصافِ

فلمَّا رأى نفسه ظهرت للأسماء[(٥)] باعتبار النِّسب التي بين الماهيَّات والوُجود الفائض؛ فلمَّا أفاض عين وُجوده على الماهيَّات بذلك صار موجودًا[(٦)] في الظَّاهر، فظهرت الوحدة في الكثرة مُتكرِّرة فيها لا مُتعدِّدة لأنَّها وحدةٌ[(٧)] كتكرُّر الإنسانيَّة في الأشخاص المُتعدِّدة وهي إنسانيَّةٌ واحدةٌ، فهُو الموجود في [٩٥/أ] الكثرة لا موجود غيره والكُلُّ هُو، هُو الظَّاهر الذي ظهر بُوجوده في بريَّته، وكُلُّ موجودٍ له نسبةٌ في[(٨)] وُجود الحقِّ لمَّا قبله استعداده،

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «يزل».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «يقتصي».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «نفسه وكانت من مرائيه رأى».
(٤) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «الأسماء».
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «صار هُو موجودًا».
(٧) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «من».

فتلك النِّسبة هي عين أسمائه وصفاته، فصار الحقُّ عنده كالإنسانيَّة المُطلقة السَّارية في كُلِّ شخصٍ بلا تكرارٍ[(١)]، وكُلُّ واحدٍ إنسانٌ، وبهذه الأشخاص ظهرت الإنسانيَّة في الخارج، ولولاهم كانت شيئًا ثابتًا في الذِّهن مُطلقة لا حقيقة لها في الخارج مُتعيِّنة، فكذلك الرَّبُّ عنده كان شيئًا مُطلقًا لا ظُهور له فأفاض وُجوده على الأكوان كفيض الإنسانيَّة [على جنس الإنسان، فظهر بذلك وُجُود الحقِّ في الخارج كما ظهرت الإنسانيَّة][(٢)] في الخارج؛ لتعلُّقها بالأشخاص المُتعيِّنين.

فإلى الله تعالى الشَّكوى ممَّا أَنْحَلَتْه هذه الطَّائفة المُبطلة التي قلبت الحقائق؛ وشعَّبت على ضُعفاء[(٣)] هذه الأُمَّة عُقولها، ومزَّقت الرُّبوبيَّة كُلَّ مُمزَّق، وقلبت صُورة الشَّريعة ومسختها، فاستهلك الإيمان والإسلام في صُور ما انتحلوه كاستهلاك الإنسانيَّة في القرد الممسوخ، مسخهم الله كما مسخوا دينه، وقلَّبهم في النَّار كما قلبوا شريعته، والله[(٤)] المُستعان.

فمذهب هذا الرَّجل: أنَّ الأعيان كانت ثابتة في العدم[(٥)]؛ فهي غذاؤه بالأحكام، يعني يتغذَّى بها الحقُّ لظُهور أحكام أسمائه فيها، وذلك يقتضي افتقاره إليها، لأنَّ من يتغذَّى بالشَّيء كان مُفتقرًا إليه، ولذلك أفاض عليها وُجوده ليظهر فيها بأسمائه ووُجوده، إذ لولاها لم يظهر في الخارج[(٦)] وُجوده

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «بالتَّكرار».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «كفيض الإنسانيَّة على جنس الإنسان، فظهر بذلك وجود الحق» في الخارج كما ظهرت الإنسانية في الخارج.
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «ضعف».
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «وبالله».
(٥) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).
(٦) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).

ولا أسماؤه فصارت غذاء له، وكذلك عنده هُو غذاء لها أيضًا بالوُجود، لأنَّ بوُجوده ظهرت، إذ لولا وُجوده الفائض عليها منه(١) لكانت عدمًا في حال ثُبوتها في عدمها، فلمَّا فاض وُجوده الذَّاتيُّ عليها ظهرت به، فهي غذاؤه بالأحكام، وهُو غذاؤها بالوُجود.

زيادة بيانٍ وإيضاحٍ لمذهبه: العبيد(٢) على اصطلاحه يتصرَّفون في ربِّهم لما قبلوه من الوُجود بحسب استعدادهم، والرَّبُّ(٣) تعالى عنده ليس له اختيارٌ في مقادير استعداد كُلِّ موجودٍ فيما قبله من الوُجود، لكن له اختيارٌ في إفاضة الوُجود عليه، فلَّما أفاض الوُجود عليه تصرَّف الموجود في الوُجود - وهُو الله - بحسب ما اقتضاه استعداده.

يدلُّ على ذلك ما يأتي ذكره من كلامه إن شاء الله تعالى، وكذلك عنده أنَّ الرَّبَّ تعالى كما تصرَّفوا هُم(٤) فيه يتصرَّف هُو أيضًا فيهم في إفاضة وُجوده عليهم فقط لا غير ذلك.

فكان الحاصل من مجموع هذه المقالة(٥)(٦): أنَّ الرَّبَّ تعالى - على زعمه - كان وحدة مُطلقة؛ لا يرى نفسه ولا يعرف إيَّاه، ولا يُوصف باسمٍ ولا صفةٍ حتَّى رأى نفسه [٩٥/ب] بتجلِّيه في الماهيَّات، فكانت كالمرآة(٧) له رأى وُجوده فيها، ولزم من ذلك ظُهور الأسماء، ومن قبل كان لا اسم له ولا صفة بل شيئًا مُطلقًا، لأنَّ الأسماء والصِّفات(٨) هي من لوازم الظُّهور والوُجود

---

(١) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «البعيد».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «فالرَّبُّ».
(٤) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «المحالة».
(٦) في حاشية النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «مطلبٌ: فكان الحاصل».
(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «المرآة».
(٨) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).

وتعلُّق الوُجود بالموجودات، فباعتبار تعلُّق كُلِّ موجودٍ بالموجود يكون للموجود اسمٌ[(١)]، فلمَّا أراد الله سُبحانه أن يكون له ظُهورٌ أفاض وُجوده على الماهيَّات الثَّابتة في العدم فظهر بوُجوده، وكان[(٢)] هُو الظَّاهر من حيث وُجوده، وكانت الماهيَّات هي الظَّاهرة من حيث أسماؤه[(٣)].

فصلٌ

فمن وفَّقه الله تعالى وفهم هذه القاعدة؛ وحقَّقها في ذهنه الصَّحيح وعقله الرَّاجح؛ ونوَّر الله قلبه بنُور الإسلام؛ فعرف أنَّ هذا وهمٌ فاسدٌ وخيالٌ باطلٌ في زُخرفٍ من القول وزُوره؛ لما دلَّ عليه الكتاب والسُّنَّة من قِدَم البارئ تعالى بذاته المُقدَّسة وجميع أسمائه وصفاته، وكان[(٤)] موجودًا بوُجودٍ قديمٍ يختصُّ به، يعلم نفسه ويرى وُجوده، وأنَّ وُجود الأكوان ليس هُو عين وُجوده؛ بل هُو وُجودٌ مُحْدَثٌ لم يُفِض عليه من وُجود[(٥)] الحقِّ شيءٌ، لأنَّ وُجود الحقِّ لا يفيض على مخلوقٍ؛ هُو[(٦)] وُجودٌ قائمٌ به سُبحانه لا ينتقل إلى غيره ولا يحلُّ في سواه، وهُو سُبحانه يمدُّ الأكوان بهذا الوُجود المُحدث الذي يليق بالأكوان؛ وهُو خَلْقٌ من خلقه لا من فيْضه[(٧)] الذَّاتيِّ يزيد[(٨)] إمداده، فيكون كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(٩)].

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «اسمًا بحسبه».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «فكان».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «أسمائه».
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وصفاته من كونه وكان».
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «من ذات وُجود».
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وهو».
(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «فيْض وُجوده».
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «يُريد».
(٩) سُورة النَّحل: الآية ٤٠.

وليس عيْن ذلك الذي يمدُّه من الوُجود عيْن وُجوده[١] ﷻ، لم يحدث له بإظهار[٢] الكون اسمٌ لم يكن له في قدمه؛ ولا صفةٌ لم[٣] يُوصف بها في أزله، فظُهُور[٤] الأكوان ووُجودها لم يزدد به ﷻ[٥] مثقال ذرَّةٍ من اسمٍ ولا صفةٍ، كما أنَّه لو لم يُظهرها لم ينتقص[٦] بذلك ولم تخف[٧] أسماؤه ولا صفاته، تعالى الله عمَّا يقول الظَّالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيرًا.

وها نحن إن شاء الله تعالى ننقل من كلامه نقل المسطرة بلا زيادةٍ ولا نُقصانٍ؛ لنستدلَّ[٨] بذلك على صحَّة ما بيَّنا من مذهبه، ليتفطَّن له العُقلاء السَّالكون[٩]؛ والنُّبلاء الطَّالبون، ونُفرّق[١٠] بين ما يقوله هُو وبين ما نُفسِّره من كلامه بفاصلٍ يتميَّز به[١١] عنه إن شاء الله تعالى.

قال في الكلمة الآدميَّة - ساق الكلام في آدم عليه السلام[١٢] إلى أن قال -: (فسمَّى هذا المذكور إنسانًا وخليفة، فأمَّا إنسانيَّته [٩٦/أ] فلعُموم نشأته وحصره الحقائق كُلَّها)[١٣].

---

(١) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «لإظهار».
(٣) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «بظُهُور».
(٥) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «ينتقض».
(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «يخف».
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «يُستدل».
(٩) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).
(١٠) في النُّسخة الخطِّيَّة: (ح) «ونُفرّقه».
(١١) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة. (ح)
(١٢) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة. (ح)
(١٣) فُصوص الحِكَم لابن عربيّ ١/ ٤٩-٥٠.

قوله: (لعُموم نشأته وحصره الحقائق)؛ يعني به: أنَّ آدم هُو العالم الأصغر، قد جمع وحوى جميع ما في العالم الأكبر.

ثُمَّ قال: (وهُو للحقِّ تعالى بمنزلة إنسان[١] العيْن من العيْن الذي به يكون النَّظر، وهُو المُعبَّر عنه بالبصر، فلهذا سُمِّي[٢] إنسانًا)[٣].

يقول: إنَّه إنَّما سُمِّي إنسانًا لأنَّه عيْن[٤] الحقِّ، بمثابة إنسان العين، وكفى بهذا كُفرًا وزندقة[٥] لمن نظر وأنصف[٦].

ثُمَّ قال: (فإنَّه به نظر الحقُّ تعالى إلى خلقه فرحمهم، فهُو الإنسان الحادث الأزليُّ؛ والنشء الدَّائم الأبديُّ)[٧].

قوله: (به نظر الحقُّ[٨] إلى خلقه)؛ أي: أكسبهم الوُجود بسببه، (فهُو الإنسان الحادث) بصُورته (الأزليُّ)؛ لأنَّه كان ثابتًا في العدم، (والنَّشء الدَّائم الأبديُّ)؛ لأنَّه صار بالوُجود الدَّائم الأبديِّ.

وقال في الكلمة الشِّيثيَّة: (ومن هؤلاء من يعلم أنَّ علم الله به في جميع أحواله هُو ما كان عليه في حال ثُبوت عينه قبل وُجودها، ويعلم أنَّ الحقَّ لا يُعطيه إلا ما أعطاه عينه من العلم به؛ وهُو ما كان عليه في حال ثُبوته، فيعلم علم الله من أين حصل؟ وما ثَمَّ صنفٌ من أهل الله أعلى وأكشف من هذا

(١) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح)، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «يُسمَّى»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٣) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ٥٠.
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «من».
(٥) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «واتصف».
(٧) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ٥٠.
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «الحقُّ تعالى»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.

الصِّنف، فهُم الواقفون على سرِّ القدر)[١].

وهذا الذي قاله يقتضي أنَّ قومًا[٢] يعلمون علم الله بهم من أين حصل، فيُطابق علمهم علم الحقِّ بهم من جميع الوُجوه، وهذا لم يثبت في الشَّرع أنَّه حصل للأنبياء، لأنَّهم ما كانوا يعلمون من علم الله إلا ما علَّمهم الله، وما خفي عنهم منه[٣] أكثر ممَّا علموه.

فكيف يدَّعي مُدَّعٍ أنْ يكون[٤] في الأُمَّة من يعلم علم الله به[٥] من أين حصل؟! وهذا هُو الضَّلال المُبين.

قال: (ثُمَّ[٦] نرجع إلى الأُعطيات فنقول[٧]: إنَّ الأُعطيات إمَّا ذاتيَّة؛ وإمَّا أسمائيَّة، فأمَّا المنح والهبات والعطايا الذَّاتيَّة فلا تكون أبدًا إلا عن تجلٍّ[٨] إلهيٍّ، والتَّجلِّي من الذَّات لا يكون أبدًا إلا بصُورة استعداد المُتجلَّى له، وغير ذلك لا يكون، فإذًا المُتجلَّى له ما رأى سوى صُورته في مرآة الحقِّ؛ ولا رأى الحقَّ ولا يُمكن أن يراه مع علمه أنَّه ما رأى صُورته إلا فيه)[٩].

معناه في قوله: (فإذًا المُتجلَّى له ما رأى سوى صُورته في مرآة الحقِّ)، فإنَّه بفيْض الوُجُود رأى نفسه، ولولا فيْض الوُجود ما رأى نفسه.

وقوله: (ولا رأى الحقَّ)، أي: أنَّه مُطلقٌ شائعٌ، والمُطلق لا يُرى حقيقة

(١) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ٦٠.
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «أنَّ ثَمَّ قومًا».
(٣) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).
(٤) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).
(٥) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «ثُمَّ قال»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٧) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن: «يرجع إلى الأُعطيات فيقول»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٨) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن: «تجلِّي»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٩) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ٦١.

إلا مُتعيِّنًا، فلذلك[١] قال: (ولا يُمكن أن يراه مع علمه)؛ بأنَّه [٩٦/ب] ما رأى وُجود نفسه الثَّابتة في العدم إلا بوُجود الحقِّ الفائض عليه، فكان الوُجود[٢] مرآةً رأى نفسه فيها.

ثُمَّ ساق الكلام إلى أن قال: (فهُو مرآتك في رُؤيتك نفسك، وأنت مرآته في رُؤيته أسماءه وظُهور أحكامها)[٣].

ثُمَّ قال: (ولست سوى عينه، فاختلط الأمر وانبهم[٤]، فمنَّا من جهل في علمه فقال: والعجز عن درك الإدراك إدراك[٥])[٦].

أقول: وهذا ضربه في الصِّدِّيق ﷺ، فإنَّه نقل عنه أنَّه قال: (العجز عن درك الإدراك إدراك).

قال: (ومنَّا من علم فلم يقل مثل هذا، وهُو أعلى القول؛ بل أعطاه العلمُ السُّكوتَ)[٧].

معاشر العُقلاء: تدبَّروا هذا الكلام، وتدبَّروا محضه[٨]، قال: (فهُو مرآتك في رُؤيتك[٩] نفسك).

هل تفهمون[١٠] ما معناه؟ معناه أنَّه لمَّا فاض وُجوده الذاتيُّ[١١] عليك

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «فكذلك».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وُجُود».
(٣) فُصوص الحِكَم لابن عربيّ ١/ ٦٢.
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وأُبهم»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٥) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت)، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٦) فُصوص الحِكَم لابن عربيّ ١/ ٦٢.
(٧) فُصوص الحِكَم لابن عربيّ ١/ ٦٢.
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وتدبَّروا محطه».
(٩) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «رُؤية»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(١٠) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «تفهموا».
(١١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «الذي».

كان[١] كالمرآة فيه، رأيت ثُبوتك في عدمك موجودًا، فكان وُجود الحقِّ مرآتك رأيت فيه نفسك.

ثُمَّ قال: (وأنت مرآته في رُؤيته أسماءه[٢] وظُهور أحكامها). معناه: لولاك ما ظهرت أسماؤه، فأنت مرآة له في ظُهور أسمائه؛ كما هُو مرآتك في ظُهور نفسك.

وهذا نصٌّ صريحٌ في القاعدة التي قرَّرناها أوَّلًا من مذهبه مُطابقة لها لمن فهمه وعقل زندقته.

ثُمَّ قال: (وليس هذا العلم إلا لخاتم الرُّسل وخاتم الأولياء، وما يراه أحدٌ من الأنبياء والرُّسل إلا من مشكاة الرَّسول الخاتم، ولا يراه أحدٌ من الأولياء إلا من مشكاة الوليِّ الخاتم، حتَّى إنَّ الرُّسل لا يرونه - متى رأوه - إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فإنَّ الرِّسالة والنُّبوَّة - أعني نُبوَّة التَّشريع ورسالته - تنقطعان[٣]، والولاية لا تنقطع أبدًا، فالمُرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فكيف من دُونهم من الأولياء، وإن كان خاتم الأولياء تابعًا في الحُكم لما جاء به خاتم[٤] الرُّسل من التَّشريع[٥]؛ فذلك[٦] لا يقدح في مقامه، فإنَّه من وجهٍ يكون أنزل؛ كما أنَّه من وجهٍ يكون أعلى، وقد ظهر في ظاهر شرعنا ما يُؤيِّد ما ذهبنا إليه: في فضل عُمر في أُسارى بدرٍ بالحُكم فيهم؛ وفي تأبير النَّخل، فما يلزم الكامل أن يكون له

---

(١) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).

(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «رُؤية أسمائه»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.

(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «ينقطعان»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.

(٤) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت)، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.

(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «الشَّرائع»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.

(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «فكذلك»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.

التَّقدُّم في كُلِّ شيءٍ»[١].

هل تفهموا معاشر العُقلاء ما يقول هذا الضَّالُّ؟ جعل الرُّسل والأنبياء لا يرون العلم بالله إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فهذا عنده مُحمَّدٌ ﷺ[٢] ومُوسى وعيسى عليهما السَّلام[٣] لا يرون العلم بالله إلا من مشكاة خاتم الأولياء الآتي في آخر الزَّمان، ليت شعري بأيِّ [٩٧/أ] حُجَّةٍ أم بأيِّ دليلٍ؟! أم[٤] بأيِّ آيةٍ أم بأيِّ خبرٍ أم بأيِّ معقولٍ؟!

ثُمَّ انظروا[٥] إلى حُجَّته في قصَّة[٦] عُمر بن الخطَّاب[٧]؛ وكونه ﷺ مرَّ على قومٍ يُلقِّحون النَّخل فقال: «**لو تركتم هذا لصَلَح، فتركوه فصار شيصًا، فقال لهم: أنتم أعلم بأمر دُنياكم، وأنا أعلم بأمر دينكم**»[٨] أو كما قال.

---

(١) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ٦٢-٦٣

(٢) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).

(٣) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).

(٤) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).

(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «نظروا».

(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «قضيَّة».

(٧) أخرج أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٢٠٨)- ١/ ٣٣٤-٣٣٦]، وأبوداود في سُننه [كتاب الجهاد/ باب في فداء الأسير بالمال- الحديث رقم (٢٦٩٠)- ص٤٠٨] عن عُمر بن الخطَّاب ﷺ، ولفظ أحمد: (فلمَّا أن كان من الغد قال عُمر: غدوت إلى النَّبيِّ ﷺ فإذا هُو قاعدٌ وأبوبكرٍ وإذا هُما يبكيان، فقُلت: يا رسول الله؛ أخبرني ماذا يُبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بُكاء بكيت وإن لم أجد بُكاء تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا. قال: فقال النَّبيُّ ﷺ: الذي عرض عليَّ أصحابك من الفداء لقد عُرض عليَّ عذابكم أدنى من هذه الشَّجرة - لشجرة قريبة -، وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾. من الفداء ثُمَّ أُحلَّ لهُم الغنائم).

(٨) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الفضائل/ باب وُجوب امتثال ما قاله شرعًا دُون ما ذكره ﷺ من معايش الدُّنيا على سبيل الرَّأي- الحديث رقم (٢٣٦٣)-٤/ ١٨٣٦] عن عائشة وأنس بن مالكٍ ﷺ، ولفظه: (أنَّ النَّبيَّ ﷺ مرَّ بقومٍ يُلقِّحون، فقال: لو لم =

فإنِّي لن أكذب على الله معاشر العُقلاء: فهل في قضيَّة عُمر حُجَّة على ما قال؟ هل كان رسول الله ﷺ يرى العلم بالله من مشكاة عُمر؟ ولو فرضناه في قضيَّةٍ مخصوصةٍ؛ هل يلزم من ذلك أن يكون جميع الأنبياء والرُّسل يرون العلم بالله جميعه من مشكاة خاتم الأولياء؟

وهل في قضيَّة التَّأبير دلالةٌ على أنَّه ﷺ وجد العلم بالله من مشكاة أهل النَّخل؟ نعم الرَّسول ﷺ بعثه الله بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله ولم[1] يبعثه بالفِلاحة والتَّأبير والزِّراعة، فكون أنَّ القوم كانوا أعلم بأمر دُنياهم: هل في ذلك دلالة على أنَّ جميع الأنبياء والرُّسل يرون العلم بالله[2] من مشكاة خاتم الأولياء؟

تعقَّلوا رحمكم الله ما يقول هذا الضَّالُّ؛ واستدلُّوا على بعض كلامه ببعضٍ: تفهموا انحلاله، بل تعرفوا خَبْطَه وتعثُّره[3] في وهمه وخياله، وأنَّه وإن كان مُلتزمًا لشيءٍ من الشَّريعة في مقالة؛ فإنَّ ذلك ربْطٌ للقُلوب[4] واستدراجٌ لها، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[5]

ثُمَّ انظروا رحمكم الله كيف قلب الحقائق وأعيانها في الكلمة النُّوحيَّة؟![6] فقال: (لو أنَّ نُوحًا جمع لقومه بين الدَّعوتيْن لأجابوه، فدعاهم جهارًا ثُمَّ دعاهم إسرارًا، ثُمَّ قال لهم: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾[7]

= تفعلوا لصَلُح» قال: فخرج شِيصًا، فمرَّ بهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قُلت كذا وكذا، قال: أنتم أعلم بأمر دُنياكم).

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «إليه لم».

(٢) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).

(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وتغيُّره».

(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «ربْطٌ يربط به القُلُوب».

(٥) سُورة النُّور: الآية ٤٠.

(٦) في حاشية النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «مطلبٌ: في ادِّعاء ابن عربيٍّ الضَّالِّ».

(٧) سُورة نُوحٍ: الآية ١٠.

وذكر عن قومه أنَّهم تصامموا(١) عن دعوته لعلمهم بما يجب عليهم من إجابة(٢) دعوته، فعَلِمَ العُلماء بالله ما أشار إليه نوحٌ عليه السلام في حقِّ قومه من الثَّناء عليهم بلسان الذَّمِّ، وعَلِمَ أنَّهم لم يُجيبوا دعوته لما فيها من الفُرقان(٣)، والأمر قُرآن(٤) لا فُرقان، ومن أُقيم في القُرآن لا يُصغي إلى الفُرقان وإن كان فيه، فإنَّ القُرآن يتضمَّن الفُرقان، والفُرقان لا يتضمَّن القُرآن، ولهذا ما اختصَّ بالقُرآن إلا مُحمَّدٌ(٥) ﷺ وهذه الأُمَّة التي هي خير أُمَّةٍ أُخرجت للنَّاس، فليس(٦) كمثله شيءٌ، فجمع الأمر في أمرٍ واحدٍ، فلو أنَّ نُوحًا يأتي بمثل هذه الآية لفظًا أجابوه(٧)، فإنَّه شبَّه ونزَّه في آيةٍ واحدةٍ، ونُوحٌ عليه السلام دعا قومه ليلًا من حيث عُقولهم وروحانيَّتهم؛ فإنَّها غيبٌ، ونهارًا دعاهم أيضًا من حيث [٩٧/ب] ظاهر صُورهم وحسِّهم(٨)، وما جمع في الدَّعوة مثل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(٩)، فنفرت بواطنهم لهذا الفُرقان؛ فزادهم فرارًا.

ثُمَّ قال عن نفسه إذ دعاهم(١٠) ليغفر لهم لا ليكشف(١١) لهم، وفهموا ذلك

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «تصاموا»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «بإجابة»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «القُرآن»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «فسران»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «القُرآن إلا بمُحمَّدٍ»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «في قوله ليس»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «لأجابوه»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وجسمهم»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٩) سُورة الشُّورى: الآية ١١.
(١٠) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «نفسه دعاهُم»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(١١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «يكشف»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.

منه؛ لذلك ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾[١].

وهذه كُلُّها صُورة السِّتر التي دعاهم إليها فأجابوا دعوته بالفعل لا بلبَّيْك، ففي ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[٢] إثبات المثل ونفيه.

وقال عن نفسه ﷺ إنَّه أُوتي جوامع الكلم، فما دعا مُحمَّد قومه ليلًا ونهارًا، بل دعاهم ليلًا في نهارٍ؛ ونهارًا في ليلٍ، فقال نوحٌ في حكمته لقومه: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾[٣]، وهي المعارف العقليَّة في المعاني والنَّظر الاعتباريِّ، ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ﴾[٤]، أي: بما يميل بكم إليه، فإذا مال بكم إليه رأيتم صُورتكم فيه، فمن تخيَّل منكم أنَّه رآه فما عرف، ومن عرف منكم أنَّه رأى نفسه فهُو العارف)[٥].

ثُمَّ ساق الكلام إلى أن قال: (فقالوا في مكرهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾[٦]، فإنَّهم إذا تركوهم جهلوا من الحقِّ على قدر ما تركوا من هؤلاء، فإنَّ للحقِّ في كُلِّ معبودٍ وجهًا يعرفه من عرفه؛ ويجهله من جهله في المُحمَّديِّين، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٧]. أي: حَكَم، فالعالِم يعلم مَنْ عُبِدَ؟ وفي أيِّ صُورةٍ ظهر حتَّى عُبِدَ؟[٨] وأنَّ التَّفريق والكثرة كالأعضاء[٩] في الصُّورة المحسوسة[١٠]؛ وكالقوى المعنويَّة في

(١) سُورة نُوح: الآية ٧.
(٢) سُورة الشُّورى: الآية ١١.
(٣) سُورة نُوح: الآية ١١.
(٤) سُورة نُوح: الآية ١١.
(٥) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ٧٠-٧١.
(٦) سُورة نُوح: الآية ٢٣.
(٧) سُورة الإسراء: الآية ٢٣.
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «صُورةٍ عُبِدَ»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٩) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «في الأعضاء»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(١٠) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن: (الأعضاء المحسوسة)، والمُثبت هُو الموافق لما في =

الصُّورة الرَّوحانيَّة، فما عُبِدَ غير الله في كُلِّ معبودٍ، فالأدنى من تخيَّل فيه الأُلوهيَّة، فلولا هذا التَّخيُّل ما عُبِدَ الحجر ولا غيره)[1].

ثُمَّ ساق الكلام إلى أن قال: (والأعلى العالِم يقول: إنَّما إلهكم ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾[2] حيث ظهر)[3].

فقوله: (ما عُبِدَ غير الله في كُلِّ معبودٍ)، أي: أنَّ عُبَّاد الأصنام كان فيهم خاصَّةٌ وعامَّةٌ، عارفون[4] ومحجوبون، فالعامَّة المحجوبون تخيَّلوا أنَّ في الأصنام أُلوهيَّة[5]، وأمَّا العُلماء العارفون[6] من عُبَّاد الأصنام يقول العارف منهم: إنَّما إلهكم ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾[7]؛ حيث ظهر أسلم للصَّنم وعَبَدَه، حيث ظهر[8] الحقُّ فيه بوُجوده الفائض عليه.

افهموا رُموزه؛ تعقلوا عنه.

ثُمَّ قال: (﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾[9]، الذين خَبَتْ نار طبيعتهم فقالوا: إلهًا؛ ولم يقولوا: طبيعة، ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾[10]، أي حيَّروهم في تعداد الواحد بالوُجوه والنِّسب، ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[11] لأنفسهم المُصطفَيْن الذين أُورثوا

= فُصوص الحِكَم.

(١) فُصوص الحِكَم لابن عربيّ ١/ ٧٢.

(٢) سُورة الحجِّ: الآية ٣٤.

(٣) فُصوص الحِكَم لابن عربيّ ١/ ٧٢.

(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «وعامَّةٌ وعامَّةٌ عارفون».

(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «أُلوهة».

(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «والعارفون».

(٧) سُورة الحجِّ: الآية ٣٤.

(٨) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).

(٩) سُورة الحجِّ: الآية ٣٤.

(١٠) سُورة نُوحٍ: الآية ٢٤.

(١١) سُورة نُوحٍ: الآية ٢٤.

الكتاب أوَّل الثَّلاثة، فقدَّمه[١] على المُقتصد والسَّابق، ﴿إِلَّا ضَلَٰلًا﴾[٢] حيرة المُحمَّديِّ: زدني فيك تحيُّرًا)[٣]

ثُمَّ ساق الكلام [٩٨/أ] والتَّخليط إلى أن قال: (﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾[٤]؛ فهي التي خَطَت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله؛ وهُو الحيْرة[٥] بالله، ﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾[٦] في عين الماء، ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾[٧]، فكان الله عين أنصارهم، فهلكوا فيه إلى الأبد، فلو أخرجهم[٨] إلى السِّيف[٩] - سِيف الطَّبيعة - لنزل بهم عن هذه الدَّرجة، وإن كان الكُلُّ لله وبالله؛ بل هُو الله)[١٠].

ثُمَّ ساق الكلام والخَبْط إلى أن قال: (﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾[١١] أي تدعهم وتتركهم ﴿يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾[١٢]؛ أي[١٣]: يُحيِّروهم ويُخرجوهم من العُبوديَّة إلى ما فيهم من أسرار الرُّبوبيَّة؛ فينظرون أنفسهم أربابًا بعد ما كانوا عند أنفسهم عبيدًا، فهُم العبيد الأرباب)[١٤].

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «أُوتوا الكتاب فقدَّمه»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٢) سُورة نُوحٍ: الآية ٢٤.
(٣) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ٧٢-٧٣.
(٤) سُورة نُوحٍ: الآية ٢٥.
(٥) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن: «العلم»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٦) سُورة نُوحٍ: الآية ٢٥.
(٧) سُورة نُوحٍ: الآية ٢٥.
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «أُخرجوا»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٩) أي: ساحل البحر.
(١٠) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ٧٣.
(١١) سُورة نُوحٍ: الآية ٢٧.
(١٢) سُورة نُوحٍ: الآية ٢٧.
(١٣) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح)، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(١٤) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ٧٤.

انظروا معاشر العُقلاء رحمكم الله في هذا الكلام في الكلمة النُّوحيَّة؛ وما يلزم منها في قوله في حقِّ نُوحٍ ﷺ أنَّه حيَّرهم(١) حيث دعاهم ليلًا ونهارًا، وكان الواجب أن يدعوهم ليلًا في نهارٍ ونهارًا في ليلٍ.

ومن قوله: (فإذا مال بكم إليه رأيتم صُورتكُم(٢) فيه)(٣).

ومن قوله: (فالعالِم(٤) يعلم من عُبِدَ؛ وفي أيِّ صُورةٍ ظهر حتَّى عُبِدَ، وأنَّ التَّفريق والكثرة كالأعضاء في الصُّورة المحسوسة؛ وكالقوى المعنويَّة في الصُّورة الرَّوحانيَّة، فما عُبد غير الله في كُلِّ معبودٍ)(٥).

ثُمَّ ذكر الأدنى يقول كذا؛ والأعلى يقول: (إنَّما إلهكم ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾(٦) حيث ظهر)(٧).

وقوله: (أي: حيَّروهم في تعداد الواحد بالوُجوه والنِّسب)(٨).

فقد جعل الكون تفرقة(٩) من وحدة الحقِّ، كالأعضاء في الصُّورة المحسوسة؛ وكالقوى المعنويَّة في الصُّورة الرَّوحانيَّة، يُفسِّر ذلك قوله: (حيَّرُوهم في تعداد الواحد بالوُجوه والنِّسب)، أي: أنَّ الأمر هُو شيءٌ واحدٌ؛ لكنَّه مُتعدِّد بالوُجوه والنِّسب والإضافات الأسمائيَّة التي لزمت من ظُهور الذَّوات الثَّابتة في العدم لفيْض(١٠) الوُجود عليها.

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «خيرهم».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «صُورته»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٣) فُصوص الحِكَم لابن عربيِّ ١/ ٧١.
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «والعالِم»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٥) فُصوص الحِكَم لابن عربيِّ ١/ ٧٢.
(٦) سُورة الحجِّ: الآية ٣٤.
(٧) فُصوص الحِكَم لابن عربيِّ ١/ ٧٢.
(٨) فُصوص الحِكَم لابن عربيِّ ١/ ٧٢.
(٩) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وتفرقته».
(١٠) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «الثَّابتة لفيْض».

وعلَّل قول الكُفَّار من قوم نوحٍ في قولهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾[(١)]، أنَّهم إذا تركوهم[(٢)] جهلوا من الحقِّ على قدر ما تركوا، فإنَّ للحقِّ في كُلِّ معبودٍ وجهًا[(٣)]، فأقام عُذرهم في عبادتهم الأصنام؛ ومهَّد لهم دينهم ودين كُلِّ من عَبَدَ وثنًا أو صنمًا وغير ذلك[(٤)]، فما ألقى هذا الكُفَّار عيبًا[(٥)] في قولهم: نعبدهم ليُقرِّبونا إلى الله زُلفى.

وجميع ذلك يُقرِّر ما نبَّهنا عليه أوَّلًا من بيان قاعدته في مذهبه؛ لمن عقله أو فهم مُراده، والله[(٦)] المُستعان.

وُجملة ما يُشير إليه هُو أنَّ وُجود الحقِّ الذَّاتيِّ سارٍ في كُلِّ مُتعيِّنٍ قبل منه كُلُّ مُتعيِّنٍ على قدره وحدِّه، أعطى كُلَّ شيءٍ حسب ما يُناسبه[(٧)]، كالماء يكون[(٨)] في الأواني الزُّجاج المُتلوِّنة، فإنَّه يكون الماء في الأحمر أحمر؛ وفي الأخضر أخضر؛ وفي [٩٨/ب] الأسود أسود؛ والماء شيءٌ واحدٌ، لكنَّه يكون في كُلِّ آنيةٍ بحسب ما يستعدُّه، وتلك النِّسبة الموجودة في الماء إلى الأواني من[(٩)] حُمرته وصُفرته وخُضرته وسواده هي أسماء الماء، كذلك لمَّا فاض وُجود الحقِّ على الماهيَّات صار الوُجود في كُلِّ ماهيَّةٍ بحسب ما تستعدُّه تلك الماهيَّة إنسانًا وجملًا وفرسًا وحمارًا وقطًّا وفأرًا وكلبًا وخنزيرًا وقردًا ونجاسة، والوُجود وحدة مُطلقة، فلمَّا فاض المُطلق على الماهيَّات قبلت منه

---

(١) سُورة نُوح: الآية ٢٣.
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «تركوا».
(٣) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).
(٤) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).
(٥) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «وبالله».
(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «يناسب».
(٨) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).
(٩) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «النِّسب الموجودة من».

بحسب ما تستعدُّه كُلُّ ماهيَّةٍ[١]، وذلك هُو ظُهور الحقِّ المُطلق المُغيَّب إلى الوُجود في عالم الحسِّ، وتلك النِّسب المُتعدِّدة - بحسب[٢] اختلاف استعداد الماهيَّات - هي أسماء الحقِّ، لولاها لم يكن للوُجود المُطلق اسمٌ، فظهرت الموجودات في الحقِّ كما كانت في عدمها ثابتة لم تنتقل ولم تتغيَّر، بل هي الآن كما كانت فيه علمًا وثُبوتًا، فهي الآن فيه وُجودًا وهُو الجامع لها، يدلُّ عليْه قوله: (وأنَّ التَّفريق والكثرة كالأعضاء في الصُّورة المحسوسة؛ وكالقوى المعنويَّة في الصُّورة الرَّوحانيَّة، فما عُبِدَ غير الله في كُلِّ معبودٍ).

ومثالٌ آخر[٣] - نُكرِّر الكلام ونُكثر الأمثلة لتظهر هذه الشُّبهة التي قد فُتن بها كثيرٌ من السَّالكين؛ واغترَّ بها كثيرٌ من الجاهلين -: أوعيةٌ مُختلفة الأشكال؛ مثل مُثلَّثةٌ ومُربَّعةٌ ومخمَّسةٌ ومُسدَّسةٌ ومُسبَّعةٌ ومُثمَّنةٌ مثلًا فأفاض[٤] عليها ماء، فإنَّ الماء يتشكَّل على شكل كُلِّ إناءٍ، يكون في المُثلَّث مُثلَّثًا؛ وفي المُربَّع مُربَّعًا؛ وهلُمَّ جرًّا، وهذا المثل إنَّما يستقيم من حيثيَّة الاستعداد الكائن في الأشكال المُختلفة لا من حيثيَّة الوُجود، فإنَّ من حيثيَّة الوُجود سببًا[٥] لظهور الأشكال التي هي محلٌّ للوُجود، لأنَّها كانت ثابتة في العدم، والوُجود هُو الذي أظهرها بفيضه عليها، لكن نقول من حيثيَّة استعداد كُلِّ محلٍّ فكذلك عنده وُجود الحقِّ لمَّا فاض على الماهيَّات تشكَّلت كُلُّ ماهيَّة بوُجودها بحسب استعدادها وقبولها منه[٦].

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «ماهيَّته».
(٢) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «لم يكن للوُجود المُطلق اسمٌ مثال آخر».
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «أفاض».
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «سبب»، وفي النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «إلا من حيثيَّة الوُجود بسبب».
(٦) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).

فافهموا ذلك معاشر الألباب تنحلَّ عنكم شُبهة هؤلاء الزَّنادقة القرامطة؛ الذين مذهبهم هذا المذهب الخبيث، وهُو[(١)] عيْن مذهب النُّصيريَّة والإسماعيليَّة، لكن تختلف فيه العبارات والإشارات، والمقصود شيءٌ واحدٌ، والله[(٢)] المُستعان.

وكذلك يقول ابن سبعين في بعض تصانيفه[(٣)]: يظهر في الماء بلونه؛ وفي النَّار بلونها، ويشير إلى أنَّ الوُجود يظهر في كُلِّ ماهيَّةٍ بلونها، فإلى الله الشَّكوى من ضلال هؤلاء وإضلالهم، ولقد أضلَّ منهم جِبلًّا كثيرًا فلم يكونوا يعقلون[(٤)].

وقال في الكلمة الإدريسيَّة - زادنا الله بصيرة في قلبه للحقائق - قال: (كذلك الخُلفاء من النَّاس لو كان عُلُوُّهم بالخلافة عُلُوًّا ذاتيًّا: لكان لكُلِّ إنسانٍ، فلمَّا لم يعمَّ عرفنا أنَّ ذلك العُلُوَّ للمكانة، ومن أسمائه الحُسنى: العليُّ، على مَنْ؟؟ وما ثَمَّ[(٥)] إلا هُو!! فهُو العليُّ لذاته، أو عن ماذا؟؟ وما هُو [٩٩/أ] إلا هُو!! فعُلوُّه لنفسه، وهُو من حيث الوُجود عين الموجودات، فالمُسمَّى مُحدثاتٌ هي العليَّة لذاتها، وليست إلا هُو، فهُو العليُّ لا عُلُوَّ إضافةٍ، لأنَّ الأعيان التي لها العدم الثَّابتة فيه ما شمَّت رائحة الموجود[(٦)]، فهي على حالها مع تعداد الصُّور في الموجودات، والعين واحدةٌ من المجموع في المجموع، فوُجود الكثرة في الأسماء - وهي النِّسب - وهي أُمورٌ عدميَّةٌ

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «الخبيث هُو».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «وبالله».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «مُصنَّفاته».
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «تكونوا تعقلون».
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وثَمَّ».
(٦) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن: «الوُجود»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.

وليس إلا العين الذي هُو الذَّات، فهُو العليُّ لنفسه لا بالإضافة، فما في العالَم من هذه الحيثيَّة عُلُوُّ إضافةٍ لكن الوُجوه الوُجوديَّة مُتفاضلةٌ[١]، فعُلُوُّ الإضافة موجودٌ في العين الواحدة من حيث الوُجوه الكثيرة)[٢].

افهموا معاشر العُقلاء ما يقول، قال: (عليٌّ على مَنْ؟؟ وما ثَمَّ إلا هُو!!) باعتبار الوُجود، فإنَّ الوُجود كُلَّه في الماهيَّات؛ هُو عين وُجوده، وإذا كان كذلك؛ فعلى من يعلو؟!

ثُمَّ صرَّح بذلك فقال: (وهُو من حيث الوُجود هُو عين الموجودات، فالمُسمَّى مُحدثاتٌ هي العليَّة بذاتها).

وهذا نصٌّ صريحٌ لا يحتاج إلى تفسيرٍ، فعلى هذا يكون الكلب علا بذاته؛ والخنزير علا بذاته، والقرد[٣] والدُّبُّ والفأر؛ كُلُّ واحدٍ منهم علا بذاته، لأنَّ وُجوده عين الوُجود المُطلق الذَّاتيِّ، صرَّح الرَّجل وما قصَّر[٤]؛ وأبان عن مذهبه الخفيِّ في هذا الكلام، حيث قال: (وهو من حيث الوُجود عين الموجودات)، ثُمَّ فسَّر ذلك فقال: (فالمُسمَّى مُحدثاتٌ هي العليَّة بذاتها).

وما بعد هذا الإيضاح بعدٌ، ومن[٥] لم يفهم مُراده بعد هذا التَّصريح: فقد أبان عن بلادة طبعه وجُموده، والله[٦] المُستعان.

وقال أيضًا في الكلمة الإدريسيَّة: (ومن عرف ما[٧] قرَّرناه في الأعداد؛

---

(١) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن: «مُفاضلةٌ»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.

(٢) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ٧٦.

(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «والخنزير والقرد».

(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «أقصر».

(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وبعد هذا الإيضاح ومن».

(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «وبالله».

(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «ومن عرف أنَّ ما»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.

وأنَّ نفيها عين إثباتها: علم أنَّ الحقَّ المُنزَّه هُو الخَلْق المُشبَّه؛ وإن كان قد تميَّز الخَلْق من الخالق)[١].

يعني باعتبار الذَّوات المُتعدِّدة، فبهذا يتميَّز الخَلْق من الخالق، وأمَّا باعتبار الوُجود فيكون كما قال أوَّلًا، فاختلط الأمر وانبهم، فإنَّ كلامه يُفسِّر بعضه بعضًا.

ثُمَّ قال: (فالأمر الخالق المخلوق؛ والأمر المخلوق الخالق، كُلُّ ذلك[٢] من عينٍ واحدةٍ؛ لا بل هُو العين الواحدة، وهُو العُيون الكثيرة)[٣].

فقوله: (الأمر الخالق)، أي: هُو المخلوق، وكذلك الأمر المخلوق هُو الخالق، ثُمَّ صرَّح بهذا المُراد في قوله: (لا بل هُو العين الواحدة، وهُو العُيون الكثيرة)، وهذا ظاهرٌ من مُراده الذي قدَّمناه بلا إشكالٍ.

ثُمَّ قال: (فانظر[٤] ماذا ترى؟ ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾[٥]، والولد عين أبيه، فما رأى يذبح سوى نفسه، وفداه بذبحٍ عظيمٍ[٦] فظهر بصُورة كبشٍ من ظهر بصُورة إنسانٍ، فظهر بصُورة [٩٩/ ب] ولدٍ[٧]؛ لا بل بحُكم ولد من هُو عين الوالد[٨]، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[٩]، فما نكح سوى نفسه، فمنه الصَّاحبة والولد؛ والأمر واحدٌ في العدد، فمَنْ الطَّبيعة ومَنْ الظَّاهر منها؟! وما رأيناها

(١) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ٧٨.
(٢) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح)، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٣) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ٧٨.
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «انظر»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٥) سُورة الصَّافَّات: الآية ١٠٢.
(٦) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح)، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٧) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح)، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «الولد»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٩) سُورة النِّساء: الآية ١.

نقصت بما ظهر منها؛ ولا زادت بعدم ما ظهر، وما الذي ظهر غيرها؟ وما هي عين ما ظهر؟ لاختلاف الصُّور بالحُكم عليها[١]؛ فهذا باردٌ يابسٌ؛ وهذا حارٌّ يابسٌ، فجمع باليُبْس وأبان بغير ذلك، والجامع الطَّبيعة؛ لا بل العيْن الطَّبيعيَّة، فعالَم[٢] الطَّبيعة صُورٌ[٣] في مرآةٍ واحدةٍ؛ لا بل صُورةٌ واحدةٌ في مرائي مُختلفةٍ، فما ثمَّ إلا حيرة لتفرُّق النَّظر، ومن عرف ما قُلناه لم يَحِرْ؛ وإن كان في مزيد علمٍ فليس إلا من حُكم المحلِّ، والمحلُّ عيْن العيْن الثَّابتة، فيها يتنوَّع[٤] الحقُّ في المُجلَّى فتتنوَّع الأحكام عليه، فيقبل كُلَّ حُكمٍ وما يُحكم عليه إلا عين ما تجلَّى فيه، ما ثمَّ إلا هذا)[٥].

معاشر العُقلاء: هل تفهموا ما يقول هذا الضَّالُّ في ضلالته؟ افهموا إن كنتم تعقلون، قال: (الولد عين أبيه باعتبار الوُجود، فإنَّه واحدٌ فيه وفي ابنه، فما رأى يذبح سوى نفسه باعتبار الوُجود، فإنَّه واحدٌ).

فعلى هذا يكون فرعون عيْن مُوسى؛ وأبوجهلٍ عيْن الصِّدِّيق؛ وزيدٌ عيْن عمرو[٦]؛ باعتبار الوُجود، فإنَّه واحدٌ فيه وفي كُلِّ شيءٍ، ويكون الملَك عين البشر؛ والصَّديق عين العدوِّ.

ثمَّ[٧] صرَّح بذلك في قوله: (فظهر في صُورة كبشٍ من ظهر بصُورة إنسانٍ لا بل بحُكم ولد من هُو عين الوالد[٨])، والكُلُّ هُو الحقُّ: الكبش والإنسان

(١) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح)، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٢) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن: «والجامع الطَّبيعة فعالَم»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٣) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح)، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «ينبوع»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٥) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ٧٨-٧٩.
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «عُمر».
(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «وثُمَّ».
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «بصُورة إنسانٍ لا بحُكم ولد من غير عيْن الولد»، والمُثبت =

والولد والوالد تارة، يظهر باعتبار الوُجود في صُورة كبشٍ من ظهر في صُورة إنسانٍ، وبُحكم ولدٍ من هُو عين الوالد، وما ثمَّ إلا هُو، لكن لتعدُّد المحلِّ والمُجلَّى؛ والعيْن واحدةٌ، فهذا عنده الكبش[1] عيْن الولد؛ وهُو عيْن الوالد، فجعل الخليل ﷺ كبشًا؛ وجعل الولد والدًا.

ثُمَّ فسَّر ذلك وصرَّح به في قوله: (﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[2]، فما نكح سوى نفسه)، فباعتبار الوُجود هُو النَّاكح وهُو المنكوح؛ والكُلُّ هُو، فمن النَّاكح ومن المنكوح؟!

فهل سمعتم معاشر العُقلاء كُفرًا أفحش من هذا؟ وتمزيقًا للرُّبوبيَّة أعظم من هذا؟ مَن أبوجهلٍ عند هذا؟! كان[3] أبوجهلٍ خلقًا بليدًا لكنَّه كان يُبغض الحقَّ ويُعادي رسول الله ﷺ، والله ما وصل كُفره وفُحشه إلى هذا، ولا وصلت فطنته إلى قلب الحقائق والأعيان كما قلب هذا الحقائق؛ وجعل الخالق مخلوقًا والمخلوق خالقًا، والنَّاكح ما نكح سوى نفسه، أي: أنَّ آدم لمَّا نكح حوَّاء ما نكح إلا نفسه، لأنَّا ما رأيناه نقص منه شيءٌ لما ظهرت حوَّاء منه، فكان الظَّاهر فيهما هُو، وفي الحقيقة - على زعمه وفُحشه - الوُجود المُطلق الظَّاهر في آدم وحوَّاء هُو النَّاكح وهُو المنكوح.

ثُمَّ حقَّق ذلك[4] فقال: (وما الذي ظهر منها غيرها)، وما بقي غير[5] ما ظهر منها لاختلاف الصُّور في الحُكم الأوَّل باعتبار الوُجود، ما ظهر منها

= هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «البشر»، وسقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).

(٢) سُورة النِّساء: الآية ١

(٣) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).

(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «وجعل الخالق مخلوقًا والمخلوق خالقًا ثُمَّ حقَّق ذلك».

(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «هي عيْن».

غيرها، فإنَّ الوُجود[1] واحدٌ [١٠٠/أ] والثَّاني باعتبار المحلِّ، والمُجلَّى الذي تجلَّى فيه الحقُّ ما هي عين ما ظهر منها لاختلاف الصُّور وهي الذَّوات في الحُكم المُوجب للأسماء.

ثُمَّ مثَّل على ذلك مثلًا فقال: (هذا باردٌ يابسٌ؛ وهذا حارٌّ يابسٌ، فجمع باليُبس وأبان بغير ذلك - يعني بالحرارة - والجامع الطَّبيعة، فعالَم الطَّبيعة صُورٌ في مرآةٍ واحدةٍ؛ لا بل صُورةٌ واحدةٌ في مرائي مُختلفةٍ، فما ثَمَّ إلا حَيْرة لتفرُّق النَّظر).

ثُمَّ قال: (فليس إلا من حُكم المحلِّ، والمحلُّ عيْن العيْن الثَّابتة[2]، فيها يتنوَّع[3] الحقُّ في المُجلَّى، فتتنوَّع[4] الأحكام عليه).

هل تفهمون[5] ما يقول؟! جعل طبيعة اليُبْس الجامعة للحارِّ والبارد بمثابة الوُجود، فإنَّه جامعٌ للأشياء كُلِّها، واليُبس جامعٌ للأشياء حارِّها وباردها، وجعل الحرارة والبُرودة أحكامًا وأسماء للطَّبع[6] الواحد الجامع، وهُو طبيعة اليُبْس.

ثُمَّ قال: (فعالم الطَّبيعة صُورٌ في مرآةٍ واحدةٍ)، يعني: صُورًا مُختلفة؛ يابسٌ حارٌّ؛ يابسٌ باردٌ[7]، هذا هُو الاختلاف، ولكن هذا الاختلاف في مرآةٍ واحدةٍ وهُو اليُبْس من حيث هُو يُبْسٌ فهُو مرآةٌ واحدةٌ، لأنَّه أمرٌ واحدٌ للأشياء كُلِّها المُختلفة.

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «الموجود».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة: «الثَّانية»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «ينبوع»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «فينبوع»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «يفهمون».
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «أحكام وأسماء الطَّبع».
(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «صُورٌ مُختلفةٌ يابسٌ باردٌ».

ثُمَّ قال: (لا بل صُورةٌ واحدةٌ في مرائي مُختلفةٍ)، فإنَّه[١] طبيعةٌ واحدةٌ في مرائي مُختلفةٍ في الحارِّ والبارد، هُما[٢] مُختلفان، وهذا تقريبٌ للوُجود الفائض، جعل الطَّبيعة اليابسة بمثابة الوُجود الجامع، وجعل الحرارة والبُرودة بمثابة[٣] أحكام الأسماء للوُجود، فعلى هذا يكون الوُجود صُورًا[٤] في مرآةٍ واحدةٍ، يعني أنَّ لكُلِّ عيْنٍ وُجودًا مُنفردًا؛ لكنَّه في مرآةٍ واحدةٍ، وهُو الوُجود المُطلق.

ثُمَّ قال: (لا بل صُورةٌ واحدةٌ في مرائي مُختلفةٍ)، فإنَّه الوُجود المُطلق، شيءٌ واحدٌ فاض في مرائي مُختلفةٍ.

ثُمَّ قال: (فليس إلا من حُكم المحلِّ، والمحلُّ عين العين الثَّابتة)، يعني الذَّوات الثَّابتة في العدم، (فيها يتنوَّع[٥] الحقُّ في المُجلَّى، فتتنوَّع الأحكام عليْه)، أي: يتنوَّع حتَّى فاض بحسب[٦] قبول المحلِّ، فتتنوَّع الأحكام وهي الأسماء الموجودة بحسب الاستعداد.

وكُلُّ هذا يُقرِّر ما قدَّمناه أوَّلًا من بيان أصل مذهبه؛ لا يحتمل مَعْنًى غيره لمن فهمه[٧]، والله المُوفِّق للصَّواب.

ثُمَّ أنشد[٨]:

فالحقُّ خلقٌ بهذا الوجه فاعتبروا   وليس خلقًا بذاك الوجه فادَّكِرُوا

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «فإنَّ».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «مختلفةٍ والحارِّ والبارد وهُما».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «بمثاة».
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «صُور».
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «ينبوع»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «تتنوَّع حين فاض يجب».
(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «كما فهم».
(٨) فُصوص الحِكَم لابن عربيّ ١/ ٧٩.

يعني أنَّ الخلق خلقٌ باعتبار الوُجود، فإنَّ وُجود الجميع واحدٌ وليس خلقًا بذاك الوجه، لتنوُّع المحلات لمحلِّ الحقِّ بحسب استعداد كُلِّ محلٍّ[١].

من يدر ما قُلت لم تُخذل بصيرته ... وليس يدريه إلا من له بصرُ

جَمِّعْ وفَرِّقْ فإنَّ العين واحدةٌ ... وهي الكثيرة[٢] لا تُبقي ولا تذرُ [١٠٠/ب]

وقال زادنا الله فيه بصيرة في الكلمة الإبراهيميَّة: (فإنَّ الحُكماء؛ وأبا حامدٍ ادَّعى أنَّه يُعرف الله من غير نظرٍ في العالم، وهذا غلطٌ، نعم؛ تُعرف[٣] ذاتٌ قديمةٌ أزليَّةٌ، لا يُعرف أنَّها إلهٌ حتَّى يُعرف المألوه، فهُو الدَّليل عليه، بعد هذا في ثاني حالٍ يُعطيك الكشف أنَّ الحقَّ نفسه سُبحانه كان عين الدَّليل على نفسه وعلى أُلوهيَّته، وأنَّ العالَم ليس إلا تجلِّيه في صُور أعيانهم الثَّابتة التي يستحيل وُجودها بدُونه[٤]، وأنَّه يتنوَّع ويتصوَّر بحسب حقائق هذه الأعيان وأحوالها، وهذا بعد العلم به منَّا أنَّه إلهٌ لنا، ثُمَّ يأتي الكشف الآخر فيظهر لك صُورنا فيه، فيظهر بعضنا لبعضٍ في الحقِّ)[٥]

يُريد بهذا الكلام: أنَّ الكشف لا يكون في أوَّل مرَّةٍ، بل لا يُعرف الإله حتَّى يُعرف المألوه، ولا يُعرف المألوه إلا بمعرفة من أَلَّهَه، ثُمَّ بعد ذلك يُعطيك الكشف بأنَّ العالم ليس إلا تجلِّيه في صُور أعيانهم الثَّابتة التي يستحيل وُجودها - يُريد[٦] بالتَّجلِّي فيض الوُجود الذَّاتيِّ على مرائي الأعيان الثَّابتة في العدم كما مرَّ أوَّلًا -، فإنَّ عنده أنَّ الأعيان كانت ثابتة في العدم؛ ليس لها

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «لتنوُّع المحلات لمجلِّ الحقِّ بحسب استعداد كُلِّ محالٍّ».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «الكبيرة»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «يعرف»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٤) سقطت من كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٥) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ٨١-٨٢.
(٦) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).

وُجودٌ، فلمَّا فاض عليها الوُجود وُجدت[١]؛ فصارت بوُجودها عالمًا، فليس العالم عنده إلا مُجرَّد[٢] التَّجلِّي في صُور الأعيان، ثُمَّ يأتي الكشف الثَّاني فيُظهر لك صُورنا فيه، أي: في وُجوده الذَّاتيِّ بصُورٍ مُختلفةٍ لاختلاف أحكام أسمائها لتنوُّع استعدادها، وهي أسماء وُجوده.

ثُمَّ قال: (فيظهر بعضنا لبعضٍ في الحقِّ)، وبلغنا أنَّ في بلاد المشرق يجتمعون فيظهر لهم هذا الوهم الفاسد؛ وهُو ظُهور صُورهم المُختلفة في الوُجود الذَّاتيِّ، فيسجد بعضهم لبعضٍ لأنَّهم تعارفوا في الحقِّ، فيسجد[٣] كُلٌّ واحدٍ لصاحبه، ويتوهَّم أنَّه عينه؛ وإنَّما سجد لوُجوده في هذا[٤] الحقِّ الجامع للكُلِّ.

فأيُّ مَخْرَقةٍ وأُحْمُوقةٍ تبلغ هذا؟ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوَّلين، والله[٥] المُستعان.

وقال في الكلمة الإبراهيميَّة أيضًا: (ولذلك كثر المُؤمنون؛ وقلَّ العارفون أصحاب الكُشوف، ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾[٦]، وهُو ما كُنت به في ثُبوتك، ظهرت به في وُجودك، هذا إن ثبت أنَّ لك وُجودًا، فإن ثبت أنَّ الوُجود للحقِّ لا لك فالحُكم لك لا شكَّ في وُجُود الحقِّ، وإن ثبت أنَّك الموجود فالحُكم لك بلا شكٍّ[٧]، وإن كان الحاكم الحقُّ فليس له إلا إفاضة[٨] [١٠١/أ]

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «فاض الوُجود عليها وحدث».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «بمُجرَّد».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «فسجد».
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وهُو».
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «وبالله».
(٦) سُورة الصَّافَّات: الآية ١٦٤.
(٧) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن (ح): «فإن ثبت أنَّ الوُجود للحقِّ لا لك فالحُكم لك لا شكَّ»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «إضافة»، وفي النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «إضافته»، والمُثبت هُو =

الوُجود عليْك؛ والحكم لك عليْك[١]، فلا تحمد إلا نفسك؛ ولا تذمَّ إلا نفسك، وما يبقى للحقِّ إلا حمد إفاضة[٢] الوُجود، لأنَّ ذلك له لا لك، فأنت غذاؤه بالأحكام؛ وهُو غذاؤك بالوُجود[٣]، فتعيَّن عليه ما تعيَّن عليك، فالأمر منه إليك؛ ومنك إليه، غير أنَّك تُسمَّى مُكلَّفًا؛ وما كلَّفك إلا بما قُلت له: كلِّفني بحالك وبما أنت عليْه؛ ولا يُسمَّى مُكلَّفًا - اسم مفعولٍ -.

فيحمدني وأحمده ... ويعبدني وأعبده

ففي حالٍ أقرُّ به ... وفي الأعيان أجحده

فيعرفني وأُنكره ... وأعرفه[٤] فأشهده

فأنَّى بالمُغني[٥] وأنا ... أساعده فأُسعده[٦]

لذاك[٧] الحقُّ أوجدني ... فأعلمه وأُوجِّده[٨]

بذا جاء الحديث لنا ... وحقَّق فيَّ مقصده)[٩].

وحاصل هذا أنَّ الحقَّ ﷻ على زعمه ليس يُحمد إلا لإضافةِ الوُجود

= الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(١) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ت).
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «إضافته».
(٣) في حاشية النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «مطلبٌ: غذاء».
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وأُنكره وينكرني وأعرفه».
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «بالغنى».
(٦) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن: «وأُسعده»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «الذلك»، وفي النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «كذاك»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «فأوجده».
(٩) فُصوص الحِكَم لابن عربيِّ ١/ ٨٣.

فقط، ليس له فيك من التَّصرُّف غير هذا، وما عدا هذا من أحوالك وشؤونك فهُو منك بمُقتضى استعدادك، لأنَّ محلَّك اقتضى أن يأخذ من الوُجود ما استعدَّ له، وبذلك[١] يُسمَّى بالأسماء المُختلفة التي عنده هي أسماء الحقِّ، فأنت غذاء الحقِّ بالأحكام، فإنَّه لولاك لم تظهر أسماؤه فيك، فصرت بذلك غذاءه؛ وهُو غذاؤك بالوُجود، لولا[٢] وُجوده الذَّاتيُّ الفائض عليك ما ظهرت، فتعيَّن على العبد ما تعيَّن على الرَّبِّ[٣]؛ فصار لكُلٍّ منهما على الآخر حقٌّ، وافتقر كُلٌّ منها إلى الآخر - على زعمه[٤] -، فكذلك قال:

فيحمدني وأحمده ويعبدني وأعبده

يعني يعبدني لأنِّي محلُّ أسمائه، وللأسماء فيه تصرُّفٌ لأنَّها من فيضه، وأعبده لأنَّني بوُجوده ظهرت، وكُلٌّ منَّا يعبد الآخر.

انتبهوا معاشر العُقلاء لما يقول[٥]، ولا تصامموا ولا تتأوَّلوا[٦]، ولا تقولوا هذا[٧] حقائق ما نفهمها، بلى والله؛ يفهمها من كان له أدنى مُسْكَةٍ من عقلٍ صحيحٍ، وانصحوا لله؛ وجاهدوا هؤلاء الكفرة الفجرة الذين قد تفنَّنوا في كُفرهم بطرائف[٨] لم يسبقهم إليها أحدٌ من كفرة خلق الله ومُلحديهم، وبيِّنوا إِعْوَارَهُم للخَلْق، وأَهِينُوا كُتبهم وأسماءهم؛ فإنَّهم أهانوا[٩] الرُّبوبيَّة ومزَّقوها،

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «ما استعدَّ له بذلك».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «أولا».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «فتعيَّن على الرَّبِّ ما تعيَّن على العبد».
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «زعمك».
(٥) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «تأوَّلوا».
(٧) أي: القول.
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «ظرائف».
(٩) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «هانوا».

مزَّقهم الله كُلَّ مُمزَّقٍ في الدُّنيا والآخرة.

اسمعوا ما يقول:

فيحمدني وأحمده ويعبدني وأعبده

ففي حالٍ أقرُّ به وفي الأعيان أجحده

يعني باعتبار الوُجود أُقرُّ به، وفي الكثرة والتَّعيُّنات[١] أجحده، فإنَّه واحدٌ[٢] وهي مُتعدِّدةٌ كثيرةٌ.

فيعرفني وأُنكره وأعرفه فأشهده

فيعرفني هُو بكثرة أسمائه المُتعدِّدة فيَّ، وأعرفه أنا بوُجوده[٣] الفائض [١٠١/ب] عليَّ فأشهده.

وقوله:

فأنَّى بالمُغني[٤] وأنا أُساعده فأُسعده

أي: إنِّي بوُجوده الفائض عليَّ وبأحكامي التي هي أسماؤه أُساعده، لأنِّي محلُّ أسمائه، فبذلك تكون مُساعدتي له.

وجميع ما في الكتاب[٥] إشارةٌ إلى هذا المعنى الواحد الذي تكرَّر ذكره من أوَّل الكتاب إلى هُنا، ولولا محبَّتي للإفصاح عن مذهبه بنقل كلامه؛ وحلِّه وتفصيله على القاعدة الأُولى: لحصلت الكفاية ببعض ما تقدَّم ذكره من تكرار المعنى الواحد في هذه العبارات المُختلفة، والله[٦] المُستعان.

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «والبعثات».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «واحدةٌ».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وأعرفه بوُجود».
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «بالغنى».
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «الكُتب».
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «وبالله».

وقال في الكلمة اليعقوبيَّة: (وأمَّا سرُّه وباطنه فإنَّه تجلٍّ[١] في مرآة وُجود الحقِّ، فلا يعود على المُمكنات من الحقِّ إلا ما تُعطيه[٢] ذواتهم في أحوالها، فإنَّ لهم في كُلِّ حالٍ صُورة، فتختلف صُورهم لاختلاف أحوالهم، فيختلف التَّجلِّي لاختلاف الحال، فيقع الأثر في العبد بحسب ما يكون، فما أعطاه الخير سواه، ولا أعطاه ضدَّ الخير غيره، بل هُو مُنعم ذاته ومُعذِّبها، فلا[٣] يذمَّنَّ إلا نفسه؛ ولا يحمدَّن إلا نفسه)[٤]

ثُمَّ قال: (السِّرُّ الذي فوق هذا أنَّ المُمكنات على أصلها من العدم؛ وليس وُجودٌ إلا وُجود الحقِّ بصُور أحوال ما هي عليه المُمكنات في أنفسها وأعيانها، فقد علمت مَنْ يلتذُّ ومَنْ[٥] يتألَّم وما يعقب كُلَّ حالٍ من الأحوال، وبه تُسمَّى[٦] عُقوبة وعقابًا، وهُو سائغٌ[٧] في الخير والشَّرِّ، غير أنَّ العُرف سمَّاه في الخير ثوابًا؛ وفي الشَّرِّ عقابًا، وبهذا سُمِّي أو شُرح الدِّين بالعادة، لأنَّه عاد عليه ما يقتضيه ويطلبه)[٨].

قوله: (من يلتذُّ ومن يتألَّم)، يُريد أنَّ العارف يعرف أنَّ المُتلذِّذ هُو الله والمُتألِّم هُو الله - ويأتي[٩] شرحه من نفس كلامه في الكلمة الأيُوبيَّة - ليُعرف أنَّه أراد ذلك حقيقة، ويكفي بذلك كُفرًا وزندقة؛ تعالى الله عن ذلك

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «تجلَّى»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «يُعطيه»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «ولا»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٤) فُصوص الحِكَم لابن عربيّ ١/ ٩٦.
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «تلتذُّ أو مَنْ»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «سُمِّي»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٧) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن: «شائعٌ»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٨) فُصوص الحِكَم لابن عربيّ ١/ ٩٦.
(٩) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «أنَّ المُلتذَّ هُو الله ويأتي».

عُلُوًّا كبيرًا، ونستغني عن شرح هذا الفصل؛ فإنَّه قد سبق في مواضع عدَّةٌ: أشياء إذا فُهِمَت فُهِمَ معنى ما قاله هُنا، والله[١] المُستعان.

وقال في الكلمة اليُوسُفيَّة: (اعلم أنَّ المقول[٢] عليه - سوى الحقِّ؛ أو مُسمَّى العالَم - هُو[٣] بالنِّسبة إلى الحقِّ: كالظِّلِّ للشَّخص[٤]، فهُو ظلُّ الله، فهُو عين نسبة الوُجود إلى العالَم، لأنَّ الظِّلَّ موجودٌ بلا شكٍّ في الحسِّ، ولكن إذا كان ثَمَّ من يظهر فيه ذلك الظِّلُّ - حتَّى لو قَدَّرْتَ عدم من يظهر فيه ذلك الظِّلُّ -: كان الظِّلُّ معقولًا غير موجودٍ في الحسِّ، بل يكون بالقُوَّة في ذات الشَّخص المنسوب إليه [١٠٢/أ] الظِّلُّ، فمحلُّ ظُهور هذا الظِّلِّ الإلهيِّ المُسمَّى بالعالَم: إنَّما هُو أعيان المُمكنات عليها امتدَّ هذا الظِّلُّ)[٥].

أي: محلُّ الوُجُود الذي فاض من الحقِّ هُو أعيان المُمكنات عليها امتدَّ وُجُود الحقِّ كما يمتدَّ ظلُّ الشَّخص على محلِّه.

ثُمَّ قال: (فتُدرك[٦] من هذا الظِّلِّ[٧] بحسب ما امتدَّ عليه من وُجود هذه الذَّات، ولكن باسمه النُّور وقع الإدراك، وامتدَّ هذا الظِّلُّ على أعيان المُمكنات في صُورة الغيب المجهول)[٨].

ثُمَّ ساق الكلام إلى أن قال: (﴿ثُمَّ قَبَضْنَهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾[٩]، وإنَّما

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «وبالله».
(٢) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن: «المعول»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٣) سقطت من كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «إلى الشَّخص»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٥) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ١٠١-١٠٢.
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «فيُدرك»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «امتدَّ هذا الظِّلُّ فتُدرك من هذا الظِّلِّ».
(٨) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ١٠٢.
(٩) سُورة الفُرقان: الآية ٤٦.

قبضه إليه لأنَّه ظلُّه، فمنه ظهر[١] ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾[٢]، فهُو هُو لا غيره[٣]، فكُلُّ ما نُدركه[٤] فهُو وُجود الحقِّ في أعيان المُمكنات، فمن حيث هَوِيَّة الحقِّ هُو وُجوده، ومن حيث اختلاف الصُّور فيه هُو أعيان[٥] المُمكنات، فكما لا يزول عنه باختلاف الصُّور اسم الظِّلِّ: كذلك لا يزول باختلاف[٦] الصُّور اسم العالَم؛ أو اسم سوى الحقِّ، فمن حيث أحديَّة[٧] - كونه ظلًّا - هُو الحقُّ لأنَّه الواحد الأحد، ومن حيث كثرة الصُّور هُو العالَم، وإذا كان الأمر على ما ذكرته لك: فالعالَم مُتوهَّمٌ ما له وُجودٌ حقيقيٌّ، وهذا معنى الخيال، أي: خُيِّل لك أنَّه أمرٌ زائدٌ قائمٌ بنفسه خارجٌ عن الحقِّ[٨]، وليس كذلك في نفس الأمر، ألا تراه في الحسِّ مُتَّصلًا[٩] بالشَّخص الذي امتدَّ عنه، يستحيل عليه الانفكاك عن ذلك الاتِّصال لأنَّه يستحيل على الشَّيء الانفكاك عن ذاته، فاعرف عينك؛ ومَنْ أنت؟ وما هويَّتك؟ وما نسبتك إلى الحقِّ؟ وبما أنت حقٌّ، وبما أنت عالَمٌ؛ وسوى؛ وغير ذلك)[١٠].

---

(١) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن: «فمنه ظهر وإليه رجع»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٢) سُورة هُود: الآية ١٢٣.
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «فهُو لا غيره»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «تُدركه»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «عين»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٦) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن: «لا يزول باختلاف الصُّور اسم الظِّلِّ كذلك لا يزول عنه باختلاف»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «الخلق فمن حيث أحديَّته»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «الخلق»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٩) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «مُطلقًا»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(١٠) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ١٠٣

وحاصل هذا الفصل الذي ذكره: أنَّه جعل نسبة العالَم إلى وُجود الحقِّ كنسبة الظِّلِّ إلى الشَّخص، وعنده أنَّ وُجود الحقِّ أشدُّ[١] على الأعيان المُمكنات في العدم؛ كما امتدَّ الظِّلُّ على محلِّه، فهي ثلاثةٌ فافهمها، محلٌّ؛ وظلٌّ يقع عليه، وشخصٌ يكون عنه الظِّلُّ، فالمحلُّ المُمكنات، والظِّلُّ الوُجود، فكما يقبل المحلُّ من الظِّلِّ بقدر استعداده: كذلك[٢] - على زعمه - يقبل المُمكن من وُجود الحقِّ على قدر استعداده.

ثُمَّ حقَّق ذلك فقال: (العالَم مُتوَّهمٌ ما له وُجودٌ حقيقيٌّ)، أي: كما أنَّ الظِّلَّ ليس له وُجودٌ حقيقيٌّ.

ثُمَّ قال: (فاعرف عينك؛ ومَنْ أنت؟ وما هويَّتك؟)، وفي هذا الكلام شُبهة حقٍّ؛ رُبَّما[٣] أشكل على بعض النَّاس؛ وهُو قوله: (ألا تراه - يعني الظِّلَّ - في الحسِّ مُتَّصلًا بالشَّخص الذي امتدَّ عنه، يستحيل عليه الانفكاك من ذلك الاتِّصال)، نعم الكون مُتَّصلٌ بتدبير الحقِّ له وإمداده[٤] من قُدرته ما يتمُّ به وُجوده وبقاؤه [١٠٢/ب] وليس اتِّصاله بالحقِّ كاتِّصال الظِّلِّ بالشَّخص: كُلَّما تحرَّك تحرَّك؛ أو سكن سكن، هذا مثالٌ فاسدٌ؛ لا يستقيم في نسبة الكون إلى الحقِّ باعتبار أنَّ عيْن وُجود الكون: هُو عين وُجود الحقِّ، وقد سبق أنَّ للحقِّ تعالى وُجودًا قائمًا به قديمًا أزليًّا؛ وللكون وُجودٌ آخر مُحدَثٌ مخلوقٌ مُفتقرٌ قائمٌ بإمداد الله تعالى[٥] له من قُدرته وأمره التَّكوينيِّ، فليس[٦] قيامه بعين

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «لذلك».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «امتدَّ».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «بما».
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وامتداده».
(٥) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وليس».

وُجود الحقِّ تعالى - وُجُود الله - أن يقوم بعينه شيءٌ غير الله، فإنَّه وُجودٌ يقوم[(١)] به؛ وللخلق وُجودٌ ضعيفٌ مُفتقرٌ يليق بهم؛ هُو صادرٌ عن قُدرة صاحب الوُجود القديم، هذا هُو مذهب المُسلمين الذين جعلوا[(٢)] بين الحقِّ والخَلْق مُباينة يقتضيها القدم والحدث.

وأمَّا من جعل الحقَّ خلقًا باعتبارٍ والخلق حقًّا باعتبارٍ[(٣)]؛ ويعود فيقول: الكُلُّ هُو؛ ما ثَمَّ غيره، وأنت هُو؛ وهُو أنت: فهذا صاحب وهمٍ فاسدٍ؛ وخيالٍ زائغٍ؛ يتعيَّن[(٤)] معرفة زيغه وتحذير المُسلمين من شُبهاته، والله[(٥)] المُستعان؛ وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

[تقدَّم في الكلمة اليعقوبيَّة كلامٌ[(٦)] فسَّره في الكلمة الأيُّوبيَّة]، قال في الكلمة اليعقوبيَّة[(٧)]: (المُمكنات على أصلها من العدم، وليس وُجودٌ إلا وُجود الحقِّ بصور[(٨)] أحوال ما هي عليه المُمكنات في[(٩)] أنفسها وأعيانها، فقد علمت من يلتذُّ ومن يتألَّم)، وهُو لم يُرد بقوله: (من يلتذُّ ومن يتألَّم) إلا جناب الحقِّ العزيز المُنزَّه المنيع.

ويُفسِّر ذلك قوله في الكلمة الأيُّوبيَّة قال: (وعَلِمَ أيُّوب أنَّ في حَبْس[(١٠)]

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «يليق».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «يتجعَّلوا».
(٣) في حاشية النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «مطلبٌ: وأمَّا مَنْ جعل».
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «تتعيَّن».
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «وبالله».
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «كلامًا».
(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله العليِّ العظيم قال في الكلمة اليعقوبيَّة»، وما بين القوسين ساقط من النسخة الخطية.
(٨) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن: «تُصوِّر»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٩) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «ففي»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(١٠) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «جنس»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.

النَّفس عن(١) الشَّكوى إلى الله في رفع(٢) الضُّرِّ مقاومة للقهر الإلهيِّ، وهُو جهلٌ بالشَّخص إذ(٣) ابتلاه الله بما تتألَّم(٤) منه نفسه(٥)؛ فلا(٦) يدعو الله في إزالة ذلك الأمر المُؤلم)(٧).

فهذا قد جهَّل أيوب عليه السلام في صبره وترك الشَّكوى إلى الله في أوَّل الأمر، وكفى بمن جهَّل(٨) الأنبياء كُفرًا.

قال(٩): (بل ينبغي له عند المُحقِّق أن يتضرَّع ويسأل الله في إزالة ذلك عنه، فإنَّ ذلك إزالة عن جناب الحقِّ عند العارف صاحب الكشف، فإنَّ الله قد وصف نفسه بأنَّه يُؤذى، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾(١٠)، وأيُّ أذى أعظم من أن يبتليك ببلاءٍ عند غفلتك عنه أو عن مقامٍ إلهيٍّ لا تعلمه لترجع إليْه(١١) بالشَّكوى فيرفعه عنك؟ فيصحُّ الافتقار الذي هُو حقيقتك، فيرتفع عن الحقِّ الأذى بسُؤالك إيَّاه في رفعه(١٢) عنك، إذ أنت صُورته الظَّاهرة)(١٣).

فهل سمعتم معاشر العُقلاء [١٠٣/أ] بمثل هذا الكلام في تجهيل الأنبياء؟ وفي أنَّ الضُّرَّ إذا انكشف عن المُبتلى إنَّما ينكشف عن الحقِّ! فَفُهِمَ من ههنا.

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «عيْن»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٢) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن: «دفع»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٣) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن: «إذا»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «يتألَّم»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٥) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح)، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «ولا»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٧) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ١٧٤.
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «من يُجهِّل».
(٩) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).
(١٠) سُورة الأحزاب: الآية ٥٧.
(١١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «الله»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(١٢) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن: «دفعه»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(١٣) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ١٧٤.

أمَّا ما قاله في الكلمة اليعقوبيَّة: (فقد علمت من يلتذُّ ومن يتألَّم)، يُريد بالمُتلذِّذ[١] والمُتألِّم: الرَّبَّ المُنزَّه تعالى عن الالتذاذ والتَّألُّم الكائنيْن في خلقه[٢]، والله[٣] المُستعان.

وحقَّق ذلك في قوله: (فيرتفع عن الحقِّ الأذى بسُؤالك إيَّاه في رفعه عنك، إذ أنت صُورته الظَّاهرة)، أي: أنَّ المُبتلى المضرور هُو صُورة الحقِّ الظَّاهرة، فإذا زال الضُّرُّ والبلاء عنه فقد زال عن الحقِّ، فإنَّ المُبتلى هُو صُورة الحقِّ الظَّاهرة والحقُّ هُو حقيقته، فإذا زال عن الصُّورة البلاء زال عن الحقيقة الأذى لتلازُمهما، إذ كُلٌّ منهما يتألَّم بما يتألَّم به الآخر، افهمُوا ذلك معاشر العُقلاء من كلامه.

وقال[٤] في الكلمة الإلياسيَّة[٥]: (إنَّ العقل إذا تجرَّد لنفسه من حيث أخذه العُلُوم[٦] عن نظره كانت معرفته لله[٧] على التَّنزيه لا على التَّشبيه[٨]، وإذا أعطاه الله المعرفة بالتَّجلِّي كملت معرفته بالله، فنزَّه في موضعٍ؛ وشبَّه في موضعٍ، ورأى سريان الحقِّ[٩] في الصُّور الطَّبيعيَّة[١٠] والعُنصريَّة[١١]، وما

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «بالمُلتذِّ».
(٢) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «وبالله».
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «وبالله المُستعان وقال».
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «الياسيَّة».
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «المعلوم»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٧) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح)، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٨) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «النِّسبة»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٩) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «سريان الكائن في خلقه الحقِّ»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(١٠) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «الصورة الطبيعة»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(١١) سقطت من كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.

بقيت له صُورة إلا وترى عين الحقِّ عينها، وهذه المعرفة التَّامَّة التي جاءت بها الشَّرائع المُنزَّلة من عند الله، وحكمت بهذه[١] المعرفة الأوهام كُلَّها، ولذلك[٢] كانت الأوهام كُلُّها أقوى سُلطانًا من العُقول في هذه النَّشأة)[٣].

وقال في الكلمة الهارونيَّة: (فكان مُوسى أعلم بالأمر من هارون، لأنَّه علم ما عبده أصحاب العجل لعلمه[٤] بأنَّ الله قد قضى أن لا يعبدوا[٥] إلا إيَّاه، وما حكم الله بشيءٍ إلا وقع، فكان عَتْب[٦] مُوسى أخاه هارون لمَّا وقع الأمر في إنكاره[٧] وعدم اتِّساعه، فإنَّ العارف من يرى الحقَّ في كُلِّ شيءٍ، بل يراه عين كُلِّ شيءٍ، فكان مُوسى يُربِّي هارون تربية علم؛ وإن كان مُوسى أصغر منه في السِّنِّ)[٨]

[فانظروا رحمكم الله تعالى إلى قوله: إنَّ عتب مُوسى إنَّما كان على هارون في إنكاره وعدم اتِّساعه، هل يقول هذا مُسلم؟!]

وقال[٩] في الكلمة المُوسويَّة: (فقال له: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[١٠]. والسِّين في السِّجن من حُروف الزَّوائد، أي: لأسترنَّك،

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «هذه»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «كذلك»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٣) فُصوص الحِكَم لابن عربيّ ١/ ١٨١.
(٤) سقطت من كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «نعبد»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «عَيْب»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وقع من إنكاره»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٨) فُصوص الحِكَم لابن عربيّ ١/ ١٩٢.
(٩) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «في السِّنِّ وقال».
(١٠) سُورة الشُّعراء: الآية ٢٩.

فإنَّك[١] أجبت بما أيَّدتني به أن أقول لك مثل هذا القول، فإن قُلتَ لي: فقد جهلت يا فرعون بوعيدك إيَّاي؛ والعين واحدة فكيف فرَّقت؟ فيقول فرعون: إنَّما فَرَّقَتْ المراتبُ العَيْنَ؛ ما تفرَّقت العين ولا انقسمت في ذاتها، ومرتبتي الآن التَّحكُّم فيك يا مُوسى بالفعل، وأنا أنت بالعين وغيرك بالرُّتبة، فلمَّا فهم ذلك مُوسى منه أعطاه حقَّه في كونه يقول له: لا تقدر على ذلك، والرُّتبة تشهد له بالقُدرة عليه، وإظهار الأثر فيه، لأنَّ الحقَّ في رُتبة فرعون من الصُّورة الظَّاهرة لها[٢] التَّحكُّم على الرُّتبة التي كان فيها ظُهور مُوسى في ذلك المجلس)[٣].

وخُرَافَاتٌ يكاد العاقل يضحك منها، لكنَّه يبكي من نسبة الأنبياء صلوات الله عليهم إلى مثل هذه الخُرافات؛ وأنَّهم على مذهبه[٤] يتكلَّمون باصطلاحه من وحدة الوُجود.

يقول مُوسى لفرعون: (العين واحدةٌ فكيف فرَّقت؟ فيقول فرعون: إنَّما فَرَّقَتْ المراتبُ العَيْنَ؛ ما تفرَّقت [١٠٣/ب] ولا انقسمت في ذاتها)، وهذا أيضًا يدلُّ على أنَّ فرعون - على زعمه - كان عارفًا مُوحِّدًا يتكلَّم[٥] بلسانه ومُعتقده، حيث كان الحقُّ في رُتبته - كما ذكره هُو أوَّلًا[٦] -، فإلى الله الشَّكوى؛ وهو[٧] المُستعان.

وقال في الكلمة المُحمَّديَّة: (فلم يكن في صُورة النَّشأة العُنصريَّة أعظم

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «فإنِّي»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «الظَّاهرة التي لها»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٣) فُصوص الحِكَم لابن عربيّ ١/ ٢٠٩.
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «وأنَّهم كانوا على مذهبهم».
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «يُكلِّم».
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «هؤلاء».
(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «وبه».

وصلة من النِّكاح، ولهذا تعمُّ الشَّهوة أجزاءه كُلَّها، ولذلك أمره بالاغتسال، فعمَّت الطَّهارة كما عمَّ الفناء فيها عند حُصول الشَّهوة، فإنَّ الحقَّ غيورٌ على عبده أن يعتقد أنَّه يلتذُّ بغيره، فطهَّره بالغُسل ليرجع بالنَّظر إليه فيمن فني فيه، إذ لا يكون إلا ذلك، فإذا شهد الرَّجلُ الحقَّ في المرأة: كان شُهودًا في مُنفعلٍ، وإذا شاهده في نفسه - من حيث ظُهور المرأة عنه -: شاهده في فاعلٍ، وإذا شاهده من نفسه من غير استحضار صُورة ما تكوَّن(١) عنه: كان شُهوده في مُنفعلٍ عن الحقِّ بلا واسطةٍ، فشُهوده الحقَّ في المرأة أتمُّ وأكمل، لأنَّه يُشَاهِدُ(٢) الحقَّ من حيث هُو فاعلٌ مُنفعلٌ؛ ومن نفسه من حيث هُو مُنفعلٌ خاصَّة، فلهذا أحبَّ الرَّسول ﷺ النِّساء لكمال شُهود(٣) الحقِّ فيهنَّ، إذ لا يُشَاهِدُ الحقَّ مُجرَّدًا عن الموادِّ أبدًا)(٤).

معناه: أنَّ الرَّسول ﷺ إنَّما أحبَّ النِّساء لأنَّه شاهد الحقَّ فيهنَّ، وشُهُوده في المرأة أعلى من شُهُوده في نفسه، فإنَّ الشُّهُود في المرأة يجمع الأمريْن: حيثيَّة كونه فاعلًا ومُنفعلًا، وفي نفسه من حيث ظُهُور المرأة عنه يكون شاهدًا في فاعلٍ.

ويُفسِّر هذا الكلام: ما ذكره أوَّلًا من قوله: (فما نكح سوى نفسه)، فهُو النَّاكح في وهمه الفاسد وهُو المنكوح، إشارة إلى قوله: (﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾)، فحوَّاء مُنفعلةٌ عن آدم؛ وآدم من حيثيَّة انفعاله عنها هُو كالفاعل فاعلٌ، فإذا شهده في المرأة كان أتمَّ من كونه رآه في صورةٍ هي فاعله، ثُمَّ هُو فاعله

(١) في كلا النُّسختيْن الخطِّيَّتيْن: «يكون»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «لا يُشاهد»، وفي النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «لأنَّه شاهد»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «الشهود»، والمُثبت هُو الموافق لما في فُصوص الحِكَم.
(٤) فُصوص الحِكَم لابن عربيٍّ ١/ ٢١٧.

ناكحٌ؛ وهي منفعلةٌ منكوحةٌ، والكُلُّ واحدٌ؛ فما نكح سوى نفسه، وغير ذلك من الخُرافات.

فانظروا[١] رحمكم الله تعالى[٢] إلى هذه الخُرافات التي لا حقيقة لها، إنَّما حاصلها وَهْمٌ وخيالٌ، والوهم عنده أعلى من العقل - كما نبَّه عليه فيما تقدَّم -.

فمَنْ هذا كلامه؛ وهذه عباراته[٣]: هل يحلُّ لمُسلمٍ أن يعتقد فيه أو في ولايته؛ أو يُطالع كلامه عن اعتقادٍ؟! اللَّهُمَّ إلا عن استبصارٍ لشُبهةٍ، بل على كُلِّ مُسلمٍ يفهم عنه: أن يُحذِّر المُسلمين من الوُقوع في مزلاته، ويحجز[٤] بينهم وبين التَّردِّي في آباره ومهالكه.

فكم قد أهلك هؤلاء من طالبٍ أقاموا في ذهنه هذه الخيالات الفاسدة التي تخرج بصاحبها عن الإيمان؛ ويمرق[٥] عن الدِّين كما يمرق السَّهم من الرَّميَّة، ثُمَّ ماتوا ولقوا الله[٦] على هذه العقائد الفاسدة والتَّوهُّمات الباطلة.

فرَّقوا الرُّبوبيَّة؛ ومزَّقوها في الكائنات كُلَّ مُمزَّقٍ، يقول[٧] الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[٨].

هذا في شخصٍ واحدٍ حكم بكُفرهم؛ وحقَّقهم به، حيث قالوا: إنَّه الله، فما ظنُّك فيمن يجعل جميع الموجودات الله؛ وأنَّ وُجودها عين وُجوده؟!

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «مُجرَّدًا عن الموادِّ أبدًا فانظروا».
(٢) سقطت من النُّسخة الخطِّيَّة (ح).
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «عبارته».
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «ويحجر».
(٥) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «وتمرق».
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة (ت): «إليه».
(٧) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «ومزَّقوها كُلَّ مُمزَّقٍ بقول».
(٨) سُورة المائدة: الآيتان ١٧؛ ٧٢.

فهؤلاء كفروا بالله عدد كُلِّ شيءٍ، ونحن نقول: سبحان الله عدد كُلِّ شيءٍ.

وفيما ذُكر من كلامه تنبيهٌ على مُراده وسُوء عقيدته، وفي بعض ذلك كفايةٌ لمن رام التَّفقُّه في إلحاده، والله[1] المُستعان؛ وعليه التُّكلان، ولا حول [١٠٤/أ] ولا قُوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا، وحسبنا الله ونعم الوكيل[2].

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة (ح): «وبالله».

(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة (ح): «بلغ مُقابلة»، وفي النُّسخة الخطيَّة (ت): «وصلواته على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه أجمعين، تمَّت».
قُلتُ: كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في قرية كُوهيج (دار العلم)؛ في مركز جناح؛ في مدينة بستك؛ في محافظة هرمزكان؛ في جُمهوريَّة إيران، في يوم الأحد ١ جُمادى الأولى ١٤٣٥هـ؛ الموافق ٢ مارس (آذار) ٢٠١٤م.

كتاب تَلْقِيحُ الأَفْهَامِ فِي مُجْمَلِ طَبَقَاتِ الإِسْلامِ

وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي قَوْلِ لا إِلَهَ إِلا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَافْتِرَاقِهِمْ فِي سِعَايَاتِ القُلُوبِ وَالأَجْسَامِ

من درجة التّتار وأهل الاتّحاد، إلى أهل الجذبة والمحبّة الخاصّة من قسم المريد والمراد، فيتبيّن لك في هذه القاعدة إن شاء الله تعالى كيف تصعد بهم الفضائل من تلك الدّركات، درجةً درجةً إلى كمال النّهايات

فهرست الطَّبقات

وليس ترتيب الفهرست على ما في الكُرَّاس فإنَّه يتداخل، بل هُو على ترتيب الطَّبقات، فإنَّه من الأدنى إلى الأعلى، أهل الشَّهادة من التَّتار، أهل الاتِّحاد، الرَّافضة، الجهميَّة، أهل الوله، وأكل الحيَّات، الفقيه الذي يطلب بعلمه الدُّنيا لا غير، الفقير الذي يطلب بفقره الدُّنيا لا غير، الصُّوفيُّ الذي يطلب برسمه التَّأكُّل، الفقيه المُخلص بأعماله كُلِّها ظاهرًا وباطنًا، المُستعدُّ للآخرة، الفقيه العامل الذي وصل تقواه إلى باطنه، الفقيه المُكمِّل للتَّقوى الظَّاهر والباطن، الذي باشر قلبه نُور الصِّفات، الذي جمع ذلك العُبوديَّة لله تعالى، الذي جمع ذلك المحبَّة الخاصَّة لله، المحبوب، المُصطبغ(١) الذي أخذته يد المنَّة إلى [١٠٤/ب] الجذبة أخذًا مع السُّلوك بعدها، وهُو أعلاهم طبقة، وهُم ثمان عشرة طبقة، والله المُوفِّق والمُعين.

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «المُضطبع».

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله القائم على كُلِّ نفسٍ بما كسبت، المُحصي عليها من الأعمال ما قدَّمت وأخَّرت، المُثيب لها فيما أحسنت، والمُعاقب لها فيما اجترحت، قيُّومٌ قائمٌ بالقسط لا إله إلا هُو لا يعزب عنه مثقال ذرَّةٍ وإن خفيت، ولا يخفى عن علمه دبيب الخواطر وأعمال القُلوب فيما تحرَّكت، له المثل الأعلى والأسماء الحُسنى لطيفٌ بمخلوقاته وإن تنوَّعت، قَسَم لكُلِّ طبقةٍ من الأُمَّة نصيبًا من الإيمان فهُو حظُّها علت في الدَّرجات به أو بالقُصور تسفَّلت، وألاح لكُلٍّ منهم عِلْمًا من مراتب اليقين ودوائره فإليه ينتهي علم أحدهم وعليه تنبني أعماله إذا خَلَصَتْ.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له غافر الذَّنب وقابل التَّوب ممَّن أسلم وجهه إليه وزكَّى نفسه فطهرت، شديد العقاب لمن حاد عن طريقته المُثلى وعصت نفسه وجمحت.

وأشهد أنَّ مُحمَّدًا عبده ورسوله نبيُّ الرَّحمة فأنواره عمَّت، وأُمَّته بالفضل سبقت، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ما طلعت شمسٌ وأشرقت، وأبانت قريحة مُبينٍ ونطقت.

أما بعد:

فإنَّ الإنسان قد يدَّعي كمال الإسلام بلفظه بالشَّهادتيْن ودُخوله مع النَّاس في جماعاتهم وأعيادهم وصومهم وفطرهم، ويغيب عن طبقات أهل الإسلام ومراتبهم التي بالعُلُوِّ فيها يكمل الكامل وبالانحطاط عنها ينقص، ولكُلٍّ درجاتٌ عند الله، والله بصيرٌ بالعباد.

وممَّا يُستعجب مثله ويُستشكل: أنَّه قد تجتمع مُعظم قُلوب أهل العصر على إنكار حال رجلٍ صحَّت قُصوده وعُقوده؛ وخلصت أعماله وزكت سعاياته، وكان الذي يقتضيه العدل أنْ [١٠٥/أ] يظهر تمييزه على جميع العالم بما تميَّز من العُلوم الدَّقيقة والأعمال المُرتفعة إلى الله ﷻ الظَّاهرة والباطنة، ولسنا نقصد رجلًا مُعيَّنًا؛ بل أقصد الجنس، فيُقال: كيف غابت عن الفُهوم فضائله؛ وجهلت العُقول مزيَّته؟ فاستخرت الله تعالى في شرح قاعدةٍ نُبيِّن فيها تمييز طبقات المُؤمنين بعضهم من بعضٍ، ويظهر فيها القَدْر الذي وقع فيه الإشكال بين الطَّوائف، يحصل فيه التَّعارف والتَّآلف، والقَدْر الذي وقع فيه التَّمييز فحصل بسببه التَّناكر والتَّباعد، ولا تعلم كُلُّ طائفةٍ من غيرها إلا القَدْر الذي شاركها، ويغيب عنها ما امتازت به عنها، فتُقرُّ لها بما شاركتها فيه لعلمها به، فتألف ما علمته؛ وتُنكر ما امتازت به عنها لعدم شُعورها بذلك، فتتناكر وتتباغض وتتباعد، ورتَّبته على فُصُولٍ:

الفصل الأوَّل

جميع المُسلمين يشتركون في كلمة التَّوحيد لا إله إلا الله؛ مُحمَّد رسول الله، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(١).

فقد يُقرُّ العبد بذلك باطنًا؛ ويفوه به ظاهرًا: فيبقى بينه وبين عُمُوم المُسلمين قَدْرٌ مُشتركٌ، ومن العُموم كثيرٌ من التَّتر وأهل الاتِّحاد والرَّافضة؛ بل والثَّلاث وسبعين فِرْقة، منهم الجهميَّة والمُعتزلة والمُرجئة وغيرهم، فإذا قُرِأَ كتاب الله ﷻ وسُنَّة رسوله ﷺ؛ وتُفقِّه فيهما، وعُرِفَ مُراد الله ﷻ من عباده في الأمر والنَّهي، واعْتُقِدَ وُجوبه علمًا؛ وتُلُبِّسَ به عملًا، وعُلِمَ أنَّه لا يُخلِّص في الآخرة عند الله غير ذلك؛ ولا يُنال رضاه إلا به، ولا يُخلِّص العبد من عقاب الله ويُنال ثوابه إلا به: تميَّز بذلك عن التَّتر المُقرِّين بالشَّهادتيْن قولًا ومُخالفتهم حُكمها عملًا؛ والرُّجوع عند الأحكام إلى الياساق(٢) شريعة جنكسخان؛ ومن خَلْفِه صناديدُ الضَّلال والطُّغيان، فلو فرضنا أقرَّ بالشَّهادتيْن ولم يعتقد وُجوب الأمر والنَّهي؛ أو اعتقد ذلك وخالف المُعتقَد بعمله: لكان بينه وبين الفِرَق الضَّالة قَدْرٌ مُشتركٌ؛ ورُبَّما أمكنه مُخالطتهم ومُعاشرتهم، ورُبَّما

---

(١) سُورة آل عمران: الآية ١٩

(٢) قال القلقشندي في [صُبح الأعشى ٤/ ٣١٠-٣١١]: (الذي كان عليه جنكزخان في التَّديُّن؛ وجرى عليه أعقابه بعده: الجريُ على منهاج (ياسة) التي قرَّرها، وهي قوانين خمَّنها من عقله؛ وقرَّرها من ذهنه، رتَّب فيها أحكامًا؛ وحدَّد فيها حُدودًا: بما وافق القليل منها الشَّريعة المُحمَّديَّة؛ وأكثرها مُخالفٌ لذلك، سمَّاها: (الياسة الكُبرى)، وقد اكتتبها وأمر أن تُجعل في خزانته؛ تُتوارث عنه في أعقابه، وأن يتعلَّمها صغار أهل بيته).

أحبَّهم وأحبُّوه لعدم التَّمييز بينهم وبينه، والعقائد والأعمال بما تُوجب التَّميُّز من ذلك [١٠٥/ب]، ولو فرضنا ذلك لشخصٍ بعينه في أوان مُخالطته ومحبَّته لهم اعتقد وُجوب الأعمال: لصار بينه وبينهم قَدْرٌ مُميِّزٌ، لو ظهر حُكم اعتقاده لرُبَّما وقع بينه وبينهم مُغايرةٌ، وكذلك لو ظهر العمل كانت المُغايرة أشدَّ والمُوجب للتَّباعد والمُخالفة أظهر، فقد ظهر أنَّ بمُجرَّد اعتقادٍ لمُوجب العمل مع التَّلبُّس بالعمل: قد امتاز بذلك عن مُسلمي التَّتر.

فصلٌ

ولو فرضنا هذا المُسلم بعينه اقتبس من الكتاب والسُّنَّة أنَّ الإله المعبود وهُو ذاتٌ مُنفردٌ بنفسه عن جميع مخلوقاته بائنٌ منها؛ ومخلوقاته بائنةٌ منه، فإنَّ الوُجود المُطلق المُقيَّد في كُلِّ شيءٍ خَلْقٌ من خَلْق الله؛ وصُنْعٌ من صُنْعه، وأنَّ الله ﷻ لم يظهر لنفسه ظُهورًا[١] في المخلوقات؛ ولا ظهر بوُجود ذاته في المخلوقات أصلًا كما يزعم ذلك أهل المُعتقد الفاسد من أهل الرُّوم والمغرب[٢]، فعندهم أنَّه كان مُطلقًا لا يُتصوَّر أن يرى نفسه في الخارج مع الإطلاق، فأفاض وُجوده على الأشياء الثَّابتة في عدمها، فلمَّا أفاضه على الأشياء تقيَّد ذلك المُطلق في كُلِّ مُتعيِّنٍ فرأى نفسه في الخارج بواسطة ظُهُور الأشياء المُتفرِّقة المُتعدِّدة، كما قال قائلهم[٣]:

رأيت نفسك فينا وهي واحدةٌ كثيرةٌ ذات أسماءٍ وأوصافِ

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «ظُهور».
(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في المُعتقد الفاسد»، وفي النسخة الخطية: «من أهل المغرب والروم».
(٣) هُو العفيف التِّلمسانيُّ، كما أشار إلى ذلك المُؤلِّف في: (كتاب فيه لُمعةٌ من أشعَّة النُّصوص في هتك أستار الفُصوص).

فكُلُّ شيءٍ هُو باعتبار الوُجود المُطلق؛ وليس باعتبار الكثرة والتَّعدُّد، فهؤلاء عندهم مثلًا: الحيوان أصله من النُّطفة، والنَّطفة أصلها من الغذاء، والغذاء أصله من النَّبات والحيوان، وأصلهما من السَّماء، وماء السَّماء يتكوَّن من السَّحاب، والسَّحاب مُتكوِّنٌ من البُخار، والبُخار مثلًا من مظاهر الوُجود المُطلق، فظهر الوُجود في البُخار، وظهر السَّحاب من البُخار، وظهر الماء من السَّحاب، وظهر النَّبات من الماء، وظهرت النُّطفة من اغتذاء الحيوان بالنَّبات، ويكون الحيوان من النُّطفة، فظهر هذا الحيوان في الوُجود، فعاش ما قُسم له أن يعيش ثُمَّ مات فالتحقت ناريَّته بمركز النَّار؛ وهوائيَّته بمركز الهواء؛ ونسفت مائيَّته الهواء؛ والتحقت تُرابيَّته بالتُّراب، فذهب كأن لم يكن.

فعند المُسلمين هذا خَلْق الله وصُنْعه [١٠٦/أ] برز بِحُكْم المشيئة وأقامته القُدْرة وعاش مقدار ما قُسم له، ثُمَّ أفناه الله ﷻ وأذهبه كما أحياه، وأظهره ليستدلَّ بذلك على صُنعه ونُفُوذ حُكمه وقُدْرته ولطائف حكمته في أنواع ما أظهره، فعُبِدَ هذا الرَّبُّ العظيم الخالق الفاطر البائن عن سائر مخلوقاته بذاته وصفاته، هذا هُو مُعتقد أهل الإسلام.

ومُعتقد الفِرْقة الضَّالَّة: أنَّ الظَّاهر في البُخار والسَّحاب والماء والنَّبات والحيوان هُو الله بنفسه وذاته، ظهر الوُجود المُطلق في الأشياء المُتنوِّعة، فيرى نفسه فيها، إذ لولا فيض الوُجود على الأشياء ما ظهر الوُجود في الخارج، وكانت الأشياء على زعمهم الفاسد ثابتة لا وُجود لها، فأكسبها من ذات وُجوده فظهرت بعين وُجوده، فهُو الظَّاهر فيها وهي الظَّاهرة له، وهُم يُفرِّقون بين الثُّبوت والوُجود، فعندهم ظهر الوُجود المُطلق في الخارج بواسطة هذا الحيوان، فلمَّا مات رجع المُقيَّد الذي فيه الإطلاق، وهُو مذهبٌ باطلٌ فاسدٌ ما سبقهم إليه أحدٌ، اللَّهُمَّ إلا ما يُنقل عن جَهْم بن صفوان في كلامٍ له بأنَّ المعبود هُو الهوى في كُلِّ شيءٍ؛ ولا يخلو منه شيءٌ.

ويقول بِشْر المَرِيسِي: سُبحان ربِّي الأسفل، وبتسميته للسُّورة كذا، باعتبار أنَّها لا تخلو منه، إذ لا يخلو منه مكانٌ، فكأنَّ هؤلاء نفذوا في هذا الأصل الذي ذهب إليه المَرِيسِيُّ، فصار لهم هذا المُعتقد الفاسد حالًا ومشهدًا؛ حيث كان في جَهْمٍ والمَرِيسِيِّ مُعتقدًا، فلو فرضنا شخصًا عرف فساد ما ذهبوا إليه؛ وكونه سُبحانه بائنًا[1] من مخلوقاته بذاته وصفاته: صار بينه وبين الاتِّحاد قَدْرٌ مُميَّزٌ[2]؛ بعد أن كان بينه وبينهم قَدْرٌ مُشتركٌ من اللَّفظ بالشَّهادتيْن والصَّلاة، فرُبَّما أنكرهم إذا عرف الحقَّ وأبغضهم ولم يُمكنه مُلابستهم؛ وأبغضوه أيضًا، لظُهُور القَدْر المُميَّز في عُمُوم الإسلام - الظَّاهر من الإسلام - وكمال أركانه في المُعتقد والعمل.

فصلٌ

ولو فرضنا ذلك المُسلم بعينه الذي تلفَّظ بالشَّهادتيْن - فكان بينه وبين [١٠٦/ب] عُموم النَّاس من أهل الشَّهادة قَدْرٌ مُشتركٌ - اقتبس من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ معرفة فضل الصَّحابة والعشرة؛ وامتياز الشَّيْخيْن الصِّدِّيقيْن أبي بكرٍ وعُمر على غيرهم من الصَّحابة مزيد الإيمان والعلم والعمل والقُرْب من الرَّسول ﷺ في الحال والقَدْر؛ وعرف صحَّة خلافتهما وإجماع الصَّحابة على ذلك - وإجماعهم يستحيل معه الخطأ -؛ وعلم فضل عائشة والنُّصوص الواردة في فضلها وبراءتها، وعرف أيضًا أنَّ الخير والشَّرَّ يجري على القَدَر بهما؛ والعبد مع ذلك مُكلَّفٌ يُجازى على الأعمال بالثَّواب والعقاب؛ وإن كانت من قَدَر الله؛ ويكون الخير على كسب العبد وحركة

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «بائن».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة: «قدرًا مُميَّزًا».

جوارحه؛ وإن كان منشأ ذلك كُلّه من القَدَر، ويعرف وُجوب الجُمعة والجماعة - إذ الجماعة واجبةٌ عند أحمد ﷺ؛ وعند الشّافعيّ ﷺ سُنّةٌ مُؤكّدةٌ لو اجتمع أهل بلدٍ على تركها قُوتلوا، وأمّا وُجوب الجُمعة وكونها فرض عيْنٍ[(١)]: فمُجمَعٌ عليه -، فإذا عرف هذا الشّخص المُقرُّ بالشّهادتيْن هذه الأشياء واعتقدها: اقتضى منه الاعتقاد أعمالًا ظاهرة لمحبّة أهل السُّنّة؛ والرِّضا عن الصّحابة؛ والمُسارعة إلى الجُمعة والجماعة؛ والاستعاذة بالله من سُوء القضاء، فيبقى بهذه العقائد والأعمال مُفارقًا للرّافضة مُتميِّزًا عنهم؛ وإن اجتمع الكُلُّ على كلمة التّوحيد لا إله إلا الله؛ مُحمّدٌ رسول الله، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾[(٢)].

فصلٌ

ولو فرضنا هذا المُسلم الذي نطق بالشّهادتيْن استخرج من النُّصوص الشّرعيّة الثّابتة عن رسول الله ﷺ أحاديث الصّفات، وعرف نَفَس الصّحابة وتابعيهم وأئمّة الحديث فيها - من النُّقول الثّابتة عنهم -؛ وأيقن بقلبه بأنّ الله ﷻ عالٍ على مملكته مُستوٍ على عرشه قديرٌ عليمٌ سميعٌ بصيرٌ، ذو[(٣)] السّمع، السّميع والبصير، واليديْن والقبضتيْن والوجه [١٠٧/أ] الكريم، ذو[(٤)] الجلال والإكرام، ينزل إلى سماء الدُّنيا كما يشاء ويعجب[(٥)] ويفرح ويضحك ويرضى ويغضب، كُلُّ ذلك كما يليق بجلال الله وعظمته؛ فيُثبتها العبد كما

(١) في حاشية النُّسخة الخطيّة: «مطلبٌ: في فرضيّة الجُمعة».
(٢) سُورة آل عمران: الآية ١٩.
(٣) في النُّسخة الخطّيّة: «ذا».
(٤) في النُّسخة الخطّيّة: «ذا».
(٥) في النُّسخة الخطّيّة: «تعجب».

يليق بعظمة جلال الله بحقائقها ومعانيها المفهومة عندنا على ظواهرها اللائقة بالله ﷻ: لصار بينه وبين الذين يُحرِّفون الكلم عن مواضعه ويُعطِّلون ذلك بالتَّأويل والتَّحريف قَدْرٌ مُميَّزٌ، فإنَّهم يُعطِّلون الاستواء استيلاء؛ والنُّزول بنزول[1] الأمر؛ واليديْن يد النِّعمة والقُدْرة، فرُبَّما مقتهم ومقتوه؛ وأبغضهم وأبغضوه؛ وإن اشترك الجميع في الشَّهادتيْن وأعمالها.

ولو فرضنا هذا المُسلم الذي شارك النَّاس في النُّطق بالشَّهادتيْن تفقَّه في الدِّين؛ وعرف المداخل والمخارج؛ وردَّ الحوادث إلى الأُصول؛ وعرف تفاصيل ما يجب وما يحرم وما يُكره وما يُسنُّ وما يُستحبُّ؛ واقتضى منه علمه بذلك التَّمسُّك بالدِّين والتَّباعد من المكاره[2] وإقامة الأوامر والمندوبات والسُّنن: امتاز بذلك عن جُهلاء المُسلمين وعامَّتهم، الذين لا اعتناء لهم بالشَّريعة؛ ولا بحمل أثقالها، وإنَّما يتمسَّكون من الدِّين بأشياء ظواهر في أوقاتٍ تسهل عليهم، إذ فيهم من لا يُصلِّي إلا أحيانًا؛ أو في رمضان خاصَّة، بل فيهم من لا يترك الجُمعة في رمضان؛ فليس بينه وبين التَّراويح مُعاملةٌ، يُمكن أن يُوجد فيهم من لم يُصلِّ التَّراويح عُمره؛ فضلًا عن المُواظبة عليها، ومثل هذا الجنس في تاركي الصَّلاة إلا قليلًا، وفيهم من قد اعتاد الفواحش المُحرَّمة حتَّى صارت كالغذاء له لا يستطيع أن يُفارقها؛ ولا يجد في قلبه النُّفرة عنها، ورُبَّما فرح إذا قضى نهمته منها، فإذا اجتمع النَّاس وأنكروا على شخصٍ آخر ذلك الفعل بعينه ولعنوه: شاركهم في تقبيحه ولعنة فاعله بصدقٍ، فذلك لأنَّ هذا الإنكار يقتضيه دينه وعمله، كذلك الفاحشة يقتضيها[3] طبعه، فطبعه مُخالفٌ لدينه، والصِّدِّيق من صار طبعه مُطابقًا لدينه، لا يُحبُّ بطبعه ما

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «بزول».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة: «المكاره والمكاره».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة: «يقتضيه».

يأباه دينه، فهُو يُحِبُّ ما أحبَّ الله؛ ويُبغض ما أبغض الله، ولو فرضنا هذا المُسلم المُقرَّ بالشَّهادتيْن عرف [١٠٧/ب] الأمر والنَّهي علمًا واعتقادًا وإن لم يكن به عاملًا: لامتاز بمُجرَّد العلم دُون العمل عن مُعظم العامَّة باعتقاده وعلمه، فإنَّ القلب مُصبغٌ بالعلم والاعتقاد وإن لم يكن عاملًا، فتنتقش الوحشة فيه من ارتكاب المناهي وإن ارتكبها، والأُنْس بفعل الأوامر وإن تركها، فيبقى بينه وبين العاميِّ الجاهل بالعلم والاعتقاد قَدْرًا كثيرًا مُميَّزًا؛ وإن اشتركا في ترك الطَّاعات وارتكاب المناهي، فإنْ تحمَّل أثقال الشَّريعة فعلًا وتركًا: فيبقى بينه وبينهم من القَدْر المُميَّز أكثر وأوفر، رُبَّما استوحش من رُؤيتهم وكلامهم؛ فضلًا عن مُعاشرتهم، ورُبَّما أبغض حركاتهم وأنكرهم، ورُبَّما أبغضهم وأبغضوه لمُخالفته لهم علمًا وعملًا؛ ولإنكاره عليهم، فهل ذلك إلا لظُهُور القَدْر المُميَّز الفارق بينه وبينهم؟! وإن جمعهم الإسلام والعلم وكلمة التَّوحيد.

فصلٌ

ولو فرضنا هذا المُسلم المُقرَّ بالشَّهادتيْن الذي بينه وبين جميع الفِرَق قَدْرٌ مُشتركٌ عرف طريقة الرَّسول ﷺ من سيرته وسُنَّته؛ ووصلت دعوة الرَّسول ﷺ إلى قلبه بحيث انفتح القلب إلى وحي السَّماء؛ وانتبه أيضًا لصاحب الوحي وعرف أسرار الدَّعوة ومُراد الرَّبِّ ﷻ من العباد، وانكشف للقلب ما يُحبُّه ويرضاه من الأعمال وما يكرهه ويسخطه منها، وشرب القلب حلاوة السُّنَّة وطرب إلى الاستماع إلى القُرآن والحديث، وصار له في الحديث مشهد النُّبوَّة؛ يشهد صاحبها فيه بكمال صفاته ومُعجزاته وبواهر آياته، فيألفه ويُحبُّه ويتَّبعه قَدَمًا قَدَمًا، وصار له في الكتاب العزيز مشهد الإلهيَّة والرُّبوبيَّة، يشهد المولى العظيم من فوق عرشه قد أنزل كتابه على رسوله ﷺ، يأمر وينهى؛

ويُخوِّف ويُرجِّي؛ ويُرغِّب ويُرهِّب، ثُمَّ أوقفه الله تعالى على طبقات الأُمَّة إلى القرن الذي هُو فيه، وعرف مناهجهم ومذاهبهم، وعرف منهم أشخاصًا بزيادة محبَّتهم لقُربهم من السُّنَّة، وأبغض آخرين لبُعدهم عنها، واتَّضحت طريقه إلى الله [١٠٨/أ] وإلى معرفته ومعرفة رسوله، فصارت أضوء من النَّهار، يُشرق على قلبه مشاهد العظمة، ويعرف الأنبياء والرُّسل صلوات الله عليهم بعُلُوِّ منزلتهم ومكانتهم من ربِّهم العظيم الذي أرسلهم ونبَّأهم؛ ويُحبُّهم في الله؛ ويرى ما اكتنفهم من الأنوار الإلهيَّة وما خُصُّوا به من القُرْب الأعظم، فإنَّه ضرورة يبقى بينه وبين أهل الطَّريق المُنحرفة قَدْرًا مُميَّزًا فارقًا؛ وإن وقع الاشتراك في اللَّفظ بالشَّهادتيْن والدُّخول في عُموم أحوال أهل السُّنَّة من الجُمعة والعيد والصَّوم والفطر، وهُم طوائف أعرضوا عن طريقة الرَّسول ﷺ؛ وأعرضوا عن تعرُّفها وعن السُّلوك فيها، واتَّخذوا طريقة شيخٍ مُعيَّنٍ فحذوا حذوه؛ وأخذوا لنُفوسهم ما أخذه، فجعلوا حركاته وأعماله وعاداته وعادات أصحابه سُننًا معروفة يُعرضون عمَّا سواها ولا يعرفون غيرها، فمنهم من اتَّخذ السَّماع عبادة ودَيْدَنًا(١)؛ والاجتماع عليه شعارًا، يتأكَّلون به الجُهَّال والغفلة الفلاحين، ويدخلون على الظَّلمة ويُداهنونهم لما يرجونه(٢) من نوالهم، لا يُنكرون على من صحب الأحداث، ويرون أكل الحيَّات من كرامات شيخهم، ودُخول النَّار على رُؤوس الملأ أيضًا يعدُّونها كشيخهم كرامة يُباهون النَّاس ويفتخرون عليهم بذلك، لا يُفرِّقون بين الحلال والحرام، ويقعون في الحرام مع الدَّعوة بأنَّهم أهل القطع والوصل، ولم تصل الدَّعوة المُحمَّديَّة إلى قُلوبهم ولا باشرها بركة الوحي السَّمائيِّ، يُروِّجون على عُموم النَّاس بما يُظهرون من

---

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: فمنهم من اتَّخذ».

(٢) في النسخة الخطية: «يرجوه».

الزِّيِّ والاجتماع على رَوْسٍ[١] لهم يَصْدِمُون به الأُمراء وأهل العطاء يتأكَّلون بذلك، فيتميَّز عنهم من باشر قلبه الوحي السَّمائيُّ والأثر النَّبويُّ امتيازًا بيِّنًا، ورُبَّما أبغضهم وأبغضوه؛ ومقتهم ومقتوه، ورأوه ضدًّا وغيْرًا، ويراهم كذلك، هذا وإن شاركوهم في كلمة التَّوحيد وقول لا إله إلا الله، فيتميَّز عنهم بذلك.

فصلٌ

ولو فرضنا هذا المُسلم المُقرَّ بالشَّهادتيْن حصَّل العلم الشَّرعيَّ ثُمَّ توجَّه إلى العمل به وحَمَلَ أثقاله وأعباءه[٢] وكَلَفٍ من إيجابٍ وندبٍ وتحريمٍ وكراهيةٍ؛ فقبضه ذلك عن كثيرٍ من الأشياء اشتغالًا [١٠٨/ب] بحُدود الله وأمره ومُجانبة نهيه، فلم يدعه الورع أن يتبسَّط في المأكل والملبس والمدخل والمخرج والمُعاشرة؛ فضلًا عن الرُّكوع لأهل المناصب مع المشي عند لقائهم إلى القهقرى راكعًا ومُعتدلًا؛ ثُمَّ راكعًا ومُعتدلًا؛ إلى أن يعلم أنَّ نفس المخضوع له قد رضيت وأخذت ما يستحقُّه من الخاضع من العبادة، ورُبَّما أورثه الورع لُبْسَ الخشن وأكله؛ وشُحوب اللَّون وغير ذلك ممَّا يُورث الصِّدق في المُعاملة للصَّادقين مع الله، فإنَّ هذا الشَّخص قطعًا يبقى بينه وبين الفُقهاء الذين هُم أوعية العلم الذين نَهْمَتُهُم تحصيل العلم ولا نَهْمَةَ لهم بالتزام أحكامه؛ يجمعون العلم صحيحه وسقيمه من كُلِّ علمٍ يرفعهم في الدُّنيا ويُقرِّبهم من المُناظرة والمُغالبة بحقٍّ وغير حقٍّ، يتكالبون على المناصب والرِّفعة، يُوسِّعون الأكمام ويدلون للنُّفوس أذنابًا يُلقِّبونها عَذَبَاتٍ، يبقى بين العامل وبينهم بوْنًا كثيرًا، ورُبَّما مقتهم ومقتوه؛ واستوحش منهم واستوحشوا منه، هذا وإن

(١) أي: كثرة أكْلٍ.
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة: «أعيايه».

اشتركوا في العلم والنَّقل وبعض الأعمال الظَّاهرة وكلمة لا إله إلا الله، فيمتازون عنهم بذلك العمل الذي تقدَّم شرحه.

فصلٌ

ولو فرضنا هذا المُسلم المُقرَّ بالشَّهادتيْن اقتبس من الكتاب والسُّنَّة علم الخوف ومعرفة الآخرة والانتباه لإصلاح الحال مع الله ﷻ ليلقاه في الآخرة بوجهٍ أبيض، فعمل على إكمال المُحاسبة والمُراقبة ورعاية الحركات والخطرات لمُراقبة جبَّار السَّماوات، فصارت همَّته مُتجرِّدة على إرضاء الرَّبِّ ﷻ بكُلِّ مُمكنٍ من قولٍ وفعلٍ وحركةٍ وهمَّةٍ وخاطرٍ، فاستبدل بذلك عوض الشَّبع تقلُّلًا؛ وعوض الإسراف اقتصادًا؛ وعوض التَّزيُّن بالظَّاهر في اللِّباس تزيُّن الباطن بالصِّدق والإخلاص، وحاسبت[١] نفسُه جوارحه السَّبع: العين والأُذن واللِّسان والبطن والفرج واليد والرِّجل، فرعى ألفاظه فلا يتكلَّم بما يكرهه الله ﷻ، ورعى نظره فلم ينظر إلى ما حرَّم الله، وحفظ بطنه عن أكل الحرام والشُّبهات، وكذلك فرجه ويديه[٢] وسائر جوارحه، ورُزق حلاوة المُعاملة مع الله [١٠٩/أ] ﷻ والأُنْس به: لصار بينه وبين أهل الزِّيِّ الظَّاهر والمُرتسمين به قَدْرٌ مُميِّزٌ[٣]، وهُم المُشتغلون[٤] بتحسين المُرقَّعات؛ ووضاء الصُّورة والهيئات، فهُم خُدَّام ثيابهم ونعالهم، يهتمُّون بتبديلها إذا خَلَقَتْ[٥]؛

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «حاسب».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة: «ويداه».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة: «قدرًا مُميِّزًا».
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة: «المُشتغلين».
(٥) أي: بَلِيَتْ.

وبنقائها إذا تدنَّست، ورُبَّما بيَّضوا نعالهم بالإسفيذاج[١] ليعلوها البياض، هممهم مصروفة إلى حُسن المُعاشرة وإظهار صُورة الفقر مع التَّخلِّي عن عمارة الباطن، ورُبَّما كانت صُورة الفقر دُكَّانًا يستجلبون الفُتوح بهم فهُم بها مُهتمُّون، ورُبَّما كانوا عن قُصود أهل العزائم والصِّدق مُعرضين، فيبقى بين المذكور وبينهم بوْنٌ كثيرٌ وفَرْقٌ مُستبينٌ[٢]، هذا وإن اشترك الجميع في اسم الفقر والسُّلوك والتَّلفُّظ بالشَّهادتيْن فهُو يمتاز عنهم بما شُرِح، فرُبَّما استثقلوه واستوحشوا منه واستبُّوه، ورُبَّما مقتهم هُو لخُلوِّهم عن قُصود أهل الحقائق وعملهم؛ فمقتوه هُم أيضًا، فيعرفهم ولا يعرفونه، يعرفهم بما يبدو عليهم من الهوى والهزليَّات والزَّوائد والمُداعبة والمُجون والاشتغال بتعظيم أهل الدُّنيا وقُوَّة الانجذاب إليهم ومُؤانستهم ومُشاركتهم في حوادثهم ونوازلهم، فيستدلُّ بذلك على خُلُوِّ بواطنهم عن هُموم الآخرة والاستعداد لها، فهُم عَوَامٌّ قد تكيَّفوا بكيفيَّةٍ ظاهرةٍ من الزِّيِّ وحُسْن السَّمت، ولهُم مع ذلك دَعَاوَى بأنَّهم وأنَّهم، فيمتاز المذكور عنهم بما تقدَّم شرحه.

فصلٌ

ولو فرضنا هذا الشَّخص المُقرَّ بالشَّهادتيْن اقتبس من الكتاب والسُّنَّة عُبُوديَّة الله ﷻ وتألُّهه وإخلاص العبادة والعُبُوديَّة له؛ بحيث شهد أن لا نافع ولا ضارَّ ولا مُعطي ولا مانع إلا الله ﷻ، فأخلص التَّوحيد لمولاه قَدْرًا؛ وأقام بالأوامر شَرْعًا، وكان الله ﷻ غالبًا[٣] على أمر العبد وكيفيَّته، وصار

---

(١) أي: الصِّبغ، وهُو مُتَّخذٌ من رماد الرَّصاص، يُحرق ثُمَّ يُسحق ويُطلى به ليُكسب المصبوغ اللَّون الأبيض.
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة: «بونًا كثيرًا وفرقًا مستبينًا».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة: «غالب».

العبد عبدًا لمولاه في الأمر والنَّهي؛ عبدًا لمولاه بالرِّضا لأحكامه، فلا يُريد غير هذا إذا وافقت الشَّرع، فامتحا عن قلب العبد تألُّه نفسه بذهاب مُرادها وامتحائه في مُراد الحقِّ ﷻ، وذهب عنه مُراده في الاستحسان [١٠٩/ب] والاستقباح والعمل إلا بما استحسنه الشَّرع واستقبحه وأمر به، فصار عبد الرَّبِّ لا عبد النَّفس؛ مُنفردًا في عُبُوديَّته، فمثل هذا يبقى بينه وبين أهل الزِّيِّ الظَّاهر العاكفين[١] على الرُّسوم قَدْرٌ مُميَّزٌ[٢] وإن اشترك الجميع في كلمة التَّوحيد والانتساب إلى السُّلُوك والتَّوجُّه، فإنَّ أحدهم عاكفٌ على ما وضعته الطَّائفة من الاصطلاح الرَّسميِّ، قد اصطلحوا أُمورًا في الدُّخول والخُروج والقُعود والشَّكل واللُّبْس والعمائم، يرون مُخالفة ذلك مُنكرًا كالمعصية، إن صلَّى في أفضل الأماكن عتبوا عليه، يدع أحدهم الجامع ويروح إلى جماعتهم ولا يطلب بذلك الفضيلة بل مُراعاة الرَّسم وشرط الواقف، ولهُم مواضع مُعيَّنة في الصَّفِّ تُخلَّى بخُلُوِّ صاحبها أحيانًا فلا يُصلِّي فيها غيره، ورعاية الهيئة الاجتماعيَّة؛ يُراعُون الذُّقُون الكبار والبياض فيها أكثر من الذُّقون الصِّغار، ويُراعُون ذا الهيئة من الملابس الوضيعة كالمزدوجة الرَّفيعة والسِّجَّادة الرَّفيعة أكثر من مُراعاة من اشتغل بباطنه عن ظاهره وبعباداته عن عاداته، أُولئك ليسوا عندهم بطائلٍ، رضا الجماعة والشَّيخ والخادم عندهم كرضا الحقِّ، يُراعونهم بكُلِّ مُمكنٍ ولو في الباطل، ويُراعون من يدخل على الأُمراء أكثر من مُراعاة من يُحِبُّ الخُمُول وأَبْغَض الشُّهرة، يُحبُّون ظُهُور هيئتهم للعوامِّ في الجُمُعات والجماعات، ففي قُلُوبهم أصنامٌ كثيرةٌ لا تَخْلُص العبادة لله إلا بكُفرها والإعراض عنها، فيمتاز الرَّجل الأوَّل عنهم بفَرْقٍ كثيرٍ وبوْنٍ عظيمٍ وإن

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «العاكفون».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة: «قدرًا مميزًا».

شاركهم في الشَّهادتيْن والجُمعة والسُّلُوك والتَّوجُّه، فرُبَّما مقتوه ومقتهم؛ واستوحش منهم واستوحشوا منه، لما بينهم وبينه من القَدْر المُميَّز الفارق، فإذا أخلص العبادة لله ﷻ لا يستطيع أن يعبد غير الله من رسمٍ ولا اصطلاحٍ ولا شرطِ واقفٍ، فلا يجعل شرط الواقف كأمر الله ﷻ يُراعيه ويُجاهده لما ينال به من الرِّفق، وهذا ليس من أعمال السَّلف المُخلصين، ويبقى بينهم كالمُشرك الذي يعبد الله ويهتمُّ بغير أمره، فيبقى همُّه مُنقسمًا[1] بين عبادة الله تعالى [١١٠/أ] وعبادة غيره، فتبقى الرُّسوم في القلب مُزاحمة لأوامر الله تعالى؛ تُراعى كما تُراعى، ومن لا تتجرَّد[2] ربَّانية أمر الله تعالى على قلبه لا يكون من المُخلصين.

فصلٌ

ولو فرضنا هذا المُسلم المُشار إليه شارك النَّاس في الشَّهادتيْن؛ تلبَّس بعلم الكتاب وفقه الدِّين والسُّنَّة وعامل الله ﷻ باتِّباع أمره واجتناب نهيه وصَدَق الله في المُعاملة فوصل تقواه إلى باطنه فأشرف على دسائس النُّفوس وآفاتها من الكِبْر والعُجْب والرِّياء والسُّمعة والخُبث والحسد وطلب العُلُوِّ والمنزلة وحُبِّ الدُّنيا وحُبِّ الجاه، فاستحيا من الله ﷻ في ضميره وخافه واتَّقاه في هُمومه وخواطره فلم يبرح قوَّامًا على قلبه مُراقبًا لمولاه حتَّى صفا وصار قلبه كالسَّماء صافيًا مُزيَّنا بنُجُوم العلم؛ فائضًا[3] بخالص الذِّكر، قد حكَّم تقوى ربِّه في جوارحه الظَّاهرة ثُمَّ اتَّقاه في خواطره الباطنة، فصار بينه

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «منقسمٌ».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة: «يتجرَّد».
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة: «فائض».

وبين العُبَّاد والزُّهَّاد قَدْرٌ مُميَّزٌ فارقٌ(١) بينه وبينهم؛ وإن اشتركوا في الإسلام وأعماله والتَّوجُّه إلى الله تعالى، فهُم قومٌ أصلحوا ظواهرهم وتوجَّهُوا إلى ربِّهم ولم يتنبَّهُوا لدقائق اليقين وخفايا آفاتها، فآفات النَّفس مُتصرِّفة فيهم، يُبغض أحدُهم لغير الله ويغضب لحظِّ(٢) نفسه إذا زاد عليه بالحقِّ، في نفسه أنَّه خيرٌ من غيره، ويحتقر المُسلم برُؤية أعماله ويَدِلُّ(٣) على ربِّه، ويَتَخَيَّر على ربِّه الأُمور والأحوال، ورُبَّما قال: ربِّ افعل بفُلانٍ كذا وكذا؛ أو اقتل فُلانًا؛ بمُجرَّد إساءة بدت منه إليه، غائبٌ عن منن الله تعالى وسِتْرِه عليه قبيح أعماله، كُلَّما تذكَّر صيامه وقيامه أقام صدره وتحيَّر على ربِّه، لم يتحقَّق بالانكسار الذي تقتضيه(٤) العُبُوديَّة بين يدي الرُّبُوبيَّة، فهُو خاشع الظَّاهر غير خاشع الباطن، دعواه على طرف لسانه، وفي الجُملة فيبقى بين من أصلح الباطن وبين من اقتصر على إصلاح الظَّاهر دُون الباطن قَدْرٌ ظاهرٌ وبوْنٌ مُميَّزٌ، فإنَّ من أصلح الباطن فقد [١١٠/ب] أثار العُبُوديَّة إلى قلبه بعد وُصُولها إلى جوارحه، فاستقام ظاهرًا وباطنًا؛ وصار بارًّا ظاهرًا وباطنًا، بخلاف من ظهر البرُّ على جوارحه ولم يتحقَّق به باطنه، هذا وإن شاركه في كلمة الشَّهادة وظواهر أعمال الإسلام من الصَّوم والصَّلاة فقد فارقه بأُمورٍ كثيرةٍ.

فصلٌ

ولو فرضنا هذا المُسلم المُتلفِّظ بالشَّهادتيْن ما أخلص لله في المُعاملة(٥)

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «قدرًا مُميَّزًا فارقًا».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة: «لحض».
(٣) أي: يمنُّ بعمله.
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة: «تقتضيها».
(٥) أي: بالغ في إخلاص المُعاملة لله تعالى.

وصفا قلبه من كدر النَّفس وأشرق بأنوار الذِّكر؛ انكشف لقلبه أنوار صفةٍ من الصِّفات بحيث دامت[١] شهادته لربِّه بواسطتها من صفة العُلُوِّ والحياة والسَّمع والبصر أو الإرادة أو العلم أو القُدْرة أو الوجه الكريم ذي[٢] الجلال والإكرام أو غير ذلك من الصِّفات، فخلص إلى قلبه أوطان القُرْب وفسحات التَّوحيد من الأكوان: لكان بينه وبين من لم يُكشف له الحجاب - وكان حظُّه مُجرَّد الباطن بالذِّكر واستقامة الباطن على الأمر - من صُلحاء الفُقهاء الذين لم يذوقوا طُعُوم هذه الأشياء؛ ورُبَّما أنكروها ولم تبلغ حالهم إلا مُجرَّد العلم والعمل به ويرون ما فوق ذلك بدعًا أُحدثت لم يتكلَّم السَّلف فيها، ومن صُلحاء العُبَّاد وأهل التَّصفية أيضًا تميُّزًا ظاهرًا وفَرْقًا بيِّنًا؛ وإن شاركهم في كلمة التَّوحيد وأعمال أهل الإيمان الظَّاهرة والباطنة والتَّوجُّه إلى الله ﷻ، فقد فاتهم تفصُّلٌ كثيرٌ وحالٌ جليلٌ، صار بحيث لا يُحجب عن صفات مليكه، متى توجَّه وجده بواسطة ذلك الوصف والصِّفات، كما قيل[٣]:

إذا اشتقتكُم طالعت قلبي فإنَّه ... على القُرْب والإبعاد دومًا يراكُمُ

فصلٌ

ولو فرضنا هذا المُكاشَف بالصِّفات رَاضَ نَفْسَه بين يدي خالقه بمحو التَّدبير والاختيار؛ فَرَضِيَ بمحو التَّدبير والاختيار؛ ورَضِيَ بمحض تدبير الله ﷻ واختياره إذا وافق أمره وصار عبدًا لله في الظَّاهر والباطن فهُو يقوم به؛ وفي قَدَره فهُو [١١١/أ] يرضى به: لكان بينه وبين من شهد الصِّفات ونفسه قائمةٌ

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «دام».
(٢) في النُّسخة الخطِّيَّة: «ذا».
(٣) لم أقف عليه.

مُتخيِّرةٌ؛ تتخيَّر على ربِّها الأحوال والمقامات ترفُّعًا طلبًا لرفعة النَّفس وتكميلها، فتلك الإرادة تحجب قلبه عن رُؤية تدبير الله ﷻ لعبده وحُسن اختياره له ومُراده له ومنه، فبين الرَّجليْن فرْقٌ ظاهرٌ وبوْن عظيمٌ؛ وإن اشتركا في التَّوحيد الظَّاهر والباطن وأعماله.

فصلٌ

ولو فرضنا هذا العبد البارَّ المُكاشَف بالصِّفات القائم بوظيفة العُبُوديَّة رقَّاه الله ﷻ إلى محبَّته الخاصَّة المُلهبة للأفئدة فعَلِقَتْ[1] رُوحه به وجذبها إليه؛ ولو كُوشف بالأمر الكُلِّيِّ الجامع لجميع الأسماء والصِّفات فامتلأ بذلك القبض واتَّسع وخرج إلى فُسحة التَّوحيد ومُشاهدة الفردانيَّة المُتَّصفة بالجلال الذَّاتيِّ والإكرام السَّرمديِّ وصار المُجْذِب قريبًا إلى رُوحه؛ لو توارى عنه طرفة عيْنٍ لانطبقت عليه انطباقًا، فحجابه غُمَّةٌ، وكشفه عن وجه محبوبه فرحةٌ، لا يُريد من الدُّنيا والآخرة سواه، ولا يعبد إلا إيَّاه، صار المحبوب لمحبوبه جليسًا؛ وله في سائر الأحوال أنيسًا، وعليه مُطَّلِعًا رقيبًا إلى العيان، يعبد الله ﷻ بتكوين الأحوال لقلبه الصَّارخ تحت العرش، ولصدره أزيزٌ كأزيز المرجل من غليان قلبه بالمحبَّة والتَّعظيم والهيمان والتَّشوُّق إلى العيان: لكان بينه وبين صاحب الصِّفات والاستسلام قَدْرٌ مُميِّزٌ فارقٌ وإن شاركه في كثيرٍ من الأعمال والمُشاهدات والأحوال.

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «فعلق».

فصلٌ

ولو فرضنا عبدًا جذبه الله ﷻ إليه جَذْبًا؛ وقرَّبه وأدناه؛ وآنسه وناجاه، يُعْرِض فيُطْلَب؛ ويجفو فيُواصَل؛ ويجني فيُعتب ويُعذر، يُراد له ما لا يُحسن أن يُريده لنفسه، ويُدبَّر في معيشته وأحواله بالرَّأفة والرَّحمة واللُّطف، خرجت له المحبوبيَّة من خزائن اللُّطف والمنَّة[١] وبعدها إلى أطوار السُّلُوك، وسُخِّرت له العُلماء والمُؤدِّبون؛ وهُذِّب وأُدِّب؛ وطُهِّر ونُقِّي؛ وعُوِّد وسُجِّع[٢]، فتمَّت ولاية الله ﷻ له: لكان بينه وبين المُحِبِّ السَّائر إلى الله ﷻ بالمُجاهدة والمُكابدة والمُحاسبة والرِّعاية - الذي ترد عليه الأُمور [١١١/ب] وهُو يقتحم فيها؛ يُسار به كمن يجري على وجهه في الشَّوك والوَعْر؛ هذا يلطمه؛ وهذا يحقره؛ وهذا ينهره؛ وهذا يخذله؛ وهذا ينظره شَزْرًا[٣]؛ وهذا يندمه على فوت الدُّنيا ويُوبِّخه بطلب الفَوْت فلا يجده، يسأل أحيانًا ويكتسب أحيانًا حتَّى تطول[٤] مُدَّته فيرى بعد ذلك طريقه وسبيله، ويحفظه الله فلا يرجع القَهْقَرَى حتَّى يقع في ميدان المحبَّة المبدوء بذكره - ما كان بينه وبين الأوَّل المحبوب فَرْقًا عظيمًا وبوْنًا ظاهرًا مُستبينًا.

وقد جمع الله لك في هذا الجُزء جُملًا تُبَايِن أهل الإسلام في درجاتهم ومقاماتهم، كُلُّ فرقةٍ بأيِّ عملٍ ارتفعوا وتميَّزوا به على من دُونهم في الدَّرجة؟ وبأيِّ تقصيرٍ انحطُّوا عمَّن فوقهم؟ وهذا ميزانٌ تزن به نفسك؛ فتنظر في أيِّ الأقسام أنت؟ ولِتَرَى ما فيك من النَّقائص الخاطر لأهلها فتنتقل عنها؛ وترى

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «اللُّطف المنَّة».
(٢) أي: سُوِّيَ وأُقيم.
(٣) في النُّسخة الخطِّيَّة: «شررًا».
(٤) في النُّسخة الخطِّيَّة: «يطول».

ما فيك من الفضائل المُرقِّية لك فتشكر الله عليها.

فصلٌ

فانظر رحمك الله كيف فارق المُعْتَقِدُ لأحكام الإسلام؛ الخائف من انتهاك الحُرمات - وإن قصَّر في بعض الأوامر بتركها؛ وفي بعض النَّواهي بارتكابها - التَّتار باستهانتهم بأحكام الإسلام ورُجوعهم إلى الياساق؟

وكيف تميَّز من أثبت انفراد الحقِّ ﷻ بذاته وصفاته واعتقد بينونته من خلقه عن أهل الاتِّحاد؟

وكيف يتميَّز العارف بفضائل الصَّحابة وبتسليم الأقدار إلى الله تعالى خيرها وشرِّها؛ وأيقن(١) بوُجُوب الجُمُعة والجماعة على الرَّافضة؟

وكيف تميَّز الفقيه في دينه - وإن لم يكن عاملًا بعلمه - عن الجاهل بالعلم - وإن اشتركا في عدم العمل - عن جهلة العوامِّ؛ كيف التَّاركين للعمل من أهل السُّنَّة؟

وكيف تميَّز العارف بالرَّسول ﷺ من السِّير والمغازي والمُعجزات والكرامات والسُّنن المُحبُّ له المُتَّبع لطريقه وطريقة أصحابه عن الفُقراء أهل الأحوال المُنحرفة والبدع المُحدثة المُعرضين عن الشَّريعة وصاحبها؛ المُقبلين على طريقة [١١٢/أ] شيخهم وأصحابهم؟

وكيف تميَّز صاحب المُعاملة والاجتهاد من الفُقهاء عمَّن طلب الدُّنيا بالعلم فأكلها بالدِّين؛ أهل المُداهنة والتَّكالب على المناصب؟

وكيف تميَّز أهل الإخلاص وإصلاح الباطن عن أهل الزِّيِّ والمُرقَّعات الحسنة والجماجم البيض؟

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «وأتقن».

وكيف تميَّز الذين وَقَرَتْ ربَّانيَّة الحقِّ في قُلُوبهم وعبادته من عبادة الرُّسُوم ومُراعاة الوظائف واصطلاح مشايخهم في الهيئات الوضيعة والآصار والأغلال البدعيَّة التي لا يُراد الله ﷻ بها؟، فقد صارت آلهتهُم وأصنامهم في العُكُوف عليها؛ وذمِّ من أعرض عنها، وتعظيم من قام بالرَّسم وتوقيره وتبجيله.

وكيف تميَّز أهل الذَّوق ومُشاهدة الصِّفات عن أهل الخُمُود والحبس في مضايق الكون من الفُقهاء والعُبَّاد؟

وكيف تميَّز صاحب العُبُوديَّة عن صاحب التَّدبير والاختيار؟

وكيف تميَّز صاحب المحبَّة الخاصَّة المُلهبة للباطن عمَّن لم يبلغ ذلك وكان قلبه باردًا؟

وكيف تميَّز المجذوب المحبوب عن السَّائر المحبوب بما تولاه مُولِّيه من الكرامة؟

فاعلم أنَّ الجميع يشتركون في الإسلام والتَّلفُّظ بالشَّهادتيْن، ولو سُئل أحدهم؟ قال: أنا مُسلمٌ؛ وأُبغض كُلَّ مَنْسِبةٍ[(١)] إلى غير الإسلام، ومع ذلك فقد يشتركُون في ظواهر الأعمال من صوم رمضان والحجِّ والصَّلاة وغير ذلك.

فانظر رحمك الله كم بين طبقاتهم من التَّفاوت العظيم صُعُودًا وانحطاطًا؛ واستقامة وانحرافًا؟

ونسأل الله العظيم أن يجعلنا ممَّن سلك أعلى المراتب من الإيمان، وحقَّقنا بفضله وكرمه بحقائق اليقين والعرفان، إنَّه الحَنان المَنان؛ ذُو الفضل والإحسان.

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «المنسبة».

آخر ما تيسَّر من هذا الكتاب، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين[1].

(١) كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في مُحافظة العقبة؛ في المملكة الأُردنيَّة الهاشميَّة، في يوم الأحد ١٢ رجب ١٤٣٥هـ؛ الموافق ١١ مايو (أيار) ٢٠١٤م.

القسم الثاني

يشمل على قواعد في علم السلوك إلى الله تعالى

من كلام الشيخ الإمام العالم العارف كمال الدين محمد بن الشيخ علاء الدين الغمالي رحمه الله تعالى وأثابه الجنة بمنه

قَاعِدَةٌ مُخْتَصَرَةٌ فِي طَرِيقِ الفَقْرِ عَلَى مِنْهَاجِ الرَّسُولِ ﷺ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ربِّ يسِّر

الحمد لله الذي اختار من خَلْقه صفوةً أرادهُم لقُرْبه فأرادوه؛ وأحبَّهُم فأحبُّوه، فقهرُوا بذلك النَّور وساوس النَّفس ورُعُوناتها؛ ونزغات الشَّياطين وإراداتها.

أقامهُم بيْن يديْه في مقام العُبوديَّة، وصفَّهُم في مصافِّ الخدمة، فهُم بيْن يديْه أبدًا يتنعَّمُون بأنوار مُشاهدته؛ ووظائف خدمته، يعبدُون كأنَّهُم يرونه، ويتلون كلامه كأنَّهُم يسمعون منه، ويقتفُون آثار نبيِّهم مُحمَّدٍ ﷺ ويعكُفُون على استماع سُننه بقُلوبٍ حاضرةٍ وأسماعٍ واعيةٍ، ويستعينون بمولاهُم على القيام بمأمورات ربِّهم والانتهاء عن مناهيه[١].

فلم تزل هذه طريقة تسير بهم، وكان مُنتهاها أن طهَّر الله ﷻ فيها بواطنهم عن المُحرَّمات والمكروهات، وكساهُم كُسْوَة اتِّباع المأمورات والطَّاعات، وكاشف أسرارهُم بحقائق المُشاهدات.

وكان شيْخهُم في هذه الطَّريقة وإمامهُم رسولَ الله ﷺ؛ المبعوث إليْهم بالرَّحمة العامَّة والكتاب المُنزَّل الذي فيه موعظةٌ من ربِّهم ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «بمناهيه».
(٢) سُورة يُونُس: الآية ٥٧.

فسُبحان من وفَّقهُم بفضله لتحقيق المُحاسبة في ظواهرهم؛ وإتقان المُراقبة في بواطنهم، فصفَّاهُم له باطنًا وظاهرًا، فصلحوا لقُرْبه ومُناجاة حضرته، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾(١).

وصلوات الله على نبيِّ الهُدى وإمام التُّقى مُحمَّدٍ النَّبيِّ الأُمِّيِّ وآله وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

وبعد:

فإنَّ بعض الإخوان التمس أن أُعلِّق له قاعدة مُختصرة في [١١٣/أ] طريق الفَقْر المُحمَّديِّ، فأقررت له بقِصَر العبارة وقلَّة البضاعة، ثُمَّ رأيت المُسارعة إلى إجابةٍ لسُؤاله على قَدْر الإمكان أَوْلَى، والله المُستعان(٢).

اعلم أيُّها الأخ وفَّقنا الله وإيَّاك: أنَّك إن أردت الفَقْر المُحمَّديَّ الصَّحيح الذي له أصلٌ ثابتٌ وفرعٌ شامخٌ؛ فعليْك بالفَقْر المُحمَّديِّ، فإنَّه مأخوذٌ من رأس العيْن، وإيَّاك أن تأخذ الفَقْر من أسفل وتترك الشُّرْب من رأس العيْن، وتشرب من المياه البعيدة عن منبوعها التي قد خالطها السِّباخ المالحة واصفرَّت ألوانها لبُعْد مائها عن منبوعها، فصارت مُغايرة لِلَوْن المنبوع؛ مُنحرفة عن سواء السَّبيل.

وأنت تفهم هذا الرَّمز؛ لأنِّي شرحته لك مُشافهة، فإن أنت سلكت طريقة الفَقْر المُحمَّديِّ: رجوت أن تلتحق بالسَّابقين الأوَّلين أصحاب نبيِّك مُحمَّدٍ ﷺ؛ فتُحشر يوم القيامة معهم ومعه تحت مَنْجَفِه ولوائه، إذا حُشر الفُقراء تحت مَنَاجِف شُيوخهم؛ فتُحشر أنت تحت مَنْجَفِ(٣) نبيِّك وشيْخك مُحمَّدٍ ﷺ.

(١) سُورة المُجادلة: الآية ٢٢.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «وبالله المستعان».

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «سنجقه ولوائه، إذا حُشر الفُقراء تحت سناجق شُيوخهم؛ فتُحشر أنت تحت سنجق»، والنَّجيف: السَّهم العريض النَّصل.

فعليْك بهذه الطَّريق لا تخرج عنها، وانصح بها من أحببته من إخوانك ليعملوا بها، فإنِّي أرجو بذلك أن تلتحقوا جميعًا بشيْخكُم ونبيِّكُم رسول الله ﷺ.

واعلم أنَّ الفَقْر المُحمَّديَّ لا يتَّسع لكمال شرحه مُجلَّداتٌ، لكنِّي أشرح لك في هذه القاعدة أُصوله، فمن وقع على الأُصول يُرجى له الصُّعود بعون الله إلى الفُروع، وبالله التَّوفيق.

الفصل الأوَّل من الطَّريقة

أن تَشْغَل(١) قلبك بمحبَّة الرَّسول ﷺ؛ وتتَّخذه شيْخًا وإمامًا، وتعتقد محبَّته والانْجِمَاع بسرِّك عليْه دُون كُلِّ أحدٍ، وتُكثر الصَّلاة عليْه، وتكون منزلته من قلبك منزلة المشايخ من قُلوب الفُقراء، ألا تراهم أنَّهم إذا ذُكِرَ شيْخ أحدهم يهتزُّ ويضطرب؟ وذلك لعظمته في قلبه ومنزلته منه، فاجعل أنت نبيَّك مُحمَّدًا ﷺ في قلبك كذلك، بحيث يملك محبَّته قلبُك، ويصير تمثاله بيْن عَيْنَيْ فُؤادك دائمًا، إذا ذُكر تجد لذَّة ذكره وتعظيمه في قلبك، بخلاف ذكر [١١٣/ب] كُلِّ أحدٍ.

فإذا توجَّهت إليْه بهذه الصُّورة؛ وأكثرت من الصَّلاة عليْه: فوَاظِبْ المواعيد التي تُتْلى فيها سُنَّته وأخباره وسيرته ومُعجزاته وكراماته، كُلَّما سمعت مُعجزة من مُعجزاته؛ مثْل انشقاق القمر؛ ونبْع الماء من بيْن أصابعه حتَّى توضَّأ منه الجيش كُلُّهم، ومثْل حنين الجذع إليْه؛ وإطعام النَّفر الكثير من الطَّعام القليل، ومثْل ما فعل بقتادة بن النُّعمان حين انقلعت عيْنه حتَّى سالت فردَّها ﷺ حتَّى عادت كما كانت، ومثْل اشتكاء البعير إليْه، ومثْل انفتاق عيْن تبوكٍ ببركته بعد أن كانت كالشِّراك، وغير ذلك من المعُجزات(٢).

وكُلَّما سمعت حديثًا من أحاديثه؛ أو مُعجزة من مُعجزاته: تبقى كأنَّك تراه بعيْن قلبك، فيزداد حُبُّك له وتعظيمك إيَّاه واتِّباعك لهدْيه وطريقته، فتصير

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «تشتغل».

(٢) انظر في مُعجزات النَّبيِّ ﷺ المُشار إليها وغيرها: دلائل النُّبوَّة للفريابيِّ، تثبيت دلائل النُّبوَّة للهمذانيِّ، أعلام النُّبوَّة للماورديِّ، دلائل النُّبوَّة للبيهقيِّ، دلائل النُّبوَّة للأصبهانيِّ.

بذلك من أتباعه حقيقة؛ حيْث ترى النَّاس أتباع زيدٍ وعمرٍو، كذلك كُلَّما سمعت حديثًا مرويًّا عنه ﷺ مضمونه التَّرغيب في أمرٍ أو الحضُّ[1] عليْه أو النَّهي عن شيءٍ أو الذَّمُّ له: استعنت بالله وطالبت نفسك بالعمل بما حضَّك[2] عليْه؛ واجتناب ما نهاك عنه، وبالله التَّوفيق.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «الحظ».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «حظك».

الفصل الثَّاني من هذه الطَّريقة

أن تُجدِّد الوُضوء وتروح إلى مكانٍ خالٍ لا يراك فيه أحدٌ ثُمّ تُجدِّد التَّوبة بيْنك وبيْن مولاك وخالقك الذي بعث هذا النَّبيَّ الكريم؛ وأنزل عليْه الكتاب العزيز، فتكشف رأسك بيْن يدي مولاك؛ بعد أن تُصلِّي ركعتيْن بحُضورٍ وخُشوعٍ وبُكاءٍ، ثُمَّ تقول: يا ربِّ؛ جئتك تائبًا إليْك؛ راجعًا إليْك، مُعتذرًا من تقصيري في مُخالفتي أمرك وارتكاب نهيك؛ من حيث أعلم؛ ومن حيث لا أعلم، وها أنا[١] قد كشفت رأسي بيْن يديْك، نادمًا مُقلعًا عازمًا على اتِّباع أمرك واجتناب نهيك والعمل بما أنزلته في كتابك على النَّبيِّ الكريم؛ نبيِّي وشيْخي وأُستاذي، ثُمَّ تقول الدُّعاء المشروع فيما رواه البُخاريُّ عن رسول الله ﷺ [١١٤/أ] قال: «**سيِّد الاستغفار أن تقول: اللَّهُم أنت ربِّي؛ لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك؛ وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرِّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنَّه لا يغفر الذُّنوب إلا أنت**»[٢].

فلا تبرح من مكانك حتَّى يرقَّ قلبك؛ وتجري دمعتك ندمًا وخُضوعًا وإذعانًا وانقيادًا لمولاك، فذلك علامة الخيْر؛ ورجاء قبول التَّوبة.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «وهانا».

(٢) صحيح البُخاريِّ [كتاب الدَّعوات/ باب أفضل الاستغفار- الحديث رقم (٦٣٠٦)- ٤/ ١٩٨٤] عن شدَّاد بن أوْسٍ ﷺ.

الفصل الثَّالث من هذه الطَّريقة المُحمَّديَّة

إذا رجعت إلى منزلك: احفظ هذه التَّوبة؛ وحُكْم هذا العهد الذي عاهدت، فإن قُلتَ: فكيف أحفظه؟ قُلت: اعلم أنَّك عاهدت ربَّك ﷻ على لُزوم طاعته، فحِفْظ هذا العهد: إنما يكون بحِفْظ اللِّسان طُول النَّهار عن الغيبة والنَّميمة والزُّور؛ وكُلِّ كلامٍ لا فائدة فيه، فإنَّ الملائكة عن يمينك وشمالك يكتبون أقوالك وأفعالك، قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(١).

وتحفظ عينيْك عن النَّظر إلى النِّساء الأجانب والصِّبيان المُرد؛ وتحذر من الاجتماع بهم لغير ضرورةٍ، وإذا كان ضرورة فتحفظ وترمي بنظرك إلى الأرض، وتحفظ قلبك عن الميْل، فإنَّ الله ﷻ يعلم ما في قلبك، فلا تخن الله ﷻ وهُو مُطَّلعٌ عليْك؛ يعلم ما في سرِّك، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الخلوة بالأجانب، وقد ورد عنه ﷺ: **«ما خلا رجلٌ بامرأةٍ إلا كان الشَّيطان ثالثهما»**(٢).

---

(١) سُورة ق: الآية ١٨.

(٢) أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (١١٤)- ١/ ٢٦٨-٢٦٩]، والتِّرمذيُّ في سُننه [كتاب العلم/ باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة- الحديث رقم (٢١٦٥)- ص٤٨٩] عن عبد الله بن عُمر بن الخطَّاب ﵄، ولفظ أحمد: (أنَّ عُمر بن الخطَّاب خطب بالجابية فقال: قام فينا رسُول الله ﷺ مقامي فيكُم فقال: استوصُوا بأصحابي خيرًا ثُمَّ الذين يلُونهُم ثُمَّ الذين يلُونهُم، ثم يفشُو الكذب حتَّى إنَّ الرجل ليبتدئ بالشَّهادة قبل أن يُسألها، فمن أراد منكُم بحبحة الجنَّة فليلزم الجماعة، فإنَّ الشَّيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، لا يخلُونَّ أحدكم بامرأةٍ فإنَّ الشَّيطان ثالثهما، ومن سرَّته حسنته وساءته سيِّئته فهُو مؤمنٌ).

والأمرد كذلك.

فاجتنب هؤلاء الأصناف؛ كي لا يُوقعونك في نقض العهْد الذي عاهدت مع ربِّك، فتعصي ربَّك بعد التَّوبة بزنا[1] العيْن وزنا[2] القلب.

وكذلك تحفظ سمعك عن الفواحش ممَّا تحفظ عنه لسانك، فإنَّ العبد يُسأل يوم القيامة عن سمعه وبصره وما عقد عليْه بقلبه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[3].

فاستعدَّ لمُحاسبة ربِّك بلُزوم [١١٤/ب] طاعته وطهارة جوارحك عن معاصيه؛ عساك أن تلقاه بوْجهٍ أبْيض؛ وذلك وجْه الطَّائع، وإيَّاك أن تلقاه بوْجهٍ أسْود؛ وذلك وجْه العاصي، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[4].

وكذلك تحفظ بطنك عن الحرام والشُّبهات على قدر الاستطاعة، وتحفظ يديْك ورجليْك عن البطش والسَّعي إلى ما حرَّمه الله أو كرهه.

فحِفْظ ذلك العهْد والتَّوبةُ برعاية جوارحك السَّبع: العيْن والأُذن واللِّسان والبطن والفَرْج واليد والرِّجل، فهذه هي رعاياك وأنت راعيها، وكُلُّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيَّته، فإذا اتَّقيْت الله ﷻ فيها من طُلوع الشَّمس إلى غُروبها؛ ومن غُروبها إلى طُلوعها؛ حياء من الله ﷻ المُطَّلع عليْك؛ العالم بما تتحرَّك به، وهُو سُبحانه فوق عرشه؛ وفوق سبْع سماواته يراك، ويعلم سرَّك ونجواك، وقد أمرك على لسان نبيِّك ونهاك، والمَلَكان يحفظان عليْك ما تصنعه في عُمرك ويكتبانه في الصَّحائف، فتُوافى يوم القيامة في الموقف فتُنشر عليْك تلك الصَّحائف فيها الأعمال، ثُمَّ تُوزن الأعمال فتُجازى، فمتى اتَّقيْت الله كما

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «بزناء».

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «بزناء».

(٣) سُورة الإسراء: الآية ٣٦.

(٤) سُورة آل عمران: الآية ١٠٦

وصفتُ لك: كُنت حافظًا لذلك العهْد الذي عاهدت ربَّك ﷻ به، وكُنت من المُتَّقين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[(١)]

واعلم أنَّ الاشتغال بما وصفتُ لك من إقامة حقِّ التَّقوى والاستعداد للموْت والآخرة ولقاء الله ﷻ وإصلاح الأوقات والأعمال؛ رجاء لقاء الله الحقِّ بوْجهٍ أبْيض وهُو راضٍ؛ في شُغلٍ شاغلٍ عن قيل وقال؛ وتضييع الزَّمان بما تكتبه[(٢)] عليْك الحفظة؛ ويعود عليْك غَيُّهُ في الآخرة، فاستعن بالله ﷻ؛ وأقبل على آخرتك وعلى ما ينفعك غدًا، فإنَّك والله؛ ثُمَّ والله؛ تُعرض على الله ويسألك عن أعمالك، فاستعدَّ للمسألة جوابًا، وشدَّ مئزرك وانهض نهضة الأكياس المُطيعين، ودع عنك ما [١١٥/أ] اشتغل النَّاس به في زمانك من اشتغال البعض بالبعض، وصرف الزَّمان في كان وصار وثُمَّ وجرى، وأقبل على ما ينفعك غدًا، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[(٣)].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**يُحشر النَّاس حُفاة عُراة غُرْلًا**»[(٤)]

وفي حديثٍ آخر: «**فينظر العبد عن يمينه فلا يرى إلا ما قدَّم، وعن شماله فلا يرى إلا ما قدَّم، وبيْن يديْه فلا يرى إلا النَّار تلقاء وجهه، فاتَّقوا النَّار ولو بشقِّ تمرةٍ، فإن لم يكن فبكلمةٍ طيِّبةٍ**»[(٥)].

---

(١) سُورة المائدة: الآية ٢٧.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يكتبه».

(٣) سُورة الحاقَّة: الآية ١٨

(٤) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها/ باب فناء الدُّنيا وبيان الحشر يوم القيامة- الحديث رقم (٢٨٥٩)- ٤/ ٢١٩٤] عن عائشة ؓ، ولفظه: «**يُحشر النَّاس يوم القيامة حُفاة عُراة غُرْلًا. قُلتُ: يا رسول الله؛ النِّساء والرِّجال جميعًا ينظر بعضهم إلى بعضٍ؟! قال ﷺ: يا عائشة؛ الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعضٍ**».

(٥) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الزَّكاة/ باب الصَّدقة قبل الرَّدِّ- الحديث رقم (١٤١٣)- ١/ ٤٢٠-٤٢١]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب الزَّكاة/ باب الحثِّ على =

الفصل الرَّابع من هذه الطَّريقة في الفَقْر المُحمَّديّ

أنَّك إذا صلَّيْتَ الصَّلوات الخمس: تكن حاضرًا بقلبك فيها، ولا تُعامل ربَّك وأنت غائبُ القلب، بل صلِّ صلاة ناصحٍ لمولاه قد حضر بيْن يديْه بجميعه فلم يتخلَّف عن خدمته بشيءٍ منه، حضر بقلبه كما حضر بجسده، ويعلم المُصلِّي أنَّه واقفٌ بيْن يديْ ربِّه وخالقه؛ وهُو مُطَّلعٌ عليْه ويرى خطراته.

فإذا سمعت المُؤذِّن فاجعل نفسك كأنَّك قد سمعت داعي الله فأجبْت داعيه، ثُمَّ نهضت مُطيعًا مُمتثلًا لأمره، فتوضَّأت وُضوءًا كاملًا ثلاثًا، ثُمَّ قصدت بيْت مولاك مُطيعًا له غيْر مُلْتفتٍ ولا مُسْتعجلٍ، بل تمْشي بالهيْبة والسَّكينة والوقار.

فإذا دخلت المسْجد فقُلْ: أستغفر الله، والحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ، اللَّهُم افْتح لي أبواب رحْمتك[1].

= الصَّدقة ولو بشقِّ تمرةٍ أو كلمةٍ طيِّبةٍ وأنَّها حجابٌ من النَّار- الحديث رقم (١٠١٦)- ٢/ ٧٠٣-٧٠٤] عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، ولفظ البُخاريِّ: (كُنْت عند رسُول الله ﷺ، فجاءه رجلان أحدهما يشكو العيْلةَ، والآخر يشكو قطْع السَّبيل، فقال رسُول الله ﷺ: أمَّا قطْع السَّبيل: فإنَّه لا يأتي عليْك إلا قليلٌ حتَّى تخرج العِير إلى مكَّة بغيْر خفير، وأمَّا العيْلة: فإنَّ السَّاعة لا تقُوم حتَّى يطُوف أحدكم بصدقته لا يجد من يقبلها منه، ثُمَّ ليقفنَّ أحدكم بيْن يدي الله ليْس بينه وبينه حجابٌ ولا تُرجمانٌ يُترجم له، ثُمَّ ليقولنَّ له: ألم أُوتك مالًا؟ فليقُولنَّ: بلى، ثُمَّ ليقُولنَّ ألم أُرسل إليْك رسولًا؟ فليقُولنَّ: بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا النَّار، ثُمَّ ينظر عن شماله فلا يرى إلا النَّار، فليتقينَّ أحدكم النَّار ولو بشقِّ تمرةٍ، فإن لم يجد فبكلمةٍ طيِّبةٍ).

(١) أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٢٦٤١٦)- ٤٤/ ١٣]، والتِّرمذيُّ في سُننه [كتاب مواقيت الصَّلاة/ باب ما يقُول عند دُخُول المسجد- الحديث رقم (٣١٤)- ص٨٨]، وابن ماجه في سُننه [كتاب المساجد والجماعة/ باب الدُّعاء عند دُخُول =

ثُمَّ تقْصد الصَّفَّ الأوَّل عن يمين الإمام؛ أو وراءه بقُرْبه، ثُمَّ إن حصل لك مكانٌ: فكُلُّ ذلك قد وردت فضيلته في السُّنَّة، ففي الحديث: «**إنَّ الله وملائكته يُصلُّون على ميامن الصُّفوف**»[(١)].

بشرط أن لا يُؤذي أحدًا؛ فيشتغل قلبه بالزِّحام.

فإذا وقفت في مُصلاك فاحضر بيْن يديْ ربِّ الأرباب وربِّ العزَّة: حُضور العبْد الذَّليل [١١٥/ب]؛ بيْن يديْ الرَّبِّ الجليل، أَوَمَا يستحي العبْد إذا وقف بيْن يديْ والي المدينة أن يُقبل عليْه بجميعه ولا يلتفت عنه خشية سوطه أو إهانته، فإذا حَضَرَ[(٢)] بيْن يديْ مَلِك المُلوك وجبَّار الجبابرة وسُلطان السَّلاطين: جعله أقلَّ النَّاظرين إليْه؟!

= المسجد- الحديث رقم (٧٧١)- ص١٤٦] عن فاطمة ابنة حُسيْن عن جدَّتها فاطمة بنت رسُول اللَّه ﷺ، ولفظ أحمد: (كان رسُول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلَّى على مُحمَّدٍ وسلَّم وقال: اللَّهُمَّ اغفر لي ذُنُوبي وافتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج صلَّى على مُحمَّدٍ وسلَّم ثُمَّ قال: اللَّهُمَّ اغفر لي ذُنُوبي وافتح لي أبواب فضلك).
قال التِّرمذيُّ: (حديث فاطمة حديثٌ حسنٌ، وليس إسناده بمُتَّصلٍ، وفاطمة بنت الحُسيْن لم تُدرك فاطمة الكُبرى، إنَّما عاشت فاطمة بعد النَّبيِّ ﷺ أشهرًا).
وقد أخرج مُسلمٌ في صحيحه [كتاب صلاة المُسافرين وقصرها/ باب ما يقول إذا دخل المسجد- الحديث رقم (٧١٣)- ١/ ٤٩٤] عن أبي حُميْد أو عن أبي أُسيْد ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللَّهُمَّ افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج، فليقل: اللَّهُمَّ إنِّي أسألك من فضلك**».

(١) أخرجه أبوداود في سُننه [كتاب الصَّلاة/ باب من يُستحبُّ أن يلي الإمام في الصَّفِّ وكراهيَّة التَّأخُّر- الحديث رقم (٦٧٦)- ص١١٠] عن عائشة ﵂.
قال البيهقيُّ في السُّنن الكُبْرى [كتاب الصَّلاة/ باب ما جاء في فضل ميمنة الصَّفِّ- ٣/ ١٠٣]: (والمحفوظ بهذا الإسناد عن النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ الله وملائكته يُصلُّون على الذين يَصِلُون الصُّفوف**»).
والحديث بهذا اللَّفظ: أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٢٤٣٨١)- ٤٠/ ٤٤٣].

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «حضرت».

ففي النَّاس من يكون في الصَّلاة وقلبه في السُّوق؛ أو في الحساب؛ أو في السُّوق يبيع ويشتري، فمثْل هذه الصَّلاة تُسمَّى خرجيَّة[١]؛ كالمتاع الخرجيِّ.

ومن عامل الله تعالى مُعاملة خرجيَّة: يُعامل كذا على نحوها، ومن عامل الله تعالى بالنُّصح والحُضور والمحبَّة والتَّعظيم: كان جزاؤه على قدر ذلك.

ثُمَّ تُكبِّر وتقرأ الفاتحة؛ وتفهم ما تقول، ثُمَّ اركع مُتواضعًا لعظمته؛ وتسجد كذلك، وإذا قرأت التَّحيَّات تُسلِّم على ربِّك ﷻ؛ وعلى نبيِّك ﷺ؛ وعلى الصَّالحين، فتكون عنْد ذِكْرهم؛ وعنْد الدُّعاء في آخر الصَّلاة.

وَرَد في الأخبار[٢]: «**إنَّ العبد إذا قام إلى الصَّلاة رفع الله الحجاب بيْنه وبيْنه؛ وواجهه بوْجهه الكريم، وقامت الملائكة من لَدُنْ منكبيْه إلى الهويِّ يُصلُّون بصلاته؛ ويُؤمِّنون على دُعائه، ويُنادي مُنادٍ: لو يعلم المُصلِّي من يُناجي ما الْتَفَت**». وفي روايةٍ: «**ما انْفَتَل**»[٣]

وقال أبوسُليمان الدَّارانيُّ ﷺ: (إذا وقف العبْد في الصَّلاة يقول الله تعالى: ارفعوا الحجاب بيْني وبيْن عبْدي، فإذا التفت يقول الله: أرخوا فيما بيْني وبيْنه؛ وخلُّوا عبْدي وما اختار لنفسه)[٤]

واعلم بأنَّ كُلَّ من كان له حالٌ مع الله تعالى: فإنَّه يظهر في الصَّلاة، من كان حاله الخوف: ظهر في الصَّلاة؛ أو الحُبَّ؛ أو القُرْب؛ أو الاتِّصال؛ أو

---

(١) خَرْجَّية: تُطلق ويُراد بها دراهم للنَّفقة، ومن شأن الدَّراهم التي للنَّفقه: أن تفنى مع الأكل؛ وأن تبلى مع اللُّبْس، قال ابن نباتة المصريّ في ديوانه [ص٢٧٧]:

كُلُّ الظُّنُونِ بِغَيْرِهِ خَرجِيَّةٌ ... وَالظَّنُّ فِي نَعْمَاهِ خَاصُّ الخَاصِّ

(٢) في حاشية النُّسخة الخطِّيَّة: «مطلبٌ: في رفع الحجاب».

(٣) انظر: قُوت القُلُوب لأبي طالبِ المكِّي ٢/ ١٦٤، إحياء عُلُوم الدِّين للغزاليِّ ١/ ١٦٢.

(٤) انظر: قُوت القُلُوب لأبي طالبِ المكِّي ٢/ ١٦٤.

الشُّهود؛ أو المُحاضرة؛ فإنَّه يظهر في الصَّلاة، فإنَّ الصَّلاة صِلَةٌ، ومن غلبت عليْه الوساوس في الصَّلاة: فلا حال له.

واعلم أنَّ في زمانك هذا تحضر القُلوب عند سماع القصائد؛ وتظهر للأحوال في أوقات [١١٦/أ] الحُضور بيْن يديْ الرَّبِّ ﷻ في الصَّلاة - التي هي أقْرب ما يكون العبْد فيها من ربِّه -، ترُوح القُلوب وتستولي عليْها الوساوس والهواجس، فهذا علامة الفَقْر الفاسد، قال ﷺ: **«أقْرب ما يكون العبْد من ربِّه إذا كان ساجدًا»**[١].

فإذا كان العبْد في أقْرب المواطن - وهي الصَّلاة - بعيدًا محْجُوبًا؛ فتراه[٢] يحضر قلبه في السُّوق، فلذلك قيل: من غلبت عليْه الوساوس في الصَّلاة فلا حال له، لأنَّه محجوبٌ في أقرب المواطن، فكيف يكون حاله في أبعدها؟!

(١) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الصَّلاة/ باب ما يُقال في الرُّكُوع والسُّجود- الحديث رقم (٤٨٢)- ١/ ٣٥٠] عن أبي هُريرة رضي الله عنه، ولفظه: **«أقْرب ما يكون العبْد من ربِّه وهُو ساجدٌ، فأكثروا الدُّعاء»**.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «فترى».

الفصل الخامس من هذه الطَّريقة المُحمَّديَّة

أن يعمل على براءة الذِّمَّة من الحُقوق اللازمة والدُّيُون والودائع وصَداق الزَّوجات ونفقاتهن[(١)]، وتُحالِل من كان بيْنك وبيْنه ظُلامة، وتذكَّر من كان له في ذمَّتك حبةٌ أو قيراطٌ، فتعمل على الخلاص منه كيف أمكن، فإنَّك قادمٌ على ربِّك لا محالة؛ وهُو مُحاسبك على ذلك، فاعمل على أن تلقاه وذمَّتك مُخلَّصةٌ.

والخلاص في الدُّنيا أهْون من الآخرة، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: (أنَّه كان إذا حضرت الجنازة قال: هل على صاحبكُم دَيْنٌ؟ فإن قالوا: نعم. قال: صلُّوا على صاحبكُم)[(٢)]

ومن ذلك: أن تنْصح للمُسلمين في المُعاملة والبيْع والشِّراء، فتُحبَّ لأخيك المُسلم ما تُحبُّه لنفسك.

وإيَّاك أن تأخذ الرَّاجح؛ وتُعطيه النَّاقص، قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «ونفقاتهم».

(٢) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الكفالة/ باب من تكفَّل عن ميْتٍ دَيْنًا فليس له أن يرجع- الحديث رقم (٢٢٩٥)- ٢/ ٦٧٩] عن سلمة بن الأكوع ﷺ، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب الفرائض/ باب من ترك مالًا فلورثته- الحديث رقم (١٦١٩)- ٣/ ١٢٣٧] عن أبي هُريرة ﷺ، ولفظ البُخاريِّ: (أنَّ النَّبيَّ ﷺ أُتِيَ بجنازةٍ ليُصلِّي عليْها، فقال: هل عليْه من دَيْنٍ؟ قالوا: لا، فصلَّى عليْه، ثُمَّ أُتِيَ بجنازةٍ أُخرى، فقال: هل عليْه من دَيْنٍ؟ قالوا: نعم، قال: صلُّوا على صاحبكم. قال أبوقتادة: عليَّ دَيْنه يا رسول الله، فصلَّى عليْه).

أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾[1]

وفي الجُملة: فتهيَّأ للقاء الله ﷻ بكُلِّ مُمكنٍ؛ مُستعينًا بالله ﷻ، ولا حَوْل ولا قُوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

(١) سُورة المُطفِّفين: الآيات ١-٦.

الفصل السَّادس

القيام بحُقوق الخَلْق، **فإنَّ الدِّين شطران:**

أحدهُما: حقٌّ تقوم به لله تعالى.

والثَّاني: حقٌّ تقوم به للخَلْق.

خُصوصًا للإخوان المُحبيْن، الذين يطلبون ما تطلب؛ ويُريدون ما تُريد، يُحبُّون العمل على بياض الوْجه مع الله تعالى في الدَّار الآخرة، وعلى بياض الوْجه مع مُحمَّدٍ ﷺ.

فبياض الوْجه مع الله تعالى إنَّما يكون باتِّباع أمره واجتناب نهيه، وجُملته: اتِّباع الشَّرع، فلا يتحرَّك العبْد حركة إلا بالشَّرع.

وبياض الوْجه مع مُحمَّدٍ ﷺ [١١٦/ب] يكون(١) باتِّباع السُّنَّة والحرْص على سماعها والعمل بها.

فمن كان مطلبه هذا المطلب؛ وصَحِبَك للتَّعاضد والتَّعاون على البرِّ والتَّقوى؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾(٢)؛ فاصحبه بالرَّحمة والنَّصيحة والإيثار بما يفضل عنْك إذا كان مُحتاجًا، وإذا رأيْت منْه تقصيرًا فانْصحه بالتَّقصير لا بالتَّعنيف، واحْلم عنْه في أوقاتٍ؛ وطالبه بالرِّفْق في أوقاتٍ، وامْزج حُموضة أمْرك له بحلاوة لُطْفك به، وكُنْ له كالوالد أو كالأخ الشَّفيق؛ تُحبُّ له ما تُحبُّ لنفسك، ولا تُطالبه بحظِّك؛ بل تُطالبه بحُقوق الله تعالى، ففي الحديث: «**ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، وكان إذا**

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «صلى الله عليه يكون».

(٢) سُورة المائدة: الآية ٢.

انتُهكت المحارم لم يقم لغضبه شيءٌ»(١).

وجُرَّه إلى الحقِّ قليلًا قليلًا، فإنَّ النُّفوس أبيَّةٌ تحتاج إلى الرِّفق، ولا تنتظر فُتُوحَهُ(٢)، واعمل على قَطْعٍ منه، واصحبه لله ﷻ لا لحظٍّ تناله منه.

واعلم أنَّ هذا الصَّاحب إذا وقعت منه إساءةٌ فهي على قسمَيْن:

القسم الأوَّل: أن تكون وقعت على وجه السَّهو والغفلة والخطأ والجهل، وعلامته: أنَّه إذا وقع يكون مُسترشدًا طالب الهُدى، يتعلَّم الطَّريق إلى محوها، فمثْل هذا يُطالب بالرِّفق، فإذا اعتذر قُبِلَت معذرته؛ ولم تنقطع مودَّته(٣) من القلب.

القسم الثَّاني: أن يسفه المُريد على شيْخه تعمُّدًا؛ ويُناديه بغليظ القول، ويذكر عُيوبه ومناقصه بحذائه ووراءه، ثُمَّ يعود فيُعذر ويُكْشَف(٤)، فحُكْم هذا: أن تُقبل منه المعذرة ظاهرًا، ولا يُقطع السَّلام، ولا يُصحب بعدها، فإنَّ عُقوق المُريدين الفُقراء لا توْبة لها، لأنَّ تلك اللَّطيفة القلبيَّة التي كانت تعمل على تربيته ويصل منها النَّصيب الإلهيُّ إليْه انقطعت، لأنَّ النَّصيب إنَّما يصل إلى المُريد إذا كان مُعظِّمًا لشيْخه؛ يهابه ويحترمه ويُحبُّه، إذا جفاه شيْخه لا يذكره بسُوءٍ، بل يُعرض عن ذلك أيَّامًا؛ ثُمَّ يعود وهُو حافظٌ لحُرْمته ومنْزلته من

---

(١) صحيح البُخاريِّ [كتاب المناقب/ باب صفة النَّبيِّ ﷺ- الحديث رقم (٣٥٦٠)- ٣/ ١١٠٢]، صحيح مُسلم [كتاب الفضائل/ باب مُباعدته ﷺ للآثام واختياره من المُباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حُرماته- الحديث رقم (٢٣٢٧)- ٤/ ١٨١٣] عن عائشة ﵂، ولفظ مُسلم: (ما خُيِّر رسول الله ﷺ بيْن أمريْن إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد النَّاس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنتهك حرمة الله ﷻ).

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «فتوجه».

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «مادَّته».

(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «تكشف».

صدْره، فمتى ما جاء شيْخَه بغليظ القول دلَّ(١) ذلك على سُقوط منزلة الشَّيْخ من قلبه، فتنقطع المادَّة الباطنة؛ وتبقى المادَّة الظَّاهرة الإسلاميَّة، فإنَّا نُهينا عن التَّقاطع والتَّهاجر، ومثْل هذا لا ينبغي أن يُصحب، بل يُعطى حقَّه ويُكتفى شرُّه.

وينبغي للفقير أن يصحب الفُقراء بالعزَّة [١١٧/أ] والتَّعظيم والحُرمة والإيثار والتَّواضع، ويصحب الأغنياء بالغنى عنهم وعمَّا في أيديهم، ويجعل الطَّلب لهُم لا له، فإذا طلبوه وأحبُّوه لله؛ وفي الله ﷺ: أجابهم، ولا يشبع من طعامهم على موائدهم، بل يأكل لحفْظ قُلُوبهم، فيكون أكله لحقِّهم لا لحظِّه، ويعمل على السُّكوت عندهُم، فإذا كلَّموه أجابهُم على قدر سُؤالهم، ويُطالبهُم مُطالبة الأصحاب، ولا يُنْزلهم من قلبه منْزلة المُريدين؛ فيُحاققهم على الدَّقائق، فلكُلِّ مرتبةٍ حقٌّ وحِدٌّ، ولكُلِّ رجلٍ ميزانٌ يُوزن به، فلا ينبغي أن تُوضع الأشياء إلا في مواضعها، فبذلك تستقيم الأُمور.

فصلٌ

ومن رمى عليْك شرَّه؛ أو طالبك بأمرٍ لا يليق لقُصور فهمه؛ وخِفْت تغيُّر قلبه: فداره مُداراة بطيب الكلام والفراغ عنه؛ لكي تسلم من شرِّه ولا تقع فيما تكره.

والفرْق بيْن المُداراة والمُداهنة: أنَّ المُداراة هي أن تُظْهر خلاف ما تُضْمر لاكتفاء الشَّرِّ وحفْظ الوقت، والمُداهنة إظْهار ذلك لطلب الحُظوظ والنَّصيب من الدُّنيا.

ورُبَّما أشبهت المُداراة المكْر في بعْض الوُجوه، وهي محمودةٌ على كُلِّ

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «ذل».

حالٍ، لأنَّ فيها السَّلامة، وفي المُحاققة مع من لا يسمع أو لا يفهم الشَّرُّ كُلُّه، فمَكْرٌ يحصل به السَّلامة: خيرٌ من مُحاققةٍ تُفضي إلى شرٍّ.

فائدةٌ: لا تُحاقِقْ إلا من كان صادقًا فيك، يطلب منك أن تُحاققه، وأمَّا من يرى نفسه عليْك: فإيَّاك ومُحاققته، بل دَارِهِ وأعرض عنه(١)

فصلٌ

لا تصحب من النَّاس من لا يطلب مطلبك؛ ولا يُريد مُرادك، ويستخفُّ بالفُقراء ويستهين بهم، ولا تصحب المنَّان الذي يمنُّ عليْك برفقته وخدمته وإيثاره، فكُلُّ هؤلاء لا خيْر في صُحبتهم.

واعلم أنَّ النَّاس يقولون: الفُقراء؛ الفُقراء، وما يدرون ما حقيقته؟ ولا ما بدايته؟ ولا ما نهايته؟ ولا يعرف الفَقْر إلا أهله.

وأنا أذكر لك من بدايات الفَقْر نُكتة واحدة(٢)؛ فإذا عرفتها: عرفت عزَّة الفَقْر؛ وعرفت نهاية الفَقْر.

من دخل في ميْدان الفَقْر - ولا يقدر أن يدخله إلا بعد الفراغ من القيام بالأمر واجتناب النَّهي الظَّاهر - فأوَّل حالهم بعد ذلك: أن يحفظوا خواطرهم مع الله ﷻ كما يحفظ المُتَّقي لسانه وسَمْعه وعَيْنه.

فما ظنُّك برجلٍ تمرُّ في قلبه خطرةٌ لا تُرْضِي(٣) مولاه إلا تاب منها؟!

ومنهم [١١٧/ب] من استقام قلبه وصلحت خواطره؛ فلا يخطر له غالبًا إلا خاطر حقٍّ، وهُم الأولياء، يستحيُون من الله ﷻ أن يَخْطُر بقُلوبهم مُحرَّمٌ أو مُعارضةٌ، لأنَّهُم مُوقنون بنظره وعلمه.

---

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «بلغ».
(٢) في حاشية النُّسخة الخطِّيَّة: «مطلبٌ: وأنا أذكر لك».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «يرضى».

فإذا كُنَّا ما وصلنا إلى هذا - ونحن من البدايات -؛ كيف لا نستحي من دعوى الفَقْر؟!

وأذكر لك نُكتة أُخرى من نُكت الفُقراء في بداياتهم: أوَّل بداياتهم - بعد إقامة الأمر واجتناب النَّهي وحفْظ الخواطر - تبدو على قُلوبهم إرادة الحقِّ ﷻ وطلبه، فتشتعل نار الإرادة في قُلوبهم طلبًا للحقِّ ﷻ، فتخلو قُلوبهم من مطالب الدُّنيا ومآربها، وتبقى فارغة من سوى مطلوبها.

فإذا كُنَّا ما وصلنا إلى ههنا - وهُو من البدايات -: كيف تصحُّ لنا دعوى الفَقْر وما شممنا لبداياته رائحة؟!

وأمَّا أُمور الفُقراء الواصلين فلا يَسَع هذا الموضع لشرح حالهم، لأنَّ مقصودنا الاقتصار، والقُلوب تضيق عن سماع بداياتهم، فكيف يكون حالها في سماع نهاياتهم؟!

والواجب علينا أن نبكي على أنفسنا[١]؛ حيث قد ابتُلينا اليوم بطوائف شغلهُم أكل الحرام من المُكُوس والمظالم، والحلال عندهم ما وجدوه؛ والحرام ما فقدوه، ويدُورُون[٢] طُول نهارهم على لُقمةٍ يُحصِّلونها؛ أو صُورةٍ يتمتَّعون بالنَّظر إليْها، ويُظهرون الأحوال يتأكَّلون بها عند النَّاس؛ ولهُم مع ذلك الدَّعاوى العريضة، وما شمُّوا رائحة الإسلام الخاصِّ في الظَّاهر؛ ولا رائحة الإيمان النَّافذ في الباطن، يُقيمون السَّماعات ويرقصون عليْها طُول اللَّيْل، فإذا صلُّوا نقروا نَقْر الغُراب، فما أبعدهم عن الله ﷻ، يتباهون بالدُّخول على الأُمراء وأخذ فُتُوحهم.

نسأل الله أن يُبعدهُم عنَّا، فهؤلاء قُطَّاع الطَّريق، وقَطْعُهُم لطريق الله أصعبُ من لُصُوص الطُّرقات، فإنَّ اللُّصوص يأخذون المال، وهؤلاء يراهُم الجاهل

(١) في حاشية النُّسخة الخطِّيَّة: «مطلبٌ: في رفع الحجاب».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يذورون».

فيظنُّ أنَّ هذا هُو الفَقْر؛ وهُو الدِّين، فيقطعون عليْه الطَّريق، فشُغْلُهُم أكل أموال النَّاس بالباطل؛ ويصدُّون عن سبيل الله.

طهَّر الله الأرض منهم؛ وطمس آثارهم، فلقد وسَّخوا الفَقْر؛ وسوَّدوا الدِّين، وهذا هُو النِّفاق حقيقة: أن يُظهر الإنسان الحال بلا حقيقةٍ؛ ليتأكَّل به.

ورضي الله عن أهل الخشية والخوْف والتَّعظيم [١١٨/أ] والمُراقبة ومعرفة السُّنَّة والمُتابعة، المستورين الذين يعرفهم الله ويعرفونه، أُولئك أهل الحضْرة الإلهيَّة والنَّفحات القُدسيَّة، سلام الله عليْهم.

فنسأل الله الكريم أن يُوفِّقنا وإيَّاكُم لما يُحبُّه ويرضاه، ويُجنِّبنا وإيَّاكُم عمَّا يكرهه ويسخطه ولا يرضاه، آمين.

فصلٌ

وعلامة أهل الفَقْر المُحمَّديِّ أنَّهم إذا سمعوا القُرآن طربُوا إليْه، وتجلَّى فيه المُتكلِّم سُبحانه بصفاته المُقدَّسة على قُلُوبهم.

يا عجبًا لمن يدَّعي محبَّة الله تعالى؛ ولا يجد قَلْبَه عند سماع كلام الحبيب، ويجد قَلْبَه عند سماع القصائد والتَّصفيق!

أمَّا المُحبُّون لله ﷻ: سماع القُرآن هُو شفاء صُدورهم وراحة أسرارهم، يحضر فيه المُتكلِّم سُبحانه، يُشاهدونه في كلامه، في أمره ونهيه؛ ووعده ووعيده؛ وقصصه وأخباره؛ ومواعظه وأنبائه، فترقُّ قُلوبهم وتنجذب بالمحبَّة والشَّوق أرواحهم، وتخمد صفات نُفوسهم، تقهرها عظمة المُتكلِّم سُبحانه، وتُجْذَبُ قُلُوبُهُم بالمحبَّة لمُشاهدة رحمته وألطافه وجلاله وإكرامه.

ولا تسمع قول من يقول: إنَّ القُرآن لا يُناسب طباع البشر؛ فلذلك لا تجد الوَجْد في سماعه، والشِّعْر يُناسب البشر؛ فلذلك ترقُّ القُلوب فيه، فإنَّ هذا

كلامٌ فاسدٌ لا حقيقة له، وذلك لأنَّ الشِّعْر يُحرِّك الطِّباع بأوزانه؛ خُصوصًا إذا قاله صاحب نغمةٍ طيِّبةٍ - كالرَّسْت والرهوي وغيرهما[1] -، وانضاف إليْه التَّصفيق؛ وكان هُناك قومٌ يرقصون، فمثْل هذا يُحرِّك الأطفال والبهائم بمُقتضى الطَّبع والجبلَّة؛ لا بمُقتضى الإيمان واليقين.

أمَّا أهل اليقين - أصحاب النَّبيِّ ﷺ ومن جاء بعدهم من أتباعهم بإحسانٍ -: يُحرِّك القُرآن عندهُم ما سكن من اليقين، فتكُون[2] حركة قُلوبهم وخُشوعهم ووَجْدهم واقشعرار جُلودهم ولِينِها إنَّما هُو بحُكم اليقين والمعرفة؛ لا بحُكْم الطِّباع والجبلَّة.

فافهم هذا الأمر واعرفه، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[3].

فارفضوا رحمكُم الله سماع الأبيات؛ وعليْكم بسماع الآيات، فإن فقدتم قُلوبكُم في القُرآن: فاتَّهموها بقلَّة النَّصيب من معرفة المُتكلِّم.

فأعرف النَّاس بالله ﷻ: أخشعهُم عند سماع كلامه، لأنَّه سمع كلام من يعرفه، والجاهل [١١٨/ب] بالله يجد قَلْبه في الشِّعْر لجهله بالله ﷻ ولا يجده عند القُرآن؛ لأنَّه لا يعرف صاحبه.

فإذا عملتم سماعًا: فاعملوه بقارئٍ مُتَّقٍ[4] لله، طيِّب الصَّوت، تُشبهوا بذلك أصحاب نبيِّكُم ﷺ.

---

(١) الرَّاست: كلمةٌ فارسيَّةٌ معناها المُستقيم، ومن فُرُوعه: الرَّهاوي؛ نسبة إلى مدينة رها الفارسيَّة، وهذا المقام كثير الاستعمال في الغناء الصُّوفيّ، كما ذكر ذلك الأُستاذ الدُّكتور صالح المهدي في كتابه: المُوسيقى العربيَّة - مقاماتٌ ودراساتٌ - ص٢١.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «فيكون».

(٣) سُورة الزُّمر: الآية ٢٣.

(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «مُتَّقي».

تمَّت القاعدة بحمد الله تعالى وحُسن توفيقه.

والحمد لله وحده.

وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا.

وحسبنا الله ونعم الوكيل[١].

(١) في حاشية النُسخة الخطيَّة: «بلغ». قُلتُ: كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في مركز السَّلام التَّعليميّ؛ في قرية شري كند؛ في مُديريَّة صاحب غنج؛ في ولاية جار كند؛ في جُمهوريَّة الهند، في يوم السَّبت ١٦ من شهر شوَّال ١٤٣٥هـ؛ الموافق ١٢ أغسطس (آب) ٢٠١٤م.

قَاعِدَةٌ فِي صِفَةِ العُبُودِيَّةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ(١)

الحمد لله الذي خضعت لهيْبته قُلُوب الأوْلياء، وخشعت من مهابته أسرار الأصْفياء، وانقادت إلى عُبُوديَّته أعْناق الأتْقياء.

ﷻ هُو المُتعزِّز بالوحْدانيَّة والكِبْرياء، والمُتعال بعظمته والصِّفات المُقدَّسة الواردة على ألْسُن الأنْبياء.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ربُّ السَّماوات والأرض وما بيْنهما من الأشْياء.

وأشهد أنَّ مُحمَّدًا ﷺ عبْده ورسوله سيِّد ولد آدم من الأمْوات والأحْياء.

ﷺ صلاة دائمة تسْمُو بصاحبها إلى العلْياء.

وبعد:

فإنَّ العُبوديَّة من أعلى مقامات الصِّدِّيقين، والتَّواضع لعظمة الله تعالى من أسْنى ملابس المُقرَّبين.

من ظهرت آثارهما عليْه دلَّ ذلك على وُجدانه وعرفانه، ومن لم يتقمَّص بهما فقد أقرَّ بما يظهر عليْه من صفات الطَّبيعة ببُعْده وهوانه.

لا حال للعبْد أشرف من ظُهوره بصفات العُبوديَّة؛ والارْتضاء لأحْكام الرُّبوبيَّة.

من تعدَّى صفته إلى ما لا يستحقُّه من الصِّفات: أبان عن جهْله وحُمْقه، ومن وقف على ما يقْتضيه حاله من صفاته وحُدُوده: أنْصف في عُبوديَّته وحقِّه.

(١) (قاعدة في صفة العُبُوديَّة) و(كتاب ميزان الحقِّ والضَّلال): يتوافقان في المباني؛ ويتطابقان في المعاني.

وكيْف لا؟ والعجز والضَّعْف صفتاه، والفَقْر والذُّلُّ حالتاه، قد اتَّصف ربُّه بأضدادهما من الصِّفات من القُدْرة والقُوَّة والغنى والعزَّة.

فمن أظهر إلى الله تعالى عجْزه؛ وشكا إليه ضعْفه وفَقْره؛ وتقمَّص ذُلَّه وكَسْره؛ فكأنَّه تسمَّى بأسمائه التي يستحقُّها؛ وتكنَّى بكُناه التي بها ظهر للخليقة رِقُّها، لأنَّهم مربُوبُون؛ وبعزَّة الرُّبوبيَّة مقهُورُون.

فذلك سِيمَاء من عرف نفسه فقَدَرَها قَدْرَها، وعرف ربَّه فقَدَرَه قَدْرَه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾(١)

وقد جاء في بعْض الأخبار: «**إنَّ الملائكة يقُولُون يوم القيامة: سُبْحانك؛** [١١٩/أ] **ما عبْدناك حقَّ عبادتك**»(٢).

وقد جاء في بعْض الآثار: «**إنَّ الله تعالى قال لداوُد ﷺ: يا داوُد؛ اعْرفني؛ واعْرف نفسك. قال: يا ربِّ؛ قد عرفْتُ نفْسي بالعجْز والضَّعْف والفناء، وعرفْتك بالقُدْرة والقُوَّة والبقاء. قال الله تعالى: يا داوُد؛ الآن عرفتني - أو نحو ذلك -**»(٣).

فعلى العبْد أن يُلازم صفاته ويعرف نفْسه بها ولا يتعدَّاها فيكُون من الجاهلين، ورُبَّما أدَّاه ذلك إلى قَلْب الحقائق فيكُون من الفراعنة المُلحدين، نسأل الله تعالى أن يعْصمنا من ذلك وإيَّاكُم أجمعين.

---

(١) سُورة الأنعام: الآية ٩١، سُورة الزُّمر: الآية ٦٧.

(٢) أخرجه الحاكم في مُستدركه [كتاب الأهوال/ الحديث رقم (٨٧٣٩)- ٤/ ٦٢٩] عن سلمان الفارسيِّ ﷺ، ولفظه: «**يُوضع الميزان يوم القيامة، فلو وُزن فيه السَّماوات والأرض: لوسعت، فتقول الملائكة: يا ربِّ؛ لمن يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئتُ من خلقي. فتقول الملائكة: سُبحانك؛ ما عبدناك حقَّ عبادتك. ويُوضع الصِّراط مثل حدِّ المُوسى، فتقول الملائكة: من تُجيز على هذا؟ فيقول: من شئتُ من خلقي. فتقول: سُبحانك؛ ما عبدناك حقَّ عبادتك**».

(٣) لم أقف عليه.

وقد جاء في الحديث: «**أسألك إيمانًا يُباشر قَلْبي**»(١).

فعلامة من باشر الإيمان قَلْبه - وهُو عبارةٌ عن معْرفته لربِّه ﷻ بأفْعاله؛ أو بشيءٍ من أسْمائه؛ أو بلوامِع من آثار أنْوار صفاته؛ أو ببارقةٍ تلوح لقَلْبه من عظمة ذاته -، هذه جُمل المعارف؛ وإن تعدَّدت أقسامها؛ وتنوَّعت درجاتها، جعلنا الله وإيَّاكُم من المُتحقِّقين بذلك؛ القائمين بأحكامها، آمين؛ يا ربَّ العالمين.

فصلٌ

وينكسر لهذا العارف قَلْبُه لربِّه، ويذلُّ(٢) سرُّه لما قام به من حُبِّه، فإنَّ المعرفة تقْتضي المحبَّة في هذا الشَّأن، وإن كان لا يلزم منْها المحبَّة في غيْرها من الأكْوان، فقدْ يعْرف الإنْسان الشَّيء ولا يُحبُّه.

وأمَّا هذا الجناب: فلا يُتصوَّر أن يُعرف منْه شيْءٌ إلا وتقْترن به المحبَّة؛ وإنْ كان من الصِّفات القهْريَّة، فإنَّ لها تعلُّقًا باطنًا بالصِّفات اللَّطيفة المُوجبة

---

(١) أخرجه البزَّار في مُسنده [الحديث رقم (٥٣٨٥)- ١٢/ ١٨] عن عبد الله بن عُمر بن الخطَّاب ﭭ، والطَّبرانيُّ في مُعجمه الأوسط [الحديث رقم (٥٩٧١)- ٦/ ٤٥٤] عن عائشة بنت أبي بكرٍ الصِّدِّيق ﭭ، ولفظ الطَّبرانيِّ: «**لما أهبط الله آدم إلى الأرض: قام وِجَاهَ الكعبة؛ فصلَّى ركعتيْن، فألهمه الله هذا الدُّعاء: اللَّهُمَّ إنَّك تعلم سريرتي وعلانيتي: فاقبل معذرتي، وتعلم حاجتي: فأعطني سُؤلي، وتعلم ما في نفسي: فاغفر لي ذنبي، اللَّهُمَّ إنِّي أسألك إيمانًا يُباشر قلبي؛ ويقينًا صادقًا حتَّى أعلم أنَّه لا يُصيبني إلا ما كتبت لي؛ ورضًا بما قسمت لي. فأوحى الله إليه: يا آدم؛ إنِّي قد قبلت توبتك؛ وغفرت لك ذنبك، ولن يَدْعُني أحدٌ بهذا الدُّعاء: إلا غفرت له ذنبه؛ وكفيته المُهمَّ من أمره؛ وزجرت عنه الشَّيطان؛ واتَّجرت له من وراء كُلِّ تاجرٍ؛ وأقبلت إليه الدُّنيا راغمة وإن لم يُرِدْها**». وقد أشار الطَّبرانيُّ إلى ضعفه بقوله: (لم يرو هذا الحديث عن هشام بن عُروة إلا مُعاذ بن مُحمَّدٍ، تفرَّد به النَّضر بن طاهرٍ).

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «ويذل».

للمحبَّة، فمتى تحقَّق القلب بوجوده لشيْءٍ من هذه المعارف: أعطاه ذلك ذُبُولًا وانْكسارًا وتعظيمًا وافتقارًا، هذا إذا لاح للقَلْب تفصيله على ما ذُكر من الأفْعال والأسْماء والصِّفات، فإنَّ ذلك يقْتضي في القُلُوب الصَّافية؛ والأذهان الصَّقيلة الوافية: تعظيم المعروف؛ لإشراق معارفه في أنوار القُلُوب، وتلوح في تلك الأنوار ما يستحقُّه العبْد بمُقْتضى تلك المعرفة من العُبُوديَّة التي تُطالبه تلك المعْرفة بها، فيُفرِّق في ذلك النُّور بيْن صفات ربِّه وصفات نفْسه، فيُعطي الرُّبوبيَّة حقَّها بحسب إمكانه، ويُعطي العُبوديَّة حقَّها بحسب ما قام له من بُرْهانه، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[1].

فصلٌ

إذا تأمَّل المُتأمِّل أسْماء الله وصفاته - الواردة في التَّنْزيل؛ وفيما أبان عنه الرَّسول ﷺ -: يجد كُلَّ اسْمٍ وصفةٍ يُشير إلى معْنى خاصٍّ قام بالرُّبُوبيَّة.

واقتضى ذلك للعارف ذوْقًا [١١٩/ب] خاصًّا يُعرف به المُتسمِّي بذلك الاسْم المُتَّصف بتلْك الصِّفة[2]، فكان ذلك الاسْم أو الصِّفة طاقة للعارف؛ يدْخل منْها إلى جميع المعارف، فيأخذ من كُلِّ اسْمٍ أو صفةٍ بقدر ما يلْزم من تلْك الصِّفة أو الاسْم من جميع الأسماء والصِّفات، ويأخذ بقدر ما يرتبط بين ما عرفه من الأسماء والصِّفات وبين بقيَّة الأسماء والصِّفات؛ على حدٍّ يقْسم الله له.

مثاله: من عرف ربَّه تعالى بالاسْم العليم: لزمه من العليم الحياة، أو من عرفه بالتَّدْبير؛ لزم من التَّدبير: العلْم والمشيئة والبصر والقُوَّة والحكْمة والرِّزْق والرَّحْمة والقُدْرة وأمثال ذلك، أو من عرفه بصفة الكلام: لزم منه الخبير

(١) سُورة النُّور: الآية ٤٠.
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «المتصف بتلك فكان».

العليم الحيُّ المُوعِد المَخُوف الجليل الجميل، أو عرفه بالاسْم المُنتقم: لزم منْه القادر القاهر الحيُّ الدَّيَّان، وأمثال ذلك.

وأيْضًا فإنَّ المعروف بتلْك الصِّفة أو الاسْم؛ هُو المعروف ببقيَّة الصِّفات والأسْماء، فإذًا كُلُّ اسْمٍ يُسمَّى الله به؛ أو صفةٍ اتَّصف بها: بابٌ إلى صفة الموْصُوف، وطريقٌ إلى محبَّة المعْرُوف، ومِرْقَاةٌ إلى معْرفة غيْره من الأسْماء والصِّفات؛ إمَّا بطريق اللُّزوم، أو بطريق الجَمْع الجامع للجميع.

فصلٌ

إذا عُلم ذلك؛ فإنَّ كُلَّ اسْمٍ أو صفةٍ يقتضي معنى خاصًّا قام بالرُّبُوبيَّة، كُلُّ معنى من مدْلُولات الأسْماء والصِّفات غيْر الآخر، فكذلك يقْتضي كُلُّ اسمٍ وصفةٍ بمعناه الخاصِّ عُبُوديَّة خاصَّة من العبيد الذين عرفوا ربَّهم بذلك، فمنْ عرف ربَّه تعالى بشيْءٍ من أسْمائه أو صفاته أو أفْعاله؛ فعلامةُ صحَّة معْرفته وبُرْهانُها: أنْ يعْبد الله تعالى الذي عرفه من ذلك الاسْم الخاصِّ أو الصِّفة الخاصَّة؛ عُبُوديَّة تُناسب مُقْتضى السَّبب المُوجب للمعرفة.

مثال ذلك: الرَّبُّ ﷻ اتَّصف بالغنيِّ القادر العزيز القويِّ، فعلامة منْ عرفه بصفة الغنى: أن يقوم له قَلْبه بحقيقة الافْتقار، فإنَّ صفة الغنى منْه ﷻ اقْتضت هُنا أن نعْبده بالافْتقار إليْه، وكذلك من عرف ربَّه سُبْحانه بصفة القُدْرة: اقْتضت منَّا هذه المعرفة عُبوديَّة خاصَّة تُناسبها وهي صفة العجْز، وكذلك صفة العزَّة: اقْتضت منَّا أن نعبُده بصفة الذُّلِّ لعزَّته والخُضُوع لأحكامه، وكذلك صفة القُدرة منْه: اقتضت منَّا أن نعْبده بصفة الضَّعْف والاسْتعانة بالقويِّ لهذا الضَّعيف، وأمثال ذلك [١٢٠/أ].

فصلٌ

قدْ تبيَّن فيما تقدَّم: أنَّ المعْرفة الصَّحيحة تُوجب عُبُوديَّة وخُضُوعًا من كُلِّ عارفٍ صحَّت معرفته، فبُرهان المعرفة: العُبُوديَّة.

وبُرهان المحبَّة: المذلَّة، فإنَّ كُلَّ مُحبٍّ ذليلٌ لمن أحبَّه، وهذا لا يكون إلا في من تفصَّلت معرفته على التَّفاصيل الشَّرعيَّة، وشَعَر قَلْبه بوُجُوه التَّفْصيل، ومتى شَعَر القَلْب بوُجُوه التَّفْصيل: صار للمعرفة هيمنةٌ على القَلْب، يُحْكم عليْه بالعُبُوديَّة الخاصَّة بمُقْتضى الأمْر المعروف، فيعْبد الله تعالى بتلك العُبُوديَّة الخاصَّة في مُقابلة ما ظهر لقَلْبه من المعارف، وشَعَر قَلْبه أيضًا بتلك العُبُوديَّة، وأنَّه يُعامل الله ﷻ بها.

ومنْ فتح الله عليْه هذا الباب؛ وتحقَّق به ودام له؛ واتَّصل بالعُبُوديَّة سرُّه: كان بريئًا من رُعُونات النَّفس في غالب الأمر وأكثره، محفُوظًا من نزغات الشَّيْطان وحركات الجبابرة والمُتكبِّرين، بل يلُوح عليْه سِيمَاء العابدين، الذين يعبُدون ربَّهم بجوارحهم وقُلوبُهم في العالم.

فإنَّ منْ خُصُوصيَّة المعارف الصَّحيحة المُفصَّلة على التَّفاصيل الإسلاميَّة: أنْ تتصرَّف في نفس العارف، فتُذَوِّبها وتُصفِّيها؛ وتُلطِّفها وتحميها، فتبقى حارَّة لطيفة؛ بعد أنْ كانت بحُكْم الطَّبْع باردة يابسة، فيلُوح على شمائل العارف: مكارم الأخلاق؛ وظرافة الشِّيم والصِّفات، حيْث صار له ربٌّ في قَلْبه؛ يعرفه ويُحبُّه ويعْبده ويألهه، فنفسه خاضعةٌ لسُلطانه مأسورةٌ في قبْضته، ورُوحه مغْمُورةٌ في حضْرته، وسرُّه مُمتَّعٌ بمُشاهدته.

ومنْ سكنت هذه الأحوال الشَّريفة في باطنه: بقيت نفسه أسيرة حقيرة، مضبوطة عن صفات المُتجبِّرين، محْفوظة عن مخْروم الحركات، موْزونة

بالعدْل، تلطَّفت غلْظته؛ وتهذَّبت قسْوته؛ واعتدل جوْره؛ والتزم العدْل في أُموره، إن تحرَّك: تحرَّك عدْلًا، وإن نطق: نطق حكْمة وفضْلًا، أو صمت: صمت فكْرة وحِلْمًا، أو نظر: نظر عِبْرة وحقًّا، أو سمع: سمع إشارة وحُكْمًا، وذلك لأنَّ عقله تصرَّف في نفْسه تصرُّف المُؤدِّب لطفْله، وعقْله تأيَّد بربِّه؛ واتَّصل بنُور قُرْبه، فالقَلْب منْه في اتِّصاله بربِّه: مُتَّصلٌ بتهذيبه لنفْسه، فهُو قائمٌ بربِّه على همِّه وعقْله، وقائمٌ بهمِّه وقَلْبه على نفْسه، وهذه هي العناية لأهل العناية، المُتوطِّنين مقامات أهْل الولاية، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

فصلٌ [١٢٠/ب]

وهؤلاء قسْمان[2]: قسْمٌ أهْل فناء، وقسْمٌ أهْل تَمْكينٍ وبقاء[3].

فغالب ما يظهر على أهْل الفناء من الانْقباض والانْفراد؛ ومُجانبة المعارف والنَّاس وإهْمال بعْض حُقُوقهم - من البداية بالسَّلام وإظْهار التَّودُّد إلى أهْل الإيمان -؛ والإخْلال ببعْض جُزئيَّات المُتابعة - من إجابة الدَّعوة واتِّباع الجنائز ومُخالطة الخَلْق -: فما سببه إلا اجْتماعهم على حالهم؛ وسياستهم

(١) سُورة المائدة: الآية ٥٤، سُورة الحديد: الآية ٢١، سُورة الجُمعة: الآية ٤.

(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: قسمان».

(٣) الفناء الذي يُترجم عليه: هُو غاية التَّعلُّق ونهايته، فإنَّه انقطاع عمَّا سوى الرَّبِّ تعالى من كُلِّ وجهٍ، والبقاء الذي يُشير إليه القوم: هُو صفة العبد ومقامه، ولم يرد في الكتاب ولا في السُّنَّة ولا في كلام الصَّحابة والتَّابعين: مدح هذا اللَّفظ ولا ذمُّه، ولا استعملوا لفظه في هذا المعنى المُشار إليه البتة، ولا ذكره مشايخ الطَّريق المُتقدِّمون، ولا جعلوه غاية ولا مقامًا، وقد كان القوم أحقَّ بكُلِّ كمالٍ؛ وأسبق إلى كُلِّ غايةٍ محمودةٍ، ونحن لا نُنكر هذا اللَّفظ مُطلقًا ولا نقبله مُطلقًا، ولا بُدَّ فيه من التَّفصيل، وبيان صحيحه من معلوله؛ ووسيلته من غايته. مُلخَّصٌ من كلام ابن قيِّم الجوزيَّة في [مدارج السَّالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين: ٤/ ٣١٠-٣٤٠].

أنفسهم بما يلْزمهم من حُقُوق معْرُوفهم، فالحال على هؤلاء بسلْطنةٍ تقْبضُهُم عنْ كثيرٍ من التَّفرُّقات.

وفيهم من يشهد بقَلْبه انحراف كُلِّ مُنحرفٍ وما قام بقلبه من سُوء الطَّويَّات وجرائم الآفات، فيَهْرُب بقَلْبه من تلك الظُّلُمات، فإنَّ عنْده ما يشْغله عن غيْره ولا يتَّسع للأغْيار، ولا يقْوى على مُقاومة الأشْرار، وذلك لا يقْدح في مقامه؛ وإن كان غيْره أكْمل منْه لاتِّساعه.

ومثْل هذا لا ينْشرح إلا لمُحبٍّ صادقٍ؛ يميل المُحبُّ بقَلْبه إليْه، فيشْهد ذلك من باطنه؛ فيُوفِّيه حقَّ محبَّته بالإقْبال عليْه؛ والإصْغاء إليْه، وإنْ وجد هُناك استعدادًا نَصَحَه؛ وإلا وفَّاه حقَّه وأَمْسَك.

هؤلاء لم يُكلَّفوا غيْر ذلك، ومتى تكلَّفوا ما لا يُكلَّفون: تحمَّلوا ما لا يُطيقون، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1].

القسم الآخر[2]: الأطبَّاء؛ أهل التَّمْكين والولاية؛ والبقاء والدِّراية، أفْناهم الله تعالى به؛ ثُمَّ أبْقاهم فكانُوا به، فهُم الأدلاء لخَلْقه عليْه، والمُعالجون لهُم في إصْلاح أمْراضهم، هؤلاء كُلِّفوا مُخالطة الخَلْق لقُوَّتهم وتمكينهم، وهُم القائمون بجُزئيَّات المُتابعة - جُملها وتفصيلها - لتصرُّفهم في أحوالهم، يقُومُون بأعْباء الخليقة - دقَّها وجُلَّها -، يسُوسُونهم ويصدُّونهم عن الباطل بسَوْط الشَّريعة وحُكْمها، فهُم خُلفاء الرُّسل وأُمناؤهم، فهؤلاء كُلِّفوا ما لمْ يُكلَّف الأوَّلون، ومنْ حمَّل أُولئك ما حُمِّله هؤلاء فقدْ ظلمهم؛ وجهل اسْتعدادهم، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[3]، والله[4] المُستعان.

---

(١) سُورة البقرة: الآية ٢٨٦.
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «الآخرون».
(٣) سُورة المائدة: الآية ٤٨.
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «وبالله».

فصلٌ

قدْ تبيَّن أحْوال أهْل الحقِّ ذوي المشارب الصَّحيحة والمشاهد العالية المُنيرة المُفصَّلة على التَّفاصيل الشَّرعيَّة؛ وكونهم انقسموا إلى أهل فناءٍ وبقاءٍ، وتبيَّن حُكْم ما يخصُّ كُلَّ فريقٍ منهم وما هُو وظيفته.

وأمَّا الآفات الدَّاخلة على العباد أهْل الأذْواق المُجملة - الذين لا بصيرة لهُم في دينهم؛ ولا معْرفة لهُم بأحوالهم؛ ولا ميزان لهُم يَزِنُون بها حركاتهم وسكناتهم -: فهُم في حيْرةٍ يعمهون، وخبْطٍ يتعثَّرون، فهي أكْثر من أن تُحصر، لكنْ نذْكر [١٢١/أ] منها(١) أشياء تكون تبْصرة واعْتبارًا؛ يُستدلُّ بها على غيْرها من الآفات، والله(٢) المُسْتعان.

فمنْهُم: من تكون طريقته العبادة، فيُنازله أحْيانًا في عبادته شيْءٌ(٣) من آثار العظمة الإلهيَّة مُجْملًا - غيْر مُفصَّلٍ على تفاصيل الأسْماء والصِّفات -، ويتَّفق أنْ يكون بليدًا لا فطْنة له؛ غليظًا لا لطافة له، قِوَى(٤) النَّفس والطَّبْع: لهُما التَّصرُّف فيه على عقْله وقَلْبه، فيَصْبَغُ قَلْبَه الأَمْرُ فيغيب عن صفات نفْسه وشُؤونها، وتسْلب النَّفْس ذلك الأثر فتجْعله لها، فيظْهر هُو في مظْهر الجبرُوت والعظمة، وتلُوح عليْه أمارات الكِبْرياء والرِّئاسة، فيمْشي العالِم بين النَّاس بنفْسٍ كبيرةٍ وصوْلةٍ جسيمةٍ، ويتردَّى برداء الكِبْر والتِّيه(٥)، ويتسلَّط على أشْكاله

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «نذكر نذكر منها».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «وبالله».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «شيئًا».
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «قوي».
(٥) أي: الصَّلَف والكِبْر.

بالغِلَظ مع ما هُو فيه، يأْمرهُم وينهاهُم[١] والنَّخْوة في رأْسه؛ والقسْوة في قَلْبه؛ والشَّرُّ في أحْداقه، يُريد الخيْر؛ فيقع في الشَّرِّ، ويقْصد العدْل؛ فيهْبط في الجوْر والظُّلْم، هواه قائده؛ لا عقْل له، كأنَّه ثُعبان يُرْديه في آبار المهالك والمعاطب، حسُودٌ لا يفطن بحسده، مُتكبِّرٌ لا يشعر بكِبْره، أعمى بقَلْبه وبصيرته، لا ريْب قد اتَّصف بصفات غيْره من الكِبْر والعُلُوِّ، وقدْ جاء في الحديث عن الله تعالى: «**الكِبْرياء ردائي؛ والعظمة إزاري، من نازعني أحدهما: أدْخلته ناري**»[٢]

فمثْل هذا يكون أصحابه معه في جَهْدٍ جهيدٍ؛ وعناءٍ شديدٍ، ينْزل على رُؤوسهم من أعلى المقامات؛ ويرُوم أن يتصرَّف فيهم، فتكُون[٣] إليْه الإشارات في جميع الحالات، كُلَّما امتلأ حالًا: امتلأ كِبْرًا، وكُلَّما ازداد قُوَّة: ازداد شرًّا.

وأهلُ اللهِ الصَّفْوةُ: على عكْس ذلك، كُلَّما امتلؤُوا حالًا: اكتسبُوا تواضعًا، وكُلَّما ازدادُوا قُوَّة: ازدادوا شُكْرًا.

فانظر رحمك الله إلى صاحب الحال المُفصَّل ونُوره[٤]، وكونه شَعَرَ قَلْبُه بحاله؛ وشَعَرَ أيضًا بعُبُوديَّته المُناسبة لما ظهر في قَلْبه، فعرف ربَّه فقام بحقِّه، وعرف نفْسه فأنْزلها منزلة من صفات المخلوقين، فعيْن قَلْبه ناظرةٌ إلى ربِّه

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «وينهيهم».
(٢) أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٩٣٥٩)- ١٥/ ٢١١]، وأبوداود في سُننه [كتاب اللِّباس/ باب ما جاء في الكِبْر- الحديث رقم (٤٠٩٠)- ص٦١١]، وابن ماجه في سُننه [كتاب الزُّهد/ باب البراءة من الكِبْر والتَّواضع- الحديث رقم (٤١٧٤)- ص٦٩٤] عن أبي هُريرة ﵁، ولفظ أبي داود: «**قال الله ﷻ: الكبرياء ردائي؛ والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النَّار**».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «فيكون».
(٤) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «بلغ».

خاضعةٌ له، تظْهر عليْه كسْرة الخُضُوع وذلَّة العُبُوديَّة؛ وإن كان عزيزًا في نفْسه مهيبًا من بيْن أبْناء جنْسه.

فانْظر رحمك الله إلى صاحب الحال المُجْمل؛ وقلَّة نصيبه من شُعُوره بربِّه وجهْله بصفته، وجهْله أيضًا بنْفسه وصفتها؛ وما يجب عليْها في العُبوديَّة من قيامها بعُبوديَّته، ومن كونه اتَّصف بما ظهر لقَلْبه من العظمة [١٢١/ب] والجبرُوت، فظهر بما لا يملكه، ففاض عليْه من الأخلاق المُلائمة بجهْله من الصَّوْلة والنَّخْوة والطَّيْش.

ولولا الحلْم[١] من الله الكريم؛ والإمْهال لهذا العبْد الجاهل العديم: لخسفت[٢] به الأرْض؛ كما خُسف بقارون حيث ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾، وخرج على قوْمه في زينته؛ ولم يخْرج في أثْواب ذلَّته وتواضعه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾[٣].

عُوقب بنقيض قصْده، طلب العُلُوَّ؛ فهوى به طلبه إلى تُخوم الأرض، ولذلك جاء في الحديث: «**بينا رجلٌ يمْشي؛ إذ عَجِب بنفْسه في حُلَّةٍ يتبخْتر فيها، فخُسف به، فهو يتجلْجل في الأرْض إلى يوم القيامة**»[٤]؛ أو نحْو هذا.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «والحلم».

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «لخسف».

(٣) سُورة القصص: الآيات ٧٨-٨١.

(٤) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب أحاديث الأنبياء/ باب (٥٣)- الحديث رقم (٣٤٨٥)- ٢/ ١٠٨٣] عن عبد الله بن عُمر بن الخطَّاب ﷺ، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب اللِّباس والزِّينة/ باب تحريم التَّبختر في المشي مع إعجابه بثيابه- الحديث رقم (٢٠٨٨)- ٣/ ١٦٥٣-١٦٥٤] عن أبي هُريرة ﷺ، ولفظ مُسلم: «**بينما رجلٌ يتبختر؛ يمشي في بُرديه؛ قد أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**».

فنسأل الله العظيم: أن يَكْسِيَنا أثواب العُبُوديَّة؛ والتَّعظيم لمالك البريَّة، ويُوفِّقنا على ذُلِّ نُفُوسنا؛ وعزَّة ربِّنا ومعبُودنا، إنَّه أرْحم الرَّاحمين؛ وأكْرم الأكرمين، آمين.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحْبه؛ وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين[1].

---

(١) قُلتُ: كانت الرِّعاية لتقييد التَّعليق؛ وكانت العناية بهذا التَّحقيق: في بوجمبورا؛ عاصمة جُمهوريَّة بُوروندي؛ في شرق القارَّة الأفريقيَّة، في يوم السَّبت ٦ من شهر شوَّال ١٤٣٥هـ؛ الموافق ٢ أغسطس (آب) ٢٠١٤م.

قَاعِدَةٌ فِي الحُبِّ فِي اللهِ حَقِيقَةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحُبُّ في الله: التَّآلف والتَّحابب[١] في مشهد الرُّوح، وذلك لا يكون إلا بأن يذوق كُلٌّ من المُتحابَّيْن نصيبًا من المحبَّة الخاصَّة؛ بعد تحقيق مشاهد القلب من الإيمان بالغيب؛ ووُجود آثار الصِّفات من الفوقيَّة والكلام والعظمة والجلال وغير ذلك.

ومتى تآلفت القُلُوب في مشهدٍ من المشاهد: كان حُبًّا في الله حقيقة.

وأعلاه: التَّآلف في مشاهد الرُّوح من المحبَّة الخاصَّة المُشيرة إلى جمال حضرة الذَّات وكمالها، وهُو ما يستغرق الرُّوح حُبًّا وانجذابًا وتعظيمًا ونُصحًا في المُعاملة الخاصَّة، وائتمارًا في الأمر؛ واجتنابًا في[٢] النَّهي، وغير ذلك.

إذا عُلم ذلك؛ وأمكن وُجود التَّعارف في ذلك المشهد الخاصِّ ووُجود الرَّابطة في ذلك بين القُلُوب والأرواح: فمن وجد التَّآلف والتَّعارف في ذلك المعنى الخاصِّ بيْنه وبيْن الصِّدِّيقين المعروفين المنسوبين إلى المحبَّة والخُصوصيَّة - مثل الجُنيد وأقرانه - القائمين بحقيقة هذا الفنِّ؛ وصار يُحبُّهم حقيقة، ويأنس بذكرهم لوُجُود المُناسبة بيْنهم وبيْنه: فذلك من أعلى [١٢٢/أ] أقسام التَّحابِّ في الله؛ المُوجب لمحبَّة الله لعبْده.

كما قال رسول الله ﷺ مُخبرًا عن ربِّه تعالى: «**حقَّت محبَّتي للمُتحابِّين فيَّ**»[٣].

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «التجانب».

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «عن النهي» ولا يستقيم المعنى بذلك.

(٣) أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٢٢٠٠٢)- ٣٦/ ٣٢٦-٣٢٧] عن مُعاذ بن جبلٍ =

ورُبَّما يناله في الدُّنيا قبل الآخرة نصيبٌ من إظلالهم في ظلِّ العرش، فإنَّ المحبوبين دائمًا في ظلِّ العرش بقُلوبهم وأرواحهم، فإنَّه ورد: «**أين المُتحابُّون بجلالي؟ اليوم أُظلُّهم في ظلِّ عرشي؛ يوم لا ظلَّ إلا ظلِّي**»[١].

وذلك مُوجبٌ لوُجود المحبَّة حقيقة، فإنَّها رُبَّما كانت دعوى.

إذا عُلم ذلك: ففَوْق ذلك مرتبةٌ أعلى منْها في الحُبِّ في الله؛ وهي التَّعارف الرُّوحيُّ بين المُحبِّ وبين الأنبياء عليْهم السَّلام؛ القائمين بحقائق الخُلَّة والاصطناع والاجتباء، كالخليل عليه السلام؛ ومُوسى الكليم؛ وعيسى سيِّد الرُّوحانيِّين؛ ونوحٍ الباكي الخاشع من عظمة الله، ومحبَّة خطيب الأنبياء[٢]، وأخوانهم في الرِّسالة والنُّبوَّة.

= رضي الله عنه، ولفظه: (عن أبي إدريس العيذيِّ أو الخولانيِّ قال: جلست مجلسًا فيه عشرُون من أصحاب النَّبيِّ ﷺ، وإذا فيهم شابٌّ حديث السِّنِّ حسن الوجه أدعج العينيْن أغرُّ الثَّنايا، فإذا اختلفوا في شيءٍ فقال قولًا انتهوا إلى قوله، فإذا هُو مُعاذ بن جبلٍ، فلمَّا كان من الغد جئت فإذا هُو يُصلِّي إلى ساريةٍ، قال: فحذف من صلاته ثُمَّ احتبى فسكت، قال: فقُلت: والله إنِّي لأُحبُّك من جلال الله. قال: آلله؟ قال: قُلت: آلله. قال: فإنَّ من المُتحابِّين في الله - فيما أحسب أنَّه قال - في ظلِّ الله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه - ثُمَّ ليس في بقيَّته شكٌّ؛ يعني في بقيَّة الحديث -، يُوضع لهم كُرَّاسيُّ من نُورٍ، يغبطهم بمجلسهم من الرَّبِّ عز وجل النَّبيُّون والصِّدِّيقُون والشُّهداء. قال: فحدَّثته عُبادة بن الصَّامت فقال: لا أُحدِّثك إلا ما سمعت عن لسان رسول الله ﷺ: حقَّت محبَّتي للمُتحابِّين فيَّ، وحقَّت محبَّتي للمُتزاورين فيَّ، وحقَّت محبَّتي للمُتباذلين فيَّ، وحقَّت محبَّتي للمُتصافين فيَّ المُتواصلين - شكَّ شُعبة في المُتواصلين أو المُتزاورين -).

(١) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب البرِّ والصِّلة والآداب/ بابٌ في فضل الحُبِّ في الله- الحديث رقم (٢٥٦٦)- ٤/ ١٩٨٨] عن أبي هُريرة رضي الله عنه، ولفظه: «**إنَّ الله يقول يوم القيامة: أين المُتحابُّون بجلالي؟ اليوم أُظلُّهم في ظلِّي يوم لا ظلَّ إلا ظلِّي**».

(٢) قال ابن كثيرٍ في [البداية والنِّهاية ١/ ٤٢٩]: (وكان بعض السَّلف يُسمِّي شُعيْبًا: خطيب الأنبياء، يعني لفصاحته وعُلُوِّ عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته).

وانظر: جامع البيان للطَّبريِّ [١٢/ ١٠٥]، ومُستدرك الحاكم [كتاب تواريخ المُتقدِّمين من الأنبياء والمُرسلين/ ذِكْر شُعيْبٍ النَّبيِّ ﷺ- رقم (٤٠٧١)- ٢/ ٦٢٠].

فإذا انبعث من القلب التَّأليف بهم؛ والأنس بذكرهم؛ والشَّوق إلى لقائهم: فذلك من الأقسام العالية في الحُبِّ في الله، ومن علامات وُجُود المحبَّة في المُحبِّ بغير دعوى ولا تكلُّفٍ.

إذا عُلم ذلك؛ وعُرف أنَّ من علامات وُجُود المحبَّة وُجُود النِّسبة بين المُحبِّ وبين المُحبِّين؛ والتَّآلف معهم بتلك الرَّابطة: فأعلاهم من وَجَد ذَوْق الحُبِّ في الله مع مُحمَّدٍ ﷺ، أو ذلك شُعُور القلب ببارقةٍ من نصيبه الخاصِّ من الخُلَّة والمحبوبيَّة مع ربِّه، فإنَّه أكمل الأنبياء محبَّة؛ وأعلاهم خُلَّة، وهُو الحبيب والخليل، كما قال ﷺ: «**لكن صاحبكم خليل الله**»(١).

فإذا شعر القلب بنصيبه مع ربِّه؛ ثُمَّ وجد الشَّاعر بذلك تآلفًا برُوحه معه فيما يشعر به من وَجْده بربِّه: فذلك أعلى أقسام الحُبِّ في الله.

وعند ذلك يصير حال العبد مُحمَّديًّا حقيقة، إذا اتَّصل بحال نبيِّه؛ وامْتَحت رُؤية شيْخه الذي أوصله إلى النَّبيِّ ﷺ من بيْن يديْه، ونظر إلى النَّبيِّ ﷺ من مشكاة نفسه لا من مشكاة شيْخه.

فإنَّه رُبَّما نظر المُريد في الابْتداء إلى الرَّسول من طاقة(٢) شيْخه حتَّى رُبَّما تكيَّف الرَّسول ﷺ أحيانًا في سرِّه بكيْفيَّة شيْخه.

وإذا ارتقى إلى هذه الرُّتْبة صعد عن الوسائط إلى الرَّسول ﷺ؛ وتلقَّى منه الحُبَّ الخاصَّ، وتآلفت رُوحه مع رُوحه حقيقة؛ كما تلقَّى منْه عُلوم الأحكام والسُّنن والآداب والشَّريعة، فتلك كيفيَّةٌ مُنوَّرةٌ ذات أنوارٍ.

والتآلف في [١٢٢/ب] الحال معه ﷺ كيْفيَّةٌ جاذبةٌ مأخوذةٌ من معادن

---

(١) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب فضائل الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم/ باب من فضائل أبي بكرٍ الصِّدِّيق ﷺ- الحديث رقم (٢٣٨٣)- ٤/ ١٨٥٥] عن عبد الله بن مسعودٍ ﷺ، ولفظه: «**لو كُنت مُتَّخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتَّخذت ابن أبي قُحافة خليلًا، ولكن صاحبكم خليل الله**».

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «من من طاقة».

الخُلَّة والاصْطناع والاجْتباء بانْجذاب الرُّوح، ووُجُود المحبوب الأصليّ المُتعارف فيه حقيقةً بتلك الصِّفة المُوجبة لذلك، كما قيل[١]:

وَمَـا هُـوَ إِلا أَنْ ظَـهَـرْتِ لِنَـاظِـرِي بِأَكْمَلِ أَوْصَافٍ عَلَى الحُسْنِ أَرْبَتِ

فَحَلَّيْتِ لِيَ البَلْوَى

- يعني الانجذاب في المحبَّة والتَّعظيم؛ وهُو ابتلاء السِّر -

.... فَـخَـلَّـيْـتِ بَـيْـنَـهَـا وَبَيْنِي فَكَانَتْ مِنْكِ أَجْمَلَ حِلْيَتِي

فإذا عُلم أنَّ أعلى المشاهد: مشاهد الرُّوح؛ لأنَّها تُوجب المحبَّة والانجذاب إلى المحبوب، فما أحسنها حالة ورابطة بين المُحبِّ والمحبوب، وما أشرفها نسبة.

فلو قال القائل: كيف الطَّريق إلى دوامها؟

الجواب: الحسُّ الظَّاهر هدفٌ للعوارض المُشغلة للقُلُوب بواسطة الحواسِّ الخمسة، فالقلب يشتغل تارة بما يرى أو بما يسمع، وأمثال ذلك.

والقلب هدفٌ لخواطر النَّفس من الإرادات والعَلَق[٢]، فإذا كان هُناك خميرةٌ من الحُبِّ تحجبها[٣] العوارض؛ فالطَّريق إلى تنْميتها وظُهورها: حَسْم موادِّ التَّفرُّق الظَّاهرة بالعُزْلة، وحَسْم موادِّ العوارض الباطنة بحفظ الخواطر واستخراج اللَّطيفة الإنسانيَّة من بحر الطَّبْع.

فإذا وُجدت فتعليقها بالمحبوب والأحوال الخاصَّة في الأنبياء والصِّدِّيقين تُؤنس الرُّوح في ذلك المعنى الخاصِّ، كما أنَّ الموادَّ العلميَّة الشَّرعيَّة تُؤنس القُلُوب في دائرة الإيمان.

---

(١) القائل هُو: ابن الفارض؛ عُمر بن عليِّ بن مُرشدٍ الحمويُّ؛ كما في ديوانه.
(٢) أي: الهوى.
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «يحجبها».

والله[١] المُستعان؛ وعليه التُّكلان.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّد وآله وصحبه وسلَّم[٢].

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «وبالله».

(٢) قُلتُ: كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: على متن الطَّائرة الأثيوبيَّة؛ التي أقلَّتني من مطار أديس أبابا الدَّوليّ؛ إلى مطار الكُويت الدَّوليّ، في يوم السَّبت ٦ من شهر شوَّال ١٤٣٥هـ؛ الموافق ٢ أغسطس (آب) ٢٠١٤م.

قَاعِدَةٌ فِي ذِكْرِ أَسْبَابِ المَحَبَّةِ للهِ تَعَالَى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فصلٌ: الأسباب التي تتركَّب منها محبَّة الله تعالى

إذا شاهد معرفته ومعرفة نعمته وآلائه والتَّفكُّر فيها، والتَّفكُّر في مصنوعاته وحِكَمه الخفيَّة في المخلوقات؛ مثل التَّفكُّر في أسباب موادِّ غذاء الحيوانات من القَطْر والنَّبات، وفي حِكَم آلات الاغتذاء بها من الأضراس والحُلْقُوم والأمعاء وغير ذلك.

وفي أسباب التَّوالد والتَّناسل وآلاته وأوعيته والحِكَم المُودعة [١٢٣/أ] فيه، والشَّهوة المُركَّبة في الذَّكر والأُنثى؛ وكَوْن الشَّهوة هي سبب ذلك الاجتماع الذي لولا الشَّهوة لعافته النُّفوس، ثُمَّ أوعية الحمل والقُدرة الإلهيَّة والرَّحمة الظَّاهرة في الخَلْق، ثُمَّ في الولادة وتوسيع الأماكن الضَّيِّقة.

وفي الحكمة من احتياج البعض إلى البعض في المعايش والصِّناعات وكَوْن الافتقار لها سببًا لحرص كُلِّ صاحب صنعةٍ على إقامة صنعته، وكيف يستفيد ذلك بالصَّنعة ويرتفق بها، ويستفيد صاحب الصَّنعة بأُجرة صنعته أو ثمنها.

أو غير ذلك من الحِكَم الإلهيَّة والرَّحمة الظَّاهرة في الخَلْق؛ من الرِّياح الدُّوَايَة(١) والسُّحب الماطرة والشَّمس والقمر والنُّجوم، وما تتضمَّنه من المنافع بطريق الذَّات؛ كالحرارة في الشَّمس، والبُرودة والنُّور في القمر، وبطريق

(١) أي: السَّافية التي تحمل التُّراب وتُلقيه وتذُرُّه.

العرض والاهتداء أو معرفة الفُصول، ثُمَّ تسخير[١] المراكب في البحر الزَّاخر المُكَرِّي[٢] لِجَلْب منافع الآدميِّين في تجاراتهم، والدَّوْلِيَّة[٣] المحسوسة في هذا الكَوْن لقيام أسباب المخلوقات، وذلك بحرٌ عميقٌ للمُتفكِّرين.

ومن أسباب المحبَّة: الإيمان بصفاته المُقدَّسة الواردة في التَّنزيل؛ من حياته وعلمه وقُدرته وكلامه وسمعه وبصره وإرادته ومشيئته وعُلوِّه وفوقيَّته ووجهه الكريم ذي[٤] الجلال والإكرام الذي ليس كمثله شيءٌ، ولا تُشبَّه[٥] صفاته بشيءٍ، ومن نُزوله إلى سماء الدُّنيا رحمة لعباده وقُرْبًا إليْهم ليُجيب داعيهم ويقبل توبة تائبهم، ومن معيَّته مع عباده وقُرْبه منهم ورحمته لهم، ومن رُؤيته يوم القيامة في عرصات القيامة وبعد دُخول الجنَّة كما يُرى القمر ليلة البدر لا يُضامون[٦] في رُؤيته، ومن تجلِّيه ضاحكًا، ومن كلامه يوم القيامة لعباده.

ومن الأسباب المُوجبة للمحبَّة أيضًا: الصِّفات التي تدلُّ على كماله، فإنَّ الكمال أيضًا من مُوجبات المحبَّة، وهي قهره وانتقامه من أعدائه وشدَّة بطشه وعظمته وهيْبته وسُلطانه وكبريائه وجبروته وجلاله، فذلك أيضًا دالٌّ على كماله، فهُو يُوجب الخوف والمهابة من وَجْهٍ؛ ويُوجب المحبَّة والتَّعظيم من وَجْهٍ آخر وهُو وَجْه الكماليَّة.

ومن الأسباب: تلاوة كلامه العزيز بالتَّدبُّر، كأنَّه يسمعه من مُتكلِّمه

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «تستخير».
(٢) أي: السَّيْر اللَّيِّن البطيء.
(٣) أي: الانقلاب من حالٍ إلى حالٍ.
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «ذو».
(٥) في النُّسخة الخطيَّة: «يشبه».
(٦) يُروى بتشديد الميم من الضَّمم بمعنى: لا ينضم بعضكم إلى بعضٍ فيُزاحمه في رُؤيته، ويُروى كذلك بتخفيف الميم من الضَّيْم بمعنى: لا يظلم بعضكم بعضًا في رُؤيته.

يُخاطِب به نبيَّه ﷺ، ويقف على مفهوم خطابه من وعده ووعيده؛ وترغيبه وتحذيره، وتتجلَّى منه تجلِّياته المُقدَّسة التي تقدَّم [١٢٣/ب] ذِكْرها، فذلك مفتاح المعرفة ومُهيِّجٌ للحُبِّ والتَّعظيم بمشيئة الله تعالى وعَوْنه.

ومن الأسباب المُوجبة للمحبَّة: التَّوبة إليْه، وطاعته واتِّباع أوامره واجتناب نواهيه، والنُّصح في مُعاملته، وأن يتَّخذ دائمًا عنده عُبوديَّة مُدَّخرة؛ كدرهمٍ يتصدَّق به لوجهه الكريم، أو ركعتيْن يُصلِّيها لوجهه الكريم، أو يقضي حاجةً لأخيه المُسلم لوجهه الكريم، أو يُنفِّس عن مكروبٍ لوجهه الكريم.

ومن الأسباب المُوجبة للمحبَّة من الطَّرفيْن: اتِّباع سُنَّة رسول الله ﷺ؛ والاقتداء به في أخلاقه وفي أفعاله وسُننه وآدابه، بحيث يجعل طريقته سُنَّة الرَّسول ﷺ، فذلك مُوجبٌ للمحبَّة من الطَّرفيْن، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[١].

ومن الأسباب: دوام ذكر الله تعالى؛ ومُراقبته والحياء من نظره، وانْجِمَاع الهمِّ على إرادته، واستشعار القُرْب من عِلْمه وبصره، فبذلك تتأكَّد بعَوْن الله المعرفة، والمعرفة مُوجبةٌ للمحبَّة، وبهما يحيا موات القُلُوب؛ بوابل قَطْر أذكار علام الغُيوب.

فصلٌ

والأسباب المُوجبة لمحبَّة الله تعالى لعبده بعد مشيئته أيضًا: ما سبق ذِكْره، ويحصل كمالها بمشيئة الله تعالى بتحقيق التَّوبة ظاهرًا وباطنًا في الحركات والخطرات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾[٢]

---

(١) سُورة آل عمران: الآية ٣١.
(٢) سُورة البقرة: الآية ٢٢٢.

وبالعدل في الظَّاهر والباطن فيما يقوله ويفعله ويخطر له، قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(١).

وبالصَّبر على مكروهات الأوامر والنَّواهي، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٢).

وبالإحسان ظاهرًا وباطنًا؛ وهي مرتبةٌ فوق العدل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾(٣).

وهُو الإحسان الزَّائد على ما يجب شرعًا في الأقوال والأفعال والهُمُوم والخواطر بيْنه وبيْن ربِّه؛ وفيما بيْنه وبيْن العباد، قال الله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٤).

ثُمَّ من الأسباب: التَّوجُّه إلى حُصُول محبَّة الله تعالى له، ومن كان مُتوجِّهًا إلى ذلك: فإنَّه يطلب مراضي من يطلب محبَّته له بكُلِّ مُمكنٍ، ويجتنب مساخطه، ويحفظ دبيب الخواطر في سرِّه حذرًا أن يجري فيها مكروهٌ فيُمقت؛ ولا تحصل له المحبَّة منه بذلك المكروه، فهُو أبدًا يعمل على طهارة القلب عن الأدناس، ويُسارع إلى مراضي الرَّبِّ تعالى بكُلِّ مُمكنٍ.

فإذا فتح الله تعالى له بهذه الهمَّة وبهذه الأعمال؛ ورُزق [١٢٤/أ] دوام الاستعانة بمولاه على حُصُول هذه المرتبة، ومضت عليه الأيَّام والشُّهُور والأعوام؛ ووجده قائمًا فيها بالأوامر مُنْتهيًا عن الزَّواجر، طاهر السِّرِّ عن الهيئات المُؤخِّرة المُبعدة، لا يُوجد منه إلا الطَّهارة ظاهرًا وباطنًا: فمِثْل هذا يُرجى أن تناله هذه الرَّحمة الخاصَّة برحمة الله تعالى ومشيئته، ولا يستبطئها ولو بعد حينٍ.

(١) سُورة الحُجرات: الآية ٩.
(٢) سُورة آل عمران: الآية ١٤٦
(٣) سُورة النَّحل: الآية ٩٠.
(٤) سُورة البقرة: الآية ١٩٥.

ولها علاماتٌ، فمنها: الحفظ عند الاستشراف إلى النَّقْص والجفاء، وحمايته عن الهنَّات في ظاهره وباطنه، ودوام تجلِّي الرَّحمة الخاصَّة الجماليَّة الجلاليَّة على رُوحه، والتَّعريف الخاصّ له بما يُراد منه في أغلب الأوقات في النَّوم واليقظة، موزونًا بالكتاب والسُّنَّة، يستخير في أمرٍ فيُمنع منه؛ أو يُيسَّر له: فيعلم أنَّ ذلك برضا سيِّده ومولاه وحبيبه، ويُوقظ عند الفرائض إذا حصلت منه غفلةٌ، وتُلقى(١) له المحبَّة في قُلوب الأولياء أهل الصَّفوة، ورُبَّما كان ذلك عامًّا؛ وقد لا يكون.

وهُناك أُمورٌ كثيرةٌ من علامات ذلك لا تنضبط، وجُملتها: أن يُوجد في القبضة، ويُتولَّى في الجُزئيَّات والكُلِّيَّات، لا بمعنى أنَّه يبقى معصومًا، بل لا بُدَّ أن يجري عليْه بحُكْم البشريَّة الهنَّات، ويُوجد منه عندها الكآبة والنَّدم والتَّوبة مع مُشاهدة الأقدار والأحكام، فيعبد مولاه بالتَّوبة في مُقابلة الذَّنْب، ويستجير برحمته من نقمته وسخطه، مُستعينًا به في مُقابلة القَدَر والحُكْم.

وفي الجُملة؛ فالله تعالى وليُّه وكافله ومُتولِّي حركاته، وهذا المعنى هُو ما وَرَد: فبه يسمع؛ وبه يُبصر؛ وبه يبطش(٢)، أي: يتولاه مولاه في ذلك كُلِّه.

فنسأل الله أن يجعلنا منهم بمنِّه وكرمه ورحمته.

آمين.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يُلقى».

(٢) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الرِّقاق/ باب التَّواضع- الحديث رقم (٦٥٠٢)- ٤/ ٢٠٣٩] عن أبي هُريرة رضي الله عنه، ولفظه: «إنَّ الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتَّى أُحبَّه، فإذا أحببته كُنت: سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأُعطينَّه، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه، وما تردَّدت عن شيءٍ أنا فاعله تردُّدي عن نفس المُؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته».

والحمد لله ربِّ العالمين.

وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا(١).

(١) قُلتُ: كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: على متن الطَّائرة الهنديَّة؛ التي أقلَّتني من مطار الكُويْت الدَّوليّ؛ إلى مطار مُومْبَاي الدَّوليّ، في يوم الخميس ١١ من شهر شوَّال ١٤٣٥هـ؛ الموافق ٧ أغسطس (آب) ٢٠١٤م.

قَاعِدَةٌ فِي أَسْبَابِ مَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَى ومعرفتِه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وأسباب معرفتِه[١]: الإيمان بما أنزل على رسوله ﷺ، ومعرفة سيرة الرَّسول ﷺ، ومُعجزاته، وغزواته، وابتداء نُبوَّته، فبذلك يعلم عِظَم شأن النُّبوَّة.

ومتى عُلمت النُّبوَّة ورسخت في القُلوب: كان من لوازمها معرفة الرَّبِّ العظيم المُرْسِل، لأنَّ النُّبوَّة والرِّسالة آياته وبيِّناته ودلالالته وتعريفاته [١٢٤/ب] لمن اتَّبع فهمه وصفا وأحبَّ ذلك.

وأمَّا من أحبَّ الدُّنيا ومناصبها: فإنَّه يضيق قلبه عن شهوة المعرفة، ومن ضاق قلبه عن شيءٍ لم يستعدَّ له ولم يتجاوز صُورة الشَّريعة وظواهر أحكامها إلى حقائق أسرارها ومعارف الرَّبِّ تعالى منها، فلا يُشرق في قلبه أنوار الأسماء والصِّفات ولا حِكَم الأفعال.

ومن أحبَّ معرفة الله تعالى وعزفت نفسه عن الدُّنيا ومناصبها وشهواتها: صعد من ظاهر السُّنَّة إلى باطنها، وعرف المُراد من الرِّسالة، وهُو النُّور المُستجنُّ في ضمن الشَّرائع والأحكام، فهي سِتْرٌ على النُّور، فمن خرقه باشر قلبه بعَوْن الله تعالى صفو الإيمان، وعرف الرَّبَّ تعالى - الباعث للأنبياء بشرائعه وأحكامه - بأسمائه وصفاته وأفعاله، بحيث تلوح آثارها في قلبه المُرتاض المُطهَّر المُحبِّ العارف الزَّاهد في الشَّهوات والرِّئاسات، المعمور بالقُرَب والطَّاعات.

---

(١) أي: معرفة الله تعالى هي أحد أسباب محبَّته.

ومتى عرف أحبَّ، ومتى أحبَّ لزم من المحبَّة الطَّاعة، فإنَّ المُحبَّ مُطيعٌ لمن أحبَّه فيما أمره به ونهاه عنه.

ومن لوازمها: دوام التَّقرُّب والمُعاملة، فإنَّ المُحبَّ مُتحرِّكٌ إلى من أحبَّه بظاهره وباطنه.

ومن لوازمها: الرِّضا عنه، فإنَّ المُحبَّ راضٍ عمَّن أحبَّه؛ وإن جاء منه ما يسُوؤُه في الشَّاهد، فكيف بمن لا يختار لعباده ومُحبِّيه إلا الأصلح؛ ولا يقضي لهم قضاء إلا كان خيرًا لهم؛ وإن خفي ذلك عنهم في الظَّاهر؟ فهُم لا يتَّهمونه في أقضيته، ويُؤمنون بحِكَمها ومصالحها.

ومن لوازمها: طلب محبَّته، فإنَّ ذلك من أكبر بُغية المُحبِّين.

ومن لوازمها: دوام الاستعانة، فإنَّ معرفة الاقتدار؛ وصحَّة طالب محبَّة الله تعالى له؛ والرِّضا بكُلِّ حالٍ عنه؛ والاستعانة في كُلِّ مطلوبٍ منه به؛ والطَّاعة له فيما أمر في ظاهر الجسم وفي دبيب الخواطر: يُرجى أن يستعدَّ بذلك لمحبَّة المولى الكريم - إذا شاء - لزوال أسباب(١) المقت والإعراض من العبد، فإنَّ أسباب المقت والإعراض والبُغض منها: الإعراض، وهذا مُقبلٌ بطلبه لمحبَّته لمولاه له، فيستحقُّ إذا شاء أن يُقبل بالمحبَّة عليْه.

ومنها: السَّخط بالمقادير، فيستحقُّ إذا شاء أن يرضى عنه، والرِّضا بساط المحبَّة منه له.

ومنها: الاستبداد وإظهار القُوَّة والغنى(٢)، وهذا مُستعينٌ [١٢٥/أ] مُفتقرٌ، ويستحقُّ أن يُعان ولا يُوكل إلى غيره.

ومنها: تدنُّس الظَّاهر أو الباطن بشيءٍ من المُخالفات أو ترك المأمورات، وهذا طائعٌ، والطَّائع يستحقُّ إذا شاء أن يُرحم، والرَّحمة من موادِّ المحبَّة.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «الأسباب».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «العنا».

فجُملتها: الإرادة؛ والرِّضا؛ والاستعانة؛ والطَّاعة.

وإنَّما جاء التَّرتيب هكذا لأنَّه في أعلى المراتب، فنذكر مرتبة مرتبة؛ ثُمَّ الذي يليها، ولو كان في البداية لانعكس التَّرتيب، وكان حال المُبتدئ أوَّلًا الطَّاعة، ثُمَّ إذا انكشفت الأقدار: كان حاله الاستعانة، ثُمَّ إذا اضطربت النُّفوس في الأحكام: الرِّضا، ثُمَّ إذا لاحت الحقائق: الإرادة.

والله[1] المُستعان، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم[2].

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «وبالله».

(٢) قُلتُ: كان الفراغ من تقييد التَّعليق، وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في مطار مُومْبَاي الدَّوليّ، في يوم الجُمعة ١٢ من شهر شوَّال ١٤٣٥هـ؛ الموافق ٨ أغسطس (آب) ٢٠١٤م.

قَاعِدَةٌ فِي مَقَاصِدِ السَّالِكِينَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي ملكوت كُلِّ شيءٍ بيديْه، وهُو يُجير ولا يُجار عليْه، ويصير الكُلُّ بعد فنائه إليْه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله البريَّات، وقيُّوم الأرض والسَّماوات.

وأشهد أنَّ مُحمَّدًا ﷺ صفوة الأُمم والمخلوقات، المبعوث بأوضح البيِّنات، صلَّى الله عليْه وعلى آله ممرَّ الدُّهور والأوقات.

مقاصد السَّالكين تتنوَّع أنحاؤها، وتختلف غاياتها.

فمنهم: من تقف به همَّته على الأمر المطلوب؛ من أشرف الأحوال وأكمل الأسباب.

ومنهم: من ينحرف قصده فيضيع سَعْيُه وينقص فضله، فالمُنحرف من القاصدين يقصد فضيلة الحال ورئاسته ليرتقي عن نَقْص الإفلاس؛ ويكون من أهل الأنفاس، فيعظم بذلك عند نفسه قَدْرُه، وعلامته: أن يزدري بمن لا يُفْطَنُ؛ ولا يُوفِّيه حقَّه.

ومنهم: من يطلب نُفوذ الكلمة والتَّصرُّف في الأكوان والتَّأثير في المخلوقات.

ومنهم: من يطلب رئاسة استتباع الخَلْق له وعُكُوفهم عليْه؛ وإشارتهم إليْه.

ومنهم: من يطلب بذلك جمع الحُطام؛ والتَّأكُّل بدينه وحاله عند الأنام.

قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) سُورة المائدة: الآية ١١٩.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[(١)].

والصَّادقون علامتهم[(٢)]: أن يفرُّوا إلى الله تعالى من نُفُوسهم وممَّا صنعت وفرَّطت في جنب الله، تستعدُّ بالتَّوبة النَّصُوح للقاء الله تعالى لتقرَّ عيْنها بلقائه، ولتلقاه بوَجْهٍ أبْيض يوم تسودُّ وُجوه أعدائه [١٢٥/ ب].

لا يزال كذلك حتى يُشرق لها أنوار القُلُوب، وهي أنوارٌ تُنافِس بها، فتنهض بذلك إلى سُلوكٍ ثانٍ[(٣)] وهُو الطَّلب والإرادة لقُرْب الله تعالى، لأنَّهم في الأوَّل لَمَّا لاحت لهُم الآخرة هربوا من الذُّنُوب إليْها بالتَّقوى والطَّاعة، فلمَّا لاحت لهُم بوارق المطلوب فرُّوا من كُلِّ شيءٍ إليْه، وهُم في هذه الرُّتبة الثَّانية يعملون على تفضيل المُشاهدة القلبيَّة على العقائد الإيمانيَّة لينفذوا من دينهم إلى أحوالهم، ومن أحوالهم إلى دينهم، بحيث لا يَبْقى دينهم من صَوْبٍ؛ وحالهم من صَوْبٍ آخر، فلا يزالون كذلك حتَّى يكمل لهُم التَّفضيل ويرتقون إلى المُشاهدة - السِّرِّ الجامع بجميع المشاهد والصِّفات -.

ثُمَّ يعملون على ثبات قدمهم على دوام الكشف لهُم، فإنَّ أشقَّ شيءٍ على المُحبِّين غَيْبة محبوبهم عنهُم، فإذا دام لهُم عملوا على العُبوديَّة وتحقيق مبانيها في حضرة مشهودهم من الحياء والمهابة والخوف والتَّعظيم والمحبَّة، فإن تلوا القُرآن كأنَّهم يسمعونه منه، وإن قاموا بوظيفةٍ من وظائف أوامره حقَّقوا هيئتها وحضروا مع معناها، وإن أنعم عليْهم شكروا، وإن أذنبوا رجعوا واستغفروا، وإن أُمروا ائتمروا، وإن نُهوا انتهوا، وإن ابتُلوا رضوا وصبروا وبثُّوا أمرهم إليْه؛ مُستغيثين به من بلائه، مُستعينين به على إقامة عُبوديَّته.

فإذا كمل ذلك بتوفيق الله صعدوا إلى سُلوكٍ آخر وبدايةٍ أُخرى؛ وهُو العمل على محبَّة الله تعالى لهُم ورضاهُم عنه، وهذا يقتضي سُلُوكًا دقيقًا وتقْوى عميقًا

---

(١) سُورة التَّوبة: الآية ١١٩.

(٢) في حاشية النُّسخة الخطِّيَّة: «مطلبٌ: في علامة السَّالك الصَّادق».

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «ثاني».

في القُلوب والأسرار، لأنَّها محلُّ نظر الحقِّ تعالى، فيصُونُونها[١] عن دقائق المكروهات ودبيب الخطرات، يقصدون بذلك حقيقة الطَّاعة له، ويهربُون بذلك عن خفايا المعصية له، ويظهر منهُم بذلك حقيقة المحبَّة له.

فهؤلاء غاية أملهم رضا مولاهُم عنهُم ومحبَّته لهُم، ويطلُبُون مع ذلك عافيته وكفايته كي لا ينقطعوا[٢]، وحينئذٍ يشرعُون في سُلُوك المُحبِّين.

ولهُم ذُنُوبٌ خاصَّةٌ نذكر من ذلك طرفًا[٣].

اعلم أنَّك إذا أردت تقليل شيءٍ[٤] من طاعةٍ أو معصيةٍ أو خيْرٍ أو شرٍّ: فأنت بمُجرَّد إرادتك لذلك المعنى معه لا تُفارقه[٥]، فأنت بإرادتك لصلاةٍ تكون [١٢٦/أ] معها؛ أو لفاحشةٍ تكون معها، فالإنسان بإرادته يكون مُصلِّيًا وعابدًا وعاصيًا ومُغتابًا وزانيًا وشاربًا ولائطًا، لأنَّ الحقيقة الباطنة قارنت ذلك الفعل وإرادته، فإنَّ القُلُوب تَقْرُب من الأشياء وتمتزج بها بمُجرَّد الإرادة.

وليست القُلُوب كالأجسام يكون بيْنها وبيْن الجسم الآخر مسافةٌ، فإنَّ القُلُوب متى أرادت وعرفت طريق إرادتها لم يكن بيْنها وبيْن ما أرادته مسافة بالباطن؛ وإن كانت بالجسم مستورة عنه.

فالقُلُوب تحجُّ[٦] وتُصلِّي وتتصدَّق وتُزكِّي وتعرج في السَّماوات، وتكون بيْن يدي مولاها؛ ومع الرَّسول ﷺ.

وكذلك تكون في الضِّدِّ من القبائح: تكفر وتبتدع وتفسق وتلوط وتزني وتكون مع المرأة تُضاجعها وتتلذَّذ بها وتنظر إلى فرجها بالحقيقة الإنسانيَّة، ومع الصَّبيِّ يُعانقه ويُضاجعه وينظر إلى عورته ويُباشره.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «فيصونوها».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «ينقطعون».
(٣) في حاشية النُّسخة الخطِّيَّة: «مطلبٌ: ولهُم ذُنوبٌ».
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «شيئًا».
(٥) في حاشية النُّسخة الخطِّيَّة: «بلغ».
(٦) في النُّسخة الخطِّيَّة: «فالمطلوب يحجُّ».

فاعلم أنَّه لو كُشف للعبد عن حقيقة الإنسانيَّة حين إرادته لشيءٍ من ذلك وعُكُوفه بقلبه عليْه: وجد حقيقته مع ذلك الشَّيء بالمعنى والحقيقة؛ وإن كان غائبًا عنه بالجسم، بحيْث لو مات الإنسان في تلك الحالة كان ذلك خاتمته، ولقي الله تعالى مُتلطِّخًا بباطنه بذلك مُتنجِّسًا به.

ومِثْل هذه الذُّنُوب تهُون[1] على العامَّة والعُبَّاد، فإنَّهم يقُولُون: ما عملنا شيئًا بأجسامنا، فيتُوبُون من ذلك وتُقبل توبتُهم ما لم يُحدثُوا أو يعملُوا.

وأمَّا المُحبُّون لله تعالى العارفون به الذين قد صارت قُلُوبهم محلَّ نظره ومُشاهدته: يرون اليسير من ذلك أمثال الجبال الرَّاسية، فهُم يحذرون على قُلُوبهم التي هي محلُّ السِّرِّ الإلهيِّ أن تتنجَّس أو تتلطَّخ بشيءٍ من القاذُورات والنَّجاسات؛ كما يخافون سَدَنَة قصر المَلِك على محلِّ نظر المَلِك ومجالسه: يسير الأنجاس والأقذار، ويُبادرُون إلى غَسْل اليسير من ذلك وتنظيفه تطهيرًا لمواطن مجالس المَلِك ومحالِّ نظره.

وقُلوب المُحبِّين عرش الرَّحمن[2]، أي: عرشٌ لعظمته ومحبَّته وهيْبته ومخافته، وهُو عرشٌ للمَثَل الأعلى، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ [١٢٦/ب] فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3]

فذلك المَثَل به يُعرف الله تعالى؛ وبه يُعبد؛ وبه يُخاف؛ وبه يُهاب، وهُو محلُّ المعرفة من قُلوب العارفين.

فيصُونُون محلَّ المَثَل عن مِثْل هذه الخطرات السَّيِّئة والهمم الدَّنيَّة، كيْ لا يتنجَّس محلُّ النُّور الأعظم، ولأنَّها بيْن يديْه فهي مُستخفيةٌ من نظره واطِّلاعه أن يجد في قُلُوبهم ما يكرهُه ويمقته ويُبغضه، وهُم على قدم طلب محبَّته لهُم

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «يهُون».

(٢) في حاشية النُّسخة الخطِّيَّة: «مطلبٌ: وقُلوب المُحبِّين».

(٣) سُورة الرُّوم: الآية ٢٧.

ورضاه عنهُم، وذلك يُنافي قصدهم، ولأنَّهم يرون أنَّ عمل القلب أبلغ من عمل الظَّاهر من الخيْر والشَّرِّ من وجهٍ، لأنَّ الظَّاهر تبعٌ للباطن، والجوارح آلات الحقيقة الإنسانيَّة، فلذلك صار أبلغ من عمل الجوارح من وَجْهٍ، إلا أنَّ في عمل الجوارح يكُون قد كمل الفعل بظاهره وباطنه وقلبه ورُوحه وجسده، فلذلك يجب حينئذٍ عُقوبته الشَّرعيَّة من الحدِّ والتَّعزير وغيره.

ومن انتهى به سُلوكه من التَّوبة إلى المعرفة؛ ومن المعرفة إلى التَّفضيل(١) الشَّرعيِّ ثُمَّ إلى العُبُوديَّة وأقسامها ومراتبها، ثُمَّ إلى طلب محبَّة المولى الكريم لعبده: فإنَّه يُطيعه باطنًا ويتَّقيه بقلبه حقَّ التُّقى لينال بذلك محبَّته له، يحفظ سرَّه من الحُبِّ والبُغض لغير الله؛ ومن الرِّياء والكبر والحقد والحسد والخُيلاء والعُجْب؛ ومن جميع المكروهات، فإنَّ هذه الأشياء متى باشرت القلب: نظر الله إليْها في قلب العبد فيبعد بذلك عنه وعن محبَّته، ويُخشى من مقته له وإعراضه عنه، وتمتزج هذه الخبائث مع ذكر الرَّبِّ، وتُدنِّس نُور القلب، ويكون المُريد إذا أحبَّ شيئًا كرهه الله تعالى كشخصٍ: إحدى عينيْه مُلاحظةٌ للمَلِك؛ والأُخرى مُلاحظةٌ المُرحاضَ أو شيئًا من الرَّذائل المُبعدة، وذلك فضيحةٌ مع الله تعالى في سُلوكٍ؛ ووليجةٌ قبيحةٌ في طريق المُحبِّين.

أعاذنا الله وإيَّاكُم من مُوجبات غضبه وأسباب إعراضه ومقته.

آمين؛ يا ربَّ العالمين.

والحمد لله وحده.

وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين(٢).

---

(١) في النُّسخة الخطِّيَّة: «الفضيل».

(٢) قُلتُ: كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: على متن الطَّائرة الهنديَّة؛ التي أقلَّتني من مطار مُومْبَاي الدَّوليّ؛ إلى مطار كلكتا الدَّوليّ، في يوم الجُمعة ١٢ من شهر شوَّال ١٤٣٥هـ؛ الموافق ٨ أغسطس (آب) ٢٠١٤م.

قَاعِدَةٌ فِي بَيَانِ عَمَلِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لِلأَبْرَارِ وَيَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لِلسَّائِرِينَ إِلَى طَرِيقِ المُقَرَّبِينَ جَعَلَنَا اللهُ مِنْهُم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه الإعانة

اعِلْم وفَّقنا الله وإيَّاك لما يُحبُّه منَّا ويرضاه: أنَّ الأبرار هُم التَّوَّابُون، إذا انتبهوا من منامهم اهتمُّوا بإقامة أمر الله ﷻ؛ من الوُضُوء والصَّلاة كما أمرهم الله ﷻ.

فإذا صلُّوا صلاة الصُّبْح اشتغلوا بفُنُون الأوراد من التِّلاوة والتَّسبيح والتَّحميد والدُّعاء بما ثبت عن رسول الله ﷺ، ثُمَّ يقصدون مجالس العِلْم والمواعيد التي يُذكر فيها أمر الله ونهيه ووعده ووعيده وتفسير كلام الله وسُنَّة رسوله ﷺ، فتُشرق قُلُوبهم من قسوتها؛ وتتنوَّر أسرارهم بنُور العِلْم بعد جهلها، وتثُور فيها بواعث الخيْرات والمُسارعة إليْها مع المُسابقة لفَوْتها، فيتجدَّد على قُلُوبهم عزائم الصِّيام؛ والاجتناب للآثام؛ والصَّدقة والإطعام، ورُبَّما اشتاقوا إلى مُجاورة البيت المُكرم المُحرَّم؛ أو بيْت المقدس؛ لتَضاعُف الأعمال فيها، هذا ونُفُوسهم ميَّالةٌ تُسابقهم إلى الشَّهوات، وهُم يعبُدون الله تعالى بمنعها عن ذلك؛ واللَّوم لها إذا قارفت شيئًا من ذلك، وهُم أهل تودُّدٍ وتراحمٍ وتواصلٍ، يُعاشرون المُؤمنين بالرَّحمة والرِّفق وغير ذلك من الأخلاق المشروعة.

فإذا فرغوا من الميعاد ركعوا صلاة الضُّحى ودعوا ربَّهم في مهامِّ دينهم ودُنياهم وآخرتهم، ثُمَّ من كان منهم له سببٌ قَصَد نحوه ليتعفَّف به الخَلْق ويتصدَّق منه ويُؤْثر، وإن كان مُفطرًا أطعم شيئًا ممَّا رزقه الله تعالى من القُوت الحلال، لا يبرح كذلك إلى قريب الزَّوال، فينهض مُتهيِّئًا للصَّلاة بالوُضوء التَّام والقَصْد إلى التَّهجير كما وَرَد في السُّنَّة: «**ولو علموا ما في التَّهجير لاستبقوا إليْه**».

وقَصْد الصَّفِّ الأوَّل عن يمين الإمام، كما وَرَد: «**ولو يعْلَم النَّاس ما في النِّداء والصَّفِّ الأوَّل ثُمَّ لم يجدوا إلا أن يستهموا عليْه لاستهموا**»(١).

وكما وَرَد: «**إنَّ الله وملائكته يُصلُّون [١٢٨/أ] على مَيَامِين الصُّفوف**»(٢).

فإذا قامت الصَّلاة قام إلى الصَّفِّ وسدَّد الخَلَل كما وَرَد في السُّنَّة(٣)،

---

(١) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الأذان/ باب الاستهام في الأذان- الحديث رقم (٦١٥)- ١/ ٢٠٠]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب الصَّلاة/ باب تسوية الصُّفُوف وإقامتها وفضل الأوَّل فالأوَّل منها والازدحام على الصَّفِّ الأوَّل والمُسابقة إليْها وتقديم أُولي الفضل وتقريبهم من الإمام- الحديث رقم (٤٣٧)- ١/ ٣٢٥] عن أبي هُريرة ﵁، ولفظه: «**لو يعْلَم النَّاس ما في النِّداء والصَّفِّ الأوَّل ثُمَّ لم يجدوا إلا أن يستهموا عليْه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التَّهجير لاستبقوا إليْه، ولو يعلمون ما في العتمة والصُّبح لأتوْهُما ولو حَبْوًا**».

(٢) أخرجه أبوداود في سُننه [كتاب الصَّلاة/ باب من يُستحبُّ أن يلي الإمام في الصَّفِّ وكراهيَّة التَّأخُر- الحديث رقم (٦٧٦)- ص١١٠] عن عائشة ﵂.
قال البيهقيُّ في السُّنن الكُبْرى [كتاب الصَّلاة/ باب ما جاء في فضل ميمنة الصَّفِّ- ٣/ ١٠٣]: (والمحفوظ بهذا الإسناد عن النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ الله وملائكته يُصلُّون على الذين يَصِلُون الصُّفوف**»).
والحديث بهذا اللَّفظ: أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٢٤٣٨١)- ٤٠/ ٤٤٣].

(٣) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الأذان/ باب تسوية الصُّفُوف عند الإقامة وبعدها- الحديث رقم (٧١٧)- ١/ ٢٢٥]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب الصَّلاة/ باب تسوية الصُّفُوف وإقامتها وفضل الأوَّل فالأوَّل منها والازدحام على الصَّفِّ الأوَّل =

وعمل على قطع الخواطر في الصَّلاة، وعلى فهم ما يقول؛ ومع من يقول، فنفسه تجول[١] في الدُّنيا وأفكارها؛ وهُو يُجاذبها ويُدافع الخواطر، كُلَّما قرأ آية طالب نفسه بفهمها، وإذا ركع وسجد تواضع قلبه كما تواضع بدنه.

فإذا سلَّم انصرف - وهُو غاضٌّ لبصره حافظٌ للسانه، مُعرضٌ عن البطَّالين وأقران السُّوء - إمَّا إلى سببه الذي كان فيه أوَّل، وإن كان كُفِيَ المُؤنة نظر أفضل الأحوال على ما دلَّ عليْه العِلْم، فإن رآى جمعيَّته في العُزلة والعبادة قَصَد نحوها، وإن وجد مزيده في الميعاد واستماع العِلْم راح إليْه، وإن قصده أخٌ يستفيد منه أفاده؛ بشرط أن لا يتعاشروا، ولا يَبْرح كذلك إلى العصر، ومن العصر إلى المغرب، ومن المغرب إلى العشاء على هذا النَّمط، يُقدِّم الأَوْلَى فالأَوْلَى؛ والأفضل فالأفضل.

فإذا انصرف إلى منزله وقعد على فراشه لينام حاسب نفسه: هل ارتكب في يومه معصية؛ أو عمل عملًا مفضولًا من الخير وفوتَّ به على نفسه عملًا

= والمُسابقة إليْها وتقديم أُولي الفضل وتقريبهم من الإمام- الحديث رقم (٤٣٦)- ١/ ٣٢٤] عن النُّعمان بن بشيرٍ ﷺ، ولفظ مُسلم: (كان رسول الله ﷺ يُسوِّي صُفُوفنا حتَّى كأنَّما يُسوِّي بها القداح، حتَّى رأى أنَّا قد عقلنا عنه، ثُمَّ خرج يومًا فقام حتَّى كاد يُكبِّر فرأى رجلًا باديًا صدره من الصَّفِّ، فقال: عباد الله؛ لَتُسوُّنَّ صُفُوفكم، أو ليخالفنَّ الله بيْن وُجُوهكُم).

فهذا ما ورد في السُّنَّة الفعليَّة، وأمَّا ما ورد في السُّنَّة القوليَّة: فقد أخرج أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٥٧٢٤)- ١٠/ ١٧]، وأبوداود في سُننه [كتاب الصَّلاة/ باب تسوية الصُّفُوف- الحديث رقم (٦٦٦)- ص١٠٨] عن عبد الله بن عُمر بن الخطَّاب ﷺ، ولفظ أحمد: (أنَّ رسول الله ﷺ قال: أقيموا الصُّفُوف، فإنَّما تصُفُّون بصُفُوف الملائكة، وحاذُوا بيْن المناكب، وسدُّوا الخلل، وليِنُوا في أيدي إخوانكم، ولا تذرُوا فُرُجاتٍ للشَّيطان، ومن وصل صفًّا وصله الله تبارك وتعالى، ومن قطع صفًّا قطعه الله تبارك وتعالى).

(١) في حاشية النُّسخة الخطِّيَّة: «تجُول: بمعنى جَوَلان».

فاضلًا؟ فيُجدِّد التَّوبة من سائر الذُّنوب والمُناقِض، ثُمَّ قرأ شيئًا من القُرآن وذكر الله تعالى، ونام على فراشه طاهرًا، كُلَّما تعارَّ من اللَّيْل قال: (لا إله إلا الله) إلى آخرها كما وَرَد في السُّنَّة[١].

فإذا استيقظ للتَّهجُّد استاك كما جاء في السُّنَّة[٢]، وقال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليْه النُّشور**»[٣].

ثُمَّ يتوضَّأ، ويدعو الدُّعاء المشروع قبل الصَّلاة: «**اللَّهُمَّ ربَّ جبريل وميكائيل**» إلى آخره[٤]، و«**اللَّهُمَّ لك الحمد، أنت نُور السَّماوات والأرض**»

---

(١) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب التَّهجُّد/ باب فضل من تعارَّ من اللَّيل فصلَّى- الحديث رقم (١١٥٤)- ١/ ٣٤٤] عن عُبادة بن الصَّامت ﷺ، ولفظه: «**من تعارَّ من اللَّيل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلْك وله الحمد وهُو على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، الحمد لله، وسُبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله، ثُمَّ قال: اللَّهُمَّ اغفر لي؛ أو دعا استجيب له، فإن توضَّأ وصلَّى قُبِلَت صلاته**».

(٢) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب التَّهجُّد/ باب طُول القيام في صلاة اللَّيْل- الحديث رقم (١١٣٦)- ١/ ٣٣٩]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب الطَّهارة/ باب السِّواك- الحديث رقم (٢٥٥)- ١/ ٢٢٠] عن حُذيفة بن اليمان ﷺ، ولفظ البُخاريِّ: (أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا قام للتَّهجُّد من اللَّيْل يشُوص فاه بالسِّواك).

(٣) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الدَّعوات/ باب ما يقول إذا نام- الحديث رقم (٦٣١٢)- ٤/ ١٩٨٦] عن حُذيفة بن اليمان ﷺ، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب الذِّكر والدُّعاء والتَّوبة والاستغفار/ باب ما يقول عند النَّوم وأخذ المضجع- الحديث رقم (٢٧١١)- ٤/ ٢٠٨٣] عن البراء بن عازبٍ ﷺ، ولفظ البُخاريِّ: (كان النَّبيُّ ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: باسمك أموت وأحيا. وإذا قام قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليْه النُّشُور).

(٤) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب صلاة المُسافرين وقصرها/ باب الدُّعاء في صلاة اللَّيل وقيامه- الحديث رقم (٧٧٠)- ١/ ٥٣٤] عن عائشة ﷺ، ولفظه - وقد سألها أبوسلمة بن عبد الرَّحمن بن عوفٍ: بأيِّ شيءٍ كان نبيُّ الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من اللَّيل؟ قالت -: (كان إذا قام من اللَّيل افتتح صلاته: اللَّهُمَّ ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السَّماوات والأرض، عالم الغيْب والشَّهادة، أنت تحكم بين عبادك =

إلى آخره[١]، ثُمَّ صلَّى أحد عشرة ركعة؛ أو ثلاث عشرة ركعة، يُطيل قراءتها ورُكُوعها وسُجُودها، كما وَرَدت به السُّنَّة[٢].

فإذا فرغ وتمكَّن الثُّلث الأخير وجاء الوقت الذي أُخْبِرْنا فيه بالنُّزول: فيُكْثِر العبد فيه من الدُّعاء والتَّضرُّع والابتهال في مصالح الدُّنيا والآخرة إلى أن يَنْفَجِر الفَجْر.

فإذا انْفَجَر الفَجْر صلَّى ركعتيْ[٣] السُّنَّة وخفَّفهما، وانْضَجَع عَقِيبَهما كما

= فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اخْتُلِف فيه من الحقِّ بإذنك، إنَّك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم).

(١) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب التَّهجُّد/ باب التَّهجُّد باللَّيل وقوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾- الحديث رقم (١١٢٠)- ١/ ٣٣٥]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب صلاة المُسافرين وقصرها/ باب الدُّعاء في صلاة اللَّيل وقيامه- الحديث رقم (٧٦٩)- ١/ ٥٣٢-٥٣٣] عن عبد الله بن عبَّاسٍ ﭭ، ولفظ مُسلم: (أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصَّلاة من جوْف اللَّيل: اللَّهُمَّ لك الحمدُ، أنت نُور السَّماوات والأرض، ولك الحمد، أنت قيَّام السَّماوات والأرض، ولك الحمد، أنت ربُّ السَّماوات والأرض ومن فيهنَّ، أنت الحقُّ، ووعدك الحقُّ، وقولك الحقُّ، ولقاؤك حقٌّ، والجنَّة حقٌّ، والنَّار حقٌّ، والسَّاعة حقٌّ، اللَّهُمَّ لك أسلمت، وبك آمنت، وعليْك توكَّلت، وإليْك أنبت، وبك خاصمت، وإليْك حاكمت، فاغفر لي ما قدَّمت وأخَّرت، وأسررت وأعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت).

(٢) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب المناقب/ باب كان النَّبيُّ ﷺ تنام عيْنه ولا ينام قلبه- الحديث رقم (٣٥٦٩)- ٣/ ١١٠٣]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب صلاة المُسافرين وقصرها/ باب صلاة اللَّيْل وعدد ركعات النَّبيِّ ﷺ في اللَّيْل وأنَّ الوتر ركعةٌ وأنَّ الرَّكعة صلاةٌ صحيحةٌ- الحديث رقم (٧٣٨)- ١/ ٥٠٩] عن عائشة ﭫ، ولفظ البُخاريِّ - وقد سألها أبوسلمة بن عبد الرَّحمن بن عوْفٍ: كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان؟ قالت -: (ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعةٍ، يُصلِّي أربع ركعاتٍ، فلا تسأل عن حُسنهنَّ وطُولهنَّ، ثُمَّ يُصلِّي أربعًا، فلا تسأل عن حُسنهنَّ وطُولهنَّ، ثُمَّ يُصلِّي ثلاثًا. فقلت: يا رسول الله؛ تنام قبل أن توتر؟! قال: تنام عيني ولا ينام قلبي).

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «ركعتيْن».

وَرَدت به السُّنَّة[١].

ثُمَّ خرج إلى مسجد الجماعة لصلاة الفجر، ثُمَّ عاد إلى دولابه[٢] الدَّائر [١٢٨/ب] حتَّى يأتيه اليقين.

وأمَّا عَمَل يومٍ وليلةٍ للسَّائرين إلى منازل المُقرَّبين: فهُو أنَّ أحدهم يبيت مهمومًا بمحبَّة الله ﷻ، قد حشأت المحبَّة عُروقه وأوصاله، وامتلأ باطنه من ذكر الحبيب فأنساه ذكر غيره.

فإذا انقلب في فراشه صعدت أنفاسه المُحترقة إلى مولاه، ذكر وُجُوده واطِّلاعه، فرُبَّما سُلِبَ حلاوة النَّوم أحيانًا، فهُم أهل الأَرَق والقَلَق، لولا أنَّ الله ﷻ منَّ عليْهم بالسَّكينة والرَّاحة لتقَلْقَلَت أدمغتهم يُبْسًا، وضعفت أوصالهم وَهْنًا، لأنَّ العزيز سُبحانه تلطَّف بهم فحجبهم أحيانًا ليعود إليْهم رَوْعُهم، فتدوم عافية أجسامهم ولا يُرى عليْهم أثر ذلك، لأنَّ الصِّدق غطَّى عليْهم أحوالهم، فهُم يتحدَّثون كما يتحدَّث النَّاس؛ ولا يعلم النَّاس ما انطوى عليْه بواطنهم من ذلك.

فإذا استيقظوا من منامهم صعدت إليْه هُمومهم مُشتاقة طالبة عاكفة مُحبَّة،

---

(١) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الأذان/ باب من انتظر الإقامة- الحديث رقم (٦٢٦)- ١/ ٢٠٢]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب صلاة المُسافرين وقصرها/ باب صلاة اللَّيْل وعدد ركعات النَّبيِّ ﷺ في اللَّيْل وأنَّ الوتر ركعةٌ وأنَّ الرَّكعة صلاةٌ صحيحةٌ- الحديث رقم (٧٣٦)- ١/ ٥٠٨] عن عائشة ﵂، ولفظ مُسلم: (كان رسول الله ﷺ يُصلِّي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء - وهي التي يدعو النَّاس العتمة - إلى الفجر إحدى عشرة ركعةٍ، يُسلِّم بيْن كُلِّ ركعتيْن، ويُوتر بواحدةٍ، فإذا سكت المُؤذِّن من صلاة الفجر وتبيَّن له الفجر وجاءه المُؤذِّن قام فركع ركعتيْن خفيفتيْن، ثُمَّ اضطجع على شقِّه الأيْمن، حتَّى يأتيه المُؤذِّن للإقامة).

(٢) بفتح الدَّال وضمِّها؛ والفتح أفصح، وهُو الآلة التى يُستقى بها، وهو فارسيٌّ مُعرَّبٌ؛ مُركَّبٌ من دولا بمعنى: الإناء، ومن آب بمعنى: الماء، وهُو كنايةٌ عن عمل اليوم واللَّيلة وهُو الآلة التي يُستقى بها الباقيات الصَّالحات.

كالحبيب الذي غاب عن محبوبه ومألوفه بالمنام، فلَّما استيقظ عاد إلى الحنين إليْه وإلى وُجوده، ثُمَّ ينهض إلى ما نهض إليْه الأبرار من الأعمال المأمور بها.

فإذا صلَّى صلاة الصُّبح ذكروه بما تيسَّر من الأذكار المشروعة.

فإذا فرغوا أطرقوا بيْن يديْه هيْبة وإجلالًا، وسلَّموا إليْه مُلْكه وتدبيره، فلم يُزاحم تدبيرهم تدبيره؛ ولا اختيارهم اختياره، وجدوه مَلِكًا قاهرًا قابضًا على نواصي الخلق، وهُو المُتولِّي لدُولَة أُمورهم في أسواقهم ومعايشهم وتقلُّبات أحوالهم، فسلَّموا إليْه مُلْكه ولم يُدخلوا أنفسهم معه في تدبيره من الاهتمام في الماضي؛ والتَّدبير في المُستقبل، هُو أجلُّ وأعزُّ في قُلوبهم، لم يغيبوا عن مُلاحظة تدبيره طرفة عَيْنٍ، وهُم أذكى وأعْلَم من أن يجهلوا وينسوا تدبيره فيُدبِّروا أنفسهم بكذا وكذا.

فلمَّا لاحظوا مُلْكه وقهره وقبضته على الخلائق وأَسْره لقُلوبهم، فالقُلوب بين أُصبعيْن من أصابعه سُبحانه يُقلِّبها كيف يشاء كما وَرَد في الحديث[1]، فغلب هذا العِلْم على قُلوبهم ففقدوا شأن مشيئاتهم؛ فلم يجدوا لهم مشيئة مع مشيئته؛ بحيث يحتاجون إلى نَفْيِها.

غلب على قُلوبهم العِلْم به وبتدبيره؛ بحيث صار واضحًا كالنَّهار، وعرفوا [١٢٩/أ] أنَّ التَّدبير من الجهل بالعِلْم بالله وتدبيره، فنَفَى العِلْم بالله ﷻ الجهل عن قُلوبهم، فامتحت المشيئات من قُلوبهم مَحْوًا فنسوا نُفوسهم ومصالحهم لَمَّا شاهدوا الأمر بتدبيره وفي قبضته، فصاروا بذلك عبيدًا له، تُقلِّبهم يد القُدرة ويدعوهم لسان الأزل، وصار أحدهم ابن وقته؛ لا ينظر وقتًا آخر يُدبِّر

---

(١) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب القدر/ باب تصريف الله تعالى القُلُوب كيف شاء- الحديث رقم (٢٦٥٤)- ٤/ ٢٠٤٥] عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، ولفظه: **«إنَّ قُلُوب بني آدم كُلَّها بين أصبعيْن من أصابع الرَّحمن كقلبٍ واحدٍ، يُصرِّفه حيث يشاء. ثُمَّ قال رسول الله ﷺ: اللَّهُمَّ مُصرِّف القُلُوب صرِّف قُلُوبنا على طاعتك»**.

نفسه فيه، لأنَّ الوقت الآخر بيد مُؤقِّته[١]، فهُم أمواتٌ تدبيرُهم كتدبير أهل القُبور، هل ترى لهُم حسًّا أو حركة؟! فكذلك هُم في التَّدبير، وأمَّا في الأمر فأحياء أقوياء، يُدبِّرون ويختارون، وبالله في عبادته يستعينون.

فإذا طلعت الشَّمس وركعوا الرَّكعتيْن: نَظَرُوا[٢] ما تنشرح له صُدُورهم من الأعمال الصَّالحة والأَوْراد وسماع العِلْم وغير ذلك.

يقصدونه ناظرين إلى مُوَلِّيهم الذي حرَّكهُم، مُستعينين به أن يُوفِّقهم لما يُحبُّه، وعُيونهم في كُلِّ لحظةٍ شاخصةٌ إلى ما يُبرزه عليْهم مَنْ مشيئاته المُختلفة المُتواترة التي تَرِد على العبد كاللَّيل والنَّهار بغير اختيار منه، فهُم يُقابلونها بمُقتضاها من العُبوديَّة، ولا يتأذَّوْن ممَّن يُؤذيهم، لأنَّهم يَرَوْن نواصيهم بيد مولاهم، فإن ابتُلوا بالأذى فَنُوا ورَضُوا وصبروا ودعوا برفعه، فهذه[٣] عُبُوديَّة الوقت.

وإن أقامهم في طاعةٍ وعبادةٍ؛ أو رزقهم عِلْمًا ينتفعون به؛ أو سخَّر لهم شيخًا يُرشدهم إلى نجاتهم وطبِّ أمراضهم: رأوه فضلًا من مُوَلِّيهم، فشكروه عليْه.

وإن أخذهم عبدٌ من عبيد مولاهم إلى منزله ليُطعمهم راحوا معه بشرط أن تتحمَّل قُلوبهم المنَّة، ويُشترط أن لا يكون من أهل النُّفوس المنَّانين، فإنَّ طعامهُم سُمٌّ للقُلوب، فأُولئك يعتذرون إليْهم باللُّطف والاعتذار، ويهجرون هَجْرًا جميلًا، وأمَّا المُؤمنون الصَّالحون فيأكلون من طعامهم ويُكافؤونهم بالدُّعاء، ويشكرون مولاهم الذي أنعم عليْهم بأن سخَّر لهُم قُلوب عباده التي هي بيده.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «مُؤقِّتة».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «ينظروا».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «فهذا».

فهُم قطُّ لا يشهدون الوسائط إلا بالقَصْد الثَّاني، ويشهدون الأوَّل سُبحانه بالقَصْد الأوَّل، فكُلُّ منظورٍ يدلُّهُم عليْه [١٢٩/ب]، فيسبق نظرهم إليْه قبل التَّواني والوسائط، بخلاف الأبرار؛ فإنَّهم يشهدون الوسائط بالقَصْد الأوَّل، ويُكابدون نُفوسهم على رُؤية الفاعل مُكابدة.

وإن ابتُلوا بمعصيةٍ من غير قَصْدٍ رأوا حكمة مُوَلِّيهم في ذلك، أوقعهُم في الذَّنب ليُريهم العجز ونقصهم ومحلَّهم ليتوبوا إليْه فيُعاملهم ببرِّه وحلمه وجُوده فيُعبد بالتَّوبة، ويتَّصف بصفة الغفَّار والجُود فيجود عليْهم بالمغفرة.

ثُمَّ هُم يستعملون أعمال الأبرار كُلَّها، ويزيدون عليْهم بنُفوذ البصائر في الملكوت، قد أخذت قُلوبهم بَهْتَةً من مُلاحظة مُوَلِّيهم وأقداره فيهم، ينتظرون مشيئاته في كُلِّ نَفَسٍ، وينتظرون فَرَجه ورزقه الظَّاهر والباطن في كُلِّ ساعةٍ، وعُيُونهم مُمتدة إليْه مُعرضة عن غيره، قد أيسوا من غيره إياسًا ما عليْه مزيدٌ، ولم يطمعوا[1] إلا فيه، قد أسر قُلوبهم فأخذها في قبضه، بل قد غابوا عن كُلِّ شيءٍ وذكروه عند رُؤية كُلِّ شيءٍ بأنَّه فاعله وصانعه وقيُّومه.

فهؤلاء السَّادة ذُنوبهم التَّدبير والتَّشهِّي والاختيار، كُلَّما غفل أحدهم واشتهى ودبَّر رجع إلى مولاه بالتَّوبة، كما أنَّ ذُنوب الأبرار المعاصي الظَّاهرة.

وفي الجُملة: فما ذُكر لك جُملة حالهم، هُم قومٌ قد حشا قُلوبهم أنوار وُجوده، وعمرها بمُلاحظة فعله، وأفنى بصفاته المُقدَّسة شُؤون نُفوسهم، وصار أقرب إليْهم من كُلِّ شيءٍ، وفعله أقرب الأفعال إليْهم، وقد مَلَكهُم بأمره فانقادوا له بالطَّوْع والهشاشة، وقاموا بعُبوديَّاتها كما تقدَّم في النِّعمة والبليَّة والطَّاعة والمعصية، وسترهم بأنوار وُجوده فلا يرون غيره إلهًا، ويرون

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يطعموا».

وُجودهم قائمًا بقُدرته، فانقهرت قُلوبهم من وُجوده وأمره وفعله، فتحقَّقوا بكلمة لا إله إلا الله على الحقيقة، وتحقَّقوا بمُحمَّدٍ رسول الله في الاتِّباع، فهُم أهل التَّوحيد في الاتِّباع والعُبوديَّة.

فهؤلاء عين الله ﷻ ترعاهُم، ولُطفه يغذوهم، وشيطانهُم حقيرٌ مدحوضٌ منكوصٌ على عقبه، شاحبٌ مُغَيَّرٌ نحيلٌ مريضٌ، يزدادون [١٣٠/أ] كُلَّ يومٍ قُرْبًا، ولهُم على ساعات اللَّيل والنَّهار تجلِّياتٌ تظهر آثارها في قُلوبهم من نظرات العزيز الرَّحيم إلى قُلوبهم وبواطنهم بمشيئته ولُطفه، فهُم أهل الله حقيقة، سبقوا النَّاس فلم يُلْحَقُوا بالأعمال، كما وَرَد: «**سبق المُفرِّدون. قيل: ومن هُم يا رسول الله؟ قال: الذَّاكرون الله كثيرًا والذَّاكرات**»(١).

وفي لفظٍ: «**وَضَع الذِّكْر عنهم أثقالهُم؛ فوَرَدُوا القيامة خِفافًا**»(٢).

وفيهم من يدخل الجنَّة بغير حسابٍ، وهُم الذي لا يسترقون؛ ولا يكتوون؛ ولا يتطيَّرون؛ وعلى ربِّهم يتوكَّلون.

فنسأل الله العظيم؛ الرَّبَّ الرَّحيم: أن يجعلنا منهم، ويستعملنا بأعمالهم، ويمحق صفات نُفوسنا بحقائق الإتقان والعرفان، إنَّه الحنَّان المنَّان.

---

(١) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الذِّكْر والدُّعاء والتَّوبة والاستغفار/ باب الحثِّ على ذكر الله تعالى- الحديث رقم (٢٦٧٦)- ٤/ ٢٠٦٢] عن أبي هُريرة ﷺ، ولفظه: (كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكَّة فمرَّ على جبلٍ يُقال له: جُمْدان، فقال: سيرُوا هذا جُمْدان، سبق المُفرِّدُون. قالوا: وما المُفرِّدُون يا رسول الله؟ قال: الذَّاكرون الله كثيرًا والذَّاكرات).

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ في سُننه [كتاب الدَّعوات/ باب في العفو والعافية- الحديث رقم (٣٥٩٦)- ص٨١٧] عن أبي هُريرة، ولفظه: «**سبق المُفرِّدُون. قالوا: وما المُفرِّدُون يا رسول الله؟ قال: المُستهترون في ذكر الله، يضع الذِّكْر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافًا**».

قال البُخاريُّ في التَّاريخ الكبير [رقم (٣٦٥١)- ٨/ ٤٤٩]: (والأوَّل أصحُّ)؛ يعني الحديث الذي أخرجه مسلم.

والحمد لله ربِّ العالمين.
وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا.
وهُو حسبنا ونعم الوكيل[١].

(١) قُلتُ: كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: على متن القطار؛ الذي أقلَّني من محطَّة كلكتا؛ إلى محطَّة فركّه؛ في جُمهوريَّة الهند، في يوم الجُمعة ١٢ من شهر شوَّال ١٤٣٥هـ؛ الموافق ٨ أغسطس (آب) ٢٠١٤م.

قَاعِدَةٌ فِي شَرْحِ حَالِ العُبَّادِ وَالصُّوفِيَّةِ الأَفْرَادِ جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحمَّدًا عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم إلى يوم الدِّين.

العُبَّاد يصطلحون على الأعمال، ويتآلفون في المواعيد ومجالس الأذكار، حليتهم السَّمت الحسن[1]؛ والنُّور في الوجه؛ والخُشوع في الطَّرف، ولهُم مع ذلك نُفوسٌ حادَّةٌ ورئاسةٌ باطنةٌ.

إذا صلَّى أحدهُم ركعاتٍ معلومة؛ أو سبَّح تسبيحاتٍ معدودة: أصبح نشيطًا، نفسه قويَّة؛ ولها على أشكالها صولة.

إذا زلَّ أحدهُم أو أخطأ؛ يحتاج المعُرِّف له أن يُداويه ويخضع له ويُقبِّل رأسه تألُّفًا له ليسمع الحقَّ ويعيه؛ وقد لا يخضع له، فإنَّه عبَّد نفسه؛ عزيزٌ عظيمٌ عارفٌ، يأنف من الرَّدِّ عليه والتَّعليم له، ويقول: مثلي تُعلِّم، هذا خُصوصًا إذا كان ذا إيثارٍ وصدقاتٍ، فيرى فضله على جميع العُبَّاد والفُقراء.

وربَّما يقول في نفسه: أنا أتصدَّق؛ وهذا لا يتصدَّق، وأنا أبرُّ وهذا يتصدُّقون عليه.

فهذه جُملة أمرهم، وهُنالك [١٣٠/ب] وساوس كثيرةٌ على هذا على قدر ما ابتُلي أحدهم من نفسه، ومُعظم أمرهم أنَّهم لا يتَّهمُون نُفوسهم بل يُزكُّونها.

---

(١) في النسخة الخطية: «السمت والحسن».

والصَّادق الصِّدِّيق الذي يسلك طريق المُقرَّبين يتَّهم أعماله وأقواله وأخلاقه وآراءه وظُنونه، يُحبُّ من يدلُّه على عيبه؛ ليبرأ منه فيصفو سيره إلى ربِّه، لأنَّ غاية مطلوبه خلاصه من رقِّ صفات نفسه؛ ووُصوله إلى ربِّه.

وأمَّا الصُّوفيَّة؛ فإنَّ اجتماعهُم وتآلفهُم على خلاف ذلك، يصطحبون على تذويب النُّفوس لطهارة القُلوب، ويتآلفون على السَّيْر إلى المحبوب، بهممٍ عاليةٍ وقُلوبٍ واجفةٍ[1] وأكبادٍ مُحترقةٍ وأرواحٍ طائرةٍ من شدَّة الاشتياق إلى مولاهم، وعلى حُبِّه عاكفةٌ وفي طلب قُربه هائمةٌ، يتَّهمُون نُفوسهم ويزدرون أعمالهُم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[2].

قد بذلوا لمولاهُم كُلَّما يقدرون عليه من نُفوسهم وأموالهم حُبًّا له وشوقًا إلى لقائه؛ لكن على قوانين الشَّريعة ومُتابعة السُّنَّة، فإنَّها حاكمةٌ عليهم في كُلِّ شيءٍ.

يطلبون مُولِّيهم بكُلِّما يقدرون عليه من الأذكار والأوراد والأخلاق والأحوال على طريق السَّيْر إليه.

ينطقون إذا تسامروا بذكره، وإن سكتوا فهُو همُّهُم، أو عبدوا فهُو معبودهُم، أو نطقوا فهُو حديثهُم، قُلوبهُم مُنكسرةٌ لأنَّهُم فقدوا، فلا تنجبر[3] قُلوبهُم إلا بموجودهم.

غاية هممهم الوُجود ومعرفة عيب النَّفس، قد ذوَّبَت الأفكار نُفوسهُم، وكحلت الأنوار أسرارهُم، وصفت العبادة جوارحهم.

فهؤلاء أهل الله، وأهل وُدّه وأحبَّاؤه، قد أنزلوا ذكره من نُفوسهم بمنزلة

---

(١) في النسخة الخطية: «وجفة».

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٦٠.

(٣) في النسخة الخطية: «ينجبر».

الأرواح، فبقيت نُفوسهُم مأسورة مقبوضة، تلوح عليهم بهجة المحبَّة وسيماء المعرفة، لقُلوبهم زفراتٌ؛ وفي أفئدتهم حسراتٌ.

فانظر رحمك الله إلى الصِّنف الأوَّل؛ وغاية أمرهم وجُملة دائرتهم في أعمالهم وأحوالهم؛ وفي صُحبتهم وتآلفهم؛ وإلى مُنتهى حدِّهم وغاية أمدهم، وانظر [١٣١/أ] إلى هؤلاء ومقصدهم وعملهم وأحوالهم وسيرهم.

فهل أبقى الصِّدق من نُفوسهم؟! وهل تركت إرادة الحقِّ لهُم غيره؟!

لا يميلون إلى غير من يطلبونه بالمحبَّة من الدُّنيا والشَّهوات والأغراض الفانية، لأنَّ هذا الميل شركٌ عندهُم في المحبَّة، وهُو من الشِّرك الخفيِّ.

لا يُحبُّون إلا مُوَلِّيهم، ويُحبُّون في مُوَلِّيهم الأنبياء والصَّادقين، ولذلك لا يركنون إلى غيره في شأنٍ من شُؤونهم، قد ادَّخروه لكبرهم وعماهم وفقرهم وخاتمتهم وبرزخهم، ليس هذا عندهُم شِرْكٌ أيضًا في التَّوحيد كالشِّرك الأوَّل في المحبَّة، وهُو من الشِّرك الخفيِّ، فيُصحِّحون الميْل والمحبَّة إليه بلا شركٍ لغيره بالمحبَّة، ويُصحِّحون الاستناد إليه بلا شركٍ يستندون إليه معه، وإن كانوا في أسباب ومعايش يدخلون فيها فلا يستندون إليها، ولا يستندون إلا إلى مُوَلِّيهم.

قد هانت الدُّنيا عندهُم فهي لا تزن جناح بعوضة، لكن هُم فيها كما أمرهُم الله تعالى، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾[1]

فهُم فيها على حُكم مولاهم.

فإذا نظرت إلى الفريق الثَّاني؛ فانظر إلى نفسك من أيِّ الفريقيْن أنت؟ فالزم دائرتك؛ وعاشر قومك وأصحابك، فإنَّهُم أنسب بك، وأليق بحالك.

ولا تُعاشر الفريق الثَّاني؛ فإنَّهم رُبَّما طالبوك بشيءٍ من الصِّدق، فتثور

---

(١) سورة الفرقان: الآية (٦٧).

نفسك فتردَّ الحقَّ فتُمقت عند الله.

ورُبَّما تزدري أحدًا منهُم بقلبك؛ لأنَّك لا تعلم حقيقة ما هُم عليه، فإنَّك تحسبهُم مثلك عُبَّادًا أهل ظاهر؛ فتُخطئ في ذلك.

وإن كُنت من الفريق؛ فادخل على قومك بالمحبَّة والمذلَّة والانكسار؛ والتَّخصيص لهُم؛ والتَّعظيم لنظرهم؛ وحُسن المُوافقة لأمرهم؛ وسُرعة الأوبة عند تعريفهم؛ وجميل الانقياد لإشاراتهم.

واطلب عيب نفسك منهم عليها، وتعرَّف منهم طلب الحقِّ تعالى وطُرق السُّلوك إليه، ولا تصحبهُم على غير ذلك؛ فتَتْعَب بهم وتُتْعِبُهُم معك، ولا تدخل عليهم برفقٍ ولا إيثارٍ إلا بعد شورهم، فإنَّهُم يُحبُّون لك العدل في [١٣١/ب] أُمورك، فقد تُسرف في النَّفقة وهُم لا يُحبُّون لأخيهم الإسراف.

واعلم أنَّ هذه الطَّريقة تقتضي أن يُشاطرهُم السَّالك في أمواله وأزواجه، لأنَّ صُحبتهم إنَّما هي بالأرواح، لشدَّة التآلف في معرفة الله تعالى، ومعرفة الله تعالى ومحبَّته وطلب قُربه؛ لكنَّهُم لا تُساوي دُنياك ولا أزواجك عندهُم قيمةٌ، لأنَّ عُمدة أمرهم التَّجريد عمَّا سوى الله، وما كان أصله التَّجريد لا يُحبَّ مالك ولا أزواجك، فلا تتفرَّق باستشعارك منهم الطَّمع في مالك، فإنَّ القوم آمالهم منقطعةٌ من غير مولاهُم.

فاجمع همَّك؛ واعرف ما هُم عليه وما هُم قاصدوه وطالبوه، واصحبهُم على التَّعظيم والمحبَّة، ولا تدخل عليهم بما لا يُحبُّون، وتعرَّف منهُم الطَّريق إلى مولاك، وتعرَّف منهُم عيب نفسك، وتتغذَّى بذلك إذا ذُكروا لك عيبًا من عُيوبك.

وليكُن ذلك غاية مطلوبك منهم؛ تُرزق بركتهُم إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

وحسبنا الله ونعم الوكيل(١).

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «بلغ».
قُلتُ: كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في معهد دار التَّوحيد؛ في قرية ؛ في مدينة ؛ في جُمهوريَّة سريلانكا، في يوم الثُّلاثاء ٢٣ من شهر شوَّال ١٤٣٥هـ؛ الموافق ١٩ أغسطس (آب) ٢٠١٤م.

قَاعِدَةٌ فِي حَبْسِ النَّفْسِ وَالعُكُوفِ عَلَى الهَمِّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه الإعانة

الحمد لله فالق الإصباح وجاعل اللَّيلِ سكنًا والشَّمسِ والقمرِ ﴿حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾(١).

الذي أودع خلق الإنسان أنواعًا مُختلفة من التَّراكيب القالَبيَّة والنَّفسانيَّة؛ والقُوَى والأوعية العقليَّة؛ والشُّؤون القلبيَّة؛ واللَّطائف الرُّوحيَّة؛ ليستعمل الإنسان كُلَّ قُوَّةٍ منها بمُقتضى ما خُلقت له، ويعبد الله بجميع ذلك، فتتمُّ له عُبوديَّة الله تعالى بجميع المساعي الظَّاهرة والباطنة، فمن وُفِّق لتخليص كُلِّ قُوَّةٍ من هذه القُوَى واستعملها فيما خُلقت له [١٣٢/أ]؛ وسَلِمَت من الآفات العارضة عليْها من جهة الطَّبع والهوى: فهُو الإنسان الكامل الذي عرف نفسه وشُؤونها وما أودع الله فيها من الخواصِّ والصِّفات والأعراض، وعرف ربَّه ومولاه الذي خلقه وصوَّره؛ وشقَّ سمعه وبصره، وأودع رُوح جسده ونُور عقله وقام بأَوْدِهِ(٢) وكفايته وكلاءته، الحيُّ القيُّوم، تبارك الله أحسن الخالقين.

ثُمَّ لمَّا عرف نفسه بشُؤونها؛ وعرف ربَّه سُبحانه بصفاته وأفعاله: عبده بما خلقه فيه، فرجع الأمر إليْه، فاستحقَّ بذلك النَّعيم الدَّائم والقُرْب التَّامَّ والحُبُور المُستمرَّ أبد الآبدين، وعلا بذلك في مراتب خلقه وأطواره من أدناه إلى

(١) سُورة الأنعام: الآية ٩٦.

(٢) أي: بتأييده.

أعلاه، صعد من عالم الجنِّ والقالَب إلى عالم الطَّبيعة والقُوَى النَّفسانيَّة، ثُمَّ إلى عالم العقل والتَّعلُّقات(١) الرَّوحانيَّة ومساعيها الباطنة، فلمَّا علا في مراتب أطواره المُودعة فيه استحقَّ أن يُسمَّى إنسانًا كاملًا لسَيْره في أطواره، واستعمال كُلِّ قُوَّةٍ بحسبها فيما خُلقت له، وإن حكَّم على نفسه الطَّبيعة والهوى لم يَعْلُ في هذه المراتب سيْرًا ولا ترقِّيًا، وتَفَنَّدَتْ رُوحه عن الانطلاق إلى عالمها العُلويِّ بما تراكم عليْها من ظُلُمات جِبِلَّتَها، فرجع الأمر إلى نفسه فانحطَّ عن مركزها السُّفليِّ للتَّلطُّخ بأنجاس نفسه والتَّلوُّث بأدرانها، فاستحقَّ بذلك العذاب الأليم، والبُعْد عن مراتب أهل النَّعيم، والحجاب عن القُرْب العظيم، أعاذنا الله من ذلك بمنِّه وكرمه إنَّه المنَّان الكريم.

وأشهد أن لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم، وأشهد أنَّ مُحمَّدًا ﷺ عبده ورسوله النَّبيُّ الذي أنذر بالنَّعيم المُقيم؛ والعذاب الأليم، صلاة دائمة مُوجبة لرحمة المولى الرَّحيم.

فصلٌ

المراتب المبدوء بذكرها وكيفيَّة [١٣٢/ب] قَطْع مشاقَّاتها؛ والتَّرقِّي في درجاتها:

الطَّوْر الأوَّل: طَوْر التَّركيب القالَبي، وطريق قَطْعه والتَّرقِّي منه إنَّما يكون بأداء الواجبات واجتناب المنهيَّات بزمِّ(٢) الجوارح عن المآثم المُوبقات، والورع الشَّافي عن المحارم والشُّبهات، فبذلك قَطْع مسافة الأشياء المُتجسِّدة الحسِّيَّات.

وتفصيل ذلك: النُّصح لله في القيام بفرضيَّة الصَّلاة والزَّكاة والحجِّ والصِّيام

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «العقل التعلقات».
(٢) أي: بمَنْع، من الزِّمام.

والأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكر؛ وغير ذلك من الأوامر الخاصَّة التي تختصُّ العبد بحسب الأوقات والأعمال، ثُمَّ رعاية العَيْن عن النَّظر إلى المُحرَّمات والصُّور الجميلة المُحرَّمة، ورعاية اللِّسان عن المُحرَّم كالكذب والغيبة والنَّميمة وكُلِّ فُضولٍ، وكذلك الأُذن، ورعاية البطن عن الأرزاق المُشتبهة، وكذلك زمُّ جميع الجوارح عن الظُّلم والعُدوان من اليد والرِّجل والفَرْج.

والقاعدة الكُلِّيَّة: استعمال العدل فيها ومُجانبة الظُّلم والعُدوان عن مساعيها، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]

الطَّوْر الثَّاني: طَوْر القُوَى النَّفسانيَّة، وطريق قَطْعها بغلبة هواه وقهره، والحُكم بالعقل عليْها، فإنَّ فيها قُوَّة شهوانيَّة وقُوَّة غضبيَّة، متى اسْتُعْمِلَتْ الشَّهوة في حدِّها المشروع؛ ولم يتعدَّ السَّالك فيها إلى حدٍّ لم يُشرع له؛ بأن يكون العقل حاكمًا عليْهما وسائسًا لهما: ترقَّى إلى قَطْع هذا الطَّوْر وتعمير مرتبته، وذلك هُو عُبوديَّة الله تعالى في هذا الطَّوْر، والشَّهوة قُوَّةٌ واحدةٌ لكن تختلف مُتعلَّقاتها، فمنها شهوة الأكل واللِّباس والاجتماع والنَّظر والنِّكاح والرِّئاسة [١٣٣/أ] وكُلِّ أمرٍ يترامى إليْه الطَّبْع، فيفتقر كُلٌّ من ذلك إلى سياسةٍ شرعيَّةٍ كما أمر الله تعالى ورسوله.

والسِّياسة الشَّرعيَّة: أن يُعطي النَّفس من ذلك ما كان حقًّا لها تدعو حاجته إليْه، ويمنعها من ذلك ما كان حظًّا يستغني عن تعاطيه.

والقُوَّة الغضبيَّة قُوَّةٌ واحدةٌ، لكن تختلف[2] أيضًا أسبابها ومُوجباتها،

---

(١) سُورة النَّحل: الآية ٩٠.

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يختلف».

فطريق سياستها أن لا تُطْلَق إلا في حقِّ الله، وتُخمد وتُكظم[١] إذا كانت غضبًا على فَوْت حظِّ النَّفس من الأقسام العاجلة، ثُمَّ إذا أُطلقت لله ينبغي أن يكون الانتقام على الحدِّ الذي شرعه الله تعالى ولا يُتجاوز إلى غيره، فذلك حدُّ سياسة هذه القُوَى إن شاء الله تعالى.

الطَّوْر الثَّالث: طَوْر العقل، وطريق قَطْعه بعد صلاح الطَّوْريْن الأوَّليْن، فمتى صَلَحا واستقرَّا على ما ينبغي تفرَّغ الإنسان لقَطْع طَوْر العقل، ومتى كان الإنسان منهما في مُعالجةٍ لم تَصْفُ أوقاته لقَطْع طَوْر العقل؛ فإذا تفرَّغ من واجبهما فطريق قَطْعه بأن تُنْقش فيه المعلومات النَّافعة الواردة عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ وما كان من العُلوم مُوافقًا لهما؛ كي يتخلَّص الإنسان بذلك من ظُلمة الجهل.

وأهمُّ المهامِّ من العُلوم: معرفة دلائل النُّبوَّة وسِيَرها؛ ومعاني السُّنَّة وما يتفرَّع منها من الأحكام الفقهيَّة العمليَّة؛ ومعاني التَّنزيل وما يتفرَّع عليْه من الأحكام الفقهيَّة الظَّاهرة العمليَّة، ثُمَّ عِلْم ما يتفرَّع من الكتاب والسُّنَّة من الأحكام القلبيَّة الباطنة المُوجبة للرَّجاء والخوف؛ والرَّغبة والرَّهبة؛ والمحبَّة[٢] والخشية، فإنَّها من العِلْم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[٣].

وهذا العِلْم هُو المُهمُّ، إذا حصل لم يضرَّ العبد ما فاته من تلك العُلُوم المُضرَّة المُجحفة، وإن كان الجهل مُطلقًا مُضرًّا؛ والعِلْم مُطلقًا نافعًا؛ إذا انضمَّ إليْه القُصُود الصَّحيحة، وإلا فالعُلوم النَّافعة قد تضرُّ صاحبها إذا كانت إرادته فاسدة، لأنَّه يتوصَّل بالعُلُوم إلى نَيْل الأغراض [١٣٣/ب] الفاسدة، كما يتوصَّل

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يكظم».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «والحبة».
(٣) سُورة فاطر: الآية ٢٨.

بالعُلُوم إلى نَيْل الأغراض الصَّحيحة بالقُصُود الصَّحيحة، وبالله التَّوفيق.

الطَّوْر الرَّابع: طَوْر القلب، وطريق قَطْعه إنَّما يكُون بعد قَطْع المراتب الثَّلاث، وهُو إصلاحه بإصلاح قُصُوده وعزائمه وإراداته وهممه وأعماله وخواطره، فعن صلاح القلب يكون صلاح الجسد، كما جاء في الحديث: **«ألا وإنَّ في الجسد مُضغة إذا صَلَحَت صَلَح الجسد كُلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كُلُّه، ألا وهي القلب»**(١).

لكن صلاح القلب في الابتداء يكون بإصلاح حركات الجوارح، فيسري الصَّلاح من الظَّاهر إلى الباطن ابتداء، ثُمَّ ينعكس الأمر إذا بلغ العبد إلى طَوْر القلب؛ فينصلح القلب طبيعة بعد أن كان صلاحه عارضًا، ثُمَّ يسري الصَّلاح من الباطن إلى الظَّاهر بعد أن كان سريانه من الظَّاهر إلى الباطن.

وعلامة صلاح القلب: تأدُّبه بين يدي مولاه وخالقه في خواطره وهُمُومه وعزائمه وقُصُوده.

عن صلاح القلب يكون: حال التَّوبة؛ وحال الورع؛ وحال الزُّهد؛ وحال الصَّبر؛ وحال الشُّكر؛ وحال الخوْف؛ وحال الرَّجاء؛ وحال التَّوكُّل؛ وحال الرِّضا؛ وحال الحُبِّ؛ وحال الشَّوْق؛ وحال التَّوحيد، فإنَّ هذه كُلَّها أعمال القلب وحركاته ومساعيه ونُطْقه.

---

(١) أخرجه البُخاريُّ في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب فضل من استبرأ لدينه- الحديث رقم (٥٢)- ١/ ٤١]، ومُسلمٌ في صحيحه [كتاب المساقاة/ باب أخذ الحلال وترك الشُّبهات- الحديث رقم (١٥٩٩)- ٣/ ١٢١٩] عن النُّعمان بن بشير ﷺ، ولفظ مُسلم: **«إنَّ الحلال بيِّنٌ، وإنَّ الحرام بيِّنٌ، وبينهما مُشتبهاتٌ لا يعلمهنَّ كثيرٌ من النَّاس، فمن اتَّقى الشُّبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشُّبهات وقع في الحرام، كالرَّاعي يرعى حول الحِمَى يُوشك أن يَرْتَع فيه، ألا وإنَّ لكُلِّ مَلِكٍ حِمَى، ألا وإنَّ حِمَى الله محارمه، ألا وإنَّ في الجسد مُضغة إذا صَلَحَت صَلَح الجسد كُلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كُلُّه، ألا وهي القلب»**.

كما رُوي عن بعضهم أنَّه قال(١): (التَّوحيد نُطْق القلب، والتَّوكُّل عمله)(٢).

وهذه الأعمال إنَّما تظهر من القلب عند عمارته بصلاح حركات الجوارح من الأعمال الصَّالحة، وسياسة القُوَى النَّفسانيَّة عن التَّعدِّي، واستعمال العدل فيها، واجتناب الظُّلم في مساعيها، وامتلاء أوعية العقل من العُلُوم النَّافعة والسِّياسات الشَّرعيَّة، فينكشف من مجموع هذه العُلُوم والأعمال هيئةٌ اجتماعيَّةٌ في القلب الإنسانيِّ المُركَّب في القلب الجسميِّ الصَّنوبريِّ الشَّكل، فذلك هُو الذي يُسمَّى القلب؛ لا مُجرَّد المُضغة الصَّنوبريَّة، فعند ذلك يُشرق القلب بنُور الإيمان والمعرفة والتَّوحيد [١٣٤/أ]، ويظهر منه مثل هذه الأحوال والأعمال، لأنَّ القلب كان في حجابٍ عن مولاه، فعَبَد الله تعالى بفعل المأمور واجتناب المنهيِّ، فتنوَّر القلب بنُور المعرفة فانكشف الحجاب، فشرع القلب يُعامل مولاه بمثل هذه الأعمال عُبوديَّة له، كأنَّه بين يديْه؛ ناظرٌ في الغيب إليْه، ومثل هذا يُسمَّى صاحب قلبٍ، فإنَّ قلبه قائمٌ بين يدي الله تعالى؛ يُعامله بمثل هذه العُبوديَّات، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

الطَّوْر الخامس: طَوْر الرُّوح، وإنَّما ينقطع بعد قَطْع هذه الأطْوار بالاستقامة لله والتَّوطُّن فيها، والدُّخول في طَوْر الرُّوح موهبةٌ محضةٌ تُراد بالمحبوبين المُصْطَنَعِين عند كمال الكشف الرُّوحيِّ بعد كمال الكشف القلبيِّ، فإنَّ القلب لمَّا كُشِف له حجابه: عامل مولاه ﷻ بتلك الأعمال، لمَّا كُشِف له

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «نقل».

(٢) أخرج الأصبهانيُّ في حلية الأولياء [١٠/ ٢٥٦] عن الجُنيْد بن مُحمَّدٍ قوله: (فالتَّوكُّل عمل القلب، والتَّوحيد قول العبد، فإذا عرف القلب التَّوحيد وفعل ما عرف فقد تمَّ).
وقال القُشيريُّ في [رسالته: ص٤٧]: (قال الجُنيْد في جوابات مسائل الشَّاميِّين: التَّوكُّل عمل القلب، والتَّوحيد قول القلب).

عن حجاب التَّوبة؛ ودعاه مولاه إليْه من باب التَّوبة: عامله بالتَّوبة، ثُمَّ لمَّا كُشِف له عن مقام الخوف: خاف، وعن مقام الرَّجاء: حصل له حال الرَّجاء ويُعامل مولاه به، ثُمَّ لما كُشِف له عن حُسن تدبيره وكفالته: توكَّل عليْه، وعن حُسن قضائه لعبده المُؤمن: رضي به وبقضائه، وعن آلائه ونعمائه: فأحبَّه لما يغذوه من النِّعم، كُلَّما كُشِف للقلب عن موطنٍ من هذه؛ ودعاه مولاه من بابٍ من هذه الأبواب: دخل في العُبوديَّة له منها؛ حتَّى كَمُل له مقام العُبوديَّة القلبيَّة بحسب حاله.

وآخر المقامات القلبيَّة[1]: بدايات مقام المحبَّة، ومقام المحبَّة: هُو بدايات الكشف الرُّوحيِّ، فمحبَّة الإنعام والإحسان: هُو آخر المقامات القلبيَّة، ومحبَّة الجلال والإكرام: أوَّل المقامات الرُّوحيَّة، ويتفاوتون فيها بحسب ارتفاع درجاتهم ومقاماتهم منها، ومن حُظِيَ بشيءٍ منها[2] فقد دخل في الطَّوْر الخامس، وهُو طَوْر الرُّوح.

والتَّحقيق: إنَّما يكون بإكمال العُبوديَّة في هذه المرتبة[3]، وإكمال العُبوديَّة في هذه المرتبة أن لا يقع شيءٌ منه على غير مولاه، كما قال بعضهم: (المحبَّة أخذةٌ من الله لقلب عبده عن كُلِّ من سواه)[4].

فترى النَّفس مائلة لطاعته؛ والعقل مُتحصِّنًا بمعرفته؛ والقلب مأخوذًا في حضرته؛ والسِّرَّ مغمورًا [١٣٤/ب] في مُشاهدته.

والعبد يستزيد فيُزاد، ويُفاتح بما هُو أعذب من لذيذ مُناجاته، ويُكسى حُلل التَّقريب على بساط القُرْبة.

---

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: وآخر المقامات».
(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «ذلك».
(٣) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: المحبَّة».
(٤) لم أقف عليْه.

وكمال ذلك: أن لا يكون منه شيءٌ خارجًا عن تلك الأَخْذة، ومن وُفِّق لذلك: يُرجى أن يكون الله تعالى مُتولِّيه ووليَّه ومُدبِّره، فهُو عبدٌ جذب الله باطنه إليْه، ولم يقع شيءٌ منه إلا بين يديْه، فلَهَى به عن كُلِّ شيءٍ سواه، فتولاه وقام بأَوْدِهِ وكفايته وهدايته وحمايته ورعايته وكلاءته ووقايته، فطوى بعد قَطْع هذه الأطْوار؛ في عُبوديَّة المَلِك القهَّار.

ومثل هذا يُسمَّى إنسانًا كاملًا، عرف نفسه وأطوارها، وعرف معبوده في عُبوديَّته فاستنار بأنوارها، ثُمَّ جذبه مولاه إليْه فلم يدع منه شيئًا لغيره، ثُمَّ تولاه وكفاه وهداه، وهذا هُو غاية سُلُوك العبد في سَيْره ومُنتهاه.

فنسأل الله الكريم أن يُوفِّقنا بتوفيق من أحبَّه ورضي عنه وقرَّبه، آمين؛ يا ربَّ العالمين.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين، وحسبنا الله ونعم الوكيل[1].

---

(١) قُلتُ: كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في مدينة مشهد؛ في مُحافظة خُراسان الرَّضوي؛ في جُمهوريَّة إيران، في يوم الجُمعة ١٤ من شهر الله الحرام ١٤٣٦هـ؛ الموافق ٧ نُوفمبر (تشرين الثَّاني) ٢٠١٤م.

قَاعِدَةٌ فِي تَصْفِيَةِ الأَخْلاقِ اسْتِعْدَادًا لِيَوْمِ الحَشْرِ وَالتَّلاقِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي هذَّب أخلاق أهل معرفته؛ بلطائف محاسن شِيَم عُبوديَّته، وبدَّل منها طباع النُّفوس وأخلاقها بأخلاق ملائكته، وجعلهم رُوحانيِّين مُطهَّرين من الصِّفات البهيميَّة والسَّبُعيَّة وذلك من علامة اصطناعه لهُم بمحبَّته وكرامته، أجسادهُم أرضيَّةٌ وأرواحهُم وأخلاقهُم عُلويَّةٌ لقُرْبها من نظره ومعيَّته.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأزليُّ في أوَّليَّته؛ الأبديُّ في آخريَّته.

وأشهد أنَّ مُحمدًا عبده ورسوله ﷺ الذي أيَّده بحُججه السَّاطعة في رسالته، وبعثه داعيًا إلى المحجَّة المُثلى في بريَّته، صلَّى الله عليْه وعلى آله وصحبه وسلَّم أهل قُرْبه [١٣٥/أ] وولايته.

وبعد:

فإنَّ الدِّين يشتمل على عُقُودٍ صحيحةٍ، ثُمَّ عُلُومٍ صحيحةٍ، ثُمَّ أعمالٍ صحيحةٍ، ثُمَّ أخلاقٍ مرضيَّةٍ مليحةٍ، ثُمَّ أحوالٍ عُلويَّةٍ رجيحةٍ، فمن جمع الله تعالى فيه أُصول هذه الخمس: تَمَّ دينُه وكَمُل يقينه بحسبه، ويبقى التَّفاوت في تفاصيل أُصُول هذه الخمسة؛ وقيام العبد بما يقسم الله تعالى له من حملها أوَّلًا، ثُمَّ من تفصيلها وفُروعها ثانيًا.

أمَّا العُقُود؛ فعلامة صحَّتها: مُوافقتها لكتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ، وكونها على طريقة أهل العِلْم والإيمان والنَّقل والأثر؛ كمالكٍ والسُّفيانيْن والحمَّاديْن وابن المُبارك والشَّافعيِّ وأحمد بن حنبلٍ وغيرهم من الأئمَّة الذين

هُم على نهجهم وطريقتهم ﷺ.

وأمَّا العُلُوم؛ فعلامة صحَّتها: أن تكون على نَمَط الاعتقاد؛ من كونها مُؤسَّسة على قواعد الشَّرع؛ مأخوذة عن سلف الأئمَّة المُجمع على فضلهم.

وأمَّا الأعمال؛ فعلامة صحَّتها: أن تكون مُطابقة للعِلْم في الصُّورة الظَّاهرة، يُراد بها وجه الله تعالى في الهيئة(١) الباطنة، موضوعة عن محالِّها للعِلْم في الصُّورة الظَّاهرة في محالِّها وأحانينها المشروعة، محفوظة عن الزِّيادة والنُّقصان بالقانون المشروع أيضًا.

وأمَّا الأخلاق؛ فعلامة كونها مرضيَّة: هُو العدل، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾(٢).

والإحسان عامٌّ في كُلِّ شيءٍ؛ وفي الأخلاق أيضًا.

فخُذْ العدل في الأخلاق: توفية الحُقُوق كما يقتضيه الاستحقاق بلا زيادةٍ ولا نُقصانٍ، والكفُّ عن الظُّلم والعُدوان فيها، فمن وفَّى حقَّ أخيه المُسلم فيما بينه وبينه؛ ولم يظلمه فيه: فذلك هُو العدل، مثله ردُّ السَّلام، ومُكافأته في الفضل والإنعام؛ إمَّا بالموجود أو بالدُّعاء والإكرام، ومُوافاته بالتَّودُّد بلا تكبُّرٍ ولا احتشامٍ، وكفُّ الأذى عنه في القول والفعل والظَّنِّ والأوهام، فهذا العدل الذي يجب للمُسلم على المُسلم.

وأمَّا الإحسان: فهُو مرتبة العدل من الابتداء بالفضل، والسَّماحة بالبذل لمن يستحقُّ ولمن لا يستحقُّ [١٣٥/ب]، وهذا الذي تُسمِّيه طائفةٌ من الصُّوفيَّة: **الفُتوَّة**، وفيه يكون احتمال الأذى؛ ومُكافأة المُسيء بالإحسان.

وفي مرتبة العدل ليس كذلك، فإنَّه إذا اقتصَّ من ظالمه ولم يتعدَّ(٣) عليْه:

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «الهيبة».

(٢) سُورة النَّحل: الآية ٩٠.

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «يتعدى».

فإنَّه يكون عادلًا؛ ولا يُسمَّى مُحسنًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾(١).

فالأوَّل: مرتبة العدل، **والصَّبر**: مرتبة الإحسان، ومُكافأة المُسيء بالإحسان: شعار الصِّدِّيقين، وهُو من كمال مرتبة الإحسان، فهُو إحسان الإحسان، وهذا كُلُّه في حقِّ الآدميِّين.

وأمَّا الإساءة من الشَّخص في حقِّ الله تعالى بارتكاب محارمه إذا ظهرت: فالعدل إزالتها كيف أمكن، إمَّا باليد؛ وإمَّا باللِّسان؛ وإمَّا بالقلب؛ وذلك أضعف الإيمان كما جاء في الحديث(٢).

ولا يُتوصَّل إلى رضى الحقِّ تعالى بغير ذلك، ولا تبرأ الذِّمة بغيره.

وأمَّا الإحسان في ذلك بعد إزالة المُنكر باليد أو باللِّسان: التَّقرُّب إلى العاميِّ وحُسن النَّصيحة له؛ واستجلابه بما يعلم أنَّه ينجذب به؛ إمَّا من بذل مالٍ له أو بذل طعامٍ أو بذل إكرامٍ أو طيب كلامٍ، فإذا انجذب ومال: نَصَحَه وعلَّمه بما يجب عليْه لله تعالى وما يترقَّب على عمله السَّيئ من عُقوبات الله تعالى، فذلك هُو الإحسان في إنكار المُنكر بعد إقامة حُكم العدل فيه.

واعلم أنَّ استعمال الأخلاق الحسنة وترك سفسافها - من الأخلاق المذمومة باطنًا وظاهرًا - رُكنٌ من أركان الدِّين؛ لا يتمُّ الدِّين إلا به.

ومنه عَدْلٌ واجبٌ؛ ومنه عَدْلُ إحسانٍ فاضلٌ، أمَّا العدل في ذلك: فهُو

---

(١) سُورة النَّحل: الآية ١٢٦.

(٢) أخرجه مُسلمٌ في صحيحه [كتاب الإيمان/ باب بيان كَوْن النَّهي عن المُنكر من الإيمان، وأنَّ الإيمان يزيد وينقص، وأنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكر واجبان- الحديث رقم (٤٩)- ١/ ٦٩] عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ ﷺ، ولفظه: **«من رأى منكم مُنْكرًا فليُغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**.

إزالة الأحقاد من القُلُوب وتبديلها بالرَّحمة والمحبَّة؛ ومحبَّة حُصُول الحُبِّ لمن حقد عليْه، وكذلك تطهير[(١)] القلب من خبائث الأخلاق واجبٌ[(٢)]، وهُو من العدل الذي من أهمل حُكمه ووقع فيه كان ظالمًا، فإنَّه استعمل أشياء في باطنه لا يحلُّ له فيكون بذلك[(٣)] ظالمًا يستوجب بها مقت الله وغضبه، ويحبط عمله بذلك ويبطل سعيه [١٣٦/أ].

وذلك مثل: الخُبْث؛ والكِبْر؛ والرِّياء؛ والحسد؛ والعُجْب؛ وسُوء الظَّنِّ؛ ونسيان الله تعالى؛ والغشِّ؛ وطلب العُلُوِّ والرِّفعة والمنزلة؛ وحُبِّ الثَّناء والمحمدة؛ وسخط المقدور؛ والطَّمع؛ والبُخل؛ وسُوء الخُلُق؛ والبطر؛ والتَّعظيم للأغنياء من أجل غناهُم؛ والاستهانة للفُقراء من أجل فقرهم؛ والتَّنافس في الدُّنيا؛ والمُباهاة؛ والإعراض عن الخَلْق استكبارًا؛ ونسيان النِّعمة وترك ذكر المُنعم سُبحانه والعمى عن إحسانه؛ وخُروج الخشية من القلب؛ وترك الانتصار للحقِّ؛ والأمن من سلب ما أُعطي؛ وأمن[(٤)] المكر؛ والخيانة؛ والغشِّ للمُسلم؛ والتَّجبُّر؛ وعزِّ النَّفس؛ واستحقار المُؤمن واستخفافه بحُرمته؛ ورُؤية حُقوقه على النَّاس ورُؤية فضله عليْهم ونسيان حقِّهم وفضلهم.

ودقائق هذه الأخلاق وفروعها - وهي التي ينقص بها صاحبها؛ ولا يستوجب إحباط العمل - مثل: الخوض فيما لا يعنيه؛ وكثرة الكلام؛ وفُضُول النَّظر؛ وفُضُول الطَّعام؛ والصَّلف؛ والتَّزيُّن للمخلوقين بالنُّطق؛ والمُداهنة؛ وحُبِّ أن يُمدح بما لا يفعل؛ والاشتغال بعُيُوب الخَلْق عن عُيُوب النَّفس؛

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «يطهر».
(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في تطهير القلب».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «ذلك».
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «ومن».

وافتقاد الحُزْن من القلب؛ والانتصار للنَّفس إذا نالها الذُّلُّ؛ واتِّخاذ أخوان العلانية على عداوةٍ هي في السِّرِّ؛ وترك الهوى حتَّى يُشاركه في الأُمُور؛ وشهوة الكلام الباطل؛ والحرص؛ وطُول الأمل؛ وخوف سُقُوط المنزلة بين النَّاس من عُيُون الخَلْق؛ والفظاظة؛ وغلظ القلب؛ والغفلة عن ذكر الله تعالى وعن نظره واطِّلاعه وعن عِلْمه بما يجول في سرِّه؛ والفرح بالدُّنيا والحُزن على فوتها؛ والأُنْس بالمخلوقين والوحشة في الخلوة عند ذكر الله تعالى؛ والمراء في الكلام؛ والجفاء؛ والطَّيْش؛ والحدَّة؛ وقلَّة الحياء؛ وقلَّة الرَّحمة.

واعلم أنَّ العبد لا يتمُّ إيمانه ولا يكمل دينه حتَّى يعرف هذه الأخلاق من نفسه ويعمل على تبديلها، وتزكية النَّفس من موادِّها، فالقلب لا يزال بعيدًا من الله قريبًا من الشَّيطان ما دام [١٣٦/ب] فيه خُلُقٌ من هذه الأخلاق وهُو غير كارهٍ له، ولا تكمل حاله حتَّى يُبدِّل من نفسه مثل هذه الأخلاق - مُستعينًا بالله تعالى -.

ويستعمل الأخلاق المرضيَّة الرَّوحانيَّة(١) **مثل**: الورع؛ والتَّقوى؛ والزُّهد؛ والصَّبر؛ والحلم؛ والرِّضا؛ والقناعة؛ والتَّوكُّل؛ والتَّفويض؛ وسلامة الصَّدر؛ وسخاوة النَّفس؛ وحُسن النِّيَّة؛ والرُّجوع إلى الله تعالى في كُلِّ شيءٍ؛ وحُسن الظَّنِّ بالمُسلمين؛ والرَّحمة لهُم؛ وحُسن الخُلُق؛ وحُسن المعرفة؛ وحُسن الطَّاعة؛ وحُسن الصِّدق؛ وحُسن المُعاشرة؛ والإخلاص؛ وأن يستوي عنده مادحُه وذامُّه - وعِلْمه بأنَّ المدح لا ينفع إن كان عند الله مذمومًا؛ والذَّمَّ لا يضرُّ إن كان عند الله ممدوحًا -؛ والشَّوق إلى لقاء الله تعالى - فذلك من علامات كمال الإيمان - والتَّواضع للخلق والمُؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢).

---

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: أخلاقٌ حميدةٌ».
(٢) سُورة المائدة: الآية ٥٤.

والإخلاص لله؛ وهُو أن لا يشرك غير الله معه في عملٍ من أعماله، ومحبَّة الفُقراء أهل البصر بالدِّين - الذين هُم على محجَّة السَّالكين - وتعظيمهم على غيرهم من الأغنياء أهل الدُّنيا، وترك المُماراة والمُداهنة للنَّاس بما لا يُحبُّ الله، وخُروج الدُّنيا من القلب، ومحبَّة إخفاء عباداته وطاعاته وأحواله وكراماته، فذلك من علامات الإخلاص، وأن يجعل كلامه ضرورة؛ وأكله كذلك؛ ونومه كذلك؛ ومشيه كذلك، ويرى خيرًا منه ولا يرى لنفسه عليْه مزيَّة، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[1]

ويستعمل العُبُوديَّة مع الله تعالى، فيترك التَّدبير والاختيار والأمانيَّ، ويكره تعظيم النَّاس له والإشارة إليْه بالصَّلاح، ويشتغل بعيب نفسه عن عُيُوب النَّاس[2]، ويذكر نعم الله تعالى ومنَّته وصنائعه على الدَّوام ويشكره عليْها، وينقاد للحقِّ إذا قيل له، ويُجانب الهوى في حركاته وأحواله فلا يدعه يُشاركه في شيءٍ منها، ويُحبُّ الصَّمت إلا عن شيءٍ يعتقد ثواب الله تعالى عليْه، فيضع الكلام في موضعه، ولا يتَّكل على أعماله وطاعاته؛ بل على فضل الله تعالى، ويُجانب الحرص على الدُّنيا ويُقصِّر أمله، فإذا أصبح فلا يُحدِّث نفسه بالمساء [١٣٧/أ]، وإذا أمسى فلا يُحدِّث نفسه بالصَّباح، ويستعمل رقَّة القلب واليقظة والخوف من المكر ودوام الاستعانة بالله تعالى، ولا يفرح بموجودٍ من الدُّنيا؛ ولا يأسى على ما فاته منها، قال الله تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾[3].

ويجد الأُنس بالله تعالى في الخلوات، والوحشة من الخَلْق أهل الغفلة في الخلوات، ويترك المُماراة والمُجادلة، ويشتغل بالهمِّ وتعظيم حُرمة المُؤمنين،

(١) سُورة النَّجم: الآية ٣٢.
(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «غيره».
(٣) سُورة الحديد: الآية ٢٣.

ويقوم بحُقُوقهم وبما أوجب الله عليْه لهُم؛ خُصُوصًا من ابتُلي به من الأهل والأقارب والزَّوجات، فيُحسن مُعاشرتهم ويُكارمهُم ويلطف بهم ويستجلب وُدَّهُم بطيب الكلام ولين الجانب والتَّغافل عن زللهم، ومع ذلك فيأمرهُم بالصَّلاة والطَّهارة عند الحيْض، ولا يُسامحهُم في تضييع حقٍّ من حُقُوق الله تعالى، فيأخذهُم بالعُنْف تارة وباللِّين أُخرى؛ حتَّى يقوموا بحُقُوق الله تعالى، فإنَّهُم رعيَّته، وكُلٌّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيَّته، ولا يجفو عليْهم بسُوء خُلُقٍ، ولا يتغافل عن حقٍّ لهُم أوجبه الله تعالى، مثل نفقتهم الواجبة وكسوتُهم، وإن عجز استحلَّهُم واسترضاهُم.

ومن الإحسان: أن يستعمل النَّظافة للزَّوجة، مثل الحمَّام والطِّيب وإزالة الوسخ، فإنَّ لهُم حقًّا كما أنَّ لهُ عليْهم حقًّا، وإذا وقعت منه بادرةٌ في حقِّهم - مثل غضب مُفْرطٍ أو عُقُوبةٍ مُفْرطةٍ بغير حقٍّ - فليُبادر بتداركها ويستحلُّهُم في ذلك، وينبغي أن يسُوسهم أيضًا في ذلك، فبعض الطِّباع يكون من شِيمَتها المهانة والملامة، فإذا أُكرم فسد حاله، وإذا أُهين انصلح، فليُراع[1] جميع ذلك فإنَّه من العدل والإحسان.

وإذا اجتمع بإخوانه فلا يرى نفسه عليْهم بعبادةٍ ولا حالٍ، بل يرى نفسه دُونهُم، وليَدْعُ لهُم؛ وليَدْعُ للنَّاقصين من أُمَّة مُحمَّدٍ ﷺ بالمغفرة وإصلاح الأحوال، فيقول: اللَّهُمَّ أصلح أمَّة مُحمَّدٍ ﷺ، اللَّهُمَّ تجاوز عن أُمَّة مُحمَّدٍ، اللَّهُمَّ ارحم أُمَّة مُحمَّدٍ ﷺ، ويكون سليم القلب رحيمًا بهم، مُكرمًا لكبيرهم رحيمًا بصغيرهم، فيرى كبيرهُم كالوالد؛ ومُتوسِّطهُم كالأخ؛ وصغيرهُم كالولد، وأبناءهم[2] كالمحارم [١٣٧/ ب]، ويرى العجوز كأُمِّه؛ والشَّابة كأُخته؛ والطِّفلة كولده، فبذلك يسلم القلب؛ ويتمُّ الدِّين؛ ويكمل الحال - إن شاء الله -.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «فليراعي».
(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «أبناؤهم».

وليحفظ نفسه من الحدَّة - في قولٍ أو حركةٍ أو فعلٍ -، ويستعمل الرِّفق والسَّكينة والأناءة - في مشْيه وكلامه - حتَّى يعتاد ذلك، فيتمُّ بذلك عقله ويهدأ قلبه وتسكن نفسه وتطيب أخلاقه، ولا يتعوَّد العجلة في الكلام والمشي والحركات إلا عند ضرورةٍ، والسَّكينة في الحركات والأقوال والأفعال: سِيمَا الأولياء أهل المعرفة والحياء والأُنس والقُرْب من الله تعالى.

وليُقدِّم على جميع ذلك نيَّة، فتكون نيَّته باستعمال هذه الأخلاق - ومُجانبة تلك الأخلاق المشروحة أوَّلًا -: الحياء من الله تعالى؛ ومن نظره إليْه؛ وقُرْبه منه؛ ومعيَّته معه؛ واطِّلاعه عليْه؛ وعلمه به؛ وبما يجول في قلبه.

ثُمَّ ينوي بهذه الأخلاق امتثال أمر الله تعالى واجتناب نهيه، وطاعته على الشُّعُور بعلمه به وقُرْبه منه، فيستحيي منه ويهابه ويُعظِّمه ويُعظِّم نظره ويُطيع أمره، ويعلم أنَّه سُبحانه قريبٌ من المُطيعين، مُعرضٌ عن المُخالفين والعاصين؛ خُصُوصًا في الأعمال والأخلاق.

واعلم أنَّ أبناء الآخرة قسمان[1]:

قِسْمٌ رضُوا بأن يعبدوا الله بالعبادة الظَّاهرة من: الصَّلاة؛ والصَّوم؛ وقراءة القُرآن؛ والذِّكر؛ والحجِّ؛ والصَّدقة؛ والعِتْق؛ وعيادة المريض؛ وتشييع الجنائز؛ وأبواب البرِّ الذي هُو ظاهرٌ بالأركان، ولم يَخْلُصُوا إلى عبادة القُلُوب من: الصِّدق؛ والإخلاص؛ والحلم؛ والصَّبر؛ والتَّوكُّل؛ وغير ذلك من الأخلاق المذكورة أوَّلًا.

فتركُوا العُيُوب الظَّاهرة من: الزِّنا؛ والسَّرقة؛ وشُرب المُسكر؛ والكذب؛ والغيبة؛ والنَّميمة؛ والسَّعي بالفساد الظَّاهر.

فرضُوا بهذا من أنفسهم ولم يُعظِّموها عن عُيُوب الباطن، مثل: الغلِّ؛

---

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: واعلم أنَّ».

والحسد؛ والغشّ؛ وسُوء الخُلُق؛ والكِبْر؛ والتِّيه؛ والصَّوْلة؛ والأخلاق المذكورة أوَّلًا.

فقَدِمُوا على ربِّهم مع هذه العُيُوب غير تائبين منها، لأنَّهُم لم ينتبهُوا لها فيتُوبُوا منها، وكانت هذه أخلاق النَّفس فلم يُؤدِّبُوها، وكانوا يُصلُّون ويصومون ويجتهدون [١٣٨/أ] في أنواع البرِّ.

فإذا جاءت نوائب هذه الأخلاق حسبت أنَّهُم من الجُهَّال النِّقَاد[١]، وإذا جاءت نوبة الغضب حسبت أنَّ ذلك الصَّالح أحمقًا، وإذا جاء موضع الطَّمع فكذلك، وإذا جاء موضع الذُّلِّ فكذلك، تراه كاد أن يُشرك بالله وينخلع عن دينه هربًا من الذُّلِّ لإقامة جاهه وقدره وعزِّه، يُرضي الخَلْق بسخط الخالق هربًا من الذُّلِّ، وإذا جاء موضع الرِّزق فكأنَّه لم يسمع بوَعْد الله قطُّ، حيث قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[٢].

وتراه مُغتمًّا مُهتمًّا محزونًا مسلوب الاهتمام لدينه، مشغوف القلب من خَوْف الرِّزق، خاليًا عن ذكر الله تعالى، أعمى عن سياقة الله لرزقه إليْه كيف يسوقه.

فإذا جاء موضع الفقر تراه أَنِفًا هاربًا مُستكبرًا عن الفَقْر، وإذا جاء موضع الرِّئاسة إن رُدَّ عليْه كلامه بأيسر ردٍّ سما[٣] وغضب وتكبَّر وأَنِف، فإذا وُعِظَ في ذلك قال: إنَّما أغضب لردِّ الحقِّ، فيُقال: إن كان هُو قد كابر الحقَّ فانظر أنت لا تكن[٤] كابرت الله تعالى، فإنَّ علامة صدقك: تواضعك في الرَّدِّ عليْه، لأنَّه إنَّما عليك البلاغ وعلى ربِّه الهداية، فإنَّما عليك البيان، فإذا بيَّنت ولم يرزقه الله هداية: فمالك غضبت وأَنِفْت وتكبَّرت؟

(١) أي: الصِّغار.
(٢) سُورة هُود: الآية ٦.
(٣) أي: علا وارتفع.
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «تكون».

وإن مرَّ في الطَّاعات تزيَّن للمخلوقين وراءى وتصلَّف، وإن أثنى عليْه رجلٌ بالخير الذي ليس فيه: لم يفزع؛ بل يفرح على مدحه ويُصافيه ويُخالِلْه، وإن ذمَّه إنسانٌ بما يراه في نفسه حزن على ذمِّه لا على ما في نفسه، فعاداه وقاطعه وقام بمُكافأته وترصَّد له؛ يبتغي مُعاياته.

كثير الكلام؛ كثير الفُضُول، صاحب الشَّهوات والنِّعم، فَرِحٌ مُستبشرٌ كأنَّه قد جاوز الصِّراط وأُعطي الخلاص.

وأمَّا الصِّنف الآخر: فتركُوا العُيُوب الظَّاهرة، ثُمَّ فتَّشُوا فوجدوا في الباطن أضعافًا مُضاعفة، فقصدوا التَّطهير وراضوا أنفسهُم، فطهَّروها عن مثل هذه الأخلاق الدَّنيَّة، ونظروا إلى الأعمال الظَّاهرة التي عبدوا الله بها، إنَّما منَّ عليْهم ربُّهُم بها فثقلت عليْهم أثقال المنَّة؛ فانقطعوا وانكسروا ولم يَبْق لهُم مُعتمدٌ إلا خالقهم، وانتبهُوا لهذه العُيُوب الباطنة التي تُنقصهم عند الله تعالى.

وأقبلوا على هذه النَّفس [١٣٨/ب] الأمَّارة بالسُّوء؛ فزجروها وراضوها حتَّى تركت هذه الأخلاق وتطهَّرت من هذه الأقذار وتعلَّقت بالخالق، فأَنِسُوا بالله وسَكَنُوا إليْه عند وَعْده بالرِّزق، وائتمنوه على أنفسهم ففوَّضُوا أُمورهُم إليْه، وقطعوا القُلُوب عن كُلِّ شيءٍ يُشغلُهُم عن مولاهُم، ورأوا عظم منَّته عليْهم بالإسلام والإيمان والقُرآن والرَّسول ﷺ وإلى ما دعاهُم إلى جواره وداره، فتهذَّبت أخلاقهم وصَفَت أسرارهُم وخشعت قُلُوبهُم وصاروا مُتواضعين لله؛ مُتواضعين لخَلْقه، لا يتكبَّرون عليْهم ولا يصُولُون.

وهُم مع ذلك يحذرون من الخَلْق كي لا يُفسدوا عليْهم أديانهم وقُلُوبهم، فلا يُخالطون إلا من ينتفعون[1] به من العُلُوم الظَّاهرة والأحكام الباطنة، فتراهُم خائفين خاشعين هيِّنين ليِّنين خاضعين مُنقادين، آثار العُبُوديَّة عليْهم

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «ينتفعوا».

ظاهرة من الانكسار لعظمة مُوَلِّيهم، وهُم مع ذلك عزيزين؛ عزُّهُم في قُلُوبهم لاستغنائهم بربِّهم وفي ألسنتهم عند إقامة دين مُوَلِّيهم.

فلم تزل المادَّة إليْهم من ربِّهم واصلة؛ وعليْهم من الله الرَّحمة دارَّة دائمة، حتَّى قربت إليْهم قُلُوبهم، وعرَّفهُم نفسه فعرفوه وأحبُّوه وعظَّموه وهابوه، وأنسوا به في الخلوات ووثقوا به وفوَّضُوا إليْه، فعبدوه في أيَّام الدُّنيا كأنَّهم يرونه، كما قال رسول الله ﷺ: «**اعْبُد الله كأنَّك تراه**»[(١)].

فقدموا على ربِّهم طاهرين مُطهَّرين مُهذَّبين نازعين عن العُيُوب الظَّاهرة والباطنة، نُفُوسهم مُطمئنَّة بخالقهم، قد ﷺ ورضوا عنه، وقُلُوبهم مشغولة بحُبِّه مُتعلِّقة به مُشتاقة إليْه، فأولئك خُلفاء الله على عباده، وأولياؤه في أرضه.

فنسأل الله الكريم أن يُوفِّقنا لما وفَّقهُم، ويُفيض علينا ما أفاض عليْهم، ويُعيننا على تزكية نُفُوسنا وتهذيب أخلاقنا بمنِّه وكرمه.

وهذا آخر ما تيسَّر.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين.

وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله العليِّ العظيم[(٢)] [١٣٩/أ].

---

(١) أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٦١٥٦)- ١٠/ ٢٩٧] عن عبد الله بن عُمر بن الخطَّاب ﷺ، ولفظه: (أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال: اعْبُد الله كأنَّك تراه، وكُنْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ أو عابر سبيلٍ).

(٢) قُلتُ: كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في مدينة أصفهان؛ في جُمهوريَّة إيران، في يوم الاثنين ١٧ من شهر الله الحرام ١٤٣٦هـ؛ الموافق ١٠ نُوفمبر (تشرين الثَّاني) ٢٠١٤م.

قَاعِدَةٌ فِي الفَرْقِ بَيْنَ كِبْرِ النَّفْسِ وَعِزَّةِ القَلْبِ وَبَيْنَ البَغْيِ وَالشَّجَاعَةِ وَغَيْرِهِمَا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اعلم أنَّ حركات النَّفْس غالبًا تكُون مُقارِنة للظُّلْم، وهي حركاتٌ شيطانيَّةٌ خارجةٌ عن الفطرة التي فطر الله عليْها الخَلْق، وحركات القلب غالبًا تكون مُقارِنة لميزان الفطرة العقليَّة التي رُكِّبت في الإنسان، وكُلٌّ منهما له علامةٌ يستدلُّ عليْها.

فعلامة حركات النَّفْس: الحدَّة والطَّيْش والعجلة والعَمَى عن مُلاحظة العواقب والغَيْبة عن حقائق الأشياء، وغالبًا تكون مُقارِنة للنَّظر القاصر وقصد قضاء النَّهَم والوَطَريَّة.

وعلامة حركات القلب: التُّؤَدَة والسَّكينة والوقار والبصر النَّافذ في العواقب وفي حقائق الأشياء، والقُوَّة على قصد تنفيذ الأُمُور على مُقتضياتها ووَضْعها مواضعها بالميزان الشَّرعيِّ على الصَّواب العقليِّ.

أمَّا الميزان الشَّرعيُّ: معلومٌ، وأمَّا الصَّواب العقليُّ: فهُو وَضْع ذلك المعنى الشَّرعيِّ مواضعه؛ بحيث لا يُعدِّيه وقته ولا يُنْقِصه من حدِّه المشروع، فذلك الذي يُسمَّى صوابًا.

إذا علمت ذلك: فاعلم أنَّ الله تعالى قد رَكَز في جبلَّة الإنسان خصائص استعملها في مصالحه من أُمور دينه ودُنياه، والحكمة الإلهيَّة تقتضي أن يستعمل كُلَّ خَصِيصَةٍ فيما خُلقت له؛ بلا بَغْيٍ ولا ظُلمٍ في طَرَف الإفراط، ولا بُرُودةٍ وفُتُورٍ في طَرَف التَّفريط.

فمتى وقفت على هذه الثَّلاثة: عرفت بمشيئة الله تعالى الفَرْق بين ما يتلبَّس

من العوارض الظَّاهرة والباطنة من: العزَّة والكِبْر؛ والشَّجاعة والبَغْي؛ والعفَّة والشَّبق؛ والحكمة والهذرمة[١]؛ والتَّواضع والذِّلَّة؛ والانتقام والظُّلم[٢]؛ واللِّينة والأُمنية؛ والمودَّة والعشق؛ والمُداراة والمُداهنة؛ وغير ذلك من الأعراض الإنسانيَّة التي يلتبس التَّمييز بين حقِّها وباطلها؛ وقدر المشروع منها ممَّا لا يُشرع.

فإنَّ الله تعالى قد ركَّب في سجيَّة[٣] الإنسان: عزَّة القلب وسكينة العقل، ليستعمل ذلك في أحواله وشُؤونه بينه وبين ربِّه؛ وبين عباده، فمتى أفرط فيه بمُشاركة النَّفس: خرج إلى الكِبْر.

وصفة ذلك: أنَّ العبد [١٣٩/ب] العاقل المُؤمن العارف بربِّه يكون له قلبٌ وبصيرةٌ يرى بها عظمة ربِّه ﷻ، ويُلاحظ بها أمره ونهيه، وينظر في العواقب، فتركَّب من مجموع ذلك: سكينةٌ وَغَيْبةٌ في صفاء الفِكْر تلحقه، فتكون هيئته كهيئة من يكون في حضرة المَلَك، فلا بُدَّ أن يلتبسه من عزِّه ووقاره ما يظهر منه على وُجُوده الظَّاهر، بحيث لا يحقر أحدًا ولا يبخسه حقَّه ولا يُعدِّيه طَوْره، فهذه التي تُسمَّى العزَّة، وهي عزَّةٌ مقصورةٌ على القُلُوب، مقرونةٌ بصفات العقل، عليْها طلاوةٌ وحلاوةٌ تشربها القُلُوب، وتستحليها[٤] العُقُول، وتُورث صاحبها محبَّة في القُلُوب وميْلًا إليْه، مع ما يظهر عليْه من آثار تلك العزَّة.

فمتى قَصُرَتْ هذه القُوَّة فيه: انحطَّ إلى المهانة، فيُورث ذلك السُّخرية والاستهزاء به بين النَّاس، كما يُورث صاحب العزَّة الوقار والتَّعظيم بين

(١) أي: سُرعة الكلام والتَّخليط فيه.
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «والانتقام والتَّواضع والظُّلم».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «شجية».
(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «يستحليها».

النَّاس، ومتى أفرطت العزَّة فيه أخرجته إلى الكِبْر.

والكِبْر حركاتٌ شيطانيَّةٌ نفسانيَّةٌ تتركَّب من رُؤية قَدْره ونُفُوذ حكمته وعلمه وقُصُور غيره عن حاله، وتُورثه استكبارًا عن الحقِّ إذا طُولِبَ به، وإقامة المعاذير لنفسه عند ظُهُور الحُجَّة عليْه، والغَيْبة عن ربِّه ومولاه الذي هُو رقيبٌ عليْه.

فلو لاحظ ذلك: لذلَّت نفسه؛ واعتدل كِبْره وصار عزَّة، إذ معرفة الله تعالى وظُهُور صفات النَّفس غالبًا لا يجتمعان، اللَّهُمَّ إلا في ناقص البصيرة، بحيث يُبصر أمرًا ويغيب عن آخر، فقد يدخل عليْه لسبب العَمَى ما يُخلِّفه عن ذلك.

ومن علامات الكِبْر: أنَّه يطلب إقامة جاهه؛ وكسر غيره والانتقام منه بغير حقٍّ، ولا يذكر أحدًا إلا انتقصه وذكر عُيُوبه ونَسِيَ فضائله وذِكْر فضائله، وأظهر فضائل نفسه، وهُو كما سبق: صفةٌ يُقارنها العَمَى، والعزَّة صفةٌ يُقارنها البَصَر، والله[1] المُستعان.

ومثل ذلك: الشَّجاعة والبَغْي، فالله ﷻ ركَّب في سجيَّة العبد قُوَّة وغضبًا ليُقيم به الحقَّ وأهله، ويكسر به الباطل وأهله، والعبد مُطالبٌ بتوفير هذه القُوَّة وحفظها واستعمالها في أوقاتها في مصالح الدِّين والدُّنيا، فمتى قصَّر منها خرج إلى العجز [١٤٠/أ] الذي يُبغضه الله ويلوم عليْه، كما جاء في الحديث: «**إنَّ الله يلوم على العَجْز**»[2].

---

(١) في النسخة الخطيَّة: «وبالله»، والصواب ما أثبته.

(٢) أخرجه أحمد في مُسنده [الحديث رقم (٢٣٩٨٣)- ٣٩/٤٠٨-٤٠٩]، وأبُوداوُد في سُننه [كتاب الأقضية/ باب الرَّجل يحلف على حقِّه- الحديث رقم (٣٦٢٧)- ص٥٤٩] عن عوْف بن مالكٍ ﵄، ولفظ أحمد: (أنَّ النَّبيَّ ﷺ قضى بيْن رجليْن، فقال المقضيُّ عليْه لمَّا أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال رسول الله ﷺ: ردُّوا عليَّ الرَّجل، فقال: ما قلت؟ قال: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال رسول الله ﷺ: إنَّ الله يلوم على العَجز، ولكن عليْك بالكَيْس، فإذا غلبك أمرٌ فقُل: حسبي الله ونعم الوكيل).

قال ابن القطَّان في بيان الوهم والإيهام [٥/ ١١٢]: (وهذا الذي أبرز من إسناده هُو علته =

وكان مع العجز: تضييع الحُقُوق؛ وترك الانتصار للمظلوم؛ وتضييع المصالح الدُّنْيويَّة[١] التي لا تتمُّ المعيشة إلا بها؛ وأمثال ذلك.

فالشَّجاعة المحمودة يُقارنها الصَّبر والعدل، وهُو وَضْع الأشياء مواضعها، ومتى أفرطت هذه القُوَّة فيه: أخرجت إلى البَغْي؛ والانتصار للنَّفس لا لله؛ وطلب القهر لغيره بحقٍّ وبغير حقٍّ؛ ومثل ذلك.

ومثله: العفَّة والشَّبق، فالله ﷻ ركب في السَّجيَّة[٢] الإنسانيَّة شهوة؛ إذا اعتدلت بها يكون التَّآلف بين الأزواج، وبها يتمُّ التَّوليد والتَّناسل، وعلامة اعتدالها أن تكون مُقارِنة للعقل، وتكون مقصورة على الحدِّ المشروع في الأزواج والإماء، لا تتعدَّى الهمَّة إلى غيرهنَّ، ومتى قَصُرَتْ عن ذلك: انحطَّ صاحبها إلى العُنَّة والبُرُودة وموت الهمَّة، وهُو عَيْبٌ في الإنسان، ومتى أفرطت جاوزت الهمَّةُ الحدَّ المشروع، وأخرجته إلى الفواحش ممَّا حرَّمه الله تعالى وكرهه، وقارنتها صفات النَّفس كما تقدَّم ذِكْره، وهي همُّ قضاء الوَطَر في كُلِّ ما يُمكن قضاؤه من ذكرٍ وأُنثى ودابَّةٍ واستمناءٍ، فيتخلَّف عنها حُكم العقل وميزانه، وأعدل الأشياء: التَّوسُّط بين الإفراط والتَّفريط.

وكذلك الحُكم في الحكمة والهذرمة: فالله سُبحانه جعل في الإنسان قُوَّة ناطقة مُعبِّرة عن المصالح الدِّينيَّة والدُّنْيويَّة[٣]، وهُو ترجمان لما تُلاحظه[٤] البصيرة من وعد الله ووعيده، وتخويفه وتحذيره، بها تقوم حُجَّة الله، وبها

= - أعني سيْفا الشَّامي -، وهُو رجلٌ لا يُعرف بغيْره، رواه عنه خالد بن معدان، وعن خالد بحير بن سعد، وعن بحير بقيَّة، ولم يُبيِّن ذلك، وهُو دائبًا يُضعِّفه ويضعف به).

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «الدنياوية».

(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «الشجية».

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «الدنياوية».

(٤) في النُّسخة الخطيَّة: «يُلاحظه».

يهتدي الخَلْق بواسطة العُلماء المذْكُورِين لآلاء الله تعالى ونعمه؛ وعُقُوباته وأمره ونهيه، وهي قُوَّة تُقارنها السَّكينة والعقل إذا اعتدلت، فمتى قَصُرَتْ عن ذلك: انحطَّ صاحبها إلى العَمَى وعدم البيان، فتضيع لذلك المصالح العاجلة والآجلة.

ومثله: إذا أفرطت في صاحبها وأخرجته إلى الحُمق والهذرمة، وعلامة ذلك: أن تُقارنها صفات النَّفس، كشهوة الكلام - خيرًا كان أو شرًّا؛ بنيَّةٍ أو بغير نيَّةٍ -، بخلاف الأوَّل، فإنَّها تكون مقرونة بقصد الصَّلاح؛ أو بقصدٍ صالحٍ ونيَّةٍ حسنةٍ، فإنَّ هذا يكون مقصورًا على الشَّهوة؛ فيُمِلُّ الحاضرين ويُمْقَتُ لذلك.

والأوَّل يُؤثر صاحبها [١٤٠/ب] آثارًا حسنة في القُلُوب، فتُصغي إلَيْه القُلُوب بأسماعها، فيكون ذلك ممَّا يكفيه من الحكمة، كبذرٍ يقع في أرضٍ طيِّبةٍ فيكون سببًا للفلاح والسَّعادة في الآخرة؛ والاغتباط والغنيمة العاجلة، وخير الأُمُور أوساطها.

ومثل ذلك: التَّواضع والذِّلَّة، فالتَّواضع مقرونٌ بصفات العقل وحُسن الخُلُق، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

وعلامته: أن لا يُضيع حقًّا لنفسه، ولا يُعطي أحدًا فوق ما يستحقُّه، بل يُنزل نفسه دُون منزلته قليلًا، وبذلك يكون التَّآلف بين المُؤمنين والتَّواصل والتَّراحم والتَّحابب.

ومتى فرَّط في هذه المرتبة: انحطَّ صاحبها إلى المهانة والذِّلَّة، فيُورث ذلك استخفافًا به، فيضيع لذلك حقُّه، ويُظلم عن إيفائه، ومتى أفرط فيها: غاب عن معرفة حُكم نفسه، فرُبَّما شَمَخَتْ نفسه وتعالت، فأخرجت صاحبها

(١) سُورة الحجر: الآية ٨٨.

إلى الكِبْر المبدوء بذكره.

ومثل ذلك: الانتقام والظُّلم، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾(١).

فمن انتقم لنفسه أو لله بحُكم العدل والشَّرع؛ كالرَّدِّ على من انْتَقص منه بغير حقٍّ، أو ذَكَر ظُلْمَ من ظلمه، قال الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾(٢).

وكذلك إذا كان الانتقام لله؛ كردِّ غِيبَة مُسلمٍ، وجلد الزَّاني ورجمه، وقطع السَّارق، كُلُّ ذلك إمَّا واجبٌ وإمَّا جائزٌ، فمتى قَصُرَ ذلك في الشَّخص: أخرجه إلى تضييع الحُقُوق، والله تعالى لا يرضى حتَّى تُقام حُدُوده وحُقُوقه.

فأمَّا العبد فمُخيَّرٌ في حقِّ نفسه، ففي بعض الأوقات يكون الانتقام أفضل، وهُو فيما إذا ضاع في مُقابلة ذلك مصلحة أفضل من الصَّبر على الأذى؛ فيكُون الانتقام أفضل، وقد يكون الصَّبر أفضل، فمن راعى الأفضليَّة استعمل العدل في ذلك.

ومتى زاد المُنتقم عن رعاية العدل: أخرجه ذلك إلى الظُّلم ومُفارَقة صفات النَّفس، فطَلَب مُجرَّد الانتقام والضَّرب والقتل.

كما بلغنا عن بعض المُلُوك أنَّه نُقل إليْه عن بعض خَوَلِه قَذْفٌ(٣)، فجرَّد [١٤١/ب] السَّيف وقتل كُلَّ من في الدَّار من الجواري والغلمان.

ومثل ذلك: النِّيَّة والأُمنية، فالنِّيَّة: هُو القصد الصَّحيح على تنفيذ أمرٍ من أوامر الله تعالى لله ﷻ؛ لا يُريد به إلا الله، وذلك رُكنٌ من أركان الدِّين؛ لا تتمُّ الأعمال إلا به، ولا تصحُّ بدُونه.

فمتى قصَّر صاحب الأعمال فيها: أخرجته إلى عمل العادة، كصلاة

---

(١) سُورة النَّحل: الآية ١٢٦.

(٢) سُورة النِّساء: الآية ١٤٨.

(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «قذفًا»، والصواب ما أثبته.

العادة؛ وصدقة العادة؛ وأمثال ذلك، ومتى أفرط فيها: أخرجته إلى الوسواس، فيُحدِّث نفسه بما لا يُمكن، مثلًا يكون صُعْلُوكًا فيُحدِّث نفسه أنَّه إذا مَلَك أن يُعمِّر جامعًا؛ أو يُولِّي قاضيًا؛ أو أنَّه إذا لقي كنزًا أن يفتح زاوية، وذلك وإن كان مُحقًّا لكنَّه تضييعٌ للهمِّ وحُمُوقيَّةٌ؛ وخُرُوجٌ عن ميزان العقل والشَّرع إلى مُراد النَّفس وصفاتها.

وكذلك المودَّة والعشق، فالمودَّة: اعتقاد النَّصيحة للأخ المُسلم في الله والأُنس به والوحشة عن غَيْبته زمانًا طويلًا، فيُحبُّ لأخيه ما يُحبُّه لنفسه، ويودُّه بقلبه ويُشركه في شيءٍ من رفقه، وبهذا تتمُّ المودَّة بين الإخوان وتدوم الصُّحبة، وبه يكُون التَّآلف وسريان الخير من الأخ إلى أخيه.

فمتى قَصُرَتْ هذه القُوَّة في الشَّخص: انحطَّ صاحبها إلى البُرُود والتَّهاون، فيجتمعان وكان كُلُّ واحدٍ منهما مُعرضًا عن أخيه مُقصِّرًا في حقِّه، بارد الهمَّة عن وُدِّه، كأنَّه أجنبيٌّ عنه، يستوي عنده إقباله وإعراضه، فلا يهتمُّ لشيءٍ من أُمُوره، ولا يكترث به، وبهذا يكون النُّفُوذ، وتضيع بذلك المصالح الدِّينيَّة والدُّنْيويَّة[(١)]، وكذلك إذا أفرطت هذه القُوَّة في صاحبها: أخرجته إلى تعلُّق القلب بأخيه؛ وسُكُونه في حُبِّه[(٢)]، ولا يصبر على أن لا يراه لحظة واحدة، ويُطالبه بالتَّقيُّد به ليلًا ونهارًا، ويُبالغ في حُبِّه حتَّى يُحبَّ أن يكون فراشه عند فراشه، وهذا إنَّما يقع غالبًا في وداد الصِّبيان، فيخرج عن ميزان العدل والعقل، ويُقارنها صفات النَّفس وقضاء الوَطَر، ورُبَّما جرَّت إلى المكروه من تعاطي ما لا يُشرع؛ من مُعانقةٍ وتقبيلٍ، إن سَلِمَ صاحبها عمَّا [١٤١/ب] هُو أكثف من ذلك، والعدل الوسط من ذلك بين الإفراط والتَّفريط.

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «الدنياوية».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «حُبِّه قلبه».

ومثل ذلك: المُداراة والمُداهنة، فالمُداراة: سجيَّة[١] حسنةٌ صالحةٌ تكون في المُؤمن، يُعاشر بها إخوانه في الله تعالى، فإنَّهُم ذوُو نُفُوسٍ ولا بُدَّ من ظُهُور أحكامها في آحادٍ منهُم بعض الأحيان، مثل حدَّةٍ في قولٍ أو سَبْق لسانٍ فيما لا يقصده صاحبه من كلمةٍ تُؤذي، وأمثال ذلك.

فإذا ظهر مثل ذلك من أخٍ في الله: احتمله وداراه لله ﷻ طلبًا لمرضاته، فهذه هي المُداراة.

ومتى قَصُرَتْ في صاحبها عَقَد بقلبه على ما سمع، وأورثه ذلك البُغض وسُوء الظَّنِّ والمُقابحة[٢] والمُقابلة على كُلِّ خطإٍ يقع من إخوانه أو نسيانٍ، وذلك نقصٌ.

ومتى كانت مُداراته لحظٍّ دُنيويٍّ[٣] يتوقَّعه منه، أو لخدمةٍ يخدمه ولا يلحظ بتلك المُداراة وجه الله تعالى: فهذه مُداهنةٌ لا مُداراةٌ.

ومن وفَّقه الله تعالى لوزن نفسه بميزان الاعتدال في الأُمور؛ وأيقظه لطَرَفي الإفراط والتَّفريط: استقام على الصِّراط المُستقيم بمشيئة الله تعالى وعَوْنه، وبالله التَّوفيق.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين[٤].

---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «شجية».
(٢) المُكاشفة بالقبيح من المُشاتمة ونحوها.
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «دنياوي».
(٤) قُلتُ: كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في مدينة طهران؛ عاصمة جُمهوريَّة إيران، في يوم السَّبت ٢٢ من شهر الله الحرام ١٤٣٦هـ؛ الموافق ١٥ نُوفمبر (تشرين الثَّاني) ٢٠١٤م.

قَاعِدَةٌ فِي أَنَّ العَبْدَ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ الطَّرِيقِ إِلَى اللهِ عز وجل وَالتَّعَرُّفُ له

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه الإعانة

الحمد لله جامع المُتفرِّقات، المانِّ بتُحف المبارِّ والصِّلات، والمُتفضِّل على أهل وداده بمنح الكرامات، الجاذب لقُلوبهم إلى دائرة الجمع من تفرقة الشَّتات، طُوبى لمن كان الله أمله ومُبتغاه من جميع الأغراض الفانية والموجودات، وقُرَّة عينه إذا قرَّت عُيون أهل الحُظوظ بالأشياء الموات.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأرض والسَّماوات، وعالم ما ظهر وما بطن من الخفيَّات.

وأشهد أنَّ مُحمَّدًا ﷺ عبده ورسوله [١٤٢/أ] أرسله بالهُدى ودين الحقِّ ليُقوِّم به أهل الضَّلالات، ويُنقذهم من المعاثر والورطات، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه أفضل الصَّلوات، وحيَّاهُم بأكرم التَّحيَّات.

وبعد:

فالعبد يتعيَّن عليه معرفة الطَّريق إلى الله ﷻ والتَّعرُّف له، فمن عرف ذلك كان الكريم على ربِّه، والسَّفِلَة من لم يعرف الطَّريق إلى الله ﷻ ولم يتعرَّفه، والواجب على من سلك طريقًا إلى الله ﷻ أن لا يُفارقها حتَّى يأتيه اليقين، وإن شقَّت عليْه، وتعذَّرت أسبابها لديْه، فليسلك إلى الله طريقًا أُخرى، فإنَّ الطُّرق كثيرةٌ مُتنوِّعةٌ، جعلها الله كذلك لتنوُّع الاستعدادات واختلافها، وذلك رحمة منه وفضلًا، إذ لو كانت طريقًا واحدة مع اختلاف الأذهان والعُقول

وقُوَّة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها إلا واحدًا بعد واحدٍ، ولكن لمَّا اختلفت الاستعدادات جُعلت الطُّرق مُتنوِّعة[١]؛ ليسلك كُلُّ امرئٍ إلى ربِّه على قدر ما يقتضيه استعداده.

فمن النَّاس من سلك طريق العلم والتَّعلُّم يُريد بذلك وجه الله تعالى، فلا يزال كذلك عاكفًا على طريقه يتعلَّم ويُعلِّم حتَّى ينفذ إلى ربِّه أو يموت في طلبه، فيُرجى له الوُصول بعد مماته، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[٢].

ومن النَّاس من يسلك طريقًا من طُرق الآخرة مُواظبًا[٣] عليه يُريد به وجه الله عاكفًا على ذلك العمل غير مُفارقٍ له بالإرادة الصَّحيحة في طلب مولاه، مثل جهادٍ أو رياضةٍ أو حجٍّ أو صلاةٍ أو صومٍ أو خدمةٍ وإعانةٍ أو إطعام المساكين أو برِّ الوالديْن وخدمتهما أو نوعًا من العبادات المشروعة مثل دوام تلاوةٍ أو ذكرٍ أو مُراقبةٍ أو تجريدِ همٍّ في محبَّة الله تعالى وطلبه، وما جرَّب المُجرِّبون من هذه الطُّرق مثل طريق[٤] الصَّلاة؛ فإنَّها صلاةٌ، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾[٥]. خُصوصًا إذا كانت في خلوةٍ بالتِّلاوة وطُول الرُّكوع والسُّجود، فإنَّها تُذوِّب النُّفوس وتُنوِّر القُلوب وتُوصل إلى المحبوب بعون الله وتوفيقه، وتُورث دوام حال المُراقبة والتَّعظيم، فلا يزال على [١٤٢/ب] ذلك العمل يُريد به وجه الله والوُصول إليه لا يُفارق ذلك العمل حتَّى يموت أو ينفذ إلى ربِّه.

---

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: الطُّرق مُتنوِّعة».
(٢) سُورة النساء: الآية (١٠٠).
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «مواظبٌ».
(٤) في النسخة الخطية: «الطُّرق طريق».
(٥) سُورة المؤمنون: الآيتان (١-٢).

ومعنى النُّفوذ(١): أن يتَّصل قلبه بنُور ربِّه ويعلق به فيسلو به عن جميع الشَّهوات ويخترق كوامن النَّفس ويظهر دسائسها وخفيَّ شهواتها في ضوء معرفته واتِّصاله بربِّه، ثُمَّ يعطف عليه مولاه فيُقرِّبه ويصطنعه ويأخذ بقلبه إليه ويتولاه في أُموره ومعاشه وزواجه، ويتولَّى تربيته كما يُربِّي الوالد ولده بل أبلغ، فإنَّه سُبحانه القيُّوم بكُلِّ شيءٍ من المخلوقات طائعها وعاصيها، فكيف تكون(٢) قيُّوميَّته بمن أحبَّه واعتنى به واهتمَّ بقُربه والوُصول إليه؟ ذاك أمرٌ لا تسعه العبارة، لو كُشف الغطاء عن ألطافه به من حيث يعلم العبد يشعر باتِّصال قلبه به سُبحانه، ويشعر بتولِّيه له سُبحانه في أُموره، فهُو كالمُفوِّض إليه في النَّوائب وغيرها، بل في مجاري الأنفاس ينتظر ما يُريده به مولاه، قد رضي به مُدبِّرًا ومُتولِّيًا ومُعينًا وناصرًا وكافلًا وراحمًا، وكيف لا وهُو أرحم الرَّاحمين؛ وأحسن الخالقين؛ وخير النَّاصرين؟ تبارك الله ربُّ العالمين.

ومن رزقه الله معرفة ذلك والإيمان به لم ينحرف عن ربِّه في طريق يسلكها إليه، بل يتوجَّه إليه بالقصد الأوَّل، ثُمَّ يستخير مولاه في طريقٍ يسلكها إليه فيسلكها ويدوم عليها حتَّى يصل إلى ما ذُكر من النُّفوذ أو يموت في طلبه.

ومن عرف طريقًا إلى الله ثُمَّ تركها وأقبل بإرادته على نيل شيءٍ من راحاته ولذَّاته تعثَّر(٣) في آبار المعاطب، وسجن قلبه في حُبوس المضايق، وعُذِّب بعذابٍ لم يُعذَّب به أحدٌ من العالمين.

وكيف لا وقد ترك طريق مولاه، وأقبل بكُلِّيَّته على هواه، فهُو وإن نال بعض حُظوظه وتلذَّذ براحاته وشُؤونه يكون مُقيَّد القلب عن انطلاقه في فُسحة

(١) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «مطلبٌ: في معنى النُّفوذ».
(٢) في النُّسخة الخطيَّة: «يكون».
(٣) في النُّسخة الخطيَّة: «يعثر».

التَّوحيد؛ مُنحطًّا[١] بسبب إعراضه عن مولاه في أسفل السَّافلين، وإن مات - والعياذ بالله على ذلك - خيف عليه عذابًا خاصّاً من الحُجب الحائلة عن مولاه، وأن يُحرق بنارٍ من البُعد عن قُربه ويُحال بينه وبين ما يتمنَّاه من فضله، وإن كان في نعيمٍ عامٍّ في البرزخ [١٤٣/أ] فقد يُخاف عليه هذا العذاب الخاصُّ في البرزخ وفي الموقف إلى أن يُقضى بين الخلائق، ويتخلَّف بذلك في الجنَّة عن درجات المُقرَّبين المحبوبين النَّافذين، أو عن درجات الصَّادقين الطَّالبين الذين دام لهُم السَّير إلى المحبوب مُوَلِّيهم حتَّى الممات، ويُخشى عليه إذا نال عرضه من شهوته العاجلة أن يُنغِّص عليه لذَّتها أحوج ما كان إليها، ويُلحقه غِبَّ إعراضه فيُعوِّق عليه أسباب مُراده فيخسر الأمرين جميعًا فيكون مُعذَّبًا في الدُّنيا بتنغيص شهواته وشدَّة الاهتمام بطلب أقسام العاجلة من الأسباب بهمٍّ لا يَنْفَد؛ وحرصٍ لا ينقطع؛ وذُلٍّ وطمعٍ لا حدَّ له، ومُعذَّبًا في البرزخ، وغِبِّ الإعراض بالبُعد عن الاقتراب عن مراتب أهل الصِّدق والثَّواب.

طُوبى لمن عرف طريقًا إلى مولاه فلم يترك الذَّهاب فيه حتَّى يلقاه.

ومن أقبل على الله بكُلِّيَّته أقبل الله عليه بكُلِّيَّته، ومن أعرض عن الله بكُلِّيَّته أعرض الله عنه بكُلِّيَّته، والخير كُلُّه في إقبال المولى المالك على عبده، كما أنَّ الشَّرَّ كُلَّه في إعراضه عنه.

من أعرض الله عنه لزمه التَّعثير في أحواله، وقارنه سُوء الحال في دُنياه ومعاده، ومن أقبل عليه مولاه قارنه السَّعد في أُولاه وأُخراه.

إنَّ الله إذا أقبل على جهةٍ استنارت وأشرقت ساحتها، وتنوَّرت ظُلماتها، وظهرت عليها بهجة الجلال وسيماء آثار الحال، وتوجَّه إليها أهل الملأ

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «مُنحطٌّ».

الأعلى بالمحبَّة والمُوالاة، لأنَّهُم تبعٌ لمولاهم، إذا أحبَّ عبدًا أحبُّوه، وإذا أبغض عبدًا مقتوه.

وناهيك من يتوجَّه إليه المَلِك الأعظم بالمحبَّة والوداد، ويلحظه أهل السَّماوات وصالحوا العباد، بالاعتناء به في الدُّنيا ويوم يقوم الأشهاد.

وإنَّ الرَّبَّ ﷻ إذا أعرض عن جهة دارت بها النُّحوس، وأظلمت أرجاؤها، وانكسفت أنوارها، وظهر عليها وحشة الإعراض، وصارت مأوى للشَّياطين، وهدفًا للشُّرور والتَّكوين.

فالمسكين من عرف طريقًا إليه ثُمَّ أعرض عنها، أو وجد بارقة من حُبِّه ثُمَّ سُلبها لم ينفذ إلى مولاه منها، خُصوصًا إذا مال بتلك الإرادة إلى نيل شيءٍ من اللَّذات، أو انصرف بجُملته إلى تحصيل كفاية الزَّوجات، عاكفًا على ذلك في ليله ونهاره وغُدوِّه ورواحه، هابطًا من الأَوْج الأعلى إلى الحضيض الأدنى، مضت عليه بُرهة من أوقاته [١٤٣/ب]، وكان همُّه الله، وبُغيته قُربه ورضاه، على ذلك يُصبح ويُمسي ويظلُّ ويضحى، وكان الرَّبُّ في تلك الحالة وليه لأنَّه وليُّ من تولاه، وحبيب من أحبَّه ووالاه، فأصبح ثاويًا في آبار التَّفرقة، مُعرضًا عن المطالب العالية؛ إلى نيل الأغراض الفانية، كان قلبه في السَّموات؛ فأضحى هاويًا في المزلات.

كما قيل[1]:

وأصبحتُ كالباز المُنتَّف ريشُه ... يرى حسراتٍ كُلَّما طار طائرُ

وقد كان دهرًا في الرِّياض مُنعَّمًا ... على كُلِّ ما يهوي من الصَّيد قادرُ

إلى أنْ أصابته من الدَّهر نكْبةٌ ... فأصْبح مقْصُوص الجناحيْن خاسرُ

---

(١) أورد ابن الجوزيّ هذه الأبيات في كتابه «المدهش» [ص٤٥٨-٤٥٩] ولم ينسبها لقائل.

فيا من عرف إلى ربِّه طريقًا وأعرض عنها: ليت شعري بماذا تعوَّضت عن الأحبَّة؟ أم بماذا قنعت في شراب المحبَّة؟

إذا قيل لك: كيف طاوعك قلبك على الإعراض؛ إلى نيل ما لا يبقى من الأعراض؟

ليت شعري بأيِّ جوابٍ تُجيب؛ وأنت مُخطئ غير مُصيبٍ؟

يا مُعرضًا عنَّا عناك التَّعب، يا من باع الذَّرَّ بالمُحتلب، هذه لذَّتك الفانية حاصلها فرح شهْرٍ وغمُّ دهرٍ.

انتبه من رقدتك قبل دُخُولك[1] في أشراك شهوتك، فتبقى كدُود القزِّ يسدُّ على نفسه المذاهب بما نسج على نفسه، فيندم حين لا تنفعه النَّدامة.

فنسأل الله الكريم أن لا يجعلنا من المُعرضين عن الطَّلب، الناكصين إلى نيل الحظِّ العاجل والأرب، بكرمه ورحمته، إنَّه أرحم الرَّاحمين.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم[2].

---

(١) في النسخة الخطية: «حصولك».

(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «بلغ». قُلتُ: كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في اسطنبول في يوم الأربعاء ١١/ شعبان ١٤٣٧هـ؛ الموافق ١٨/ مايو (أيار) ٢٠١٦م.

قَاعِدَةٌ فِي تَقْوِيَةِ السَّالِكِ عَلَى الوُصُولِ إِلَى مَطْلُوبِهِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله أجمعين.

كتبنا قبْل هذا: قاعدة في الحثِّ على سُلُوك طريق الحقِّ ﷻ، وأنَّ من سلك طريقًا من طُرُق الحقِّ تعالى: يتعيَّن على سالكها أن لا يُفارقها حتَّى يَنْفُذ إلى ربِّه تعالى منها؛ أو يمُوت في طلبه، وبيَّنَّا النُّفُوذ ما هُو؛ ومعناه.

وهذه القاعدة تتمَّةٌ لتلك القاعدة، فإنَّ تلك القاعدة خاصِّيَّتها الانجذاب من طُرُق الشَّهوات إلى طريقٍ من طُرُق الحقِّ تعالى من تلك الطُّرُق المذكورة من: الحجِّ؛ أو الصَّلاة؛ أو الجهاد؛ أو غير [١٤٤/أ] ذلك.

وخاصِّيَّة هذه القاعدة: تقوية ذلك الذي انجذب من طُرُق الشَّهوات إلى طريقٍ من هذه الطُّرُق، فإنَّه يحتاج إلى شيءٍ يُقوِّيه في هذه الطَّريقة؛ ليبْقى سيْره فيها أقوى من سيْر صاحب الشَّهْوة في شهْوته - إن شاء الله تعالى -.

اعلم أنَّ قُوَّة السَّالك في سيْره ونُفُوذه إنَّما يكون بقُوَّتيْن: قُوَّةٍ علميَّةٍ، وقُوَّةٍ عمليَّةٍ.

فبالقُوَّة العلميَّة: يُبْصر ما بيْن يديْه ويقْصد به الأمر الحقَّ، ويجْتنب به أسباب المهالك والمعاطب، كشخْصٍ يمْشي في ليْلةٍ مُظْلمةٍ وفي يده سراجٌ يُبْصر في ضوئه ما يتعثَّر الماشي بمثله من الشَّوْك والحجارة وغيْره، ويُبْصر أيضًا بالسِّراج أعلام قصْده، فيتقوَّى به على الاهتداء إلى المطْلُوب، وعلى التَّحرُّز من المعاثر والمعاطب.

وأمَّا القُوَّة العمليَّة: فهي حقيقة السَّيْر إلى المطلُوب، لأنَّ السَّيْر عمل المُسافر، فكذلك الذَّاهب إلى ربِّه إذا أبصر طريقه وأبصر المعاثر فيها: سار

إلى ربِّه في مُعاملةٍ يتقرَّب بها إليْه في طريقٍ يختارها الله له، فكُلَّما أدمن ذلك العمل وواظب عليْه قَرُب من ربِّه وذابت غُدَد نفسه، كالمُسافر كُلَّما أدمن السَّيْر قَرُب من المنزل، وتلطَّفت كثافته، وظهرت عليْه همَّة المُسافرين وسيماهُم.

ففي النَّاس من تكُون له القُوَّة العلميَّة التي مُقتضاها البصر بالدِّين، وبالطَّريق المُقرِّبة إلى الله تعالى، وتكُون موجُودة فيه، ويكون ضعيفًا في باب العمل يُبْصر الأشياء ولا يعمل بها، ويُبْصر المتالف والمخاوف ولا يتوقَّاها، فهُم فُقهاء حتَّى يحْضر العمل، فيُفارقُون العامَّة في البصر فقط، ويُشاركُوهُم في التَّخلُّف عن المقصُود، وهُم غالب المُتفقِّهة من أهْل عصرنا.

وفي النَّاس من تكُون له القُوَّة العمليَّة موجودةً فيه - وهي التي مُقتضاها السَّيْر والسُّلُوك والزُّهد في الدُّنيا والرَّغبة في الآخرة - ويكون أعمى عن البصر عند وُرُود الشُّبُهات في العقائد؛ والانحرافات في المقامات والأعمال، وهُم غالب المُتفقِّرة والمُتصوِّفة من أهل زماننا، تجد أحدهُم سالكًا أعمى عن المطلوب لا يدري من يعبد؟ وبماذا يعبد؟ كما قال القائل(١):

مُشرَّدٌ عن الوطن يبكي الطُّلُول والدِّمن

يهوى ولا يدري لمن

ويكون مع ذلك أعْمى عن العبادة؛ فلا يدري بماذا يعبد ربَّه؟ بل يعْبده بجميع ما يُلِذُّ نفسه من لُبْس الصُّوف؛ والحَفَاء؛ وكشف الرَّأس؛ وحلق اللِّحية، فهُو أعْمى عن ربِّه وعمَّا يعبد به ربَّه، لا [١٤٤/ب] يعرف دينه ولا شريعته المُثلى التي يعْبد الخلْقُ بها، وهي الشَّريعة التي لا يقْبل الله عملًا ممَّن

---

(١) أورد ابن المُلقِّن هذه الأبيات في كتابه طبقات الأولياء [ص٤٢٩] - في ترجمة حُسيْن بن عليّ بن هُودٍ - ولم ينسبها لقائلٍ، ولفظها عنده:

مُبْعدٌ عن الوطن مُشرَّدٌ عن الوَسَن

يَبْكي الطُّلول والدِّمَن يَهوى ولا يدري لمن

تقرَّب إليْه بشيءٍ لم يكن فيها، وإنَّما يُعْبد الله ويُدان بما شرعه وأمر به، وكذلك لا يعرف صفات ربِّه التي تعرَّف إلى عباده بها، ولا يعْرف ما يجب له من الصِّفات؛ ولا ما يستحيل في حقِّه من الصِّفات.

وليعْلم العاقل أنَّ السَّالك لا يتمُّ سيْره وسُلُوكه إلا بكمال القُوَّتيْن ووضعهما مواضعهما، وهي القُوَّة العلميَّة؛ والقُوَّة العمليَّة، فمتى كَمُلَتا في السَّالك ووضعهما مواضعهما وسار بهما: استعدَّ بذلك للوُصُول إلى مطلُوبه - إن شاء الله تعالى -.

ونبدأ بذكر ما يخُصُّ السَّالك من القُوَّة العلميَّة - التي هي بمثابة البصر من الأمر اللازم الذي لا بُدَّ منه إن شاء الله تعالى -.

يتعيَّن على السَّالك: معرفة الرَّسُول ﷺ، ومعرفته مُتعذِّرة إلا من طريق سُنَّته من كُتُب السِّير والمغازي والسُّنن المنقُولة عن رسُول الله ﷺ، فبذلك يعرف أيَّامه وأخلاقه وآدابه، ويُمْكن العارف بذلك أن يتصوَّره في المدينة ﷺ كأنَّه يراه، ويرى أخلاقه مع أصحابه وأزواجه؛ وعباداته وغزواته وآدابه، فإذا يسَّر الله تعالى للسَّالك معرفة ذلك - بمواظبة مجالس مواعيد الحديث والتَّفسير والسِّيَر - فقد حصل له بعون الله تعالى الأساس الذي يُبْنى[1] عليْه البُنْيان.

ثُمَّ يترقَّى من ذلك إلى معرفة صفات الرَّبِّ الذي أرسله وبعثه رحمة للعالمين، كما أخبر ﷻ في كتابه، وأخبر عنْه نبيُّه ﷺ، من كونه فوق عرشه فوْق سبْع سماواته، عالمًا بما في خلقه، سميعًا بصيرًا بأحوالهم، يُدبِّر أمورهُم، يقْبِض ويبْسُط؛ ويُعِزُّ ويُذِلُّ؛ ويُفْقر ويُغْني؛ ويُمْرض ويَشْفِي؛ ويُميت ويُحْيي، له الخلق والأمْر، تبارك الله ربُّ العالمين، أنْزل كتابه على عبده وشرائعه وحُدُوده من الحلال والحرام؛ والسُّنن والأحكام؛ والمواعظ

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «تبنى».

والآثار؛ والقصص والأخبار، هدى به الخلق إليْه، حيْث كانُوا جُهَّالًا لا يعْرفون معْبُودهُم؛ ولا يعْرفُون بماذا يعبدوه.

فمن حصلت له هذه المعرفة بربِّه؛ وحصل له الفهم عنه في أوامره ونواهيه وحُدُوده وأحكامه - بعد معرفة صفات رسُوله ﷺ وسُننه وآدابه وأخلاقه - فقد كَمُلَت فيه القُوَّة العلميَّة البصريَّة، وانفتحت عين قلبه واهتدى إلى ربِّه وعرف طريقه وشرعه ومنهاجه، فمَثَلُه كمثل شخصٍ كان أعمى يتخبَّط في طُرُقه ويتعثَّر في أحواله فمنَّ الله عليه فأبصر بعد أن كان أعمى، وأشرق عليه نُور الشَّمس، فقد كَمُلَت فيه قُوَّة البصر والعلْم بالأشياء، وبقي عليْه القُوَّة العمليَّة.

وأمَّا القُوَّة العمليَّة - التي لا يتمُّ الوُصُول إلا بها - فالسَّالك إذا عرف الله تعالى وعرف نبيَّه ﷺ وأيقن بأنَّ ربَّه تعالى الذي عرفه فوْق عرْشه معه وفوْق كُلِّ شيءٍ، يسمع كلامه ويرى مكانه، ويعلم سرَّه وإعلانه؛ يَشُدُّ حينئذٍ مئْزره في ضوْء نُور معرفته بيْن يدي ربِّه، ويُعامله مُعاملة تليق به على حسبه، ببذل الجُهد في ذلك، فإنَّه قد عرف من يُعامل؟ وكيف يُعامل؟

فليقُمْ بيْن يدي مولاه، الذي يعلم سرَّه ونجواه؛ بقلْبٍ مُنكسرٍ، وجسْمٍ خاضعٍ، وطرْفٍ خاشعٍ، يعبده بعبادةٍ يُحبُّ أن يلقاه بها، ويَحْسُن عنده أن يُعامل هذا الرَّبَّ العظيم بها.

وفي هذه المُعاملة تتفاوت العُقُول والأذْواق، إذْ كُلُّ امرئٍ يُحبُّ أن يلْقى ربَّه في عملٍ يُناسبه ويعظم عنده ويزكُو على غيره من الأعمال، هذا يُحبُّ أن يلْقى ربَّه مُصلِّيًا، وهذا يُحبُّ أن يلْقاه مُجاهدًا، وهذا يُحبُّ أن يلْقاه ذاكرًا، وهذا يُحبُّ أن يلْقاه خادمًا، وهذا يُحبُّ أن يلْقاه حاجًّا ومُعْتمرًا.

فيُواظب على ذلك العمل بيْن يدي موْلاه في ليْله ونهاره، يُتْقنه اتقانًا يليق عنده بربِّه، ويَحْسُن عنْده أن يلْقاه به، لا يزال كذلك حتَّى يمُوت؛ أو يَنْفُذ إلى ربِّه، وقد تقدَّم معنى النُّفُوذ.

فمن كَمُلَت له هاتان القُوَّتان(١) - العلميَّة والعمليَّة - قَوِيَ في طريقه إن شاء الله، وقَوِيَ على قطع القواطع، وحجب الموانع، فإنَّ القواطع كثيرةٌ، والموانع جسيمةٌ، وقْد قيل: الوقْت سيْفٌ، فاقْطعه وإلا قطعك.

ومتى كان السَّيْر ضعيفًا؛ والقواطع النَّفسانيَّة قويَّة: خِيفَ على السَّالك النُّكُوص والرُّجُوع، نعوذ بالله من العمى بعد البصيرة، ومن الرُّجُوع عن السَّيْر وعن قُوَّة العزيمة، إنَّه أرحم الرَّاحمين، وأكرم الأكرمين.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وآله وصحْبه أجمعين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين(٢).

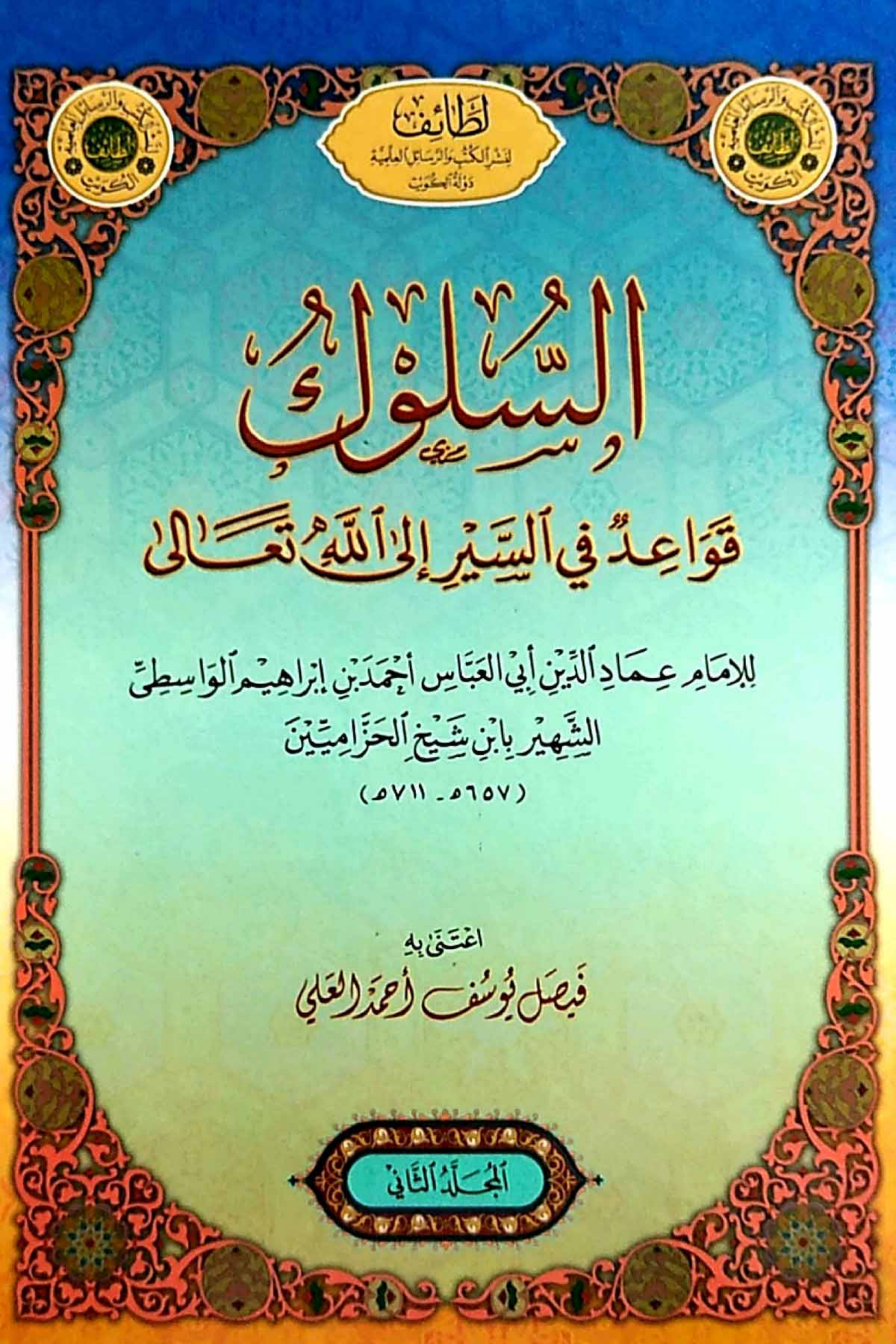
---

(١) في النُّسخة الخطيَّة: «هاتين القوتين».

(٢) في حاشية النُّسخة الخطيَّة: «بلغ». قُلتُ: كان الفراغ من تقييد التَّعليق؛ وتمام الختام من هذا التَّحقيق: في مدينة النَّبيِّ مُحمَّدٍ خير الأنام؛ عليه أفضل الصَّلاة وأزكى السَّلام، في يوم الجُمعة ٢٨ من شهر الله الحرام ١٤٣٦هـ؛ الموافق ٢١ نُوفمبر (تشرين الثَّاني) ٢٠١٤م، كما أُعيد نسخها؛ بعد البلاء بفقدها: في لندن، في يوم الجُمعة ١٣ شعبان ١٤٣٧هـ؛ الموافق ٢٠ مايو (أيار) ٢٠١٦م.

فهرس الموضوعات





لطائف
لنشر الكتب والرسائل العلمية
دولة الكويت
السلوك
قواعد في السير إلى الله تعالى
للإمام عماد الدين أبي العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي
الشهير بابن شيخ الحزاميين
(٦٥٧هـ - ٧١١م)
اعتنى به
فيصل يوسف أحمد العلي
المجلد الثاني


السلوك
قواعد في السير إلى الله تعالى


٢



الطبعة الأولى
(١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م)

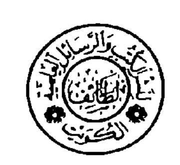
لطائف
لنشر الكتب والرسائل العلمية
لصاحبها د. وليد بن عبد الله بن عبد العزيز المنيس
دولة الكويت - الشامية - صندوق بريد ١٢٢٥٧ الرمز البريدي ٧١٥٦٣
www.waqf-lataef.com
lataefq8@gmail.com



مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع

* الفرع الرئيسي: حولي - شارع المثنى - مجمع البدري
ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦١ فاكس: ٢٢٦١٢٠٠٤
* فرع المصاحف: حولي - مجمع البدري ت ٢٢٦١٥٠٤٦
* فرع الفحيحيل: البرج الأخضر - شارع الدبوس ت ٢٥٤٥٦٠٦٩ - ٩٥٥٥٨٦٠٧
* فرع الجهراء: الناصر مول - ت ٩٥٥٥٨٦٠٨
* فرع الرياض: المملكة العربية السعودية - التراث الذهبي: ٠٠٩٦٦ ٥٥٧٧٦٥١٣٨
ص. ب: ١٠٧٥ - الرمز البريدي ٣٢٠١١ الكويت
الساخن: ت: ٠٠٩٦٥ ٩٤٤٠٥٥٥٩

E-mail: z.zahby74@yahoo.com  imamzahby





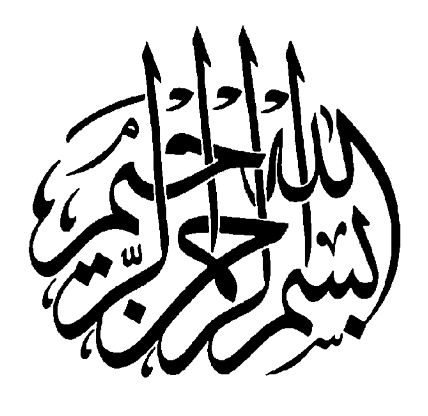

السلوك

قواعد في السير إلى الله تعالى

للإمام عماد الدين أبي العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي
الشهير بابن شيخ الحزاميين
(٦٥٧هـ - ٧١١هـ)

اعتنى به
فيصل يوسف أحمد العلي

المجلد الثاني


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أظهر لنا دينه، ووضّح دليله، وهدانا إليه، وأرشدنا سبيله، أحمده حمدًا يملأ الميزان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كل يوم في شأن، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، المبعوث إلى الناس كافة بالدليل والبرهان، اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان.

وبعد:

كلف الله الخلق بعبادته، وجعل ما تعبدهم به سبحانه مأخوذ من شرع مسموع، وعقل متبوع، ولذلك توجه التكليف إلى من كمل عقله، فأرسل رسوله بالهدى ودين الحق، فبلّغهم رسالته، وألزمهم حجته، وبيَّن ما كان مجملاً، وفسر ما كان مشكلاً، ولقد جاء الإسلام بالدين الوسط، وحذر من الوكس والشطط، والبعد عن الغلو والابتذال، ولا إفراط ولا تفريط.

فأصول تزكية النفوس، وأعمال القلوب، وقواعد السير إلى الله تعالى، هي من أهم مقاصد الشريعة، ومعالجة ما طرأ عليها من أعمال الزيغ والانحراف، قد بينها وأوضح طريقها الإمام ابن شيخ الحزّاميين رحمه الله تعالى، في كتابه «السلوك»، رسم منازل السائرين، وفق كتاب رب العالمين، وسنة سيد المرسلين، مرشدًا إلى الطريق المستقيم، والذكر الحكيم.

فعلى المسلم أن يتجنب طرق الخسران، ويتيمم طرق الرضوان، وليتجنب طرق الشيطان، ويقصد عبادة الرحمن.

فقد حقق هذا الكتاب وطبع نصفه، ضمن رسائل مشروع لقاء العشر، نفع الله به ويسر اتمامه، الشيخ د. وليد محمد العلي رحمه الله تعالى

(ت١٤٣٨هـ)، وتبقى منه النصف الآخر مخطوط، ووفاءً بحقه، وتخليداً لذكره، وثواباً لأجره، أكلمت الكتاب وجعلته في جزئين، الجزء الأول بتحقيقه رحمه الله، والجزء الثاني اعتنيت به قدر الاستطاعة، دون إطالة وحسب الطاقة.

وفي الختام: كما قال الإمام ابن شيخ الحزّاميين رحمه الله:

فرحم الله امرًا عرف حدّه، وصوّب جدّه، إلى ما فيه في الدنيا والآخرة سعده، وجانب المغالطة مع معرفته بنفسه، واستعدادها وشغلها بما هو أولى بها، وبالله المستعان، وعليه التكلان، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتبه

فيصل يوسف أحمد العلي

الكويت حرسها الله

١٤ ربيع الآخر ١٤٤٢هـ

الموافق ٢٩/ ١١/ ٢٠٢٠م

قاعدة في المستعدِّ للتَّصوُّف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله منوِّر الصُّدور بطلائع الإيمان، وشارحها ببوارق اليقين والعرفان، باسطاً القلوب في ميادين الرُّوح والرَّيحان في حضرات قدس تقريب الرَّحيم الرَّحمن بواسطة أنوار الأسماء والصِّفات إذا فتحت خزائن الامتنان، وكيف لا تبتهج القلوب، وترفرف سروراً [١٦٥/ ب] إلى العلى فرحة وحبوراً، وقد خرجت من مضائق الشُّكوك والارتياب، وظلمات الطَّبائع والحجاب إلى فسحات التَّوحيد والاقتراب في بواهر أنوار نفَّجاً كبرق السَّحاب، واسعة شموس تلمع كالشِّهاب.

طوبى لمن شرف بهذه المنح، وخلعت عليه منها ملابس الفرح، طوبى له وحسن مآب، قل بفضل الله وبرحمته: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(١).

وأشهد أنَّ لا إله إلَّا الله وحد لا شريك له، وأنَّ محمَّداً ﷺ عبده ورسوله، سيِّد ولد آدم، الفاتح، الخاتم، المنتظر، القائم واسطة العقد، وزينة الدَّهر، وينبوع الفلاح، ومعدن النَّجاح، يزيد على الأنبياء زيادة الشَّمس على البدر، والبحر على القطر، فهو صدرهم وبدرهم، وعليه يدور أمرهم، قطب فلكهم، وواسطة قلائدهم، عين كتيبتهم، الدَّاعي إلى حقيقة هذه في دار السَّلام، الَّتي نعيمها قالب لنعيم الحقائق، كما أنَّ المتابعة قالب لتلك البوارق شمس ضحاها، هلال ليلتها، درُّ تقاصيرها، رأس حدِّها، صلوات الله عليه

---

(١) سُورة يونس: الآية ٥٨.

وعلى آله ما درَّ شادق، وحنَّ وامق، وطرق القلوب من الملأ الأعلى طارق.

وبعد: فإنَّ هذا الفنَّ من العلم يفتقر إلى أهليَّة، واستعداد، وعقل فائض قائم بالعبوديَّة بلا استبداد، تتغذَّى به القلوب من جوعها، كما تتغذَّى الأجساد بالطَّعام، وتجد لذَّته كما تجد لذَّة المحسوسات بين الأنام، تنفرج به عن القلوب كروبها، وتنموا به العقول، فتعلوا به في أقدارها وخطوبها، وتتنوَّر به البواطن، فيذهب يبسها ورسوبها، وتعلوا به هممها نحو السَّماء، وتنشرح في ذلك الفضاء بين عساكر له مع ما يرزق من صفاء الفكرة، وصحَّة الرُّؤية، وسلامة الطَّويَّة، وطيب الطَّبيعة الفطريَّة.

يبدي هذا الفن من السَّالك بشاشةً في وجهه؛ لما استكنَّ في باطنه من نور ربِّه ويجرِّد عن القلوب غلَّها، وأغلالها، وخبثها، وأغلالها.

فهم القوم تراهم أروح النَّاس قلوباً، وأوفرهم عقولاً، وأحسنهم في معايش دنياهم تصرُّفاً، وأصحّهم في تدبُّر أديانهم فكرة وتبصُّراً، وأسكنهم عن الخنا نفوساً، وأطيبهم بذكر الله أرواحاً، وأكثرهم بربِّهم أفراحاً؛ لأنَّ بواطنهم مجذوبة بالمحبَّة إلى حضائر القدس، مكتحلة باكتحال التَّقريب والإنس [١٦٦/أ] سيما المحبَّة عليهم لائحة، وبهجة المعرفة لديهم ظاهرة من حسن الأخلاق.

ومطلبه الرِّفاق والمكارمة في التَّلاق؛ لتهذِّبهم في معاملة الخلاق، فمن ورث في سلوكه هذه الشِّيم، ومطرت عليه، فيه أنوار الفيض كالدِّيم، فصفت عن الكدر عناصره، وأبهجت بالإشراق ظواهره، وسكنت عن حديث النَّفس خواطره، وحرّكت بالمحبَّة ضمائره، وبلواعج الإشراق سرائره، كان لهذا الأمر مستعدّاً، وفي مقاماته راقياً مجدّاً.

وافق هذا العلاج لأمراضه طبّاً، وأورثه من إخوانه حبّاً، وكان على عبادة ربِّه وعبوديَّته مكبّاً.

شرحت المعرفة صدره، ويسَّر التَّفويض إلى الله أمره، وصار قلبه من محبَّته كالجمرة، و ورزق بين إخوانه المحبَّة والنَّظرة، فتلقَّحت أسرارهم بالتَّآلف، والتَّعاضد، والنُّصرة، هذه شيمة من صحَّت منهم الفطرة، وكشفت لهم عن آثار القدرة.

ومن صفاتهم ما قيل[١]:

هيِّنون ليِّنون أجواد ذو كرم ... إخوان مكرمة أبناء أيسار

من تلق منهم تقل لاقيت سيِّدهم ... مثل النُّجوم الَّتي يسري بها السَّاري

وأمَّا من أورثه الدُّخول في هذا الشَّأن تبلُّداً في ذهنه، وحيرة في عقله، وانقباضاً في سرِّه، وشتاتاً في معيشته وأمره، وجهالة في عقله وعلمه، يتعاطى حركات المتثبِّطين، ويسأل سؤالات المتعمِّقين، ويتعاطى الوجد تكلُّفاً ويتقحم في ميادين المقرَّبين بطبعه تحيُّراً وتشهِّياً بلا سلوك مرضي، ولا سير جليّ ولا خفيّ تظهر عليه أمارات الانحراف، وينعطف إلى تدبيره كالكاف لا ينتظم في سلك العباد من الاجتهاد في الأوراد، ولا ينحطُ في أسلوب الأمجاد أهل الهمم العليَّة الأفراد من التَّكيُّف بكيفيَّة الواجدين والبداد إلى حلية السَّابقين، فليس مع العابدين ولا الواجدين، فما أقربه إلى حلية البطالين الَّذين كان ثمرة سلوكهم سوء التَّدبير في المعيشة، والكسل، وكثرة الرُّقاد في العريشة، وإهمال إصلاح العقول بالعلوم المعبدة، وتواتر الهموم عليه بلا نتيجة، وحاله كما قيل:

واضيعة العمر لا علم ولا عمل ... ولا ثراء بل التَّسويف والأمل

إن رمتُ مرتبة الأبرار ثبطني ... عنه التَّقاعد والإهمال والفشل

---

(١) قاله عقيل بن العرندس الكلابي يمدح بني عمرو الغنويين. انظر: الحماسة البصرية (١/ ١٥١).

أعلِّل النَّفس بالتَّقوى وبي علل ... وهل ينال المعالي من به علل؟!

ومثل هذا الإنسان [١٦٦/ب] الَّذي لم يستخرج السُّلوك منه كما استخرج من أهل هذا الشَّان فيما سبق من الشَّرح والبيان، فعليه أن يتَّقي الله في نفسه، ولا يتعاطى ما لا يجد عليه في يومه ولا أمسه، ويستعمل بدنه ما هو أولى له به من علم رافع، وسبب دنياويٍّ نافع، وعبادة تكون له غداً عند الله كالشَّافع، ولا تضيع نفسه فيلقيها في فلوات المتالف، ومعاطب التَّعاطي لما ليس له موافق ولا موالف، ويأخذ من نفسه لنفسه، ولا يدخل بالعترسة بين أبناء جنسه، كما قيل[1]:

خلِّ الهوى لأناس يعرفون به ... من رام شلواً بلا عزم فقد عثرا

دببت للمجد والسَّاعون قد بذلوا ... جهد النُّفوس وألقوا دونه الأزرا

وكافحوا المجد حتَّى ملَّ أكثرهم ... وعانق المجد من أوفى ومن صبرا

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتَّى تلعق الصَّبرا

فرحم الله امرءاً عرف حدَّه، وصوَّب جدَّه إلى ما فيه في الدُّنيا والآخرة سعده وجانب المغالطة مع معرفته بنفسه، واستعدادها، وشغلها بما هو أولى بها، وبالله المستعان، وعليه التُّكلان آخر ما تيسَّر، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلّم.

---

(١) انظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٢/ ٧٣).

قاعدة في خصوص طائفة الصُّوفيَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وجملة أمرهم أنَّهم قوم أحبُّوا صحبة الحقِّ في الغيب، وطالبوا أنفسهم بالقيام بما يمكِّنهم من حقوق هذا المصحوب على الأنفس، والقلوب، والأرواح من وظائف الحبِّ والتَّعظيم، وإثارة على ما سواه من الخلق، والحظوظ، ووظائف الآداب والأخلاق معه وبين يديه.

وتحمُّل المشاقِّ له في إقامة ما أمر، واجتناب ما نهى وقنعوا به عوضاً عن كلِّ شيء، فلم يلتفتوا إلى ما يفوتهم من رضاه ومحبَّته وقربه من المنازل والدَّرجات.

ولم يجعلوه غائباً، ولم يعاملوه معاملة الغائب، بل معاملة الحاضر الشَّاهد، فإن غاب عن عيونهم؛ فهو غير غائب عن بصائرهم، وهو أقرب إلى الشَّخص من حبل الوريد.

فكيف ترى شأن من أحبَّ صحبة الملوك، ومواصلتهم، وعبوديَّتهم، والخلوة بهم، إنَّ ذلك لشأن عظيم، فمنهم من وفى حقّ ذلك، فطوباه.

ومنهم من أقام بالبعض، وقصر استعداده عن البعض، فإنَّ الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً [١٦٧/أ]، ولكلٍّ درجات عند الله، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾[١].

فهذا طريق العبد قبل الفناء، وما يجيء بعد الفناء من فضل إنَّما هو فضل ومواصلة من ذلك لمن وفِّق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١) سُورة هود: الآية ١٠٩.

فعلامة الحال الصَّحيح الَّذي يكون أصوله صحيحة موصلة على العلم الإلهيِّ الَّذي أنزل من السَّماء على رسول الله ﷺ ألَّا يضيِّع صاحبه حقاً أوجبه الله تعالى عليه، ولا سنَّة مؤكَّدة حضَّ عليها رسول الله ﷺ، بحيث تكون مرتبتها فوق مرتبة الفرائض.

وذلك حدٌّ جامع إن شاء الله تعالى، ويدخل فيه حقوق الإخوان، ومكارم الأخلاق معهم، وإجابة سؤالهم من أمور الدين والدنيا، وعيادة المرضى الصالحين من الإخوان، وتشييع جنائزهم، وأمثال ذلك، وإكرام ضيف يطرق منهم، والمحافظة على الجماعة، والكراهة وضيق الصَّدر لفوتها.

وأمَّا ما يتعلَّق بالحظوظ النَّفسانيَّة، وإن كانت حقّاً لأكل عند الجوع وأمثاله فقد يشغل الأحوال الصَّحيحة عنها، ولا يلامون على ذلك.

فأمَّا إن حجبهم عن مثل هذه الأشياء لقوَّة وارد ورد عليهم وقهرهم؛ فقد يعذِّرون في ذلك من وجه ولا يعذرون من وجه، فوجه عذرهم أنَّهم ورد عليهم ما حجزهم عن الجمع بين صولة الحال وبين ذلك الأمر الواجب، أو السنة المؤكدة، ووجه كونهم لا يعذرون أنهم لو فتَّشوا في أصولهم الَّتي استبنوا عليها قواعد سلوكهم؛ لوجدوا فيه أدنى خلل.

أمَّا من جهة تهاون ما يسير أدنى ما يكون تقديره بالسُّنن الشَّرعيَّة، وإن لم تكن تهاوناً بالفرائض، أو أدنى لوث في العقيدة، أو تزلزل؛ لم تتحكَّم أصولها من جهة المنعقد الَّتي توجب اليقين، كمن لاحت له أدلَّتها، وأمثال ذلك.

فجميع هذه وإن كانت عزيزة قليلة في البدايات؛ يعود حكمها على صاحبها في النِّهايات، فتورث الفتور عمَّا أكَّد الشَّرع عمله من مؤكِّدات السُّنن.

وهذه قاعدة نرجو ألَّا تخرم إن شاء الله تعالى كلَّ نقص كان في البداية،

ظهر في الأحوال عند النِّهاية، ومثله الكمال يظهر آخراً، وذلك سرٌّ دقيق يفطن له الأولياء، وهو أنَّه إذا عظمت عند السَّالك أقدار السِّنن في الابتداء تخمَّرت في البواطن تعظيمها، فيظهر حكم ذلك التَّعظيم في الاستغراق، فلا يشغله ما دهمه من الحال عن تحمُّل تعرُّفه تلك السُّنَّة المؤكَّدة، بل يبقى ذلك التَّعظيم الَّذي تخمَّر صاحبه على معاملة الله تعالى [١٦٧/ ب] بذلك المندوب.

كما تحمله الضَّرورات عند ورود الحال على الأكل والنَّوم، والضَّرورة اللَّازمة الَّتي لا بدَّ منها، فإنَّه يتعاطاها بحكم الضَّرورة في استغراقه فكذلك هذا.

ومثل هذا في تعظيم المنكرات في الشَّرع إذا تخمَّر في العقائد في الابتداء؛ فيحمله ذلك في الانتهاء النِّهاية عند ورود الأحوال على إنكارها، وإذا لم يتخمَّر ذلك في العقائد؛ فقد يسكت الإنسان، ويقول الإنكار هول يفرّق جمعيَّتي، فتهمل أمر الله بعذر لا يعذر فيه.

وهذه أصول دخل فيها من الخلل على السَّالكين في نهاياتهم دواخل، وتوهَّموا أنَّهم معذورون لغلبتهم، وكانت أصولها منحلَّة في الابتداء عندهم، فهم وإن عذروا في غلباتهم؛ فقد لا يعذرون في تقصيرهم في الابتداء عن أحكامها، والله الموفِّق.

قاعدة يذكر فيها أمر السَّالك

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

في الابتداء، وفيها تعلُّق بالأولى، السَّالك في الابتداء قد يكون في نفسه كوامن خفيَّة لا يفطن لها، مثل إرادات خفيَّة تنازعه النَّفس بإراداتها، فلا ينبغي أن يتغافل عنها بمعالجتها بعلاج يذهب تلك الآثار من الباطن، ومتى غفل عنا وأهمل أمر ذلك، وهوَّنه؛ كان داءً كميناً لا بدَّ بعد حين أن يظهر غالباً من القوَّة إلى الفعل، فيقطع صاحبه عمَّا هو بصدده وأسَّى وحزناً من كان سالكاً فكان في نفسه رؤية مضرّ، وكان يدافع ذلك عن نفسه، ولا يعالجها بعلاج يذهب أثر ذلك من القلب، فلم تزل نفسه تراوده حتَّى ترك سلوكه، وراح وراء مراده.

ورأينا من كان تخمَّر في باطنه إرادة النِّكاح، وهو يهوِّن ذلك، فلم تزل تلك الإرادة حتَّى ظهرت من القوَّة إلى الفعل، فهرب من الحقائق إلى الظَّاهر، ودخل في الرُّخص، وقنعت نفسه بذلك وسكنت عن طلبها.

والنِّكاح سنَّة لا يجهل، لكن السَّالك الطَّالب يعمل على وصوله، والوصل يقتضي فناء ما سوى الله تعالى من قلبه فإذا صار كذلك، وخمدت جميع شهواته، وصار مراده مراداً واحداً، وهو الله وحده لا شريك له؛ أدخله ذلك في المحبَّة الخاصَّة المسكرة لصاحبها عن جميع الأشياء.

ومن أحبَّ الله تعالى وتولَّاه، فإن كان قد قسم له حبيبه الأعظم زوجة ساقها إليه مهيَّأة مكفأة بإرادته، لا بإرادة العبد، ويبقى في أمرها محمولاً، ولا تنقطع عليه طريقه إلى مولاه، ورجوعه إلى عوالم الطَّبيعة، والنَّفس الَّذي هو الخذلان عند أهل التَّحقيق والحمد لله وحد وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه [١٦٨/ أ] وسلَّم.

قاعدة في اعتبار أهل الخير وغيرهم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اعلم أنَّ العاقل إذا تأمَّل في هذا الزَّمان أهل الخير والمنقسمين إليه؛ يجدهم أصنافاً، كلٌّ صنف قد اقتصروا على شعبة من الأمر التَّامِّ الكامل، فقلَّ أن يجد أحداً احتوى على الأمر التَّامِّ، إلَّا من شاء الله.

فتجد قوماً قائمين بصورة سنَّة الرَّسول علماً، وبعض أفعالها عملاً، بعيدين عن أذواق الأرواح الخاصَّة من المحبَّة الخاصَّة المسكرة.

والإيمان التَّامُّ النَّافذ من صدق التَّفويض، والتَّوكُّل، والخوف، والرَّجاء، لكن جملة ما يتمُّ فيه صورة السُّنَّة صحة علماً مع أشياء من أعمالها فعلاً لا روح فيه، بل ربَّما كان فيه روائح يسيرة من روائح القلب، مثل استرواح عند تلاوة، أو سماع حديث، أو نحو ذلك لا غير.

وهؤلاء عندهم جسم الدِّين وقالبه، ونفوسهم ربما خرمت عليهم شيئاً من قالب الدِّين، فلم يتركهم يكملوه على هيئة العدل والصَّواب من كلِّ الوجوه.

وتجد قوماً يترامون إلى عالم الرُّوح من طريق غير مشروعة، قد أعرضوا عن أهل ذلك الصِّنف وعن جميع ما عندهم من الخير.

اللهمَّ إلَّا رسوم الدِّين الجمعة، وصوم رمضان، وأشباه ذلك فوقعوا لإعراضهم عن الشَّريعة وتعاطيهم عالم الأرواح في انحراف كثير، بحيث صاروا في صوب وأهل الدِّين في صوب، فوقعوا في السَّماعات المحرَّمة والمكروهة، وممازجة أهل الصُّور؛ لميل أهل الأرواح والنُّفوس إليهم، فبعدوا، والطَّلب الكمال من غير وجهه عن الكمال بعداً كثيراً.

وتجد قوماً طلبوا الكمال، وابتدعوا طريقاً لذلك تحذُّ لقوافيها، فعملوا رسوماً غير مشروعة من القيام، والقعود، والمعاشرة، فانصرفت الهمم إلى إقامة ذلك الرَّسم، فحجبوا به عن حقائق رسم الدِّين وصورته، وذهبت حلاوة صورة الدِّين وأدائه المشروعة عن قلوبهم؛ لأنَّها امتلأت برسوم نسبوها إلى شيوخهم، فطلبوا الكمال بلا اقتداء بالرَّسول محض عن الاقتداء بغيره فبعدوا بذلك عن الكمال بعداً عظيماً.

وإن كان فيهم ذا روح؛ فيكون روحه مخنوقة مسجونة بحبال هذه الرُّسوم لو خرج منها إلى رسوم؛ لتنزَّلت تلك الرُّوح على هذا القالب تنزُّلاً مناسباً له.

فمن كان فيهم ذا روح على رسومهم الَّتي أقاموها؛ [١٦٨/ ب] كانت روحاً على قالب لا تناسبه، كروح إنسان في جسد ثور، فهي دائماً تتألَّم بذلك الجسد، وتودُّ أن لو كانت في جسد إنسان فإنَّه مناسب لها.

والأمر التَّامُّ الكامل أن يتمسَّك الإنسان بصورة الدِّين وقالبه المشروع في العبادات، والآداب، والأخلاق الَّتي سنَّها رسول الله ﷺ، ودوِّنت في الدَّواوين، كسنن أبي داوود والتِّرمذيِّ، بحيث لا يتجاوز الإنسان ذلك، ولا يتعدَّاه إلى رسم وقالب ابتدع بعد رسول الله ﷺ.

وفي ذلك كفاية تامَّة للسَّالك، ومتى لم يكتف بذلك؛ احتاج إلى بدعة من الرُّسوم يمتلئ بها، فيتخلَّف عنه من الخير بقدر ما امتلئ به من تلك الرُّسوم المحدثة.

فإذا تعوَّد الجسد بالقيام بالوظائف، والآداب الشَّرعيَّة، والسُّنن المشروعة لا غير فيهتمُّ طالب الكمال إلى النُّفوذ إلى عالم القلوب من هذا القالب الصَّحيح، وطريقه إلى ذلك التَّوجُّه إلى الله تعالى بصدق التَّوبة والإنابة، والرُّجوع إليه رجوعاً لا يتولَّى معه إلى غيره، ويثبت على هذه الإنابة والرُّجوع.

ومن لوازمها براءة الذِّمَّة من سائر الحقوق الماليَّة والتَّوبة من سائر ما فرَّط في سالف العمر، فبهذه التَّوبة يطهر ويواجه الحضرة الإلهيَّة، فهي أحسن بالطَّهارة عن درنه.

ومواجهة الحضرة بالرُّجوع إليه والإنابة رجوعاً وإنابة لا يرجع بعدها إلى غيره فليثبت على ذلك، ومتى ثبت على ذلك؛ رجي لصاحب هذا القالب الصَّحيح النُّفوذ إلى عالم القلوب ومكاشفات الصِّفات، فمتى كوشف بشيء منها؛ غلق قلبه بها، ولم يتركه أن يرجع عنها، فيبقى أبداً مشتاقاً إليها، كلَّما توارت عنه التهب وانقبض، فلا يسكن حتَّى يجدها، فلا يزال كذلك حتَّى يكمل مشاهد الصِّفات، ثمَّ يرجو له النُّفوذ إلى عالم الأرواح، فيكاشف سرَّه بعد المرور على الصِّفات بذوق الجلال الأحديِّ، والجمال السَّرمديِّ، فيصبغ قلبه بذلك صبغة لا تبرح، وهذه هي الغاية المطلوبة.

تكون المتابعة من الآداب والسُّنن تجري على ظاهره بلا كلفة، بحيث تصير طبيعة، وروحه مكاشفة بجلال المحبوب وجماله جلَّ وعلا، فيكون الرُّوح نهاية بذلك، والجسد عاكف على الأمر، فبذلك الأمر يتمُّ سلوكه، وتنزاح عنه الرُّعونات الَّتي تلبَّسها المنحرفون من سائر الطَّوائف، فيراها فيهم، ويحمد الله على العافية منها، ويرحمهم لأجلِّها، فإنَّهم مساكين طلبوا الكمال من غير [١٦٩/ أ] وجهه، فبعدوا، ومن لم يجعل الله له نوراً؛ فما له من نور، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

قاعدة في الإنابة إلى الله تعالى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أهل الخصوص إنابتهم إلى الله ﷻ أرفع الإنابات؛ لأنَّ قوماً أنابوا إلى الله تعالى بالرُّجوع إليه من المخالفات، وقوم أنابوا إليه بالدُّخول في الطَّاعات والعبادات، وقوم أنابوا إليه بالتَّضرُّع، والدُّعاء، والافتقار، وأرواحهم بذواتها قد تكون ملتفتة عنه، معرضة إلى مألوف غيره نفسانيٍّ.

وهذه الطَّائفة أهل الخصوص لما عبروا أعلى الصفات وكوشفوا بآثار الجلال والجمال الأحديِّ، أنابت إليه أرواحهم بشدة المحبة الخاصة المغنية لهم عما سوى محبوبهم، وحيث نابت إليه أرواحهم لم يتخلَّف منهم شيء عن الإنابة، فإنَّ الكلَّ تبع الروح، فأنابت القلوب بالتَّضرُّع والدُّعاء مع الإنابة الرُّوحيَّة الخاصَّة، وأناب العقل بالانفعال لأوامر المحبوب العظيم ونواهيه، وأنابت النَّفس بالانخلاع عن عوائدها الذَّميمة، وعن تدبيرها واختيارها، وتفويضاً إلى مولاها، وتسليماً، وترك التَّدبير هو آخر الصِّفات المذمومة في النَّفس.

وأناب الجسم والجسد بالانفعال لأفعال السُّنن، والآداب، والأمر، والنَّهي، فلم يبق من المنيب عرق، ولا مفصل، ولا شعرة إلَّا ولها رجوع إلى الحبيب الأعظم بالذَّات رجوعاً لا يتخلَّف منه عن الله ﷻ شيء.

وأين هذه الإنابة الخاصَّة لأهل الخصوص، فمن أناب ساعة بالدُّعاء ولنفسه، وقلبه، وروحه، وعقله التفاتات بالذَّات عمَّن أناب إليه، وإن كان قد أناب ساعة ببعضه، ثمَّ ترك ذلك، فلا إنابة أعلى من إنابة أهل الخصوص إذا أعان الله ووفَّق، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

قاعدة في مظاهر الشُّهود والمعرفة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الدَّالِّ على نفسه بما أظهر من مصنوعاته، والمنعوت بها أبداً من مقدَّسات أسمائه وصفاته والكاشف عن حجب الجلال والعظمة متقرِّباً إلى محبِّيه بكمال جمال قدس ذاته، وصلواته على سيِّدنا محمَّد أشرف الخلق ممَّن يراه لرسالاته صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه وقراباته.

وبعد، فإنَّ مظاهر المعرفة تتنوَّع وتتعدَّد بحسب الألطاف الَّتي أبرزها إلى أسرار المكاشفين من مالك الأوَّلين والآخرين، فعلامة مظهر الإلهيَّة تجلي العظمة في الآيات الفرقانيَّة والأحاديث النَّبويَّة، متعرِّفاً بذلك ﷻ وتقدَّس إلى [١٦٩/ ب] قلوب أوليائه حين الاستماع والفهم من ذلك: بأنِّي أنا الله، لا إله إلَّا أنا، هذه آياتي وبيِّناتي، وحججي، ودلالاتي، وأنا المتكلِّم بذلك، والآمر بما آمر به، والنَّاهي عمَّا أنهى عنه، والمخوف بما أخوف به، والمرجيُّ بما أرجى به، فاسمعوا قصصي، وأطيعوا أمري، واتَّبعوا رسولي، وأنا المنفرد بذاتي وعظمتي فوق سبع سمواتي، مطَّلع على عبادي، أعلم سرَّهم ونجواهم، فاعبدوني ولا تشركوا بي شيئاً، وها أنا معكم، فلا تروني عنكم بعيداً، وإنَّما بينكم وبين الآخرة حجاب يكشفه الموت، فتروني عياناً، وتروا صدق وعيدي ممَّا خوَّفتكم به وحذَّرتكم إيَّاه، وصدق وعدي ممَّا رجوتكم إيَّاه ورغَّبتكم، فيه وشوَّقتكم إليه.

ففي أوَّل الأمر تتجلَّى هذه المعاني، أو بعضها على قلوب المتوجِّهين،

فتشعر قلوبهم بحقائق هذه الأسرار، ويكاشفون بصرائح معانيها، ثمَّ تتوارى عنهم بعض الأحيان، فمن دام له تجلِّي هذا المشهد في الذِّكر وفي غيره بواسطة عمل، وبلا واسطة؛ فقد صار له مشهد الإلهيَّة مقاماً أقيم فيه، وله من المعرفة الكاملة على قدر ما رزق منها، واستقام علمه وعمله وخلص الخشوع إلى قلبه والمحبَّة الصِّفاتيَّة إلى باطنه، واليقين الصَّحيح إلى سرِّه ومثل هذا الَّذي يسمَّى الموقن والإيقان نهاية التَّصديق والإيمان.

علامة

مشهد الرُّبوبيَّة الَّتي مقتضاها القيُّوميَّة أن يكاشف القدرة والقدر بواسطة التَّأمُّل والاعتبار في المصنوعات، فتجلَّى له العظمة الإلهيَّة، والقدرة الرُّبوبيَّة، والحكمة القدسيَّة بواسطة هذا التَّأمُّل، متعرِّفاً إلى قلوب أوليائه بواسطة ما ظهر من مصنوعاته ومبتدعاته بأنِّي أنا الله لا إله إلَّا أنا الخالق، البارئ، المصوِّر، الحيُّ، القيُّوم، المدبِّر، خالق الخلق، وباسط الرِّزق، أنا الَّذي ابتدعت العالم الَّذي ترون على غير مثال سبق، وقدَّرت آجال أهله، وقسَّمت أرزاقهم، ودبَّرت أمورهم على تدبير قدرتي بمقتضى حكمتي، وأنتم ترون أنَّها لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضرَّاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فمن الَّذي أقامها، ويقيمها، ويمدُّها غيري، أم من الَّذي يقوم بأودها سواي، أمَّن الَّذي صوَّر أشكالها العجيبة، وصنع ألوانها البديعة، ونفخ فيها الأرواح المتنوِّعة المتضمِّنة عجائب الخواصِّ، كلٌّ منها لا يشبه الآخر، وكلّ منها يصلح في عالم الحكمة لما لا يصلح له الآخر، كل ذلك تدبيري وتقديري بمقتضى مشيئتي وإرادتي الجاري على ذلك قوانين حكمتي، أإله غير الله؟! تعالى الله عمَّا يشركون، فتوكَّلوا عليَّ، وثقوا بي، وفوِّضوا [١٧٠/أ] أموركم إليَّ، فإنِّ أنا مالك

للأشياء، ومقاليد أمورها بيدي أتوكّل لكم، وأكفيكم لمل أهمَّكم، وأفرغكم لما خلقتكم له، وأنا الله ربُّ العالمين.

فإذا كوشف العارف بحقائق هذه المعاني، وتعرَّف إليه بارئ النَّسم وخالق الأمم بأسرار هذه الأشياء، فإنَّه تردّه الأشياء إلى بارئها ومنشئها، ولا يحجبه الخلقَ عن الخالق مصنوعاً الأدلَّة عليه، ولا اعترضه شأن منها إلَّا ردَّه إليه، فتبقى الأشياء المتفرِّقة عن النَّظر إلى خالقها جامعة دالَّة عليه، فلا يرى شيئاً إلَّا ويسبق نظره إلى المبدئ الأوَّل المعيد قبل نظره إليها، فيراه أولاً حين يغشاه النَّظر إليها، ثمَّ يراها ضمناً وتبعاً، وربَّما غاب بملاحظة قيُّوميَّته عنها.

فمتى دام ذلك للعارف بواسطة الاعتبار والنَّظر، وبغير واسطة؛ فقد رقي إلى مقام ملاحظة مشهد الرُّبوبيَّة، ومتى انحرف المشهد الأوَّل إلى هذا، وانحرف هذا إليه؛ كمل كلّ منهما بملاحظة الآخر، وقوي به.

واعلم أنَّ هذا المشهد بلا شيء من المشهد الأوَّل لا ينفع في الآخرة عند الله؛ لأنَّ المشهد مجمع عليه بين أهل الملك والنَّحل، وهو بمثابة قول لا إله إلَّا الله، ولا ينفع ذلك إلَّا بأن يكمل بمحمَّد رسول الله، فمشهد الرُّبوبيَّة، وكلمة التَّوحيد، ومشهد الإلهيَّة، كالإيمان بالرِّسالة، فمن جمع له بينهما كمل كلّ منهما بالآخر، وبالله التَّوفيق.

علامة

مشهد الدّيانيَّة الَّتي مضمونها الكشف عن عالم الآخرة، وموقف الحساب، وعظمة ذلك اليوم، وهو أن يكاشف بمشهد القيامة يوم يقوم النَّاس لربِّ العالمين حفاة، عراة، عزّلاً، لا يستمعهم الدَّاعي، وينفذهم البصر، فتنشق السَّماوات عن طباقها، وتنزل الملائكة، فيصطفُّون بين الخلائق صفوفاً، كما

قال ﷻ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝٢٤﴾[1].

فيكاشف العبد بهول يوم ذلك اليوم في الدُّنيا، ويراه ببصيرته بنور الإيقان، ويتعرَّف الرَّبُّ تعالى إلى عبده بواسطة هذا المشهد: بأنِّي أنا الله لا إله إلَّا أنا، جامع النَّاس ليوم لا ريب فيه، أوفِّي كلَّ نفس ما كسبت، ولا أظلم مثقال ذرَّة، وإن تك حسنة؛ أضاعفها، ومن يعمل سوءاً؛ يجز به، وأضع الموازين القسط ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئاً، وأنا سريع الحساب، وشديد العقاب، أدعو كلَّ أناس بإمامهم، فمن أوتي كتابه بيمينه؛ فأولئك يقرؤون كتابهم، ولا يظلمون فتيلاً، ومن كان في هذه أعمى؛ فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً، فمن ذا ينجيك من ذلك اليوم غيري، ومن الَّذي يتجاوز عن سيِّئاتك سواي، ومن يقبل عملك غيري حين تجيؤنا فرادى [١٧٠/ب] كما خلقناكم أوَّل مرَّة، وتركتم ما خوَّلناكم وراء ظهوركم، ولا تنفع الشَّفاعة عندي، إلَّا لمن أذن له الرَّحمن ورضي له قولاً، فانتبه عبدي وشمِّر لذلك اليوم عسى تلقاني بوجه أبيض بما أطعتني في دار الدُّنيا، فأثقِّل ميزانك، وأغفر سيِّئاتك، وأجزيك جزاء المحسنين.

واحذر أن تلقاني ناكصاً عن طاعتي، مدبراً عن أمري، فأذيقك نكالي، وأحرمك السَّعادة بقربي وجواري.

فمن دام له هذا المشهد بحيث لا يتوارى عنه؛ فقد امتطى غارب الخوف، وذاق طعم الرَّجاء.

وحمله ذلك على الجدِّ، والتَّشمير، والاستقامة في السّعايات والحركات مشاهد يوم تعدَّد فيه الجنايات، وتضاعف فيه الحسنات، ويباشر قلبه بواسطة

---

(١) سُورة الفجر: الآية ٢٢-٢٤.

هذه المعاني ذوق صفة الدَّيَّان ولها مع هذا الخوف لذاذة يجدها صاحبها إنس ومحبَّة، فيحمله ذلك على الاعتدال في المسير كلَّما قيَّضه ذلك الهول بواسطة المعرفة، وآنسته المحبَّة؛ تمكَّن في مقام مشهد الدِّيَّانة.

واعلم أنَّ هذا من لوازم مشهد الإلهيَّة، لكنَّه يكون في ذلك المشهد ضمناً وتبعاً، وفي هذا الموطن تمحُّضاً، وبالله التَّوفيق.

علامة

مشهد الفردانيَّة الدَّالَّ على عظمة الذَّات وإكرامه، وهو مشهد مستقلٌّ بنفسه، يكون غالباً العبد فيه بعد الفناء في مقام البقاء، وطوالعه ولوائحه قبل ذلك في موطن مشاهدة الصِّفات المتقدِّمة، فيكون مقامه العام في الصِّفات، وحاله الخاصُّ في طوالع مشهد الفردانيَّة، وإنَّما يتحقَّق العبد به بعد طهارته، وفناء خواطره بعد العبور على القبض المغني لبقايا العبد المطهِّر لأدرانه، فيورثه ذلك حالاً يسمَّى عند الطَّائفة حال التَّجلِّية، فتذهب أذكاره وأفكاره بذهاب وجوده الأوَّل وفنائه فلا يجد له قلباً يذكر به؛ لأنَّه خمدت نفسه على قلبه، وذابت أحكامها وصفاتها، وخمد قلبه على صفته وذهب أحكامه وصفاته، وتجرَّدت روحه عن عوالم النَّفس، والعقل، والقلب، فيبقى صاحبه فارغاً عن كلِّ شيء، حتَّى عن الأذكار، والأفكار، وملاحظة الصِّفات، ثمَّ يتعرَّف إليه المولى العزيز.

في أثناء ذلك يتجلَّى مستقلٌّ بنفسه، وفيه يقال: عرف ربَّه به، لا بسواه له ثقل على الأرواح، وهيمنة، فيلبس الوجود بثقله، ويلهب الأفئدة بلمعان أشعَّته، ويتفاوتون في ذلك، وهذا الَّذي يوجب الحبَّ الخاصَّ الَّذي في السَّكرات.

والمشاهد الأوَّل يوجب [١٧١/ أ] الحبَّ العامَّ، فيتعرَّف ﷻ إلى عبده بجلاله وجماله فوق عرشه على مملكته متفرِّداً بفردانيَّته، متَّصفاً بصفات الكمال في وحدانيَّته.

وهذا المشهد الأوَّل لا يعتبر عن حقيقة ذوقه، ولا يعرفه إلا مَن ذاقه، ومن علاماته:

أن يشرق في سرِّه جمال الوحدانيَّة، وجلالها، وبهجتها، وكمالها الملازم لها في الآزال والآباد، فربَّما فني الشَّاهد في شهوده فني ما لم يكن، وبقي من لم يزل، فيتشرَّف العبد بمولاه في هذا الفناء حقيقة التَّشرُّف، بل وبما يشهد الكون شريفاً أيضاً؛ لمباشرة مولاه إيَّاه في تدبيره، وقيُّومته له، وقربه منه، وعلمه به، فيرى كلَّ شيء شريفاً ممَّا مدحه العلم؛ احترازاً عمَّا ذمَّه العلم، فيكاشفه مولاه بهذا العلم: بأنِّي أنا الله لا إله إلَّا أنا، ذو الجلال والإكرام، المتفرِّد بالفردانيَّة، والمتوحِّد بالوحدانيَّة، الجامع لجميع صفات الكمال والجمال، وأنا الحبيب الأعظم الَّذي أتقرَّب بمثل هذه الصِّفات إلى قلوب المحبِّين لي والمكلَّفين بوجدي، والمحترقين بشوقي، أكشف لهم عن جمالي وجلالي بحيث تمتلئ أسرارهم من آثارها، وتنبسط أرواحهم من أشعَّة أنوارها.

ولولا الآجال المحتومة، والأقدار المكتوبة؛ لزهقت أنفسهم؛ اشتياقاً إلى معاينة حقيقة ما وجدوه من ذلك الجمال الأحديِّ، والجلال السَّرمديِّ.

فإيَّاي فاعبد، ولجلالي وجمالي فعظِّم، وإلى قربي فاشتق، وإيَّاك أن تميل إلى ملاحظة شيء من المحبوبات الفائنة المزاحمة لمحبَّتي، فمتى ملت إليها بكلِّك؛ استحقَّيت بذلك السُّقوط من عيني والحجاب عن جلالي، وجمالي، وبهائي، وكمالي.

واستعن بي في تولِّيك، وحفظك في مقامك، هذا بين يدي، وعظِّم شكري

لما كاشفتك به من ذلك، وقم به، وفرِّغ قلبك بجملته لي، ولتعظم همَّك في إقامة أمري، وفوِّض إليَّ، وإيَّاك أن تستبدَّ بقول، أو فعل إلَّا بي، واستقم على حفظ مقامك هذا حتى أمنحك النَّظر إليَّ عياناً في الآخرة، فترى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وهذا الَّذي تجده اليوم إنَّما هو حجب البشريَّة، فانظر كيف عظمته وخطره، فما ظنُّك بما يكون من حقائق ذلك في يوم الزِّيادة، فكن عبداً لي حقيقة، ناظراً إليَّ في كلِّ ما تقوله وتفعله مستخيراً لي في شأنك كلِّه، راضياً باختياري لك، مستريحاً إليَّ ولآياتي لأمرك خائفاً من مكري، فإنَّه لا يأمن مكري إلَّا القوم الخاسرون، واسألني من خير ما أعلم، واستعذ بي من شرِّ [١٧١/ ب] ما أعلم، فإنِّي أعلم ولا تعلم، وأنا علَّام الغيوب.

وقد قيل في صفة هذا المشهد:

تجلَّى لهم وصف الحبيب، فشاهدوا ... محاسن وصف حار في كنهها العقل.

فمن رقاه الله تعالى إلى هذا المشهد، وتعرَّف إليه بحقائق هذه المعاني بم يلقيه إليه في سرِّه في سكرات حبِّه، وإبراز كشفه، فهو الَّذي يعبر عنه بمشهد الفردانيَّة، وربَّما أسكره ذلك عن شؤونه وأحواله.

ومنهم من قوَّاه الله تعالى فيه على الأعمال والأقوال، فلا يحجبه ذلك عن مشهده، فذلك هو الكمال.

وصاحب هذا المشهد في عيش هنيٍّ، غالب حاله البسط الأنسيِّ مع ممازجة فيض الهيبة، والشُّعور بأحكام الدّيانيَّة، المبدوء بذكره ممتلئ ببهجة الجلال والجمال، منشرح الصَّدر، قد أخذت جواذب المحبَّة باطنه وأسرت روحه، فصار وجوده مظهراً لأثر ذلك الجلال والجمال، وبهجة القرب، والاتِّصال مع كمون خوف الحساب والجزاء والعرض على الملك الدَّيَّان، قد ازدادت عبوديَّته، وعظم شكره وصغر عند نفسه قدره، وعظم في لبه ربُّه،

وتمكَّن حبُّه له، ودام خوفه منه، واستمرَّ حياؤه من نظره، وتمَّ أنسه به، واتَّصل شغله بقربه، فصار هو شغله مع إقامة أمره، وعظمت لديه تفاصيل الشَّريعة وأحكامها، وعظم عنده شأن الأنبياء وما جاؤوا؛ لأنَّه كان يعظِّمهم أوَّلاً على الإيمان، وهنا يشهد بعثهم وما جاؤوا به من تلك العين الَّتي أسكره حبُّها، فصار لعظم الشَّريعة عنده من تعظيمها ومحبَّتها من محبَّتهم.

فهذا حكم أوائل مشهد الفردانيَّة، وما يكاشفون به في أثناء ذلك من المقامات، والمنازلات، والملاطفات، لا تحصره عبارة، ولا يوفيه إشارة، ويتفاوتون فيه على قدر تفاوت أنصبتهم.

وهذا غاية ما يشار إليه وبالله التَّوفيق، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

قاعدة في أصناف التَّألُّه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وخصوصيَّته تألُّه كلِّ طائفة من الطَّوائف، اعلم أنَّ النَّاس يتفاوتون في إلههم؛ لاختلاف طرائقهم.

فالتَّألُّه كالرُّوح للحال والقالب، هو الطَّريقة لَّتي يلبسها المتألِّه من عمل وعقيدة وقصد، وقد ذقنا من أقسام التَّألُّه في عمرنا ألواناً مختلفة بحسب ما رآه اجتهادنا أنَّه الأكمل، ثمَّ نراه مرجوحاً فنتحوَّل عنه إلى غيره، حتَّى فتح الله تعالى بالطَّريقة العلويَّة الَّتي نرجو أنَّها الَّتي يحبُّها الله تعالى ويرضاها لمن أراد التَّألُّه له.

وها نشرح خصوصيَّة كلِّ ذوق [١٧٢/ أ] وجدناه من أصناف التَّألُّه.

أوَّل طريقة دخلنا فيها طريقة التَّصوُّف على روحانيَّة الصُّوفيَّة، كالجنيد وأبي سعيد الخرَّاز وأقرانهم، بعد طريقة من الفقه على مذهب الشَّافعيِّ، نعرف بها تفاصيل الفرض والسُّنَّة، وخصوصيَّة هذه الطَّريقة احتراق يجدِّه الطَّالب إلى الله تعالى، ولا يقنع من نفسه بما قنعت به منه الشَّريعة المحمَّديَّة، فيراها محض الرّخص، وأنَّها تصلح للعوامِّ، فطالب نفسه بالتَّقطُّع، والتَّمزُّق، والرِّياضة المتلفة من التَّجوُّع، والسَّهر، والفقر، والفاقة، والخروج عن جميع أسباب الدُّنيا، وانتظار الرِّزق من الله.

فمثل صاحبه كمثل محبٍّ لصورة يبذل في طلبها من نفسه حتَّى يكاد أن يقتل نفسه، لذلك هذا يطلب الله تعالى فيما شرَّعه، وفيما لم يشرِّعه ممَّا يجوز الدُّخول فيه بشرط سلامة العافية، ويتنزَّل على صاحبها شيء من آثار الجلال والجمال، والقرب، والإنس المجمل لا تفصيل فيه، إلَّا بآثار الصِّفات،

كالسَّمع والبصر والعلم والإرادة والحياة والكلام لا غير، أو بعض الصِّفات غيرها.

وهو منبتر عن الأمر الكلِّيِّ؛ بحيث يثقل على صاحبه ذلك الشُّهود، ويكتسب بالأخلاق المنحرفة أخلاقاً تشبه أخلاق اليهود من اليبس تارة، وأخلاقاً تشبه أخلاق النَّصارى من اللِّين والخضوع أخرى.

ثمَّ إنَّ الرُّوح وإن كانت تتشوَّق بذلك الحال، لكن تجد عون الحال الكامل المشروع، فتبقى جائعة إلى الكمال، ولا تدري ما هو.

ثمَّ انتقلنا إلى طريق الشَّاذليَّة: وهي روحانيَّة غريبة، بينها وبين الطَّريقة المحمَّديَّة بون من بعض الوجوه، وإنَّما يعرف ذلك البون من عرف الطَّريق المحمَّديِّ.

وصفة ذلك الذَّوق مبدأه ترك الاختيار، والإرادة، والتَّعلُّق بنفس الشَّاذليِّ، وبمطالعة كلامه واعتقاداته القطب الغوث الفرد الجامع للأسماء والصِّفات، فيجد الواجد ذوقاً من صفة القدم، حيث كان الله ولا شيء معه بحيث يكاد أن يستر ما سوَّاه من الأكوان، ويتشكَّل في نفسه قواعد صحيحة وغير صحيحة بسبب التَّعلُّق بنفس الشَّيخ المذكور، وله مشاركة في علوم الفلاسفة، فإنَّه يشير في كلامه إلى العقل الكلِّيِّ، وربَّما قام في نفس الذَّائق أنَّه قد صار من الشِّيعة أو من الأبدال، وقد قرب إلى مقام القطبيَّة بحسب ما اشتملت عليه أذواق شيخه، وكلام أصحابه فيما يتحاورون [١٧٢/ب] فيه بينهم، فيبقى في صوب، وطريق الإسلام المحمَّديَّة في صوب.

هذا وإن كان يذوق صاحبه من الأنس، والمحبَّة، والقرب أذواقاً صحيحة، لكنَّها في قوالب مغايرة مبدَّلة لبعد العهد عن أوَّل الإسلام في رأس السَّبعمئة من الهجرة، ومع ذلك فيبقى في الرُّوح فاقة إلى الأمر الكلِّيِّ، فلا نقنع بذلك النُّقصان.

ثمَّ انتقلنا إلى طريقة أهل الحديث والقرآن الصِّرف: الَّذين فنَّدوا فيه، فأشرق القلب بأنوار النُّبوَّة، والحديث، والسِّيرة؛ لتعلُّق السَّالك بروحانيَّة رسول الله ﷺ.

وأشرق القلب بأنوار مسألة العلوِّ والفوقيَّة على العرش، وتجلَّى الباعث للرَّسول ﷺ المنزِّل للكتاب حقيقة، وطاب الذَّوق آيات القرآن؛ بحيث ينزل القرآن على القلب بلا تكلُّف.

وكان في تلك الأذواق المتقدِّمة يضيق الصَّدر عند التِّلاوة شغلاً بالحال، وكان العبد يتوهَّم أنَّ هذا الضِّيق لغلبة الحال، وإلَّا فلم يضق عن كلام الله تعالى، فتبيَّن في هذا الذَّوق أنَّ ذلك الضِّيق إنَّما كان عند الانحراف عن روحانيَّة رسول الله ﷺ إلى روحانيَّة أشخاص معيَّنين بعيدين العهد عن تلك الرُّوحانيَّة.

وانبعث القلب إلى الجهاد في سبيل الله كما هو معلوم من ذوق النُّبوَّة وآيات الكتاب، واكتسب القلب قوَّة بعد ضعفه، ونوراً بعد ظلمته، لكنَّه يشتاق أحياناً إلى روحانيَّة الصُّوفيَّة؛ لأنَّه وجد فيها من صفو المحبَّة، ومشهد الرُّوح من الأنس والقرب، ولطافة الذَّوق، ورقَّة حواشيه ما لم يجده في هذا الذَّوق المحمَّديِّ، فإنَّ فيه قوَّة وشدَّة على أعداء الله، فكان يهرب أحياناً إلى ذوق الصُّوفيَّة ليجد ذلك الذَّوق، ثمَّ يعود فيقول يا سبحان الله، ليت شعري الذَّوق المحمَّديّ ناقص حتَّى يكمل بذلك الذَّوق الآخر ليس هذا نظر صحيح، بل الذَّوق المحمَّديُّ تامٌّ كامل، وجميع الخير الَّتي في تلك الطُّرق إنَّما هي شعب منه مع انحراف عنه فالخير الَّذي فيها من الذَّوق المحمَّديِّ، والظُّلمة والكشفة الَّتي فيها من انحرافها عنه فوقع صاحب هذا في حيرة لا يعلمها إلَّا الله، فاستغاث بالله، واستجار به أن يهديه لما اختلف فيه من الحقِّ بإذنه، فأوقع الله تعالى في سرِّه أن يتخلَّى عن جميع تلك الأذواق وما فيها من اللَّطافة،

والطَّيبة، ومعالي الأمور، وينجمع بكله على روحانيَّة رسول الله ﷺ بحيث لا يشوب معها روحانيَّة غيره من [١٧٣/ أ] المشايخ والصُّوفيَّة ويصبر على ذلك، فلمَّا فعل ذلك؛ كشف الله عن بصيرته معنىً يشير إلى نكتة شريفة عظيمة الخطر لمن يعرف قدرها، فكانت إلهاماً من فضل الله على هذا العبد الضَّعيف المتحيِّر الَّذي قد ضاقت به الأمور، وهي أنَّ هذه روحانيَّة الرَّسول ﷺ هي الرُّوحانيَّة المنسوبة إلى الرَّبِّ ﷻ بمعنى أنَّها هي شرعته وطريقته، ونفس كتابه المنزَّل وروحه الَّذي ألقاه على عبده ورسوله، وأنَّها هي الَّتي يحبُّها ويرضاها، وهي الَّتي ليس بينها وبينه انحراف، بل هي مقابلة له من كلِّ الوجوه.

فلمَّا استقرَّت هذه النُّكتة في سرِّه، وشربها قلبه موقناً بها، واطمأنَّت نفسه إلى صحَّتها؛ عكس عليه الحال الإبراهيميِّ الخليليِّ المحمَّديِّ بأضعاف أضعاف ما كان يجده في الذَّوق الصُّوفي الذي كان يفرُّ من الذَّوق المحمَّدي إليه طلباً لذلك الحال، فجاءه ذلك الحال بأكمل الأمور وأتمه، وكان يضيق قلبه في ذلك الذوق وهنا وجد سعة وانشراحاً وطمأنينة عرف أن هذا هو الأمر الصحيح المطابق للصواب، وذلك الحال الصوفي هو شعبة منه، مع انحراف بيِّن فيه، والانحراف هو عبادة الله بما لم يشرِّعه من التَّقطُّع والتَّمزُّق، فلذلك يورث صاحبه إمَّا أخلاقاً يهوديَّة، أو نصرانيَّة.

وهنا جاء الحال الصَّحيح، وهو حال الخلَّة اللَّائق بالعبد، لا بالابتناء على طيبة وانشراح، وأورث أخلاقاً طيِّبة، حسنة، إسلاميَّة، واندرجت فيه مسألة العلوِّ والفوقيَّة في حكم الأمر الكلِّيِّ الرُّوحيِّ الماحي لما سواه في ظهور جلال جمال الذَّات المقدّس للأرواح في مشهد الفردانيَّة، حيث كان ولا شيء معه.

وهنا نكتة لطيفة: اعلم أنَّ مشاهد الصِّفات لا ينجلي هذا الأمر الكلِّيِّ فيه؛ لأنَّها مشاهد من الأمر الكلِّيِّ، فتارة تكون الصِّفات متعلِّقة بالكون؛ كالقيُّوم،

والخلَّاق، والرَّزَّاق، وتارة تكون متعلِّقة بما جاء منه، وهي الأحكام الشَّرعيَّة؛ مثل مشهد الإلهيَّة، وتارة تكون الصفات متعلِّقة بالذَّات؛ كالسَّميع، والبصير، والحيِّ.

فلا يظهر في ذلك إلزام الكلِّ؛ لأنّه أمر جزئيٌّ، بل يظهر إكرام ذلك الوصف وجلاله، فيكون الكون موجوداً في الشُّهود.

أمَّا إذا كشف الغطاء، وتلاشت الأكوان، وجاءت الفردانيَّة، وصار ما سواها، كالجزء له إلى جنب البحر الزَّاخرة بقرب لا أقرب منه.

وفيه يظهر معنى أقرب من حبل الوريد، ما هو [١٧٣/ ب] مع الاتِّصاف بالذَّويِّ بالجلال والإكرام، فالإكرام من لوازم الحقيقة في مشهد الفردانيَّة، وهو الأمر على ما هو عليه، وهو كشف غطاء الفوقيَّة، فأوَّل الفردانيَّة معرفة الفوقيَّة، كلَّما جاء الكون يتلاشى، وينمحق، ويصغر إلى التَّحقق بالفردانيَّة، فتظهر حقيقة المحبَّة في هذا المشهد على ما يقتضيه قوى العبد، واتِّساع بصيرته، وفضل الحقِّ على صاحبه، فاجتمعت لصاحبه المتفرِّقات من سائر الطُّرق المحمَّديِّ.

وبقيت هنا نكتة: وهي أنَّه لمَ لم يظهر له هذا في مبدأ دخوله في الذَّوق المحمَّديِّ، فما ذاك إلَّا لأنَّه لما كان الغالب عليه شأن الجهاد، وصلابة القلب، وقوَّته كان في ظاهر الذَّوق المحمَّديِّ، ولم يبلغ إلى باطنه، وهنا ذاق شيئاً من باطن الذَّوق المحمَّديِّ، واجتمعت له المتفرِّقات في الأذواق كلُّها فيه.

والحمد لله ربِّ العالمين كثيراً على ما أسدى إلينا من نعمة ومبارَّه، واجتمع الهمُّ كلُّه على الإيمان والقرآن، وروحانيَّة محمَّد عليه السلام، وانخرطت تلك الرُّوحانيَّة إلى روحانيَّة الخليل عليه السَّلام، وصار الذَّوق مطابقاً للمقصود، غير منحرف، وبان فيه جميع الانحرافات المتقدِّمة، فكان

أوَّلاً عينه ممتدَّة إلى طريقة فلان وفلان، وذوق فلان وفلان، فصار الآن الطَّبيعة مجبولة بروحانيَّة الرَّسول ﷺ، والقرآن، وهو ربيع القلب، فيه يجد ذوقه، وقلبه، وحاله، لا يملُّ قراءته، ولا يطلب الهدى في غيره، ولله الحمد والمنَّة.

قال مؤلِّف هذه القاعد الشَّيخ الزَّاهد العابد الورع عماد الدِّين الواسطيُّ، رحمه الله: علَّقت هذه القاعدة في حقِّ طالب عساه أن يطلب ما طلبناه، فتكون له عنواناً على الأمر التَّامِّ المطلوب.

قاعدة

تتمَّة لهذه القاعدة في التَّأَلُّهات، ذكرنا أنَّ الخلَّة هي باطن الحال المحمَّديِّ، فلو قال القائل: ما الدَّليل على ذلك؟

قلنا: قوله ﷺ: **«ولكن صاحبكم خليل الله»**(١).

والخلَّة: هي عبارة عن تخلُّل المحبَّة بجميع أجزاء العبد، فإذا كان شخص من أمَّة هذا النَّبيِّ ﷺ؛ يجد من الحبِّ ما لا يمكن أن يعبر عنه، فما ظنُّك بمحبَّة الله ﷻ الكامنة في الرَّسول ﷺ الَّتي قد تخلَّلت جميع أجزائه هذا أمر لا يجهل، وهو واضح إن شاء الله تعالى آخرها، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

---

(١) أخرج مُسلمٌ في صحيحه [الحديث رقم (٦٣٢٦)- ٧/١٠٩].

قاعدة في بيان السُّلوك

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ [١٧٤/ أ]

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد: فالإنسان السَّالك في طريق الله تعالى يتوب إلى ربِّه ﷻ، ويعكف على إرادته، وطلب مرضاته وطاعته، ويتلبَّس بوظائف طاعته، ويستمع إلى كتابه وسنَّة رسوله ﷺ وسيرته، ويتفكَّر في مصنوعات ربِّه، وأفعاله في بريَّته، فلا يزال كذلك حتَّى يبدو شوه شواهد معرفته، وآثار صفاته وأسمائه ومشاهدته يتوارى ذلك عن سرِّه أحياناً حتَّى يستقرَّ المشاهد في مقابلة بصيرة قلبه وينصبغ بآثارها صبغة ملازمة لذاته وحقيقته فمتى وصل إلى ذلك؛ فليعلم أنَّه قطع نصف الطَّريق، وبقي النِّصف الآخر، وهو حصول محبَّة ربِّه لعبده، واصطناعه له من بين خلقه.

فإن قال قائل: فكيف الطَّريق للعارف إلى ذلك؟

فالجواب: أنَّ ذلك قد نبَّه عليه رسول الله ﷺ فيما أخبر به أنَّه قال: «**لا يزال يتقرَّب إليَّ عبدي بالنَّوافل حتَّى أحبَّه، فإذا أحببته؛ كنت سمعه الَّذي يسمع به، وبصره الَّذي يبصر به، ويده الَّتي يبطش بها، ورجله الَّذي يمشي بها، ولئن سألني؛ لأعطينَّه**»(١).

وفي الحديث: «**ما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه**»(٢)، وفي

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه [الحديث رقم (٦١٣٧)- ٥/ ٢٣٨٤].

(٢) تقدم تخريجه.

الحديث أيضاً: «**من تقرَّب إليَّ شبراً؛ تقرَّبت منه ذراعاً، ومن تقرَّب إليَّ ذراعاً؛ تقرَّبت منه باعاً، ومن أتاني يمشي؛ أتيته هرولة**»(١).

فقد أخبر سبحانه على لسان نبيِّه ﷺ: «**أنَّه لا يزال عبده يتقرَّب إليه بالنَّوافل حتَّى يحبّه**»(٢)، هذا الحديث في الصَّحيح.

إذا علم ذلك؛ فليشدّ العارف مئزر جدِّه في طلب محبَّة ربِّه له، ويعكف على دوام التَّقرُّب إليه بلا فتور، تارة بالذِّكر، وتارة بالتِّلاوة، وتارة بعمل الخير، وتارة بزيارة الصَّالحين، بحيث لا يفتر عن التَّقرُّب إلى الله تعالى بالنَّوافل، وهذا هو السَّير والسُّلوك إلى تلك الغاية المطلوبة، كما كانت التَّوبة والإنابة طريقاً إلى المعرفة.

وتندرج في هذه القاعدة جميع متفرِّقات السُّلوك من الحضور، والهيبة، والمراقبة، ونفي الخواطر، وتحلية الباطن وإصلاحه، والمشاهدة، والفناء، والبقاء، وبيان ذلك أنَّ العبد يشرع أوَّلاً في التَّقرُّبات بالأعمال؛ مثل: الأذكار والصَّلاة، وهذا ظاهر التقرب، ثمَّ يترقَّى من ذلك إلى حال التَّقرُّب، وهو الانجذاب إلى مولاه بالكلِّيَّة بالرُّوح، والعقل، والكلّ، فيندرج في ذلك المحبَّة الخاصَّة، ثمَّ ربَّما أفناه ذلك فيرتقي [١٧٤/ب] إلى الفناء(٣) في هذه الطَّريق ثمَّ يترقَّى إلى الكشف الحقيقيِّ، فيتقرَّب إلى الله ﷻ حينئذ بالحبِّ والتَّعظيم على المعاينة، فقد تبيَّن أنَّه يندرج في ذلك جميع المتفرِّقات، ولا ينبغي أن يشغله إلى الكشف عن الحضور مع معاني الصَّلاة، فإنَّ الحضور مع المعاني هو المراد في مثل ذلك الموطن، فالتفت إليه، ولا يشتغل عنه إذا علم ذلك.

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه [الحديث رقم (٦٩٧٠)- ٦/ ٢٦٩٤] ومُسلمٌ في صحيحه [الحديث رقم (٦٩٨١)- ٨/ ٦٢].

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «إلى الفناء» مكررة في النسخة.

فهذه القاعدة هي سرُّ السُّلوك وحقيقته، ولهذه سرٌّ آخر باطن ربَّما بالمواظبة عليه يظهر، وهو حال التَّقرُّب أن ينبعث من باطن العبد الجود ببذل الرُّوح والوجود في محبَّة المعبود بلا كلفة، ولا تعمل، فيجود بنفسه، وروحه، وهواه، ومشيئته، وإرادته لمولاه حالاً لا تكلُّفاً.

وهذا حال من صحَّت محبَّته هو لمولاه، فإن يسَّر الله تعالى ووجد هذا الحال؛ فهو حال القرب وسرِّه وباطنه، وإن لم يجده؛ فليتكلَّف التَّقرُّب إلى مولاه بالأذكار والسِّعايات دائماً، عساه يجد هذا الحال من باطنه، فمتى وجده؛ فقد تقرَّب إلى ربِّه حقيقة بكلِّيَّته وجملته عباداً، وقلباً، وروحاً، ومن لم يجد ذلك؛ فهو يتقرَّب بلسانه، وبدنه، وظاهره فقط.

واعلم أنَّ هذا هو سرٌّ لذلك السِّرِّ، ولهذا سرُّ السِّرِّ سرّ آخر باطن من وفق ربَّما وجد سرُّ سرِّ السِّرِّ. وهو شيء لا يمكن العبارة عنه بأكثر ممَّا يقال أنَّه يجد في باطنه ذوق من تقرَّب منِّي شبراً؛ تقرَّبت إليه ذراعاً، فهذا ثمرة أوَّل مراتب التَّقرُّب، فإن دام على ذلك؛ ربَّما وجد ذوق معنى التَّقرُّب بالباع في مقابلة تقرُّب العبد بالذِّراع، وهذا أوسط مراتب التَّقرُّب، فإن دام على ذلك؛ ربَّما وجد ذوق معنى الهرولة، ومعناه غاية القرب في مقابلة المشي من العبد؛ تقرُّباً إليه.

وأمَّا ذوق ما يعطي صاحب الهرولة إلى ربِّه؛ فإنَّه لم يذكر في الحديث اللهمَّ؛ لعظم شأن صاحبه، وعظم خطر جزائه، أو لمعنى غير ذلك، أو لكون أنَّه قد حصل المقصود بهذه الأمثلة من مراتب القرب، فكأنَّه يقال للعبد، وعلى ذلك فقس، وعلى قدر ما تبذل من وجودك تقرُّباً إلى ربِّك؛ يتقرَّب إليك بمثلي ذلك، ويلزم من هذا أنَّ من تقرَّب إلى الله ﷻ بروحه وجميع قواه؛ يتقرَّب إليه بمثلي ذلك، والمثلات في مقابلة تقرُّب العبد إلى ربِّه بجميعه لا يمكن العبارة عنه، وليس القرب في جميع ذلك من الطَّرفين قرب المسافة ولا المماسَّة، بل تقرُّب من العبد، وقرب من الرَّبِّ ﷻ بالمعنى لا بالصُّورة والرَّسم.

فقد علمت أنَّ طلب المحبَّة من ذلك [١٧٥/ أ] الطَّرف في طريق التَّقرُّب هو سرُّ السُّلوك ونهايته، وقد علمت أنَّ سرَّ حال التَّقرُّب، وهو الانبعاث بالجملة إلى الله ﷻ.

وحقيقة الانبعاث ترك المشيئة لمشيئة مولاه، والتَّدبير لتدبير مولاه، والثِّقة به؛ لحسن تدبيره له، والخضوع لأحكامه.

وقد علمت أنَّ من تقرَّب إلى مولاه بشيء من الأشياء؛ جوزي بضعفي ذلك، وقد علمت أنَّ أعلى أحوال التَّقرُّب يقرِّب العبد بجملته وباطنه لمولاه، وهو علامة المحبَّة من العبد لربِّه، وقد علمت أنَّ حقيقة ذلك هو التَّقرُّب بترك التَّدبير والإرادة، فمن فعل ذلك؛ فقد تقرَّب بكلِّه لمولاه، ولم يبق منه بقيَّة، فيرجى أن يجاد عليه بأكمل التَّولِّي وأكمل الولاية، ألا ترى أن الرَّجل الصَّادق إذا أخلد أمره إلى أستاذه في الطَّريق، وترك تدبيره واختياره؛ اختار له الأستاذ أعلى الطُّرق وأسناها، وحمله على أعلى ما يعلمه من تراتيب السُّلوك، فما ظنُّك بمن أخلد إلى مولاه، وتقرَّب إليه بجملته، ومنع تدبيره، ورضي بتوليه؟! كيف يجازيه على ذلك الجواد الرَّحيم؟!

فيجب على العبد أن يوقن بتقرُّب الرَّبِّ ﷻ إلى قلب عبده في مقابلة تقرُّب العبد إليه، وقد دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[1]، وفي الحديث قوله ﷺ عن ربِّه ﷻ: «**من ذكرني في نفسي؛ ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ؛ ذكرته في ملأ خير منهم**»[2].

ويوقن العبد في معاملته لربِّه قطّ لا يخسر، بل لا يزال رابحاً، بجزاء أفضل ممَّا قدَّمه إلى ربِّه أضعافاً مضاعفة، لا يعلم قدر خطر ذلك.

---

(١) سُورة البقرة: الآية ١٥٢

(٢) تقدم تخريجه.

فإذا أيقن العبد بما أخبر به الرَّبُّ ﷻ، واستقرَّ ذلك في قلبه حقيقة؛ فعليه أن يطلب محبَّته له سبحانه، ويسلك إلى ذلك في الطَّريق المشروع الَّذي نبَّه عليه رسول الله ﷺ بدوام التَّقرُّب.

وقد علمت أنَّ النَّاس يتفاوتون في التَّقرُّب، فمنهم من يتقرَّب بذكره وعمله، ومنهم من يتقرَّب بقلبه وهمَّته، ومنهم من يعطي حال التَّقرُّب، فيجود بجميعه لمولاه، ويترك تدبيره له ومناه، ومن رزق أن يجود بجميعه لمولاه تقرُّباً إليه وطلباً لمحبَّته؛ دلَّ على محبَّته لربِّه؛ لأنَّ هذا عمل لا يقوم به إلَّا من صحَّت محبَّته، ولم يختلج بسرِّه على ما يكرهه، بل على ما يحبُّه ويرضاه.

وإذا كان من يتقرَّب إلى ربِّه بالشِّبر، والذِّراع، والمشي؛ يتقرَّب إليه بالذِّراع، والباع، والهرولة، بمعنى أنَّه يضاعف جزاؤه على تقرُّبه بتقرُّب إليه خير من تقرُّبه.

فما ظنُّك بمن أعطي حال التَّقرُّب، فيتقرَّب إلى مولاه بجميع إراداته، وهمومه، وأعماله، وأقواله. فيمكن [١٧٥/ ب] أن يقال: ولا يبعد بالقياس الَّذي تقدَّم أنَّ هذا عبد وهب نفسه لله، وجاد له بها، فيرجى أن يجاد عليه بأن يكون هو حظُّ هذا المتقرِّب ونصيبه عوضاً عن كلِّ شيء.

جاد العبد بنفسه؛ تقرُّباً، فجاد عليه المتفضِّل المنَّان بنفسه وبتولِّيه له، على ذلك التَّفصيل جزاءً وفاقاً.

واعلم أنَّ هذا المتقرِّب بجميعه يرجى أن يجد جزاء ذوق عمله بما لا يمكن أن يعبِّر عنه عاجلاً في الدُّنيا، إلَّا بأكثر من أن يقال إنَّه تقبَّل منه ما يقرب به، ويختطف عن وجوده إلى قرب ربِّه، ويجد قرب ربِّه من قلبه ومن جميع أجزائه بالغيب جزاء لما بذل من نفسه، ويجد عنايته وتولِّيه فوق تدبير كلِّ مشفق ناصح.

فمن رزقه الله تعالى هذا التَّقرُّب، ووجد ذوق جزائه من قلبه ومن تدبيره

له، ثمَّ دام له ذلك، فطوباه ثمَّ طوباه ثمَّ طوباه، هنَّاه الله، فليكتم ذلك على نفسه ولا يبوح به بين أبناء جنسه، فإنَّه سرٌّ من أسرار المولى الكريم إلى عبده، فليعضَّ على ذلك بالنَّواجد؛ عساه يعيش عليه، ويموت عليه، ويكون في البرزخ معه، ويقوم يوم الحساب سائراً إلى ربِّه به.

وهذا غاية ما يمكن من العبارة به عنه، وهو أمر يعرفه أهله، فلينتبه العبد لهذا المعنى الخطير، وليطلب قرب ربِّه منه في هذا الطَّريق المشروع، وليجعل عمدته الحديث الصَّحيح الَّذي هو فوق كلام المشايخ والعارفين، بل هو أصل لهم، فيجعله أصله في سيره إلى محبَّة ربِّه له وقربه منه، وليكتم ذلك عن غير أبناء جنسه، بل عن أبناء جنسه، إلَّا من ظهر محبَّته، وصدقه، وكتمانه للأسرار، مستعيناً بالله تعالى، ومعتضداً، وبالله المستعان، ونعوذ بالله من الحلول، والاتِّحاد والقول بوحدة الوجود، وفيض الوجود كما هو مذهب صاحب «الفصوص»(١) وأصحابه.

فإنَّ جميع ذلك زندقة وكفر، وليس المعنى بهذا السِّرِّ المذكور ما ذهبوا إليه، بل الرَّبُّ سبحانه ربٌّ، والعبد عبد، وهو في ذلك إله فوق عرشه وفوق سبع سمواته، بائن من خلق، يقترب من قلوب محبِّيه ومريديه الصَّادقين في طلبه قرباً يجدونه، ويعرفونه، ويتحقَّقونه بلا شبه، ولا مثل، ولا كيف، ولا تحديد، يجدون أثر ذلك في قلوبهم، ولا يمكنهم العبارة عن حقيقته بلا مماسَّة [١٧٦/ أ] ولا امتزاج، ولا حلول، بل عناية من ربِّهم ﷻ ومحبَّة منه لهم، وقرب منهم، يجدون أثره، ولا يكتفون حقيقته ﷻ في علوِّه وفوقيَّته على مخلوقاته، يتفضَّل في عظمته وكبريائه، ويلاطف محبِّيه والصَّادقين في طلبه، ويقرب منهم في علوِّه بقرب هو صفة تليق به لا بتقرُّب معهود مكيَّف محدَّد،

---

(١) لابن عربي.

جلَّ صاحب التَّفضيل، وتقدَّست أسماؤه، وعظمت آلاؤه، وله الحمد بجميع محامده على جميع نعمه كلِّها.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

قاعدة في سلوك الأولياء
الذين ترامت هممهم إلى الاستقرار في عساكر الأولياء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الَّذي يمسك السَّماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنَّه كان حليماً غفوراً، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد نبيِّ الهدى، وعلى آله وصحبه وسلَّم كثيراً.

وبعد:

فمن أراد الله ﷻ أن يقسم له حظَّاً من حظوظ العبيد؛ أشهده الإلهيَّة وحقيقتها، ثمَّ أشهده قيُّوميَّته وحقيقتها فعلامة التَّحقُّق بالإلهية التلبس بكسوة السنة والقرآن وأخلاقه بحيث يصير له هيئة لازمة، وطبيعة ثابتة، وعلامة التحقق بالقيومية ذهاب استقلاله، واستبداده بالأمور لغلبة العلم بالحيِّ القيُّوم، والتَّحقُّق بقيامه على الأشياء بعد شهوده بأنَّه الملك فوق الخليقة يدبِّر الأمر بين النَّفع والضُّرِّ، والعطاء والمنع، لا تبديل لكلماته فعندها يذعن العبد بالانقياد بالعبوديَّة خضوعاً لأحكام الرُّبوبيَّة، شهد عجز نفسه وضعفها، وعدم استقلالها بحركة، أو سكون ظهر من له الأمر في القلوب ظهوراً رجع الكلُّ إليه، وصار هو المستقل بالأمور، والأسباب، والوسائط ناشئة عن قدرته، منفعلة عن إرادته ومشيئته، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير.

وجاء ربُّك والملك صفَّاً صفَّاً بجميع صفاته وأسمائه، وتدبيره وأفعاله، وحكمته النَّافذة، ومشيئته الكائنة، وكلماته التَّامَّات، لا معقِّب لحكمه، وهو سريع الحساب، وإليه المآب، فصار أقرب من العبيد من حبل الوريد، يدبِّر الأمر بقرب هو صفته، وحيطة هي نعته.

فهناك وقف العبد الذَّليل مع تدبير المولى الجليل، وبين يديه يطلب التَّحقُّق بقربه بعد [١٧٦/ ب] وجود قربته، وترامى إلى أن يتولَّى سيره إليه بفضله ويتولَّى نقلاته إليه ملكاً ملكاً إلى أن يبلغ إمَّا في العمر القصير، أو في البرزخ بين الدُّنيا والآخرة في موطن القبور، أو في يوم النُّشور على حسب ما تقتضيه المشيئات الباهرة، والحكمة التَّامَّة، والألطاف العاطفة الرَّاحمة، فوقف هناك لم يبلغ عملاً بعد إمحاق وجود المحبَّة من وجوده لتلاشيه عند لمعان أشعَّة سلطان الوجود، فحينئذ لا وصف للعبد إلَّا علم التَّبعيَّة لمولاه تابعاً متلاشياً في متابعته، ولا وجود حقيقة إلَّا وجود الموجود، وإن كان للعبد وجوداً؛ فهو كالخيال والظِّلال؛ إذ لا نقول بالوجود الواحد في الحقِّ والخلق تعالى الله عن ذلك، وتنزَّه عن مقالة صاحب «الفصوص» وأتباعهم، طهَّر الله الأرض من آثارهم، وأقام آثار دينه الحنيفيِّ، إنَّه على كلِّ شيء قدير.

ثمَّ لا صفات إلَّا صفاته، فهو الظَّاهر بها، والحكم لها، والكيفيَّتين لها، والعبد لا شيء موجود غير أنَّه يعاين المشهود الَّذي هو بذاته وصفاته موجود، يدبِّر الأمر، وبيده الحكم.

ووقف في هذا الموطن لا يتجاوز الفريضة والسُّنَّة منتظراً فضله ونقلاته إليه في مراتب النَّقلات، فغضَّ عينه عن كثرة الأعمال الخاصَّة، والمتعدِّية، وعن التَّصديق للإرشاد.

اللهمَّ إلَّا إذا وجب، أو تأكَّد ساكناً، ساكتاً، خامداً، جامداً، عابداً، مشاهداً، ذاهباً، فانياً، حامداً، شاكراً، منتظراً منه المزيد، حيث رقاه إلى ملك الوجود، وأذهبه فيه، وأراه أحكامه وصفاته، وجعله غالباً في قلبه على كلِّ شيء.

فهو يترقَّب ملكاً آخر يرقيه، ولا ييأس من جذبة تأخذه إلى ملك الملك؛ ليقرَّ عينه بلقاء الحبيب الأوَّل الكائنة محبَّته قبل المحبَّات، فمن لوازم حال هذا

المنتظر إغماض بصره عمَّا سوى مأموله.

والاقتصار في حركات المعيشة على حدٍّ لا يتمُّ الدِّين والدُّنيا إلَّا بها من الكلام، والحركات، والأفعال، والأخلاق، وليس حال مثل هذا كحال من وجد، ثمَّ ردَّ إلى مرتبة في وجود الشَّهادة يعمرها؛ لينال آخرها، فهو يعمل اللَّيل والنَّهار على تعميرها؛ ليكمل له هيئاتها في عالم الشَّهادة، ويتعمر بها الدِّين والدُّنيا، ويكمل له ثوابها في الآخرة، فهذا عبد لم يشخص همَّته إلى ما شخصت إليه همم أهل المراتب الطَّالبين للقرب، أولئك قطعهم طلب القرب، وانتظار [١٧٧/ أ] نقلات الحقِّ إليه بعد التَّحقيق بالقيُّوميَّة، وغلبة كونها وأحكامها على سائر الأحكام ومحولها ما عداها، فهم لا يلتفتون يميناً ولا شمالاً؛ اهتماماً بما يقصدونه، وهم فيه بالله لا بنفوسهم.

فصل

هؤلاء السَّادة أحمد التَّحقُّق بالقيُّوميَّة، منهم الخواطر والإرادات شغلاً بمدبِّر الأمور، وشخوصاً إلى مشيئاته، والتَّوطُّن على أحكامه، ناظرين منه إليه، طالبين منه هو هجم الحال شغله عليهم، فليس عنهم ما سواه، وتخلَّله وصار السَّويُّ كالهباء في الهوى، إن فتَّشته؛ لم تجده شيئاً.

وقطع طلب الوصول عنهم الالتفات إلى شيء تتصرَّف الهمم إلى مثله من السِّعايات، فهممهم واحد في طلب الوصول، ومع ذلك فيتحرَّكون مع الأمر والنَّهي بما أمكن من الفضائل والنَّوافل؛ عبوديَّة وتمسُّكاً بالسُّنَّة.

وهمَّة الوصول قد أخذت جملتهم، والانتظار لنقلات الحقِّ ﷻ عليهم، والتَّغيُّب بما يبدو من فضل الحقِّ لشؤونهم.

ولهم في ذلك من التِّلاوة والنَّافلة حظٌّ وافر، أمَّا الذكر فإن المذكور حشا بصائرهم، فألسنتهم وقلوبهم؛ قد تنقبض عن ذكر الموجود الَّذي هو الذَّاكر

لهم، يستوحشون عمَّا منهم، ويأنسون بما يغنيهم عنهم من وجود الحقائق الغيبيَّة الذَّاتيَّة مع صفاتها الملازمة لهان فإلى هنا انتهى سيرهم وانتظارهم به، يحيون ويموتون إن شاء، وإيَّاه يطلبون، وبوجوده يغيبون فناء، ثمَّ بقاء، وإليه النُّشور.

فصل

من تحقَّق بالقيُّوميَّة، وبحث مشاهده من نفسه في كلِّ شيء يكون حكمه ظهور الذَّات بوصف القيُّوميَّة، فإذا رسخ تلطُّف الله به بأن يعود عليه أحكام الصِّفات ضمن مشهده من العظمة، والجبروت، والجلال، والإكرام، والاستواء، والعلوِّ، والكلام، والشَّرائع، والأحكام، فيظهر - والله أعلم - أنَّ مثل هذا التَّرتيب يكون أكمل ممَّن ظهر له القيُّوميَّة أوَّلاً، ثمَّ تفصيل أحكام صاحبها مثل هذا التَّفصيل، وتبقى القيُّوميَّة مندرجة في شهوده كاندراج الفوقيَّة في الشُّهود الأوَّل.

ووجه كماله أنَّ القيُّوميَّة تذهب شاهد العبوديَّة فلا يشهد من نفسه أوليَّة إلَّا بأوَّليَّته، ولا آخريَّة إلَّا بآخريَّته، ولا ظاهريَّة إلَّا بظاهريَّته، ولا باطنيَّة إلَّا بباطنيَّته، وذلك أوَّل مراتب التَّحقُّق بالعبوديَّة، ثمَّ يعود الشُّهود يفصل بأحكام الصِّفات على ما تقدَّم بخلاف من اندرجت القيُّوميَّة في مشهده، وكان الحكم للفوقيَّة، فإنَّه لا [١٧٧/ ب] يغني ذلك شاهده؛ لعدم التَّحقُّق بالقيُّوميَّة.

وإن شاهدها، وفرق بين شاهدها، والتَّحقُّق بها، فالتَّحقُّق بها علامته فناء الشَّواهد، وبلوغ غرض شيخ الإسلام في جميع كتابه منازل السَّائرين، حيث إنَّه ساق جميع الأبواب إلى فناء شاهد الخلق، وبقاء الحقِّ وتصرُّفه، وبالله المستعان، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

قاعدة: من علامات التَّحقُّق بالقيُّوميَّة
هذه القاعدة تتمة لما سبق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أن لا يجاذب نفسه عند الدَّفع والجلب بالنَّظر إلى استجلاب الأشياء ودفعها، بل يرجع إلى ربِّه في مبادئ كلِّ أمر رجوعاً، فهو رجل لم يزل يقول الأمر كلُّه لله حتَّى يثبت هذا المعنى في قلبه ثبوتاً لا يتوارى، ثمَّ كشف عن حقيقة ذلك، فصار فقيراً بالذَّات إلى مولاه، لا يرى فعل نفسه إلَّا بالقصد الثَّاني، ويرى الأمور كلَّها بيد الله.

فإذا أحدث حادثاً؛ لم يتفكَّر في أفعل أترك، بل يرجع إلى صاحب الأمر ووليه فيستسلم، و يستمدُّ من فضله به، يرى ذلك الاستسلام والاستمداد من فيض الحقِّ وفضله، والله الموفِّق.

فصل

ولهم بعد الفناء محبَّة خاصَّة، مقترنة بقرب يغيب عمَّا سواه، وتلك المحبَّة - والله أعلم - من عيون البقاء، وربَّما كانت في حقِّ قوم من المحبَّة لهم، فتؤثِّر تلك المحبَّة فيهم محبَّة مقترنة بالفناء عن الوجود المضمحل، والبقاء بالوجود الحقيقيِّ الكابس لوجودهم الَّذي هو كالخيال والظِّلال، فحينئذ لا يفرِّقه إلَّا ما يتلوَّن العبد به من ثقل الحال في أشياء يعود نفعها خصوصاً وعموماً، وبالله المستعان.

فصل

من فتح الله على قلبه بالمحبَّة الخاصَّة الملهية للرُّوح عن مشاهده في ظهور الفناء، ثمَّ عن وجود في طور البقاء المقارنة للقرب الماحي لما سواه، بحيث يرى المحبُّ شاهد لمحبَّة من محبَّة الحقِّ له ونظره إليه وعنايته به، فهو به في محبَّته الَّتي هي محبَّته، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾(١)، فعليه أن يستعين بالله ويستجير به اللَّيل والنَّهار أن يحفظ عليه ما أولاه، ولا يمتحنه بشيء يستر هذا الحال عن قلبه، فالأسباب الَّتي يخاف منها حبُّ الاجتماع، واتِّحاد الأصدقاء، واشتغال القلب بهم وبخدمتهم، والقيام بمصالحهم، والاهتمام بالتَّزوُّج والعيال، والرُّجوع إلى الكسب، ومجالسة الثُّقلاء المغايرين الَّذين لا يطلبون ما يطلب الصَّادقون، محبَّة صورة للطَّاقة طبعها [١٧٨/ ا] أو حسن تركيبها، بحيث يسكن ذلك في القلب، فمثل هذه الأشياء، حاجبة قاطعة، ساترة، لهذا الحال الإلهيِّ الشَّريف.

فصل

المحبَّة من أصلف المقامات وألطفها، هي كالثَّوب الأبيض النَّقيِّ يدنِّسه أدنى لواث، فكذلك يغيِّر القلب أدنى التفات، أو عُلقة من حبِّ مال، أو جاه، أو مشيخة، أو اجتماع، أو زوجة، أو صورة، أو اجتماع بمغاير له كيفيَّة بمغايرة لما يكون السَّالك فيه، أو أيُّ ميل كان.

اللهمَّ إلَّا أن يكون ذلك بالله يدخل عليه وهو رافع له ممَّا أبيح شرعاً، ينفض ثوبه وهو يتعلَّق به، فذاك ربمَّا يكون محمولاً فيه بشرط عدم الركون إليه والطَّمأنينة.

(١) سُورة المائدة: الآية ٥٤.

فصل

ومن الأشياء الَّتي يخاف منها السَّلب الرُّكون إلى الحال نفسه، والطَّمأنينة فيه، واعتقاد أنَّه قد صار موطناً له، فلا يركن العبد إلى غير ربِّه، ونسأله أن يحفظ عليه ما أولاه منه.

فصل

يا من سُلب حال المحبَّة، وصرف إلى غيره من الأشياء، وغُطِّي عليه؛ إن كنت حزيناً على ما فاتك فأبشر وتخلَّ عن كلِّ شيء، واقعد خالياً عن كلِّ همٍّ، واحفظ الحدود، فلا تيأسن منه فأكثر فإنَّ النُّفوس الَّتي رسَّخت القلوب فحالت بينك وبينها التَّخلِّي منها وعن موادها سنة مع الاستجارة بالله، والاستغاثة به، هذا إن كنت حزيناً.

وإن كنت مطمئنَّاً؛ فابك على نفسك، فقد فاتك الملك الأعظم، والكنز الأكبر، والغنى الأفضل بمولاك، حيث تصير حبيباً، وأنت له محبَّاً، تعيش على ذلك، وتموت عليه وتحشر عليه في زمرة من أحبَّهم وأحبُّوه، فصُرفت إهانة لك إلى شيء سواه، أيِّ شيء كان؛ لأنَّك لم تصلح لحبِّه، وقربه، والامتلاء منه، يا لها حسرة لا يقابلها حسرة، وبالله المستعان، وأعوذ بالله من الخذلان، والحمد لله وحد، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

قاعدة في بدايات الأولياء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الَّذي منَّ على صفوة من ومنح أهل المضافات الأصفياء، خالصته، وأراهم الأشياء على ما هي عليه، وكانوا بحكمها وكيفيَّاتها بلا كيفيَّة منهم تغاير ما جرى به الحكم الشَّرعيِّ، وانتظام القَدريِّ، فهم منفعلين لما يجتمعان فيه من حكم الله ﷻ ومراده، فهم به في حركاتهم، وهمومهم، وإراداتهم، يسمعون، وينطقون، ويتصرَّفون، ويتحرَّكون، وإلى حركات نفوسهم لا يلتفتون، ولغير حسن تدبيره لا ينظرون، وبغير أمره [١٧٨/ ب] لا يعملون، وهو مستعانهم عند حركات وجودهم، فإليه يرجعون، وإلى مشيآته وإراداته شاخصون، وعند العوارض الكونيَّة فللطائف حكمه فيها ينظرون، وإلى سواه لا يتحيَّزون، عرفوا البلوى بالسُّوى، فهو الحجاب عن الهدى، والقائم به هو الَّذي ولي ما تولَّى، والمهتدي من اتَّحدت إرادته بإرادة المولى، فصارت واحدة، وأنَّ إلى ربِّك المنتهى، وصلواته على معدن الهدى، وواسطة عقد الورى، محمَّد وآله وأصحابه أهل النُّصرة والولاء.

بدايات الأولياء عجيبة، وطرائقهم مختصرة قريبة، جمع لهم فيها جميع الحواشي والأطراف، وقربت لهم المطالب البعيدة عدد الإسعاف، حيث تضيع أعمار غيرهم في الوقوف عند جزء من أجزاء المشاهدات والتَّحيُّل على خدع النُّفوس، ودسائس التَّسويلات، وفنون من الرِّياضات، والمكابدات والخصوص أخذهم إليه أخذاً قريباً، وأراهم حقائق الأشياء تبصُّراً غريباً.

أوَّل ذلك أن كشف لبصائرهم إرادته وتدبيره، فرأوا ما سوى ذلك باطلاً من نوازع الإرادات النَّفسيَّة، والاختيارات العماويَّة، ورأوا منشأ الحركة

والسُّكون، والقبض والبسط، والخفض والرَّفع، فتفسَّحت لذلك عزائمهم لكثرة المراد لتنوُّعه، واختلاف شؤنه، مع ملاحظة الأمر والنَّهي؛ إذ ما يخالفهما إنَّما ينشا من قوَّة الوجود الطَّبيعيِّ السَّاتر عن الأمر الحقيقيِّ، فلمَّا شاهدوا ذلك تحقيقاً أخذهم بقدرته أيضاً على حكم موافقته جذباً وتوفيقاً، فاتَّحدت منهم الإرادة بالإرادة، بل صارت واحدة، وهي إرادته سبحانه، لا غير؛ إذ لا مراد إلَّا مراده، ولا حكم إلَّا حكمه، ولا تدبير إلَّا تدبيره، فبطلت مشيآتهم، وصارت شاخصة إلى مشيآته، يتراءى لهم فنون الحكم واللَّطائف، وبواهر القدرة المنوطة بالحكمة التَّامَّة، والعلم التَّامِّ، والرَّحمة التَّامَّة، ويرجعون إليه فيما قصر عنهم إدراكه من ذلك، فأصبح غاية آمالهم مواقع الأقدار، يتعوَّذون به ممَّا يعجز عنه الاصطبار من دقائق المحن والاختبار، يتبرُّون من حولهم وقوَّتهم، وعلمهم وعملهم، واختيارهم ونظرهم إلى حوله وقوَّته، وعلمه ومشيئته، واختياره ونظره، فهم منقطعون إليه حقيقة الانقطاع وأي انقطاع أبلغ ممن ذهب علمه وعمله وحسبه ونسبه وإرادته وتدبيره، وبقي بإرادة مولاه، وحسن تدبيره، ونظره قائماً به في [١٧٩/ أ] سمعه، وبصره، ونطقه، وحركته.

فهؤلاء انتهت إليهم الطَّمأنينة، والرِّضا، وحقائق التَّفويض والغنى، ولا يشهدون ولا يدعون من نفوسهم ولا لنفوسهم شيئاً إلَّا آثار النُّقصان والانحراف، جلُّ أمرهم الموافقة في كلِّ شيء، بل الفناء في الموافقة بلا موافقة تجيز بأنَّ الأحكام عليهم من معادنها، وهم إليها ينظرون، وهم على حسن تدبيره يعتمدون، ولأوامره ينفِّذون، وعن مناهيه يهربون، بتنفيذ أمره الشَّرعيِّ فيهم، وأخذهم عمَّا يكره، فهم له وبه يعملون، وإلى تصريفه لهم في عملهم ينظرون، فسبحان الفعَّال لما يريد، والكلُّ في قبضته عبيد، عبدوه في هذا الموطن بعبوديات الربوبية وتحققوا بمعرفة أفعاله والكون بها على حلية

قربت منهم في هذا الموطن عين اليقين فكأنهم هي من تحققه بالموافقة واقتران الإرادة بالإرادة ثم لطف بهم بأن كشف لهم شيئاً من حقيقة حقه الذي هو به من كمال الأوصاف والنُّعوت، فشكروا بذلك الحقَّ شكراً لا تطيقه الإشارة، ولا تحده العبارة، فغرقوا غرقاً، وتلاشت نعوتهم تفريداً محقِّقاً، ومن تجلَّى لسرِّه لائح من عظمة القدرة، وهيبة الجلال وكمال الجمال، ونفوذ التَّصرُّف والاقتدار على ما هو به متَّصف ممَّا لا يعلمه سواه، فهو متجلٍّ بذاته وصفاته لنفسه بنفسه في بهاء أضواء ممَّا لا يصفه الواصفون، وكمال تمام ما لا يعلمه سواه، فلا هم به يحيطون، يدبرَّ الأمر من السَّماء إلى الأرض، ثمَّ يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة ممَّا تعدُّون.

بحيث تندرج في هذه المعرفة جميع ما أبرز من المعارف، وصنوف الأسماء، والنُّعوت بما لا يعلمه العارف، بل بما يعلم المعروف نفسه كما هو، فحيوا بهذه المعرفة حياة الأبد، وكانوا على قرَّة العيون منتهى الأمد، فزالت عنهم بها كلفة التَّكاليف، ووحشيَّة الانفراد، وعفونات التَعاسيف، ولهم من مدد فضل الحقِّ بعد ذلك ما لا يستطيع حادّ أن يحدَّه، ولا حاصر أن يحصره، وهو وليُّهم في ذلك كلِّه، لا يكلهم إلى غيره، حيث أراهم وكالته لهم ابتداء، وبالله المستعان.

تتمَّة

لكلِّ مقام عبوديَّة يحسبها، فما عبوديَّة من أبدا له الحقُّ من حقِّه؟

الجواب: من أبدا له الحقُّ حقيقة من حقِّه، وأبرز له لائحاً من حقِّ اليقين، فعرف فيه عرفاً، وتلاطمت عليه أمواج الحقيقة بحيث لا يرى سواها، ويرى نفسه فيها وبها.

فعبوديَّته ملاحظة ما لازم ذلك اللَّائح من النِّهاية، والآجال، والكمال، والبهاء، والجمال، والعظمة، [١٧٩/ ب] والأفضال، فكأن روحه حيث يرى ذلك، حيث يقول أنت كذلك ممَّا لا يعلمه سواك، وإنَّما برز لي أمر مجمل أنت تعلم تفصيله، فيكون في علمه بهذه الأشياء كأنَّه يعبد الله بالمهابة والإجلال، والنَّظر إليه بالكمال، والبهاء، والجمال، والعظمة، والإفضال شاخصاً إليها، معترفاً بها، قد احتوشه آثارها، وقرنته أنوارها ممَّا لا يعلم سواه، وإنَّما برز للعارف أمر مجمل منه، فهذه عبوديَّة صاحب المقام، والله المستعان.

تتمَّة

القاعدة وبداية لها إذا أشكل عليك الدُّخول فيما تقرَّر في هذه القاعدة من اتِّحاد الإرادة بالإرادة، فتكون واحدة، وهي إرادة الله ﷻ، والتَّحقُّق بانفساح العزائم لمشاهدة الإرادة، إلَّا عزائم الأمر والنَّهي، فإنَّك مطلوب بها، وهي مراد الله شرعاً، وما كان مراد الله ﷻ شرعاً، فلا يترك للقدر، فإذا عزَّ عليك تفسُّح عزائمك، وإمحاق مشيئتك، وانتظار مشيئة الله ﷻ.

والاستسلام لها وبعد عليك الفناء في موافقة الحقِّ ﷻ شرعاً وقدراً بحيث لا يبقى إلَّا قدره وأمره، وأنت ذاهب بلا أنت تجري عليك ذلك بمشيئته، وأنت تلاحظ الفضل مسيَّر لا مع ربِّك كيفما أراد قدراً وشرعاً، بحيث لا ينفكُّ أحدهما عن الآخر.

وقد عرفت ما من ذلك بدايات الأولياء، وعرفت أنَّه مرقاة إلى محض الوجود لشيء من حقيقته حقِّ الحقِّ ﷻ الموجب للانتباه لكمال عظمته، وكمال صفاته، بحيث يغيب وجودك له في وجوده لنفسه، وتعظمك له فيما

يستحقُّه من التَّعظيم القائم، فإذا عزَّ عليك ذلك؛ فاستعن بالله تعالى، وارجع إلى الأصول؛ إذ انتبهت من النَّوم أوَّل ما يجري على قلبك أنَّ روحك بيد الله ﷻ كما روي عن النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده**»(١)، وأنَّ قلبك بين إصبعيه كما صحَّ في الحديث، وإنَّ حركاتك وسكناتك آثار قدره، وطاعاتك وقرباتك آثار فضله، فارجع إليه بكلِّك، واعلم أنَّك به، ثمَّ أثبت على ذلك، فكلَّما تحرَّكت رعونات نفسك؛ فارجع إلى الأصول يتبيَّن لك بطلان العوائد الفاسدة ممَّا يجري على ألسنة النَّاس أنا وأنا وأنا، ويكشف لك حقائق الصُّنع والتَّدبير في الخارج وفيك: كما قال الله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(٢).

فهناك ترجو أن تغرق في الفضل كما وصف في القاعدة المتقدِّمة غرقاً، وتكون بالوصال محقِّقاً إن شاء الله تعالى. [١٨٠/ أ]

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدِّين.

---

(١) انظر صحيح البخاري، رقم: (٦١٨) وصحيح مسلم، رقم: (١٨٠).

(٢) سُورة فصلت: الآية ٥٣.

قاعدة في بيان الطَّريق إلى الله تعالى من البداية إلى النهاية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الملك الحقِّ المبين، وأشهد أنَّ لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، ربُّ الأوَّلين والآخرين، وأشهد أنَّ محمَّداً ﷺ عبده ورسوله، خاتم النَّبيِّين، ورسول ربِّ العالمين، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

بيان الطَّريق إلى الله تعالى في قاعدة ملخَّصة، يسهل فهمها، ويقرب إلى السَّالك الإحاطة بحملها، وإلى الله أرغب في الهداية، وتقريب سبلها من البداية إلى الغاية؛ ليعلم السَّالك، وفَّقه الله، وأيَّده، وفتح له الطَّريق وسدَّده.

إنَّ الإنسان الطَّالب لغاية المحقِّقين ومراتب الواصلين مرتهن بثلاث دوائر، كلُّ دائرة منها فيها عوالم من خلق الله، فيها يعيشون، ومنها إلى المنيَّة يختطفون لاتِّساع أرجائها.

الدَّائرة الأولى: دائرة النَّفس والشَّيطان الَّتي أكثر الخلق مرتهنون بها، محبوسون في مضائقها، مأخوذون في مصائدها من عوالم النَّفس، والشَّهوات، والأماني، والاختيارات بحكم الجبلة الطَّبيعيَّة الَّتي يظهر فيها خصوصيَّة الحيوانيَّة في الإنسان، وإن كان ناطقاً، وهذه الدَّائرة لا يتَّسع لشرحها مجلَّدات، وكلُّها معلومة معروفة عند ذوي العقول من طلب الحطام، وطيب الشَّراب، والطَّعام، والنِّكاح، والمنام، والتكالب على المناصب طلباً للرِّفعة بين الأنام، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾[1].

---

(١) سُورة آل عمران: الآية ١٤

وخصوصيَّة هذه الدَّائرة قلَّة المبالات بترك الأوامر، والوثوب على المناهي إذا لم يمكن تحصيل الإرب إلَّا بذلك، والغفلة عن الله تعالى وعن شرائعه، وعزائمه، وعن ثوابه، وعقابه، وإن كان ثمَّ إيمان؛ فإنَّه يكون في القوَّة لا سبيل إلى ظهوره في الفعل بكماله، فالسَّالك يتعيَّن عليه الوثوب من هذه الدَّائرة.

الدَّائرة الثَّانية: فأوَّل ما يفتح له من هذه الدَّائرة الواسعة الأرجاء الَّتي هي دائرة النَّفس والشَّيطان طاقة إلى دائرة الملك الدَّيَّان، وهي دائرة القلب والإيمان، فيعرف ربَّه من فوق عرشه؛ ومن فوق سبع سماواته، وأنَّه سميع بصير، قدير عليم، متكلِّم شاءٍ مريد، لا يخفى عليه خافية، أنزل الكتاب وأرسل الرُّسل، وأحلَّ وحرَّم، وله يوم عظيم يجمع الأوَّلين والآخرين، فيجازيهم على الحسنات إحساناً، وعلى السَّيِّئات بحسب ما تقتضيه المشيئة، إمَّا مغفرة، أو عقاباً، فيشعر القلب بذلك، ويتنبَّه ويستيقظ [١٨٠/ ب]وينهض إلى التَّوبة النَّصوح، ويعرف ربَّه ومعبوده من فوق عرشه، ويعرف نبيَّه محمَّداً ﷺ بمعجزاته، وآياته، وكراماته، وترسخ نبوَّته في قلبه، ويعمل على اتِّباع سنَّته، وتستولي على قلبه عند ذلك عظمة الرَّبِّ تعالى وهيبته، والحياء منه، والمراقبة لنظره، وعلمه، والتَّفهُّم لكتابه في أمره، ونهيه، وزجره، ووعده، ووعيده، ويفهم كلام الرَّسول ﷺ، فإذا صدق الله في السَّير والسُّلوك؛ انتقل بالتَّدريج من الدَّائرة الأولى النَّفسانيَّة الَّتي هي دائرة العادات، والشَّهوات إلى هذه الدائرة الَّتي هي موطن الكرامات، وكلَّما جاءت هذه الطَّاقة اتَّسعت، فيدخل منها إلى الدَّائرة الثَّانية أحياناً، ثمَّ يعود بحكم طبعه إلى الدَّائرة الأولى؛ لأنَّها وطنه، ثمَّ يشتاق إلى وطنه من الدَّائرة الثَّانية، فإنَّه صار له فيها مقرٌّ أيضاً، لكن لا يدوم، فلا يزال كذلك صاعداً إلى المرتبة الثَّانية، ونازلاً من الثَّانية إلى الأولى بحكم طبعه حتَّى يقوِّيه الله تعالى، ويكشف له عن الميدان

العريض السَّمائي الَّذي هو خصوصيَّة المرتبة الثَّانية من العلم بالله، ويصل إلى قلبه منه أنوار من الكتاب العزيز ومن الصِّفات، فيقوى أنسه، ويتوطَّن فيها ويحقق المرتبة الأولى ويقلاها، إلَّا ما أبيح له منها لصلاح جسمه وقلبه، ويستولي على قلبه المراقبة والحياء من الله تعالى في الخلوات، وتتعوَّد جوارحه المسارعة إلى امتثال الأوامر، والتَّجافي من الزَّواجر، فينزل إلى الدَّائرة الثَّانية نزولاً لا يبرح منه، وكيف يطيب للقلوب الخروج من الأماكن الواسعة الأرجاء، المنوِّرة الذَّوات والأسماء إلى الأماكن الضَّيِّقة الحرجة الملوَّثة بأنجاس النُّفوس وظلمات الطَّبائع والنُّحوس؟!

فيكون لسان حاله، كما قيل(١):

كانت لقلبي أهواء مفرَّقة ... فاستجمعت مذ رآك القلب أهوائي

وفيها تصحيح التَّوبة، والعقيدة، والأعمال والأحوال القلبيَّة من التَّوكُّل، والصَّبر، والرِّضا، فيذوب في هذه بقاياه، ويصفو من كدره.

فإذا يسَّر الله تعالى وتوطَّن في هذه الدَّائرة الثَّانية المنوَّرة العلويَّة، وكان مراداً بمقام من مقامات القرب، فيرزق مقام الطَّمأنينة، فتطمئنُّ نفسه، ويسكن عن الخواطر، ويصير قلباً محضاً ناظراً إلى الآيات والأخبار، ويقوم بأحكام الصِّفات، فعند ذلك تهيج روحه وتضطرب كما يهيج البحر ويلقي زبده، كذلك تهيج الرُّوح، وتلقي ما سوى [١٨٠/ أ] الله تعالى، كالزَّبد الَّذي يلقيه البحر، ويهيج بالمحبَّة الخاصَّة؛ لما باشرها من سطوع أنوار الجلال والعظمة، فعند ذلك يرجى له أن تدبَّ عليه حميًا المحبَّة الخاصَّة الموجبة للسَّكرات، وهو الحبُّ الخاصُّ عن مكاشفة الأرواح بما لا يحلُّ سطره في كتاب ولا شرحه في خطاب.

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٧/ ١٩٠)، ونسبه إلى أبي المعالي عبد الملك بن أبي نصر الشافعي.

اللهمَّ إلَّا على سبيل الإجمال؛ كي يعرف المريد طريقه وغايتها، وعند ذلك يتنزَّل عليها الفيض الخاصُّ المغني له عمَّا سواه، ويصطلي بحرارة الرُّوح، ويصير واجداً بعد أن كان عارفاً مشاهداً ببصيرة القلب في الدَّائرة الثَّانية إذا علم ذلك **فاعلم أنَّ أصل الدَّائرة الأولى**: الَّتي هي دائرة النَّفس والشَّيطان تمتدُّ من الكفر والطُّغيان، ومنتهاها الفسوق والعصيان.

وأصل الدَّائرة الثَّانية: تمتدُّ من الإيمان والإحسان، ومنتهاه المشاهدة والعرفان.

وأصل الدَّائرة الثَّالثة: تمتدُّ من المحبَّة المبغضة للأكوان، والمنغِّصة للشَّهوات الكافَّة عن الميلان المتَّصلة بالحنَّان المنَّان.

واعلم أنَّ طبيعة الدَّائرة الأولى ناريَّة؛ لأنَّها تنشأ من حرقات الشَّهوات، وتودي إلى طبيعتها في الآخرة.

والدَّائرة الثَّانية طبيعتها نوريَّة تلتذُّ بها القلوب، وتبرِّد القلب من حرارات الشُّكوك فعلها في البواطن فعل برودة القمر في الحيوان والنَّبات، يلوح عليها بهجة الجنَّة وميادينها، وتؤدي في الآخرة إلى ذلك.

الدَّائرة الثَّالثة: طبيعتها ناريَّة جاذبة للأرواح بالمحبَّة، وهي نار تجذب إلى ما يلهب الأفئدة، وتفتن القلوب من أسرار الغيوب، وفعلها في البواطن فعل حرارة الشَّمس في الحيوان والنَّبات من الإصلاح والنُّموِّ، يلوح عليها بهجة القرب والاتِّصال بالله، وإليه يؤدِّي في الآخرة، فمن وفَّقه الله تعالى لمعرفة طريقته علماً، ثمَّ إتقانه فيها للمسير فيها عملاً، ثمَّ التَّحقيق بجميع ذلك حالاً، فهو الَّذي يسمَّى واصلاً بحسب جدِّه ومرتبته، فيترقَّى من دائرة النَّفس والشَّيطان إلى دائرة القلب، والمعرفة، والإيمان، ثمَّ إلى دائرة المحبَّة والمراقبة إلى الكشف والعيان.

والدَّائرة الأولى: سفليَّة ناريَّة، وهو المركز.

والدَّائرة الثَّانية: نوريَّة، سماويَّة، قلبيَّة، صفاتيَّة، تجرُّ إلى العلويَّة، ومقرُّ الرُّوح والرَّاحة هي الجنَّة، وهي دائرة نصيب العبد من الإيمان

والدائرة الثالثة: قوية ذاتية وجدية سكرية وصلية تجلب إلى العندية والمحبوبية وهي نصيب العبد من ربه، فيتعيَّن على العبد تعمير الدَّوائر الثَّلاث.

فتعمير الأولى: بالابتراح عنها وتبديل صفاتها، والصُّعود من طبيعة المركز إلى السَّماء.

وتعمير الثَّانية: بإتقان علومها، وعقائدها، وأعمالها [١٨١/ ب] وتأسيس قواعدها على تحقيق الفهم من كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ، وبذلك يستوطن العبد ملكوت السَّماء، ويبتهج بأنوار الصِّفات من المراقبة، والتَّعظيم، والحياء، وتشبُّه الملائكة من بعض الوجوه، ويترقَّى عن الحيوانيَّة وسائر الكثائف.

وتعمير الدَّائرة الثَّالثة: بالتَّخلِّي عن السَّوى وطهارة المحلِّ رجاء فتح تلك الدَّائرة من خزائن الألطاف والغيوب، ففيها الرَّاحة والسُّرور، وبها تنسد فاقة الرُّوح، فيصبح العبد فرحاناً بسيِّده من الوجود، ومن قرب، ومن طرب، ولسان حاله فيها[١]:

قد كنت قبل اليوم في حكم ... وتقضَّى ذلك الحكم

فزماني كلُّه طرب ... دونه الأوتار والنغم

فبذلك يستوطن العبد حضرة القرب، ومجالس الإنس بعد استيطانه ملكوت السَّماء، وصعوده عن المراكز السُّفليَّة، وتحقُّق لصفاء الحبِّ الخاصِّ لما يبدو عليه من المشاهد الخاصَّة الذَّاتيَّة بعد الحضوة في الدَّائرة الثَّانية بالمشاهد الصِّفاتيَّة، والله الموفِّق للصَّواب، وإليه المرجع والمآب، والحمد لله وحده وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

---

(١) قاله عبد الغني النابلسي في ديوانه، (ص١٣٧١).

قاعدة في تمهيد ما قبلها وتناسبه

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الَّذي فتح للطَّالبين أبوب معرفته، وأجلسهم على بساط قربته، وجذب قلوبهم بجواذب محبَّته، وكسا ظواهرهم لبسة من آداب شريعته، وصبغ قلوبهم بما سترها عن شهواتها، ورذائل آفاتها من أنوار بهجته، وأشعَّة عظمته، ففيهم من لا يعرف غير مولاه ممَّا به من قربه أفناه، فهو مستغرق في أحوال سكرته، متنعِّم به عن كلِّ نعيم خلقه في بريَّته.

ومنهم من أصحاهم وقوَّاهم، فهم صحاة سكارى، ينطقون بحكمته، ويهدون الطَّالبين إلى طريق اصطناعه ومحبوبيَّته.

وأشهد أنَّ لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، القادر في قيُّومته، المدبِّر لما أتقن من صنعته، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، ينبوع الهدى، وواسطة عقد الورى، الَّذي بعثه برحمته وهدايته؛ لنجاة الخلق في اتِّباعه وطريقته، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحابته.

وبعد:

فمن طلب هذا الطَّريق، وابتغاه، وانبعثت همَّته إليه، وآثره على ما سواه؛ فلا يفرِّق همَّه في تنوُّع أبواب القرب والطَّاعات، وما أشار إليه القوم من المجاهدات.

واعلم أنَّ النَّاس طبقات خلقوا لتعمير المراتب، والأكثر منهم إنَّما يقوم المراتب في الحجاب عن ربِّ الأرباب، وخيارهم أهل العبادات من المحجوبين، فإنَّهم ليس لهم منه ما يشغلهم عن كلِّ [١٨٢/ أ] شيء غيره.

فمنهم يتقرَّبون بالسِّعايات؛ لنيل الدَّرجات في الجنَّات، فلو تركوا ما هم

عليه؛ لم يبق معهم شيء، والمرادون بهذا الشَّأن وقعوا على المطلوب، فلهوا به عمَّا سواه، وحصل لهم من العبادات والمعاملات صفوها، وخالصها؛ إذ كانت مغشوشة مشوَّهة في غيرهم للعماء المركَّب فيهم عن المطلوب، وفي العماء يدخلُّ النَّفس والشَّيطان، فأكثر العباد لا يسلمون من الرِّياء والعجب، وسبب ذلك كلُّ الحجاب، وهؤلاء لمَّا وقعوا على المطلوب؛ استغرقت هممهم به، واستعملوا من الأعمال والعبادات، وإن قلت أصفاها وأزكاها، وكانت أعمالهم كباراً راجحة، مضاعفة بخلوصها وصفائها، وأيضاً فإنَّهم عملوها بمشهد من معبودهم في نور المعرفة، وجواذب المحبَّة، وصفت بذلك وزكت، فلذلك قلت أعمالهم الظَّاهرة، لكنَّها متقنة مصفَّاة من الشَّوائب.

وسبب قلَّة أعمالهم: أنَّ قلوبهم سرحت في ميادين الفكر، والمصنوعات، والشَّواهد، والاعتبارات، ثمَّ فتح لأرواحهم مقامات المشاهدات، فاستغرقوا بما وجوده من لوائح الصِّفات، وفي ذلك شغل شاغل عن كثرة الحركات.

اللهمَّ إلَّا الكمل، فإنَّهم يطيقون ذلك؛ لأنَّهم انجمعوا بمولاهم، وتوطَّنت قلوبهم في حضرته توطُّناً فهم وإن تفرَّقوا في الظَّاهر؛ فهم مجموعون في عين الجمع.

فاعرف ذلك، فإن كنت تطلب هذه التُّحف السَّنيَّة، والمشاهد العليَّة من قرب ربِّ البريَّة فتقرَّب إليه بأعلى الأشياء وأسناها من الأعمال القالبيَّة والقلبيَّة، فإنَّ التَّقرُّب أثر لازم أمَّا الأعمال القالبيَّة، فيكفيك إتقان الفرائض، وتحريز اجتناب الناهي، وما لا تتفرَّق به من السُّنن والنَّوادب.

وأمَّا التَّقرُّب إليه بالأعمال القلبيَّة، فالحضور بين يديه من وراء حجب الغيوب كما تحضر مع حبيب لك غائب عن بصرك، فإنَّه يمكنك ذلك فإذا تعوَّدت الحضور لذلك؛ تطرَّقت إلى حريم المشاهدة، فعامله حينئذ بأفضل الأعمال من الحياء، والمهابة، والحبِّ، المحرق لطلب ما سواه، فإنَّ سواه هو العذاب الأليم.

فصل

فإذا علمت ذلك فاستعمله واصبر على عكوف الهم، وعلى الاقتصار على هذا دون غيره، والنَّفس لا تدعك تقول لك: اعمل كذا، اعمل كذا، فإنَّها لا تصبر على الحضرة؛ إذ لا تصبر عليها، إلَّا محبٌّ، صادق، مستعدٌّ، والَّذي لا يستعدُّ؛ تحطه النَّفس إلى السِّعايات، والتَّكسُّب بالحركات من أنواع الطَّاعات، [١٨٢/ ب] فيحتاج الصَّادق إلى صبرين: صبر على دوام الحضور بالحياء، والمهابة، والحبِّ، والتَّعظيم، وصبراً آخر على الاقتصار على ذلك، ثمَّ استعن بالله تعالى في هذا الشَّأن خصوصاً، وفي غيره عموماً.

فإن قنعت بذلك، وصبرت عليه وعمَّا سواه؛ يرجى أن يكشف لك في ذلك أسرار لا تسمع، وتجد نوراً في بصيرتك، ترى الحقَّ حقَّاً، والباطل باطلاً وغير ذلك من التَّحف الَّتي يحظى بها المحبُّون والمقرَّبون من قريبهم، وفي ذلك كفاية لكلِّ صادق، مستعدٍّ، طالب عرف المقصود، فانجمع عليه، وعرف الطَّريق، فلم يعرج عنها إلى ما يتفرَّق همَّه لديه، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وسلم.

قاعدة في الأمور الَّتي ينبغي أن تكون همَّ السَّالك

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الَّذي سبَّحت له السُّحب الماطرة، والبحار الزَّاخرة، والنُّجوم السَّائرة، والأفلاك الدَّائرة بفنون ما أنطقها به بارئها من أنواع تحميده، وتمجيده، وتقديسه، وتكبيره، يسبِّح له ما في السَّماوات والأرض، والطَّير صافَّات كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه، وإن من شيء إلَّا يسبِّح بحمد، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنَّه كان حليماً غفوراً، أذعنت لعظمته منقادة بالسُّجود طوعاً وكرهاً بذواتها وظلالها، ولله يسجد من في السَّماوات والأرض طوعاً وكرهاً، وظلالهم بالغدوِّ والآصال، باعثَ الرُّسل مبشِّرين ومنذرين؛ لئلا يكون للنَّاس على الله حجَّة بعد الرُّسل، وكان الله عزيزاً حكيماً، ختمهم بمحمَّد ﷺ عبده ورسوله، وبعثه هادياً، وجعله مهديَّاً، فتح به آذاناً صمَّاً، وقلوباً غلفاً، وعيوناً عمياً، وألزم أمَّته كلمة التَّقوى، وكانوا أحقَّ بها وأهلها، وكان الله بكلِّ شيء عليماً، ونحن نشهد بها مؤمنين موقنين، نسأل الله أن يكتبنا مع الشَّاهدين بفضله، وكرمه، وامتنانه، آمين.

وبعد:

فكذا رأيت معظم السَّالكين قد انصرفت هممهم إلى جزيئات من السُّلوك تحرف بصاحبها عن منهج الاستقامة، ويعطب فيها من لم يكن التَّوفيق أمامه؛ مثل صوم دائم، وتجريد غير ملائم، وتقطُّع في السِّياحات ومطارح صعبة في الفاقات، يذوب فيها مهجهم، ويضمحلُّ فيها قواهم ومددهم، وتذهب اللَّطيفة الذِّهنيَّة من عقولهم التي يلطف إدراكها، يتبصَّر صاحبها ما بين يديه من المطالب العاليَّة، والمعاطب الباطنة من معاثر النَّفس والشَّيطان، ومزالق

الطَّوارق والحدثان، فمن عمي عن مطلبه؛ كيف يظفر بإربه؟!

ومن حجب عن أعدائه؛ ربَّما قطع عن [١٨٣/ أ] انتهائه، فيظلُّ أحدهم صائماً، وعن إصلاح مزاجه ساهياً، ويعمل على تقطيع بدنه بلا أستاذ يرشده، ولا سائس يؤدِّبه، فيفتح له من ذلك أخلاق حارَّة؛ لاحتراق المادَّة، ويجمد القلب، فلا يسير على الجادَّة، فإنَّ القلب الجامد بالرِّياضة لا ينفعل، ولا يؤثِّر فيه السِّياسة، وربَّما غلب صاحبه على بغض كامن وحسد باطن وأخلاق سيِّئة يقع بها صاحبها في الموبقات من الآثام، فيحبط عمله، ويبطل سعيه، فلا تفي رياضته بانحرافه، وربَّما فاته المطلوب من إسرافه، وحقَّقت النَّظر فوجدت الحامل لهم على ذلك الجهل بالمطلوب وبطريق الوصول إليه.

والكيِّس الفطن إذا عرف المطلوب وطريقه؛ لم يعرج عنه إلى غيره من هذه الانحرافات الَّتي هي عند المبصرين عقوبات، ووجدت هذا الأمر لا يفطن له، إلَّا الأكياس الأذكياء، أهل العقول السَّليمة، والأذهان المستقيمة، والهمم الحارَّة، والقرائح الحادَّة، فعلقت هذه القاعدة بعد الاستخارة لأجلهم، ورجوت أنَّ الله تعالى يبصِّرهم بها المبادئ والغايات، ويعصمهم من ورطات الانحرافات.

ولحظت فيها تلخيص الأمور المهمَّة الَّتي تنبغي أن تكون همَّ السَّالك، منصرف إليها، عامل على تحقيقها والوصول إليها، وبالله المستعان.

اعلم أيُّها الأخ الَّذي كاس، وفطن، وطلب الحقائق، وارتفعت همَّته عن الانبتاد على صور الأشياء دون حقائقها أنَّ المحقِّقين نظروا إلى أهمِّ المطالب وأعظمها خطراً الأهمّ منها فالأهمّ، فشغلوا هممهم بها، وعملوا على التحقيق بحقائقها، فارتفعوا بذلك عن العلوم النَّاقصة، والأعمال الزَّائغة، والأحوال الَّتي هي غير نافذة، وساعدهم التَّوفيق حتَّى بلغوا إلى مراد الله تعالى منهم في ذلك كلِّه.

فأهمُّ المهامِّ الَّذي يتعيَّن الاهتمام به أوَّلاً: وبالله التَّوفيق معرفة عقائد الإيمان، وما يجب لله من الصِّفات، وما يستحيل عليه منها، وهي معالم المعرفة والتَّوحيد المستنبطة من كتاب الله تعالى، وسنَّة رسوله ﷺ بلا تحريف، ولا تمثيل، وإتقان هذا الباب بحججه ودلائله من الكتاب والسُّنَّة من عقائد أهل السُّنَّة وفقهاء الحديث؛ كأحمد، وسفيان، وابن المبارك، والشَّافعيِّ، وأقرانهم ونظرائهم، ومجانبة ما أحدثه أهل الكلام من الرَّأي والمعقول، ومطالعة كتب أهل السُّنَّة في إثبات الصِّفات؛ كـ (كتاب «التَّوحيد») لابن خزيمة، و(كتاب «النقض») لعثمان بن سعيد الدارمي، ففي الكتابين وغيرهما يعلم مذاهب السلف في اثبات جميع الصفات بحقائقها لله تعالى، من غير تحريف ولا تمثيل، وبالله المستعان.

فهذا المهم الأول، الذي عليه تتبنى المشاهد القلبية؛ فإنها تنبني على العقائد الإيمانية.

المهمُّ الثاني: معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم والطريق إلى ذلك العكوف على معرفة سيرته، وسنته وهديه وأخلاقه، حتى يختلط العلم بذلك في الأمشاج، وتصير الأيام النبوية كأنها بمنظر العين، من كثرة استماعها ومطالعتها والتفكر فيها، فحفظ الدماغ والأوطار وتناول الشهوات بحصول هذين المهمَّين أفضل عند الله من صيام النهار وقيام الليل مع الجهل بذلك، وضعف الذهن وعوزه بسبب الصوم والرياضة يحجب عن استقرار هيئة ذلك في القلب، فهذه علوم المحققين، وأصولهم، وسترى ما يترتب على ذلك إن شاء الله تعالى، فيما يأتي.

المهمُّ الثالث: معرفة ما يلزم العبد من أحكام الشريعة من الفرائض والمسنونات والمندوبات المدونة في كتب الفقه ونصوصها، من كتب الحديث، وشدة الاهتمام باستخراج نصوصها؛ لتقوم بذلك الحجة عند الله،

ويكون الإنسان متبعاً لرسول الله ﷺ، فبذلك يعرف الإنسان دينه، ويصير مسلماً حقاً، كما صار بمعرفة أصول العقائد من الكتاب والسنة، مؤمناً حقاً.

المهمُّ الرابع من مهمَّات المحقِّقين: ، رعاية صحة التوبة، واستصحاب حكمها؛ من المحاسبة، وحفظ الجوارح، والقيام بما عَلِمه من الأوامر، ومن ذلك قضاء الديون، وردِّ الودائع، وقضاء الفوائت، من الصوم والصلاة، وغير ذلك، ويكون مستحضراً في كل أمرٍ أصله من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، فبهذا الاستحضار يصير عبدًا لله تعالى، يمتثل أوامره، وينتهي عن مناهيه، وتخرج عن جمود التقليد.

المهمُّ الخامس: لا ينتفع من الأعمال بصورها، بل يطالب نفسه بالنصح فيها واتقانها، فيتقن المناهي بالاحتراز عن جليلها ودقيقها، ويتقن الأوامر برعاية الخشوع والحضور الباطن فيها، ومناجاة الرب تعالى، والإخلاص له فيها مبلغ الطاقة، إذا صلَّى فليصلِّي بقلبه وقالبه، وليفهم ما يقول، ومع من يقول، وليواطئ في ذلك بين ظاهره وباطنه، وكذا إذا تلى كتاب الله تعالى يكون حاضراً مع معانيه، يفهم عن الله تعالى، ومن لم يعتد ذلك، فليعتده، تصير له طبيعة، لا يصبر عنها، إن شاء الله تعالى.

المهمُّ السادس: معالجة أخلاق السّوء وممارستها، وإخراج الخبث والغل والحقد والحسد من القلب، وتبديل ذلك بالرحمة والمحبة والنصيحة، فإذا أحس في قلبه على أحد حقدًا،أوخبثًا أو ثقلاًفليكارمه بالبشاشة والإكرام، والبداية بالسلام، والايثار إن أمكن، اللهم إلا أن يكون مؤذياً لقلبه وحاله؛ فيدعو له في ظهر الغيب، ويعمل على مفارقته؛ فإن مجانبة من يفسد الوقت شرط في الطريق، وإذا أذاه أحد أوسبه أو نال من عرضه، فليبادر بالدعاء له، بصدق من قلبه، ويعمل على نصحه؛ ليكافئ الإساءة بالإحسان، فهذه أعمال الصديقين، وأي صيام أو قيام يعادل هذا، فبهذا تصفو القلوب لمشيئة الله

تعالى، وتنزل عليها الرحمة من الله تعالى، ويصير مهبطًا للملائكة؛ فإن القلب الطاهر نظيف ليس فيه رائحة خبيثة، فهو أنسب المواطن بالملائكة، والقلب المحشو بالآفات؛ من الغل والحقد والبغض والحسد مزيلة، فيه أقذار وأنجاس، فهو انسب بالشياطين؛ لأن محلهم الكنف والمزابل، وهذا أصل عظيم من الأصول، من اهتم به وراعاه وصابره حتى تبدّلت أوصافه ونعوته المذمومة بالأوصاف المحمودة، رُجي له أن يكون من الأبدال، وأن يبدل الله سيئاته حسنات، وهذا يحتاج إلى مدة طويلة، وممارسة شديدة، وتعوُّد، فيبقى صاحبه سليم القلب للناس، رحيم بهم، محب لمحسنهم، داع لمسيئهم، راحمًا للمسئ العاصي، مع بغض له في الله، ممزوج برحمة، فهذه أخلاق الابدال، إن شاء الله تعالى.

المهمُّ السابع: وهو القطب، الاهتمام بمعرفة الله تعالى، والقرب منه، وتقديم ذلك على كل أمرٍ، وتعرف الطريق إليه، وإلى قربه.

ومن قطع المهمَّات الست التي سبقت، وحقق أصولها ومبانيها، وعمل بها، فقد قطع نصف الطريق إن شاء الله تعالى، وقارب المنزل، فليجعل الهم همّاً واحداً، بالعكوف على ذكر الله ومحبته، واللهج به، ومراقبة نظره، واطلاعه ومهابته ومخافته، وشدة الاهتمام به، وقطع الشواغل وتحقيقها، إن لم يكن إزالتها، والافتقار إلى الله تعالى في ذلك كله، والصبر على ذلك، ومواصلة الأيام والليالي، بذكر الله تعالى، ومحبته، واستعمال الأوطار.[١٨٥/ أ]

إن أضعف الصَّوم عنه، وكذلك السَّهر المفرط، فليترك جميع هذه الأشياء، ولا يجعلها بالقصد الأوَّل، بل يستعملها بحسب الحاجة وما يصلح به القلب.

ولو استمرَّ النَّوم بحسب ضعف المزاج فلا يضرُّ إن شاء الله تعالى مع انفراد الهمِّ بالله والعكوف عليه والعمل على محبَّته وإرادته ليلاً ونهاراً حتَّى في

معاشه وسوقه وأموره الضَّروريَّة، فإنَّ الأمور الضَّروريَّة من الأكل والنَّوم والمعايش لا تضرُّ في ذلك إن شاء الله تعالى، ولا يضرُّ إلَّا ما كان فضولاً من الشَّهوات والأعمال لا يزال كذلك حتَّى يستقرَّ الطَّلب والإرادة في القلب، وهو مع ذلك لا يصغي إلى إحكام قلبه بل إلى حكم الله ورسوله، فإنَّ القلب ربَّما حكم عليه بالتَّجريد والسِّياحة وترك الأسباب ولبس الخلقان بحكم الحال، فلا يصغي إليه، ولا يعمل إلَّا بالسُّنَّة، فيجعل السُّنَّة حاكماً لا القلب؛ فبذلك ينصلح وينفذ إن شاء الله تعالى، ويستعمل كتمان الأسرار فلا يبوح بشيء وقع في سرِّه من الأحوال.

اللَّهمَّ إلَّا إستاذ يحتاج إليه في تقويم انحرافه لا غير.

المهمُّ الثَّامن: وهو الغاية الَّتي إليها عمل العاملون، وعليها ثبت المتَّقون ورسخ المحبُّون عبوديَّة الله تعالى، وذلك لا يتمُّ إلَّا عن كشفٍ إيمانيٍّ وجميع ما تقدَّم، هو أقسام العبوديَّة، لكن هذا القسم هو العبوديَّة الخاصَّة لأهل الخصوص، وهو الانخلاع عن التَّدبير والاختيار، فلا يدبِّرون، ولا يختارون إلَّا ما اختاره الله شرعاً، فإنَّ ذلك باختيار الله لا باختيارهم، وذلك إنَّما يكون بعد ملاحظة صفة القيُّوميَّة يشهدون الباري تعالى قائماً بالتَّصرُّف والتَّدبير لا متصرِّفَ غيره، ولا مدبِّر سواه، فتدبير العبد في تدبيره رعونة من بشريته؛ لعماه عن قيُّوميَّته، ولو أبصر بقلبه المدبِّر المختار الَّذي يبرِّز في كلِّ نفس مقادير مختلفة وإرادات متنوِّعة كما يشاء ويختار، يذلُّ هذا ويعزُّ هذا، ويفقر هذا ويغني هذا، ويميت هذا ويحيي هذا ويبتلي هذا بالمعصية، ويفيض على هذا خلع الطَّاعات لشخص إلى مشيئاته.

وذهل عن اختياره ودام التجاؤه إلى مولاه، ومن ذاق هذا بقلبه ذوقاً يرتفع به عن مجرَّد الإيمان والعلم؛ خمدت بشريَّته، وهرب شيطانه واتَّصل شهوده بمشهوده، وتحقَّقت محبَّته، وعظمت مخافته، وتمَّ توكُّله، وتحقَّق تفويضه،

وصار عند الله تجري عليه تصاريف المشيئة، وهو يقابلها بمقتضاها [أ/ ١٨٤] من العبوديَّة إن استعمل بالطَّاعة شكر، وإن رأى مبادئ الخذلان؛ صرخ وافتقر، وإن قوي سلطان الأنوار فني، وإن جاءت الأوامر والنَّوادب؛ بقي، فهو بين سكر وصحو، وفناء وبقاء، وغيبة وحضور، وتعظيم وإجلال واضمحلال، يعبد الله تعالى بتلوين الأحوال، وقلبه معلَّق بالعرش، وهو عبد الله فلا إرادة، ولا اختيار، إلَّا ما أراد الله من الأوامر واختار، وهذا حال المقرَّبين إذا دام ومن أذواق الموقنين إذا لم يدم.

وهذا حدُّ العبد وسيره، ويبقى بعد هذا تدارك الحقِّ تعالى بالجذبة والقرب الخاص لمن يشاء من عباده، وصفوته ومحبَّته، وذلك إنَّما يكون بالله، فإنَّ العبد قد فنيت رعونته وزال اختياره وتدبيره، وبقي بالله يقلِّبه كيف يشاء، وهو مع ذلك في الأوامر مختار مدبِّر مريد، واختياره وتدبيره وإرادته لأمر الله إنَّما هو بالله لا بنفسه، وبه يستعين في عبادته، وبه يريدها، وهو فيما عدا ذلك من حظوظ نفسه وبشريَّته، فإن ناظر إلى مشيئة المختار المريد الَّذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

معاشر الإخوان! من طلب منكم ركوب المحجَّة المثلى وطريق المحقِّقين إلى مقاعد السَّابقين، فليعتن بهذه المهام، وليحكم قواعدها وأصولها، ويعمل على إكمال فروعها، ولا يعوجَّ عنها إلى جزئيَّات ليس لها كثير منفعة ولا عظيم جدوى، بل ربَّما ضرَّت وحرفت وإذا وجدتم إستاذاً يشير إلى ذلك ويمشي مع السَّالك فيها؛ فاعلموا أنَّه غنيمة وانتهزوه قبل فوته، فإنَّ الآجال بيد الله، وهؤلاء هم في الدُّنيا مسجونين راحتهم الوفاة ولقاء الله تعالى؛ فاغتنموا أيَّامهم، واقبلوا إشارتهم، واستعينوا بالله تصلون، وبقرب مولاكم تفوزون وتفرحون إن شاء الله تعالى، والحمد لله وحده وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

قاعدة في سلوك التَّحقيق
إلى غاية المطالب للسَّائر إلى ربِّه الذَّاهب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وهذا هو الغاية القصوى لمن يروم محلُّ الكرامة من القربى والزُّلفى، فإنَّه طريق الإبدال الَّذين يستعدُّوا به لمحبَّة الله لهم في سائر الأحوال، وفقنا الله تعالى لذلك، وجمَّلنا فيه بالعافية آمين.

الحمد لله وسبحان الله والله [ب/ ١٨٤] أكبر، المتعالي عن خطرات الظُّنون، القدُّوس السَّلام، الَّذي بيده ملكوت كلِّ شيء بكلمته، يكون له خزائن السَّماوات والأرض، يبسط منها ما يشاء ويقدر بيده الخير، وهو عنده مخزون يدبِّر الأمر من السَّماء إلى الأرض، ثمَّ يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة ممَّا تعدُّون من قصده بإرادته، لم يخب من نواله، وكيف يخيب من كرمه الآملون خلق الخلق؛ ليربحوا عليه، فمن تاجر كان أجره غير ممنون، ومن عول على غيره؛ فهو المغبون.

سبحانه عدد ما سبَّحه المسبِّحون، وحمده الحامدون، وهلَّله المهلِّلون، وكبَّره المكبِّرون، وعدد ما غفل عن ذكره الغافلون.

وأشهد أنَّ لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له الَّذي أذعن له بالعبوديَّة العارفون، وصدق في طلبه المحبُّون، وأشهد أنَّ محمَّداً ﷺ عبده ورسوله، الَّذي ائتمَّ به ليلة مسراه النَّبيُّون، صلَّى الله عليه وعلى آله ما صلَّى عليه المصلُّون.

وبعد: فإن جذَّبات الله بدت من الغيوب على أسرار المنيبين تخلَّصوا بها من ورطاتهم، واستقاموا بمددها من عثراتهم، ورأوا بنورها حقيقة أمره فاتَّبعوه، ولاح لهم فيها خطر زجره فاجتنبوه.

فاستقاموا على الطَّريقة المثلى، وتوطَّنوا على الاستقامة في الحركات الباطنة والظَّاهرة قسطاً وعدلاً، فسمت بهم هممهم إلى سنى المطالبة، ورامت في عُلا الدَّرجات أعلى المراتب، فاشتاقوا إلى الحضرة بصفو اليقين، وتاقوا إلى منح الموقنين؛ فألاح الله لهم سبلها، وكشف لهم عن وجوهها؛ إذ كانوا ممَّن رامها وطلبها، فوصلوا بقلوبهم إلى الواسطة، وجعل الله بين قلوبهم وبينه رابطة، وهو الرَّسول ﷺ، فلمَّا أوصلهم الله إليه من الطُّرق الدَّالة عليه؛ تلقُّوا منه سرَّ الدَّعوة، وارتضعوا من رضاعة لبان الفطرة، فأشرق عليهم نور الجلال، فشرعت نفوسهم في الاضمحلال، وحييت قلوبهم بحياة السَّعادة والإقبال، فأوصلهم التَّعلُّق بالرَّسول إلى الوصول إلى لوائح صفات المأمول، كشف بواسطة الرَّسول عن مشهد الإلهيَّة، وخرقوا إلى ذوق أسرار الرُّبوبيَّة، فعبدوه بما اقتضته ألوهيَّته، واستسلموا لأحكامه بما عرفوه من ربوبيَّته؛ فصار لهم من مشهد الصِّفات مقام معلوم، ودام لهم نعيم غير مفصَّل ولا مفصوم، فلاح لهم ممَّا وراء ذلك بوراق لا تدوم من أثقال العظمة الَّتي هي حقائق السِّرِّ [أ/ ١٨٥] المكتوم، فابتهجوا بالجلال وانجذبوا بالجمال، وتتابع عليهم الإفضال، واستقبلهم من طلائع الكرم فيض النَّوال؛ فصاروا لله عبيداً يعبدونه بأمره، ويستسلمون لقدره وحكمه.

ومع ذلك فالبقايا في النُّفوس موجودة والخطرات الشبيهات تكون أحياناً غير مفقودة، مع تمكنهم في النصيب، وتعلقهم بالحبيب، تزاحمهم أحياناً من الخطرات والطَّوارق المعارضات من دسائس الشَّهوات وكوامن آفات النُّفوس الخفيَّات ما يكاد أحدهم أن يصير حياءً من الله كالرُّفات؛ لكونهم يجدون من بواطنهم خطرات المخالفات وهم في قبضة جبَّار السَّماوات، فيعيل لذلك اصطبارهم، ويعدمون قرارهم، ولا يدرون الطَّريق إلى تصفية أكدارهم، وتطهير محلِّهم من درنهم؛ حتَّى يعرِّفهم الله تعالى سبيلهم، ويكشف لهم عن ترقِّيهم عن ذلك ويريهم تحويلهم، فيرون أنَّ الإذعان للعبوديَّة الكاملة لم تقم

لها القلوب، ولا خلصت من رقِّ النُّفوس؛ لتعلوا عن الرُّسوب، فالنَّفس هي المتصرِّفة بعدُ في الأسرار، لم تنهض بحقيقة التَّوبة إلى الجبَّار، فيشرعون في التَّوبة الخاصَّة بعد أن حقَّقوا التَّوبة العامَّة، فالتَّوبة العامَّة تقييد الجوارح عن المحرَّمات وإلزامها وظائف المأمورات؛ بذلك يرتقوا إلى مشاهدة الصِّفات والمعارف البيِّنة النَّيِّرات، ومع ذلك فالنُّفوس لها الحكم والهيمنة تتصرَّف بمقتضى جبلَّتها الكامنة، لكنَّه وفي الرُّتبة العامَّة، وبقيت عليه طَّريق الخاصَّة، فإذا أراد الله تعالى نقلتهم من الطَّريق الظَّاهر إلى السَّير الباطن الباهر، يعلمون أنَّ المراد منهم حقائقهم الباطنة، الَّتي هي نظر الحقِّ؛ لتبقى من الأبعاد آمنة، وإن كانت لا تزال خائفة من العواقب الخافية؛ فإذا علموا وصلوا إلى قلوبهم، فقادوها وظفروا بها، فرموها، وذلك أوَّل الفتح المبين، والظَّفر بالعدوِّ المشين، فتبقى الحقيقة الباطنة الَّتي تزيد السُّرور، وهي الحقيقة الطَّالبة لمعالي الأمور، فينهض القلب تائباً توبة الخصوص، وهذا خاصٌّ لمن ظفر بقلبه، فزمَّه عن النُّكوص.

ومثل هذا الَّذي يسمي صاحب القلب، وإن كان في الاصطلاح المعهود، يسمَّى الخاشع أيضاً صاحب قلب، مع امتزاج قلبه بنفسه، وخيره بشرِّه، وهذا أمر آخر، وهو الشُّعور بتجرُّد القلوب عن مراكز الطَّبائع والعيوب، فيرى العبد حقيقة الباطنة ناهضة إلى التَّوبة بلا تكلُّف قائمة، فإنَّ التَّوبة الأولى كانت بحكم العقل عليه، وهذا صارت التَّوبة [ب/ ١٨٥] حاجة قلبه، فهي تميل إليه، وقد قيل: فضح التَّطبُّع شيمة المطبوع، وشتَّان بين من كلَّفه العقل أمراً فتكلَّف، وبين من أحبَّ الشَّيء بطبعه وتلطَّف، ومثل هذا الَّذي يقال في حقِّه: استقام باطنه، كما استقام ظاهره، وهو التَّحقُّق بقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾[1] ذوقاً وحالًا لا تكلُّفاً وجهداً، وما سبب ذلك إلَّا أنَّه حيث

(١) سُورة الأنعام: الآية ١٢٠.

حقَّق القلب مشاهد الإيمان، وتوطَّن حقيقة العرفان، فصار له أمرٌ يركن إليه، ويستند في أموره عليه، لا يغيب عنه ساعة من الزَّمان، وإن خطفه عنه أمر من الأكوان، لكنَّه غالب أمره مشاهدة الإيقان.

فلمَّا استقرَّت في ذلك قدمه؛ نهضت إلى حقيقة التَّوبة عزائمه، فتجرَّدت القلوب عن النُّفوس تجرُّد المتجرِّد عن الملبوس، هذا علامة خواصِّ الملك القدُّوس.

فعاملت ربَّها بالتَّوبة بلا أمر تهابه بالتَّوبة نفوس، وهذا أوَّل طريق الخاصَّة منه، يرتقون إلى محبَّة القلوب، فنهض قلوبهم إلى الإرادة كما نهضت بالتَّوبة، وذلك حين صار لها ذلك لها عادة.

فصاحب القلب لو أنَّ آخر إذا عمل عملاً من الأعمال الظَّاهرة، مثل ذكر أو صلاة أو تلاوة أو غيره، أو من الأعمال الباطنة؛ مثل: توبة أو محبَّة أو رضًا أو غيره؛ تراه غائباً بذلك العمل عن غيره، مستوراً فيه عن هواجس نفسيَّة.

فإنَّ محلَّ الخواطر هو المشتغل بتلك المعاملة، فليس فيه فضل، ولا للآفات النَّفسانيَّة والشَّيطانيَّة في غالب الأمور عليه مدخل، وهذا إن شاء الله أوَّل طريق المقرَّبين، وهو تخلُّص قلوبهم من أسر نفوسهم وخطراتها؛ لصفائها عن أدرانها وأدناسها.

سكن العقل فيه؛ فلم يهتمَّ إلَّا بخير، وكيف لا وقد صار هو صاحب المعاملة طبعاً لا تكلُّفاً، وأمَّا العباد والصَّالحون الأبرار؛ فغالباً إنَّما يسلكون بحكم نفوسهم على عقولهم.

ولهذا ترى فيهم المرارة والمنازعة؛ لأنَّ قلوبهم محكوم عليها لم يصر الخير طبيعة لها، ولا التَّوبة عملاً بالطَّبع لها، لكنَّها تتطبَّعه وتتكلَّفه.

فلهذا ترى أحدهم مغموراً في أحواله مستوراً في أنواره، الحسد قائم في

قلبه، والشَّهوة تميل بنفسه إلى حظِّه، وخطرات السُّوء تزاحمه في قصده وسببه، إنَّ المحلَّ محكوم عليه، لم يقم بتلك الأحوال شهوة وطبيعة، فالعقل يورد الحقَّ عليه، وطبيعة المحلِّ تورد الشَّهوات [أ/ ١٨٦] إليه، فقلبه محلٌّ لتزاحم الحقِّ والباطل، وأمره ناقص ليس بكامل.

وأمَّا من صارت التَّوبة شيمة قلبه، والمحبَّة طبيعة سرِّه؛ بعدت عنه الآفات، وهمست في سرِّه الخطرات، وصارت حقيقته هي الثَّابتة وهي المحبَّة، قد اشتعل محلُّ الخواطر بذلك، وصارت عليه مكبَّة، واطمأنَّت نفسه على الحقِّ وإرادته، وصارت النَّفس تريد ما يريد القلب والعقل بطبيعته، وهذا هو العطاء الفاضل والمنحة الشَّريفة، وهو أن يصير العدوُّ صديقاً، والمبغوض الممقوت حبيباً حقيقاً.

وكأنَّ - والله أعلم - أنَّ مراد الحقِّ من العبد هذا القدر، وأنَّ الرَّبَّ تعالى لا يكمل رضاه عن العبد وفي باطنه طبيعة من العذر يحبُّ ما يبغض ويكره ما يحبُّ، وإن كان معفوَّاً عنه؛ لكراهيَّة ما في طبعه بالاعتقاد واللُّبِّ.

وأمَّا شخص انقلب طبعه فصار يحبُّ ما أحبَّ الله، ويكره ما يكرهه الله؛ فهذا - والله أعلم - هو الاستعداد لمحبَّة الله تعالى له؛ لأنَّه لم يبق في باطنه ما يكره الله، وانجمع بكليَّته على مراد الله، وهذا غاية السِّياسة الَّتي ينتهي إليها الاكتساب، وإن كانت في الأصل من فضل الله الوهَّاب، وهو طريق الأبدال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[1] وإنَّما كان ذلك لتبدُّل صفاتهم، وتغيُّر طباعهم وعاداتهم، فاستحقُّوا بذلك أن يبدِّل الله سيِّئاتهم حسنات، وأن يصطفيَهم ويصطنعهم، ويفيض عليهم سجال الكرامات؛

(١) سُورة الفرقان: الآية ٧٠.

فيصيروا محبوبين، ويجعلهم مكرَّمين.

فعليكم معشر الإخوان بتحقيق ذلك في السُّلوك، وتفقُّده من نفوسكم فإنَّه الغاية القصوى الموجبة إن شاء الله لمحبّة الرَّبِّ في الأوَّل والأخرى.

والاشتغال بغير ذلك من الأمور الخارجة مع تضييع هذا السِّرِّ الشَّريف بلادة وجمود، أو ميل بالطَّبع إلى التَّخلُّف عن مراتب أهل الكمال بالتَّأخُّر والرُّكون، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، والحمد لله وحده وصلَّى الله على محمَّد وسلَّم.

قاعدة في أنواع التَّفاريق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصفة الجمع في الأمر المكمّل لصاحبه المبتدي متفرِّق الهمِّ متشعِّب الخاطر بين أمور متنوِّعة.

أوَّلها: تحصيل همَّة يرتقي بها في علومه وأعماله وأحواله؛ فهو متعوب في تلوُّنه، فيها تارة يفقدها، وتارة يجدها.

فإذا وجدها؛ فهو متفرِّق بين علم يضبطه حفظاً، أو يفقهه معنًى.

فإذا حصل [ب/ ١٨٦] ذلك العلم الَّذي يحتاجه؛ فهو متفرِّق من نفسه الأبيَّة الَّتي تأبى الانفعال لمقتضى العلم من المحاسبات والمراقبات والقيام بحقائق التَّقوى؛ من أداء وظائف المفروضات على أكمل هيئاتها المشروعة، فتارة يجد همَّة تبعثه على ذلك، وتارة يفقدها، فتارة يقوم بالوظائف قياماً مقارناً، وتارة يقوم بها قياماً ناقصاً، وتارة تغلبه نفسه وتبرد همَّته فيهم إلى ركون المخافات، ويتقاعد ويتكاسل عن القيام بوظائف العبوديَّات من المفروضات والمسنونات.

فقلبه متفرِّق أيضاً من التقصير في ذلك ومن النشاط في وقت ومن الكسل في وقت آخر وهو متفرق أيضاً من عدم مؤاتات الأسباب والأصحاب والأزمنة والأوقات في حقِّه؛ فإنَّه يرى الكلَّ مفرَّقاً عمَّا يطلبه، صادّاً عمَّا هو بصدده؛ فهو يداريهم، ويداري وقته؛ جمعاً بين المصالح.

فتارة تغلبه تلك العوارض حتَّى تستوليَ عليه وتنسيه ذكر الله تعالى، فينفعل لها؛ فيبقى بارد القلب جامد الخاطر، قد انحرف عن دائرة السَّالكين، ثمَّ يقويه الله تعالى بمشيئته ومعونته على مقاواتها والعود إلى حالته الَّتي

يحبُّها الله منه، ويرضاها.

وهو متفرِّق أيضاً من إبطاء وقت البوارق؛ فتارة يلوح له قمر الإيمان حتَّى يتوهَّم أنَّه قطُّ لا يتوارى عنه، فيعيش في تلك البهجة والنُّور زمناً ما أطيبه وما أحلاه، وتارة يمرُّ على قلبه غيوم الطَّبيعة وغاتها، فتحجبه عن ذلك حتَّى كأنَّه لم يعرف ربَّه ولا وجد رائحة أنسه، ولا ذوق معرفته وقربه.

وتارة تبرد ناره ويعكف على حظوظه كأنَّه يطلب أمراً غير ذلك، فمن وفَّقه الله تعالى حتَّى دامت همَّته الجاذبة له إلى مرضات ربِّه في تحصيل العلوم والأعمال والأحوال، ثمَّ حصل له من العلوم ما يمكن مثله أن يعبد الله به في الأمر الظَّاهر والباطن من علوم الأحكام، وعلوم المقامات والأحوال.

ثمَّ ألان الله تعالى له جوارحه وطبعه؛ كما ألان الحديد لداود عليه السَّلام؛ فيبقى عمل الحق واعتقاده طبيعة فيه، خارجة عن مراد الحقِّ، ولا خارجة عن أمره، ولا مائلة إلى معصيته ومكروهاته، ثمَّ فتح على قلبه لائحة من شمس المعرفة الجاذبة لقلبه إلى محبَّة ربِّه؛ بحيث لا يتوار عنه لمحة ولا طرفة كيف التفت؛ وجد بقلبه ما يهيج غرامه، [أ/ ١٨٧] ويكثر منه المهابة لربِّه مع تلك المحبَّة الزَّائدة والتَّعظيم له على معاينة باطنه، روحه تشهد في نورها تفاصيل الأوامر والنَّواهي والشَّرائع والنُّبوَّات متَّصبة بشارعها ﷺ لرِّبه بالعبوديَّة الظَّاهرة والباطنة على تلك المعاينة، فقد تمَّ حاله وشهوده، وصار واصلاً بحسب مرتبته ومقامه.

وبالله المستعان، وعليه التُّكلان، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

قاعدة يعرف العبد فيها نصيبه من ربِّه وبعده من حظوظ نفسه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله وسلامٌ على عباده الَّذين اصطفى، وصلواته على أشرف الورى محمَّد وآله، نجوم الهدى من أراد الله أن يقطعه إليه ويصطنعه بمرتبة يوقفه فيها بين يديه، يجرده أوَّلاً عن رقِّ النُّفوس، ويدخله في رقِّه، ويوفِّقه للقيام بأحكام عبوديَّته ووظائف حقِّه.

فمن استولت عليه مطالب النُّفوس ومآربها؛ فهو عبد لها، وإن كان يعبد الله بظاهر جسمه وصورته، وأغلب الخلائق لا يخلون من شوب من عبوديَّة النُّفوس، والنَّادر منهم من رقَّها إلى رقِّ الله تعالى وعبوديَّته، فإنَّه بالنَّاظر عبد نفسه وشهوته.

فإذا أعان الله تعالى وأراد بعبدٍ مقاماً من مقامات العبوديَّة؛ فطمه عن مراد نفسه الحظوظيِّ إلى مراد ربِّه الشَّرعيِّ، ويكشف لقلبه في عبادته له عن اسم من أسمائه، أو صفة من صفاته؛ فيعبد الله تعالى بواسطة معرفته له بذلك الاسم أو الصِّفة، ثمَّ لا يطيع نفسه في حظوظها ومرادها، إلَّا ما كان موافقاً لمراد ربِّه ﷻ.

ولو كشف المحقِّقين أنصبة العابدين من أسمائه وصفاته؛ لرآهم يعبدون إلهاً واحداً في مظاهر متعدِّدة، ويستحقُّ كلُّ واحد أن يسمَّى باسم يليق بعبوديَّته لله بحسب مشهده من أسمائه وصفاته؛ فهذا عبد النُّور، وهذا عبد المعبود، وهذا عبد القهَّار والمنتقم، وهذا عبد الكريم، وهذا عبد الرقيب، وهذا عبد الرحيم، وهذا عبد الملك، وهذا عبد الجليل، وهذا عبد الجبَّار، وهذا عبد القادر، وهذا عبد الجميل، وهذا عبد اللَّطيف وهذا عبد الحبيب، وهذا

عبد الله، وأمثال ذلك.

فمن كشف له عن لائحة من وجوده فهو: عبد النُّور؛ أي: عبد الله الَّذي اسمه النُّور؛ لأنَّه عرفه بأنوار ساطعة تلوح لقلبه [١٨٨/أ] من مطالع فوقيته على عرشه.

ومن عرف أنه يستحق العبادة، فعبده بالطاعات والقربات، والأذكار والدعوات، فهو: عبد المعبود.

ومن كشف له عن قهره للعباد في الدار الآخرة قيَّمه ذلك المشهد في الطاعة، ويلزم قلبه خوفاً بحجزه عن المكاره، فذلك: عبد القهار وعبد المنتقم.

ومن كشف له عن كرمه فأقامه ذلك بين يديه راجياً مشتاقاً إلى لطائف كرمه فهو: عبد الكريم.

ومن بدئ على قلبه بادئ من اطلاعه ونظره فهابه وأجل نظره حياء ومراقبة فهو: عبد الرقيب.

ومن شاهد رحمته في مخلوقاته وأقامه ذلك في العبودية فهو: عبد الرحيم.

ومن ساس العباد بعلمه وسياسته قربه إلى الله ونأى به عن شريعته، فهو: عبد الملك.

ومن استولى عليه بادئ من جلال الله تعالى، فقمع نفسه وأذلها ونهرها، فهو: عبد الجليل.

ومن بدا عليه سلطان الجبروت القاصم للظهور، المذلّ لأعناق الفراعنة، فعبد صاحب ذلك المشهد: عبد الجبار.

ومن شاهد بادئاً من قيوميته وقدرته في مصنوعاته ومبتدعاته، فهو: عبد القيوم وعبد القادر.

ومن اصطلم قلبه بارقاً من أشعة الإكرام، المقرب إلى الصفة المدواة بالجلال والاكرام، فهو: عبد الجليل.

ومن ورد عليه ما فتن قلبه، وألهب فؤاده، وصبغ باطنه وظاهره بصبغة المحبة، فلم يبق فيه عرق ولا مفصل، إلا كان مجذوباً، وبلواعج الأشواق مكروباً، كما قيل:

لَمْ يَبْقَ إِلَّا نَفَس خَافِت ... وَمُقْلَة إِنْسَانُهَا بَاهِت
ومُغرَمٌ تُوقَدُ أحْشَاؤه بالنَّارِ ... إلَّا أنَّهُ ساكِتُ
لم يبقَ من أعضائه مفصلٌ ... إلَّا وفيه سَقَمٌ ثابت
عدوُّه يبكي له رحمةً ... حسْبُك من يبكي له الشامِتُ

فمثل هذا يحق له أن يسمَّى: عبد الحبيب وعبد الحنَّان وعبد الودود.

ومن حظى بنصيب من حقيقة الاسم الجامع، المفُني لما سواه، المحتوي على جميع الأسماء والصفات، المعبَّر عنها بلسان القوم جمع الجمع في الفرق الثاني، فهو: عبدالله والكل عبيد الله، لكن هذا ارتقى عن المشاهد الجزئية، إلى المعنى الكلي الجامع لجميع المعاني والجزئيات.

فرحم الله عبداً انفطم عن رقِّ النفوس، إلى عبادة الملك القدوس، حتى يتبعه في الآخرة حقيقه عندما يتبع أهل الطواغيت طواغيتهم، كما جاء في[. . . . .](١) متصلا بذكره، قائماً بأداء حقه، غير مخلد إلى نفسه وشهواتها، مترقياً [ب/ ١٨٨] إلى ذرى أوطان العبودية ودرجاتها.

وليعلم أن المكاتب عبد ما بقى عليه درهم، كذلك هو عبد نفسه ما بقي عليه خُلُقٌ مُن أخلاق النفوس، مما حرم أو كره.

جعلنا الله وأياكم من الفائزين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم كثيرًا.

---

(١) فراغ بقدر كلمتين.

قاعدة في الأمور الموصلة والأمور القاطعة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الَّذي ظهر بأفعاله ومصنوعاته، فشهدت الفطَر بآياته ودلالاته، وقطعت بوجود حكيم متقن مبتدعاته ومخلوقاته، رحيم بها في تيسير أسباب معايشها، وتكوين موادها من مطره ونباته، مرسل الرياح فتثير سحاباً ماطراً من خزائنه الَّتي لا تنفد وآياته، وجعل من الماء كل شيء حيٍّ، ليعبر فيؤمن بوجوده بشهادة ما أبرز من قدرته في تصرفاته، سخَّر الشَّمس والقمر لصلاح العالم، وجاعل اللَّيل والنَّهار آيتين، فمحا آية اللَّيل وجعل آية النَّهار مبصرة؛ لتبتغوا فضلاً من موادِّ صدقاته.

دحى الأرض على تيَّار الماء، فرفع السَّماء عليها بلا عمد؛ ليظهر بواهر قدرته في بريَّاته، هذا بعض حكمته في العالم الصَّغير المتضايق الأجزاء في كرة التَّراب الملتوية على مركز السُّفل وطبقاته، فما ظنُّك ببدائع قدرته في ملكوت السَّماء وما أودع فيه من الأفلاك الدَّائرة، والنُّجوم السَّائرة والأملاك المسبِّحة العاكفة على امتثال مأموراته.

ينزِّل الأمر بين: الأطباق العلويَّة والسُّفليَّة، فيكون بذلك ما يريده من إبرامه وتأثيراته، وما ظنُّك بتعظيم ما يبرز من بواهر أفعاله وصفاته في عالم الآخرة، الَّتي لا يكيِّفه العقول، بل نؤمن بوجوده وإثباته حين ترتفع الوسائط الحكميَّة التَّكوينيَّة والشَّواهد العقليَّة الاستدلاليَّة وظهور صريح القدرة الإلهية، وسطوع بواهر أنوار العظمة الرَّبانيَّة.

فيضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾[(١)] من طاعات العبد وجناياته.

فسبحان الإله الحكيم، الفاطر المجيد المبدئ المعيد، الموفي كلَّ عبد ما اكتسبه من سعاياته، تعرَّف إلى قلوب العارفين بتعرُّف خاص، فعرفوه به بعد أن ظهرَ لهم في المصنوعات في أنوار تجليات أسمائه وصفاته، انكشف جلاله وعظمته لأحداق البصائر، فامتلأت من أنوار عظمته وإشراقات ظهوره وبيِّناته.

ألفت الأرواح [أ/ ١٨٩] استنشاق نسيم التَّقريب بواسطة تلك الأنوار فلم تلتفت عنه؛ رغبة في غيره من تلذُّذ عاجلة العبد وراحاته، وإن خطفه على ذلك أدنى خاطف من العوارض الكونيَّة؛ فهو سريع الأوبة والرُّجوع من دركاته، صاعداً متشامَّاً بروق الوصال، طائراً بهمَّته المحترقة إلى أوطانه وأعلى درجاته، لا يستقرُّ في شوقه واضطرابه إلَّا في مقاعد الصِّدق وتجال العنديَّة بين أطباق العزِّ وسرادقاته.

لولا الآجال المكتوبة، والأقدار المحتومة؛ لزهقت الأرواح طرباً لما باشرها من سطوع أنواع الجلال وإشراقاته، حقيرة إذا نظرت إلى حسنها وسفالة قدرها حين رامت عزماتها أعلى المراقي، وأين الثُّريَّا من يد المتلامس، نسبتها الماء والطِّين والصلصال والحمَأ المسنون، تأكل الطَّعام فتظلُّ حجلاته متعثِّرة في أذيال الطَّلب، متقاعدة عن نهاياته كما قيل[(٢)]:

أيها المنكح الثُّريَّا سُهيلاً ... عَمْرُكَ اللهُ كيف يجتمعان

هي شامية إذا ما استهلَّت ... وسُهيل إذا استهلَّ يماني

فإذا ولَّت مدبرة؛ حيا من طمعها، نازلة إلى التُّخوم، طالبة قدرها

---

(١) سُورة الأنبياء: الآية ٤٧.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٢٠/ ٥٤) من قول عمر بن أبي ربيعة.

ومحلها، عبثت بها أيدي الغرام، وتأجّجت فيها نيران الوجد والهُيام، ممّا انصبغت به يوم الميثاق من لذيذ الخطاب والتّلاق، فتقول: قدري التراب، وهمّتي تعلو السّحاب؛ فلا أغالط نفسي في خسّتي، ولا أتقاعد عن طلب مآربي، وبغيتي حقيرة إذا نظرت إلى نفسها، عزيزة إذا لاحظت جنّات ربِّها.

لا تيأس أن يقبلها، وإن انحطّت في السُّفول رتبتها؛ فإنها تقول:

بَرَقَت مِنْكَ فـي الفُؤَادِ بروقٌ   احتظى منك كلُّ عضو بريق

وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً ﷺ عبده ورسوله، نبي الرَّحمة، وكاشف الغمَّة، ومصباح الأمَّة، صلوات الله عليّه وعلى آله صلاة دائمة، لا انفصال لها في الآباد، داراً مددها في الآباد الدُّنيا والآخرة، حين تقوم الأشهاد.

وبعد: فإنَّ بعض من وجب على حقِّه أبان في نطقه التماس.

قاعدة: في معرفة الأمور القاطعة والموصلة: فاستخرت ربِّي تعالى في تعليق هذه الكلمات؛ إجابة لسؤاله، ورغبة في هدايته ونواله، وبالله المستعان، وعليه أتوكل وإليه أنيب.

اعلم: وفَّقك الله تعالى أنَّ من أراد معرفة القواطع والوسائل؛ فعليه بمعرفة المقاصد والمطالب [ب/ ١٨٩] فإنَّها متعدِّدة متنوعة، ولكلِّ مقصد سبب ووسيلة، ودونه حائل وقاطع، فمن عرف المطالب وعرف وسائلها وقواطعها، وعرف مطلوبه من جملتها؛ استبان له بعون الله رشده، واستقام على الطَّريقة حدَّه، وبالله المستعان.

مقاصد: السَّعادة ومطالبها مراتب أربع:

الأوّل: طلب صحَّة الإيمان، والاستقامة في الأعمال.

المطلب الثّاني: طلب صحَّة ذوق الإيمان، والنُّصح التَّام في دقائق الأعمال.

المطلب الثَّالث: طلب المحبَّة الجاذبة للأرواح إلى موطن الأنس والأفراح.

المطلب الرَّابع: الأمر الكلِّي الَّذي يحصل المقصود، وفيه تتبدَّل الصِّفات الأولى والنُّعوت، ويرجى به أن يصير محبوباً.

المرتبة الأولى: صحَّة الإيمان، والاستقامة في الأعمال: فمن النَّاس من لا تتجاوز همَّته هذا المقصد، وعليه يعمل حتَّى يفني عمره وينفد.

فالوسيلة إلى صحَّة الإيمان بعد الاستقامة لله معرفة النُّبوَّة معرفة ترسخ دلالتها وهيآتها في قلبه، إذا صحَّ له ذلك، فجميع جمل الإيمان من العقائد والمعارف والأعمال من لوازم النُّبوَّة؛ فمتى تثبت؛ تثبت بطريق اللُّزوم، ومتى تزلزلت - والعياذ بالله -؛ تزلزلت جميع ما يبنى عليها من ذلك.

والوسيلة إلى الاستقامة في الأعمال: رياضة النَّفس على المحاسبة في الجوارح، والمراقبة في الخواطر، وإكراه النَّفس عند التَّقاعد على النُّهوض إلى الأوامر، والصادق إن شاء الله إذا تدرَّب على هذه الرِّياضة سنة؛ نرجوا أن يذهب عنه كلف التَّكليف، وتصير التَّكاليف محبوبة عنده، يتلذَّذ بعملها ويتألم إذا فاته شيء منها، ويعينه على ذلك الاعتدال في الطَّعام، والشَّراب والكلام، والمخالطة والمنام.

والقاطع عن تصحيح الإيمان العقائد الفاسدة، والغفلة عن تصفُّح وجوه معالم الإسلام، والسُّنَّة من الأصول والفروع، فيخلو القلب عنها، ومتى كان القلب خالياً عن معرفة السُّنَّة؛ تطرَّقت إليه الشُّكوك والبدع.

ومن القواطع عن ذلك: صحبة المنحرفين؛ فإنَّه يسري بواسطة امتزاج المعاشرين وكيفيَّتهم الَّتي تكيفو بها.

ومن القواطع عن ذلك: ركوب المخالفات، والتَّقاعد عن المفترضيَّات؛ فإنَّ ذلك يسوِّد القلب ويضعف الإيمان وينقصه، كما أنَّ بالطَّاعة يزيد الإيمان وينمو.

وأمَّا القواطع عن الاستقامة في الأعمال فمن أسبابه: الجهل بقواعد الشَّريعة، وأحكام فرائضها وسننها ومندوبها أوَّلاً فمن جهل أمراً كيف يعمله؟! وإذا علمه فآفته التَّواني والكسل عن تنفيذ حكم علمه على نفسه، وذلك [١٩٠/أ] يحتاج إلى رياضة وصبر وسياسة مدَّة، حتَّى تتمرَّن الجوارح على الاستقامة، ويتمرَّن القلب على تبديل الأخلاق والصِّفات المنهي عنها بالصِّفات الممدوحة المأمور بها؛ فقد بان خاصيَّة المقصد الأوَّل.

المطلب الثَّاني: طلب ذوق الإيمان والنُّصح التَّامُّ في دقائق الأعمال.

فمن وسائل ذوق الإيمان ما سبق من وسائل صحَّة الإيمان؛ فهو كالجسم؛ لما سيأتي من الوسائل، وما يأتي كالرُّوح له، وقد سبق ذكر جسم هذه الوسائل.

وأمَّا روحها - بعد الاستعانة - فاستخراج نصوص المعارف من الكتاب والسُّنَّة، وهي آيات الصِّفات وأخبارها والإيمان بها؛ فاستشعار وجود الرَّبِّ تعالى، وعلوِّه على عرشه، ونظره واطِّلاعه على ظاهر العبد، وعلمه بما خفي من خواطره وهواجسه، ثمَّ المراقبة لنظره وسمعه وعلمه بهدوء الحركات والأدب في المساعي والتَّقلُّبات؛ بحيث لا ينحرف في ذلك المراقب؛ فيخرج إلى الكمود وسوء الخلق وإهمال حقوق المسلمين؛ من البشاشة وردِّ السَّلام، وطيب اللِّقاء والكلام.

ومتى عدل أمره فيما بينه وبين ربِّه، وبينه وبين عباده، كان ذلك هو المطلوب منه، إن شاء الله تعالى.

ومن روح الوسائل لهذا الأمر، التِّلاوة بالتَّدبُّر، ويعرُّف معاني الصِّفات بالكلام؛ مثل العظمة والقدرة والرَّحمة واللُّطف؛ فإنَّ الكلام العظيم متضمِّن لأثار هذه الصِّفات؛ فإنَّه يتكلَّم سبحانه تارة بكلام عظيم وجبَّار وقهَّار، وتارة بكلام رحيم لطيف وقادر وعليم، وأمثال ذلك، متى استجلى في التِّلاوة هذه

الصِّفات، كان بمشيئة الله تعالى وسيلة إلى ذوق الإيمان.

ومن روح الوسائل ضبط القلب في حضرة علم الله تعالى، فمن واظب على ذلك وأدمن علمه؛ بحيث يصير ذلك أغلب أحواله في خلواته؛ كان ذلك تطهُّراً لمحلِّ الفيض، واستعداداً ووسيلة لأن ينصبغ قلبه بذوق الإيمان صبغة لازمة؛ فيجد نورها في أكله وشربه ومنامه وسائر أحواله، وبعضهم يشير إلى أن من راقب الله تعالى في الخَطْرة والهمَّة؛ صار صدِّيقاً.

وأمَّا الوسيلة إلى إتقان الأعمال والنُّصح فيها: فمن الوسائل ما سبق في قسم الاستقامة في في الأعمال، وذلك جسم لما سيأتي من الأعمال.

وأمَّا روحها: فهو ألَّا يعامل بالكسل وقلَّة المبالاة، بل يعامله كما يعمل المحبُّ للحبيب، يرجو بذلك قرَّة عينه به في لقائه في يوم القيامة، ولا يعامل مولاه بالكسل والكره والكزازة، بل يعامله بالطَّبيعة والطَّلاقة، حتَّى تجد الأعضاءُ لذَّة الكدِّ في الخدمة؛ فذلك من علامات النُّصح في الأعمال وإتقانها،

ومن ذلك: أن يوقع الأعمال [١٩٠/ب] في أماكنها وأوقاتها على حسب مراد الرَّب تعالى منه، فيضع كلَّ عمل في موضعه؛ فلا يقدِّم ما لا يفوت على ما يفوت، ولا يقدِّم العمل المفضول على العمل الفاضل، ولا يراعي الجمعيَّة مطلقاً، بل يراعى مراد الرَّب تعالى في العمل ورضاه به، وإن تفرَّقت جمعيَّته إذا كان العبد مطالباً بذلك العمل المفرق، أمَّا إذا لم يطالب؛ فرعايته الجمعية أفضل، وأولى من رعاية غيرها.

مثاله: إذا رأى مظلوماً وأمكنه نصرته باليد أو اللِّسان بلا فتنة وشرٍ يترتب على نصرته، وله جمعيَّة وحال يعلم أنَّها تتفرَّق بنصرته؛ فليقدِّم النِّصرة على الجمعيَّة؛ لأنَّها مراد الرَّبِّ تعالى منه في ذلك الوقت وذلك الموطن، وكذا إذا رأى منكراً وقد انتهكت المحارم، وله جمعيَّة يعلم تفرقها في إقامة دين الله؛

فليقم دين الله، ولا يلتفت إلى الجمعيَّة؛ فإنَّ إقامة الدِّين هو مراد الرَّبِّ تعالى في هذا الوقت وفي هذا الموطن.

وأمثال ذلك، فكما أنَّه يتلذَّذ بالجمعية مع الله، ينبغي أن يتلذَّذ بالتَّفرق إذا جاء أمر الله؛ فإنَّ الجمعيَّة لله، والتَّفرُّق لله، فيكون الفرح برضاء الله لا بغير ذلك، ولا بدَّ من استعانة الله تعالى في الجمع بين وجود القلب ومرضاة الرَّبِّ، وذلك يسير على من يسَّره الله تعالى عليه، وبالله المستعان.

و **أمَّا القاطع عن ذوق الإيمان:** فقد سبق في صحة الإيمان جسمه، وأمَّا روحه فهو الغفلة عن الله تعالى، والالتهاء بالدُّنيا عن ذكره، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١﴾[1]، والذِّكر الكثير أن يذكر فلا ينسى، ويطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩﴾[2]، والغفلة مفتاح كل قاطع وشرٍّ.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ۝٣٦﴾[3] الآية.

وأمَّا القاطع عن إتقان الأعمال والنُّصح فيها: فقد ذكر جسمه في استقامة الأعمال، وأمَّا روحه فهو العمل على الغيبة عن الله تعالى، وهو قدر زائد على مجرَّد الغفلة؛ فإنَّ الغفلة تقتضي الغيبة عن الشعور بوجوده وبوجود صفاته، وهذا يقتضي الغيبة عن نظره إليه في حال عمله، ومن غاب عن رؤية ربِّه له في عبادته، لم ينصح فيها، وربَّما داخله الكسل والفتور.

---

(١) سُورة الأحزاب: الآية ٤١.

(٢) سُورة المنافقون: الآية ٩.

(٣) سُورة الزخرف: الآية ٣٦.

ومن ذلك إيقاع العمل على هوى النَّفس وطلب الجمعية بلا قصد؛ لإيقاعها على الصَّواب ورضا الرَّبِّ تعالى، وإهمال وضع كلِّ شيء في محله المأمور به، وإيقاعه في أحايينه المندوب إليه فيه، وقد سبق شرح ضده، وذلك كاف إن شاء الله تعالى لمن أراد في إتقان الأعمال، والله المعين.

المطلب الثالث: المحبَّة الجاذبَّة [١٩١/أ] للقلوب والأرواح

فمن الوسائل إليها ما سبق شرحه، فذلك أصول ما سيأتي وقوالب له، وأمَّا روحه فهو رعاية القلب عن الميل إلى سوى الله ميلاً يشغل السِّرَّ، ويملأ الباطن، ويعلق الهمَّ، وليجعل همَّه وهواه محبَّة مولاه ومحبَّة أمره، ويتعوَّد ذلك حتَّى يستقرَّ في عروقه ومفاصله ويختلط بأمشاجه، ويستقر ذكر الله بالمحبة في سويداء سرِّه، وهو حبه القلب، فمتى سكن حبُّ الله تعالى وذكره في تلك المحبَّة، وسكن محبَّة طاعته وعبادته في جوارحه بحيث يألفها ويحبها ويعتادها كان محبَّاً.

ومن الوسائل: صحبة المحبِّين واستنشاق أنفاسهم، والاقتباس من هممهم وأنوارهم، وسماع كلامهم؛ فإنَّه جنود تجذب القلوب من جميع الأشياء إلى محبَّة علَّام الغيوب.

وأمَّا القواطع عن ذلك: فالميل إلى الأغيار، وإيثار السُّوى في الهموم والأسرار، وتعاطي أمر مكروه كما سبق ذكره.

ومن القواطع: مجالسة الأضداد، ومن لا يريد مرادك ولا يحبُّ محبوبك، خصوصاً الحسدة البغاة وأهل السلب والبغي والحسد على نعم الله؛ فإنَّ مجالستهم سموم قاتلة، وكذلك مجالسة أهل الغفلة البطَّالين، محبي الدنيا ومؤثريها، الَّذين أكثر كلامهم في ذكر الأموال والزَّوجات والتَّعلُّقات الدُّنيويَّة، فإنَّهم موتى القلوب، تموت الهمم بمجالستهم وسماع كلامهم، كما قيل:

وما ينفعُ الجرباءَ قُرْبُ صحيحةٍ ... منها، ولكنَّ الصَّحيح يَجْرَبُ.

المطلب الرابع: طلب حصول الأمر الكلِّيِّ الموجب لرضاء الله تعالى ومحبَّته لعبده، وتولِّيه له، وكفالته ووقايته وحمايته، بحيث يكون لطفه بائناً على العبد في جميع تصاريفه وشؤونه إذا شاء، وهذا هو الغاية القصوى والمطلب الأجل الأسنى.

فمن الوسائل إلى ذلك: استعمال ما سبق ذكره في الوسائل، واجتناب القواطع عنه ممَّا سبق ذكره في القواطع، وذلك كالقالب والجسم لما سيأتي من الوسائل والقواطع.

وأمَّا روح ذلك: بعد الإيمان والذَّوق والمحبَّة، فهو الاستسلام لأحكامه نفساً وعقلاً وقلباً وروحاً، وهو في الشاهد مثل: من وجد ملكاً قادراً غنياً عالماً، يحيط علماً بجمل الأشياء وتفاصيلها، فيستهلك علم الواجد ومعرفته في علم الملك وحسن تدبيره، فيسلم إليه ويتبرَّأ من جميع اختياراته، فإن صح ذلك منه؛ فإنَّ ذلك يوجب فناء ذاته في شهوده له، ومحبَّته له، وفناء صفاته من في تدبيره واختياره في شهوده لصفاته.

فهذا رجل معلق القلب بالله تعالى، مفوِّض إليه، قد أخذت القدرة [١٩١/ب] بأزمَّة قلبه وفؤاده، فكيف ما أدبر فهو راض عن ربِّه، مستريح إليه، راقد النَّفس في حسن تدبيره، يستعين به في ذلك، ويطلب المدد منه، فيكون بذلك مفوِّضاً إليه في تفويضه، غير مستبد في تفويضه - أيضاً -.

وهذا شأن الأولياء البدلاء، الَّذين تبدَّلت منهم النُّعوت بالنُّعوت، والأسماء بالأسماء، فغلبت عليه النُّعوت الرَّبانيَّة، بمعنى أنَّه انقهر لها وخضع وفنى فيها، وصار بجملته متعلِّقاً بمولاه، ناظراً إليه، قد أفنته محبَّته عن محبَّة الاشياء وإفناؤه، وهو بتدبيره عن تدبير الأشياء إلَّا فيما أمره به، فهو مريد لذلك مدبِّر له بإرادة مولاه وتدبيره له، فإنَّ ذلك إنَّما ينسب إلى الرَّبِّ، لا إلى العبد.

إذا علم ذلك؛ فالقواطع ضد ذلك من التَّدبير والاختيار والرُّكون إلى الأسباب والحول والقوَّة.

وميزان هذا العبد العارف في حالة وجدانه أن يحدث كلَّ قوَّة منه معنى من المعاني الرُّبوبيَّة، بحيث لا يلهيه معنى عن معنى، فتكون الرُّوح مجذوبه إلى الحال الكلِّيِّ، والقلب خاضع لملاحظة الصفات؛ من مراقبة العلم والسَّمع والدُّعاء والاستعانة، والافتقار، في مقابلة القدرة والقوَّة والغنى، بحيث لا يلهيه مشهد الرُّوح عن الانجذاب إلى الأمر الكلي عن مشهد القلب من عبوديَّات الصِّفات.

ويكون العقل في تلك الحال متفقِّهاً في الأمر والنَّهي الخاص به، يلحظ الأمر ليحكم على القلب والجسم بالائتمار، بحيث لا يلهيه المشهدان الأوَّلان عن ذلك.

وتكون النَّفس خاضعة منقهرة لسلطان العظمة والجبروت، ساكتة عن حديثها وأمانيها، راضية بمقدور ربِّها، مستسلمة لأحكامه، مقبوضة محصورة في القبضة، مأسورة في القدر مع استصحاب تلك المشاهد.

ويكون الحسُّ قائماً بالوظائف الَّتي شاهدها العقل من الأمر والنَّهي والفرائض والفضائل فعلاً وقالاً، فالمشهود واحد، لكن لكلِّ جزء من العبد حظٌّ من العبوديَّة.

فيكون حظ الرُّوح: المحبَّة، والاشتياق لما لاح من الإكرام السَّرمدي الباقي على الأزل والآباد، وذلك لا يشهده إلَّا الرُّوح.

ويكون حظُّ القلب: العبوديَّة في مقابلة الصِّفات كما سبق من التَّضرُّع والدَّعاء، والحياء والمراقبة، فهذا حظُّ القلب، لا يكون للرُّوح هذا النَّصيب؛ لأنَّ الرُّوح بسيطة، تشهد أمراً كليَّاً، والقلب مركَّب يشهد المعاني في الصِّفات، ويقوم بأحكام عبوديَّاتها.

ويكون حظُّ العقل: في هذا المشهد: مشاهدة [١٩٢/أ] أمر المشهود ونهيه، وانتظار وروده بحسب الأزمان والأوقات، فذلك حظُّ العقل، وهو يورد هذا المعنى على القلب؛ لأنَّ ذلك هو في محل النَّظر، بخلاف المشهد القلبيِّ؛ فإنَّه في محلِّ الفكر، والمشهد القلبيّ بخلاف المشهد الرُّوحيِّ؛ فإنَّه وجدان محض وانجذاب محض.

ويكون حظُّ النَّفس في هذا المشهد: الخضوع والانقهار للعظمة وسلطان الجبروت، والرِّضاء والاستسلام للأحكام، فتخمد نارها، ويخبو شررها، وذلك هو حظُّها في الشُّهود.

وإنَّما يورد ذلك على النَّفس القلب؛ فإنَّه يشهد الصِّفات، ويورد حكمها على النَّفس، ويتنوَّع جميع ذلك من البصيرة الباطنة المشاهدة لجميع ذلك، ويكون حظّ القلب العمل لا غير.

والكلُّ يشتركون في كلِّ مشهد من المشاهد لكن لكلِّ صفة خصوصيَّة لا بدَّ من غيرها، وفي الجمع من هذه المشاهد تتبدَّل صفات العبد، وتتعلَّق كل وصف منه بالحقِّ بحسب ما يليق به.

وبيان ذلك: أنَّ النَّفس خصوصيتها الفرعنة والاقتدار، والمنازعة للأقدار، والاستبداد والتَّخيُّر للأحوال، فتعبد ربَّها بصفة العبوديَّة من الخضوع والاستسلام والرِّضاء بالأحكام، فيتبدَّل ذلك منها بأضداده من الصِّفات الحميدة، **والعقل خصوصيته**: التَّعقُّل والنَّظر في المصالح الدُّنياويَّة العاجلة، فيعبد ربَّه بالتَّعقُّل لأمره ونهيه، والنَّظر في مصالح آخرته.

وخصوصيَّة القلب: العمل بالفكرة الحظوظي، وتأله المخلوقات من الخوف منهم والرَّجاء لهم والطَّمع فيهم، فتتبدَّل هذه الصِّفات بعبوديَّة الله تعالى من العكوف عليّه والاستعانة به، والالتجاء إليه والخوف منه، والرَّجاء له والطَّمع فيما عنده في مقابلة مشاهده.

والرُّوح كليَّة: خصوصيَّتها تعشق الأشياء الجمليَّة الحظوظيَّة، وانجذابها إليها، فتتبدَّل ذلك منها بانجذابها إلى محبَّة العليِّ الأعلى، وعكوفها عليه.

ويبقى الجسم خصوصيَّته: السعايات في الحقوق اللَّائقة، والحظوظ الآجلة بالقال والفعال، والله الموفِّق للصَّواب.

وطوبى لمن وفَّقه الله تعالى للجمع بين هذه المشاهد في آنٍ واحد، بحيث لا يلهيه شيء عن شيء، وإن كان الأغلب من الواجدين قد يغيب غالباً بمشهدٍ عن مشهد، لكن هذا الكمال الكلِّيُّ إن شاء الله تعالى.

وقد أنشدوا في هذا المعنى(١):

يَسْقِي ويَشْرَبُ لا تُلْهِيهِ سُكْرَتُهُ عن النَّديمِ [١٩٢/ ب] ولا يَلْهُو عن الكَاسِ.

فنسأل الله الكريم أن يوفِّقنا للتَّلبس بما وصفناه، ويقبله منَّا بكرمه، ولا يكلنا إلى ما علمناه وعرفناه.

فجملة الوسائل بعد الاستعانة في الإيمان: معرفة النبوَّة وشواهدها، واستخراج نصوص المعارف من السُّنَّة والإيمان بها، ورياضة النَّفس على المحاسبة في الجوارح، والمراقبة في الخواطر، وإكراه النَّفس عند التَّقاعد على النُّهوض إلى الأوامر، وكفها عند المسارعة إلى المناهي.

والوسائل في الذوق والإيقان استشعار وجود الرَّبّ تعالى على عرشه، ونظره واطِّلاعه على ظاهر العبد وباطنه، وعلمه بما خفي من خواطره وهواجسه.

ثمَّ المراقبة لنظره وسمعه وعلمه بهدوء الحركات، والأدب في المساعي والتَّقلبات، بشرط عدم الانحراف في الحركات والسَّكنات، ثمَّ التِّلاوة بالتَّدبُّر

(١) انظر: مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (١/ ٢٤٩).

وتعرُّف معاني الصِّفات من التِّلاوة، ثمَّ ضبط الخواطر في حضرة علم الله تعالى ونظره في سويداء سرِّه، ثمَّ الاعتدال في الأكل والمنام، والمخالطة والكلام، ولا يعامل ربَّه بالكسل وقلَّة المبالاة، بل يعامله كما يعامل الحبيب حبيبه، وإصابة الصَّواب في الأعمال، وإيقاعها في أوقاتها وأماكنها، على الوجه المشروع الَّذي أريد منه فيها، ولا يقدِّم العمل المفضول على الفاضل، ويعمل على رضاء الرَّبِّ تعالى، لا على مجرَّد الجمعيَّة، فيرضي ربَّه وإن تفرَّقت جمعيته.

والوسائل في مقام المحبّة رعاية القلب من الميل إلى سوى الله، وعن الشِّرك في توحيد الله، وليجعل همَّه وهواه في محبَّة مولاه والقيام بأمره، والتَّعلُّق بأنفاس المحبِّين وصحبتهم، والوسائل في الكمال الكلِّي الاستسلام لله تعالى؛ بترك التَّدبير والاختيار، إلَّا التَّدبُّر الشَّرعيّ فيما أمر به، أو تدبير ما نهى عنه، فذلك بالله لا بنفسه.

وجملة القواطع أضداد هذه الصِّفات، وفي باب الإيمان منها العقائد الفاسدة، فالجهل وإهمال تصفُّح العلم وتعلُّمه، وصحبة منحرفي العقائد، والتَّواني والكسل عن أداء المفروضات، ومجانبة المنهيَّات.

والقواطع في باب الذَّوق والإيقان؛ فالغفلة عن الله تعالى، والالتهاء بالدُّنيا عن ذكره، وعدم المراقبة في الخواطر لنظره، والمعاملة على الغيبة عن الله وعن نظره، والعمل على هوى النَّفس من غير أن يقصد إيقاعه على الصَّواب الَّذي يرضاه الله تعالى، بل يعمله كيف اتَّفق، وكيف أحبَّ؛ مثل: أن يقدِّم [١٩٣/أ] المفضول على الفاضل، والانحراف في الأكل والمنام، والمخالطة والكلام، عن حدِّ الاعتدال إلى طريق الإفراط والتَّفريط.

والقواطع في باب المحبَّة؛ فالميل وإيثار السَّوى، ومعاشرة الأضداد، والاختلاط بهم، ومجالسة أهل الغفلة وموتى القلوب، والقواطع في النِّهايات التَّمني والتَّدبير والاختيار، أمَّا الأوامر فلا كلام فيها، وأمَّا المختارات قادحة، وإن كانت براءة، والحمد لله وحده وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

قاعدة في معرفة النَّقص الدَّاخل على الكمال

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

من العارفين ومعرفة الكمال في حقِّ من قام به من الواصلين أهل البقاء بعد الفناء والصَّحو بعد السُّكر من مقامات المقرَّبين.

الحمد لله حمداً كثيراً كما يليق به وبعظمته وكبريائه وجلاله واعتلائه، وصلواته على سيِّدنا محمَّد أشرف أنبيائه، وعلى آله وصحبه ورفقائه،

وبعد:

فإنَّا نجد في بعض من انصبغ باطنه بصبغة المحبَّة لله تعالى، والانجذاب إليه، غفلة عن أمره ونهيه، وركوناً إلى غيره، وتعاطيه الشَّيء ممَّا يكرهه، من الحركات أو الكلام، مع بقاء تلك الصِّبغة الَّتي في باطنه من محبَّة الله تعالى وكذلك نجد في بعض من تلبَّس بالتَّقوى ظاهراً وباطناً، وقام بحقوق الله تعالى وفتَّش عن دقائق أوامره ونواهيه، واكتسى كسوة الخوف والخشية والإشفاق، جموداً عن صبغة المحبَّة، ويبساً في أخلاقه، وجفاف طباعه؛ بحيث إذا ذكرت عنده المحبَّة وشؤونها؛ كان بعيداً عنها.

وكذلك قد نجد في بعض من انصبغ بصبغة الخوف والمحبَّة معاً صولة في بعض الأوقات، وتدبيراً واختياراً واستبداداً ورعونة وكبراً وتيهاً وتعلُّقاً، بغير الله من الخوف والرَّجاء والطَّمع في غيره، وأمثال ذلك.

وكذلك نجد في بعض من كمل فيه ذلك، وأكثره في بعض الأوقات استيلاء خواطر السوء على قلبه، وعدم تصفيته وطهارته عن الأكدار، من تسخُّط الأقدار وإرادة الأشياء المحرَّمة وشهوتها، لم يتخلَّص قلبه بالأصالة عن شهوتها وإرادتها في بعض الأوقات.

وكذلك نجد في بعض من كمل فيه جميع ذلك برودة عن معاملة الله تعالى بالأركان، وعدم التَّلذُّذ بالأعمال المشروعة؛ استغناءً بما وجده بقلبه من الأحوال، أو يضيق القلب عنه.

فتَّشنا عن أصول هذه العلل، فوجدنا أصولها من ملاحظة شيء، والغيبة عن شيء، إمَّا لجهل أو لضيق محلٍّ.

بيان [١٩٣/ب] ذلك:

اعلم أنَّ المعبود ﷻ معبود واحد، وإله فرد، له صفات متعدِّدة متنوِّعة، وكلُّ واحد ممَّن يعبده صورة واحدة، لكن ركِّب فيه معان مختلفة، وصفات متنوِّعة، ولا تكمل عبادة من يعبده حتَّى يعبده بجميع أحكام أسمائه، وصفاته، وعظمة ذاته بحسب قدرته واستطاعته واتِّساعه.

ولكلٍّ من صفات المعبود ﷻ في التَّألُّه له بها، والقيام بأحكامها من العبوديَّة، محلٌّ في وجود العبد وصفاته.

يقع أثر ذلك الوصف من المعبود سبحانه في المحلِّ الَّذي فيه وصف ذلك العبد، بحيث ينفعل ذلك المحلُّ من العبد، ويتأثَّر بأثر ما يقابله من صفات الرَّبِّ تعالى.

فمتى قام العبد بأحكام الأسماء والصِّفات، وعبد الله تعالى بها؛ بحيث يتأثَّر بعبادته محل كلِّ وصف من صفاته، ونعت من نعوته، فيتغيَّر عن هيئة الوضعيَّة المعهودة بأثر ما باشره من صفات ربِّه؛ كملت عبوديَّة العبد لربِّه بحسبه؛ إذ هم متفاوتون - أيضاً - في الكمال، وبالله المستعان.

وتفصيل هذا المجمل هو: أنَّ العبد مأمور بمحبَّة الله تعالى، **إمَّا فرضاً**: وهي المحبَّة الظَّاهرة، **أو ندباً**: وهي المحبَّة الخاصَّة، ومحلُّها الرُّوح الكليَّة من العبد، ومستقرُّ المحبَّة الخاصَّة في الأمر الجامع الكلِّيّ لجميع الأسماء والصِّفات، فيقع تأثير الأمر الكلِّيّ في روح العبد الكلِّيَّة، وينفعل به قواه

جميعها، بحسب ذلك للمؤثِّر، لا بغيره من مؤثِّرات الصِّفات.

وكذلك العبد مأمور مع تلك المحبَّة بالتَّعلُّق بالله، والاستناد إليه، والتَّفويض لحكمه، والرَّغبة في ثوابه، والرَّهبة من عقابه، والحياء من نظره وعلمه وسمعه وبصره في الظَّواهر والخواطر، ومحلُّ العبادة بهذه المعاني المتعلِّقة بالصِّفات القلب من العبد.

فمتى عبد القلب ربَّه بهذه العبوديَّات؛ انفعل بحسب هذه المعاني المؤثِّرة، ومنها تنفعل جميع القوى، كما سبق ذكره.

وكذلك العبد مأمور مع تلك المحبَّة والعبوديَّة الَّتي تقدَّم ذكرهما بالتَّأمُّل والنَّظر والفكر في أوامر الله تعالى ونواهيه، وتفاصيل أجزائها، وما يخصُّه منها، وما يخصُّ غيره، إن ابتلي بالقضاء أو الفتيا مثلاً.

وكذلك هو مأمور - أيضاً - مع تلك المعاني المتقدِّمة بتسريح النَّظر والاعتبار في المخلوقات والآيات في الآفاق وفي أنفسهم حتَّى يتبيَّن لهم أنَّه الحقُّ.

ومحلُّ جميع ذلك في العقل، وإن كان العمل للقلب - أيضاً - إلَّا أنَّ آلة القلب من مجموع الوجود الإنساني لهذه الخصائص الَّتي أمر العبد بها، هو العقل، فمتى عبد [١٩٤/أ] العقل ربَّه بهذه المأمورات انفعل بها بحسب هذه المعاني المؤثرة، ودخل في العبوديَّة.

وكذلك العبد مأمور بعبادة الله تعالى مع ما سبق ذكره بترك الاختيار، والتَّدبير والخضوع والانقهار، لعظمة الملك القهَّار، والطَّمأنينة والرِّضاء بالأقدار، إذا وافقت الأمر ولم تخالفه.

والذي يعبد الله تعالى بهذه هو القلب، لكن يتأثَّر بهذه العبوديات النَّفس؛ لأنَّ من طبيعتها الاختيار والتَّدبير، والكبر والجبروت فمتى عبد العبد مرَّ به بهذه المعاني تأثَّر بالعبادة محلَّ النَّفس، وهو محل الأخلاق الذَّميمة، وإن

كانت النَّفس - أيضاً - تتأثَّر بجميع ما سبق شرحه من المعاني الرُّوحانيّة والقلبيَّة، لكن هذه الصِّفات بالنفَّس أليق؛ لأنَّها أخسُّ الصِّفات وأرذلها.

وكذلك العبد مأمور بعبادة ربِّه بقالبه وجسمه، من الصَّلاة والحجِّ والذكر، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

والقائم بهذه العبوديات مجموع العبد، لكن معظم أحوالها هيئات فعليَّة محسوسة ظاهرة، يظهر أثرها في الجوارح، والحس أغلب من أثرها في الباطن؛ لأنَّها قد تتعدَّى إلى غيرها، وقد ينتشر حكمها في الآفاق، لظهورها بخلاف الأعمال القلبيَّة والرُّوحيَّة الباطنة؛ فإنَّها مقصورة على صاحبها.

فصل

إذا علم ذلك يتبيَّن النَّقص الدَّاخل على المحبِّين والخائفين والعابدين، وأنواع المتوجِّهين في عبادة ربِّ العالمين من أيِّ الجهات هو، وما ذاك إلَّا من إقبالهم على شيء يعبدون ربَّهم به، وغفلتهم عن شيء آخر يهملون به أمر ربَّهم فيعصونه.

وهم في إهمالهم لأمر الله في ذلك المعنى الَّذي فاتهم قد لا يغيب عنهم حكم ما هو ملتبسون به من الأعمال الَّتي قاموا بها، فلا يغيب حكمها عنهم في حالة إهمالهم لغيرها كما سبق ذكره من المحبِّ المنحرف في أفعاله، ففيهم من رزق حبَّاً يعتني به ولا يعتني بغيره من أمر الله، كاعتنائه به، فيقوم بحكم الله في حبِّه، ويضيِّع أحكام ربِّه في غيره.

ومنهم من رزق خوفاً وطاعة، فهو يعتني بذلك ولا يعتني بأمر الحب كذلك، فيتوارى عنه حكم ما ضيَّعه من مجموع الأمر الكلي، ومنهم من رزق مجموع ذلك ولم يؤدِّب نفسه، فنفسه قائمة بالاختيار والتَّدبير، ولها كبر وتيه

وصوله ونحوه، فهو معتني بعبادة ربِّه فيما قام به، مضيع لأحكامه فيما أمر به، من مجموع الأمر الكلِّي الَّذي لا يكون الكمال إلَّا به.

ومنهم من رزق ذلك وهو مقصِّر في عبادة الجوارح والأركان، [١٩٤/ب] وإقامة الدِّين وإظهاره؛ لاعتنائه بأمور باطنة، وإعراضه عن كمال إقامة ما أمر به. فمن وفَّقه الله تعالى لمجادلة الأمر الكلِّيِّ، وإن لم ينطق جمع جميع أطرافه، لكن بحسب جهده ومقدرته، كان قاصداً لكمال عبادة ربِّه، قائماً بمحاولة جميع ما أمر به، ونرجوا أن يجزئه الله تعالى على قدر نيته، وإن قصرت عنه أركانه وجبلَّته.

هذا إذا بذل مجهوده، واستفرغه في مرضاة ربِّه، بعبادته له بجميع ما فهم من الشَّريعة المحمديَّة، من أحكام عبادة الله تعالى بالظَّاهر والباطن، فلا يقنع من روحه إلَّا بقسط تام من محبَّة الله تعالى الخاصَّة الذَّاتيَّة، المباشرة لحبِّه قلبه وسويدائه، ولا يقنع من قلبه إلَّا بالقيام بما يمكنه من عبوديَّات الصِّفات: من الحياء والمهابة والأدب، ومحو خواطر السُّوء وعزائمه، والخشية، والإشفاق، والتَّعلُّق بالله تعالى والتَّوكُّل عليه والاستعانة به، ومراقبة نظره وعلمه ضمن محبَّته الخاصَّة.

فإنَّه متى انفكَّ حكم ذلك المحبَّة، خرج صاحبها إلى ما شرح أوَّلاً من الرُّعونات المذكورة، وتعاطي شيء ممَّا يكرهه الله تعالى بالقال أو الفعال.

وكذلك لا يقنع من عقله في حال محبَّته وعبادته القلبيَّة إلَّا بتأمُّل أمر الله تعالى الخاصِّ به في ذلك الوقت على نفسه وعلى غيره، مبالغاً في التَّأمُّل بما وجب عليه في وقته، وفيما نهى عنه في وقته، وفيما ندب إليه في وقته.

وذلك في حال محبَّته وعبادته القلبيَّة؛ فإنَّه متى انفكَّت المحبَّة والعبادة القلبيَّة عن التَّأمُّل لمراد الله تعالى، من العبد في وقته ذلك؛ دخل عليه داخل من جهة تضييع الأمر الخاص، في الوقت الخاص، فينقص صاحبه بذلك، أو يعصي.

وكذلك لا يقنع من نفسه مع محبَّته لله الخاصَّة وعباداته القلبيَّة، وتأمُّله لأحكام شريعة ربِّه بتدبير نفسه واختيارها وصولتها، وتيهها بما رزقته من الأحوال والأعمال والعلوم، بل يكون مع جميع ذلك خاضعاً لربه، مفوِّضاً إليه، غير مستبد ولا متخير، وذلك في حال محبَّته الخاصَّة وأعماله القلبيَّة وعلومه التَّأمليَّة؛ فإنَّه متى انفكَّ جميع ذلك عن عبوديَّات النَّفس، تحرَّكت بجميع مقتضى طبيعتها وجبلَّتها، فكدَّرت الوقت وشوَّشت السِّرَّ، وأفسدت الأحوال والأعمال؛ فإنَّ الكبر والعجب محبط، والتَّدبير والاختيار للحظوظ مؤخر مبعد.

وكذلك لا يقنع من وجود ذاته في محبَّته الخاصَّة وأعماله القلبيَّة، وعلومه النَّافذة، وطمأنينة نفسه إلى مراد ربِّه، وخضوعها له بالانقهار والعبوديَّة، والتَّذلُّل أن يكون خالياً عن الحركة بالقالب والجوارح في طاعة الله [١٩٥/أ] تعالى وعبادته تحصيلاً لمجموع الأمر الكلِّي في مجموع الوجود؛ فإنَّ الحركة في طاعة الله بركة، والكسل في ذلك اعتماداً على الأمور الباطنة دون الظَّاهرة مفشل معطِّل بمصالح البدن، ونوره في الدُّنيا، مؤخر عن الثَّواب الخاص به في الآخرة.

فحينئذ تبيَّن بذلك أنَّ علامة الكامل في وصوله له أن يقوم بوظائف العبادات ببدنه وقالبه، ويجد اللَّذة في الكد والاجتهاد، ويزول عنه كلف التَّكاليف، ويجد الرَّاحة والنشاط فيها بعد الكسل عن ذلك، والتَّقاعد عنه، فيتبدَّل ذلك الوصف المذموم منه بهذا.

ومع ذلك فتسكن الخشية والإشفاق، والتَّسليم للأحكام، والرِّضا عن المنازعة للأقدار، والخضوع والذِّل والانكسار لعظمة الملك القهَّار في محلِّ نفسه؛ لأنَّها محل الأمن والدعة، والمنازعة والتَّحيُّر والاستبداد، فتتبدَّل تلك الصِّفات المذمومة بهذه الصِّفات المحمودة.

وأن يسكن التَّفتيش عن الأوامر والنَّواهي ومراعاتها في أوقاتها وحدودها المشروعة في محل عقله؛ لأنَّه في محل التَّفتيش عن المصالح الدُّنياويَّة والنَّظر في المصالح والمعاطب المعيشيَّة، فينظر في هذا الأمر الشَّرعيِّ كما ينظر في الأمر الدُّنياويِّ.

وأن يسكن التَّعلق بالله، والاستعانة به، والتَّوكُّل عليه، والتَّفويض لأمره، والحياء من نظره وسمعه، وعلمه في حركاته وأقواله، وهمومه وإرادته، فتخمد الخواطر إجلالاً لعظمته في محلِّ قلبه؛ لأنَّه محلُّ التَّعلُّق والطَّمع والرَّجاء والرَّغبة والرَّهبة لغير الله تعالى من الأمور العاجلة الدُّنياويَّة، فتتبدَّل تلك الصِّفات منه بهذه الصِّفات.

وأن يسكن الحب والانجذاب بصبغة المحبَّة في محلِّ روحه؛ لأنَّها محلُّ محبَّة غير الله، والانجذاب إليه مما يحبُّ ويستحسن من الأمور الفانية والصُّور الفانية، فيتبدَّل ذلك منها بهذه الصِّفات المحمودة.

فمن اجتمعت فيه هذه الصفات المحمودة واستحكمت فيه، وانصبغ ظاهره وباطنه بها، ورزق القيام بأحكام جميع ذلك؛ فهو الكامل في وصوله، وكمال كلٍّ بحسبه، والله المستعان.

فإن قلت: هذا أمر كبير خطير، يستوعب الحسَّ والنَّفس والعقل والقلب والرُّوح، فلا طاقة لي [١٩٥/ب] بجملته؛ فإن أمكن أن يكون لهذا مدخل، وباب يدخل الإنسان منه ويرجو أن يترقى بدخوله إلى هذه المقامات؟ فذاك الجواب.

نعم لكلِّ فنٍ مدخل يدخل الإنسان؛ فيدخل من الأمر الجزئي إلى الأمر الكلي؛ كفن الفقه مثلاً، ألا ترى أنَّهم يدخلون إليه من بعض المختصرات فَيَنفُذُونَ فيه؛ فذاك هذا.

وهنا مدخل قريب يسهل الدخول منه إن شاء الله تعالى، وهو أن تستعمل

في شؤونك من التَّسبب، أو التَّفقه، أو غير ذلك مما ابتليت به؛ مراقبة نظر الله تعالى إليك لا غير؛ فيكون ذلك هجيرا قلبك على الدَّوام.

فإن وفقك الله تعالى لذلك، وثبت فيه، يرجى بمشيئة الله تعالى أن تغمر هذه الصِّفة قلبك، فإذا استولت على قلبك، وغمرته، وحالت بينه وبين الوساوس، وحصل لك الأنس بنظر الله تعالى، وإطِّلاعه، دخلت بعون الله تعالى إلى جميع ذلك، فإنَّ الصِّفة تجذب بالضَّرورة المعهودة إلى الموصوف.

فإذا انغمر قلبك بحكم هذه الصِّفة، رجوت أن تنصبغ روحك بالمحبَّة الخاصَّة للأمر الكلِّي الجامع لجميع الصِّفات؛ فإنَّ ذلك موهبة تتجلَّى تحصل للرُّوح.

ويحصل الالتجاء والتَّعلق للقلب بواسطة البصر، فينغمر القلب بذلك، حيث انغمرت الرُّوح، وتنغمر النَّفس - أيضاً -؛ بالتَّذلل، والخضوع والتَّفويض، وترك التَّدبير لمن راقبت بصره.

والهيبة الحاصلة من المراقبة تحمل العبد على جولان الفكر في أمر المُرَاقِب، ونواهيه، وعلى حركة الجسم بعبادته، والتَّلذذ بها؛ فعليك بلزوم هذا المدخل تحظى بجميع ذلك إن شاء الله تعالى.

فإن قلت: الإنسان حقيقة واحدة، مركب من ظاهره وقالبه، ومن روحه القائمة بظاهره، وأنتم تذكرون القلب والعقل والنَّفس؛ فالإنسان هو الَّذي يفكر بعقله، وينظر بقلبه، ويتحرَّك بنفسه.

والكلُّ إنسانٌ واحدٌ بروح واحدٍ؛ فكيف يمكن تخليص هذه المعاني من الشيء الواحد وتميز ذلك؟ **الجواب**: نعم الإنسان حقيقة واحدة، له ظاهرٌ، وباطنٌ؛ فظاهره الجسم، وباطنه - أيضاً - شيء واحد، لكن له صفات باعتبارها تسمَّى تلك الحقيقة الباطنة باسم القلب أو العقل أو النَّفس أو

الرُّوح، والمتحرِّك في هذه الصِّفات المختلفة شيء واحد، وهو الإنسان الباطن. فباعتبار: المحبَّة، والميل، وهو معنىً روحاني، يقال: تحرَّك بروحه، وباعتبار: [١٩٦/أ]، خوفه، ورجاه، واعتماده، وعزمه، وأمثال ذلك، وهي صفات عملية يمكن أن يراد بها الآخرة، والدُّنيا، يقال تحرَّك بقلبه، وباعتبار: بعقله للأشياء وتمييزه بين حقها وباطلها، ومصلحها ومفسدها، يقال: تحرَّك بعقله ورأيه، وباعتبار: شهوته الحيوانية، من شهوة الأكل واللبس والنكاح، والغضب والعلو والفخر والخيلاء، يقال: تحرَّك بنفسه، وليس ذلك مذموماً مطلقاً؛ فإنَّه مباح فيما أُحِلَّ له من الأكل والنكاح والعلو والفخر والخيلاء في حرب الكفار؛ فإنَّه وضعه في محلِّه، وهو مذموم في غير ذلك، إذا وضعه في غير محله.

والمتحرك في جميع هذه الصِّفات واحد: وهي الحقيقة الإنسانيَّة؛ إلَّا أنَّها تختلف مظاهرها وصفاتها؛ فتنسب تلك الحقيقة الواحدة إلى الوصف الَّذي ظهرت تلك الحقيقة فيه.

مثال ذلك: ألا ترى أنَّ حبَّة العنب إذا كانت قبل البلوغ تسمى: حصرمة، وهي تلك الحبة بشكلها، وجلدها وماهيتها؛ فنسبت إلى وصف الحموضة الَّتي غلبت على صورتها؛ فإذا بلغت وصارت حلوة تسمى تلك الحبَّة بعينها لم يتغير من كميتها شيء، بل تغيرت كيفيتها؛ فتسمى: عنبة؛ فإذا أخذت من دردي الخل تلك الحبَّة بعينها وكميتها؛ فإنَّك تسميها باسم آخر؛ فتقول: دردية.

فاختلفت أسماء الحبَّة الواحدة باختلاف كيفياتها، فكذلك تختلف أسماء الحقيقة الإنسانية، إذا تحركت باختلاف صفاتها وكيفياتها، وهي حقيقة واحدة، والله أعلم.

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

قاعدة في نفي الخواطر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الَّذي فتح طريق الوصول لمن أراد إسعاده وتقريبه، واختصر المقامات له في أقرب الأعمال لمن كمل به تهذيبه، وكسى باطنه من لوائح أشعة الجلال والجمال، الطَّالعة من أفق الغيوب؛ لمن أراد به تطهير ذنوبه وتذويبه؛ فأوصله بلا تعب له ولا عناء، وأزال بذلك تشعيبه وتعذيبه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، منزل الكتاب متضمناً ترغيبه وترهيبه، وأشهد أنَّ محمداً ﷺ عبده ورسوله المبعوث بواضح الدَّلالات، وباهر المعجزات، السَّادَّ لشبهة أهل الرِّيبة، صلى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة ما دارت الأفلاك بالحركات الغريبة، وما سبَّحت [١٩٦/ب] الأملاك بصنوف اللُّغات العجيبة.

وبعد: أيُّها الطَّالب للوصول إلى حضرة المحبَّة، والفوز بمراتب القربة، لا تتعب ولا تتفرَّق في جزئيَّات الطَّريق وشعبها، فإنَّها كثيرة الشُّعب والأعمال، واسعة الأرجاء، متنوِّعة السُّبل والإلجاء، أجمع لك أمرك في أصول، فعليها فاعتمد، وإيَّاها فحقِّق، يرجى لك النُّفوذ إلى حضرات الفوز والسُّعود، إن شاء الله تعالى.

أوَّلها: صحَّة العقيدة وتحقيق مسألة العلوِّ والفوقيَّة، وما يتبعها من معرفة الموصوف بها جلَّ وعلا، بإنزال الكتاب، وبعث الرَّسول ﷺ معرفة مجملة، ثمَّ السَّير في تفاصيلها قدراً يقوم به حججها وشواهدها في العقول، يرتفع به الرَّيب، ويحصل به كمال اليقين بالغيب، ومعرفة النُّبوَّة وشواهدها من الخوارق والمعجزات الَّتي دلَّت عليها كتب السِّير والمسندات، ومعرفة أصول

السُّنن بالمرور عليها، وتدبَّر الكتاب العزيز، كأنَّك تسمعه من متكلِّمه؛ فتفهم عنه مراده منك فيما أنزله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

واجهد على المداومة والمواظبة على تحصيل معرفة مراد الرَّبِّ منك في الكتاب والسُّنَّة، **فتستفيد بذلك أمرين**:

أحدهما: معرفة الأمر الإلهي، والثَّاني: معرفة مراده؛ فتعرف ما يرضاه منك وما يسخطه من فعلك، وما أباحه لك، وجعلك فيه مخيَّراً.

فمتى وصل ذلك إلى قلبك؛ سرت فيه كيفيَّة عجيبة، فيسرُّ بما يرضاه، وينقبض لما يسخطه ويأباه.

ألا ترى في الشَّاهد مملوك الملك يعرف كيفيَّة الملك فيما يحبُّه ويبغضه؛ فهو أبداً يقصد إلى العمل الَّذي يحبُّه، ويجتنب ما يبغضه؛ لما وصل إلى قلبه من كيفيَّته، وكيفيَّة مزاجه، فكذلك العبد العارف بربِّه؛ يعرف صفات ربِّه؛ لأنَّه جلَّ عن الكيفيَّة؛ فيعرف ما يحبُّه من أمره، وما يكرهه من فعل عبده، فيقف القلب عند مراضيه فلا يتعدَّاه.

ومتى تعدَّى شيئاً من ذلك؛ تألَّم باطنه وأظلم سرُّه، وانطبقت الدُّنيا عليه قبضاً، كما يجري لمن حاضر الملك وجالسه عندما يبدو منه ما يكرهه الملك؛ فهذا الأصل من ضرورة السَّالك، لا يتمُّ السَّير إلَّا به، وهو الطَّريق الَّذي يسمُّونه طريق التَّعرُّف المؤدِّي إلى المعرفة بالمعروف وبمراده منك، فهنا شيئان: معرفة به، ومعرفة بمراده.

الأصل الثَّاني: الإرادة لا يتمُّ السُّلوك إلَّا بها، ويفتقر [١٩٧/أ] إليها أوَّلاً وآخراً، فبذلك يمكن الوصول إلى الحقائق الباطنة الرُّوحيَّة، وهي بمثابة الرِّيح للمركب، متى وقفت الرِّيح؛ وقف المركب، وإنَّما تسير المراكب على قدر ما تطيب لها الرِّيح.

الأصل الثَّالث: وهو القطب، وعليه المدار، فلا تغفل عنه، ولا تلتفت

يميناً ولا شمالاً؛ فهو أصل إن غفلت عنه أو أهملته؛ تعبت كثيراً وطالت عليك الشُّقَّة، وإن حفظته؛ يرجى لك في حفظه اختصار الطَّريق؛ فاعكف عليه، واجمع همَّك على حسن الاحتيال له، مستعيناً بالله تعالى، مفتقراً إليه في تسهيل هذا الأصل، فإنَّه طريقك إلى مولاك بعد تحقيق ما سبق من الأصول إن كنت طالباً حضرة القدس والفوز بما فاز به المحبُّون والواصلون والمكافحون لصريح الحقِّ.

وهو أن تجعل معاملة لك بينك وبين مولاك؛ ألَّا تعصيه بحقيقتك الباطنة أبداً، فإنَّك عرفت في الأصل الأوَّل: ما يحبُّه من باطنك وما يكرهه، فتجعل عملك بعد الفرائض والنَّوادب: رعاية باطنك ألَّا يختلج فيه ما يكرهه الله تعالى، فتعمل على طهارته من المكاره أبداً، وكلَّما انفلت منك ضبطته وأقمته على حكم الله وما يرضاه من العدل، فتراه يستعصي عليك أحياناً، ويغلظ ويجفو أحياناً، وينقاد ويرقُّ أحياناً؛ فإنَّه سريع التَّقلُّب، ولذلك سمِّي القلب قلباً؛ لكثرة تقلُّبه، وكان ﷺ يدعو: **«يا مقلِّب القلوب، ثبِّت قلبي على دينك»**[1].

فلا تزال تعالجه كذلك مدَّة حتَّى تملكه، فإذا ملكته ضبطته على العدل بين يدي الله ﷻ، وتجعل ذلك هو طريقك ومعاملتك ورابطتك مع الله ﷻ، لا تعرِّج عن ذلك إلى غيره، فإن كان قد قُسِمَ لك نفوذ؛ فإنَّه يكون غالباً على هذه المعاملة.

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢١٤٠) وابن ماجه، رقم: (٣٨٣٤).

فصل

في ضبط أصناف تقليبات القلب؛ لتضبط بذلك شؤون حقيقتك الباطنة، فتقوى بذلك إن شاء الله تعالى على رعايته وإصلاحه، عساك تنفذ إلى الحقائق المطلوبة إن شاء الله تعالى.

وينبوع ذلك أصناف، بحسب تنوُّعه يكون تسفُّل العبد في الدَّركات وترقِّيه إلى أعلى المقامات والدَّرجات، فإنَّما أنت عند الله عزوَّ وجلَّ على قدر ما قام بقلبك في الأمر الظَّاهر من الطَّاعة والمعصية.

واعلم: أنَّ بهذا التَّقليب يكون نزول العبد إلى الهاوية، وصعوده إلى الجنَّات العالية، وها نحن نضبط ما يفتحه الله ﷻ من ذلك.

الصِّنف الأوَّل: من ذلك أنزل الأصناف وأقربها [١٩٧/ ب] من الدركات السفلى في النار يكون في حال صلابة النفس وقوَّتها وانخراقها عن الفطرة، إلى طبيعة النَّفس الأمَّارة بالسُّوء، تكون آثار النَّفس في القلب الشَّهوات الكثيفة المحرَّمة من خواطر الزِّنا والفواحش، وتمنِّي الأمور الَّتي يحصل بها ذلك، ويقابلها من أخلاق النَّفس البغض الشَّديد والحقد والعزم على المقاطعة الفاحش، وإرادة هلاك الخصم والكبر والتِّيه والعُجب ومهلكات الأخلاق.

فإنَّ النَّفس في القلب غالباً أثران: أثر شهوانيٌّ، وأثر غضبيٌّ، وهذه المرتبة من مراتب الدَّرك الأسفل من النَّار، وفيه يكون الشُّكوك في العقائد، وبغض الأولياء إذا خالفوا مراد النَّفس، وذلك للانحراف عن محجَّة الحقِّ إلى محض الباطل والإفك، وهذه المرتبة أكثف المراتب وأبعدها عن الله تعالى.

الصِّنف الثَّاني: من تقلُّبات القلوب، إذا لطفت النَّفس قليلاً عن تلك المرتبة الأولى؛ كان أثرها في القلوب الأماني الشَّهوانيَّة المكروهة أو

المباحة؛ **مثل**: محبَّة المال والجاه والرِّفعة والسِّعة وأماني الأكل والشُّرب وراحات النَّفس؛ بحيث يكون حديث النَّفس وأثرها في القلب ذلك، وفيه تكون الوساوس الباطنة أيضاً.

ويقابل ذلك من حكم القوَّة الغضبيَّة ذكر عيوب النَّاس ونقائصهم، ورؤية تخلُّفهم عن مرتبته، وربَّما كان فيه من المداهنة والرِّياء وما يناسب ذلك من الأخلاق السَّيِّئة؛ فإنَّها مراتب مرتَّبة أكثف من مرتبة، وهذه المرتبة من مراتب الطَّبقة العليا من النَّار، وهي جهنَّم المعدَّة للعصاة؛ بمعنى: أنَّه من عالمها وإن لم يستحقَّ فاعل ذلك النَّار؛ لموانع أُخر من حسنات وغيرها.

الصِّنف الثَّالث: من تقلبات القلوب إذا لطفت النَّفس قليلاً عن هذه المرتبة؛ كان أثرها في القلوب الفكر العقليَّة في ترتيب المصالح المعيشيَّة، وذلك أوَّل صفاء العقل وتكيف القلب به، وذلك من عالم الجوِّ بين الأرض والسماء القريب من الأرض؛ لأنَّه من مصالح العقل.

الصنف الرابع: إذا لطفت النفس قليلاً أكثر من ذلك سرت الفكرة بالعلوم الدينية والمعاني الفقهية، وانحلت المشكلات المعنوية، وذلك من عالم الجو القريب من السماء؛ لأنه من مصالح الأخروية لا الأرضية.

الصِّنف الخامس: إذا لطفت النَّفس أكثر من ذلك؛ سرت الفكرة في الحكم الرِّياضيَّة وترتيب الأمور السُّلوكيَّة المؤدِّية إلى منازل القرب، وذلك من عالم أبواب السَّماء؛ لأنَّ ذلك مفتاح لأبوابها، وذلك من عالم العقل.

الصِّنف [١٩٨/ أ] **السَّادس**: إذا لطفت النَّفس أكثر من ذلك؛ أحبت العبادة واشتاقت إلى الذِّكر والفكر والتِّلاوة والتَّدبُّر، والدَّأب لله ﷻ في الطَّاعة، وذلك أول صفاء القلب وتكيُّف النَّفس بطبيعته، وهو من عالم السَّماء، ولأنَّه يكون مقروناً بالذِّكر الخالص لله ﷻ؛ فيستغرق القلب في أنوار الذِّكر، وذلك من عالم السَّماء القريب إلى الأرض.

الصِّنف السَّابع: إذا لطفت النَّفس قليلاً أكثر من ذلك؛ وقعت الفكرة في ميدان الطَّلب والإرادة لله ﷻ، وعكوف الهمِّ عليه سبحانه، وجمع الخاطر بين يديه، والمراقبة لعلمه ونظره بالمحبَّة التَّامَّة، والإرادة الكاملة، والشَّوق الزَّائد إلى اللِّقاء، وذلك من عالم السَّموات العلى، القريبة من العرش لمن فهم ذلك، وعَقَلَه، وكان لبيباً.

الصِّنف الثَّامن: إذا لطفت النَّفس أكثر من ذلك؛ تخلَّصت من عالم الأرض والسَّماء، واستغرقت في عالم الشُّهود والعبوديَّة، وملاحظة الصِّفات، وكان حديثها المسامرة للحقِّ تعالى بالتَّوكُّل والتَّفويض والدُّعاء، والنَّظر إلى الأوامر الشَّرعيَّة والأحكام القدريَّة والمعاني الصِّفاتيَّة، كأنَّه عند الله ﷻ ومعه وبين يديه، وهذا من عالم العرش المجيد، ليس من عالم الأرض ولا عالم السماء.

الصِّنف التَّاسع: إذا قوي هذا المعنى عليها؛ هجمت المعرفة الذَّاتيَّة على الأرواح المورِّثة لالتهاب الرُّوح بنيران المحبَّة الخاصَّة، الموجبة للسَّكرات، وتقرُّب الحقائق منه قرباً لا يغيب عنه، بحيث يلتبس باطنه ويشرق أنوارها على ظاهره؛ بحيث يبقى وجود العبد عرشاً للمثل الأعلى.

وكمال هذه المرتبة أن لا يغيب تمييز العبد فيها بقوَّة الاصطلام، بل تكون أجزاء العبد قائمة بما يناسبها من عبوديَّة المعبود، فتكون النَّفس منكسرة منقهرة قد ذهب تدبيرها واختيارها، واستسلمت لأحكام بارئها، ويكون العقل ملاحظاً للأوامر والنَّواهي، قائماً بالعزم التَّامِّ على تنفيذه، ويكون القلب ملاحظاً للصِّفات من الهيبة والحياء والتَّوكُّل والتَّعظيم والمراقبة والمناجاة في الصَّلاة وفي غيرها من حوائجه العامَّة والخاصَّة يكون هِجِّيْرَاه الحبُّ والتَّعظيم والخوف والهيبة، وتكون الرُّوح مستغرقة بما باشرها من سطوع أنوار الجلال والجمال، قد أفتنها ذلك وألهبها وآنسها [١٩٨/ ب] وأطربها، وعمَّها

واستوعبها؛ بحيث لا يشغله ذلك عن حكم غيره، وهذا أعلى أطوار العبد وأتمُّه وأكمله، وهو المطلوب من السَّير والسُّلوك، ولمثل هذا فليعمل العاملون، وهذا من عالم القدرة، ليس من عالم الملك ولا الملكوت، وهو من معادن الفضل والمنَّة، يخصُّ الله بذلك من يشاء من عباده ومحبِّيه، والله ذو الفضل العظيم.

فصل

أيُّها الأخ إن أردت وصولك إلى هذا الأمر؛ فاستعن بالله، واشتغل بالأصول المذكورة، ثمَّ اشتغل بمراعاة قلبك، كما وصفت لك، وعالجه مدَّة طويلة حتَّى تحصِّله وتضبطه على العدل، والحقّ بين يدي مولاك، وكلَّما انفلت عنك فاضبطه، فإنَّه بمثابة السَّمكة تحتاج إلى تحيُّل كثير حتَّى يمكن تحصِّلها.

واعلم أنَّ ذلك من أشرف الأعمال وأفضلها، فإيَّاك أن تحقر ذلك، فلا عمل أفضل من أن يطَّلع الحقُّ على حقيقتك الباطنة؛ فلا يجد فيها ما يكرهه ولا ما يمقته، فيُرجى أن يصبغه إذا أدمنت الاستقامة بصبغة المحبَّة الخاصَّة المورثة لالتهاب البواطن بمحبَّة الله ﷻ.

وهذه القواعد تعينك على ضبطه إن شاء الله تعالى، إذا حرَّرتها عرفت أطوار تقليبات القلوب من الدَّرك الأسفل من النَّار إلى أعلى علِّيين، إلى ملك القدرة والعظمة الخارجة عن الأكوان، علويها وسفليها؛ فتعرف كلَّ وقت ما الغالب على قلبك عند ضبطه، فتعرف طورك ومرتبتك في ذلك الوقت، ولا ترضى إلَّا بعالي الأمور منه، فبذلك يتمُّ السَّير والسُّلوك إلى الحقائق المطلوبة، إن شاء الله تعالى.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وسلَّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدِّين.

قاعدة في الجدِّ والاجتهاد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عليك بثلاث أعمال، شدَّ مئزر جهدك وجدِّك في إتقانها واعتيادها، وتمرين النَّفس بحسن الرِّياضة للتَّمكُّن فيها:

العمل الأوَّل: لا تعصِ ربَّك بقلبك في خواطرك، والطَّريق إلى ذلك أن تحصِّل قلبك وتضبطه بين يدي الله ﷻ بالحقِّ والعدل، فذاك طريق الرِّضا إن شاء الله تعالى، فيستقيم بذلك باطنك، وتستريح من وجه خطرات الآثام والمعاصي، ويصفو قلبك لاستنشاق نسيم الرِّضا والقرب من الله، فتصبح طيِّباً، وتمسي طيِّباً، لا يلج قلبك مكروه، ولا ينطوي على غلٍّ وغشٍّ.

وذلك يحتاج إلى رياضة شديدة في مدَّة طويلة؛ لتعتاد [١٩٩/ أ] ذلك، وهو أصعب عقبة في الطَّريق، فربَّما يكون الإنسان ذا أحوال عالية، ولم يصحِّح مع ربِّه حفظ باطنه، كما أمره تعالى بقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾(١).

العمل الثَّاني: اعقد على تفويض أمورك في شأن دينك ودنياك، واستند إليه في وعده بكفالتك ووكالتك، واترك الاختيار والتَّدبير مع تدبيره واختياره، وارض عنه، واصبر على ما أصابك، واستعن به في ذلك، فتستريح من كدر التَّدبير والاختيار، وتقليبات القلوب فيه.

فما أكدر قلب من يصبح مفكِّراً فيما يصنعه، مدبِّراً لما لا يجدي عليه، يقول: أصنع كذا لا بل أترك كذا، لا بل أسعى كذا، كأنَّه محيَّر في أمره،

---

(١) سُورة الأنعام: الآية ١٢٠.

فيغفل عن تدبير المدبِّر له الَّذي يفعل ما يشاء ويخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة، فالأقدار جارية مع التَّدبير وعدمه، لكن المفوَّض يلطف به فيها إذا شاء الله، ويتولَّى أمره، ويُكفَى مؤنه.

والمدبِّر المختار المتسخِّط بالأقدار، الشَّاكي منها لا يلطف به، وخلِّي إلى نفسه وتدبيره، ولا يجدي عليه ذلك شيئاً، وما أروح سرَّ من أصبح مسرعاً إلى ربِّه، ساكناً إليه، مفوِّضاً إلى حسن تدبيره، عازماً على التَّوطين على الأحكام والاستعانة فيها، مع اهتمامه الشَّديد وتدبيره للأمر والنَّهي؛ لأنَّه موكَّلٌ إلى العبد، ولا بدَّ من تدبيره له مع استعانته بمولاه، ويستريح من تدبير ما قدَّره الله تعالى من أمور المعايش، وما لم يوكل إلى العبد فهذا نصيبه راحة معجَّلة من عناء الفكر والتَّدبير، مع ما له عند الله - إذا شاء الله - من حسن التَّولِّي والحيطة بالعناية.

العمل الثَّالث: التَّخلِّي عن الوجود الذِّهنيِّ، وذلك مفتاح طريق الفناء، ومفتاح الصِّبغة الرُّوحيَّة بالمحبَّة الخاصَّة المورِّثة لالتهاب الباطن بحبِّ الله ﷻ؛ لما يبدو على الأسرار من الشَّاهد الَّتي هي برزخ بين اليقين والعيان، وذلك أشرف مواريث الصِّدِّيقين وأعلاها وأسناها، وهي تحقيق مقام الخلَّة الإبراهيميَّة المحمَّديَّة صلوات الله على محمَّد وعلى أبيه إبراهيم الخليل، وعلى جميع الأنبياء، فهم الَّذين قاموا بتحقيق ذلك حقيقة، ومن قصدها وطلبها وعمل عليها، يرجى له نصيب منها.

وحقيقتها تجلِّي حكم الذَّات المقدَّس على الأرواح، وهو غير التَّجلِّي الخاصِّ بالقلوب، من مشاهد الصِّفات، فإنَّها تورث أنواراً، وذاك يورِّث التهاباً واستغراقاً وابتهاجاً ووجداً، ولا يكون إلَّا بعد الفناء ومشارفة حال البقاء، وذلك مع المتابعة، وهو مقصود القوم من السُّلوك والسَّير والرِّياضة [١٩٩/ ب] فطوبى لمن حقَّقها، وقام بشروطها، وقبل ذلك منه، وجوزي عليه بالحسنى، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدِّين، وحسبي الله.

قاعدة في التَّجريد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اعلم أنَّ هذا الأمر يتركَّب من شيئين: شيء تبذله لله من نفسك، وشيء يرد عليك من تعريفاته، وقد شُرح ذلك في غير هذا الموضع أصناف التَّعريفات الواردة من فضل الله سبحانه على العارفين؛.

فمن ذلك: التَّعريف بصفة الفوقيَّة، والإلهيَّة، والرُّبوبيَّة، والدِّيانيَّة، والمعيَّة، وبصفة الوجه والعظمة والجلال والبهاء والكلام والحكمة والرَّحمة والقوَّة والبطش، وغير ذلك ممَّا يجده الواجد من آثار الصِّفات المقدَّسة في أوقات التَّوجُّهات والأذكار.

ومن ذلك ظهور الأمر الكليِّ على الأرواح من آثار الجلال والجمال الذَّاتيِّ الملهب للأفئدة، والمسكر لها فوق تلك المشاهد الإيمانيَّة القلبيَّة، ثمَّ القوَّة على استعمال تلك الصِّفات وعبوديَّاتها في المشهد الكليِّ الروحي.

فيكون العبد في حالة مشهده الروحيِّ مستعملاً للتَّفويض والتَّوكُّل، والخوف والرَّجاء، والافتقار وسائر أعمال القلوب بقلبه، أو ما يفتح منها، فيورث ذلك نفسه الخضوع والخشوع.

ولذلك لا يحجبه ذلك عن تأمُّل العقل لمواقع الأمر والنَّهي، وحكمها وتراتيبها، وكذلك لا يحجبه ذلك عن معاملة البدن؛ بحيث يكون البدن والنَّفس والعقل والقلب والرُّوح، كلٌّ منهم قائم بوظيفته؛ بحيث لا تحجبه وظيفة عن وظيفة.

والغاية أن يتولَّى الله ﷻ حركاته وسكاتانه، فيصير به في كلِّ شيء من أموره، وهذا هو خاتمة ما يبادئ به العبد ذلك الطَّرف، وتفصيل الكون بالله

وأنواعه لا ينضبط من أنواع ما يرد عليه من التَّعريفات والواردات والتَّنبيهات وظهور الحقائق العينيَّات على أكمل الوضوح والظُّهور، وبهذا يستوفي مجمل الأحوال من ذلك الطَّرف.

وأمَّا ما كان من جهة العبد ممَّا يبذله من نفسه لله، فمنها: التَّوبة والإنابة، وسائر ما ذكر من المقامات والأحوال العملية؛ كالورع لله، والزُّهد له، والصَّبر له، والخوف منه، والرَّجاء له، والتَّوكُّل عليه، والثِّقة به، والرَّضا عنه، والحبّ له، ثمَّ التَّقرُّب إليه بالأعمال البدنيَّة كالصَّدقة والصَّوم والصَّلاة والقراءة والأذكار، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

والأعمال القلبيَّة؛ كالأفكار والمعاملات القلبيَّة [٢٠٠/أ]؛ كنفي الخواطر السَّيِّئة؛ حياءً من الله تعالى، والنِّيَّات الصَّالحة في المستقبل، والنَّدم على ما مضى عند هجوم ذكره.

وأعلى الأعمال القلبيَّة الإرادة والمحبَّة والخوف والرَّجاء والحياء من الله تعالى في الغيب، والصَّبر له عند المحبوبات والشَّهوات، والثِّقة به والتَّفويض إليه، والاستناد التَّامُّ إلى كرمه والإخلاد عند النَّوائب إليه، والرِّضا عنه وبأقداره.

وأعلى ذلك كلِّه المحبَّة الخاصة فوق المحبَّة العامَّة، وقد تقدَّم ذكرها.

ومن علامات القلوب ما يفتح به على أهل الله الصَّادقين في حبِّه وإرادته، المحقِّقين للتَّقوى والزُّهد ظاهراً وباطناً حالٌ يسمَّى التَّجريد، وهو عمل من أعمال القلوب، وهو حقيقة الإرادة لله، والإرادة لله هي مفتاحها، فمتى استحكمت الإرادة لله ﷻ في القلب على المعرفة التَّامة؛ فإنَّها قد تكون إرادة إلى مراد لا يعرف.

فإذا كملت المعارف من ذلك الطَّرف وكملت الإرادة من هذا الطَّرف؛ أدَّت إلى حال التَّجريد، وهو تجرُّد الرَّوح والقلب والنَّفس عن الأكوان، متنزِّهة

عنها، صاعدة إلى فناء قرب المطلوب، فتنخلع القوة النفسانية والطبيعية متجردة صاعدة إلى المحبوب، وعندها يحبُّ الطَّالب السِّياحة والأسفار؛ فإنَّها قد تعينه على تحقيق حال التَّجرُّد الباطن، وفيهم من لا يدَّخر شيئاً؛ لحكم حاله.

فإنَّ التَّجريد يقتضي حقيقة الفقر، ومن كان له حقيقة الفقر؛ كان المولى موجوده؛ فهو يحبُّ ألَّا يدَّخر شيئاً مع موجوده، ولا يألف إلى مكان يقيم فيه، ولا صاحب غير الله يسكن إليه.

فإن غلب هذا الحال على صاحبه؛ حكم عليه بمثل هذه الأعمال تحقيقاً لمقام التَّجريد، المؤدِّي إلى مقام التَّفريد، الَّذي هو حقيقة الفقر ممَّا سوى الله، وبان الاستغناء بالله، ومفتاح ذلك كلِّه الإرادة الصَّحيحة لله ﷻ.

هذا إذا غلب الحال، وتصرَّف في صاحبه، فإن قوي صاحبه حتَّى تصرَّف فيه واستعمله في وجوهه، وادَّخر لله، وصحب لله، وأقام في المكان الَّذي يقيمه الله فيه، مع قيام حكم التَّجريد على باطنه؛ فهذا أتمُّ إن شاء الله تعالى، وأكمل.

واعلم أنَّه كما كان المشهد الرُّوحيّ على قسم من أقسام ذلك الطَّرف؛ فحال التَّجريد على ما تقرَّب به العبد في طريق المحبَّة إلى مولاه؛ فإنَّه ترك كلَّ شيء سواه، والتَّجريد عن غيره.

إذا أردت أن تعرف ذلك؛ فانظر إلى رجل يتقرَّب إلى الله ﷻ بلسانه، إلى رجل يتقرَّب إلى الله بنفي خواطره، إلى رجل يتقرَّب إلى مولاه بإرادته وطلبه، إلى رجل يتقرَّب [٢٠٠/ ب] إلى الله بالتَّجريد عمَّا سواه، والفقر من غيره.

وهذا إنَّما يكون سببه قوَّة طوالع الأنس، والتَّحقُّق بالوجدان والقرب، والكمال أن يتقرَّب بجميع ذلك في حال التَّجريد.

فقد عرفت بهذه القاعدة معالي الأمور من ذلك الطَّرف، ومن هذا الطَّرف، وبالله التَّوفيق وهو أعلم.

تتمة لهذه القاعدة

من فتح الله تعالى على قلبه بحال التَّجريد؛ ارتفعت همَّته عن الذَّات، وغالباً لا تؤثر فيه الأمور المعتنية؛ لصعوده عن مناسبتها وتجريده عن موادِّها الجالبة لها، إمَّا قبل حال التَّجريد في حال الإرادة ونحوها، وبما أثَّرت في الإنسان الصُّور ونحوها، وفي حال التَّجريد يرتفع عنها بتوفيق الله تعالى.

قال الشَّيخ عماد الدِّين: قال لي الشَّيخ نجم الدِّين - أعاد الله بركته - كلماتٍ جمعت البدايات والنِّهايات.

البداية والنَّهاية لم أفهمها، إلَّا بعد خمس عشرة سنة، وعرفت بها: أنَّه لم يترك لي من النُّصح شيئاً.

قال: فكرك فيما فات، وتدبيرك لما هو آتٍ، شغل عن الحال في الوقت، وهذا يقتضي كمال التَّقوى [في] الباطن، والمراقبة في الخواطر؛ حياءً من الله تعالى، الَّذي هو مبدأ طريق المقرَّبين.

وقال لي كلاماً معناه: كان الله ولا شيء معه؛ فينبغي للإنسان أن يغيب قلبه في هذا المعنى.

وهذا مفتاح المعرفة لله تعالى على طريق أهل الكلام، والعلم بوجوده؛ أمَّا على طريق أهل السُّنَّة؛ فمفتاح المعرفة العلم بالفوقيَّة؛ كما يليق بجلاله، لا كما يتوهَّم من صفات المخلوقين.

وقال لي - وقد ذكرت له أنَّ الإنسان يرد عليه واردات متنوِّعة - فقال: هذا تفرقة الإنسان، ينبغي أن يروح هذا الطَّلب الَّذي عنده، ويشهد شيئاً مليحاً.

وهذا الَّذي قاله إشارة إلى أنَّ الطَّلب حجاب عن المطلوب، فإنَّ الطَّالب

محجوب بحال طلبه عن موجوده.

ثم قال لي مرة: وترى شيئاً مليحاً إشارة إلى المشهد الروحي، الذي تقدَّم ذكره، وهذا غاية ما يُشار إليه.

وقال لي مرَّة - ورأى حيواناً يمشي - فقال: أنا أحسد هذا على تجريده.

وهذا يقتضي تنبيهه لي على التَّجريد عن السِّوى، فجمع لي ﷺ جميع ما يحتاج الطَّالب إليه من البدايات والنّهايات، من المراقبة والمعرفة والفناء والمحبَّة والتَّجريد، لكن لم أفهم إلَّا بعد هذه المدَّة، والله يُسمع من يشاء، وبالله المستعان، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

قاعدة في الفرق بين العابد والمشاهد [١/٢٠١]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قد يقع الغلط لبعض النَّاس في ذلك، وذلك أنَّ العابد لله ﷻ بذكر، أو صلاة، أو تلاوة، أو تفكُّر بلا شهود، يلحقه الملال والفتور، ويجد زيادته في وجود همَّته ونشاطه، ومتى فترت همَّته؛ ملَّ العبادة، وسئم.

وصاحب الشُّهود يعبد الله ﷻ بما تراه بصيرته من عظمته وجلاله، وكبريائه، واعتلائه، وجماله، وكماله الملازم لذاته، فيكون ذكر القلب والرُّوح هو ما بدا عليهما من ذلك، حتَّى يغيب المشاهد في عبادته لربِّه عمَّا يعرفه ويشاهده من نصيبه من معرفة صفات ربِّه، وتصير عبادته لربِّه ذكره له بما اتَّصف به من الصِّفات الَّتي يستحقُّها من العظمة، والجلال، والجمال، والكبرياء، والحمد، والثَّناء، والقدس، والسَّلامة، والفضل، والجود ممَّا استأثر الله بعلمه من صفاته عن جميع خلقه.

فيكون المشاهد أوَّلاً يعبد ربَّه بما يراه ببصيرته من معارف ربِّه، ثمَّ يترقَّى إلى عبادة ربِّه بما لا يطَّلع عليه غيره سبحانه من عظمة شأنه، وباهر جلاله، فيكون عجزه عن تعظيم ربِّه بما يعلمه، ورجوعه إلى التَّعظيم القائم بكمال جلال ذات الحقِّ ﷻ، هو غاية العلم منه بالله، كما جاء عن الصدِّيق، سبحان من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته، إلَّا بالعجز عن معرفته، فيكون هجيراً قلبه في صلاته، وتلاوته، وذكره، بحمل ما قام بذات الحقِّ ﷻ، من الكمال الملازم له في الآباد والآزال، ويكون ما عرفه مولاه من نفسه برزخاً بين المشاهد وبين ما لا يطَّلع عليه غير المتَّصف به.

فصل

وربَّما غاب ذكره عن شعوره وخفي؛ لأنَّه خفي لا يعلمه غير المتَّصف به، فيتولَّاه مولاه في النِّيابة عنه في ذكره، فيبقى ذكره لربِّه ذكر الحقِّ لنفسه بما يعلمه من ذاته المقدَّسة، من العظمة والجمال والكمال، في الآباد والآزال، بل في الفردانيَّة والوحدانيَّة قبل وجود الموجود الموصوف بالزَّوال، الَّذي يجري عليه الاضمحلال.

فصل

وهذا الذِّكر الخفيُّ الَّذي استأثر الله بعلمه عن عباده؛ يجد الواصل آثاره تتنزَّل على قلبه، ويرى أنواره بعين بصيرته، لكن معرفة مجملة، ونوراً مجملاً، يتولَّى الحقُّ تعالى تفصيله؛ إذ لا يقدر على تفصيله من الخلق غيره.

فإن قلت: بيِّن لي نصيب العارف من معرفة ربِّه الَّذي ذكرت انَّه برزخ بين العارف وبين ما لا يحيط به أحد غير الله تعالى، فإنَّه قد بيَّنت لك الَّذي استأثر الله ﷻ بعلمه عن عباده، فيكون [٢٠١/ ب] العارف يذكره ذكراً مجملاً؛ بذكر الله ﷻ لذلك؛ إذ لا يقدر أحد أن يذكر به ربَّه، ولا يقوم بمعرفته، إلَّا من اتَّصف به.

وقد عرفنا أنَّه يراه العارف - أيضاً - رؤية مجملة لا يقدر على تفصيلها، فما النَّصيب الَّذي يقوى العارف على تفصيله؟ وهو نصيبه من معرفته؟

فيقال: وهذا الَّذي يقوى على تفصيله، وهو نصيبه من ربِّه - أيضاً - لا يقوى على الإحاطة بتفصيله، **فمن ذلك**: ظهور فردانيَّته لعين بصيرته، الَّتي إذا انكشفت؛ أمحي ظلام الوجود، وصار كالخيال والظِّلال، قائماً بعبادة ذي

الجلال، فهل يقدر العارف على الإحاطة بهذا الظُّهور؟ لكن معه منه طرف بحسبه، وبقيَّة الأطراف لا يحيط به غير صاحبه ﷻ.

و من ذلك ظهور مراقبته لعباده الماحية لتكلُّف مراقبة نظره، ومنه ظهور إرادته الفاسخة لإرادة من غلب عليه شهودها، الماحية لتكلُّف ترك الإرادة والاختيار، ومنه ظهور الأمر والنَّهي المذهب لكلفة العبادة، الحامل للعابد على بذل المجهود، ومنه الجمال والكمال الَّذي اتَّصف به ذو الجلال في الآباد والآزال، الموجب لصفو المحبَّة، والتَّفريد في صفاء علم المحبَّة.

وهذا الظهور بلا صفات، هو ظهور في عالم البقاء، بمعنى أنَّ العبد بقي بها، وهو ظهور غير الظُّهور الَّذي كان قبل الفناء، الَّذي كان يظهر تارة، ويتوارى أخرى.

أمَّا في عالم البقاء؛ انجلت هذه المعارف للبصائر، وصار صاحبها كمن جلس في ضوء الشَّمس أو القمر، فهل يمكنه أن يغيب عنهما؟!

بل ربَّما غاب فيهما عن نفسه؛ لغلبة نورهما، فينسى نفسه ورؤيته برؤيتهما، فهل يملُّ مثل هذا عن رؤيتهما؟!

ولو ملَّ؛ لم يدعه شعاعهما عن الشُّعور بهما، والشُّعور بهما وذكرهما بما اتَّصفا به من الضِّياء والإشراق، هو غاية وصفهما بما اتَّصفا به في حقِّ من رآهما.

كذلك من أشرقت عليه شموس المعارف، هل يدعه ذلك الإشراق عن الغيبة؟ عنها ونظره إليها، وعلمه بها هو ذكر مولاه بها، بل هو شهود مولاه بما اتَّصف به، وذلك غاية عبادة العابدين، بل نفس من مثل هؤلاء قد يعادل أمثال الجبال من عبادات المحجوبين.

فمثل هؤلاء؛ أي ملال يلحقهم؟ ولو فرضنا أنَّه ملَّ من جلوسه في ضوئها؛ لم يجد في الكون ظلّاً يستره عنها، فيهرب من ضوئها إليه، فكيف إذا

ارتفع الملال، ووجد لذَّة إشراقها [٢٠٢/أ] بل وجد حياة قلبه وروحه مرتبطاً بذلك النُّور، لو حجب عنه لحظة؛ للحقه، كما يلحق الإنسان إذا حجب عن الهوى الَّذي به يقوم وجوده من الضِّيق والكرب، فذلك النُّور هو نسيم الأرواح به يكون روحها في عالم الغيب، كما أنَّ النَّسيم الظَّاهر به يتمُّ روح الوجود الظَّاهر عالم الشَّهادة.

فقد عرفت الفرق بين العابد والمشاهد، فالمشاهد كلَّما ملَّ أو حُجب فاض عليه أنوار الشُّهود، فابتهج بوجوده، فعاد إليه حاله، كمن يكون جالساً في الشَّمس كلَّما غاب عنه شعوره بالشَّمس حضر فوجد الشَّمس معه، كذلك من وجد شمس المعرفة، فوجد أنَّه لها هو غاية عبادة ربِّه؛ لأنَّه إقرار وعبادة بما تراه بصيرته من جلاله وعظمته.

وذلك أنهى العبادات وأرفعها، خصوصاً إذا انضمَّ إلى ذلك عبادة الجسم، من صلاة أو تلاوة أو ذكر؛ كان في غاية الكمال، بخلاف العابد الَّذي ينظر إلى الشَّمس من وراء حائط بعلم اليقين، فهو موقوف على دوام نظره، فهذا يلحقه الملال، فيحتاج أن يستريح؛ ليعود إلى فكره.

فعبادة هذا في صلاته وتلاوته: التَّفكر والإيمان، فإذا فتر وملَّ؛ لم يكن له ما يهجم عليه، ممَّا لا يقدر أن يدفعه عنه، ولا يستظلُّ بظلٍّ يستره، فتضطر رؤيته إلى الشُّعور به، فليس له مثل هذا الحال، فليحقه الضَّجر والملال والكلال، وربَّما فتر أسبوعاً أو شهراً، أو ربَّما سلب حاله فعاد إلى الغفلة، فإنَّ حاله الهمَّة لا غير، فمتى فترت الهمَّة؛ عاد إلى العادة.

والعارف خرق بهمَّته حجب الأكوان، وطلع عليه شموس المعرفة، فلم يبق له ليل يستره عن الصُّبح، ولا جدار يحجبه عن الشَّمس، فأين ما تقلَّب فحرارة الشَّمس تقرعه، فإن تأمَّل فضوءها يبهره، فإن غفل عنها فمتى فتح بصره وجدها، فعبادته دائمة، وروحه متَّصل، وهو مع ذلك يترقَّى من ذكر

الشَّمس بما يراه منها، إلى ما كمن فيها من الصِّفات الَّتي لا يحيط بها؛ ليكون ذكره أكمل من شهوده، ليذكر الأمر على ما هو عليه، لا على مجرَّد علمه.

و﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[1]، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

(١) سُورة الحديد: الآية ٤.

قاعدة في الفرق بين مشاهدة القيُّوميَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والتَّحقق بها، والفرق بين مشاهدة الجمع والتَّحقُّق به.

وهنا قد يلتبس المشاهد بالمقاعد، **أمَّا مشاهدة القيُّوميَّة**: فهو أن يشهد الكلُّ قائماً بالله ﷻ، بحركة الموجبات [٢٠٢/ب] القدريَّة، والآثار الإراديَّة، فهذا هو منشأ القيوميَّة.

وأمَّا مشاهدة الجمع: فهو أن يطلع صبح التَّوحيد من أفق ظلام الوجود، فينجاب قليلاً قليلاً، كما ينجاب اللَّيل من ضوء الفجر، ويشهد نفسك مع الوجود، كالخيال المضمحلِّ، ولا وجود حقيقة إلَّا وجود التَّوحيد، وسائر الوجودات غيره كالظِّلال والخيال.

ومن ادَّعى أنَّ الوجود في الجميع واحد؛ فقد كذب، وأعظم الفرية على الله ﷻ، حيث جعل الوجود واحداً في الحقِّ والخلق، فهذا هو مشاهدة الجمع.

أمَّا التَّحقُّق بالقيُّوميَّة: فهو أن يجد العبد نفسه مأخوذاً بيدي القدرة، والقدرة قابضة على ناصيته، متَّصلة بأصله اتِّصال الفرع بأصله، وهذا يصحُّ له أن يقال: اتَّصل بالله ﷻ، وهو الاتِّصال المعنويُّ لا الحسيُّ، فإنَّه سبحانه بائن من مخلوقاته فوق عرشه وسماواته.

وعلامة هذا الاتِّصال المعنوي: أن يتحدَّ الإرادة بالإرادة، وهو الاستقامة مع المشيئة.

مثاله: رجل أخذته جرية الماء، فهو منعطف؛ لانعطاف الجرية بلا مقاواة ولا مخالفة.

وربَّما يقول القائل: لا ينبغي للإنسان أن يسترسل مع القدر كيف ما جرى، فإنَّه يجري بالمعاصي والطَّاعات.

فيقال: من كشف الله عن بصيرته هذا المعنى؛ فإنَّه قد أحبَّه بذلك واصطنعه، فهو يجريه على وفق أقداره المحبوبين، لا لعموم الخلق، ومن علامة ذلك حفظهم في أمره ونهيه، وتعريفهم مرادة منهم.

وفي الجملة؛ فعلامة التَّحقُّق بالقيُّوميَّة الاتِّصال المذكور، واتِّحاد الإرادة، والحماية من الإصغاء إلى حديث النَّفس بالأصالة؛ لأنَّ التَّحقُّق بالقيُّوميَّة انفصال عن النَّفس، واتِّصال بالحقِّ، ودوام الإصغاء إلى قدره وأمره بلا إصغاء، فإنَّه يبقى الفاعل واحداً، والعبد منفعلاً، هذا غاية الأمر، وأمَّا في المبدأ فلا بدَّ من الإصغاء إليه قدراً وشرعاً، والإعراض عن مناغاة النَّفس قطعاً، وبالله التَّوفيق.

وأمَّا علامة التَّحقُّق بالجمع فهو سرٌّ دقيق، قد يلتبس بالاتِّحاد، وتذهب الوحدة، وليس الأمر كذلك، فإنَّ الرَّبَّ ﷻ ربٌّ، والعبد عبد بوجودين متغايرين قائم ومقوم به.

فعلامة التَّحقُّق بالجمع بعد التَّحقُّق بالقيُّوميَّة، فإنَّه في التَّحقُّق بالقيُّوميَّة اتَّصل الفرع بالأصل، وصار الأصل متصرِّفاً فيه، يقلِّبه كيف شاء على وفق أمره وشرعه، فهو متَّصل بهذا الوصف خاصَّة، وهو وصف القيُّوميَّة، ثمَّ يرقى من ذلك إلى أن يبقى اتِّصال الفرع بأصله غير مقيَّد بهذا الوصف، ثمَّ يتَّصل بالحقيقة الجامعة [٢٠٣/أ] لجميع النُّعوت، وهنا يتَّصل الفرع بالكلِّ، لا مجرَّد اتِّصاله بوصف مخصوص بالقيُّوميَّة، ثمَّ يتحقق بذلك؛ بحيث قد لا يرى غيره تحقُّقاً به، وتهيماً وغرقاً فيه، كأنَّه نفسه أوَّلاً، ثمَّ ليس إلَّا هو آخراً، وهذا يشبه الوحدة والاتِّحاد من بعض الوجوه، ومعاذ الله أن يكون ذلك.

هذا اتِّحاد وصفيٌّ نوعيٌّ، وأولئك يشيرون إلى الاتِّحاد العينيِّ الذَّاتيِّ، فإنَّ

أهل الحقِّ مع هذا الاتِّحاد الوصفيِّ النَّوعيِّ يعلمون بينونة الحقِّ من خلقه وعلوِّه عليهم على العرش، لكن سبب هذا الاتِّحاد الوصفيِّ النَّوعيِّ جاذب المحبَّة، فإنَّ المحبَّ بمحبَّته يقرب من حبيبه قرباً معنويّاً لا ذاتيّاً، ذاك إنَّما يكون في الآخرة.

ومعنى آخر من أسباب ذلك: قوَّة اليقين والغرق فيه، فإنَّ الموقن بالشَّيء على ما هو به وعليه من كمال الصِّفات وعظمتها تمحق هذه المعرفة ما سواه من الموجودات الَّتي هي كالدُّخان الَّذي لا حقيقة له.

وهذه المعرفة محلُّها سرَّ العارف؛ فيحصل القرب والاتِّحاد الوصفيُّ بذلك، مع اليقين بالوجودين المتباينين، الَّذي يستحيل حلول أحدهما في الآخر أو الاتِّحاد به شرعاً وعقلاً، لكنَّ موجبه المعنيان للَّذي تقدَّم ذكرهما.

ذكرت هذه القاعدة؛ ليفرِّق بين وجود أهل الحقِّ وحقائقهم، وبين وجود أهل الباطل والإفك، كوجود صاحب «الفصوص»(١) و«البدِّ»(٢) و«الفكوك»(٣)، قاتلهم الله أنَّى يؤفكون.

كان الأستاذ ﷺ ذكر مسألة وأنسيتها، حتَّى جرت على خاطر تذكرة من الله ﷻ، وهي:

في النَّاس من يكون غايته العبوديَّة، ومنهم من يترقَّى مع العبوديَّة إلى غير ذلك، وهذا هو الصَّواب، فإنَّ في النَّاس من يسلك حتَّى يعرف، فإذا عرف وعرف حقائق الصِّفات، محت الصِّفات مشيئاته، واتَّحدت إرادته بإرادة مولاه؛ فصارت واحدة، وهي إرادته.

---

(١) لابن عربي.
(٢) لابن سيرين.
(٣) صدر الدين القونوي.

ففي النَّاس من وقفت همَّته هنا، فصرف لوقوف همَّته إلى شغل من أشغال الظَّاهر مع شهوده تولي مولاه له في ذلك الشُّغل.

وفي النَّاس من لمَّا وصل إلى هذا الموطن؛ أسير على قصده الأوَّل؛ فقال: إيَّاك أريد، لا زوجة ولا مالاً، ولا سماطاً، ولا مشيخة، ولا أتباعاً، ولا ذكراً بين النَّاس، ولا شهرة، بل إيَّاك أريد وإرادتي لك من إرادتك؛ فهي واحدة ظهر أثرها فيَّ.

فهناك يرجى أن يقع في تربية الحقِّ فيتولَّى سيره إليه؛ كما تقتضيه رحمته وحكمته؛ فيطهِّر من أدناسِه، ويرقِّه إلى الخصوصيَّة ملكاً ملكاً؛ حتَّى يصلح لقربه ونجواه؛ كفاحاً.

بخلاف من انتهت همَّته عند وصوله إلى العبوديَّة، وزعمت نفسه أنَّه وصل، فماذا يعيقه عن الزَّاوية والاجتماع والتَّسليك؟ فهذا أبله القلب، لم ينتبه بعد إلى حقائق [٢٠٣/ب] الوصول فيستعين بالعبوديَّة على الظُّهور في عالم الكون.

واللَّبيب المراد استعمل العبوديَّة على القبول للحضرة، والوقوع في تربية الحقِّ حيث انتهت تربيته لنفسه، وتربية العلم له، وبقيت تربية اللَّطيف الحكيم لعباده الَّذين أراده ابتداءً وانتهاءً، ورفضوا ما سوى قربه من الفضائل، وإن عرت أخطارها في الدُّنيا والآخرة، والحمد لله وحده وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

قاعدة في الوصال واللِّقاء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَهي بغيَة المحبِّين وروح المشتاقينَ، أمَّا بعد حمد الله تعالى، وصلواته على سيدنا محمَّد وآله أجمعين.

من أراد السَّعادة الكبرى، والفناء التَّام في الدُّنيا والآخرة، وهو الفناء الَّذي لا يقدح فيه الضَّرورات الظَّاهرة، والكنز الغيبيُّ الَّذي لا ينقصه العدم من الأعراض في الدُّنيا ولا الآخرة؛ إن شاء الله تعالى.

فعليه بلقاء رسول الله ﷺ وصحبته، والاحتظاء من أنواره الباطنة الملازمة لِسُنته، وظواهر شريعته؛ تنقدح تلك الأنوار بين مقاديح المكابدة في الاتِّباع للآثار بالأركان، والهموم في العلانية والإسرار، ولا يتصور لقاءه ﷺ، وزيارته ومشاهدته بالحسِّ الظَّاهر؛ فإنَّه انتقل من عالم الشَّهادة إلى عالم الغيب، ولا يمكن صحبته، ومشاهدته إلَّا غيباً في غيب، وسرَّاً في سر.

ومتى عرف العبد سيرته وأيَّامه، وسنته وأعلامه، وخوارقه ومعجزاته، وآياته وكراماته، وعرف النِّسبة بينه وبين الأنبياء من قبله، فقد عرفه ووصل إليه بقلبه، وشاهده في الغيب، فعليه حينئذ أن يحبَّه.

وعلامة محبته الاهتمام بمعرفة سنته؛ بعد العلم بسيرته، ثُمَّ التَّلبس بها مشاهداً لأنوار بهجته، كأنَّه معه في زمانه، لايفارقه في سره وإعلانه، فناهيك بها من صحبةٍ ما أتمَّها، ومجالسةٍ ما أنورها وأبهجها.

كما قيل:

إن كنت في الغيب عن عينيَّ محتجباً　　　فالقلب يرعاك في الإبعاد والتَّاني

فمن حصل له هذه الحالة يوماً من الدَّهر، فقد وصل إلى الرَّسول ﷺ

وصحبه، فكيف يطيب له مفارقته، وترك محاضرته، والاحتظاء من أنواره ومنادمته، فإن اقتصرت همته على ذلك فنعمة كاملة شاملة، وعافية في الدِّين، مع مشيئة الله ملازمة.

والمرء مع من أحب، وناهيك من يصير خير الخلائق مؤنسه في باطنه، وسميره وصاحبه [٢٠٤/أ] ورفيقه يراه بعين قلبه، ويتبعه بقالبه وسره، فنعم الصَّاحب حينئذ ونعم المصحوب.

لقد جلا الله ﷺ قلب هذا المهموم والمكروب، وإن ارتفعت همَّته في هذه الدَّار إلى لقاء الله تعالى - أيضاً - والفوز بقربه، ومشاهدته، والاحتظاء من أنواره، وخالص محبَّته، وبالرُّجوع إليه في أحواله وعوارضه، فتلك همة عالية استعدادها بذل النَّفس، واستفراغ الهموم في طلب الملك القدوس.

أوَّل ذلك استخراج نص من العارف من سنة نبيه ﷺ، ثمَّ تتحرض البصيرة للتَّعرف لربه؟ منها، ودوام التَّوجه بتخلية الباطن، وطهارة الظَّاهر، والشَّوق الدَّائم، والقلب الهائم.

عساه يحظى بوميض بارق فيذوق بها بوادي الحقائق، فمن ذاق برقاً من تلك البُروق نفساً أو نفسين، فإنَّه يودع قلبه حرقة لا صبر معها، وهيماناً لا سلو بعدها، وإن ظهر على صاحبها السُّكون، وتعاطي الطَّعام والشَّراب، والدِّعة والرُّكون، فإنَّه لا يعلم ما في الأسرار إلَّا الملك الجبَّار بذلك:

بروقٌ في دجى اللَّيل لامع ... فحرَّك وجداً والدُّموع هوامع

فإن حظيت أيُّها الأخ بحقيقة تلك البرقة، وصار لقلبك هنالك وقفة، واستمر عليك حكمها صباحاً ومساءً؛ طوباك ثمَّ طوباك؛ لقيت نبيك وحظيت بصحبته، ووجدت ربَّك وعبدتَّه بعبوديته.

فمن أشرف حالاً ممن رزق صحبة الأنبياء؛ في موقف شريف بين يدي الله من مواقف الأولياء.

أضحى موجودك أفضل موجود، وشهودك أكمل الشُّهود، وطوباك إن خُتِمَ لك، وخرجت من هذه الدَّار، وأنت لنبيك معانقاً، ولجلال ربك مشاهداً، وامقاً.

لقد صحبت في هذه الدَّار خير مصحوب، وخرجت إلى من عبدته بمحبَّة جاذبة للقلوب، فلقيتهم وأنت لهم محبَّاً، وعلى طاعتهم واتِّباعهم مكبَّاً، فيرجى لمثلك أن يلاقوك، بمثل محبتك أضعافاً مضاعفة، لأنَّ الحسنات تتضاعف هناك على مقادير أقدارها، كما أخبر سبحانه قال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[١]، وقـــال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١﴾[٢]، هذا فيمن أنفق ماله، فكيف فيمن أنفق همَّه وهواه وسعاياته، ومناه طاعة فيما يحبُّه ربُّه ويرضاه، إنَّ أجر مثل هذا لا يوصف، وحقيقة ثوابه لا يعرف، فلمثل هذا فليعمل العاملون، وعلى ذلك فليتنافس المتنافسون، وبالله المستعان وعليه[٢٠٤/ب] التُّكلان.

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

---

(١) سُورة الأنعام: الآية ١٦٠

(٢) سُورة البقرة: الآية ٢٦١.

قاعدة في ميزان الاستقامة لأهل القرب والكرامة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي تقرُّ عيون المشتاقين بلقائه، ويحظى بكرامته من قام بحقه متقناً لأدائه، ويفوز بمعرفته من رزق الاهتمام بذوق حقائق صفاته، وأسمائه، ورَقي إلى مقاعد الصِّدق من استعدَّ بعبوديته ناجياً من شقائه، له الحمد في الأولى والآخرة، ومنه المبدئ، وإليه الرُّجعى.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً ﷺ عبده ورسوله، نبي الرَّحمة الهادي إلى الحظوة بدار السَّلام؛ لمن قسم الله له منها موطناً ومعنى، صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة بالليل إذا يغشى، والنَّهار إذا تجلى، وما خلق الذَّكر والأنثى.

وبعد: فإنَّ العبد يهتم برهة من الزَّمان في طلب العلوم والمعارف، مكبَّاً على طلبها مخاطراً بنفسه وعقله بالمشاق والمتالف، فلا يبرح حتَّى يرتشف من العلوم صفوها، ومن المعارف ذوقها، ورقمها، فيكسى قلبه أنوار علمية، ويصبغ قلبه بآثار علومه، يكون ذلك لقلبه وطناً، ويشاهده ببصيرته سراً، كما يقوم شواهده من النُّصوص علناً.

وذلك لا يتم إلَّا مع التَّلبس بأحكام العلوم، من المحاسبات والرِّعايات للخواطر والهموم، والقيام بمراضي الرَّب تعالى ظاهراً وباطناً، والتَّطهر من الرَّذائل الظَّاهرة، وما كان منها كامناً، فعند ذلك يشد مئزره؛ لتكملة سلوكه بأمر يتم به جميع ذلك، وفيه تظهر حقائق علومه وعقائده ومعارفه، وأعمال جوارحه، وهو الغاية التَّي إليها المنتهى، وهي العاقبة التَّي تكون ختاماً لأهل النُّهي.

وفيهم من يستصحب هذا الحكم من بدايته إلى غايته، وذلك لمن كمل في عقله ودرايته، وفيهم من لا يتَّسع فهمه للجمع بين الفضائل، ولا ينتبه لذلك في الأواخر والأوائل.

وجملة هذا الأمر المشار إليه لزومه حالة يحب لقاء الله تعالى عليها، واستعمال هذه الحالة في جميع شؤونه، مصاحباً لها في تصاريفه وفنونه.

إعلم: أيَّدك الله أنَّ التَّائب، والعالم والعامل، والذَّائق والعارف والمحبَّ، ومن التبسه حال الفناء، وحال البقاء، ومن بدت عليه بوادي التَّوحيد، فغيبَّت شعوره في حقائق المواجيد من طلائع الأسماء والصِّفات، وحقائق الفردانية المشيرة إلى عظمة [٢٠٥/أ] الذَّات.

كلٌّ هؤلاء قد لا يخلو أحدهم عند صحوه، ورجوعه أحياناً إلى طبعه؛ من رعونات نفسانية، كلٌّ بحسبه.

فأهل البدايات رعوناتهم حظوظيَّة، والمتوطنون رعوناتهم اختيارات أمانيَّة، والكمَّل رعوناتهم بهتيَّة، لتحققهم بحقائق التَّقريب من لطائف رب البريَّة.

وهذه الحالة إذا لزمها المبتدئ أفنت بعون الله ومشيئته حظوظه المذمومة، ولذلك يفنى من المتوسط إراداته، ورعوناته المكتومة، ويصفى من أهل النِّهايات بقايا عندهم من سكر المقامات معلومة.

والسِّر في ذلك هو أنَّ من لزم الحال الَّذي يحب لقاء الله عليه، مستعيناً بالله في سائر تصاريفه وشؤونه، فإن صاحب هذه الحالة منتظر تصفحات وجه ملك الموت للخروج إلى الدَّار الآخرة، فمثله كمثل من هو في دار وهو متشرِّف في طاقة منها إلى دار أخرى يريد لقاء ربِّها، بأحبِّ الأعمال، وأخصِّ الأحوال، فلا يرضى أن يلقاه على أدنى كدر وإن قلَّ، ولا على لوث ما وإن هان أو جلَّ، فتصفو بذلك مع مشيئة الله ومعونته كدره، ويذوب بقاياه،

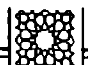
وتنمحي أثره، وتصفو الرُّوح في مشاهدها، وتزكوا النُّفوس في عملها ومطالبها.

وهذه القاعدة ميزان يعرف به العبد كل وقت انحرافه، ويزن به كلّ وقت عدله وإسرافه.

أوَّل ذلك: أن يعلم الحال الذي يحب لقاء الله عليه من الأعمال والأحوال والمساعي الظاهرة والباطنة، في الحركة والانتقال، ثم يستعمل ذلك يوماً من الدهر، صابراً عليه في السر والجهر.

ثمَّ يتصرف بعد ذلك في شؤونه، فيعرف انحرافه عن الدَّائرة المستقيمة في أعماله وظنونه، وهذا ميزان الصَّادقين أهل اليقين من المتقين، فليستعين بربه تعالى في استعماله لهذا الميزان في الخلوة والجلوة، فإن موازينه بمشيئة الله شهية حلوة.

وفقه الله تعالى للقيام بمرضاته، وقام له بالحماية والرِّعاية، وكان مؤيده وكافيه، آمين يا رب العالمين، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.



قاعدة في استجلاب الوداد في معاملة رب العباد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الَّذي يقبل التَّوبة عن عباده، وهو الغفور الودود الرَّحيم، الَّذي هو بالرَّحمانية مشهود، وعلى سائر الألسنة بوصف نعمائه وآلائه محمود، وبالشَّرائع المنزلة المحروسة من الشَّبه معبود، المنزه بصفاته وأسمائه عن الأمثال والحدود.

موفق أهل طاعته لإصابة [٢٠٥/ب] الحقِّ والصَّواب؛ ليأمنوا من حال المردود، ويصفو لهم الوداد في عبوديتهم، وخالص محبَّتهم، فيستحقوا قربه في ظلٍّ مَّمدود.

وأشهد أنَّ لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، شهادة خالصة من شبه الجحود، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله، الَّذي خصَّه بالشَّفاعة يوم العرض، وشرَّفه باللِّواء المعقود، صلى الله عليه وعلى آله صلاة تزيد على القدر المعدود.

وبعد: فاعلم أنَّ الله تعالى إذا جذب عبده إليه، وفتح له طريق القرب منه لديه، وسقاه من المحبَّة أعظم كؤوسها، وكشف له من الغيوب أشرف مستورها، أقامه بين يديه بصفا العبوديَّة؛ ليطهر وجوده من أدران البشريَّة، ويحققه بوداده في مشاهدة الفردانيَّة، وحقائق المحبَّة والمحبوبيَّة.

ومن علامات ذلك: أن ينطوي على إرادة إصابة الحقِّ، والصَّواب في مساعيه الظَّاهرة والباطنة، وهذا حدث جامع إن شاء الله تعالى؛ لمجموع ما يوجبه حال الوداد، ويستمر به صفاء المشارب؛ لمن خاف الإبعاد، وتمثل على إرادة الحقِّ، والصَّواب.

أمثلة يتبين منها شرح حال طالب الوداد مع رب العباد:

أوَّلها: الواجبات: فإن لم يزدحم وكانت صلاة، فليكن الوقت مستغرقاً بمعانيها، وللقلب في معاني الصَّلاة وشؤونها شغل عن غيره، وإن ازدحمت، فليقدم أهمها على ما يغلب عنده، ويقطع عن قلبه خواطر غيرها؛ ليكمل له إصابة الحق، والصَّواب في القيام بها، والتَّلبس بها ظاهراً وباطناً.

فإنَّ من كان في واجب، وباطنه ممتلئ من واجب آخر، لا يقوى على إقامة الحقِّ والصَّواب في الواجب الَّذي هو متلبس به، هذا إذا أمكنه ذلك، وإن لم يمكنه؛ مثل أن يكون في حربٍ وجهادٍ يملأ القلب، ودخل وقت صلاة، فإنَّه يصلِّي صلاة الخوف، ويجب عليه مزج حال الصَّلاة بحال الجهاد، فإنَّه مطلوب بكلِّ واحدٍ منهما لا يقنع منه الالتفات إلى أحدهما بقلبه دون الآخر.

فمثل هذا يمكن في شأنه استغراق القلب بأحدهما دون الآخر، بل ربما غلب حال الجهاد، وقهر القلب عن تفهم حقائق معاني الصَّلاة وشؤونها الباطنة؛ فقد يعذر في ذلك، ولا يقوى على ذلك إلَّا الكُمَّل الأقوياء، أهل الصَّحوة والتَّمكين، وقد يضعفون عن ذلك فيستعينون بمولاهم، ويستعيذونه، فينصرهم.

وكذلك كلّ حال مشغل عن حقائق الصَّلاة، إذا كان العبد مطلوباً به في وقته، بحيث بفوات وقته فقد يعذر المصلي إذا غاب قلبه عن حقائق الصَّلاة بما هو مطالب به في ذلك الحكم، [٢٠٦/أ] ومضايق به لفوات وقته.

فهذه قاعدة يعلم منها بطرق الذَّات، والغرض إصابة الحقِّ والصَّواب إن شاء الله تعالى.

ويجب على طالب صفاء الودِّ مع رب العباد، أن يقصد إصابة الحقّ والصَّواب، في الحبِّ والبغض، على مقدارٍ لا يتجاوز إلى الانحراف، فيخشى

بذلك أن يسقط عن الوداد، ويخرج إلى دائرة الإبعاد.

وكذلك في معاشرة الإخوان في الله تعالى، يوفِّيهم حقوقهم، ويعطيهم نصيباً تامّاً من محبَّته، وصفاء وداده، وصدق ألفته بميل القلب، وظهور وصف المحبَّة والرَّحمة والإكرام والإعزاز على ما فيهم من قلة الاستعداد، وغلظ الطِّباع، وبعد الإفهام، رحمةً لهم، وتعطُّفاً عليهم؛ فلا يملهم فيبعدهم عنه، لملالته وتبرُّمه لثقل طباعهم، فإنَّ لهم حقاً عليه، ولإرادتهم للحقِّ حرمة، يجب محبَّتهم لأجلها، فينبغي أن يوزن فيصاب فيه الحق والصَّواب، ولا يخرج إلى الإفراط من امتلاء القلب بمحبَّتهم، وأنسه بمعاشرتهم، وسكون محبَّتهم في محل يسكن فيه النَّصيب الخالي، فذلك انحراف في الصُّحبة، وظلم يخرج به من إصابة الحق والصَّواب.

ومن: الانحراف أن يتغافل عن تأدبهم إذا زلّوا، ويسامحهم في شيء يحب تعريفهم به، أو يسكت عن نصيحة ينتفعون بها، أو يرى في أحدهم طبيعة سوء، يعلم أنَّها تزول بانتهاره والغلظة عليه، فالسُّكوت عن مثل ذلك تضييع لحقهم، بل يحبُّهم ويألف إجماعهم، ويؤلفهم، ولا يسكت عن نصيحةٍ ينتفعون بها، وفائدةٍ يستفيدون بها - وإن شقَّ عليهم ذلك - ولا يشغل قلبه بمجيئهم وذهابهم، بل يشتغل بحاله عنهم لئلَّا يحجبونه عن قصده، فإذا جمعهم الله قام لهم بما يجب لهم من حقهم ومحبَّتهم، ونصيحتهم على الوجه المذكور.

ومن وجوه إصابة الحق والصواب في الأشياء: أن يقصد رضا مولاه في سائر مساعيه، فإذا وجبت خصومة في الله، أو مخالفة لمن تعدَّى حدود الله، أو إنكار منكر حرَّمه الله، فلا يشتغل حينئذ بمراعاة جمعيته، وشؤون قلبه، بل يستعين بالله، ويقيم من الحق ما أمكنه، ولا يضعف فيه، فإنَّه حق الله وجب فيجب مراعاته، فيكون معناً للحقِّ، والصَّواب.

ومن: وجوهه إذا نابت الإسلام نائبة من عدوٍ ظهر، أو دجالٍ ظهر، فَتَنَ النَّاس ببدعته، أو أصابت المسلمين جائحة في أموالهم أو أبدانهم، فمن إصابة الحق في ذلك أن يكون مهتمّاً [٢٠٦/ب] بذلك ملتجأً إلى الله تعالى، ويجعل ذلك من أهمِّ مطالبه، وحوائجه إلى ربه، ولا يكن كمن يقول من المتصوفة والمتفقرة: الفقير ينبغي أن يشتغل بقلبه، وبحاله، فيخشى على من أهمل ذلك السُّقوط من حال الوداد مع ربِّ العباد، إلى دائرة النَّقص، والقلب، والإبعاد.

فصل

وجملة ما يعتمده طالب الوداد، لربِّ العباد أن يعامل مولاه قاصداً إصابة الحقِّ والصَّواب، فيما أمره به، وفيما نهاه عنه، مقدِّماً في جميع ذلك الأولى فالأولى، فيكون دائراً مع رضا مولاه، لا مع قلبه وجمعيَّته.

واعلم: أنَّ الجمعيَّة جمعيَّتان جمعيَّة منحرفة، وجمعيَّة صحيحة.

فالجمعيَّة المنحرفة: أن يجتمع قلبه على عبادة يحبَّها، أو على شخصٍ يحبُّه، أو على صحبة شيخ، فمتى خرج عن ذلك العمل، أو الشَّخص، أو الشَّيخ تفرَّقت همَّته، وتشوَّش وقته، وربَّما تتغيَّر محبَّته بحسب اختلاف مزاجه وطبيعته، فإنَّه مع قلبه، وهواه، فمتى خرج عن ذلك اضطرب، ومتى سمع من أُستاذه ما يكرهه من الحقِّ المحض خرج عن محبَّته، وتغير قلبه فيه؛ لأنَّه مع هواه، فما وافقه الجمع قلبه فيه، وما خالفه أبغضه، وخرج عنه.

وصاحب الجمعية الصَّحيحة: جمعيته مع الله فيما يحبُّه ويرضاه، فما رضي الله به شرعاً كان ذلك هو الأمر الَّذي يطيب وقته به ساء، أو سرَّ، بل قد يصيبه من ذلك ما يسوء، وهو متلذذ القلب برضا مولاه، فهو يجتمع في موضع

التَّفرقة، طلباً لرضا مولاه، ويتفرق في مواطن الجمعيَّة إذا فيجيئه من أمر الله ما يوجب ذلك طلباً لرضا مولاه، وهذا هو الاستعداد التَّام إن شاء الله لرضا مولاه ومودَّته ومحبَّته له.

فصل

ومن أقسام ذلك: أن يكون في كلِّ عبادة كما يرضى منه ربُّه أن يكون فيها، إذا ذكر الله فلا يفكر بقلبه في غيره، وإذا تلا القرآن فليقطع الخواطر؛ إلَّا ما كان متعلقاً بأمر التِّلاوة، والفهم عن الله تعالى فيها.

وكذلك إذا كان في المراقبة، فلا يمر بقلبه إلَّا ما يناسب الوقت، وليقطع ما جاء ممَّا لا يليق بالوقت، وإن كان خيراً، فإنَّ ذلك من حسن الأدب مع الله، كمن يتفكَّر في مسائل دق النَّحو في المراقبة، أو في الصَّلاة، فإنَّ ذلك خيرٌ، لكنه لا يليق لهذا الموطن.

وهذا السَّالك إنَّما يعمل على إتقان المعاملة فيما بينه وبين مولاه، وهي مرتبة فوق تصحيحها بشروطها وأركانها، وذلك بمثابة التَّجويد لمن يعلمه الكتابة، وذلك يستجلب الوداد فيما بينه وبين مولاه لموافقته العدل، [أ/ ٢٠٧] والحقِّ والصَّواب.

وهذا شغل من اعتنى بمولاه أشدَّ الاعتناء، واهتمَّ بوداده، ومحبته له أشدَّ الاهتمام، يعمل على إتقان المعاملة وإصابة الحق، والصَّواب فيها.

فصل

والتَّحقيق أنَّ هذا لا ينكشف إلَّا لمن عرف دين الله، وعامل الله به، وتعودَّت الجوارح إدّمان المعاملة على الصِّحة، ثُمَ اتَّصلت شؤون قلبه، وحباله

بمولاه، وذاق شيئاً من طعم وداده.

فهو في ذلك الاتصال والنُّور يعلم ما يقدح فيه من الأمور الَّتي تحرف صاحبها عن إصابة الحقِّ والصَّواب في المعاملات، وما يقدح في استجلاب وداده من ربِّ العباد، ومن رغب في الوداد، وصفاء المحبَّة من رب العباد، فليعمل على إتقان هذه الأشياء، وليضع كلَّ أمر لله وعبودية له، الموضع الَّذي يليق بها على الأمر الذي يطلب منه أن يضعها فيه حسب إمكانه، وإن أشكل عليه شيء من ذلك في معرفة وضعه في مواضعه؛ فليسأل عنه.

وأرجو أن يكون في هذه القواعد كفاية للمتحفِّظ اللَّبيب إن شاء الله تعالى الكريم، أن يرزقنا صحَّة المعاملة، وصفة الوداد لننال به رضاه عنَّا، ومحبَّته لنا في هذه الدَّار يوم يقوم الأشهاد.

آخر ما تيسَّر والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

قاعدة في ذكر الكرامات المعجَّلة للمنقطعين إلى الله عزَّ وجلَّ في الدنيا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إذا خلا القلب من الاهتمام بالدُّنيا، والتَّعلق بما فيها من مال، أو جاهٍ، أو صور، أو حظ على الإطلاق، وتعلُّق القلب بالآخرة، والاهتمام لها من تحصيل العدَّة، والأهبة للقدوم على الله ﷻ، فذلك أوَّل الفتوح والمواهب.

وإلَّا فكم ممن أفنى عمره، وبلغ إلى السِّتين والسَّبعين وهو معلَّق القلب بالدُّنيا ومتعلّقاتها بها يبيت مهموماً في تحصيلها، ويصبح كذلك.

فإذا فرَّغ الله ﷻ القلب منها، ومال به إلى الآخرة، فذلك مبادي فتوحات أهل القرب، فعند ذلك لا يستكن قلبه إلَّا بتحصيل علوم الأمر والنَّهي، فيعلم بما يجب لله ﷻ عليه من صباحه إلى مسائه، في كلِّ حادثة ونازلة؛ من أحكام الوضوء وفرائضه، وأحكام الغسل وفرائضه، والصَّلاة وآدابها، وعلم ما يفسد العبادات، وما لا تكمل العبادات إلَّا به، وإنَّما يعرف ذلك من كتب الفقه والحديث.

فذلك برهان صحَّة الإرادة، لأنَّ من أيقن بلقاء الله ﷻ، وعلم أنَّ الله يسائله عن فرائضه كيف أداها، [ب/٢٠٧] اهتم لمعرفة تصحيحها، وإيقاع أحكامها على الوجه الَّذي أمر الله ﷻ به، فكل من لا يقرأ ربع العبادات، ويعرف جملة من تفاصيلها، فلا يطمع في فلاحه؛ لأنَّه مقصر في أمر الله ﷻ في أوَّل ابتدائه، فماذا ينتج منه في انتهائه، ويكفيه أن يكتب ربع العبادات، ويقرأه على شيخ مرة واحدة، ويطالع منه كل يومٍ باباً، ويسأل ما أشكل عليه منه، ومتى حصل ذلك منه وقام به، كمل فرضه، وتوجه صلاحه من مطالبة الله ﷻ، فعند

ذلك يأنس العبد بالخلوة، والوحدة، ويألف الأماكن الخالية الَّتي تهدأ فيها الأصوات والحركات، كالبيوت المظلمة والمغارات البعيدة عن الناس، فيحب الصَّلاة، فإنَّها تسد أبواب الحواس، وتجمع قواها في القلب، فيأنس بها مدة من الزَّمان، ويبقى أجنبياً من الخلق، مستوحشاً منهم ومن نظرهم، ولا يخالطهم إلَّا في جمعة أو جماعة أو ميعادٍ، ثمَّ يفتح له حلاوة العبادة، ويجد الحلاوة في الصَّلاة، والرُّكوع، والسُّجود، يحبُّ أن يبقى يَومَهُ أجمع لايشغله عن العبادة شاغلٌ، ثمَّ يفتح له بحلاوة استماع كلام الله ﷻ، وترديده على الأسماع والقلوب، وحلاوة الذِّكر، فيرزق في التِّلاوةِ بوارق الشُّعور بالمتكلم سبحانه، ويرزق في الذِّكر الفناء، والاستغراق فيه، حتَّى يغيب فيه، ويدخل بقلبه في عالم الغيب، ثمَّ يفتح له بعد ذلك إن شاء الله ﷻ بالحياء من الله ﷻ، وذلك أول شواهد المعرفة، وهو نور يقع في القلب، يريه النور أنه بين يدي الله ﷻ؛ فيستحي منه في الخلوات والجلوات، وفي أوقات دخول الخلاء وغيره، ويرزق عند ذلك دوام المراقبة للرَّقيب، ودوام التَّطلُّع إلى حضرة الحبيب العليِّ الأعلى فوق العرش، وعلمه، ونظره، وسمعه في كلِّ مكانٍ يحيط بالأشياء، فيستولي على العبد شاهد الحياء والمراقبة، حتَّى يغطى عليه كثير من الهموم، فيبقى كأنَّه في عالم آخر، والنَّاس في عالم آخر.

نعم هو في عالم آخر بين يديِّ الله ﷻ، والنَّاس في حجاب عالم الشَّهادة في الدُّنيا، فهو يراهم ولا يرونه، ولا يرون مكانه، كما قيل[(١)]:

فلو تُسأل الأيام ما أسمي ما دَرَتْ ... وأين مكاني ما عرفْنَ مكاني

وعند ذلك تقوى محبَّة التِّلاوة؛ لأنَّه مادةٌ مشهودةٌ يشهد المتكلم به في أطوار الكلام وأثنائه، فيستحي منه ومن اطلاعه، وتارةً بجمعه الذِّكر، فيفنى

---

(١) انظر طريق الهجرتين (ص ٣٤٧).

ويستغرق، ثمَّ يفتح له الشُّعور بأفعال الله ﷻ، فيرى سائر التَّقلُّبات الكونيَّة وتصاريفها بيده.

يراه مالك [أ/ ٢٠٨] النَّفع والضَّرِّ، فيتوكَّل عليه ويتخذه وكيلاً، ويقلُّ تألُّمه من الحوادث المؤلمة، فإنَّه يراها صادرة منه لا من غيره، فيعفو عمَّن ظلمه، مشاهداً للحكم القدريِّ، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، مشاهداً للحكم الشَّرعيِّ، وعند ذلك إذا وقع نظره على شيءٍ من المخلوقات دلَّه على خالقه وباريه، فلا يحجبه خلق عن ربِّه ﷻ.

فإذا استمرَّ الأمر به على ذلك، ودام طلبه لربِّه، فتح له باب القبض والبسط، يقبض عليه حتَّى يجد الألم في قلبه؛ لقوة حال القبض، ثمَّ يقبض دعاؤه بالأنوار، أنوار الوجود، فيفنى عن وجوده، وينمحي كما تمحو الشَّمس نور القمر، ويطوي الكون عن قلبه كما تطوى السَّماوات يوم القيامة، ولا يبقى إلَّا الله الواحد القهار، وتنبع الأنوار من وسط قلبه؛ كفيضان شعاع الشَّمس من جرم الشَّمس، فيغرق العبد في الأنوار كما يغرق راكب البحر في البحر، وذلك إنَّما يكون بعد الرِّياضة والمجاهدة وزوال الطَّبيعة العناصر الأربعة من العبد، وطول الوقوف بالباب.

وهذا الغرق من حقِّ اليقين، وما وجده من المراقبة والحياء هو من عين اليقين، فإن هو استمر على حاله واقفاً بباب مولاه، لا يعرِّج عنه يميناً ولا شمالاً، ولا يلتفت إلى زوجة ولا مالٍ، ويعلم أنَّ الأمر وراء ذلك، وأنَّه لم يصل بعد.

ومتى توَّهم أنَّه وصل انقطع، وانقطع عنه المزيد، فيرجى أن يفتح له بالغرق في أنوار الجلال بعد ظهور أنوار الوجود ومحو وجوده، فيبقى كأنَّه في بحرٍ من أنوار الجلال، فتنبع الأنوار من باطنه كنبع النُّور من القمر، أو الماء من العين المعينة، فيبقى لذلك ما شاء الله أن يبقى، ويجد الملكوت الأعلى

جميعه كأنَّه في باطنه، وقلبه عال عليه كله، ثمَّ يرقيه الله ﷻ، فيغرق في أنوار الإكرام، فيبقى في بحر من أشعة الجمال، يفيض ذلك من قلبه على الوجه الَّذي تقدَّم ذكره.

وفي هذا المقام من تجلِّي الجمال الأحدي على الأرواح يرزق العبد المحبة الخاصَّة الملهية للأرواح والقلوب، فيبقى العبد مأسوراً مأخوذ القلب، مفتوناً بالحبيب، ولا يعرف ذلك من لم يفتتن بصورة حسنة تنجذب إليها قواه، فما ظنُّك بمن أشرب طوالع المحبوب قواه.

وفي هذا المقام يكون العشق، وهو شدَّة الغرام، والمحبَّة بدايات العشق، وأنكر قوم لفظ العشق، وأثبته آخرون، والمراد منه نار تتضرَّم في الأحشاء يقلُّ معها الإصطبار، وذلك من أعلى المواهب وأسناها، أن يصير القلب مفتوناً مأسوراً [ب/ ٢٠٨] مأخوذاً لما باداه من أشعة أنوار الجمال الأحدي إذا كان النَّاس مفتونين بما يفنى من المال والجاه والصُّور.

وأعلاهم من يكون مفتوناً بالحور العين، أو عاملاً على الدَّرجات العالية في الجنان، فهذا رجلٌ قد ترقى في درجة المحبَّة على أهل المقامات بأسرهم، ينظرون إليه في الجنة كما ينظر إلى الكوكب الدُّري الغابر في الأفق؛ لعلوِّ درجته، و قرب منزلته من الله ﷻ.

ولكلِّ عملٍ جزاء، وجزاء المحبَّة والوصال، والاصطناع، والقرب، والاتِّخاذ - بالخاء المعجمة والذَّال المعجمة بواحدة من فوق -، ونعوذ بالله من القول بالاتِّحاد، فهو بالمحبَّة يُقال فيه: يصلح لهم، وكفى بقولك: يصلح لهم شرفاً وفخراً، هذا من كراماتهم الَّتي نالوها في عاجل الدُّنيا، فما ظنك بمقاماتهم العالية عند مولاهم، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

---

(١) سُورة الحديد: الآية ٢١.

والعبد في ذلك كله تارك الاختيار عند الله ﷻ، لا يتقدَّم بين يديه بتدبير، ولا إرادة ولا مشيئة، تقلبه يد القدرة، ويدعوه لسان الأزل، فإن هو صبر على ذلك، يرقيه الله ﷻ ملكاً ملكاً، يغرقه في ملك ملك، ثمَّ ينجيه منه، ويوقعه في غيره، كما غرقه في بحر الوجود، ثمَّ نجاه منه، وأوقعه في بحر الجلال، ثمَّ في بحر الجمال، فكذلك يرقيه ملكاً ملكاً، على قدر ما قسم له، إلى أن يوصله إليه، ويمكِّن له بين يديه، ويصير نجواه كفاحاً، أو يموت في الطَّريق فيكون أجره على الله.

والموفَّق من لم يلتفت عن ربه ﷻ يميناً ولا شمالاً، ووفَّقه لقهر هواه، وملك نفسه وضبطها عن الشَّر، فذلك من أوَّل الفتح - أيضاً -، إن يطهر العبد بنفسه وهواه.

وجميع ما ذكرناه من مراتب الوصول، إنَّما هو شواهدٌ وأمثلة، إذا تجلَّت له الحقائق في الغيب من حيث لا يراها، ظهر لتجلِّيها شاهداً في قلبه، وذلك الشاهد دال عليها، وليس هو عينها.

مثاله: نور الجلال في القلب، ليس هو عين نور جلال الله ﷻ، ذاك لا تقوم له السَّماوات والأرض؛ لكنَّه شاهد دال على ذلك، حيث قرب على قلبه في الغيب، قام له شاهد، والحق ﷻ في جميع ذلك منزه عن الاصطناع على حقيقته، أو على أنوار ذاته، أو على حقائق صفاته، وإنَّما جميع ذلك دقائق تقوم بقلب العارف تدل على قرب الألطاف منه في عالم الغيب، حيث لا يراها، وإذا فني فإنَّما يفنى بحال نفسه لا بالله، وإذا بقي فإنَّما يبقى بحال يجده لا بالله، ولا يبقى بالله ﷻ إلَّا الله ﷻ.

ومع ذلك فالوصول حق يجد الواصل آثار تجلي [أ/ ٢٠٩] الصِّفات في قلبه، وآثار تجلي الحق في قلبه.

ويوقف القلب فوق الأكوان كلِّها بين يدي الرَّب الحق ﷻ، ومن هناك

يكاشف بآثار الجلال، والجمال، فيجد العرش والكرسي تحت مشهد قلبه حكماً، وليس الَّذي يجده تحت قلبه حقيقة العرش والكرسي، بل شاهدٌ.

ومثال يدل على قربه من ربه ﷻ، أو قرب ربه منه، وبين الذَّوقين تفاوت كثير، يعرفه من يجده، فإذا قرَّب الرَّب ﷻ من قلب المقرب بشاهد يجده المقرب يدل له على ذلك، فتبقى الأكوان بالضَّرورة تحت مشهد قلبه، ووراء جميع ذلك طلوع شمس التَّوحيد الَّتي تقطع ضباب الوجود، وعند العبد في هذه الحالة ليس إلَّا الله، يغيب بها عن نفسه، وفي الحقيقة هو باق لم يمح، ولم يفن، وهذه الأحوال واردة عليه، ولم يبق في سره غير ذكر الله.

هذا هو التَّحقيق، وإن كان يجد أنَّه ليس إلَّا الله، فذلك في شاهده وسر، وحقيقة الأمر كما ذكر، إذ لو كان كما يزعمه؛ لكان خالقاً بارئاً مصوراً، وليس كذلك إلَّا الله ﷻ، فافهم ذلك كي لا تقع في المغاليط.

وهذا آخر ما تيسَّر، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

قاعدة في المثل الأعلى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لقول الله سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(١)، وقول النَّبي ﷺ، **«تبارك اسمك وتعالى جدُّك»**(٢).

ليعلم السَّالك أنَّه قد يقوم في قلبه عند التَّوجه شيئاً يشهده فوق العرش، فلا يستوحش من ذلك، فإنَّه ربما يقول: ربما هذا الذي أشهده جسم، فإنَّ جميع ما تتخيَّله يكون جسماً، أو عرضاً يعلم أنَّ حقيقة الله ﷻ لا تتكيفه الأوهام، ولا تحويه الأفهام، ولا يدرك بالقلوب ولا الأرواح، لكن قد يقوم عند التَّوجه للعظمة مثالاً يكون ذلك المثال واسطة بين من ليس كمثله شيء، وبين من له مثل.

واعلم أنَّ ذلك المثل الَّذي يقوم في القلوب عند التَّوجه والدُّعاء، له وجهان: وجه يلي العبد، ووجه يلي جهة العظمة، ولا يقال: أنَّه غير الله، ولا يقال: أنَّه هو، إنَّما هو نوره بحسب مرآة العبد وخليقته، وضعفه، فلا بدَّ من هذا المثل، فلا يستوحش العبد منه، فإنَّه لا يعرف الله إلَّا به، ولا يُدعا إلَّا به، ولا يحب إلَّا به، ولولاه لم يعرف ولم يعبد، فإنَّه لا بد أن يقوم لمن ليس كمثله شيء مثلاً في القلوب، يكون حجاباً بين العبد وبين حقيقة الذَّات، إذ لا يمكن شهادة حقيقة الذات بالقلوب؛ لأنَّها فانية، ولا تقوى عليه [أ/ ٢٠٩] الأجسام، والقلوب، إلَّا في الدَّار الآخرة؛ لأنَّها في عالم البقاء والتَّحقيق، إنَّ

(١) سُورة الروم: الآية ٢٧.
(٢) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (٩١٨).

ذلك المثل هو بمثابة الاسم، والمسمى، والصِّفة، والموصوف، فلا يقال: هو هوَ، ولا يقال: أنَّه غيره، إنَّما هو بحسب المحل، وضعفه وخلقيته وقوته.

مثال: ليتضح هذا المعنى، فإنَّه مشكل جداً تهرب منه العقول الضَّعيفة، ولا يقوى عليه إلَّا الموفَّقُون.

الإنسان يكتب بقلمه (الله)، وذلك هو اسم الله حقيقة؛ لكن بحسب المحل، وهي الكتابة، وكذلك تقول: (الله)، وقوله: (الله) هو اسم الله؛ لكن بحسب اللفظ المؤدي لذلك المعنى، ومثل ذلك إشارة القلوب إلى الله تعالى ومعرفتها له، وتجليه عليها، فتحبه وتخافه، وتشتاقه، وذلك هو نور الله تعالى حقيقة؛ لكن بحسب المحل الَّذي يرى ذلك المعنى، وإنَّما يرى منه بحسب ما يستعدَّه، ولذلك وجهان كما سبق ذكره.

ولهذا منع السَّلف ﷺ من وصف الإيمان بالخليقة، فإنَّ له اتصالاً بالله حقيقة لا يكيف، وله أيضاً اتصال بالعبد يعقل، ويدرك فله بهذا الاعتبار وجهان كما سبق، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١)، فبذلك المثل تعبده الملائكة والإنس والجان، وهو مثال عظمته في قلوبهم، ولكن ليس كمثله شيء.

لكن لا بد للأمر الموجود - وإن كان لا يُمَثَّل - أن يقوم له شاهد في القلوب، وبحسب المحل ويعلم حينئذٍ أنَّه ليس هو حقيقة؛ لأنَّه لا تقوم لحقيقته الجبال الرَّواسي، بل ولا لبارقةٍ منه، وليس هو غيره؛ لأنَّه منسوب إليه، وهو أثر نوره.

مثال: ليتضح هذا الإشكال في الشَّاهد: نور المصباح الواقع على الجدران، هو نور المصباح حقيقة؛ لكن يُفرَّق بين النور الواقع على الجدران،

---

(١) سُورة الروم: الآية ٢٧.

وبين النور القائم بجرم النَّار، ذاك نور المصباح بحسب محله، وهذا نوره بحسب ذاته، وبهذا ينحل الإشكال إن شاء الله تعالى، فإنَّ النُّور الَّذي على الجدران له وجهان، وجه إلى الجدار، ووَجه إلى المصباح، وليس هو عين نوره القائم بذاته، ولا هو غير نوره، فاعلم ذلك.

وإنَّما أطلت الكلام هاهنا؛ لأنَّ كثيراً من المتعبِّدة يتحيَّرون بين الإيمان والذَّوق، ويرون الذَّوق مغايراً لنفي الكيفيَّة، والتَّحقيق أنَّه ليس بينهما تنافٍ، والله الموفق.

فليعتمد السَّالك ما أمكن فيما شرح في هذه القاعدة مستعيناً بالله تعالى، مفوضاً إليه، رافعاً بهمته إلى أعلى المطالب، عساه أن ينال بعون الله تعالى منها سنيَّ المراتب، وبالله المستعان، والحمد لله وحده، والصَّلاة والسَّلام على محمد وعلى آله وصحبه.

[أ/ ٢١٠]

قاعدة في قوله تعالى:
﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾(١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله واهب الفضل القاضي بالعدل، لا إله إلَّا هو مالك الممالك، الَّذي اصطفى من عباده صفوة قوتهم، وأدناهم، وعرَّفهم نفسه، وصافاهم، بذلوا في حقِّه نفوسهم، وأموالهم قرباناً، وراعوا شأنه بالمحبَّة والتَّعظيم في إسرارهم بالغيب، ولم يدَّخروا عنه منهم شيئاً؛ فجاد عليهم بأن قبلهم، واشترى منهم ما باعوه، وقبل منهم ما قدَّموه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد: فمن جاد الله ﷻ عليه بمعرفته في طريق النَّظر والاعتبار، والتَّدبر للكتاب مع الاستبصار، حتَّى لاحت له شواهد اليقين، وخرقت أنوارها السَّاطع المبين، باطن سويداء سرِّه، فلم يغب عن البصائر شاهده طرفة عين، بل صارت مشاهدة عظمته مقرونة بمجاري الأنفاس، وحركات الجسم والحواس.

ألفت الأرواح آثار الجلال فلم تسكن إلى سواه، ولم تنظر إلى غيره ممَّا عداه، فجدير أن يقرِّب نفسه بين يدي خالقه قرباناً؛ شكراً لما وهبه من معرفته، فمن عرف ربَّه في الدُّنيا، فكأنَّما زاره ووَصل إليه، ومن عرف الرَّسول ﷺ، ولاحت له شواهد معرفته وخصوصيته في معجزاته، فكأنَّما سافر إليه، ورآه عياناً، وقد رآه حقيقة ببصيرته، وهي أنفذ من رؤية الأبصار في الأسرار.

(١) سُورة التوبة: الآية ١١١.

وإن كان الحس أقوى باعتبار الوجود الحسي، فالباطن أقوى باعتبار البصر القلبي، والانجذاب الرُّوحي، فقد يري البصر ما لا ينجذب إليه، فإذا رأى بالبصيرة ما جذب كليته، كان أقوى من مشاهدة المحسوسات، وشكر هذه النِّعمة أن يقرب وجوده بين يدي محبوبه، وهذا شيء مجمل يعرف تفاصيله من دخل فيه.

ومن تفاصيله: تقديم العبد ين يدي مولاه عمله الظَّاهر، يعبد ربَّه بذلك؛ كصلاة، أو تلاوة، أو ذكر، أو مراقبة، مع تقدمة همومه وأفكاره وخواطره وإرادته، وأعماله ونياته ومقاصده، في جميع سعاياته الظَّاهرة، والباطنة شيئاً فشيئاً على التَّدريج، حتَّى تستكن المحبَّة في جميع المفاصل والعروق، حتَّى يقرب المحبوب من جميع العبد، فإن همَّ فله، وإن نطق فله و به، أو أراد فبأمره ومعونته، أو[ب/ ٢١٠] اختار فباختياره، أو أحبَّ فإياه، والشَّيء الَّذي يحبُّه بحيث لا يخلو العبد قط منه في فكر، ولا خاطر، ولا همٍّ، ولا وسوسةٍ، ولا إرادة، ولا عمل، وهذا شأن الصَّادق في محبَّة الحبيب.

ومن استعان بالله، ودخل في هذا الشأن علمه الصِّدق كيف يصنع، ولا يتكلف ما لا يطيقه فيبذل من نفسه ما لا يقدر عليه، لكن يبذل أوَّلاً ما يقدر عليه من الأذكار، والطَّاعات، والتَّسبيحات، والتَّهليلات، ثمَّ كلما سمحت نفسه بشيء لمولاه استعان به وقربه.

وقد علمت شأن من تقرَّب إليه سبحانه بالنَّوافل بعد الفرائض، وما يكون في مقابلته من محبَّة الله له، كما ورد به الحديث الصَّحيح: «**ومن تقرَّب منه شبراً تقرَّب منه ذراعاً**»(١)، فماذا يكون جزاء من قدَّم نفسه، وجميع ما منه لمولاه؛ فصاحب هذا العمل يرجى له أن يجازى بالقبول، وهو أن يقبل منه ما

(١) تقدم تخريجه.

تقرَّب به العبد، ومتى قبل اختطف من وجوده، وجذبت روحه، بحيث لا يبقى له في ذلك تصرُّف، فتؤخذ حقيقته منه، ويبقى الجسم تبعاً لها، ويبقى الكلُّ بيد الحبيب مخلَّصاً من أسر النَّفس والشَّيطان، إلى مملكة الرَّحيم الرَّحمن الحنَّان المنَّان، وعند ذلك يحق له ما ورد به الحديث: «**يبقى سمعه الَّذي يسمع به، وبصره الَّذي يبصر به، ولسانه الَّذي ينطق به**»[1]، فيبقى محبوباً مرضيَّاً عنه، وذلك غاية الغايات، ومنتهى الطَّلبات طوبى لمن وفق لذلك وحسن مآب.

تتمَّة: **لهذه القاعدة**: أنفس الأشياء الَّتي للعبد قلبه، فليتقرب إلى مولاه بأنفس الأشياء.

ومعنى **التَّقدمة**: أن لا يجعل نصيباً لغيره، ولا لغير أمره فيقطعه عن جميع الأشياء، ويجعله نصيباً خالصاً لمولاه، ويندرج في ذلك نفي جميع الإرادات، والخواطر المحرَّمة والمكروهة، وجميع السِّوي سوى الأوامر، وقد سبق ذكر مضاعفة جزاء من تقرَّب بشيء، فمن تقرَّب بحقيقته الإنسانية يرجى أن يجازى بقبولها، وقبولها اختطافها إلى القرب الأعظم، وذلك غاية الغايات.

وملاك التَّقرب بالقلب التَّقرب بالبدن الظَّاهر - أيضاً -، فيضبط الظَّاهر والباطن، بعمل من أعمال البر، كالصَّلاة، أو التِّلاوة، أو الذِّكر، أو المراقبة، فبذلك يكمل التّقرب باطناً ظاهراً إن شاء الله تعالى.

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلم.

---

(١) تقدم تخريجه.

قاعدة الرُّوحانيات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[٢١١/أ] وفيها بيان لما قبلها.

اعلم: أنَّ الإنسان يسلك حتَّى يصل إلى أنوار المعارف، وأذواق الصَّفات والتَّجليات، ثمَّ إلى المعرفة الحقيقيَّة، فتتصل أوقاته وأحواله بشهودها في صلاته، وذكره، وتلاوته، وأكله، وشربه، وسائر أحواله، فتبقى الرُّوح مأخوذة بالجمال، والجلال، والقلب متعلق بأذيال التَّوكل، والتَّفويض، والخوف، والرَّجاء، والعقل متَّسع في ميادين الفهم، والنَّظر إلى تراتيب الأحكام والأفعال، والنَّفس راقدة عن تدبيرها واختيارها، والقلب مشتغل بوظائف العبادات.

فمن وصل إلى هذه الرُّتبة السّنيَّة الشَّريفة، فيبقى عليه محبَّة الحق تعالى له، ووداده له من ذلك الطرف، كما رزق الحبَّ التَّام من هذا الطَّرف.

فيقول القائل: كيف الطَّريق إلى محبَّة الرَّب تعالى لعبده بعد معرفته؟.

فالجواب: ما سبق في تلك القاعدة، وهو التَّعلق بروحانية الرَّسول ﷺ، والاحتظاء من نوره، كما أخبر سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1]، فمن تحقق بروحانية الرَّسول ﷺ، وترك ما سواها تنزلت عليه الرَّوحانية المنسوبة إلى الحق عز اسمه، فيرتبط الرُّوح بها، كما ارتبطت الرُّوحانية بروحانية الرَّسول ﷺ، وتكون تلك الرَّوحانية العلوية، واستقامتها على قدر الاستقامة، والارتباط بروحانية الرَّسول ﷺ، وانحرافها عن الكمال

(١) سُورة آل عمران: الآية ٣١.

على قدر الانحراف، وانحرافها عن تلك، وهناك يرجى حصول المطلوب من محبَّة الله تعالى لعبده.

فيقول القائل: ما الدَّليل على ذلك؟

فيقال: إنَّ تتزل تلك الرَّوحانية العلويَّة نتيجة للتَّحقيق بالمتابعة الظاهرة في العلوم.

والأعمال، فكان نتيجتها التَّحقُّق بالمتابعة في الأحوال، ومن حقَّق المتابعة في الأعمال.

والأحوال، بحسبه أحبَّه الله تعالى لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾[1]، وهذه هي الغاية المطلوبة من السَّير، والسُّلوك، وبالله المستعان، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(١) سُورة آل عمران: الآية ٣١.

قواعد النُّبوَّات: قاعدة نبويَّة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سبحانك اللهم وبحمدك، لسلطان جبروتك ذلت الأعناق، ولسبحات وجهك الكريم سجدت الجباه، خاشعة بالتَّذلل والإشفاق، وبجلال جمالك ووحدانيتك انجذبت الأرواح مشتاقة إلى التَّلاق، وتخلصت من مضائق الكون إلى فسحات التَّقريب والانطلاق، فاستنارت أرجاؤها المظلمة بطلائع النُّور والإشراق، [ب/ ٢١١]، ولقيُّوميَّة ربوبيتك استراحت النُّفوس، من قيود التَّدبير والاختناق، إلى روح سعة بيداء التَّفويض، وراحات التَّسليم، وطيب الأخلاق، مستشرفة إلى فيض الجود من خزائن المنَّة التي لا يفنيها الإنفاق، بل حصل لها الفناء الكامل بالوجود البائن عن وجود السَّبع الطِّباق، وعاشت في قرب كنف مالك الممالك الرَّحيم الخلَّاق.

بذلك الوجود يستغني من لا يغنيه الأعراض الكونية من الأموال والأرزاق، والفقير من فقد ذلك الوجود، ولو ملك ممالك الآفاق.

وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمَّداً ﷺ عبده ورسوله، خاتم النَّبيين الشَّافع المشفَّع يوم العرض والتَّلاق، الَّذي بعض معجزاته نبع الماء من بين الأصابع، وإشارته إلى القمر بالانشقاق، صلوات الله عليه وعلى آله صلاة دائمة ما استنارت النُّجوم بالأبراق.

فصل: فإنَّ التَّابع لا بد أن تكتنفه كيفية من المتبوع، ولبسه من ملابسه، وكيف لا وقد امتزجت تلك الكيفية بأمشاجه، واختلطت بروحه وأخلاقه، فمن صحب فقيهاً من الفقهاء، أو شيخاً من المشايخ الفقراء، ظهرت على وجهه سيماء علامته، وتكيف بالضَّرورة بجزئيات من كيفيته، فإنَّ الطِّباع تأخذ من

الملاحف والمعاشر بحسب استعدادها، وتجذب من الخير والشر بحسب تلاؤمها لذلك المعنى على انفرادها، وإذا كان الأمر كذلك، فمن سلك الله به طريق السَّعادة، وأراد به مواريث الإفادة، تعلقت همّته بالأنبياء؛ ليحتظي بصحبتهم من أنوار الاجتباء، فإنَّ أنوارهم مواد الخير الموجود في العالم، وهم أقطاب الدَّوائر العلمية، والعمليَّة، والحاليَّة، والأخلاق المتَّصفة بالمكارم.

إذا علم ذلك؛ فعليك بالتَّعلُّق بسيِّدهم، وخاتمهم الكامل المكمَّل، الهادي إلى طرق العلي الجميل المجمَّل، سيد ولد آدم، الفاتح الخاتم، المؤيد بحجج الله، القائم محمد ﷺ.

وصفة التَّعلُّق به: أن تدخل تحت ربَّانيته أوَّلاً بكمال محبَّته، وذلك لا يتم إلَّا بأمور.

أحدها: معرفة أيَّامه وسيرته، ثمَّ ملاحظة معجزاته وخصوصيته.

الثَّاني: اللهج بذكره وصفته، والتَّعلق به وبكيفيته.

الثَّالث: التَّقمص بشريعته، ومتابعته فيما أمر به، واستحبَّه من سنته، ومجانبة ما حرَّمه، أو كرهه من مخالفة ربه.

فإذا حقَّق العبد ذلك، وتقمَّص به، واختلط بعروقه، ومفاصله [أ/ ٢١٢]، واحتظى من نور النُّبوة حقائق غوامضه، وعرف المناسبة بينه وبين الرُّسل من قبله، ورأى أنوارهم من مشكاة واحدة بصفاء بصيرته، وجد الاتحاد بينه وبين نبيه ﷺ اتحاداً يجد ذوقه في بشريَّته، وخلعت عليه كسوة من ملابسه، وصار بين روحه وَروحه اتصال يحس به في معاملته، وكذا بين روحه، وأرواح الأنبياء، يجد نسبة نورانيَّة، فيعرفهم من دائرته، ويزورهم بروحه من طاقته.

فهنالك يرجي أن تشتاق الرُّوح إلى نصيب من قرب ربه، عالم سرِّه

وخفيته، فينظر إلى المعارف من مشكاة متبوعه ومعرفته، فيطالع ما وصف به متبوعه لربه في أسمائه وصفته، فيتوجه إلى ربِّه منها، موقناً بها في ذوق فطرته، فيرجي أن ينكشف لقلبه ستور اللطائف، من مواهب المعارف، بمقتضى نسبته، وينظر إلى ربِّه من فوق عرشه وبريته بنظر الإيمان والإيقان، في أنوار الطَّاعة، والإحسان من أفق الغيوب والامتنان، منزهاً له عن حده وكيفيته، فهنالك لسان الحال يقول:

بدا لك أمر طال عنك اكتتامُه ... ولاحَ صباحٌ كنت أنت ظلامه

وأنت حجابُ القلب عن سرِّ غَيبه ... ولولاك لم يطبَع عليه ختامه

وأيضاً:

ظهرت لمن أبقيت بعد فنائه ... وكان بلا كون لأنك كُنْتَه

وأيضاً:

لقد ظهرت فما تخفى على أحدٍ ... إلَّا على أكمه لا يعرف القمرا

فعند ذلك يبدو منه خالص التَّوكل والتَّفويض، والاستناد إلى اللطيف الخبير، بترك الاختيار والتَّدبير، والخمود تحت الحكم الشَّرعي والمقادير، متى وصل العبد إلى ذلك بقيت عليه واحدة بها يتم أمره، ويصفو كدره، ويعلو بمشيئة الله قدره، وهو الزُّهد في الدُّنيا.

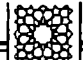
وحقيقة الزُّهد في ترك الإرادة والهوى، فعند ذلك يخلو الباطن عن السِّوى، فبذلك يرجى - إن شاء الله تعالى - أن يضرب سرادق العزة في أعماق سرائره، ويصل حقائق الغيوب إلى حقائق ضمائره، ويصير واحداً محقاً، متخلصاً عن شؤمه وعوائده، تعبُّداً لمحبوبه ورقاً، قد وهب منه الكل له، فوهب له الكل بحسبه، وجاد بنفسه في محبَّة ربه، فعُوِّض عنها بالحياة

الأبدية، والعيشة السرمدية، بإيصال محسوس لمن قيض بالحسنى كان ذلك الاتِّصال مع مشيئة الله تعالى، لا انفصال له، وكفى للعبد بذلك شرفاً [ب/ ٢١٢]، وباتصاله بمولاه وذهابه فيه فناءً وتلفاً.

أنت القتيلُ بكل من أحببته فانظر لنفسك في الهوى من تصطفي
مالي سوى روحي وباذل نفسه في حبِّ من يهواه ليس بمسرف
فلأن رضيت بها فقد أسعفتني يا خيبة المسعى إذا لم تُسْعِفِ[1].

وبالله المستعان، وعليه التكلان، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(١) انظر: خزانة الأدب وغاية الأرب (١/ ٤٥١).



قاعدة من دلائل النُّبوة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لمحمدٍ ﷺ ما تواتر النَّقل من طرق كثيرة، وروايات متنوعة في شأنه ﷺ. **فمن ذلك**: صدقه وأمانته قبل مبعثه، بحيث كانوا يسمونه: الأمين، وعفَّته، وحيائه، وبراءته من الفواحش، والدَّناءات، ومساوىء الأخلاق، ثمَّ قيامه بأعباء النُّبوة وحده في أوَّل الأمر قبل كثرة أتباعه، ومعاداة النَّاس، والأهل، والأقارب في دين الله، وكونه وعد أصحابه بظهور دينه؛ حيث جاء في الحديث: «**ليتمن هذا الأمر حتَّى يسير الرَّاكب من كذا إلى كذا ولا يخاف إلَّا الله، والذئب على غنمه**»[١]، وتصديق ذلك في قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[٢]، وقال ﷺ: «**لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقِّ**»[٣]، فكان كذلك.

ثمَّ ما حدَّث به الكهنة من طهوره، ثمَّ ما ظهر من الهواتف إعلاماً بنبوته، ثمَّ تصديق أهل الكتاب المؤمنين به، العارفين بصفاته كما يعرفون أبنائهم، كعبد الله بن سلام وأصحابه، وظهور الكذب والحسد على من كذبه من اليهود، حيث ظهر عليهم التَّحريف، وتبديل التَّوراة، بكتمان آية الرَّجم، وصفة محمَّد ﷺ، ثمَّ قول هرقل: قد كنت أعلم أنَّه يظهر الآن، ولكن ما كنت أعرف أنَّه منكم يعني العرب، وشهادة الأحبار، ثمَّ الرُّهبانيين - الَّذين لقيَهُم سلمان - له بالنُّبوة، ومعرفتهم بأنَّه قد آن، أوان ظهوره من أرض الحجاز، ثمَّ

(١) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (٣٤١٦).
(٢) سُورة التوبة: الآية ٣٣.
(٣) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (٣٥٤٤).

ظهور النِّسبة بينه وبين الأنبياء في الدَّعوة إلى الله، بشريعة ماحية لعبادة ما سوى الله، وإبطال الأوثان والأنداد من دون الله، ومجاهدة المكذبين له، العاكفين على عبادة غير الله، وكونه كان لا تأخذه في الله لومة لائم، ثمَّ صبره على العداوة والضُّر، والجوع في شعب بني هاشم، سنتين أو ثلاثة، ثمَّ دعوته إلى إقامة الحق والعدل، مثل الصِّدق، وأداء الأمانة، وصلة الرَّحم، وحسن الجوار [أ/ ٢١٣] وعبادة الخالق بالصَّلاة، والزَّكاة، والحجِّ، ونهيِّه عن التَّباغض والتَّقاطع والتَّدابر، وتحريم الزِّنا، واللُّواط، والعقوق، والكذب، وأعظمهما رفض عبادة ما دون الله من مخلوقاته، كالنَّار، والأنداد، والأصنام، فإنَّ ذلك أشنع في العقول، أن يشرك بالله في العبادة بخلق من خلقه.

ثمَّ إذا نسبت بين دينه وبين كلِّ دين كان على وجه الأرض من دين المجوس وعبادة النَّار، والَّذين اتَّخذوا العزير بن الله والمسيح ابنه، والَّذين اتَّخذوا الحجارة أنداداً لله، وعبادة النَّار والنُّور.

والفلاسفة أهل المقاييس والعقول والهندسة، فمتى ناسبت بين أي دين أخذته وبين دينه، رأيت اتِّصال دينه بالله حقيقة، واتِّصال بقية الأديان بالشَّيطان، وتسويلات النَّفوس وآرائها، ولا تجد بين الأديان وبين دين الأنبياء نسبة، ليس بين المجوس والكهنة أوالفلاسفة، وبين دين الأنبياء نسبة، وترى نسبة هذا الدِّين بدين الأنبياء ظاهر، كأنَّ الجميع من مشكاة واحدة.

ولا يشكُّ العاقل أنَّ الله تعالى رحم الخلق ببعثه، حيث بيِّن لهم بواسطة هذا النَّبيِّ دينه الَّذي ارتضاه لهم، فتميَّز دينه بهذه الخصائص عن سائر الأديان، فعافها القلوب وكرهتها، وعرفت زيغها وانحرافها، وانصبَّت إلى هذا الدِّين عارفه أنَّه دين الَّذين هدى الله، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٠.

وكلَّما ذكر فضل المعجزات الخارقة الكثيرة، الَّتي جنسها انشقاق القمر، ونبع الماء من بين الأصابع، وإطعام النَّفر الكثير من الطَّعام القليل، وتكثير الماء القليل في الآبار، ويوم المزادتين، وإيصال التُّراب إلى أعين الكفَّار يوم بدر ويوم حنين، وإبطال الكهنة بمبعثه ﷺ، وحنين الجذع إليه بين أصحابه في جمعهم ومشاهدتهم ذلك من الجذع، والدُّعاء على سراقه حين ساخت يدا فرسه في الأرض، واشتكاء البعير بحضرة أصحابه بدمع عينه، ودعا بشجرتين حتَّى توضَّأ تحتهما، وطاعتهما له بحضرة أصحابه، ورؤية أبي جهل لمَّا أراد أن يؤذيه خندقاً من نار بينه وبينه، وكونه مسح ساق ابن عتيك حين انكسرت وكأنَّه لم يشكها، وضربه الكدية يوم الخندق فعادت كثيباً أهيل، ومسح ضرع شاة فدرَّت في خيمتي أمِّ معبد، ومرَّة أخرى كان بذلك إسلام [٢١٣/ب] ابن مسعود، وردَّ العين المقلوعة فثبتت وصحَّت، وتفل في عين عليٍّ يوم خيبر فبرأ من ساعته، وأخذت الرَّعشة لرجل حاكاه فلم يزل يرتعش حتَّى مات، وأعطى عكاشة جذلاً من حطب وصار سيفاً، ونفث في عين رجل كانت مبيضَّة فأبصر بها حتَّى مات، ونادى شجرة بالحجون فأجابته ثمَّ أمرها فرجعت.

واستخلص الحقَّ من أبي جهل، وكان ذلك ثمن إبل، حيث رأى على رأسه فحلاً من الإبل خاف أن يأكله، وسجدت له الغنم، ولم ينبت رباعية لمن كسروا رباعيَّته، وكانت رؤيته من ورائه كرؤيته من أمامه، وتنام عينه ولا ينام قلبه، ويسمع أطيط السَّماء، وعذاب أهل القبور.

ومن ذلك إخباراته الَّتي ما كذبت، ولا أخطأت قط، منها: إنذار عثمان بالبلوى، والحسن بأنَّ يصلح الله به بين النَّاس، وبأنَّ عمَّار تقتله الفئة الباغية، وأخبر سراقة بأنَّه يوضع في يده سوار كسرى، وقوله لجماعة أحدكم ضرسه في النَّار مثل أُحد، فمات الجميع على الإسلام إلَّا واحداً، وقال لآخرين: آخركم موتاً في النَّار، فسقط في النَّار فاحترق، وأخبر عدي بن حاتم ارتحال المرأة إلى

مكَّة لا تخاف إلَّا الله، قال عدي: وكان كما قال رسول الله ﷺ، وأخبره أيضاً أنَّه سيفتح كنوز كسرى وكان عدي فيمن افتتحها، وقال لأصحابه: «**ليتمن هذا الأمر حتَّى يسير الرَّاكب من صنعاء إلى حضرموت لا تخاف إلَّا الله**»[1]

وقوله يوم بدر: هذا مصرع فلان وفلان فما ماط أحدهم عن موضع يده، وإخباره عن المرتد أنَّ الأرض لا تقبله، فرآه أبو طلحة منبوذاً، وأخبر بأنَّ طوائف من أمَّته يغزون في البحر، وأخبر بنساء كاسيات عاريات، رؤوسهنَّ مثل أسنمة البخت، وبقوم معهم سياط كأذناب البقر، ولم يرهم، وأخبر ابنته فاطمة بأنَّها أوَّل أهله لحاقاً به، وبأنَّ أطول نسائه يداً أوَّلهنَّ موتاً فكانت زينب، ومن ذلك بركته في عُكة المرأة الَّتي كانت تهدي له سمناً كلَّما أرادوا منها سمناً، ودعاؤه على تمرات أبي هريرة حتَّى حمل منها كذا وسق في سبيل الله.

ومن ذلك دعاؤه المستجاب منه على مضر حين دعا عليهم بالقحط، حتَّى أكلوا العِلْهِز، وهو الدَّم بالوبر، ودعاؤه على الملأ من قريش بأسمائهم فقتلوا يوم بدر، ودعاؤه على عتبة بن أبي لهب فقتله السَّبع، واستسقاؤه حتَّى مطروا جمعة، ثمَّ دعاؤه حتَّى انجاب السَّحاب عن المدينة كالإكليل وجميع [٢١٤/أ] ذلك نطقت بها كتب المسانيد، والصِّحاح، والسُّنن، مع تحرِّي الرُّواة، ورحلتهم المشارق والمغارب لأجلها، وروايتها من الطُّرق المتعدِّدة التي يصدق بعضها بعضاً.

فهذا خصوصيَّة النُّبوَّة، الدَّعوى إلى الحقِّ بما تقبله العقول، وإنكار الباطل الَّذي يأباه، والنهي عنه، وكون ذلك في فترة من الرُّسل عند فساد الأديان، ورجوع النَّاس إلى آرائهم ونفوسهم وأهويهم، وظهور البغي والفساد في الأرض، وعبادة غير الله؛ من النَّار والشَّجر والحجر، وكلُّ ذلك كان في جميع

---

(١) تقدم تخريجه.

الملل، حتَّى اليهود والنَّصارى؛ فإنَّهم عبدوا عزيراً وعيسى، فجاء رسول الله ﷺ بأمر يقوِّم أديان العباد، ويصلح فاسدها، ثمَّ تأيِّده بالمعجزات الخارقة للعوائد الَّتي هذا جنسها بما تواتر النَّقل بها، وبهذا تقوم الحجَّة على الخلق، وقد قامت.

وشرط النُّبوَّة ظهور العدل والحقِّ في دعوته، وصدق إخباراته في الماضي والحال، ووقوع إخباراته في المستقبل كما أخبر.

أمَّا العدل فيما دعى به فظاهر، وقد سبق بيانه، وأمَّا إخباراته في الماضي عن الأنبياء، فكان كما أخبر وصدَّقه بذلك مؤمنو أهل الكتاب، وأمَّا إخباراته في الحال فصدقت، مثل إخباراته عن النَّجاشي وجعفر وأصحابه، وموت المنافق حين هبَّت الرِّيح، وقصَّة الغال وكونه في النَّار، وكذا إخباراته في المستقبل من فتح كنوز كسرى وقيصر، وأنَّ عمود الكتاب ذهب به إلى الشَّام، وكون أنَّ دينه يتم حين يسير الرَّاكب من كذا إلى كذا، وظهور نار الحجاز تضيء لها أعناق البخت ببصرى، وظهور التَّتار، وكونهم فطس الأنوف؛ كأنَّ وجوههم المجان المطرقة، وقوله: «**كاسيات عاريات**»[1]، وقوله: «**تفتح مصر فيذكر فيها القيراط**»[2]، وإخباره عن عليٍّ وعثمان وعمَّار والحسن بما آل أمرهم إليه، وأنَّه إذا ذهب كسرى؛ فلا كسرى بعده، وإذا ذهب قيصر؛ فلا قيصر بعده، وغزو أمَّته في البحر، فمتى ظهرت بشرى الأنبياء به في التَّوراة، كما صدَّق به ابن سلَّام وأصحابه، وفي دين عيسى، كما ذكروه الرُّهبان لسلمان، ثمَّ ظهور الهواتف ببعثه، ثمَّ ظهوره بالحقِّ والعدل كما مرَّ ذكره، ثمَّ صدقه في إخباراته، فظهرت عقيب الطَّلبة؛ كانشقاق القمر، والسُّقيا، ثمَّ ظهور

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (٥٧٠٤).
(٢) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (٦٦٥٨).

بقيَّة المعجزات الخارقة على يده، ثمَّ موافقته لأصول جميع الأنبياء في دعوتهم.

علمنا: أنَّه المنتظر الَّذي كانت تنتظره العلماء من أهل [٢١٤/ب] الأديان، وأنَّه الَّذي كانت اليهود تنتظره في المدينة، حتَّى بشَّروا بطلوع نجمه، وكانوا يفخرون به على الأنصار، وهجرة ابن التيهان اليهودي إلى المدينة رجاء لقائه، وهو الَّذي قال هرقل: قد كنت أعلم بظهوره، ولكنِّي ما كنت أعرف أنَّه منكم، يعني: العرب.

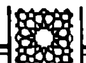
وهذا الَّذي إذا ظهر من نبيٍّ؛ قامت حجَّة الله على عباده وزيادة؛ لأنَّه أتى بما ينبغي للأنبياء أن يأتوا به، ووافقهم في أصولهم، وإن اختلفت الشَّرائع، فلكلٍّ رسول شريعة كما يشاءها المرسل في كلٍّ حين وأوان.

فلله الحجَّة البالغة علينا، والحمد لله الَّذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربِّنا بالحقِّ، وما بقي بعد هذا البلاغ بلاغ، ولا بعد هذا الصِّدق صدق، ولا بعد هذا الإعجاز إعجاز، إلَّا أنَّنا نسأل الله حفظ هذا الإيمان، وأن يكتبه في قلوبنا فإنَّا نخاف سَلَبَه أو تغيُّره؛ لأنَّ القلوب بين أصبعين من أصابع الرَّحمن، وكان نبيُّنا ﷺ يسأل ربَّه ويقول: «**يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك**»(١).

وأيضاً فإنَّ الكفَّار أبصروا بعيونهم ما سمعناه وتحقَّقناه لما تواتر به النَّقل، ولم تنفعهم الرُّؤية لذلك، وقد وصل إلينا من علم النُّبوَّة - بحمد الله ومنه -، ما يشفي ويكفي، وإلى الله نرغب في حفظ ذلك بمنِّه وكرمه ورحمته آمين، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

---

(١) تقدم تخريجه.



قاعدة في تعرُّف النُّبوَّة أيضاً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

النَّاس ثلاث طوائف؛ طائفة متمسِّكة بشريعة الأنبياء، وطائفة بالأديان المختلفة؛ كدين المجوس والفلاسفة، وأهل الأهواء والآراء، وطائفة ليسوا متمسكين بشيء، وهم الزَّنادقة؛ الَّذين لا مع العقل ولا مع الشَّرع.

إذا ظهر هذا؛ فالرَّب تعالى معلوم بالفطرة الإنسانيَّة، إذ الصَّنعة لا بدَّ لها من صانع، وكيف لا وقد ظهرت حكمته في الأشياء، وعلمه بها في حسن تدبيره لها، وإتقانه مختلفات أشكالها وأجناسها.

والعبد يعرف بالضَّرورة انَّه عبد وأنَّ أمره ليس بيده، بل له مدبِّر مختار، هذا علم ضروريٌّ.

وبعد هذا العلم؛ **فالإنسان بين الثلاثة أقسام**: المتمسِّك الَّذي سبق ذكره، فإن دخل في الانحلال والزَّندقة، وتحرَّك بمقتضى ما تشتهيه الجبلة والطَّبيعة من شهوة وفسوق وعصيان، فهذا حال ناقص [٢١٥/أ]؛ لأنَّه مناف للمعرفة الفطريَّة، بوجود الرَّب الصَّانع، الَّذي يجب عبادته بشريعة يشرعها لعباده، فإنَّها تمام حكمته وعلمه؛ إذ لا بدَّ للعبادة من هيئة يعبدونه بها.

فالانحلال باطل مناف للعقول السَّليمة، والفطرة الصَّحيحة، وإن ترك هذا ودخل في الأديان المختلفة؛ فإنَّه يظهر عليها الإصابة في شيء، والخطأ في آخر؛ لأنَّها مع تحسين العقول المختلفة والأهواء المتنوِّعة، هذا يعبد الحجارة، وهذا يعبد النَّار، وهذا يعبد الشَّجر، وهذا يعبد الكواكب بلا بيِّنة تلوح عليها أنَّها من أمر الصَّانع الحكيم، بل يلوح عليها أنَّها من نتائج الفكر. والقلوب الصَّحيحة لا تنشرح بهذا أصلاً؛ لأنَّها تقول: كيف أعبد شيئاً من الأشياء

باختياري، وتحسين عقلي، بلا شاهد يظهر ممَّن يتقرَّب بذلك إليه.

وهذا فيه نوع من سفاهة واستبداد، فما بقي ثَمَّ إلَّا شرائع الأنبياء، فإنَّ الفطر قد قضت بحكمة الصَّانع، وحكمته تقتضي إبراز هيئة يعبده العباد بها، حتَّى لا يتحيَّروا في عبادة هذا المعبود بآرائهم وعقولهم، فإنَّ عبادته واجبة عليهم قطعاً، وتألُّه الصَّانع فريضة، وإذا كان فريضة؛ فلا بدَّ للعباد منها.

فمن تمام الحكمة إبراز هيئة يعبده العباد بها، ودين الأنبياء هو الَّذي تشهد العقول الصَّحيحة بأنَّه من عند الصَّانع الَّذي قضت به الفطر والعقول بالضَّرورة، فإنَّهم جاؤوا بصفاته، وأسمائه، وأخبار تصرُّفاته في مخلوقاته، وإظهار حكمه في مبتدعاته، وكشفوا عن قهره وقدرته في ثوابه وعقابه.

ثمَّ الهيئة الَّتي شرعوها تناسب الرَّب تعالى أن يعبد بها، من تحريم الفواحش، والعبادة بالرُّكوع والسُّجود، وتقريب القرابين، وغير ذلك ينشرح لذلك صدور العقلاء، وتنقبض عن غير أديان الأنبياء.

إذا ظهر هذا؛ فإنَّ الأنبياء لم يأتوا بأكثر ممَّا جاء به محمَّد ﷺ من الآيات البيِّنات، والسُّور المنزلات، والمعجزات الخارقة للعادات، بل زاد هو عليهم في أشياء، وإن كان لغيره خصوصيَّة من بعض الوجوه كفلق البحر، والتَّكليم، والخلَّة، وتبريد النَّار الحامية، فلمحمَّد ﷺ أشياء وتزيد عليها؛ من فلق القمر، ونبع الماء من بين الأصابع، وكسر الأعداء بالتُّراب الَّذي سفاه في وجوههم، وإخباره بالمغيَّبات، وغير ذلك، فتعيَّن اتِّباعه؛ لأنَّه ناسخ لما قبله، كما نسخت [٢١٥/ب] كلّ شريعة ما كان قبلها.

فإن قيل: أريد أمراً أوضح من ذلك بلا واسطة؛ فإنَّ الأمور بالوسائط قد يشكلك فيها، كما شكت قريش، ولو أتاهم ما طلبوا منه أن يفجِّر لهم من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنَّة من نخيل وعنب، أو تسقط السَّماء، أو تزيل الأخشبين عن مكانهما ليزرعوا؛ لم يبق ثمَّ ريب عندهم، ولانكشف أمر

المعبود ببرهان لا يخالطه شكٌّ أصلاً.

فيقال في جوابه: لو كان الأمر كذلك؛ لم يستحقُّوا الثَّواب على الطَّاعة؛ لأنَّه بهرهم أمر محسوس لا يحتاج إلى إيمان؛ لأنَّه يقين ظاهر، فلم يستحقُّوا بالطَّاعة ثواباً؛ لأنَّ الإنسان إنَّما يستحقُّ الثَّواب على إيمانه بالغيب مع شواهد صحيحة يستدل العاقل بها.

فإذا ما انكشفت الأمور انكشافاً لا يبقى فيه رويَّة لمن يتروَّى، ولا فكر وبصيرة لمن يتبصَّر؛ لم يكن لهم في إيمانهم كسب يستحقُّون عليه الثَّواب والعقاب، ولبطلت في ذلك.

والحكمة ضرورية للموحد - كما سبق ذكره - ومن الحكمة إبراز أمور يمكن الشَّاك أن يشكَّ ويقول: هذا سحر؛ لنقصان عقله وفطرته، ولو كان صحيح الفطرة؛ لعرف أنَّه الحقُّ، فيستحق بهذا العمى النَّار، ويستحق بهذه البصيرة والفطرة الصَّحيحة الجنَّة، بخلاف ما لو انكشفت الحقائق؛ لم يكن للجاهل والأحمق كسب، فإنَّه يمكن كل واحد معرفة ذلك أحمقاً كان أو عاقلاً.

إذا ظهر ذلك؛ فليعلم العاقل، أنَّ الإنسان لا يتمُّ إيمانه حتَّى يحبَّ هذا النَّبيَّ الحب البالغ، ويحبَّ جميع ما جاء به، من جليل المتابعة ودقيقها، ويرتفع الحرج وضيق الصَّدر عن جميع أحكامه وشريعته، وإنَّما يزول الحرج، وينكشف سرُّ هذا المعنى، إذا علم قاعدته، وهي شعوره بأنَّ هذه الأحكام والجزئيات الشَّرعيَّة هي أحكام الله تعالى، والرَّسول ﷺ فيها موافق لربِّه ﷻ متَّبع له، فاتِّباعه هو اتِّباع الخالق الفاطر الَّذي قضت العقول بوجوده وتدبيره.

ولهذا وجب زوال الحرج وضيق الصَّدر بجميع الأحكام ما، جلَّ منها وما دقَّ، ثمَّ محبَّة النَّبيِّ ﷺ ينبغي أن تكون ممزوجة بالأرواح لوجوه:

إحداها: لمحبَّة الحبيب الأكبر له، والمحبُّ يحبُّ لمحبوبه، فهو المحبُّ

الأوَّل الَّذي من بين البريَّة.

الثَّانية: لمحبَّته هو لرَّبِّه أعلى أقسام المحبَّة؛ إذ [٢١٦/أ] المحبُّ إذا شعر بمن يحبُّ محبوبه ينجذب إليه طبيعة وقلباً.

الثَّالثة: لأنَّه الطَّريق إلى هذه المحبَّة، فإنَّ بصحبته والاعتقاد فيه ومتابعة سنته، حصل ما حصل من الإيمان، والبينة، والمعرفة، والمحبَّة، فلأنَّ طريقك إليه هو طريقك إلى ما حصل.

وبعد ذلك كلّه فالالتجاء إلى الله تعالى واجب في حفظ هذا الإيمان، وإن ظهرت شواهده شرعاً وعقلاً.

وبالله المستعان وعليه التُّكلان، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلَّم.

قاعدة في الصِّفات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله منوِّر الصُّدور بطلائع المعرفة والإيقان، وشارحها ببوارق النُّور الأعظم من الامتنان، باسط القلوب في ميادين الرَّوح والرَّيحان، من حضرات الأسماء المقدَّسة، والصِّفات الموجبة لحقائق العرفان، وكيف لا تبتهج القلوب سروراً، وترفرف إلى العلا فرحاً وحبوراً، وقد خرجت من مضائق الشُّكوك والارتياب، وظلمات الطَّبائع والحجاب إلى فسحات التَّوحيد والاقتراب، في بواهر أنوار مبادئها كبرق السَّحاب، مؤدية إلى وجدان أشعة شموس تلمع كالشِّهاب.

فسبحان من ظهر إلى القلوب بأفعاله ومصنوعاته، فشهدته الفطن بآياته ودلالاته، فقطعت بوجود حكيم عليم، متقن لمبتدعاته ومخلوقاته، رحيم بها في تيسير أسباب معايشها من قطرة يرسل الرِّياح، فتثير سحاباً ماطراً من خزانته وآياته.

وجعل من الماء كلَّ شيء حي ليوقن المعتبر بقدرته في تصرُّفاته، مسخِّر الشَّمس والقمر؛ لصلاح العالم، وجاعل اللَّيل والنَّهار آيتين، فمحا آية اللَّيل، وجعل آية النَّهار مبصرة؛ لتبتغوا فضلاً من صدقاته، دحا الأرض على تيار الماء، ورفع السَّماء عليها بلا عماد؛ لتظهر بواهر قدرته في بريَّاته.

هذا بعض حكمته في العالم الصَّغير، المتضايق الأجزاء في كرة التُّراب، الملتوية على مركز السُّفل وطبقاته، فما ظنُّك ببدائع قدرته في ملكوت السَّماء، وما أودع فيها من الأفلاك الدَّائرة، والنُّجوم السَّائرة، والأملاك المسبحة العاكفة على امتثال مأموراته.

ينزل الأمر بين الطِّباق العلويَّة والسُّفليَّة، فيكون بذلك ما يريده من

تأثيراته، وما ظنُّك بعظيم ما يبرز من بواهر أفعاله وصفاته، في عالم الآخرة الَّذي لا تكيفه العقول، بل [٢١٦/ ب] يؤمن بوجوده وإثباته، حين ترتفع الوسائط التَّكوينيَّة والشَّواهد العقليَّة الاستدلاليَّة بظهور صريح القدرة الإلهيَّة، وسطوع بواهر أنوار العظمة الإلهيَّة، فيضع الموازين القسط ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئاً من مثقال حبَّة من خردل، من طاعات العبد وجناياته.

فسبحان الإله، الحليم، الفاطر، المجيد، المبدئ، المعيد، الموفِّي كلَّ عبد ما اكتسبه من سعاياته، تعرَّف إلى قلوب العارفين بتعرُّفٍ خاصٍّ، فعرفوه به بعد أن ظهر لهم في المصنوعات في أنوار تجلِّيات أسمائه وصفاته، انكشف جلاله وعظمته لأحداق البصائر، فامتلأت من إشراقات ظهوره وبيِّناته.

ألفت الأرواح استنشاق نسيم التَّقريب بواسطة تلك الأنوار، فلم تلتفت عنه رغبة في غيره من تلَّذذ عاجل العبد وراحاته، وإن خطفها عن ذلك أدنى خاطف من العوارض الكونيَّة، فهو سريع الرُّجوع والأوبة من دركاته، صاعداً متشائماً بروق الوصال، طائراً بهمَّته المحترقة إلى أعلى درجاته، لا يستقرُّ من شوقه واضطرابه إلَّا في مقاعد الصِّدق، ومجال العنديَّة، بين أطناب العزِّ وسرادقاته.

لولا الآجال المكتومة، والأقدار المحتومة؛ لزهقت الأرواح طرباً، لما باشرها من أنصبة الإكرام والإجلال وإشراقاته، حقيرة إذا نظرت إلى خسَّتها وسفالة قدرها، حين رامت عزماتها أعلى المراقي، وأين الثُّريَّا من يد الملامس؟ نسبتها الماء والطِّين، والصِّلصال والحمأ المسنون.

أيُّها المنكح الثُّريَّا سهيلاً ... عمرك الله كيف تجتمعان

هي شاميَّة إذا استهلَّت ... وسُهيل إذا استَّهلَّ يماني[(١)]

(١) قاله عمر بن أبي ربيعة المخزومي. انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٧٥٦)

فإذا ولَّت مدبرة حياء من طمعها نازلة إلى النَّجوم عبثت بها أيدي الغرام، وتأججت بها نيران الوجد والهيام، وجدته يوم الميثاق من لذيذ الخطاب والتَّلاق، فتقول: قدري التُّراب وهمَّتي تعلو السَّحاب.

بَرَقَتْ منكَ في الفؤادِ بُرُوقٌ   احتطى منه كلُّ عضو برِفْقِ

فصلوات الله وسلامه على نبيِّ الرَّحمة، وكاشف الغمَّة محمَّد النَّبيِّ، وآله وصحبه ما درَّ شارق، وحنَّ رامق، صلاة دائمة لا انقضاء لها في الآباد، دارٌّ أمدَّها إلى أن يقوم الأشهاد [٢١٧/أ].

وبعد؛ فأيُّها السَّالك إن أردت التَّحقُّق بالعبوديَّة، والخضوع لأحكام الرُّبوبيَّة؛ فعليك بالجلوس على بساط الصِّدق، ناظراً إلى مولاك، وما انفرد به منها في عظمة شأنه، وقدس جلاله ناظراً - أيضاً - إلى صفاتك الفانية اللَّائقة بك، ثمَّ أفرد مولاك بما انفرد به من عظمة شأنه، وقدس صفاته، وتحقَّق أنت بصفاتك والزمها ولا تتجاوزها، وانظر إلى صفاته، ثمَّ إلى صفاتك راجعاً إليه منها.

فأوَّل ذلك: أن تنظر إلى غناه ﷻ، وتنظر إلى فقرك، فترجع إليه من فقرك إلى غناه، فمتى حقَّقت ذلك عرفت نفسك بالفقر، وعرفت مولاك بالغنى، فتبرَّأت من صفته الَّتي لا تستحقها أنت، واتَّصفت حينئذٍ بصفتك الذَّاتيَّة لك، وهي الفقر، فكنت بذلك لمولاك الغني عبداً.

وكذلك تنظر إلى قوَّته ﷻ، وتنظر إلى ضعفك، فمتى حقَّقت ذلك عرفت نفسك بالضِّعف، وعرفت مولاك بالقوَّة، فتبرَّأت من صفته الَّتي لا تستحقها أنت، واتَّصفت حينئذٍ بصفتك الذَّاتيَّة لك، وهي الضِّعف، فكنت بذلك لمولاك القوي عبداً.

وكذلك تنظر إلى قدرته، وتنظر إلى عجزك، فتضيف القدرة إلى وليِّها وتتبرأ أنت ممَّا ليس لك، فتكون بذلك عبداً، وكذلك تنظر إلى عزَّته وتنظر إلى

ذلك فتضيف العزَّة إلى وليِّها، وتتبرأ أنت ممَّا ليس لك، وتتّصف بصفتك اللَّازمة لك، وهي الذُّل، فتكون بذلك عبداً.

واعلم أنَّ لمولاك ﷻ صفات ذاتيَّة، وصفات فعليَّة، وصفات حاليَّة، فصفاته الذَّاتيَّة اللّاَزمة لذاته المقدَّسة أزلاً وأبداً، وهي: الحياة، والعلم، والقدرة، والكلام، والسَّمع، والبصر، والإرادة، والجلال، والجمال، والقدس، والكمال.

والصِّفات الفعليَّة كثيرة، وهي: كلُّ ما تعلَّق منها بالمخلوقات، كالخلَّاق، والوهَّاب، والرَّزَّاق، والفتَّاح، والقابض، والباسط، والخافض، والرَّافع، والمعزُّ والمذلُّ، والبارئ، والمصوِّر، والغفَّار، والقهَّار، والمحصي، والمبدئ، والمعيد، والمحيي، والمميت، والمقدِّم، والمؤخِّر، والمنتقم، والمقسط، والجامع، والمانع، والضَّار، والنَّافع، وغير ذلك.

وأمَّا الصِّفات الحاليَّة: كقوله ﷻ يوم القيامة: «يا آدمُ» قم فابعث بعث النَّار وكصفة النُّزول، وقوله للشِّيء إذا أراده «كن»، وهو: ما يكون في حال دون [٢١٧/ب] حال.

وله سبحانه أسماء ذاتيَّة، وأسماء صفاتيَّة، **فأسماء الذَّات**: الله، وهو وأنت.

والأسماء الصِّفاتيَّة: كالاسم النُّور، والقدُّوس، والسَّلام، والعزيز، والجبَّار، والمتكبِّر، والملك، والرَّحمن، والرَّحيم، والقوي، والغني، وغير ذلك من الأسماء الصِّفاتيّة، وكلُّها راجعة إلى صفات الذَّات، وهي مندرجة في قولنا فيما تقدَّم، والجلال، والجمال، والقدس، والكمال، كلُّها مندرجة في الكمال.

فصل

وكذلك أيضاً للعبد أسماء عليَّة وأسماء دنية، فأسماؤه العلية قد وصفه الله ﷻ بها فقال تعالى: ﴿التَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾[1] إلى آخرها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ﴾[2]. . . إلى آخر الآية، وأسماؤه الدنيَّة كالعاصي، والمذنب، والظَّالم، وغير ذلك.

إذا علمت ذلك؛ فاعلم أنَّ العبوديَّة إنَّما يقوم بها من صفت عن عناصره، وابتهجت بالإشراق ظواهره، وسكنت عن الوساوس خواطره، وتحرَّكت بالمحبة ضمائره، وتجدَّدت أسراره عن غلها وأغلالها، وخبثها وأعلالها.

فهم القوم تراهم أرواح النَّاس قلوباً، وأوفرهم عقولاً، وأسكنهم عن الخنا نفوساً، وأطيبهم بذكر الله أرواحاً، وأكثرهم بربِّهم أفراحاً؛ لأنَّ بواطنهم بالمحبَّة إلى حضائر القدس مكتحلة بإكحال التَّقريب والأنس سيما المحبَّة عليهم لائحة، وبهجة المعرفة عليهم ظاهرة من حسن الأخلاق، ومطايبة الرِّفاق، والمكارمة في التَّلاق؛ لتهذبهم في معاملة الملك الخلّاق، عرفوا نفوسهم بصفاتها الدّنية، فمحقوها بصفاتها العليَّة.

محقوا الاسم المذنب بالاسم التَّواب، ومحقوا الاسم العاصي منهم بالاسم الطَّائع، واسم الظَّالم منهم باسم العادل، فتبدَّلت أسماؤهم الدّنية بأسمائهم العليَّة.

بدَّل الله بذلك سيِّئاتهم حسنات، محقوا أوصاف السيِّئات منهم بأوصافهم

(١) سُورة التوبة: الآية ١١٢

(٢) سُورة الأحزاب: الآية ٣٥.

الحسنة، ثمَّ رجعوا من جميع ذلك إلى مولاهم متبرِّئين من حولهم وقوَّتهم، فإن وجدوا منهم توبة، وجدوا بدايتها من توبته عليهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾[1]، وإن وجدوا منهم محبَّة لربِّهم؛ وجدوا ابتداءها من محبَّته لهم، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[2]، وإن وجدوا منهم علماً أو معرفة؛ وجدوا ابتداءها من فيض برِّه عليهم، قال [٢١٨/أ] تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾[3].

فصل

واعلم: أنَّ مشاهدة الصِّفات تتنوَّع على قلوب العارفين كل منهم قد عرف مولاه بما كشف له منها، فعبد الله ﷻ بالعبوديَّة المناسبة لذلك الوصف؛ إذ كلُّ اسم أو وصف يقتضي من العبد العبوديَّة بمقتضاه.

فأوَّل مشاهدة الصِّفات تبدو على قلوبهم مشهد: علا فوق الممالك، وذلك يقتضي التَّضاؤل والتَّصاغر، للعبد المشتغل بالذَّات، عبوديَّة للرِّب العليِّ بالذَّات.

ثمَّ مشهد: متكلِّم أمر ناه محل محرِّم، وذلك يقتضي من العبد عبوديَّة الائتمار والاجتناب، لما أوجب فعله واجتابه الملك الوهَّاب.

ثمَّ مشهد: مدَّبر قيُّوم وذلك يقتضي من العبد ترك التَّدبير والاختيار، استسلاماً وتفويضاً إلى الملك القهَّار.

ثمَّ مشهد: الدِّيانيَّة وهو مشد الدِّين، فإنَّه مالك يوم الدِّين؛ أي: يوم

(١) سُورة المائدة: الآية ١١٨.
(٢) سُورة المائدة: الآية ٥٤.
(٣) سُورة العلق: الآية ٥.

الجزاء وذلك يقتضي من العبد الاستعداد للقاء الله ﷻ بالأعمال الصَّالحة، والمسارعة إليها كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾[1]

ثم مشهد: رقيب، عليم، فتستقيم بذلك الخواطر والسرائر عن الهمم الدنية، والأفكار المحظورة الردية، فكذلك عبوديتها في مقابلة هذا الوصف، وإذا استقامت السرائر لزم من استقامتها استقامة الجوارح؛ لأن الحركات الظاهرة إنما تصدر عن الخطرات الباطنة.

ثمَّ مشهد: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[2] وذلك موجب إكمال المحبَّة والتَّعظيم، وظهور لواعج الأشواق إلى لقاء الحقِّ ﷻ يوم التَّلاق، فهذا هو عبوديَّة هذا الوصف، وفي الحديث: «**من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه**»[3]

«ثمَّ كان الله ولا شيء معه»، وهو مشهد الأزليَّة، فينكشف بذلك ظلام الوجود، ويطَّلع فجر التَّوحيد، فيذهب به من لم يكن، ويبقى من لم يزل، وهو أوَّل السِّباحة في بحر التَّوحيد، فما ظنُّك بالتَّوغل فيه؟ نعم، وذلك لا يشرح إلَّا لأهله الَّذين باشر صفو التَّوحيد بواطنهم، وطلع عليهم صبحه بعد طلوع قمره.

ثمَّ مشهد: شمس الفردانيَّة بعد طلوع صبحها، وذلك موجب للهيمان والالتهاب بنيران الوجد والغرام [٢١٨/ب] وهو أوَّل مشاهدة البقاء بعد الفناء خصوصاً إذا تفضل على تفاصيل الصِّفات، فيبقى العبد فيه مشهوداً ملحوظاً، بعد أن كان مراقباً مشاهداً.

ثمَّ مشهد: الحقيقة وهو التَّخلُّص من أنوار الأنوار إلى حقيقة الأنوار، فإنَّ

---

(١) سُورة المؤمنون: الآية ٦٠.
(٢) سُورة الرحمن: الآية ٢٧.
(٣) رواه البخاري، رقم: (٦١٤٢) ومسلم، رقم: (٦٩٩٦).



للسِّراج نوراً يقوم بذات النّار، ونوراً من ذلك النُّور يفيض على الجدران.

ففي أوَّل الأمر يكون نصيب العبد من أنوار الأنوار، فيرتقي منها إلى صاحب النُّور، ومن لا يفهم من الأغبياء يعبد المثل الأعلى، ولا يشعر، والمحقِّق يعبد صاحب المثل حتَّى تتخلص إليه من أنوار الأنوار، وهذا أمر دقيق لا يشرح - أيضاً - إلَّا لأهله، وهم الَّذين صبروا على الصُّحبة والتَّذويب في كير السَّبك، ولم يرجعوا من علوم الخاصَّة إلى علم العامَّة الَّتي بها تستقيم العموم، وللخصوص قواعد أخرى، هي شفاء لأمراضهم، لا يجدون شفاءهم إلَّا بها، وهي موصِّلة إلى العلم العام.

فصل

علامة المستعدِّ لعلم الخصوص أن يبقى بينه وبين السَّالكين من العوام حجاب، لا يقدر على الاجتماع بهم، ومتى كانت نسبته معهم إذا اجتمعوا؛ يقرِّرون الأمور العامَّة، فليست له نسبة بالخاصَّة، فأين مثل هذا من علم الأسماء والصِّفات وأذواقها، فمتى اشتغل بها؛ بطل عن وظيفته، وشغل من كلف تعليق شيء من ذلك عن مهمِّ وقته، وواجب حاله.

والأولى أن يشتغل كلٌّ من العبيد بما أقيم فيه، وبما يجد صلاح قلبه فيه، ولا ينظر إلى علم ما لم يبلغه حاله، فإنَّ علم الخاصَّة فساد للعامَّة، وعلم خاصة الخاصَّة، وإنَّما كان فساداً؛ لأنَّه يشغلهم عن مهمِّ وقتهم عمَّا هم مطلوبون به، فلا يشرح علم الخاصَّة إلَّا لأهله، ولا علم خاصَّة الخاصَّة إلَّا لأهله، ذلك هو مهمُّ وقتهم وواجب حالهم.

لكن في الحديث: «**لا تردُّوا السَّائل ولو جاء على فرس**»(١)، وإجابة سؤال السَّائل مندوب إليه؛ لأنَّه ينبغي أن يعرف وجه الصَّواب في ذلك؛ ليرجع إلى حكم وقته وواجب حاله، فالواصلون إنَّما وصلوا بمعرفتهم علم الحال وقيامهم بحكمه.

والدَّاخل على السَّالكين إنَّما يدخل من جهلهم بعلم الحال وإهمالهم القيام بحكمه، ومعنى علم الحال: علم [٢١٩/أ] ما يخصُّ العبد من أمر دينه وحاله الَّذي أقيم فيه، فمتى تعدَّاه إلى غيره؛ فقد ضيَّع حكم وقته، وضيَّع على النَّاس - أيضاً - حكم أوقاتهم.

وهذا آخر ما تيسَّر، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

---

(١) رواه مالك في الموطأ، رقم: (٣٦٥٣).

القسم الثَّالث يشتمل

على رسائل، ومراسلات، ومكاتبات من تصنيف الشَّيخ الإمام، العالم، العارف، المحقِّق، السَّالك، النَّافذ كمال الدِّين[1] أحمد بن الشَّيخ إبراهيم الواسطيُّ رحمه الله.

(١) كذا في الأصل، والمشهور «عماد الدين».

رسالة في إثبات الاستواء والفوقيَّة، وتنزيه الباري سبحانه عن الحصر، والتَّمثيل، والكيفيَّة

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

الحمد لله الَّذي كان ولا مكان، ولا إنس، ولا جان، ولا طائر، ولا حيوان، المتفرِّد بوحدانيَّته في أزليَّته، والدَّائم في فردانيَّته في قدس صمدانيَّته، ليس له سُميٌّ ولا وزير، ولا شبيه ولا نظير، المقتدر بالخلق والتَّصوير، المتصرف بالمشيئة والتَّقدير، ليس كمثله شيء، وهو السَّميع البصير، له الرُّفعة، والعلا، والحمد، والثَّناء، والعلو، والاستواء، لا تحصره الأجسام، ولا تصوِّره الأوهام، ولا تقله الحوادث والأجرام، ولا تحيط به العقول ولا الأفهام، له أسماء الحسنى والشَّرف الأتمُّ الأسنى، والدُّوام الَّذي لا يبيد ولا يفني، نصفه بما وصف به نفسه من الصِّفات الَّتي توجب عظمته وقدسه ممَّا أنزله في كتابه، وبيَّنه رسوله ﷺ في خطابه.

ونؤمن بأنَّه الله الَّذي لا إله إلَّا هو الحيُّ القيوم، السَّميع البصير، العليم القدير، الرَّحمن الرَّحيم، الملك القدُّوس، العظيم، لطيف خبير، قريب، مجيب، متكلِّم شاءٍ مريد، فعال لما يريد، يقبض ويبسط، ويرضى ويغضب، ويحبُّ ويبغض، ويكره ويضحك، ويأمر وينهى، ذو الوجه الكريم، والسَّمع السَّميع، والبصر البصير، والكلام المبين، واليدين والقبضتين، والقدرة والسُّلطان، والعظمة والامتنان لم يزل كذلك ولا [٢١٩/ب] يزال، استوى على عرشه فبان من خلقه، لا يخفى عليه منهم خافية، علمه بهم محيط، وبصره بهم نافذ، وهو في ذاته وصفاته لا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يمثَّل بشيء من حوائج مبتدعاته، وهي صفات لائقة بجلاله وعظمته، لا تتخيَّل

بكيفيَّتها الظُّنون، ولا تراها في الدُّنيا العيون، بل نؤمن بحقائقها، وشؤونها، واتِّصاف الرَّب تعالى بها، وننفي عنها تأويل المتأوِّلين، وتعطيل الجاحدين، وتمثيل المشبِّهين.

تبارك الله أحسن الخالقين، فبهذا الرَّب نؤمن، وإيَّاه نعبد، وله نصلِّي ونسجد، فمن قصد بعبادته إلى إله ليست له هذه الصِّفات؛ فإنَّما يعبد غير الله، وليس معبوده ذلك بإله فكفرانه لا غفرانه، ونشهد أنَّ لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله، اصطفاه لرسالته، واختاره لبريَّته، وأنزل عليه كتابه المبين الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، صلَّى الله عليه وعلى آله أفضل الآل وأكرم العبيد.

وبعد فهذه نصيحة كتبتها إلى أخواني في الله، أهل الصِّدق والصَّفا والإخلاص والوفاء، لما يتعيَّن علي من محبُّتهم في الله، ونصيحتهم في صفات الله ﷻ.

فإنَّ المرء لا يكمل إيمانه حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه، وفي الصَّحيح عن جرير بن عبد الله البجليِّ قال: «**بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، والنُّصح لكلِّ مسلم**»(١)، وعن تميم الدَّاري أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**الدِّين النَّصيحة**»، قلنا لمن يا رسول الله قال: «**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم**»(٢)، أعرفهم أيَّدهم الله بتأييده، ووفَّقهم لطاعته ومزيده.

إنِّي كنت برهة من الدَّهر متحيِّراً في **ثلاث مسائل**:

مسألة الفوقيَّة، ومسألة الصِّفات، ومسألة الحرف والصَّوت في القرآن المجيد.

وكنت متحيِّراً في الأقوال المختلفة الموجودة في كتب أهل العصر في جميع ذلك، من تأويل الصِّفات وتحريفها أو إمرارها، والوقوف فيها، أو

---

(١) رواه البخاري (٥٧).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (٢٠٥).

إثباتها بلا تأويل، ولا تعطيل، ولا تشبيه، ولا تمثيل.

فأجد النُّصوص في كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ [٢٢٠/أ] ناطقة مبيِّنة بحقائق هذه الصِّفات، وكذلك في إثبات العلوِّ والفوقيَّة، وكذلك في الحرف والصَّوت، ثمَّ أجد المتأخِّرين من المتكلِّمين في كتبهم بينهم من يؤوِّل الاستواء بالقهر والاستيلاء، ويؤوِّل النُّزول بنزول الأمر، ويؤوِّل اليدين بالقدرتين أو النِّعمتين، ويؤوِّل القدم بقدم صدق عند ربِّهم، وأمثال ذلك، ثمَّ أجدهم مع ذلك يجعلون كلام الله تعالى معنًى قائماً بالذَّات بلا حرف ولا صوت، ويجعلون هذه الحروف عبارة عن ذلك المعنى القائم.

وممَّن ذهب إلى هذه الأقوال أو بعضها قوم لهم في صدري منزلة، مثل: الغزاليِّ، وأبي المعالي الجوينيِّ، وأبي سعيد المتولِّي، وغيرهم إلى بعض فقهاء الأشعريِّين الشَّافعيين؛ لأنِّي على مذهب الشَّافعي رضي الله عنه عرفت فرائض ديني وأحكامه.

فأجد مثل هؤلاء الشُّيوخ الأجلَّة يذهبون إلى مثل هذه الأقوال، وهم شيوخي ولي فيهم الاعتقاد التَّامُّ؛ لفضلهم وعلمهم، ثمَّ إنَّني مع ذلك أجد في قلبي من هذه التَّأويلات حزازات لا يطمئنُّ قلبي إليها، وأجد الكدر والظُّلمة منها، وأجد ضيق الصَّدر وعدم انشراحه مقروناً بها، فكنت كالمتحيِّر المضَّطرب في تحيُّره المتململ من قلبه في تقلُّبه وتغيُّره، وكنت أخاف من إطلاق القول بإثبات العلوِّ والاستواء والنُّزول مخافة الحصر والتَّشبيه.

ومع ذلك فإذا طالعت النُّصوص الواردة في كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ أجدها نصوصاً تشير إلى حقائق هذه المعاني، وأجد الرَّسول ﷺ قد صرَّح بها مخبراً عن ربِّه واصفاً له.

واعلم بالاضطرار أنَّه ﷺ كان يحضر مجلسه الشَّريف العالم والجاهل، والذَّكي والبليد، والأعرابي الجافي، ثمَّ لا أجد شيئاً يعقب تلك النُّصوص

الَّتي كان ﷺ يصف ربَّه بها لا نصَّاً ولا ظاهراً ممَّا يصرفها عن حقائقها، ويؤوِّلها كما يؤوِّلها هو، لا مشايخي الفقهاء المتكلِّمون مثل تأويلهم الاستيلاء بالاستواء، ونزول الأمر للنُّزول، وغير ذلك، ولم أجد عنه ﷺ أنَّه كان يحذِّر النَّاس من الإيمان بما يظهر من كلامه في صفتيه لربِّه من الفوقيَّة واليدين وغيرهما، مثل أن تنقل عنه مقالة تدُّل على أنَّ لهذه الصِّفات معان أخر باطنة غير ما يظهر من مدلولها، مثل فوقيَّة [٢٢٠/ب] المرتبة، ويد النِّعمة والقدرة، وغير ذلك.

وأجد الله ﷻ يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾(١)، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾(٢)، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾(٣)، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾(٤)، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾(٥)، ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾(٦)، ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾(٧)، ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾(٨)، وهذا يدُّل على أنَّ موسى أخبر بأنَّ ربَّه تعالى فوق السَّماء، ولهذا قال: وإنِّي لا أظُنُّه كاذباً، وقوله تعالى: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤﴾(٩) الآية.

---

(١) سُورة طه: الآية ٥.
(٢) سُورة الأعراف: الآية ٥٤.
(٣) سُورة النحل: الآية ٥٠.
(٤) سُورة فاطر: الآية ١٠.
(٥) سُورة الملك: الآية ١٦.
(٦) سُورة الملك: الآية ١٧.
(٧) سُورة النحل: الآية ١٠٢.
(٨) سُورة غافر: الآية ٣٦-٣٧.
(٩) سُورة المعارج: الآية ٣-٤.

ثمَّ أجد الرَّسول ﷺ لمَّا أراد الله ان يخصَّه بقربه من سماء إلى سماء حتَّى كان قاب قوسين أو أدنى، ثمَّ قوله ﷺ في الحديث الصَّحيح للجارية: **«أين الله، فقالت: في السَّماء»**[١] - فلم ينكر عليها بحضرة الصَّحابة؛ كيلا يتوهَّموا أنَّ الأمر على خلاف ما هو عليه، بل أقرَّها - وقال: أعتقها، فإنَّها مؤمنة».

وعن معاوية بن الحكم السُّلمي قال: قلت يا رسول الله: أفلا أعتقها، فقال: **«ادعها فدعوتها، فقال لها: أين الله، فقالت: في السَّماء، قال: من أنا، قالت: أنت رسول الله ﷺ، قال: أعتقها فإنَّها مؤمنة»** رواه مسلم ومالك في «موطأه».

وقوله ﷺ: **«الرَّاحمون يرحمهم الرَّحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السَّماء»** أخرجه التَّرمذي[٢]، وقال حسن صحيح، وعن أبي الدَّرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من اشتكى منكم شيئاً أو اشتكى أخ له؛ فليقل ربُّنا الله الَّذي في السَّماء تقدَّس اسمك، أمرك في السَّماء والأرض، كما رحمتك في السَّماء، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت ربُّ الطَّيِّبين، أنزل رحمتك رحمة، وشفاء من شفاءك على الوجع فيبرأ»** أخرجه أبو داود[٣].

وعن أبي سعيد الخدريِّ قال: بعث عليٌّ من اليمن بذهبيَّة في أديم مقروض لم تحصل من ترابها فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة زيد الخير، والأقرع بن حابس، وعيينة بن حصين، وعلقمة بن علاثة، أو عامر بن الطُّفيل شكَّ عمَّار، فوجده من ذلك بعض أصحابه والأنصار وغيرهم، فقال رسول الله ﷺ: **«ألا تأمنوني وأنا أمين من في السَّماء يأتيني خبر من في[١٢٢/أ] السَّماء صباح أو مساء»** أخرجه البخاري ومسلم[٤].

(١) رواه مسلم، رقم: (٥٢٧)، الموطأ (٢٢٥١).
(٢) رواه الترمذي، رقم: (١٩٢٤).
(٣) رواه أبو داود، رقم: (٣٨٩٤).
(٤) رواه البخاري، رقم: (٤٠٩٤) ومسلم، رقم: (٢٥٠٠).

وعن ابن أبي ذئب عن محمَّد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ الميِّت تحضره الملائكة، فإذا كان الرَّجل صالح؛ قال: اخرجي أيَّتها النَّفس الطَّيِّبة كانت في الجسد الطَّيِّب، اخرجي حميدة، وابشري بروح وريحان، وربٍّ غير غضبان، فلا لايزال يقال لها ذلك حتَّى تخرج، ثمَّ يعرج بها إلى السَّماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا، فيقول: فلان، فيقولون: مرحباً بالنَّفس الطَّيِّبة، كانت في الجسد الطَّيِّب، ادخلي حميدة وابشري بروح، وريحان، وربٍّ غير غضبان، فلا يزال، يقال لها ذلك حتَّى ينتهي بها إلى السَّماء الَّتي فيها الله ﷻ. . .**»[1] الحديث.

وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**والَّذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبا عليه، إلَّا كان الَّذي في السَّماء ساخطاً عليها**» أخرجه البخاري ومسلم[2]

وعن أبي داود حدَّثنا محمَّد بن صباح حدَّثنا الوليد بن أبي ثور عن سماك عن عبد الله بن عميرة بن قيس عن العبَّاس بن عبد المطَّلب قال: كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرَّت بهم سحابة فنظر إليها فقال: «**ما تسمُّون هذه، قالوا: السَّحاب، قال: والمزن، قالوا: والمزن، قال: والعنان، قالوا: والعنان، قال: هل تدرون ما بعد ما بين السَّماء والأرض، قالوا: لا ندري، قال: إنَّ بعد ما بينهما إمَّا واحد، أو اثنين، أو ثلاثة وسبعين سنة، ثمَّ السَّماء فوق ذلك حتَّى عدَّ سبع سموات، ثمَّ فوق السَّماء السَّابعة بحرتين أسفله وأعلاه، مثل ما بين سماء إلى سماء، ثمَّ فوق ذلك ثمانية أو عال بين أظلافهم وركبهم، مثل ما بين سماء إلى سماء، ثمَّ على ظهورهم العرش أسفله وأعلاه، مثل ما بين سماء إلى سماء، ثمَّ الله ﷻ فوق ذلك**»[3]، قال

(١) رواه النسائي، رقم: (١٨٣٣) وابن ماجه، رقم: (٤٢٦٢).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٣٠٦٥) ومسلم، رقم: (٣٦١٤).
(٣) رواه أبو داود، رقم: (٤٧٢٥).

الإمام الحافظ عبد الغني في «عقيدته»: لما ذكر حديث الأوعال قال: رواه أبو داود، والتِّرمذي، وابن ماجه[(١)]، وقال في حديث الرُّوح: رواه أحمد[(٢)] والدَّار قطنيُّ.

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق إنَّ رحمتي سبقت غضبي، فهو عنده فوق العرش**» أخرجه البخاري ومسلم[(٣)]

وعن محمَّد بن إسحاق عن معبد بن كعب بن مالك أنَّ سعد بن معاذ لمَّا حكم في بني قريظة قال له رسول الله ﷺ: «**لقد حكمت حكماً حكم الله به من [٢٢١/ ب] فوق سبعة أرقعة**»[(٤)].

وحديث المعراج عن أنس بن مالك أنَّ مالك بن صعصعة حدَّثه أنَّ نبي الله ﷺ حدَّثهم عن ليلة أسري به، وساق الحديث إلى أن قال: «**ثمَّ فرضت عليَّ الصَّلاة خمسين صلاة كلَّ يوم، فرجعت فمررت على موسى فقال: بم أمرت، قال: أمرت بخمسين صلاة كلَّ يوم، قال: إنَّ أمَّتك لا تستطيع خمسين صلاة، وإنِّي قد جرَّبت النَّاس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدَّ معالجة، فارجع إلى ربِّك فاسأله التَّخفيف لأمَّتك، قال: فرجعت فوضع عنِّي عشراً، فرجعت إلى موسى فقال: مثل ذلك، فرجعت إلى ربِّي فوضع عنِّي عشراً خمس مرَّات في كلِّها، يقول: فرجعت إلى موسى، ثمَّ رجعت إلى ربِّي**» أخرجه البخاري ومسلم[(٥)]

---

(١) عقيدة الحافظ تقي الدين عبد الغني المقدسي (ص٤٢)، أبو داود (٤٧٢٣)، الترمذي (٣٣٢٠)، ابن ماجه (١٩٣).

(٢) عقيدة الحافظ تقي الدين عبد الغني المقدسي (ص٤٥) رواه أحمد (١٧٧١).

(٣) رواه البخاري، رقم: (٧١١٥) ومسلم، رقم: (٧١٤٥).

(٤) ذكره ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته (٢/ ٣٧٩).

(٥) رواه البخاري، رقم: (٣٦٧٤) ومسلم، رقم: (٤٢٩).

وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«يتعاقبون فيكم ملائكة باللَّيل وملائكة بالنَّهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثمَّ يعرج الَّذين باتوا فيكم فيسألهم ربُّهم كيف تركتم عبادي»** متفق عليه[١].

عن ابن عمر قال: لمَّا قبض رسول الله ﷺ دخل عليه أبو بكر فأكبَّ عليه، وقبَّل جبهته، وقال: بأبي أنت وأمِّي طبت حيَّاً وميِّتاً، وقال: من كان يعبد محمَّداً فإنَّ محمَّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله في السَّماء حيٌّ لا يموت، رواه البخاري[٢].

عن محمَّد بن فضيل عن فضيل عن نافع عن ابن عمر، وعن أنس بن مالك قال: كانت زينب تفخر على أزواج رسول الله ﷺ تقول: إنَّ الله زوَّجني من السَّماء، وفي لفظ: زوجكنَّ أهلوكنَّ، وزوَّجني الله من فوق سبع سماوات، أخرجه البخاري[٣].

وفي حديث جبير بن مطعم قال: قال النَّبيُّ ﷺ: **«إنَّ الله فوق عرشه فوق سبع سماواته، وسماواته فوق أرضيه مثل القبة، وأشار النَّبيُّ ﷺ بيده مثل القبة»**[٤].

وحديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«من لم يرحم من في الأرض؛ لم يرحمه من في السَّماء»**[٥]

وحديث ابن عبَّاس أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا أسري به مرَّت رائحة طيِّبة فقلت: **«يا جبريل ما هذه الرَّائحة، فقال: هذه رائحة ماشطة امرأة فرعون**

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٣٠) ومسلم، رقم: (١٤٦٤).
(٢) رواه البخاري، رقم: (١١٨٥).
(٣) رواه البخاري، رقم: (٦٩٨٤).
(٤) رواه أبو داود، رقم: (٤٧٢٨).
(٥) قال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٥/ ٥١٤): رواه مسدد.

كانت تمشطها فوقع المشط من يدها، فقالت: بسم الله، فقالت ابنته: أبي، فدعا بها، فقال: لك ربٌّ غيري، قالت: ربِّي وربُّك الله الَّذي في السَّماء، فأمر بنقرة نحاس فأحميت، ثمَّ [٢٢٢/أ] دعا بها وبولدها فألقها فيها...» الحديث، رواه الدَّارميُّ(١).

وروى الدَّارميُّ أيضاً بإسناده إلى أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لمَّا ألقي إبراهيم في النَّار، قال: اللَّهمَّ إنَّك في السَّماء واحد، وأنا في الأرض واحد عبدك**»(٢).

وأمَّا الآثار عن الصَّحابة: في ذلك كثير منها قول عمر رضي الله عنه عن خولة لمَّا استوقفته فوقف لها فقال: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات(٣)، وعبد الله بن رواحة لمَّا وقع بجارية له فقالت له امرأته: أفعلتها، قال: أمَّا أنَّا فأقرأ القرآن، فقالت امرأته: أمَّا أنت فلا تقرأ القرآن وأنت جنب، فقال:

شهدت بأنَّ وعد الله حقٌّ ... وأنَّ النَّار مثوى الكافرينا
وأنَّ العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش ربُّ العالمينا
وتحمله ملائكة كرام ... ملائكة الإله مسومينا(٤).

وابن عبَّاس لمَّا دخل على عائشة رضي الله عنها، وهي تموت فقال لها: كنت أحبَّ نساء رسول الله ﷺ إلى رسول الله، ولم يكن يحبّ إلَّا طيِّباً، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات(٥).

---

(١) الدارمي في الرد على الجهمية ص٤٣، ورواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (١٦٣٦) وابن حبان، رقم: (٢٩٠٣).
(٢) رواه أبو يعلى كما ذكره البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٦/ ٤٩٣).
(٣) ذكره ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته (٢/ ٣٨٢).
(٤) ذكره ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته (٢/ ٣٩٩).
(٥) رواه أبو يعلى كما ذكره البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٢/ ٤١٧).

ولذلك نجد أكابر العلماء كعبد الله بن المبارك صرَّح بمثل ذلك.

روى عثمان بن سعيد الدَّارميُّ قال: حدَّثنا الحسن بن الصَّباح قال: حدَّثنا عليٌّ بن الحسن بن شقيق عن ابن المبارك قيل له: كيف تعرف ربَّنا، قال: بأنَّه فوق السَّماء السَّابعة على العرش بائن من خلقه[١].

فصل

فلم أزل في هذه الحيرة والاضطراب من اختلاف المذاهب والأقوال، حتَّى لطف الله تعالى، وكشف لهذا الضَّعيف عن وجه الحقِّ كشفاً اطمأنَّ إليه خاطره، وسكن به سرُّه، وتبرهن الحقُّ في نوره، وها أنا واصف بعض ذلك إن شاء الله تعالى، والَّذي شرح الله صدري له في حكم هذه الثَّلاثة مسائل:

الأولى: مسألة العلو، والفوقيَّة، والاستواء هو أنَّ الله ﷻ كان ولا مكان ولا عرش ولا ماء ولا فضاء ولا هواء ولا خلا ولا ملا، وإنَّه كان منفرداً في قدمه وأزليِّته، متوحِّداً في فردانيَّته، وهو ﷻ في تلك الفردانيَّة لا يوصف بأنَّه فوق كذا؛ إذ لا شيء غيره، وهو سابق للتَّحت والفوق الَّذين هما جهتا العالم، وهما لازمان له، والرَّبُّ تعالى في تلك الفردانيَّة منزَّه عن لوازم الحدث وصفاته، فلَّما اقتضت الإرادة المقدَّسة بخلق الأكوان المحدثة، المخلوقة المحدودة ذات الجهات؛ اقتضت الإرادة أن يكون الكون له جهات من العلوِّ والسُّفل، وهو سبحانه منزَّه عن صفات الحدث، فكَّون الأكوان، وجعل لها العلو والسُّفل، واقتضت [٢٢٢/ب] الحكمة الإلهيَّة أن يكون الكون في جهة التَّحت؛ لكونه مربوباً مخلوقاً، واقتضت العظمة الرَّبانيَّة أن يكون هو فوق الكون باعتبار الكون لا باعتبار فردانيَّته؛ إذ لا فوق فيها ولا تحت.

(١) رواه الدارمي في الرد على الجهمية، رقم: (١٦٢)

والرَّبُّ ﷻ كما كان في قدمه وأزليَّته وفردانيَّته لم يحدث له في ذاته، ولا في صفاته ما لم يكن له في قدمه وأزليَّته، فهو الآن كما كان لكن لَمّا حدث المربوب المخلوق ذو الجهات والحدود، والخلا والملاذ، والفوقيَّة والتَّحتيَّة، كان مقتضى حكم عظمة الرُّبوبيَّة أن تكون فوق ملكه، وأن تكون المملكة تحته باعتبار الحدوث من الكون لا باعتبار القدم من المكوِّن.

فإذا أشير إليه؛ يستحيل أن يشار إليه من جهة التَّحتيَّة، أو من جهة اليمنة، أو من جهة اليسرة، بل لا يليق أن يشار إليه إلَّا من جهة العلوِّ والفوقيَّة، ثمَّ الإشارة هي بحسب الكون وحدوثه وتسفُّله، فالإشارة تقع على جزء من الكون حقيقة، وتقع على عظمة الإله تعالى، كما يليق به لا كما يقع على الحقيقة المعقولة عندنا في أعلى جزء من الكون، فإنَّها إشارة إلى جسم وتلك إشارة إلى إثبات.

إذا علم ذلك؛ فالاستواء صفة كانت له سبحانه في قدمه، لكن لم يظهر حكمها إلَّا عند خلق العرش، كما أن الحساب صفة قديمة لا يظهر حكمها إلَّا في الآخرة، ولذلك التَّجلي في الآخرة لا يظهر حكمه إلَّا في محله.

فإذا علم ذلك؛ فالأمر الَّذي تهرَّب المتأوِّلة منه؛ حيث أوَّلوا الفوقيَّة بفوقيَّة المرتبة، والاستواء بالاستيلاء، فنحن أشدُّ النَّاس هرباً من ذلك، وتنزيهاً للباري تعالى عن الحدِّ الَّذي يحصره، بل بحدٍّ تتميَّز به عظمته ذاته عن مخلوقاته، والإشارة إلى الجهة إنَّما هو بحسب الكون وتسفُّله؛ إذ لا يمكن الإشارة إليه إلَّا هكذا. وهو في قدمه سبحانه منزَّه عن صفات الحدث، وليس في القدم فوقيَّة ولا تحتيَّة، إنَّما من هو محصور في التَّحت لا يمكنه معرفة بادئه إلَّا من فوقه، فتقع الإشارة إلى العرش حقيقة إشارة معقولة، وتنهى الجهات عند العرش، ويبقى ما وراءه لا يدركه العقل، ولا يكيِّفه الوهم، فتقع الإشارة عليه كما يليق به مجملاً مثبتاً لا مكيَّفاً ممثَّلاً.

وجه آخر من البيان: الرَّبُّ تعالى ثابت الوجود، ثابت الذَّات، له ذات مقدَّسة متميِّزة عن مخلوقاته تتجلى للأبصار يوم القيامة ويحاسب العالم، فلا يجهل ثبوت ذاته وتميُّزها عن مخلوقاته، وإذا ثبت ذلك؛ فقد أوجد الأكوان في محلٍّ وحيِّزٍ، وهو سبحانه في قدمه منزَّه عن المحلِّ والحيِّز، فيستحيل شرعاً وعقلاً عند حدوث العالم [٢٢٣/ أ] أن يحلَّ فيه أو يختلط به؛ لأنَّ القديم لا يحلُّ في الحادث، وليس هو محلَّاً للحوادث، فلزم أن يكون بائناً عنه.

وإذا كان بائناً عنه؛ فيستحيل أن يكون العالم في جهة الفوق، وأن يكون ربُّه سبحانه في جهة التَّحت، هذا محال شرعاً وعقلاً فيلزم أن يكون فوقه بالفوقيَّة اللَّائقة به الَّتي لا تكيُّف ولا تمثيل، بل يعلم من حيث الجملة والثُّبوت لا من حيث التَّمثيل والتَّكييف.

وقد سبق الكلام في أنَّ الإشارة إلى الجهة إنَّما هو باعتبارنا لا في محلٍّ وحدٍّ وحيِّز، والقدم لا فوق فيه ولا جهة ولا بدَّ من معرفة الموجد، وقد ثبت بينونته عن مخلوقاته، واستحال علوُّها عليه، فلا يمكن معرفته والإشارة بالدُّعاء إليه إلَّا من جهة الفوق؛ لأنَّها أنسب الجهات إليه، وهو غير محصور فيها، هو كما كان في قدمه وأزليَّته.

فإذا أراد المحدث أن يشير إلى القديم؛ فلا يمكنه ذلك إلَّا بالإشارة إلى الجهة الفوقيَّة؛ لأنَّ المشير في محلٍّ له فوق وتحت، والمشار إليه قديم باعتبار قدمه لا فوق هناك ولا تحت، وباعتبار حدوثنا وتسفُّلنا هو فوقنا، فإذا أشرنا إليه؛ تقع الإشارة عليه كما تليق به لا كما تتوهَّمه في الفوقيَّة المنسوبة إلى الأجسام، لكنَّا نعلمها من جهة الإجمال والثُّبوت، لا من جهة التَّمثيل، والله الموفِّق للصَّواب.

ومن عرف هيئة العلم ومركزه من علم الهيئة، وأنَّه ليست له إلَّا جهتا العلوِّ والسُّفل، ثمَّ اعتقد بينونة خالقه عن العالم؛ فمن لوازم البينونة أن يكون فوقه؛ لأنَّ جميع جهات العالم فوق، وليس السُّفل إلَّا المركز وهو الوسط.

فصل

إذا علمنا ذلك واعتقدناه؛ تخلَّصنا من شبه التَّأويل، وغمارة التَّعطيل، وحماقة التَّشبيه والتَّمثيل، وأثبتنا علو ربِّنا وفوقيَّته واستواءه على عرشه كما يليق بجلاله وعظمته، والحقُّ واضح في ذلك، والصَّدر ينشرح له، فإنَّ التَّحريف تأباه العقول الصَّحيحة مثل تحريف الاستواء بالاستيلاء وغيره، والوقوف في ذلك جهل وعيٌّ مع كون أنَّ الرَّبَّ تعالى وصف لنا نفسه بهذه الصِّفات؛ لنعرفه بها، فوقوفنا عن إثباتها ونفيِّها عدول عن المقصود منه في تعريفنا إيَّاها، فما وصف لنا نفسه بها إلَّا لنثبت ما وصف به نفسه لنا، ولا نقف في ذلك، ولذلك التَّمثيل والتَّشبيه حماقة وجهالة، فمن وفَّقه الله للإثبات بلا تحريف ولا تكييف ولا وقوف، فقد وقع على الأمر من المطلوب منه إن شاء الله تعالى.

فصل

والَّذي شرح [٢٢٣/ب] الله تعالى صدري في حال هؤلاء الشُّيوخ الَّذين أوَّلوا الاستواء بالاستيلاء، والنُّزول بنزول الأمر، واليدين بالنِّعمتين والقدرتين هو علمي بأنَّهم ما فهموا في صفات الرَّبِّ تعالى إلَّا ما يليق بالمخلوقين، فما فهموا عن الله تعالى استواء يليق به ولا نزولاً يليق به، ولا يدين تليق بعظمته بلا تكييف ولا تشبيه، فلذلك حرَّفوا الكلم عن مواضعه، وعطَّلوا ما وصف الله تعالى نفسه به، ونذكر بيان ذلك إن شاء الله لا ريب إنَّا نحن وإيَّاهم متَّفقون على إثبات صفات الحياة، والسَّمع، والبصر، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام لله تعالى، ونحن قطعاً لا نعقل من الحياة إلَّا هذا العرض الَّذي يقوِّم بأجسامنا،

وكذلك لا نعقل من السَّمع والبصر إلَّا أعراضاً تقوم بجوارحنا، فكما أنَّهم يقولون: حياته ليست بعرض، وعلمه كذلك، وبصره كذلك هي صفات كما يليق به لا كما يليق بنا، وكذلك نقول نحن: حياته معلومة، وليست مكيَّفة وعلمه معلوم وليس مكيَّفاً، وكذلك سمعه وبصره معلومان ليس جميع ذلك أعراضاً، بل هو كما يليق به ومثل ذلك بعينه فوقيَّته، واستواؤه، ونزوله ففوقيَّته معلومة، أعني: ثابتة كثبوت حقيقة السَّمع وحقيقة البصر فإنَّهما معلومان ولا يكفيان، كذلك فوقيَّته معلومة ثابتة غير مكيفة كما يليق به، واستواؤه على عرشه معلوم ثابت كثبوت السَّمع والبصر غير مكيف، وكذلك نزوله ثابت معلوم غير مكيف بحركة أو انتقال يليق بالمخلوق، بل كما يليق بعظمته وجلاله. صفاته معلومة من حيث الجملة والثُّبوت، غير معقولة من حيث التَّكييف والتَّحديد، فيكون المؤمن بها، مبصراً من وجه أعمى من وجه، مبصراً من حيث الإثبات والوجود، أعمى من حيث التَّكييف والتحديد، وبهذا يحصل الجمع ين الإثبات لما وصف الله تعالى نفسه به وبين نفي التَّحريف والتَّشبيه.

وذلك هو مراد الرَّب تعالى منَّا في إبراز صفاته لنا؛ لنعرفه بها، ونؤمن بحقائقها، وننفي عنها التَّشبيه، ولا نعطِّلها بالتَّحريف والتَّأويل، ولا فرق بين الاستواء والسَّمع، ولا بين النُّزول والبصر، الكلُّ ورد في النَّصِّ إن قالوا لنا: في الاستواء شبَّهتم، نقول لهم: في السَّمع شبَّهتم ووصفتم ربَّكم بالعرض، فإن قالوا: لا عرض، بل كما يليق به، قلنا: في الاستواء والفوقيَّة لا حصر، بل كما يليق به، فجميع ما يلزمونا به في الاستواء، والنُّزول، واليد، والوجه، والقدم، والضّحك، والتَّعجُّب من التَّشبيه نلزمهم به في الحياة، والسَّمع، والبصر، والعلم، فكما [٢٢٤/أ] لا يجعلونها هم أعراضاً كذلك نحن لا نجعلها جوارح، ولا ما يوصف به المخلوق، وليس من الإنصاف أن يفهموا

في الاستواء والنُّزول والوجه واليد صفات المخلوقين، فيحتاجوا التَّأويل والتَّحريف، فإن فهموا في هذه الصِّفات ذلك؛ فلزمهم أن يفهموا في الصِّفات السَّبع صفات المخلوقين من الأعراض، فما يلزمونا في تلك الصِّفات من التَّشبيه والجسميَّة نلزمهم في هذه الصِّفات من العرضيَّة وما ينزِّهوا ربَّهم به في الصِّفات السَّبع، وينفون عنه عوارض الجسم فيها، فكذلك نحن نعمل في تلك الصِّفات الَّتي ينسبونا فيها إلى التَّشبيه سواء بسواء.

ومن أنصف عرف ما قلنا: هو اعتقده وقبل نصيحتنا ودان الله بإثبات جميع صفاته هذه وتلك، ونفى عن جميعها التَّعطيل، والتَّشبيه، والتَّأويل، والوقوف وهذا مراد الله تعالى منَّا في ذلك؛ لأنَّ هذه الصِّفات وتلك جاءت في موضع واحد، وهو الكتاب والسُّنة، فإذا أثبتنا تلك بلا تأويل، وحرَّفنا هذه وأوَّلناها؛ كنَّا كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، وفي هذا بلاغ وكفاية إن شاء الله تعالى.

فصل

وإذا ظهر هذا وبان انجلت الثَّلاث مسائل بأسرها، وهي مسألة الصِّفات من النُّزول واليد والوجه وأمثالها، ومسألة العلوّ والاستواء، ومسألة الحرف والصَّوت.

أمَّا مسألة العلوّ فقد قيل فيها ما فتحه الله تعالى، وأمَّا مسألة الصِّفات فتساق مساق مسألة العلو، ولا يفهم منها ما يفهم من صفات المخلوقين، بل يوصف الرَّب تعالى بها كما يليق بجلاله وعظمته فيتنزَّل كما يليق بجلاله وعظمته، ويداه كما يليق بجلاله وعظمته، ووجهه الكريم كما يليق بجلاله وعظمته، وكيف ينكر الوجه الكريم ويحرَّف وقد قال سبحانه في محكم تنزيله:

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾[(١)]. وقد قال رسول الله ﷺ في دعائه: «**نسألك لذة النظر إلى وجهك**»[(٢)].

وإذا ثبتت صفة الوجه بهذا الحديث وغيره من الآيات والنُّصوص؛ فكذلك صفة اليدين والضِّحك والتَّعجُّب، ولا يفهم من جميع ذلك إلَّا ما يليق بالله ﷻ وبعظمته لا ما يليق بالمخلوقات من الأعضاء والجوارح تعالى الله عن ذلك علوًّاً كبيراً، وإذا ثبت هذا الحكم في الوجه؛ فكذلك في اليدين والقبضتين والقدم والضِّحك والتَّعجُّب كلٌّ ذلك كما يليق بجلال الله تعالى وعظمته، فيحصل بذلك إثبات ما وصف الله تعالى نفسه به في كتابه وفي سنَّة رسوله ﷺ، ويحصل أيضاً نفي التَّشبيه والتَّكييف [٢٢٤/ب] في صفاته، ويحصل أيضاً ترك التَّأويل والتَّحريف المؤدِّي إلى التَّعطيل، ويحصل أيضاً بذلك عدم الوقوف بإثبات الصِّفات وحقائقها على ما يليق بجلال الله تعالى وعظمته لا على ما نعقله نحن من صفات المخلوقين.

أمَّا مسألة الحرف والصَّوت: فتساق هذا المساق، فإنَّ الله تعالى قد تكلَّم بالقرآن المجيد وبجميع حروفه فقال تعالى: ﴿الٓمٓ﴾[(٣)]، وقال: ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾[(٤)]، وقال: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾[(٥)].

ولذلك جاء في الحديث: «**فينادي يوم القيامة بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب**»[(٦)]، وفي الحديث: «**لا أقول: الم حرف، ولكن ألف حرف،**

---

(١) سُورة طه: الآية ٢٧.
(٢) رواه النسائي، رقم: (١٣٠٥).
(٣) سُورة البقرة: الآية ١.
(٤) سُورة الأعراف: الآية ١.
(٥) سُورة ق: الآية ١-٢.
(٦) رواه البخاري معلقاً، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٣٦٣٨).

ولام حرف، وميم حرف»[١].

فهو لا كما فهموا من كلام الله تعالى إلَّا كما فهموا من كلام المخلوقين، فقالوا: إذا قلنا بالحروف؛ فإن ذلك يؤدِّي إلى القول بالجوارح واللَّهوات، وكذلك إذا قلنا ذلك بالصَّوت، أدَّى إلى الحلق والحنجرة، عملوا في هذا من التَّخبيط كما عملوا فيما تقدَّم من الصِّفات.

والتَّحقيق هو أنَّ الله تعالى تكلَّم بالحروف كما يليق بجلاله وعظمته، فإنَّه قادر والقادر لا يحتاج إلى جوارح ولا إلى لهوات، وكذلك له صوت كما يليق به يسمع ولا يفتقر ذلك الصَّوت المقدَّس إلى الحلق والحنجرة، كلام الله كما يليق به، وصوته كما يليق به، ولا ينفي الحروف والصَّوت عن كلامه سبحانه؛ لافتقارهما منّا إلى الجوارح واللَّهوات، فإنَّهما في جناب الحقِّ تعالى لا يفتقران إلى ذلك، وهذا ينشرح الصَّدر له، ويستريح الإنسان به من التَّعسُّف والتَّكلُّف بقوله هذا عبارة عن ذلك.

فإن قيل: فهذا الَّذي يقرأه القارئ هو عين كلام الله وعين تكلُّمه هو.

قلنا: لا بل القارئ يؤدِّي كلام الله، والكلام إنَّما ينسب إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مؤدِياً مبلِّغاً، ولفظ القارئ في غير القرآن مخلوق، وفي القرآن لا يتميَّز اللَّفظ المؤدِّ عن كلام الكلام المؤدى عنه، ولهذا منع السَّلف عن قول لفظي بالقرآن مخلوق؛ لأنَّه لا يتميَّز، كما منعوا عن قول لفظي بالقرآن غير المخلوق فإنَّ لفظ العبد في غير التلاوة مخلوق، وفي التلاوة مسكوت عنه كي لا يؤدي الكلام في ذلك إلى القول بخلق القرآن وما أمر السَّلف بالسُّكوت عنه، فيجب السُّكوت عنه، والله أعلم.

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٩١٠).

فصل

العبد إذا أيقن أنَّ الله تعالى فوق السَّماء عالٍ على عرشه بلا حصر ولا كيفيَّة، وأنَّه الآن في صفاته كما كان في قدمه؛ صار لقلبه قبله في صلاته وتوجُّهه ودعائه، ومن لا يعرف [٢٢٥/أ] ربَّه بأنَّه فوق السَّماء على عرشه؛ فإنَّه يبقى ضائعاً لا يعرف وجه معبوده، لكن ربَّما عرفه بسمعه وبصره وقدمه، وتلك بلا هذا معرفة ناقصة بخلاف من عرف أنَّ إلهه الَّذي يعبده فوق الأشياء.

وإذا دخل في الصَّلاة وكبَّر؛ توجَّه قلبه إلى جهة العرش منزِّهاً ربَّه تعالى عن الحصر مفرداً له كما أفرده في قدمه وأزليِّته عالماً أنَّ هذه الجهات من حدودنا ولوازمنا، ولا يمكننا الإشارة إلى ربِّنا في قدمه وأزليِّته إلَّا بها؛ لأنَّا محدثون، والمحدث لا بدَّ له في إشارته إلى جهة، فتقع تلك الإشارة إلى ربِّه كما يليق بعظمته لا كما يتوهَّمه هو من نفسه، ويعتقد أنَّه في علوه قريب من خلقه، هو معهم بعلمه وسمعه وبصره وإحاطته وقدرته ومشيئته، وإرادته فوق الأشياء فوق العرش، ومتى شعر قلبه بذلك في الصَّلاة أو التَّوجُّه؛ أشرق قلبه، واستنار وأضاء بأنوار المعرفة والإيمان، وعكست أشعة العظمة على قلبه وروحه ونفسه، فانشرح لذلك صدره، وقوي إيمانه، ونزَّه ربَّه عن صفات خلقه من الحصر والحلول، وذاق حينئذٍ شيئاً من أذواق السَّابقين المقرَّبين، بخلاف من لا يعرف وجه معبوده وتكون الجارية الرَّاعية الغنم أعلم بالله منه، فإنَّها قال: في السَّماء، عرفته بأنَه في السَّماء، فإنَّ «في» تأتي بمعنى «على» كقوله: ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]؛ أي: على الأرض، وقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[2]؛ أي: على جذوع النَّخل.

---

(١) سُورة المائدة: الآية ٢٦.

(٢) سُورة طه: الآية ٧١.

فمن تكون الرَّاعية بالله أعلم منه؛ لكونه لا يعرف جهة معبوده؛ فإنَّه لا يزال مظلم القلب، لا يستنير بأنوار المعرفة والإيمان، ومن أنكر هذا القول؛ فليؤمن به وليجرِّب ولينظر إلى موليه من فوق عرشه بقلبه مبصراً من وجه أعمى من وجه كما سبق مبصراً من جهة الإثبات والوجود والتَّحقيق أعمى من جهة التَّحديد والحصر والتَّكييف، فإنَّه إذا عمل ذلك؛ وجد ثمرته إن شاء الله تعالى، ووجد نوره وبركته عاجلاً وآجلاً لا ينبئك مثل خبير، والله الموفِّق.

فصل

في تقريب مسائل الفوقيَّة من الأفهام، بمعنى: من علم الهيئة لمن عرفه لا ريب أنَّ أهل هذا العلم حكموا بما اقتضته الهندسة، وحكمها صحيح؛ لأنَّه ببرهان لا يكابر الحسُّ فيه بأنَّ الأرض في جوف العالم العلوي، وأنَّ كرة الأرض في وسط السَّماء كبطِّيخة في جوف بطِّيخة، والسَّماء محيطة بها من [٢٢٥/ب] جميع جوانبها، وأنَّ أسفل العالم هو جوف كرة الأرض، وهو المركز، ونحن نقول: جوف الأرض السَّابعة، وهم لا يذكرون السَّابعة؛ لأنَّ الله تعالى أخبرنا عن ذلك، وهم لا يعرفون ذلك.

وهذه القاعدة عندهم ضروريَّة لا يكابر الحسُّ فيها أنَّ المركز هو جوف كرة الأرض، وهو منتهى السُّفل والتَّحت وما دونه لا يسمَّى تحتاً، بل يكون تحتاً ويكون فوقاً؛ بحيث لو فرضنا خرق المركز وهو سفل العالم إلى تلك الجهة الأخرى؛ لكان الخرق إلى جهة فوق، ولو نفذ الخرق إلى السَّماء من تلك الجهة الأخرى؛ لصعد إلى جهة فوق.

وبرهان ذلك: ما لو فرضنا مسافراً سافر على كرة الأرض من جهة المشرق إلى جهة المغرب، وامتدَّ مسافراً لمشي على الكرة إلى حيث ابتدأ بالمسير وقطع الكرة ممَّا يراه النَّاظر أسفل منه، وهو في سفره هذا لم تبرح الأرض

تحته والسَّماء فوقه؛ فالسَّماء الَّتي يشهدها الحسُّ تحت الأرض هي فوق الأرض لا تحتها؛ لأنَّ السَّماء فوق الأرض بالذَّات فكيف كانت السَّماء كانت فوق الأرض من أيِّ جهة فرضنا.

ومن أراد معرفة ذلك؛ فليعلم أنَّ كرة الأرض النِّصف الأعلى منها ثقله على المركز، والنِّصف الأسفل منها ثقله على النِّصف الأعلى إلى جهة المركز، والنِّصف الأسفل هو أيضاً فوق النِّصف الأعلى كما أنَّ النِّصف الأعلى فوق النِّصف الأسفل، ولفظ الأسفل فيه مجاز بحسب ما يتخيَّل للنَّاظر.

وكذلك كرة الماء محيطة بكرة الأرض إلَّا سدسها، والعمران على ذلك السُّدس والماء فوق الأرض كيف كان وإن كنَّا نرى الأرض مدحية على الماء، فإنَّ الماء فوقها، وكذلك كرة الهواء محيطة بكرة الماء وهي فوقها، وإذا كان الأمر كذلك؛ فالسَّماء الَّتي تحت النِّصف الأسفل من كرة الأرض هي تحته لا فوقه؛

لأنَّ السَّماء على الأرض كيف كانت فعلوها على الأرض بالذَّات فقط لا تكون تحت الأرض بوجه من الوجوه، وإذا كان هذا جسم وهو السَّماء علوُّها على الأرض بالذَّات، فكيف يكون من ليس كمثله شيء، وعلوَّه على كلِّ شيء بالذَّات كما قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾[1]، وقد تكرَّر في القرآن المجيد ذكر الفوقيَّة ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[2]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[3]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[4]؛ لأنَّ فوقيَّته سبحانه وعلوَّه على كلِّ شيء ذاتيّ له، فهو العليُّ بالذَّات، والعلوُّ صفته اللَّائقة كما أنَّ السُّفول والرُّبوب

(١) سُورة الأعلى: الآية ١.
(٢) سُورة النحل: الآية ٥٠.
(٣) سُورة فاطر: الآية ١٠.
(٤) سُورة الأنعام: الآية ١٨

والانحطاط ذاتيٌّ للأكوان [٢٢٦/أ] عن رتبة الرُّبوبيَّة وعظمته وعلوِّه.

والعلوُّ والسُّفل حدَّين الخالق والمخلوق، يتميَّز به عنه وهو سبحانه عليٌّ بالذَّات كما كان قبل خلق الأكوان، وما سواه متسفِّل عنه بالذَّات، وهو سبحانه العليُّ على عرشه يدبِّر الأمر من السَّماء إلى الأرض، ثمَّ يعرج الأمر إليه فيحيي هذا، ويميت هذا، ويمرض هذا، ويشفي هذا، ويعزُّ هذا، ويذلُّ هذا، وهو الحيُّ القيوم القائم بنفسه وكلُّ شيء قائم به، فرحم الله عبداً وصلت إليه هذه الرِّسالة ولم يعالجها بالإنكار، وافتقر إلى ربِّه في كشف الحقِّ آناء اللَّيل وأطراف النَّهار.

وتأمَّل النَّصوص في الصِّفات، وفكِّر بعقل في نزولها وفي المعنى الَّذي نزلت له، وما الَّذي أريد بعلمها من المخلوقات، ومن فتح الله قلبه عرف أنَّه ليس المراد إلَّا معرفة الرَّب تعالى بها، والتَّوجُّه إليه منها، وإثباتها له بحقائقها وأعيانها كما يليق بجلاله وعظمته بلا تأويل، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، ولا جمود، ولا وقوف، وفي ذلك بلاغ لمن اعتبر، وكفاية لمن استعبر إن شاء الله تعالى، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلِّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدِّين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

رسالة في مراتب المعرفة

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

وهي رسالة البحر المحيط.

الحمد لله المتَّصف بالقدس في أزله وأبديَّته، وعلوِّه وفردانيَّته، وهو ذو الجلال والإكرام، الملك القدُّوس السَّلام، تاهت العقول تهتةً وتحيُّراً في كنه قدسه وجلاله، وأعرضت عن وجه الطَّلب للإحاطة بإدراكه، وكيف لا وهو لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وله وصف الإحاطة بما خلق من مدارك خلقه، وقيوميَّته شاملة لصنعه، وتوجَّهت إلى طلب وجدانه وقربه، فهو الموجود الَّذي لا يحاط بكنهه، والمعروف الَّذي لا إشارة إلى حدِّه، فوجود الواجدين إنَّما هو بإدراكه لهم، وبصر المراقبين بمراقبته إيَّاهم، وهو السَّميع البصير كشف عن وجود المحبِّين ملابس وجودهم، وأراهم أوَّليَّته وآخريَّته، وظاهريَّته وباطنيَّته، فغابت الأوَّليَّة منهم في أوَّليَته، والأخرويَّة منهم في آخريَّته، والظَّاهريَّة منهم في ظاهريَّته، والباطنيَّة منهم في باطنيَّته، فصارت الأوائل في الأوَّليَّة، والأواخر [٢٢٦/ ب] في الآخريَّة، والظَّواهر في الظَّاهريَّة، والبواطن في الباطنيَّة، وجوداً متلاشياً قائمة بقيوميَّته لها، وجوداً خفي يحسبها.

وهو الموجود الظَّاهر حقيقة في وجوده القديم الأزلي الَّذي كان ولا شيء معه، فلمَّا كانت الأشياء؛ كان قيُّوماً بها، رأوا أوَّليَّته قبل الأوائل، وآخريَته قبل الأواخر، وظاهريَّته قبل الظَّواهر، وباطنيَّته قبل البواطن، فسبق إلى قلوبهم قبل كلِّ شيء، ورأوا الأشياء في وجوده كلَا شيء، وكان هو الموجود حقيقة،

وكان ليس غيره شيء، وإن ظهرت الأشياء؛ فكأنَّها بالنِّسبة إلى وجوده لا شيء، فانبثقت عليهم المعارف من جميع جهاتهم حيث تلاشى الحدث وامتحى، وطلع شعاع القدم، وأضاء وسطع الجلال، والجمال، والكمال، والدَّوام الَّذي لا يبيد ولا يفنى، ولم يبق الأمر موقوفاً على العقول والقلوب والأرواح، فإنَّ معارفها في مراتب الوجود الذَّاهب الفاني رتبة فوق رتبة، فخفيت في هذه الرُّتبة المراتب، وظهرت الحقائق السَّواطع الثَّواقب، وطلعت شموس العرفان، واندرجت فيها دلائل الإيمان والإيقان.

فتبارك الحنَّان المنَّان الَّذي أودع هذه الأنوار قلوباً، وكشف عنهم بها كروباً، واستعملهم في طاعته ضروباً، وأقامهم بعد وصولهم في عبوديَّته ركوعاً وسجوداً، مستغرقين في حضرات قربه قياماً وقعوداً بوجود لهم كالخيال لا ينحجبون به عن الحال، وإنَّه يشبَّه بالظِّلال رقَّةً ولطفاً، فهم بذلك الخيال بين يدي ذي الجلال يلتمسون رضوانه، ويسألون غفرانه، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[1]، وصلَّى الله على الواسطة إلى هذه الخيرات، ومنبوع البركات، ورسول ربِّ الأرض والسَّماوات محمَّد المصطفى المجتبى وعلى آله وأصحابه الصَّفوة الَّذين بهم يقتدى، وبهديهم يهتدى.

هذه عبرة من الإشارات إلى الحقائق كتبت بمعونة الله ﷻ واستخارته، عساها تكشف عن قلوب الطَّلبة تحيُّراً، وتريهم آيات الله وبيِّناته في ألواح الوجود تصوُّراً، فيرتقون إلى حقائقها بعد المرور على معالمها تدبُّراً.

اعلم أيَّدك الله وأوصلك إلى روضات جنَّات قربه العزيز لا قصمك أنَّ المعرفة مراتب لا يسع الجهل بها، وللحقائق تتِمَّات ينقص من لم [٢٢٧/أ]

---

(١) سُورة الإسراء: الآية ٥٧.

يتحقَّق بها.

والحقائق كالبحر المحيط من لم يرتق قبلها في رتب المعارف، ويتهذَّب في قوالب العبوديَّة بأحكام مقتضياتها؛ أخذته أمواجها وربَّما غرَّقته، ولم يهتد إلى النَّجاة من أوعارها وجبالها، فربَّما أتلفته، وها أنا أذكر ترتيب المعارف؛ ليحرص الطَّالب على التَّرقِّي في درجاتها، والتَّهذُّب في عبوديَّاتها، وبالله التَّوفيق.

أوَّل مراتب المعارف: مبدأها من حسن الاستماع إلى الله ﷻ وإلى الرَّسول ﷺ، فيعلم في ابتداءها علماً يقيناً بوجود ربٍّ عظيم فوق عرشه بائن من خلقه، له أسماء، وصفات، وكلمات، وآيات، وذات منزَّهة عن صفات المخلوقات، بعث رسلاً، وأنزل عليهم كتباً، وختمهم بمحمَّد ﷺ، فأنزل عليه القرآن الَّذي أبان عن فصاحة وبيان، وبلاغة وبرهان، اشتمل على فصل الخطاب، وكشف عن منهج الصَّواب بأوجز القول وأتمّه، وأحسن النَّظم وأعمّه، مجملاً ومفصَّلاً، كان هو والَّذي جاء به موسى ﷺ يخرجان من مشكاة واحدة، كما قاله النَّجاشيُّ ﷺ: استنشق العقلاء منه أراييج النُّبوَّة، ولاح لقلوب الأذكياء فيه نعمات الرُّبوبيَّة، فإنَّه سبحانه دلَّ فيه على نفسه بذكر أفعاله المبتدعة، وأسمائه المثبتة، وصفاته المقدَّسة، ونعمه الكاملة، وآياته الظَّاهرة بأتمِّ القول وأكمله، وأبين الوصف وأتمِّه.

شهدت القلوب بأنَّه ليس قول البشر؛ إذ ليس في قوَّة البشر التَّعبير بما به عبر، ولا الإحاطة بما عنه نهى وأخبر ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[1].

فنهض بعض أهل الهمم العالية، والعقول الرَّاجحة، والعيون المبصرة إلى

---

(١) سُورة الإسراء: الآية ٨٨.

قبول ما منَّ عليهم به مولاهم من الهدى، فقبوله معتقداً، وقاموا بأحكامه عملاً، ورضوا نفوسهم على التَّلبُّس به طوعاً وكرهاً حتَّى اطمأنَّت نفوسهم عليه، وصار هداه لهم شعاراً، وأعماله لهم دثاراً، بل صار بمثابة العادة يتألَّمون لفوت شيء منه، أو لنقص لاح لهم فيه عنه، فاستقاموا بعد أن قالوا: ربُّنا الله، طابق عملهم مقالهم، فكان في ذلك فلاحهم، فمتى أعان الله تعالى بحيث يرمي العبد إلى [٢٢٧/ب] هذه الغاية، ويصير الدِّين له طبيعة وعادة، فقد أوشك أن يشرق قلبه بمشهد الإلهيَّة، وينفتح لسرِّه طاقة إلى باريء البريَّة، فتنفتح عيناه في باطنه يرى منها ما غاب عن العيان كما ترى العين الظَّاهرة مرئيَّات الأكوان فيشعر القلب بوجود ربِّه فوق عرشه وفوق سبع سماواته، ويسمع كلامه كأنَّه يسمعه منه، ويسمع كلام نبيِّه صلَّى الله كأنَّه قد رآه، وصحبه شعوراً لا حدَّ فيه ولا كيف، منزَّهاً عن جميع صفات الحدث والنَّقص، وبرهان الشُّعور أنس يجده بالَّذي هو فوق العرش عبوديته له، وخوف منه وهيبته له، وشعور بعلمه وسمعه وبصره، فيكون أوَّل الأمر نصيبه من ذلك لمحات لا تدوم، وكلَّما واظب على العبادة والاستماع إلى التَّلاوة، والنَّظر في السُّنَّة قوي قلبه، وانتعشت همَّته، وقوي علمه في إيمانه، وكلَّما قوي علمه في إيمانه ترقى في الكشف المذكور حداً بعد حد وطوراً بعد طور إلى أن تبقى تلك الشَّهادة المذكورة لقلبه دائماً؛ بمعنى: غالباً.

وإن كان تكوَّن البشريَّة لا بدَّ منه، فإذا صار ذلك لقلبه دائماً تعالى في حقِّه عارف بمشهد الإلهيَّة، فإنَّه عرف من إله وعبد وصار لقلبه مألهاً يألهه ومعلَّقاً يتعلَّق به، ويلتجأ إليه

المرتبة الثَّانية: من رتب المعارف: أن يكشف له عن الصُّنع، والتَّدبُّر، والقيوميَّة، فيتجلى له الصَّانع في صنعه من سماواته وأرضه وبحره، وأنسه وجنِّه، والحيوان والنَّبات، والأقطار والجهات، وما ذرأ في الأرض مختلفاً

ألوانه، كلَّما رأى شيئاً ظهر برؤيته في سرِّه صانعه وبارئه وموجده، فتصير الكائنات له مذكِّرات يبصر المقصود منها، وتدلُّه عليه.

فعند ذلك يتيقَّن أنَّه لا نافع ولا ضارٌّ، ولا معطي ولا مانع إلَّا الله الحيُّ القيُّوم، فيرزق بمعونة الله تعالى عند ذلك صدق التَّوكُّل، وصفاء التَّفويض، وحسن الاستسلام للملك العلَّام، فإذا صار هذا المشهد لقلبه دائماً؛ سمِّي عارفاً بمشهد الرُّبوبيَّة، ومتى ظهر تارة وخفي أخرى؛ فلا يكون في حقِّه مقاماً كما تقدَّم ذكره أوَّلاً

المرتبة الثَّالثة من رتب المعارف: لوائح تقع في القلوب من لوائح الأسماء والصِّفات، تزيد الإيقان وتؤكِّدها، لا ينضبط مجموعها ولا ينضبط أيضاً تقدُّمها وتأخُّرها، كما يقع في القلوب [٢٢٨/ أ] الأنس بوجه الله الكريم الَّذي يراه المؤمنون عياناً يوم القيامة، بحيث يكتسي القلب بهجة وأنواراً، ومحبَّة واشتياقاً، وأنساً وقرباً، وفرحة وسروراً، ووجداناً ومشاهدة، بلا حدٍّ ولا كيف، بل يشعر بحكم هذه الصِّفة المقدَّسة في قلبه، ويجدها كما يليق بعظمته.

فذلك أيضاً مرتبة من مراتب المعرفة، ومثل الإنس يسمع الرَّقيب الشَّهيد أو المهابة منه، أو يبصر الحفيظ العليم أو المهابة منه، أو يعلم القاهر القادر أو المهابة منه، وصور هذه التَّجليَّات لا تنضبط فإنَّه كما قلنا بسمع الرَّقيب الشَّهيد، قد يقع التَّجلي بسمع الحفيظ العليم، أو بعلم الرَّقيب الشَّهيد على حسب ما تبرزه القسميَّات من أذواق الصِّفات للعارفين، ويكون للصِّفة الواحدة متعلَّق بغيرها من الصِّفات في الذَّوق.

وهذا باب واسع، وميدان عريض ذكرنا منه طرفاً ليسدلَّ بقليله على كثيره، وبالله المستعان.

المرتبة الرَّابعة من رتب المعارف: الكشف عن صفة الدِّيانيَّة، وإن كان ذلك من لوازم مشهد الإلهيَّة، لكنَّه مندرج فيه ضمناً وتبعاً، وتفصيله الكشف

عمَّا اتَّصف الله ﷻ به يوم القيامة من الحساب وتجلِّي العظمة الإلهيَّة في ذلك اليوم، فيوجب الخضوع والانقهار لعظمة الملك القهَّار، والعمل على إصلاح الحال؛ خوفاً من سوء المآل، وهجوم الآجال على التَّضيِّيع والإهمال، وقد ذكرنا هذا المشهد مفصَّلاً في غير هذا الموضع، لكن هذا جملته.

المرتبة الخامسة من رتب المعارف: الكشف عن الجلال والإكرام الموجب للمحبَّة والهيمان، والاحتراق لما يجده من أنوار الوجدان، الَّتي هي كالنِّيران، وذلك أيضاً مرتبة عالية من رتب المعارف قد تكون صفاتيَّة، وقد تكون ذاتيَّة، فهذه جملة من الإشارات إلى معرفة الأسماء والصِّفات يستدلُّ بقليلها على كثيرها، وبالله المستعان.

فصل

في الإشارة إلى البحر المحيط بحر الحقائق وسرِّ المعارف، وهو اضمحلال الحدث، وظهور الأزل، بحيث يصير الحدث كالهباء في الهواء وتقرِّب الحقائق من الواجد قرباً يمتحي في ذلك القرب وجوده؛ بمعنى: أنَّه يبقى الوجود شبحاً كالظلال والخيال، وهذا هو البحر المحيط مشهد التَّوحيد والفردانيَّة، وهو الَّذي يسمُّونه الجمع، فمن لم يرتق قلبه إلى [٢٢٨/ب] أطوار تلك المعارف، ويتدرَّب في عبوديَّاتها ووقع في هذا البحر ربَّما انعجم عليه الأمر، وتاه فيه عقله، وعجز عن الجمع بين الوجود الَّذي دهمه وبين العبوديَّة، وحار في نفسيه أموجود هو أم معدوم؟ وكيف يكون الحدث وجوداً مع وجود القدم؟ وربَّما توهَّم أنَّه لا وجود له، وإنَّما الوجود للحقِّ، كما ذهب إليه ابن عربي ونظراؤه.

فمن لم يتهذَّب بعلم الشَّريعة وأعمالها في ملاحظة صفة أو صفات ربَّما

اختطفته أمواج هذا البحر فضيَّع كثيراً من حدود الله تعالى، وعجز عن عبوديَّة الله وشطح وقال واستهان بالعبادة والصَّلاة، واستخفَّ بالمصلِّين وكانوا عنده محجوبين؛ لجهله وقلَّة علمه، وربَّما ادَّعى أنَّه الحقُّ، ولسان الحقِّ، وجميع ما يتحرَّك فيه بطبعه فعل الحقِّ.

وها أنا أذكر بيان فائدة تقدُّم المعارف الأوَّل على هذه المعرفة المحيطة الجامعة إن شاء الله تعالى.

اعلم أنَّ من إقامه الله تعالى في مشهد الإلهيَّة، وهذَّبه بعلومه وأعماله على النَّهج الَّذي سبق ذكره، ثمَّ في مشهد الرُّبوبيَّة، وتهذَّب بعلومه وأعماله ووقع في هذا البحر المحيط، فإنَّه أوَّلاً تمحو الأنوار الوجود بحيث لا يرى إلَّا القدم والفردانيَّة، فيبهت فيه ما شاء الله أن يبهت، فيحيي مشهد الإلهيَّة في هذا الموطن آخذاً بيده، فيقول له: لا تتوهَّم أنَّك مقصود، أنت موجود لكن وجودك تلاشى بظهور القدم، فصار كالخيال، ويجب على الخيال أن يقوم بوظائف العبوديَّة للقائم به، فيقوى حينئذٍ بما فتح له من البحر المحيط على استعمال الخيال الوجوديِّ بالطَّاعات والقربات، فيبقى شبحاً طائعاً في حضرة موجوده فيعبد الله بالتَّفويض في كلِّ شيء، وكيف لا وقد أراه الله تعالى عجز نفسه وعدم استبدادها، بل ربَّما غاب عن تفويضه بفعل مدبِّره، فمتى حرَّكه القدر بطاعة؛ علم أنَّها منه من مولاه، ومتى حرَّكه القدر بمنهي؛ علم أنَّها محنة؛ يجب عليه فيها مقاواة القدر بالقدر؛ لئلَّا يخرق سياج النَّهي، ومن لم يحكم هذه المشاهدة قبل وقوعه في البحر المحيط يخشى أنَّه يستوي عنده القبيح والمليح، ويخرق سياج الشَّريعة مستوراً بالسُّكر عن الأمر الصَّحيح.

فقد علمت أنَّ مبدأ المعارف مشهد الإلهيَّة، ثمَّ مشهد الرُّبوبيَة، ثمَّ ما يفتح من معارف الأسماء والصِّفات، ثمَّ ظهور القدم وتلاشي الحدث، وهو مشهد الفردانيَّة، ثمَّ ظهور إكرام القدم بحيث يغيب الوجود بأسره في [٢٢٩/أ] ذلك

الإكرام المحيط، وترى ذلك أقرب الأشياء منه، بل قد يغيب عن كلِّ الوجود به، ثمَّ استعمال حكم الإلهيَّة في وجود الفردانيَّة باستعمال الخيال الوجوديِّ في قوالب الأمر، والفرائض، والفضائل، ثمَّ استعمال مشهد الرُّبوبيَّة في مشهد الفردانيَّة بالغيبة عن التَّفويض لرؤية قيام الحكم، والتَّصريف من الفاعل المالك الَّذي يفعل ما يشاء ويختار.

وهذه الغيبة عن التَّفويض هي حقيقة التَّفويض، فيكون حكم الواحد في مشهد الجمع وهو الفردانيَّة استعمال حكم الفرق الأوَّل وهو مشهد الإلهيَّة، وهي الَّذي يسمُّونه جمع الجمع، فيعبد الله تعالى بكمال الوجدان في الجمع، وبكمال العبادة لمشهد الإلهيَّة، وبكمال العبوديَّة والتَّسليم لمشهد الرُّبوبيَّة، وكلُّ ذلك في الجمع، ومشهد الفردانيَّة، وبكمال المحبَّة، فإنَّه قد لا يرى غير جماله وكماله وجلاله، فيبقى كما قال العارف ﵁: المحبُّ من لا سلطان على قلبه محبوبه، ولا مشيئة له مع مشيئته؛ وبالله المستعان، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

قال الشَّيخ عماد الدِّين ﵀ و ﵁: هذه القاعدة تتمَّة لرسالة البحر المحيط، واسمها **دقائق الحقائق** من فتح الله له بالمشهد الرُّوحيِّ قبل المشهد القلبيِّ، ربَّما قد لا يمكنه تفصيل مشهده على تفاصيل الكتاب والسُّنَّة؛ لأنَّه ماحي لما سواه، وربَّما تنزَّل على مذهب الاتِّحاد وغيره من مذاهب الضَّلالات؛ لأنَّه كشف بالباطن.

والكشف قد يكون سببه الإرادة الصَّادقة وصفاء البصيرة، وذلك قد لا يمتنع على أهل الأديان المختلفة، أمَّا من وفَّقه الله تعالى ورزقه المشهدَّ القلبي على التَّفاصيل الشَّرعيَّة من الصِّفات الواردة الصَّادقة من مشاهدة صفة العلوِّ، والفوقيَّة، والكلام، والتَّدبير، والقيوميَّة، وغير ذلك ممَّا دلَّت عليه النُّصوص الشَّرعيَّة، ثمَّ فتح له بمشهد الرُّوح تفصل مشهد الفردانيَّة على تلك التَّفاصيل القلبيَّة، وقام كلُّ جزء من العبد من نفسه، وعقله، وقلبه، وروحه بمقتضى ما

يقابله من العبوديَّة.

فعبودية [٢٢٩/ب] النَّفس ترك الاختيار والإرادة، وعبوديَّة العقل الجولان في معاني الأمر والنَّهي، وعبوديَّة القلب الخوف، والرَّجاء، والمحبَّة العامَّة، والتَّوكُّل، والرِّضا، والافتقار، وغير ذلك، وعبودية الرُّوح المحبَّة الخاصَّة الموجبة للسَّكرات، والله تعالى أعلم.

مسألة: قد وصفتم مشهد الأرواح وعلو شأنه إذا فتح عقيب المشاهد القلبيَّة بحيث يتفضَّل عليها، بحيث لا يبقى مشهد الرُّوح مستقلّاً بلا تفضيل مطابق الشَّرع، وهذا يقتضي أن يكون هو الغاية القصوى، فمن فتح له بصفة العلوِّ، وأشرق على قلبه أنوارها، ولاح في ضوء أنوارها؛ فهم الكتاب العزيز من متكلِّمه، وفهم السُّنَّة الصَّادرة عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ، وامتلأ القلب بتعظيم العليِّ الأعلى وبمهابته، والحياء منه، وانجذاب القلب إليه، كأنَّه يراه، بل يراه بقلبه عياناً فوق عرشه، وفوق سبع سماواته بائناً من خلقه، ثمَّ فتح له بصفة القيُّوميَّة، فشهد قيام الأشياء بربِّها، وأنَّه لا ضار، ولا نافع، ولا معطي، ولا مانع إلَّا هو، واتَّصل من قلبه بالله ﷻ صدق المعاملة في التَّوكُّل والتَّفويض، وترك الاختيار، وصفاء الرِّضا، والتَّسليم لمقتضى ما عاينه من حكم الحكيم وفعل الفاعل الرَّحيم، ثمَّ اشتاق إلى مشهد الأرواح الَّذي وصفت، فكيف طريقه إليه بعد حصول هذه المشاهد العالية الَّتي قد يظنُّ الظَّانُّ أنَّها المنتهى.

الجواب: الطَّريق إلى ذلك الافتقار إلى الله تعالى، فإنَّ ذلك فتح يفتحه الله ﷻ على من يشاء من عباده، ثمَّ العمل على إطلاق القلب عن كلِّ قيد تقيُّده، ويحصره من الموجودات الظَّاهرة والموجودات الباطنة، ما عدا الفرائض، والسُّنن المؤكَّدة، وضرورة القوام، فإنَّه إذا واظب على ذلك وأصبح القلب خالياً عن كلِّ شيء مع الإرادة التَّامَّة لنيل المطلوب؛ يرجى أن يذهب

سلطان القلب بظهور [٢٣٠/أ] سلطان الرُّوح، كما يذهب ضياء الفجر بطلوع الشَّمس فإنَّه لا بدَّ من جمود النَّفس على القلب، وجمود القلب على الرُّوح؛ ليقوم الوجود الإنسانيّ بجوهر الرُّوح، ويظهر سلطانه.

ومتى كان سلطان النفس موجوداً كان سلطان القلب مستوراً، وكذا إذا كان سلطان القلب ظاهراً؛ كان سلطان الرُّوح خافياً، ومتى ظهر سلطان الرُّوح بعد جمود سلطان القلب؛ يرجى أن يوجد مشهد الفردانيَّة، وبالله التَّوفيق.

مسألة: هذا الجواب الَّذي أشرتم إليه في أسباب فتح عالم الرُّوح يقتضي تخلية الباطن عن كلِّ شيء سوى الأوامر، وهذا فيه نوع بطالة لا يوجد له وجه من الشَّرع، فيبقى العبد خالياً عن كلِّ شيء من الأوراد، والأذكار، وأنواع القربات بطالاً ينتظر شيئاً قد يبلغه وقد لا يبلغه.

فإنَّ الصَّادق في حدَّة إرادته إنَّما يجيء إلى القيام بكمال عبادة الله تعالى وعبوديَّته؛ بمعنى: أنَّه يستحضر عظمة الرَّب تعالى من وراء الحجاب ولا كشف له، ثمَّ يقوم بحقِّ عظمته على حسب إمكانه، فيطالب نفسه بأن لا يعظِّم شيئاً سواه، ولا يحبَّ غيره، ولا يأنس بسواه، ولا يستند إلى غيره، فيعكف عليه عكوف المريد على المراد، والمحبِّ على الحبيب، والطَّالب على المطلوب، وذا الفاقة إلى فاقته فيتَّخذه وليَّاً دون كلِّ شيء، ومحبوباً دون كلِّ حبيب، ووكيلاً دون كلِّ وكيل، وذخراً دون كلِّ ذخر، فيشتغل به اشتغال المهتم بغاية همِّه حتَّى أنَّه ربَّما لهي عن كلِّ شيء سوى ذكره؛ إذ لا يعرفه بمشاهدة صفاته إنَّما يؤمن به، ويوقن بوجوده.

فمن كان هذا شأنه في ابتدائه مع مولاه فيترك هذا كلَّه ويقعد فارغاً خالياً عن كلِّ شيء، فلا بدَّ لهذا الفارغ من نيَّة تعادل جميع الخيرات الَّتي سبق ذكرها، فإنَّ الأعمال بالنِّيَّات.

الجواب: الطَّالب لا يخرج عن هذه العزائم الصَّحيحة مع موليه، بل يستصحبها في المبادئ [٢٣٠/ب] والغايات، وفي المحيا وطول العمر إلى

الممات، وليعلم أنَّه إذا فتح له بمشهد الفردانيَّة؛ وجد خالص المحبَّة لمولاه من كلِّ عرق ومفصل من وجوده، وكيف لا؟ ومحبَّته ليست المحبَّة العامَّة فقط المفسَّرة بامتثال الأمر، وإنَّما محبَّته المحبَّة الخاصَّة الموجبة للسَّكرات.

ومتى حصل هذا؛ وجد بعون الله تعالى حال العبوديَّة الخاصَّة بعد تلك العبوديَّات العامَّة، وكان نصيبه من التَّعظيم، والحبِّ، والخشية، والمراقبة، والتَّفويض، والتَّوكُّل، وسائر ما وصفت أوَّلاً متضاعفاً بأضعاف لا يمكن شرحها، ولا يعرفها إلَّا من ذاقها.

فإن قلت: بيِّن لي ذلك حتَّى يشتفي غليلي فإنِّي كالمتحيِّر فيما وصفت، ومشتاق إليه، وخائف إن تركت ما أنا عليه؛ أن لا أصل إلى ما ذكرت فأبقى كالمذبذب.

الجواب: قد عرَّف العارفون الفرق بين عبوديَّات صاحب النَّفس وعبوديَّات صاحب الرُّوح، فجميع ما وصفت أوَّلاً من معاملة الصَّادق لله في ابتدائه إنَّما هو بالنَّفس فيقهرها ويردعها عن الخروج عن دائرة الحقِّ، وينشط تارة ويفتر أخرى، وله مع ذلك حظوظ، وشهوات، والتفات إلى الحظوظ من الأكوان، ولا بدَّ له من شيء من الحظوظ يتلوَّن به؛ كي لا ينقطع.

وأمَّا عبوديَّات صاحب الرُّوح فهو شخص قد اطمأنَّت نفسه وسكنت وذابت غددها، وجمدت على القلب، وظهر سلطان القلب، فانطلق في فهم الكتاب والسُّنَّة، وأشرق فيه أنوار آثار الصِّفات المقدَّسة، فعرف ربَّه سبحانه بما تعرَّف إليه من صفاته، وقام بما وفَّقه الله تعالى من العبوديَّات التَّامَّة لربِّه في عالم قلبه، فلمَّا وفى ذلك اشتاق إلى عالم الأرواح فتخلَّى عن كلِّ ما عمله وعن كلِّ ما تتعلَّق همَّته به سوى مطلوبه، فانطوى القلب، وانطوى بانطوائه ما كان منه من الأحوال والعلوم، وظهر عالم الرُّوح فانجذبت قواه الظَّاهرة والباطنة إلى محبَّة مولاه الخاصَّة الَّتي لا يكون فيها ولم يبق له حظٌّ من الدُّنيا

يلتفت إليه، ولا من منازل نعيم الأبدان في الآخرة يحوم عليه، بل صار حظَّه، وبغيته، وأمله، وكنزه، وذخره نصيبه من مولاه، فهناك عبد الله تعالى بمجموعه بجسده، ونفسه، وعقله، وقلبه وروحه فاندرجت مشاهد القلوب في طيِّ ما وجده من مكاشفات الأرواح، وصار الجسم قائماً بوظائف البدن والنَّفس متخلِّية [٢٣١/أ] عن اختيارها وإرادتها، وذلك هو غاية عبوديَّاتها.

والقلب قائم بوظائفه في مشهد الرُّوح من العبوديَّات القلبيَّة من الخوف، والرَّجاء، والتَّوكُّل وأشباهه، والرُّوح مستغرقة فيما ابتهجت به من الوجد بالوجدان، فهل يقاوم هذه الأحوال والعبوديَّات أيُّها اللَّبيب العاقل بما وصفت أوَّلاً من عبوديَّات أهل الابتداء؟ وأمَّا ما ذكرت بأنَّه يترك ما هو عليه.

فنقول: لا، بل يكون على حاله، ويقصد بتخلِّيه: أن تتضاعف عبوديَّته، وخوفه، ومحبَّته، ووجدانه لمولاه على ما كان عليه في ابتدائه أضعافاً مضاعفة، ولا يقصد غير ما قصده أوَّلاً من الشُّغل التَّام المستغرق لسائر قواه بالله؛ إذ لا ينبغي للصَّادق أوَّلاً وآخراً الخروج عن طلب، ولا الخروج عن الاهتمام به.

لكن أيُّها العاقل أفرِّق بين حال قام بالنَّفس والتَّكلُّف وبين حال صار طبيعة من الرُّوح، كما تعلم أنَّ الرُّوح إذا قامت بوظيفة الحبِّ مثلاً؛ انفعل لها جميع القوى والجوارح، ولا يكن همُّك من ذلك مجرَّد الشُّهود، فإنَّ في النَّاس من يطلب الوجدان حتَّى يجد، فإذا وجد فكأنَّه استراح، والصَّادق يجد الوجدان لتوفير أقسام العبادة والعبوديَّة؛ ليلقى الله عبداً حقَّاً قام بأعباء العبوديَّة الظَّاهرة والباطنة القلبيَّة، وما وراء ذلك من العبوديَّات الرُّوحيَّة، وهل نسبة أشرف من العبوديَّة؟ فاعلم ذلك وحقِّقه واطلبه من مالكه عساك أن تفوز به إن شاء الله تعالى.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

رسالة العقبات والطَّوارق والعوارض

[بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

والطَّوارئ وسياساتها بحكم العلم كيلا تقطع عليه الطَّريق، وبالله المستعان وعليه التّكلان.

الحمد لله ولي الهداية الشَّامل لمن أحبَّه بجميل العناية، والكافل للمتوكِّل عليه بالحماية والوقاية، وصلواته على سيِّدنا محمَّد النَّبيِّ الآميِّ سيِّد ولد آدم الَّذي خصَّه الله ﷺ برسالته طرق الانحراف والغواية، وفتح به سبيل العلم والدِّراية، وجعله [٢٣١/ب] وسيلة للوصول إلى كلِّ غاية، وجعل الخير معقوداً بناصية المتمسِّك بما ثبت في الرِّواية صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة تبلغه من المطالب العلويَّة كلَّ نهاية.

وبعد فاعلم أيُّها الأخ الطَّالب الرَّاغب في تحف المواهب، من فضل العزيز الواهب، ممَّا اختصَّ به أهل الخصوص الحافِّين بحضرته، المتعطِّشين إلى نيل مشاهدته ومكالمته، المهتمين بذلك في ممرِّ السَّاعات الَّذين فاجأ قلوبهم الشَّوق إلى مولاهم، فصار لذلك همُّهم اللَّازم غلب هذا الهمِّ على ما سواه من الهموم، فغابوا بغلبته عن مطالب العموم، واستولى على قلوبهم ربانيَّة الحيِّ القيُّوم، حضروا لديه بالإرادة له فأحضرهم، وتنغَّصت عليهم ملاذ حياتهم؛ لفقد مشاهدته، فأوقفهم على بابه ووفَّقهم، لا يفرحون إذا فرح النَّاس فتعود أفراح الغموم لديهم أتراحاً تورثهم هموماً وأحزاناً، قد أقفرت الدُّنيا في وجوههم؛ لفقد معاينتهم لمطلوبهم، كما قيل:

كفا حزناً بالواله الصَّبِّ أن يرى ... منازل من يهوى معطَّلة قفرا

قف بالدِّيار فهذه آثارهم وابك الأحبَّة حسرة وتشوُّقاً
كم قد وقفت بها أسَّائل ربعها من مخبِّر فيجيبني متحرِّقاً
فأجابني داعي الهوى من رسمها فارقت من تهوى فعزَّ الملتقا
إن عاد عود الوصل بعد جفافه ويباسه غضَّاً رطيباً مورقا
فلأخلعنَّ على المبشِّر لي بكم ثوب الحياة وما ملكت من البقا

واعلم رحمك الله أنَّ مبدأ هذا الحال عند دخول العبد في التَّوبة والرُّجوع إلى الله ﷻ عن المخالفات والتزام الموافقات، حيث تكون الهمَّة من الطَّالب ضعيفة، فلا بدَّ أن تعترضه في طريقه قواطع وطوارق وطوارئ وعوارض، فمن انتبه لها وعرَّفه الله ﷻ كيفيَّة المخرج منها؛ لم يبال بها، كما قال عزَّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا [٢٣٢/أ] لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥﴾[2].

فإذا عرضت العوارض وجاء منها جنود كقطع اللَّيل المظلم صفَّ بحذائها جنود الله ﷻ من العلم والإيمان، وأنوار السُّنَّة والقرآن مستعملاً لوظائفها متوجِّهاً بالعمل إلى الرَّحمن الرَّحيم.

فإن هو صبر على ذلك مقاوماً لتلك الجنود، منازلا لها أحياناً بالطَّرد لخواتمها وخواطرها، فيفعل فيها من النِّكاية، كما يفعل به فما يحسُّ بمعونة الله إلَّا برياح النَّصر وقد هبَّت، وجنود الطُّغيان قد انتفضت، ثمَّ قلت، فيهزم صبحُ اليقين ليل الطَّبيعة ويمحقها، وتطلع شمس اليقين والإيمان مشرقة، وتقطع جنبات العوارض وتخرقها.

---

(١) سُورة التحريم: الآية ٦.
(٢) سُورة الأنفال: الآية ٤٥.

فمن تاب عن الشَّهوات المحرَّمة؛ جاءته معترضة مزيَّنة مهيَّأة؛ ليمتحن بذلك صبره وقصده، وكذا من أعرض عن قرنا ألقى في قلوبهم محبَّته والشَّوق إليه، فيقتحموا حليه طلبه بكيفيَّة الأشواق نفاقها كاسدة.

وكذا من فارق أوطان الغفلات ألقى في قلبه حبُّ الوطن من الإيمان، وذاك من الشُّبهات والتَّلبيسات، فيعلم المريد الطَّالب أنَّ الطوارق والعوارض الكثيرة العدد يأت على المريد جنودها كاملة العدد كسيل العرم، وهي تنقسم إلى قسمين: طوارق محبوبة إن وقف معها، مال إليها؛ سلبته حياته الأبديَّة وسعادته السَّرمديَّة.

وكذا العوارض المكروهة إذا نازلته؛ فلا يكترثنَّ بها، فمتى اشتغل بها أو بآثار كدرها؛ وقف على طريقه، وتخلَّف عن رفقائه إلى مواطن التَّحقيق في أسفار التَّوفيق، وليقرأ: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[1].

(١) سُورة آل عمران: الآية ١٤٦.

الفصل الثَّاني من قطع عتبة التَّوبة والاستقامة

[بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

ودخول ميدان الطَّلب والمحبَّة فلذلك أيضاً عوارض تناسبه، وقواطع تلائمه وتقاربه تنصبُّ عليه شهوة المناصب، وكيفيَّة الحذر من فوتها أو حلاوتها للعلوم الدَّقيقة، والتَّوغُّل في أبحرها، وشهوة الاستتباع للخلق برئاسة العلم أو رئاسة الحال، أو شهوة سياسة الخلق ولو بالأوامر الشَّرعيَّة [٢٣٢/ب] وهو صورة حقٍّ روَّجها الهوى والشَّهوة، والتَّحسُّر على ما ناله في طريق السُّلوك من ازدراء الخلق، وحقوق المرتبة، واتِّضاع المنزلة، فتسوّل إليه نفسه أنك لو كنت في غير هذه الطريقة لكان وكان، وعوارض طريق المحبة أكثر من أن توصف، ولا يغرُّ العبد همود هذه الهمم في قلبه الآن، فإنَّها كامنة ككمون النَّار في الحجر تظهر في أوانها من حيث لا يشعر العبد، فيوطن العبد نفسه مستعيناً بالله ﷻ على مقاومة العوارض والطَّوارئ في كلِّ مقام، ودفعها والمصابرة لها بمعونة العزيز العلَّام، والتَّفرُّج على ورودها واقفاً على دسائس النَّفس وتلبيساتها، ينظر ما فطرها عليه خالقها، ويعلم حكم الاستعاذة بالله من شرِّها وشرِّ ما فطرت عليه، وكيف لا؟! وفي الدُّعاء المشروع الثَّابت في الصَّحيح.

اللَّهمَّ ألهمني رشدي، وقني شرَّ نفسي، فيستفيد أوَّلاً بذلك معرفتها ومعرفة ما فيها من الغرائز العجيبة والأوصاف الرَّدية، فلا يزال يخصُّ منها خلقاً خلقاً حتَّى يصير عبد الله ﷻ وهناك يتولَّاه مولاه، وينصبُّ عليه فيه من أنوار ولايته، ويجعل ثواب قلبه.

وها أنا أذكر القواطع والطَّوارئ على وجه التَّفصيل كما ذكرته على وجه الإجمال، وإلى الله نفتقر ونسأله حسن الخاتمة، وكريم المنقلب والمآل، والحمد لله وحده.

التَّفصيل بعد الإجمال

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

أوَّل ما يبدأ المريد بالتَّوبة، والصِّدق، والتَّوجُّه إلى الملك العزيز بالطَّاعة يسلِّط عليه أهل الحارة، ومن كان بينه وبين من كان منهم صداقة خصوصاً لمن رأى منهم مودَّته قد نقصت من قلبه، فيرميه بالأذى، وينسبه إلى الجفاء والكبر يلصق به ألقاباً شنعة.

فالعاقل منهم يسمِّيه بأسماء الأكابر استهزاء، يقول: هذا الجنيد، أو الشِّبليُّ، أو أبا يزيد: والسَّفيه يلصق به ألقاباً دنيَّة كصفندح، وسفرندك، وحسرندك، وما أشبه ذلك.

فإن هو قهر هذا العارض بالصَّبر والمداراة والمسالمة بالسَّلام مع الإعلام [٢٣٣/أ] وإلَّا انقطع في هذه العقبة، واستولى عليه الأعراض بالعذل واللَّوم خصوصاً إذا كان جميل الصُّورة، أو كان له في أيَّام العقبة غفلة، واستولى عليه باللَّوم في أيَّام غفلته مباسطات ومنادمات، فإنَّهم ربَّما استولوا على عقله حتَّى يردُّوه إلى حالته الأولى، فمنهم من لا يسلم منهم إلَّا بالتَّغرُّب، فيتغرَّب فيستريح من شرِّهم، ومن التَّغرُّب هجرانهم لسلامة طريقه، وهو من الهجر في الله ﷻ فكثير من النَّاس انقطع في هذه العقبة، فإن سلم وصبر على أذاهم وألقابهم، وعاملهم كما أمره الله ﷻ، فأعرض عنهم وأهجرهم هجراً جميلاً، انكسرت شوكتهم وملُّوه وارتسمت له في قلوبهم صورة منكرة يستوحشوا منها، فتتبدل صفته في قلوبهم كما تبدلت صفته في الخارج، فينظرونه بالعين الَّتي هو بها فيستريح، فإذا عذلوه؛ ينشد:

أجد الملامة في هواك لذيذة حبّاً لذكرك فليلمني اللُّوَّم.

ثمَّ تبرز من النَّفس عقبة كؤود، وهي من العقبات الصَّعبة الشَّاقَّة على السَّالكين، فتقول له: من أين تأكل؟ من أين تلبس؟ ثمَّ يأتيه الشَّيطان فيعده بالفقر، ويأمره بالفحشاء.

فإن شاء عدَّه الله تعالى بالتَّفويض إليه، والتَّوكُّل عليه، وتعود طمأنينة القلب إلى الله تعالى وإلى ما قسمه، فيعلم أنَّ رزقه لا يزداد ولا ينقص كاللَّيل والنَّهار، فرضي بما قضاه الله تعالى وقسمه له من رزقه.

فإذا اطمأنَّ وسكن إلى الله ﷻ؛ قطع في هذا السُّكون مقامين التَّوكُّل، ومقام الرِّضا، وإنَّما يتحقَّق التَّوكُّل في الرِّضا ففي مقام التَّوكُّل يبقى عليه منازعة لطيفة من منازعة النَّفس، فتتخطَّى تلك المنازعة إلى الرِّضا، فإذا ارتقى من التَّوكُّل إلى الرِّضا؛ حقَّق في الرِّضا مقام التَّوكُّل، ثمَّ تبرز من كمين النَّفس عقبة جوانيَّة، وهي عقبة كؤود، وذلك حين انقطعت القواطع الخارجة.

والعقبة الجوانيَّة عقبة النِّكاح، فتطالبه بالتَّزويج، وتذكر له الآثار المرويَّة في السُّنَّة في ذلك، فإن غلبته فترت إرادته، وتعلَّق همُّه بمصالح العائلة ونفقتهم وكسوتهم، فينقطع بذلك سلوكه، والتَّزويج لا يصلح إلَّا بعد النُّفوذ، [٢٣٣/ب] بل وفيهم من يتغيَّر حاله مع النُّفوذ فكيف قلبه؟!.

والسِّرُّ في ذلك أنَّ الإنسان إنَّما ينفذ إلى ربِّه بقطع مسافات وجوده من نفسه وهواه، وذلك يحتاج إلى قوَّة شديدة، وجمع همَّة واهتمام، وشيخ مرشد، وإخوان يعاونونه ولو بنظرهم إليه، وعلوم يتقيَّد بها عقله، وطول زمان، بحيث يتبدَّل أرضه بغير أرضه، وسماؤه بغير سمائه، وتخمد صفات النَّفس، وتظهر صفات طبيعة القلب، ثمَّ يضمحل علم القلب، وتظهر طبيعة الرُّوح، فهناك تتطرَّق إلى حريم الشُّهود، ويستعدُّ للمكاشفة بالنُّور الأعظم الباهر، فعبد الله كأنَّه يراه، ويصير الإيمان له مكاشفة وذوقاً، ثمَّ يحتاج بعد

ذلك أن يصبر سنين، حتَّى يكمل انقشاع سحب الطَّبيعة عن شمس النَّفس، وتسكن أمواج الطَّبيعة بعد هيجانها.

فإنَّه يخشى أنَّه إذا تزوَّج في أوَّل الفتح قبل الرُّسوخ؛ أن يستولي عليه همُّ الزَّوجة فيسلب حاله، ويستتر شمس عرفانه بالغيوم الكونيَّات، بل يصبر حتَّى يرسخ ويصير بحيث يغلب ولا يغلب، ويبقى له كيفيَّة يقهر بها النُّفوس، وروحانيَّة تلقح بها الأرواح.

فهناك إن تزوَّج؛ يرجى أن تصبغ الزَّوجة وأهلها بصبغه، ويطحنهم بحجره، فإنَّه صار حجراً بعد أن كان شمعاً، والشَّمع يؤثِّر فيه النُّفوس وتذيبه الشَّمس، فهو يتأثَّر ولا يؤثِّر، والحجر يؤثِّر ولا يتأثَّر إلَّا بالآثار الحادَّة أثراً لطيفاً.

وهو كما هو حجريته ظاهرة فكذلك أهلُ التَّمكين، فإن هو صبر على هذه العقبة؛ دخلت عليه من باب الاجتماع بالصِّبيان؛ ليعلِّمهم الخير فيلحقوا به، فإن اختطفه هذا العارض؛ ركن إلى مراد النَّفس أدَّاه إلى الافتتان، وتجرُّه الفتنة إلى التَّلطُّخ.

والتَّلطُّخ أحد الأمور السَّالبة الَّتي تسلب الحال؛ بحيث يحجب عن القلب، وينسى القلب أثره بالأصالة، فيعود كأنَّه لم يذق شيئاً، وإن صبر على هذه العقبة، وكابد النَّفس بالتَّقلل، ونفي الخاطر، وامتدَّ الأمد على معاملة الله تعالى بالصِّدق.

فهنالك يرجى أن تظهر كيفيَّات قلبه، وهي كيفيَّة تبرز من القلب بمكارم الأخلاق واللُّطف والخشوع، فهنالك تعرض [٢٣٤/أ] له عقبة أخرى، وهو أنَّ القلب إذا صفا؛ رقَّ، وإذا رقَّ تأثَّر برؤية الملاح تأثُّراً عظيماً، حتَّى تبقى صورة المليح تنتقش في قلبه انتقاش الخاتم في الَّمع، فيؤدِّيه ذلك إلى الفتنة، والفتنة توقعه في السَّلب، أعاذنا الله من ذلك.

فإن هو استعمل الأعراض، وغضَّ البصر، والصَّبر على ما يفجأه من ذلك حتَّى نزول أثره بدت عليه عقبة أخرى، وهي شهود العلوم الدَّقيقة، وكثرة الخوض فيها، فإن هو أصغى إلى ذلك؛ أخرجه إلى كمخالطة من لا يحبُّ الله ولا يريده؛ لنيل هذه الشَّهوة العقليَّة، فربَّما سلبته كيفيَّاتهم، فانحطَّ إلى ما هم فيه، وإن هو صبر واقتصر على العلوم الشَّرعيَّة الَّتي يراد بها وجه الله ﷻ؛ فإنَّها تقوِّي السُّلوك ولا تضرُّه.

يرجى في هذا الموطن أن يكشف الغطاء عن قلبه فيرى جلال الله وعظمته، فيدركه من الحياء من الله ﷻ، والخشية له، والمهابة منه، ما يشغله ذلك عن كلِّ شيء فيلهو عن كلِّ شيء بذلك اشتغالاً بنفسه، فيبقى منكِّس الرَّأس، غائباً عن النَّاس كأنَّه في عالم والخلق في عالم، فتمتدُّ أعين العامَّة، وهنا يعترضه عقبة أخرى تعلُّق همم الخلق به، فيؤثِّروا فيه الانجذاب إليه.

فإن مال إلى الخلق واشتغل بهم، واهتمَّ بهمومهم، وصار يفرح لفرحهم، ويغتمُّ لغمِّهم؛ ملؤوا قلبه خصوصاً إذا صارت له رئاسة؛ امتزجت الرِّئاسة بشؤون حاله فضعفت حاله لذلك، وصارت فيه قوَّة نفسانيَّة يظنُّها قوَّة قلبيَّة، فتبقى نفسه تحبُّ الظُّهور، والرِّفعة، والكلام على الصَّادقين وغير الصَّادقين، يفرح بمحبَّتهم، ويغتمُّ بأغراضهم.

فذا عبد قد سقط من حاله، وبقي عليه غيره من بأنوار الصِّدق، فهو يتآكل بها قد انحرف عن العبادة، واستولت عليه النَّفس حيث كانت كالسَّمكة في الشَّبكة، شبكة الاجتهاد والرِّياضة والطَّلب، فانفلتت من الشَّبكة، ووقعت في الماء فامتنعت على صائدها، فعجز عن صيدها فهو يتآكل بما فتح له من بقبقة الكلام، ومدِّ العنق، وسيِّما الصَّالحين من صفار الوجه والسُّكون، [٢٣٤/ب] والخلق قد مالوا إليه لذلك فقد انقطع.

وإن صبر عن مخالطة النَّاس شغلاً بالملك الأعظم مراقباً للنُّور الَّذي فتح

له يعبد الله بألوان العبادات بالحياء تارة، وبالخوف تارة، وبالحبِّ تارة، وبالمهابة تارة، وبالتَّعظيم تارة على حسب ما يبدو له من آثار الصِّفات، لم يلبث مع مشيئة الله أن يفيض عليه فيمحو سلطان القلب، ويظهر سلطان الرُّوح، وقد فصَّلت هذا الحال في كرَّاس السَّكر والصَّحو، فيبدو وعليه صبح التَّوحيد، ثمَّ يطلع عليه شمس المعرفة، فيلتهب بحرارتها، ويرزق الحبُّ والخاصُّ الملهب للأرواح من سطوع آثار الجلال والإكرام الذَّاتي، بعد أن يضعف في أوَّل الأمر عن الكلام والاجتماع، ثمَّ يقوِّيه الله تعالى على ذلك.

فيعترضه ها هنا عقبة محبَّة الإرشاد، وليطَّلع إلى زاوية لإخوانه، ورفق يغنيهم عن التَّشتُّت بالسَّبب، وإذا رأي صادقاً؛ تعلَّقت همَّته به وبإرشاده، فإن أخذته هذه العقبة مال إلى الأسباب، واجتمع بأهلِّ الدُّنيا لأجل الرِّفق، فانقطع عن طريقه ووقف، وصارت النَّفس هي المسؤوليَّة عليه، فينقهر لها، ويسلك النَّاس بالنَّفس، ولا بدَّ أن تبقى فيه رابحة الحال، فيستعملها في مآب نفسه، وإن هو صبر على ذلك، وعكف بجميع همَّته على محبَّة الله تعالى لا يريد سواه، ولا يتطلَّع إلى غيره من الدُّنيا والآخرة، وأقبل على الله تعالى بكلِّه، وكان هو همَّه اللَّازم يرجى أن يقبل الله تعالى عليه بالمحبّة؛ صار محبوباً بعد أن كان محبّاً.

وعلامة هذا الصَّادق ألَّا يكون له مصحوب سوى مولاه بينه وبين غيره حجاب، حتَّى بينه وبين الصَّادقين أيضاً، فإنَّه يشهدهم عبيداً لمولاهم قد ردَّهم إلى عبيده، فهو ينفق عليه ممَّا أتاه مولاه من الحكم الموصلة، ولا يتَّخذ أحداً منهم خليلاً؛ وذلك لتمكُّن حال الخلَّة فيه، ومثل هذا يرجى أن يتولَّاه الله ﷻ فيسوِّسه كما يشاء، وتخمد النَّفس، ويذهب سلطانها، وتندرج في النُّور المتَّصل بالقلب اندراج اللَّيل في النَّهار.

كما ذكر الشَّيخ أبو طالب في «القوت» في باب الخواطر قال: وحينئذ

يجعل بوَّاب قلبه فيبقى ناطوراً لقلبه، وتضرب عليه قبَّة من نور أين كان، وفي أيِّ بقعة حلَّ، فيترك عليه خيمة من الأنوار، أنوار الولاية، يشهد القرب الحقيقيَّ، [٢٣٥/أ] وعينه شاخصة إلى مشيئات مولاه، وإلى حسن تدبُّره لعبده، فيسوق إليه من الرِّزق ما يشاء كما يشاء، ويمنعه ما يشاء كما شاء، ويسوق إليه الصَّادقين كما يشاء.

فهو لا يعيرهم طرفة عين، اللَّهمَّ إلَّا أن يقوم عليهم بواجب حقِّ الله ﷻ، وحينئذ دخل العبد هنا في ميدان العبوديَّة والولاية، فعين الله ﷻ ترعاه، وهو وليُّه وكافله وناصره، ومتولِّيه بمشيئته ومعونته، والنَّفس راقدة مندرجة كما قال رضي الله عنه لي:

والعبد عبد مولاه ويكشف ... الضُّرَّ عنه من عناء السَّفر

بقاؤه في سمع وفي كلم وفي ... حياة وفي بطش وفي نظر

فجملة الأمر قد تمَّت قواعده ... فاعمل على ضلع إن كنت ذا بصر

رسالة فيها لوائح من قواعد أهل الزَّيغ والضَّلال

[بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

المبطلين ولوائح من قواعد طريق الصَّادقين من أقلِّ العبيد الفقير إلى الله تعالى أحمد بن إبراهيم الواسطيُّ يحمد الله تعالى، ويصلِّي على رسوله ﷺ، وينهى إلى العلوم الكريمة أنَّ بينه وبين أشخاص صداقة ومودَّة، وربَّما هناك حقوق أيضاً فيهم من يميل إلى هذا التَّوحيد الَّذي حاصله التَّلحيد، وفيهم من هو متحيِّر بين الطَّائفتين، وفيهم من لا يفرِّق بينهما.

وقد كتبت شيئاً أرجو من كرم الله تعالى ببركة وقوع نظرهم عليه أن يكون ذريعة إلى زوال الالتباس، ومعونة على سلوك طريق الحقِّ في النَّاس، فإن كان فيه ما ينبغي تغييره، أو ما لا ينبغي ذكره، فيحصل إصلاحه بمعونة الله تعالى، بواسطة نظركم الكريم إن شاء الله تعالى، والحد لله وحده.

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد: فإلى الله ﷻ الشَّكوى، ثمَّ إلى رسوله ﷺ، ثمَّ إلى أئمَّة الدِّين ونصائحهم أيَّدهم الله تعالى بتوفيقه وتشديده، وأجزل لهم من فضله ومزيده، ما فشا في هذا الزَّمان من الزَّيغ، والتَّحريف، والتَّدليس، والتَّلبيس في طريق أهلِّ الله تعالى والسَّالكين إليه.

حيث قد امتحنَّا بطوائف متنوِّعة، وفرق مبتدعة، يشير إلى حقائق منكرة، وشقاشق وأحوال منحرفة، يقطعون بها الطَّريق على [٢٣٥/ب] طلَّاب الله تعالى، ويحرِّفون الكلم عن مواضعه، فيرتفع بذلك شأن الطَّالبين،

ويعدلون بهم عن المنهج المستبين، حتَّى آل الأمر في هذا الزَّمان إلى الالتباس، وتلوَّنت القلوب بسمة تلك الأدناس، واستعملوا اصطلاحات الصُّوفيَّة في ألفاظهم، وأشاروا إلى حقائق أحوالهم وقلبوها عن موضوعاتها إلى موضوعاتهم، فخفيت طريق الصُّوفيَّة في هذا الزَّمان، وكاد لا يدركها الحيران، إلَّا من أيَّده الله بنور العرفان، يخبطون في ترَّهاتهم خبط عشواء، بترَّهات نتجت عن زيغ الأهواء.

كلٌّ منهم يشير إلى انَّه قطب الطَّريقة، والموصل بالسَّالك إلى الحقيقة، ونفوسهم الغضبيَّة والشَّهوانيَّة، في أغلظ مراتبها فتون على طلب التَّقدُّم بحرص الاشتهار ولظُّهور والسُّمعة، وقوالبها ينتقصون بأصحاب الخوف والخشوع، وينسبون إلى الحجاب كلَّ من يصال الشَّريعة بالخضوع.

وهم مع ذلك أهلُّ علم وتدقيق، يسترون تلبيساتهم بالآيات والحديث، بغامض التَّدليس والتَّشفيق، فعمَّ البلاء واستعلاء قيامه، والتبس الحقُّ واختفت أعلامه، وحار الطَّالبون بمن يقتدون ولمن ذا يتَّبعون إلَّا من وقي الله وعصمه بالتجائه إلى كتاب الله تعالى، وسنَّة رسوله ﷺ، ومنهاج أصحابه والتَّابعين لهم بإحسان رضي الله عنهم أجمعين.

وسبب حيرة الطَّالبين ما غلب في هذا الزَّمان على أهلِّ العلم الظَّاهر من إيثار الدُّنيا والميل إليها، وقلَّة المبالات بالزُّهد والورع، وقواعد حقائق الدِّين، فأبت قلوب الطَّالبين أن تقلِّد هؤلاء الأصناف في علوم القلوب والأذواق.

وقد علمتم حرقة الطَّلب ولواعج الاشتياق، ولم يجدوا من يخلص أذواق المبطلين من أذواق المحقِّقين، وهي الأذواق الَّتي لا تكاد يصل إليها العلوم النَّظريَّة ولا المكتسبة.

فكتبت هذه الأحرف رجاء أن يقف عليها نفر من السَّادة العلماء والأئمَّة الفضلاء الَّذين جمع الله تعالى لهم بين العلم الظَّاهر، والذَّوق الباطن، والزُّهد المتين، والنُّور المستبين، وليتميَّز الحقُّ من الباطل، فيما سأذكره إن

شاء الله تعالى.

والسَّبب في هذا السُّؤال أنَّني فتَّشت بمقدار عقلي وما حاوله فكري على الدَّاخل الَّذي دخل على هؤلاء من أين آتاهم؟ فوجدته من أعراضهم عن أصول السَّلف وعقائد الصَّحابة والتَّابعين، فإنَّ كلَّ مبتدع يشير إلى الكتاب والسُّنَّة [٢٣٦/أ] والانتماء إليهما مشترك، ومن كونهم لم يجعلوا أصول السَّلف ميزاناً يزنون به أحوالهم، بل جعلوا أحوالهم ميزاناً لأمور السَّلف فيروهم محجوبين عمَّا شهدوه عواماً بالنِّسبة إلى ما أدركوه.

فحيث لحظت هذا المدرك الزَّمنيِّ أن أخاف أيضاً على نفسي؛ لكوني اعتقدت في طائفة وأحببتهم، مثل: ذي النُّون المصريِّ، وابن يزيد البسطامي، وأبي القسم الجنيد، وأبي بكر الشَّبليِّ، وأصحابهم، ووجدت لهم أحوالاً غريبة الأسماء والذَّوات كالحبِّ والشَّوق، والسَّكر والصَّحو، والفناء والبقاء، مثال ذلك: وعلمت أنِّي مطالب في الآخرة عن غرض أموري كلِّها، حليلها ودقيقها، ما ظهر منها على الجوارح وما كان معتقداً في القلب على قواعد السَّلف وفهمهم في كتاب الله مسنَّة رسوله ﷺ.

فأعلنت بهذه المسألة وقصدت أن أذكر لوائح من قواعد هؤلاء المبطلين، ولوائح من قواعد الصَّادقين؛ ليتفصَّل من يقف على هذه الأحرف من السَّادة العلماء، أهل الذَّوق الزُّهَّاد، المشار إليهم في أوَّل الكتاب، أعاد الله بركتهم. وتعرض كلُّ قاعدة من القاعدتين على أصول الكتاب والسُّنَّة، وتبين الطَّريق الزَّائغة المنحرفة، والطريق الصَّادقة الموافقة؛ لتزول الحيرة عن الطَّالبين، وينكشف الحقُّ بسواطع البراهين، وليبقى السَّائل أيضاً على بيِّنة من أمره، وبصيرة من حاله، ويكون له في موقف الحساب حجَّة إذا سئل عمَّا اعتقده وأضمره، من محبَّةمواجيد الطَّائفة المشار إليهم أوَّلاً.

فإنَّ الله تعالى أقام العلماء مقاماً يبيِّنونه للنَّاس ولا يكتمونه، والله ﷻ

بكرمه يوفِّق إلى الصَّواب.

بيان لوائح من قاعدة أهل الزَّيغ والضَّلال، أعاذنا الله من الفتن كلِّها في العقود والأعمال، وهم طائفة ينتسبون إلى الصُّوفيَّة، ولهم علوم، ورياضيَّات، وإرادات، وأحوال حاصلها أنَّهم يشهدون هذه الموجودات مظاهر للصِّفات لاعتبار أنَّها دالَّات على موجدها وصانعها، وعلى صفاته المقدَّسة، ولا يقولون: ألبسها وجوداً حقيقيّاً من فعله، لكن يقولون بأنَّه ظهر فيها بصفاته، وأنَّ وجودها مجاز ليس فيها من وجودها شيء، وإنَّما الوجود الحقيقيُّ هو الله فاض وجوده على الماهيَّات في العدم، الَّذي يسمُّونه العمى فظهرت الموجودات.

فهذه الموجودات والمتفرِقات، إنَّما هي مظاهر صفاته فسبب تعدُّد الموجودات، إنَّما [٢٣٦/ب] هو لتعدُّد الصِّفات، وتضاد الموجودات كالحار والبارد، إنَّما هو لتضاد الصِّفات.

فهذا الموجود عندهم حقيقته لله، وهو إنَّما حدث من التَّجلِّي لما تجلى بأسمائه وصفاته، ظهر من تجلِّيه بالصِّفات المتعدِّدة هذه الموجودات المتعدِّدة.

فإذا سمع ذلك من لا علم له بمقاصدهم؛ يتوهَّم أنَّهم يشترون إلى التَّوحيد، وشهود الأفعال الَّذي يشير إليه الصُّوفيَّة؛ لأنَّ الكلام الَّذي يقولون فيه شائبة حقٍّ من كون الوجود إنَّما هو قائم بإرادة الله تعالى، ولولا إرادة الباري بقيام الوجود؛ لم يقم، فيلتبس هذا الحقُّ بالباطل الَّذي تؤول إليه قواعدهم عند التَّحقيق، بأنَّ ما في الوجود سوى الله تعالى، وأنَّه ظهر فيه بصفاته حقيقة، وأنَّ وجوده فاض عليها تعالى الله عن ذلك.

ومع ذلك فإنَّهم ينكرون الحلول والاتِّحاد، ويعبِّرون عن شهودهم بلفظ المظهر وهم يشيرون الحلول والاتِّحاد، ويقولون يظهر بصفاته فهو الظَّاهر في كلِّ شيء بحقيقة صفاته، فليلحظ المتأمِّل هذا المدرك الدَّقيق، والشُّبهة الَّتي

تلبس على أهل العقول عقولهم، وتشعَّب عليهم أدمغتهم، ثمَّ إنَّا رأينا الفلاسفة يقولون بقدم العالم، وأنَّه حيث كانت الذَّات كانت الأفعال، لكنَّهم يفرِّقون بين الفاعل والفعل، ولعلَّهم والله أعلم في هذا المعنى خير من هؤلاء في العقل والإدراك، وهؤلاء لا يفرِّقون بين الفعل والفاعل، ولا يقولون أنَّ الله تعالى أكسب الوجود وجوداً حقيقيّاً من فعله قام بإرادته، وانتظم بمشيئته لا تعلُّق لصفاته بها إلَّا من مجرد الإرادة، يريد الشَّيء فيكون ويختار الأمر فيصير، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾(١)

بل يقولون: إنَّ العبد هو في مرتبة عبد، وفي مرتبة رب تارة، يقولون: فاض وجوده على الموجودات، وتارة يقولون: ظهر فيها بصفاته، وتارة يقولون: هي وحدة لا كثرة فيها، قاتلهم الله أنَّى يؤفكون، ثمَّ إنَّهم يشيرون إلى أنَّ السَّالك ينبغي له أن يترقَّى إلى معرفة حقيقيَّة، فيترقَّى من المراتب الوجوديَّة إلى المراتب العدميَّة، فيصل حينئذ إلى الوجود الحقيقيِّ، الَّذي هو الوجود هو مظهر له.

فحينئذ يشهد الوحدة المطلقة، ويصير عارفاً مطلقاً، يشهد الحقيقة في كلِّ شيء من كلِّ شيء بكلِّ شيء، منكراً كان ذلك الشَّيء في الشَّرع أو معروفاً؛ لأنَّ الظَّاهر في كلِّ شيء شيء واحد، فحينئذ يصير موحَّداً [٢٣٧/ أ] عارفاً، فيفهم من ذلك أنَّ الَّذي يصل إلى هذه المرتبة يصير هو الحقيقة، فيفعل ما يشاء من المباحات والمحرَّمات بلا قيد شريعة ولا غيرها، وتضمحلُّ العبوديَّة؛ لامتحاء الثَّنويَّة؛ لأنَّ العبوديَّة إنَّما هي في الثَّنويَّة.

فإذا امتحت الثَّنويَّة فمن العبد ومن المعبود، ثمَّ إنَّ صاحب هذا المقام إن أتى بالشَّرائع؛ فإنَّما يأتي بها لملاحظة المراتب، فإنَّ المراتب قد يلحظها

---

(١) سُورة يس: الآية ٨٢.

الصَّاحي عندهم، فيأتي بها لرعاية المراتب، فإذا قيل لهم: وما المراتب؟ **يقولون**: كان الله ولا شيء معه ففاض وجوده على الماهيَّات، فظهرت الأسماء والصِّفات، فظهرت المراتب من ظهور الأسماء والصِّفات.

يعنون: مراتب الوجود، ويقولون بعد حينئذ الوجود من حقيقته بالمراتب، واقتضى أن يكون هناك مراتب وجوديَّة، وهي مظاهر الصِّفات، ومراتب عدميَّة، حيث كانت وحده، والصِّفات كامنة لم تظهر بعد، ولم تظهر أسماء ولا صفات.

فإذا لم ترقَّى السَّالك من المراتب الوجوديَّة إلى المراتب العدميَّة؛ صار مطلقاً حرَّاً من رقِّ الرُّسوم فلا تتويه ولا كثرة ولا تفرقة، فني العابد وبقي المعبود ذهب ما لم يكن، وبقي من لم يزل، ثمَ إنَّه لا ريب لأهلِّ الحقِّ مقاماً في القرب إذا عبَّر عنه يعبِّر عنه بالفناء، إلَّا أنَّ صاحبه عندهم لا يصير أصلاً حرَّاً من رقِّ العبادات إذا كان شاعراً بوجوده.

لكن يبقى فيه لطيفة علميَّة يترتَّب عليها الأمر والنَّهي، فالفاني عندهم شخصان، شخص يصطلم عن شعوره أصلاً، ففي تلك الحالة يعذره الشَّارع، كالنَّائم والمغمى عليه، فإذا أفاق قضى ما عليه من ذلك.

والشَّخص الآخر فإن يكن له شعور بوجوده؛ فالأمر والنَّهي يترتَّب على تلك اللَّطيفة العلميَّة، فلا بدَّ له من إتيانها، فلينظر إلى هذا الفرق الدَّقيق بين الفنائين، واللَّبس الَّذي يحصل للسَّامع فلا يفرِّق بين فنائهم وفناء أهل الحقِّ، فهم يجعلون ما أشار إليه السَّلف من فنائهم واصطلامهم في غلبات الأحوال، هو ذاك الَّذي يجعلونه قاعدة مطَّردة في نفس الأمر في كلِّ حال، فهل بين هذين نسبة أو ملائمة؟ فإذا سمعه من لا علم له بحسب أنَّ هذا هو فناء الصُّوفيَّة وبقاؤهم فيغترُّ به.

وإنَّما هذه الحال في نفس الأمر إنَّما هو بمخصوص لمن خصَّه الله تعالى

في أوقات مخصوصة لا قاعدة تطرد في نفسه له شيء ثمَّ إن أحدهم يحفظ هذه القواعد ويعتقدها، ثمَّ يدخل الخلوة، ويتجوَّع ويذكر لا إله إلَّا الله مدَّة ما يلبث أن يقوى عليه هذا الوهم، وربَّما يمكر به بحال يجده، وورارد يأتيه [٢٣٧/ب] فيخرج من خلوته، ويتوهَّم أنَّه قد صار الحقيقة نفسها فيقول: سبحاني، وما شاكل ذلك أعاذنا الله تعالى منهم ومن أحوالهم، ثمَّ إنَّهم يستدلُّون على ما يدعونه بالآيات والأحاديث كقوله سبحانه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(١)، وبقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾(٢)، وبالحديث: «**مرضت فلم تعدني، وجعت فلم تطعمني**»(٣)، وبالحديث أيضاً: «**كنت سمعه الَّذي يسمع به، وبصره الَّذي يبصره**»(٤)، وأمثال ذلك.

وقد ينشد شاعرهم:

جمالك في كلِّ الحقائق سافر ... وليس له إلَّا جلالك ساتر

تجلَّيت للأكوان خلف ستورها ... فنمت بما ضمَّت عليه السَّتائر

ثمَّ إنَّهم يرون كما سبق تعدُّد الموجودات لتعدُّد الصِّفات، فيرون أنَّ الحقَّ تجلَّى في سلطان الدُّنيا بقهره، وفي ذاك بجبروته، وفي ذاك الجواد بجوده، وفي ذلك الكلح بجماله، فيرون هذا الجمال مظهراً لذاك الجمال، فإذا أبصروا أمرداً جميلاً؛ استغرقوا فيه، وزعموا أنَّهم يشهدون حقيقة ذاك الجمال في هذا الجمال.

وفيهم قوم رؤساء محقِّقون لا يقولون بالمظاهر أصلاً، وهم الَّذين ترقَّوا

---

(١) سُورة الأنفال: الآية ١٧.
(٢) سُورة الفتح: الآية ١٠.
(٣) نحوه في مسلم (٢٥٦٩)، وأحمد (٢/ ٤٠٤).
(٤) البخاري (٦٥٠٢).

من المراتب الوجوديَّة إلى المراتب العدميَّة، بل يقولون: إنَّما هي وحدة مطلقة، هذا الوجود هو عين ذاك الوجود؛ لأنَّ القاعدة عندهم أنَّ المبتدئ يشهد الوحدة في الكثرة، والمنتهي يشهد الكثرة في الوحدة، ولا يقولون هذا إلَّا أمراً واحد.

وربَّما ينشد شاعرهم:

لستم سواي ونار الشَّوق تحرقني ... وما خلا منكم سمع ولا بصر

وهذا الكلام ربَّما وقع من بعض الصَّادقين؛ لأنَّ المحبَّ في غليات المحبَّة لا يرى غير محبوبه، وربَّما فنى عن نفسه بمحبوبه، وهؤلاء لا يعنون ذلك، بل يعنون ما يفسِّره البيت الآخر في قوله:

وما أنت غير الكون، بل أنت عينه ... ويشهد هذا الرَّمز من هو ذائق

فليت شعري معشر العلماء هل هذا الَّذي يشيرون إليه إلَّا النَّصرانيَّة المحضة، فكيف لا؟ وقد نقل عن بعض محقِّقيهم أنَّه قال: إنَّ النَّصارى إنَّما ضلُّوا حيث خصَّصوا، ولو عمَّموا ذلك في كلِّ شيء؛ لما ضلُّوا.

فإلى الله ﷻ الشَّكوى من هذه الأباطيل الَّتي ملأت الرُّبط ومواطن السَّالكين ظلمة وعاراً، بل أكسبت الوجود سفعة تعود إن شاء الله تعالى [٢٣٨/أ] على مبتدعيها، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم.

ذكر لوائح من قواعد الفرقة الثَّانية، هم: طائفة كانت بدايات بعضهم لمَّا قرأ القرآن وتفقَّه فيما يلزمه من الأحكام أيقظه الله تعالى من سنة غفلته، وأيقن أنَّه ميِّت عن قريب، وأنَّه صائر إلى الله تعالى لا محالة، وعشاه يفجأه الموت في أسبوعه أو شهره، فنهض إلى التَّوبة النَّصوح، فاغتسل وخرج تائباً إلى الله تعالى ممَّا فرَّط في جنبه من الإخلال بأوامره، وارتكاب مناهيه ببكاء، وخضوع، وخشوع، وتضرُّع، عالماً أنَّه لا ينجيه من عذاب الله إلَّا رحمة الله.

ورحمة الله إنَّما تتَّصل بمن أطاع الله في سنَّة الله، ثمَّ عزم على الوفاء بما اشترطه مع الله من إقامة حقوق التَّقوى، وحفظ قوانين التَّوبة النَّصوح من رعاية الأسماع والإبصار، الرَّأس وما وعى والبطن وما حوى، فلم يلبث أن قبس الله في قلبه نو الإيمان، فتأمَّل في معجزات الرَّسول ﷺ فقطع قلبه بصحَّة نبوَّته بعد أن كان مؤمناً بذلك من وراء حجاب مقلِّداً، ولزم من قطع بصحَّة النُّبوَّة العلم بوجود الباري تعالى يقيناً بعد أن كان أيضاً إيماناً واستدلالاً.

ولزم من القطع بصحَّة النُّبوَّة والرُّبوبيَّة فتح الأسماع لاستماع القرآن وتدبُّره، ومراقبة هذا الرّبِّ الموجود الَّذي قطع العقل به، ولزم القلب اليقين بوجوده وبسمعه وبصره، فصار هذا الموقن كأنَّه بين يدي الله حاضراً مراقباً، يشهد أنَّ الله تعالى يسمع كلامه، ويرى مكانه، ويعلم سرَّه وإعلانه، فتأدَّب بين يديه، وألقى نجواه إليه، ووعى كلامه واستمع خطابه، فلاح له في الكلام معاني الصِّفات حيث سمعه يتكلَّم بكلام أمر تارة، وبكلام ناه أخرى، وبكلام موعد تارة، وبكلام متواعد أخرى، وبكلام جبَّار تارة، وبكلام عظيم أخرى، وبكلام رحيم تارة، وبكلام لطيف أخرى، وبكلام جميل تارة، وبكلام جليل أخرى.

فانضاف ما وجده من ذوق هذه المعاني إلى ما وجده من النُّور الأوَّل، فقوي ذلك في قلبه وتأصَّل، ووافق أن يأتمر أوامره، وينتهي عن زواجره، ويخاف وعيده ويرجو وعده، وألزمه ذلك كحبَّته ومحبَّة رسوله وحبَّة أصحابه وتابعيهم، والاقتداء بالسَّنَّة قولاً وفعلاً على منهاج السَّلف من الصَّحابة والتَّابعين ﵃ [٢٣٨/ب] أجمعين.

فلم يلبث أن قذف الله تعالى في قلبه نار إرادته ولواذع محبَّته، وأورثه ذلك سقماً في باطنه، وغليلاً في فؤاده، وهيماناً في سرِّه، وهو لا يدري ما ذاك وما موجبه، فسرى في العزائم سير مشوَّق، ورفض الفضول كلَّه من القول والفعل،

واشتغل بتصفية قلبه، ولزم الأذكار، وتأمَّل آي القرآن في المحراب، وهو مع ذلك عاكف على الإرادة، صابر على الأحكام، راض بالأقسام.

إذا ذكر الله تعالى فمعنى الذِّكر في نفسه هو العوض عن وسواسها، وإذا تلا معاني القرآن هو القائم في النَّفس ينوب مناب حديثها، يقصد بذلك تصفية قلبه وتصقيل سرِّه، يعلن أنَّ وراء هذه الإرادة أمراً عظيماً وسرّاً جسيماً يحتاج محلَّ طاهر، وقلب فارغ، ومكان نقي عن الأدناس والشَّهوات والإرادات الفاسدات، وهو جوداً لمطلوب بمكاشفة أنوار القلوب.

فلم يلبث أن فتح الله على قلبه من الذِّكر الصَّافي غير ذكر اللِّسان والحروف، بل ذكراً منبعثاً من القلب بل تكلُّف، يعرفه الذَّائقون والواجدون، يسمَّى ذكر التَّعظيم والإجلال يحرق أدناس النُّفوس، ويقمع وساوس الشَّيطان، ويهذِّب القلوب عن غلظ طباعها، ويلطِّفها عن مساوئ أخلاقها، رزقنا الله وإيَّاكم قسطاً بفضله ورحمته، ثمَّ لم يلبث أن صار له في خلال هذا الذِّكر الصَّافي بوارق ولوامع من حقائق معاني الأسماء الحسنى والصِّفات العلا، فيؤثِّر ذلك في قلبه لهيباً تارة وهيماناً أخرى، وتعظيماً تارة إجلالاً أخرى زيادة على التَّعظيم الأوَّل والإجلال.

لكن ذلك لا يدوم له، بل يبدو كوميض البرق كما قيل:

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى ... برق بآلق موهناً لمعانه
يبدو لحاشية الرَّداء ودونه ... صعب الذِّرى متمنِّع أركانه
فغدا؛ لينظر كيف لاح، فلم ... يطق نظراً قصده أشجانه
فالنَّار ما اشتملت عليه ضلوعه ... والماء ما سمحت به أجفانه

ثمَّ لم يلبث أن منَّ الله تعالى عليه بأن صيَّره مكاشفاً في أفعال يبدئها عليه، وبحوادث تطرقه يتعرَّف إليه فيها من طريق الأفعال، تتجلَّى له في طيِّ تلك

الحوادث تعريفات تهيج من غرامة ما كان ساكناً، ويقابل ما ظهر منها بخالص العبوديَّات كالشُّكر والرِّضا تارة، والصَّبر والتَّوكُّل أخرى.

ثمَّ لم يلبث أن فتح الله تعالى عليه باب الأذن في حركاته [٢٣٩/أ] وتقلُّباته، إذا فجئه أمراً واعترضه عارض، وأراد الدُّخول فيه أو الخروج منه؛ يفتقر إلى ربِّه، ويلجأ إليه فيعرِّفه مراده في ذلك إمَّا بالحديث في قلبه، أو بالإلهام، أو بالهاتف في عالم الحسِّ أو في المنام، وهو في ذلك كلِّه عاكف على عبادة ربِّه بقلبه وقالبه، فإذا عجز بقلبه؛ فبقالبه لا يهدأ قلقه، ولا يفتر شوقه، قد ترك معاشرة الأضداد ومن لا معونة له في صحبته، زاده من الدُّنيا قدر الحاجة، قليل الكلام كثير الصَّمت، دائم الحزن كامن في قلبه، منهم من يغلب عليه الخوف والنِّضال، ومنهم من يغلب عليه الشَّوق والوجد، مجتهد في كتمان سرِّه وستر أحواله، غريب الهمَّة، ذا قلب غريب، ووجد غريب، ومطلب غريب يعرفه أمثاله وأشكاله، وفيهم من يظهر بمظهر لا يفطن له من غير أن يتعاطى في مظهره أمراً يكرهه الشَّرع، يقص بذلك استراحوا له ومواجيد قلبه.

ثمَّ فيهم من يلطف الله تعالى به، ويعطيه شيئاً من لوائح مقصوده في الدُّنيا قبل الآخرة؛ لأنَّ حقيقة وجود المقصود لا يكون يإلَّا في الآخرة، وذلك زيادة على ما وجده من معاني الأسماء، وذاقه من مطالع الصِّفات.

فإنَّ أمر الله تعالى غير متناه، وذلك بأن يعرج بروحه إلى مواطن القرب، ويدرك هناك من التَّجلِّي الخاصِّ والمعرفة الخاصَّة ما هو مخصوص بالمقرَّبين، لا يعبَّر عنه بأكثر من أن يقال: نسبة تلك المعرفة إلى الواجد نسبة من طلعت عليه الشَّمس يزال عنه بطلوعها كلَّ ريب وشكٍّ واستدلال.

وذلك لا يكون لكلِّ واصل ولا لكلِّ سالك، بل هو نصيب الأفراد المحبوبين أبدال الأنبياء وخواص الصِّدِّيقين ألحقنا الله بهم في زمرة النَّبيِّين، آمين.

وفيهم من يرزقه الله تعالى من هذا النَّصيب قسطاً وافراً، فيكون كثيراً من أوقاته، فانياً في ذلك، مستغرقاً فيما خصَّ به من خصائص التَّقريب، وهو الَّذي يسمُّونه الفتى.

وفيهم من يرزقه الله تعالى الصَّحو والتَّمكين، فيكون في تلك الحالة المذكورة، وهو مع ذلك يباشر أموره، ولا يحجبه أشغاله بالأسباب عمَّا يشهده من الأمر العجاب، ومثل هذا الرَّجل يصلح للمشيخة وتربية السَّالكين، يردُّه الله تعالى في صحوة وتمكينه إلى الخلق مرشداً لهم، فيحيي به المريد الصَّادق، ويطلعه الله تعالى على استعدادات المريدين وتنوُّعها، فيأمر كلَّ مريد بما يرجو أن يفتح له فيه.

وأمَّا الشَّخص قبل أن يبلغ هذه [٢٣٩/ب المرتبة، فلا يصلح للمشيخة والتَّربية والدَّعوة، لكن قد ينتفع ببركته وبصحبته وبكلامه، وقد يقطع السَّالك أكثر الطَّريق ببركة اجتماعه؛ لأنَّه مشغول بوقته لا يتفرَّغ لتربية أصحابه، إن كان مراقباً؛ فهو مشغول بمراقبته، أو مشتاقاً؛ فهو مشغول بشوقه، أو ذائقاً؛ فهو مستغرق في ذوقه، أو فانياً؛ فهو مصطلم في فنائه بخلاف الَّذي أبقاه الله تعالى بعد فنائه، ويردُّه إلى الخلق صاحياً من سكره، فذلك هو الَّذي يستحقُّ هذه المرتبة، وكلُّ من دعي النَّاس إلى اتِّباعه قبل وصوله إلى ذلك فيخشى أن يكون ممكوراً به، وكلُّ من ادَّعى ذلك فعلامته الصَّحيحة وإن لم يظهر أمراً يخالف ظاهراً، ولا يدعو إلى أمر لم يدع رسول الله ﷺ.

فكلُّ من جمع النَّاس على أمر لا أصل له في الشَّريعة، وإن كان ذا حال؛ فهو ناقص لا يقتدي به، وهذه الكلمات كلُّها من أصول هذه الطَّائفة نقلتها من أصولهم كما فهمتها عنهم، والله ﷻ يوفِّق بكرمه للصَّواب، إنَّه كريم وهَّاب.

فجملة أحوالهم أن يقال فيهم هم طائفة انتبهوا فاستدلُّوا، ثمَّ سمعوا، ثمَّ فهموا، ثمَّ انزجروا، ثمَّ اقتدوا واتَّبعوا، ثمَّ طلبوا، ثمَّ اشتاقوا، ثمَّ سلكوا، ثمَّ

ذاقوا، ثمَّ شربوا، ثمَّ سكروا، ثمَّ غابوا، ثمَّ فنوا، ثمَّ صحوا، ثمَّ بقوا، هذه جملة أحوالهم وتفصيلها في هذه الأبيات:

قد صفى وعيه لفهم الكتاب ... فرأى النُّور مشرقاً في الخطاب
زجرته قوارعٌ بيِّنات ... فارعوى تائباً مع الاكتئاب
بعد أن سار للنُّبوَّة شمس ... في سماء الأسرار لا في السَّحاب
استبانت معالم الأمر فيها ... فتجري إتيانها بالصَّواب
وتوقَّى حقائق النَّهي منها ... مهلكات الأبدان والألباب
واقتفى منهج النُّبوَّة فعلاً ... وعقود الأتباع ثمَّ الصِّحاب
وبدت بعده الإرادة قسَّموا ... في طلَّاب الوجدان للأحباب
وسرى في الغرام سرٌّ مشوِّقٌ ... وجلا قلبه لكشف الحجاب
بانفراد وترك كلِّ أنيس ... حارساً للخراب والأبواب
وفناء الأفكار بالذِّكر طوراً ... وبآي القرآن في المحراب [٢٤٠/أ]
منتهى غاية التَّكسُّب هذا ... ليس يأتي الوجدان بالاكتساب
جهد عبد إذا تسبَّب ذكر ... بفراغ الفؤاد والانصباب
وعكوف على الإرادة شوقاً ... ولزوم المغنى بغير انقلاب
ومقام الوجدان شأن رفيع ... ليس تحصر أنواعه بالحساب
فمبادئ الأحوال نيل يصيب ... من صفا الأذكار أسنى النِّصاب
في خلال الأذكار لمع بروق ... مفتن نورها لسرٍّ عجاب
من معاني الأسماء في السِّرِّ تبدو ... تلهب القلب أيَّما التهاب

فتهيم الأسرار بالذَّوق وجدًا وتغيب الأرواح من ذا الشَّراب
لبدوِّ الجلال في الذَّوق طوراً وبدوِّ الهيمان للاقتراب
وسنى الأحوال تبدو عليهم في شهود الأفعال والأسباب
يشهدوا صبحها بغير ظلام ويعوا آذانهم بفهم الجواب
ثمَّ أعلى أحوالهم في الترقي جذبة الرُّوح من عمَّا الأوصاب
في عروج يطار بالرُّوح فيها يشهدوا شمسهم بغير ضباب
يرتقي منهم إلى الصَّحو جمع في مقام الإبقاء للطُّلَّاب
قارن الصَّبر والرِّضا في افتقار من تمت طالبًا على الأبواب

تمَّت الرِّسالة والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

مكاتبة من الشَّيخ أحمد المغرَبيِّ
إلى الشَّيخ عماد الدّين الواسطيِّ

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أنَّ لا إله إلَّا الله، وأشهد أنَّ محمَّد عبده ورسوله.

وهي رسالة يستفاد منها معرفة مشاهد الصِّفات وإثباتها لله تعالى بلا تمثيل ولا تعطيل، ومعرفة الاتِّحاد والحلول، وتفصيل شأنه في ترَّهات ابن عربي وذمَّه وذم مقالته، ومعرفة المشاهد الذَّوقيَّة وتفاصيل شأنها.

هذا كتاب أحمد المغربي السَّاكن بثغر طرابلس إلى الشَّيخ العابد الزَّاهد سيِّدنا عماد الدِّين الواسطيِّ، نفع الله به ورضي عنه بمنِّه وكرمه، يقبِّل يد سيِّدي وسندي العالم العامل، أمتع الله المسلمين بحياته ونفعهم بصالح [٢٤٠/ب] دعائه وفيض أفانين بركاته، وينهى ورود ما تصدَّقت به الآراء العالية من ذكرها للاعتقاد الصَّحيح الَّذي ملأ به القلوب نوراً، وشرح بذكره صدوراً، ولله درَّه ما أحسن إتيانه بذلك البيان بعد تأسيس تلك القواعد المقرَّرة وتفصيله لتلك المقاعد المشَرَّفة.

هي القواعد التَّي لا ينبني الذِّكر إلَّا على أساسها، ولا يثبت إلَّا على أركانها؛ إذ الذِّكر المجرَّد لا جدوى له، ومتى تطرَّز ذكر الذَّاكر بنورها، وعلت أشعته على سورها، فجعل الذَّاكر الرَّبَّ وكيله، والقرآن دليله وطريقه السُّنَّة ومذهبه.

لم يلبث أن تحقَّق بالحال الجمعي الَّذي يعرف به تفاصيل أحواله ومواطن

مادَّتها من صفات الحقِّ وأفعاله، فإذا تحقَّق بذلك؛ بدا له علم مقام الإحسان الَّذي تكلُّ اللِّسان عن وصف وارداته، ويعجز عن الإعراب لشعاعات بيِّناته إمَّا من مشاهدة العبد لرَّبِّه باعتبار تجرُّد الشُّهود تارة، وهو المقام الأوَّل، وهو للأكابر خاصَّة، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**أعبد الله كأنَّك تراه**»[١]، أو من مشاهدة الرَّبِّ للعبد فيشهد العبد ربه لشهود الرَّبِّ له، وهذا هو المقام الثَّاني، وهو أقلُّ خطراً وأهون مسلكاً، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**فإن لم تراه؛ فإنَّه يراك**»[١].

وهو الَّذي أشار إليه الشَّيخ أبو مدين رضي الله عنه بقوله: شاهده لمشاهدته لك، ولا تشاهده لمشاهدتك له، وهذا هو الأقرب إلى منزل المراقبة الأولى الَّذي نشأ مقام الإحسان، وللشهود كما أحاطت به العلوم الشَّريفة تفاصيل بحسب اعتبار ما ينضمُّ لمعنى الشُّهود من الأسماء المقدَّسة والصِّفات العليَّة، والأفعال يضيق الوقت عن إحصائها، جعلنا الله من المحقِّقين به.

وأمَّا ما قرَّر سيِّدي في ذكر الألفاظ المتشابهة المقدَّسة وحملها على ما سبق إلى الذِّهن، مع ضميمة التَّنزيه عن التَّشبيه، فهو الحقُّ الصَّريح والاعتقاد الصَّحيح، ولقد عرف العبد فقيراً جوَّد فكره وقتاً ما بسبب ملاحظته اختلاف مذاهب الأمَّة في ابتغاء تأويلها فمن طائفة حملها على الحقيقة اللُّغويَّة، ومن طائفة على المجاز اللُّغويِّ المستعمل في القرآن العربيِّ، وبكلٍّ نزل القرآن المطهَّر قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[٢].

ولحظ ذلك الفقير كلَّ طائفة يظهر النُّكر لما ارتضته الأخرى، فتحقَّق

---

(١) الطبراني كما في «الترغيب والترهيب» للمنذري (٤/ ١٢٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٥٢٤).

(٢) سُورة الشعراء.

وجود التَّنازع حقّاً، فأبدى الله ﷻ له قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ [١/٢٤١أ] إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾[١].

فأجال فكره فيما دلَّ الظَّاهر عليه فرأى ذلك الفقير أنَّ ردَّ ما تنوزع فيه إلى الله ورسوله أحقُّ، سيما وقد قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ﴾[٢] مع قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٞ﴾ وما بعد ما جعله الله خيراً خيراً منه، ولا أحسن تأويلا.

ولمَّا ردَّ الفقير العلم بذلك إلى الله ورسوله؛ لاح له أنَّ لا بدَّ من صورة علميَّة ينطوي القلب على الحكم بها، فأبدى الله تعالى له ما يعلمه الله ويرضاه لنفسه صفة، فعلم الفقير من اللَّفظ المتشابه المقدَّس ما يعلمه الله منه ويرضاه له صفة، وما يعلمه الله من ذلك ويرضاه صفة له، هو الَّذي يعلمه الرَّسول ﷺ أيضاً، وإنَّما احتاج ذلك الفقير لضميمة قوله: ويرضاه صفة له؛ لعموم قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فعلم الفقير بذلك من قوله ﷺ في الحكاية عن الله تعالى: «**أنا جليس من ذكرني**»[٣]

إنَّ الله جليسه عند ذكره له حقّاً، ومعه حقّاً بالجليسة الَّتي يعلمها الله تعالى ويرضاها لنفسه المقدَّسة صفة، والمعيَّة الَّتي يعلمها أيضاً، وكذلك الفوقيَّة هو فوق كلِّ شيء، بالفوقيَّة الَّتي يعلمها ويرضاها صفة له إلى غير ذلك.

وأمَّا ما ذكره سيِّدي من الإنكار على مطالعتي كتب العالم محيي الدِّين رحمه الله وغيره، فلن تخلو تصانيفه عن حقٍّ يزيد البصيرة نوراً، وبنور التَّوفيق من الله ﷻ

---

(١) سُورة النساء.
(٢) سُورة النور: الآية ٢.
(٣) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٣/٧٩)، و«المقاصد الحسنة» للسخاوي ص٩٦.

يفرِّق بين الحقِّ وضدِّه.

ومن أسلم وجهه إلى ربِّه وفوَّض أمره إليه، واتَّخذ الله وكيلاً، ورسوله دليلاً، وعلماء السُّنَّة منبهه متأمِّلاً مع قواعد الشَّريعة المطهَّرة معرضاً عمَّا يخالفها مستعيناً به لم يسلك إلَّا على المحجَّة البيضاء بالله ولله وإلى الله وعن الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾[1]، ولم يخف عن العبد ما حرك سيدي إلى ذلك، هو محض الشفقة وخالص النصيحة، أحسن الله إليه وأفاض فنون إحسانه عليه، وجعلنا وإيَّاه من عباده المحسنين بمحمَّد وآله أجمعين.

(١) سُورة المائدة: الآية ٥٦.

جواب الكتاب

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الشَّيخ الإمام العالم العامل العابد الزَّاهد السَّالك العارف عماد الدِّين أحمد بن الشَّيخ إبراهيم الواسطيُّ ﷺ، وأعاد من بركاته.

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمد لله ربِّ العالمين حمداً كبيراً كما يحبُّه ربُّنا ويرضاه، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم ومن نصره ووالاه [٢٤١/ ب].

وبعد: فالكتاب الكريم والتَّفضيل الجسيم ورد فأورد إلى القلوب مسرَّة، وكان للعيون قرَّة، وأبان عن فضيلة المتفضِّل، وكرم أخلاقه، وطيب أعراقه، وصحَّة مشاهده وأفكاره، وإشراق قلبه في أنواره، فتعيَّن علينا حبَّه في الله وموالاته.

وإنَّ الله تعالى قد علم من باطن هذا الضَّعيف أنَّه كان محبّاً لكم قبل ورود كتابكم الكريم، فلمَّا ورد؛ كان كما قيل صدَّق الخبر الخبر، فإنَّه إذا بلغنا عن أخٍ لنا في الله في بعض الأقطار، وأنَّه من أهل الأذكار والأنوار والاتِّباع الصَّحيح للآيات والأخبار تعتضد به، وتجد بوجوده أنساً، وتتآلف قلوبنا به وإن تباعدت الأجسام، وقلوب أهل الطُّرق تأتلف خصوصاً في هذا الزَّمان الَّذي قلَّ فيه الأعوان وكثر فيه التَّحبيط في الطَّريق والأذهان، ولا عاصم اليوم من أمر الله إلَّا من رحم، والأصحاب أفراد في زوايا الأرض وأقطارها، قابضين على أديانهم وصفاء قلوبهم، محتالين على نجاتهم وانفرادهم بأحوالهم وأذواقهم.

والله سبحانه بكرمه يلمُّ الشَّتات، ويجمع برحمته لأهل وداده المتفرِّقات،

وما أشار به سيِّدنا أعاد الله من بركته في ذكر أهل المشاهدة ومراتبهم فما أحسن ما رتَّبهم وبيَّن أمرهم، زاده الله من فضله.

وأمَّا ما ذكره سيِّدي أعاد الله بركته في ذكر الألفاظ المتشابهة المقدَّسة، ومن أنَّ قوماً حملوها على الحقيقة اللُّغويَّة، وقوماً حملوها على المجاز اللُّغويِّ المستعمل في اللِّسان العربيِّ، وبكلٍّ نزل القرآن إلى آخر الفصل

فهو كلام حسن ومشهد صحيح، والفقير عنده في ذلك شيئاً يحبُّ عرضه على آرائكم الغالية كما تصدَّقتم غير خاف عن العلوم الكريمة.

إنَّ الله تعالى بعث محمَّداً ﷺ بشيراً ونذيراً؛ ليبيِّن للنَّاس ما نزل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1]، وأنَّه كان يصف ربَّه تعالى بأنَّه فوق سماواته، قال للجارية: أين الله، فقالت: في السَّماء، فأقرها على ذلك، وكان ممَّا أنزل عليه ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾[2]، وجاء عنه ﷺ في بعض أدعيته: «**ربُّنا الَّذي في السَّماء تقدَّس اسمك**»[3]، وقال تعالى عن ملائكته: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[4]، وجاء في الحديث الصَّحيح: «**في الرُّوح حتَّى ينتهي بها إلى السَّماء الَّتي فيها الله**»[5]، وجاء في الصَّحيح: «**ينزل ربُّنا كلَّ ليلة**»[6]

والشَّواهد من الكتاب والسُّنَّة على الفوقيَّة كثير، [٢٤٢/أ] ووصف ربه تعالى نفسه بالاستواء فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[7]، ووصف نفسه

---

(١) سُورة النحل: الآية ٤٤.

(٢) سُورة الملك: الآية ١٦.

(٣) رواه أبو داود، رقم: (٣٨٩٢)، والنسائي، رقم: (١٠٨٠٧).

(٤) سُورة النحل: الآية ٥٠.

(٥) رواه ابن ماجه، رقم: (٤٢٦٢).

(٦) رواه البخاري، رقم: (١١٤٥)، ومسلم، رقم: (٧٥٨) بلفظ: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا».

(٧) سُورة طه: الآية ٥.

بغير ذلك من الصِّفات مثل قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[١] ومثل قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[٢] وغير ذلك.

وكان رسول ﷺ يحضر في مجلسه الذَّكي والبليد، والفقيه وغير الفقيه، وقد أوجب عليهم أن يتدبَّروا ذلك الخطاب ويتعقَّلوه ويتفكَّروا فيه، ويعتقدوا موجبه، فلو أنَّه ﷺ أراد بهذه الصِّفات الَّتي نطق بها خلاف ظاهرها اللَّائقة بالله، أو قصد بها ضدَّ حقيقتها، وهو مبين للنَّاس ما نزل إليهم؛ فلم يكن بدٌّ من أن يبيِّن للأمة أنَّه لم يرد حقيقة ما قاله، وأنَّه أراد بذلك المجاز أو اللُّغويِّ في سياق الكلام أو عقيبه بكلام ظاهر يقتضي حقيقة المعنى إلى مجازه لا سيما في الخطاب العلمي الذي أريد منهم فيه الاعتقاد، والعلم دون عمل الجوارح.

فأمَّا من ادَّعى أنَّ هذا من المتشابه الّذي تركهم النَّبيُّ ﷺ فيه متحيِّرين واقفين حتَّى نشأ قوم في المئة الثَّالثة أو الرَّابعة، فبيَّنوا هذا المتشابه، وصرفوه وجعلوه متشابهاً، وتأويله هم ما ادَّعوه من الاستيلاء الَّذي أوَّلوا به الاستيلاء، ومن يد القدرة والنِّعمة الَّتي أوَّلوا بها اليد الثَّابتة لله، كما يليق بجلاله، فهؤلاء قد جعلوا الرَّسول ﷺ مجبراً لأمَّته لا مبيِّناً لهم، ثمَّ الأمة الَّذين أخذوا ذلك عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم كانوا أعمق النَّاس علوماً، وأنصحهم للأمة، وأبينهم للسُّنَّة، فكيف يجوز أن يتكلم هو أصحابه بكلام يريدون به خلاف ظاهره اللَّائق بمن أضيف إليه إلَّا وقد نصب هو ﷺ دليلاً يمنع من حمله على ظاهره إمَّا بأن يكون الدَّليل عقليّاً ظاهراً مثل قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ فإن كل أحد يعلم بعقله أن المراد أوتيت من جنس ما يؤتى مثلها، وكذلك قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، يعلم المستمع أنَّ الخالق لا يدخل في

---

(١) سُورة الرحمن: الآية ٢٧..
(٢) سُورة (ص): الآية ٧٥.

هذا العموم، أو سمعياً ظاهراً أيضاً من الدَّلالات في الكتاب والسُّنَّة الَّتي يصرف بعض الظَّواهر.

ألا ترى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾... إلى قوله: ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1] سياق الآية يدلُّ على أنَّ المعيَّة هنا معيَّة العلم، وقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [٢٤٢/ب] سياق الآية يدلُّ على أنَّ المعيَّة هنا مع معيَّة السَّمع والبصر مع معيَّة التَّولي.

فما من معنى في الكتاب والسُّنَّة يراد فيه صرف الحقيقة إلى المجاز، أو المجاز إلى الحقيقة إلَّا ويوجد هناك دليل متَّصل أو منفصل يدلُّ على صرفه على ظاهره إذا قرَّر ذلك؛ فلا ينبغي أن تسمَّى صفات ربِّنا المتشابه، فإنَّ ذلك يوهم بالتَّأويل أو التَّعطيل؛ لأنَّنا إذا جعلنا الاستواء أو الوجه الكريم الَّذي بقوله ﷺ في بعض دعائه: «**أسألك لذَّة النَّظر إلى وجهك**»[2]، واليد الَّتي قال تعالى فيها: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾[3]، وعند أهل العربيَّة أن يد النِّعمة والقدرة لا يثنَّى، بل يوحَّد ويجمع، ولا يثنى في الصِّفات الذَّاتيَّة، فإذا جعلنا ذلك متشابهاً لا يشهد القلب فيه صورة حقٍّ يعتقدها وأعرض عنها بقلبه؛ فقد استطرق بذلك إمَّا إلى التَّأويل، أو التَّعطيل، أو الوقوف، والكلُّ مذموم لا يحصل منه المقصود في إبلاغ الرَّسول، فإنَّ المقصود إنَّما هو الإيمان بها، وحصول العلم بمقتضاها على ما يليق.

فصفات الرَّبِّ تعالى لا تشبيه ولا تعطيل فتبرهن بذلك أنَّ هذا الفن لا يسمَّى متشابهاً، ويجب إثباته لله تعالى كما يليق بعظمته وكبريائه وجلاله لا كما

---

(١) سُورة المجادلة: الآية ٧.

(٢) ابن حبان (١٩٧١) بلفظ «لذة النظر».

(٣) سُورة (ص): الآية ٧٥.

يليق بصفات المحدثين، وهذا هو معنى قولنا الظَّاهر، فإنَّ الظَّاهر مشترك بين ما يليق بالعبد وبين ما يليق بالرَّبِّ، والمراد هنا الظَّاهر اللَّائق بالله تعالى لا الظَّاهر اللَّائق بالعبد والمخلوق.

وبعد ذلك فإذا اعتقد السَّالك ذلك كما يعتقده في الذَّات المقدَّسة؛ فإنَّ الذَّات قد أجمع الكلُّ على الإيمان بها، وإنَّها معلومة من حيث الجملة، وإن كانت لا تماثل الذَّوات المحدثة، ولا يعلم ما هو ولا يدرك لها كيفيَّة، فالصِّفات فرع على الذَّات يحتذى فيها حذوه، كما وجب الإيمان بالذَّات، ولم يحتمل تأويلاً غير معناها اللَّائق بالله، ولم يدرك لها كيفيَّة، فكذلك يجب الإيمان بالصفات ويعلم أحكامها وآثارها، ولا يدرك لها كيفية.

فإذا استقرَّ ذلك في معتقد السَّالك وسلك عليه، ثمَّ كاشفه الله تعالى في سلوكه بكشف خاصٍّ؛ وجد فيه القرب الخاصَّ والمعيَّة الخاصَّة، وسرُّ قوله: «**أنا جليس من ذكرني**»(١) فذلك فرع نتج من هذه الأصول يكاشف الله بذلك أولياءه وخاصَّته، وذلك مرتبة ثانية، وهو من قانون العدل وضع الأشياء مواضعها، وترتيبها في مراتبها، فبعض النَّاس يهرب من الاعتقاد العام إلى الكشف الخاصِّ، والإنصاف أن يعتقد [٢٤٣/أ] الصِّفات في مراتبها من كون أنَّها حقائق قائمة بالذَّات معلومة من حيث الجملة، غير مكيَّفة، ويجعل هذا المرتبة الأولى، ويجعل الكشف الخاصَّ مرتبة ثانية، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

فصل

العبد إذا وفَّقه الله تعالى، وأمعن في مطالعة الحديث مثل الصِحاح السِّتَّة، وفهم متونها؛ لم يشكُّ في أنَّ الصَّحابة ﷺ كانوا يعلمون أنَّ ربَّهم فوق السَّماوات يدعونه، ويرفعون إليه أيديهم، وكيف لا؟! وقد عرج برسول الله ﷺ

---

(١) تقدم.

حتَّى كان قاب قوسين أو أدنى، فلو أنَّه سبحانه ينسب إليه جهة معيَّنة من الفوقيَّة؛ أي: حكمه كانت في عروجه إلى فوق السَّماوات، ثمَّ خاطبه ﷻ، وفرض عليه خمسين صلاة، ثمَّ رجع حتَّى لقي موسى فردَّه فرجع إلى ربِّه، فوضع عنه عشراً.

فإذا تأمَّل المنصف العاقل الذَّكي هذا الحديث ووجد فيه التَّصريح برجوعه إلى موسى، ثمَّ رجوعه إلى ربِّه؛ علم حقيقة أنَّ ربَّه فوق السَّماوات، وهي الفوقيَّة الحسيَّة المعلومة عندنا، لكن هي في صفات الله تعالى كما يليق به هذا ما تدلُّ عليه السُّنَّة الصَّحيحة لمن فهم، وعقل، وكاس، وفطن، ثمَّ إنَّا إذا تأمَّلنا نصوص السَّلف الأوَّلين قبل حدوث هؤلاء المتكلِّمين الَّذين يجعلون آيات الصِّفات وأخبارها من المتشابه؛ نجدهم قد صرَّحوا في نصوص على فوقيَّة الباري، وهي الفوقيَّة المحسوسة مع فوقيَّة الرُّتبة.

فإنَّ فوقيَّة المرتبة صحيحة أيضاً لكنَّها لا تمنع من الفوقيَّة المحسوسة، وهم المشايخ الكبراء، مثل: الحارث بن أسد المحاسبيُّ، وسهل بن عبد الله التَّستريُّ، وعمرو بن عثمان المكيُّ، وأبي القاسم الجنيد حتَّى الحكيم التِّرمذيُّ رَحِمَهُ اللهُ يشير في مصنَّفاته بأنَّ القلوب تعرج إلى السَّماوات حتَّى تنتهي إلى المعلَّق، والمعلَّق محلٌّ في العرش تتعلَّق فيه قلوب الأولياء أهل القرب، وهم عساكر بعضهم فوق بعض.

فإذا تأمَّل المنصف نصوص الرَّسول ﷺ وتصريحه في قوله في معنى الرُّوح: **«حتَّى ينتهى بها إلى السَّماء الَّتي فيها الله»**[1]، والحديث صحيح ثابت عند أهل الحديث، وغير ذلك من التَّصريحات بالفوقيَّة في الكتاب والسُّنَّة علم صحَّة الفوقيَّة، فقوله ﷺ: **«حتَّى ينتهى بها إلى السَّماء الَّتي فيها الله»**[1] هذا

(١) أحمد (١٨٥٣٤).

نصٌّ صريح بأنَّ الفوقيَّة هنا هي الفوقيَّة المحسوسة لا مجرَّد فوقيَّة الرُّتبة.

والمتَّبع لله ولرسوله يستغني بنصوص الرَّسول ﷺ عن نصوص [٢٤٣/ب] غيره، فكيف وإذا ثبت ذلك عن سلف الأمة مثل هؤلاء الصُّوفيَّة المشار إليهم، وسلف أهل الحديث، مثل: الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجَّاج القشيريُّ، وعثمان بن سعيد الدَّارميُّ، وقد صنَّف في ذلك كتاباً سمَّاه «النَّقض لحجج بشر المريسي استدلَّ على فوقيَّة الباري وعلوِّه، وأنَّه فوق العرش بحجج سادة قاطعة لم يلتفت الإنسان مع ذلك إلى قول من يقول: إنَّ هذا مجاز عرفيٌّ أو لغويٌّ، هذا قطعاً عبارة أهل الكلام وأنفاسهم لا نفس أهل السُّنَّة والحديث ومشايخ أهل الطَّريقة المتَقدِّمين منهم لا المتأخِّرين مثل القشيري، فإنَّه كان متعصِّباً لمذهب أهل التَّأويل ونفي الجهة، بل الاعتبار بمتقدِّمي الطَّائفة وكبرائهم، ثمَّ الإنسان إن لم يقف مع نصوص الرَّسول ﷺ، ونصوص أهل الحديث، ونصوص مشايخ الطَّائفة؛ فمع أي شيء يقف، وإذا لم يزل شكُّه مع وجود ذلك فبأيِّ شيء يزول شكُّه.

فصل

ربَّما مستوحش السَّالك إذا توجَّه بقلبه نحو السَّماوات ونحو العرش، وسبب الوحشة أنَّه كأنَّه يجعل الباري تعالى محصور في جهة مخلوقة، وهو ﷻ قبل الحدود والجهات فلا ريب كلُّ من زعم أنَّ الباري تعالى محصور في جهة، أو أنَّ جهة من الجهات تحيط به، أو مكاناً من الأمكنة يقله، فقد كفر وشبَّه هذا لا شكٌّ فيه، والتَّحقيق الَّذي يحلُّ هذه الإشكالات إن شاء الله هو أنَّ الباري تعالى كان ولا شيء معه في قدمه، وأزليَّته، ووجدانيَّته، وفردانيَّته، وهو ﷻ في تلك الفردانيَّة والوجدانيَّة منفرد بنفسه في ربوبيَّته وتوحيده، فليس ثمَّ جهة من فوقيَّة وتحتيَّة، ويمنة ويسرة.

فإنَّ هذه الجهات هي من حدود الجهات فلمَّا اقتضت الإرادة المقدَّسة بوجود الكائنات المحدودة ذات الجهات، وكان من لوازمها الفوقيَّة والتَّحتيَّة، والميمنة واليسرة؛ اقتضت أن تكون في محلٍّ، وكان أنسب الجهات بها أن تكون في جهة التَّحت، وأن يكون المالك المدبِّر فوقها لاحدَّ ولا حصر، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[١]، فهو سبحانه استوى على العرش استواء يليق به يدبِّر الأمر، وهو على ما كان عليه في قدمه وأزليَّته، وفردانيَّته، وتوحيده، لكن اقتضى أن يكون المربوب المخلوق المحدود المحصور الَّذي لا بدَّ له من جهة ولا يمكن أن يكون في غير جهة، وأن يكون في جهة التَّحت، واقتضى أن يكون الرَّبُّ الماجد القاهر المالك المدبِّر فوقه باعتبارنا، فإنَّا [٢٤٤/أ] لا نعقل غير الجهات فنشير إليه من فوقنا، وهو سبحانه كما هو في فردانيَّته وأوليَّته، كما كان أوَّلاً ولا شيء معه، فلسنا نحصره في جهة، ولا نجده في مكان، بل نقول: هو على العرش كما يليق به، وهو الحامل للعرش والحامل لجملته، وهو على ما كان عليه في أزليَّته، ونحن في محلٍّ فيه الجهات فنشير إلى الفوقيَّة الَّتي هي أعلى مكان من الكون؛ لأنَّها أنسب الجهات الَّتي يشار إلى الرَّبِّ تعالى منها، والتَّحت أنسب الجهات الَّتي يشار إلى المربوب المخلوق منها.

ومن حقَّق ذلك في اعتقاده أوَّلاً، ثمَّ في ذوقه وكشفه ثانيًا؛ انحلَّت عن قلبه شبه الحصر والاستيحاش من الإشارة إلى الجهة فإنَّها من حيثنا ومن حيث حدودنا، والرَّبُّ تعالى لا يحصره شيء، هو كما هو وكما كان أوَّلاً، ولا بدَّ من رياضة وتوجُّه عسى الله تعالى أن يتفضَّل بالكشف عن ذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) سُورة الحديد: الآية ٤.

وأمَّا ما أشار إليه سيِّدي من كون علم الفوقيَّة الَّتي يعلمها الله، والمعيَّة الَّتي يعلمها ويرضاها له صفة، هنا كلام أوجب أن أبديه؛ لأنَّني أحبُّ ألَّا أكتم عن سيِّدي شيئاً.

قول سيِّدي: يرضاها له صفة، الرِّضا والغضب لا يكون إلَّا في الأفعال ولا يكون في الصِّفات، فإنَّها لازمة للذَّات اللَّهمَّ إلَّا أن يريد سيِّدي برضا ربِّنا سبحانه لنفسه، أو يوصف بها، فيستقيم الكلام على ذلك.

ومن أين يعلم الذَّائق والمكاشف أنَّ الَّذي ذاقه ووجده هو عين ما يرضاه الله، وعين ما هو في الحقيقة، هذا من لا يعلم بالذَّوق المجرَّد إنَّما يعلم بتوقيف الشَّارع بحسب ما يظهر من الأدَّلة وحذاقة الفهم فيها، وأمَّا الأذواق فإنَّها تختلف، وكلٌّ يظنُّ أنَّه قد أصاب عين الحقِّ من جهة الذَّوق، وذلك غير كاف حتَّى يكشف عنه بالعبارة، ويبرهن عليه بالكتاب والسُّنَّة، فبذلك يعلم أنَّه كما هو عند الله.

ولم أسمع هذا الكلام أو مثله إلَّا من طائفة الشَّيخ العارف أبي الحسن الشَّاذليِّ، فإنَّ فيهم من يقول: إنَّ الشَّيخ كان علمه مطابقاً لعلم الله، وهذا الكلام فيه نظر ويحتاج قائله إلى تثبُّت وتأمُّل وتفصيل، فإنَّ هذه الأشياء لا يعلم بمجرَّد الذَّوق، فإنَّه يخطئ ويصيب على حسب اختلاف المرائي، ولا يعلم إلَّا بتوقيف شرعي، والله أعلم.

سأل فقير أستاذه عن هذه المسألة فقال: بعض الذَّائقين وجد في ذوقه الباطن أمراً، وفي حسِّه الظَّاهر أمراً آخر، فالحسُّ الظَّاهر يقتضي شيئاً، والذَّوق الباطن يقتضي شيئاً، [٢٤٤/ب] وقد تعذَّر الجمع بينهما، فالحسُّ يرى المسافات والحجب فإنَّه بحد السَّماوات وتعدّدها، والحجب من الكرسي والعرش، وحجب النَّار والنُّور، والوهم لا ينفذ حتَّى يعرج في الطَّبقات والحجب، فإذا انتهى فيها؛ أثبت وجود الرَّب تعالى بلا تكييف.

والذَّوق يقتضي أمراً آخر بخلاف ذلك، وهو أنَّ القلب إذا صفا؛ وقع فضاء خارج الكون بعيد منتهاه متَّسع أقطاره وأرجاؤه، فيجد القلب في ذلك الفضاء كأنَّه قد خلا بربِّه لا يشاركه في تلك الخلوة أحد غيره، فيقوم له بالعبوديَّة، ولا يجد هناك حجباً ولا عروجاً، فهل هذا الذَّوق له حقيقة في الخارج من كون أنَّ القلوب ليس بينها وبين من تطلبه مسافة، وهي مع من تطلبه حقيقة أم هذا شيء قام في الوجود الإنساني بحسب الذِّكر والإرادة، وليس له في الخارج حقيقة، فهم من جواب أستاذه رضي الله عنه ما معناه هذا اتِّصال القلوب بمولاها له حقيقة.

وهو حقٌّ ثابت بالكتاب والسُّنَّة قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾[1]، وفي الحديث: «**من تقرَّب منِّي شبراً تقرَّبت منه ذراعاً**»[2] وغير ذلك.

واتِّصال القلوب لا يشابه اتِّصال الأجسام؛ لأنَّ القلب غيب يشهد الغيوب بلا مسافة ويراها ويكون معها حقيقة.

وهذا وإن كان أمراً وجوديّاً ذوقيّاً يراه الذَّائق في وجوده الإنساني على حسب مرآته؛ فإنَّه مطابق للأمر الخارجيِّ، فإنَّ الأمر في الخارج هو كون الرَّب تعالى عليٌّ بذاته على الكائنات فوق العرش، وهو في علوِّه مع كلِّ شيء بمعيَّة هي نعته، ومحيط بكلِّ شيء يحيطه هي وصفه، فهو قريب في علوِّه، عال في قربه، فمن شهد معيَّته معه؛ فقد شهد الأمر على ما هو عليه.

وذلك لا ينافي علوّ الرَّبِّ تعالى وفوقيَّته فوق عرشه، كما هو في الخارج المحسوس، وإن كان الشُّهود الَّذي ذاقه الذَّائق بحسب إيمانه ومرآته مرتبة،

---

(١) سُورة البقرة: الآية ١٨٦

(٢) تقدم تخريجه.

والأمر العينيُّ كما هو في الخارج على الأمر الَّذي هو به يظهر في الآخرة مرتبة أخرى.

فإنَّ ما يحلُّ في القلوب من الأنوار الإيمانيَّة إنَّما هو من المثل الأعلى قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]، فبهذا المثل يعبد، ويحبُّ، ويخاف، ويهاب، ويؤنس به، ويعظَّم، وهو الَّذي يظهر في حجاب القلوب، فإنَّها حجاب بالنِّسبة للأمر الخفيِّ العينيِّ.

وهذا المثل لا يقال: هو هو، ولا غيره، فإنَّه لو كان هو؛ لم يحلَّ في القلوب، ولم تمتلئ منه، ولم يباشرها حقيقة، والحلول مستحيل، ولا يقال: إنَّ المثل غيره [٢٤٥/أ] فإنَّه من نوره، ولا يمكن ظهوره في القلوب المحدثة المخلوقة إلَّا هكذا.

فهو الظَّاهر في القلوب حقيقة لكن في حجب الأنوار والمثل، ومن زعم أنَّ الَّذي يحلُّ بقلبه هو حقيقة الحقِّ؛ فقد قال بالحلول، وأحسن ما قيل فيه: إنَّه المثل الأعلى، والجدُّ الَّذي قال فيه ﷺ: «**تعالى جدُّك**»[2].

وبهذا يظهر الفرق بين ظهور الحقائق في القلوب في الدُّنيا وبين ظهورها في الدَّار الآخرة على حقائقها الَّتي اتَّصف بها حقيقة؛ ليرتَّب كلُّ شيء في مرتبته، ويوضع في محلِّه، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم.

فائدة: إذا امتلأ قلب الذَّاكر من الله، ووجد الله تعالى معه قريباً منه، فذلك الَّذي امتلأ قلبه به هو المثل الأعلى، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[3]، وذلك المثل هو رفيقه الحقيقة، ولا يقال: هي هو ولا غيره، كالاسم والمسمَّى، وذلك لا يمنع كون الحق تعالى عليٌّ على الكائنات بذاته،

---

(١) سُورة الروم: الآية ٢٧.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) سُورة الروم: الآية ٢٧.

فهذا وجود عينيٌّ وذلك وجود قلبيٌّ، والله أعلم.

فائدة: ولو فرضنا شخصان شخص كوشف بفوقيَّة الله تعالى على ما هي معلومة عند الله من حيث الجملة الَّتي يعلمها، وآخر آمن بأنَّ ربَّه فوق عرشه فوق سبع سماوات علا فوق الممالك كلِّها بعلوٍّ حقيقيٍّ محسوس، لكن على ما يليق بتنزيهه، ومع ذلك فعلمه محيط بالعبد وبكلِّ شيء، وكذلك سمعه وبصره وقدرته وتدبيره محيط بالعبد وبكلِّ شيء، كما أمر أن يؤمن بذلك، ثمَّ كوشف في أثناء ذلك بأن ارتفعت الحجب، وفنيت الأكوان، وحصل القرب الخاصُّ والمعيَّة الخاصَّة؛ لكان الثَّاني أقوى وأحدُّ؛ لأنَّه رتَّب الاعتقاد كما جاء به رسول الله ﷺ في مرتبته، قريب له الكشف الخاصُّ في مرتبته، والله ﷻ أعلم.

فائدة: القلب يصعد إلى العلوِّ سماء سماء حتَّى ينتهي إلى العرش فإذا انتهى إلى العرش؛ انتهت الجهات، والمسافات، والحدود، والأقطار، ولم يبق إلَّا من لا مثل له ولا حدٌّ يحصره، إذا علم ذلك؛ علم ما معنى إشارة المشير إلى الفوقيَّة، وعلم أنَّها إنَّما هي بحسب الأكوان المحدودة الَّتي لا يعقل فيها غير ذلك.

وأمَّا الرَّبُّ تعالى في فردانيَّته حيث لا كون ولا مكان فليس ثمَّ جهة يشار إليها؛ إذ لا كون ثمَّ ولا مكان، فإذا وجد الكون؛ وجب الإشارة إلى فوق جهة ومرتبة؛ لعلوِّ خالقه وسفول المخلوق، والحمد لله.

فصل

وأمَّا ما ذكره سيِّدي في قضيَّة ابن عربي وكونه أعاد الله بركته، وكونه قال في حقِّه رحمه الله: ليت شعري بماذا فائضاً عند [٢٤٥/ب] خادمكم فيه كلام

ويجب عرضه في خدمتكم، فإنَّ المحبَّ قد لا يكتم عن محبوبه طوية.

هذا الرَّجل لا شكَّ أنَّ له مصنَّفات مفيدة، ودقائق حسنة، وكلام مليح، كما ينقله في «المحكم المربوط» و«الفتوحات» وغيرها، لكنَّه يدرج السُّمَّ القاتل في كلامه لمن لا فطنة له بأساس قواعده، ورموزه في زندقته، ولا بأس أن نذكر شيئاً من ذلك، وسيِّدي بعد ذلك لا بأس إن رأى أن يطالع الفصوص وغيرها من كلامه، ثمَّ يزن ما ذكره الفقير على ذلك وما المقصود في ذلك علم الله إلَّا التَّحذير من الزَّنادقة الملحدين.

فكم أتلف هؤلاء من مسلم عثَّروه في آبار المهالك والمعاطب، ومن ذاق شيئاً من هذا الاتِّحاد لا يقدر كلُّ شيخ في الوجود يخلِّصه من ذلك إلَّا أن يشاء ربِّي شيئاً، وبالنَّادر يكون ذلك.

فابن عربي، وابن سبعين، والصَّدر الرُّومي، وابن هود الأندلسيُّ، وعبد الله البلباتيُّ، والعفيف التِّلمسانيُّ وأمثالهم عند هذا الضَّعيف لا يجوز أن يقال فيهم: رحمهم الله، فإنَّهم غيَّروا وبدَّلوا وقلَّبوا حقائق الشَّريعة، وأشركوا الله بكلِّ شيء، وجعلوه عين كلِّ شيء فتلف بسببهم أمم لا يحصيهم إلَّا الله، ومروا من الدِّين، وخرجوا من الإسلام، فمثل هؤلاء كيف يرحمهم الله؟! بل يجب ذمَّهم، وتحذير النَّاس منهم.

وذلك لا يكون إلَّا بعد معرفة مذهبهم، فمن لا يعرف مذهبهم والسُّموم القاتلة في كلامهم كيف يبغضهم، أم كيف يذمُّهم؟

وقد علق فيهم ثلاث كراريس، الأوَّل سمَّاه «البيان المفيد في الفرق بين الاتِّحاد والتَّوحيد»، والثَّاني «لوامع الاسترشاد في الفرق بين التَّوحيد والاتِّحاد»، والثَّالث «أشعة النُّصوص في هتك أستار الفصوص»، كلُّ ذلك؛ ليبقى المؤمنون على بصيرة، ويحذرون من طرقهم ومتاهاتهم، وحاصل ذلك كلِّه كلام وجيز مختصر.

إنَّ هؤلاء جميع ما يبدوه من الكلام الحسن في مصنَّفاتهم إنَّما هو ربط واستجلاب، فإنَّ الدُّعاة إلى البدعة إن لم يكونوا ذوو بصيرة يستدرجوا الخلق في دعوتهم حتَّى يجلوهم عن أديانهم؛ لا يستجاب لهم.

هذا ابن عربي عنده في «أصوله» يجعل المعدومات أشياء ثابتة علويها وسفليها قبل وجودها، فهي عنده ثابتة في العدم لكن ليس لها وجود، ثمَّ أفاض الحقُّ تعالى عليها من وجوده الذَّاتيِّ، فقيل: كلٌّ موجود من وجود عين الحقِّ بحسب استعداده، فظهر الكون بعين وجود الحقِّ الذَّاتيِّ، فكان الظَّاهر هو الحقُّ، فعنده أنَّه لا وجود إلَّا للحقِّ، ويستحيل عنده أن يكون ثمَّ وجود محدث، كما يقوله أهل الحقِّ فإنَّهم يقولون: وجود قديم ووجود حادث.

وهذا [٢٤٦/ أ] عنده وعند أصحابه أنَّه ليس ثمَّ وجود حادث، وليس ثمَّ إلا وجود الحقِّ الذَّاتيِّ، وهو الَّذي فاض على الأعيان والممتلكات، فهي موجودة بعينه، ومن شكَّ في أنَّ هذا اعتقاده؛ فليراجع كتبه «الفصوص» وغيرها.

فصل

عنده أنَّه لمَّا فاض على الأكوان عين وجود الحقِّ؛ كان هو الظَّاهر فيها بحكم الوجود، وكانت هي الظَّاهرة فيه بحكم الأسماء فإنَّها كثيرة متعدِّدة، وعنده أنَّ الكون افتقر إلى الحقِّ؛ بسبب إفاضة الوجود.

وعنده أيضاً أن الحقَّ افتقر إلى الكون؛ لظهور أسمائه، وكلٌّ منهما يعبد الآخر، فالحقُّ يعبد الكون عنده؛ لأنَّه فيه ظهرت أسمائه، والكون يعبد الحقَّ؛ لأنَّه بوجوده ظهر، وأنشد على هذا في كتاب «الفصوص» في الكلمة الإبراهيميَّة قال:

فيحمدني وأحمده، ويعبدني وأعبده، ففي حال أقربه، وفي الأعيان أجحده

فيعرفني وأنكره، وأعرفه فأشهده، لذاك الحق أوجدني، فأعلمه وأوجده[(١)]

قوله: يعبدني؛ لأنِّي محلٌّ أسمائه، وأعبده؛ لأنَّنِّي ظهرت بوجوده، وقوله: فيعرفني بكثرة أسمائه، وأنكره؛ لأنَّني شائع في الكلِّ متفرِّق في الكون، وأعرفه بوجودي فأشهده حينئذ.

قوله: لذاك الحق أوجدني فأعلمه وأوجده؛ أي: أوجدني؛ لأعلم وجوده، فإنَّه وجوديٌّ ووجوده أنا، فإنَّه إنَّما ظهرت أسماؤه بي.

فيا معاشر العلماء هل من يقول هذا مسلم، أو بقي معه من الإسلام حبَّة خردل؟ فهذا عنده أنَّ الحقَّ تعالى شيء مطلق مثل الحرارة والبرودة في الأشياء الباردة، ومن أمعن في مطالعة كتبه؛ عرف صحَّة ما قلناه، وقال في الكلمة الآدمية: فأمَّا إنسانيَّته فلعموم (ساته) وحضرة الحقائق كلِّها، وهو للحقِّ تعالى بمنزلة إنسان العين من العين الَّذي يكون به النَّظر فإنَّه به نظر الحقُّ إلى خلقه فرحمهم، جعل آدم الخلق بمنزلة إنسان العين من العين، ثمَّ ستر كفَّره فقال: به نظر الحقُّ إلى خلقه فرحمهم.

فالعاقل المنصف إذا نظر إلى هذا؛ عرف سوء معتقده، وقال في الكلمة الشِّيثيَّة: فهو أرى مرآتك في رؤيتك نفسك، وأنت مرآته في رؤيته أسمائه وظهور أحكامها، ولست سوى عيني فاختلط الأمر، وانبهم معناه فهو مرآتك في رؤيتك نفسك؛ لأنَّ وجوده فاض عليك فنظرت إلى نفسك بوجوده، فصار هو مرآتك وصرت أنت مرآته في رؤية أسمائه، فإنَّه لولاك لم ير أسمائه. فإنَّ عنده أنَّ كلَّ موجود قبل من الوجود بحسب استعداده، فعنده تلك النِّسبة وذلك الاستعداد هو أسماء [٢٤٦/ب] الحقِّ، ثمَّ صرَّح بكفره فقال: ولست أرى

---

(١) ذكره ملا علي القاري في الرد على وحدة الوجود (ص ١١١).

سوى عينه، فاختلط الأمر وانبهم، وكفى بهذا كفراً، حيث يعتقد أنَّ الحقَّ ليس سوى عين العبد، وأنَّ الأمر اختلط وانبهم فصار لا يتميَّز الخالق من المخلوق، ولا المخلوق من الخالق.

وقال في الكلمة النُّوحيَّة: وإنَّ التَّفريق والكثرة كالأعضاء في الصُّورة المحسوسة، وكالقوى المعنويَّة في الصُّورة الرُّوحانيَّة، فما عبد غير الله في كلِّ معبود فافهموا ذلك معاشر العقلاء.

وقال في الكلمة الإدريسيَّة: ومن أسمائه الحسنى العليُّ على من وما ثَمَّ إلَّا هو، فهو العليُّ بذاته أو عين ماذا وما هو إلَّا هو، فعلوُّه لنفسه وهو من حيث الوجود عين الموجودات، فالمسمَّى محدثات هي العليَّة لذاتها، وليست إلَّا هو، فهو العليُّ لا علوَّ إضافة؛ لأنَّ الأعيان الَّتي لها العدم الثَّابتة فيه ما شمَّت رائحة الوجود، فهي على حالها مع تعداد الصُّور في الموجودات.

والعين واحدة من المجموع في المجموع، فوجود الكثرة في الأسماء، وهي النِّسب، وهي أمور عدمية، وليس إلَّا العين الَّذي هو الذَّات.

فهذا قد صرَّح بأنَّ المحدثات علية لذاتها؛ لأنَّها بالوجود الذَّاتي، فعلى هذا يكون الكلب عليَّاً بذاته، والخنزير عليَّاً بذاته، ثمَّ قال: والعين واحدة من المجموع في المجموع، ثمَّ قال: وليس إلَّا العين الَّذي هو الذَّات، والكثرة في الأسماء أمور عدميَّة.

فهذا يصرِّح أنَّ الحقَّ عين الأشياء، وأنَّه الوجود السَّاري في كلِّ شيء، كما يقوله ابن سبعين في بعض مصنَّفاته: فظهر في الماء بلونه، وفي النَّار بلونه، وفي النَّبات بلونه.

معاشر العقلاء فهل مع هؤلاء من الإسلام شيء؟ كلَّا، هؤلاء أشركوا الله بكلِّ شيء، وجعلوه عين كلِّ شيء.

وليس هذا فناء المحبِّين من الصُّوفيَّة أولئك فنوا بمن أحبُّوه حتَّى غابوا عن

نفوسهم، وهؤلاء صحاة شياطين يقرِّرون ذلك بقواعد علميَّة، أين حال هؤلاء من أحوال السُّكارى، بل زنادقة؟

ويقول في «الفصوص» أيضاً: فظهر بصورة كبش من ظهر بصورة إنسان، وظهر بصورة لا بل بحكم ولد من هو عين الولد، وخلق منها زوجها، فما نكح سوى نفسه، فمنه الصَّاحبة والولد، وكلُّ هذا باعتبار الوجود السَّاري في كلِّ شيء.

فعنده أنَّ الحقَّ هو الوجود السَّاري في كلِّ شيء المطلق، ولأجل ذلك يقول: ظهر بصورة كبش من ظهر بصورة إنسان؛ أي: أنَّ الظَّاهر في المجموع هو الحقُّ، ولولا الملالة؛ لنقلت من كلامه شيئاً كثيراً يصرِّح بالكفر والزَّندقة.

ولا يكني باعتبار الوجود لا باعتبار سكر الحال، وفي ذلك كفاية للفطن اللَّبيب إن شاء الله تعالى، والواجب التَّحذير من [٢٤٧/أ] زندقة هؤلاء، وإعلان أمرهم بين النَّاس؛ كيلا يقعوا في هذه الطَّامات الموجبة للكفر المخرجة عن دين الإسلام، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

الرِّسالة السِّراجيَّة في الطَّريقة المنهاجيَّة

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

أرسلها الشَّيخ عماد الدِّين الواسطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الشَّيخ سراج الدِّين بن أبي السِّريِّ الحرباويِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وسمعتها على الشَّيخ المصنف بقراءة ابن سعد الدِّين الحنبليِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

الحمد لله فاتح أبوب الرَّحمة على من يشاء من عباده الميسر لهم سبل السَّعادة الحامل لهم على إقامة شريعته ومراده، يحبُّهم ويحبُّونه، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾(١)، فهم عيونه في بلاده، وخاصَّته من بين خلقه وأوليائه وأوتاده، فتح عيون بصائرهم وجلاها بأثمد اليقين، فشخصت إلى عظمة قدسه راجية لميعاده، راهبة من سطوات نقمه وموبقات أبعاده، وصفا أسماع قلوبهم ففهمت عنه مراده، وعقلت عنه أسرار التَّنزيل فسمعته بعد إشهاده، فجعل لهم عيوناً يبصرون بها، وآذاناً يسمعون بها، وقلوباً أفادها العلم به، وحشاها خشية من جميل إرفاده.

وأشهد أنَّ لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له الحيُّ القيُّوم القائم بقسطه في بريَّته، والمفيض عليها من مواد مداده، وأشهد أنَّ سيِدنا محمَّداً عبده ورسوله خاتم رسله الموفي في معياده صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة تفرق عدد من يحصرها في أعداده.

وبعد: فإنَّ بعض من اغتنم بركته وأرجو همَّته من أهل الفضائل العلميَّة

---

(١) سُورة البقرة: الآية ١٦٥.

والأحوال الرَّضيَّة والأخلاق الزَّكيَّة أشار إلى هذا الضَّعيف بإشارة لم يمكنه ردّها، ولم يجد بدّاً من المسارعة إلى امتثالها، أشار أيَّده الله في كتابه «وصية سلوكيَّة»: وكنت أحقّ من أوصاني وأهدى إلى نصائحه؛ إذ من خصائص الطَّبيب أن ينفذ علاجه في نفسه أوَّلاً، ثمَّ يطب غيره.

والحوض إذا لم يملأ كيف يفيض، فماؤه هو أولى به إذا كان ناقصاً قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾(١)، لكن لمَّا أمرنا بالتَّواصي بالحقّ، والتَّواصي بالصَّبر، والتَّواصي بالمرحمة، وقد وعدنا أنَّنا إذا فعلنا ذلك أن ننجو من الخسران، وأن نلحق بأصحاب الميمنة والبرِّ.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾(٣)، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: **«الدِّين النَّصيحة، قلنا: لمن، قال: لله ولرسوله [٢٤٧/ب] ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم»**(٤)، وقال جرير بن عبد الله البجليُّ: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، والنُّصح لكلِّ مسلم(٥)، فحينئذ لم أكتب ما تحقَّقت به عملاً إلَّا أنِّي كتبت إن شاء الله تعالى لإخواني ما أحبُّ أن أعمله، وأرجو ألَّا أموت حتَّى أبلغه حيث عرفت أنواعاً من المطالب العالية بتعريف الله ﷻ إيَّايَّ، فأحبُّ تسطيرها لمن أحبَّ من أخواني؛ ليعلم ما علمت، ويشتاق إلى ما اشتقت، وبالله أستعين وعليه أتوكَّل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

---

(١) سُورة الصف: الآية ٢-٣.
(٢) سُورة التوبة: الآية ٧١.
(٣) سُورة المائدة: الآية ٢.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) رواه البخاري، رقم: (٥٧) ومسلم، رقم: (٢٠٨).

فصل

لا يخفى على أهل العلوم الَّذين أمدَّهم الله تعالى بصفاء العقل والفهوم أنَّ هذا العصر قد تباعد عن زمن الرَّسول ﷺ، فله اليوم سبع مئة سنة وكسور، ولو كان له مئة سنة؛ لكان كثيراً فكيف وله هذه المدَّة الطَّويلة، وكان الدِّين في زمان رسول الله ﷺ واحداً وهو دين الإسلام، وكان الصَّحابة ﷺ على طريقة واحدة ولون واحد، علمهم ما أنزل الله على رسوله ﷺ، وعملهم ما اقتضاه ذلك العلم المنزَّل من السَّماء، ومواجيد قلوبهم من مشكاة الرِّسالة والنُّبوَّة.

والعاقل في زماننا هذا يرى المسلمين طوائف متعدِّدة لا يحصرها العادُّ بعدده، فالفقراء طوائف، والصُّوفيَّة طوائف، والفقهاء طوائف، هؤلاء أهل العلم وأهل العمل بالعلم؛ أعني: الفقهاء والفقراء، فالفقهاء أهل العلم، والصُّوفيَّة والفقراء أهل العمل به، ثمَّ إنَّ كلَّ طائفة تدَّعي أنَّ الحقَّ معها، وأنَّها المصيبة، وهي على السُّنَّة فتحبُّ من دخل في طريقتها، وتمقت أهل الطَّريقة الأخرى.

فجاء الطَّالب في آخر الزَّمان يطلب الحقَّ المحض التَّام الكامل الَّذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه فوجد إمَّا أهل زاوية وحديث بلا عمل وفقهاء بالأحكام غير ملتزمين بها، أو فقراء يشيرون إلى الأحوال، ويعرضون عن الشَّريعة وعلمها، وإتقان أعمالها، والوقوف التَّام عند حدودها ببعض الأغراض.

فعلم بلا عمل، أو عمل بلا علم، أو حال بلا علم تام ولا عمل تام، فإلى الله ﷻ الشَّكوى من هذه الحيرة، فليت شعري؛ أي: الطَّريق هي الطَّريقة الكاملة.

وإذا فتَّشت؛ فلا ترى طريقة إلَّا وفيها شائبة من حقٍّ وباطل، أو ترك لمقتضى ما عليه الطَّائفة من العلم، فعظمت لذلك البلوى، واشتدَّت الفاقة إلى معرفة الدِّين التَّام الموصل إلى الكتاب [٢٤٨/أ] والسُّنَّة.

فالعاقل يعلم أنَّ الصَّحابة ﷺ كانوا أعمق النَّاس علوماً، وأصحَّهم أعمالاً، وأنفذهم أحوالاً، ولا يوجد في زماننا هذا طريقة من الطَّرائق جمعت هذه الأشياء التَّامَّة من العلم والعمل والحال.

فصل

بعض الفقراء اشتدَّت فاقته إلى معرفة ذلك الأمر التَّام الكامل الصَّحيح من كلِّ وجه، كيف يوقف عليه؟ وإذا وقف عليه مفرَّقاً، كيف يمكن تركيب ذلك المتفرِّق؛ ليصير المتفرِّق هيئة واحدة تامَّة كاملة.

فالمحدِّثون غلبت عليهم كيفيَّة الرِّواية، فضعفت بذلك أعمالهم وأحوالهم، والفقهاء غلبت عليهم كيفيَّة الغوص الدَّقيق في المسائل، فنفذت قواهم في ذلك فضعفت أعمالهم وجهادهم وأحوالهم، والفقراء غلبت عليهم كيفيَّة الزِّيِّ والرُّسوم وبارقة من الذَّوق الصَّحيح، فضعفت بذلك علومهم وجهادهم، فأغاثه الله ﷻ بأن كشف له أنَّ دين الرُّسول ﷺ التَّام الكامل تفرَّق في الأمة، فصرفت كلُّ فرقة جميع قوَّتها في شطر منه، وعرضت عن غيره من أبعاض الدِّين، فقوم من الأجناد الصَّادقين معهم شطر الجهاد بالنِّيَّة الصَّحيحة والورع الصَّحيح؛ بحيث أنَّهم لا يأخذون من الغنائم ما لا يقسم رأينا منهم نفراً قليلاً، وهم مع ذلك ضعيفون في العلم والعمل والحال.

والمحدِّثون عندهم علم الرِّواية، والفقهاء عندهم الأحكام، والفقراء عندهم طوق من الحال ممزوج بأوضاع لم يشرعها الله ﷻ من التَّرسُّم بالزِّيِّ

والسَّماع، فيجدون قلوبهم فيه، ولا يجدونها في القرآن الَّذي هو كلام الحبيب.

وكان سماع أصحاب رسول الله ﷺ من القرآن لا غير لا يحرِّكهم ولا يثير مواجيدهم الصَّحيحة إلَّا القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾(١)، وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(٢).

فلمَّا طال الأمد وقست القلوب؛ صار أهل الأحوال لا يجدون قلوبهم إلَّا في سماع منحرف، وتقسو قلوبهم عند سماع القرآن، والكلام إنَّما هو في أغلب النَّاس لا في بقايا نوادر منهم، فإنَّ الأرض لا تخلو من قائم بحقٍّ في علمه، أو عمله، أو حاله.

فصل

إذا تقرَّر ذلك؛ وجب على الطَّالب الصَّادق في هذا الزَّمان أن يشمِّر عن ساق العزم، ويجمع من جميع الطَّوائف ما تفرَّق من دين الرَّسول ﷺ، فيأخذ من [٢٤٨/ب] المحدِّثين علم الرِّواية، وعلم المتون، وأسماء الرِّجال ومعرفة سيرهم، وغير ذلك، ويأخذ من الفقهاء علم الأحكام والفقه فيها بقدر ما يحتاج إليه، ويأخذ من أهل الجهاد ما أمكن من الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، ونصرة المظلوم، ويأخذ من العبَّاد إكراه النَّفس على طاعة الرَّبِّ ﷻ، وملازمة الأوراد، ويأخذ من الصُّوفيَّة وخواصِّ الفقراء علم مكارم الأخلاق

(١) سُورة المائدة: الآية ٨٣.
(٢) سُورة الزمر: الآية ٢٣.

من البذل، والإيثار، والتَّواضع، والرِّفق، والرَّحمة، والظَّرف الَّذي عندهم من المواجيد والأحوال.

فإنَّهم ورثوا من رسول الله ﷺ قسطاً من جهاده وعلمه، فإن أنت خضت في هذه الطَّوائف، وأخذت من كلِّ طائفة ما يفتقر كمال دينك إليه؛ فقد حاولت الأمر الجليَّ جهد الطَّاقة والإمكان، و ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[1].

فصل

قد عرفت كيفيَّة التَّواصل إلى ما عند المحدِّثين، والفقهاء، والمجاهدين، والعمَّال، وذلك ظاهر بيِّن عند كلِّ ذي لبٍّ، ولكن قد يتعذَّر الوقوف على طريقة الأحوال الصَّحيحة، وأخذها في هذا الزَّمان من الصُّوفيَّة وخواصِّ الفقراء؛ لكثرة الشَّوائب الَّتي شابتهم في عقائدهم ورسومهم وأوضاعهم فانحرفوا بذلك عن دائرة الكمال انحرافاً كثيراً حتَّى أنَّك ربَّما وجدت بين الصُّوفيِّ والفقيه المجادل تبايناً كثيراً لا ينضبط، حتَّى ربَّما ينفر أحدهم من الآخر نفوراً كثيراً، حتَّى ربَّما استشعر كلٌّ منهم أنَّ الَّذي قام به الآخر يعبد غير دين الإسلام.

وليس الأمر كذلك، بل كمال دين الإسلام لا يتمُّ إلَّا بما قاما به من الحقِّ، لا ما شاب طريقهما من الرُّسوم والأوضاع المحدثة، وها أنا إن شاء الله تعالى أذكر لك مدخلاً يدخل به في طريقة الصُّوفيَّة والفقراء كالجنيد وأقرانه وشيوخه ﷺ، ومن جاء بعدهم من المشايخ الأصحاب؛ كشيخ الإسلام أبي إسماعيل عبد الله الأنصاريِّ الهرويِّ في المئة الرَّابعة، والشَّيخ

(١) سُورة الطلاق: الآية ٧.

الإمام عبد القادر الجيليّ في المئة الخامسة ﷺ أجمعين.

فصل

لا ينعجمنَّ عليك طريقهم بما أحدثوا لها من الأسماء والصِّفات، فربَّما يقول القائل: إنَّ هذه الأسماء لا توجد في الكتاب والسُّنَّة من ذكر الجمع والفرق، والاتِّصال والانفصال، والغيبة والحضور، والفناء والبقاء، والسِّكر والصَّحو، والمحو والمحق.

فاعلم أيَّدك الله أنَّ هذه الأسماء لم يرد بأعيانها الشَّرع، لكن هي من لوازم كمال الحال؛ لأنَّها من لوازم القرب والإيقان، والله ﷻ ذكر في الكتاب العزيز الموقنين فقال: ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾(١) [٢٤٩/أ]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾(٢)

فمن تحقَّق باليقين، ثمَّ القرب كان من لوازم القرب واليقين مسمَّيات هذه الأسماء بمقتضى الحال، ولا نعرف اسمه، ولا أنَّه هو.

فصل

في بداية أمور المدخل إلى الأمور الذَّوقيَّة في طريق القوم أوَّل ذلك ينبغي للعبد أن يجدِّد لله ﷻ توبة نصوحاً وإن كان تائباً، فيتوضَّأ ويدخل على الله ﷻ بالتَّوبة والاعتذار، كما مضى مع كشف الرَّأس، وتمريغ الوجه، والتَّضرُّع؛ ليظهر على العبد رجوعه التَّام إلى مولاه، وليخرج بذلك عن توبة المدابير، مثل: أن تكون المشيخة في يده وقلبه لا يفتر عن الظُّلم، فإذا تضرَّع إلى مولاه

(١) سُورة البقرة: الآية ٤.
(٢) سُورة الواقعة: الآية ١٠-١١

التَّضرُّع البالغ نادماً على ما مضى من تضييع الأوامر والتَّهاون في إتقانها، وارتكاب المناهي والتَّهاون عن إتقان اجتنابها، عازماً على إصلاح الحال في المستقبل بكلِّ ممكن من النُّصح لله ﷻ في السَّعايات الظَّاهرة والباطنة، عاملاً على براءة الذِّمَّة من سائر الحقوق الشَّرعيَّة، مثل: دين، أو صداق، أو حقٍّ قلَّ أو جلَّ خصوصاً الدِّيون؛ فليعمل على التَّنصُّل منها مهما استطاع، فإنَّها تقيِّد القلب، وتحجب السِّرَّ، والعمل على براءة الذِّمَّة من صلاة فائتة في أوَّل البلوغ مثل سنة أو سنتين، أو صوم فات، أو زكاة فاتت، أو حقٍّ تعذَّر إيصاله إلى أهله فيوصله إلى ورثته، فإن لم يجدهم؛ فليتصدَّق به عن صاحب الحقِّ.

وفي الجملة فلا يفتر عن تبريء ذمَّته من كلِّ حقٍّ لله ﷻ تعلَّق بذمَّته، ومن كلِّ حقٍ وجب لعباده، فإذا قام بهذه الوظيفة؛ فليعمل على صفاء المطعم فإنَّه رأس الأمر وعمدته، وأصل نور القلب وسببه، ومن لا يدري من أين طعمته كيف يعرف قلبه وما يرد عليه من الواردات الخفيَّة وضدِّها؟

والَّذي يكفي العبد من ذلك أن يأكل أنهى ما يقدر عليه من الحلال؛ إذ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1]

فإذا قام بهذه الوظيفة؛ فليجعل لربِّه ﷻ قطعة من وقته لا يشتغل فيها بغيره ﷻ، يعمل فيها ما يفتحه الله ﷻ عليه من صلاة، أو تلاوة، أو ذكر، أو فكر، أو مراقبة، يعمل ذلك بالنُّصح التَّامِّ، وصدق التَّوجُّه إلى الله ﷻ بدوام إقباله على مولاه في ذلك اعمل؛ بحيث لا يكون بعض من أبعاضه خارجاً عن ذلك العمل ملتفتاً إلى أمر آخر.

فإن أمكن ذلك ووجد العبد فيه حلاوة الطَّاعة؛ فقد فتح الباب إن شاء الله تعالى، يروى عن ذي النُّون المصريِّ رحمه الله قال: من ذاق حلاوة

---

(١) سُورة البقرة: الآية ٢٨٦.

العبادة؛ فقد وصل إلى الله تعالى؛ يعني: في أدنى مراتب الوصول، كما يظهر من كلامه.[٢٤٩/ب]

فإذا فتح الله ﷻ على العبد في مثل هذه المعاملة في ليل أو نهار، ووجد العبد لذَّتها؛ يرجى أن يصفى فيها قلبه، فيشرق في ذلك الصَّفاء على دسائس النَّفس والهوى، والقوادح في الأعمال والأخلاق، فيلزمه إشرافه على نفسه في ذلك الصَّفاء المحاسبة لنفسه ظاهراً أو المراقبة على الخواطر، والوساوس، والهمم، والعزائم، والقصود باطناً.

فمنهم من يحاسب نفسه دائماً؛ بمعنى: أنَّ علم المحاسبة ملازم لقلبه لا يفارقه، فإن تعذَّر ذلك فليحاسب نفسه وقت الضُّحى ووقت الوتر، يحاسب في وقت الضُّحى نفسه على ما اجترحه باللَّيل، ويحاسب نفسه وقت الوتر على ما اجترحه بالنَّهار، ومنهم من يحاسب نفسه عند كلِّ فريضة بما اجترحه بينهما فيحدث لكلِّ طاعة أو نعمة شكراً، ولكلِّ معصية توبة واستغفاراً.

فصل

فإذا فتح الله ﷻ ذلك على العبد وواظب عليه؛ عملت المواظبة إنقاء صفاء النَّفس قليلاً قليلاً، ولتكن مسألة الفوقيَّة دائماً هي قبلة باطنة، كما أنَّ الكعبة الشَّريفة دائماً قبلة ظاهرة، وكلَّما صفا في المحاسبة والرِّعاية؛ أشرق على دسائس النَّفس في القلب نور التَّقوى قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[١]، قيل: أي نور يفرِّقون به بين الحقِّ والباطل فيشرق حينئذ بنور ربِّه على قلبه، فيرى فيه الكبر على غيره بعلم أو حال أو مال، ويرى فيه التَّصنُّع باللِّباس أو الأعمال، ويرى العجب أو الحسد لغيره

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٩.

على ما آتاه الله من فضله، ويرى في قلبه من نفسه آفات كثيرة ومهلكات قامت بإزاء الكبائر الظَّاهرة، وكذلك يرى فيه مكروهات قامت بإزاء المكروهات الظَّاهرة، فحينئذ يستعين بالله ﷻ، ويقوم على قلبه سرُّ ربِّه، فيزيل منه الكبر على غيره، ويرى أنَّه لا تدري لعلَّ ذلك خيراً منه قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾[1]، فيقول: لا أدري لعلَّه يختم له بخاتمة خير من خاتمتي، فتصغر نفسه عنده، ويرى نفسه أحقر من كلِّ أحد.

وعلامة ذلك أن يتواضع لأهل الإسلام، ولا يزدري بأحد من خلق الله ﷻ، ولذلك ينفي عن قلبه الرِّياء والتَّصنُّع فيعلم بعلمه الصَّحيح أنَّ الممدوح من مدحه الله ﷻ وإن ذمَّه الخلق، والمذموم من ذمَّه الله ﷻ وإن مدحه الخلق، فيهون عنده نظر الخلق إليه بعلم أو عمل أو حال، ويعمل على إصلاح نفسه ويهيِّئها لنظر الحقِّ.

وكذلك ينفى عن قلبه العجب برؤية فعل الله ﷻ، يغيب عمله في رؤية [٢٥٠/أ] فعل الله ﷻ، وإلهامه إيَّاه، وإعانته على ذلك العمل.

ولذلك ينفى عن قلبه الحسد ويحبُّ لإخوانه ما يحبُّ لنفسه من العلوم النَّافعة والأعمال الصَّالحة، فيصفى حينئذ قلبه عن جميع الخبائث والمكاره، فيصفو حينئذ قلبه ويستعدُّ لأن يصير محلَّاً لنظر الحقِّ ﷻ إليه بعين رحمته إن شاء الله تعالى.

ونهاية حال القلب المصفَّى أن يوافق الحقَّ ﷻ في محبَّة ما أحبَّه، وكراهة ما كرهه، فلا يحبَّ شيئاً بقلبه يكرهه الله، ولا يكره بقلبه ما أحبَّه الله ﷻ، ويراقب الله ﷻ في الخطرات يخشاه فيها، كما يراقبه في الحركات الظَّاهرة،

(١) سُورة الحجرات: الآية ١١.

ويتَّقيه فيها، فيستحيي من الله ﷻ في الهواجس ولخواطر، كما يستحي من حركات الجوارح.

وهذا غاية سياسة القلب وإصلاحه، كان الصِّدِّيق ﷺ يدخل الخلاء متقنِّعاً حياء من الله ﷻ، فإذا وجد العبد هذا الحياء دائماً؛ كمل له إصلاح القلب بمشيئة الله تعالى.

فصل

فإذا انتهى سير العبد إلى ذلك؛ يستعدُّ حينئذ لحقيقة الصَّلاة والتِّلاوة، فيصلِّي حينئذ بقلبه وقالبه، فإذا قال: الله أكبر؛ لا يكون في قلبه أكبر من الله ﷻ، فيشتغل به، فيكون القلب هو النَّاطق بالتَّكبير واللِّسان معبِّر عنه.

وكذلك يقف بقلبه بين يدي الله ﷻ، كما وقف بين يديه ببدنه، ويناجي مولاه بمعاني الفاتحة بحضور وتفهُّم وتدبُّر، وإنَّما استعدَّ لذلك؛ لصفاء قلبه وإشراقه بنوره، فتصير معاني الفاتحة، والرُّكوع، والسُّجود، وأذكاره، والتَّشهُّد، ودعائه تنوب هذه الأشياء في قلبه مناب حديث النَّفس، فيشتغل القلب بمعاني ما يتلوه من الوساوس.

وهذا من أوَّل الدَّلالات على صفاء القلب ورقَّته ولطفه، وعلامة هذا القلب الصَّافي أنَّه إذا ركع يستغرق في ركوعه، فلا تطيب له سرعة الاعتدال، وكذلك يستغرق في سجوده وقيامه وتلاوته تلذُّذاً بمعاني ما يقرأ، وتلذُّذاً أيضاً بمعاني الرُّكوع والسُّجود، والتَّذلُّل لحضرة الحقِّ عزَّ اسمه.

فصل

ومن علامات صاحب القلب أنَّه إذا قرأ القرآن؛ حضرت معانيه في مشاهده، فيقرأ القرآن وقلبه يشهد معانيه، فيشهد المتكلِّم سبحانه ببصيرته، ويشهد الجنَّة والنَّار والوقوف فيشتغل القلب بالمعاني عن الوساوس، ويتغذَّى القلب بمعاني القرآن من وعده، ووعيده، وقصصه، وأخباره، وأنباءه.

فيتغذَّى القلب بهذه الأشياء، ويتعوَّض بها عن الوساوس،[٢٥٠/ب] والوساوس داء عضال هو من أوَّل الدَّلالات على قوَّة النَّفس وصلابتها.

فصل

فإذا انتهى سير العبد إلى ما ذكرناه، ودام له ذلك، ولا يتصوَّر أن يدوم ذلك لمن أحبَّ الدُّنيا، والجاه، والرِّفعة، والرِّئاسة، ومن أصناف الرِّئاسة أن يطلب الإنسان لنفسه صورة ظاهرة بين الخلق كطلب مشيخة ومحبَّة جماعة يتبعونه، أو يزورونه، أو يطؤون عقبه، أو يحبُّ الشَّهرة بعمل أو سماط يمدُّه، أو وصله ببعض الأغنياء، وكلُّ ذلك حجاب عن طريق الصِّدِّيقين.

ومتى لم يجعل العبد وجهه إلى الله فيسلمه إليه، وهو محسن، ويعرض عن الخلق وعن القبول عندهم؛ لم يعد من زمرة الصّادقين، فكيف يعد من الصّديقين؟! اللَّهمَّ إلَّا أن تريد الدُّنيا وهو لا يريدها، وتتبعه وهو لا يتبعها، ويتبعه الجاه وهو يكسره ويعرض عنه بحبِّ الخمول فيشهره الله، ويحب الانكسار فيرفعه الله تعالى.

فذلك محمول فيما أقامه الله فيه من الأسباب؛ لأنَّ وجهته إلى الله تعالى واحدة، ولا يضرُّه ذلك ما لم يسكن إليه.

فصل

ولا يتمُّ ذلك إلَّا لمن مراده الحقُّ ﷻ ورضاه، فيجب أن يلقاه بوجه أبيض، فتقرُّ عينه بلقائه، فإذا انتهى إلى ذلك؛ وصل للقلب استغراق في معاني التِّلاوة والصَّلاة، بحيث يغيب العبد من لذَّته في مشاهدة المعاني حينئذ يرجى للعبد أن تتجلَّى له تجلِّيات الصِّفات في القرآن المجيد.

فإنَّه سبحانه تارة يتكلَّم بكلام عظيم، وتارة يتكلَّم بكلام جبَّار، وتارة يتكلَّم بكلام رحيم لطيف، وقادر، وملك، وجبَّار، منتقم، فإذا باشر القلب لذاذة المعاني؛ فقد شارف أن يتجلَّى على قلبه أذواق الصِّفات من القرآن، كلَّما قرأ آية لها معنى؛ غاب قلبه في المعنى أوَّلاً، ثمَّ تجلَّى على قلبه ما يقتضيه معاني الآية من صفات المتكلِّم ﷻ، مثاله قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ... ﴿١٦٤﴾﴾[1] الآية، فيها صفة مالك خالق قادر، فإذا تلا العبد هذه الآية، وغاب قلبه في تدبُّر معانيها؛ يرجى أن يتجلَّى على القلب الموصوف سبحانه بصفاته.

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ... ﴿٥٣﴾﴾[2] الآية، فإذا استغرق القلب في معانيها؛ يرجى أن يتجلَّى فيها على القلب حين التِّلاوة الرَّبُّ الموصوف بالرَّحمة [٢٥١/أ] والكرم واللُّطف.

وكذلك قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾[3] الآية يتجلَّى فيها صفات القهر والجبروت من الجبَّار القهَّار في كلامه سبحانه، وهذه

(١) سُورة البقرة: الآية ١٦٤

(٢) سُورة الزمر: الآية ٥٣.

(٣) سُورة الحاقة: الآية ٣٠-٣١.

مشاهدة الأنبياء والعارفين من كلام العزيز سبحانه معرفة صفاته بعد استغراق قلوبهم في معاني كلامه، واشتغالها بالمعاني عوضاً عن حديث النَّفس.

فصل

فإذا انتهى سير العبد إلى ذلك؛ يرجى أن يكشف لقلبه مشهد الفوقيَّة، وهي أنوار تنازل القلوب من أنوار ذي العزَّة الَّذي على العرش استوى، فيشهد العبد أنوار العزَّة من وفوق العرش تنزَّل على قلبه، فيشهد الموصوف بالعلوِّ والفوقيَّة بلا تمثيل ولا تكييف، كما يليق بعظمته وجلاله، ليس كمثله شيء وهو السَّميع البصير، فعند ذلك يحيا القلب وينهض قائماً بعبادة المعبود ساجداً متواضعاً له نازلاً إلى النُّجوم.

وعند ذلك يصير القلب قبلة ومعلَّقاً ومتوجِّهاً لا يفارقه في أكل، ولا شرب، ولا نوم، ولا كلام، كما قيل[1]:

كان رقيباً منك يرعى خواطري ... وآخر يرعى ناظري ولساني

فما خطرت في القلب دونك خطرة ... لدى السِّرِّ إلَّا قلت: قد رمقاني

ولا بدرت من في دونك بدرة ... من القول إلَّا قلت: قد سمعاني

وإخوان صدق قد سمت حديثهم ... وأمسك عنهم ناظري ولساني

وما الزُّهد أعني عنهم غير أنِّي ... وجدتك مشهودي بكلِّ مكان

فما ظنُّك بعبد قام بحقوق الله، وسار إلى الله تعالى أن شهد الله تعالى مطَّلعاً عليه في شاهده على الدَّوام، وصار جليسه ورقيباً عليه، وناهيك بمن

(١) انظر: التبصرة لابن الجوزي (٢/ ٢٣٦).

صار الحبيب عليه رقيباً، لقد شهد هذا العبد المشرَّف بسرِّه ما غاب عن عيون العموم وقلوبهم، وصار يلتذُّ بما لا يلتذُّون، ويخاف ممَّن لا يخافون، ويتنعَّم بما لا يتنعَّمون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فصل

فإذا انتهى سير العبد إلى ها هنا؛ يرجى أن يفتح له بمشهد الرُّبوبيَّة، فيشهد القيُّوم بسرِّه، كما شهد العليُّ الأعلى بسرِّه، والموصوف بهما واحد سبحانه، فيسري بقلبه في أفعال الله ﷻ، ويقف بسره على تدبيره ﷻ وحكمته في صنائعه ومخلوقاته، فيشهد الأوَّل الآخر الظَّاهر الباطن على نواصي الممالك بالاقتدار [٢٥١/ب] والملك والتَّدبير، فلا يشهد نافعاً ولا ضارًّا، ولا معطياً ولا مانعاً إلَّا الله ﷻ استوى على العرش يدبِّر الأمر يميت هذا، ويحيي هذا، ويغني هذا، ويفقر هذا، ويعزُّ هذا، ويذلُّ هذا، ويولِّي هذا، ويعزل هذا فحينئذ يقوم العبد لمولاه بعبوديَّة التَّفويض والتَّوكُّل، حيث لم يشهد قيُّوماً سواه، فعبده بالتَّفويض كما عبده بالأركان.

فصل

ثمَّ يرجى أن ينخرق كلُّ واحد من المشهدين إلى الآخر، فينخرق مشهد الإلهيَّة إلى الرُّبوبيَّة، والرُّبوبيَّة إلى الإلهيَّة، ويطلع على القلب صبح التَّوحيد الماحي لليل الوجود الطَّبيعيِّ مع شهود العبد بعبوديَّته لمولاه، وقيامه له بالأمر والنَّهي، فلا ينفكُّ العبد عن مشاهدة عبد وربٍّ في جميع أحواله.

وكلَّما كان العبد إلى ربِّه أقرب وبه أعرف؛ كان بعبادته أقوم، وله أتقى وأخشى، فيزداد بعظمته ومهابته أضعافاً مضاعفاً كما ازداد قرباً ومعرفة وعلماً

بالله ﷻ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[(١)].

فصل

ثمَّ يرجي أن تطلع على الأرواح شموس المعرفة بعد طلوع صبح التَّوحيد عليها، وهي شمس الجمع، هناك يقرع القلب حرارة أشعَّتها فتلتهب نيران وجدها، فيبقى لقلبه صراحاً في الغيب تحت العرش من أثقال المحبَّة ونيران الوجد.

وعند ذلك يتحقَّق العبد بحقائق الزُّهد في السِّوى، ويصبح فؤاده فارغاً قد تنزَّه عن عزِّ المطلوب، وانفرد بمحبَّة المحبوب، فاندرج له في ذلك الخلوِّ كلّ عمل صالح، فما ظنُّك بعبد حشات أشعة شموس المعرفة بصر بصيرته، وأحاطت به من جميع جهاته، فذهب الحدث كأنَّه لم يكن، وبقي القديم كأن لم يزل.

نزِّه فؤادك عن سوانا والقنا ... فجنابنا حل لكلِّ منزَّه

والصَّبر طلسم لكنز وصالنا ... من حل ذا الطَّلسم فاز بكنزه[(٢)]

والعبد عبد، والرَّبُّ ربٌّ، والعبد قائم بأداء وظائف العبوديَّة على أكمل هيئاتها، وقلبه قد هام بنيران الوجد والغرام، طلع على طالع من يوم الميثاق يوم قال العزيز سبحانه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[(٣)]، فاختطفت روحه وأسر لبُّه، فصار مجذوب الباطن كأنَّ قلبه في مخلبي طائر قد امتلأت عروقه من أنوار الله ﷻ المخزونة.

---

(١) سُورة فاطر: الآية ٢٨.
(٢) انظر: الفوائد لابن قيم الجوزية (ص٣٠).
(٣) سُورة الأعراف: الآية ١٧٢.

فمن حظي في هذا المقام الشَّريف بحال نفساً أو نفسين، ثمَّ أرخي عليه الحجاب فهو الذَّائق المشتاق، ومن دام له ذلك [٢٥٢/أ] ساعة أو ساعتين، فهو الشَّارب حقًّا، ومن توالى عليه الأمر حتَّى امتلأت منه عروقه ومفاصله من أنوار الله المخزونة، فذلك هو الرَّيُّ، ثمَّ من ألطاف مولاه العزيز حيث حمله حبّه ما لا يوصف جعل الخشية بطانة قلبه، فهو منبسط لمحبَّة مولاه، وفي قلبه أمثال الجبال خشية ومهابة، يعامل النَّاس بالأخلاق والبشاشة، ولا يدرون ما استكن في قلبه من خوف مولاه وخشيته، فالمحبَّة تبسطه في الأخلاق، والخشية تقبضه عن الانطلاق.

فصل

إذا أراد العبد أن يعرف هذا الحال وموسمه؛ فإنَّما يعتبر ذلك بحال القبض والبسط، فالعبد في الابتداء يكون ذا خوف ورجاء، ثمَّ ينتقل إلى مقام القبض والبسط، ثمَّ ينتقل إلى مقام الهيبة والإنس، ثمَّ ينتقل إلى مقام الفناء والبقاء، ثمَّ ينتقل إلى مقام السُّكر والصَّحو، ثمَّ ينتقل إلى مقام التَّكوين في التَّمكين.

فإذا قبض العبد القبض الحالي بحيث لا يبقى له فيه تصرُّف؛ فقد آن أوان فتحه من شمس التَّوحيد الَّتي تلهب الأفئدة بنارها، وذلك هو حقيقة العبوديَّة، وهي المحبَّة الخاصة الَّتي يفتحها الله ﷻ على من يصطنعه من عباده، ودون هذه المحبَّة محابٌّ تسمَّى المحبَّات العامَّة، وهي للقلوب، وهذه المحبَّة هي نصيب الأرواح يبادي بها عبد زكَّى نفسه ففطمها عن المخالفات، وحملها ثقل الواجبات فزكت وصفت، وتزكَّت وأفلح صاحبها، قال عزَّ من قائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[1].

---

(١) سُورة الشمس: الآية ٩-١٠.

فإذا تزكَّت بسياسة الشَّرع؛ ظهر عالم القلب وأنواره، فحظي العبد بتجلِّيات الصِّفات، وكلَّما منح معرفة صفة ازداد قوَّة، وأنواراً، وإشراقاً، وعلماً بالله ﷻ، وعبوديَّة له حتَّى يأخذ نصيبه من الصَّفات ومن المحبَّات العامَّة، وهي محبَّة الإيمان الَّذي لا يتمُّ الإيمان إلَّا بها، ومحبَّة الآلاء والنَّعماء، ثمَّ يبدو على العبد القبض، فيقبض قلبه عن جميع ما علمه، فيمحى كأنَّه لا يعرف شيئاً فيمحى أثر القلب، كما انمحى أثر النَّفس، ثمَّ ظهر عالم الرُّوح، ويكاشف بالمحبَّة الخاصَّة الملهبة للأرواح، فيندرج له في هذه المحبَّة جميع ما كان له في عالم القلب بالضَّمن والتَّبع.

فصل

وعلامة هذا العبد الكامل أن يكون فارغ القلب عن التَّعلقات النَّفسانيّة؛ لأنَّ قلبه قد صار في عالم السَّماء، وروحه قد صارت في [٢٥٢/ب] عالم العرش المجيد؛ بمعنى: أن شؤون قلبه في السَّماء، وشؤون روحه متعلِّقة بالعرش؛ أي: قصدها وهمَّتها ومتعلَّقها هناك، فيكون فارغ القلب طائر الهمِّ تعلو إلى أعلى المراتب، فيباشر السِّر روحه، فيبقى نصيب الجسم من ذلك السِّرِّ قيامه بالعبادة، ونصيب النَّفس استسلامها ومفارقة تدبيرها واختبارها، ونصيب العقل تأمُّله لأمر الحبيب ونهيه في كتابه وكلام رسوله ﷺ، ونصيب القلب ملاحظة الصِّفات بعين اليقين، والقيام بالعبوديَّة بمقتضاها، ونصيب الرُّوح التهابها بالمحبَّة الخاصَّة، واستغراقها في الجمع وجمع الجمع، فتستولي عليه الأسرار الإلهيَّة من جميع جوانبه وأرجائه، فيبقى محفوفاً محروساً، كلُّ عباداته متقنة، وكلُّ أذكاره متَّصلة بالمذكور، وجميع همومه ومطالبه مجتمعة عند مولاه هو غاية أمله الأقصى، وبحبِّه وبوجوده تقرُّ عينه لا

بسواه يحبِّهم ويحبُّونه، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1].

روى ابن هشام عن ابن إسحاق في السِّيرة أنَّ رسول الله ﷺ خطب بالمدينة حين قدمها خطبة قال فيها: «**أحبُّوا الله بكلِّ قلوبكم، ولا تملُّوا من ذكره، ولا تقسوا عنه قلوبكم أو نحو ذلك**»[2]

فنسأل الله العظيم أن يحقِّقنا بما علمناه حالاً وعلماً، وأن لا يجعل هذا العلم حجَّة علينا، وكما جعلنا من محبِّي هذا الشَّأن، ومحبِّي أهله، فنسأله أن يتصدَّق علينا بالتَّحقُّق بأعمالهم وأحوالهم، إنَّه أرحم الرَّاحمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدِّين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) سُورة البقرة: الآية ١٦٥.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية لابن هشام (٢/ ١٠٦).

القسم الرَّابع في المسائل والجوابات

من كلام الشَّيخ العالم الزَّاهد العابد السَّالك العارف عماد الدِّين أحمد بن إبراهيم الواسطيِّ.

مسائل في الفرق بين كرامة الوليّ

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

وزوكرة المزوكر[١]، وعن الفرق بين الحال الصَّحيح والفاسد، والفرق بين الصَّالح والطَّالح، والصَّديق والزِّنديق.

الحمد لله الحنَّان المنَّان ذي الجود والإحسان الفارق بين الحقِّ والباطل بالبيان، كلَّ يوم هو في شأن، وأشهد أنَّ لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، الرَّحمن علَّم القرآن خلق الإنسان، وأشهد أنَّ محمَّداً ﷺ [٢٥٣/أ] عبده ورسوله سيِّد ولد عدنان المبعوث إلى كافَّة الإنس والجان صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه في كلِّ حين وأوان.

سألت رحمك الله عن الفرق بين كرامة الولي وزوكرة المزوكر، وعن الفرق بين الصَّحيح الحال والفاسد، وهل يجوز أن يكون التَّأثير والكشف من غير الولي؟ وما علامة الكامل في الحال والنَّاقص فيه؟ والفرق بين الصَّالح والطَّالح، والصَّديق والزِّنديق، وعن قوم يرغون ويزيدون كما يفعل من اعتراه جنون، ثمَّ بعد ذلك ينطقون فيقال: إنَّهم مكاشفون، أفنحسن بهم الظُّنون أم لهم ميزان به يوزنون؟ فاستخرت الله تعالى في الجواب، وهممت أن أمسك فإنَّه أسلم أحياناً وأجزم؛ ولأنَّه لم يتعيَّن على الجواب؛ إذ قد يوجد من يقوم به فرض الكفاية، ثمَّ انبعث الخاطر بأن أجيب عن ذلك بمنتهى علميٍّ وفهميٍّ.

فإن وافق الحقّ؛ فالحمد لله، وإن كاد أو قصر؛ فذلك منتهى الاجتهاد،

(١) الزكورة: قال الشيخ محي الدين الخطيب في تحقيقه على «طريق الهجرتين» ص ٤٠٨: إظهار النسك وإبطال الفسق، نقله في التاج عن نفح الطيب.

فأستغفر الله منه، وأسأله التَّوفيق والعصمة من الخطأ والزَّلل في القول والعمل، إنَّه جواد كريم.

المسألة الأولى: ما الفرق بين كرامة الولي وزوكرة المزوكر، للأولياء سمات يُعرفون بها ولكراماتهم علامات يفرق بها بين الكرامة والزوكرة، فصفات الأولياء معروفة من لزوم قانون الشَّريعة، والتَّمسُّك بالأوامر وإتقانها، والاجتناب عن النَّواهي والتَّباعد عن دقيقها، وتعلوهم السَّكينة والوقار وبهجة العبوديَّة وسيماء المحبَّة والمحبوبيَّة والأنوار على أثر الرَّسول ﷺ قدماً قدماً يتبعون طريقه، ويتأدَّبون بآدابه، ليس للشَّريعة عليهم مطالبة لا في ظواهرهم، ولا في بواطنهم، لا يستخفون بأمر عظَّمه الله، ولا يعظِّمون أمراً حقَّره.

والله أبعد النَّاس من الظّلمة وأهل البغي والفجور، قد حملهم الشُّهود حملوا منه كثقل الجبال ترد على قلوبهم التَّعريفات والتَّنبيهات المطابقة لنصوص الشَّريعة، يعظِّمون الشَّريعة وحملتها ويرجعون إليهم فيما ينوبهم من تفاصيلها يردُّون وارداتهم إلى أحكام الشَّرع، لا يستبدون بإمضاء أحكامها إلَّا بعد وزنها به، فما وافق منها الشَّرع قبلوه، وما نافى ردُّوه وأبطلوه على هذه الصِّفات درج سلف الأولياء وخلفهم من الصَّحابة وتا بعيهم وتابعي تابعيهم.

وكذلك كانوا إلى عصر طبقات الصُّوفيَّة دلَّ [٢٥٣/ب] على أعمالهم وصفاتهم ما دوَّنه العلماء في الأسفار والتَّواريخ، وهي بأسرها توافق ما شرحناه وبيَّناه من صفاتهم وكراماتهم أنواع.

منها: ما يكرمون به في أسرارهم من حقائق المواجيد والعرفان، وما يكرمون به في ظواهرهم من لزوم الاتِّباع وتيسير الأعمال الصَّالحة والتَّقرُّبات الدَّالة على حقائق الموافقات والطَّاعات، فهذا عندهم هو أسنى الكرامات وأعلاها، لا كرامة عندهم أعلى من المتابعة في ظواهرهم، والمشاهدة في أرواحهم وبواطنهم.

أمَّا ما يجري عليهم من خرق العادات فهو عندهم من أدنى الأدنى،

يستحيون من الله أن يقفوا معه، أو يعيروه بصرهم؛ خشية أن يتعجلُّوا به نصيبهم من الدُّنيا، وخشية أن ينحجبوا به عن قرب مولاهم؛ إذ قربه وطاعته هو نصيبهم الأعظم وكرامتهم الكبرى، فأيُّ كرامة تعادلهما وتقاومهما من خرق عادة، فيشتغلون بها وبتدبير أمرها وإظهارها للعالم هي عندهم من أدنى الكرامات، فكيف ينقطعون بالأدنى عن الأعلى؟ وكيف ينحجبون بالكرامة عن المكرم؟

اللَّهمَّ إلَّا أنَّ الكمل منهم الَّذين سلب الله تدبيرهم واختيارهم، ووقَّفهم مع شيء سواه، ومولاهم يحسن تدبيره واختياره، يريد الله أن ينفع بهم عبداً من عباده، فيظهر عليهم شيئاً من خوارق العادات؛ ليقعوا من قلب ذلك العبد بموقع، فيعتقد فيهم، فينتفع بهم، وأن يكون أحدهم ضعيف الحال متزلزل المقام، يريد الله تعالى أن لا يقطعه فيريه آية من الخوارق، فيثبت بذلك إيمانه ومقامه، وذلك مثل دعوة مستجابة، أو دفع ظالم، أو إغاثة ملهوف بالمال، أو نصر الدِّين ممَّن خذله، أو شفاء مرض، أو قضاء حاجة تعسَّرت بالدُّعاء.

فهذا الصِّنف من أعلى الكرامات، وكراماتهم متنوِّعة، فمنها ما ذكر، ومنها مثل طي الأرض والبحر والمشي عليه، أو مثل أن يوقعه ظالم في النَّار فلا تضرُّه بغير قصد منه، كما جرى لأبي مسلم الخولانيِّ، أو يبقى مدَّة لا يأكل ولا يشرب لاغتذاء قلبه بالنُّور فتارة يظهر الله ﷻ الكرامة لغيرهم بغير إرادة منهم؛ لأنَّهم بالله به يتحرَّكون، ويبطشون، ويريدون، فيكون الرَّبُّ ﷻ هو المظهر الكرامة بعد ملاحظة من الأولياء إليها يشهدون رضاه وقدرته في إظهارها فتظهر وهو لا هم لكمال تفويضهم وتبريهم من حولهم وقوَّتهم؛ لينتفع بعض العباد بهم، فيرجع إلى طريق الحقِّ بعد النُّكوص [٢٥٤/أ] عنها، وتارة يظهرها الرَّبُّ تعالى للضعيف من الأولياء؛ ليثبت بها حاله ومقامه، والقوى

منهم مستغن بشهادة عين اليقين عن الآثار الخارقة للعادات في المحسوس.

فهذا شأن الأولياء ووصف كراماتهم فسيما التَّآكل عليهم ظاهر؛ لقربهم من أهل الدُّنيا والتَّرف، ضعيفون في إقامة الأوامر فضلاً عن إتقانها، واقعون في كثير من المناهي وعدم اجتنابها، ليس للشَّريعة على قلوبهم هيمنة، ولا للقرآن على جوارحهم سلطنة، يتصنَّعون بإظهار ما ينفق ويروج لا ما يفضل عند الله ﷻ بشعة النُّفوس على وجوههم لائحة، وسيما البطالة والتَّكال على وجوههم بائن، يظهرون حسن السَّمت عند الاجتماع فانظرهم إذا خلوا كيف يكونون.

يظهر الكذب على فلتات ألسنتهم وحركات جوارحهم، يعملون على إقامة جاههم، ويكسلون إذا سقطوا من عين أحد، فملاحظة الأبصار تقيِّم حالهم لا معاملة لهم في الخلوات مع ربِّهم، وشأنهم أوضح من أن يصفه واصف عند ذي بصيرة، وأمَّا الأعمى فلا ميزان له فيروج عليه، وعامَّة ما يظهرونه ممَّا يشبه الكرامة يراهم النَّاظر متكلِّفين في إظهاره عن قصد منهم وإرادة نفسانيَّة ليستجلبوا به رفقاً من ضعفاء العقول مع التَّكبُّر به، والدَّعوى، ورؤية النَّفس والحال، وذلك مثل أكل حيَّة بين الجهَّال وضعفاء العقول، أو نزول نار خفيفة يدسُّونها فيطفئها هند النِّساء والصِّبيان، أو حيض الدَّم يزعمه الكاذب أنَّه من الحال أو التعاس والتَّنهُّد وأشباه ذلك من أحوال النصابين.

والزواكرة أعداء الله ورسوله يتآكلون بمثل هذه الخزعبلات، ويدخلون النِّساء الأجانب؛ ليدركوا بهنَّ، وليمسوهنَّ، ويصافحوهنَّ فتلتذُّ نفوسهم الفاسقة بذلك، لا يستفاد من أقوالهم حكمة ولا من أفعالهم سداد يضطربون اضطراب الوحش في البريَّة بلا ضابط، سيما الكذب، وسفعته عليهم ظاهرة يراه كلُّ ذي تمييز.

وقد ظهر بحمد الله في هذه الأسطر الفرق بين الأولياء وصفاتهم

وكراماتهم، وبين المبطلين وسماهم وشعوذتهم، والله أعلم.

المسألة الثَّانية: ما الفرق بين الحال الصَّحيح والفاسد؟

الحال يطلق في اصطلاح أهل الطَّريقة على ما قام بالقلوب من المواهب الإلهيَّة والجذبات القدسيَّة [٢٥٤/ب]

فيقال: حال التَّوبة، حال الزُّهد، حال الخوف، حال الرَّجاء، حال التَّوكُّل، حال الرِّضا، حال الحبِّ، حال الشَّوق، حال القرب، حال الاتِّصال، حال الفناء، حال البقاء، وأمثال ذلك.

وقد يسمَّى في عرف أهل الزَّمان خوارق العادات حالاً أيضاً، فإن كان السُّؤال عن الأحوال الأولى؛ فعلامة الصَّحيح منها ما وافق كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وجذب إلى الله، واتَّصل بالله، وأثار قرباً من الله، وعبد الله بذلك الحال، فاتَّصلت عبوديَّة العبد بذلك الحال بالله، وكان الله ﷻ هو المعبود به والمعظَّم فيه، وكان رسول الله ﷺ هو الدَّاعي إليه، والعائد له فيه، وكان العبد هو الذَّليل الفقير الرَّاجع إلى مولاه بالافتقار والالتجاء فيه.

والحال هو ما أقام العبد به دين الله في قلبه وجوارحه، مثل: التَّعظيم لله تعالى، والحبُّ له، والمكاشفة بجلاله وإكرامه وعظمة شأنه، والحياء منه الموجب لاستقامة الظَّاهر، وصفاء الباطن، وكان الرَّبُّ ﷻ هو المنفرد في الحال بالخلق، والأمر، والتَّوحيد، وأمثال ذلك.

فهذه علامات الحال الصَّحيح، ومن علاماته أنَّه يزهِّد صاحبه في الفاني، ويرغِّبه في الباقي، ويغيِّبه بالخالق عن الخلق وعمَّا في أيديهم، فيتَّصل غناه بالله وفقره إليه، وينفصل فقره عن العالم وعن الأشياء ممَّا سوى الله تعالى.

وعلامات الحال الفاسد ما أبطل حقًّا لله، أو ردَّ العبد إلى غير الله، أو جرَّ إلى مخالفة الله، أو قطع العبد عن الله، أو أدَّى إلى استخفاف بأمر الله أو نهيه، أو عارض كتاب الله أو سنَّة رسوله ﷺ.

مثاله: رجل خوطب في باطنه بترك الصَّلاة، أو استباحة المحارم، أو شهد الوجود المطلق بأنَّه الله، أو ادَّعى أنَّه نبيٌّ أو خاتم الأولياء، أو كان كشفه هاتكاً لأستار العباد، أو ظهر تغيير الأعيان يطلب به التَّآكل والسُّمعة كإظهار الزَّعفران والماورد واللَّاذَّن، وغير ذلك، أو حمله الحال على أكل الحيَّات، أو كوشف بأنَّ خطاياه يحملها شيخه فيعمل هو حينئذ مهما أراد، أو اقتضى الحال سقوط التَّكليف والحريَّة، أو أنَّه وصل [٢٥٥/أ] إلى حال من وراء طور النُّبوَّة، أو تكلَّمه الحقُّ تنزَّه وتقدَّس على لسان نفسه، فهو المتكلِّم بجارحة العبد، أو كوشف بأنَّ معنى العبد الحال فيه هو الله، فيقول: يا معناي أو يا معنى ذاتي، أو كوشف بأنَ شيخه صار صفة من صفات الله لا يريد أمراً إلَّا كان؛ لأنَّه صار عين الصِّفة، وهذا هو مذهب النَّصارى، أو أنَّه قد امتحت التَّوبة بينه وبين خالقه فوصل إلى الوحدة المطلقة، فصار أجرئ بفعل ما يشاء بلا حرج، أو أمره النَّبيُّ ﷺ في كشفه بما يخالف شريعته، كما ادَّعى صاحب «الفصوص» أنَّ رسول الله ﷺ أمره بتصنيفه، ذكر ذلك في خطبة الكتاب، ثمَّ ذكر فيه فالحقُّ حقٌّ بهذا الوجه فاعتبروا، وليس حقَّاً بهذا الوجه، فاذكروا جمع وفرق فإنَّ العين واحدة، وهي الكثيرة لا تبقي ولا تذر.

وقال أيضاً في «الفصوص»: فيعبدني وأعبده، ويحمدني وأحمده في حال أقربه وفي حال الأعيان أجحده، فهذا علامات الأحوال الفاسدة الباطلة، فمنها: ما يخرج به العبد إلى الكفر والزَّندقة، ومنها: ما يصير به فاسقاً.

وإن كان السُّؤال عن خوارق العادات والفرق بين الصَّحيح منها والفاسد؛ فقد تقدَّم الجواب عنه في المسألة الأولى، والله ﷻ أعلم.

المسألة الثَّالثة: هل يجوز أن يكون التَّأثير والكشف من غير الولي؟

الجواب: أمَّا التَّأثير فيشترك فيه الحقُّ والباطل، وأمَّا المحقِّق الواصل بالله المفوَّض إلى الله يكون في تأثيراته بالله لا بنفسه، يريد الله ﷻ أن يقيم بذلك

التَّأثير حقَّاً، أو يدحض به باطلاً لا يتصور من المحقِّ التَّأثير إلَّا بهذا القيد، اللَّهمَّ إلَّا أن يكون الولي قوي الهمة ضعيف السِّياسة بحالة سبق همَّته إلى التَّأثير فيمن آذاه، ولا يقدر أن يتصرَّف في قلبه عند توجهه، وهذا يكون في أولياء الفلاحين الَّذين لم يسوسوا نفوسهم بالعلم، ولا عرفوا رحمة الله وحكمه بعباده.

وأمَّا الكمل فلا ينثنون عن المسيء حتَّى يكافئوه بالإحسان المتعلِّق بصلاح الآخرة والدُّنيا، موافقة للرَّبِّ ﷻ في رحمته بعبده المسيء وإرادة صلاحه، ولذلك بعث الرُّسل وأنزل الكتب؛ ليهدي بها عباده الضَّالِّين، فهم يوافقون [٢٥٥/ب] مولاهم في مراده من عباده، ومن أذى بحاله؛ اقتصَّ منه إمَّا في الدُّنيا أو الآخرة إذا كان ظالماً.

وأمَّا المبطل فيشارك المحقِّق في التَّأثير، فالسِّحر حقٌّ وتأثيره محسوس، ولذا ما أشبهه من الطَّلسم، وكذلك التَّوجُّهات النَّفسانيَّة لها تأثير أيضاً لخاصِّيَّته فيها تؤثر كتأثير صاحب العين، فإنَّه حقٌّ وردت به النُّصوص والأخبار، وكتأثير نظر صنف من الحيَّات، فإنَّه يقال: إنَّها تقتل بنظرها.

كذلك لا يستبعد مثل ذلك إذا توجهَّت بعض النُّفوس الخبيثة الحادَّة إلى بعض الأشخاص بالرَّديء والأذى أن يكون لها تأثير، وما هم بضارِّين به من أحد إلَّا بإذن الله.

وأمَّا التَّأثير المضاف إلى الكرامات فلا يدخل في هذا القسم من تأثيرات المبطلين، وهو مقيَّد بذلك القيد في تأثيرات المحقِّقين كما تقدَّم.

وأمَّا الكشف أيضاً قد يشترك فيه المحقق والمبطل، أما المحقق فشرطه إذا كشف له ألَّا يهتك لكشفه ستراً ولا يتعدَّى به حدَّاً، ولا يتآكل به، ولا يكون في إظهاره بحكم نفسه، بل يكون فيه بالله يظهر لمصلحة يضطر الوقت إليها، ويتوقَّف الإصلاح عليها، ولا يكون كشف الأولياء فيما علمنا إلَّا جزءاً.

أمَّا الكشف الكلِّيُّ المحيط بجميع حواس المنكشف وأطرافه وجمله وتفاصيله فقط لم يبلغنا ذلك عن أحد، وذلك شيء استأثر الله ﷻ بعلمه والإحاطة به، فيكشف لعباده شيئاً من ذلك الأمر الكلِّيِّ.

وأمَا المبطلون فلا يستبعد أن يكون لهم من الكشف نصيب لرياضة أو دوام توجُّه كالسَّحرة والرُّهبان وغيرهم.

ذكر لي قسِّيس عن شيخه أنَّه عرف وقت موته وذكر أنَّه كثير التَّجوُّع والرِّياضة، يقتصر على سلبق بعض البقول، وليس هذا في حقِّهم كرامة، بل قد يكون فتنة لهم؛ ليبقوا على ضلالتهم، فيمكر بهم في هذا الكشف، نعوذ بالله من المكر والخذلان.

وأمَّا الكشف متى تعدَّى به صاحبه حدّاً أو كشف ستراً؛ فهو شيطانيٌّ، يمكن أن يقيَّض له شيطان يخبره بأشياء تقع في الأرض، أمَّا خبر السَّماء فإنَّه انقطع عن الكهنة بظهور النَّبيِّ ﷺ، والله ﷻ أعلم، وهو الموفِّق للصَّواب [٢٥٦/أ]

المسألة الرَّابعة: ما علامة الكامل في الحال والنَّاقص فيه؟

الجواب: عنها تقدَّم أنَّ الحال اسم مشترك بين أحوال القلوب وخوارق العادات، فإن كان السَّؤال عن أحوال القلوب؛ فعلامة الكامل في حاله أن يعبد الله ﷻ بجميع أجزائه، لا يتخلَّف عن العبوديَّة منه شيء، فيعبد الله بحسِّه بفعل الأمر ومجانبة النَّهي، ويعبد الله بنفسه بترك تدبيرها، واختيارها، وطمأنينتها، وذهاب هواها وشرَّها، ويعبد الله تعالى بعقله، فيعلم به تفاصيل أمر الله ﷻ ونهيه، ويعبد الله ﷻ بقلبه فيقوم به على خطراته بالرِّعاية والمراقبة، ويقوم بعبوديَّات أحكام الصِّفات، فإنَّها نصيب القلب من الحياء، والخشية، والتَّوكُّل، والتَّفويض، والمهابة، والرِّضا، وغير ذلك، ويعبد الله ﷻ بروحه بانطلاقه من وثاق النَّفس والقلب في فضاء القرب، فيكاشف هناك بمَّا يلهبه

من المحبَّة الخاصَّة الَّتي تحرق الأكباد، وتلهبها وتجذب الأرواح كجذب المغناطيس للحديد وتخطفها فيعبد الله ﷻ بجميعه بكلِّ جزء من أجزائه بما يقتضيه من العبوديَّة، فتكمل له عبوديَّة الجسم، والنَّفس، والعقل، والقلب، والرُّوح.

فهذا هو الكامل من أهل الأحوال الباطنة الإلهيَّة، فعبوديَّة الجسم العمل، وعبوديَّة النَّفس الطَّمأنينة والسُّكون، وعبوديَّة العقل امتلاؤه بالعلم، وملاحظة الأمر والنَّهي، وردُّ الحوادث إلى العلم، وعبوديَّة القلب المراقبة، وحفظ الخواطر، والقيام بمقتضيات أحكام الصِّفات، وعبوديَّات الرُّوح المحبَّة الخاصَّة الملهبة.

فمتى قام العبد بهذه الوظائف؛ كان كاملاً، وكمال كلِّ امرئ بحسب ما كمل من هذه الأشياء.

وإن كان السُّؤال عن الحال الكامل في الخوارق؛ فهو أن يكون فيه بالله لا بنفسه وتترتب على ظهورها مصلحة دينية لا يكون له فيها اختيار، فإذا ظهرت الكرامة على هذا النَّمط؛ فهو أكمل أحوالها وكماله منسوب إلى صاحبها، فإنَّه قد كمل شروط إظهارها، فإن كمل له الكمال المبدوء بذكره؛ فهو الكامل فيه وفي الكرامة معاً، فحينئذ [٢٥٦/ب] حصل له الكمال المطلق بحسبه.

وأمَّا النَّاقص في الحال الأوَّل فهو أن يتخلَّف بعض من أبعاضه عن وظيفة العبوديَّة، فيتخلَّف بتخلُّف بعضه عن الكمال التَّام إلى النَّاقص في خوارق العادات، إن يتخلَّف بعض الشُّروط في إظهار بعضها؛ فينتقض المظهر لها عن الكمال في إظهارها بتخلُّف بعض الشُّروط المبدوء بذكرها، والله ﷻ أعلم، وهو الموفِّق للصَّواب.

المسألة الخامسة: ما الفرق بين الصَّالح والطَّالح، والصَّديق والزِّنديق؟

الجواب: الصَّالح من وافقت سعاياته الظَّاهرة والباطنة أمر الله ﷻ ورضاه، وصادفت الصَّواب بوضعها مواضعها في أحانينها وأوقاتها على أكمل هيئاتها، واستصحب فيها الصِّدق والإخلاص من مبادئها إلى خواتمها.

فهنا هو الصَّالح التَّام، وينقص الصَّالح بتخلُّف بعض هذه الشُّروط بحسبها، وإنَّما يعرف النُّقصان بمعرفة الكمال وحده، والحدُّ الجامع هو إلى قولي رضاه، وما جاء بعده تفسير وتفصيل لأمر الله ﷻ ورضاه.

وأمَّا الطَّالح فهو بعكس ذلك من وافقت سعاياته الظَّاهرة والباطنة نهي الله تعالى وسخطه.

وأمَّا الصَّديق فهو الَّذي استقام ظاهره وباطنه، ولم يبق عليه من الاعوجاج ذرَّة، وعلامته أن لا يحب الحياء إلَّا للحقِّ؛ لأنَّ هواه قد مات، وهم أصناف: فصديق قائم بالصَّديقيَّة في إقامة الحق في العلوم، وصديق صديقيَّته في حاله قد أكمل حالة الَّتي بينه وبين ربَّه، ودعا النَّاس إليه، والصَّديق المطلق من قام بجميع ذلك.

وأمَّا الصَّادق فهو الَّذي استقام ظاهره ونفسه تميل إلى الحظوظ أحياناً، فهو سائر بصدقه إلى مقام الصَّديقيَّة.

وأمَّا الزِّنديق فهو الَّذي لا رابطة له بدين من الأديان، أو أنَّه يرى الكلَّ مظاهر كما يراه أهل الوحدة لا ينكرون من المعتقدات الحقَّة ولا الباطلة شيئاً، فيشاركون اليهود، والنَّصارى، والمسلمين، وأهل كلِّ معتقد، وعندهم من ترك شيئاً من المعتقدان حتَّى عبادة الأصنام، فقد جحد من الحقِّ [٢٥٧/أ] بقسطه؛ لأنَّ الحقَّ هو عندهم جميع الوجود، والوجود مشتمل على جميع ذلك.

وقد نبَّه على هذا المعنى صاحب «الفصوص»، ونهى أن ينكر شيء من المعتقدات كلِّها، وأشار إلى أنَّها كلَّها حقٌّ، فهؤلاء شرٌّ من الزَّنادقة ارتبطوا

بكلِّ شيء حتَّى انحلُّوا من كلِّ شيء، وصاروا بزعمهم كلَّ شيء، قاتلهم الله أنَّى يؤفكون.

المسألة السَّادسة: عن قوم يرغون ويزبدون كما يفعل من اعتراه الجنون، ثمَّ بعد ذلك ينطقون، فيقال: إنَّهم مكاشفون، أفيحسن بهم الظُّنون أم لهم ميزان به يوزنون؟

الجواب: عن ذلك: وبالله التَّوفيق، هؤلاء الَّذين يرغون ويزبدون لا يخلو حالهم من أمور إمَّا أن يكونوا مجانين لا تمييز لهم البتَّة، ولهم وقت يغيبون فيه، ووقت آخر يصحون فيه، أو يكونوا متولِّهين متصنِّعين للوله ولا وله بهم، ثمَّ النُّطق الَّذي ينطقون أيضاً لا يخلو من أن يكون كشفاً صحيحاً يقع كما هو في الخارج، أو يصدق على شيء دون شيء، أو يكون كذباً محضاً، أو شيئاً لا يفهم كرغاء البعير وثغاء الشَّاء.

أمَّا من استمرَّ عليه الجنون وعدم التَّمييز فحكمه حكم المجانين، له حرمة الإسلام، وحقُّه يقام بأوده من الطَّعام والكسوة حتَّى يموت، ثمَّ إن كاشف أحياناً ووقع كما هو في الخارج استدللنا بذلك على صلاحه مع ذهاب عقله، فيحسن فيه الظَّنَّ، وإن كان كشفه باطلاً؛ فيحسب عليه حكم الجنون فلا يعتبر به، ولا يحسن فيه الظَّنَّ ولا يساء، بل يوقف ويجري عليه حكم مجانين أهل الإسلام أمرهم إلى الله تعالى، يقام بحقِّهم، ويكفُّ الأذى عنهم، ويصلَّى عليهم إذا ماتوا، فلهم رحمة المسلمين وإن كان لهم وقت يغيبون فيه ووقت يصحون.

فإن كان حالهم في وقت التَّمييز والصَّحو محفوظاً في أوامر الشَّرع وعن مناهيه، والَّذي بنطقون به يقع كما هو الخارج مطلقاً أو أحياناً؛ فهو لا يحسن الظَّنُّ بهم قطعاً؛ لأنَّ صحوهم [٢٥٧/ب] محفوظ، فكشفهم صحيح، وما فيهم سوى انحرافهم أوقات الجنون، وإن كان كشفهم كذباً وأوقات صحوهم

محفوظة بالشَّرع؛ فينحسب على ذلك الخطأ حكم الجنون، فلا يعتبر به أيضاً، ويقام بحقوقهم كما تقدَّم.

وإن كان الوقت الَّذي يصحون فيه يتركون الأوامر، ويقعون في المحظورات والمناهي؛ فهو لا يستحيل أن يكون يقع كشفهم صحيحاً على الإطلاق كما هو في الخارج؛ إذ لم يعهد ذلك، ولا سمعنا به عامَّة ما في الباب، أن تكون لهم أقوال تصدق وتقع أحياناً؛ فتلك حكمها حكم الحزُورات فإنَّها تصدق أحياناً، وتكذب أخرى، أو إن نسبة الجنون؛ ترفع عنهم قيد العقل، فتنطلق قلوبهم فيصيبون في شيء، ويخطئون في آخر، فذلك أيضاً معهود، ومن بعض المجانين لا أنَّها تصدق في كلِّ شيء، فإنَّ فيهم من يسمِّيك وقتاً ما باسمك ووقتاً آخر بغير ذلك الاسم، فهؤلاء قطعاً لا يحسن بهم الظَّنُّ، ولا يعتبر بكشفهم، وإن صدق؛ فقد يكون ذلك من شياطينهم، ويجري عليهم حكم الفسقة؛ لتضييع أمر الله ﷻ في حالة صحوهم وتمييزهم.

وأمَّا ما كان من نطقهم بما لا يفهم كرغاء البعير، فيعاد إلى ذلك التَّقسيم الأوَّل في حقِّ أهله، إن كان ممَّن لا يصحو؛ فلا حكم له، وإن كان ممَّن يصحو ويخلط في صحوه؛ فهو من الشَّيطان، وإن كان ممَّن يستقيم في صحوه؛ فلا يتصوَّر أن يقع ذلك في الصَّحو مع دعوى الاستقامة فيه، وإن كان يقع في وقت ارتفاع التَّمييز؛ فهو من الجنون حكمه حكمه، وإن كانوا متولِّهين متصنِّعين يتآكلون به؛ فعلامة ذلك استجلابهم التَّولُّه متى أرادوا، فهؤلاء يجب ضربهم وتأدِّيبهم حتَّى يعودوا إلى حكم العقلاء، وكشفهم باطل وإن صحَّ كان من الشيطان أو الحزر كما تقدم.

وقد تبيَّن الحكم في هذه المسألة فتعد حمله من استمرَّ عليه حكم الجنون مع صحَّة الكشف، فهو رجل صالح، أو مع بطلانه، فهو مجنون، له حرمة الإسلام، ومن كان له وقتان: وقت حضور ووقت غيبة فإن حفظ أوقات

حضوره مع صحَّة الكشف؛ [٢٥٨/أ] فهو رجل صالح، ومع بطلان الكشف في أوقات الغيبة فهو مسلم، له حرمة الإسلام، ولا يتصوَّر ذلك زمان الصَّحو مع الاستقامة، وإن تصوَّر؛ فينسب إلى الجنون والاختلال، فهو مسلم كذَّاب أو مخلط، وإن خلط أوقات صحوة مع صحَّة الكشف أحياناً؛ فهو حزر، أو من الشّيطان، أو من انطلاق القلب وخلوِّه، وحكمه حكم الفسَّاق، أو مع كذب الكشف فهو انحراف أو متولَّه متصنِّع فهو كذَّاب فاسق يؤدَّب حتى يتوب، فهذا ميزان المجانين، والله ﷻ أعلم، وهو الموفِّق للصَّواب.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدِّين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

مسائل في الوصول إلى الله تعالى بالقلب

[بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

سأل فقير، فقال المسؤول من إحسان السَّادة المشايخ أئمَّة الطَّريق أشياخ صوفيَّة أهل الحديث، أعاد الله تعالى بركتهم: أن يتصدَّقوا على أخٍ من إخوانهم في الله ﷻ له بعض النِّسبة بطريقهم ومحبَّتهم، أدركته حيرة، لا يجد من يحلُّ مشكلها، ويفرج كربته، حيث ذهب الأدلَّاء، واندرست طريقهم، فهو يسأل من إحسانهم فيها واضح البيان بما يشفي الصُّدور، ويثلج القلوب، ويرد اللَّهف، وتهدي من الحيرة؛ بالجواب عن هذه المسائل، كلٌّ منهم أعلا الله درجته، وأكمل مرتبته، يجيب فيها على قدر ما نوَّر الله به بصيرته، وآتاه من العلم والحكمة، فهذه الأسرار لا يؤتمن عليها أهل الأذواق المجهولة، بل على من بنى سلوكه [٢٥٨/ب] على قواعد أهل الحديث في العقيدة والاتِّباع، ونفذ منها إلى الحقائق علماً وحالاً ومنازلة، والله أعلم.

صورة المسائل

البشر يستحيل أن يصل بجسمه وقالبه إلى ربِّه ﷻ، كما كان ذلك لرسول الله ﷺ ليلة المعراج، تلك خصوصيَّة ما نالها غيره من البشر، ومع تعذُّر ذلك هل يمكن وصول القلوب إلى الله ﷻ وصولًا ثابتاً يصير ذلك الوصول لها مقاماً أم لا.

وليس المراد بالوصول ما يقع لأهل التَّوجُّه من الأحوال الَّتي تحول ولا تستقرُّ، فإن لم يمكن؛ فلا كلام، وإن أمكن فأين يكون محل قلب الواصل

أيكون دون العرش المجيد أم فيه أم فوقه أم جميع ذلك تحلَّها القلوب مرتبة أعلى من مرتبة، فإن كان محلُّ القلوب دون العرش؛ فلا كلام، وإن كان فيه أو في الحجب، فما برهان صحَّة هذا الحال من سقمة وخيالاته، وهل يمكن تخلُّص القلوب من الحجب إلى المولى فما برهان صحَّة فوق العرش والحجب أم لا؟

فإن لم يمكن؛ فلا كلام، وإن أمكن؛ فما برهان صحَّته من سقمه وخيالاته، وإذا وجد القلب شيئاً من ذلك؛ فهل لذلك حقيقة في الخارج؛ بحيث تكون مقامات يوقف الله ﷻ بها قلوب المقرَّبين من عباده في مراتب قربه أم هي آثار تتجلَّى في قلوبهم كما تتجلَّى في الصور في المرآة؟

وبينهما فرق ظاهر لا يخفى فنسأل.

الجواب: عن ذلك ما ينتهي إليه العلم من الفتوحات، فقد علمتم وعند من علم علماً وكتمه مأجورين في ذلك إن شاء الله تعالى، وهل يمكن أن يجد الذَّائق نصيباً من حقِّ اليقين فوق علم اليقين وعينه؟

فإن لم يمكن؛ فلا كلام، وإن أمكن؛ فما علامة برهانه؟ فنسأل.

الجواب: عن ذلك منا بيِّن إن شاء الله تعالى، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم، ثمَّ أجاب رضي الله عنه حين عرضت هذه المسائل على جماعة من أهل الطَّريق، فلم ير أحد منهم جواباً، فاستخار الله تبارك وتعالى، فقال: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، أسأل الله ﷻ ربَّ محمَّد [٢٥٩/أ] وإبراهيم صلوات الله عليهما وسلامه أن يفتح لنا بجواب يوافق رضاه، فقد تعذَّر من نسأله عنها، ويكون ثقة كفؤاً نسكن إليه فيها، وقد فتح الله ﷻ بجواب وهو إمَّا وصول القلب إلى الله ﷻ فيمكن غير مستحيل، وأيضاً توطن القلوب في مقامات القرب لا يحول عنه أيضاً، فممكن غير مستحيل، والقدرة صالحة لمثل ذلك، والله على ما يشاء قدير من تقريب القلوب وإبعادها.

وقولنا: لا تحول عنه؛ أي: غالباً، وإلَّا فالفترات والغان الَّذي يغطِّي على البصائر أحياناً لا بدَّ منه، وإذا ثبت إمكان حجبها عن الإيمان بالحائل الَّذي يحول بين المرء وقلبه، وإمكان إزالة ذلك الحائل.

فكذلك في القدرة إمكان كشف الأكوان والحجب وطنها عن قلب المقرَّب تارة، وترقية الملكوت إلى أوطان القرب بالعروج تارة، أو قرب الملكوت الأعلى وهبوط حلِّه بالقدرة إلى القلوب تارة.

كلُّ ذلك ممكن غير مستحيل إذا وجد العارف المقرَّب شواهد هذه الأشياء في قلبه مجموعها أو أحدها، فإنَّ الكتاب والسُّنَّة لا تنكر ذلك، ولا تردُّه.

واعلم أنَّ الواصل لا يسمَّى واصلاً إلَّا بمجاوزة قلبه الأكوان والحجب كلِّها، ويثبوته فوق الحجب بمقام يوطن له فيه، أمَّا متى كان القلب دون العرش، أو في الحجب السَّاترة عن القلوب طلوع شمس التَّوحيد بعد طلوع صبحه، وبزوغ قمره، ويقطع الضَّباب بعلوِّ تلك الشَّمس، وشدَّة سطوع أنوارها، وإشراقها على الرُّوح، فإذا لم تقطع القلوب هذه المنازل؛ فربَّما كان على رتبة من الوصول.

فأمَّا الوصول الحقيقيُّ فلا يتمُّ إلَّا بمجاوزة هذه الأشياء، والتَّخلُّص منها، فقد علمت إمكان تخلُّص القلوب من الحجب السَّاترة لها عن وضوح شمس التَّوحيد إلى وضوحها حتَّى تنقطع الإشارة، ويتحقَّق العبد بعين الجمع.

وأمَّا برهان صحَّة كونه دون العرش أو في الحجب، فإذا تكرَّرت المنازلة لذلك مرَّة بعد أخرى، [٢٥٩/ب] واتَّهم العبد نفسه، ودفع ذلك؛ فلم يندفع، وافتقر إلى الله تعالى بصدق الفاقة والاضطرار، وشاهد الحال معبِّراً أنَّه في مواطن كذا وكذا.

فالحال الصَّحيح في القلب الصَّحيح المضطرِّ إلى الله ﷻ لا يكذب، فإن فتح كلَّ حال، وتجلَّى كلَّ خطرة تتضمَّن علماً للمكاشف والمتجلِّي له إذا كان

كامل الفطرة.

مثاله: إذا بقي العبد سنين يعبد الله ﷻ على مشهد الفوقيَّة بعروج الوهم بعلم اليقين إلى فوق الأكوان، ثمَّ وجد بعد ذلك حاله يتعذَّر عليه عروج الوهم، ويجد العليَّ قريباً بوصفه؛ فقد ترقَّى من تلك الحالة إلى مقام من القرب، وشهد المقام له بترجمة حاله، وصار العرش المجيد والكرسيُّ تحت مشهده حكماً.

وأمَّا ما سألت عنه حكماً من كونه هل هذه الحقيقة في الخارج أم لا؟ وهل هو من باب المقامات الَّتي توقف القلوب فيها أم هو من أبواب التَّجلِّي؟

فالسِّرُّ الغامض ها هنا نعم لذلك حقيقة في الخارج بحسب القلوب، وبحسب شواهدها، فجميع ما تجده القلوب من ذلك إنَّما يكاشف العبد به في أمثلة وشواهد، كما يكاشف النَّائم في منامه بحقيقة الشَّيء في أمثلة وشواهد؛ إذ لا تطيق القلب مباشرة الحقائق إلَّا في أمثلة، وليعلم أنَّ الأمثلة شواهد لها، ودالَّة عليها، وليست هي حقيقتها، مثاله: إذا تجلَّى الحقُّ ﷻ في قلوب الصَّادقين، فالحقُّ ﷻ هو المتجلِّي بكرمه في القلب، لكن بواسطة مثل ومشاهد يناسب القلب، والمثل والشَّاهد هو وصف العبد وحاله يقوى تارة، ويضعف أخرى، فيكون ذلك كالحجاب بينه وبين الحقيقة، فلا يتوهَّم العبد أنَّ ذلك عين الحقيقة أو يشبه الحقيقة.

تعالى الله ﷻ أن يكيَّف، أو يحاط به، أو يطلع في الدُّنيا عليه، إنَّما يجد القلب آثار تجلِّيه وفضله، فالغرُّ يتوهَّم أنَّ الَّذي باشره هو ذات الحقِّ، أو صفته، أو نوره قد اتَّصل به، وليس ذلك كذلك إنَّما هو مثل وشاهد للتَّجلِّي، وذلك النُّور هو نور الكشف واليقين المتَّصل بأنوار القلوب، وهل يثبت [٢٦٠/أ] للقلوب لنور الحقِّ ﷻ أو الأكوان كلِّها.

فهذا الموضع من المغاليط الَّتي قد يغلط في مثلها، كما قد يغلط في أنَّ

العبد يسمع بسمع الحقِّ، أو يبصر ببصره، وهذا غلط تعالى الله أنَّ يسمع بسمعه غيره، أو يبصر ببصره غيره، أو أن يقوم بصفاته سواه، وذلك مثل مجاز قولهم فنى العبد بالحقِّ وبقي به، وإنَّما فنى العبد بحال نفسه، وبقي به، ودام له شاهد الجمع، وانتفى عن قلبه غير ذكر الله تعالى.

وفي الحقيقة لا يبقى بذات الله ﷻ إلَّا الله ﷻ، وهذا يقع في كلام القوم مجازاً لا حقيقة، يعبَّر عن الذِّكر المذكور مجازاً، فافهم ذلك.

فقد علمت أنَّ لذلك حقيقة في الخارج على هذا النَّمط المذكور، فمن قرب العرش من قلبه مثلاً والكرسي أو ربُّ العزَّة تعالى وتقدَّس؛ فليعلم إنَّما شاهده ليس هو حقيقة العرش، ولا الكرسيِّ، ولا غيره، إنَّما ذلك أمثلة وشواهد لقرب تلك الأشياء من قلبه بالذِّكر، والمقابلة، والمواجهة تارة، ويتجلَّى حكمها في القلوب تارة، وقد قربت من قلبه حقيقة في الغيب، بحسب ذلك لا يظهر حقيقتها لقلبه، لكنَّه يجد آثارها لأنوار مجعولة في القلب من تجلِّيها وقربها، لا يفهم غير ذلك فيقع المغاليط، واذكر كيف انهد الجبل وقد أبرز له القدر الَّذي وردت السُّنَّة، فيكفيك بذلك انتباهاً وخروجاً عن ظلمات المغاليط.

فقد علمت أنَّ ذلك حقيقة على حقيقة هذا الاعتبار، وأمَّا ما يتجلَّى في القلوب كما يتجلَّى الصُّور في المرئي، فذلك حقٌّ أيضاً يعرفه صاحب القلب الصَّحيح، وهو نوع آخر من المقامات القريبة الَّتي توقَّف القلوب فيها، والتَّجلي وهو من الأحوال الَّتي تحول، وذلك أيضاً تارة يكون صفاتيَّاً، وتارة يكون ذاتيَّاً، وذلك قبل التَّحقيق بالقرب وانكشاف شمس التَّوحيد، وتقطُّع ضباب الوجود السَّاتر عن الموجود، فإذا انفتح للعبد ذلك؛ انقطع عنه التَّجلِّي؛ لأنَّ التَّجلِّي يؤنس المنحطِّين في الدَّركات [٢٦٠/ب] فيترقّوا بأنواره، ويأنسوا بوروده، وينجذبوا بوجوده إلى البواطن، أمَّا من تحقَّق بالأمر، وتوطَّن مراتب

القرب، وستر الوجود محلَّ التَّجلِّي من سرِّه وغمره الجمع وجمعه، فإنَّه يترقَّى من التَّجلِّيات إلى التَّحقيق والحقائق، وبالله التَّوفيق، والله أعلم بالصَّواب.

والتَّحقيق أنَّ الوجود والجمع هو أيضاً من أبواب التَّجلِّي، لكنَّه يحلُّ دائم مستمرٌّ، وقد يتخلَّله غان وفترات كما تقدَّم.

وسألت: عن إمكان حصول نصيب من حقِّ اليقين بعد علمه، وعينه، وبرهان ذلك، فاعلم أنَّ اليقين هو توجُّه القلب إلى من يعلمه يقيناً فوق العرش بلا شكّ يخالج قلبه لكن بلا شاهد يوضح له الأمر، فذلك هو علم اليقين، فإذا ظهر لذلك شاهد في القلب من جلال، أو جمال، أو نور، أو هيبة، أو تعظيم، أو خشية؛ فذلك من مطالع عين اليقين، فإذا اضمحلَّت الشَّواهد، وطلعت على قلبه شمس التَّوحيد مقطعة لضباب الوجود، بحيث يبقى العبد كالغريق في شعاعها؛ لا يجد شيئاً غير تلك الشَّمس يشهده إلَّا بالكلفة، واندرجت الأكوان من العرش إلى المركز في طيِّ سرِّه، وطوي عن قلبه حكم المكان، واندرج عالم الحكمة في عالم القدرة، وسطع نور اليقين من خزانة الغيب، فذلك هو من مطالع حقِّ اليقين للمقرَّبين، والله أعلم بالصَّواب، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.

ووافق الفراغ من ذلك آخر نهار الثُّلاثاء سلخ شهر ربيع الأوَّل سنة أربع وثمان مئة بقلعة حصن الأكراد المحروسة جعلها الله دار أزاهر إلى يوم القيامة بمنِّه وكرمه، والحمد لله وحده.

مسألة: ما علامة حصول الإيمان في مرتبة علم اليقين؟

الجواب: زوال الوساوس والشُّكوك في الإيمان، فبعض النَّاس يعتريه خواطر شكوك أو وقوف، مثلاً يقول: لم كان كذا ولم يكن كذا، فإذا ارتقى في الإيمان إلى علم اليقين؛ انشرح صدره، وتبرهنت دلائل الإيمان في قلبه، وقامت شواهد النُّبوَّة في عقله، ولهذا الانشراح علامة، وهو استنارة القلب

عند الذِّكر والفكر بلوائح آثار الصِّفات من العلم بالفوقيَّة والكلام والتَّدبير، فيوقن قلبه بفوقيَّة الله تعالى، وعلى عظمته في كلامه، ويرى آثاره في صنعه، فذلك من علامات علم اليقين.

مسألة: ما علامة التَّرقِّي من علم اليقين [٢٦١/أ] إلى عين اليقين؟

الجواب: أن يبرز القلب من كمينه إلى ما وجده من عين اليقين، فينقلب حديثه مناجاة، ومسامرة، ومحادثة، فيتحدَّث قلبه دائماً مع مولاه بغير اختيار من العبد ولا تكلُّف منه، مثلاً يخطر له خاطر إرادة فينزله بمولاه، أو يشتهي شيئاً من الأشياء فيطلبه من مولاه.

وفي الجملة فلا ينزل به نازلة إلَّا وجد قلبه يسارع إلى إنزال ذلك النَّازل إلى الله تعالى بغير اختيار منه ولا تكلُّف، ومثله يسمَّى صاحب القلب، وفي المرتبة الأولى يكون صاحب نفس طاهرة من الآثام، لم تظهر من تدبيرها واختيارها.

فإذا أرادت نفسه شيئاً يتكلَّف ردَّ ذلك الشَّيء إلى الله تعالى، وصاحب القلب الواجد لعيِّن اليقين؛ حضر قلبه مع مولاه دائماً، ووجده عنده، وارتفعت الحجب بينه وبين مولاه، وصار القلب قريباً من ربِّه، فلأجل ذلك لا يتكلَّف قلبه المناجاة والمسامرة، وإنزال الحوادث بالله؛ لأنَّ القلب أمسى بعيداً فأصبح قريباً واجداً، قد نزل بساحة الكرم والجود، ظهر قريباً له من اليقين عين صحيحة، فعاش قلبه بعد موته، واجتمع شمله بمطلوبه، وامتلأ من محبَّته، واطمأنَّ من أنسه، وصار له نجوى، وحديثاً مع القريب منه ومحبه لما كشف له من سبحات الجلال والإكرام والعظمة، والأوَّل صعد بعلمه إلى الإيمان بربِّه، فسكن بتصديق وجوده، وربَّما لاح له لائح من العين مقيَّداً بصفة مخصوصة لا تدوم.

وصاحب العين توطَّن حضرة القرب، وصار له نجوى وحديثاً دائماً لا

ينقطع مع مولاه حالاً يبرز من قلبه بلا تكلُّف.

فإن قلت: فلم كان الأوَّل لا يتحدَّث قلبه مع مولاه إلَّا بالتَّكلُّف، وهذا ينطق قلبه بلا اختيار منه؟

الجواب: نطق قلب هذا لقربه، ومن خصوصيَّة القرب المحادثة والسُّؤال، والأوَّل بعيد ينادي من مكان بعيد إلَّا أنَّه مصِّدق مؤمن، والبعيد مع من يتحدَّث اللَّهمَّ إلَّا عند قوَّة إيمانه، فيتكلَّف الدُّعاء والمسامرة، ثمَّ ينقطع.

وهذا الباطنة حديث دائم لا ينقطع مع من وجده قريباً منه، فظهر لروحه ظهوراً لا حجاب معه، اللَّهمَّ إلَّا عند تزاحم الهموم العارضة، فيبقى كشخص له جاذبان أو همَّان يلتفت إلى كلٍّ واحد منهما قد زكت نفس، وتطهَّرت، ولانت، وخضعت، وذهبت منها اليبوسة والبرودة، واصطلت بحرارة الرُّوح، وذهب وسواسها، وصار حديث النَّفس المذموم مناجاة ومسامرة ينكشف في ضمن المناجاة من المعاني الغريبة والأسرار العجيبة، وحلُّ المشكلات من العلوم ما يعجب له من يعرفه.

وهنا قاعدة: اعلم أنَّ دوام نطق القلب [٢٦١/ب] مع الله علامة حياة القلب، وتخلُّصه من كدورات النَّفس، وتكيِّفه بكيفيَّة العقل، وهو من مبادئ كمال الإنسان بكمال حقيقته الباطنة، وذلك من علامة وجود القلب لمولاه، ومتولَّه بين يديه في عالم الغيب وقربه منه بعد توفيه مرتبة الإيمان بانشراح الصَّدر، وترقِّيه منه إلى عين اليقين.

وصاحب عين اليقين له حالتان: حالة قلبيَّة، وحالة روحيَّة، فالحديث والمسامرة إنَّما يكون في مرتبة القلب ووجود القلب مع الرَّبِّ، وفي الرُّتبة الرُّوحيَّة تلتهب الرُّوح بنار الوجد، ويستولي عليها سلطان العظمة والكمال، فربَّما ذهب قرب من لم يكن، وبقي قرب من لم يزل.

وغالباً إنَّما يكون هذا المقام بعد مقام القبض والبسط يقبض عليه، فيندرج

أنواره ومشاهدته في ضمن ما يبسط فيه بعد قبضه من مشاهدة الأمر الكلِّيِّ الملهب للأرواح المتَّصف بالجلال، والجمال، والقرب، والكمال، فاعلم ذلك.

مسألة: ما علامة التَّرقِّي من عين اليقين إلى حقِّ اليقين؟

الجواب: أنَّ حقَّ اليقين لا يكون بكماله إلَّا في الآخرة، فهو المعاينة بالأبصار، وتلوح منه لائح لأسرار الصِّدِّيقين الكمَّل لا تدوم، وهو مقام فوق العلم، والعين علامة الكشف، وكلٌّ يكشف له على حسبه، والكشف يجب أن يكون معروضاً على الكتاب والسُّنَّة، يقبل ما يوافقهما، وينفي ما ينافيهما.

يكون في هذا الكشف لبعض النَّاس مكالمة وأذن، وهو من خصائص المحبوبين المجذوبين، ومن كان منهم ليِّناً لا علم عنده قد يكون فتنة للنَّاس لان له شيء صحيح من الله ﷻ، وهو جاهل بأمره الشَّرعيِّ، وجاهل يعرض ما يبدو على العلم الظَّاهر، فربَّما أتى النَّاس بطريقة أخرى مخالفة للسُّنَّة يحمله حاله عليها، فيعتقد فيه النَّاس، فيهملوا أمره الشَّرعيَّ، فيضلُّوا ضلالاً بعيداً، والنَّاس مأمورون باتِّباع محمَّد ﷺ صاحب الكشف الصَّحيح، والبيِّنات، والهدى.

فكشفه لا يقبل الخطأ، وعلمه لا يقبل النَّقض، وجميع كشوفات غيره فيها حقٌّ وباطل، وقد يكون الباطل قليلاً في الكشف على قدر سداد المكاشف وحسن اتِّباعه للشَّرع ومعرفته به، وقد يكون الباطل في الكشف كثيراً على قدر تخبيط المكاشف وبعده عن الشَّريعة.

فاعرف هذه القاعدة، ولا تخرج عن دائرة محمَّد ﷺ إلى دائرة غيره من عارف ومكاشف، ومن عرف دائرة النَّبيِّ ﷺ استغنى بها عن كلِّ [٢٦٢/أ] دائرة، ومن جهلها حمله جهله على الدُّخول في الدَّوائر، ثمَّ إن كان مؤمناً؛ حمله إيمانه على أن يتكلَّف لكلِّ أمر من أمور شيخه من السُّنَّة، فيتعب لذلك تعباً كثيراً، وربَّما بقيت أكثر قواعد شيخه عنده بلا حجَّة يأخذها تقليداً،

بخلاف من كان في تلك الدَّائرة النُّبوَّة الصَّحيحة من كلِّ وجه، فإنَّ حالها فيها، وعلمها فيها، وكشفها فيها، فلا يحتاج إلى غيرها.

ونسأل الله الكريم أن يهدينا سبل السَّلام، ويخرجنا من الظُّلمات إلى النُّور برحمته، إنَّه أرحم الرَّاحمين.

مسألة ما السَّكينة وما حدُّها وحقيقتها؟

الجواب: السَّكينة عامَّة، وخاصَّة، وأخصُّ من الخاصَّة، وسكينة الأنبياء صلوات الله عليهم.

أمَّا العامَّة فهي سكينة الإيمان، وهي سكينة تسكن القلوب عن الرَّيب والشَّكِّ، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾(١)، ومنها السَّكينة عند المعاملة، وهي الَّتي تورث الحضور والخشوع.

وأمَّا الخاصَّة فهي سكينة تورث مراقبة الحقِّ، وتؤدي إليه، ولا يلتفت صاحبها إلى الخلق في مراقبته.

وأمَّا خاصَّة الخاصَّة فهي مقدَّمة وارد من الحقِّ إمَّا من جهة الكشف عن الأسماء والصِّفات، وإمَّا من جهة مكالمة ترد، فتتقدَّمها السَّكينة، ولها في القلب صولة، ولها على القلب ثقل، فهي كالمنذر بين يدي أسرار الحقِّ، فيطهر القلب من الأغيار، وتسكِّن القلب وتؤيِّده؛ لقبول ذلك الوارد، وسكينة الأنبياء صلوات الله عليهم فهي أعلى مراتب السَّكينة، تتنزَّل عند الوحي ومبادئ الإلقاء والنُّبوَّة.

روي أنَّ بني إسرائيل لمَّا أعطوا السَّكينة؛ وجدوا ثقلها، وعلموا أنَّهم

(١) سُورة الفتح: الآية ٤.

يعجزون عن احتمالها واستعمالها على القلوب، فسألوا أن تجعل لهم في التَّابوت، وكانت تنطق من التَّابوت تسكِّن القلوب بنطقها، فيعملون على ذلك.

وجاء أنَّ إبراهيم لمَّا أمر ببناء البيت؛ قرنت به السَّكينة حتَّى أتى البقعة، فالتوت السَّكينة حتَّى صارت بمقدار البيت، ثمَّ نادت ابنِ عليَّ مقدار ظلِّي، وأمَّا صفتها فقد قيل إنَّها ريح هفافة لها رأس كرأس الهرِّ، والتَّحقيق في حدِّها أنَّها مقدار يأتي من الله تعالى يلتوي، وينقبض، ويمتدُّ بمقدار ما يريده الله، وهو حارس ما يورده الوحي في حقِّ الأنبياء صلوات الله عليهم، ومقدِّمة لواردات الحقِّ تعالى في قلوب أوليائه من مشاهداته ومكالماته، وتنزل في القلوب، فتبقى قابلة [٢٦٢/ب] لذلك الوارد، ومسكِّنة للقلوب عنده عن الرَّيب والشُّكوك، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلِّم تسليماً.

مسألة ما علامة العارف

الجواب: أن يلزم قلبه أربعة أشياء:

أوَّلها: الحياء من نظره وعلمه، وعلامة ذلك سكون الخواطر وهدوءها في حضرته مهابة من نظره واستحياء منه.

والثَّاني: نهوض قلبه مع بدنه عند الأوامر إلى القيام بها، وعند المناهي إلى اجتنابها، يرى ذلك من أمره فيشهده من أمره أوَّلاً، ثمَّ ينهض إلى امتثاله ثانياً.

الثالث: الرِّضا والسُّكون عند مجاري الأقدار بترك التَّدبير والاختيار، وصفاء التَّفويض والتَّسليم تلذُّذاً بأقضيته ساءت، أو سرَّت إذا كانت على مقتضى الأمر، وكراهيَّة ذلك إذا خالفه مع الاستعانة، وهو طلب المعونة في

ذلك التَّلذُّذ، وطلب العافية فيما سواه فإنه مأمور بطلب العافية لسؤال الرسول ﷺ ذلك من ربه، وهو أكمل المحبِّين، والمتوكِّلين، والرَّاضين، والمفوِّضين.

الرَّابع: الإجلال والتَّعظيم لما يبهر القلوب من آثار الصِّفات الَّتي يكاشف العارف بها، وتلك عبوديَّة الأرواح، وما تقدَّم عبوديَّة الأجسام والقلوب، فمن كملت فيه هذه الأربع، واستمرَّ حكمها عليه على الدَّوام؛ كان ذلك علامة معرفته، ولا يكون العبد عارفاً حتَّى تبين عنه صفات النَّفس وأخلاقها، وينكشف الغان عن قلبه، فتبدو على سرِّه شموس المعرفة عند انكشاف ظلمة الطَّبع عنه وغانه، وتصير الخواطر موزونة بالعدل، والجوارح محروسة بالحق والأمر فتتبدل صفاته ويصير حاله العدل في الغضب والرِّضا، وتطمئنَّ نفسه، ويغلب عليه حكم القلب تارة عند العبوديَّات، وحكم الرُّوح أخرى، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على محمَّد وسلَّم.

مسائل واضحة لأهل البداية

رتَّبت على السُّؤال، والجواب لينتفعوا بها إن شاء الله تعالى.

مسألة: ما الشَّيء الَّذي إذا [٢٦٣/أ] حصل للمريد دام سيره واتَّصل مزيده.

الجواب: الإيمان والطَّلب، والدَّليل عليه: أنَّ من فقد الإيمان عمي وتحيَّر، ومن فقد الطَّلب برَّد وادَّبر، فمن وجد الإيمان؛ استنار قلبه وأبصر، ومن وجد الطَّلب؛ حمي قلبه بالإرادة وأقبل، ومن أبصر وأقبل؛ دام سيره واتَّصل مزيده بعون الله تعالى.

مسألة: ما علامة الاستقامة ظاهراً وباطناً؟

الجواب: وجود الطَّلب، وهو أن يجد قلبه مجذوباً بتعظيمٍ مذهل، وشوقٍ

مزعجٍ مقرونٍ بسكينة الإيمان، والدّليل على ذلك: أنَّ الطَّالب قد امتلأ قلبه بالطَّلب، فشغله عن الميل إلى غيره، وهذا هو استقامة القلب، ولذلك جوارح الطَّالب مجذوبةٌ إلى طاعة مطلوبه، منقبضةٌ عن معاصيه ومكارهه، فكذلك كان الطَّلب علامة الاستقامة ظاهراً وباطناً.

مسألة: ما آفة الطَّلب والمفسد له؟

الجواب: الميل إلى غير مطلوبه من متاع الحياة الدُّنيا، مثل الميل إلى مالٍ، أو جاهٍ، أو رياسة، أو صورة، أو معاشرة، والدَّليل على أنَّ ذلك آفته؛ لأنّه ميلٌ ينافي ذلك الميل، ويأخذ بالقلوب عنه إلى ضده، فلذلك كان آفته.

مسألة: ما آفة التوكُّل و المفسد له؟

الجواب: الركُّون إلى غير الوكيل، مثل ركون التَّاجر إلى تجارته، والفقيه إلى مدرسته، والصُّوفيِّ إلى رباطه، والمستشرف إلى من يستشرف إليه، والدَّليل على أنَّ ذلك آفته؛ لأنَّه اعتماد وسكونٌ إلى غير الوكيل، وذلك شوبٌ في تمحض الرُّكون إلى الوكيل، وقادحٌ فيه.

مسألة: ما الشَّيء الذي يقصده السَّالك ويعمل على إتقانه وإكماله؟

الجواب: الشَّيء الذي يقصده السالك أمران:

أحدهما: إصلاح حاله مع الله تعالى، وهو الَّذي يجب أن يلقاه عليه، ويكره الموت على ضدّه، من تصحيح المتابعة ظاهراً وباطناً، والتَّمسُّك بالتَّقوي سرّاً وعلانية.

الثَّاني: وجود الحقِّ تعالى وعرفانه، والقيام بمقتضى المعرفة من المهابة، والحبِّ، والحياء، والتَّعْظيم، والتَّوكُّل، والخوف، وغير ذلك من مقتضيات المعرفة، فإذا تمَّ للسَّالك هذا؛ استقام في جميع ما أشار إليه القوم في متفرقات عباداتهم.

مسألة: ما حبل النَّجاة عند مباني الفتن؟

الجواب: الاستعانة بالله تعالى بصدق الالتجاء والاعتصام به، ومعنى الصِّدق: أن يدعوه دعوة المضطرِّ الواثق به، الحسن الظنِّ بمولاه، ولا يلتفت في ذلك إلى غيره من الأسباب، فذلك هو الصِّدق، والدَّليل على ذلك: قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[1]، وفي الحديث: «أنا [٢٦٣/ب] عندَ ظَنِّ عبدِي بي فليَظُنَّ بي ما شاء»[2]، والهرب من مواطن الفتنة.

مسألة: ما حفظ صحَّة القلوب والأجسام وقد عرف وَجه صحَّتهما، ما هو فيما سبق؟

الجواب: بالالتجاء والعزلة، فإنَّ العوارض إنَّما ترد على القلوب والأجسام غالباً من رؤية النَّاس ومخالطتهم، والمعتزل في عافيةٍ لا يرد عليه ما ينافي صحَّته من الأمور الخارجة.

مسألة:

ما دواء العوارض الباطنة النَّفسانيَّة والشَّيطانيَّة إذا غلبت في الوحدة، وامتلأ القلب منها؟

---

(١) سُورة النمل: الآية ٦٢.
(٢) تقدم تخريجه.

الجواب: دواء ذلك الالتجاء والتَّخلية، ومعنى التَّخلية: تفريغ القلب بإخراج كلِّ خاطر حتَّى يبقى القلب شبه الماء الرَّاكد الَّذي لا حراك به، فبذلك تزول العوارض الباطنة.

مسألة: متى يتولَّى الرَّبُّ عبده بكمال التَّولِّي؟

الجواب: إذا صدق في طلبه، وامتلأ قلبه من الطَّلب له، وفوَّض ولم يستبدَّ بفعلٍ ولا بقولٍ إلا بأمره، فحينئذٍ يتولَّاه، والدّليل على ذلك: أنَّ الطّالب الصَّادق قد زالت مآربه من غير مقصوده، و هو لا يتهمُّ مقصوده في إقراره، ففوَّض إليه موقناً بأنَّه عند ظنِّ عبده به، وأنَّه يحب المتوكِّلين عليه، وأنَّه يتولى مَن يولَّاه، ففوَّض إليه و انتظر ألطافه، ولم يتَّهمه في ضرٍ نزل به، واستعان به في هذا التَّفويض، فحينئذٍ يتولَّاه بكرمه، فإنَّه قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1]؛ أي: كافيه، وإنَّما يكون كمال التَّولِّي منه إذا لم يستبدَّ بقولٍ ولا فعل، ومعنى الاستبداد: أن يقول أو يفعل لشَّهوة الطَّبع، واختياره لا لأمر مولاه، فتكون تلك الكلمة، أو الحركة منشأها إرادةٌ نفسانيَّة لقضاء غرضٍ نفساني، وقد يكون الاستبداد ممتزجاً بشيء من أمر الله تعالى، فتدخل فيه نفسه لقضاء حظٍ خفيٍ فيه، ولا يفطن لهذه الدَّسائس إلّا الأصفياء، ومن زال استبداده صار عبداً لله لا عبداً لنفسه، ومرادها وشهوتها، فحينئذٍ يتولاه مولاه؛ لأنّه: يتقلَّب في عبوديَّته لا بإرادة نفسه، بل بإرادة ربّه، وهناك ترى الألطاف الظّاهرة و الباطنة، تترادف عليه مواد ظاهرة بلا تسبُّب، ومواد باطنة بلا معلِّم، فيكون المولى سبحانه يتولى توبته ظاهرة وباطنة بمعونته وتوفيقه.

---

(١) سُورة الطلاق: الآية ٣.

مسألة: متى يصير المولى مربِّي العبد ووليَّه ومأدِّبه؟

الجواب: إذا صدق في حبِّه وسكن بسِّره، واستعان به في ذلك، وصبر على سكونه إليه، وعمل على رضاه في المكان بلا استبداد، فهناك يرى آثار لطفه في ظاهره وباطنه ويكون وليَّه، ومربّي قلبه، ومؤدِّبه، ومحب من أحبَّه، وعدوَّ من عاداه؛ لأنه قد صار [٢٦٤/أ] محسوباً عليه بقلبه، وروحه، وقالبه، وصحَّت الحسبة بصبره واستعانته، وهو عند ظنِّ عبده به، كما قال عنه نبيُّه ﷺ.

مسألة: ما أصول السَّالك؟

الجواب: حفظ التَّوبة، والقيام بالأوامر والإتقان، والانتهاء عن المحارم والإتقان، ودوام ذكر الله تعالى، وسماع العلم والعمل به، وتحرِّي الإخلاص في الأعمال.

وعلامة الإخلاص: محبة كتمانها، وكراهة اشتراف النَّاس عليها، ودوام الاستعانة بالله تعالى، هذا في حقِّه عزيمة.

وهناك أمورٌ وهي بمثابة الرَّواتب المذكورة في حقِّه، وهي: حفظ الأوقات عن الضَّياع، ومراعاة وسط اللَّيل، والتضرُّع فيه، والإصغاء إلى مخاطبات القرآن المجيد، ومجانبة الاجتماع بأقلِّ البطالة، وقلَّة الاجتماع بالمبتدئين، حتَّى يأتيه المدد من الله تعالى.

مسألة: ما أصول السَّائرين وهم الذين عبروا على منازل السَّالكين؟

الجواب: دوام الطَّلب، والتَّفويض، وترك الاستبداد، وبدوام الطَّلب يدوم الشُّهود والمسامرة، وبالتفويض تسكن الوساوس وتحصل التولِّي، وبترك الاستبداد يطرف العبد ويحبُّ إن شاء الله تعالى.

مسألة: ما إتقان العبوديَّة في الصَّلاة؟

الجواب: بأمرين: الخشوع والفهم.

مسألة: فإن فقد الخشوع والفهم؟

الجواب: يتخاشع، فبذلك يستجلب الخشوع، مثاله: إذا كبَّر في الصَّلاة تباكى صادقاً، فذلك به يستجلب الخشوع إن شاء الله تعالى، وكذلك يتكلَّف الفهم إن لم يفهم فيحضر مع المعاني على كره منه، فبذلك تتمُّ العبوديَّة في الصَّلاة إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

مسألة: ما عبوديَّة اللّه تعالى وحقّه في الاجتماع بالإخوان؟

الجواب: عبوديَّته في الاجتماع البشاشة، وحسن الخلق، وطيب الملاقاة، وإفضاء الكيف، وخفض الجناح، وإرادة الخير والرَّحمة والمحبَّة، وإظهار المودَّة، وحفظ أدب الوقت؛ ليبقي الأمر وسطاً، فالسَّالك بشره في وجهه،

وحزنه ومحبته في قلبه، فبذلك تتمُّ العبوديَّة في الاجتماع.

قال الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾(٣)

مسألة: فإن رأى أو سمع ما لا ينبغي يقُول، أم يسكت؟

الجواب: يبديه تعريفاً ونصحاً، فإن ظهر منه انقياد؛ تعيَّن حمله، والصَّبر عليه، والتَّجاوز عنه، وإن ظهر منه استبداد؛ فذلك رعونةٌ فيعامل على [٢٦٤/ب] قدر الذَّنب إن كان كثيراً كان هجراً حتى يتوب، وإن كان صغيراً ترك وأعرض عنه حتى يبدو له رشده ويظهر له.

مسألة: فكيف يعمل بالصَّاحب إذا بدا منه ما لا يرضى؟

الجواب: المرافقة تحتاج إلى الموافقة، وإلَّا فالصَّاحب المخالف يكدِّر الوقت ويفرق الجمعيَّة، فلا يفي وصاله بما يقع في القلب من سواثره فينصح، فإن انقاد عفا عنه، وإن أصرَّ فورق فراقاً جميلاً، وصورته أن ينسب العبد الذَّنب إلى نفسه ويظهر عجزه وحاجته إلى توفير الجمعيَّة واقتضاء الوحدة، ولا ينسب إليه عند المفارقة ذنباً، ثم يطايبه ويفارقه، فمجانبته كل صاحبٍ يفسد الوقت = أصل في الطَّريق قال الله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرًا جَمِيلًا﴾(٤)، ثم أصول السائر: الطَّاعة، والطَّلب، والتَّفويض، وترك

(١) سُورة الحجر: الآية ٨٨.
(٢) سُورة الكهف: الآية ٢٨.
(٣) سُورة آل عمران: الآية ١٥٩.
(٤) سُورة المزمل: الآية ١٠.

الاستبداد، والصَّبر على ذلك حتى يقبله الله تعالى ويتولَّاه ويرفع قلبه إليه، ومن كان هذا حاله كان الله كفيله، وقد جمعت هذه المعاني في هذه الأبيات:

هو الكَفيل لِمن قَد ضلَّ يطلبه ... مُحبَّه ثمَّ بالطاعَات يقتربُ

فَفوض الأمرَ في فعلٍ وفي كلمٍ ... لا يستبد إلَّا أن تُكشَفَ الكَربُ

مسائل في آداب التَّربية

مسألة: من ثبت قدمه في الطَّريق، وفاض وعاء قلبه، وشمَّت منه أرواح الصَّادقين رائحة القرب، فقصدوه لينالوا منه فكيف يصحبهم؟

الجواب: يجتمع بهم بروح الله ونسبه الصِّدق، وتصير نفسه معهم كما أمر الله تعالى في كتابه لرسوله ﷺ، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، إلى قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]

وليحمد الله تعالى كثيراً الذي جعل رياسته على الصَّادقين ولم يجعلها على الباطوليَّة الآكلين، من صدق في طريقه؛ كان الصادقون أتباعه، ومن كذب في طريقه؛ كان المتآكلة المنحرفة مريديه وأعوانه.

مسألة: فما الأخلاق الَّتي يستعملها معهم؟

الجواب: الاستعانة بالله، وسعة الصَّدر، ولين الجانب، والمحبَّة والرَّحمة ولطيف النَّصيحة، والإعزاز والإكرام، والإيثار بالتَّشكيك، والمال، وحسن الصَّبر، والتَّغافل عند الزَّلَّة والسَّقطة، والرُّجوع عند العثرات إلى الأصل الَّذي

(١) سُورة الكهف: الآية ٢٨.
(٢) سُورة الأنعام: الآية ٥٢.

اجتمعوا عليه، وهو الصِّدق، فهو الَّذي يسدُّ خللهم ويجمع شتاتهم.

مسألة: فهل يصحبهم بقلبه كله، ويلقى إليهم جميع ما [٢٦٥/أ] عنده، ويطالبهم فيحاققهم بكلِّ حقٍّ يجب عليهم، ويهجرهم على ترك واجب الصِّدق، أم يصحبهم بحسب استعدادهم؟

الجواب: استعدادات الصَّادقين وعقولهم مختلفة متباينة، **فمنهم**: من يكون عقله تامَّاً، وفيهم ناقص العقل، **ومنهم**: من يكون حادَّ الذهن، **ومنهم**: من يكون بليداً، **وفيهم**: من فيه أخلاق السُّوء وهو يشتغل بمعالجتها، **وفيهم**: من تغلبه العادات السَّيِّئة ولا يتمالك من الوقوع فيها، **ومنهم**: من يحسن له عقله سلوكاً غير ما يأمره به أستاذه من الرِّياضيَّات، فليجعل هذه الانحرافات كلَّها غير قاطعة ما بينهم وبينه، فإنهم صادقون ونسبة الصِّدق تجمعهم، فإذا كانوا كذلك فلا يصحبهم بقلبه كلّه بل يجعلهم كالأطفال الذين يعالجون بما تقتضيه عقولهم، ومتى أعطاهم قلبه كلّه؛ ضيع المصلحة ولا يلقي إليهم جميع ما عنده، لكن بحسب ما يقتضي علاج المريض فقط ولا تتجاوز إلى غيره فيتلف به، ولا يتَّخذهم متَّخذ الصَّاحب الموافق المرافق من كلِّ وجهٍ، فيحاققهم ويهجرهم على ترك واجب الصِّدق بل ينزِّلهم منزلة المرضى المرحومين الإخوان في النَّسب، والنَّسب هو: الصِّدق في طلب طريق الله وهم في الحقيقة مرضى، فيعالجون كما يعالج الأخ الشَّقيق الَّذي يكون مريضاً لا غير، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾(١).

ومتى أنزلهم من نفسه منزلة الرَّفيق المناسب من كلِّ وجهٍ فيطالبه بحقائق الصِّدق، ويهجره على دقيق الزَّلات، فقد ضيع وقطع بهم، وحينئذٍ يضيع المصلحة منه ومنهم، ولا يخاطب كلاً منهم إلَّا على قدر طاقته، وعقله،

---

(١) سُورة التوبة: الآية ١١٩.

واستعداده، ففي ذلك نفعه وفي غير ذلك سقمه وحيرته.

مسألة: فإذا اجتمع جماعة من الصَّادقين مختلفي الاستعدادات فكيف يخاطب الجميع؟

الجواب: إذا اجتمعوا لا يبدي لكلٍّ منهم ما يوافقه ويوافق استعداده فإنَّ ذلك وإن كان ينفعه فقد يضرُّ غيره، والمجلس ينبغي أن يعمَّ نفعه ولا ينتفع به واحدٌ ويستضرُّ به آخر، فإذا اجتمعوا واختلفت استعداداتهم؛ يكون الكلام على أدنى المراتب من الأصول الَّتي يحتاج إليها الكلُّ، ويكون ذلك النُّصح الخاصُّ في مجلس خاصٍّ لذلك الشَّخص.

مسألة: فهل يكتم عيوبهم النَّاقصة وأحوالهم العالية، أم يبدي ذلك كلّه في المجلس العام؟

الجواب: من شرط النَّصيحة حفظ الصَّاحب في الغيب والشَّهادة، فلا يبدي مساوئ أحدٍ منهم، ولا يشتكي من قلَّة استعداده وسوء أخلاقه إلى غيره من النَّاس في حالة الغيبة، فإنها خيانة له في الغيب، والوالد ينبغي أن يحفظ عيب أولاده فلا يذكرهم بنقائصهم، وكذلك في حال الشَّهادة [٢٦٥/ب] فإنه هتك له ويؤذيه ذلك، بل ينسى عيوبهم، فإنه الأصل الَّذي ركب عليه البشر، والفضيلة عارضةٌ عليهم فيحرض عن ذلك كلّه، وكذلك تكتم أحوالهم العالية عن إخوانهم، فإنه فسادٌ لهم؛ لأن المريد يكون مهم وقته شيء يشتغل به ولا يستقيم حاله إلَّا به، فإذا سمع مريداً آخر؛ صار له حال ليس له، قامت لذلك الحال في قلبه ربَّانيَّة تشغله عن مهمِّ وقته الَّذي هو مصدره، وذلك فساد.

مسألة: فهل يجعلهم من همِّه بحيث لا ينساهم، ويشتغل بكلِّه في إصلاح أحوالهم؟

الجواب: العارف لا يشتغل بغير معروفه، ويفوِّض الأمر إليه لا يشتغل بغير ذلك من الخلق، لكن إذا جمع الله عليه حقّاً قام بواجب حقه من النَّصيحة

والإيثار ممَّا آتاه الله تعالى من علمٍ ومال، فإذا وفَّاه حقَّه؛ فرغ عنه وعن مناقصه ومساوئه، وسلَّم أمره إلى ربه الَّذي خلقه فهو يتولَّاه، فالعارف قد قام بواجب حق الله تعالى وعبوديَّته في هذا الطَّالب الَّذي ساقه إليه، ومتى علَّق قلبه بهم؛ فقد ضيّع حكم حاله، و أوشك أن لا ينتفعوا به.

ومن الأدب عند الاجتماع أن يخلد أمره إلى الله تعالى فيفتقر إليه، وينظر ما يفتح له فيلقيه إليهم، وهو متخلٍ عن ذلك راجعٌ إلى مولاه لا يرى نفسه ولا إرشاده، ولا يرى غير الله تعالى، فبذلك تخمد النَّفس ويخنس الشَّيطان إن شاء الله تعالى.

مسألة: فالصَّادق إذا بدا منه مالا يمكن الاجتماع به معه.

الجواب: قد سبق أنَّه يعرف، فإن انقاد؛ قبل منه، وإن أصرَّ أعرض عنه بالتَّغافل حتىَّ يرزقه الله تعالى الأوبة.

مسألة: قد يقع من الصَّادق حالة من أخلاق السُّوء يقلّ الصبر معها، ولا يقدر الأستاذ أن يصحبه معها لما يمتلىء قلبه من الأذى من مريده، فكيف يصنع عند ذلك ؟

الجواب: يبدي ذلك سرَّاً ويقول: يا فلان انقطع عنِّي حتى يسدَّ خلل هذه الزَّلَّة، ويعرّفه أن قلبه منقبض عنه غير منشرح له في زلَّته هذه، ويستعمل الصبر ولا يحنق عليه الحنق البالغ، ثمّ يعرض حتَّى ينصلح حاله، بمعنى أنَّه لا يشتغل بالأذى عليه، ويعالجه كما يعالج المريض حتَّى يشفى إن شاء الله تعالى.

فإنَّ من أقيم مقام الأطبَّاء؛ يجب عليه الصَّبر على علاج المرضى والرِّفق بهم، ومع ذلك فيعاملهم بمقتضى أحوالهم من عرف [٢٦٦/أ] منه خلف المواعيد، وعدم الوفاء بالأقوال، فلا يعتدّ بمواعيده ولا بأقواله، ومن استعار منهم كتاباً ليردَّه عن قريب، فتهاون في ردِّه، ولم يكترث بردِّه؛ فلا يعار شيئاً آخر حتَّى يرده، وبئست الخصلة هذه في المريد، فإنَّها من علامات النِّفاق يدلُّ

على: قلة المروءة، وبرودة الهمَّة، وقلَّة الاكتراث بالنَّاس، والتَّهاون بهم، وخصال السُّوء في المريد كثيرة.

مسألة: فالمرتدُّ إذا كان يغتاب أستاذه وقتاً، ويمدحه وقتاً، ويقبل مرةً، ويدبر أخرى، أيقطع أم يترك على حاله؟

الجواب: إذا أقبل؛ جولس بظاهر القلب، ويكلم معه في الكلِّيَّات الظَّاهرة مع الحذر منه، ولين الكلام معه، والإكرام له، فبذلك يملك أهل النُّفوس الحادَّة، ويعرض عنه عسى أن يصل من الطَّبيب إليه دواء ما ينتفع به، فيثاب الطَّبيب على ذلك، وهو المراد لا غير، فإنَّ المراد رضى الله تعالى وثوابه، ليس المراد الموافقة من كلِّ وجهٍ، هذا بعيد من المريدين.

مسألة: الأستاذ إذا اجتمع به سالكٌ فعلى أيِّ نيَّة يجلس معه؟

الجواب: تجلس معه على معاملة الله تعالى في الاجتماع به، وليعينه على ما جاء له، ويقوِّيه على سلوك الطَّريق من ذكر الأسباب المرقبة له، والتَّحذير من الأسباب المفسدة لحاله، ويستعين بالله تعالى ويستهديه ويستوفقه، فيدخل بذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾(١)

مسألة: ما الأسباب التي يجتنبها معه في اجتماعه؟

الجواب: لا ينسى الافتقار إلى الله تعالى، فبنور الافتقار يكشف الله تعالى ما ينبغي له استعماله، وما ينبغي له اجتنابه، فيتجنب معه الاجتماع على مؤانسة الطَّبع والكلام بمقتضى الجبلَّة في كان وصار، ولا يتكلف معه في الودّ وفوق الحاجة، بل يجعل الحق تعالى كأنه بين عينيه، ثمّ يخاطبه بما يفتحه عليه من الهداية والإرشاد.

مسألة: ما الشَّيء الذي إذا عمله المريد كان حاسماً لجميع الآفات،

---

(١) سُورة المائدة: الآية ٢.

مفتاحاً لجميع الأحوال والمقامات؟

الجواب: صدق التَّأهُّب للقاء الله تعالى، والدَّليل على أن ذلك حاسمٌ لجميع الآفات، فإنَّ من استعد للموت؛ انقطع قلبه عن الدنيا ومطالبها من الشَّهوات، وخمدت نفسه مواد البغض والعداوات، وصار بذلك سليم القلب من جميع الآفات، هذا إذا كان صادقاً، ولذلك قلنا صدق التَّأهب والدَّليل على أنَّ ذلك مفتاح لجميع الأحوال والمقامات؛ لأنَّ القلب أعرض بذلك عن الدُّنيا وأقبل على الله تعالى بالطَّهارة من الآفات [٢٦٦/ ب] فيستعدُّ بذلك لفيض الأنوار والمراقبة للعزيز الجبّار، وذلك مفتاح للمقامات من التَّوبة، والورع، والزُّهد، والفقر، والتَّوكُّل، والرِّضا، وغير ذلك إن شاء الله تعالى.

مسألة: ما الشَّيء الذي تصفو به الأوقات مع الله تعالى؟

الجواب: حفظ الخواطر بالحياء والدَّليل على أن بذلك تصفو الأوقات؛ لأنَّ الكدر إنَّما يكون من النَّفس والشَّيطان ومحل إلقائهما في الخواطر، فإذا استحيا العبد من ربِّه في خاطره؛ انحسمت مادَّة الكدر وصفا وقته إن شاء الله، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلِّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدِّين.

مسألة في معنى الصَّلاة

روي عن وفد ثقيف أنَّهم لما قدموا على رسول الله ﷺ ليسلِّموا سألوه أن يبقي لهم الطَّاغية وهي اللات، ثلاث سنين لا يهدمها، وأن يعفيهم من الصَّلاة، فقال رسول الله ﷺ: **«لا خير في دينٍ لا صلاة فيه»**(١)، فما معنى قوله: **«لا خير في دين لا صلاة فيه»**؟ وما الحكمة في أنَّ الصَّلاة مشروعة في

(١) رواه أبو داود، رقم: (٣٠٢٨).

جميع الأديان، فهلَّا اكتفى بالإقرار مع الإيمان بلا صلاة مشروعة؟

الجواب: لمَّا كان الإسلام قولاً باللِّسان، وعملاً بالأركان، واعتقاداً بالقلب؛ فلا يكمل الإسلام ولا يتمُّ، إلَّا بجميع ذلك، إنَّ عمل الأركان يصدق إقرار اللّسان، ويصدق اعتقاد القلب أيضاً، وصار العمل الظاهر ميزاناً يعلم به صحَّة الإيمان من فساده، فمن كان إيمانه فاسداً كالمنافق؛ فإنَّه يترك عمل الأركان عند القتل والأمن من العقوبات؛ لأنّه لا عقيدة له تحثُّه على ظهور حكم المعتقد في المحسوس إذا علم ذلك، فالصَّلاة ميزان الأعمال كلِّها، ولهذا صارت أفضل الأعمال البدنيَّة، وكانت صلة بين العبد وبين ربِّه، وورد الحديث: «**أنّه لا خير في دينٍ لا صلاة فيه**»(١).

ووجه ذلك أنَّ الصَّلاة تفصيلٌ مجمل، إقرار باللِّسان، ومجمل اعتقاد القلب، ففيها يظهر غالب حكم المعتقد والإقرار، وذلك أنَّ اعتقاد كلمة التَّوحيد والإقرار بها وبرسالة محمد ﷺ وهو شيء مجمل يشتمل على جميع شرائع الإسلام، فالصّلاة تفصّل ذلك المجمل المعتقد المنطوق، وذلك لأنَّ الإيمان والإقرار يشتملان على اعتقاد كبرياء الله تعالى ووجوده ﷻ، وعلى أنَّه الملك المعبود المستحقُّ للمحامد كلِّها المجازي للعباد على أعمالهم يوم القيامة، وعلى أنَّ الأمر كلَّه بيده، فهو المعين للعباد على ما يشاء [٢٦٧/أ]، وأنّه مجيب الدُّعاء، وأنَّه عليمٌ ناظرٌ عظيم، وأنّه عالٍ على عرشه فوق سبع سمواته، وأنّه يغفر الذُّنوب كلَّها إذا شاء، وإنَّه قريب من عباده، يسمع النَّجوى، ويحبُّ الثَّناء والحمد، وأنَّ الملائكة حقٌّ، وإنَّ الحفظة منهم حقٌّ، كما قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾(٢).

وهذا الذي عدَّده هنا هو أصول الإيمان وقواعده، وتندرج بقيمة

(١) انظر زاد المعاد (٣/ ٥٩٦) الأرنؤط.
(٢) سُورة ق: الآية ١٨.

المعتقدات فيه بالضَّمان والتَّبع ويشتمل على جميع ذلك الإقرار باللِّسان والإيمان المستجنُّ في القلب.

فصل

إذا علم ذلك؛ فلا بدَّ لمجمل الإقرار والمعتقد من صورةٍ ظاهرة عمليَّة تفصّل ذلك الَّذي في القوة والقول، وتظهره عملاً محسوساً ظاهراً، فيكون ذلك العمل المحسوس الظَّاهر المفصّل للمعتقد الَّذي في القوّة هو نصيب الأركان من الاعتراف والإقرار؛ إذ لا يمكن الأركان أن تعتقد وتقرَّ، فإنَّ الاعتقاد هو وظيفة القلب، والإقرار وظيفة اللِّسان، والعمل وظيفة الأركان، فهو بمنزلة الإقرار له، لا يمكنها غير ذلك.

فمتى اجتمع في العبد الإيمان، والإقرار، والعمل؛ أخذ كلُّ جزءٍ منه نصيبه من العبوديّة، واستوعب الإيمان جميع وجود العبد من لسانه وقلبه، ومتى أقرَّت الجوارح بالعمل طوعاً؛ دلَّ ذلك على صحَّة الإيمان وصدق الإقرار باللِّسان، وإلّا فيكون الإقرار لا حاصل له ولا حقيقة له، قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾[1]، وإنَّما يحقِّق الإقرار، والإعتقاد سعايات الأركان والجوارح، فالاعتقاد سعاية القلب والإقرار معبّرٌ عمَّا استكن فيه، والعمل برهانٌ على صحَّة الإيمان والإقرار.

(١) سُورة المنافقون: الآية ١.

فصل

إذا علم ذلك، وعلم أنَّ العمل مفصَّل لمجمل الإيمان، وأنَّ الإيمان يشتمل على جميع الأحكام الاعتقاديَّة مجملاً فيظهر في العمل تفصيله، فيتفصَّل في توجُّهك إلى الصَّلاة العلم بوجود المتوجَّه إليه ﷻ، ويتفصَّل في التكبير اعتقادك كبرياء الله ﷻ، ويتفصَّل في قولك الحمد لله أنّه المستحقُّ للمحامد، فيتفصَّل في قولك: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[(١)]، أنَّه الملك المالك المجازي للعباد يوم القيامة، ويتفصَّل في قولك: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[(٢)]، اعتقادك أنَّ الأمر كلَّه لله بيده، وأنَّه المعين للعباد على طاعته وعلى ما يشاء، ويتفصَّل في قولك: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾[(٣)]، اعتقادك أنَّه سبحانه يجيب الدُّعاء وأنَّ له صراطاً مستقيماً وهو جملة دينه الَّذي شرَّعه، ويتفصَّل في [٢٦٧/ ب] ركوعك ظهور اعتقادك أنّه سبحانه عليمٌ ناظرٌ عالم بركوعك وجميع صلاتك، ناظرٌ إلى ما تصنع، وأنّه عظيمٌ يستحقُّ التَّواضع لعظمته، ويتفصَّل في السُّجود اعتقادك أنَّه على عرشه فوق مخلوقاته، وأنَّه على علوِّ المرتبة أيضاً الَّتي يستحقُّ بها وضع الجباه والرُّؤوس الَّتي هي أعلى ما في الإنسان فيوضع تواضعاً لعلوِّه، ويتفصَّل في التَّحيّات اعتقادك قرب الحقِّ ﷻ، فإنّك تسلِّم عليه بالتَّحيَّات، والتَّحيَّات له فتضيفها إليه؛ إذ لا يليق أن تقول: السَّلام على الله، فإنّ الله ﷻ هو السَّلام كما ورد، وأنّه يحبُّ الثَّناء، والحمد، والتَّضرُّع، ويتفصّل بتسليمك اعتقادك بوجود الحفظة، فإنَّ

(١) سُورة الفاتحة: الآية ٤.
(٢) سُورة الفاتحة: الآية ٥.
(٣) سُورة الفاتحة: الآية ٦.

سلام الإمام عليهم وعلى الحاضرين، وسلام المأموم ردّاً على الإمام وعلى الملائكة وعلى الحاضرين.

ويتفصَّل مجموع فعل الصَّلاة؛ إذعانك وانقيادك لأمر الله تعالى بجميع ما فصَّلته الصَّلاة من مجمل الاعتقاد بالإقرار تارةً، وبالحركة أخرى، أمرك أن تصلِّي فظهر حكم تصدُّقك لأمره، فصرت بذلك عبداً بارّاً مطيعاً.

فصل

الصَّلاة تظهر جلال الربِّ ﷻ وعظمته، والعلم بوجوده ظاهراً في الحسن ومنظر العين، كما قام ذلك عقيدةً وإيماناً في القلب باطناً، ولهذا السرّ شرعت الجماعة ليعبد الله ﷻ ظاهراً بتواطئ القلوب والأجسام، فيركعون جميعاً لركوع الإمام، ويسجدون بسجوده، فيشهد بعضهم بعضاً خاضعين لربِّهم، فتظهر سلطنة عظمته، واليقين بوجوده للعيون والأبصار في ظاهر عالم الشَّهادة، كما قام ذلك في القلوب في عالم الغيب.

بيان ذلك: لو فرضّت أن صبيّاً مميِّزاً لبيباً دخل مسجداً من المساجد الكبار، فرأى جمعاً كثيراً في يوم جمعةٍ أو غيره قائمين صفوفاً صفوفاً، مطرقين لا يلتفتوني يميناً ولا شمالاً، ولا يكلِّم بعضهم بعضاً، ثمَّ رآهم قد انحنوا بأجمعهم متواطئين متّفقين يعظمون شيئاً غائباً عن الأبصار، لظهر له أنّهم يعظِّمون معبوداً عظيم القدر باهر العظمة، خصوصاً إذا رأى أمير البلدة منحنياً لعلم أنَّ هذا المعبود ملك الكلِّ، وكذلك إذا رآهم قد وضعوا جباههم يسبحون لظهر له أنّهم يتواضعون بهذا السُّجود لمعبودهم، فيقوم شاهد العلم بوجود الحقِّ في قلب النَّاظر إلى المصلِّين، ويقوم ذلك فيمن له قلبٌ من المصلِّين، وذلك لتظهر سلطنة وجود المعبود ونفاذ أمره وحكمه في ملكه

الظَّاهر بإذعان العباد له، كما قام ذلك بقلوب [٢٦٨/أ] المؤمنين فتثاب القلوب على ما قام بها من التَّصديق، وتثاب الأجساد على ما سعته من عبادة المعبود.

ولتظهر سلطنة ظهوره حكماً للأبصار في الظَّاهر؛ حيث تعذَّر ذلك عيناً في الدُّنيا، كما كانت سلطنة وجوده ظاهرةً في القلوب المؤمنة الموقنة، ولتعرفه الموقنون معرفة باطنة بالإيقان بصيرته حكم المعرفة ظاهراً بالعبادة في الحسن والعيان، وبالله المستعان، وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم، وصلَّى الله على سيِّدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلَّم.

مسألة: في قرب المصلِّي من الله تعالى، والنهي عن المرور بين يديه لو قال القائل ما الحكمة في منع الشَّارع من المرور بين يدي المصلِّي؛ يقال: يحتمل أن يكون الحكمة في ذلك أنَّ الله ﷻ يقرب من عبده في الصّلاة، فإنّها صلةٌ بين العبد وبين ربِّه ﷻ: قال الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[١]، فيه دليلٌ على أنَّ العبد السَّاجد يقرب من ربِّه في سجوده، وإذا اقترب منه العبد؛ كان الربُّ ﷻ قريباً من عبده في السُّجود، وفي الحديث: «**أقرب ما يكونُ العبدُ من ربّه إذا كان ساجداً**»[٢]، وفي الحديث الآخر: «**أقرب ما يكون العبد من ربِّه جوف اللَّيل الآخر**»[٣]، وقوله ﷺ: «**إذا كانَ أحدكم في الصَّلاة فلا يبصقنَّ قبل وجهه فإنَّ الله قبل وجهه**»[٤]، وأظن في بعض الألفاظ: (فإن ربه بينه وبين القبلة)[٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، فهو سبحانه قريبٌ من

(١) سُورة العلق: الآية ١٩
(٢) رواه مسلم، رقم: (١١١١).
(٣) رواه الترمذي، رقم: (٣٥٧٩) والنسائي، رقم: (٥٧٢).
(٤) رواه مسلم، رقم: (٧٧٠٥).
(٥) رواه البخاري، رقم: (٣٩٧).

عباده بقرب صفته لا تكيف، ولا توصف بمماسّة؛ لأنّه سبحانه هو العليُّ فوق كلِّ شيء بعلوٍّ هو صفته كما يليق به، ويقرب من العباد بقرب هو صفته كما يليق به، ألا ترى قوله ﷺ عن ربّه ﷻ: «**من تَقرَّب مني شبراً تَقرَّبتُ منه ذِراعاً. . .**»[1] **الحديث**.

وكلُّ هذه النُّصوص دالَّة على قرب الرَّبِّ ﷻ من عبده لا كما تتوهمه الظُّنون، بل أقرب ممَّا تتوهَّمه الظُّنون من خشية التكيّف إذا تقرر ذلك، فكان المارّ بين يدي المصلِّي يدخل بين العبد وبين ربّه ﷻ، فتبقى وليجته في ذلك القرب الخاصِّ الَّذي لا يمثل ولا يكيف.

فإن قلت: هذا مشكل، الرَّبُّ تعالى فوق عرشه بائنٌ من خلقه لم يرد قط أنَّه ينزل إلى الأرض في الدُّنيا، والمصلِّي إنّما يصلِّي في الأرض، والمارّ إنَّما يمرُّ في الأرض بين يدي المصلِّي، وأنتم تقولون: الحكمة في منعه أنَّه يدخل بين العبد وبين ربّه ومن المحال أن يكفر [٢٦٨/ب] الربُّ ﷻ في الأرض مع المصلي حتى يحول المارُّ بينه وبينه.

الجواب: إنَّ الرَّبَّ تعالى فوق العرش وفوق كلِّ شيء، فالعبد بجسمه بعيدٌ من ربِّه بحجبه المسافات والأبعاد من حيثيَّة العبد، والرَّبُّ تعالى لا يحجبه عنه شيء، وكلّ شيءٍ في قبضته، والعبد مركَّبٌ من غيب وشهادة، من جسم وروح، فالروح لطيفةٌ جوَّالة في الملكوت وهي من عالم الغيب، كما أنَّ الجسم من عالم الشّهادة يري ما في عالم الشّهادة، وليس بين روح المقرَّب وبين ربِّه حجابٌ، على قدر مرتبة المقرَّب ودرجاته، وزوال حجابه على حسب نصيبه، وللزّوج وجهٌ إلى الجسم ووجهٌ إلى الغيب.

وقد ثبت أنَّ الرَّبّ ﷻ يقرب من عبده كما يشاء بلا تشبيه ولا ملاصقة،

---

(١) تقدم تخريجه.

فيكون القرب مختصّاً بالرُّوح؛ لأنَّه غيبٌ، والقرب غيبٌ، فالغيب يكون نصيب الغيب، فقد علم أنَّ القرب مختصٌّ بالرُّوح ونصيب الجسم من القرب أنواره المحيطة به، والله أعلم بما وراء ذلك، وكفى به وليّاً وكفى به نصيرا، والحمد لله وحده، وصَّلى الله على سيدنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين وسلَّم.

القِسمُ الخامِسُ: فيه وصايا ومعاهدات ونصائح

من كلام الشَّيخ الإمام العالم السَّالك العارف بقيَّة السَّلف الصّالح عماد الدّين أبو العبَّاس أحمد بن الشَّيخ إبراهيم الواسطي، رحمة الله عليه.

نصيحةٌ: أرسلها الشَّيخ عماد الدِّين إلى صاحبه وصهره الشَّيخ شمس الدِّين محمَّد بن أبي صالح الرِّفاعي البطائحي، المعروف بابن شيخ القنطرة، وذلك عند قدومه إلى دمشق فكتب إليه، فقال:

هذه نصيحة بعض المحبِّين، والسّبب لها: الشَّفقة، والمحبّة، وطلب النَّجاة، والخلاص من الحساب الشّديد، والعذاب الأليم.

الحمد لله الَّذي له ما في السّموات وما في الأرض، وله الحمد في الآخرة، وهو الحكيم الخبير، وصلواته وسلامه على سيِّدنا محمَّد البشير النَّذير السِّراج المنير، وعلى آله ما سمر بنا سمير، وأشرقت الشَّمس على ثبير.

وبعد: فهذه نصيحة [٢٦٩/أ] كتبها أقلُّ عباد الله وأحوجهم إلى رحمته فلان إلى خدمة سيِّدي نفع الله به، أسأل قراءتها والتَّفكُّر في معانيها، والافتقار إلى الله تعالى في كشف الحقِّ فيها، والإعانة على ما يرضاه وهو أرحم الرَّاحمين، والسَّبب لتسطيرها: ما أودع الله تعالى بخدمة الشَّيخ شمس الدِّين في قلب الكاتب من المحبَّة التَّامَّة والإلفة الكائنة بيني وبين خدمته من أيَّام الشّبوبيّة، وتلك المحبَّة إن شاء الله تعالى كلّما جاءت تزداد ولا تنتقص حقٌّ على المحب أن يبذل لمن يحبّه النَّصيحة، ويبالغ فيها، ولا يدع فيها مجهوداً، هذا من أدلِّ الدَّلالات على المحبَّة، وقال رسول الله ﷺ: «**الدِّينُ النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله قال: للهِ، ولِكِتابِه، ولِرسُوله، ولأئِمَّة المسلِمين وعامَّتهم**»(١).

سيّدي - أدام الله تعالى بركتك - عندي كلام أبديه لخدمتك، فأشتهي أوّلاً أن تخفيه ولا تظهره إلى أحدٍ أصلاً فما كلّ أحدٍ يحمل الحقَّ، وبعد ذلك فأشتهي من إحسانك أن تتفتَّى على أخيك، وخادمك، ومحبِّك، فأنت

(١) تقدم تخريجه.

بسلامتك تعلم أنَّه يحبُّك ويتغالى فيك وما كنت بعهده منه من أيَّام الصِّبى من المحبَّة باقٍ على حاله، كما قيل:

ذاكَ الغرام الَّذي عهدتم   باقٍ على حاله مقيمُ

وإن كانت هذه النَّصيحة فيها بعض المشقَّة؛ فلا بأس بالصَّبر والتَّحمل، فإنَّ الحق كرمه وحمله على القلوب ثقيل، ولا أطالب خدمتك أوَّلاً بالعمل بجميعه، بل أشتهي من سيِّدي - أبقى الله حياته - أن يحيط علمه بما أحاط علمي به من الحقِّ، فإنَّ معرفة الحقِّ تفتح البصائر وتنوِّر القلوب، هذا وإن كان في العمل تقصير يحيط علم سيِّدي - أدام الله تعالى أيّامه وبركته - أنَّ أحدنا ربَّما أوجعه رأسه من الحمَّى أو غيرها فيبقى ثلاثة أيَّام أو أربعة أيَّام وينتقل إلى الله تعالى.

قد رأينا من أصحابنا ومعارفنا خلقٌ كثير قد جري لهم هذا، منهم: والدي - ووالدك رحمه الله كنت حاضراً وفاته، وغيرهم يتمرض الإنسان أيَّاماً قليلة، ثمَّ يذهب إلى الله تعالى كأنَّه لم يكن، والعمر الَّذي قد كان يمكن العبد أن يحصل فيه الآخرة يذهب بالموت، فلا عمر يستدرك العبّد فيه ما فاته من تدارك الأوقات بالطَّاعات وقضاء الحقوق الواجبة في الذمَّة، وغير ذلك.

فإذا كان الأمر على هذه الصُّورة؛ فالحياة [٢٦٩/ب] غرور والإنسان فيها كظلٍ زائل، فالواجب علينا أن نستيقظ من غمار الغفلة طوعاً قبل أن نستيقظ كرهاً، النَّاس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا، والموت يشبه خروج الولد من بطن أمِّه من ذلك المضيق والأمعاء إلى هذا الفضاء الَّذي فيه السَّماء والشَّمس والقمر، فكذلك يخرج العبد بالموت من مضائق الكون إلى فضاء الآخرة، ويلقى أعماله وما قدَّمه من خيرٍ وشرٍّ، فيجازى على الحسنات ثواباً، وعلى السَّيِّئات عقاباً، إلَّا أن يعفو الربُّ الكريم.

قال عزَّ من قائل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن

كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1].

ثمَّ إنَّ للعبد إذا لقي ربَّه تعرض أعماله على الكتاب والسنَّة، فإن وافقت الكتاب والسنَّة؛ قبلت، وإن خالفت الكتاب والسُّنَّة؛ كان الكتاب حجَّةً عليه لا له.

وهاهنا كلام أراه خطر جداً، فأشتهي من صدقات سيِّدي كتمانه عن كلِّ أحدٍ، فإني لا أعتقد أنَّ أحداً يسعه اللهم إلَّا من آتاه الله فهماً تامّاً، وعقلاً صحيحاً، وديناً متيناً، ويكون رجلاً طالب حقٍ يحب الحقَّ ويحب سماعه والعمل به وقليلٌ ما هم.

تعلم يا سيِّدي أنَّ الله تعالى قد فتح بصائرنا وأنعم علينا وأرانا أشياء كثيرة تخفى عن كثيرٍ من النَّاس، وذلك من فضله وصدقته علينا، ورأفته ورحمته بنا، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربِّنا بالحقِّ، فلمَّا كشف عن قلوبنا الغطاء؛ وجدنا أنَّا كنَّا نحن وآباؤنا على شعبةٍ من الضَّلالة ولم نشعر، وكنَّا نحسب أنَّا على شيء وما كنَّا على شيء.

اللهم إلَّا الشَّهادة والصَّلوات الخمس، ففتَّشت في أصل هذه الضَّلالة الَّتي لحقتنا ولحقت آبائنا من أين جاءت، فوجدت سببها بعد العهد عن زمن رسول الله ﷺ، فسيِّدي - أعاد الله من بركته - يحضر ذهنه الكريم عند هذا الكلام، فإنَّه دقيقٌ يحتاج إلى فكرٍ صحيح، ولا ينبغي أن يبادر عن الكلام من الأوَّل بالإنكار، بل يثبت ويفتقر إلى الله تعالى حتَّى يكشفه الله ﷻ له كما كشفه لمن أحبَّ من عباده.

وذلك لأنَّ الرسول ﷺ له اليوم سبع مئة سنة، والله لو كان مئة سنة لكان

---

(١) سُورة الأنبياء: الآية ٤٧.

كثيراً وزماناً، فكيف وله مئة ومئة ومئة ومئة ومئة وكسور، أفأرأيت هذا الأمر كيف هو؟

فلا تشك أنَّه في كل مئة سنةٍ مات من سنته [أ/ ٢٧٠] شيءٌ وحتَّى من البدعة شيء حتى ماتت السِّنن وظهرت البدع؛ فصارت البدع في زماننا سنناً معروفة، والسنن النَّبويَّة بدعاً منكرة عرف ذلك من عرفه، وجهله ممن جهله.

ويعلم سيِّدي أنَّ الله ﷻ بعث محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل، وكان أهل الأرض ضلالاً كلهم، فبعثه بدينٍ تامٍّ كامل لا يعوزه شيء قطُّ، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(١)، فكان الواجب على جميع الأمَّة ألَّا يخرجوا عن طريقة الرَّسول ﷺ إصبعاً ولا دونها من زمانه إلى يوم تقوم السَّاعة، لكنَّه ﷺ أخبر بذلك، فقال ﷺ: «**بدا الإسلامُ غريباً وسيعُودُ غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء الَّذين يصلحون إذا فسد النَّاس**»(٢)، وفي رواية: «**فطُوبى للغرباء الَّذين يصلحون ما أفسد النَّاس من سنَّتي**»(٣).

إذا ظهر ذلك وعلم فالدِّين الصَّحيح الذي يحبُّه الله تعالى ويقبله هو الدِّين العتيق الأوَّل الَّذي كان عليه الرَّسول ﷺ وأصحابه وجميع ما حدث بعدهم، فإنَّ الله تعالى لا يحبُّه ولا يقبله ولا يرضى به.

ثمَّ طريقة الرَّسول ﷺ معروفة في كتب: السِّير والمغازي، وكتب المسانيد والصِّحاح السِّتَّة، وكانت طريقته وطريقة أصحابه: اتِّباع الله ﷻ، والاجتناب عن مناهيه، والضَّرب بالسيِّف؛ لإقامة الحق وخذلان الباطل.

كان أحدهم يبقي الله في عينيه، فلا ينظر إلى النِّساء الأجانب، ولا إلى الصبيان الملاح، ويتَّقي الله في سمعه فلا يسمع ما حرَّمه الله، ويتَّقي الله في

---

(١) سُورة المائدة: الآية ٣.

(٢) رواه مسلم، رقم: (٣٨٩).

(٣) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٣٠).

لسانه فلا يتكلم إلَّا بما يحب الله، ويجتنب ما نهى الله من الغيبة، والنَّميمة، وقول الزُّور، ويتَّقي الله في بطنه فلا يأكل الحرام ولا الشُّبهة، ويتَّقي الله في فرجه وفي يديه ورجليه، فلا يحرِّك جوارحه إلَّا فيما أمر الله وفيما يحبُّ الله ويرضاه.

وكانوا قد جعلوا القرآن نصب أعينهم، يحلُّون حلاله، ويحرِّمون حرامه، ويتخلَّقون بأخلاقه، ويتَّعظون بمواعظه، هو سماعهم ليس لهم سماع من غيره.

كانوا يجتمعون ويقرأ لهم القارئ كما نجتمع في هذا الزَّمان ويغنِّي لنا الحادي، ومع ذلك فيأمرون بالعروف، وينهون عن المنكر، ويعلِّمون النَّاس أمور دينهم من فرائض الصَّلاة، والطَّهارة، والزَّكاة وغير ذلك، ويقاتلون بالسَّيف من خالف الله ورسوله.

بهذا بعث محمد ﷺ، وعلى ذلك عاش هو وأصحابه، وعليه ماتوا، ولا يقبل الله [ب/ ٢٧٠] في الدَّار الآخرة إلَّا من عمل مثل عملهم، ومن أتاه بشيء لم يعمله الرَّسول ﷺ ولم يأمر به؛ فإنَّه مردودٌ غير مقبول، وأرجو أن سيِّدي لا ينكر من هذا الكلام شيئاً.

فصلٌ

قد علمنا طريقة الرَّسول ﷺ كيف كانت وأنَّها كانت هي الطَّريقة الكاملة لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1]، فليس لأحدٍ من المشايخ الَّذين ظهروا بعده في هذه السَّبع مئة سنة أن يزيدوا في الشَّريعة شيئاً، ولا ينقصوا منها شيئاً، فإنَّ الشريعة فيها كلَّما نحتاج إليه من أمور ديننا ومصالح دنيانا، فكلُّ من أحدث بعد هذا الشَّرع الكامل حدثاً؛ فقد أدخل في الدين ما ليس

(١) سُورة المائدة: الآية ٣.

منه، وحمل النَّاس على ذلك الأمر المحدث المبتدع، وصار قدوةً فيه، فالله تعالى يسأله يوم القيامة عن ذلك، ولا يرضى بذلك الرَّسول ﷺ، والمقصود: أنَّ أحدنا يعمل حتَّى يلقى ربَّه ﷻ بوجهٍ أبيض، ويلقى نبيَّه بوجهٍ أبيض، ولا يصحُّ ذلك إلا باتِّباع الكتاب، والسُّنَّة، وإبطال كلّ حدثٍ حدث بعد الرَّسول ﷺ.

فصلٌ

معلومٌ عند سيِّدي - أعاد الله من بركته - أنَّ محمداً ﷺ خاتم النَّبيِّين لا نبيَّ بعده، ولا رسول، ولا يجوز أن يظهر في المشايخ من يزيد في شريعته، أو ينقص، ولا أن ينسخ منها حكماً ويضع حكماً، فإنَّ محمداً ﷺ خاتم النَّبيِّين وخاتم شريعته واجبة إلى يوم القيامة، ليس لأحد أن يحدث فيها حدثاً من زيادةٍ أو نقصان، فإذا علمنا ذلك؛ كنَّا أطفالاً وفتحنا أعيننا عند آبائنا وأمَّهاتنا و أصحابنا، فوجدناهم في هذا الكون من هذا الفقر المحدث، والسَّماع، والرقص، والتَّولة، ولزوم الحيات وأكلها، وأكل الضفادع كما كان أبو قيس، ونزول النَّار، واجتماع الرِّجال والنِّساء، وأنَّ الإنسان إذا أحبَّ صبيَّاً أو امرأة يؤاخيه، وينام معه، ويعانقه بلا فعال كما يزعم.

والإعراض عن الرَّسول ﷺ وعن شريعته وطريقته، واتِّباع طريقة شيخ معين، هؤلاء يتَّبعون الشَّيخ مكارم، وهؤلاء يتَّبعون الشَّيخ أبو البدر، وهؤلاء يتَّبعون الشَّيخ أبو [٢٧١/أ] الوفاء، وكلُّ طريقةٍ فيها ما يوافق وما يخالف وما في القلوب إلَّا ربَّانيَّة الشيخ وحده والرَّسول ﷺ ما له إلَّا الاسم السكة والخطبة لا غير.

وأمَّا الحكم فهو لطريقة الشَّيخ لا طريقة الرَّسول ﷺ؛ لأنَّك إذا قلت: قال

رسول الله ﷺ؛ يقولون: ﷺ، وإذا قلت: قال سيدي فلان قالوا: هيه هيه، أو هابا بابا هي. ويتحرك جسد أحدهم وقلبه حركةً لا يتحرَّكها عند ذكر الرَّسول ﷺ.

ثمَّ إنَّ جميع الطَّوائف عندنا يقبِّحوا ما قبَّح شيخهم، ويحسِّنوا ما يحسِّنه الشَّيخ، قد جعلوه إمامهم وخلُّوا الرَّسول ﷺ والخلفاء الراشدين ﷺ، فلذلك افترقت الأمَّة فرقاً متنوِّعة متلوِّنة ألواناً ألواناً، وفي كلِّ طريقة شيء من الهدى وشيءٌ من الضَّلال، فالهدي ما كان متابعة الرَّسول ﷺ في تلك الطَّريقة، والضَّلال ما انحرفوا عنه إلى بدع أحدثوها، فضلُّوا وأضَلُّوا كثيراً.

فصل

يحيط علم سيِّدي أنَّ الصَّالحين وإن كانوا أصحاب كرامات لا ينبغي الاقتداء بهم ولا اتِّباعهم، وذلك لأنَّ الله ﷻ فرض على الكافَّة اتِّباع الرَّسول ﷺ إلى يوم القيامة فيجب على الشَّيخ والمريدين اتِّباع الرَّسول ﷺ، وإذا خالف الشَّيخ الاتِّباع فلا يحلُّ للمريد الاقتداء به، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1]، وأولوا الأمر هم: العلماء الَّذين يردُّون القضايا إلى حكم الله ورسوله، فنفرض أنَّنا إذا وقفنا بين يدي الله ﷻ مثلاً وأنا رفاعيٌّ، وذاك الآخر صالحيٌّ، وذاك الآخر منصوريٌّ، فسألنا الربُّ ﷻ لمن اتَّبعتم؟

فأقول: ياربُّ أنا رفاعيٌ اتَّبعت شيخي، ويقول الآخر: أنا اتبعت شيخي فلان، ويقول الآخر: أنا اتبعت شيخي فلان، فإذا قال الربُّ ﷻ: أنا ما أمرتكم باتِّباع هؤلاء؟!، إنَّما أمرتكم باتِّباع رسولي ونبيِّي الَّذي بعثته بكتابي

(١) سُورة النساء: الآية ٥٩.

إليكم، وقلت لكم في كتابي: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[١]، فكيف تركتم أمري واتَّبعتم من لا أمرتكم به؟!

فلا يكون لنا حجة عند الله تعالى.

فيحيط علم سيِّدي أنَّ مثل هذه الأشياء ينبغي للإنسان أن يستيقظ لها قبل الممات، وقبل الرُّجوع إلى الله تعالى، وقبل السُّؤال؛ ليكون لنا عند الله سبحانه حجة.

فصل

قبض رسول الله ﷺ وجميع أصحابه مثل: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وبقيَّة العشرة [٢٧١/ب]، وسلمان، وأبي ذر، وأبي الدَّرداء، وأبي سعيد، وأبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وغيرهم من أكابر الصَّحابة وعلمائهم وعارفيهم، وقطُّ لم يعملوا هذا السَّماع، ولا حضروه، ولا أمروا به، إنَّما كان سماعهم: القرآن ومذاكرة السُّنة لا غير، ثمَّ جاء من بعدهم قرن التَّابعين؛ كسعيد بن المسيَّب، والحسن البصري، ومجاهد، ومكحول، وطاووس، وعكرمة، وثابت البناني، والأسود، وعلقمة، وأصحاب بن مسعود، وغيرهم من أكابر التابعين وعلمائهم وعارفيهم فقط لم يعملوا هذا السَّماع ولا حضروه ولا أمروا به.

ثمَّ جاء من بعدهم القرن الثالث؛ كالزُّهري، ومالك، وسفيان الثَّوري، وسفيان ابن عيينة، وحمَّاد بن زيد، وحمَّاد بن سلمة، والأوزاعي، واللَّيث بن سعيد، وابن المبارك، والشَّافعي، وأحمد، وإسحاق الحنظلي وغيرهم، من سادات تابعي التَّابعين وكبرائهم، فلم يعملوا هذا السَّماع ولا حضروه ولا

(١) سُورة الحشر: الآية ٧.

أمروا به.

فلمَّا كان في زمان الصُّوفية كـذي النُّون، والجنيد، كانوا يجتمعون في خلوة أصحاب قلوب، ويغلقون عليهم الباب، وينشد واحد منهم أشْعاراً رقيقة، ويبكون، ويتواجدون.

وقد نقل الحفاظ أن الجنيد ما مات حتَّى تاب من سماع الخلوة المذكورة، وكان هذا أصل هذه البدعة، ثمَّ إنَّها اتسعت حتَّى صاروا في المحايا كما يرى سيِّدي، يجتمع الرِّجال والنِّساء، ويأخذ النساء الحال فتبقى المرأة تضطرب وتتحرك، والرِّجال يتفرَّجون عليها، كلُّ هذا كنَّا فيه وأبصرناه، فالحمد لله الذي بصَّرنا من ذلك العمى، وأيقظنا بعد تلك الغفلة ما كان أبعدنا عن الله ﷻ وعن طريقة رسوله ﷺ، وما كان أعمى قلوبنا؟ يا فضيحتنا ويا هتك سترنا لو متنا على تلك الطَّريقة، أي شيء كان يكون جوابنا عند الله وعند رسوله ﷺ، والله ما كان لنا حجة، فإنَّ الطريق واضحةٌ، والحق واضحٌ معروف مثل الشَّمس، وطريقة الرَّسول كلُّ من أراد؛ عرفها من كتب السُّنن، لكن العوائد الفاسدة من عوائد الآباء عفا الله عنهم والأصحاب والأسلاف، يبقى الإنسان عاجزٌ عن تغيير العوائد خصوصاً لمن يكون له مشيخة ورياسة وبيت، فما يقدر الإنسان على أن يرضي ربَّه ويكسر مشيخته وناموسه.

هذه العلَّة التي كانت فينا فلمَّا هانت علينا المشيخة بحمد الله ومنَّته، وصارت تساوي فلساً، وألقى الله في قلوبنا تعظيم شرعه وأمره وأمر نبيِّه ﷺ، ورمينا أثقال العوائد الفاسدة عن أكتافنا؛ لطف الله بنا وأرانا العيب الَّذي كنَّا فيه، ونسأله أن يغفر لنا الذُّنوب الَّتي عملناها في ذلك العمي، إنَّه على كل شيءٍ قدير. [أ/ ٢٧٢]

فصل

سيِّدي - أعاد الله من بركتك - قد كشفت لك القناع، وأريتك النصيِّحة، وما كتمت عنك شيئاً، فإنَّ الله ﷻ يسأل عن صحبة ساعةٍ، وبيني وبينك صحبة ومحبَّة، وأنا أحب لك ما أحب لنفسي، وأحب أن تلقى ربَّك ونبيَّك بوجهٍ أبيض، وقد جعلك الله شيخاً فأنت راعٍ، وكلٌّ مسؤولٌ عن رعيَّته، كل هؤلاء الَّذين يتَّبعوك وأصحابكم الَّذين في البثوق، والماذيان، والذَّنائب، كلُّهم يقولون: قال سيِّدي، وعمل سيِّدي، فإنَّ الله تعالى يسألك عن هؤلاء وغيرهم كيف قمت فيهم، وبأيِّ شيءٍ أمرتهم، وهل أقمت حقَّه فيهم، ونصحتهم في دينهم أم لا.

فالله الله استعد للمسألة جواباً ولا تجعل نفسك قنطرةً يعبرون عليك إلى النَّار، أدعهم كلُّهم إلى الكتاب والسُّنَّة وامحق البدع كلّها وامحها، وتمسَّك بالحديث، واقرأ على الفقراء: «كتاب البخاري»، و«مسلم»، و«المصابيح» في الحديث وغيره من السُّنَّة.

والرَّقائق مثل: «قوت القلوب» وفسَّره لهم حتَّى يفهموا، وعلَّمهم فرائض الوضوء والغسل من الجنابة والحيض، وعلَّمهم الحدود والأحكام.

واعلم أنَّك تقف بين يدي الله ﷻ حافياً عارياً كما قال رسول الله ﷺ: **«يحشر النَّاس يوم القيامة حفاةً عراةً غرلاً، فأوَّل من يكسى إبراهيم عليه السَّلام، ينظر الرجل عن يمينه فلا يرى إلَّا ما قدم، وينظر عن شماله فلا يرى إلَّا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلَّا النار تلقاء وجهه»**، يقول رسول الله ﷺ: **«اتقوا النَّار ولو بشقِّ تمرةٍ فإن لم يكن فبكلمةٍ طيِّبة»**[١].

---

(١) رواه البخاري، رقم: (١٣٥١) ومسلم، رقم: (٢٣٩٦).

سيِّدي وحبيبي ومن أحبّه في الله ظاهراً وباطناً قد زرع الله لك في قلبي محبةً لا تبرح أيَّ شيء.

يكون جوابنا عند الله إذا دخلنا الشام ومعنا أربعين أو خمسين فقيراً أو أكثر، فيهم من لا يعرف فرائض الوضوء ولا فرائض الصَّلاة، ولا يدري كم فيها فرضٌ وكم فيها سنَّة، ولا يدري أمر الله ولا نهيه، إلَّا هكذا مقلدٌ شيخه يأكل ويرقص حتَّى يتعب، ثمَّ ينام طول اللَّيل هكذا حتَّى يصبح، وهكذا حتى يمسي وأنت شيخه وقدوته، إذا سألك ربّه يوم القيامة يقول: يا ربي اتَّبعت شيخي شمس الدِّين خال سيِّدي شيخ الوقت، وما أمرني، ولا نهاني، ولا علَّمني، ولا أوقفني على الطَّريقة التي تحبُّها وترضاها.

سيِّدي وحبيبي فإني أخشى أن توضع أوزاره عليك وأنت ضعيفٌ ما لك طاقةٌ بقرص البعوض، ولا البرغوث، فأي شيءٍ يكون جوابك عند الله، والله لولا محبَّتي لك وشفقتي عليك وحنَّتي ما واجهتك بمثل هذا، فإنَّ الله تعالى يسألني عن النُّصح للمسلمين فكيف بمن أحبُّه.

ثمَّ إنَّا منتظرين هذا [ب/ ٢٧٢] الأمير يحيينا بفتوح، وهذا الجنديُّ يأتينا بفتوح، وهذا إمام الأمير فلان يزورنا ولا نسأل هذا الطَّعام الَّذي يأتونا به من أين ولا كيف أصله، وفي الحديث: **«كلُّ لحم نبت من حرام فالنَّار أولى به»**[1]، ثمَّ إنَّا نريد أن نحجَّ بأيِّ فتوح جاء لا نقول: هذا حلال ولا هذا حرام ولا هذا شبهة، وفي الحديث: **«إذا حجَّ الرَّجل بمال حرام؛ فقال: لبَّيك اللَّهمَّ لبيك؛ قال الله تعالى: لا لبيك ولا سعديك، حتَّى تردَّ ما في يديك»**[2].

ثمَّ إنَّنا إذا اجتمعنا نحن والفقراء والعوام، والأمراء والجند . . . وغيرهم،

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٦١٤).

(٢) رواه الشيرازي في الألقاب وأبو مطيع في أماليه عن عمر، كما ذكر ذلك المتقي الهندي في كنز العمال (٥/ ٢٧).

وغنَّى الحادي؛ يبقى كلٌّ من عنده حال يظهره بحضرة النَّاس؛ هذا يصرخ وهذا يصيح، وهذا يظهر الإشارة بحضرة النَّاس، فكأنَّهم يقولون بلسان الحال: اعرفونا اعرفونا، أعطونا أعطونا؛ فأين الصِّدق فأين الإخلاص، فأين المعاملة الباطنة بيننا وبين الله تعالى هل كان الصَّحابة هكذا لا والله، ثمَّ والله الطَّالب الغالب ما كانوا هكذا، هل كان التابعون هكذا، لا والله، ثم والله الطالب الغالب ما كانوا هكذا، هل كان الصُّوفيَّة هكذا مثل الجنيد والشِّبليِّ والثَّوريِّ، لا والله.

ثمَّ والله الطَّالب الغالب ما كانوا هكذا، ولا هذه طريقتهم سيِّدي، فإذا كان الصَّحابة ما اتَّبعنا والتَّابعين ما اتَّبعنا، والصُّوفيَّة ما اتَّبعنا فيمن اقتدينا، وبمن اهتدينا.

وما أحسن الرَّجل الصَّالح إذا أراد أن يحجَّ يجتهد سنين حتَّى يحصِّل نفقة من وجه حلال، يحرص على معرفة أصلها، ثمَّ يدخل الشَّام محتفياً غريباً معه فقير أو فقيرين في زيِّ العوامِّ أو التُّجَّار، ثمَّ يكتري يطلب الإخلاص والقَبول من الله يجتهد على كتمان حاله، يخفي على النَّاس أمره ويفتح الطَّاقة فيما بينه وبين ربِّه.

سيدي ما يخفى عليك أنَّ الله ﷻ فوق السَّماوات وفوق العرش، ينظر إلى عباده، ويراهم ويعلم خفيَّ أسرارهم؛ فكيف يغالط العبد نظر هذا الرَّبَّ العظيم؟!

هب أنَّنا زيَّنا الظَّاهر بالمرقَّعات وحسن السَّمت وإظهار الوجد والمحبَّة والمعرفة؛ فالله سبحانه أليس هو مطَّلع على الضَّمائر، يعلم الصَّادق من الكاذب والمرائي من المحقِّ؟! قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾[1].

(١) سُورة المائدة: الآية ١١٩.

فصل

يحيط علم سيِّدي أنِّي تهجَّمت في هذا الكرَّاس على حضرة سيِّدي، وعلم الله أنِّي ما قصدت فيه إلَّا النَّصيحة، وما حملني عليه إلَّا المحبَّة، وخفت أنَّ الله ﷻ يسألني عنك؛ فأحببت لك ما أحبُّه لنفسي، وأرجو أن يتحرَّك عزمك الكريم إلى إصلاح الأحوال والأمور، فإذا حرَّك [٢٧٣/أ] الله عزمك إلى إصَّلاح الوقت، وفتح بصيرتك الباطنة للنَّظر إلى حقائق الأشياء وأصولها؛ فليكن ذلك بالتَّدريج قليلاً قليلاً.

وما يقطع النَّاس عن طريق الحقِّ إلَّا الخوف على الشَّرف والرِّياسة، ولذلك قال ﷺ: **«ما ذئبان ضاريان في زريبة غنم بأفسد لها من حبِّ المال والشَّرف لدين المسلم»**(١)

فسيدي! إذا فتح الله قلبه للحقِّ فليثبت على مشيخته، ولا يقل: ما أقدر على هذا حتَّى أتجرَّد، لا بل ثباتك على مشيختك وإقامة الحقِّ على نفسك وعلى أصحابك أفضل، ثمَّ خذا النَّاس بتغيُّر العوائد قليلاً قليلاً، خصلة خصلة، أولاً انهى الفقراء عن حطِّ الرَّأس قدَّامك، والسُّجود لغير الله تعالى من قبَّة أو قبر أو صندوق، فإنَّ السُّجود حرام لغير الله تعالى.

ثمَّ كلُّ شيء أمكن إزالته؛ أزلته قليلاً وشيءٌ تعذَّر صبرت عليه، وصابرت حتَّى تزيله، فإنِّي أرجو إذا أحييت في مشيختك سنَّة واحدة من سنَّة الرسول الله ﷺ، وأمتَّ بدعة واحدة؛ كنت بذلك مع الصِّدِّيقين خلفاء الرَّسول، وورثة الكتاب، فإنَّ هذا الزَّمان الَّذي نحن فيه آخر زمان، والقابض

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٧٧٢)

على دينه كالقابض على الجمر، وأنا لي قريب من خمس وعشرين سنة في هذا الطَّريق حتَّى أبصرت الآن الحقَّ كيف، وأبصرت الأشياء من أصولها، وأرجو لخدمتك أيضاً إذا صبرت، وقصدت الحقَّ واتِّباع السُّنَّة، وافتقرت إلى الله تعالى، وقلت: اللَّهمَّ! أرني الحقَّ حقّاً، ووفقني لاتِّباعه، وأرني الباطل باطلاً وأعنِّي على اجتنابه بعد الصَّلاة على الرسول الله ﷺ، وتختمه بالصَّلاة عليه أيضاً أن يقويك وينصرك، ويؤيِّدك ويجعل لك أعواناً يساعدوك على الحقِّ والصِّدق.

فصل

قد علمنا طريقة الرَّسول ﷺ وأصحابه من أنَّهم كانوا مهتمِّين بإقامة الدِّين، وقتال من خالف كتاب الله وسنَّة رسوله = كانوا أورع النَّاس وأتقاهم وأعفَّهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، يقاتلون الكفَّار على الدِّين في النَّهار، ويقيمون ما دثر من الدِّين، ويقيمون اللَّيل ويتَّبعون أمر الله بالنَّهار؛ أولئك الَّذين قال الله تعالى فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾[(٢)]، كانوا يبذلون أنفسهم لله يدخل أحدهم الصَّفَّ، فيقتل ويرى دماه بعينه تسيل، وهو [٢٧٣/ب] إلى قدَّام فرحاً بقتل الشَّهادة، في سبيل الله تعالى؛ فهذه طريقة الصَّحابة ﷺ، وطريقة الأنبياء والرُّسل من قبل نبيِّنا صلوات الله عليهم، وهي إقامة

---

(١) سُورة آل عمران: الآية ١١٠.

(٢) سُورة السجدة: الآية ١٦

الدِّين، والضَّرب بالسَّيف والاستقامة مع الله ظاهراً وباطناً كما قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[1]؛ المعنى: أنَّ الله تعالى وصَّاهم أن يقيموا الدِّين ولا يتفرَّقوا فيه وحقَّ عليهم أن يقبلوا وصيَّة مولاهم؛ فالحمد لله الَّذي عرفنا طريقة الأنبياء والرُّسل واتِّباعهم كيف كانوا، ونسأل الله تعالى أن يوفِّقنا للقيام بما قاموا به.

فصل

وأمَّا طريقة الأولياء والصَّالحين، وهم الطَّبقة الوسطى من هذه الأمة سادات النَّاس وأئمَّتهم كالفضيل بن عياض ووهب بن الورد، وإبراهيم بن الورد وإبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط، وسفيان الثَّوري وحذيفة المرعشي، وبشر الحافي، ومعروف الكرخي، وداود الطَّائي وأبو سليمان الدَّاراني، وأحمد بن أبي الحواري، وأبي عبيد البسري، وحاتم الأصم، وشقيق البلخي... وغيرهم من أهل هذه الطَّبقة.

فأيضاً ينبغي لنا أن نعرف طريقهم كيف كانت؛ بحيث إذا عجزنا عن طريقة الصَّحابة؛ دخلنا في طريقة هؤلاء أصحاب الكرامات والدَّرجات، كانت طريقتهم الورع والزُّهد وترك الدُّنيا والإقبال على الآخرة وكتمان الأحوال والإشارات كانوا أبعد النَّاس من الأمراء والجند وأهل الدنيا، فمنهم من كان لا يعبر عن قنطرة بناها السلطان يخاف أحدهم على ذهاب دينه كما يخاف أحدنا على ذهاب مهجته، وكانت السفلة عندهم الذين يأكلون الدنيا بالدين،

(١) سُورة الشورى: الآية ١٣.

وكانوا أهل الصدق مع الله والإخلاص له، يطيلون الرُّكوع والسُّجود، ولا ينقرونها نقر الدِّيك والغراب، أشهى ما إليهم سماع كتاب الله ﷻ.

ونحن اليوم نعكس هذه الأشياء إذا قرأ أحد سورة نتمنى أنَّه يسكت؛ فإذا غنَّى الحادي يوم طول النَّهار؛ نرقص ولا نملُّ، وإذا دخلنا في الصَّلاة لو طوَّل الإمام قليلاً؛ ربَّما ضربوه بالنِّعال، وفيهم من يقطع الصَّلاة من نصفها، ويعدوا إلى الطَّابق فيدور فإذا جاء السَّماع سكتوا فيه.

وكان السَّلف يكرهون الشُّهرة ويحبُّون الخمول، ونحن اليوم نعمل على الشُّهرة وعلى استجلاب فتوح الظُّلمة - أي والله - وعلى إظهار الحال، حتَّى يبقى لنا سمعة بين النَّاس وسبب ذلك أنَّ السَّلف كانوا قد عملوا على إصلاح حال [أ/ ٢٧٤] الآخرة، فهم ينتظرون القدوم على الله تعالى، ويخافون حسابه وعقابه، ويخافون سواد الوجه معه.

أعطاهم الله ﷻ المحبة له والتَّوكُّل عليه والرِّضا عنه والخشية له والأنس به في الخلوات والتَّلذُّذ بقراءة كتاب الله ﷻ، والإصغاء إليه، والعمل به، أكبادهم محترقةٌ من محبَّة الله ﷻ والشَّوق إليه ملآنه من الغنى به عمَّا سواه، يعظِّمون أهل العلم والفقهاء ويسألونهم عن أمور دينهم وحدوده، وأعطاهم الله ﷻ المقامات حقَّقهم بمقام التَّوبة، فأحكموها وبمقام الورع، فأحكموه وبمقام الزُّهد في الدُّنيا، وفي النَّاس فأحكموه وأتقنوه، وبمقام الخوف من الله فحقَّقوه؛ فلصدورهم أزيز كأزيز المراجل من خشية الله وبمقام التَّوكُّل فحقَّقوه، فتكَّلوا على الله ووثقوا به، وبمقام التَّواضع وكسر النَّفس فحقَّقوه، وبمقام الرِّضا عن الله فاطمأنَّت نفوسهم على القيام بأمره والرِّضا بأقداره.

ثمَّ فتح الله ﷻ قلوبهم بعد هذه المقامات بالأحوال الصَّحيحة المؤسَّسة على الكتاب والسُّنَّة، ففتح الله لهم بمقام المحبَّة الخاصة فاحترقت أفئدتهم من

محبَّته، وامتلأت أسرارهم من مشاهدته، وفاضت أنوار العزَّة على قلوبهم؛ فأنسوا بها واستوحشوا ممَّا سواها.

وحقَّقهم الله ﷻ بمقام الشَّوق والقرب والأنس والفناء والبقاء والسُّكر والصَّحو؛ فأفناهم به عنهم، ثمَّ أبقاهم له فيه يسمعون، وبه ينطقون، وبه ينظرون، أولئك حزب الله، ألا إنَّ حزب الله هم المفلحون.

فالإنسان ينبغي له أوَّلاً أن يسلك طريق الصَّحابة ﷺ؛ فإنَّ هذه الأحول كلُّها كانت فيهم على أكمل الأمور، وكيف لا؟! وكان شيخهم سيِّد المرسلين وخاتم النَّبيِّين، قذف الله في قلوبهم من أنوار العزَّة بواسطة الرَّسول ﷺ؛ فصارت أنفسهم وقلوبهم ملآنة[1] بأنوار الله ﷻ؛ فقووا بذلك على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وهم الَّذين فتحوا البلاد وبسيوفهم الَّذي قامت هذه المساجد والمنابر والجوامع وأذَّن المؤذِّنون على المنابر بعد عبادة الصَّليب والأصنام والأوثان؛ فالصَّحابة هم الَّذين سبقوا النَّاس بكلِّ حال ومقام ومعرفة وعلم وعمل، وبقيَّة النَّاس تبع لهم وعائلة عليهم، فإن عجزنا عن طريقة الصَّحابة؛ فلنسلك طريقة الصَّالحين؛ فإنَّها طريقة شريفة عالية، متَّصلة بالكتاب والسُّنَّة، وهي عبارة عن محاسبة الظَّاهر ومراقبة القلب بين يدي الله تعالى [ب/ ٢٧٤] والصِّدق والإخلاص، ومطالعة التَّفسير والحديث والعمل به والزُّهد في لدُّنيا، ومجانبة كلِّ بدعة لم تكن في أيَّام الرَّسول ﷺ، ولا في أيَّام السَّلف ﷺ، وخوف الله وخشيته والبعد عن الظُّلمة وأهل الدُّنيا، وعن قبول فتوحهم والمداهنة هم، وإظهار الكرامات بين أيديهم؛ لينال الإنسان من أوساخهم كلَّ دناءة وخسَّة، وبُعد عن طريق الأولياء، كان أحدهم قدَّس الله روحه يحفظ لسانه من مطلع الشَّمس إلى أن تغيب؛ خوفاً من أن

(١) الصَّواب: ملأى.

يعصيَ ربَّه بلسانه، وكذلك يحفظ عينه أن ينظر بها إلى ما حرَّم الله تعالى من أمردٍ أو امرأة أجنبيَّة، وكذلك يحفظ بطنه عن الحرام والشُّبهة، يخاف من دخول النَّار وانطفاء النُّور العرفانيِّ من القلب؛ فالحمد لله الَّذي عرفنا طريق الصَّحابة وطريق الصالحين العارفين؛ فعلينا أن نبذل لجهد في اتِّباعهم، واتِّباع طريقتهم، عسانا أن نلحق بهم، ولا يؤخذ بنا ذات الشِّمال إذا أخذ بهم ذات اليمين، وسلام الله عليهم وتحيَّته إلى يوم الدِّين.

وهذا آخر ما فتحه الله تعالى من النَّصحية لسيدي شمس الدِّين حفظه الله تعالى وأنقاه وتولَّاه آمين، والحمد لله ربِّ العالمين صلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

عَهْدٌ عَهِدَه الشَّيخُ عماد الدِّين الواسطيُّ

إلى سائر محبِّيه وأصحابه في حياته وبعد وفاته، ثمَّ إلى سائر من وصل إليه نفعهم الله به آمين:

الحمد لله وليِّ الحمد ومستحقِّه العليِّ على جميع الممالك من خلقه، منزل الكتاب على الرَّسول ﷺ بشرائعه وإقامة حقِّه، المدبِّر لبريَّته بحسن التَّدبير بلطائف برِّه ورفقه الَّذي كان ولا شيء معه في أزليَّته قبل خلق الكون وتكوينه، مشتملاً على مركزه وأُفقه؛ فهو الواحد الَّذي لا نظير له، ذو الجلال والإكرام، والأسماء العظام، والصِّفات الكرام، والتَّدبير الحسن التَّامِّ، والأفضال والإنعام على سائر المخلوقات في الأنام؛ فله تذعن بالعبوديَّة في رقِّه.

وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله، سيِّد ولد آدم، طوبى لمن اتَّبع سنَّته في عبادته وعاداته؛ مثل: اكتحاله وفرقه صلَّى الله عليه وعلى آله المصطفين من [أ/ ٢٧٥] عنصره وعرقه وعلى أصحابه البررة الكرام.

وبعد: فهذه عهد عهده أقلُّ عباد الله وأحوجهم إلى رحمته، أحمد بن إبراهيم الواسطيُّ أقال الله عثراته، ورزقه صحبة أهل كراماته إلى خواصِّ محبِّيه وأصحابه الطَّالبين سلوك تحقيق الطَّريق، المحترفين على نهج الوصول من التَّحقيق؛ ليكون تذكرة عندهم في حياته، ويعتمدون وصيَّته بعد مماته، ذلك بعد استخارته لربِّه فيما كتبه، وبعد اجتهاده في النَّصيحة لنفسه ولإخوانه فيما شرحه وسطَّره:

أوصيكم معشر الطَّالبين بتقوى الله تعالى في العلانية والإسرار، ومعنى التَّقوى- على ما كشفه الله تعالى لي؛ حيث اختلفت فيه العبارات -: هو

الرِّباط على ثغريِّ الظَّاهر والباطن؛ كمرابطة الغزاة على ثغور الأعداء، وخشيته من دخولهم على مملكة الإسلام، واستذلال أهله بسيِّئ الانتقام؛ فكذلك أنتم رابطون[1] على ثغر الظَّاهر منكم أوَّلاً؛ فاحفظوا جوارحكم السَّبع عن معاصي الله وعن كلِّ فضول لا يرجى عليه ثواب الله في المنطق والمنظر والمسمع، وسائر الحركات؛ فهذا هو الثَّغر الظَّاهر، تحفظوا به من نفوسكم الَّتي هي أعدى عدوٍّ لله ثمَّ لكم، ثمَّ تحفظوا به من الشَّيطان الرَّجيم؛ كي لا تفسد هذه المملكة الظَّاهرة نفوسكم بطغيانها وسعيها بالفساد في مملكة الله تعالى بغير حقٍّ، فإذا رابطتم على هذه الثَّغر وتحفَّظتم من سريان العدوِّ فيه بغير حقٍّ، واستعنتم بالله في ذلك؛ فعلامة صحَّة هذه المرابطة عند التَّفقُّد هو أن لا تحوِّجون صاحب الشِّمال أن يكتب عليكم شيئاً؛ لسرعة الأوبة عند تجدُّد الحوبة؛ فهذا ميزان الرِّباط الظَّاهر ثمَّ عليكم بعد ذلك بالرِّباط الشَّديد على الثَّغر الباطن، وهو أشقُّه وأشدُّه؛ فتحفظون القلب في دبيب الخطرات من معصية الله، وتعلمون أنَّه متى حفظ الباطن؛ غلبت عصمة الظَّاهر؛ لأنَّ الحركات الباطنة هي مقدِّمات الأعمال الظَّاهرة أ؛ فمتى روعيت المقدِّمات برعاية الاستقامة؛ تحرَّكت الجوارح بمقتضاها.

ومتى غفل المرابط عن رعاية مبادئ أموره في الخطرات؛ دخل الأعداء من النَّفس والشَّيطان على مملكة الملك؛ فعاثوا فيها بالفساد والإتلاف بغير الحقِّ.

واعلموا أنَّ معصية الله في الخواطر كدقيق الرِّياء والعُجب والكبر والحسد والتُّهمة وسوء الظَّنِّ وكراهية وصول الخير إلى غيره والشَّماتة [٢٧٥/ ب] بالمؤمن وغير ذلك؛ فمتى أحس المرابط بأمثال هذه الآثار في قلبه؛ استعان

---

(١) في النسخة: رابطوا.

بالله تعالى وبدَّل تلك الآثار بأضدادها، بدَّل الرِّياء بالإخلاص، والعُجب برؤية منَّة الله تعالى، والكبر بالتَّواضع، والحسد بإرادة الخير لأخيه، وأمثال ذلك، .

فمن وفَّقه الله تعالى؛ لحسن المرابطة على هذين الثَّغرين؛ فقد اتَّقى الله حقَّ تقاته، واتَّقى ظاهر الإثم وباطنه كما أمره الله ﷻ في قوله: ﴿وَذَرُوا ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾(١)، ثمَّ عليكم بمعرفة حدود الله وأحكامه وفرائضه وسننه وآدابه الموجودة في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ المدوَّنة في كتب الفقه من علم فرائض الطَّهارة وسننها، وفرائض الصَّلاة وسننها، وفرائض كلٍّ ما ابتليتم به من بيوع ومعاملاتٍ وحج وزكاة.

واجتهدوا على استخراج نصوصها من الكتاب العزيز، والسُّنَّة المأثورة ولا تعبؤوا بشيء من أعمالكم ولا أحوالكم قبل تحصيل هذا الفنَّ من العلم، واحذروا مجالسة من يشير إلى المحبَّة والفناء والتَّوحيد، ويهوِّن أمر الفرائض والسُّنن، ولا يحرص على تعلُّم ذلك.

واعلموا أنَّ العبادات الَّتي هي حقُّ الله تعالى لا تستقيم أمرهاإلَّا علم حدودها وأحكامها، وعلم ما يفسدها، فمن أهمل ذلك؛ فقد أهمل حقَّ الله، ومن أهمل حقَّ الله؛ يخشى أن يهمله الله وكلُّ من أهمل هذا الفنَّ وتحقيقه حفظاً ومذاكرة ومطالعة؛ فإنَّما هو ساعٍ في مراد نفسه وحظِّها، لا في مراد ربِّه منه وحقِّه عليه.

والصَّادق يرى حقَّ الله عليه أهمَّ من حقِّ نفسه وحظِّها من الدُّنيا أو من الآخرة، ثمَّ عليكم بسماع الحديث.

اعتنوا بسيرة النَّبيِّ ﷺ وسماعها ومطالعتها؛ حتَّى تبقى أيَّام النَّبيِّ ﷺ في ظهوره ومبعثه ومعجزاته وغزواته وآدابه وجهاده عندكم بيِّنة واضحة، فتبقون من

---

(١) سُورة الأنعام: الآية ١٢٠.

كثرة مروركم على سيرته كأنَّكم تشاهدونه، وتقوى بذلك أمارات النُّبوَّة في قلوبكم وتلوح دلائلها في أسراركم، فتتمنَّون أنَّكم كنتم معه في مغازيه ومشاهده، وتتأدَّبون به في حركاته وسكونه فيكون هو شيخكم كما كان هو نبيكم، فإذا عرفتم السِّيرة معرفة جيِّدة؛ فاسمعوا متون الأحاديث الصِّحاح، واحرصوا على الاتِّباع لنبيِّكم بها؛ فبذلك تكونوا مؤمنين بظاهر الإسلام وباطنه، قائمين إن شاء الله تعالى.

وليعمل كلٌّ منكم على خلاص نفسه مع ربِّه ولا ينظر بعضكم إلى بعض، ولا تتفقَّدوا أحوال النَّاس والأصحاب؛ فإنَّ فيها الصَّحيح والسَّقيم، واشتغلوا [٢٧٦/ أ] في هذا الزَّمان بخاصَّة أنفسكم شاخصين إلى سنَّة نبيِّكم، عاملين على رضا ربِّكم في إقامة حقوقه وعبوديَّته، على منهاج كتابه وسنَّة نبيِّه ﷺ، وكونوا كأنكم لا تعرفون أحداً إلا ربكم ﷻ وسنَّة نبيّكم محمَّد ﷺ، وقوموا بحقوق النَّاس إذا ابتليتم به من ردِّ السَّلام، وقضاء الحاجة، وغمِّضوا أعينكم عن جميع الخلق إذا عوفيتم منهم؛ كي تسلم لكم قلوبكم، وتجتمع عليكم همومكم؛ فتعرفون زيادتكم من نقصانكم؛ فإنَّ اليوم في هذا الزَّمان قلَّ من يسلم له قلبه إلَّا بذلك.

ومتى فرَّق المريد خاطره في الخلق؛ تشعَّبت همومه ودخلت حركات الخلق في قلبه وعوائدهم السَّيِّئة من الكلام وغيره؛ فتتلقَّح الطِّباع بها، فيفسد على المريد حاله، ولا يقدر على ضبط أمره في الرِّباط الظَّاهر والباطن على الثَّغرين المهمَّين.

ولا تطالبون أحداً بوداد ولا بسلام، وقوموا أنتم بحقوقهم إذا أمكنكم ذلك، ولا يتَّخذ أحدكم حبيباً غير الله ولا صاحباً غيره، ولا مؤنساً، بمعنى لا يركن أحد منكم بسرِّه إلى أحد من خلق الله، واقطعوا الطَّمع عنهم، وعن جميع خيرهم، واطمعوا في الله تعالى، وفي برِّه وخيره، وعلِّقوا آمالكم به،

فإن من كان الله تعالى أمله؛ يوشك ألَّا يخيِّب في الدُّنيا ولا في الآخرة إن شاء الله تعالى.

وعليكم بقراءة القرآن والتَّدبُّر له ولمعانيه، عسى أن تقفوا على مراد الرَّبِّ منكم فيه، وفي إنزاله، واحرصوا على العمل في تحليل حلاله وتحريم حرامه، والخوف عند وعيده، والرجاء عند وعده، والنُّهوض إلى أمره، والوقوف عند زجره؛ كي يكون لكم شافعاً حجَّة، ولا يكون حجَّة عليكم، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾(١)، قيل: بكتابهم، واجتهدوا في قراءته أن يكون المتكلِّم وعظمته نصب أعينكم؛ كأنَّكم بين يديه وأنتم تسمعون كلامه وتستحضرون صفاته في خطابه؛ فترونه آمراً ناهياً متواعداً لطيفاً قاهراً رؤوفاً رحيماً جبَّاراً متكبِّراً جليلاً جميلاً عظيماً قديراً، فمن رزقه الله مشاهدة الصِّفات في الكلام العظيم مع فهم الكلام والوقوف على المراد منه مع الاعتناء بالعمل به، فقد حقَّ تلاوته، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾(٢) [ب/٢٧٦]

وأحذِّركم صحبة المردان والبطر إليهم والأنس بأحد منهم، واتِّخاذ أحد منهم صاحباً؛ فإنَّهم سرَّاق العقول، ولهم ظلمة شهوانيَّة، يطفئ أنوار القلوب، وتكدِّر حقائق الإيمان، وإذا ابتلي أحد منكم بمجاورة أحد منهم فليفرَّ منه فراره من الحيَّة والعقرب؛ فكم قد فتنوا من عابد، وسلبوا من واجد، وسكنوا قلب من مال إليهم، فأخرجوا منه الميل إلى الله وإلى رسوله، فأصبح محبُّهم منكوساً على رأسه، متقلِّباً في مساخط الرَّبِّ، بعيداً عن قدسه، متلوِّثاً بالنتان منهم، داخلاً في رمسه.

(١) سُورة الإسراء: الآية ٧١.
(٢) سُورة البقرة: الآية ١٢١.

فاستعينوا بالله تعالى واحذروهم أشدَّ الحذر، وكونوا من مقاربتهم على وجل، والقويُّ إذا ابتلي بأحد منهم في صنعة أو قراءة؛ فليجعله كالمرأة الأجنبيَّة؛ بغضِّ بصره عنه، ويجافي عنه بدنه وقلبه؛ كي يسلم ولا أمن من سلامته في جميع الأمور، اللَّهمَّ إلَّا أن يرزق نوراً باطناً وشهوة خامدة، ويرزق رحمة فيرحمه كما يرحم الأب ولده، ويعامله بتلك المعاملة، فربَّما يسلم إن شاء الله تعالى.

وأقيموا حقوق الله تعالى في الزَّوجة والرَّفيق والأستاذ، أمَّا الزَّوجة؛ فحقُّها معلوم في الشَّريعة من النَّفقة الواجبة والكسوة الواجبة، والتَّحصين لها عند إرادتها للمعاشرة، وحسن الخلق معها، وتأديبها وتعليمها أمر دينها بالرِّفق والتَّلطُّف، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾(١)، فلا يسامحها الرَّجل بترك الصَّلاة أصلاً ولا بترك الغسل من الجنابة ولا بالغيبة والنَّميمة ومعاشرة النِّساء في الأعراس المكروهة. . . . وغيرها، فيعلِّمها ويؤدِّبها، ويدخل عليها من الوجه الَّذي يعلم أنَّها تنفعل به، ويستعمل مع التَّأديب معها مكارم الأخلاق والنَّفقة بالمعروف؛ فإنَّ ذلك وسيلة إلى قبول الحقِّ منه، ويجتنب سوء الخلق معها ومع غيرها.

وأمَّا الرَّفيق؛ فحقوقه النَّصيحة والشَّفقة والإشارة، والمداراة وترك البغي في صحبته بالقول والفعل، وترك الحسد له، ومحبَّة الزِّيادة والرِّفعة له في الدُّنيا والآخرة، وستر عيوبه، وترك إفشائها وحفظه فيها، فإذا قدر وقوع الفرقة بينهما لعدم الملائمة فلا يذكر عيباً من عيوبه، وليدع له، وليرح خاطره من الاهتمام بسوء معاشرته.

وأمَّا حقوق الأستاذ؛ فتعظيمه والمهابة منه، وقبول نصحه، والتَّأدُّب بين

(١) سُورة التحريم: الآية ٦.

يديه في القول والمنطق، وترك الاستبداد بالقول والفعل معه والصُّدور عن رأيه، وترك تعلُّق القلب به دون [أ/ ٢٧٧] الله تعالى، وليكن القلب متعلِّقاً بالله في صحبته، ويرى النَّفع الواصل إليه من منَّة الله وتسخيره له.

وفي الجملة؛ فحقوق الرُّبوبيَّة معلومة، لا تستعمل مع غير الرَّبِّ تعالى، وحقوق الرِّسالة معلومة لا تستعمل مع غير الرسول ﷺ، وحقوق المشيخة معلومة؛ فحقوق الرُّبوبيَّة العبادة بالحبِّ والتَّعظيم، والانقياد للأمر والنَّهي، والاستناد إليه في القدر والتَّفويض في الرِّزق والخوف من المكر والسُّقوط عنده، فلا يعامل بذلك غير الله تعالى.

وأمَّا حقوق الرِّسالة؛ فالتَّعظيم والمحبَّة، وقبول جميع ما جاء به من عند الله وعدم الحرج وضيق الصَّدر في أحكامه؛ فلا يعامل بذلك غير الرَّسول ﷺ، إلَّا المحبَّة والتَّعظيم؛ فإنَّ محبَّة المؤمنين وتعظيمهم لها مرتبة بحسبهم كما أن محبَّة الرَّسول ﷺ وتعظيمه لها مرتبة بحسبها.

وأمَّا حقوق الأستاذين؛ فإكرامهم واحترامهم وامتثال مراسيمهم والسُّؤال عمَّا يشكل عليهم من أقوالهم وأفعالهم، خصوصاً إذا كان يظهر في الظَّاهر من كلامهم عدم الصَّواب؛ فلا بدَّ من استكشاف ذلك منه بألطف القول وأحسنه على صورة السُّؤال، وإن كتم ذلك؛ بقي عقدة في القلب، ربَّما بسبب لك يظهر سوء أدب منه، ومع ذلك فلا يعلِّق المريد قلبه بهم دون الله تعالى، ويراهم من منَّة الله عليه، ولا يستند بسرِّه إلَّا إلى ربِّه تعالى.

وأوصيكم بالصَّلاة ورعاية حدودها وأحكامها الظَّاهرة، ورعاية الإخلاص فيها، ووجود القلب بالخشوع والخضوع في هيئاتها الباطنة؛ فميزان حال العبد صلاته؛ فمن كان ذا معرفة، أو خوف، أو حبٍّ، أو وجد، أو تعظيم، فإنَّه يظهر في الصَّلاة؛ فهي محكُّ أهل الأحوال، ومن كان في صلاته غافلاً [فلا] نصيب له من الحال الصحيح المحمدي، يقال: للأولياء محك يعرفون

به، فإنَّهم يعرفون في الأمر والنَّهي ببذل النَّفوس وطرحها فيه مع ما يجدونه من عظم المؤنة والمشقَّة، ويعرفون في أوقاتهجوم البلاء الَّذي لا يطاق، فلا يغلب على قلوبهم من هذه الحال إلَّا الله تعالى، ويعرفون في أوقات الصَّلاة؛ فلا يغلب عليهم غير الله، بل ربَّما غابوا به عمَّا سواه.

وأوصيكم أن تجعلوا همَّكم كلَّه في شيئين: إقامة حقِّ الله، والوصول إلى الله.

أمَّا إقامة حقِّه؛ فحدُّه موجود في الكتاب والسُّنَّة من حدود الأمر والنَّهي؛ فليكن همُّ أحدكم أن يقوم بما أمر الله به، ويجتنب عمَّا نهاه، لا يستريح ولا يسكن إلى غير ذلك.

الهمّ الثَّاني: طلب معرفة الله والقرب [٢٧٧/ ب] منه والوصول إليه، أمَّا معرفة الله تعالى؛ فالطَّريق إليها الوقوف على النُّصوص في الكتاب والسُّنَّة الواردة في معارف الرَّبِّ تعالى؛ فمنها أنَّه سبحانه فوق عرشه وفوق جميع الكائنات، بائن من خلقه، دلَّ على ذلك النُّصوص الواردة في الفوقيَّة؛ فمنها قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾(١)، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾(٢)، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾(٣)، ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾(٤)، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾(٥)؛ أي: على السَّماء، كما قال: «**يسيحون في الأرض**»(٦)؛ أي: على الأرض... وغير ذلك من النُّصوص، وفي الحديث حديث الجارية الَّتي

---

(١) سُورة طه: الآية ٥.
(٢) سُورة النحل: الآية ٥٠.
(٣) سُورة فاطر: الآية ١٠.
(٤) سُورة الأنعام: الآية ١٨.
(٥) سُورة الملك: الآية ١٦.
(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٩٦٧٠).

قال لها ﷺ: «**أين الله؟**»، فقالت: في السَّماء[١]، وإنَّ الله كتب كتاباً؛ **فهو عنده فوق عرشه**[٢]، وحديث الأوعال تحت العرش، ثم قوله ﷺ: والعرش فوق ذلك، والله فوق عرشه[٣]، وقوله: «**ربَّنا الله الَّذي في السَّماء تقدَّس اسمك**»[٤] إلى غير ذلك.

فإذا عرفتم ربَّكم سبحانه تعالى بالفوقيَّة اللَّائقة به؛ فقد وقعتم على وجهة المقصود، وعند ذلك يصيب كلُّ عبد من ربِّه، يقع غالباً بحسب معاملته له.

ويختلفون في ذلك، فمن النَّاس لمَّا عرف ربَّه بالفوقيَّة استعمل معه المهابة والحياء والتَّعظيم، ومنهم من لمَّا عرف ربَّه؛ اشتغل بعبادته يسعى إليه ويطلب القرب منه بكثرة الرُّكوع والسُّجود.

ومنهم من اشتغل عند معرفته بالحجِّ يقصد الحجَّ كلَّ عام، ويصبر على مشاقِّ السَّفر الطَّويل البعيد، وعلى جوعه وعطشه ابتغاء لوجهه الكريم.

ومنهم من اشتغل عند معرفته بالنَّفع المتعدِّي من تعلُّم العلم ونشره؛ ليقيم به دين الله، يحتمل أذى العالم في الله ويفيدهم ما يسعدهم عند الله ابتغاء لوجهه الكريم.

ومنهم من اشتغل عند معرفته بإخراج ما سواه من قلبه وطهر قلبه مما سواه ولم ير قلبه يناسب شيئاً غيره وغير نوه ومعرفته، فإذا انتبه من النوم ينظر إلى قلبه فيحصله ثمَّ يرفعه إلى ربِّه، فيعلقه به ويغار أن يدخل قلبه شيئاً غير محبوبه من الأفكار والوساوس، لا يملُّ من ذلك ولا يتحرَّك إلَّا فيما أمره به سيِّده، وإذا خلا فقلبه خالٍ عن كلِّ فكر سوى مولاه؛ فهذا عامَّة شغله في إقامة حقوق

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

ربِّه في الظَّاهر، ورعاية قلبه أن يدخل فيه غير مطلوبة، وهذا طريق جمع من الصُّوفيَّة، فمن رزقه الله تعالى المعرفة منكم فليتخيَّر إلى ربَّه أحسن الطُّرق وأحلاها في قلبه من هذه الطُّرق أو غيرها، ويعكف على ربِّه بالمعاملة والإخلاص حتَّى يأتيه اليقين، وهذا آخر ما تيسَّر والحمد لله [٢٧٨/ أ].

نصيحة عهدها الشَّيخ إلى إخوانه

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هذا ما عهده أحمد بن إبراهيم الخزاميُّ الواسطيُّ إلى من يحبُّه في الله ﷻ من أهل الطَّلب والإرادة، وهي نصيحة بذلها لهم الله ﷻ نصحاً.

من أحبَّ لإخوانه ما يحبُّه لنفسه فمن تلقَّاها منهم بالقبول، وكسي ملابسها؛ رجي له من الله ﷻ الدَّرجات العالية في الدُّنيا والآخرة والقرب من مولاه الكريم، فيكون قلبه من أقرب القلوب إلى الله تعالى وأحبِّها لديه.

ويرجى أن ينظر الله إليه بعين المحبَّة والوداد والخصوصيَّة والتَّولِّي، فيتولاه بحسن تدبيره ولا يكله إلى غيره، ويصطنعه ويتَّخذه وليّاً من أوليائه ويرزقه نصيباً من المحبَّة والخلَّة الإبراهيميَّة المحمَّديَّة صلوات الله عليهما وعلى جميع الأنبياء، ويرجى لمن تلقَّاها بالقبول أن يكشف الله ﷻ عن قلبه الحجاب؛ حتَّى يرى جلاله وجماله وكبرياءه وعظمته؛ فيعبده كأنَّه يراه، والله الموفِّق لما يقرِّب منه ولما يوجب محبَّته ورضاه.

الحمد لله بجميع المحامد، حمداً يليق بكبريائه ويبلغ رضاه، وصلواته على سيدنا محمد الذي جعله واسطة بينه وبين من أحبه واجتباه.

وبعد: فأوَّل ما أنصحك به أيُّها الأخ العزيز أن تهتمَّ بأمرين اهتماماً شديداً وتجعلهما من دأبك وشأنك، ولا تترك غيرهما من الهموم يطرق قلبك.

فإن وفِّقت لذلك؛ فقد فتح لك مقدِّمات إلَّا مراد مقدِّمات الأمور والإهتمام بها.

أوَّلها: الاهتمام برضا الحقِّ ﷻ في سائر مساعيك الظَّاهرة والباطنة؛ فيندرج في ذلك جميع الخيرات من التَّوبة والمحاسبة ورعاية البصر والسَّمع

وإتقان الأمر في اتِّباعه وإتقان النَّهي في اجتنابه والصَّبر على أقداره وحرسة القلب من دبيب الخواطر المكروهة، الَّتي تسخط الرَّبَّ ﷻ.

ويحملك على ذلك كلام ربِّك ﷻ لتعمل بمقتضاه، وعلى الاستماع إلى سنَّة رسوله ﷺ وفهمها؛ لتعمل بمقتضاها؛ إذ لا تنال رضا الحقِّ تعالى إلَّا باكتساب ملابس أعمال الكتاب والسُّنَّة.

ويحملك ذلك على استكشاف ما استبهم من أمور دينك عليك أو سؤال العلماء عن ذلك.

الثَّاني: الاهتمام بطلب الحقِّ ﷻ ومحبَّته؛ بحيث يسكن طلبه ومحبَّته منك في أعماق أقاصي العروق [ب/ ٢٧٨] والمفاصل، فتتعوَّض بمحبَّته عن كلِّ حبيب، ويصبح فؤادك خالياً من سواه، مشغوفاً بوجود ذكره الصَّافي، متغذِّياً به عمَّا سواه من الأذكار.

فإن رزقك الله ﷻ هذين الاهتمامين، واستولى الهمَّان على قلبك، وصار لك بهما شغل شاغل عمَّا سواهما من الهموم؛ فأنت من أهل هذه الوصيَّة، وإلَّا فلست من أهلها، فأعرض عنها فليست من شغلك، وقم فيما أقمت فيه من السَّعايات والاكتساب والالتفات، معظِّماً لأمر الله ﷻ ونهيه.

واعلم أنَّ الخطاب في هذه النَّصيحة ليس لك، فاشتغل بوظيفة وقتك، وبما يغنيك من الاكتساب الدُّنياويَّة، أو العلميَّة، أو مصالح العيال، ومتى تراميت إلى تعاطي أمر لم تلحق له؛ ضيَّعت مصلحتك، وأخطأت سبيلك.

ومتى استولى على قلبك هذان الهمَّان؛ فأنت المراد بالنَّصيحة، فعليك حينئذ أن تسافر ثلاثة أسفار: سفران هما من سعايتك وكسبك يتداركك الحقُّ فيهما بفضله، فيكون الحاصل منهما مركَّباً من سعاية وموهبة، والسَّفر الثَّالث هو من محض المنَّة والموهبة، لا كسب لك فيه.

فالسَّفر الأوَّل: هو أن تسافر إلى طلب من أحببته، وبثَّ بحبِّه مهموماً،

فكثيراً ممَّن يحبُّ شيئاً ولا يدري ما هو، فإذا عرفته فسافر إليه بعد السَّفر إلى معرفته، ثمَّ يبقى السَّفر الثَّالث إلى القرب الخاصِّ، ليس ذلك بيدك، إنَّما هو إلى من له الخلق والأمر.

وإنَّما يتمُّ السَّفر الأوَّل إلى معرفة الله ﷻ بمعرفة رسوله ﷺ من سيرته وسننه، والوقوف على معجزاته، وآياته، وبيِّناته، فلا يملُّ من سماعها، وإن كانت مسموعة؛ فإنَّه يزيدها رسوخاً، ويفتح لك من تكرارها فتوحاً إن شاء الله تعالى، ثمَّ اعرف ربَّك ﷻ بما تعرَّف إليك من صفاته السَّمعيَّة التَّوفيقيَّة، وأحصها بمسألة العلوِّ والفوقيَّة، واضبط شواهدها ودلائلها من الكتاب والسُّنَّة، وهي موجودة في كتب أصحابنا الحنابلة.

وقد نبَّه عليه الشَّيخ الإمام عبد القادر الجيليُّ الحنبليُّ ﷺ في كتاب «الغنية» بأوضح بيان، وكذلك شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري في قصيدته المنسوبة إليه، وفي كراريس علَّقتها توجد في أيدي الأصحاب، وأنت في ذلك منزِّهاً لربِّك ﷻ عن التَّجسيم والتَّشبيه ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته، وكذلك تجتنب التَّعطيل فلا تعطِّل وصفاً اتَّصف الرَّبُّ ﷻ به من الاستواء، والعلوِّ، والنُّزول، وصفة الوجه المقدَّس، واليدين، والقدم، وغير ذلك، أمرّ ذلك كما جاء غير متأوَّل ولا مشبَّه [٢٧٩/أ] وأثبت الصِّفات للموصوف سبحانه، كما يليق بعظمته وجلاله يسلم لك معتقدك عن الانحراف إن شاء الله تعالى.

فإذا عرفت نبيَّك ﷺ، وعرفت ربَّك سبحانه بالعلوِّ والفوقيَّة، كما يليق بعظمته وجلاله، واجعل العرش المجيد قبلة قلبك في الصَّلاة، والدُّعاء، والتَّوجُّه، كما تجعل الكعبة قبلة ظاهر، ثمَّ أقبل على قراءة القرآن كأنَّك تسمعه من متكلِّمه سبحانه من فوق عرشه، معتقداً أنَّه كلام الله تعالى بحروفه ومعانيه، وأنت تؤدِّي ما تكلَّم الله ﷻ به، غير مصغ إلى من يقول أنَّ الكلام عبارة، ففي

الحديث: «**إنَّ الله قرأ طه ويس قبل أن يخلق السَّماوات بألفي عام**»[(١)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[(٢)]، والمعاني لا توصف بكونها عربيَّة إنَّما يوصف الكلام بذلك، فاقرأ حينئذ القرآن كأنَّك تسمعه من الله ﷻ، واصبر على ذلك برهة من الزَّمان؛ لترسخ معرفة العزيز ﷻ في قلبك، وينكشف لك في التِّلاوة تجلِّيات صفاته من العظمة، والكبرياء، واللُّطف، والرَّحمة، وغير ذلك، وواظب على ذلك حتَّى يظهر شاهد المعرفة في قلبك ليلاً ونهاراً دائماً بل غيبة، كلَّما توجَّهت؛ وجدت شاهد المعرفة حاضراً معك، وهي ظهور حضرة الحقِّ ﷻ بلا مثل ولا كيف في سرك يصل إلى قلبك، شهود من الحضرة المقدَّسة، أشعة أنوار تكاد أن تخطف أنوار قلبك، فإذا وصلت إلى هذا الحال؛ فقد تمَّ سفرك الأوَّل، فنقول: الحمد لله على سلامتك في هذا السَّفر من أوعار سوء العقائد وحجبها، ومن فتن الشَّهوات المحرَّمة وحجبها، ولا يدوم هذا الشَّاهد لعبد عليه من الاعوجاج في دينه ذرَّة، ولا من يتعاطى كبيرة[(٣)]، أو يصرُّ على صغيرة، إنَّما هو حظ أهل الاستقامة مع الله ﷻ، فاعرف ذلك، واعمل به تفز إن شاء الله تعالى.

السَّفر الثَّاني: فإذا وصلت إلى هذا المنزل الشَّريف؛ فاعتمد ما هو الأولى بك، ولا تكن كمن وصل إلى هنا فتفرَّق في كثرة الأعمال، كالحجِّ، وخدمة النَّاس، واتِّباع الجنائز، فإنَّه يقول: وصلت فلماذا أقعد فارغاً، ولو عرف الوصول وماهيته؛ لشدَّ مئزره للسَّفر إلى الله ﷻ بعد السَّفر إلى معرفته، فهذه المعرفة فأين القرب من المعروف سبحانه؟

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٤٨٧٦) والبيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٢٤٥٠).
(٢) سُورة الزخرف: الآية ٣.
(٣) في النسخة: كثيرة.

فيستعمل مراقبة العبوديَّة بعد استيعاب القيام بالأمر، وما يمكن من دقائقه ولواحقه، واجتناب [٢٧٩/ب] النَّهي، والتَّوقِّي عن دقائقه ولطائفه، ففي النَّاس من يراقب علم الله ﷻ، أو نظره، أو وجوده، وليس ذلك الَّذي يقصده في هذا السَّفر، إنَّما يقصد مراقبة ربوبيَّته سبحانه، واستيلائه على مملكته، وقيامه عليها بالتَّدبير، بحيث لا يشذُّ عن ذلك شيء من الكائنات، فلا ترى في المملكة شيئاً لغيره ولا لنفسك، وإنَّ الحول والقوَّة له، وإنَّ روحك في قبضته، وسعاياتك بقدره، وإنَّه مالك النَّفع والضُّرَّ، يدبِّر الأمر، فهو الحاكم وأنت المحكوم، هو المدبِّر المختار.

فكن بلا حول، ولا قوَّة، ولا تدبير، ولا قوَّة وراقب أحكامه الجارية عليك، وقم بعبوديَّاتها، فعبوديَّة الطَّاعة والنِّعمة: الشُّكر، وعبوديَّة المعصية: الاستغفار، وعبوديَّة البليَّة: الرِّضا والصَّبر والدُّعاء بلا تدبير ولا اختيار منك، إلَّا ما أمرت بتدبيره واختاره، فتدبِّره وتختاره بأمر الله ناظراً إلى تصرُّف الحقِّ في تحريكك فيما أمرك به، فتشهد ذلك نعمة منه.

وهذه هي مراقبة العارفين، وهي مراقبة الرُّبوبيَّة، وكونك عبداً في شاهد هذه الرُّبوبيَّة يقوم بك قيُّوم له الخلق والأمر، وليس لك من الأمر شيء، فلا يبقى لك في هذه المراقبة وجود مستقلٌّ، فإنَّك تشهده سبحانه قيُّوماً وأنت مقوَّماً بك، فتبقى بذلك عبداً لا تدبير ولا اختيار إلَّا ما أمرت بتدبيره واختياره.

وثمرة هذه المراقبة الشَّريفة في هذا السَّفر الشَّريف أن يغلب وجود الحقِّ ﷻ على وجودك، وإرادته على إرادتك، وتدبيره على تدبيرك، وتبقى عبداً مأسوراً في قبضته لا تتحرَّك إلَّا بأمره الشَّرعيِّ وقوَّته القدريَّة الموافقة لأمره.

وهذه المراقبة الَّتي تؤدِّي في آخرها إلى فناء الحدث وبقاء القدم، إلى ذهاب ما لم يكن وبقاء من لم يزل، فتتعوَّض عن استعمال العبوديَّة مع ربِّك

ﷻ بشاهد نفسك في العبوديَّة، فتندرج العبوديَّة في ظهور آثار الرُّبوبيَّة اندراج اللَّيل في النَّهار، وذلك أكمل ما يكون من مراتب العبوديَّة وهداية القلوب إلى ذلك من الله ﷻ، فإن هداك إلى ذلك؛ فقد سلك بك طريق التَّوفيق، وهنا نكتة دقيقة، إن عقلت له؛ كنت من أفطن النَّاس.

هذا السَّفر الثَّاني هو من تتمَّات السَفر الأوَّل، وذلك أنَّ السَّفر الأوَّل أوجب المعرفة بالله وبأمر الله، فقام العبد بأمر الله على شاهد معرفة الله، ولم يتحقَّق بأفعال الله؛ لأنَّه محجوب عن ذلك بأفعال [٢٨٠/أ] نفسه، لم يظهر له علم تدبير الله ﷻ وقيامه على مخلوقاته يدبِّر الأمر فيهم، فانكشف عن القلب في السَّفر الأوَّل حجاب النَّكرة بالمعرفة، وبقي حجاب رؤية العبد نفسه، فيرجي أن ينكشف في السَّفر الثَّاني ذلك الحجاب بالعبوديَّة، فتظهر فيه أحكام الرُّبوبيَّة، وفي ذلك الفلاح لمن رزق الفلاح، فلا تبرح في هذا السَّفر الثَّاني ترى فيه نفسك حتَّى تقه في تربيه الحقِّ ﷻ، وعلامة وقوعك في تربيته، وتدارك الحقِّ ﷻ لك أنَّك إذا توجَهت إلى ربِّك بالعبوديَّة؛ تجد قلبك خالياً فارغاً عن كلِّ شيء وعن العبوديَّة أيضاً، فلا يطاوعك قلبك على عمل من الأعمال؛ لخلوِّه، فذلك علامة خروج القلب عن تصُّرفك وكونه صار في تصرُّف الحقِ يعمل به ما يشاء، ثمَّ للقلب بعد ذلك أحوال متنوِّعة، منها هذا الخلق والفراغ المذكور، ومنه أن يكشف للقلب صفة الإكرام، فتتجلَّى صفة الإكرام على القلب فيلتهب القلب شعاع نور، أو صفة الوجه المقدَّس عن الكيف والمثل، وذلك أوَّل عين اليقين، والمعرفة الأولى والعبوديَّة به من علم اليقين، وعين اليقين أقسام: منه ما يتجلَّى على القلوب من الصِّفات، ومنه ما يتجلَّى على الأرواح من الحقيقة، وعلامة التَّجلِّي على الأرواح أن يجد الإنسان الشُّهود بجمعيَّة لا يكون موقوفاً على القلب، بل تمتلأ الأعضاء والمفاصل من أنواره.

فالغرُّ يتوهَّم حينئذ مذهب الحلول، وليس الأمر كذلك، والفوقيَّة لم يذهب حكمها إنَّما امتلأ وجود العبد من أنوارها، فتوهَّم أنَّه فيها، وإنَّما هو من نورها، فمتى وصل العبد إلى هذا المقام؛ فقد تمَّ سفره الثَّاني، فيقال له: الحمد لله على سلامتك في هذا السَّفر من آلام التَّدبير، والاختيار، ورؤية حولك وقوَّتك.

والحمد لله الَّذي أراحك من تدبيرك وتربيتك لنفسك، وأوقعك في تدبيره وتربيته لك، لقد أوقعك في الرَّاحة العظمى، ونجوت من الكدِّ والعناء.

وعلامة كمال سفره الثَّاني أنَّه إذا ظهرت صفات نفسه؛ قبض عليه، فيجد ألم القبض في قلبه، وذلك أنَّ النَّفس قد بقي منها شعبة، يظهر حكم الشُّعبة في بعض الأوقات فتهذَّب بالقبض، فيعمل القبض فيها ما لا يعمله الجوع والرِّياضة، وذلك من علامات وقوع العبد في تربية الحقِّ عزَّ اسمه، وتتناوب عليه تجلِّيات الصِّفات على قلبه وتجلِّي الحقيقة على روحه، فهذا من علامات كمال سفره الثَّاني.

السَّفر الثَّالث ليس إلى العبد؛ لأنَّه حيث وقع في تربية الحقِّ ﷻ إن كان قد قسم له سفراً ثالثاً إلى قربه الخاص؛ أثبت لقلبه جناحاً يطير بالشَّوق [٢٨٠/ب] إلى قربه، فيجاوز قلبه الملكوت بعروجه، ويكاشف بصريح الحقِّ، وتحظى بالمكالمة والتَّعريفات الخفيَّة، حقُّ اليقين في روح نؤمن بهذا السَّفر الثَّالث، وهو أن يكون في أمَّة محمَّد ﷺ من حصل لروحه عروج، كما كان للنَّبيِّ ﷺ بالجسم الظَّاهر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فعليك أيُّها الأخ المنصوح بلزوم الأمر من أوَّله، وإتقانه سفراً سفراً، ولا تتطاول إلى أمر قبل أن تحكم ما قبله، فمن تطاول إلى الطَّيران من الطُّيور قبل أن يكمل جناحه، وتحرَّك من وكره؛ أكلته سباع الأرض، كذلك من تطاول

إلى الثَّمرات قبل عرس الأشجار؛ صار شجرة للشَّيطان وأكله له.

فاسلك رحمك الله منزلاً منزلاً ومقاماً مقاماً، تبلغ انقسم لك، وإلَّا تموت في الطَّريق، فيكون أجرك على الله إن شاء الله تعالى آخر النَّصيحة، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

وصيَّةٌ أوصَى بها الشَّيخ عماد الدِّين رحمة الله عليه، لبعض المبتدئين في الاشتغال بالعلم من أصحابه.

الحمد لله وليِّ الحمد ومستحقه، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

فالعبد ينبغي أن يطلب العلم لله، يريد به وجه الله، ويهدي به عباد الله إلى دينه الَّذي به تحصل السَّعادة لمن استعمله، وتحلُّ الشَّقاوة بمن أعرض عنه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[1]، ولا يطلب العلم؛ لينال به رئاسة بين النَّاس، ولا عرضاً من أعراض الدُّنيا، بل يريده لوجه الله تعالى خالصاً، يعبد الله تعالى بتعلُّمه، وتكراره، ودراسته، ومباحثته، ويكون ناظراً إلى الله تعالى في تعلُّمه لا ينظر إلى غيره فيه، فبذلك ينال إن شاء الله تعالى بركة العلم ونوره وإشراقه، ويجد قلبه فيه، وإن أراد العبد أن يصير من العلماء النُّقد الرَّاسخين الَّذين هم خلفاء الرُّسل، ودعاة الخلق وهداتهم الَّذين هم الأعلام والأئمَّة الكرام؛ فليعتمد في اشتغاله في العلم أموراً شتَّى، متى اعتمدها العبد المشتغل؛ رجي له النُّفوذ إلى مراتب الصِّدِّيقين الَّذين بهم يكون صلاح الدُّنيا والدِّين إن شاء الله تعالى.

أوَّلها: أنَّه إذا كرَّر درسه وتلقينه؛ فليجعل نفسه كأنَه بين يدي الله تعالى، يتعلَّم ما أمره به من العلم النَّافع، وكان الحقُّ تعالى فوق عرشه ناظر إليه يرى مكانه، ويسمع تكراره ودراسته، فيهابه ويخافه ويتَّقيه، ومتى صار ذلك عاد له، يرجي إن شاء الله تعالى [٢٨١/أ] أن يعمر قلبه ويتنوَّر ويشرق، ويفتح له

---

(١) سُورة طه: الآية ١٢٤.

حقائق العلوم ودقائق الفهوم الَّتي لا يوصل إليها بالفكر الطَّويل، ويصل إن شاء الله إلى روح العلم، ومتى وصل إلى روح العلم صار راسخاً بمشيئة الله تعالى وتوفيقه، وبذلك يمتزج علمه بذوق المقرَّبين والعارفين، فيكون علمه رطباً لا يبوسة فيه، فإنَّ صاحب العلم اليابس يكون قلبه قاسياً غليظاً لا هياً غافلاً، وصاحب العلم الرَّطب يكون قلبه خاشعاً محبًّاً لله تعالى خائفاً منه مراقباً له زاهداً في الدُّنيا راغباً في الآخرة، وهذه علامات اتِّصال القلوب بالله تعالى، وهو مفتاح قربه وعلامة أوليائه.

الخصلة الثَّانية: ألَّا يخالط من النَّاس خصوصاً من الفقهاء من لا يظهر عليه سيماء الخير والصَّلاح، ولا تلوح عليه إمارات التَّقوى، والخشية، والمراقبة، مثل من يمزح، ويضحك، ويلهو، ويلعب، فإنَّ صحبة هؤلاء ومعرفتهم تطفئ نور العلم، وتكدِّر القلب وتشوِّشه، وتبقي عليه كسفه وظلمه، بل لا يصحب إلَّا أهل الوقار والفضائل التَّامَّة، فإنَّ بصحبتهم تنمو العقول، وتعلو الهمم، وتقوى مادة النُّبل والسِّيادة والرفعة عند الله وعند عباده، وما فسد من فسد إلَّا بقرناء السُّوء، وما صلح من صلح إلَّا بقرناء الخير والصَّلاح.

الخصلة الثَّالثة: أن يحفظ لسانه، فلا يتكلَّم في غير فائدة دينيَّة أو دنيويَّة، فمتى استقام اللِّسان؛ استقام القلب وصلح، وحصلت الجمعيَّة، والجمعيَّة بها يحصل القلب، وبها يمكن الفهم والتَّعلُّم، ومتى صاحب الجمعيَّة؛ ضلع القلب، وتعذَّر التَّعلُّم والتَّحصيل، فعليكم بتحصيل الجمعيَّة تصلوا بها إن شاء الله تعالى إلى كلِّ خير في الدُّنيا والآخرة.

الخصلة الرَّابعة: حفظ البصر عن النَّظر إلى المرأة الأجنبيَّة والأمرد الجميل، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾[1]، فكلُّ من

---

(١) سُورة النور: الآية ٣٠.

حفظ نظره عن محارم الله تعالى في اشتغاله بالعلم يرجى أن يكون من الأولياء الصِّدِّيقين الأئمَّة الرَّاسخين الَّذين يشار إليهم بالأصابع، ويكونون شيوخ أهل الأرض، فالله الله في حفظ البصر يحبُّكم الله وتنفذوا إلى حقائق العلوم والفهوم، ويهدي الله بكم عباده إن شاء الله، وبحفظ العين تحصل الجمعيَّة، وتتوفَّر الهمَّة على تحصيل العلم والمراقبة اللَّذين هما أصلا الخير الظَّاهر والباطن إن شاء الله تعالى.

الخصلة الخامسة: الحضور في الصَّلاة، فإنَّ المشتغل بالعلم إذا صلى [٢٨١/ب] بالحضور والمراقبة بين يدي الله تعالى في صلاته أشرق قلبه، واتَّصل قلبه بربِّه، وتفسير الحضور أن يفهم ما يقرأ في الصَّلاة، وما يناجي به ربَّه، فلا يصلِّي صلاة الغافلين الَّذين تشتغل قلوبهم بالوساوس عن فهم ما يناجون به ربَّهم، وكلُّ من صلَّى بالحضور والفهم بين يدي الله تعالى في صلاته الخمس يرجي أن يشرق قلبه، وينفذ في علمه، ويصير على وجهه بهجة التَّقوى ونور المراقبة، ويكون بذلك من عباد الله الصَّالحين المقرَّبين إن شاء الله.

الخصلة السَّادسة: ألَّا يأكل الطَّعام على الشِّبع، بل لا يزال خفيف ليس للطَّعام على قلبه ثقل، فبذلك يصفو قلبه، وتتوفَّر جمعيَّته، وتدوم صحَّة مزاج جسمه الظَّاهر وصحَّة مزاج قلبه الباطن، وبالله المستعان، وبه التَّوفيق، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

وصيَّة أوصى بها الشَّيخ عماد الدِّين الواسطيُّ بعض أصحابه من القضاة الحاكمين ببعض بلاد الشَّام رحمهم الله.

الحمد لله حقَّ حمده حمداً يوافي نعمه، ويوافق رضاه، وصلواته على سيِّدنا محمَّد النَّبيِّ الأمِّيِّ وآله وصحبه أهل الموالاة.

وبعد: فهذه أحرف علقت بعد استخارة الله تعالى، وسؤال التَّسديد منه امتثالاً للإشارة الكريمة؛ إذ لم أرى نفسي للوصيَّة أهلاً، وأهل العلم هم الَّذين يطلب منهم الوصايا والحكم والمواعظ، لكن لم أر من الامتثال بدّاً رجاء للنَّفع، ورحمة تعمُّنا من كرم الله ﷻ.

فأوَّل الوصايا: هو أن نبدأ بما أوصى الله ﷻ به عباده والَّذين أوتوا الكتاب من قبلهم، كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾(١).

والتَّقوى أمر عام يشتمل على القيام بجميع ما أمر الله ﷻ من الأوامر، واجتناب جميع ما نهى الله ﷻ من المناهي والمآثم، وجملته أن لا يدع المتَّقي عليه للعلم عليه مطالبة في ظاهره ولا باطنه، فيلتزم العالم أحكام علمه، وهو ما دوَّنه العلماء في كتب السُّنن والفقه، ولا يقدر أن يقوم بعلم بحقِّ التَّقوى إلَّا العلماء، وإلَّا فكيف يتَّقي المتَّقي، وهو لا يدري ما يتَّقي.

فأوَّل الوصيَّة هو أن يحكم العبد عقيدته، ويضبط شواهدها من الكتاب والسُّنَّة، فإنَّ العقائد أصول [٢٨٢/أ] المشاهد، والمشاهد أصول المقاعد، ومنها تنشأ الأعمال الصَّالحة المرفوعة إلى الله ﷻ، كما قال عزَّ من قائل:

---

(١) سورة النساء: الآية ١٣١.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾(١)

وجملة ما يتعلَّق بالعقيدة أن يؤمن العبد بجميع ما ورد في الكتاب والسُّنَّة من أمور الآخرة، ومن دلائل التَّوحيد، ومعاني الصِّفات بلا تأويل، فأهل السُّنَّة يسلكون فيها بين المتأوِّلة الَّذين يحرِّفون الكلم عن مواضعه، وبين الممثِّلة الَّذين يشبِّهون الله ﷻ بخلقه، تعالى الله ﷻ عن ذلك علوًّاً كبيراً.

فأهل السُّنَّة لا يعطِّلون، ولا يحرِّفون، ولا يشبِّهون، بل يجرونها على الظَّاهر اللَّائق بجلال الله ﷻ وعظمته، لا على الظَّاهر اللَّائق بالمخلوقات، وبين الظَّاهر الأوَّل والظَّاهر الثَّاني بونٌ يعرفه العلماء، ثمَّ لا يشكُّ العبد أنَّ هذه الآيات والأخبار الواردة في الصِّفات المقدَّسة من صفة العلوِّ، والاستواء، والنُّزول، واليدين، والتَّعجُّب، والضَّحك، والفرح، والوجه الكريم، والغضب، والرِّضا، والرَّحمة، وغير ذلك ممَّا ثبت في الكتاب والسُّنَّة، نصوصها وشواهدها، إنَّما أنزلها الله ﷻ على عبده ورسوله محمَّد ﷺ يتعرَّف إليه وإلى أمَّته؛ ليعرفوا بها وجوده، وجلاله، وعظمته، وقدرته، وصفاته؛ إذ بالصفات يثبت وجود الذَّات وبها يعرف، فأنزلها ﷻ على نبيِّه ﷺ، وكرَّر ذكرها في مواضع متعدِّد تأكيداً لها، وأعلن بها رسول الله ﷺ بين أصحابه في مجالسه الكريمة، وكان يحضر في مجالسه العالم، والذَّكي، والجاهل، والبليد، والأعرابي الجافي، وكان رسول الله ﷺ مع ذلك يعلم بذكرها مثل قوله ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾(٢)، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾(٣)، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾(٤)،

---

(١) سُورة فاطر: الآية ١٠.
(٢) سُورة طه: الآية ٥.
(٣) سُورة النحل: الآية ٥٠.
(٤) سُورة فاطر: الآية ١٠.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾(١)، ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢﴾(٢).

ومثل قوله ﷺ للجارية: «**أين الله، قالت: في السَّماء، قال: من أنا، قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنَّها مؤمنة**»(٣)، وهو حديث معاوية بن الحكم السَّلميِّ، رواه مسلم ومالك في موطَّئه.

ومثل قوله ﷺ في دعائه: «**ربُّنا الَّذي في السَّماء تقدَّس اسمك، أمرك في السَّماء والأرض، كما رحمتك في السَّماء، اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، أنت ربُّ الطَّيِّبين، أنزل رحمة من رحمتك، وشفاء من شفاءك على الوجع فيبرأ**»(٤)، وهو حديث [٢٨٣/أ] أبي الدَّرداء، أخرجه أبو داود. وقوله: في السَّماء؛ أي: على السَّماء، كقوله تعالى: ﴿يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(٥)؛ أي: على الأرض، وكقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾(٦)؛ أي: على جذوع النَّخل.

وقوله ﷺ لسعد بن معاذ: «**لقد حكمت حكماً حكم الله به من فوق سبعة أرقعة**»(٧)، رواه ابن إسحاق وغيره، ومثل قوله قوله ﷻ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ٢٧﴾(٨)، ومثل قوله ﷻ لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾(٩)، وقوله ﷺ: «**المقسطون على منابر من نور عن يمين الرَّحمن**»(١٠)،

---

(١) سُورة المعارج: الآية ٤.
(٢) سُورة الشعراء: الآية ١٩٢
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) سُورة المائدة: الآية ٢٦.
(٦) سُورة طه: الآية ٧١.
(٧) تقدم تخريجه
(٨) سُورة طه: الآية ٢٧.
(٩) سُورة ص: الآية ٧٥.
(١٠) رواه مسلم، رقم: (٤٨٢٥).

رواه مسلم، وقوله ﷺ: «**إنَّ الله لا ينام، ولا ينبغي أن ينام، يرفع القسط ويخفضه، يرفع إليه عمل اللَّيل قبل عمل النَّهار، وعمل النَّهار قبل عمل اللَّيل، حجابه النُّور أو النَّار، لو كشفه؛ لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[١]، رواه مسلم.

وغير ذلك من النُّصوص الَّتي لا يتَّسع هذا المكان لإيرادها، وهي مدوَّنة في الصَّحيح والسُّنن، كحديث: «**لله أشدُّ فرحاً بتوبة العبد من رجل كانت معه راحلته...**»[٢] الحديث، وكما جاء في الصَّحيح: «**ثمَّ يتجلَّى ضاحكاً**»[٣]، وحديث: «**ثمَّ يضع قدمه في النَّار**»، وفي لفظ البخاري: «**ثمَّ يضع رجله، فتقول: قط قط**»[٤]، وغير ذلك.

ومعلوم أنَّ الله ﷻ أمر نبيَّه ﷺ بالبيان في قوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٥]، ومن المحال أن يكون لهذه الآيات والأخبار معان خفيَّة، لا يدلُّ عليها الظَّاهر اللَّائق بالله ﷻ؛ إذ لو كان كذلك، وقد أمره الله ﷻ بالبيان؛ لوجب عليه ﷺ أن يذكر للنَّاس في مجالسه ذلك، ويحذِّرهم من أن يعتقدوا موجبها الظَّاهر، فيقول: «**إيَّاكم أن تعتقدوا ظاهر ما أقوله من هذه الصِّفات، فإنَّ لهذه معان آخر**».

فلم ينقل عنه ﷺ ذلك في مدَّة عمره أصلاً، ولا ضبط لنقله عنه في ذلك كلمة واحدة تدلُّ على ذلك، ومن المحال أن تبقى الأمَّة محيَّرة في دينها وصفات ربِّها في عصر الصَّحابة والتَّابعين وتابعيهم حتَّى يظهر فلان في القرن

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٤٦٣).
(٢) رواه مسلم، رقم: (٧١٢٩).
(٣) رواه الدارقطني في الرؤية، رقم: (٣٦).
(٤) رواه البخاري، رقم: (٤٥٦٧) ومسلم، رقم: (٧٣٥٢).
(٥) سُورة النحل: الآية ٤٤.

الثَّالث، فيبيِّن للنَّاس ما نزل إليهم، حيث كانت محيَّرة، فيؤوِّل الاستواء بالاستيلاء، والنُّزول بنزول الأمر، واليدين بيدي النِّعمة والقدرة، والفرح بكذا، والتَّعجُّب بكذا.

فمن المحال أن يكون الرَّسول ﷺ قد حيَّر الأمَّة، وجاء هذا فبيَّن للنَّاس دينهم، بل تركهم رسول الله ﷺ على بيضاء نقيَّة، ليلها كنهارها، وعلَّمهم كلَّ شيء [٢٨٣/أ] حتَّى الخراءة، فكيف يعلِّمهم الأدنى ويترك أمور المعرفة الَّتي هي رأس الدِّين وعنوان اليقين مهملة، لا يبيِّن لهم فيها شيئاً حتَّى يظهر دجَّال فيقلب الحقائق، ويحرِّف الكلم عن مواضعه، كلَّا، بل بيَّن للنَّاس صفات أمر ربِّهم على ما هي عليه حقيقة، ونفى التَّمثيل والتَّشبيه عنه بقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾(١).

فأهل السُّنَّة يؤمنون بهذه الصِّفات، ويثبتون لله ﷻ حقائقها اللَّائقة به، وينفون عن جلاله الظُّنون الكاذبة، والتَّمثيل بخلقه، وأهل الفطنة يقطعون بأنَّ الصَّحابة ﷺ كانوا إذا سمعوا من نبيِّهم ﷺ في ربِّهم صفة يقع فيها الاشتراك بالاسم؛ كانوا يثبتونها لله ﷻ، كما يليق بعظمته لا كما يليق بالخلق، فإن قال القائل: فهذا الَّذي ذكرت يقتضي أن يجعل هذه الآيات والأخبار حقائق لا يتجوَّز في شيء منها، ولا يعرض عن معنى شيء منها، فقد أعرض عن معانيها قوم تصامموا عند إيرادها، وجعلوها من المتشابه الَّذي لا يعلم تأويله إلَّا الله، فينقلون هذه الآيات والأخبار وقلوبهم معرضة عن معانيها، وأسماعهم متصاممة عن الإصغاء إلى حقائقها، يكرهون إيرادها، ويحبُّون من يسكت عنها، ولو أمكنهم كشطها من المتون؛ فعلوا، تضطرب قلوبهم عند سماعها فراراً من حقائقها؛ فيقال: هذا جهل منهم بالحقائق، وذلك؛ لأنَّ الله ﷻ لم

(١) سُورة الشورى: الآية ١١.

ينزل هذه الصِّفات إلينا إلَّا لنؤمن بها، ولنعرف الموصوف بها، فنعرفه بأنَّه على العرش استوى، وبأنَّه موصوف بالوجه الكريم المذوي بالجلال والإكرام، وموصوف باليدين المبسوطتين، وموصوف بكذا وكذا، وموصوف بالنُّزول في الثُّلث الأخير وليلة النِّصف من شعبان ويوم عرفة، كما جاءت به النُّصوص.

فعرفناه سبحانه بهذه الصِّفات، وتأكَّدت معرفته في قلوبنا بها، فقويت بها قلوبنا، وأشرقت بها بصائرنا، وتوجَّهت إليه ﷻ قلوبنا في عبادته من الصَّلاة والذِّكر والتِّلاوة، فلماذا نفرُّ منها ومن معانيها؟ وما الموجب لانقباضنا عند ذكرها، والفرار منها؟، بل والله تنشرح قلوبنا عند ذكرها ونزداد بها بصيرة، وإيقاناً ومعرفة،ولا يلزم من إثباتها لها كما يليق بعظمة الرَّبِّ ﷻ، أن نشبهه بخلقه، والإثبات بحقائق الصِّفات مرتبة معلومة، والتَّشبيه مرتبة زائدة على الإثبات، ونسلك فيها طريقة السَّلف لا نبتدع شيئاً، بل نثبت ما أثبتوه،ونتجوَّز[٢٨٣/ ب] فيما تجوَّزوه، ونمرُّ ما أمروه.

فلا بدَّ من اعتقاد السُّنة، وهو ما وردت النّصوص به، ولا بدَّ مع ذلك من سلوك الطَّريقة في السُّنة، وهي طريقة السَّلف من الصَّحابة والتَّابعين وتابعتهم، فمن اتَّبع السُّنة ولم يسلك فيها الطَّرقة؛ ابتدع، وضلَّ عَن سواء السَّبيل، ومن أراد معرفة طريقة السَّلف في ذلك وحذوهم؛ فلينظر كتاب «التَّوحيد» للإمام محمَّد بن إسحاق بن خزيمة وكتاب «النَّقض» للإمام عثمان بن سعيد الدَّارميُّ، فيعرف بهذين الكتابين أنَّ ذلك القرن والَّذين قبلهم كانوا على ما أشار إليه في كتابيهما، والله أعلم.

فصل

فإذا تقرَّرت العقيدة في القلب، وانشرح لها الصَّدر؛ فحينئذ يسلك العبد طريقة الاتِّباع، وأوَّل ذلك أن يجعل رسول الله ﷺ شيخاً وإماماً ومؤدِّباً، كما جعله الله ﷻ نبيَّاً ورسولاً، فتتعلَّق به، كما تتعلَّق الفقراء في زماننا بشيوخهم، فتراهم عارفين بأيَّامهم وحركاتهم وآدابهم.

فكذلك من يسلك طريقة الاتِّباع؛ يتعيَّن عليه الوقوف على سيرة النَّبيِّ ﷺ، وشمائله، ومعجزاته، وآياته، ووقائعه، وغزواته، وآدابه، وأخلاقه، وقد وصف العلماء في ذلك كتباً طويلة ومختصرة، وفي الصَّحيح من ذلك ما يغني ويكفي، لكن المسانيد والسُّنن والمغازي توضح المجملات، وتوِّل المختصرات، فليطالع العبد من ذلك ما أمكنه إلى أن ترسخ معالم النُّبوَّة في قلبه، ويصير عارفاً بنبيِّه ﷺ وشيخه وبحركاته وسكناته، ثمَّ يقو باتِّباعه على قدر إمكانه، ويرجو بذلك أن تفيض أنوار الشَّيخ المتبوع على قلب المريد المتَّبع، ويرزق بذلك من الخير قسطاً وافراً، لا يحصل بالتَّقيُّد بشيخ من مشايخ الزَّمان يدعو إلى طريقة نفسه لا إلى طريقة نبيِّه ﷺ، ويرجو أن يفتح للعبد بذلك فهم القرآن عن الله ﷻ في الصَّلاة وغيرها، فيشهد العبد في التِّلاوة كأن الرَّبُّ ﷻ يخاطب نبيِّه ﷺ بالجمل والتَّفاصيل، وهذا أعظم فائدة تحصل من بركات الاتِّباع، بحيث يفتح القلب؛ لفهم القرآن وشهود الإيمان فيه بنور اليقين.

فصل

ربَّما ترد على الحاكم أمور يشتبه عليه الحكم فيها فيلحقه فيها تحيّر، فليفتقر العبد إلى الله تعالى عند ذلك حقيقة الافتقار، ويديم اللجوء إليه فيرجو أن يكشف لك الظُّلمات، ويتنزَّل الهدى من ربِّ البريَّات.

فصل

وإذا اجتمع على القلب في القضاء بين النَّاس [٢٨٤/أ] آثار من كلامهم وخصوماتهم؛ فليجتهد العبد على الحضور في الصَّلاة، وليمط عن قلبه تلك الآثار، وإن عسر عليه ذلك؛ فطريقه أوّلاً الاستعانة بالله، ثمَّ إيراد معاني التَّوجُّه، والفاتحة والسُّورة على محلِّ سماع القلب، فيكون ذلك جلاء لتلك الآثار بعون الله تعالى.

وهذه السُّنن الرَّواتب قبل الفريضة من بعض حكم الله تعالى فيها هنا، وهو أنَّ العبد إذا صلَّى السُّنَّة بالحضور وإلقاء السَّمع؛ يتجلَّى عن قلبه الكدورات، فيقوم العبد إلى الفريضة وقلبه صاف خال من الكدر؛ لمناجاة ربِّه ﷻ، وممَّا يعين على جلاء القلب عند كدره توجُّه القلب إلى الله ﷻ من فوق العرش والأكوان، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾[1] فهو العليُّ الأعلى فوق الكائنات، فيرجي بدوام التَّوجُّه إلى من فوق العرش ﷻ في الصَّلاة والذِّكر والتِّلاوة أن يرزق القلب أنواراً تفيض على القلب، تتجلَّى بها كدورته، وتتنوَّر بها ظلمته.

(١) سُورة الأعلى: الآية ١.

والعرش المجيد قبلة القلوب، كما ان الكعبة الشَّريفة قبلة الأجساد، وهذا خاصٌّ بأهل السُّنَّة، لا يذوقه أهل التَّعطيل، فإنَّك تراهم في العبادة حائدين عن وجهة معبودهم حائرين فيه، قد عرفوه بأنَّه لا فوق، ولا تحت، ولا داخل، ولا خارج، ولا متَّصل، ولا منفصل، وهذه صفات المعدوم، فلا تتوجَّه قلوبهم في الصَّلاة إلى جهة ربِّهم، ويقولون: كيف نحصره في جهة؟ فيقال لهم: هو ﷻ لا تحصره الجهات؛ إذ الجهات في الكون، والرَّبُّ ﷻ فوق الجهات والأماكن.

وأهل السُّنَّة يعرفون أنَّ مولاهم ﷻ فوق عرشه، بائن من خلقه بفوقيَّة تليق بعظمته، وقد ثبت النَّقل عن ابن مبارك رحمه الله أنَّه سئل: بما يعرف ربَّنا تعالى؟، فقال: بأنَّه على عرشه، بائن من خلقه[1]، رواه الدَّارميُّ في كتاب «النَّقض»، ويروي مثله عن أحمد بن حنبل رضي الله عنه بمعناه، وكذا عن جميع السَّلف رضي الله عنهم، فإذا جلسوا يحكمون بين النَّاس؛ يعتقدون أنَّ ربَّهم ﷻ من فوق عرشه يراهم، ويرى مكانتهم، ويسمع أحكامهم، فيتحرَّون الصَّواب، واتِّباع الحقِّ لموضع نظره وسمعه وعلمه، فيوفِّقون بمشيئة الله تعالى لفصل القضاء على التَّمييز الذي يحبه مولاهم ويرضاه، وإذا قاموا إلى الصلاة فكذلك يراقبون مولاهم ويتوجهون بقلوبهم إلى علوِّه وعلائه وعظمته، فتتنزَّل الأنوار بمشيئة الله سبحانه، ولله الحمد [٢٨٤/ب] على قلوبهم، فيرزقون الخشية المحضة بالعلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[2]، وقال تعالى في صفة الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[3]، وقال تعالى في صفتهم: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا

---

(١) رواه الدارمي في نقض الدارمي على المريسي (١/ ٢٢٤).

(٢) سُورة فاطر: الآية ٢٨.

(٣) سُورة النحل: الآية ٥٠.

﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾[1].

ونسأل الله الكريم أن يوفِّقنا جميعاً لما يحبُّه ويرضاه، ويجنِّبنا أجمعين عمَّا يكرهه ويسخطه ولا يرضاه.

فصل

وممَّا يحبُّه الله ﷻ من الحاكم أن يقمع أهل التَّعطيل، ويخذلهم، ويعظهم إذا نفعت الموعظة، ويأمرهم بالسُّكوت والإمرار إذا لم يحصل منهم الإثبات والإيمان، فيرجو بذلك حصول رضا الرَّبِّ ﷻ.

كان بعض الإخوان إذا ظهر من هؤلاء البغي يدعو ربَّه ﷻ، ويقسم عليه بالصِّفات الَّتي نفوها أن يكفَّ بأسهم، ويقلَّ جدَّهم؛ فيستجاب له بكرم الله.

فصل

وكذلك إذا تظاهر قوم بمحبَّة الاتِّحاد والتَّعظيم لهم، وهم الطَّائفة المارقة، كصاحب «الفصوص» وأتباعه ومحبيه، طهَّر الله الأرض من أنجاسهم، وأمكن الحاكم أن ينهاهم عن ذلك؛ فليفعل ما استطاع، فهؤلاء قلبو الحقائق، وأتلفوا الأمَّة وأضلُّوهم، اجتمعنا باتِّباعهم وطائفتهم في الأسفار والرُّبط والخوانق، ووقفنا على سوء عقائدهم وانحلالهم ودعواهم العريضة، قاتلهم الله.

وربَّما يتأوَّل لهم متأوِّل، ويقيم أعذارهم؛ صيانه للخرقة، ولا يشعر أنَّ ذلك خذلان الدِّين وخرق فيه، فهو يصون الخرقة، ويخرق الدِّين فلا جزاهم الله عن سيِّدنا محمَّد ﷺ وعن دينه خيراً، كما يسدِّدون أقوال أعدائه،

(١) سُورة الأنبياء: الآية ١٩.

وقد خرقوا سفينة دينه، فكلٌّ من مهد أعذار الملحدة أهل التَّلحيد، فقد وطأ لضلالهم مهاداً، وجعل لمن تبعهم شبهة يتعلَّق بها، لو يعلم الجاهل ما يلقى غداً من ربِّه.

ويحك انظر في كتبهم وتصانيفهم إن كان لك عقل، بل هو جامد على عماه وضلالته، يمهِّد أعذار أعداء الله، ويقيم جاههم بالوهم الفاسد، ويذبُّ عنهم، ولا يدري أنَّه بذلك يخذل الدِّين ويضعه، وكلُّ حقيقة لا توافق الشَّريعة فهي زندقة مردودة مطعون عليها وعلى قائلها.

فصل

وكذلك الحاكم إذا وضع من أهل هذا الشِّعار الفاسد، شعار أهل الرَّقص والسَّماع من الأحمديَّة الَّذين يأكلون الحيَّات، وينزلون النَّار، ويجتمعون بالنِّساء، وغيرهم من الطَّوائف الضَّلال المبتدعة الَّذين أتوا بشعار محدث مبتدع أضلُّوا به عباد الله [٢٨٥/أ] تعالى، واشتغلوا عن دين الله تعالى، نهمتهم جلسة الطَّعام والشَّراب والفتوح، فإنَّ الحاكم يثاب على ذلك إن شاء الله تعالى، ويكون ممَّن نصر السُّنَّة وخذل البدعة وأهلها.

فصل

يجمل بالحاكم أن يكون له ميعاد يقرأ فيه أحاديث الرَّسول ﷺ، ويتكلَّم على الحديث بنفس أئمَّة الحديث، كالشَّافعيِّ، وأحمد، وسفيان، وابن المبارك ﷺ وأمثالهم، لا بنفس أهل الكلام، فإنَّه يرجى له بذلك الميعاد بركة خاصَّة تخصُّ نفسه، وبركة عامَّة تعمُّ من يلوذ به ويجالسه إن شاء الله تعالى.

فإنَّ الحديث مادة الدِّين، وينبوع اليقين يتأصَّل الإيمان بمذاكرته، وتنمو

المعرفة بترداده ومعاودته، وتنزل السَّكينة على القلوب فتبرِّدها من حرارات الشُّكوك، وتثير الهمم الرَّاكدة لقصد الأعمال الصَّالحة، وتظهر شون أمور الدَّار الآخرة من الجزاء، والثَّواب، والعقاب، والحساب، والميزان، والجنَّة، ودرجات أهل الدَّرجات، ودركات أهل الدَّركات، وفي شعور القلوب بذلك خير الدُّنيا والآخرة إن شاء الله تعالى.

وبه يحصل الخوف والخشية من عقاب الله تعالى، وتتعلق الآمال بثواب الله تعالى، وتشتاق الأرواح إلى معاينة الله ﷻ في الجنة كما ورد في حديث يوم الزيارة، ورؤية الله تعالى.

فالحديث أصل لكلِّ خير، ومفتاح لكلِّ فضيلة علميَّة أو عمليَّة، ومرقاة إلى كلِّ درجة من درجات أهل السَّبق، والله يوفِّق ويرزق من يشاء بغير حساب.

فصل

ولا ينسى الحاكم في مجلس الحكم أنَّ الله ﷻ يحضره بين يديه يوم القيامة، ويسأله عن كلِّ حكم حكم فيه، هل وافق شرعه ودينه أم لا؟ فيكون في حكمه خائفاً متوقِّفاً متأنيَّاً مفتقراً إلى ربِّه ﷻ في توفيقه وتسديده، متخيِّراً للحقِّ، مجتهداً فيه، مساوياً بين الخصوم، لا يميل إلى أحدهما؛ لصداقة، أو مودَّة، أو قرابة، أو نفع متوقَّع، بل يسوِّي بين الخصوم في الحكم، والمجلس، والكلام، وميل القلب، فيحفظ قلبه أن يميل إلَّا مع صاحب الحقِّ، فهذا سلوك لمن أقامه الله ﷻ في القضاء، فجعل القضاء طريقاً له إلى الله تعالى، فيكون بذلك من الأئمَّة الرَّاشدين والقضاة العادلين المقسطين الموعودين بمنابر النُّور عن يمين الرَّحمن.

وهذا آخر ما فتحه الله تعالى ويسَّره امتثالاً للمرسوم الكريم، حيث كرهت

المخالفة، وأحببت الموافقة، وسلام الله على من اتَّبع الهدى، وخشي عواقب الرِّدى، وأطاع الملك الأعلى، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم. [٢٨٥/ ب]

القسم السَّادس في شرح كلام بعض المشايخ الَّذين سلفوا قبله رحمهم الله

شرح الاثنى عشر كلمة الَّتي قالها الشَّيخ الجنيد رحمة الله عليه، شرحها الشَّيخ عماد الدِّين الواسطيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

[بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ]

الحمد لله الَّذي بيَّن لعباده مناهج سبله، فعبدوه وتوكَّل لهم في مهامهم وشؤونهم، فاعتمدوا عليه، وصدَّقوه، وتودَّد إليهم بتعريفاته ومواصلاته، فأحبُّوه وجذبهم إلى قربه من دركات طبائعهم وأدران شهواتهم فألَّهوه فهاموا في قربه، وسكروا بحبِّه فمَّن عليهم بأن أصحاهم من سكرهم، ثمَّ أبقاهم به فعرفوه، وتحقَّقوه سبحانه جلَّ وعَلا، أن يتكيَّفوه أو يحدوه، وعرفوا عظيم منَّته عليهم أوَّلاً وآخراً، فشكروه.

فسبحانه وبحمده له الأسماء الحسنى، والصِّفات العليا، والشَّرف الأسنى، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له الَّذي من على الصَّفوة من قربه بما به أغنى، وأبقاهم بنوره ثمَّ عن حظوظهم أفنى، وأشهد أن محمَّداً ﷺ عبده ورسوله الَّذي دعا الخليقة إلى أشرف موطن ومعنى، ودعاهم إلى دار الإسلام لمأدبة الحقِّ وما أكنى، صلَّى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة ما عبد الله فرادى ومثنى.

وبعد: فأنِّي وقفت على كلمات نقلت عن الأستاذ الإمام سيِّد الطَّائفة تاج العارفين الجامع بين الظَّاهر والباطن أبي القاسم الجنيد بن محمَّد القواريري قدَّس الله روحه، ونوَّر ضريحه، وأعاد بركته، وهي اثنا عشر كلمة، ووجدتها قد جمعت ببدايات السُّلوك ونهاياتها في أخصر عبارة وألطف إشارة، يلوح عليها بهجة الوصال لما قد نفخ فيها من روح الحال، فاستخرت الله تعالى في إيضاح معانيها على قدر فهمي ومبلغ علمي، ولا ادَّعي الإحاطة بمراد المتكلِّم؛ لتكون لأهل البدايات عنواناً على الطَّريق، وعلماً يدلُّهم على نهج

التَّحقيق، وإلى الله أتوسَّل في النَّفع بها لطلَّاب الحقِّ السَّالكين إلى مقاعد الصِّدق بكرمه ورحمته.

نقل عن الأستاذ الإمام أبي بكر الكنانيِّ ﷺ، أنَّه قال: جرت مسألة في المحبَّة بمكَّة أيَّام الموسم، فتكلَّم الشُّيوخ فيها، وكنا الجنيد أصغرهم سنًّا، فقالوا: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق ساعة وأدمعت عيناه، ثمَّ قال: عبد ذاهب عن نفسه [٢٨٦/أ] متَّصل بذكر ربِّه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويَّته، وصفا شربه من كأس ودِّه، وانكشف له الجبَّار عن أستار غيبه، فإن تكلَّم؛ فبالله، وإن نطق؛ فمن الله، وإن تحرَّك؛ فبأمر الله، وإن سكن؛ فمع الله، فهو بالله، ولله، ومع الله، فتكلَّم الشُّيوخ، وقالوا: ما على هذا مزيد، جبرك الله يا تاج العارفين، تمَّ كلامه قدَّس الله روحه.

وما أحسن ما سمَّاه الشُّيوخ على صغر سنِّه بينهم تاج العارفين، فاعلم أنَّه ذكر المحبَّة، لكنَّه أدرج فيها جميع المقامات وأصولها على ترتيب السُّلوك من البداية إلى النِّهاية، وصارت المحبَّة في كلامه قدَّس الله سرَّه ضمناً وتبعاً، فافهمها أيضاً أيُّها السَّالك، واعقل معانيها، وطالب نفسك بالسَّير إلى مولاك على التَّرتيب الَّذي ذكره فيها هذا الأستاذ ﷺ ابتدأ وقال: **عبد ذاهب عن نفسه**، وذلك هو أوَّل السُّلوك الذَّهاب عن النَّفس والعادات، والصَّادق في ابتدائه يذهب عن نفسه، ويخالف عاداته، ويبغض نفسه وهواه ويعاديهما، فبذلك يذهب عنهما؛ لأنَّه يستبدل عن الأكل الكثير تقلُّلاً، وعن النَّوم الكثير قياماً وسهراً، وعن التَّرفُّه ولين العيش اقتصاراً على حدِّ الضَّرورة واقتصاداً، وعن كثرة الكلام ضمناً وافتكاراً، وعن الغفلة والبطالة انكماشاً في العبادة وتشميراً، وعن المخالطة للأقران البطَّالين عزلة أو مخالطة للعلماء والحكماء، فبذلك تتبدَّل العادات، وتصفو الأسرار، وتخمد الشَّهوات، فتستنير القلوب بعد ظلمتها، وتشرق بأشعة الأذكار وبهجتها.

وقال ﷺ في الكلمة الثَّانية: **متَّصل بذكر ربِّه**؛ لأنَّ من ذهب عن نفسه؛ اتَّصل بذكر ربِّه، انفصلت عن قلبه التُّعلُّقات الجسمانيَّة، فتعلَّقت روحه بالمطالب الرُّوحانيَّة؛ لأنَّ النُّفوس عاشقة للشَّهوات، تميل بطبعها إليها؛ لأنَّها من جنسها كثيفة تألف كثيفاً، والأرواح مجانسة للملأ الأعلى تميل بذاتها إليه، وتحنُّ إلى قرب الله تعالى والحظوة به.

وتلك التَّعلُّقات النَّفسانيَّة شاغلة المحل عن هذه التَّعلُّقات الرُّوحانيَّة، فمتى فطمت النُّفوس عنها بالتَّدريج؛ انقطعت التَّعلُّقات الأرضيَّة، وقويت الحوادث السَّماويَّة، وعلامة ذلك أن تتَّصل القلوب بذكر ربِّها؛ لأنَّه غاية أملها ومطلوبها، وذلك بعد ذهابها عن عادات نفسها، والأمر كذلك كما ذكره [٢٨٦/ب] الأستاذ ﷺ.

قال في الكلمة الثَّالثة: **قائم بأداء حقوقه**، فإنَّ الأرواح متَّى انفصلت عن تعلُّقاتها الشَّهوانيَّة، واتَّصلت بذكر ربِّها؛ هان عليها أداء الحقوق، وصارت تلتذُّ بذلك، وتتغذَّى به، فإنَّ النُّفوس الشَّهوانيَّة أكولة نوَّامة، تطرب إلى الشَّهوات من الاجتماع والكلام والمعاشرة، وهي لمحبَّتها لذلك مستعصية قويَّة باردة يابسة على أداء الحقوق.

فإذا فطمت عن ذلك؛ لانت وتلطَّفت، وخشعت، وألفت حقوق الله تعالى وعبادته، بعد أن كانت مستعصية تجد المشقَّة في أداء حقٍّ من حقوق مولاها، فصارت بهذه السِّياسة تتغذَّى بها، كما يتغذَّى المحبُّ إذا كان في شغل محبوبه، ويهون عليه المحاسبة والمراقبة، وأداء المفروضات، والانتهاء عن المنهيَّات، فيصير بذلك عبداً لله في الظَّاهر، يقوم بحقوقه الظَّاهرة متلذِّذاً بها، كما صار عبداً لله في الباطن باتِّصال قلبه بذكر ربِّه، وتعلُّقه به، فكملت له العبوديَّة ظاهراً وباطناً لصفائه ولطافته.

ثمَّ قال في الكلمة الرَّبعة ﷺ: **ناظر إليه بقلبه** وهذا الَّذي ذكره؛ يعني به:

المراقبة الحاليَّة الواردة على القلوب من آثار الصِّفات، وهذا عين المراقبة العمليَّة الَّتي يتكلَّفها الإنسان.

والمراقبة الحاليَّة إنَّما يستعدُّ لها من زكي وصفا، واستقامت جوارحه على الطَّاعة، واستقام قلبه بذكر الله تعالى، فيفتح الله تعالى عليه بمراقبته الحاليَّة، فكان يعبد الله تعالى كأنَّه يراه أوَّلاً، ثمَّ ترقى إلى أن رأى نور صفائه بقلبه؛ لأنَّه سبق منه اتِّصاله بذكر ربِّه، فكان الاتِّصال حالية الدَّائمة، وترقى منه إلى رؤية الَّذي به يعرف الله تعالى، وبه يجيب، وبه يخاف، وهو المثل الأعلى، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١).

فهو لا يغفل عن نظره إليه عبادة، وألوهيَّة، وتوكُّلاً، واعتماداً، واستناداً، وتفويضاً، وحبَّاً، واشتياقاً، ومتى وقعت البصيرة على النُّور المذكور، وبدت لها لوائح المطلوب، لم تلتفت البصائر عنه أدنى وقت، اللَّهم إلَّا في أمر واجب، أو مهمٍّ شاغل، فإنَّه قد صارت اللَّوائح غذاها، بها تتغذَّى الأرواح، وبه تستنير البصائر، فيكون حاله، كما قال الأستاذ ﷺ ناظر إليه بقلبه.

ثمَّ قال ﷺ **في الكلمة الخامسة: أحرق قلبه أنوار هويَّته**، وهذا الَّذي ذكره أمر زائد على لوائح الصِّفات، فإنَّه لما زكي واستعدَّ للعبوديَّة ظاهراً وباطناً، [٢٨٧/أ] واتَّصل قلبه بذكر الله تعالى، صار ينظر إلى ربِّه بقلبه من بعض صفاته إمَّا من صفة الحياة، أو العلم، أو الكلام، أو الإرادة، أو الجلال والجمال، أو العظمة والكمال، فهذه كلُّها صفات اتَّصف بها الموصوف سبحانه في قدمه وأزليَّته، فيفتح على قلب العبد الصَّادق منها شيء مثل صفة أو صفتين أو ثلاثة، وهو أمر زائد على الأذكار والإيمان، ففرَّق بين من يذكر الله تعالى بصفة العلم أو الحياة، وبين من يذوق بقلبه شعاع أنوار

---

(١) سُورة الروم: الآية ٢٧.

الحياة أو العلم.

وكلُّ واحد من أهل الذَّوق الصِّفات ينظر إلى الله تعالى، وإن اختلفت الصِّفات؛ لأنَّ الموصوف بها واحد، فكلٌّ من أعطى منها صفة رأى به فيها، والكلُّ ينظرون إليه سبحانه، لكنَّ أبوابهم مختلفة، فهذا معنى قوله في تلك الكلمة الرَّابعة: ناظر إليه بقلبه؛ أي: في أنوار صفاته، فلمَّا دام له ذلك؛ ترقَّى إلى ذوق الهويَّة، كما قال في الكلمة الخامسة: أحرق قلبه أنوار هويَّته، فيرقى من آثار الصِّفات إلى عظمة آثار الذَّات.

وخصوصيَّة ذلك احتراق القلب وهيمانه، وفي ذلك كلام لا يتَّسع شرحه في الأوراق، إنَّما ينقل من القلوب إلى القلوب، لمن صفا، وزكي، واستعدَّ، وأوفى، وذلك هو علم الفرق بين المحبَّة الصِّفاتيَّة والمحبَّة الذَّاتيَّة، ومطالع كلِّ واحد من المحبِّين ومظاهرهما، وهذا القدر يكفي ها هنا إن شاء الله تعالى.

ثمَّ قال ﷺ في الكلمة السَّادسة: وصفا شربه من كأس ودِّه، وإنَّما علت هذه المرتبة على الوجد؛ لأنَّ الوجدان مرتبة، وصفاء الودِّ مرتبة أعلى منها، فقد يعرف في الشَّاهد الملك والسُّلطان، وترى حقيقته بلا وداد يحصل بين العارف والمعروف.

فمن عرف مولاه ووجده على حصول الوداد بينه وبين مولاه، وأسبابها رعاية دقائق الخواطر، ومجانبة خفايا الشِّرك والشَّهوات الخفيَّة الَّتي لا يعاقب بها المبتدئ، وأمَّا المنتهي الواجد فلا يسامح في شيء من ذلك، ومتى قارن شيئاً من ذلك؛ لم يحجب وجدانه، لكن يتكدَّر صفاء الوداد ينه وبين معروفه.

ففي الشَّاهد قد يعرف الإنسان إنساناً معرفة ظاهرة لا يكدِّر تلك المعرفة شيء، وقد يصافي الإنسان إنساناً ويودُّه، فقد يقدح في تلك المودة أدنى إعراض، أو أدنى إهمال لحقٍّ من حقوقه، أو توان عن المسارعة إلى مرضاته.

فكذلك من وجد وعرف؛ يعيَّن عليه أن يعمل على صفاء المعاملة؛ ليصفو

له الشُّرب من كأس الوداد بعد أن قام بالحدود الظَّاهرة والاتِّصال الباطن، فيكون مع ذلك قوَّاماً على خواطره [٢٨٧/ ب] إن بدت عليه من الخواطر عمَّاً لا يناسب حال الوداد مع الغفور الودود ذي العرش المجيد؛ نفاه وأعرض عنه، وكذلك يكون قوَّاماً على حركاته أن يتوانى في أمر بترك المسارعة له فيه، فذلك جمل قوانين مشارب الوداد.

ثمَّ قال في الكلمة السَّابعة ﷺ: وانكشف له الجبَّار عن أستار غيبه، وهذا مرتبة عالية إليها المنتهى، ولا منتهى في السَّير إلى الله تعالى، لكن هذا من أعلى المقامات.

اعلم أنَّ في النُّفوس بقايا لا يذوِّبها مجرَّد بعض التَّجلِّيات الصِّفاتيَّة أو الذَّاتيَّة، ولا يُظهر تلك البقايا إلَّا تجلِّي الجبروت والعظمة، فيجبر ذلك نفسه، ويقمعها، ويطهِّرها من إدارتها وكدورتها الخفيَّة، فإنَّ بهجة الجمال تجذب المحبَّة، فربَّما يقع هناك انبساط؛ لأنَّ المحبَّة تبسط المحبَّ، وربَّما كان له بذلك إدلال خفيٌّ لا يفطن له.

فقد علمت أنَّ المحبَّة نفسها لا تذيب جميع البقايا، وإنَّما يذيبها ملك الجبروت والقهر والعظمة، وإذا لا حظه العارف؛ ذابت عدد نفسه، وأقام العبوديَّة مقامها، وعرف قدر نفسه وخسِّتها ورذالتها، وأنَّها حيوان من الحيوانات، فيرى نفسه كدودة خسيسة حقيرة لما باشر قلبه من العظمة والجبروت.

وهذه مشاهدة الأولياء المقرَّبين أهل القرب، وهم العارفون حقيقة، واعلم أنَّ ما يبدو من ذلك للقلوب إنَّما هو بحسب ما تستعدُّه وتقوى عليه، وإنَّما يبدو ذلك في أنوار القلوب، وأمَّا أمر المعاينة في الآخرة في موقف القيامة من الخوف والهول والانقهار لعظمة الله الملك القهَّار، فذاك أمر لا يخطر بالقلوب، ولا يمرُّ بالأوهام، ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[١]،

(١) سُورة الأنعام: الآية ٩١.

قيل: ما عبدوه حقَّ عبادته، كما استحقه من العظمة، فإنَّ ذلك لا يقوى عليه مخلوق إلَّا بحسبه، وإنَّما من ألطاف المولى وكرمه أن يبرِّر للقلوب من جلاله وعظمته ما تطيق حمله، ويمكنها عبادته سبحانه مع ذلك.

ثمَّ قال ﷺ في الكلمة الثَّامنة: فإن تكلَّم؛ فبالله، وهذا شأن الكبراء الواصلين الَّذين أفناهم عنهم، وأبقاهم به؛ لأنَّ نفوسهم ذاب بعضها بالمجاهدة، وبعضها بالمراقبة، وبعضها بالمشاهدة، فتطهَّروا من بقاياهم، فأفناهم الله تعالى عنهم، ثمَّ أبقاهم به؛ أي: ينوره، فهو يحرِّكهم إذا شاء بالكلام والحركة؛ لأنَّهم صاروا محلَّ نظره من بين عباده [٢٨٨/أ] قد تولَّاهم وتولَّى أمورهم، فإن تكلَّم أحدهم فالله ﷻ يحرِّكه ويلهمهم الكلام من تفهماته، ويكون ذلك الكلام صافياً عن رعونات البشريَّة.

وتحقيق هذا المعنى: أنَّ قلوبهم دائماً في الحضرة قد أخذوا في القبضة، فإذا رضي منهم الكلام حرَّكهم بالكلام فيشهدون رضاه بذلك الكلام ومراده منهم بحيث لو سكتوا لخافوا العقوبة، فهذا معنى الكلام بالله، بخلاف من يدَّعي الحلوليَّة أنَّه يبقى النَّاطق فيه غيره والمعبِّر عنه سواه، والله تعالى لا يحلُّ في شيء ولا يتكلَّم على لسان أحد بذاته، ومن زعم ذلك فقد كفر وادَّعى الحلول والاتِّحاد، وهو مذهب النَّصارى.

لكنَّ الكلام بالله: هو أن يرضى الرَّبُّ تعالى بكلام عبده المتكلِّم ويشعر القلب برضاه بذلك وإرادته منه شرعاً وقدراً، فينطق العبد بالله؛ أي: بأمر الله ورضاه وإرادته شعور قلبه من ربِّه تعالى بذلك.

ثمَّ قال ﷺ في الكلمة التَّاسعة: (وإن نطق فمن الله)؛ أي: من إلهامه يلهم الواصل ما يثقِّف به جبلَّته وجبلَّة غيره، فيكون ذلك من الله تعالى لا من مجرَّد الفكر ونتائج العقل.

ثمَّ قال ﷺ في الكلمة العاشرة: (وإن تحرَّك فبأمر الله)؛ يعني: أنَّ

الواصل يتَّقي كالمأمور لا يتكلَّم باختياره وهو الاختيار الطَّبيعي، لكن بالاختيار الشَّرعيِّ القدريِّ، فيكون ذلك بالله، فإن تكلَّم فبالله أو نطق فمن الله، وإن تحرَّك فبأمر الله؛ أي: في حدوده وفرائضه، فتبقى حركاته وسكونه خارجاً عن حركات البشر وسكونهم؛ لأنَّهم بنفوسهم وطبائعهم وشهواتهم، وهؤلاء صار الحقُّ تعالى مثولهم في سائر حركاتهم كالمقرَّبين حول ملوك الدُّنيا بأمره ينطقون، وفي خدمته يتحرَّكون، ولذلك هؤلاء قد قرِّبوا، ووقعت الهيبة والإجلال على قلوبهم، وشهدوا تولِّي موليهم لهم، وفهموا عنه فيما يقولون، واستشعروا ما يرضاه بقلوبهم.

كما نقل عن أحدهم أنَّه قال: لي قلب إن عصيته عصيت الله. وليس هذا كلُّ قلب، إنَّما هذا حال قلوب المقرَّبين لا غير، فإنَّ القلوب لها أمور خفيَّة ولها نفاق تنافق النَّفس فتريد ما تريد، وأمَّا المقرَّبون فغالب أمرهم الطَّهارة؛ فهم في سائر أمورهم بالله.

ولذلك قال ﷺ في الكلمة الحادية عشر: (وإن سكن فمع الله)؛ أي: هو معه حقيقة، مشاهد له ببصيرته، خائف منه، معظِّم لحرماته، مستحي من نظره وقربه، فإن تحرَّك فبأمره، أو سكن فمعه على كلِّ حال من أحواله [٢٨٨/ب] وهذا حال الأولياء الَّذين كانوا مع الله في الدُّنيا كما يكون الخلائق بين يدي الله تعالى في مشهد القيامة من الخوف والمهابة والتَّعظيم والوجل والحياء؛ فهم أشدُّ النَّاس خوفاً وانقباضاً، لكنَّهم مستعملون مكارم الأخلاق؛ رعاية لأمر مولاهم وسنَّة نبيِّهم ﷺ، فاعرف ذلك من حالهم.

ثمَّ شرح ﷺ في الكلمة الثَّانية عشر جملة حال الواصل، فقال: (فهو بالله)؛ أي: في أموره كلها يأكل بالله، ويلبس بالله، ويتكلَّم بالله، ويتحرَّك بالله، وهذا الحال أعلى من حال الصَّادق؛ فإنَّ الصَّادق يأكل بالله، ويلبس بالله، ويتكلَّم بالله، نفسه منقادة لأمر الله، ولم يصل بعد إلى الله، والكامل

يأكل لله وبالله، ويتكلَّم لله وبالله؛ لأنَّه تصفى في معاملة الله بالصِّدق والإخلاص في جميع الأشياء، ووصل سرُّه إلى الله فتولَّاه فصيَّره به؛ فهو في أموره كلِّها لله وبالله، يشاهد ذلك ببصيرته، ويستعين بالله، ويوقع ذلك على مقتضى أمره.

ثمَّ قال بعد أن قال: فهو بالله، فقال: (ولله): وهذا حال الصَّادق كما تقدَّم فقد جمع الكامل حال الصَّادق، وزاد عليه فصار لله في أعماله، وذلك هو العمل الخالص الَّذي يراد به الله؛ فهو يعمله بالله مشاهدة؛ أي: بحول الله لا بالنَّفس والطَّبيعة.

ثمَّ قال: (ومع الله)؛ أي: في سائر أحواله وشؤونه إذا كان لله في عمل فهو فيه بحول الله وقوَّته بريء الحول والقوَّة من الله معاينة تحرُّكه؛ فهو يتحرَّك بها، وهي الحركة العامَّة في الطَّاعة والمعصية، لكنَّها في حقِّه مختصَّة بالطَّاعة لله، وهو في ذلك العمل الَّذي هو لله وبالله يكون فيه مع الله، لا ينحجب عنه طرفة عين إلَّا فيما أمر الله.

فهذا جملة أحوال الواصلين المقرَّبين الَّذين سلكوا الطَّريق ووصلوا إلى نهايات مقامات التَّحقيق، وهذه قاعدة كافية للَّبيب الفطن إذا أراد أن يزن نفسه وسلوكه فيها، ويستعين بالله في بلوغه مراتب أهل الصِّدق والتَّمكين.

ونسأل الله الكريم أن يأخذ بأيدينا إلى ما يحبُّه، ويجعلنا ممَّن يحبُّه، ويتَّقيه ويهابه ويخشاه، آخر ما تيسَّر، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلِّم.

شرح وصيَّة الشَّيخ شهاب الدِّين السَّهروردي ممَّا اعتنى بشرحها الشَّيخ عماد الدِّين الواسطي رحمة الله عليهما [٢٨٩/أ].

أمَّا بعد: حمد الله تعالى والصَّلاة على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلِّم، فإنَّ هذا الضَّعيف كان مدَّة يطلب لسالكي طريق الله ﷻ قاعدة سلوكيَّة تحتوي على ما يحتاجون إليه في مبادئ أمورهم وغاياتها.

والحالة الَّتي يكونون عليها في طريقهم خصوصاً ما يلزمهم من أحكام العوارض والطَّوارئ الواردة عليهم في كلِّيَّات أمورهم وجزئيَّاتها، والإشارة إلى الشَّيء الواحد الَّذي يلزمهم الاهتمام به والاعتناء أكثر من غيره؛ حيث إنَّ الأبواب متنوِّعة، والأصول مختلفة كلٌّ يشير إلى عمل وأمر وأصل مغاير لما يشير إليه الآخر، فأحببت أن يكون في هذه القاعدة التي أطلبها إشارة إلى الأمر المهم الذي يكون من السُّلوك بمثابة القطب من الرحا، وكنت أحبُّها قاعدة موجزة جامعة، كافية.

هذا وإن كان المقصود من ذلك يوجد في متفرِّقات الكتب، لا سيَّما كنت أبغي ذلك صادراً عن رجل واصل جامع ليكون أثبت في القلوب وآكد لبلوغ المطلوب حتَّى لطف الله تعالى.

ووجدت رسالة منسوبة إلى شيخنا وإمامنا شهاب الملة والدِّين قدس الله روحه، كتبها لبعض مريديه يسمى رشيد الدين الفرغاني، وهي بهذا الوصف المبدوء ذكره، فلله الحمد على ذلك، وحيث وجدتها كأنَّني ظفرت بأستاذ جامع، وها أنا أحبُّ أن أخصَّ بها من أحببت من إخواني الطَّالبين، وأصحابي الصَّادقين؛ فإنَّه لا ينتفع بذلك إلَّا أهل الصِّدق في طلب الآخرة.

وقد قيل: قل لغير الصَّادق لا يتعبنا، وها أنا أحبُّ لإخواني أن يجعلوا هذه الرِّسالة مرآة ينظرون إلى أعمالهم وأحوالهم فيها، وميزاناً يتفقَّدون زيادتهم من نقصانهم بها، وفيها كلمات ربَّما أشكلت على من لا دربة له بمعانيهم، فأشرت إلى إيضاحها مبلغ علميٍّ، والله الموفِّق والمعين.

(قال الشَّيخ) قدَّس الله روحه و ﷺ: صيغة وصيَّة وصَّى بها رشيد الدِّين الفوغاني رَحِمَهُ اللهُ: من أحظاه الله بصدق اليقين واتَّخذ مقاماً من مقامات المتَّقين يحب الله منه دوام التَّبتُّل إليه، ودوام الإقبال عليه، ومتى أصغى إلى النَّفس الدَّاعية له إلى البطالة الميَّالة إلى مخالطة الخلق يعاقب بهم يتسلَّط، وتشعث باطن، وتردُّد رأي جالب للتَّفرقة، فينبغي له أن يأخذ من الخلق جانباً من سليمهم وسقيمهم الأمن يستفيد منه، ويكتسب [٢٨٩/ب] بصحبته زيادة في الزُّهد، ويتفطَّن بطريقه لكوامن آفَّات النَّفس أو من سوف يبعثه الله تعالى إليه عند ارتواء قلبه من منح الحقِّ تَعَالَى، فتشمُّ أنفاس الصَّادقين منه عرف القرب، فيتطفَّلون عليه ويميلون إليه، فينيلهم من صفو صحبته ما يسكن لهفهم ويقوِّي وارداتهم، ويكسبهم ما يتلقَّح به بواطنهم من غير إسراف وتقتير.

والإسراف في ذلك: الاسترسال في الصُّحبة إلى حدٍّ ينزع إلى مؤانسات النُّفوس، والتَّقتير فيه: الامتناع من الصُّحبة مع العلم بنفع الطَّالب حرصاً على النَّفع الخاص لنفسه، فالصِّديقون لكثرة تنفُّعهم وقلَّة صبرهم عن مولاهم يستوحشون من متوهِّمات موجبات التَّفرقة، والعمل الدَّائم المشار إليه دوام إقبال القلب وأحكام علم الحال والقيام وعلم الطَّوارئ والعوارض والحكم فيها بالعدل بما يشهد بصحَّته ظاهر العلم وباطنه، ومع هذا العمل إذا تزيَّن القالب بحلية الصَّلاة والتِّلاوة كان أتمَّ وأبلغ في المقصود.

ومن المهم رعاية الاعتدال في النَّوم والأكل، والتَّقليل من الشَّهوات، والتَّخلُّص من تبعات الوجود العينيِّ بالمحاسبة، ثمَّ التَّخلُّص من تبعات الوجود

الذِّهني بالمراقبة، ثمَّ محو الوجود الذِّهني بالغيب في مطاوي الغيب إلى أن يعمَّ عين الشُّهود أجزاء الغيب، ثمَّ يعمُّ أجزاء العين وتتشابه قوالب الغيب والعين تروح الشُّهود، ومن ترامى إلى التَّحقُّق بهذه المنح الخاصَّة فليتَّخذ المنزل قبراً ويغسل يده من الدُّنيا وأهلها، ويلين لسانه لتلاوة كلام الله ﷻ، ويطهِّر قلبه وسمعه وبصره وتدبيره جميعه، وعلى هذا يعقد مع الله عقداً لا يحلُّ عقده حركة نفسه بطيشها وقلَّة صبرها وتململها، ونزوعها إلى مخالفة حكم الوقت بما هو أولى به وأسعد عنده، وأصحُّ فيه بشاهد العلم ونور البصيرة الَّذي يحرق شعاعه الشُّبهة ويدلُّ على واضح البرهان، وركوب الشَّهوات لعور في البصيرة وفتور في العزيمة، وكمون هوى يطمس نور الإيمان، والله تعالى وليُّ أوليائه، والحمد لله ربِّ العالمين، تمَّت القاعدة.

شرح كلمات في الوصيَّة

فيها غموض، انظر ما ذكر الشَّيخ [٢٩٠/أ] قدَّس الله روحه في قوله والعمل الدَّائم المشار إليه دوام إقبال القلب معناه على الله تعالى؛ فالمريد إذا أقبل بقلبه على الله ﷻ يحتاج إلى أن يتفقَّد أحواله دائماً مع الله، وينظر أمزداد هو أو منتقص، فإن كان في الزِّيادة شكر الله الَّذي وفَّقه وسأله المزيد لما وعد من قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[١]، وإن كان في النُّقصان تأسَّف وحزن وطلب النُّزوع عن الأحوال النَّاقصة المعوجَّة إلى الأحوال المستقيمة التَّامَّة بالزِّيادة في حاله، مثل أن يرى عزمه ناهضاً وهمَّته نشيطة، والنُّقصان مثل أن يرى بحد عزمه فاتراً وهمَّته راكدة، وهذا هو الَّذي أشار إليه الشَّيخ في أحكام علم الحال بينه وبين الله ﷻ وغير ذلك من أحوال الزِّيادة والنُّقصان.

(١) سُورة إبراهيم: الآية ٧.

وقول الشَّيخ: (وعلم القيام)؛ أي: أنَّ المقبل على الله بقلبه، المتفقِّد لزيادته من نقصانه، العالم بمعيار حاله بينه وبين خالقه؛ يلزمه أن يحكم علم القيام: وهو علم قيام الله تعالى على قلبه، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآيِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[1]، قال المرتعش: المراقبة مراعاة السِّرِّ لملاحظة الحقِّ في كل لحظة ولفظة.

وقول الشَّيخ: (والتَّفطُّن للطَّوارئ والعوارض): هو أنَّ المريد المقبل على الله بقلبه المحكم لعلم حاله بينه وبين خالقه، المحكم لعلم قيام ربِّه المحقِّق لذلك لا بدَّ أن تعترضه عوارض، وتطرأ عليه طوارئ من خير وشرٍّ، ونفع وضرٍّ؛ فالواجب عليه في العوارض أن يحكم فيها بالعدل بما يشهده بصحَّته ظاهر العلم وباطنه، وذلك عبارة على الاعتماد وعلى الأولى فالأولى في كلِّ شيء يستعمله، وهذه أعمال قلبيَّة.

قال الشَّيخ: (ومع هذا العمل إذا تزيَّن القالب بحلية الصَّلاة أو التِّلاوة أو الذِّكر كان أتمَّ وأبلغ) لأنَّ الجمع بين أعمال القلب والقالب أبلغ من عمل القلب وحده.

وقول الشَّيخ: (ومن المهم رعاية الاعتدال في الأكل والنَّوم) ما أحسن هذه العبارة ما أشار إلى الجوع والسَّهر كما أشار غيره؛ فإنَّ الجوع والسَّهر لا يؤمن على مستعمله من هوس ووسواس، ورعاية الاعتدال فيهما أتمُّ وأبلغ.

قال الشَّيخ: (والتَّقليل من الشَّهوات) ما أحسن هذه العبارة ما أشار إلى ترك الشَّهوات مره؛ لأنَّ الأجساد الضَّعيفة لأهل البداية لا يستغنى عن اليسير من حلو وحامض ودسم لحفظ أمزجتهم؛ فلذلك **قال الشَّيخ**: **(والتَّقليل من الشَّهوات)**.

---

(١) سُورة الرعد: الآية ٣٣.

وقول الشَّيخ: [٢٩٠/أ] (والتَّخلُّص من تبعات الوجود العينيّ بالمحاسبة، ومن الوجود الذِّهني بالمراقبة، ثمَّ محو الوجود الذِّهني بالتَّغيُّب عنه في مطاوي الغيب إلى أن يعمَّ عين الشُّهود آخر الغيب، ثمَّ يعمُّ أجزاء العين ويتشابه قوالب العيب والعين لروح الشُّهود).

وذلك لأنَّ المريد المقبل بقلبه على ربِّه كما أشار الشَّيخ، المحكم لعلم الحال والقيام لا يقوى على ذلك إلَّا بصفاء الوقت، وصفاء الوقت مفتقر إلى التَّخلُّص من تبعات الوجود العينيِّ، وهي تبعات الحركات الظَّاهرة على الجوارح السَّبعة وكيفيَّة التَّخلُّص من تبعاتها ووزنها بميزان العدل والاستقامة، فإذا صحَّ له ذلك؛ يحتاج أن يتخلَّص من تبعات الوجود الذِّهني بالمراقبة؛ لأنَّ الباطن له تبعات ذهنيَّة، كما أنَّ للظَّاهر تبعات عينيَّة، فتبعات الظَّاهر كالنَّظر والكلام والاستماع والحركة والبطش المحرَّم، أو ما لا يعنى وتبعات الباطن الذِّهنيَّة كالخواطر المحرَّمة مثل الغلِّ والحسد والعجب والكبر.

فإذا انتقى القلب عن هذه التَّبعات الذِّهنيَّة المحرَّمة يبقى تبعات فضوليَّة من الفضول، وما لا يغني؛ كحديث النَّفس والأماني؛ لأنَّ الحركات الظَّاهرة أوَّل ما تتصوَّر في الباطن، ثمَّ تبرز إلى الظَّاهر، فلا بدَّ من تطهير الظَّاهر والباطن حتَّى يتمَّ للمريد صفاء الإقبال على الله تعالى بقلبه كما أشار الشَّيخ.

والمريد إذا أقبل على ربِّه وتفقَّد حاله وأحكم علم قيام ربِّه عليه، وتخلَّص من تبعات الظَّاهر وتبعات الباطن، واستقام له حاله على ذلك؛ فإنَّه يكون في أوَّل أمره مكابداً، فإذا زالت المكابدة وسكتت الخواطر ظهر في قلبه نور من إقباله على ربِّه بالصِّدق غيبة ذلك النُّور عن وجوده الذِّهنيِّ، وسرى به في مطاوي الغيب، وهو النُّور الَّذي عبَّر الشَّيخ عنه بالوجود.

وقوله: (ثمَّ الوجود الذِّهنيُّ)؛ إشارة إلى إزالة الخواطر مرَّة؛ لأنَّه كان في الأوَّل يقصد التَّخلُّص من تبعاتها، وقصده للتَّخلُّص حجاب له فلا بدَّ من تعيُّنه

عن التَّبعات والقصد، وعن كلِّ شيء حتَّى يصفو له إقباله على ربِّه، فإذا صفى له إقباله على ربِّه غاب عن وجوده العينيِّ والذِّهنيِّ في مطاوي الغيب؛ يعني: غاب في نور إقباله على ربِّه لوصول خالص الذِّكر وصافيه إلى قلبه؛ حيث خلا عن كلِّ شاغل من العين والذِّهن وصار واحداً [٢٩١/أ] لواحد.

وقول الشَّيخ: (إلى أن يعم الشُّهود أجزاء الغيب، ثمَّ يعمُّ أجزاء العين)؛ أي: يستولي نور المراقبة على أجزاء باطنة، والباطن هو الغيب، فيمتلئ قلبه من نور التَّوجُّه بحيث يعمُّ قلبه ويستره عمَّا سواه، ثمَّ يسري ذلك النُّور من باطنه، ويعمُّ أجزاء ظاهره، وأجزاء العين هو أجزاء الظَّاهر، (ويتشابه قوالب الغيب والعين) يعني يتشابه الظَّاهر والباطن، ويصير كاللؤلؤة المصفَّاة لاستيلاء نور اليقين على ظاهره وباطنه، فحيث استولى تصفَّى من كلِّ كدر ظاهره وباطنه، فتشابه حينئذٍ قوالب غيبه وعينه لروح الشُّهود لروح النُّور الواصل إلى قلبه من إقباله على ربِّه بكلِّيَّته، وهذا إنَّما شرحته بمبلغ علمي، وفوق كلِّ ذي علم عليم، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وسلَّم.

شرح كلمات قالها الشَّاذلي

قال الشَّيخ العارف أبو الحسن الشَّاذلي ﷺ: الطَّريق القصد إلى الله تعالى أربع من حازهنَّ فهو من الصِّدِّيقين المحقِّقين، ومن حاز منها ثلاثاً فهو من أولياء الله المقرَّبين، ومن حاز منها اثنتين فهو من عباد الله الموقنين، ومن حاز منها واحدة فهو من عباد الله الصَّالحين.

أوَّلها: الذِّكر، وبساطه: العمل الصَّالح، وثمرته: النُّور، **الثَّاني**: الفكر، وبساطه: الصبر، وثمرته: العلم، **الثَّالث**: الفقر، وبساطه: الشُّكر، وثمرته: المزيد منه، **الرَّابع**: الحبُّ، وبساطه: بغض الدُّنيا وأهلها، وثمرته: الوصلة بالمحبوب.

شرح هذه الكلمات للشَّيخ الزَّاهد العارف عماد الدِّين الواسطي رحمه الله، قال: معنى ذلك - والله أعلم - أنَّ المبتدئ طريقه الذِّكر على بساط العمل الصَّالح، فمن أدام الذِّكر على بساط العمل الصَّالح ومجانبة المناهي لا بدَّ له أن يثمر ذلك ثمرة، وثمرة ذلك النُّور يقذف في القلب كما جاء في الحديث أنَّ «**النُّور إذا دخل في القلب انشرح وانفسح، فقيل: يا رسول الله، فهل لذلك من علامة؟ قال: نعم، التَّجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله**»[1] فمن رقاه الله ﷻ إلى هذا النُّور بواسطة الذِّكر على بساط العمل الصَّالح فقد وطئ بساط الصَّالحين كما قال الشَّيخ رضي الله عنه.

قوله: (الثَّاني الفكر) [٢٩١/ب] وذلك أنَّ النُّور إذا وصل إلى القلب، وهذا النُّور هو نور المذكور ينقلب الذِّكر الظَّاهر، فيصير فكراً باطناً يتغذَّى القلب به، فإذا صار كذلك فلا بدَّ له من بساط (وبساطه الصَّبر)؛ لأنَّ المتفكِّر ببساطة الصَّبر إلى أن يستقر هذا الفكر قراره ويرسخ في محلِّه، وهذا أيضاً لا بدَّ له من ثمرة، (وثمرته العلم) بالله تعالى كما قال الشَّيخ، ومن رقاه الله تعالى إلى هذا المقام من العلم بالله تعالى بواسطة الفكر والصَّبر فقد وطئ بساط الموقنين كما قال الشَّيخ رضي الله عنه.

قوله: (الثَّالث: الفقر)، وذلك أنَّ العبد إذا صار عالماً بالله وانقطع إليه بالكلِّيَّة عمَّا سواه، وهذا هو حقيقة مقام الفقر؛ لأنَّه كان محجوباً عن ربِّه تعالى، فلمَّا عرفه اقتضت هذه المعرفة الانقطاع إليه، وهذا أيضاً لا بدَّ له من بساط، (وبساطه الشُّكر)؛ لأنَّ حقيقة الفقر الشُّكر عند الفاقات لا الشَّكوى؛ لعلمه بأنَّ ذلك من حسن تدبير الله تعالى، وافتقاده إيَّاه فبساط الفقر الصَّبر، ولا بدَّ له من ثمرة، (وثمرته المزيد منه)، ومن رقَّاه الله تعالى إلى مقام الفقر على بساط الشُّكر فقد وطئ بساط المقرَّبين.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٧٨٦٣).

قوله: (الرَّابع: الحبُّ)، وذلك أنَّ العبد إذا حصل له نصيب من العلم بالله تعالى وأقامه الله تعالى في مقام الفقر والانقطاع إليه عمَّا سواه والانقطاع عن تدبيره إلى تدبير مولاه، ورزقه مع ذلك الشُّكر انقطعت عن قلبه العلائق المقيِّدة له، وانجذبت روحه بالكلِّيَّة إلى مولاه، والشَّوق إلى قربه، وهذا هو المحبَّة، ولا بدَّ له من بساط، (وبساطه بغض الدُّنيا وأهلها)؛ لأنَّ الدُّنيا والآخرة ضربان لا يجتمعان ولا يجتمع حبُّهما في محلٍّ واحد، والمحبُّ لا يكون محبّاً إلَّا بالوحشة عمَّا سوى محبوبه، وفراغ القلب عن سائر العلق الجاذبة عنه، فمتى رزق العبد محبَّة المولى على هذا البساط لا بدَّ له من ثمرة، (وثمرته الوصلة بالمحبوب)، ومن رقاه الله تعالى إلى المحبَّة ورزقه نصيباً من الوصول فقد وطئ بساط الصِّديقين كما ذكر الشَّيخ رضي الله عنه.

والوصول إلى المحبوب هو كما ذكره الشَّيخ الإمام محمَّد بن علي التِّرمذي[(١)] في كتاب (ختم الأولياء) وهو أنَّ الله تعالى إذا أراد أن يقرِّب العبد جذب روحه من سماء إلى سماء حتَّى ينتهي بروحه إلى المعلق تحت العرش، تتعلَّق قلوب الأولياء في ذلك المعلق، والأولياء هناك عساكر بعضهم فوق بعض فتترتَّب للولي بينهم مرتبة ولا يتصرَّف إلَّا بأمر يلازم الرُّتبة، لا يفارقها إلَّا بإذن حتَّى تذوب [٢٩٢/أ] بقاياه، وتحرق الأنوار نواحم نفسه، فتصفوا روحه من كدورات الطَّبع فهناك يقلبه الله تعالى ويتَّخذه وليّاً ويناجي روحه كفاحاً، وحاصل هذا أنَّ الولي يعرج بروحه وقلبه إلى ملكوت السَّماء، كما عرج بقالب رسول الله ﷺ، والولي يعرج بحقيقته ومعناه، فيكاشف هنالك بالقدر والآيات والخصائص والولايات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وسلَّم.

---

(١) المعروف بالحكيم الترمذي المتوفى سنة: (٢٥٥هـ).

شرح باب التَّوبة من كتاب منازل السَّائرين للهروي شرحه الشَّيخ عماد الدِّين الواسطي، قال الشَّيخ الإمام شيخ الإسلام

أبو إسماعيل، عبد الله بن محمَّد الأنصاري الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **باب التَّوبة**، قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(١)، فأسقط اسم الظُّلم عن التَّائب، والتَّوبة لا تصحُّ إلَّا بعد معرفة الذَّنب وهو أن ينظر في الذَّنب إلى ثلاثة أشياء: إلى انخلاعك من العصمة عند إتيانه، وفرحك عند الظَّفر به، وقعودك على الإصرار عن تداركه مع يقينك بنظر الحقِّ إليك.

وشرائط التَّوبة ثلاثة أشياء: النَّدم، والاعتذار، والإقلاع. وحقائق التَّوبة ثلاثة أشياء: تعظيم الجناية، وتهام التوبة، وطلب أعذار الخليقة، وسرائر التوبة ثلاثة أشياء: تمييز التقيَّة من العزَّة، ونسيان الجناية، والتَّوبة من التَّوبة أبداً، لأنَّ التَّائب داخل في الجميع من قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٢)، فأمر التَّائب بالتَّوبة.

ولطائف أسرار التَّوبة ثلاثة أشياء:

أوَّلها: أن تنظر بين الجناية والقضيَّة، فتعرف مراد الله ﷻ فيها إذ خلَّاك وإتيانها فإنَّ الله ﷻ إنَّما يخلِّي العبد والذَّنب لأحد معنيين أحدهما: أن يعرف عزَّته في قضائه وبرِّه في ستره وحلمه في إمهال راكبه وكرمه في قبول العذر منه، وفضله في مغفرته، والثَّاني: ليقيم على العبد حجَّة عدله فيعاقبه على ذنبه بحجَّته.

---

(١) سُورة الحجرات: الآية ١١.
(٢) سُورة النور: الآية ٣١.

واللَّطيفة الثَّانية: أن يعلم أنَّ طلب التَّعبير الصَّادق بينه لم يبق له حسنة بحال؛ لأنَّه يستر بين مشاهدة المنَّة وتطلب عيب النَّفس والعمل.

واللَّطيفة الثَّالثة: أنَّ مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان [٢٩٢/ب] حسنة ولا استقباح سيِّئة؛ لصعوده من جميع المعاني إلى معنى الحكم.

فتوبة العامَّة لاستكثار الطَّاعة؛ فإنَّه يدعو إلى ثلاثة أشياء: إلى جحود نعمة الستر والإمهال، ورؤية الحقِّ على الله ﷻ، والاستغناء الَّذي هو عين الجبروت والتوثب على الله، **وتوبة** الأوساط من استقلال المعصية وهو عين الجرأة والمبارزة ومحض التَّديُّن بالحميَّة والاسترسال للقطيعة، **وتوبة** الخاصَّة من تضييع الوقت؛ فإنَّه يدعو إلى درك النَّقيصة، ويطفئ نور المراقبة، ويكدِّر عين الصُّحبة، ولا يتمُّ مقام التَّوبة إلى بالانتهاء إلى التَّوبة ممَّا دون الحقِّ ثمَّ رؤية علَّة تلك التَّوبة، ثمَّ التَّوبة من رؤية تلك العلَّة.

الشَّرح: قوله: (فأسقط اسم الظُّلم عن التَّائب)؛ يعني بالعموم؛ فإنَّه إذا كان تارك التَّوبة موصوفاً بالظُّلم بصيغة التَّوكيد والتَّخصيص كان اسم الظُّلم ساقطاً عن التَّائب لفوات شرط الظُّلم المقيَّد به.

قوله: (والتَّوبة لا يصحُّ إلا بعد معرفة الذَّنب)؛ فإنَّ من لم يعرف جنايته وما أحاط به من الصِّفات والسِّمات حين اقترافها، ولم يعرف ما غاب عن بصيرته وتوارى من أحكام إيمانه عند ركوبها؛ كيف تصحُّ توبته؟!

ثمَّ ذكر حقيقة معرفة الذَّنب ما هو فقال: (وهو أن تنظر في الذَّنب إلى **ثلاثة أشياء**: انخلاعك من العصمة حين إتيانه ولا حال يبلغ في القبح، والرداءة في حق العبد مثل انخلاعه من العصمة؛ إذ العصمة وقاية العبد عن القبائح وحاجز بينه وبينها، فمتى انخلع عنها؛ سقط على بساط القبائح، ولزمه من الذَّم ما لزم أهلها؛ فمتى نظر حالته هذه كان من الأسباب الموجبة لمعرفة الذَّنب؛ إذ كان يترتَّب على معرفة الذَّنب إمكان صحَّة التَّوبة.

الثَّاني: (أن تنظر إلى فرحك عند الظَّفر به)، وذلك قبيح آخر منضمٌّ إلى قبيح انخلاعك عن العصمة؛ فلو شعر العبد حين الذَّنب بانخلاعه عن العصمة ورأى قبيح ذلك لم يفرح عند الظَّفر بالمعصية؛ فحيث سرَّ بالقبيح الَّذي ارتكبه كان ذلك في حقِّه جناية أخرى جناها؛ حيث قابل ما يوجب الكآبة والحزن والنَّدامة بالفرح والسُّرور، وذلك أيضاً من الأمور التي يتم بها معرفة الذنب، **الثالث**: القعود على الإصرار عن تداركه، وذلك أيضاً قبيح ثالث: انخلع عن العصمة ولم يشعر، وسرَّ بذلك [٢٩٣/أ] بذلك القبيح وأصرَّ عليه مع يقينه بنظر الحقِّ إليه، فأعرض عن الحقِّ المعلوم بالإصرار وتعالى عنه وغالط، وهو رؤية الحق تعالى له على الفاحشة وعلى السُّرور بها، وعلى الإصرار عن تداركها، فمتى عرف مجموع ذلك تَمَّ له معرفة التَّوبة.

قوله: (وشرائط التَّوبة ثلاثة أشياء: النَّدم والاعتذار، والإقلاع): لمَّا ذكر شرائط معرفة الذَّنب ذكر شرائط صحَّة التَّوبة؛ أوَّلها: النَّدم: وهو الأسف على أفعاله القبيحة، فمن لم يحترق تأسُّفاً وندامة على ذنبه كيف تصحُّ منه التَّوبة، الثَّانية: الاعتذار إلى الله ﷻ: وهو حقيقة الاستغفار؛ فإنَّه حين الاعتذار يكون واجداً لربِّه ﷻ في شاهده؛ حيث كان في المعصية غائباً عنه وعن نظره، فيعترف بين يديه بذنبه ويعتذر إليه من جنايته، مثل أن يقول: يا رب، غلبني هوائي، وغرَّتني نفسي بحلمك، وعميت عن نظرك وعن إحاطتك بمخلوقاتك، واقتدارك عظيم فلو شئت أن تخسف بي لاقتضى ذنبي العظيم ذلك؛ فقد عصيتك وأنا في قبضتك، فكيف بالاعتذار إليك، وأمَّا الإقلاع فهو التَّرك والعزم على التَّرك في المستقبل فبمجموع ذلك تصحُّ التَّوبة.

قوله: **(وحقائق التَّوبة ثلاثة أشياء**: تعظيم الجناية)؛ أي: لا يخرج تعظيم الجناية من قلبه مع التَّوبة، فلا يزال خائفاً وجلاً مشفقاً من العقوبة على ما استشعره من عظيم ذنبه، فذلك من حقائق التَّوبة، فإنَّ من استشعر هذا المعنى

استخرج من قلبه التَّوبة النَّصوح حقّاً فلذلك جعله من حقائق التَّوبة.

قال: وإتهام التَّوبة معناه أن يستشعر الخوف عند عدم قبول التَّوبة وإن كان الرَّجاء لقبولها ينبغي أن يكون مقروناً بالتَّوبة، لكن ينبغي أن يقابل هذا الرَّجاء خوف واتِّهام لتوبته، وهذا المعنى أيضاً يستخرج من قلبه همَّة عالية إلى التَّباعد عن مقتضيات الذَّنب فيكون ذلك التَّباعد ستراً كثيفاً بينه وبين الذَّنب، ولذلك جعل هذه النُّكتة من حقائق التَّوبة؛ فإنَّها تؤدِّي إلى تحقيق التَّوبة.

وقال: وطلب أعذار الخليقة فإنَّ من التَّوابين من إذا استشعر توبته ونسي تعظيم ما جناه أوَّلاً ولم يتم توبته تطلَّع إلى عيوب النَّاس وذنوبهم من مقامه في التَّوبة.

فلو وقف على عظم ما جناه واتَّهم توبته لشغله ذلك عن التَّنزُّل إلى بساط الخلق في معاصيهم، والنَّظر إليهم بعين المعصية وإلى نفسه بعين التَّوبة، ومن كان معظِّماً لما جناه متَّهماً توبته فإنَّه يطلب [٢٩٣/ب] إعذار الخليقة مهما أمكنه فلا يتكشَّف ولا يتطلَّع إلى عيوبهم مهما لم يعملها تحقيقاً؛ فإنَّه إذا تحقَّق بها علماً وجب إنكارها إذا أمكن، وطلب الاعتذار بعد التَّحقيق نفاق؛ فمن طلب اعتذار الخليقة في توبته حيث لم يتحقَّقها فمتَّهم إذا لاحت له مظانها ومتوهِّماتها، فإنَّ ذلك في حقِّه من علامات تحقيق التَّوبة وتصحيحها.

قوله: (**وسرائر حقيقة التَّوبة ثلاثة أشياء**: تمييز التَّقية من الغرَّة): وذلك أنَّ التَّائب إذا قام بشروط التَّوبة أوَّلاً ثمَّ حقَّقها بالثَّلاثة أشياء الَّتي تقدَّم ذكرها صفا له حال التَّوبة ففرَّق في ذلك الصَّفاء بين التَّقية لله والغرَّة به؛ فإنَّ التَّقية لله وهي المخافة له فرض واجب، والغرَّة بالله ﷻ الموجبة للاسترسال في المعاصي مذمومة وهي معصية.

ففي النَّاس من يكون حاله مجرَّد الاغترار فيحمله ذلك على اقتراف الأوزار، وفي النَّاس من يكون حاله إخلاص التَّقيَّة لله ﷻ بلا اغترار به، وفي

النَّاس من يمتزج تقيَّته باغترار كما يمتزج الشِّرك الخفي بالعمل الصَّالح، فمتى تحقَّق التَّوبة بان له في صفاء حال التَّوبة التَّمييز بين التقيَّة والغرَّة كما بين في نور اليقين التَّمييز بين الإخلاص والرِّياء، ومتى ميَّز بين التَّقيَّة والغرَّة عمل على إخلاص تقيَّة الله ﷻ عن غرته بالله كما تميَّز العمل الصَّالح عن دقيق الرِّياء، وبالله التَّوفيق.

الثَّاني: (نسيان الجناية): وذلك إنَّما يصحُّ بعد المقام الأوَّل من تعظيم الجناية واتِّهام التَّوبة، فمن حقَّق ذلك أنساه صفاء وقته مع الله ﷻ وامتلاؤه بمحبَّته وذكره عن تعظيم جنايته، فيندرج حكم حال تعظيم الجناية الممزوج في طيِّ وقته الصَّافي مع الله، فلا يقال: إنَّه ذهب حكمه، بل توارى حكمه في أنوار المشاهدة بحيث لو فتَّشه المفتِّش لوجده منطوياً في طيِّ الصَّفاء.

والثَّالث: (التَّوبة من التَّوبة): وعلَّله بأنَّ التَّائب داخل في الجميع من قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1]، فأمر التَّائب بالتَّوبة، أمَّا التَّاوبة في أثناء التَّوبة فكالتَّوبة من استكثار الطَّاعة واستقلال المعصية، وأمَّا التَّوبة في نهاية التَّوبة فإنَّما يكون في مقام التَّوحيد حين شهود أوَّليَّة الحقِّ تعالى في توبته عليه أولا كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾[2] فيتوب من رؤية استبداده بالتَّوبة باستغراقه في رؤية فضل الحق وابتدائه له بما وفَّقه من التَّوبة، وذلك في مقام الجمع الماحي لما سواه من التَّفاريق؛ إذ ذنب كل واحد مقام على قدر مقامه فيلزمه بحكم ذنبه التَّوبة منه، ويدخل من الجميع من قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾[3]

قال: (ولطائف أسرار [٢٩٤/أ] **التَّوبة ثلاثة أشياء**: **أوَّلها**: أن تنظر بين

---

(١) سُورة النور: الآية ٣١.
(٢) سُورة التوبة: الآية ١١٨
(٣) سُورة النور: الآية ٣١.

الجناية والقضيَّة، فتتعرف مراد الله ﷻ فيها؛ إذ خلَّاك وإتيانها)، وهذا من لطائف سرائر التَّوبة، فإنَّه انتباه لحكم الحقِّ ﷻ في أقضيَّته وأقداره، أمَّا الأمور المرضيَّة فالحكمة فيها ظاهرة محسوسة لا تخفى على العموم، كحكمة الطَّاعات والأسباب المعيشيَّة الَّتي بها تقوم الحياة إذا اكتسبها العبد فإنَّ فيها صلاح دينه وبدنه.

وأمَّا حكم المخالفات فإنَّها تدق على العموم، ولا يدركها إلَّا الخصوص فمن الحكم فيها معرفة عزَّة الله في أقضيته[١]؛ فإنَّه إذا أراد شيئاً أبرمه وقضاه، وملاحظة هذه الصِّفة توجب الخشية والإشفاق والعلم بنفوذ الأقدار وجريانها بلا مانع فتورِّث الذُّبول والخضوع لعزَّة المقدِّر الحكيم[٢]، ومن دام له ملاحظة العزَّة فقد أقيم في مقام المعرفة فيثمر لهم في لطائف أسرار التَّوبة هذه الفائدة، وربَّما كان ذلك ثواباً لهم على ما لحقهم في الذَّنب من الخجل والنَّدم والأسف عوضوا عن رؤية دخول التَّأخر والبعد عليهم بمثل هذه الخصيصة من المعرفة.

قوله: (وبرَّه في ستره)، وهذا أيضاً من لطائف أسرار التَّوبة أثمرت لهم التَّوبة لطائف أسرار المعارف من ملاحظة صفة البار والسَّتَّار وانتبهوا لبرِّه سبحانه فعرفوه بستره للقبيح وإظهاره للجميل.

قوله: (وحلمه في إمهال راكبه)، ومن الحكم في لطائف أسرار التَّوبة معرفة صفة حلم الله ﷻ في إمهال راكبه وكرمه في قبول العذر منه وفضله في مغفرته فأثمرت لهم التَّوبة تتبع صفات معرفة العزيز والبار والسَّتَّار والحليم والكريم والمتفضِّل والغفور، وذلك لأنَّهم لمَّا صحَّحوا التَّوبة وحقَّقوها

---

(١) كتب في الهامش: (قضائه) وعليها إشارة صح.
(٢) كتب في الهامش: (العليم) وعليها إشارة صح.

رفعهم الله تعالى في تصحيحها إلى مقامات المعارف، فانظر كيف اقتضت الحكم في ركوب الذَّنب طهور هذه النَّتائج الصَّالحة للتَّائبين المصحِّحين لمقام التَّوبة.

قوله: الثَّاني: (ليقيم على العبد حجَّة عدله) ومن مشاهدات حكم الحقِّ في الذَّنب إقامة حجَّة العدل عليه إذا عاقبه فإنَّه بذنبه الَّذي جناه استحقَّ العقوبة، وهذا أيضاً من مشاهدة الصِّفات وهي صفة العدل تورث مشاهدتها زيادة في المعارف الإلهيَّة، وتحقيقاً لكمال الرُّبوبيَّة.

قوله: واللَّطيفة الثَّانية: (أن يعلم أنَّ طلب البصير الصَّادق سببه لم يبق له حسنة بحال؛ فإنَّ الصَّادق يسير بين رؤية نعم الله ﷻ عليه بالطَّاعات والحسنات والقربات، والتَّوبة الَّتي تابها إنَّما يراها من نعمه أيضاً، فهو يسير بين رؤية النِّعم [٢٩٤/ب] وبين تفقُّده لعيوب نفسه ودسائسها وتلبُّساتها وما يمتزج بأعماله الصَّالحة من اختلافها وأحوالها القادحة في أعماله والمفسد لها.

فهو إن رأى عملاً صالحاً أو ذكراً أو فكراً أو مشاهدة أو حالاً، فإنَّما يراه من الله ﷻ، وإن رأى قبحاً أو عيباً أو نقصاً، فإنَّما يراه بقدر الله ﷻ من نفسه على نفسه جرى، وهو الَّذي اكتسبه ومن كان كذلك لم ير له حسنة بحال، إنَّما يرى المنعم المبدئ الأوَّل بها أجرى عليه من فعل الخيرات واكتساب الحسنات فتمتحي رؤية حسناته في رؤية فضل الله ﷻ، فتستره رؤية الفضل عن استحسان شيء من نفسه.

قوله: واللَّطيفة الثَّالثة: (أنَّ مشاهدة الحكم لم تدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيِّئة؛ لصعوده من جميع المعاني إلى معنى الحكم): وهذا الكلام فيه بعض الغموض ربَّما أشكل على من لا يعرف قواعد القوم فيشكل منها أنَّ استحسان الحسنة مشروع بأمر الله واستقباح السَّيِّئة مشروع أيضاً بحكم الله،

فالعارف يتعيَّن عليه أن يكون مستحسناً لما استحسنه الله، مستقبحاً لما استقبحه الله شرعاً، وهذا الاستحسان والاستقباح المشروعان يكونان في حقِّ المحجوب واقعين فيشكل أن يرتفع هذا الأمر الشَّرعيُّ من الاستحسان والاستقباح في حقِّ الواصل الَّذي صعد من جميع المعاني إلى معنى الجمع.

فيقال: إنَّ الشَّيخ رضي الله عنه في هذا المختصروفيما يليه من كتاب العلل يسوق غالب الأبواب من البدايات إلى مقام الجمع، وقليلاً ما يترجم عن حال صاحب مقام جمع الجمع، فتراه يشير إلى التَّوكُّل والزُّهد وغيرهما أنَّه من منازل العامَّة، وكذا في كتاب العلل بعده، وذلك يوهم أنَّ الواصل يرتقي عن حكم التَّوكُّل والزُّهد وغيرهما، وليس مراد الشَّيخ ذلك إنَّما مراده أنَّ المريد يرتقي إلى مقام إثبات القدم وإسقاط الحدث، فيقول: الزُّهد والتَّوكُّل الَّذي يكون في الوجود الأوَّل الَّذي أذهبه التَّوحيد وأفناه عند لمعان نور المشاهدة هو من منازل العامَّة.

وأمَّا صاحب البقاء في التَّمكين في جمع الجمع الَّذي يرد الله ﷻ عليه وجوده نشأة أخرى غير الوجود الأوَّل فيصير بالله يسمع وبالله يبصر، وبه ينطق، فإنَّه يكون بالله يزهد وبالله يتوكَّل فتعود عليه المقامات بعد فنائها بفناء الوجود الأوَّل الَّذي قام بها؛ فإنَّها تعود عليه في الوجود الثَّاني: النَّشأ بالله فيعود عليه زهده وتوكُّله وسائر أحواله، ويكون بالله فيها.

فإن قلت: [٢٩٥/أ] هذا لا أفهمه، ولا أفهم ما حقيقة الفناء، فإنَّكم تجعلون الرَّجل الموجود الَّذي يأكل ويشرب، ويذهب ويأتي فانياً، فما معنى هذا الفناء؟.

أقول: إن كنت من المحبِّين لهذه الطَّريقة؛ أجبتك، وإلَّا فخل الهوى لأناس يعرفون به، وأنت أيُّها المحبُّ لهذه الطَّائفة نجيبك ونقول: الفناء عبارة عن اصطلام العبد لغلبة وجود الحق قوَّة العلم به في العبد، فيزيد بذلك يقينه

به ومعرفته بصفائه كما يدخل الإنسان في أمر عظيم دهمه؛ فإنَّه ربَّما غاب عن شعوره بما دهمه من الأمور المهيبة.

مثاله: من وقف بين يدي سلطان قاهر صارم من ملوك الأرض أدخله عظمة ما يلاحظه من هيبته عن كثير ممَّا يشعر به، وهذا تقريب، وإنَّما الأمر فوق ذلك، فكيف بمن أشهده الله ﷻ فردانيَّته حيث كان ولا شيء معه، فرأى الأشياء مواتاً لا قوام لها إلَّا بقدرته، فشهدها خيالاً كالهباء بالنِّسبة إلى وجود الحقِّ عزَّ اسمه.

وذلك في البصائر القلبيَّة بالكشف الصَّحيح بعد التَّصفية والتَّدرُّب في القيام بأعباء الشَّريعة وحمل أثقالها، والتَّخلُّق بأخلاقها يصفِّي الله ﷻ عبده من درنه، ويكشف لقلبه فيريه حقائق الأشياء كيف هي في أصولها وفروعها، وحمله حال الفناء غلبة العلم بالله بالعلم بوجوده على العلم بوجود نفسه وشعوره بجزئيَّات الأشياء.

فمتى تجلَّت على العبد أنوار المشاهدة الحقيقيَّة الرُّوحيَّة الدَّالَّة على عظمة الفردانيَّة تلاشى الوجود الَّذي للعبد، واضمحلَّ كما يتلاشى اللَّيل إذا أسفر عليه الصَّباح، ويكون العبد في ذلك كلا شيء، فلا يظهر عليه شيء مغاير لما يعتاده، لكن يزداد إيمانه ويقينه حتَّى ربَّما غطَّى إيمانه عن قلبه كلَّ شيء في أوقات سكره، ويبقى وجوده كالخيال قائماً بالعبوديَّة في حضرة ذي الجلال ويعود عليه البصائر الصَّحيحة في معرفة الأشياء عند صحوه.

ثمَّ يزول عنه عدم التَّمييز ويقوي على حاله فيتصرَّف فيه، وذلك هو البقاء بحيث يتصرَّف في الأشياء، ولا يحتجب عنه ما وجده من الإيمان والإيقان، وفي حال البقاء يعود عليه شعوره الأوَّل بوجود آخر يتولَّاه الله ﷻ، يشهده الله ﷻ فيه قيامه عليه بتدبيره، ويصل إلى مقام المزاد بعد العبور على مقام المزيد، فيصير به يسمع وبه ينطق كما جاء في الحديث الصَّحيح وجه

آخر، وهو أنَّ الفاني في حال فنائه قبل أن يبلغ إلى محلِّ الصَّحو [٢٩٥/ب] والتَّمييز يستر التَّوحيد من قلبه محل الزُّهد والورع والصَّبر، لا بمعنى أنَّ تلك المقامات ذهبت وارتفع العبد عنها، لكن بمعنى أنَّ الشُّهود ستر محلها من القلب وانطوى واندرجت في ضمن ما وجده اندراج الحال النَّازل في الحال العالي، فصارت فيما وجده الواجد من وجود الحقِّ ضمناً وتبعاً، وصار القلب مشتغلاً بالحال الأعلى عن الحال الأدنى، بحيث لو فتَّش قلبه لوجد فيه الزُّهد والورع وحقائق الخوف والرَّجاء مستوراً بأمثال الخيال من الأحوال الوجوديَّة لضيق القلب عن الاتِّساع لمجموعها.

ثمَّ في حال الصَّحو والبقاء والتَّميُّز تعود تلك المقامات بالله، لا بوجود نفسه، وبالله المستعان.

فإذا علمت ذلك انحلَّ الإشكال عمَّا أشار إليه الشَّيخ في كتابه وفي كتاب العلل من نسبة المقامات العالية إلى أنَّها أمور العامَّة، وعلمت أنَّ الخاصَّة تعود عليهم تلك المقامات في غير ذلك الوجود وانحلَّ إشكال قوله: إنَّ مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيِّئة؛ لصعوده إلى معنى الحكم؛ أي: أنَّ صفة حكم الله ﷻ حسنات بصيرته وملائها، فشهد قيام الله تعالى على الأشياء وتصرُّفه فيها، وحكمه عليها، فرأى الأشياء كلها منه صادرة عن نفاذ حكمه وتقديره وإرادته القدريَّة فغاب بما لاحظ من الجمع عن التَّميز والفرق.

ويسمَّى هذا جمعاً؛ لأنَّ العبد اجتمع نظره إلى مولاه في كلِّ حكم وقع في الكون وفي ملاحظة هذا الحكم الَّذي صدرت عنه المتفرِّقات اجتمع قلبه ولضعف قلبه حين هذا الاجتماع لم يتَّسع للتَّمييز الشَّرعيِّ بين الحسن والقبيح بمعنى أنَّه انطوى حكم معرفته بالحسن والقبيح في طيِّ هذه المعرفة السَّاترة له عن التَّمييز، لا بمعنى أنَّه ارتفع من قلبه حكم التَّحسين والتَّقبيح، بل اندرج لي

مشهده وانطوى بحيث لو فتش لوجد حكم التَّحسين والتَّقبيح مستوراً في طيِّ مشهده ذلك، وبالله التَّوفيق.

قوله ﷺ: (فتوبة العامَّة لاستكثار الطَّاعة): كان قد قدَّم ذكر التَّوبة من التَّوبة، وكون التَّائب داخل في الجميع من قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1]، فظهر أنَّ التَّائب يلزمه أن يتوب.

فلو قال القائل: التَّائب قد تاب من جميع المخالفات وعزم على القيام بالمأمورات، فماذا يتوب بعد ذلك؟

فيقال: يلزمه بعد ذلك حين قيامه بالأمر واجتنابه عن النَّهي أن يتوب من استكثار الطَّاعة من نفسه، فإنَّ استكثاره [٢٩٦/أ] لطاعة نفسه ولتوبته هو (جحود لنعمة الستر والإمهال) ورؤية حقِّ نفسه على الله ﷻ، فإنَّ من عرف نعمة الستر والإمهال لم يستكثر لربِّه شيئاً من طاعاته في مقابلة ما أنعم عليه من ستره عليه في معصيته وإمهاله، فلم يعاقبه عاجلاً، بل حكمه أن يرى طاعاته نعمة من الله عليه، فلا يراها من نفسه أوَّلاً فيكون بذلك أعمى عن مبدئها، ولا يستكثرها لمولاه ثانياً فإنَّ ذلك رؤية نتيجة الطَّاعة من نفسه؛ إذا لو رآها من ربِّه لسأل المزيد وقام بشكرها.

ورؤيته لطاعته وتوبته من نفسه إنَّم هو لرؤية حقِّه على الله ﷻ بعمله، وعماه عن ما وجب لله ﷻ عليه من الحقوق أوَّلا وآخراً وعن نعمة الستر والإمهال، وذلك من الاستغناء الَّذي هو عين الجبروت من رؤية الاستبداد بما قام به من الطَّاعة، وهو الاستغناء، وكونه عين الجبروت هو لرؤية حقِّ نفسه على ربِّه ونسيان حقِّ ربِّه عليه، وذلك عين التوثب على الله برؤية حقِّ نفسه، **فقوله**: (توبة العامَّة)؛ أي: بعد توبتهم الأولى يلزمهم هذه التَّوبة تحقيقاً لتوبتهم الأولى.

---

(١) سُورة النور: الآية ٣١.

قال: (وتوبة الأوساط من استقلال المعصية)؛ فإنَّ الأوساط تابوا من تلك الذُّنوب، ثمَّ لم يستكثروا من أنفسهم شيئاً لله، بل شاهدوا في طاعتهم كثير الفضل من الله بالنِّسبة إلى نعمه وكونه ابتدأهم بها وشاهدوها قليلة بالنِّسبة إلى ما يلزمهم من حقوق الله وإلى نفوسهم العاجزة الضَّعيفة، فهو مستكثرون ما من الله، مستقلُّون ما من نفوسهم، لكن بقي عليهم استقلال المعصية بعد التَّوبتين الأولتين واستقلال المعصية (هو عين الجرأة)؛ فإنَّ الإنسان لا ينبغي له أن ينظر إلى صغر الذَّنب، ولكن ينظر إلى من عصاه بالذَّنب، فمن غاب عنه تعظيم من عصاه به صغر الذَّنب عنده وكان ذلك عين الجرأة على الله ومبارزته له بالمعصية؛ حيث رآها قليلة صغيرة؛ وذلك لعدم شعوره بعظمة خالقه وقهره لعباده وقدرته عليهم، وإحاطته بهم، وإطِّلاعه عليهم، وعظمة نهيه وأمره.

وذلك أيضاً (محض التَّديُّن بالحمية)؛ فإنَّ استصغار ذنبه واستقلاله إنَّما المادَّة الموجبة له الحمية النَّفسانيَّة الَّتي وجدت فيه؛ فإنَّه لحمية نفسه أنف أن ينسب إليه عيب الذَّنب ونقصه؛ فرآه لحمية نفسه صغيراً حقيراً؛ إذ مثله بحميته لا يلحقه عار ينقص به [٢٩٦/ب] بسبب الذَّنب، وذلك أيضاً (استرسال للقطيعة) عن الله ﷻ؛ فإنَّ رؤيته صغر ذنوبه تحمله على الاستكثار منها والإصرار عليها موجب للبعد عن الله ﷻ، وذلك هو القطيعة عنه وعن رحمته وتوليه.

ورؤية العبد تعظيم حرمات الله وتعظيم هتكها وارتكابها هو من تعظيم قدر الله ﷻ عنده، وفي قلبه، وذلك موجب التَّحرُّز الشَّديد عنها، والتَّحرُّز عنها موجب للطَّهارة، والطَّهارة بترك المعاصي موجب لصعود الأعمال الصَّالحة؛ لخلوِّها عن معارض يصدُّ عن قبولها، ووجود الطَّاعات الخالية عن المعارض فتح لباب القرب والمواصلة كما أنَّ ضده موجب للبعد والمقاطعة.

قوله: (وتوبة الخاصَّة من تضييع الوقت؛ فإنَّه يدعو إلى درك النَّقيصة)؛ فإنَّ

الخاصَّة قد حفظوا من أغلب الذُّنوب العامَّة لا يستكثروا طاعة، ولا يستقلوا معصية، لكن يدخل عليهم النَّقص من جهة تضييع الأوقات؛ فإنَّها مراحل لهم إلى ربِّهم، كلَّما عمَّروا ساعة أو لحظة أو نفساً قطعوا بذلك مسافة من مسافات الأبعاد إلى قرب الحنَّان الرَّحيم الجواد، فإذا ضيَّعوا شيئاً من أوقاتهم أدَّاهم ذلك إلى درك النَّقيصة، والدَّركة: واحدة الدَّركات، كما أنَّ الدَّرجة: واحدة الدَّرجات، فتضييع الأوقات موجب للنقيصة، والنَّقيصة موجبة للانحطاط في دركة عن الصُّعود إلى جنَّاب القرب، وأيضاً فإنَّ تضييع الأوقات يطفئ نور المراقبة، واستعمال المراقبة شرط وهو الحياء الَّذي شرطه أوَّلاً في الأصول للسَّائرين بين الخوف والرَّجاء شاخصاً إلى الحبِّ مع صحبة الحياء، فباستعمال دوام المراقبة تقطع الطَّريق إلى الله ﷻ وبنور المراقبة تسهل المشاق البدنيَّة؛ لأنَّ النُّور يوجب انشراح الصَّدر وذهاب كلفة الكدِّ.

فتضييع الأوقات يذهب عمل المراقبة ويطفئ نورها فتحصل الفترة، فتحط الفترة العبد في دركة من دركات النَّقص، ومتى انطفأ نور المراقبة تكدَّر صفاء الصُّحبة مع الله ﷻ، فإنَّ الصُّحبة مع الخلق إنَّما يكون بمكارم الأخلاق ومع الحقِّ سبحانه بالعبوديَّة، والمراقبة بالحياء والحبِّ والتَّعظيم، فمتى ضاع الوقت ذهبت المراقبة وانطفأ نورها وتكدَّر صفاء تلك الصُّحبة مع الخالق سبحانه.

قوله: (ولا يتم مقام التَّوبة إلى بالانتهاء [٢٩٧/أ] إلى التَّوبة ممَّا دون الحقِّ): وذلك لا يصحُّ إلَّا في حال المحبَّة الخاصَّة؛ فإنَّ الإنسان إذا رزق المحبَّة الخاصَّة يتوب روحه ممَّا سوى محبوبه توبة حاليَّة لا تكلُّف فيها فيمل من الحديث في غير محبوبه، ويتبرَّم بذكر سواه، ويستثقل كل شاغل يشغله عن حبيبه، وهذا هو حقيقة التَّوبة فقد علمت أنَّ حكم التَّوبة جار على العبد في أوَّل سلوكه وسيره إلى نهايته، فيكون في بدايته تائباً من الذُّنوب العامَّة، ثمَّ من

استكثار الطَّاعة، ثمَّ من استقلال المعصية، ثمَّ من تضييع الوقت، فإذا توطن للمحبَّة فتوبته فيها من السُّوى، وتوبة كل عبد على حسب مقامه؛ إذ ذنبه على حسب مقامه.

قوله: (ثمَّ رؤية علَّة تلك التَّوبة)؛ معناه والله أعلم: أنَّ التَّائب عن السُّوى في مقام المحبَّة يبنبغي أن يتفقَّد علل هذه التَّوبة، كما تفقَّد أوَّلاً في التَّوبة العامَّة، فلمَّا تفقَّدها وجد فيها استكثار الطَّاعة فوجد ذلك علَّة في التَّوبة العامَّة يلزم منها رؤية عمله والذُّهول عن نعمة ربِّه، فكانت توبته من علَّة التَّوبة العامَّة بالرُّجوع إلى رؤية فضل الحقِّ ونعمه وستره وإمهاله، كذلك هذا التَّائب عن السُّوى؛ فتَّش فوجد تلك العلَّة الأولى في عمله، وهو ذهوله عن أوليَّة الحقِّ في توبته هذه، فلمَّا رآها تاب منها بالرُّجوع إلى أوليَّة الحقِّ والاستغراق في التَّوحيد فأدته التَّوبة إلى آخر المقامات؛ لأنَّ آخر المقامات هو الاستغراق في التَّوحيد، وفيه يكون فناء من لم يكن، وبقاء من لم يزل.

وقد بوَّب عليه الشَّيخ ﷺ باباً ختم به الكتاب، سمَّاه باب التَّوحيد، كما جعله خاتمة باب التَّوبة وخاتمة أغلب الأبواب، وبالله التَّوفيق، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدِّين.

شرح باب المحاسبة من منازل السَّائرين أيضًا

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: باب المحاسبة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾(١)، وإنَّما يسلك طريق المحاسبة بعد العزيمة على عقد التَّوبة.

والعزمة ولها ثلاثة أركان؛ أحدها: أن تقيس بين نعمته وجنايتك، وهذا يشقُّ على من ليس له ثلاثة أشياء: نور الحكمة، وسوء الظَّنِّ بالنَّفس، وتمييز النِّعمة من الفتنة.

والثَّاني: [٢٩٧/ب] تمييز ما للحقِّ عليك عمَّا لك أو منك، فتعلم أنَّ الجناية عليك حجَّة، والطَّاعة عليك منَّة، والحكم عليك حجَّة، ما هي لك معذرة.

والثَّالث: أن تعرف أنَّ كلَّ طاعة رضيتها منك فهي عليك، وكلَّ معصية عيَّرت بها أخاك فهي إليك، ولا تضيِّع ميزان وقتك من يديك.

قوله: (إنَّما يسلك طريق المحاسبة بعد العزيمة على عقد التَّوبة)؛ لأنَّ المحاسبة عبارة عن تفقُّد سعايات الظَّاهر والباطن بعد العزم على الاستقامة؛ لينظر إصابتها لمواقعها المرضيَّة على قانون العقد الَّذي عزم عليه أم لا، وهذا شيء عامٌّ في حركات الظَّواهر من رعاية الجوارح السَّبع عن تعدِّيها في حركاتها وخروجها عن ضياء قانون العدل إلى تخبيط ظلمات الظُّلم.

والجوارح السَّبع: العين، والأذن، واللِّسان، والبطن، والفرج، واليد، والرِّجل، فكما عمَّت المحاسبة حركات الظَّاهر؛ عمَّت أيضاً سعايات الباطن

(١) سُورة الحشر: الآية ١٨.

من رعاية الهموم والخطرات والعقود، والعزام والنِّيَّات، وحفظ القلب عن أباطيل الأماني والوساوس والخيالات.

ولا تتمُّ المحاسبة إلَّا بسياسة هذه الأشياء على قانون العقد الَّذي عقده في توبته؛ فإنَّه عقد على الاستقامة والمحاسبة يسوس أبعاضه وأغراضه على الاستقامة حتَّى تستمر في حقِّه حكم التَّوب، ويطلق عليه اسم التَّائب ظاهراً وباطناً، فكان حاله أوَّلاً اليقظة، ثمَّ التَّوبة عن الماضي، والعزم على الاستقامة في المستقبل، والمحاسبة هي حقيقة العزم المستقبل وإمضائه.

قوله: (والعزيمة لها ثلاثة أركان)؛ أي: عزيمة عقد التَّوبة، (أحدها: أن تقيس بين نعمته وجنايتك): وهذا المعنى تقدَّم مفصَّلاً في باب اليقظة، وأنَّه أشار فيها إلى لحظ القلب في النِّعمة على الإياس من عدها، والوقوف على حدِّها والتَّفرُّغ إلى معرفة المنعم بها، وأشار أيضاً في الباب إلى مطالعة الجناية والوقوف على الخطر فيها، والتشمر لتداركها فذاك الَّذي تقدَّم في باب اليقظة هو معنى قوله ههنا أن تقيس بين نعمته وجنايتك؛ أي: تقيس بين ما وجب عليك من حقوق نعمته وبين ما يلزمك من عقوبات جنايتك.

فإذا قست هذا القياس الَّذي ذكره في باب اليقظة أدَّاك هذا القياس إلى الخجل والانقطاع في مقابلة النِّعم بالمخالفات؛ إذ كان العدل يقتضي مقابلتها [٢٩٨/أ] مقابلتها بالموافقات فيحملك ذلك إلى تحمُّل أعباء العبوديَّة بالقيام بشكر النِّعمة والتَّخلُّص من ورطة الجناية بالاستقامة ظاهراً وباطناً في سعايات الظَّاهر والباطن، وقويت باستمرار هذا القياس على دوام الرِّعاية والمحاسبة الَّذي هو مضمون هذا الباب؛ إذ الرِّعاية والمحاسبة تتمُّ الاستمرار على الاستقامة في ضدِّها ينعكس الأمر بمقابلة النِّعم بالمخالفة والإعراض عن شكر النِّعمة وتدارك المعصية.

ولأجل ذلك أعاد القياس بين النِّعمة والجناية مرَّة أخرى في هذا الباب،

وكما قال في باب اليقظة أنَّ معرفة النِّعمة تصحُّ بثلاثة أشياء عدَّ منها: نور العقل، كذلك ههنا القياس بين النِّعمة والجناية (يشقُّ على من ليس له: نور الحكمة)؛ فإنَّ بنور الحكمة الشَّرعيَّة الموزونة على الأنبياء صلوات الله عليهم المستفادة من الكتب المنزَّلة من السَّماء المتضمنة بالله على العبيد من الحقوق والنِّعم، وما يستحقُّه العبيد من مثوبات الطَّاعات وعقوبات الجنايات يظفر في نور هذه الحكمة القياس بين النِّعمة وأحكامها والجناية وأحكامها، ويظفر أيضاً في نور الحكمة أنَّ أحكام النِّعمة تقتضي الشُّكر وأحكام الجناية تقتضي التَّدارك.

وإنَّما ذكر في باب اليقظة نور العقل وفي المحاسبة نور الحكمة؛ لأنَّ المستيقظ يكفيه نور العقل فيمكنه بذلك أن يستيقظ.

وأمَّا المحاسبة فلا يكفيه ذلك حتَّى يوزن نور الحكمة الَّتي يزن بها ما عليه وما له، وما منه، وذلك لا يعرف إلَّا بنور الحكمة الشَّرعيَّة؛ ولذلك يشقُّ القياس بين النِّعمة والجناية على من ليس له اتِّهام النَّفس، وسوء الظَّنِّ بها فيغلب عليه رؤية حقوقها وتزكيتها واستقلال معاصيها واستكثار طاعاتها، وكذلك يشقُّ على من ليس له تمييز بين النِّعمة والفتنة فمن النَّاس من لا يفرِّق بين نعم الله ﷻ في حقِّ أوليائه، ومحنه وفتنه في حقِّ عباده.

فسائر المنافع الظَّاهرة والباطنة إذا استعملت في مواضعها ومواقعها كانت نعمة، وإذا تعدِّي بها عن وضعها المشروع إلى أبواب الظُّلم والعدوان كانت فتنة؛ فالمال مثلاً: هو نعمة في حقِّ شخص، فتنة في حقِّ آخر، واتِّهام النَّفس والتَّمييز بين النِّعمة والفتنة إنَّما يستبين أيضاً في نور الحكمة، فمن ليس له ضوء الحكمة، ولا اتِّهام النَّفس، ولا التَّمييز بين النِّعمة والفتنة [٢٩٨/ب] شقَّ عليه القياس بين أحكام نعم الله على العبد وبين ما لزمه وأحاط به من أصاب الذُّنوب والجنايات، فلا تكمل المحاسبة له.

ومن كان له ضوء الحكمة والاتِّهام للنَّفس والتَّمييز بين النِّعمة والفتنة أمكنه أن يقيس بين النِّعمة والجناية على الدَّوام، فيعرف ما يلزمه من العبوديَّة لله ﷻ فيها من شكر النِّعمة بالطَّاعة والتَّخلُّص من الجناية بدوام الاستقامة فيسوس نفسه فيهما على مقتضى ذلك ويتفقَّد ما يجري على ظاهره وباطنه من السعايات، وهذه السِّياسة هي المحاسبة الَّتي هي مقصود الباب.

قوله: (الثَّاني: تمييز بين ما للحقِّ عليك عمَّا لك أو منك)؛ فإنَّ ذلك يلتبس أيضاً على من ليس له نور الحكمة، فالَّذي للحقِّ ﷻ أشياء: فمنها الفرائض الشَّرعيَّة والحدود والأحكام هي حقُّه عليك، فليس لك أن تتعدَّاها كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[1]، ولك استعمال ما أباحته لك الشَّريعة ورخَّصت لك في تناوله.

وممَّا لله عليك تنسبه إليه وتوحُّده فيه، ولا تشرك معه فيه نفسك هو ما قسمه لك من الطَّاعات وأجراه عليك من النِّعم، فهذا من الله ليس لك فيه إلَّا ما حرَّكتك به الأقدار من كسب الطَّاعات الَّتي تستحق عليها الثَّواب بفضل الله، فتنظر إلى أوَّليَّة الحق فيه فتوحِّده فيه أوَّلاً، ثمَّ تنظر ما لك فيه ومنك ومن الكسب؛ فترجو عليه الثَّواب، وكذلك في المعصية ترى الأقدار جارية بالعدل وترى نفسك كاسبة لذلك الإثم فتعرف في ذلك هذه المقدر وتستغفره، وترى مالك في ذلك ومنك ومن الكسب فتخاف عليه العقوبة وتقوم فيه بحكم التَّوبة.

فمتى حقَّقت ذلك؛ ميَّزت ما للحقِّ عليك عمَّا لك أو منك فتعلم حينئذٍ أنَّ الجناية عليك حجَّة فلا تحتج فيها بمجرَّد قدر الله وحكمه، بل تنظر إلى ما كسبته يداك وما توعَّدك عليه فيه مولاك، ووجه كون الجناية حجَّة عليك هو أنَّ الإنسان إذا احتجَّ في المعصية وقال: قضى؛ فيقال له: كما قضى حكم

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٩.

المعصية قضى عليك عقوبتها لما كسبته يداك؛ فإنَّ القضاء لا ريب أنَّه من الله ﷻ، ولكنَّ الكسب منك؛ فإنَّك اكتسبت الذَّنب وتلبَّست به واخترته، وأردته وتلذَّذت به، وباشرته، فقضى عليك بعقوبته كما قضى عليك بوقوعه، فليس الحكم لك حجَّة، بل عليك وكذلك تنظر الطَّاعة عليك منَّة من الله ﷻ، فلا تثبت نفسك فيها وتغيب عن نعمة [٢٩٩/أ] المنعم.

ومن لم يميِّز في المحاسبة، ولم يفرِّق بين ما لله من الأحكام والنِّعم وبين ما له في الأحكام من الإباحة، وما عليه بموجبها من الخطر، ولم يعرف نعم الله في الطَّاعة وإقداره في المعصية، وما اقترن بذلك منه من اكتسابه الموجبة للوعد والوعيد، ولم يعرف أنَّ الذَّنب منه، ولله عليه فيه الحجَّة، وأنَّ الطَّاعة له، ولله عليه فيها المنَّة، وإلَّا كان نظره معكوساً فيكون عند النعمة والطَّاعة يرى نفسه ويغيب عن أوَّليَّة ربِّه فيها، وعند الذَّنب يرى الأقدار ويغيب عن كسب نفسه، فيكون في الطَّاعة قدريَّاً وفي المعصية جبريَّاً؛ فقوله: (وتمييز ما للحقِّ، فالَّذي للحقِّ عليك أحكامه وحدوده ونعمه الظَّاهرة والباطنة، ومنها التَّوفيق إلى الطَّاعات، ومنها الحجَّة عليك في المعاصي، فذلك كله ممَّا للحقِّ عليك.

وقوله: (عمَّا لك ومنك): فالَّذي لك ومنك هو الاكتساب للحسنات بعد رؤية الأوَّليَّة فيها؛ فإنَّ ذلك ترجو أن تستحقَّ به الثَّواب بفضل الله، وكذلك الرُّخصة بالتَّحرُّك فيما أباح الله هو لك أيضاً، وأمَّا الَّذي منك فهي المعصية؛ فإنَّها وإن سبقت بها الأقدار فحكمها عائد عليك؛ لأنَّها كسبك، فحينئذٍ تميِّز بين ما لله ﷻ من الأحكام والنِّعم والأقدار، وبين ما له عليك أيضاً من الحجَّة البالغة فيما أمرك ونهاك، وله الحجَّة عليك أيضاً فيما قدَّره عليك؛ حيث اكتسبته أنت، فتميِّز بين ما له عمَّا لك من جزاء الأعمال الصَّالحة الَّتي ترجو عليها ثواب الله، وعمَّا لك أيضاً من الرُّخص الشَّرعيَّة، وعمَّا منك من

الحسنات والسَّيِّئات.

قوله: **الثَّالث**: (أن تعلم أنَّ كلَّ طاعة رضيتها منك فهي عليك): وهذا سبق تقريره في التَّوبة من استكثار الطَّاعات، واستكثار الطَّاعات: هو استعظامها ورضاها من نفسه، ومن رضي طاعاته كانت عليه لا له؛ لأنَّه لم يرضها إلَّا وقد غاب عن تقصيره لله ﷻ فيها، وعن عظيم ما يجب من حقِّ الله، ومن عظم عنده قدر ربِّه لم يرض له من نفسه شيئاً.

قال: (وكلُّ معصية عيَّرت بها أخاك فهي إليك)؛ أي: من عيَّر أخاه بالمعصية ولم يرحمه عند الإنكار عليه وإقامة الحدِّ الشَّرعيِّ عليه بملاحظة الأقدار الجارية عليه، فقد باء بإثمِّ معيرته له؛ حيث عيَّره فكأنَّما صارت نسبة الذَّنب إلى المعير؛ حيث باء بإثمِّ بتعييره[1] فلا يستعمل العبد مع غيره ما وجب عليه أن يستعمله في نفسه من رؤية القدر حجَّة عليه، وكونه لا معذرة له فيه.

فأمَّا مع الخلق إذا [٢٩٩/ب] شاهد معاصيهم فيرى سبق الأقدار عليهم حين الإنكار، وإقامة الحدِّ يطلب معاذيرهم إذا أمكن.

قال: (ولا تضع ميزان وقتك من يدك)؛ أي: حيث ظهرت لك الموازين في المحاسبة بالقياس بين النِّعمة والجناية وسوء الظَّنِّ بالنَّفس، والتَّمييز بين النِّعمة والفتنة، وتمييز ما للحقِّ عليك عمَّا لك أو منك، فلا ترضى عن نفسك ولا تعيِّر أخاك؛ فهذا هو ميزان وقتك، فلا تضعه ولا تقلب هذه الحقائق والأحكام.

ومتى قلبتها فلا تقيس بين النِّعمة والجناية، وتزكِّي النَّفس ولا تتَّهمها، ولا تميِّز بين النِّعمة والفتنة، ولا تميِّز بين ما للحقِّ عليك عمَّا لك أو منك، فترى

---

(١) كتب في الهامش: (تعييره) وعليها إشارة نسخة.

القدر حجَّة لك والطَّاعات كثيرة مرضيَّة منك، تنسى فيها رؤية المنعم المبدئ المتفضِّل، فترى المعصية حقيرة قليلة في حقِّك، كثيرة خطيرة في حقِّ غيرك، موجبة للتَّعيير منك، ترى الأقدار حجَّة لك في معصيتك، ولا تراها حجَّة في معصية غيرك، فتنسى كسبك الذُّنوب وتغيب عنه بالقدر، وترى كسب غيرك للمعصية وتغيب برؤية كسبه عن رؤية القدر الجاري عليه، فتنقلب بذلك الحقائق ويختل ميزان المحاسبةن ومتى عرفت هذا الميزان ووزنت به نفسك كما أمرت تم لك ميزان المحاسبة بتوفيق الله تعالى إن شاء الله تعالى، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

رحلة الشَّيخ العابد، الزَّاهد، السَّالك العارف المحقِّق، عماد الدِّين، أحمد بن الشَّيخ إبراهيم الواسطي، وشرح تقلُّباته في عمره

كتبت لمستفيد مشتاق إلى الوقوف على أحوال أهل العصر، فيعرف بذلك سليمهم من سقيمهم، ومعوجهم من مستقيمهم، والله بكرمه ينفع بها طالباً يريد بها نهج الاستقامة واجتناب أحوال أهل الانحراف والملامة، وذلك بعد مطالعتي لرحلة سلمان الفارسي رضي الله عنه في طلب الهدى وعبوره عليه بعد عناء شديد؛ وجدت بين رحلتي ورحلته مناسبة من بعض الوجوه فأحببت تعليق جمل منها، أرجو بها النَّفع للمهتدين إن شاء الله تعالى، وبه التَّوفيق والعصمة، وهو حسبي ونعم الوكيل [٣٠٠/ أ].

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، ربِّ يسر وأعن

الحمد لله الَّذي بيَّن لعباده مناهج سبيله فعبدوه، وتعرَّف إليهم بآياته وبيِّناته فعرفوه، وكشف لهم عن قدره فتوكَّلوا عليه ووثقوه، وظهر لقلوبهم بآثار صفاته فأحبُّوه وألهوه، وأشهد أن لا إله إلَّا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله الَّذي وعد الله عباده محبَّته لهم إذا هم اتَّبعوه صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما سبَّحه الأملاك وما قدَّسوه.

وبعد: فلمَّا كان بيان الحقِّ والهدى لعباد الله من النَّصيحة التي أمر الله بها ورسوله ﷺ حيث قال ﷺ: «**الدين النصيحة، لله ولرسوله ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم**»[1]، ولا يتمُّ ذلك إلَّا ببيان الانحراف؛ فإنَّه لا يعرف الشَّيء غالباً إلَّا

(١) تقدم تخريجه.

بضدِّه، وبالنُّور ينكشف الظَّلام وبالشُّعاع يتجلَّى القتام.

أحببت أن أشرح حال رحلتي في طلبي وما لقيته من الطَّوائف المنحرفة عن نهج الحقِّ والصَّواب؛ إذ في النَّاس من تظنهم من أهل الله، وربَّما يتوسَّل بهم إلى الله ليكون ذلك لطالب الهدى في آخر الزَّمان تبصرة وبرهاناً ومعراجاً إلى معرفة مراد الله تعالى من عباده في مطالبهم وعقودهم وأحوالهم ليقوم الطَّالب بذلك، فيلقى ربَّه تعالى بخالص العبوديَّة، فتقرُّ عينه بلقائه وبجانب من ظهر انحرافه عن طريقه أهل الحقِّ، ويعلم ماهيَّة أذواق النَّاس وحقائق أحوالهم في رأس السَّبع مئة من الهجرة النَّبويَّة.

فكثير من النَّاس من يخفى عليه حقائق أحوالهم ويتغطَّى عنه ما أنعم الله عليه؛ حيث أحياه في ستر العافية وأوقعه بين أهل السُّنَّة والجماعة من طفوليَّته إلى سنِّ شيخوخته فهو لا يدري ما أحدث النَّاس ولا ما يتقلَّبون فيه من خطوات الشَّيطان وشركائه ومصائده، ولا يدري ما بدَّلوا من دين الله وشريعته فيستفاد بمعرفة أحوال المحقين من المبطلين، والنَّاقصين من الكاملين، والمنحرفين من المستقيمين، ويتوصَّل بذلك إلى سلوك الحقِّ واجتناب الباطل، ويشكر الله تعالى على نعمه والعافية ممَّا ابتلى به كثيراً من خلقه.

وذلك بعد مطالعتي لرحلة سلمان الفارسي في سيرة النَّبيِّ ﷺ؛ فرأيت رحلتي مناسبة من رحلته، فعلَّقت جملاً منها، وإلى الله أرغب في النَّفع بذلك، وهذا الفنُّ من العلم حرام على من يريد به الوقيعة بين النَّاس لنيل أغراضه الفاسدة أو الانتصار لهوى متَّبع، وهو مباح، بل مستحبٌّ [٣٠٠/ب] لمن يريد التَّوقِّي من التَّعثُّر في الورطات والوقوع في المذلَّات، لا لمن يريد المعاياة والفرقة والمحاكاة فيتَّخذ ذلك فرجة وسمراً لا معرفة وعبراً، فيكشف أستار النَّاس بلا نيَّة صحيحة، والأعمال بالنِّيَّات، ولكلِّ امرئ ما نوى، والله الموفِّق للصَّواب.

فصل

أوَّل ذلك أنَّه كان مولدي ومنشأي بين طائفة من الأحمديَّة؛ لأنَّ أبي عفا الله عنه كان رئيساً من رؤسائهم وورداء شيوخهم، وكان مطاعاً يقول بالنَّفع المتعدِّي من قضاء حوائج النَّاس وإطعام الطَّعام ورد اللهفة، وذلك هو طريق الفقراء الأحمدية؛ فمنهم من يعامل الله تعالى بذلك، ومنهم من يريد به إقامة رئاسته وتحصيل قيامه ومادَّته.

فما عرفت دين الإسلام ولا فتحت عيني إلَّا بين قوم يتَّخذون الغناء شعاراً والرَّقص على القصب والكف قربة ودثاراً، والاجتماع على الضِّيافات عادة وإلزاماً، والاجتماع بالأجنبيَّات معروفاً لا ينكر، ومحادثتهنَّ ومسامرتهنَّ مباحاً لا يقبح، لا يعرفون تحريم غضِّ الأبصار عن المحارم، ولا يفتِّشون على آداب الشَّريعة من الحدود والأخلاق والعزائم، قد أسكنوا شيوخهم في قلوبهم في محلِّ العبادة، فإليهم يلجأون في نوائبهم، وإيَّاهم يذكرون عند نوازلهم، الشَّيخ في قومه كالنَّبي، بل ربَّما عظَّموه فوق تعظيم الأنبياء من حط الرُّؤوس بالسُّجود وكشفها بين يديه والاستجارة من سخطه وعقوباته الباطنة الغيبيَّة، يعتقدون أنَّه يقول ما يشاء، يميت الحيَّ، ويبرئ المريض، ويضرب بسهمه من يشاء فيقتله.

ووجدت فيهم أذكياء يعلمون أنَّ الأمر ليس كذلك، ولكن حصل لهم بسبب تعظيمهم لشيوخهم رئاسة بين الناس وفتوحاً، فهم يقيمون جاه شيوخهم إبقاء على حظوظهم لنفسهم، لا يعرفون الحلال ولا الحرام ولا الورع عن المحارم والاحترام، يجيء إليهم المحبُّ بالطَّالب لطريق الله؛ فيتوِّبونه ولا يعلِّمونه حدود الله، ولا أمره، وكيف وهم يجهلونها علماً ويتركون أحكامها

عملاً، لا يأمرون مريدهم بإتقان العبادات، ولا بتحقيق معرفة حدودها من فرائض الطَّهارة وسننها وفرائض الصَّلاة وسننها.

ويقولون: إذا قيل لكم: ما مذهبكم؟ فقولوا: الماء، والمحراب أبغض ما لهم الفقهاء إلَّا عند نكاحهم وطلاقهم أو بيوعهم، فيحتاجون إليهم؛ لأنَّ أمرهم لا ينفذ إلَّا بذلك، ولو أمكن الاستغناء عنهم؛ لاغتنوا، فلا محاسبة في الجوارح، ولا مراقبة في [٣٠١/أ] الباطن، ولا مراعاة لحدود الشَّرع، ولا حرصاً على آداب الرَّسول ﷺ في عباداته وعاداته، بل يحرصون على سيرة شيخهم الأكبر مثل حضور مجلس السَّماع بعد العشاء.

يزعمون أنَّ بحال الغيب يحضره، فترى شيوخهم حريصين في ذلك الوقت على الاجتماع وجمع الهمِّ فيه، فإذا جاء وقت الصَّلاة نقروا نقر الغراب، لا يصدِّق أحدهم متى ينفتل من صلاته فيخرج من صلاته إلى السَّماع كما يخرج المحبوس من بيت مظلم ضيِّق إلى الفضاء، يسافرون بأصحابهم معهم المغاني والرَّايات تتبعهم الرِّجال والنِّساء، يقيمون السَّماع، وتضرب النِّساء منطقه حول الرِّجال بارزة وجوههم، وربَّما بات النِّساء في مواضعهم رغبة في الأجر، ولكونه في معتقدهم مجمع الأولياء، فيتعبَّدون بالمبيت حول الرِّجال، وفي ذلك الدَّسائس وقضاء أوطار النُّفوس.

فإذا أقاموا السَّماع عمد مولهوهم إلى حيَّات لهم معدودة في الأكياس فيستخرجوها ويقضموها قضم الخيار، وتسيل دماؤها على أشداقهم، ثمَّ ينفخونها على النَّاس يزعمون أنَّ ذلك يستحيل في أفواههم زعفران وفاكهة، ورأيت منهم من يأكل الضَّفادع بعدها قبل السَّماع في عبِّه، فإذا قام الطَّابق أخرج واحدة وقضمها، ولا ينكر ذلك أحد عليهم لا من فقهائنا ولا من صلحائنا، بل صارت هذه البدع عندنا سنَّة معروفة وشعاراً ظاهراً.

فيحق لذلك تملُّك التَّتر بلادهم واستيلاؤهم عليهم، بل هم طيِّبون في

دولتهم؛ لأنَّهم معتقدون فيهم، معظِّمون لهم، فهل تقوم الطَّريقة العمياء إلَّا في الدَّولة السَّوداء، كما لا تقوم الطَّريقة المنوَّرة إلَّا في الدَّولة البيضاء؛ دولة أهل الإسلام، وربَّما لم ينقطع أثر الخلفاء في بغداد إلَّا لكونهم لم ينكروا مثل هذه الأشياء ولم يغيِّروها، وسلَّموها لهم قطعهم الله تعالى بذلك.

أيُّها السَّالك، إن أردت الطَّريقة المثلى؛ فاعكس هذه الأمور واعتمد خلافها، تصيب مراد الله منك، فهذا سلوك لك إن فهمت وهو كافيك، أوَّل التَّوبة عندهم في البداية الرَّقص وخدمة الفقراء، والنِّهاية عندهم الَّتي ينتهي إليها الطَّلب ويحصل الوصول أن يصير للفقير قبولاً بين النَّاس ويصير صاحب أخذ وعطاء، من لم يكن كذلك لم يصل، ومن حصل له ذلك فقد كمل، ولهم مع ذلك أمور تكاد [٣٠١/ب] تخرجهم من الإسلام؛ منها أنَّهم كانوا يأخذوني وأنا طفل إلى زيارة قبَّة الشَّيخ، فيمشي في المركب إلى القرية الَّتي هو فيها مدفون؛ أعنى: أم عبيدة، فإذا لاحت القبَّة كشفوا رؤوسهم وتضرَّعوا وابتهلوا، وربَّما بكوا وانتحبوا ورقَّت قلوبهم ودعوا بحوائجهم.

فإذا جاؤوا إلى باب قبَّة الشَّيخ كشفوا رؤوسهم وسجدوا على عتبته، وكنت أسجد معهم في صغري، ووقفوا على بابه أذلاء وقوفاً طويلاً، علم الله ما يعظِّمون الكعبة كما تعظَّم قبة الشَّيخ، بل هناك في الرواق سارية فإذا رأوا قبَّة الشَّيخ من الَّذي يتجرَّأ[1] أن يدخل القبَّة، بل فيهم من قد شاخ ولا يدري ما داخل القبَّة، ثمَّ يطوفون سبعاً بتلك السَّارية، فيكون الوقوف على باب القبَّة كعرفة وتلك السَّارية كالكعبة، فيكون ذلك حجَّاً لهم كحجِّ الرَّافضة إلى قبر الحسين.

وحكى لي بعض شيوخهم مادحاً لبعضهم ومترحِّماً عليه: إنَّه كان يحرم إذا لاحت القبَّة ويتجرَّد من مخيط الثِّياب حتَّى يدخل القرية ويقضي إربه من

(١) كتب في الهامش: (يستجرئ) وعليها إشارة نسخة.

الزِّيارة، ثمَّ يحلُّ من إحرامه، وفيهم من لا يجز شاربه إلَّا عند قبَّة الشَّيخ، وأهل الرواق المجاورين يتعبَّدون برؤية قبَّة الشَّيخ كأنَّها إله يعبد، فيرمقونها بأبصارهم، وتتصاعد لذلك أنفاسهم، ويأنسون بها أنس العابد بمعبوده، وكيف لا وهم يرون العالم من آفاق الدُّنيا يقصدونها بالتَّعظيم وحطِّ الرُّؤوس، والسُّجود لها، ويبذلون أموالهم نذراً لها من الدَّراهم والشُّموع وغير ذلك.

ومن ذلك أنَّهم كانوا لا يتحاشون مؤاخاة النِّساء الأجانب ولا المبيت معهنَّ، ولا يتخاشون من مؤاخاة الصَّبي الجميل ولا المبيت معه، يزعمون أنَّهم في المبيت لا يصدر منهم زنا، وربَّما يتَّخذ الشَّيخ منهم أخوات وبنات في الله بزعمه فينام في جانب وأخواته وبناته في الله في البيت في جانب آخر، ثمَّ يطفئ المصباح، فمن أراد أن يتبرَّك بقدم الشَّيخ يكبسها فلا بأس، فإن قبل الشَّيخ إحداهنَّ وضاجعها فلا يدري ما يصنع بعد ذلك.

فإذا جاء الشَّيخ الأكبر إلى مريد من مريديه ممَّن استخلفه وجعله شيخاً فيجيبون أصحاب الشَّيخ الأصغر ويطالبونه بأن يجمع لهم أخوات يسكنون [٣٠٢/أ] إليهنَّ، فيجمع الشَّيخ من نساء أصحابه جمعاً ويفرِّقهنَّ على أصحاب الشَّيخ.

حدَّثني من لا أتَّهمه[١] سعد الآكال يقع في قواصر تمر فيزعم أنَّه يأكلها بالحال، وأنَّه كان صبيَّاً ينام في عناق فلان خادم الشَّيخ أحمد الكبير، كأنَّه يفتخر بذلك وبعناقه له، فذكر لي والله أعلم بصدقه من كذبه أنَّه ليلة من اللَّيالي، وهذا سعد كان يعتقد أنَّ الشَّيخ نجم الدِّين هو مدبِّر الأمر وأنَّه حيٌّ ما مات؛ لأنَّه لو مات لم يقم أمر، سمعت ذاك من لفظه: كأنَّه اختفى كما اختفى المنتظر الَّذي للرَّافضة، ويستدلُّ بهذا أنَّ المضاجعة عندهم غير محرَّمة، يفعلها

(١) بياض بمقدار سطر.

البَرُّ والفاجر، وإن تنزَّه عنها ورع من ورعيهم إنَّما يفعل ذلك تنزيهاً لا تحريماً، هذا الَّذي شرحته في حقِّ خيارهم.

وأمَّا شرارهم سمعت منهم من يقول: إنَّ الصُّندوق إذا كان ظاهراً؛ يعني: الصَّدر، فلا يضر الميل إذا كان في الكحلة، وكان يقول ممازحاً وهو جدٌّ في قالب هزل: ومثل هذا الجنس إذا وقع في كفته امرأة أو صبي واقعه فيما دون الفرج وقضى شهوته لا أشك في ذلك، هذا إذا امتنع عليه.

وكم قد أفسدوا من امرأة، وربَّما حبلوها، ورأيت من حبل منهم من الزِّنا، وكم أتلفوا صبيَّاً أخرجوه عن أبويه وحسَّنوا له الفقر، فيتَّخذونه ولداً كما يتَّخذوا في الشَّام الحوار، ثمَّ يعانقوه طول اللَّيل فلحده الاجتماع والمعاشرة والاهتمام بالرَّقص بالغداة والعشي وشغل قلب بعضهم ببعض يمتلئ الصَّبي بذلك، فيغيب عن قلبه ما يجري عليه باللَّيل منهم، فيصبح من فراش أحدهم فيقبِّل يد الشَّيخ ويرقص ويغدو ويدور في الطَّابق فيتوارى عن قلبه مخاذيهم باللَّيل، ويقولون: السَّماع شبلة، نعم شبلة لمآكلتهم ورجوع من شرود إلى شرود.

وحكى لي من لا أتَّهمه أنَّهم كانوا يجتمعون في بيت الرِّجال والنِّساء خلطاء، ثمَّ يقيمون السَّماع فيأخذهم الحال، فيتعرَّى الرِّجال عن جميع ملابسهم لورود الحال، وتبقى عوراتهم بادية وهم بادية، فإذا انطفئ المصباح أخذ كل فقير فقيرة في عناقها إلى الصَّباح، والله أعلم بما كان بعد ذلك، وذلك قبيل أخذ التَّتر بغداد بشؤمهم.

وكان الشَّيخ العارف نجم الدِّين الأصفهاني أعاد الله من بركته يقول: ما أتلف الدِّين كطائفتين الأحمدية في النِّساء، والحريرية في الصِّبيان، أقول أنا: والاتحادية في العقائد [٣٠٢/ب] أيضاً، واليونسية قريبون منهم، وكل هؤلاء أتلفوا الدِّين ووسخوه، وقلبوا حقائقه، وضيَّعوا حدوده، واستهانوا به، أحلُّوا حرامه وبدَّلوا أحكامه، وانتهكوا حرماته - طهَّر الله الأرض منهم وأراح

الأرض من أنجاسهم[١] إنَّه على كلِّ شيء قدير -.

والَّذي أعتقده إن شاء الله أنَّ التَّتر لم يستولي على أهل الإسلام إلَّا بشؤم هؤلاء الطَّوائف وظهورهم وعهده ما هو عليه على شيوخهم الأكابر، كالشَّيخ أحمد الكبير وأمثاله؛ فإنَّهم أوَّل من ابتدع هذه الاجتماعات ولم يضبطوا أصحابهم على تحريم النَّظر وغضِّ الأبصار وتحرير المراقبة والمحاسبة، وكان لهم نصيب من ربِّهم استغنوا به عن تحرير الشَّريعة.

ومع ذلك فهم يقرؤون القرآن قراءة من لم يبلغه عن الله دعوة، ويعظِّمون النَّبي ﷺ تعظيم من لا يعلم بأيِّ شريعة جاء، لا تجاوز قراءتهم حناجرهم، بكم عمي كالبهائم السَّارحة والأنعام الرَّاتعة، ينادون من مكان بعيد، ويرون الشَّريعة من بعيد، يبغضون القائمين بها، وهم للعلماء بغضاء ما عليه مزيد.

فما قولكم معشر العقائد في طفل لم يفتح عينه إلَّا بين هؤلاء، ولم يعرف دين الإسلام إلَّا هكذا، ومن ألطاف الله تعالى بي أن خلق فيَّ غريزة في حال الطُّفولة كنت أعلم بها أنَّ هؤلاء ليسوا على شيء، وأنَّ الحقَّ وراء ما يدعونه، وكنت أتشبَّث برسالة القشيري وكتاب القوت والإحياء، فأعلم باطلهم علماً في القوَّة ولا سبيل إلى ظهوره في الفعل؛ لأنَّ الدَّولة لهم، فلا يمكن ظهور ذلك في الفعل أصلاً.

وأكابر العلماء المحدِّثين كعزِّ الدِّين الفاروقي من أشياعهم وأنصارهم، يحضر مجالس سماعاتهم، وحضرته وأنا طفل مراهق، وقلت: قال النَّبي ﷺ: «**كلُّ محدث بدعة**»[٢]، فكيف حال هذا السَّماع؟! قال: فتشاغل عن جوابي ولم يعجبه ذلك، وكان أنهى ورعه أنَّه كان يكره السَّماع في المسجد، وربَّما

---

(١) كتب في الهامش: (من آثارهم) وعليها إشارة نسخة.
(٢) رواه أبو داود، رقم: (٤٦٠٩) وابن ماجه، رقم: (٤٦).

حضره في المسجد تقية ومداراة، رأيته في مسجد يعمل فيه السَّماع.

فهذا حال مشايخ المحدِّثين العلماء، فكيف يقوم الحقُّ المحمدي والدِّين الفرقاني بين هؤلاء؟! بل كيف يعرف ويعلم فضلاً عن قيامه ونصرته؟! ومعلوم إذا انطاع أهل المدن لمشايخ أكبر الفلَّاحين فسد دينهم وانقلبت أمورهم وإن كانوا أولياء، وذلك لأنَّ قلَّة العقل على أهل البرِّ ظاهرة، وقط لم يبعث الله نبيَّاً من أهل البرِّ ولا من عرب البادية، فإذا انطاع أهل المدن للعلماء صلح أحوالهم، ومتى انطاعوا لفقراء البرِّ فسدت أحوالهم، ثمَّ سرت هذه البدع من الأحمديَّة في سائر طوائف فقراء البطائح ومشايخهم من مؤاخاة [٣٠٣/أ] النِّساء والصِّبيان ومضاجعتهم، ومسك الحيَّات، ونزول النَّار وغير ذلك من المخازي.

فالوفاويَّة عندنا ينزلون النَّار، والبدريَّة عندنا أيضاً يؤاخون المردان، وأنسب الطَّوائف عندنا الحلوبيَّة أصحاب الشَّيخ بن حلوبا، عندهم شيء من التَّمسُّك، لكن غلبتهم طريقة الأحمديَّة من إظهار شعار السَّماع بين الخاص والعام، واجتماع النِّساء على رؤوسهم في السُّطوح يتفرَّجون على رؤوسهم وتهتُّكهم.

فالأحمديَّة كانوا كالجرب جرب بهم النَّاس واقتبسوا من ظلماتهم وقامت دولتهم أي قيام، فكيف يقوم الدِّين مع هذه الظُّلمات؟!

فصل

ثمَّ انتقلت من هذه الطَّبقة إلى طبقة الفقهاء الشَّافعيين؛ لأتعلَّم العلم، فوقعت بين طائفة خير من الطَّائفة الأولى، عندهم علم الحلال والحرام، والحدود والأحكام، وعلم ما يجوز وما لا يجوز، وعلم ما يترتَّب عليه الثَّواب والعقاب، واعتقاد ذلك، وعلمه في تلك الظُّلمات نور وهدى فضلاً

عن العمل به، لكنَّ القوم فيهم الفقه لا غير، وفيهم من يشارك في أصول الفقه واصطلاح بن الخطيب مع تعظيمه وتبجيله، والإقرار بأنَّه الإمام الأعظم وأنَّه ركن من أركان الدِّين، وإذا ذكر قبل الإمام وترضى عنه.

وغالب ما فيهم علم خصومات النَّاس ووقائعهم، فقلوبهم مشحونة بمسائل «التَّنبيه»، و«المهذَّب»، و«الوجيز»، و«الوسيط»، و«شرح الوجيز»، و«الحاوي»، و«اللُّباب» و«العجاب» لعبد الغفار، و«المحرر» للرَّافعي.

لا يوجد عندهم أصول السُّنَّة من علوم الحديث وقواعده، ومعرفة رجاله، وعلم صحيحه من سقيمه، ولا علم معاملة الله بالسُّنَّة، ولا معرفة عندهم بقواعد الاعتقاد من طريق الصَّحابة والسَّلف الأوَّل كالسفيائين والحمادين وابن المبارك، وأحمد وإسحق وأمثالهم، بل قواعد عقائدهم من أصول المتكلِّمين بالعقل والنَّظر والصَّالح الورع فيهم الممسك عن الخوض في العقائد، ويسلِّم أمر ذلك إلى مراد الله، فيؤمن بذلك إيماناً مجملاً، لا تفصيل فيه.

يابسة طباعهم، خالية قلوبهم عن روائح المحبَّة لله والخوف منه والتَّعظيم له، والشَّوق إليه، لا يشمُّ منهم روائح العبوديَّة، ولا الصِّدق في المعاملة والإخلاص فيها، ولا المسارعة إلى أعمال البرِّ بالقصد الصَّحيح وانشراح الصَّدر، متكالبين على الرِّياسة والمعلوم، مزاحمين على المناصب، تخرج نفس أحدهم إذا جلس أحدهم فوق مرتبته [٣٠٣/ب] حتَّى ربَّما يبغض عليه طعامه وشرابه، وربَّما وقع فيه بالغيبة والطَّعن، فهم أوعية فقه وأحكام وخصومات النَّاس لا غير.

إذا جاءت حكومة فرجوا عنها ما ينقلونه من الكتب لإباحتها، ولا تفتيش على أصل هذه المسألة من الحديث، بل إذا وصل الأمر إلى الشَّرح أو إلى نصٍّ فلان، انتهى الأمر عنده، ومع ذلك فوالله لقد استفدت منهم علم ما يجوز وما لا يجوز.

ومن العجائب أنَّني أجد فيهم من يعتقد في تلك الطَّائفة ويروده مع علمه بانحراف طريقهم؛ فاستدلَّ بذلك على أنَّه ليس عنده من النُّور المحمَّدي ما ينكشف به أحوال القوم، فبقيت معهم برهة من الزَّمان محبوساً كالطَّائر في القفص، ولا أشمُّ الهوى إلى من كتب الصُّوفيَّة.

فصل

ثمَّ انتقلت عنهم إلى صحبة مطاوعة البغاددة وفقرائهم، فوجدتهم خيراً من أولئك الأوَّلين بألف طبقة؛ يحرِّمون الحرام، ويحلُّون الحلال، ويتمسَّكون بمعظم مذهب الفقهاء غير أنَّهم أهل دلوق ومرقعات وشراشح رقاع، طراف لطاف، غالب هممهم في الشَّهوات من طيب الطَّعام، وحسن اللِّباس، وهندام الثِّياب، ومنادمة الأغنياء ومصادقتهم ومباسطتهم، والتَّواضع الزَّائد لهم، والمزح معهم، واستجلاب رفقتهم وفتوحهم، غالب حديثهم في نهارهم الخلاعة والبسيط والتَّرنُّم بالأنغام والقصائد والتَّطايب عليها.

فإذا رقصوا فلهم في رقصهم هيئة ظريفة من التَّوقيع على الموسيقى، مثل: أن يرفع رجلاً ويحط أخرى، ومثل: أن ينحدبوا وينطوا نطاً على ذلك الانحداب راكعين، ليس في قلوبهم شيء من الأذواق، ولا يظهر عليهم ذبول العبوديَّة ولا سيَّما الخوف، ولا حرقة المحبَّة، ولا جمع الهمِّ على العبادة بالقصد الصَّحيح، ولا يوجد منهم روائح الطَّلب، ولا يسمع منهم قواعد السير والسُّلوك والوصول، وقطع عقبات النَّفس، ووجدان الأذواق من الطَّوالع والتَّوارق واللَّوائح، ولا يرى عليهم ذبول الخوف ولا سيَّما المحبَّة، اللَّهمَّ إلَّا في السَّماع ربَّما رقُّوا وخشعوا.

فإذا خرجوا عن السَّماع عادوا إلى تلك العوائد النَّفسانيَّة والأوضاع

الاصطلاحيَّة، لكنَّهم أهل تآلف وتوادد، وتواصل وتراحم، وخلق وإيثار، بل غالب ما هم عليه هو ما يظهر منهم من الأخلاق والخلاعة والترسم بظاهر الدِّين [٣٠٤/أ].

وفيهم من له ورد باللَّيل وصيام وحجٌّ، بل غالب مجاهدتهم المجاورة بمكَّة، فمن جاور سنة انتهى سيره في سلوكه العادات عليهم غالبة، ونفوسهم عن الحقائق محجوبة، لم أر فيهم ناقداً قطُّ ولا طالباً، ولا من يشير إلى طلب الوصول أصلاً، هذا فنٌّ قد مات عندهم، وليس الفقير عندهم إلَّا من مدَّ كسيرة، أو يكرم الإخوان بالضِّيافة، أو يفتح الطَّابق بالسَّماع، فترقُّ القلوب له فيضيف النَّاس برقَّة القلوب، هذا أعز أحوالهم وأعلى، وانتهى الأمر عند ذلك، يعظِّمون المشايخ لا كتعظيم أولئك، بل فيهم شعبة منهم يكشفون رؤوسهم عند قبَّة ابن ادريس من الصَّحراء، ويقبِّلون عتبة بابه، فعلت ذلك معهم وأنا شاب، إلَّا أنَّهم لا يقعون في تلك المناجس.

وربَّما عشق أحد منهم أمرداً على معرفة منه أنَّ ذلك باطل لا يجوز، وإذا رأوا صاحب عبادة وورع لا يتكايس معهم، ولا يحضر السَّماع ولا يطيب فيه؛ قالوا: هذا يابس ثقيل، فعاشرتهم مدَّة، فلم يعجبني حالهم، وعرفت بغريزتي أنَّ الأمر فوق ذلك، ولا أشم الهوى إلَّا من كتب الصُّوفيَّة.

فصل

فألقى الله تعالى في قلبي معرفته وقربه، وهام قلبي بذلك، ولا أعلم حقيقة ما وقع بقلبي، ولا أجد من يدلَّني على مطلبي، ولا من يوقعني على دوائي، ولا من يعرِّفني ما هذا الهيمان الَّذي وقع بي، فبقيت متحيِّراً والهاً، لا أجد القرار، وصدري يضيق من جميع الطَّوائف الَّتي صحبتها وعاشرتها، وذلك في

سنة ثلاث وثمانين وستمئة أو قريباً منها.

فهاجرت إلى بلاد الشَّام ومصر، فوجدت بها طوائف مثل الطَّوائف الَّذين شرحت أحوالهم من الفقهاء والفقراء والمطاوعة سواء بسواء، ومع ذلك أجد أهل سيما حسن وعبادة، يسيرون إلى صيام الدَّهر والعبادة، ولا شعور عندهم بالطَّلب ولا المطلوب، ولا السير ولا السُّلوك، عباد صرف أو فقهاء صرف أو مطاوعة صرف، لا أجد من يشير إلى المطلب ولا من يعبِّر عنه.

فلطف الله تعالى بي، فوقعت في الإسكندريَّة بطائفة عرفوا مقصدي ومطلبي، فأنست بهم بعض الأنس، شهد قلبي بأنَّ معهم شيئاً صحيحاً؛ فإنِّي وجدتهم يشيرون إلى معرفة الذَّات والصِّفات والعبوديَّة لله تعالى وطريق ذلك، وبأيِّ وجه يحصل ذلك، ويشيرون إلى محبَّة الله [٣٠٤/ب] تعالى، وإتِّباع أمره واجتناب نهيه، والرِّضاء بقضائه وقدره، والانجذاب بالهمَّة إليه، وشممت من أنفاسهم أنَّ هناك قوم خصُّوا بالمحبَّة والاصطفاء، والتَّخصيص والتَّولية، دخلوا في حضرات الأسماء وتحقَّقوا بشيء منها، وأعطوا حقيقة اسم أو صفة عرفوا الله ﷻ به، فهاموا بحبِّه وانقادوا لإرادته، وصارت بذلك إرادتهم تبعاً لإرادة ربِّهم.

ثمَّ كشف لهم عن شيء من سبحات العظمة والجلال والبهاء، والكمال والبقاء الأزلي والجمال، فلزم قلوبهم من ذلك الكشف هيماناً واحتراقاً، فهم يراقبون مشيئاته ويرضون بها ويراعون أوامره ويقومون بها، وأرواحهم مختطفة بأشعَّة عظمته وكبريائه والهة بقربه، وأعضاؤهم ومفاصلهم ممتلئة من أنواره المخزونة من أنوار جلاله وعظمته.

وفيهم من له مكالمة ومحادثة وتعريفات من ربِّه، يعرفه بها في اليقظة والمنام، وفيهم من له هاتف وتعريف من الإلهام، ووجدتهم أشد النَّاس تعظيماً للشَّريعة والأوامر والنَّواهي، زاهدين في الدُّنيا، راغبين في الآخرة،

محبِّين لله، والهين بقربه، قد رفضوا كلَّ شيء سواه، فلمَّا خلت قلوبهم من غيره؛ امتلأت من حبِّه.

ومن كشف أسمائه وصفاته وعظمته وقدس ذاته يرى أحدهم تدبيره واختياره من أكبر الذُّنوب، فهو فرح مستبشر بحسن اختيار ربِّه، مطمئنٌّ إليه، ساكن إلى ما ذكره به ربه في أزله على وفق حكمته ورحمته حتَّى كأن أحدهم مع ربِّه يراه عياناً بقلبه ويشرق على وجهه آثار جلاله ومحبَّته وتعظيمه، والانقياد لحكمه.

ووجدت آثار ذلك فيهم وفي حركاتهم وسكناتهم وتقلُّباتهم، فوالله لقد فرحت بهم فرحاً شديداً، وسكن قلبي إليهم وإلى طريقهم بعض السُّكون؛ لأنِّي رأيت معهم شيئاً هو غاية الغايات ومنتهى الطَّلبات، ثمَّ إنِّي فتَّشت على أساس هذه الذُّروة الَّتي عندهم، على أيِّ أساس قام من العقائد والأصول؛ فوجدت القوم لا شعور لهم بالسُّنَّة ولا الأيَّام النَّبويَّة، ولا السِّير الصَّحابيَّة، ولا الأخلاق الدِّينيَّة، ووجدتهم يعتقدون شيئاً من التَّجهُّم، إلَّا أنِّي لم أجدهم يصرِّحون بالتَّعطيل، بل ميلهم إلى الوقوف، ولا أشك أنَّهم ينكرون بعض الصِّفات أو يقفون فيها كما هو مذهب المتكلِّمين، ومن ذلك وجدت عليهم كسفة وفي لمحات وجوههم سعفة.

ووجدت هذه الأحوال المذكورة عندهم قد اقتبسوها [٣٠٥/أ] من شيوخهم، فهم لا يذكرون إلَّا شيوخهم، لا يستندون فيها إلى الحديث، وإن لم تخالفه، لكن مادتهم من أنفاس شيوخهم، وشيوخهم قبل قلوبهم إليهم يتوجَّهون في أحوالهم، وعلى كشفهم يعوِّلون، ولا يعرفون ربَّهم إلَّا من حيث قدمه وأزليَّته حيث كان ولا شيء معه، ولا يشيرون إلى كشوف القرآن ولا إلى تجلِّيات الصِّفات في تلاوته، لكن مع ذلك وجدت معهم شيئاً وأي شيء كما قيل:

على مثل ليلى يقتل المرء نفسه ... وإن كان من ليلى على الهجر طاويا

فحصَّلت بتوفيق الله تعالى ما حصَّلت من فوائدهم وبركة صحبتهم ضمن ما حصَّلته من فوائد الفقهاء اليابسين من معرفة ما يجوز وما لا يجوز، فصار ذلك كالقالب الجسمي وهذا كالرُّوح، لكنَّ كليهما يابسان: فقه يابس عن رطوبة الحديث ومقابلة النَّبي ﷺ في الأحكام والأخلاق، وحال يابس عن مقابلة الرَّسول ﷺ، فقه مقابل لأئمَّة الفقه، وحال مقابل لأئمَّة التَّصوُّف، والرَّسول ﷺ له السكة والخطبة والحكم والتَّوجُّه إلى غيره، فبقيت كالعايز الّذي حصل له أوَّل الدَّرجات، ولاحت له أعلاها، وهو عايز ما بينهما من الدرج، فقنعت بذلك في الحالة الزَّاهية، وتغذَّى قلبي بذلك من جوعه، فإنَّ الجائع يتغذَّى مهما كان قوتاً.

فصل

فوقعت بعد ذلك بين طوائف صوفيَّة الرِّسم في الربط، فوجدت قوماً أهل سيما ظاهرة وسجادات وهيئة وأشكال، وذقون مسرَّحة، وشيء من الأنوار لائحة، فصحبتهم فوجدتهم يشيرون إلى الذِّكر والخلوة، وتناول المعلوم، والاشتغال بالعبادة، لكنَّني وجدت قلوبهم مشحونة بحركات إخوانهم لا يطرف بعضهم إنكاراً وتطلُّعاً وحسداً وغيبة، يقولون: خرج فلان، دخل فلان، رأيته يتحدَّث في السُّوق مع فلان، فتوجَّه كذا فلان له معلوم كذا، بحيث لا يخلو قلب من يصحبهم عن حركاتهم إلَّا نادراً، ومع ذلك فربَّانيَّة الرسوم في صدورهم يعبدونها، قد استعبدتهم وملكتهم، لا تخلص لهم فريضة لله.

مثاله: يتوضَّأ أحدهم حتَّى يصلِّي لله الفريضة وهو مع ذلك ملتفت إلى الخدام إن تأخر عن الصَّلاة مع الجماعة في الرباط أن يتكلَّموا فيه، وإن دام ذلك التَّخلُّف منه يوماً أو يومين خاف أن يقطعوا معلومه، وكذلك يخاف

أحدهم إن فاته وظيفة العصر معهم أو وظيفة يوم الجمعة أن يتكلَّموا فيه، ولو تأخَّر عن ذلك أيَّاماً قطعوا معلومه وأخرجوه من بينهم فقط لا تخلص عبادتهم [٣٠٥/ ب] لله؟.

وكيف تخلص عبادة من يخاف غير الله أو يعمل عملاً لغير الله، وإن كان لله فهو مشوب بالنَّظر إلى غير الله، يخاف أحدهم بينهم من ربِّه ثيابه أو وسخه أن يمقتوه أو يخرجوه من بينهم، ولذا لا يقدر بينهم أنم يلبس عباءة مخطَّطة إلَّا سوداً أو بيضاً، فيخاف أحدهم أن يخرج عن هيئتهم؛ إذ لو خرج عنها لقطعوا معلومه.

وفيهم شيء من طبيعة التَّتر؛ كلُّ من قام بالرَّسم قبلوه اتِّحاديَّاً كان أو زنديقاً، لا يعترضون عليه، ولذلك دائماً يكون عندهم الصدريَّة والعربيَّة مع علمهم بانحرافهم، كذلك التَّتر كل من قام بالطَّاعة قبلوه يهوديَّاً كان أو نصرانيَّاً، ويرون القيام بذمِّ البدع فضولاً ليس من وظيفة الصُّوفيِّ ذلك، بل وظيفته السُّكوت والقيام بالرَّسم وتناول المعلوم إذا قام بذلك حصل المقصود.

يعظِّمون بينهم ذا الهيئة من صاحب المزدوجة الكبيرة والأكمام الواسع، والذَّقن الطَّويلة، خصوصاً إذا كانت بيضاء كان هو المشار إليه بينهم فوجدت قطعاً لا يقدر العبد على عبادة الله وحده لا شريك له بينهم، ولا يجد بينهم لذة الطَّاعة ولا الامتلاء من الذِّكر ولا استيلاء ربَّانيَّة الحقِّ على القلوب ولا وجود ذوق خالص العبوديَّة، ووجدتهم في ظلمة وعما لهم صورة بين العالم، وقلوبهم مغمورة برسم العبادة وشيء يسير من الحقائق مخلوط بأمثاله من ربَّانيَّة المخلوقين وأوضاعهم.

فاسترحت بينهم من وجه، ولم أسترح من وجه آخر، فالرَّاحة بينهم بسبب الجمعيَّة لصفاء التَّطرُّقات، ذلك إنَّما يكون بالكفاية والقطع عن الشَّواغل وذلك موجود بينهم، فلمَّا صفا العقل والفكر وأبصر الإنسان ما بين يديه وأراد أن يعبد الله بكمال العبادة وجد نفسه مقيَّادً بينهم عن النُّفوذ.

فصل

واعترضني في الرَّبط قوم يشيرون إلى المحبَّة والتَّوحيد، ويشيرون إليه ويقولون: فلان موحِّد، وفلان ما شمَّ من التَّوحيد شيئاً، ويعظِّمون شأن توحيدهم ويقولون: من يصل إليه، ويذكرون شيوخهم كابن عربي والصَّدر القونوي، فبقيت مدَّة أفتش على التَّوحيد الَّذي يشيرون، فوجدت حاصل توحيدهم أنَّهم يجعلون الحق تعالى هو الوجود المطلق السَّاري في جميع الأكوان، وأنَّه حقيقة الأعيان من الحيوان والجماد.

ويزعمون أنَّ من وصل إلى ذلك شهد الكل في الكلِّ، فهم قوم يقولون الله، والله عندهم هو الوجود [٣٠٦/أ] الَّذي هو ضدُّ العدم الَّذي سرى في كلِّ شيء، فوجدت على ما يزعمونه أنَّ إلههم الَّذي هو الوجود سارٍ في الكلاب ساوَ الخنازير والفئران والخنافس تعالى الله البائن بذلته وصفاته عن جميع مخلوقاته أن يكون بهذه المثابة.

فإنَّهم لا يقولون وجوداً قديماً ووجوداً حادثاً، بل الوجود عندهم وجود واحد سار في كلِّ شيء، والعبد عندهم لا وجود له، إنَّما الوجود الَّذي هو الحق، والحقُّ هو الوجود فيه، والعبد كالمظهر له، ظهر الوجود بواسطته؛ إذ لولاه لم يظهر الوجود، ولولا الوجود لم يظهر هو، وحقيقة معتقدهم أنَّ الباري تعالى ليس شيئاً منفصلاً عن الخلق فوق العرش، بل عندهم الحقُّ شيء ظهر في السَّماوات والأرض وفي كلِّ شيء ظهر فيه بذاته هو مطلق تقيَّد في هذا وفي هذا، والمجموع شيء واحد.

فالوجود الَّذي قام بالإنسان والكلب والنَّبي وبالملك والسُّلطان هو وجود واحد عندهم، وهو الحقُّ تعالى، ليس الحق شيء زائد على مطلق الوجود هو

بعينه الوجود المطلق الَّذي تقيَّد بالإنسان والحيوان والنَّبات والجماد، والكلاب والحمير، والبقر، والذِّئاب والحيَّات والعقارب؛ فمثاله عندهم كالحرارة المطلقة الَّتي تقيَّدت بالأشياء الحارَّة في كلِّ حار على اختلاف أجناسها وأشكالها وأنواعها هذا حار وهذا حار، فالحرارة شيء واحد مطلقة فتقيَّدت بعين هذا الحار، وكذلك عندهم الحقُّ تعالى وحده مطلقة تقيَّدت الوحدة بهذا الموجود وبهذا الموجود، رفيعاً كان أو خسيساً.

فلمَّا رأيتهم بهذه المثابة نفر قلبي منهم نفوراً شديداً، ولم أكن أقدر على تفصيل معتقدهم، لكنِّي أسمع شيئاً أكرهه ولا أحبُّه بفطرتي، فإنِّي وجدتهم منحلِّين في باب الحلال والحرام والحدود، وربَّما قيل لي عن رجل منهم: إنَّه يبقى جنباً أيَّاماً، وربما صلى بنا أياماً، وإذا قصدوا ملكاً أو صاحب ولاية يخاطبونه ويتضرَّعون إليه كما يتضرَّعون إلى الله؛ فإنَّه عندهم هو مظهر وجوده، وإنَّما يخاطبون الوجود فيه، وكان من شيوخهم من يقول الشجاعي، وكان نائب السَّلطنة، معروفاً بالظُّلم والاعتداء، يقول له: أنت اسم الله الأعظم، وأمثال ذلك.

ثمَّ الأمرد الجميل عندهم في رتبة عالية من المظاهر الجماليَّة الإلهيَّة، والسَّماع عندهم أشهى شيء محرك بواعثهم، ويثور فيه معارف الوجود المطلق ويتكلَّمون على مراتب الأنبياء كأنَّهم من فوقهم، [٣٠٦/ب] والشَّريعة عندهم سياج طام لصلاح العالم، وإلَّا فمن العابد ومن المعبود، الأمر عندهم كما قال قائلهم: ما الأمر ما لا نسق واحد ما فيه من مدح ولا ذم، وإنَّما العدة قد خصصت والطَّبع والشَّارع بالحكم.

ووجدت بعد ذلك كتاب «الفصوص» لابن عربي دالَّاً على هذا المذهب الخبيث في تفصيله بعبارات متنوِّعة، يقول ما ثمَّ غيره، ثمَّ يقول: فاختلط الأمر وانبهم، ويقول: فليعبدني وأعبده، ويحمدني وأحمده، وأمثال ذلك، فتفصل بذلك مذهبهم وعرفت به حقيقة مقاصدهم، فتعبت بهم دهراً طويلاً.

فصل

ثمَّ فتَّشت الحاصل الَّذي حصل لي من مجموع الطَّوائف فلم أجدني انتفعت إلَّا بطائفتين كما سبق بالفقهاء من معرفة ما يحلُّ وما يحرم، وأنَّ الطَّاعة موجبة للثَّواب، والمعصية الموجبة للعقاب، واعتقدت ذلك عقيدة، وذلك خير كثير، وانتفعت بطائفة الصُّوفيَّة الإسكندرانيين، عرفت بهم المطلوب، وصفة الصِّديقين والواصلين والمحبِّين والمحبوبين، وأحكام العبوديَّة وصفات المتوكِّلين والرَّاضين والزَّاهدين والمصطلمين، وذلك أيضاً خير كثير.

ووجدت نفسي كماسبق ذكره قد حصل لها الدَّرجة الأولى والعليا، وهي عايزة ما بينهما من قواعد الدِّين وأصوله، وتفاصيل الشَّريعة من الكتاب والسُّنَّة، وأجد جميع ذلك العلم الظَّاهر والحال الباطن من الله ورسوله في كتابه وسنَّة نبيِّه ﷺ.

فصل

فلم أزل في هذا العوز حتَّى لطف الله تعالى بي واجتمعت بطائفة بدمشق منَّ الله تعالى عليَّ بهم، فوجدتهم عارفين بأيَّام النُّبوَّة والسير الصَّحابيَّة، ومعاني التَّنزيل، وأصول العقائد المستخرجة من الكتاب والسُّنَّة، عارفين بأذواق السَّالكين وبداياتهم وتفاصيل أحوالهم، يرونها من كمال الدِّين، لا يتمُّ الدِّين إلَّا بها، ولا تشبه أنفاسهم أنفاس أهل العصر من فقهائهم وصوفيَّتهم، وما شبهت أنفاسهم إلَّا بأنفاس القرن الأوَّل والثَّاني والثَّالث في عصرالصَّحابة والتَّابعين وتابعيهم.

وكأنِّي باجتماعهم ورؤيتهم وجدت أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، ووجدت التَّابعين كسعيد بن المسيب والحسن البصري، والرَّبيع بن خيثم، وثابت البناني وأمثالهم، وكأنِّي وجدت برؤيتهم مالك والشَّافعي والسفيانين والحمادين وابن المبارك وإسحاق، وأحمد بن حنبل وأقرانهم ونظرائهم، فإنِّي وجدتهم عارفين بحقائق العلم الَّذي أنزل من السَّماء على محمَّد ﷺ، مسارعين [٣٠٧/أ] إلى إقامة أوامر الله تعالى كمسارعة أصحاب رسول الله ﷺ، معظِّمين للدِّين، مهتمِّين بإقامته وإظهار شرائعه وشعائره، حنفين على من هتك حدود الدين أو انتقص شريعة من شرائعه، اعتقاداً أو عملاً، وليست أصولهم أصول المتكلِّمين، بل أصول عقائدهم على الآيات والأخبار الصَّحيحة، وأمرُّوا الصِّفات كما جاءت بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه، وأثبتوا حقائقها لله كما يليق به من الاستواء والنُّزول، وجميع الصِّفات.

وظهر لهم مع ذلك معارف صحيحة وأنوار ظاهرة من معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته القائمة بذاته، ذوقاً وحالاً مع العلم والنَّظر، ووجدت آثارها في قلوبهم عند صلاتهم وأذكارهم ودعوتهم إلى الله تعالى، يعرفون ربَّهم من فوقهم، ويعبدونه كما وردت به النُّصوص الدَّالَّة على أنَّه فوق العرش بذاته وصفاته بفوقيَّة تليق بجلاله وعظمته، لا يجعلونه محصوراً في الفوقيَّة، بل كان ولا شيء معه قبل خلق العرش والأكوان، فلم يكن هناك في الفردانيَّة شيء غيره فيقال هو فوقه.

فلمَّا أحدثت الأكوان حدثت في جهة التَّحت بالنِّسبة إلى علوِّه الذَّاتي؛ فإنَّه سبحانه بالذَّات على كلِّ شيء، ولا يجوز أن يكون سبحانه تحت الأكوان لا ممتزجاً عنها بل بائناً عنها، وليس تحتها، لزم بالضَّرورة أن يكون فوقها.

ثمَّ من صفاتهم يبذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله تعالى وإقامة الدِّين، يعرفون قدر الدِّين وقدر أهله، وحملته والقائمين به؛ لأنَّهم أهله وأنصار السُّنَّة

والحديث، وأعوان الرَّسول ﷺ وأعوان دينه، وأركان شريعته، يوالون من والاها، ويعادون من عاداها، مستعملين مكارم الأخلاق من الرَّحمة والتَّودُّد، والإنصاف والصِّدق، والبذل والمواساة، والحلم والصَّبر وكظم الغيظ، والرَّحمة للخلق، وإغاثة المضطرِّ، وإغاثة الملهوف، والشِّدَّة على الجبابرة، والكيفيَّة الحادَّة على الفراعنة.

لا يخافون في الله لومة لائم في أغلب أمورهم، يحبُّون في الله ويبغضون فيه، ويعدلون في الحكم، وينصفون في الوزن، ولا يبخسون أحد بشرٍّ ظهر منه، بل يزنون خيره وشرِّه ويوفُّونه مرتبته، أذلَّة على المؤمنين، أعزَّة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله [٣٠٧/ب] ولا يخافون لومة لائم، صبر عند اللقاء، يتعافُون عن الزلَّة في حقوق أنفسهم، لا في حقوق الله.

ليسوا بفظاظ ولا غلاظ ولا صخابين في الأسواق، بل يعفون ويصفحون ويحلمون، ويكافؤون بالحسنة من أساء إليهم، يحيون السُّنن ويميتون البدع ويمحقونها، أهل حضور في الصَّلاة، خاشعين فيها لله، يعرفون لمن يصلُّون ولمن يعبدون، إذا ذكروا في الصَّلاة صغر عندهم ما سوى الله وما سوى أمره في قلوبهم، يتلون كتاب الله ويتدبَّرونه، أهل الفناء في أمر الله، أفنوا ذواتهم في طاعته ورضوا بأقداره وأقضيته الرَّسول ﷺ نصب أعينهم، كلَّما حدثت حادثة شخصوا ببصر بصائرهم نحوه؛ فيستمعون من سنَّته ما يؤدِّيه عن ربِّه فيعملون بذلك، ينفذون أحكامه وقضاياه.

قد بذلوا نفوسهم لنفع المتعدِّي في مصالح الإسلام وأهله وإصلاح ما فسد من أديانهم في عقائدهم وأعمالهم وأحوال قلوبهم، ورثة الأنبياء، مصابيح الدِّين، غيظ المنافقين، فرح المؤمنين، غبطة النَّبيِّين، بهجة الصَّادقين، قدوة الصَّالحين، أئمَّة المقتفين نور أهل الأرض وسرجها، بهم عرف الدِّين وحقائقه، وعرف السَّلف وطرائقهم، كأنَّهم قد صحبوا الصَّحابة، فما أشبه

بسمتهم وذلهم بذلهم، والَّذي أعتقد فيهم أنَّهم لا يعجزون عن شأن الصُّوفيَّة الَّذين وجدتهم بالإسكندريَّة في حقائقهم وأحوالهم، لكن شغلهم عن ذلك الاصطلام والاهتمام بمصالح الدِّين والإسلام، هذا وإن كان أولئك أصحابي شغلاً عظيماً بربِّهم قد هامت به قلوبهم بهتة وتعظيماً وإجلالاً.

لكن من هو في إقامة الدِّين وإظهار شرائعه وشعائره لا يليق به أن يصطلم اصطلام أولئك الَّذين لم يبق لهم متسع إلَّا خالقهم، ولو تفرَّغوا عن الاشتغال لتفرغهم لم يعجزوا عن مقامهم، ولم يقصروا عنهم إن شاء الله، لكنَّ الشُّغل بجزئيَّات الشَّريعة وإقامتها مع انصراف الهمِّ الشَّديد إليها يوجب أن يبقى عند المقيم لها والمهتمِّ بها بقيَّة من طبعه ونفسه وبشريَّته ليقابل النُّفوس بها؛ لأنَّ من قابل شيئاً اقتضى أن يكون بينه وبينها نسبة، ولولا النِّسبة الَّتي بين الأنبياء والعالم لم ينتفع بهم أحد؛ إذ لو واجهوهم بما هم به من قرب الله تعالى لم يقدر العامَّة أن تفهم عنهم شيئاً، لكن جعل الله تعالى بينهم قدراً مشتركاً ليحصل بذلك الانتفاع منهم، فكذلك هؤلاء لا يصلح لهم تذويب النُّفوس بالأصالة؛ لأنَّهم يحتاجون إلى قوَّة [٣٠٨/أ] غضبيَّة يقيمون الحقَّ بها أو حالة طبيعيَّة يمازجون أهل الطِّباع بها ليستوي بواسطة تلك الممازجة أمر الله ودينه إليهم.

وربَّما يورد بعض محبِّي مشايخنا، ويقول: أنت ذكرت عن شيوخنا أنَّهم عارفين، وذكرت عن أولئك أنَّهم عارفين أيضاً فاشترك الجميع في المعرفة، فما وجه الخصوصيَّة الَّتي لأولئك وليست لمشايخنا؟.

فنقول: تلك الخصوصيَّة هي أنَّ لهم كيفيَّة حادة يؤثِّرون في الطَّالب بمجرَّد الرُّؤية وسماع الكلام محبَّة الله والانجذاب إليه، والإرادة له، ونسيان ما سواه، وهذه خصوصيَّة لهم، ليست لغيرهم.

وجه ثاني: وهو أنَّهم إذا رأوا ذكر الله ووصل نوره بحدة وقوَّة إلى قلب

الرَّائي ومشايخنا إذا رأوا ذكر الدِّين والسُّنَّة والشَّريعة فأولئك اندرجت الشَّريعة في حالهم اندراجاً لظهورهم بكيفيَّة المعرفة، وهؤلاء اندرجت المعرفة في حالهم اندراجاً لظهورهم بكيفيَّة الشَّريعة، ومجموع هؤلاء العلماء أفضل من انفراد أولئك بتلك الخصوصيَّة لاحتوائهم على الأصول الصَّحيحة والفروع، بل تلك الخصوصيَّة بلا هذه الأصول لا تستقرُّ ولا تثبت.

والَّذي حقَّقته أنَّ دين هؤلاء أقوى وأثبت وأمكن في الأصول والفروع، وقلوبهم أنور؛ لأنَّها منوَّرة بالكتاب وفهمه، وبالسُّنَّة ونورها، ومن ذلك اقتبست عقائدها ومشاهدها وعلومها وأحوالها، وهم أقوم في الدِّين من كلِّ من رأيته في عصري هذا في رأس السَّبع مئة من الهجرة النَّبويَّة وأتبع لسنَّة رسول الله ﷺ من كلِّ أحد؛ فإنَّهم يمشون على حذوه وطريقته كأنَّهم من أصحابه الَّذين رأوه وشاهدوه وشاهدوا أيَّامه ووقائعه ومغازيه، فهم يحرصون على حذو طريقه وآثاره.

وهم أشبه النَّاس بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأتبع النَّاس في هذا الزَّمان لهما، وأولئك الصُّوفيَّة وجدتهم أحد قلوباً وأقوى اصطلاماً، وأشد اشتياقاً، وأعظم بالله وجداً، وأتم زهداً وفراغاً عن ما يشغل القلوب عن الله؛ فإنَّهم أفنوا نفوسهم في الطَّلب، فقوبلوا بالأمر الكلِّيِّ، وهو حال له مدة وصوله، ليس كحال غيرهم، فإنَّما حال غيرهم أنوار مع انشراح الصُّدور بالله وبدينه، وأحوال أولئك مطالعات خاصَّة حادة، موجبة لجذب الأرواح إلى موطن القرب بتقرُّب خاص ليس لغيرهم، كما أن هو أعظم بأمر الله [٣٠٨/ ب] علماً وعملاً، وذلك أيضاً من تعظيمهم لله تعالى والوجد.

لكن لكلِّ قوم خصوصيَّة لا تجهل، ولا يظلمون بطرحها في مقابلة فضل غيرهم، ولذلك أولئك الصُّوفيَّة أقوم على سياسة الطَّبيعة وتصفيتها من أخلاقها، وأقوم على الخواطر وذمها؛ فإنِّي كما شاهدته - والله أعلم بحقيقة

ذلك منهم - وذلك أنِّي شبهتهم بالملائكة في حضرة الله تعالى الحافِّين بعرشة، فإن لم يشبهوهم من كلٍّ وجه ولا تعجب؛ فإنَّ قلوبهم بين عساكر الأولياء حول العرش، فانقلبت طباعهم في أغلب أحوالهم عن البشر إلى الملائكة، وهذه خصوصيَّة لهم لا تنكر، ولا يقدر غيرهم أن يقوم بها؛ فإنَّ نفوسهم فانية، وأرواحهم متعلِّقة طائرة، وأبدانهم نحلة بالية، وأكبادهم مشتاقة محترقة، قد ملكهم الوجد بالله، واستولى ذلك على أعضائهم ومفاصلهم؛ فأعضاؤهم ومفاصلهم ممتلئة بحبِّ الله، محشوَّة بأنوار قربه، يلوح عليهم بهجة المحبَّة وسيماء المعرفة، وعرف الوجدان كما قيل[1]:

أشمُّ منك نسيماً لست أعرفه ... أظنُّ ميه جرت قيد أردانا

وهؤلاء شيوخنا شبهتهم بخلفاء الرُّسل؛ حيث شبَّهت أولئك بالملائكة فشبَّهتهم بورثة الأنبياء، بل فيهم نسبة من الأنبياء لقيامهم بدين الله تعالى ونصرته والذَّبِّ عنه باللِّسان والقلم والجنان والحرص على إقامته؛ حيث ارتضاه الله تعالى لنفسه، وهذه خصوصيَّة لهم لا تنكر ولا يقدر غيرهم من أولئك الصُّوفيَّة على القيام بها، مثال الخصوصيَّة الَّتي عند الصُّوفيَّة وليست عند غيرهم، كمن يريد كيفيَّة مذهب مالك وتفصيله، فإنَّه لا يجد ذلك إلَّا عند أصحاب مالك.

ولو طلب الطَّالب ذلك من شيوخنا لوجد عندهم مذهب مالك معروفاً بلا تلك الكيفيَّة، بل هو عندهم ضمناً وتبعاً، والطَّلب لا يغنيه إلَّا الكيفيَّة، فكذلك طالب حقائق التَّصوُّف لا يجد تلك الكيفيَّة إلَّا عند أهلها، ويجدها عند شيوخنا الفقهاء مفرقاً ضمناً وتبعاً لعلمهم، والكيفيَّة الصُّوفيَّة إذا حصلت لا تغني بغير قواعد شيوخنا؛ لأنَّها أصول لها تحفظها، وإلَّا فتبقى تلك الكيفيَّة

(١) انظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٥/ ١٥٤).

مقطوعة لا أساس لها.

فالحمد لله الَّذي تمَّ لي رحلتي وجمع لي مطلبي في لقاء من يكمل به ديني وعلم طريقي وحالي.

وجدت أوَّلاً من عبر عن الحلال والحرام، ثمَّ من عبر عن حقائق المطلوب وهبة الوصول، [٣٠٩/أ] ثمَّ من عبر عن الأصول الشَّرعيَّة الَّتي هي أصول العقائد والأعمال، والمشاهد والأحوال، فأرجو من كرم الله تعالى أن يوفِّقني لسلوك طريقة هؤلاء العلماء في أصول ديني وعقائده وأعماله وأحواله، وأن يحقِّقني بحقائق إخواني الصُّوفيَّة من التَّحقُّق بحقائق القرب ومراتب الوصول، والخطوة بالمحبوبيَّة والاختصاص والاصطناع والتولة، وإلى الله أرغب أن يحشرني على هذا العلم والاعتقاد والعمل متَّصلاً بهذا الحال الصُّوفيِّ، فيكون صاحبه ممَّن تمَّ حاله وكمل، وأن يعيذني من صحبة أولئك الأولين في الدُّنيا والآخرة، وإيَّاه أسأل أن يهديهم أجمعين، ويخرجهم عن سبيل العمين إلى سبيل الَّذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، وأن يعفو عنَّا أجمعين.

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدِّين(١).

لفاطمة الزَّهراء رضي الله عنها(٢):

ماذا على من شمَّ تربة أحمد أن لا يشم مدى الزَّمان غواليا

---

(١) وهذا آخر ما وجد من كلام الشَّيخ عماد الدِّين رحمه الله تعالى ورضي عنه، ووافق الفراغ من ذلك آخر يوم الثُّلاثاء الخامس من شهر ربيع الأوَّل سنة خمس وثمانمئة بطرابلس المحروسة على يد أفقر خلق الله تعالى إلى عفوه ورحمته محمَّد بن عبد الرَّحمن الدِّمشقي، حامداً لله تعالى ومصلِّياً على نبيِّه محمَّد وآله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ١٣٤).

صبَّت عليَّ مصائب لو أنَّها ... صبَّت على الأيَّام عدن لياليا

ولذي النُّون المصري رضي الله عنه[١]:

وما من كاتب إلَّا سيبلى ... ويبقي الدَّهر ما كتبت يداه

فلا تكتب بكفِّك غير شيء ... يسرُّك في القيامة أن تراه

(١) انظر: سلاح المؤمن في الدعاء لابن الإمام (ص٥٢٥).

فهرس الموضوعات